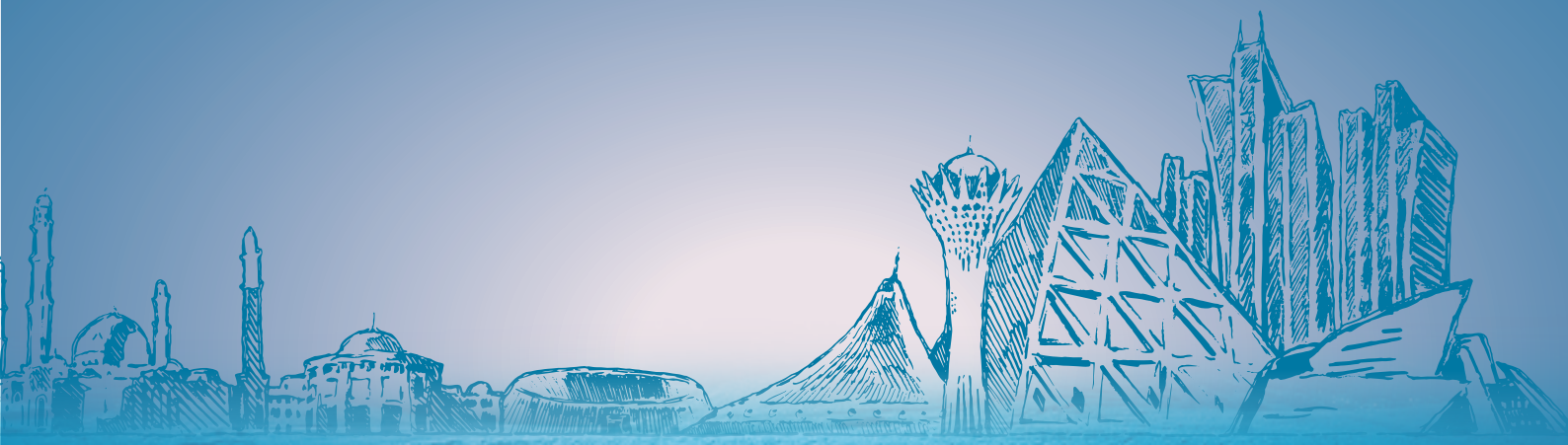


مُختارات مِنَ
القِصَصِ الكازاخِيَّةِ المُعاصِرة

RÝHANI
JAŃǴYRÝ

برنامج

(الثقافة الكازاخية المعاصرة فى عصر العولمة)

الذي يتم تنفيذه بمبادرة من فخامة/

نورسلطان نزاربايف الرئيس الأول

والمؤسس لجمهورية كازاخستان

فى إطار البرنامج الوطني "تحديث الوعي"

مختارات
من القصص الكازاخية
المعاصرة

{ إذا أردنا أن نصبح أمة متميزة على الخريطة العالمية في القرن الحادي والعشرين، يجب علينا أن ننفذ برنامج (**الثقافة الكازاخية المعاصرة في عصر العولمة**). وهنا يدور الحديث حول أن العالم يجب أن تتعرف شعوب العالم علينا، ليس فقط من خلال مواردنا النفطية ومبادراتنا في السياسة الخارجية المتواصلة، ولكن أيضاً من خلال انجازاتنا الثقافية.
لذلك، علينا أن نتبع نهج محدد الأهداف حتى تنطق ثقافتنا الوطنية باللغات الست الرسمية في منظمة الأمم المتحدة وهي الروسية، والإنجليزية، والصينية، والإسبانية، والعربية والفرنسية.
للمرة الأولى في تاريخنا الممتد لآلاف السنين، سوف تنطق ثقافتنا في جميع القارات وبكافة اللغات الرئيسية في العالم. }

من مقالة فخامة/ نورسلطان نزاربابييف
الرئيس الأول والمؤسس لجمهورية كازاخستان

"نظرة إلى المستقبل. تحديث الوعي الاجتماعي"

2019

الفهرس

شيرخان مورتازا..... 8

أكيم تارازي..... 24

كاليخان إيسكاكوف..... 86

ساين موراتبيكوف..... 124

كابيدش جومادیلوف 156

أسقار سوليمانوف..... 172

آبيش كيكيلبايف 196

سابيت دوسانوف 220

مختار ماجواين..... 238

بيكسلطان نورجيكييف..... 278

صوفي سماتايف..... 296

تولين أبديكولي..... 308

كاجيغالي موخانبيتكالييف..... 358
دولات إيسابيكوف..... 396
أورالخان بوكي 454
مرحبات بايغوت..... 466
سماغول يلوبايف 482
ديد أحمد أشيمخان أولي..... 500
جوماباي شاشتاياأولي 522
عليبيك عسكاروف..... 544
تالاسبيك آسيمكولوف 552
رحيمجان أوتاربايف 578
تورسينجان شاباي..... 590
نورغالي أوراز..... 600
جوسوببيك كورغاسبيك 608
روزا موكانوفا 616
أيجول كيميلبايفا 628
ديدار أمانتاي..... 650
داورين كوات 658
يوري سريبريانسكي..... 672



المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

تقديم

الحمد لله فاتحة كل خير وتمام كل نعمة وصلاة ربنا وسلامه على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله الأطهار وبعد، فإننا إذ نقدم هذه المختارات الأدبية الكازاخية للوطن العربي نطمح إلى تقوية الروابط الثقافية العربية الكازاخية عن طريق تعريف القارئ العربي بأبرز الأدباء الكازاخ وأهم أعمالهم التي ترصد تفاصيل الحياة الكازاخية وتدّون مآثر روادها، وتسلط الأضواء الكاشفة على دقائق الحياة الثقافية في كازخستان، إذ يتناول مختارات الأدب الكازاخي أعمال 60 شاعرًا وقاصًّا، تشكل في صورتها العامة لوحة لخريطة الأدب الكازاخي المعاصر.

وتعد هذه المختارات الأدبية الكازاخية، العمل الأول من نوعه حتى الآن في تاريخ الحياة الثقافية الكازاخية، وقد كانت فكرةً حظيت بدعم نور سلطان نزاربايف الرئيس الأول والمؤسس لجمهورية كازاخستان، بوصفها خطوة على طريق تنفيذ برنامج "الثقافة الكازاخية المعاصرة في عصر العولمة".

ويشكل هذا العمل الذي تم نشره باللغات الست المعتمدة لدى الأمم المتحدة (العربية، الإنجليزية، الروسية، الفرنسية، الأسبانية والصينية)، نقلة نوعية في تاريخ الحياة الثقافية الكازاخية، ويمكن تصنيفه بأنه منظومة أدبية متكاملة انصهرت خلالها الكثير من ملامح الحياة الكازاخية.

وإننا لنطمح إلى أن تسهم هذه المختارات الأدبية الكازاخية في تقوية الأواصر الأدبية بين أجيال العرب والكازاخ في ظل تنامي تلك العلاقات خلال السنوات القليلة الماضية، كما تضع بين يدي القارئ والناقد والمتذوّق للأدب والمثقف بصفة عامة إعمال الأدباء والشعراء الكازاخ المعاصرين وإبداعاتهم، لتكون صورة من صور التراث الثقافي والإنساني الكازاخي؛ من أجل فتح نوافذ جديدة تطل على الأدب الكازاخي وتيسر التعاطي معه وتكوين حالة من التماذج الفكري والثقافي بين الجانبين، الذي يؤدي إلى حفز الأدباء والمثقفين إلى تلمس طريق تبادل الثقافات

والأعمال الإبداعية القديمة منها والحديثة بين الجانبين، وهو أمر تحتمه طبيعة العلاقات التاريخية بين شعوب المشرق العربي والإسلامي.

تقدم نصوص هذه المختارات الأدبية الكازاخية صورة للواقع الاجتماعي بأبعاده النفسية والفكرية والشعورية والمادية، ولقد مزجت هذه الأعمال بين وصف الطبيعة، والحب، والتأملات الفلسفية، والأفكار التنويرية والإنسانية المتعددة، وتركت موروثاً غنيًّا من الوقائع التاريخية، والقصص التراثية، فيما تحتفي الثقافة الكازاخية بالشعر كما هو الحال في الثقافة العربية. ولا شك أن الطبيعة في كازاخستان بسهولها وسهوبها وأنهارها وجبالها منحت الشعب الكازاخي هذه الروح الشعرية فضلاً عن التقاليد الشعرية القديمة في هذه الثقافة.

فالقصص المنتمية إلى كازاخستان ذات مذاق جمالي فريد؛ لعلها استعارته من البيئة الاستثنائية لهذا البلد الجميل؛ استعارته من أشعة الشمس الفضية، والمروج الخضراء، ونار المدفئة التي طالما قصت الجدات حكايات حولها. ويلاحظ في القصص الكازاخية التي بين أيدينا أن كثيرا منها يتسم بسمات مشتركة.

ومن حق الكازاخ أن يشعروا بالفخر بأدبائهم الذين رسموا أجمل الصور بقصائد متناغمة، وقصص متسلسلة، وحكم بليغة، ووصايا عظيمة، وعبارات فصيحة، وخواطر إبداعية.

إن ترجمة مختارات من الأدب الكازاخي إلى لغات الأمم المتحدة الرسمية الست هي مبادرة غير مسبوقة تهدف إلى تقديم الأدب الكازاخي المعاصر للعالم.

كما سيكتشف القارىء لهذه المختارات أيضًا أن القصيدة الكازاخية المعاصرة تقدم مجهودًا بصريًا يحتضن الأشكال الفنية الحديثة دون إظهار التزام حرفي بالنظريات الجمالية والتيارات الأدبية. ويتبع شعراء هذه المجموعة أوقاتهم ويتبعون إلهامهم من روح شعبهم وطبيعة هذه الأرض باعتبارها حضارة عظيمة.

في الختام، يأتي هذا المنشور كنتيجة للتعاون العلمي البناء للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو). إنه استمرار لتعاون طويل الأجل، فيما نأمل أن يستمر ويتنوع في مختلف المجالات. ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يهدينا إلى الصواب في القول والفعل.

أ.د. محمد ولُد أعمر

مدير عام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو)

شيرخان مورتازا

(2018 - 1932)



- تخرج في كلية الصحافة بجامعة موسكو الحكومية عام 1955، وبدأ نشاطه الإبداعي خلال سنوات الدراسة، وترجم إلى اللغة الكازاخية بعض الأعمال مثل: "العجوز هوتابيتشا" لـ لازار لاجين، و "سعادة بيتنا" لـ موستاي كريم.
- عام 1958 صدرت أول مجموعة قصصية له، ومنها: "البحر المكتشف"، "البرق في يوم صافي"، "ابن الجندي المجهول"، "حرب بلا سلاح"، "عروس في الواحدة والأربعين"، "قسم أخميتجان"، "خبز المدرسة الداخلية"، "القلب الذي لا يهرم"، "ما الذي ينقصكم؟"، "آخر أرملة في الحرب"، "عالم واحد شرير"، "اللؤلؤ الأسود"، ورواية "القمر وعائشة" وهي مكونة من خمسة كتب ومكرسة للحديث عن شخصية تورار ريسكولوفا.

- في عام 1990صدرت مختارات أعماله في أربعة مجلدات، وفي عام 2008 خرجت للنور أعماله المختارة في سبعة مجلدات.
- شارك شيرخان مورتازا في الحياة الاجتماعية بالبلاد؛ حيث قام بكتابة مقالات أدبية نقدية، وكذلك مقالات فنية ومقالات تناقش القضايا المعاصرة.
- تُرجمت أعماله إلى اللغات الروسية والألمانية والهنغارية والتترية والأوزبكية والأوكرانية ولغات أخرى.
- من أشهر مسرحياته: "خطاب إلى ستالين"، "رسالة من خمسة أشخاص"، "زاوية اليتيم"، وقد عُرضت كلها على مسرح مختار أويزوف الأكاديمي ولاقت نجاحًا كبيرًا، كما عُرضت على مسارح أخرى.
- ترجم مورتازا إلى اللغة الكازاخية قصص هانس كريستيان أنديرسين، والحكايات المجرية الشعبية.
- ترجم العديد من روايات جنكيز أيتاماتاف ومنها: "وداعًا، جولسارا"، وأيضًا ترجمة رواية "المحطة العاصفة" ورواية "الإعدام".
- دخلت الكثير من أعماله ضمن المناهج الدراسية بالمدارس الكازاخية.
- حصل على جائزة "اتحاد الشبيبة السوفيتي" عام 1965، وحصل على جائزة الدولة من جمهورية كازاخستان، وجائزة "تارلان" الدولية عام 1978.
- حصل على لقب فنان الشعب لجمهورية كازاخستان.

التميمة

ما ألذَّ النوم في الصباح عند الفجر! في البداية تقنع نفسك: "المزيد قليلاً، أكثر قليلاً" وتستلقي، لكن في مكان ما في الأعماق، بعد أن تخترق طبقة النوم السميكة، تزعجك ملاحقة الوعي: "انهض، سوف تتأخر عن العمل، انهض"... وأنت: "المزيد قليلاً، أكثر قليلاً"...

مرة أخرى العِجل الأحمر يلعق شعري، "اللعنة عليك، لعين، -أتمتم وأنا لم أستيقظ تماماً بعد، -" ليُقطع لسانك الخشن..." وأخيرًا، وبعد أن ينفد صبري وأنا مستلقٍ بعيون مغلقة، أسحب يدي من تحت البطانية، وأرميها إلى الأعلى...

- أوه، انظروا ما يفعل هذاالبطل! أسمع صوتًا مألوفًا، بعد ذلك ما إن أفتح عيني؛ بجواري يجلس على ركبتيه "سياكول" ذو اليد الواحدة، عيناه الجميلتان الدامعتان قليلاً بلون بطمة الشمال تغوصان في ابتسامة، يبدو وكأن ذِقْنه الصغير يهتز كالإسفين، من الضحك، وبيده الوحيدة يمسد رأسي، هذه المرة لم يكن للثور الأحمر أي علاقة.

بالكاد كان وقت طلوع الشمس الشاحبة في الشرق وهي تضيء بأشعتها الوردية قمة "ماناس"،لم يبدأ اليوم حقًا بعد، وأول ما تضيئه أشعة الشمس هو "ماناس"، في المناطق المحلية بين الجبال التي ترتفع في أعالي السماء، لا قمة تعلو على هذه القمة، تستقبل أشعة الشمس في وقت أبكر من المرتفعات الأخرى، وتكون آخر من يودعها. على الرغم من أن الوقت كان نهاية شهر يوليو وبداية أغسطس؛ فإن الحرارة لم تنخفض؛ لذلك كنا ننام في الهواء الطلق، ونفرش المراتب في الفناء أمام باب المدخل، وبعد أن استيقظت بشكل كامل، نظرت حولي،كانت عائشة قد حلبت البقرة، وربطت العجل الأحمر بوتدٍ، في حين ابتعدت البقرة الحمراء في اتجاه المرعى.

- أيها المشرف، هل يستحق الأمر أن ترسل طفلًا غِرًّا في "رحلة طويلة"؟ ألا يوجد غيره في هذه القرية؟

بدأت عائشة سيمفونيتها بعد أن طردت البقرة إلى خارج القرية وعادت، الآن سترتشف بسرعة "بيالا"(1) الشاي، وتذهب إلى حقل البنجر، عندما قالت عائشة "في رحلة طويلة"، ارتعشتُ وقفزت من مكاني على الفور، "رحلة طويلة" -حلمي الغالي. ما الذي يمكن أن يكون أصعب من العمل على التيار؟ تجمع الحجارة، وتفرغ

(1) بيالا-كأس بدون يد تتسع من الأعلى، تستخدم بشكل أساسي لشرب الشاي.

القمح، وتدور كالحمار الذي يدير "التشيغير"(2) من الصباح إلى المساء تحت حرارة الشمس الحارقة، إذا أطلقوني في "رحلة طويلة" سأحلق مثل طائر.

عندما شاهد كيف أني قفزت من السرير سريعًا، ابتهج "سياكول" ذو اليد الواحدة، وغاصت عيناه الرطبتان مرة أخرى في الابتسامة.

– يا بطلي!يا "بارسي"(3) ! هذا هو الشجاع الحقيقي! من، مثل هذا "البارس"، سيجرؤ على الذهاب مع الجد "أتاليكاتا"(4) إلى "توبيشاكتي"(5) ؟

– ليذهب ابنه!

اعترضت عائشة بتعنت، وهي تلف بمنشفة من القماش زجاجة من (لبن) العيران المخفف، وكعكة رقيقة.

– ابنه من سنه.

– أوه، يا امرأة، أنت تعرفين كل شيء، لماذا تتحدثين؟

هز المشرف رأسه الممتدة إلى رقبته الرفيعة متأسفًا.

– سليمان بن "أتاليك" مريض بشدة.

صمتت عائشة، ربما هكذا يؤكدن هزيمتهن في الجدال، عادة النساء في زمن الحرب: في البداية يجادلن بعنف مع المشرف، وذلك للتخلص من الغضب، ثم بصوت الموافق يذهبن لتنفيذ المهمة.

بالقرب من منزل "أتاليك آتا" كانت هناك عربة عارية أزيلت مقصورتها، كان يحبس فيها زوج من الثيران أرقط اللون، كانا يعدّان الأقوى في "الكولخوز"(6) ، عند رؤيته لي مع "سياكول" ذي اليد الواحدة، "أتاليك آتا"، كما لو كان يرغب في إعادة ظهره، انتفض، ورفع صدره قليلاً، ثم حناه مرة أخرى، واهتزَّ من الضحك الصامت، ومسح عينيه الضيقتين بكمّه، عندما كان "أتاليك آتا" يقف بطوله الكامل، كان يصل إلى مترين، إلا أن القدر، ظنَّ، على ما يبدو، أنه لن يتمكن من الدخول والخروج من ال"أبو"اب المنخفضة لمنازل "مينبولاكسك"، حناه في ثلاث حالات وفاة كعلامة استفهام، ربما خلقه القدر كسؤال لا يمكن إيجاد إجابة عليه،

وما أدراني بذلك.

حسنًا، جاء اللقيط؟ سأل "أتاليكآتا".

يا عم، لن تجد رفيق طريق أفضل من "بارسخان".

---

(2) تشيغير –أداة بدائية لرفع مياه الري إلى المرتفعات.تستخدم في مناطق كازاخستان الجنوبية القاحلة.

(3) بارس–اسم البطل الرئيسي بارسخان، عند الكازاخ منذ القدم يسمى المواليد الجدد بأسماء ذات معانٍ محددة، فمثلاً يعتبر بارس–الفهد الذي يعيش في الجبال رمزاً للشجاعة والجمال.

(4) آتا– صيغة مخاطبة محترمة جداً من الأحفاد للرجل العجوز.

(5) توبيشاكتي–قرية في الغابة في محمية آكسو–جاباغلي الطبيعية.

(6) كولخوز– المزرعة الجماعية في العهد السوفييتي.

قال "سياكول" ذو اليد الواحدة متباهيًا أمام عمه، كما لو كان قد أنجز عملًا بطوليًا.

انطلقنا في طريقنا، بالقرب من المنزل وقف قريني "سليمان"... وقف نحيلاً، متكئًا على السياج بكتفه الرقيقة وسعاله يتابعنا بحزن، لوَّح بيده كما لو كان يودعنا إلى الجبهة...

لم يكن للسير البطيء لزوج الثيران الملونة أي تأثير، على الرغم من أن الجد قال إن بإمكاننا في البرودة قطع مسافة معقولة؛ فإن الشمس ما إن ابتعدنا عن حدود القرية الشمس بمسافة لا بأس بها، بدأت حوالي الساعة العاشرة صباحًا تحمى وتدفئ رأسينا، كما لو أن شهر يوليو بعد أن شعر بنهايته، تنفس للمرة الأخيرة بحرٍّ حارق.

واصل الطريقُ الترابي المتعرج صعوده، وبدأت العجلة الخلفية اليسرى للعربة تئن مثل قلع ضرس مؤلم، وعندما التفتُّ إلى الخلف، تذكرت المنظر الطبيعي المنفتح.

على طول كل وادٍ ومنخفضٍ في "مينبولاك" اختبأت خمسة أو ستة بيوت، في حين بقيت القرية نفسها في مكان ما في المنخفض، لقد ارتفعنا كثيرًا، صعد معنا سرب من الحمام الجبلي، كما لو كان غير قادر على تحمل مشي السلحفاة، سبقنا بسهولة وحط على التلال الرمادية، وعندما اقتربنا، حلَّق ثانية، ودون تحول، طار على طول الطريق كما لو كان في سباق، مانحًا القوة للثورين المتخلفين، ومشجعًا إياهما: "هيا، هيا".

فجأة ظهر أمامنا وادٍ مع منحدرات متدرجة، ولكن مع حواف مقلوبة إلى الأعلى بشكل حاد، وتماشيًا مع المنحدر، بدأت العربة في اكتساب الزخم من تلقاء نفسها، مما تسبب في تحمل النير على قرون الثورين، وجعلت الحمولة متقدمة بعض الشيء، كان قاع الوادي واسعًا، وكان مجراه مغطى بالكامل بصخور ضخمة، على ما يبدو تدحرجت هذه الأحجار في تيارات جبلية إلى هنا أثناء السيول(7) .

في قاع الوادي جرى جدول صافٍ متلألئٍ كالفضة، سرعان ما أنزل الثوران الأشقران، وبدون تردد، رأسيهما، وسحبا الماء طويلًا من خلال أسنانهما، وبعد أن نزلنا أنا والجد من على العربة، جلسنا هناك؛ حيث المرج مع النعناع الفواح، والأشجار ذات الأوراق الكثيفة، وبدأنا في تناول الطعام، وبسبب عدم وجود أي شيء لأفعله، بدأت بالنظر إلى الأدغال الكثيفة على منحدرات الوادي، وفجأة وقعت في مجال رؤيتي مجموعة من حيوانات الغرير الحمراء تتقاتل فيما بينها؛ كملسوعٍ قفزت على قدميّ.

- ماذا هنالك؟

سأل "آتا" الذي نبهه اندفاعي المفاجئ.

- مجموعة من حيوانات "الغرير" يا "آتا"، جرذان الأرض الحمراء!

- أين؟

سأل مرة أخرى، مغطيًا عينيه الدامعتين براحة كفه.

---

(7) السيول - فيضانات وتدفقات من الأحجار والطين على الأنهار الجبلية.

- هناك واحد يقف منتصبًا على الحجر، في حين انقسم البقية إلى أزواج تتقاتل فيما بينها، هل ترى يا "آتا"؟

- هناك شيء سمين يومض في عيني.

أجاب "أتاليك آتا" مع ابتسامة عريضة، وبعد أن فكَّر قليلاً، أضاف:

- "الغرير" الآن مليء بالدهون... آه، لو نمسك واحدًا، سيكون لحمه علاجاً حقيقياً لابني سليمان،

أمام عيني وقف الوجه النحيل لرفيق عمري سليمان، الذي تعثَّر في طريقه، وبصعوبة وقف على رجليه، ولوح بيده مودعًا، كان يلهث في تنفسه، ويسعل بشدة، ومن لا شيء غمره عرق غزير، بفضول حزين كان يراقب كيف لم يأخذه "أبو"ه في الرحلة الطويلة، بل أخذني، ويبدو أنه لهذا السبب غرق في الحزن.

- كلاكما ولُدتما في أسبوع واحد.

قال "آتا" مستذكرًا حدثًا عمره ثلاثة عشر عامًا،

- يبدو أن سليمان هو أكبر منك بيوم أو يومين، أو ربما أنت ولُدت أولاً؟ لا أعرف على وجه اليقين، أذكر فقط أن ذلك حدث في سبتمبر، عندما ذهب الجميع لحصاد "الدخن"، حسنًا، شباب مفعم... لقد اجتزتما عتبة الأعوام الاثني عشر من حياتكما، والآن أنتما مواطنان بالغان تقريبًا إن شاء الله: اسمع... "أبو"ك في سن الثالثة عشرة أصبح سيد المنزل.

صرخ فجأة منتقلًا إلى نغمة مرحة، واحمرَّ وجهه من تدفق الدم.

- ماذا لو ساعدناك لتقف على رجليك وزوجناك؟ هل سنرجع من "توبيشاكتا" مع فتاة ستحبها؟

- لا...

تمتمتُ وأنا أنظر باتجاه حيوانات "الغرير".

- ماذا تعني بـ "لا".

صرخ الجد ضاحكًا ضحكته الصامتة، ماسحًا دموعه التي ملأت عينيه.

- أحمق! ماذا تعني "لا"... آه؟

رغبة مني في صرف نظره عن الدعابة التي قالها بحسن نية وبدون خلفيات، اقترحت:

- "آتا"، دعنا نطلق النار على حيوانات "الغرير"، سيكون لدينا ما نأخذه لسليمان.

بالفعل، نسي الجد في لحظة دعابته:

-عيناي ضعيفتان، كن حذرًا، لا تطلق النار على شخص ما عن غير قصد، لا تسبب لنا كارثة. احذر من الهجوم.

- أوه، "آتا"، لقد علَّمنا "تارباكاي آغا" -في المدرسة- الرماية بالبندقية.

- وماذا عن هذا التعليم؟ أيعقل أنهم يعلمون الأطفال إطلاق النار؟

- وكيف يمكن ذلك من غير إطلاق نار؟ لو استمرت الحرب فسندعى نحن أيضًا إلى الجيش؛ لذلك فهم

يعلموننا.

- عمَّ تتحدث؟ إذا ما استدعوكم، فمن سيبقى إذن؟ عندها إذن ستنتهي سلالة قبيلتنا؟ لا تقل شيئًا كهذا، لا تثرثر بكلام فارغ!

غضب "آتاليك" جدًا، ومع ذلك، تعثر، وانحنى إلى الواجهة الأمامية للعربة، وسحب من تحت كوم تبن القش القديم بندقية سوداء كان قد سلمها له "سياكول" ذو اليد الواحدة قبل الانطلاق، وخبأها بعيدًا عني:

- كن حذرًا، من أن تنطلق النار عن غير قصد.

عندما أصبح السلاح في يدي، جمعت نفسي داخليًا، وتخيلت نفسي شخصًا مهمًا، وانطلقت... أردت أن أثبت للجميع أن دروس العم "تارباكباي" لم تذهب هدرًا، بجلجلة حررت ترباس البندقية، نظرت إلى الداخل، كانت البندقية محشوة، كنت أعرف أن هناك من حافة الخرطوش قبعة صغيرة مع العدس تسمى المكبس، بعد تحرير الترباس نظرت في اتجاه حيوانات "الغرير"- كان الحارس لا يزال واقفًا على الصخرة الرمادية، يبدو أنه ألفنا بصريًا، لم يكن خائفًا، كما لو كان يتحقق من وجود أي خطر من الجانب الآخر، كان يقف وجنبه باتجاهنا، جامدًا مثل حارس... لو اقتربت خفية، سيشكّون ويدخلون في الثقوب، ويبدو أن الوصول إليهم بعيد، معتمدًا على الحظ، تحت غطاء العربة وجهت البندقية صوب "الغرير" الحارس، "الهدف أسفل السرة"، هكذا بيَّن لنا العم "تارباكباي" في دروس الرماية، وقال إنه يجب دائمًا أن يتم تخفيض نصف دائرة البصر إلى خط الهدف الأدنى.

من الطلقة الداوية كأن الجبال السماوية كلها اهتزت، في البداية لم يكن بالإمكان رؤية شيء من ستار الدخان الأزرق، وقف "أتاليك آتا" ساكناً في مكانه، وضغط بكفه على أذنه شبه الصماء منذ زمن، وكرر "بسم الله، بسم الله"، عندما نظرت باتجاه الصخرة الرمادية، رأيت أطرافه القاتمة، في لحظة اختفت حيوانات "الغرير" الأخرى جميعًا، غائصةً في الجحور، أخذت "الغرير الأحمر" من قائمتيه الخلفيتين، وبدا بحجم كلب صغير، وسحبته إلى العربة، وألقيت به أمام "أتاليك آتا".

- قبل المغادرة سأحضر لك واحدًا آخر.

ألقيت "الغرير"، وكنت غير قادرٍ على مقاومة الكبرياء التي غمرتني.

وبدلاً من أن يبتهج، ارتبك "آتا" قليلاً، عندما لاحظت ذلك، صمتت، وتبخر حماسي التفاخري على الفور.

- آهٍ، يا للأسف، لقد فعلنا ذلك بلا جدوى.

قال "أتاليك آتا" محاولاً بطريقة أو أخرى قلب "الغرير الأعرج"، وبشفقة مسد براحة يده على جانبيه اللامعين، وبطنه المذهب، وجلده المائل إلى السماوي والأحمر، ثم أضاف:

- اتضح أنها أُمّ.

- هذا يعني أن جِراءها ترعرعت.

- يا عزيزي، يقال إن هذا الحيوان في العصور القديمة جاء من الإنسان، حلَّت عليه لعنة الله، وأصبح

مخلوقًا قارضًا، لقد رأيتها بنفسك، الجراء مثل أطفال البشر، تدافعت بمرح، وتقاتلت فيما بينها، على الرغم من الوميض في عيني، إلا أن هذا ما رأيته، أرجو ألا تحل علينا اللعنة، عبثًا سمحت لك أن تطلق النار... أوه، عبثصا...

- "آتا"، ماذا بك؟ قلت لاهثًا.

- في إحدى المرات قرأت في أحد الكتب عن أنه في أقصى الشمال؛ حيث يركب ياقوت-ساخا الكلاب، يطلقون النار في البداية على الغزلان، وبعد ذلك، عندما يقطّعون الذبيحة، يقولون: "اعذرنا أيها الغزال، لسنا نحن من أطلق النار عليك، من فعل ذلك هم التونغوس، ونحن عثرنا عليك فقط"، دعنا نقول أيضًا: "سامحنا أيها الغرير الأحمر، لسنا نحن من أطلق النار عليك، من فعل ذلك هو جولُداسخان، ونحن عثرنا عليك على الطريق".

ضحك "أتاليك آتا" بصوت مسموع ضحكته الصامتة.

- أيها اللقيط، تريد التخلص من "جولُداسخان"، أليس كذلك؟ أنت وهو وسليمان ثلاثة أقران، انظر، كيف يتباهون بذلك! بيد أن الكتاب الذي قرأته صدر بلغة الكفار، لا توجد مثل هذه الكلمات في القرآن.

- لا تقل هذا يا "آتا"، في العام الماضي أنت نفسك أعلنت قبل ذبح الخروف الوحيد لسليمان: "أنت، أيها الخروف، لست مذنبًا، إلا أنه ليس لدى الأطفال ما يكفي من الطعام".

- يا مستشاري الخاص، ليحمِك الله من العين الشريرة واللسان الشرير. لتعش كثيرًا وتحقق الكثير؛ ليحفظك الله من القذف والافتراء، ومن أهوال الحرب، وليبتسم التوفيق لسليماني، وليكون هذا شفاءه.

قال "أتاليك آتا" واضعًا "الغرير" بعناية تحت التبن بجوار البندقية على العربة.

بسرعة التيار تحركنا عبر المنحدر الراجع للوادي، الآن يتعرج الطريق بين سفوح التلال، ويميل نحو الغرب، وعن بُعد كانت تُرى غابة سوداء.

- "آتا"، هل بقي الكثير إلى "توبيشكاتا"؟

- هل يُرى الصفصاف الأسود؟

- يمكن رؤيته على مدى البصر.

- هذا يعني أنه لم يبق لنا الكثير، إن شاء الله سنصل عند منتصف النهار.

بدأ الرجل العجوز يدندن في نفسه، أو بالأحرى يهمهم بشيءٍ ما تحت أنفه، ويغلق عينيه، احتفظ بالسوط في يديه، لكنه لم يضرب الثورين؛ فسواء ضربتهما أم لم تضربهما، لن يسرعا المسير، في الخلف بقيتْ على طول الطريق المتعرج شجيرات المروج العنابية أو الرمادية اللون، ارتفعت مقابلنا "الكوكيا" الحمراء كالفحم المشتعل، وكانت نباتات "البوصير الزونغاري والذنيبة" قد أسقطت أزهارها منذ زمن، وتجمدت منتصبة وكشفت أشواكها،كانت الرائحة العطرة للزعتر والهدية تفوح بكثافة في الربيع، أما الآن فإنها -بعد أن فقدت لونها- تقف، كالعدم، في وضع لا تحسد عليه، ولكن، بعد أن تناثرت في كل مكان زهور الهندباء زرقاء كالسماء

اللازوردية، بعثت في النفس الشعور بالسعادة. في بعض الأماكن كانت هناك زنابق بيضاء، وزهور بحجم راحة اليد، تتلألأ مثل سبائك الفضة، ومن قمم هذه النباتات أطلقت طيور القُبَّرَة أصوات ألحانها.

قطع "آتاليك" قيلولته، وقال بعد أن تذكر شيئًا مهمًّا:

-إذا أُرسلتَ كذلك إلى الجيش؛ فهذا يعني أن هناك مبررًا، فأنت بارع في الرمي من البندقية، ببساطة أنت رهيب! ولكن، هل يعقل أن يأخذوكم فعلاً؟! سيأخذونكم، سيأخذونكم، امتدت لأكثر من ثلاث سنوات، وها قد بدأت السنة الرابعة! هممم، الواضح أنهم ذاهبون إلى مثل هذه المعارك الطويلة، ذات مرة عندما كنت بعمرك، وقعت ما تسمى بالحرب الخوقندية، أظن أن مقاتلنا بايزاك داتكا خرج ليقاتل مع خانية خوقند. لم يمر الأسبوع، حتى احتج الجميع على الحرب العالمية، هدأوا، بكلمة واحدة، في خانية خوقند قتل بايزاك داتكا، وكانت النهاية،كانت هذه الحرب رهيبة. لفترة طويلةلم تصلنا أي أخبار من ولُدنا كايب، وهذه هي رسالته الأخيرة، بالمناسبة، لمَ الجلوس بدون جدوى؟ دعنا نجتاز الطريق، وستقرؤها مرة أخرى.

بعد أن فك أتاليك عن صدره أزرار البيشميت القديم من المخمل الأسود، أدخل يده تحت القميص الرمادي الداكن من العرق، وصل إلى جيب داخلي مخيط تحت إبطه الأيسر، ومن هناك أخرج مسبحة، لقد دهشت من أن الجد أخفي المسبحة في مثل هذا المكان العميق، والتي لا يمكن مقارنتها إلا بـ "السر تحت ضريح أحمد ياسوي"، سلسلة من الخرز الأسود والملون، ربطت بتميمة جلدية مثلثة ذات لون أسود، أمسك أتاليك آتا بقبضته عقد المسبحة مع التميمة، ووضعها بداية على جبهته، ومن ثم على عينيه، ثم فك قُفل التميمة، وسحب بإصبعيه ورقة مطوية، وفتح الرسالة المثلثة، وبعد ذلك وضعها برهبة على شفتيه، ومن ثم قدمها إليَّ بيديه المرتعشتين، قائلاً:

-اقرأها مرة ثانية.

قدم الرجل العجوز هذه الورقة إليَّ بخشية وخوف رهيبين (كما لو كنت سأقوم بتمزيقها وإلقائها في مهب الريح)، بحيث إن أصابعي ارتجفت بعض الشيء أيضًا، الرسالة مطوية كثيرًا، وبالفعل بدأت بالاهتراء، ولو لم يتم الإمساك بها بعناية، فإن تخوف أتاليك آتا سيكون في محله، بعد أن قمت بفتح الرسالة القديمة بعناية، جلست إلى الخلف قليلًا كي لا أسقط من العربة، ولكي أكون مستعدًا بحيث لا تقفز الحروف من الرسالة بسبب ضربات العجلات اللعينة وهزاتها، وعيناي تلاحقها، طال التوقف. ارتبكت من فكرة أن يعُدَّني آتاليك آتا جاهلاً، حتى إن العرق غطى أنفي المرتفع.

- "رسالة ترحيب"، قلت بصوت عالٍ، وإلا ما كان ليسمع، "أغلى من الذهب، وأنقى من الفضة، والداي الموقران، أخي سليمان وأختي خانزادا الحبيبان! أعتقد أنكم في منطقتنا الأم تنفذون بشكل ناجح مهام الحزب والحكومة، وتعيشون بودٍ ووئام، إن سألتم عن حياتي، سأقول لكم إنني أقوم بشرف بتنفيذ واجبي تجاه الوطن ممسكاً بقوة البندقية بيدي، وجهزت للعدو الوغد العقوبة التي يستحق، ونحن، بعد أن خرجنا من مذبحة كورسك سليمين ولم نصب بأذى، نواصل مطاردة الفاشيين اللعينين، الحقيقة تقول إنه لو حاربت

أربعين عامًا، لا يموت إلا من كتب على جبينه الموت، في كورسك فَقَد الكثيرون من شباننا رءوسهم، والآن يبدو لي أنني نجوت بمعجزة من هذه المجزرة، والآن لن أموت أبدًا، لا يسمح لي الوقت بكتابة الكثير، تقبلوا رسالتي المقتضبة هذه التي كتبتها خلال استراحة قصيرة قبل إحدى الهجمات، لو قدَّر الله لي أن أعيش، فإني سأواصل في المستقبل تنفيذ أمر الرفيق ستالين بالقضاء على العدو، ولو بعد ذلك كله أتيحت لي الفرصة سأكتب لكم رسالة قلبية مفصلة أكثر من هذه، ليحفظكم الخالق! وإلى اللقاء، أتمنى لكم الصحة والسلامة يا أحبائي، حررت في الخندق، كايب آتاليكوف، في " 17 أغسطس 1943".

"لماذا هو صامت؟!"، فكرت بعد أن نظرت إلى أتاليك آتا، لا يعير اهتمامًا للدموع المنهمرة على لحيته، كان يبكي بصمت، بعد أن قمت بطي الرسالة من جديد، سلمتها له باليد. وبعد أن مسدها بيده، جلس وخبأها في الجيب الداخلي، وبعد مرور بعض الوقت سأل:

- ما هو تاريخ اليوم من شهر أغسطس؟

- الخامس عشر.

- أوه، أوه، أوه، هذا يعني أن عمر الرسالة عام، آه؟!

ولعدم معرفتي بما أجيبه، طأطأت رأسي، إذا لم تأت منذ عام كامل أي أخبار، فإن ذلك بالطبع السبب، وبعينين نصف مغمضتين، حوَّل آتاليك آتا نظره صوب الجبال:

- ينبغي على الإنسان ألا يتحدث بعجرفة إطلاقًا، ماذا أراد أن يقول المسكين بقوله: "لن أموت أبدًا؟!" بالتأكيد من أعطاه هذه الكلمات، هو الشيطان الغاوي... "أوه، يا لك من غبي، إن تجرأت على معارضة إرادة الخالق القادر؟! كا-ي-ب!" - تنهد بصعوبة، وصرخ.

شعرت بالألم من صرخات الرجل العجوز في رحابة السهوب، وبدأ جسمي يرتجف، لماذا صرخ بكل هذه القوة، وكأن كايب من مكانه البعيد سيستجيب؟

اقترب الوقت من منتصف النهار، وأصبحت الشمس حارقة بشكل مذهل، حتى إن الغراب الأسود الذي كان يجلس على سور حظيرة المواشي المهجورة منذ زمن، كان يتنفس بصعوبة فاتحًا منقاره.

- آاااه؟! - خرجت من أتاليك وكأنها لهب كبير، حتى إن الغراب الأسود الذي طار مبتعدًا إلى مسافة لا بأس بها من الطريق، تحرك بقلقٍ محاولاً في الوقت ذاته حماية نفسه، ليست "آه" عادية، وإنما "آاااه". لم يكن ذلك أنين حزن، وإنما مسألة حية بغضب، وأمر معطى بشجاعة، الآن سرت وأنا أتمنى شيئًا واحدًا: ألا يطلق مرة أخرى "آاااه؟!"، فالأمر رهيب.

وحدها صقور السهوب الحوامة تحلق فوق الوادي؛ حيث تنمو الفصة البرية الغضة والأعشاب النفلاوية بالتعاقب مع نباتات ذيل الثعلب والرزين، هنا من الصعب على الصقور الحوامة، التي لا تستطيع التقاط سوى طيور السمَّان، البقاء على قيد الحياة، من حركة أجنحتها تهُبّ بخفاء أنسام كأنها حزنٌ وتشردٌ ويتمٌ. كأن كل شيء حولنا ربطَ أحزمة الحزن، والعالم من التعب يخفي العيون الغارقة. سهوب ذابلة من العطش، صقور

حائمة بحثاً عن الطعام. مراهق غير ناضج، رجل عجوز محني الظهر. وحدها "الجبال السماوية" لا تزال شامخة. عندما تنظر إليها ترفع روحك المعنوية. تسمو بك "الجبال السماوية" بصمت، لم يستطع أتاليك آتا في حياته أن يستقيم، ولكن عندما نظر إلى الجبال أطلق "آاه؟!"، يبدو أن ظهره المنحني بدأ بالتعافي.

بعد ذلك غنى أتاليك آتا بصوت منخفض، بالكازاخية أو بالقيرغيزية – لم أتمكن من التمييز.

ما في الأحلام يذوب كله.

وحده الميزان سيُظهر الوزن.

إذا كان الشباب يولّي،

فلا تقع تحت الضغوط الهائلة.

ستتوب، وتتعذب،

أين هي النعمة السابقة؟

إذا جاءت النهاية للشباب،

هل يمكنك استعادته؟

– هل فهمت أيها اللقيط؟

سأل الجد، بعد أن لاحظ أنني كنت جالسًا في حالة من الارتباك، وسأل لكي يشعر بمزاجي.

نظر أتاليك آتا بودٍ إليَّ، وابتسم بسماحة وإخلاص؛ الأمر الذي جعل مزاجي يتحسن بعض الشيء. كل شيء من حولنا بدا غير كئيبٍ وباكٍ... أجل، والصقر الحوام الذي قام بمناورتين جيدتين في الجو، بدا لي مرحاً من السعادة،كذلك ليس بذاك الإرهاق صرَّت الجنادب التي احتلت مكانها بالمكان بين المستنقع الملحي والبجعة المجففة؛ حيث كانت تقف في وقت ما البيوت المدمرة، لكنها صرّت صريرًا واحدًا، طيور السنونو التي تجمعت في مستعمرة واحدة على قمة جدار طيني متهالك، حطَّت ورفعت ضجيجها وصخبها الذي يصم الآذان، ومن ثم بدأت في التحليق عشوائيًا والانقضاض إلى الأسفل والدوران على مستوى منخفض، ربما كانت تستعد لتحليق طويل، السنونو هو واحد من الطيور المباركة، وهو مستعد لأن يضحي بنفسه، وستبذل فراخه المولودة في هذا العام كل قوتها للعودة إلى وطنها في العام المقبل، والكثير منها لا يصل إلى الموطن، فتموت بسبب مشقة الطيران بلا نهاية فوق المحيط، في حين أنه بعد أن ترتاح الطيور عند وصولها إلى الموطن، تغرد بأغانيها وتصفر كيويات(8) بارعة. لو أنها لم تسقط في الهاوية من شدة التعب، لربما وصلت، أما أنا فيتملكني الرعب فجأة من صرخة أتاليك آتا "آاه؟!" التي تدوي في روحي.

(8) كيوي– مؤلفة موسيقية قديمة، تعزف بوساطة إحدى آلتين موسيقيتين وتريتين شعبيتين: الدونغ بولا أو الكوبيز.

بمجرد أن حل منتصف النهار، وصلنا إلى غابات توبيشكاتا الكثيفة. يبدو أن هذا الرجل زعيم القرية الواقعة في الغابة، عينه اليمنى كانت تحدق دون أن ترمش، أما هو نفسه فقد كان أحمر الخدين، بلحية وشعر رمادي، متباهيًا في سرواله المخملي الأسود، اعتنى بأتاليك آتا بشدة، بعد الاعتناء الكبير، غاص في المجاملات، وقال إنه يتمنى الصحة، ووضع وسادة تحت رأسه، وبطانية تحت ظهره، عندها فقط اكتشفت كم كان أتاليك آتا موقرا، عندما تذكرت كيف كنا لا نسمعه ونقاطعه بخشونة في بعض الأحيان: "رجل عجوز أصم وأحدب"، شعرت بأن وجهي ملتهب بالخجل، بعد شاي الضيافة اكتسب أتاليك آتا القوة، وكعادة كبار السن الذين يعانون مشاكل السمع، صاح:

– يا ساغيمبيك، لقد حان الوقت لنسلك طريقنا، إن كان الخشب جاهزاً، قم بتحميله.

– أوه، أتاكي، الشمس تميل نحو الغروب، وسيحل الليل وأنت تزحف كسلحفاة على ثيرانك، اقضِ ليلتك هنا، وتحرك في وقت مبكر من صباح اليوم.

قال العجوز ساغيمبيك، الذي يتحدث بسرعة، بصوت عالٍ، لعلمه بعصبية أتاليك آتا وضعف سمعه.

لم يغير أتاليك آتا عادته، ضحك بصمت. يبدو أنه كان يظن في نفسه أنه كان يصدر أصواتًا عالية، يبدو أن الضحك الصامت يُولَد من رغبته في كبح النغمة المشوّشة أو الحادة في صوته، من يدري.

– هيه، يا قريبي الذي وهبني الله إياه. اقضِ ليلتك هنا؟! كل هموم الكولخوز يحملها هذان الثوران التعِسان، إن لم نصل اليوم؛ فإن العمل سيتوقف غدًا، يا عزيزي، وجذوع أشجارك هذه، إن لم نحضرها في الوقت المناسب، فإن مدرستنا المتهالكة لا يبدو أنها ستكتمل بحلول الموعد النهائي، ودروس الأطفال على وشك أن تبدأ، وعارٌ إذا بدأت عملية التعليم، والمدرسة ما زالت مستلقية على جنبها، عارٌ يماثل الموت، أيعقل ألا نهيئ الظروف للأطفال الذين آباؤهم وأشقاؤهم الأكبر سنًا موجودون على الجبهة؟ آه؟ والآن المدرسة التي بناها جنود خط المواجهة هؤلاء، هي في وضع مدمر لسوء الحظ.

أنا لا أفهم هؤلاء الكبار، أعني سأياكول ذا اليد الواحدة، إنهم لا يوضحون منذ البداية إلى أين، ولأي هدف تذهب، الآن أرى أن رحلتي تتعلق مباشرة بمدرستنا، في ربيع هذا العام هطلت أمطار غزيرة ممزوجة بالثلوج لمدة يومين أو ثلاثة أيام متتالية، وبعد ذلك تحطم سقف المدرسة من جهة، وسقط من الوسط، رحمة من الله أن الانهيار حدث في الليل، وإلا لطمرنا، لم أسافر آنذاك مع أتاليك آتا، لم نذهب إلى توبيشاكتي، كم بكت عندها عائشة البائسة! لا تخجل عادة من التعبير، وكان يكفي أن أخرج من لعبة آلتشيكي(9) ، حتى تمسك بالمغرفة، وتبدأ بمطاردتي وشتمي بكل ما يحوي العالم من شتائم: "لِتمُتْ، أيها اللعين!"، "لتلفظك الأرض الأم!"، "تباً لك، أيها الوغد!"، "ليضربك الآلتشيون، لنتخلص منك!" وغيرها، ولو بقيت تحت أنقاض المدرسة، فإنه، كما كانت تقول هي نفسها: "قبل سن الثالثة عشرة تحت ثلاثة عشر حجرًا"... لبقيت...

(9) آلتشيكي –لعبة كازاخية بعظم ركبة الخروف أو الماعز التي تسمى آسيك.الترفيه المفضل للفتيان الكازاخ، لا سيما في المناطق الريفية.

ولشاهدت كيف تبكي عائشة، أوه، كم أنا شديد الغباء، كيف تتسنى لي الرؤية لو مت تحت الحجارة؟ هل يشعر الموتى كيف يبكي الأحياء؟ ألن يطير كايب من بعد، بعد أن يسمع صرخات أتاليك؟ توقف، لا تثرثر بكلام فارغ، من أخبركم أن كايب قد قُتل؟!

للحظة خفت من الدعابة بعد أن ظننت أن آتاليك آتا خمّن بإحساسه أفكاري السيئة هذه، يبدو أنه لم يخمن، دفع بالعصا تحت ظهره المحني ممسكًا إياها بمرفقيه، ووقف وهو ينظر باتجاه ساغيمبيك الذي تمكن من وضع نظارته. وانتظر الرد.

- حسنًا، آتاكي، فليكن الأمر كما تشاء، لكن الوقت متأخر وحسب بالنسبة لكما (العجوز الضعيف والفتى قليل الخبرة)؛ لذلك اعتقدت أن الطريق في الليل صعب، الآن سوف أجمع الكبار والصغار وأكلّف الجميع بتحميل الخشب، قال ساغيمبيك.

يبدو أن ضرسنا المريض (العجلة الخلفية للعربة على الجانب الأيسر) لم يصبح الآن يحف فحسب، بل ويئن بهدوء ويصدر صوتًا مستمرًا أيضًا، الحمل ثقيل، يبدو أنهم حمَّلوا حوالي ثلاثين أو أربعين شجرة، وعلى الرغم من أنها من حيث السماكة كانت أصغر من أشجار الصنوبر التي تتميز عن غيرها من حيث الحجم؛ فإن تلك الجذوع كانت تتدلى كأرجل عارية من الجزء الخلفي للعربة، راسمة على الأرض خطوطاً معقدة.

كان الثوران اللذان يمثلان الثروة الأكثر بروزًا في الكولخوز، كما لو كانا -خوفاً من الإحراج أمام الناس- يسيران باهتمام، محافظين على كرامتهما، إلى أن ابتعدا عن توبيشاكتي مسافة لا بأس بها. إيه، ثيران زمن الحرب ثلاثية التجاويف! شبان اليوم، حتى في الريف، يجهلون حقيقة ما هو الثور، وفي وقت طفولتنا كان الثور ظاهرة كبيرة مثل "ك-700" بالنسبة لأناس اليوم.

عندما غادرنا حدود منطقة آكسو-جاباغلي(10) الشاسعة؛ بقيت غابة توبيشاكتي الكثيفة خلفنا، سوداء بعيدة، كانت الشمس تهبط إلى جوفها؛كانت هالتها الحمراء كالدم. كغطاء لوَّن جميع أنحاء العالم الغربي، والقمم الثلجية في "الجبال السماوية" بألوان دافئة، وكانت السحابة السوداء فوق توبيشاكتي -التي تشبه

(10) أُنشئت محمية آكسو-جاباغلي الطبيعية في عام 1926 على أراضي محافظتي تركستان وجامبيل، وتشغل مساحة تبلغ حوالي 132 ألف هكتار، وكان تأسيسها يهدف إلى الحفاظ التام على النباتات والحيوانات في سهل فيضان نهري آكسو وجاباغالي، حيث توجد أنواع نادرة للغاية، والطبيعة نفسها جميلة بشكل لا يوصف.

حصير الشعر الذي يؤخذ عند تجميع منازل اليورت- مغطاة بمسحة حمراء، ومع ذلك، فقد عكَّرت هذا العالم المحمر والوردي على الفور سحابة سوداء كئيبة من الغرب، وبعد أن أصبحت أكثر كثافة؛ انتقلت إلى الهجوم على المعقل السماوي الشرقي، بينما كنا سائرين، كان كل شيء يغرق في الظلام، في حين أن الجبال السماوية المقدسة كالم"زارا"ت بالنسبة لنا، أصبحت ببساطة غير مرئية، عندما سقطت على رأسي القطرات الأولى للمطر الذي كنا ننتظره بسبب الجفاف طوال الصيف؛ ارتجف جسدي كله، وأخفيت رأسي تحت كتفي، ونزلت جاثياً، وكمنت.

امتد الطريق في الاتجاه الشرقي بشكل مضجر، وكان يبدو عن بعد كخطوط رمادية، وفجأة وبدون سبب على الإطلاق بدأ بالتحول إلى وعرٍ، شاقٍ، عسير، لوَّح الثوران الأشقران بآذانهما كما لو كانا يبُعدان الذباب المزعج، وحاولا بكل جِد التقدم، بعد وقت قصير بدأت التربة الزيتية على الطريق تتزلق كالصابون، وتحولت إلى طين. الآن فقط تأوهت العجلات حقًا.

لا أستطيع وصف أتاليكاتا بالجشع؛ فهو طيب القلب، لكنه هو من أقنع ساغيمبيك أثناء التحميل:

- ضع، وضع، لن نُترك بدون مواد عندما نغطي سقف المدرسة. الفائض سيبقى، وإن حدث الأسوأ فلم نستطع الوصول؛ سنعود إليك ثانية.

قال ذلك، وأجبرهم على تحميل حوالي عشر شجرات زائدة.

حتى لو كان الثوران الأشقران فيلين؛ لأُرهقا ولم يتمكنا من التنفس، أصبحت العربة العرجاء تصدر صريرًا، وبدأت العجلة المشدودة تصدر هديرًا يُصمّ الآذان، كان أتاليك آتا صامتًا، يبدو أنه الآن أسِف لأنه حمل الكثير من الجذوع، مَن يدري! تحول إلى مؤخرة العربة، وتفحصها طويلًا، وفي الخلف رسمت جذوع الأشجار الطويلة المتلطخة بالأوساخ رسوماتها المنمقة على الطريق، باختصار، ماذا أقول، في فترة ما بعد الظهيرة، بعد أن استرحنا قليلاً، وصلنا إلى الوادي؛ حيث تم اصطياد الغرير.

- وماذا، أيها اللقيط؟

قال أتاليك بعد أن لمسني بإصبعه في جانبي.

- إذا تمكنا -بمساعدة الله وأرواح الأسلاف- مِن قطع هذا الوادي؛ فإن الطريق سيسير منحدرًا، وسيكون السير، وسوف نصل إلى هناك بدون متاعب، اركع أمام الله يا بارسخان! اركع أمام أرواح أسلافك! انزل من العربة، خذ العِنان الرئيسي بين يديك، عندما نتسلق إلى الحافة المقابلة للمنحدر، وقل لنفسك "امض قدمًا، إلا الأمام فقط"، وهذا سيساعدك، سأعمل أنا على السوط، وإذا ابتسم الحظ؛ سنخرج، وبالمناسبة يا بارسخان، خذها، خذها، من فضلك، وضعها على عنقك، أخشى أن أفقدها عند الارتباك.

أضاف، وهو يخرج التميمة السوداء المثلثة من حضن المسبحة، ويسلمها لي وأنا نازل من العربة إلى الأرض:

- انتبه! لا تُضعها! بالمناسبة، لا تنس أن تحمل إلى سليمان الغرير الذي اصطدته أنت.

- أنت ستعطيه إياه بنفسك.

- يا عزيزي، هل بقيت لي أية ذاكرة؟ العقل ترك آتا، ضع في الحسبان أنه إذا أصبح سليمان صحيحًا سالمًا مثلك، في الحال سأُسلِم روحي إلى الله، بدون ندم، كنت سأغادر، التعس! ماذا يمكنك أن تفعل؟

عندما نزلنا إلى الوادي من المنحدر القريب، وقفت أمام الثورين قائلاً: "حسنًا، حسنًا"، كما لو كنت أضغط على المَكابح، لكن العربة استمرت في النزول، على الرغم من الجهود اليائسة للثورين، زحف النير على الفور، واستقر في القرون الواسعة، مهددًا بقطع رأسيّ الحيوانين المسكينين.

متحركًا ببلاهة، مخاطرًا بتمهيد الأرض تحت حوافر الثورين، هرعت على نحو أعمى، بدون أن أفهم كيف تمكنت من الخوض وقطع التيار العميق، الآن يجب علينا، - دون التقليل من الوتيرة - القفز والصعود إلى الحافة المقابلة، قبل قليل كنت أوقف الثورين، والآن يجب منحهما الحرية، وسحب العِنان بشكل أقوى، والسعي إلى الصعود إلى الحافة الأخرى من الوادي، سحبت بجهد، وبجدية تامة، مثل رجل قوي تدفعه الثقة بأنه لن يكلفه شيئاً سحب الثورين والعربة الضخمة بسحبة واحدة، انزلقت قدماي الحافيتان في طريق موحلة لزجة كالصابون، وليس هناك رابية للراحة.

- آه، آه، آه، يا إلهي، يا أرواح الأجداد!

هاج أتاليك آتا، وبالسوط وبخ الثورين.

عندما وصلنا إلى منتصف الوادي بالضبط، ظهر على الثورين الإعياء، فتمطيا كخيط القوس، وتجمدا في هذه الوضعية فجأة، زلت قدماي من الثقل المتواصل للعنان، ووقعتا تحت أقدام الثورين، فور حدوث ذلك، يا للمصيبة، تحركت العربة وتدحرجت إلى الخلف، لا أعرف حتى كيف تمكن الرجل العجوز من القفز منها، حاول على الفور بكل قوته أن يوقف العربة، محاولاً إبطاء تقدمها بكتفه منتقلاً من الجانب الأيسر، في لحظة ما سُمعت طقطقة، وتدحرجت العربة في اتجاه واحد، وانقطع حبل القنب الذي كان يربط الحمل، وبدأت جذوع الأشجار مع الحفيف تزحف إلى الأرض الواحد تلو الآخر.

سمعت الصرخة المتوترة لأتاليك آتا:

-أخرِج الحلقات من النير!

بسرعة محمومة تمكنت من سحب الحلقات الحديدية من النير، إذا لم أفعل أنا ذلك، فإن العربة المنقلبة كانت ستلوي عنقيّ الثورين، لقد أنقذتهما... ولكن أين آتاليك آتا نفسه؟!

- آتا! آتا!

لا إجابة... تتناثرت جذوع الأشجار المتساقطة في اتجاهات مختلفة، وصعدت عجلات العربات نحو السماء، لم يكن للعجلة الخلفية أي حافة، ولم يكن هناك سوى المحور، هذا التحطم الكامل حدث للتو.

- آتا! آتا!

بهياج قلق كنت أدور وأتعثر حول كومة الأشجار المكدسة، ظلام دامس، حتى لو قلعت عينيك، ومطر لا يتوقف، يحرق ويحرق، لا أشعر إن كانت هناك ملابس على جسمي أم لا. من رأسي إلى قدمي مغطى

بأوساخ لزجة، بدأت أفرز جذوع الأشجار واحدًا واحدًا، الجذوع ثقيلة جدًا، كان يحملها رجلان وبصعوبة أثناء التحميل، تعرفت على آتا الذي كان مستلقيا ساجداً بعد أن تعرض لكدمات قوية، بعد أن شعرت برأسه وكتفيه:

- آتا، عزيزي، كن صبوراً! أنا هنا، الآن سأقلب كل شيء.

قلت وأنا أحاول الإمساك بالنهاية الأكثر سماكة للجذوع، وسحبها جانباً.

- آتاتاي! آتا!

بالكاد يُسمع أنينه، كان الجزء السفلي من خصره لا يزال تحت الخشب، وبكلمة واحدة: "وجهه ملطخ بالطين"، بعد أن أقمت رأسه؛ أحاول مسح وجهه بزاوية قميص مبلل تمامًا.

- آتاتاي! آتا!

لو كان لي صوت رنان كصوت المهر، لطار بكل قوة يشق عباب السماء. وما لا يسمعه الله، لن يستطيع الإنسان سماعه، ولكن من مكان ما في الخلف جاء شيء يشبه وقع حوافر حصان راكض، وبالفعل، من الجانب الآخر من الوادي، أسرع باتجاهنا فارس حقيقي على حصان، شاقًا طريقه من خلال طين الطريق.

- أوه، أيها المسكينان، لقد وقعتما لا محالة في هذه الورطة،كأنني شعرت بإحساسي الداخلي بأن مثل هذه المصيبة ستهاجمكما، فلم أجلس في المنزل، وأسرعت وراءكما.

قال العجوز ساغيمبيك أكسيكال(11) ، وهو يقفز من على حصانه.

انكببنا كلانا، قمنا أولاً بتنظيف أتاليك آتا من بقايا الركام الخشبي، وعندما رفعناه من وضعية السجود ووضعناه على ظهره، قال بصعوبة كبيرة: "آه!"، بدا لي أنه وقف بطوله الكامل، كأن الانحناء في ظهره -صدقوا أو لا تصدقوا- تلاشى تمامًا.

(11) أكسيكال – صيغة لمخاطبة الأشخاص في السن المتقدمة، ولكنها، بالاختلاف عن آتا، لا يستخدمها الصغار، وإنما الأشخاص الكبار الغرباء.

جنبًا إلى جنب مع ساغيمبيك قمنا بتحريك العربة الواقعة إلى هنا وهناك، حتى أوقفناها على العجلات مرة أخرى، ووضعنا النير على الثورين، وجلبناهما إلى حافة الوادي، ورفعنا المحور في العجلة المكسورة، وربطنا به الجذع الأقل سماكة، وجعلنا منه مقبضاً. ثم سحبنا الجذوع إلى العربة الواحد تلو الآخر، ولكنَّ رفْعَ آتاليك آتا كان أشد صعوبة من سحب الجذوع، فمِن أدنى حركة كان يئن بصمت، ويتألم بشدة، وعلى الرغم من الإرهاق الشديد؛ رفعنا الجسم المجهد بعناية، ووضعناه على الجذوع.

بدأ الطريق بالانحدار، وسار الثوران بسهولة وبدون إجهاد، ساغيمبيك أكسيكال على حصانه، وأنا تمركزت على الجذوع، الأمطار الغزيرة بدأت تهدأ، وصارت السماء صافية، يضيئها القمر، والنجوم التي يغمز بعضها لبعض، كانت تضيء في الأعلى، بدت خطوط الطريق الترابية واضحة، لا تسمح للمرء بأن يضيعها، على رقبتي القلادة (المسبحة مع التميمة السوداء)، أمامي يستلقي الغرير الذي اصطدته، والذي سأقدمه لسليمان، ولكن، إذا لم يتعاف أتاليك، لمن سأسلم التميمة السوداء؟ ليس لدي أي فكرة، عند النظر إلى أتاليك آتا لا أجرؤ على سؤاله عن ذلك، في حين كان يبدو كجذع وضع للعرض، مستلقٍ، وممتدٍ بطوله الكامل.

ربما هذا هو السبب في أنه يبدو لي أنه سيوضع جنبًا إلى جنب مع الجذوع على سطح مدرستنا، وسوف يدعم هو جزءًا من أهم أجزائه، كانت العربة ذات العجلات الثلاث تتدحرج ببطء نحو القرية التي سترمَّم مدرستها حتمًا، في روحي بكاءٌ، وفي حلقي مرارة، ولكن في عيني لا توجد دموع، يبدو أنها جمدت، كمن حدَّق بشكل غير ودود في شخص ما، مثل رجل مصدوم عائد من الجبهة.

أكيم تارازي

(ولُد عام 1933)



- كاتب مسرحي كبير ومعروف على نطاق واسع بين القراء بأعماله الفنية الكبرى المكتوبة ببراعة.
- تخرج في كلية فقه اللغة بمعهد آباي الكازاخي التربوي عام 1955، وحصل على دورات عليا في فن السينما بوزارة الثقافة بكازاخستان عام 1962، وخرجت أول أعماله إلى النور عام 1956 بعنوان "النجمة الشريرة".
- قام بتأليف العديد من الروايات والقصص مثل: "فناء أكبيردي"، "القرية الكبيرة"، "الطريق الجاف"، "بنى عشه على السحاب"، "نبات السفرسالارجواني"، "الحب العذري"، "من قمم جبال كاراتاو"، "المنجم"، "التاج"، "الحزن والحسرة"، "الغدر"، "الليالي المطيرة"، و"طيورالكُركي"، وقد لاقت كل هذه الأعمال ترحيبًا كبيرًا من جمهور القراء.
- تم عرض الكثير من المسرحيات التي كتبها على خشبة المسرح، ولاقت استحسان الجمهور، ومن بينها: "الكوميديا غير الضاحكة"، "رجل طيب"، "الفارس المحظوظ"، "الفتيان"، "الشاعر والملاك والحب"، "السقم"، "ماخامبيت"، "النجمة المزينة بالريش"، و"الحب العذري".
- كما كتب تارازي العديد من سيناريوهات الأفلام، ومن بينها: فيلم "أرمان أتامان" عام 1965، فيلم "طلقة في ممر قاراش" عام 1972، "أثر الحصان المُجنح" عام 1984، "مصطفي شوقاي" وغيرها من الأعمال.
- تُرجمت العديد من أعمال تارازي إلى اللغات الأجنبية، وقد أثرت أعماله في الأدب الكازاخي وأسهمت في تنوعه.
- شخصية مرموقة، وقد حصل على جائزة الدولة من جمهورية كازاخستان.

القصاص

(الكرة الزرقاء تلف، وتدور تلف، وتدور فوق الرأس

تلف، وتدور، تريد أن تسقط...

تريد أن تسقط... تريد أن تسقط)

أغنية قديمة

ترجمة: د. محمد رياض غلوش

"كتبت هذا العمل صغير الحجم (باللغة الكازاخية - بعنوان جازا) تحت التأثير المباشر لانتفاضة ديسمبر عام 1986 التي قام بها الشباب الكازاخي في مدينة ألماتي، وكما يقولون، أثناء أحداثها الساخنة، ولكن لتجنب سوء الفهم الذي كان مصير الكاتب زاخرًا به حينذاك، اضطررت إلى تزويده بمقدمة؛ حيث أكدت للرقباء اليقظين، وآخرين غيرهم أن هذا العمل هو ترجمة من اليابانية، الحمد لله، لقد ولى هذا العهد، ويمكنني الآن أن أستعيد بجرأة مؤلفي الخاص، آمل ذلك، للأبد، آمين".

في الصباح الباكر، عندما كانت المدينة بأكملها نائمة، دوت بالقرب من حضانة الأطفال الحكومية رقم اثنين الواقعة في الحي رقم واحد، صرخة مفجعة، كأن مغنيًا أوبراليًّا عديم الموهبة قد قفز إلى خشبة المسرح، وقرر مستغلًا غياب الإدارة أن يثبت للعالم موهبته غير المحدودة، ولكن مهما حاول كان صوته الأجش يخذله، كان يخذله، حتى إنه ألحق العار بصاحب الإمكانات النادرة أمام جمهور كبير من المتقاعدات عن العمل اللاتي أخرجن رءوسهن الفضية الرمادية الموقرة من جميع نوافذ المنازل المصنوعة من الكرتون والبوص ذات الطوابق الخمسة، إن القوة الخلاقة العظيمة هي فضول سيطر على الرءوس الفضية الرمادية الموقرة، و.... كانت المتقاعدات عن العمل هن أول من غادرن غرفهن الصغيرة الخانقة، وتجمعن مثنى وثلاث، ثم هرعن بصمت صوب حضانة الأطفال البائسة رقم اثنين.

وبينما لم يفكر أحد ما في الاتصال بقسم الشرطة، وبينما كان المناوب الليلي الناعس بالقسم يتذكر أنه وفقًا للوائح كان عليه أن يستجيب لبلاغ الخطر، وبينما لم يكن راضيًا أنهم لم يسمحوا له باستكمال مشاهدة الحلم اللذيذ مع الفتيات الساقطات اللاتي كن تحت حراسته، وبينما تمكن الشخص المسئول وهو يتنفس بصعوبة، ويغمغم من تشغيل سيارة العمل البالية ماركة واز من الوصول إلى حضانة الأطفال الحكومية رقم اثنين وهو

يتخبط عبر الشوارع المظلمة بالمنطقة الموكلة إليه، ضعفت الصرخة المفجعة، وتحولت إلى نَشِيج لا يهدأ.
وبينما لم ير الشخص المسئول سالف الذكر بعينيه الرسميتين الحادتين الرعب الكامل للصورة الرهيبة التي خلقها الشرير المجهول، وبينما كان يبلغ الشخص الذي ينبغي إبلاغه، بعد أن أدرك كيف يتصرف في هذا الموقف، وبينما كان ذلك الشخص الذي من المفترض أن يعرف كل شيء، ويقرر كل شيء قد عرف كل شيء، وقرر كل شيء، وحاصرت فصيلة من قوات الداخلية حضانة الأطفال الحكومية رقم اثنين بإحكام – لم تتعجل شمس يوليه الجنوبية التي لا ترحم في الصعود للأعلى بشكل رسمي، وتفريق كل الفضوليين.
لكن... الفضوليون... عرفوا كل شيء، وليس الفضوليون وحدهم من عرفوا، إنما الحي رقم واحد بأكمله عرف بالضبط مع حلول وقت الغداء أن... رءوس رؤساء الحضانة الحكومية رقم اثنين، قد وضعها بعناية جنبًا إلى جنب على سجادة صفراء شخص ما... وبطريقة ما...، بعناية بالغة؛ حيث إن شخصًا ما قد قطعها – دون أي نقطة دم (!)... علاوة على ذلك، تم تحويل رءوس الثلاثة إلى اليسار، كما لو كان ذلك قد تم بأمر شخص ما.
لكن... فيما بعد أصبح من المعروف جيدًا أن الرقاب الموضوعة بعناية على هذا النحو هي رقاب آنا أندرييفنا بترينكو مديرة حضانة الأطفال الحكومية رقم اثنين، ونور الدين سعيدوف رئيس القسم الاقتصادي لهذه المؤسسة الحكومية، و... بايباك ملشيبييف، رئيس قسم التعليم العام في المقاطعة.
بحلول المساء، علم جميع المتقاعدين في المدينة أن رجال المباحث السوفييت البواسل عثروا بسرعة على القاتل المتوحش العم ستيوبا، زوج آنا أندرييفنا، الفاسق السكير الصلد الذي لا يكف عن الشراب قط، إنه شخص فاسق؛ فقد نام في المخزن الضيق لمؤسسة الأطفال، وكأن شيئًا لم يحدث، وتم العثور لديه على سلاح الجريمة... وهي فأس ذات مقبض أسود... ملوثة بالدماء... مع بصمات واضحة للبائس الفقير ستيوبا.

كان قلبه يئن بسأم، لا! إنه لا يئن بسأم، ولكنه كان يبكي، وخطر سؤال في ذهنه: "وهل القلب يستطيع أن يبكي؟" وسأل نفسه بطريقة غريبة وهو لا يزال في حالة من الهذيان: "هل يمكن للإنسان أن ينغمس في التأملات أثناء النوم؟!" – "إن هذا يعني، أنني ما زلت على قيد الحياة!!!" أين هو! ا لقد اختبأ المشاغب، اللئيم! حسنًا، استيقظ! هذا هو صوت كانو... إنه كوانتاي، "إنه جبان مثل الأرنب... انظر كيف تجرأ... أن يقول لي: أنت (!)..." – انهض! انظر إنه يتظاهر بأنه نائم! – كان هذا هو الصوت المليء بالدخان، والأجش للمرأة السمينة التي تشبه الرجال، ميلا، ميلانا، كما تسمي نفسها عادة، – حسنًا، هيا، انهض! تنتظرك مصيبة، أيها البائس..." لم يكتف هؤلاء الأرانب الجبناء بالتجرؤ، بل سمحوا لأنفسهم بأن يوجهوا الإهانات... إهانة من؟ إهانته هو!

الأفغاني(1) "أبو"!!!

تحول "أبو" كعادته في عُشر من الثانية إلى زنبرك فولاذي فائق المرونة، ووقف على قدميه قافزًا من حالة الوضع راقدًا، واتخذ وضع الثبات! ووفقا لعادته الأبدية قام برفع ذقنه قليلًا، وقال بصوت عميق واضح:

- إنني أخدم الاتحاد السوفييتي!

الآن... لا أعرف زملائي كأن أحدًا ما قد قام باستبدالهم في ليلة واحدة: لم يعرف كوانتاي الذي سماه "أبو" في ذهنه الشخص الشمعي ضعيف الإرادة، ولم يعرف ميلان التي سماها في ذهنه الجندي بسبب خطواتها الصلبة الواثقة المتأصلة في ضباط الأفراد المتقاعدين، والآن ليس بحاجة إلى أن يعرفهم، كان كوانتاي يسير... وبشكل أكثر دقة، لم يكن يسير، بل كان يخطو إلى الأمام بسهولة، لاحظ "أبو" أن الجراب البالي لمسدس الخدمة التابع للرقيب كوانتاي كان مفتوحا بإهمال، (مثل فم بلا أسنان لسيدة عجوز!، لقد استطاع "أبو" أن يقارن) يعني... أنه تحسبًا للظروف وضع المسدس في جيب بنطلون ركوب الخيل عتيق الطراز! يعني..." - تمكن "أبو"، بعد أن نظر بسرعة إلى الخلف، من أن يلاحظ أن ميلانا السمينة تسير وراءه بطريقة عسكرية، وهي زميلته المسالمة ميلان... كانت تمشي خلفه بخطوات صلبة واثقة... كما لو أنها تحمل بيدها اليسرى بندقية، وسبابة يدها اليمنى مثنية، وعلى استعداد للضغط على زناد البندقية الوهمية! تمكن "أبو" أيضًا من ملاحظة أن شعر كوانتاى أشعث مثل كومة قديمة من قش قمح، نسيها فلاح مهمل في حقل الحصاد.

تمكن "أبو" أيضًا من أن يلاحظ أن ميلانا... خنفساء منقطة... كانت تقول من خلال أسنانها الفاسدة ببطء: - وحش!... وحش - وبالطبع، كانت تقصده هو! هو نفسه (!) "أبو"! -... وحش!

تمكن "أبو" أيضًا من أن يلاحظ أن ساق كوانتاي... منحنية بدرجة رهيبة، ونحيفة جدا! تمامًا مثل عجلة الدراجة...

- أيها الرجل! هل أنت أصم؟ ألا أحدثك؟

كشر كوانتاي عن أنيابه ل"أبو".

الفضاء- ألا تسمع؟ - ماذا؟ - أعاد سؤال "أبو" بنفس طريقته - ماذا سألتك؟ - أشار كوانتاي بيده اليمنى إلى الجثث الموضوعة بعناية - كيف حدث هذا؟ قال "أبو"، وهو يقلد كوانتاي:

- إنه عمل بارع جدًا جدًا!

ماذا يقول؟ ماذا يقول؟ بارع - بارع، يقول، عمل، تقول عمل؟ ماذا دهاك، هل جننت؟!

- وحش! - وكادت القبضة الصغيرة لليد اليمنى لميلانا أن تصل إلي أنف "أبو" - وحش!

لم يلاحظ "أبو" كيف ضرب ذراع ميلانا الممدودة بسرعة البرق، وقد اعتراه الخوف من أن يكون قد كسر

(1) الأفغاني -- المقصود هنا أنه شخص حارب في أفغانستان.

اليد اليمنى للسمينة البائسة؛ "حيث إنني أستطيع أن أكسر بسهولة ذراع المرأة المسكينة نصفين!" خافت المرأة المسكينة للغاية، ولاحظ "أبو" أن المرأة قد شحب لونها على الفور، واتسعت عيونها الضيقة، وأصبحت دائرية بشكل غير طبيعي.

توسلت إليه قائلة: – يا صديقي، يا عزيزي، أشفق علي، لا تقتلني، إنني امرأة سيئة الحظ! لا تقتلني، إنني امرأة سيئة الحظ!

برقت في رأس "أبو" فكرة مثل البرق الجاف بالصيف القصير: "لماذا يجب أن أقتل هذه المرأة؟ وهل يمكنني، بشكل عام، أن أقتل كائنًا حيًا؟ لا! وبصفة عامة، ما هو قتل الإنسان؟" مع هذا السؤال، وهذا الاستياء نظر "أبو"، على ما يبدو، إلى ميلانا، وكوانتي، إن أولئك الذين أحضروه للتو تحت حراسة "الهواة" لم يخافوا مطلقًا، وخرجوا تلقائيًا من مكتب المديرة المقتولة آنا أندرييفنا، وخرج "أبو" وراءهم أيضًا إلى الممر الواسع، لم يكن هناك بالفعل كوانتاي أو ميلانا، لقد توقف، ووقف هناك لفترة طويلة كأنه متجذر في الأرض وهو يفكر بشكل مؤلم في شيء خاص به، وسأل نفسه: "ما الذي استطعت أن أفكر فيه للتو؟ " وعندما لم يجد الإجابة، نزل إلى الطابق الأول؛ حيث كانت غرفته تقع بالقرب من باب الخروج؛ كانت هذه الغرفة تقع على الجانب الآخر من الممر، هناك فعلًا عاش العم ستيوبا، الزوج الشرعي للمتوفاة آنا أندرييفنا، أراد أن ينظر إلى المناوب الذي يغير معه نوبة العمل، لكن قوة ما منعته.

كان "أبو" يفكر أثناء وقوفه في وسط الممر الواسع: "لقد أسدى إلى بالأمس صنيعًا طيبًا! لقد قام بالأمس بالمناوبة في العمل بدلًا مني، بالأمس أعطاني ورقة مكتوبة قال فيها: إنه بمبادرة منه، سيقوم بالمناوبة الليلية، وفي أسفل الصفحة أيضًا كتب بيده اليمنى: "هذا بالاتفاق مع المديرة أ. أ. سميرنوفا"، ولكن... هو..." هنا انقطعت أفكاره فجأة"، هل حقًا، يا "أبو"، أنك تبحث لنفسك عن مبرر؟! حسنا، أنت خنفس، يا "أبو"! هل حقًا... هل! أصبحت جبانًا؟ هل حقا أصبحت أحمق؟

عندما خرج "أبو"، صعق بشكل مذهل: فقد ضغط الظلام الدامس برصاص ثقيل أسود من الأعلى على المدينة المليونية بأكملها، كان الجو خانقًا، خانقًا جدًا، كان "أبو" يعرف أن الوقت القصير قبل الصباح يسمى بلغة قومه "الظلام الأسود"، كان "أبو" يعرف أنه في هذه اللحظة بالذات، تتوقف الكرة الأرضية لثانية... لتأخذ القليل من الراحة!!! يعلم "أبو" أنه، هو أيضًا، بحاجة إلى الانتظار قليلًا، ثم سيضيء الكون كله، على الفور، كما لو كان مضاءً بابتسامة طفل بلا خطيئة، تذكر "أبو" طفليه: "آينا" البالغة من العمر ست سنوات، و"بولو" البالغ من العمر أربع سنوات،كان "أبو" مستعدًا للانغماس في الشعور ال"أبو"ي حلو المذاق، لكن في تلك اللحظة بالذات كانت الكرة الأرضية الصغيرة التي اندفعت بشكل متهور نحو اللانهاية والأبدية ترتجف مرة أخرى، وبدأت السماء تضيء تدريجيًا، في هذه اللحظة بالذات، رأى "أبو" كانو– كوانتاي، وبدأ يرتجف أيضا بشكل فجائي... ثم... ثم إنه سوف يتذكر كثيرا هذه اللحظة المخجلة بالنسبة له، عندما سمح لنفسه بأن يرتجف، وهو الشخص رابط الجأش الذي كانت دائرته الضيقة من الخبراء العسكريين تسميه –

الخرسانة المسلحة "أبو"!!!

قام "أبو" المتوتر بسبب أنه سمح لنفسه بأن يرتجف واصفًا نفسه بالتافه، بالتوجه بخطوات حاسمة إلى حيث كان كوانتاي ينتظره تحت "مظلة" حضانة الأطفال، أحس "أبو"، ببصيرته النافذة، كيف أن كوانتاي كان خائفًا بشكل رهيب، وكان على استعداد للهرب، كما يقولون، إلى المكان الذي تبصره عيناه، لكن...

لكن في هذه اللحظة، وفي الوقت نفسه، وبشكل منفصل، دوت صفارات الإنذار من أربع سيارات دفعة واحدة، وحينما زادوا من السرعة، أصبحوا في لمح البصر لدى البوابات العالية لحضانة الأطفال الحكومية رقم اثنين. وتغير على الفور كوانتاي الذي كان على ما يبدو على استعداد لأن يهرب إلى حيث تبصر عيناه، واندفع بشكل متهور إلى البوابة لمقابلة الضيوف المتميزين، كان "أبو" يعرف أن كوانتاي، أستاذ عظيم في التملق "إن كل شخص بارع في شيء ما" -أومضت الفكرة في رأسه.

دون أن يولي "أبو" أي اهتمام لكبار المسئولين الذين خرجوا من سيارة ليموزين، وثلاث سيارات ماركة واز، دخل وهو يسير على مهل مبنى مكونًا من طابقين، وعندما دخل غرفته الصغيرة، استلقى على الفور على سريره الحديدي، وكعادته، أعطى الأمر لنفسه: "نم حتى الساعة الحادية عشرة!" - ونام على الفور.

على الأرض الواسعة لحضانة الأطفال الحكومية رقم اثنين، كانت هناك عدة مجموعات من الخيول الخشبية المطلية، جلس "أبو" على أحدها، وبعد أن بسط ساقيه القويتين الطويلتين، بدأ يتأرجح، هنا خرج كوانتاى من المبنى، وهو يبتسم ابتسامة غامضة، إنه كوانتاي نفسه، العريف كوانتاي، تعرف عليه بالكاد! لاحظ "أبو" أن زميله كان لديه مظهر مظفر، إنه هو وحده العريف كوانتاي الذي يستدعى "أبو" بالسبابة للمجيء إليه وهو يبتسم بوقاحة! "ما هذا! "فكر "أبو"، لكنه وقف مذعنا، ونزل عن "حصانه"، واقترب بخضوع من زميله، في الساعات الخمس التي سمح فيها "أبو" لنفسه بالنوم، تغير كوانتاي بشكل لا يمكن التعرف عليه، "هل أصبح أصغر سنًا، أم ماذا؟"

عندما اقترب "أبو" من العريف، قال ذلك الرجل بزهو، وبفخر واضح، "أنت محظوظ أيها الشاب، يا ابن بلدي"! لقد وُلدت، على ما يبدو، في قميص (2) !

ثم تحدث طويلا بزهو، و... بتخبط، عن أحد العقداء، وأحد الرواد، وعن المدعي العام، والبائس الفقير ستيوبا، وعن الفأس ذات المقبض الأسود، وعن آثار الدماء، و بعد أن غمز بعينه بخبث، أنهى خطبته بشكل مفاجئ: - "الآن يمكنك أن تعود بهدوء إلى منزلك! عاد "أبو" بهدوء إلى منزله"، لكن كيف يكون الأمر

(2) يعنى أنه محظوظ.

خلاف ذلك؟ - "فكر وهو يتجول كالعادة خلال الشوارع الضيقة في الحي رقم واحد" لكن كيف يكون الأمر خلاف ذلك؟" وبطبيعة الحال، وصل إلى "محطته"، واستغرق "هذا الأمر ساعتين"، وانتظر "حافلته" دون أن يتعجل، واستغرق هذا الأمر ثلاث ساعات بالضبط، واستقل الحافلة بهدوء، دون أن يسب أو يلعن، مثل الركاب الآخرين، على الطريق المتعرج رقم 526، ونزل بهدوء في "محطته"، ولسبب ما كانت المحطة تسمى الأخيرة، على الرغم من أنها كانت قبل الأخيرة.

عندما وصل إلى كوخه "الخاص" الذي استأجره بمبلغ 30 روبل (في حين يحصل هو على راتب 60 روبل)، توقف غير حازم أمره، ووقف فترة طويلة، متسائلًا عما إذا كان سيدخل أم... ماذا... نظر إلى ساعته. بالضبط يمكن أن يبدأ "جحيمه" هذا إنك "جبان!" - وصف نفسه بذلك، وتوجه إلى المحطة "الأخيرة". وبعد ذلك... بعد ذلك إلى سنام الجمل، كما سمى "أبو" بنفسه هذا التل.

الآن... الآن، فهم بطريقة ما أنه كان لا يزال يقف على سنام الجمل، وفي كل مكان كان هناك ظلام دامس، وأن حصانه المحبوب أك بوز آت - "الدبة الكبيرة" اقترب من المحيط المتجمد الشمالي، أدرك "أبو": " أن هذا يعني أن الساعة قد أصبحت الواحدة ليلًا".

اتكأت الدبة الكبيرة - الحصان الأبيض - " أك بوز آت " بساقيه الخلفيتين على شبه جزيرة يامال، ورفع ساقيه الأماميتين عاليًا فوق المحيط المتجمد الشمالي، وهو الآن على وشك القفز، والطيران كالرصاصة في المسافة الزرقاء من اللانهاية والأبدية... أدرك "أبو" وفقا لموقع النجوم أن الوقت الآن قد بلغ الثانية ليلًا، "كم من الوقت أقف هنا؟! ماذا أفعل هنا؟ لماذا أنا هنا أساسا؟ تذكر "أبو" أنه عندما تم استدعاؤه إلى الجيش السوفييتي، هبط الجد الأكبر كارا- اسبان، البالغ من العمر مائة عام والذي كان قد تخلى في النهاية عن كل شيء دنيوي، وذهب إلى الجبال، وعاش وحيدًا في كهف تويوك، هبط خصيصًا من الجبال ليبلغ حفيده عبارة واحدة فقط:

- لا تخف من العدو، بل خف من الكذب، يا حفيدي!!!

وعاد إلى الجبل على حماره السريع.

على السجادة الصفراء يرقد هؤلاء "الثلاثة" غير المنفصلين: آنا أندرييفنا بترينكو مديرة حضانة الأطفال المتخصصة، ونور الدين سعيدوف، رئيس القسم الاقتصادي لهذه المؤسسة الحكومية، وبيباك مالشيباييف رئيس قسم المدينة للتعليم الوطني، إنهم راقدون، راقدون بهدوء... لكن... رءوس الثلاثة قد حولت إلى اليسار قليلًا كما لو كان ذلك قد تم بأمر رهيب من شخص ما... كان على رقاب الثلاثة ندوب حمراء متطابقة تقريبًا، وملحوظة بالكاد، لكن كانت الأعين المفتوحة للثلاثة غائمة بشكل متنوع، وقذرة بشكل متنوع! وتدلت للخارج بقوة غامضة ألسنتهم المتضخمة، والمزرقة على حد سواء... الآن فقط تذكر "أبو"، أنه بالأمس، في نفس اللحظة

التي شاهد فيها تلك الصورة "الرهيبة" قد أفلت منه إعجاب غبي عندما قال: "يا لها من مهارة!".

شعر داخل روحه برضى غير مفهوم، "الآن يمكنني الذهاب إلى المنزل"، وأثناء اقترابه من "كوخه" التفت "أبو"، وعرف أن الوقت قد بلغ الساعة الرابعة صباحًا، وهنا... في هذه اللحظة، أحس بضربة! ثم بضربة أخرى! " هذا كل شيء! لا عجب أنني كنت أنتظر هذه الساعة! أريد فقط أن أبقى على قيد الحياة في هذه المرة!... يا إلهي!!!! أريد فقط أن أبقى على قيد الحياة في هذه المرة! أن أبقى حيًا... أن أبقى...

لقد سقط لكن ليس على الفور، لكنه سقط لفترة طويلة، وتأرجح بشكل مؤلم كما تسقط شجرة الحور النحيلة التي أصابها إعصار سهبي(3) عديم الرحمة، لكنه قام بعد أن أدرك بقوة إرادة هائلة أنه يجب ألا يراه أطفاله وزوجته في هذه الحالة: "آينا"، و"بولو"، و"زارا" أحباؤه وأعزاؤه الذين من أجلهم سيتحمل "أبو" كل هذا!!!!

من أجلهم... من أجلهم... إنه، "أبو"، الذي لقب... في أفغانستان من مجموعة مختارة صغيرة العديد لكنها تمثل النخبة ب"أبو" – الخالد –...! قرر "أبو" أخيرا أن... أن... لكنه سقط، سقط بقسوة، لكنه لم يشعر بأي ألم، لقد تحصل على هذه المهارة الفائقة بعدم الشعور بالألم عندما كان لا يزال في أفغانستان، لقد تحصل عليها. تحصل عليها، وكان فخورًا بهذا، وأشاد بذلك فيه الساحر السماوي "إيفاسي" – في الحياة العادية – العريف إيفان الذي كان يتجمد أمامه عندما يقول "ثابت" حتى الجنرالات ومن يعلوهم في الرتبة! "حينذاك تحصل على ذلك، ولكن الآن هنا، هل سيستطيع "أبو"، أن يصل إلى الوادي العميق..." الذي في أسفله... لثلاث مرات... مع ألم هائل تمكن من البقاء على قيد الحياة لإنقاذ "آينا" و"بولو"، يا خالقي! أعطني فرصة للإنقاذ... أدرك بشعور سري أنه وصل إلى الوادي المنشود؛ حيث كان لديه فراش من القش...، و سقط وهو في حالة تامة من الإعياء، لقد سقط.

"سيكون من الجيد أن أنسى، سيكون من الجيد... أن أنسى... أن أنسى...". حاول تلقائيًا أن يتمالك نفسه، حتى لا يفقد وعيه..."أعطني القوة، يا خالقي! يوم واحد آخر... أنقذني من العار..." ، شعر "أبو" أنه نجح في احتضان العالم بأسره، وشعر أيضًا بأن أحدًا ما قد قال له: "قل الكرة الأرضية"، " آه، نعم...." – أراد أن يرد على هذا الشخص، ولكن في تلك اللحظة بالذات، بدأت... الحكة (!) في الدماغ... وبدأت المئات، والآلاف من النمل ترقص على قشرته الناعمة... قشرة دماغه (!) ، ولكن بعد ذلك اخترقت هذه المخلوقات الكتلة شبه السائلة التي يسميها الناس الدماغ!...

" النمل اللعين... أستطيع أن أنتصر على جميع الناس، أستطيع... لكن أمامكم، أيتها المخلوقات، أنا عاجز... عاجز... يا خالقي، ساعدني من أجل طفليَّ، لأنهما ملكان... ملكان... ابنتي "آينا"... وابني "بولو"... من أجل طفليَّ".كان يعلم أنه كان على وشك أن يفقد وعيه، إذن اغفر له أيها الهدف العظيم!" "كيف سأظهر أمامك، ومن سأكون، يا خالقي؟! كيف؟ كيف؟".

(3) نسبة إلى سهوب أو سهول كازاخستان.

كان يعلم أن هذا النمل الملعون سوف ينتقل إلى حنجرته، وإلى أمعائه بعد أن يسخر منه بما فيه الكفاية، من "أبو" (!)، واستولت على أحشائه برودة غريبة... وبدأت أسنان "أبو" ترقص بعصبية على إيقاع "لحن" الصقيع السرمدي... أسنانه... أسنانه البيضاء، القوية، الكبيرة (كان يعرف هذا!) مثل الخيول الأفغانية الشهيرة التي تسابق عليها "أبو" مرارًا وتكرارًا، "أبو" الجريء الذي كانوا يعرفونه، ويبجلونه في جميع قرى الباشتون والأوزبك والقيرغيز والتركمان والكازاخ، كانوا يعرفونه، ويبجلونه، أما الآن فهذا الرجل الجريء يرقد، يرقد، ويتلوى في قاع مجرى نهر جاف، وفي عذابه اللا إنساني عض بأسنانه ساعد يده اليسرى من أجل أن يخفف بطريقة ما من مصيره اللعين. يخفف. على الأقل أن يخفف.... حتى لا يصرخ من هذا الألم الجهنمي، وحتى لا يوقظ طفليه وزوجته.

كان "أبو" يعرف، وينتظر، والآن سيتعامل "ممثلون من الجليد السرمدي" مع ساقيه.... أولًا، سيبدأ هؤلاء "الممثلون للجليد السرمدي" في لي ساقيه، يلوونها، كما تفعل النساء على ضفة النهر الهادئ على مشارف القرية كي يجف بسرعة القميص الوحيد للزوج حين يكون نائما في ذلك الوقت. سيلوون، ويضربون بلا رحمة بأحجار كبيرة أو بجذوع الأشجار القوية المعمرة. سيضربون إلى أن يصل إلى مرحلة الهيجان. سيضربون حتى يفقد الوعي. سيضربون، ويضربون.

كان "أبو" يعرف، والآن، على ما يبدو، قد خف الألم قليلا، ويبدو أنه يشعر بتحسن، ولكن هذه لعبة! هذه لعبة شخص سادي فاسد، سادي، سادي كبير، وعلى ما يبدو، أنه يحصل من هذا على متعة كبيرة.

والآن سوف يقوم "السادي الكبير" بنقل لعبة التعذيب الجهنمية هذه من الرجلين إلى الرأس... ومن جديد، سوف "يقفز" ملايين من النمل الحديدي إلى الدماغ، وهناك سوف تقيم طقوس العربدة الجهنمية! وهذا العذاب لا يمكن أن يتحمله كائن حي، حتى الحمار الميت، لا يمكن أن يتحمل هذا، لكن "أبو" مجبر على التحمل لإنقاذ ملكيه البريئين، لينقذهما، ويأخذهما معه! يأخذهما! إلى أين؟ إلى أين؟ كيف؟ ولماذا؟ ينقذهما؟ من من؟ أدرك "أبو" أن النهاية قد حانت، ويجب أن يقول الكلمة المناسبة في هذه الحالة: يا خالقي! - واستطاع بالكاد أن يقولها... أراد أيضا أن يقول كلمة اغفر، ولكن في تلك اللحظة، تمكن فيما يشبه المعجزة، وبجهد غير إنساني لا مثيل له، من "إحضار" الوجهين الحزينين المتوسلين ل"آينا" و"بولو" على الشاشة الغائمة لدماغه الضبابي و.... تفلتت منه كلمة: أنقذهما أيها الخالق!



كان الضعف الوحيد الذي كانت "زارا" تسمح به لنفسها هو النوم، النوم اللذيذ قبل بزوغ الصباح، في صباح أمس عندما كانت ذاهبة إلى العمل أخبرها "أبو" أنه ربما يغير نوبته في العمل مع ستوبا، مما يعني أن "أبو" لن يبيت في المنزل ليلتين متتاليتين، "وماذا في ذلك؟" "المهم أن تكون بخير يا صقري!" مثل معظم

الكازاخيات لم تكن "زارا" تدعو زوجها بشيء غير يا صقري! كانت تعرف أن "أبو" لم يكن بجوارها، لكن يدها اليمنى الناعسة كانت رغم ذلك، كالعادة، تبحث عن الصدر المشعر، الساخن بشكل حارق، لزوجها المحبوب - "أبو"!... - كانت تغمغم - "أبو"، أنقذهما، أنقذهما! - استيقظت على الفور، وشعرت ببعض القلق - وبدا لها أن "أبو" كان في مكان قريب..." في مكان قريب؟ كيف يكون في مكان قريب؟ " نهضت، وتحركت بالإلهام، وهرعت إلى الخارج في ملابسها الداخلية الحريرية، ومن الغريب أنها ركضت بتهور نحو القناة العميقة، و - وجدته، وجدته.

كان "أبو" في وضع غريب غير طبيعي، لقد قارنت "زارا"، ابنة الصياد الشهير بوساطة النسر الذهبي، وضعه مع وضع سيد السماء، أي، الصقر عريض الجناح الذي يضغط فريسته، الأرنب المسكين، إلى الأرض، كانت "زارا" تعلم أنه يجب ألا توقظ زوجها بصوت حاد أو بحركات حادة؛ لذا جلست على القش بجوار "أبو"، وأخذت تنتظر بصبر حتى يستيقظ، كانت تعلم أنها لا تعرف كيف تبكي، لكنها سمحت فقط لقلبها أن يئن، ويئن ويئن... وأثناء ذلك كانت عيناها جافتين على الدوام.

لقد كانت تتحول إما إلى تمثال حجري، وإما إلى ما يشبه السهم المرتجف الذي انغرس في درع العدو، عندما تكون متواترة للغاية من العذاب العقلي، عند ذلك كانت تكرر بلا كلل: "يا خالقنا، ما الذنب الذي اقترفناه؟! ارحمنا، ارحمنا!"

لاحظت "زارا" أن "أبو" غاضب من شخص ما أثناء النوم" وإلا كيف يمكن تفسير أنه يصر بأسنانه الذئبية بشكل غاضب!" حتى إن "زارا" نفسها قد أحست بالخوف "هل من الممكن أن تتكرر تلك... المحنة الرهيبة؟"

لقد رأت "زارا" الآن فقط ساعد زوجها المعضوض، ورأت ذلك بشكل واضح، كما ترى على الشاشة... اللحظة المتكررة بأكملها من الجحيم الرهيب... لقد عرضت "زارا" على "شاشة" وعيها الواضح، كيف أن أفعى مخططة مثيرة للاشمئزاز، تزحف بصمت وهي تتلوى بشكل جميل إلى عشّ الحمامة؛ حيث ترقد أربعة أفراخ صغيرة، وها هي على وشك ابتلاعها... وهم لا حول لهم ولا قوة! هرعت "زارا" غريزيًا إلى زوجها النائم واحتضنته، كما لو كانت تريد إنقاذ زوجها من هذه المحنة، شعر "أبو" بذلك، فتنهد بعمق وبارتياح، والآن سوف تتحول "زارا" مرة أخرى إلى تمثال حجري، وتنتظر بصبر حتى يستيقظ "أبو"، "أبو"؛ حبيبها.

لا تستطيع "زارا" أن تبكي، فقد جفت دموعها منذ وقت طويل، عندما أخذوا زوجها إلى الجيش الأحمر، ثم أرسل إلى أفغانستان - حينذاك ذرفت كل دموعها، كلها، واليوم هي حجر، تمثال حجري، ولا شيء غير ذلك! وليس لدى التمثال الحجري مفهوم "الوقت"، ليس لديه!

مع ذلك ارتفعت الشمس، مع ذلك صعدت بالفعل، وأشرقت، على ذروة الأنشوطة، كما يقول أقارب "زارا"، على ذروة الأنشوطة، والشمس تخبز كل شيء، تخبز كل شيء، كانت "زارا" مثل قطعة الجليد التي بقيت في لهيب الشمس، وكانت قطعة الجليد تذوب، وتذوب، لكن "زارا" لم تكن تشعر بذلك، فقد أصبحت تمثالًا حجريًا.

لم يكن لدى "زارا" عالم آخر غير عالم "أبو"، و"آينا"، و"بولو"، لا، ليس هناك عالم آخر، أو كوكب آخر، كل شيء غير عالمها زائف وغير حقيقي.

كل شيء غير عالمها كذب، وزيف، وخداع، ومكر، وفساد، كل شيء غير عالمها سياسة، في كلمة واحدة! كل شيء غير عالمها عدائي، ولا شيء غير ذلك!

في الساعة الثانية عشرة ليلًا، جاء شرطيان يستقلان سيارة، وأخذا "أبو".

في الساعة الخامسة صباحًا، أعادوه إلى البيت، ودعه الشرطيان بأدب شديد، حتى إن أحدهما طلب من "أبو" بصوت متملق جدًا، وبلهجة واضحة من التذلل أن يغفر له بسبب شيء ما.

هذا جعل "زارا" تشعر بالرضا، وابتسمت "زارا" لا إراديًا، وعندما غادرا هذان الشخصان، سألته بفخر واضح:

- لماذا يتصرفان على هذا النحو؟

ابتسم "أبو" بنوع من التسامح وقال:

- ذاك أمر عادي، في العمل... لدى زميلي المناوب ستيوبا الذي حدثتك عنه وجدوا فأسا بمقبض أسود...

- آآآه.... الحمد لله! حسنًا! تناولِ الشايَ، واضطجع، وخُذ قسطا من النوم، شرب "أبو" الشاي، واضطجع، ونام على الفور.

نام "أبو"، لكن.... "زارا" أخذت تفكر بعد أن غطت "آينا"، و"بولو" بملاءات السرير المنزلقة، أخذت تفكر... يعني، أنها تحولت مرة أخرى إلى تمثال، حجري ثابت، عندما "استيقظت"، كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحًا، لقد تأخرت عن العمل، حسنًا... هناك زميلات مناوبات، "سأعمل في وقت لاحق".

نام "أبو"، لكن... "زارا" كتمت أنفاسها، وخرجت إلى الفناء كقطة حذرة، ولسبب ما كانت تنظر حولها، ودلفت إلى مخزن صغير ضيق، دخلت ومرة أخرى تحجرت في شكل غير حازم، وشعرت كأنها لص.

كان المخزن يغمره الظلام، وعلمت "زارا" أنه عليها أن تنتظر بعض الوقت كي تعتاد عيناها على الظلام، وحينئذ سوف ترى جميع زوايا "المخزن"، كما سمت صاحبة المنزل بنفسها هذه الزاوية.

وجدت "زارا" بسرعة ما كانت تبحث عنه، وهي تفرز بعناية مختلف الأشياء غير الضرورية، كانت تبحث عن حزمة من قماش عادي.

ثم وقفت "زارا" لفترة طويلة وهي مترددة، هل تفتح الحزمة أم لا، ثم قررت أن تفتحها!

فتحت "زارا" الحزمة بعناية شديدة، وفيها - لقد كانت تعرف جيدًا (!)، ولكنها التزمت الصمت بشكل حكيم... كان مخبأ... فأس سوداء بمقبض ناصع البياض...

ثم قامت "زارا" بحذر شديد، باستخدام سبابتها، "بفحص" الشفرة اللامعة للفأس السوداء ذات المقبض ناصع البياض.

حينئذ فقط اقتنعت "زارا" بأن زوجها "أبو" بعيد عن أي... اشتباه! لا! لا! لا! إن زوجها "أبو" لن يقدم أبدًا على مثل "هذا"، "هذا أمر واضح ومفهوم!"

حينئذ فقط، تنفست "زارا" الصعداء، لكن تنهداتها كانت، كما بدا لها، غريبة نوعًا ما، لم تكن تنهيدة على الإطلاق، ولكنها نوع من الانفجار العفوي.

سوف يحدث الانفجار العفوي في وقت لاحق، في مساء هذا اليوم، أو بالأحرى نحو الساعة الثانية عشرة ليلًا، سوف يطرق شرطيان باب كوخهما بوقاحة، وسيطلبان بأدب شديد من "أبو" أن يتبعهما، وسيقلانه في سيارة ماركة واز.

لم يحدث الانفجار العفوي في ذلك اليوم، كان كل شيء يتم بشكل صحيح، أحضروه إلى قسم من أقسام وزارة الداخلية، واقتادوه إلى مكتب فسيح، ولاحظ على الفور أن المكتب بلا نوافذ، وبعد أن طلبوا منه "أن ينتظر قليلًا" خرج رجال الشرطة إلى مكان ما.

و... مع النهاية، مرت ساعة، وحلت الساعة الثانية، ومرت ثلاث ساعات... لكن "أبو"، رغم أنه منذ الدقائق الأولى كان يشعر بوضوح بأن أحدهم كان يراقبه عن كثب، ولُدهشته، بقي هادئًا تمامًا.

في الساعة الثالثة والنصف دخل شخص ما، كان من المستحيل أن تطلق علي الشخص الداخل إنسانًا إن لم يكن يرتدي زي الشرطة، وأشرطة كتف الرائد.

كان الشخص الداخل يشبه تمامًا إنسان الغاب: كان لديه الأطراف الأمامية الطويلة نفسها التي تصل إلى ركبتيه... خاصة القبضة!.

كان "أبو" نفسه يعرف جيدًا أنه في مثل هذه الحالة كان للقبضة أهمية حاسمة...

أغلق "أبو"، وفق عادته القديمة، عينيه لثانية واحدة، وتلفظ باسم الخالق في ذهنه. و.... استعد.

لكنه... لم يتلق ضربة ساحقة أسفل البطن، في تلك اللحظة بالذات، نظر "أبو" بجرأة إلى عيني المحترف الخالية من أي معنى، المخبأة بشكل محكم، ثم أدرك أن روح الجلاد كانت ترتجف!...

وهنا حدث الانفجار العفوي. الضربة الساحقة أسفل البطن تلقاها إنسان الغاب نفسه الذي يحمل رتبة الرائد. لكن "أبو" قدر بدقة أن يبقى هذا الغبي الساذج على قيد الحياة، بقي الغبي الساذج على قيد الحياة، عندما دخل إلى المكتب الخالي من النوافذ الشرطيان اللذان أحضراه إلى هذه المؤسسة، وقال أحدهما ل"أبو" بأدب جم:

- حسنًا، لنذهب، يا أخي... لقد طلب منا أن نعيدك إلى المنزل مباشرة... مباشرة إلى أحضان زوجتك الشابة! أنت محظوظ! على ما يبدو، أنك قد وُلدت في قميص!

لقد اندهش "أبو"! - لا، بل أصابه الذهول (!) - بعد أن التقط في نبرة صوت هذا الشرطي حسدًا واضحًا (نعم، نعم! - حسد!). " ماذا يعني هذا؟"

عندما ابتعدت سيارة الشرطة إلى متاهة الشوارع المتعرجة، نظر "أبو"، بنية غامضة إلى "كوخه"، ثم ابتسم أيضًا بطريقة غامضة، وسار قدمًا، إلى الشمال، وفي الشمال.... في الشمال حدثت معجزة، بعد أن أحنى حصانه السبع نجوم "أك بوز آت" عنقه فوق المحيط المتجمد الشمالي... انغمس في شرب الماء! "عن هذه اللحظة المقدسة لا يعرف أحد سواي! وفي الكرة الأرضية بأكملها - لا يعرف أحد... سواي!".

اندهش "أبو"، حتى إنه أصابه الذهول عندما رأى أنه كان يقف على "سنام الجمل" (4) ، "كيف ومتى أتيت إلى هنا، يا "أبو"؟ لم يلاحظ؟ هذا يعني أن غلايتك (5) مليئة بكل أنواع القمامة... يجب تنظيف رأسك... وإلا فإنك لن تحقق هدفك العظيم! يا "أبو"! لا تكن مثل ديدان الأرض! إنك، يا "أبو"، لست من الزواحف! تذكر ذلك! حتى معلمك العظيم... "إيفاسي"... الأنف الأحمر... أخبرك بذلك أكثر من مرة،...! "

كان المعلم العظيم في بعض الأحيان، في لحظات الإلهام العالي، يتوسل إلى "أبو" أن يدعوه بالعريف إيفان... لكن كان "أبو" يعلم أن هذه خدعة من الشورافي (6) الماكر، في الأسابيع الأولى من الدراسة، كان العريف إيفان يسمح لنفسه بأن يهين "أبو"، فكان يتحدث من خلال أسنانه بنوع من الحقد:

- أنت، تلميذ كارا أسبان، أنت مسلم مقتول لكنك لا تزال على قيد الحياة! إنني أتحدث إليك بلغة روسية واضحة - أنت غبي، مثل الحمار!

عاش "أبو" ثانية واحدة طويلة... وبعد هذه الثانية الواحدة، الطويلة تمكن "أبو" من سماع الصوت المتأني، الهادئ لجده كارا أسبان:

- لا يمكنك التغلب على الفعل الأحمق للشخص الأحمق، يا "أبو"! إن الغباء عاجز أمام العقل.

وهكذا أنقذ "أبو" من الفصل من الدورات السرية للغاية ساراتاو - 17 جده الأكبر كارا أسبان.

تحمل "أبو" السخرية المتعمدة، وسرعان ما أصبح التلميذ المفضل للأستاذ العظيم "إيفاسي".

تمكن "أبو"، الشاب البسيط من كيجيوسي، خلال ثلاثة أشهر من إتقان الطرق الثلاثمائة وخمس وستين السرية لأن يقتل الإنسان إنسانا آخر، ويبدو أن "أبو" قد لخص الأفكار المتدفقة، لكن... بعد أن نظر حوله مندهشًا... أصيب بالذهول: إن "أبو" الخريج الأكثر إتقانا للدورات السرية للغاية ساراتاو - 17 -الشهيرة غادر بطريقة لم يلاحظها هو نفسه، وأصبح في نهاية الشارع الذي يسمى الأفعى" كيف؟ متى أتيت إلى هنا؟ هل حقا إنني.... إنني.... ".

بعد أن نظر "أبو" إلى ساعته، أصيب بالدهشة أكثر: فقد كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحًا!" كيف؟ ومتى؟ هل حقا أصبت بالجنون... لم يجرؤ على أن ينطق بهذه الكلمة الرهيبة حتى النهاية.

---

(4) يقصد الجبل

(5) يقصد رأسه

(6) الشورافي – هو العسكري السوفيتي الذي حارب في أفغانستان.

لكن "أبو" "سقط" على الفور في هاوية جديدة أكثر فظاعة، لقد كان يعلم أنه في نهاية شارع الأفعى يبدأ مقلب قمامة المدينة، كيف وصلت إلى هنا؟ لماذا أتيت إلى هنا؟ ومن أجل ماذا؟ إن رأسي بدون هذا مليء بالقمامة! إن الكرة الأرضية مليئة بجميع أنواع القمامة!!! إنها كرة مسكينة! شيء مؤسف لي... ولك - إنه أمر مؤسف! وبالمناسبة، القمامة في الشوارع، والقمامة في المدن يمكن إزالتها، والتنظف منها، ولكن كيف، ومن يستطيع أن يزيل القمامة من رأسي؟ كيف؟ كيف؟ كيف؟ كيف يمكنك إخراج القمامة من رأس الإنسان؟ لقد امتلأ كل شيء بالقمامة! إن عقل الإنسان مليء بالقمامة بشكل رهيب! يا خالقي!!! ساعدني!!!

وهنا حدث شيء لا يمكن تصديقه على الإطلاق؛ فقد ركض رجل من الكوخ الأكثر بعدا في شارع الأفعى، وكأنما يطارد هاربا، ودوى صوت أنثوي رقيق وحاد:

- توقف! عد! وإلا، سأقتلك! سأقتلك أنت وكلابك (7) الستة الصغار!

وبجوار "أبو" هرع رجل غريب الهيئة تمامًا، ثم ظهر من نافذة صغيرة رأس أنثوي جميل، ضربت صاحبة الرأس الأنثوي الجميل زجاج النافذة ضربة حادة، انتظر "أبو"، المذهول، أن تخرج المرأة ذات الرأس الجميل من النافذة المكسورة لكنها ركضت إلى خارج المنزل، ربما، من الباب، وركضت خلف الهارب...

ثم بدأ شيء لا معنى له: بدأ الرجل يركض حول "أبو"، وهو يعرج بشكل غريب، وتبعته المرأة.

- لمن ستترك كلابك الصغار الستة؟ قالت ذلك كأنها عبارة محفوظة، لمن؟

يا زوجي، يا زوجي... ظل يركض، ويركض، كأنه يشارك في لعبة ما، ومخطط غبي، وكان عدوه يذكر باللعبة الطفولية "المطاردة والسبق في الركض".

لكن حتى "أبو" لم يلاحظ كيف قفز النمر الغاضب نحو المرأة، وتمكن من انتزاع خنجرها اللامع من يدها اليمنى...

ثم بعد ذلك، ثم بعد ذلك... توقف الرجل والمرأة فجأة، وبشكل حاد، كما لو كانا قد اتفقا على ذلك مسبقًا، و بدأ كلاهما يتوسل إلى "أبو"، وهما ينظران إليه بخجل:

- سامحنا، من فضلك... سامحنا، من فضلك، سامحنا، من فضلك!

الآن فقط، "وجه" "أبو" عيونه الفوتوغرافية إلى هذين المخلوقين الغريبين الغامضين و "التقط" أن الزوج قبيح الوجه، ولُديه كل الملامح المميزة المناسبة لهذه الحالة، والزوجة، كما يقولون، جميلة كأنها لوحة مرسومة: فهي شابة، رشيقة، وعيونها سوداء كبيرة، وصافية، و.... جسدها منمنم، وأنيق بشكل خيالي.

الآن فقط رأى "أبو" عن غير قصد عيون الزوج القبيح، رأى، وارتجف، واخترقت بعض الإبر الباردة والحادة قلبه، هذه لم تكن عيونًا، في الفهم العادي للناس، بل كانت الكون نفسه! لكنها، كانت كونًا دون نجوم، إنها لم تكن سماء ليلية، بل كانت الخلود واللانهاية.

فجأة.... توقف بحدة هذا القبيح، وقال بوضوح وهو ينظر إلى "أبو" بثبات، وينظر إلى "أبو" بفضائه الأزرق:

---

(7) تقصد أبناءه الصغار.

- تعال إلى كوخي... وسأقول لك! سأقول لك! حتما سأقول لك! لنذهب! ادخل!

فيما بعد سيندهش "أبو"... سيحاول أكثر من مرة أن يفهم معنى هذا الموقف الغريب الذي أصبح مشاركًا فيه بشكل مفاجئ وهو "الشورايف" الهادئ ذو الدم البارد، كما كان يسميه المجاهدون، والآن، الآن دخل الكوخ الأكثر فقرًا، وتمكن فقط من الاندهاش من قلة الأثاث.

لكنه... اندهش أكثر، وهو الشورايف الهادئ ذو الدم البارد عندما رأى العيون الخائفة للأطفال الستة، القابعين في زاوية الغرفة، وعلم أن "الابن الأكبر يبلغ من العمر عشر سنوات، والأصغر سنتين...".

- حينئذ قال "أبو" الأولاد الستة المسكين خطبة نارية، وهو يقف في منتصف مسكنه، وبسببها، على ما يبدو، ركضت خلفه المرأة حاملة في يدها خنجرًا صغيرًا حادًا.

قال.... الفقير، بعد أن وجه عينيه الكونية الجميلة الصافية إلى "الأفغاني" المندهش:

- عندما يحدث مثل هذا القبح في جميع أنحاء العالم، وعندما تبدأ سلطتنا السوفييتية المحبوبة تصب المخزون الجهنمي تحت أرضنا، من بحر أرال إلى بحر قزوين، على عمق كبير؛ حيث الآلاف والآلاف من قنابل الهيدروجين، والنيوترين التي يمكن تفجيرها في ساعة الصفر... كيف يمكن النوم بهدوء؟ لقد قررت الذهاب إلى أوستيورت (8) ، لإجبار القوة السوفييتية على تفكيك المخزون الجهنمي الذي يمكن أن يحول الكرة الأرضية بأكملها إلى غبار، وهي الكوكب الوحيد المأهول بالسكان في الكون كله! هل تفهم أيها الشاب؟! ادعمني، وأقنع زوجتي الحمقاء بأن تسمح لي بالذهاب دون فضيحة... حتى أتمكن من إنقاذ كوكبنا الأزرق! أقنعها! أقنعها! أنا خبير ألغام ممتاز! إنني أمتلك هذا التخصص!

لم يعرف "أبو" الغاضب كيف يتعامل مع هذا الموقف المجنون الذي دخل فيه عن غير قصد، ونظر بعجز إلى المرأة الشابة الجميلة التي تجمدت انتظارًا لحكمه، أو بالأحرى، تجمدت انتظارًا لتقرير مصير أبنائها الستة الذين لا حول لهم ولا قوة القابعين في أحد أركان الغرفة، وبدا ل"أبو"، أن حل هذه القضية متوقف عليه هو وحده الآن، وأن يكون كوكب الأرض، أو لا يكون، كما ينطق دائمًا بطريقة فكاهية الكلمتين: الكرة الأرضية... قال "أبو" الغاضب بحزم:

- اذهب، يا معلم، اذهب إلى أوستورت، اذهب! أنقذ، يا معلم، أنقذ البشرية من النوايا السوداء للسياسيين الأغبياء! وذهب "أبو".... ذهب بدون أن يلتفت.

(8) هضبة بين بحر قزوين وبحار أوال.

دخل "أبو" كوخه، مبتهجًا، حتى، بدا له هو نفسه، أنه يبتسم، لاحظت "زارا" ذلك، حتى إنها قفزت من على اللباد (9) ، معربة بكامل هيئتها عن فرحها وسعادتها، لاحظ الطفلان "آينا" و"بولو" ذلك، فبدآ على الفور في إحداث الضجيج والقهقهة دون سبب يذكر.

بعد أن دخل "أبو" كوخه مرحًا، بدأ في لعب سباق الهجن التي كانت مألوفة في عائلتهم، فيجلس "آينا" و"بولو" بالتناوب على ظهر والدهما، أما الوالد – الجمل – فيحاول " يائسًا رمى المتسابق عن "سنامه"، ومن سيكون قادرًا من الطفلين أن يبقى على ظهر "البورا" (10) الهائج سيحصل على "جائزة" من البونبون، والحلوى.

بعد أن "يخسر" الأب السعيد لصالح أطفاله بشكل رائع، يذهب بهم "إلى السوق البرية" القريبة، مثل ما يطلق على الأسواق التي تظهر بشكل عفوي عند تقاطعات الشوارع الخلفية.

في المساء، عندما عاد "أبو" إلى البيت مع طفليه السعيدين، تذكر فجأة مغامرة غريبة قام بها بمشاركة القبيح، وزوجته، وأولاده، والتي كان من نتيجتها أنه كان عليه، وهو الشخص الجاد دائمًا، أو ما يمكن أن نطلق عليه الشخص الكئيب، أن يهتف:

– اذهب، يا معلم، إلى أوستورت! أنقذ البشرية! أنقذ! ما هذا الهراء؟ ما هذه الهرطقة؟ كيف يمكن لشخص واحد، حتى لو كانت جبهته سبعة أشبار (11) ، كيف يمكن لشخص واحد أن ينقذ البشرية جمعاء؟ كيف يمكن لهذا الشخص المهلهل... الذي يشبه الهدهد، أن ينقذ شخصًا ما؟ ولماذا (!) أطلقت أنا عليه المعلم، وعلى أي أساس؟ إنني على الأرجح سوف أطلق عليه الهدهد! – ابتسم "أبو" ابتسامة عريضة، – لقد وجدت، يا "أبو"، المعلم! "أبو" هو المعلم الشهير في أفغانستان كلها، كما أطلق عليك معلمك، الموهوب "إيفاسي"؟! كيف أمكنك أن تقول ذلك؟

لم يكن هناك جواب... وعندما وصل "أبو" الحزين والغاضب من عجزه عن العثور على إجابة على السؤال الذي بدا له بسيطًا، لم يجلس إلى مائدة الطعام، وقال إنه قد تأخر، ثم ذهب مسرعًا إلى العمل.

في الساعة الثامنة مساء استلم من الرقيب ميلانا حضانة الأطفال الحكومية رقم اثنين، وكان "أبو" يعرف أن ميلانا تشعر بالرضى الشديد عندما يناديها الزملاء بالطريقة العسكرية، قائلين لها: "الرفيق الرقيب!" حينئذ تصبح مهذبة جدًا، وطيبة جدًا، وتلمع عيناها... تلك المرأة السمينة، لكن ميلانا الساطعة لا تفقد

(9) اللّبَدُ أو اللُّبّادُ هو نوع من القماش تُصنع معظم أنواعه من ألياف الصوف بشكل كامل أو بنسب منه.

(10) الجمل

(11) المقصود هنا أنه إنسان ذكي

اليقظة قطُّ؛ لأن الرقيب السوفييتي لا يمكن أن يكون أبلهَ!

كان "التسلُّم" يستغرق حوالي ساعة – وهو " إجراء" شكلي بحت، أخذت ميلانا بيتروفنا ممثلة السلطة، كما تصف نفسها في كثير من الأحيان، "أبو" إلى فناء واسع أو فصل دراسي، وفتحت مجلدًا ضخمًا قذرًا، ثم سلمت الحارس الليلي، وهذا هو المسمى الوظيفي ل"أبو" المدرج في قائمة الموظفين، جميع عناصر الممتلكات، وهي تقرأ بصوت عال، وبوضوح الاسم الرسمي للعنصر، مثل: "كرسي"، "سجادة"، "مكتب"، وعدد "القطع"، ووضعت مقابل الشيء المشار إليه طائرًا، وجعلت، "أبو"، يوقع "أمامه".

في الوقت نفسه، لم تضع ميلانا "ممثلة السلطة" ولو لمرة واحدة، توقيعها أمام أي عنصر من عناصر "الممتلكات الحكومية"، وما كان يحدث سابقًا حدث اليوم، لكن مع اختلاف واحد طفيف.

عندما انتهت "مراسيم التسليم" هذه بنجاح، وثرثرت ميلانا بتروفنا خلال ساعة كاملة عن كل شيء يحلو لها ماعدا الشيء العقلاني الذي كان "أبو" المسكين يفكر فيه بشكل مؤلم خلال الأيام الثلاثة الماضية، هتف "أبو" المسكين داخل روحه، "يا خالقي، لماذا يكون الفراغ مجوفًا؟".

عندما انتهت مراسيم التسليم أخيرًا، وابتسم زوج ميلانا، وأقلَّ المبتسمةَ السعيدة في سيارة قديمة ماركة "موسكوفيتش"؛ شعر "أبو" فجأة بالارتياح، وتذكر الرجل الهدهد على الفور، "حسنًا، لماذا؟ لماذا سميته المعلم؟ كيف يصبح معلمًا لي هذا الهدهد؟"

لكن... تحول فجأة هذا الارتياح المكتسب إلى حزن: " أي نوع من الأشخاص أنت، يا "أبو"؟ هل نسيت هؤلاء الأطفال الستة عراة البطون، أطفال الرجل الذي سمّيته معلمك؟ إنك قد حكمت على هؤلاء الأطفال بالموت جوعًا، كيف أمكنك أن تنسى هؤلاء الأطفال الثماني عشر الصغار الذين باعهم الثلاثة(12) النهمون إلى الأجانب الأوغاد؟ كيف؟"

ولأن "أبو" كان في هذه الحالة المضطربة، لم يتمكن حتى من أن "يتسلم" من ميلانا بيتروفنا أولئك الأطفال الاثني عشر... الذين...

وبما أن "أبو" كان في مثل هذه الحالة المضطربة، لم يلاحظ كيف سار بشكل نشيط، وصعد إلى الطابق الثاني، وفتح بقوة الباب الحديدي الثقيل للفصل الثالث عشر.

كان في هذا الفصل الثالث عشر، هؤلاء الصبية الثلاثون الذين جمعهم، وأحضرهم منذ شهر واحد نور الدين سعيدوف، رئيس القسم الاقتصادي في حضانة الأطفال الحكومية رقم اثنين، والذي برر تصرفه بأسباب إنسانية.

عقد الثلاثة في ذلك اليوم نفسه "الاجتماع العام للموظفين"، وأعلنوا... أنهم يشعرون بالحزن تجاه الأطفال اليتامى... وأنهم قرروا أن يوفروا الإقامة لهؤلاء الأيتام البائسين، قولًا واحدًا... الثلاثة...

(12) يقصد الثلاثة المقتولين والذين كانوا يديرون الحضانة الحكومية.

وعندما أخذ نور الدين سعيدوف، اليد اليمنى لآنا أندريفنا،، في اليوم نفسه، أثناء النوبة الليلية، ثمانية عشر طفلًا من أصل ثلاثين طفلًا، في سيارة مقفولة إلى مكان ما، ظهرت لدى "أبو" بعض الأسئلة... لأنه... لأنه، منذ شهر، عندما كان "أبو" يناوب، أخذ نور الدين سعيدوف في السيارة نفسها الخالية من النوافذ "لأسباب إنسانية" 40 طفلًا تم جمعهم من القرى الأكثر فقرًا.

حينئذ سأل "أبو" في تلك المرة:

- أنت، يا نور الدين، تقول "القرى الأكثر فقرًا"، وهل في كازاخستان قرى أكثر غنى؟!

رد نور الدين على هذا السؤال بقهقهة عالية جدًا، حتى يمكن القول إنها كانت قهقهة مدوية، وبعد أن ربت على ظهر "أبو"، أنهى فجأة وبشكل قاس قهقهته المدوية مع الثناء:

- أحسنت، يا "أبو"! أنت تحسن القراءة والكتابة! لكن هل تعرف إلى أين تؤدي معرفة القراءة والكتابة الجيدة؟

سأله "أبو":

- إلى أين؟

قال نور الدين وهو يبتسم بسخرية:

- إلى الجحيم، يا عزيزي "أبو"! إلى الجحيم!

"يا خالقي! إن، هذا التافه، يهددني، أنا (!) أنا... بالطبع، كيف يتأتى لهذا الوغد نور الدين أن يعرف أن الجحيم الحقيقي لا ينتظرني أنا، وإنما ينتظره هو... نفسه..." - فكر في ذلك... حينئذ... "أبو"... ولكن، وفقًا لعادته القديمة، كان... يشك في ذلك الوقت في "بعد نظره".

وهنا، تذكر "أبو"، أنه، قبل ثلاثة أيام، قد وبخ نفسه قائلًا: "أنت، يا "أبو"، اعرف مكانك!... وهذا لا يستطيع أن يعرفه سوى خالق الخلود واللانهاية!"

هذا بدأ فيما بعد، بعد ساعتين.

في البداية أخذ "أبو" حمّامًا، ولحسن الحظ، فاليوم هو يوم الأحد، في هذا الوقت لم يكن في المؤسسة كلها أحد سوى "أبو"، ولأنه كان واثقًا من ذلك؛ لم يتعجل، واستمتع بالوحدة طويلاً، طويلًا، وكان الدش باردًا... مياه ألماتي الجبلية... الأسطورية... ثم ذهب، هانئًا، إلى "مكتبه"، واستلقى على سرير حديدي ضيق، هنا أرضه، وفيما يبدو، أنه أخذته سِنةٌ من النوم، وأيقظته فكرة مبهمة ومقلقة، نظر إلى ساعته: كانت الساعة تشير إلى العاشرة بالضبط.

لقد تذكر أن نور الدين الغبي ابتسم بوقاحة، وقال له:

- يا "أبو"! إلى الجحيم يا عزيزي "أبو"، إلى الجحيم!!!

" وأين هو الآن، هذا الغبي القذر؟ أين؟ في الجحيم، بالطبع! في الجحيم!" حينئذ وبخ نفسه على الفور وقال: "يا "أبو"، أنت، يا "أبو"! المطرود من صفوف النخبة الفائقة... الآن، لا أحد يحتاج إلى الرائد "أبو" الذي تم تخفيض رتبته..." إن كلمة "الجحيم" قد استدعت في ذهن "أبو" عبارة "عتبة جهنم"، وهذه العبارة الغريبة، بدورها، "جذبت" قصة رمزية أخرى: "الفصل"، وبعد ذلك: "الفصل الثالث عشر - عتبة الجحيم،" هكذا سمى "أبو" الفصل الثالث عشر.

لسبب ما تذكر "أبو" تعبيره "الخاص": "بناء من اللحم والعظم"، "من أجل ماذا أقول ذلك؟" " وعمَّن أقول ذلك؟" " آآآه.... إنه عن المتوفى...."

لقد تذكر أنه في الصباح نسي أن يتسلم من ميلانا بيتروفنا أولئك الاثني عشر طفلًا الذين بقوا عندما حدثت تلك المصيبة.

صعد "أبو" إلى الطابق الثاني، فتح "أبو" بسهولة الباب المصنوع من الحديد الزهر الثقيل للصف الثالث عشر، وتجمد مشدوهًا، كان الصف الثالث عشر المشئوم فارغًا، وهذا يعني أن "ورثة" الثلاثة مازالوا هنا، ويعملون.

حسب عادته القديمة، تجمد "أبو"، على ما يبدو، في مكانه، وعندما "استيقظ" بسبب الجرس الصاخب القوي لبوابة الشارع العالية ثنائية المصراع، نظر بطريقة آلية إلى ساعة يده، فأشارت إلى الساعة الرابعة عشرة.

لم يتوقع "أبو" أن يظهر فجأة هذان "الضيفان".

قال أحدهما: - لقد جئنا إليك، يا أخي! - عرف "أبو" أنه العقيد الذي كان يقدم نفسه للآخرين في ذلك الوقت باسم زانجييف، والثاني، يحمل رتبة رائد، وكان يسمى آنذاك إيفستجنيف، لكن "أبو" خمن أنهما "يعملان" بأسماء مستعارة، وحينذاك، تظاهر "أبو" بأنه أحمق، وكان يستطيع، عند الضرورة، أن "يتحول" إلى معتوه... وهذا ما ساعده أكثر من مرة في أفغانستان.

- لقد جئنا إليك، يا أخي! "كررها العقيد مرة أخرى (الآن يرتدي ملابس مدنية)، عندما دخلا الفصل الثالث عشر"، - اليوم هو الأحد، وليس هناك مكان نذهب إليه! فتذكرناك... ورغم كل شيء لقد قضينا معك ليلة كاملة في حديث ودي... استضِفنا! إنك نفسك تفهم أنه في وضعنا هذا لا يمكننا الظهور في الأماكن

الساخنة، ونحن بحاجة إلى أن نحتفل... يا صديقي - أنت تعرفه أيضًا - بالأمس حصل على نجمة أخرى! لذلك... ماذا نحتاج؟ نحتاج، بالطبع، إلى أن نحتفل! الآن هو... هل تفهم؟ هو... مقدم - ضحك بصوت عال، وبطريقة وحشية نوعًا ما أطلق علي نفسه "براتان"(13) .

أخرج الذي سمى نفسه "براتان وزميله المقدم" من سراويلهما العريضة "زجاجتي فودكا" وبعض "المقبلات".

طلب براتان بأدب شديد جدًا، من "المالك"، يعني، من "أبو"، أن يحضر "جميع أنواع الأطباق التي عنده".

أحضر "أبو" أكواب متعددة الجوانب، بعد ذلك، ظلا يقنعانه مدة طويلة أن يشاركهما "المأدبة" يعني أن يشرب الفودكا معهما، لم يستطع "أبو" حتى أن يتحمل رائحة الكحول، حينئذ بدأ الضيفان اللذان اقتنعا بأن "أبو" "مخلوق عديم القيمة"، كما كانا يسميان عادة الممتنعين عن شرب المسكرات، في "غسل"(14) النجمة الجديدة للمقدم. تلا "براتان" جميع الأنخاب تقريبًا، بينما كان المقدم، في الغالب، يهز رأسه.

حاول "أبو" مرتين أن يترك الضيفين بمفردهما، لكنه لم ينجح في ذلك، أمسكه "براتان" الذي كان في حالة سُكر شديد من قفاه، ثم عانق خصره بكلتا يديه، وهو ينظر إليه مثل كلب جائع إلى سيده، وأخذ يكرر، ويكرر:

- لا تتركنا، لا تتركنا، يا أخي، لا تتركنا!

حينئذ حدث شيء رائع: فجأة قفز المقدم، وصاح بصوت رقيق:

- لماذا تمسك الرجل! يجب أن نصلي له!

اعتدل "براتان" وهو ينظر بحيرة إلى المقدم، وسأل بذهول:

- نحن؟ يجب؟ أن نصلي؟ من أجله؟ من أجل ماذا؟

- لأنه أفغاني! من؟ هل هو أفغاني؟ هو؟

- نعم... نعم... هو!

بالنسبة "لبراتان"، على ما يبدو، كان هذا غير متوقعٍ لدرجة أنه صاح بصوت مدوٍّ:

- أنا! أنا أفغاني! هل تفهم ذلك؟ يا أرنب الأرض! هل تفهم؟

- أنا أرنب؟

تحول لون المقدم النحيل إلى اللون الأرجواني، وقفز بحدة من مكانه، وأمسك بطوق "براتان".

تطور الأمر!... وكان عراكًا "حقيقيًا"، مع فترات راحة قصيرة، وعندما كان كلا "الديكين" (كان "أبو" يراهما هكذا)، يستريحان قليلا، يندفع بعضهما مرة أخرى نحو بعض، ويتبادلان الملاحظات المهينة، مثل: "أيها الوغد!" - أو " أيها الخائن!".

خلال إحدى فترات الاستراحة، قال "براتان" بشكل مفاجئ، بعد ألقى نظرة غاضبة على زميله:

- "أنت، يا من يسيل المخاط من أنفه، لا تعرف، ولا يمكنك أن تعرف من كنت في أفغانستان!" إنك لا تعرف!

---

(13) براتان تعني الأخ

(14) الاحتفال.

كان الجميع يرتعد أمامي! حتى الجنرالات! لأنني كنت التلميذ المفضل لدى العريف العظيم "إيفاسي"!!! لقد كنت أفضل خريج الدورات السرية للغاية ساراتاو - 17.

- أنت لا تعرف! ولا يمكنك أن تعرف! هل تعرف، لماذا؟

سأل المقدم الذي كان يتنفس بصعوبة: لماذا؟

- لأنك طفل صغير عديم الخبرة!

انتهى كل شيء، تجمد "أبو" مرة أخرى، وتحول إلى صخرة، وظل مذهولًا لثانية واحدة كأن البرق قد صعقه... ولكن، على الفور، كما هي الحال دائمًا في اللحظات الحرجة، استطاع بشكل تلقائي تقريبًا، وبسرعة البرق، أن يجمع شتات نفسه، لم يتحرك "يعني، أنهما... يعني، أنهما..." - كانا يدوران مثل قصاصات فيلم ممزق، وفكرة، يعني أنهما مستفزان، وقال في ذهنه باللغة الكازاخية، الكلمة الروسية "المستفز".

في غضون ذلك، واصل " المستفزان " العراك بوحشية، استنتج "أبو": "أن هذا ليس عرضًا مسرحيًا، ولكن دفقة من العداء السري طويل الأمد".

ثم... لاحظ "أبو" أنه قد حل المساء.

ثم... لاحظ "أبو" أنه قد حل الليل، ولم يلاحظ كيف قام عن الأريكة، وأضاء النور، أما ضيفاه الجامحان، فقد ناما على سريرين في أوضاع سخيفة.

بعد ذلك رأى "أبو" أن ضيفيه يفتحان زجاجات الفودكا مرة أخرى، "من أين؟ ومتى؟"، وتذكر "أبو" قائده الوحيد العريف العظيم "إيفاسي"، عندما كان، في بعض الأحيان، راضيًا، بل... راضيًا جدًا عن "الخدع" المتعارف على تسميتها ذلك العمل الذي "يمارسونه"، ويربت على كتفه بإعجاب، ثم يقول:

- أحسنت يا تلميذي الكفء! تلك الأعمال التي كان يمارسها 49 متدربًا لدى العريف العظيم كانت تحمل رمز × 365 ×، " من أين تأتى لهذا العقيد الحقير... المستفز... أن يعرف ذلك؟".

كان "أبو" يستطيع أن يتحمل؛ لذلك لم يكن العريف العظيم يخفي عن فتيانه الثمانية والأربعين الآخرين علاقته الخاصة التي تتسم بالاحترام، تجاه "أبو"، وكان دائمًا ما يضرب به المثل، وعندما وصلت القيادة العليا من موسكو، أظهره لهم في النهاية، قائلًا: إن هذا ما نقدمه لكم " كالحلوى" بعد الطعام.

كان "أبو" يستطيع أن يتحمل. واليوم، كان حاضرا، من الظهر حتى منتصف الليل، بصمت، وبصورة شبه خفية، في حالة السكر الجامح للعقيد والرائد، الذي يزعم أنه تلقى نجمة أخرى. " إنهما مستفزان ساذجان"! "وكيف يتأتى لهذين الضابطين العاديين المستفزين جدا، أن يعرفا مع من يتعاملان!"

كان "أبو" يستطيع أن يتحمل، لقد تحمل، وتحمل، وعندما حل منتصف الليل، وعندما اتخذت معارك سكر "الكبار"، كما خيل لهما عن نفسيهما، اتخذت طابعًا مثيرًا للاشمئزاز، قام بهدوء شديد ويمكن القول: إنه أصبح نشيطًا، وأمسك هذين الغوغائيين من مؤخرة عنقيهما، وأنزلهما أولًا إلى الطابق الأول، وألقى بهما إلى

الشارع، علاوة على ذلك، ألقى بهما حتى إن الضابطين وجدا نفسيهما في مياه قناة ري موحلة، قذرة...

كان "أبو" يستطيع أن يتحمل، لكنه لم يكن يشك في عدالة تصرفه، بعد أن ألقى هذين الشرلوك هولمز (15) المتعاليين في قناة ري قذرة، أنقذ نفسه بذلك من التشهير والافتراء، "غدا، أو بالأحرى، بعد غد، سيزحفان إلَيّ، وسيطلبان المغفرة وسيتوسلان لكي يكون "هذا الأمر" بيننا... حتى إنهما سيحاولان رشوتي؛ حيث إنهما يقيسان كل الناس وفق قامتهما القزمة".

شعر "أبو" بالارتياح، ولسبب ما أراد أن يغني، على الرغم من أنه طوال حياته لم يستطع أن يغني، حتى حينذاك عندما كان عليه وهو يسير، وفقا للقانون، أن يغنى على الأقل، مثل كل الجنود!

شعر "أبو" بالارتياح، كأن أمرًا غير عادي، ولكنه سمح لنفسه لأول مرة في حياته أن يسير بشكل مهيب عدة مرات في الممر الطويل من الطابق الأول ذهابًا وإيابًا، ثم ذهب للتو إلى مكتبه الذي يشبه بيت الكلاب، ثم أعطى أوامره لنفسه: "حتى الساعة السابعة!"، ثم خلد إلى النوم.

نام حتى السابعة، كان لديه نظام خاص للتمارين الصباحية، جلس على الأرض على الطريقة الكازاخية، ثم عقد رجليه، وأغلق عينيه، "وغادر إلى نفسه"، وتحول إلى تمثال حجري، وهذا ما كان يطلق عليه "التمارين الداخلية"، فتح عينيه، ونهض عندما شعر بالقوة الكاملة لنهر الطاقة الداخلية. أتت الرقيبة السابقة ميلانا بيتروفنا إلى العمل متأخرة جدًا، لكن ذلك كان يغفر لها، لأن الجميع كانوا يعلمون أنها تأتي إلى العمل من مسافة بعيدة؛ لذلك فقد جاءت اليوم في الساعة العاشرة، لكن اليوم تسلمت ميلانا بيتروفنا، كالمعتاد، كل شيء من المناوب الليلي بدقة، لكنها، في الوقت نفسه، لم تدخل اليوم إلى الفصل الثالث عشر، ولم تحصِ الاثني عشر فتىً، ولم تدخل، ولم تطلب "تسلُّم" هؤلاء "المؤقتين"، أو كما قالت، الأطفال الصغار المجلوبين من القرى الكازاخية البعيدة، "وهذا يعني أنها، مخلصة للحزب، والحكومة...، وتعرف طبيعة الأمور، "تعرف! هذا يعني أنها معهم..."، هكذا استنتج "أبو"، لكن، هنا، قومت نفسي: "الآن لا أهتم! كما يغنون: بالنسبة لنا، نحن التتار، – باري بير!!!".

استولى عليه مزاج غير عادي، ومرح، وسمح لنفسه بالابتسام، وتحية ميلانا بيتروفنا:

– نعم، أيها الرفيق الحارس، الرقيب أول!" – "أضاف" عن عمد إلى المرأة رتبة واحدة أعلى من رتبتها.

رأى "أبو" أن خنوعه غير العادي كان يعجب رئيس القسم الاقتصادي في حضانة الأطفال الحكومية رقم اثنين. ولم يكن هناك شيء غير ذلك.

ولم يكن هناك شيء غير ذلك. عاد "أبو" إلى البيت في حالة معنوية عالية، كان يعلم، وفي قلبه، غنى أغنية واحدة فقط لشعبه، ومن دون كلمات... كان يعلم فقط أن هذه الأغنية كانت تسمى..." كيف هي؟..."شيرماوك"... مثل العنكبوت... قالوا إنه قد ألفها الملحن الكبير والمغني "أخان سيرا"، ولكنهم قالوا

(15) شرلوك هولمز شخصية خيالية لمحقق من أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ابتكرها الكاتب والطبيب الإسكتلندي سير آرثر كونان دويل. يعرّف هولمز نفسه على أنه "محقق استشاري" يتخذ من مدينة لندن مقرًا له، ويساعد رجال الشرطة والمحققين عندما لا يجدون حلولًا للجرائم التي تواجههم. (المترجم)

أيضًا إنه لا يحب غناء هذه الأغنية أمام الناس... وأتساءل لماذا؟ كيف يمكن منع غناء أغنية تحبها جدًا أمام الناس... إنه نوع من الوحشية...

"إنه نوع من الوحشية" استمر "أبو" في التفكير عندما رأى الطابور الذيلي في محطة الحافلات، هل من المستحيل أن يتم ضبط هذا الطابور؟"

"إنه نوع من الوحشية... استمر "أبو" في التفكير، عندما رأى مجموعة مكونة من خمسة أشخاص أشداء، يدفعون بوقاحة رجالًا ونساءً عجائز، وشقوا طريقهم في الحافلة الممتلئة، كيف يكون هذا؟"

"نوع من الوحشية..." استمر "أبو" في التفكير، عندما غادرت الحافلة التي وصل فيها إلى "محطته"، وصنعت "دائرة الشرف"، دون أن تأخذ الركاب المنهكين بسبب الانتظار.

تذكر المثل الشعبي القائل: "لدى المالك المهمل كلب مصاب بالإسهال!..." ثم أصيب بالانزعاج.

أصيب "أبو" بالانزعاج، ومر بجوار كوخه، لأنه شعر أن هذا ما يجب، هذا ما يجب، أخبرته الحاسة السادسة أنه لا يجب عليك الذهاب إلى هناك الآن، إلى هناك؟ إلى أين، إلى هناك؟

مر "أبو" بجوار كوخه "ماذا يحدث معي؟ من يمنعني من الذهاب إلى طفليَّ وزوجتي؟ "زارا" المسكينة، كيف ستعيشين بدوننا، عندما نرحل نحن الثلاثة، سوف نذهب؟ إلى أين نذهب؟ وماذا يعني: نذهب"، ومن نحن"؟ ولماذا ينبغي أن تبقى "زارا" وحدها؟

اندهش "أبو" وقال: "إنني أقف على سنام الجمل؟ متى ولماذا جئت هنا؟ هل جننت؟".

أراد فجأة أن يعثر على مواطنه الهدهد، ابتسم ابتسامة عريضة: "ماذا سميته الهدهد؟ إنه رجل طبيعي جدًا؟! وأهدافه واضحة...".

حينئذ أدرك "أبو" أنه يخاف من نفسه! نعم! نعم! أنت جبان، يا "أبو!" جبان!"

أخيرًا تغلب على حالته غير المفهومة، وقرر الذهاب إلى المنزل... لكن، في اللحظة نفسها، ارتعد جسده كله، كأنه قد ضرب بتيار كهربائي قوي: شعر بأن... ابنته الحبيبة "آينا"... "آينا" الذهبية..."... قد بدأت... لديها الآلام اللعينة التي لا تطاق... لهذه المحنة الجهنمية...".

شعر "أبو"، كما يقولون، بجميع ألياف روحه، بأن "آينا"، الحبيبة، "آينا" الذكية، تلقت أول ضربة غادرة... في دماغها اللين، وهذا الألم اللا إنساني قد ثناها، وقد سقطت ابنته الصابرة على الحصيرة، حتى لا تعرف أمها الأطيب من بين جميع الأمهات في العالم، أن ابنتها الحبيبة قد تعرضت فجأة "لهذه المحنة الجهنمية"، وفي أسرتهم كانوا عادة ما يسمونه المرض الذي "جلبه" والدهم من أفغانستان.

تجمد أبوهما، "أبو"، على قمة التل التي يسميها الناس سنام الجمل، التل الأحدب.

كان قلب "أبو" يئن، لا! كان قلب "أبو" يبكي... ويمكن القول: إنه كان ينتحب، ويمكن... القول... إن قلب "أبو" ينتحب!... "كيف هذا؟ في غضون ثلاثة أشهر فقط... (!) تأتي المحنة! يعني... يعني... أنه... يجب على... هل يجب على...؟ هل يجب على...؟ " هل يجب على...؟

لقد علم "أبو" أن "آينا" الهادئة دومًا، الذكية، المشرقة خلاف سنوات عمرها، ستبدأ في عض يديها... بالتناوب، حتى لا تصرخ، وحتى لا تخيف أمها الهشة، ستعضهما حتى ينبجس منهما الدم، وحتى تتجرع العذاب...

كان "أبو" يعرف هذا... لأنه هو نفسه...، والداهما...، مخضرم في المعارك ومتخصص..... "في هذا الأمر"(!)، كان "أبو" يعرف ذلك، الآن هذا السلك الشائك يزحف ببطء... ببطء إلى أحشاء ابنته البالغة من العمر خمس سنوات، وإلى رئتيها وأمعائها وهو يمزق نسيجها الحي... ثم يبدأ في خلخلتها وثنيها، مثل بابا ياجا (16) الشريرة على شاطئ النهر الصغير، خلف القرية، تجفف الملاءات وهي تلويها، ثم تبدأ، بابا ياجا، بضرب هذه الملاءات الملتوية في جذع شجرة البلوط التي يبلغ عمرها قرنًا من الزمان حتى تجففها بسرعة!

حاوِل أن تتحمل... آه، يا خالقي! آه... متى، وكيف أغضبتك البشرية الإنسانية، أيها القدير؟؟؟

شعر "أبو" أنه يتصبب عرقًا، من أجل أن تؤثر على "أبو"،... "أبو" الشهير، الثاني بعد المعلم "إيفاسي" "الصابر في الحرائق والماء"... لا! لا! بل الصابر على "المقالي" الساخنة في أفغانستان، يجب على كل شياطين الجحيم بعد أن يتفقوا فيما بينهم أن يهاجموني في الوقت نفسه! ربما، حينئذ، كنت قد تصببت عرقًا... لكنني، الآن أتصبب عرقًا... بشكل لا يصدق... فهذا يعني أن "آينا" في حالة سيئة جدًا...!".

"آينا"... في تلك اللحظة، شعر "أبو" بأن... "بولو"، الصبي الذي يبلغ من العمر ثلاث سنوات ليس على ما يرام... أراد أن يهرع إلى البيت، لكن شيئًا ما أوقفه، وفي مكان ما... في أعماق الوعي، حدث انفجار، انفجار تفكير: "يجب عدم فعل ذلك... يجب ألا أقوم بما فكرت فيه، ويجب ألا أدخل في وجود "زارا" أمهما، يجب عدم فعل ذلك!! ".

شعر "أبو" بالدوار، لكنه لم يفهم حتى ما هذا الأمر، وخطرت على باله ملاحظة سخيفة: "ماذا سيحدث للمسكينة "زارا"، عندما نموت نحن الثلاثة؟"

عندما عاد "أبو"، في السابعة صباحًا، إلى كوخه، رأى على حين غرة الصورة التي كان يخشى أن يجدها: "زارا"... حبيبته "زارا"، والدة طفليه، جالسة على الأرض، على حصيرة، وتحولت إلى تمثال حجري، حتى إنها لم تُبدِ رد فعل على وجوده.

لاحظ "أبو" أن "زارا" في هذه الليلة قد شحبت إلى حد أنه لا يمكن التعرف عليها! لقد كان الهيكل العظمي لـ "زارا" تلك التي "خطفها" ليلا باتفاق متبادل مسبق بينهما، لأن والديها كانا على اقتناع بأن ابنتهما الجميلة

(16) بابا ياجا أو بابا روجا كائنٌ في الفُلكلور السُلافي. تُحلّق بابا ياجا على هاون عملاقٍ، وتخطف الأطفال الصغار، وتعيش في كوخٍ يقف على أرجل دجاج. (المترجم)

جديرة بأن تصبح "الحلية الثمينة" لعائلة ثرية في قرية مجاورة.

حل "أبو"، و "زارا" عندئذ "هذا المسألة" وفقا لأمر من القلب، والآن، والآن، هذا الجميلة، التي منحت السعادة للفتى الأول من القرية المجاورة كيوجيوسي ذو الاسم الغريب "أبو"، ومنحت زوجها "آينا" الذهبية، و"بولو" الذهبي، تجلس على الأرض، وتحولت إلى تمثال حجري....

وعندما نظر "أبو" إلى، تلك التي تغيرت إلى حد أنه لا يمكن التعرف عليها، من الفتحتين اللتين كانتا بالأمس عيونًا رائعة، وذكية، انهمرت فجأة دموع غزيرة لا مثيل لها من البطل اليائس، المكلوم... في الوقت نفسه، ظلت المرأة تمثالًا حجريًا...

شيء غير معقول! و.... حتى القماش الساتان الأزرق الرقيق الذي يغطي الصدر الصغير بدرنتيه الصغيرتين أصبح قاتما على الفور من دموع الأم.

أدرك "أبو"، كما يقولون، "بالحاسة السادسة" أنه يجب الآن ألا يسأل "زارا" عما حدث، وبشكل عام، يجب ألا ينظر إلى وجهها، وخاصة إلى عينيها... إلى عينيها العميقتين، المتلألئتين دائمًا بالحب... يجب عدم فعل هذا!

أدرك "أبو" "بالحاسة السادسة" أنه يجب أن يتوجه إلى الخالق، يتوجه له فقط! ارتفع قليلًا، وجلس القرفصاء، وضمّ راحتي يديه، وصلّى للخالق:

- "يا خالق الخلود واللانهاية، أخبرني ما هو الخطأ الذي اقترفته (أنا!) بحقك؟، أنت، الخالق، خلقتني هكذا... يقولون إن أحفاد جدّي الأكبر، "كارا- أسبان"، قد تجاوزوا مائة وخمسين شخصًا... وقد يكونون أكثر من ذلك... فمن أحصى عددهم؟... إن لدى شعبنا اعتقادًا يحظر التعداد للسكان... أو بالأحرى، كان ذلك في الماضي... يا خالقي! عندما تم استدعائي، أنا الشاب قليل الخبرة، إلى "الجيش الأحمر"....

وأدرك "أبو"، "بالحاسة السادسة" أنه يجب عليه الآن أن يتوقف... ويقطع التيار المتدفق للأفكار...

إن قطع التيار المتدفق للأفكار قد علمه... الأفغاني! أو بالأحرى، المعلم إيفانوف نفسه، أو "إيفاسي" باللغة العامية، حتى في ذلك الحين، على الضفة العالية لنهر الفولجا، لاحظ "إيفاسي"، على ما يبدو، أن الطالب "كارا - أسبانوف" فكر في شيء ما، فاقترب منه، ورعد في الشاب قليل الخبرة حينذاك رعدة صيفية:

- أيها الجندي "كارا - أسبانوف"، أخرج من رأسك جميع القمامة التي تراكمت داخل غلايتك (17) ، ليس هناك مكان للقمامة في عملنا!!! تذكر ذلك! تذكر ذلك مدى الحياة! الأفكار قمامة! قمامة! براز، في كلمة واحدة... هل فهمت؟

لمس أنف المعلم العظيم بغضب الجزء الأعلى من أنف الطالب، لقد كان هذا طريقة تعليمية فعالة للغاية، لقد فهم، بالطبع... وحتى من دون ذلك، كان الوقت على أرض التدريب قصيرًا، لذا عاد الطلاب إلى

(17) عقلك.

"النُّـزُل" (18) ، يجـرون أقدامهـم، وبعـد أن وصلـوا إلى السـرير الحديـدي، سـقطوا، ونامـوا نـوم رجـل ميـت؛ لذلك بعد ثلاثة أشهر لم يتبقَّ أي شيء في رءوس الطلاب! لم يكن في رءوسهم سوى الفراغ، وبقيت فقط بعض الحـركات المرنـة الزنبركيـة.

لكن، على مدى نصف عام تقريبًا، عند وصولهم إلى "الجهة المقصودة"، أظهر طلاب المعلم العظيم للعالم أجمع بعض المعجزات التي جعلت جميع "المتخصصين" من القادة المحليين، والأجانب، يتنهدون، "ويصيحون"، كان "أبو" يعرف ذلك، لأن "أبو" كان المتعلم الوحيد "بشكل خاص" بين "المتطوعين".

الآن يجلس "أبو" تقريبا من دون أن يتنفس، حتى لا "يوقظ" زوجته "زارا"، أم الضحيتين البريئتين، الملكين الصغيرين، "آينا" و"بولو"، اللذين كانا يغطّان في النوم بعد عودتهما من الجحيم الذي صنعه الإنسان.

كانـت "آينـا" و "بولـو" يغطـان في نـوم عميـق، أدرك "أبـو" أيضًـا أن "زارا"، نائمـة، وهـي جالسـة، واتخـذت وضـع التمثـال الحجـري، لقـد نامـت، لقـد تعذبـت المسـكينة، إذا كنـت، (أنـا!) ، المخضـرم، الـذي رأى الكثـير، أتعـذب، فكيـف هـي، وهـي الزوجـة الشـابة، الرحيمة، الطيبـة؟ كيـف؟

أبعد "أبو" ناظريه على الفور عن وجه زوجته الجميل المثير للدهشة، لقد كان يعرف (!) أن نظرته نافذة، وأن "زارا" أيضًا حساسة، بل حساسة جدًا، كانت لديه نظرة ثقيلة، رصاصية كما كان يقول "إيفاسي" نفسه، وفي الشهر السابع من الإقامة في مدينة هيرات، قرر المعلم أن يحتفل "بالفريسة رقم ألف"، كما تعود أن يطلق على الأفغان والأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين الذين قضى عليهم فتيانه، لم يكن بينهم جنود عاديين، أو أناس تافهين، وإنما ضباط، ومهندسون من أصحاب المؤهلات العالية، النادرة، وقد وقع أيضًا أحد الجنرالات، وعلى ما يبدو، كان هندي المولُد...

قرر "إيفاسي" الاحتفال بهذا الحدث المهم في غرفة القراءة في المكتبة الوحيدة بالمدينة، اندهش "الفتيان" بشكل كبير: فقد كان من بين المدعوين ثمانية جنرالات، وكان من غير المتخيل أن يكون معهم، القائد العام للقوات الهندسية.

وكما قال "إيفاسي" نفسه في وقت لاحق، الأخير، هو "الحلوى"، هكذا قدم "أبو" - صقر تيان - شانسكى - إلى الضيوف ذوي المكانة العالية، وفي ذات المكان قال عنه المعلم: إنه خبير، وعانقه أمام الجميع عناقًا قويًا جدًا، وضمه إلى صدره... "لقد فعل ذلك عبثًا..." - اعتقد "أبو" ذلك آنذاك (!) في هيرات لأنه من المعلم الذي يحبه بإخلاص، فاحت رائحة كولونيا حادة، لكنها رخيصة، و... ورائحة خمر مصنَّع بالمنزل مثير

(18) محل إقامتهم. (المترجم)

للاشمئزاز، في اللحظة نفسها، أحس "أبو"، رجل السهوب، بالكره تجاه شخصه المعبود! و... انتهى كل شيء! حتى إنه ندم على الشعور بخيبة الأمل فيه، لكن كان الأوان قد فات.

والآن، هنا، في كوخه، تذكر بوضوح كيف أنه في ذلك الوقت، في هيرات البعيدة، في المكتبة، أمام هؤلاء الجنرالات اللامعين، دعا الرائد حينذاك، عديم القيمة الآن، المخفضة رتبته... المعلم "إيفاسي" المصبوب من حديد الزهر، الماهر في عمله، للمبارزة!

" إنه أمر مثير للسخرية، بالطبع..." لكن "أبو" آنذاك، في تلك اللحظة، شعر بتفوقه على "إيفاسي"، وفكر: "يجب أن أقتص من معلم الشر!"

والآن، في كوخه، وبخ نفسه بكلمات "مالحة"، وأخيرًا عاد إلى منزل مستأجر في شارع بدون اسم بالقرب من محطة الحافلات قبل الأخيرة على الطريق رقم 526 في مدينة ألماتي، عاد أخيرًا إلى الشقة المستأجرة، إلى الحياة الحقيقية، وعندما رأى الطفلين نائمين بسلام على الحصيرة، والزوجة، "زارا"،... النائمة وهي جالسة (!)، فكر "كيف يمكنني أن أخلصهما، أخلص طفليَّ العزيزين؟، من الكابوس، الكابوس العالمي، من العذاب الجهنمي؟ كيف؟ كيف؟

كان الجواب واحدًا، ذلك الشخص الذي ذهب إليه "أبو" منذ ثلاثة أيام (هذه الأيام الثلاثة الطويلة والمؤلمة): القصاص، القصاص! وليس شيء سواه!

عرف "أبو" أن دعمه الوحيد على هذا الكوكب البشري، كوكب الأرض هو "زارا"، المخلوق الحساس، الحساس جدًا؛ لذلك، نظر بقلق إلى زوجته، النائمة أثناء جلوسها، أم إنها تتظاهر بأنها نائمة؟ "هي وحدها فقط، زوجتي، "زارا"، التي تمكنت بسرعة من أن تأخذ مني، أنا "أبو"، القدرة على الراحة أثناء التنقل، بالمناسبة، كان النوم أثناء التنقل، أو الجلوس على جمل، أو الجلوس على حصان مقدَّرًا على الكثير من النساء الكازاخيات، كان ذلك في الماضي... والآن أيضًا...".

عرفت "زارا" كل شيء منذ ثلاثة أيام... لقد أدركت بالحاسة السادسة أن زوجها "أبو" هو معنى كل وجودها، وأن زوجها "أبو" قد قرر شيئًا ما، من خلال تغير نغمة الصوت، ومن خلال بعض الرشقات النارية الغريبة في عينيه، ومن خلال الطريقة التي تحدث بها معها، وفي بعض الأحيان "يذهب بعيدًا، بعيدًا"، إلى عالم مختلف تمامًا، بدأت تنتظر شيئًا غير لطيف، شيئًا غريبًا، شيئًا رهيبًا منه؛ من حبيبها.

كانت "زارا" تعرف منذ الطفولة أن صغار الكلاب تبقى ثلاثة أيام عمياء بعد ظهورها في هذا العالم، الآن قامت "زارا" بمقارنة نفسها مع الصغار العميان، "إنك امرأة غبية، يا "زارا"! اهربي بسرعة! اهربي! لماذا؟ إلى أين؟ لماذا؟ ومِمَّن؟"

لم يكن هناك جواب، لكن السؤال أصبح أكثر إلحاحًا، وأكثر غرابة، وبدا دون معنى، " لماذا؟ وأهرب ومِمَّن؟" فجأة، قال صوت غريب تمامًا، ليس من أهل البيت: "إلى القرية، إلى مسقط رأسك، إلى كيوجيوسي، كيوجيوسي! " .

تذكرت "زارا"، وأصابتها رعدة: فعندما خلطت "زارا" ذات مرة في المحادثة اليومية دون قصد الاسم الكازاخي كيجين مع الاسم الياباني كيوجيوسي، عبس زوجها بشكل جاد ومريب.

حينذاك، في سنوات الصبا، عندما لم تكن "آينا" و"بولو" قد ظهرا بعد في هذا العالم، كان العروسان السعيدان يضحكان كثيرًا، لقد كانا يضحكان بسرور، لماذا؟ لم يبحثا عن إجابة عن هذا السؤال، لأنهما كانا واثقين في المستقبل.

سألت "زارا" مرة أخرى: ما هي كيوجيوسي؟

– هذه مدينة في اليابان! – ضحك رائد الدورات السرية للغاية ساراتاو – 17 الذي خفضت رتبته إلى رتبة جندي.

كانت "زارا" تعرف، وكانت واثقة، ولم تشكَّ مطلقًا ولو للحظة في أن المستقبل السعيد ينتظرها، ابتسمت "زارا"، وقالت:

– هل ستقول لي أنا أيضًا – اليابان! أين اليابان، وأين كيجن؟! غمرها شعور مرح، ونظرت لزوجها بوحشية... ابتسم هو أيضا، وكرر كلمات زوجته بشكل حر في

– هل ستقول لي أنا أيضًا – اليابان! أين اليابان، وأين كيجن؟!

كانت جملة "سأريك كيجن" كلمة سرية معتادة للملذات الحميمة بين الزوجين الشابين، ابتسما في الوقت نفسه، وتحول الاثنان على الفور إلى "النشوة المشتركة"، كما اعتاد أن يمزح "أبو" دائمًا الذي كان يجيد الروسية إجادة تامة.

فكرت "زارا" وهي تضيق عينيها قليلاً أثناء مشاهدتها لقمة تالجار المعلقة فوق المدينة: "إن للجبال المرتفعة شخصيتها كما لدى زوجي "أبو"" – إن تلجار... ارتفاعه خمسة كيلو مترات... ولكني لا أقول بذلك... – ابتسمت "زارا" دون أن تلاحظ، وقالت: – إن تالجار، مثل زوجي "أبو" – طيب.... – ولكن، في اللحظة نفسها لاحظت أنه على نصل القمة المخروطية لتالجار توجد سحابة بيضاء مثل العلَم، وعندما لاحظت "زارا" ذلك، عبست أيضًا، هذا يعني... أن تلجار يعِد لنا –نحن سكانَ ألماتي– مفاجأة.... يعني.... انتظر من أعلى قمة هدية: العواصف الثلجية الشريرة المصحوبة ببَرَد (19) مثل القبضة البشرية.... انتظري، يا "زارا" انتظري،! انتظري يا"زارا"، انتظري!... انتظري يا "زارا"، انتظري.... مصيرك.... مصيرك....

(19) البَرَدُ: الماءُ الجَامِدُ ينزلُ من السَّحاب قِطَعًا صِغَارًا، ويُسَمَّى: حَبَّ الغمام، وحَبَّ المُزْن. (المترجم)

مصيرك.... مصيرك، اعرفي - الصبر والانتظار، الصبر والانتظار، الصبر والانتظار.! تذكرت "زارا" أن الكابوس بدأ منذ ثلاثة أشهر بالضبط، "في ثلاثة أشهر كان هناك تسع ضربات، وهل هذه ضربات... هل هذه ضربات - بل إعصار، وهل هذا إعصار، - إنه الجحيم، الجحيم الحقيقي! كل ضربة هي إعصار، في كل ضربة - نسل الجحيم، في كل ضربة عربدة مئات وآلاف الشياطين.

بدأت "زارا" تشعر ببطء بالدوار، عانقت جذع شجرة التفاح التي كانت تقف تحتها، "يا خالقي!"، وانزلقت ببطء على الأرض.

في مثل هذه الحالة وجدها "أبو"، "يا له من عار! " فكرت "زارا" عندما استيقظت، استيقظت عندما حملها "أبو" على ذراعيه إلى البيت.

استيقظت عندما حملها "أبو" على ذراعيه، وبعد أن فكرت أنه من المستحيل أن يظن "أبو" أنها فقدت وعيها، اتخذت قرارًا أنثويًا بحتًا: تظاهرت كأنها تعمدت أن تمزح مع "أبو"، ولم تنم على الإطلاق، وبدأت تضحك بصوت عالٍ... بصوتها الفضي، الممتع جدًا، والمثير جدًا...

إن... ضحكتها اللطيفة، الفضية، المثيرة كانت فعلًا غير متوقعة تمامًا... وجمعت اثنين من القلوب المحبة "وهل كان زوجها "أبو" سيفوت أدنى فرصة؟" ثم، عندما تأكدت "زارا" أخيرًا أن "أبو" قد أخذ يغط في نوم عميق مرة أخرى، وأن الطفلين أصبحا في غياهب النسيان، نهضت "زارا" بحذر شديد، وبهدوء كي لا توقظ زوجها، وخرجت إلى حديقة صغيرة، هنا، في الحديقة الصغيرة، أدهش "زارا" الواقع الذي وجدت أسرتها فيه "لا! لا! " لا! " صرخت دون أن تلاحظ أنها قد تلفظت بهذه الكلمات بصوت عال، وكأن الجلاد نفسه كان يقف أمامها، "لن أسمح بذلك!" لن أسمح بذلك! كان غضبها الحاسم لا يزال بدون عنوان، ودون ضغينة، ولكن بعد ذلك،، تذكرت فجأة نظرة "أبو" الصارمة، عندما كان يلعب مع الأطفال، وكان يضحك بطريقة غير عادية، كان ضحكه غير مفهوم، وشرير، ورهيب..." إن هذا أمر ينذر بالسوء... إنه أمر ينذر بالسوء..."

وفي وقت غير مناسب تمامًا فكرت "زارا": "لا! لا! لن أتخلى عن الأطفال... لن أسمح، لن أسمح لأحد... حتى لـ "أبو"... لن أسمح !"، أغرب شيء هو أن "زارا"، من دون سبب على الإطلاق، صرخت في الفراغ بحزم، وبصوت عال:

- لن أعطي أطفالي لأي شخص! حتى أنت، يا حبيبي، "أبو"! لن أسمح لك! لن أعطيهم لأحد أبدًا!

ومما أثار الدهشة الكبيرة أيضًا ما قررت أن تفعله، في وقت غير مناسب، كما بدا لها: "سوف أخذهم بعيدا! سوف آخذ الأطفال إلى القرية! سوف أخذهم إلى "أبو"يَّ. سوف يعالجونهما ، هناك في القرى معالجون، سيعالجونهما.... " ثم قالت بحزن:" لكن للأسف، "أبو" لا يعترف، كما اعتاد أن يقول "هناك جميع أنواع المعالجين..." لن يسمح لي... لذلك... فإنني...".

" أيها القمر المسكين، أيها القمر المسكين، يا قمري... - فكر "أبو"، - أنت اليوم كامل... أنت اليوم ناصع... أنت اليوم وحيد... أيها القمر، القمر الناصع، أنت الوحيد النقي على الكرة الأرضية، وأنت الوحيد العادل ساعدني، ساعدني!...

اليوم القمر.... وحيد، يا قمري الناصع، أنت الوحيد فوق الكرة الأرضية، أنت الوحيد النقي، يعني، العادل... ساعدني..."

لقد "أكد" بنوع من الدهشة أنه مرة أخرى يقف وحيدًا، ومرة أخرى يقف في الليل، ومرة أخرى على يقف التلة الحدباء، " متى أتيت إلى هنا؟ لماذا أتيت إلى هنا؟ إنها حالة غير مسبوقة - ربما نمت طوال اليوم في المنزل... شيء غريب أن يحدث ذلك! وبالفعل ذهبت أنا، و"زارا"، حوالي مرتين... إلى، حديقتنا الصغيرة... إنها، على ما يبدو، شعرت "بنواياي"، إنها حساسة جدًا؛ لذلك، فمن الضروري... من الضروري (!) تنفيذ ذلك في هذه الليلة، اليوم".

توجه "أبو" مرة أخرى إلى الجنوب، كان قمره هناك، لقد أصيب بالدهشة لأن القمر كان هناك، في مكانه، لكن.... لكن.... هذه المرة كان القمر كاملا، وبدا أن القمر الكامل كان "مثبتًا" على نصل قمة تلجار، على النصل اللامع لقمة تلجار، كانت القمم البيضاء لتيان شانسكي قريبة جدًا من "أبو"، ولم يكن هناك وجود لمدينة ألماتي، التي يعيش بها مليون نسمة، بين التلال البيضاء، و"أبو" تعلق على قمة تالجار قمر أبيض كبير، وهنا، يقف، "أبو"، مع حمولته الجهنمية، "على ما يبدو، أن روحي تبحث عن حليف؟ " إن روحي يتيمة! والقمر... القمر أيضًا يتيم... هل ترى، يا "أبو"، إن القمر وحيد... كل النجوم تركته، خانته! "أنا الوحيد الذي يفهمك!"، حينئذ تسلل إلى روحه، مثل اللص، نوع من الكبرياء غير المتأصلة في الرجل البسيط، وسمح "أبو" لنفسه ببعض العنجهية: "إنني أتوجه إلى القمر، لكن القمر رفيق للأرض، والأرض واحدة من رفقاء الشمس... أما الشمس فهي واحدة من سبعة مليارات شمس، من بينها على الأرجح، عمالقة أقوى وأكبر آلاف المرات من شمسنا؛ لذا، عليك يا "أبو" ألا تكون مثل رجل الشارع غير المهذب! اعرف مكانك، واعرف يا "أبو" خالقك - العقل الأعلى الذي يتحكم في الخلود واللانهاية، وبيننا - بين العقل الأعلى وبيني - لا ينبغي أن يكون هناك أحد، أو شيء!" .

ثم تذكر أنه يريد أن يتشاور مع الرجل الهدهد والذي ربما سماه الهدهد بشكل ظالم! عندما اقترب "أبو" من مخبأ الهدهد، ابتهج فجأة لأنه رأى على النافذة المرتفعة مباشرة من الأرض ضوءًا ضعيفًا "هذا يعني أنه في المنزل".

طرق "أبو" "النافذة" بعد أن انحنى بشدة، واعتدل بشكل مفاجئ فانطفأت "النافذة" المعتمة تمامًا، وقف بعض الوقت، ثم تنحى جانبًا، لكن خرجت من الكوخ امرأة، عرف "أبو" زوجة الهدهد، تعلقت المرأة بعنق "أبو"، وأخذت تنتحب، وبدأت في العويل بشكل إيقاعي، كما تنعي عادة المرأة الكازاخية زوجها الميت....

انحنى "أبو" بشدة، ثم بدأ في تهدئة المرأة البائسة. أخذت المرأة في العويل بشكل إيقاعي، كما تنعي عادة

الكازاخيات الزوج الميت... ولكن بعد فترة قصيرة أدرك "أبو" أن زوجها لم يمت، ولكنه على قيد الحياة (!)، لقد ترك عائلته، وستة أطفال من أجل... أن ينقذ وطنه، كازاخستان، من الكارثة. لقد قرر زوجها الذي سماه الهدهد أن يفكك الآلة الجهنمية المدفونة بين بحر أرال وبحر قزوين! "هذا هو الأمر!"

انحنى "أبو"، ثم سألها:

- ما اسمك، يا امرأة؟

قطعت المرأة، البكاء بحدة، ثم قالت بصوت هادئ:

"سايرا...."

فكر "أبو" - يا له من اسم رنان! " تقريبا مثل اسم زوجتي "زارا"....

الآن اعتدل "أبو"، ولسبب ما قال بصوت عال، وبشكل حاسم، كأنه كان يتجادل مع شخص ما، و "انتصر" عليه: "إن أناسًا فقط مثل زوجك..."

قالت بسرعة: - أسان... اسمه أسان! وأضافت سايرا بشكل غير متوقع - إنه صقري!

- إن أناسًا فقط مثل زوجك، صقرك، سيستطيعون إنقاذ البشرية! وقدر الآخرين أن يتواجدوا، ويعيشوا، وكما يقال، - "يشتكون حتى النهاية"، ويختفون دون أثر! لذا كوني فخورة بصقرك! يا سايرا، أنت امرأة محظوظة وسعيدة، يا سايرا! اعتدل "أبو"، ثم ذهب نحو قمة تاين شانسكي البيضاء حتى دون أن يودع سايرا.

هذه الجميلة من قرية كوك أيلا التركمانية كانت تدعى أيضًا سايرا، في ذلك الصيف، كانت وحدتهم الشهيرة للدورات السرية للغاية ساراتاو - 17 تقف في ممر جبلي بالقرب من مدينة هيرات.

همس له المعلم "إيفاسي" على نحو ما:

- لقد عهدوا إلينا أن نجرب في هذا الممر إحدى الآلات الجهنمية، إنني لم أخبر أحدًا سواك لأنك شخص مميز لدي! إنك المميز في وحدتنا المميزة!

على ما يبدو، أنه قد بدا للمعلم "إيفاسي" أنه قد قال شيئًا بارعًا جدًا، لأنه ظل يضحك بصوت عال لفترة طويلة، مكررًا إلى ما لا نهاية: "إنك المميز في وحدتنا المميزة!" ثم، انتفخ كما ينبغي أن يفعل الشخص المسئول، وهمس بشكل جاد على الرغم من أنه لم يكن هناك أحد سواهما في الفضاء المنظور:

- لن يعرف أحد سوانا، نحن الاثنين، شيئًا عن هذه الآلة الجهنمية... مفهوم؟ مع ذلك فقد أخذت موافقة القيادة العليا على هذه المسألة؛ لذلك فلتكن أسنانك خلف سلاسل من الحديد الصلب!

وهكذا لم يتمكن "إيفاسي" من أن يعبر بطريقة بليغة.

بعد ثلاثة أيام ذهبا المعلم "إيفاسي"، وتلميذه المفضل "أبو" في زيارة مجاملة إلى منزل الملا مراد المبني بالحجر والمحاط بسياج طيني حجري عال، محملين بالهدايا الثمينة.

كان "أبو" دائمًا ضيفًا مرحبًا به من قبل الملا مراد وخدامه الكثيرين. وقد أطلقوا عليه اسم: مسلم بالا، وهو ما يعني المسلم الشاب.

حاول المعلم "إيفاسي" مع تلميذه المفضل أن يراعيا جميع معايير اللياقة التي تليق، وفقا لمفهومهما، بالضيوف الجديرين: فجميع أحفاد، وحفيدات، وأحفاد أحفاد، وأحفاد حفيدات الملا، قد منحوا هدايا قيمة، وقد منح الملا نفسه حصانًا أرقطَ من سلالة أخال تيكينتس، وهو الحلم، لكل شخص تركماني.

ثم قام المعلم "إيفاسي" وتلميذه "أبو" لفترة طويلة بتبادل المجاملات الشرقية مع الملا مراد وأحفاده، ثم بدأت تظهر بالتناوب على مائدة الطعام السخية والوفيرة أنواع جديدة من أطباق وحلويات محلية لذيذة ومتنوعة، ثم جاء دور الثناء على مزايا الضيوف، وبالطبع أصحاب البيت! ثم... عندما بدأت الفوهة الآسيوية الحارقة، التي تسمى الشمس، تبرد تدريجيًا، ذكر الضيوف أصحاب المنزل الأسخياء أنهم عسكريون، وفي هذه المنطقة الكثير من الكفار، وعليهم أن يقطعوا إقامتهم السعيدة مع الشيخ العظيم مراد، وانطلقا إلى خارج السور الحجري العالي.

ذهب لوداع الضيوف غير العاديين، بالطبع، جميع أفراد العائلة، من الأطفال في الحفاضات بعمر ستة أشهر، وحتى الجد الكبير ذو اللحية البيضاء، ثم لاحت للضيف الرئيسي "إيفاسي" فكرة مضيئة وهي أن يلتقطوا معهم صورة "من أجل الذكرى الطيبة"، وكرر الضيف الرئيسي "إيفاسي" ذلك عدة مرات. وخرجت العائلة قليلة العدد، وفقا لمفاهيم التركمان، والتي تتألف من اثنين وسبعين شخصا فقط، إلى الشارع الضيق والمنحني لقرية كوك أيلا.

اندهش "أبو" عندما علم أن معلمه "إيفاسي" أغا (20) ، كما سمته اليوم الجميلة سايرا أثناء تقديمها نيابة عن جدها هدية ثمينة لزوجة "إيفاسي" (كيف للتركمان من قرية كوك أيلا الصغيرة أن يعلموا أن ضيفهم الموقر "إيفاسي" – رجل أعزب عن اقتناع، وسيئ السمعة!) – وهي أقراط غالية الثمن جدا، بالإضافة إلى ذلك، اتضح أنه، مصور هاو سيئ! كان "أبو" في غاية الاندهاش!

اندهش "أبو" عندما عرض عليه فجأةً معلمه الذي كان يستمتع "بمهنته الثانية" إلى حدٍ كبير، أن يقف إلى جانب الشيخ الملا مراد، ومع قدر معين من السخرية قال وهو يبتسم:

– "إن صوري تفتح لكم جميعًا الطريق إلى الجنة!!! – قال هذه الكلمات، بالطبع، باللغة الروسية، ولكن بعد ذلك"، قال بهمس تقريبًا، مضيفًا تعديلًا بسيطًا – لا تترجم هذه الكلمات... إلى... اللغة... التشوتشمسكية، فليكن هذا الأمر بيننا لا يعرفه أحد غيرنا...

(20) أغا تعني السيد.

اندهش "أبو" عندما استدعاه معلمه، بإصبع السبابة من يده اليمنى، وهمس له بفرحة خفية طاغية: هناك، انظر، إلى هذه الدبابة المغطاة بدرع سوداء صلبة، وليس لها مدفع؟ هل ترى؟

أومأ "أبو" رأسه.

- إذا كنت رأيت، فتذكر، أن هذه دبابة معجزة، سلاح القرن الحادي والعشرين... هل تسمع - كان المعلم العظيم معتادًا على ألا ينطق بعض الحروف في بعض الكلمات كما ذكر في الجملة السابق، "الخنفساء السوداء!" يمكنك أن تطلق عليها، فيما بيننا، المعجزة الثلاثمائة وستة وستون... إنك تذكر، بالطبع، تلك الثلاثمائة وخمسة وستين طريقة لتدمير الأعداء التي علّمتكم إياها، يا جنودي... وهذه الخنفساء السوداء... هي المعجزة الثلاثمائة وستة وستون...

أومأ "أبو" برأسه مرة أخرى، وتذكر إلى الأبد: المعجزة التكنولوجية! الخنفساء السوداء!

في تلك اللحظة، بينما كان المعلم وتلميذه المجتهد يهمسان، على ما يبدو، أراد الشيخ الملا مراد أن يقول شيئًا لضيفه الرئيسي، كما استدعى ضيفه الأصغر بإصبع السبابة من يده اليمنى.

كشاب شرقي صغير، كان "أبو" (يبلغ آنذاك تسعة عشر عامًا فقط!)، نظر إلى "إيفاسي"، أما "إيفاسي" فقد سمح له بإيماءة من رأسه مع ابتسامة تفوق خفية أن يذهب إلى الملا مراد، حتى إنه دفعه بشكل ملحوظ بالكاد:

- اذهب، مادام "الساكسول" المحترم يطلبك، اذهب.

الآن، تذكر "أبو" أنه في ذلك الوقت، في الأراضي الأفغانية بالقرب من هيرات، قام معلمه "إيفاسي" بتشويه معنى كلمتي "أكساكال" أي الشيخ، وكلمة "الساكسول".

نهض الرجل الشهير ذو اللحية البيضاء من مكانه، واحتضن الشاب الرشيق بقوة، وضم راحتي يده، وباركه، وتمنى له السعادة.

في تلك اللحظة، شعر "أبو" بضربة غريبة وغير مفهومة من الهواء الدافئ... عاد تلقائيا إلى الوراء... وهناك... وهناك... أصبحت الخنفساء السوداء المعجزة وحشا أسود شديد السواد.

بعد أسبوع... توفي رب الأسرة المكونة من اثنين وسبعين نسمة حية، وقيل إن الشيخ السهبي (21) تعذب بشدة، وصاح صيحة غير إنسانية، وفي النهاية، أطلق النار على نفسه من بندقية صيد، مباشرة، في رأسه البيضاء الحكيمة!

عندما عادت مجموعة "إيفاسي" المكونة من تسعة وأربعين "نسرا" من منطقة فيزا باد الجبلية، حيث هناك أعلى القمم، المسماة جبال بامير - الهيمالايا التي يبلغ ارتفاعها عشرة آلاف متر" - بعد أن فقدت ثلاثة "محترفين"، لكنها دمرت أكثر من ثلاثة آلاف من "المحليين"... وبنجاح كبير في قرية كوك أيلا، وعلم "أبو" الطيب أنه من لم يبق من عائلة الملا مراد الكبيرة سوى سايرا، سايرا التي لم يسمح "أبو" حتى لنفسه

(21) السهبي أي من السهوب أو السهول.

أن يفكر في جمالها الساطع! وكان يعد التفكير في جمال سايرا الساطع خطيئة...

وحينما كان معارف "أبو" من سكان قرية كوك آيلا يقصون هذه القصة الفظيعة، كاد "أبو"، الحديدي، يفقد عقله تقريبًا، وعندما علم أيضًا كيف أن المسلمين المؤمنين الذين يجرمون الانتحار، هم أنفسهم كانوا مضطرين إلى أن "يساعدوا" ضعيفي الإرادة "للتخلص" من العالم الممل، اللعين، كان يستاء بشكل لا حد له. لقد كان على استعداد لأن يفعل أي شيء!

إن "أبو" الصلد الذي قالوا عنه: إنه مثل التمثال الحجري، وإن لهما التعريف نفسه، وإنه من المستحيل تحريك هذا أو ذاك من مكانه!... بكى مثل الطفل، إنه لم يكن يبكي، بل كان ينتحب، لقد انتحب، وركض نحو القرية التركمانية.

عندما قفز "أبو" الباكي مثل النمر فوق السياج الحجري العالي، ووجد نفسه في فناء القلعة الحصينة للعائلة التركمانية من كوك آيلا، شعر على الفور كأنه قد دخل الجحيم الذي يتحدث عنه الجميع على الأرض، لكن، لحسن الحظ، لم يره أحد...

في هذا الجحيم، وجد، "أبو"، سايرا، على قيد الحياة، لكن... ليته لم يجدها! وليته لم يرها!

كانت سايرا نسخة مروعة من تلك الأميرة الخيالية، تلك الأميرة الخرافية، تلك الساحرة الخيالية اللاتي كان يلعب معهن، ويمرح "أبو" الحالم اليائس في خياله، في طفولته المبكرة...

والآن أمام "أبو" الذي احتفل بالأمس بالحدث البهيج - وهو حصوله على رتبة رائد - أمام "أبو" الذي ظهر في الروعة الكاملة للزي العسكري الجديد، رقد... هيكل عظمي في ملابس جميلة...

نظر الهيكل العظمي ذو العيون الباهتة، الثابتة إلى "أبو"، وحاول أن يقول شيئًا ما، وحاول أن يحرك شفتيه الميتة بالفعل، لكن الشفاه الميتة تقريبًا تمكنت أن تنفتح قليلًا، لكي تظهر الأسنان اللؤلؤية البيضاء للفتاة الحلم لجميع الرجال التركمان من القرى المجاورة، وأيضًا حلم "أبو"... الشاب الكازاخي الذي يعرف أن يقمع "مشاعره الشخصية" التي تظهر في غير أوانها.

كان مشهدًا لا يصدق، لقد ظهر الجنرال "إيفاسي" بنجمتين على صدره مخمورا، في وقت غير مناسب تمامًا عند البوابة الحجرية العالية لمنزل صديقه الموقر الملا مراد، في وقت غير مناسب، أغلق "أبو" أعين الجميلة البائسة، ثم غادر من الباب الحجري العالي.

لم يتوقع كلاهما هذا الأمر.

- أنت... أنت... لماذا أنت هنا؟" - إنه، بالطبع، الجنرال.

بالطبع، توقع الجنرال أن "أبو"، مثل جميع مرءوسيه كان خائفًا، وإن لم يكن خائفًا، فسيكون مرتبكًا، لكن بدلًا من ذلك، قال "أبو"، المفضل، والمدلل لديه بشكل مفاجئ تمامًا:

- ولماذا أتيت أنت إلى هنا...؟

هذه الكلمات...لم تكن كلمات، بل قنابل... انفجرت مباشرة "تحت أنف" الجنرال، وهو ليس مجرد جنرال، بل محارب مشهور بنجمتين ذهبيتين على صدره...

لكن... الشيء الأكثر أهمية لم يكن هذا، وإنما كان الشيء الأكثر أهمية هو أن "هذا الجرو"، كما أطلق عليه في نفسه البطل الوقح، "إيفاسي" قد سمح لنفسه (!) بالمرور بجوار القائد... إنه ليس قائدًا، ولكن قائد الوحدة الخاصة للدورات السرية للغاية ساراتاو - 17، المشهور في جميع وحدات القوات المسلحة تحت اسم "إيفاسي"!!! ارتبك إيفاسي في البداية، ولكنه غضب، وفي غضبه سمح لنفسه، بالمعنى الحرفي، أن يصرخ:

- أنت، أيها الجرو، عد من حيث أتيت!

"كان هذا هو الخطأ الأول للمعلم، فقد سمح المعلم لنفسه أن ينساق للغضب" الغضب هو عدوك الرئيسي! - كان يقول ذلك "لكتاكيته " - "لا تدعوا هذه المرأة ياجو تتفذ إلى نفوسكم!"

وكان خطؤه التالي أنه بدأ يسب بألفاظ قبيحة، ولقد كان مشهورًا "في هذا الأمر" - "إنه الكلاسيكي رقم واحد"، وعلى ما يبدو، أنه قرر أولًا أن يوجه له ضربة أسفل البطن، لكن التلميذ تفادى ذلك بسرعة البرق. بعد ذلك يكون الأمر أكثر سوءًا، وعلى ما يبدو، أن المعلم قد شعر، بعد دقيقة واحدة، بخطئه، فلم تحقق أي ضربة من الضربات القاتلة الشهيرة هدفها... على العكس من ذلك، تلألأت على الوجه الجميل الشاب لهذا التلميذ المكروه الآن، ابتسامة، ابتسامة... صفيقة، وساخرة...!

قرر المعلم بضربة سرية (تمكن من تسجيلها بشكل قانوني كإبداع خاص به!) "أن يسحقه للأبد " أي أن يقتل تلميذه الفاسد، مشى، وقفز عبثًا، وربما انزلق، فسدد ضربة مثل الطلقة وهو يقع، لم يكن يشك في ضربته "الخفية السريعة"، لكنه أصيب بالذهول لجزء من الثانية عندما رأى أن "أبو" لا يزال على قيد الحياة، ولا يزال يبتسم! أصيب بالذهول! يا له من عار! عار أمام التشوتشيميك الذين أتوا من مكان ما، و "شاهدوا" معركة معلم الأمس وطالب الأمس، "من أين جاءوا؟" وقاد هذا الجزء من الثانية "إيفاسي" لقرار أكثر رعونة، لقد صاح قائلًا:

- أنتم أيها التشوتشيميك،! إنني آمركم، اقتلوا هذا الخائن!

صاح بذلك "إيفاسي"، فحكم، بغبائه، على نفسه بالإعدام: إذ قام شخص من التشوتشيميك بإطلاق النار مباشرة على بطن "إيفاسي"، من بندقية محشوة.

"إن الوقت مفهوم نسبي..."، فكر "أبو" بعد أن نظر إلى ساعته، أشارت عقارب الساعة إلى الرابعة صباحًا، تعجب "أبو": "أين كنت كل هذا الوقت؟، تذكر أنه تحدث مع زوجة الهدهد. تذكر أنه كان يفكر (أو هل قال ذلك لزوجة الهدهد؟): "إن أناسًا مثل الهدهد سوف ينقذون البشرية!" لاحظ "أبو" أنه في هذه اللحظة يبتسم... تذكر الرفض الحاسم في صوت زوجة الهدهد إن اسمه ليس الهدهد! إنه أسان! وأنا - سايرا!"حسنا، فليكن ذلك! ومثل ضربة حقيرة، ضربة غير متوقعة انبثقت في وعيه فكرة أن: "هناك سايرا، وهنا سايرا...

ولُدى "زارا"! لماذا لدى النساء الجميلات..."ولم يكن لدى "أبو" ما يكفي من الشجاعة حتى يجعل لهذه الفكرة نهاية منطقية،... استطاع من خلال بعض الجهود السحرية أن يخرج اسم زوجته، اسم "زارا"، من القائمة الخطيرة للنساء المنكوبات. "زوجتي "زارا" – نعم، زوجتي "زارا" – نعم!"

أدرك "أبو"، وأحس أنه لا يقف بعيدًا عن كوخه رقم 526، وفي وعيه كانت تضرب أصوات رهيبة كبرق خبيث، يبدو... أنها تبكي... لا، لم تكن تبكي، بل تلعن... لم تلعن بالكلمات، وإنما بنغمة أصواتهم، لقد كانت "آينا" و"بولو"، ملكيه الصغيران،... يلعنان بتذمر هذا العالم غير المعقول!

إن "آينا" و"بولو" يبكيان... لا! لم يكن هذا بكاء، بل كان... طلبًا لإنقاذهما من هذه اللعنة المسماة الحياة! طلبًا ليتخلصا! يتخلصا بسرعة! بسرعة! الآن! في هذه الدقيقة! في هذه اللحظة!

ارتعد قلب "أبو"، وللمرة الأولى في حياته جبن "أبو" المحارب العظيم، جبن، ولاذ بالفرار! هرب بشكل مُخزٍ!!!

كانت الساعة الرابعة صباحًا، والآن كانت الساعة السادسة صباحًا، خرج من الحافلة المزدحمة المتهالكة، وذهب إلى ساحة محطة "ألماتي الأولى "! "لماذا؟ ومتى"؟"

في ساعة واحدة، "وجد" نفسه في "سوق البرغوث"! وبعد ساعة أخرى، " وجد " نفسه في محطة الحافلات يجلس، وينتظر شخصا ما أو شيئا ما! ولكن، الأكثر إثارة للدهشة أنه،"ظهر" في مكان العمل في التاسعة بالضبط،... وبعد أن رأته مارينا بتروفنا كادت تختنق، حاولت أن تضحك بعد أن تمالكت نفسها بسرعة:

– أنت، أيها الرفيق كارا – أسبانوف، لقد تأخرت... دقيقة واحدة! يخبرك بهذا الرقيب الأول من الاحتياط مارينا بتروفنا بيليايفا!

كان لدى العريف مارينا بيتروفنا بيلييفا مثل هذه الخطيئة غير الضارة: وهي أنها تقدم نفسها على أنها رقيب أول! حاول "أبو" أن يبتسم بسخاء، لكنه لم يفلح في ذلك، أما مارينا بتروفنا التي كانت تتخيل نفسها رئيسة كبيرة لمجرد أنها كانت تجلس في هذه اللحظة في مكتب نائب مدير الحضانة رقم اثنين بالإنابة، واتخذت وضعا رسمية، فقالت:

– بالمناسبة، يا كارا – أسبانوف، أهنئك على المدير الجديد!

ولكن، بعد أن رأت أن هذا الخبر لم يحدث غِرامًا واحدًا من التأثير في "أبو"، شعرت بالإهانة، وأعلنت بنصر سادي معيّن: بالمناسبة، إنه شخص عملي للغاية! إنه كاماردين سعيدوف الشقيق الأصغر للمرحوم نور الدين سعيدوف.

– إنك تعرفه...

وبانتصار انتقامي نظرت مارينا بتروفنا إلى "أبو"، ولكن، على ما يبدو، أنه بعد أن اقتنعت بأن هذا الخبر الانتقامي لم يؤثر في الهمجي، ألقت بثبات "قنبلتها" الخاصة:

– إنه كما تعرف شخص منتقم.

عندما نطقت مارينا اسمي نور الدين، وكامارديـن، تذكر "أبو" فجأة وبوضوح شديد تلك الصورة عندما كان القتلى الثلاثة مستلقين على سجادة صفراء: آنا أندرييفنا بترينكو، نور الدين سعيدوف، بيباك مالشيباييف، وفي ذاكرته ظهرت بشكل واضح جدا صور كل واحد (!) من القتلى، وتذكر أيضًا الندبات... الرفيعة جدًا... ومع ذلك، فقد بقيت رءوس الثلاثة... كما لو كان الأمر قد حدث بأمر شخص: فقد حُولوا (!) بهدوء إلى اليمين! ولا يزال يدوي في الذاكرة بصوت عال ما قيل عن غير قصد:

- يا لها من مهارة!

قال "أبو" هذا الذي يرقد حاليًا على سرير العمل الحديدي لذلك البعيد "أبو"، الذي كان... قبل أربعة أيام يقف على حافة السجادة الصفراء: "أنت أحمق، يا "أبو"! أحمق!

أمر "أبو" هذا الذي يرقد حاليًا على سرير العمل الحديدي نفسه كما هي العادة بالنوم لمدة أربع ساعات! ولكن، للأسف، لأول مرة في جميع سنواته كرجل بالغ لم يطع جسده "المالك"، على العكس من ذلك، "داهمته"، رغمًا عنه، الرؤى غير المرغوب فيها التي كان يخشاها أكثر من أي شيء، وهرب منها بذعر هذا الصباح: كانت "آينا" و"بولو" يمدّان يديهما الصغيرتين، ويصرخان، ويبكيان، ويصرخان يائسين، يئنان، ويتوسلان وهما يذرفان دموعًا كثيرة، يتوسلان لإنقاذهما من هذا الكابوس.

كان "أبو"، والدهما، يعرف أيضًا ذلك الأمر، و (يا له من عار!) إنه لا يعرف كيف ينقذ "آينا" و"بولو"، كيف ينقذهما؟ كيف؟ كيف؟

عند رأسي طفليه رأى "أبو" بوضوح زوجته المحبوبة، البائسة، المعذبة من هذا الجحيم "زارا" التي تحولت إلى تمثال حجري، وقرأ "أبو" في أعين زوجته المتحجرة، حدسيا صلاة مفادها: "أعطني قطرة دموع واحدة على الأقل، أشفق علي! أعطني قطرة واحدة على الأقل من الدموع!" كما يقولون، لم يكن باستطاعة "أبو" أن "يدرك" لمن توجهت صرخة روح "زارا"، "زارا" المسكينة: له هو، زوجها، أم إلى الخالق نفسه...

على ما يبدو، أنه قد جف مخزون الدموع لدى "زارا"، كل المخزون. اتضح أنه يحدث... ذلك!

ثم بعد المحاولة الثانية، وبعد الأمر الثاني "نم لمدة أربع ساعات!"... خلد "أبو" للنوم بعمق، بمجرد أن استطاع ذلك.

رأت "زارا" -التمثال الحجري الذي صنعه منذ آلاف السنين صناع غير معروفين- كيف دخل زوجها "أبو" الكوخ في الصباح، ورأت كيف جلس عاقدًا ركبتيه، وكيف قطب حاجبيه وهو يحدق في طفليه المعذبين الصارخين بيأس، ورأت "زارا" كيف أنه تحول هو أيضًا إلى تمثال حجري، جلس هذا التمثال الحجري بهدوء، ونهض ببطء وخرج من منزله المؤقت.

انبثق من زوجها نوع ما من الهدوء، خافت "زارا" من هذا الهدوء... ويبدو أنها أدركت كل شيء، على ما يبدو، أنه

قرر أن يفعل شيئًا ما... وبالطبع، كان على "زارا" أن تفعل شيئًا ما... لكن "زارا" لا تعرف ما هو ذلك الشيء حتى الآن.

بعد ساعتين انتهى الأمر، لقد هدأ الطفلان في الوقت نفسه تقريبًا، وناما في الوقت نفسه تقريبًا، نام المعذبان - يا خالقي - اللذان ظهر عليها التقدم في السن بشكل واضح... حدقت "زارا" فترة طويلة، ونظرت إلى طفليها: "آينا" البالغة من العمر خمس سنوات و"بولو" البالغ من العمر ثلاث سنوات، وفجأة قفزت من مكانها، مثل المحروقة، وبدا لها مثل الدمى الخشبية التي تمثل الصياد وامرأته العجوزين.

ثم حدث شيء غريب: خرجت "زارا" إلى حديقتها هادئة تمامًا، وتناثرت تحت أشجار التفاح تفاحات حمراء غضة من النوع الألماتي الشهير، وكانت مالكة البيت الذي يستأجرونه تظهر مرة واحدة فقط في الشهر، لتأخذ، كما تقول بنفسها، " الثلاثين روبلوف (22) ".

واستمر الشيء الغريب: التقطت "زارا" تفاحة حمراء زاهية من الأرض، وأكلت تفاحة بشراهة، وبسرعة مثل طالب الصف الأول الجائع!

ثم تواصلت الأفعال الأكثر غرابة: دخلت "زارا" إلى غرفة خزين ضيقة مظلمة، وانتظرت حتى تعتاد عيناها الظلام، وعندما بدأت عيناها تميزان النفايات المنزلية المختلفة، سحبت شيئًا من المخبأ، ملفوفًا بقماش كتاني أبيض، فتحت ببطء القماش الكتاني الأبيض، ووجدت فأسًا سوداء بمقبض أبيض.

ثم تواصلت "الأفعال" المجنونة: أخذت "زارا" المخلوق السلمي تمامًا "تفح" بشكل مفاجئ النصل اللامع للفأس بسبابة يدها اليمنى، وصارت راضية عن حالة "السلاح" الصلب، ثم ابتسمت، وصارت في غاية الهدوء.

ثم خرجت من السقيفة بفأس عارية؛ فأس ذات يد بيضاء وشفرة سوداء زرقاء، وذهبت إلى القناة الجافة في نهاية قطعة الأرض، كان هناك أيضا مرحاض، سوفيتي، يتألف من ألواح متنوعة، وقفت هناك، ثم دخلت المرحاض، وهناك، في المرحاض، وللمرة الأولى في حياتها، لاحظت أنه... في جميع المراحيض توجد ثقوب في صورة قلب بشري... ولسبب ما ابتسمت بطريقة غامضة، وعادت إلى الزاوية الضيقة المظلمة، ولفَّت السلاح البارد، في هذه الحالة، وأخفت بعناية، ذلك البارد، في مكانه السابق.

الآن، أحست ذلك بوضوح، يجب عليها أن تفعل ذلك بنفسها (!). وهذا كل شيء! إنها لن تعطي مصير "آينا" و"بولو" لأي شخص، حتى... "أبو" (!). وهذا كل شيء! انتظرت "زارا" بصبر... وانتظرت بصبر أن تستيقظ "آينا" و"بولو" من تلقاء نفسيهما، انتظرت بصبر.... أخيرًا.

علمت "زارا" أن الشمس الجنوبية الكسلانة، ستقوم بعد أن تصل إلى ذروتها بترتيب استراحة حرة لنفسها، وهناك ستتمتع بالهدوء، وبعد أن تستريح بشكل كاف، ستبدأ في الهبوط إلى الأفق. واختتمت "زارا" حديثها قائلة: "إن لدى الشمس مكانًا لشرب الماء".

كانت لدى "زارا" ساعة يد ذهبية أهداها لها "أبو" في عيد ميلادها الخامس والعشرين، كما عبر لها زوجها،

(22) تقصد 30 روبل.

"سندها"،لم يتحدث أبدًا بصوت عالٍ على الإطلاق، فقد كان يعبر عن حبه بابتسامة ناعمة ومخلصة، وبلمسة خفيفة من كفه لظهر "المرأة الصغيرة!" الناعم. كانت "زارا" تعلم أن علاقتهما بسيطة، لكنها صادقة.

في الرابعة والنصف، استيقظت "آينا"، وفي الساعة الرابعة وأربعين دقيقة استيقظ "بولو"، كلا الطفلين جادان ومتحفظان ومهذبان، كانت "آينا"، بالطبع، سعيدة... كانت، على الأقل، سعيدة... حتى وقت قريب، منذ حوالي ثلاثة أشهر، قبل أن يبدأ... هذا الجحيم...

وقد بدأ هذا الجحيم، فجأة، كما تحدث جميع المصائب، قبل ثلاثة أشهر، عندما كانوا يزورون أقارب "أبو" في كيجن، أو كما كان "أبو" يحب مازحا أن يطلق على قريته، في كيوجيوسي، في البداية، اختار هذا الجحيم، على ما يبدو، "أبو" نفسه، عن عمد، وعلى ما يبدو، خمّن "أبو" على الفور السبب في سبب هذا الشيء الغامض، بحلول المساء، حاول أن يحفز نفسه، وبعد أن صار يئن ويتنهد قليلًا اعتلى صهوة جواده المفضل "باي – شوبار"، وذهب بشكل غير متوقع إلى الجبال، وفي صباح اليوم التالي، عاد من الجبال واهنا بشكل ملحوظ، وعيونه خافتة، وباهتة... نظرت "زارا"، بخوف، وبتفحص، إلى الأطفال، لأنه خلال تلك المحنة ظهرا، لـ "زارا" مثل العجائز... ولكن الآن... تقريبًا... لا شيء؟ أم إن "زارا" قد أخطأت؟ "يبدو أن "بولو" بخير...

أما "آينا"... فقد كانت آثار العذاب واضحة عليها... كانت مثل فتاة عجوز، أو بالأحرى، عجوز قد استعادت شبابها... هل جننت، يا "زارا"؟ إن كل شيء على ما يرام! إنه، أنت، يا "زارا"، بدأت تصابين بالجنون!

نظرت "زارا" مرة أخرى، بخوف، وبتفحص إلى الأطفال، في هذه المرة، يبدو أن كل شيء على ما يرام... لكن يبدو أن وجه "بولو" متورم... " أم إنني مجنونة؟ بسبب المعاناة؟ وليس عجبًا أن الشعب يقول: الخوف له عيون كبيرة! كفي يا "زارا"، ألبسي الأطفال، واذهبي إلى كيوجيوسي!

إن الحافلة الأخيرة إلى كيوجيوسي، طبقًا للجدول الزمني، يجب أن تغادر في السادسة والنصف مساءً، والآن الساعة تشير إلى الساعة الرابعة وعشرين دقيقة، سنلحق بالحافلة، يجب أن نلحق!

عندما وصلت "زارا" إلى محطة الحافلات، كان لا يزال لديهم نصف ساعة على المغادرة، ولكن على الرغم من هذا، زادت الحافلة من سرعتها، فأمسكت "زارا" بالطفلين وركضت لتلحق بها، ولكن... الحافلة القديمة القذرة كانت مثل رجل مخمور هرب بحماس من رجل الشرطة، وهو يترنح بشدة، ويتعثر، حتى إن الرجل الوحيد الذي، على ما يبدو، كان يودع شخصًا ما، قهقه بوقاحة قال بصوت عال بشكل ساخر:

– كان عليكم أن تناموا أقل من ذلك!

خلد "أبو" للنوم من المحاولة الثانية، وكما يقال، "بدون الأرجل الخلفية...." ثم استيقظ، ويا للدهشة، كان

في أوج نشاطه، وبدا له، أنه قبل أن يستيقظ بثانية واحدة، كان يغني! لقد غنى بدون كلمات، وكرر لحنه المفضل "....- كاجك - كو.... كاجك - كو.... كاجك- كو.... جا.... جا.... جا.... جا.... جا.... جا...."

تذكر كيف أغراه زملاء الدراسة في صباه عندما كان في الصف الثامن، أن ينضم إلى حلقة فنية للهواة. وقد شارك "أبو" في حفل موسيقي، وغنى "جاك - كو". وقد أحرز نجاحا لدى الفتيات.... ولكن بعد ذلك، ترك كل شيء، فقد قال له جده الأكبر، كارا أسبان حينذاك "إن هذا لا يليق بالرجل...."

استيقظ "أبو" في حالة جيدة حتى إنه غنى... في الحمام.

في هذا الحالة المزاجية المرحة أراد التعرف "عن قرب" على المدير الجديد كاماردين، كان حتى الآن يتملكه مزاج مرح غير مألوف، وبعد أن اغتسل جيدًا، توجه مباشرة إلى مكتب الحاكم الجديد، كان "أبو" قد سمع أكثر من مرة من مارينا التي تعرف كل شيء أن هناك سعيدوف آخر، الأخ الأصغر لنور الدين، يعمل أيضًا مديرًا للقطاع الاقتصادي لحضانة الأطفال الحكومية رقم واحد في منطقة أخرى، عرف "أبو" كاماردين "كتلميذ" رث الهيئة، أمّي، تافه، وبربري، وها هو، التلميذ، أصبح المدير من الآن فصاعدا! مدير حصانة الأطفال الحكومية رقم اثنين، "إن هذا شيء يدعو للدهشة!"

على ما يبدو، لم يكن كاماردين ينتظر أحدًا، فاضطجع في كرسيه، غير أنه جلس بشكل "طبيعي" بعد أن ارتفع بتكاسل، لكن "أبو" أحس بذلك على الفور، لقد شعر كاماردين بالإهانة داخليًا" من يكون، هذا الحارس الليلي، حتى "يقتحم" مكتبه بوقاحة دون دعوة"، صار المزاج المرح الذي استولى على "أبو" يأخذ "محتوى" عدوانيًا، وبدأ "أبو"، على الفور، في الاستهزاء بالشخص "العظيم" الذي كان هذا "المغرور" شبه الأمي بلا شك يعتبر نفسه ذلك الشخص، قام "أبو" على الفور بإمساك الثور من قرنيه، وسأله بوقاحة: هه، أيها الموظف، أين سكرتيرتك؟ أم إنه ليس من المفترض أن تكون لديك سكرتيرة خاصة؟ أم إنك بلا قيمة، وإنك مدير حقير؟

لاحظ "أبو" أن كلماته، والأهم من ذلك، لهجته، قد أخرجا كاماردين عن صوابه، والآن لا تبحث في تصرفات كاماردين عن أي منطق، الآن سينهض كاماردين، عن كرسيه الجلدي الضخم، وستجد كلتا يديه تلقائيًا مسدسًا أو خنجرًا، والذي يوجد، بالطبع، معه دائمًا. وعندما يتأكد من أنهما معه، سيقترب، كاماردين، بثقة، وببطء، إلى "أبو"، وسيسأله بغضب خفي:

- ما خطبك، يا عزيزي، هل سئمت من الحياة، أم ماذا؟

وسوف يسأله "أبو": وأنت؟. ويعلم "أبو" أن هذا السؤال المضاد سيثير غضب المدير الجديد، وإذا لم يضرب المدير الجديد "أبو"، فإنه سيقترب جدًا من "العدو"، وسيصرخ بعد أن يلصق أنفه بأنف غريمه: "يا عزيزي! إنني... أرى أنك سئمت من الحياة جدًا... جدًا - وسيعمل حركة خادعة كأنه سيضربه" لكن "أبو" سيكون أول من يوجه له ضربة رحيمة، ليست ضربة، بل حركة مهينة خادعة، حينئذ، سيوجه له كارمادين ضربة "حقيقية"، ولكنه سيتلقى جوابًا أكثر عنفًا ولن يكون الجواب سوى نصف ضربة ضعيفة، وسيلهم

الجواب المتمثل في نصف الضربة الضعيفة كاماردين، وسيحاول بعد أن يسحب مسدسًا من جيبه ضرب "أبو" في رأسه بقوة.

حينئذ "سيستيقظ" الفنان في نفس "أبو"، الذي سيبدأ، بعد أن يشحب لونه بمهارة، يتظاهر بالخوف، ويطلب الصفح، وسيقول:

- يا عزيزي كاماردين! لا تقتلني، لا تقتلني! سامحني أنا الغبي! سامحني. إنني متشرد أخرق، فلا يجدر برجل بارز مثلك أن يلطخ يديه النبيلة بدمي!

لقد انتهى كل شيء! إن كاماردين، مثل جميع التافهين، يحب الإطراء، ويحب أن ينبطح التافهون أمامه. إن هذا التافه سيهدأ بعدما يؤكد أنه محور الكون، ولكن، على كل حال، لكي يعرف هذا الحثالة الحقير قدره، فإنه سوف يركله " مرة واحدة " بقدمه اليمنى.

على كل حال " أعطاه "أبو" الفرصة لكي يركله، ولكن في جزء من الثانية... قام بطرحه أرضا بحركة خفيفة، وسريعة من يده اليمنى. وبعد أن اتخذ " هيئة " المجنون، أقام " حفلة موسيقية "، وأخذ يركض من ركن إلى ركن في المكتب الفسيح... أوصل هذا السلوك المجنون للمرءوس كاماردين إلى "حد الجنون" فأطلق الرصاص من مسدسه مرتين، ولكن، بالطبع، لم يصب "الهدف الحي، لقد أراد كاماردين فقط أن "يكسر" إرادة مرءوسه.

اتخذ المرءوس هيئة الجبان المذعور من الخوف والذي فقد صوابه، ثم بدأ بالركض من زاوية إلى زاوية أخرى في المكتب الفسيح، وفي مثل هذه الحالة الرهيبة ذهب إلى الممر، ومن هناك ذهب إلى الطابق الأول، وذهب من هناك إلى حضانة الأطفال الحكومية رقم اثنين، وبالطبع، يهرع المدير شبه المعتوه لمطاردة الوقح... ذلك المعتوه الكامل، الحارس الليلي "أبو"، وفي الفناء انتظر "أبو" سعيدوف، متظاهرًا بأنه مجنون، ثم هرع إلى غرفة الموظفين، وهناك، أمام جميع عاملات النظافة والممرضات والطاهيات سأل المدير الجديد وهو يشهق بقوة:

- أين، ولمن، بعت، أيها المحتال، ثلاثين طفلًا أخذتهم بالخداع من أفقر الآباء والأمهات ممن لديهم أطفال كثيرون؟ من، وإلى أين؟ وكم عدد الأطفال البائسين الذين بعتهم من خلال حضانة الأطفال رقم واحد؟ هه؟

أخذ سعيدوف الذي ما زال يحمل مسدسًا في يديه، واقفًا عند عتبة الباب "يحدق"، بغباء وذهول، في الموظفين، وفي "أبو"، بالتناوب.

استغل "أبو" هذه اللحظة، وانطلق للخارج مثل الرصاصة، بعد أن ضرب وهو في طريقه المدير في بطنه كما لو كان عن غير قصد... وفي الوقت نفسه، قدر "أبو" أن سعيدوف الغاضب لن يستسلم أبدا.

والآن سيضع سعيدوف الذي أهين أمام جميع المواطنين الشرفاء، والأهم من ذلك أمام مرءوسيه، المسدس في بنطاله، وسوف "يستخدم" خنجره، وعندما علم "أبو" ذلك تحرك "حركة خلفية" نحو غرفة الطعام الصيفية المصنوعة من أخشاب تيان شان، وكان الهدف واحدًا: سيلقى هذا "اللوح الخشبي الغبي "المسمى

"المدير" عليه خنجره الحاد، وبعد أن قدر "أبو" بدقة مسار رحلة الموت، سيتنحى جانبا في جزء من مائة من الثانية بعد أن يهين "المدير".

دوت قهقهة أنثوية ودود، فانطلق الثور الغاضب الذي توحش بعد أن أحس بالعار بسبب السخرية النسائية، مثل ثور مقاتل نحو مصارع الثيران، فتنحى "أبو" جانبا كالرصاصة وبكل ما أوتي من قوة.

لكن في اللحظة الأخيرة، وبعد حساب دقيق، تحرك "أبو" بهدوء خطوة واحدة، خطوة واحدة فقط إلى اليسار، وكان هذا كل شيء، اصطدم الثور الغاضب بكل قوة وزنه، وبجبهته الضيقة في الجدار الحجري (!).... ومن المعروف أن الصخرة الحجرية لا تلقي بالا إلى من يضرب رأسه فيها، وفي "هذه الضربة" لا يفوز سوى الصخرة الحجرية.

شيء محزن للغاية... فلم يكتمل السلم الوظيفي لكاماردين سيئ الحظ، لكن جنازته كانت رائعة.... ورسمية، وصاحبتها الأوركسترا، رغم أنه كان مسلمًا.

وأثناء خروج "أبو" من البوابة الحديدية الضخمة لحضانة الأطفال الحكومية رقم اثنين، فكر دون أن يعرف السبب: "لماذا ثلاثة زائد واحد".

حول محطة الحافلات كان هناك الكثير من الناس، وفي الآذان ضجيج مزعج.

في هذه الأثناء شعرت "زارا" أن أعصابها لا تتحمل، وكانت على وشك "الانهيار"، ويمكن أن تصيبها سكرة الموت.

في الحياة العادية كانت "زارا" هي الهدوء نفسه، "ماذا يحدث لي؟" سألت نفسها، ومن أجل ذلك توقفت رغمًا عنها، وعلى ما يبدو، فقد خرق توقفها اللاإرادي الإيقاع المحموم، والإثارة التي كانت سائدة في عش النمل هذا، حتى إن رجلاً ضخمًا مجعد الشعر تمتم بغضب، ودفع "زارا" بوقاحة جانبًا، لكن "الجانب" كان مزدحمًا أيضًا، وضربت إحدى النساء "زارا" بكوعها ضربة شديدة في جنبها، حينئذ أدركت "زارا" أنها أفلتت الأطفال من يديها... صرخت "زارا" بخوف، وبقوة خارقة دفعت، وأبعدت كل من كان في طريقها، بما في ذلك الرجل الضخم المجعد الشعر، وبالمعنى الحرفي، تحولت إلى وحش، وانطلقت عائدة إلى باب الدخول إلى محطة الحافلات.

في ساحة المحطة كان المكان أكثر اتساعا، خرجت "زارا" إلى الفضاء، وبدأت تطلق صرخات يائسة، وتدعو الطفلين باسميهما:

- "آينا"! "بولو"! "آينا"! "بولو"!

كانت "آينا" و"بولو" غير بعيدين عن المكان.

- أمي! أمي! - دوى صوت "آينا" الهادئ تماما والمكتوم - "بولو"، وبخت "آينا" أمها بطريقة طفولية مؤدبة، وبلطف قائلة:

- ماذا دهاك يا أمي! وجهت الصيحة إلى جميع أنحاء مدينة ألماتي!

قالت هذه الملاحظة بطريقة رصينة لدرجة أن "زارا" تمالكت نفسها بحزم، ولم تحتضن أو تقبل الطفلين اللذين "عثرت عليهما"، مثلما تفعل كل النساء على الأرض.

أجلست "زارا" طفليها على المقعد، ثم طلبت من عجوز كازاخية أن تعتني بهما من أجل الله، وبدأت تتنقل من قاعة إلى قاعة، ومن مبنى إلى مبنى آخر، ومن نافذة بيع تذاكر إلى نافذة أخري، لكن كل ذلك كان عبثًا، كانت الطوابير تبلغ "مائة متر" طولا، وكانت جميع نوافذ بيع التذاكر مكتظة بنوع من "الرجال" المشبوهين، الذين يشبهون كلاب الصيد... (كيف لزار أن تعرف، أن هؤلاء "الرجال"، الذين يشبهون كلاب الصيد، يشترون منذ الصباح جميع التذاكر، ثم يبيعونها "سرًا" بثمن باهظ).

قررت "زارا"، بعد أن شعرت بإرهاق شديد، أن تأخذ قسطًا من الراحة على الأريكة الذي تركت طفليها عليها، ويا لها من مفاجأة عندما اكتشفت "زارا" أن الرجل الضخم مجعد الشعر يجلس على الأريكة ويتحدث بهدوء مع طفليها! اجتاح غضب لا يمكن تفسيره أمعاء "زارا"، حتى إنها أخذت تتمتم بغضب:

- ما بالكما يا طفليَّ، تتحدثان مع شخص لا تعرفانه؟!

أجاب الطفلان بود:

- أمي، أمي، لا تغضبي!! إن العم رجل طيب، لقد اشترى لنا وللجدة أيضا الآيس كريم!

لم يكن الضخم مجعد الشعر، بعد فحصه عن كثب، رجلًا على الإطلاق، وإنما شاب يبلغ من العمر حوالي ثمانية عشر أو عشرين عامًا على الأكثر، ومما أدهش "زارا" أكثر أنه، وهو الضخم مجعد الشعر، وقف بخجل عندما جاءت "زارا"، وعلاوةً على ذلك، ابتسم بخجل، وقال:

- أستميحك عذرًا،... إنني أنتظر أخي الأكبر القادم من كيجين...

أدهشت كلمة كيجين خيال "زارا" لدرجة أنها تجمدت، وكادت تختنق.

- هل... أنت... أيضًا من كيوجيوسي؟"

سألت، بعيون جاحظة، ومندهشة وهي تنظر إلى الفتى الضخم مجعد الشعر، أو بالأحرى، الرجل، على ما يبدو، أن معنى هذا السؤال المحير قد أحرج الضخم مجعد الشعر، فنظر أيضًا إلى "زارا" في حيرة، ولكن، على ما يبدو، أنه قد فطن إلى أنه ينظر إلى امرأة غريبة عنه في عينيها مباشرة، فاحمر وجهه، وتحول عنها.

" هذا خطئي... اعتقدت "زارا"، إنني كازاخية، ويجب على الكازاخية ألا تنظر مباشرة في أعين رجل غريب عنها..."

أخرج "بولو" "زارا"، والضخم مجعد الشعر، الرجل الخجول، من هذا الحرج في لحظة واحدة، عندما أخذ يتذمر قائلًا:

- أمي، أريد أن آكل!

كان "أبو" يعرف أنه عندما تصعد الشمس إلى قمة الأفق فإن الحافلات البالية على الطريق رقم 526

تصبح فارغة بشكل ملحوظ، كان "أبو" يعرف ذلك؛ لذلك وصل "أبو" بهدوء تام إلى "محطته"، انتظر "حافلته" بهدوء تام، كان يجلس، لكنه اضطر إلى الوقوف، فقد كان هناك الكثير من المتقاعدات" إنهن فتيات الكومسومول(23) (دعوة خرشوف) اللاتي ألقي بالملايين منهن في السهوب الكازاخية... أخذ يفكر... إنهن المتقاعدات المخدوعات... المهجورات... لمصنع مدينة ألما آتا للقطن! إنهن مخدوعات... و... منسيات! لم يعد أحد بحاجة إليهن... إنه لأمر مؤسف، آه، كم إنني حزين من أجلهن!

خرج "أبو" بهدوء تام من "محطته، ووصل بهدوء تام إلى "منزله"، وعندما دخل إلى المنزل، أي إلى كوخه المستأجر، اندهش قليلًا: فزوجته "زارا" والطفلان ليسوا بالبيت، قرر بهدوء: "إن هذا يعني أن "زارا" "أخذتهما" معها لعملها، تناول "أبو" وجبة الغداء، ثم قرر بهدوء أن يستلقي، وينال قسطًا من النوم، لكنه تذكر أن اليوم هو يوم "كيس" أي يوم توزيع المقدار الشهري من زيت بذرة القطن، والثلاثمائة جرام من زيت بذرة القطن التي كان ينتظرها بفارغ الصبر، والتي كانت المتوفاة آنا أندرييفنا بيترينكو مديرة حضانة الأطفال الحكومية رقم اثنين تقدم بيديها في نهاية كل شهر "كوبون" استلامها.

ابتسم "أبو"، كعادته، ابتسامة ملتوية وقال: "إنه شيء ضروري، يا "أبو"، إنه شيء ضروري! إنك تعلم، يا "أبو"، أنه... بدون زيت القطن، لن تستطيع ربات البيوت أن يطهون الطعام... إنه شيء ضروري، يا "أبو"، إنه شيء ضروري! هيا، انهض.

وسرعان ما وجد وهو يبتسم، كالعادة، ابتسامته الملتوية، "الكوبون" المطلوب الذي بموجبه سيتسلم الحصة الشهرية البالغ قدرها الثلاثمائة غرام كاملة، ("يا لها من سلطة سوفييتية سخية تلك التي لدينا! ابتسم الأفغاني بسخرية، وقال: ثلاثمائة غرام من زيت القطن لثلاثين يومًا!"

سار الأفغاني كعادته حوالي ثلاثة كيلومترات بهدوء، ووصل إلى محل البقالة الحكومي رقم 526، ابتسم الأفغاني ابتسامة ملتوية، وقال: "إنه لشيء مدهش، أن يكون محل بقالة رقم 526 في شارع 526!".

لم يندهش الأفغاني الخبير عندما رأى طابورًا طويلًا، امتد "ذيله" بطول الشارع لمسافة مائة متر أو مائة وخمسين مترًا! "إن هذا شيء عادي"، هدأ الأفغاني المتبل في الجحيم الحقيقي نفسه، وقال: "إن هذا لا شيء!"

لاحظ أن هذا الطابور الطويل يتألف أساسًا من متقاعدات مصنع ألما آتا للقطن، إنهن فتيات الكومسومول دعوة خروشوف، دَعَوهن، وتركوهن بلا عائلات، إنه لشيء سخيف، طابور طويل من أجل ثلاثمائة جرام من زيت القطن... أي عشرة جرامات لليوم الواحد (!)... طابور طويل! شيء سخيف!

إن السخافة لا تتمثل في الطابور الطويل، أو الوقوف في الشمس التي لا ترحم لعدة ساعات، وإنما في معاملة البائعة السمينة التي لها رأس زر صغير مع الناس... الأحياء الأموات (!)

إنه لمن السخافة أن يضطر إلى الوقوف هناك ثلاث ساعات وأكثر، أو أربع ساعات على الأكثر، وهو الذي

(23) اتحاد منظمات الشباب السوفيتي.

سار في "مسارات غير منطقية" للجحيم الحقيقي الدامي! ولكن عندما يقف لمدة ثلاث ساعات بالضبط، ويقترب المحارب المخضرم كآخر شخص في الطابور، (إذ لم يكن هناك أحد خلفه!)، من البائعة السمينة... ذات الرأس "الزراري" (24) الطفولي الصغير تقول فجأة ل"أبو"، بعد أن تنظر إليه بطريقة غير طبيعية، وباحتقار:

– ليس عندي شيء! أيها المواطن الصالح، ليس عندي زيت! لقد نفد الزيت!

كان "أبو" يرى بوضوح أن خزان الألمنيوم لا يزال ممتلئًا.

وكانت هذه الفقرة البهلوانية للمرأة ذات الرأس (الزر) الصغير، تبدو ل"أبو"، نكتة تافهة. لم يشعر "أبو" بعد بالاستياء. وكان لا يزال في حالة ذهنية عادية، حتى إن حالته المزاجية كانت مرحة، وقال مازحًا: إن الأخير يحصل على كل شيء!

ولكن عندما كانت البائعة السمينة ذات الرأس (الزر) الصغيرة تقول بغضب بالغ، ووقاحة بالغة:

– ابتعد! لا تعطلني! لا يوجد عندي لك أي زيت!

كان "أبو" لا يزال يمسك بزمام نفسه، وكان لا يزال يستطيع أن يبتسم، وأن يقاوم: "إن لدي نفس الكوبون كما لدى الجميع..."

ولكن عندما صرخت صاحبة الرأس (الزر) بشراسة:

– اغرب عن وجهي، أيها اللعين!...

لم يلاحظ "أبو" الصابرُ كيف قفز كالنمر فوق السياج، ورفع، دون أن يدري، خزان الألومنيوم، وصب زيت بذرة القطن كله بتؤدة وبعناية على الرأس (الزر) لتلك للبائعة.

وانتهى الأمر على ذلك.



إن هذا الشاب الضخم مجعد الشعر الذي ظهر بمحض الصدفة، ذو الابتسامة الصادقة التي لاحظتها "زارا" على الفور، إن هذا الشاب الذي أرسله الخالق، اعتذر عن أنه لم يخمن من تلقاء نفسه، وأخذ الأطفال و"زارا" إلى مطعم قريب رخيص، هناك، كان المكان ضيقًا، وخانقًا، وتحول الذباب الذي تكيف مع جميع أنواع المواد السامة، إلى ذباب خالد لا يموت. انزعجت "زارا" بشكل كبير، عندما أدركت أنها خرجت من المنزل، ولم تأخذ معها في سفرها أي مال... وعلى الرغم من ذلك، فليس عندهم ما يكفي من المال... والآن يفتح رجل غريب محفظته... لكن جلد الذات لم يدم طويلًا لم يدم فترة طويلة... لأن... "زارا" تذكرت، ما قرر أن يفعله "أبو" "أبو"هم المحب، وهذا (!) لن تسمح به "زارا"، لا! لا! لا! ومرة أخرى لا!" من الممكن أن يشفي أطفالهم، وأطفالنا! سوف يشفيهما جدهما الأكبر كارا – أسبان. ولا عجب أن الناس يدعونه الناسك

(24) نسبة إلى الزرار.

المقدس!" مثل جميع النساء، بدأت "زارا" على الفور في إلقاء اللوم على نفسها: "إنني حمقاء، حمقاء! ولكن (!) من أجل "آينا" و"بولو"، سأفعل المستحيل!

اتضح أن للضخم مجعد الشعر اسمًا، واندهشت "زارا" عندما ذكر اسمه:

– يا عمتي " – قال بصوت مهذب جدًا. إن اسمي قيصر،واسمك "زارا"، إنك حفيدة الناسك المقدس.

أصيبت "زارا" قليلا بالدوار.

– كيف هذا؟ هل تعرفني؟

– نعم، أعرفك... وأعرف "أبو" – أغا...أيضًا.

– "أبو" – أغا؟ – كررت "زارا" السؤال. – كيف هذا؟

على ما يبدو، أن الفزع قد انعكس على وجهها (هكذا ظننت "زارا")، لأن الشاب الذي قال إن اسمه قيصر كان محرجا بشكل واضح، وقال بصوت خجول:

– أولًا، أنا أيضًا مثلك، من عائلة ألبان، قبيلة كيزيل – بوروك، أما زوجك الأسطوري فهو أيضا من عائلة ألبان، لكنه من قبيلة كونور– بوروك، يعني أنني من حيث القرابة أقرب إليك. إننا أقارب يا عمتي. أقارب. إن ما أصاب "زارا" بالدهشة بشكل خاص، هو أن هذا القريب الشاب، سمى زوجها "أبو" (!)، " بالأسطوري!"،حتى إنها كررت السؤال.

– هل قلت.... "الأسطوري"؟

قال قريبها الشاب بإخلاص وبفخر، حتى إنه يمكن القول، إنه قال بشكل احتفالي:

– وهل يمكن أن يكون غير ذلك؟ إنه بطل أفغانستان مرتين! الجميع يعرف ذلك!

لكن... مع بالغ الأسف... خُفضت رتبته بشكل غير عادل... مع بالغ الأسف.

حينئذ... تدهورت بحدة حالة "زارا" المزاجية فجأة، فتذكرت لماذا "سرقت" طفليها من والدهما. لماذا؟ "إنك حمقاء يا "زارا"!" أخذت طفليها في يديها بحركة حادة بدون أن تقول وداعًا لقيصر، وهرعت إلى مكان ما! " إلى أين؟ " لم يكن هناك رد،" يجب فقط أن أعدو! "

بدأت "زارا" مرة أخرى تستوقف الغرباء بسؤالها الغبي،

– ألست ذاهبا إلى كيجين؟

أو:

– خذنا، من فضلك، إلى كيجين،وسيعطيك والدي كبشًا بذيل سمين! كبش بذيل سمين... إنك تعرف كم هي غالية تلك الأغنام ذوات الذيول السمينة في السوق؟!

كان الكثيرون يبتعدون عنها بفزع، وكان بعضٌ يتمتم ببعض الشتائم بشكل غاضب... لكن... "زارا" كانت تلح لدرجة أن رجلا ذا شارب لم يتجاوز الأربعين من عمره وبخها، ووصفها "بالغجرية"، وفي المرة الثالثة تلطف، ثم توقف، وسألها وهو يبتسم بتسامح:

- إلى أين تقولين؟ إلى كيجين؟

- نعم، نعم، إلى كيوجيوسي!" إلى كيوجيوسي!"! - أجابت "زارا" مقلدة زوجها بطريقة آلية والذي كان ينطق الاسم الكازاخي " كيجين " دائمًا على الطريقة اليابانية "،وفي جزء من الثانية، ومضت في ذهنها كلمات زوجها: "كيوجيوسي اسم قرية يابانية صغيرة احترقت مع ناجازاكي خلال القصف الذري"،صحيح أن "زارا" لا تعرف معنى كلمة "قصف" أو معنى كلمة "ناجازاكي"، لكن عقل "زارا" احتفظ بهذه الأسماء الرنانة إلى الأبد.

كرر الرجل ذو الشارب الذي لم يتجاوز الأربعين من عمره بعد أن توقف وقفة " احترام ":

- إذن كيجين تقولين؟

- نعم نعم نعم! - قالت "زارا" المتألقة والمشرقة بشكل منغم.

- كيجن بعيدة،إنها تقع على مسافة مائتي كيلومتر... هل تعرفين ذلك؟ اتخذ الرجل ذو الشارب الذي لم يتجاوز الأربعين عاما من عمره شكلا صارما، وحدق في الشابة بتلك الهيئة، وأخذ يقول إنها بعيدة جدًا، جدًا! ولكن، كيف ستدفعين لي مقابل ذلك؟

قالت "زارا" النقية بطبيعتها، الساذجة جدا، المبتهجة بموافقة الرجل ذي الشارب الذي لم يتجاوز الأربعين عامًا من عمره غير المتوقعة:

- سأدفع كما يحلو لك!!

ابتسم الرجل ذو الشارب الذي لا يتجاوز عمره الأربعين عاما بطريقة غامضة، ثم قال لها:

- اجلسي! وعندما بلغوا مسافة سبعة أو ثمانية كيلومترات من محطة الحافلات، أوقف فجأة سيارته البالية، وقال: "حسنا، لقد وصلنا!" لقد نفد البنزين!

أما "زارا"... فقد كاد قلبها المسكين يتوقف من هذه "المفاجأة، أخذت، "زارا" التي كانت كسمكة ألقاها على اليابسة إعصار شرير، تفتح، وتغلق فمها الجميل، ارتجفت شفاهها غير المصبوغة، مثلما يرتجف بشكل مميت شخص مريض بالملاريا، وفي تلك اللحظة سمعت بالكاد صوت "بولو" المتوسل: - أمي.... أمي، أريد أن أتبول!

وكما لو كانت في المنام، تذكرت بشكل غامض شجيرة عالية، وحقلًا محروثًا، وعلى أطراف الحقل المحروث ابيضت جدران المنازل الكازاخية التقليدية مع أسطحها من القرميد الأحمر.

وفي الحقل المحروث ركضا طفلاها، "آينا" و"بولو"، إلى مكان ما، وسحبت "آينا" "بولو" من يديه، في تلك اللحظة، شعرت "زارا" أن الرجل ذو الشارب الذي لم يتجاوز عمره الأربعين عامًا، احتضنها بإحكام بأياد حديدية، ثم بدأ يسحبها إلى الأدغال.

استولى على كيان "زارا" كله غضب شديد، غضب متأصل في السيدات المحبات، وصرخت بغضب هائل، ونجت بأعجوبة من أحضانه النتنة.

انطلقت، وهي تتعثر، وتسقط، إلى تلك الناحية التي ركض إليها طفلاها.

لكن.... الرجل الوقح ذو الشارب الذي لم يتجاوز عمره أربعين عاما انطلق خلف "زارا" المنهكة للغاية واللاهثة.

جلبت هذه الحالة غير المفهومة مع زيت القطن ل"أبو" هدوءًا غير مفهوم، عاد "أبو" إلى المنزل، أي إلى كوخه المتداعي، ولم يندهش بسبب غياب زوجته وأطفاله، استلقي بهدوء على سجادة شعر مزركشة، ونام على الفور بهدوء، وكان يعرف أنه سيستيقظ في الساعة الخامسة تمامًا.

استيقظ بالفعل في الساعة الخامسة بالضبط،ثم أدرك أن الهدوء السابق قد تركه لسبب ما، على العكس من ذلك، استولى عليه القلق، قلق فظيع، وغير مفهوم، "ما هذا؟ من أين يأتي القلق؟ لماذا؟ إن هذا يحدث معي للمرة الأولى... حسنًا، ما هذا هو على كل حال؟ ولماذا؟ "

كان "أبو" يعرف أن "آينا" و"بولو" سيعودان في وقت متأخر من الليل، "ولماذا "آينا" و"بولو" فقط؟ و"زارا"؟ ولماذا ستعود "زارا" بشكل منفصل عن الأطفال؟ لماذا؟

الشيء الأغرب أن "أبو" لم يعد يبحث عن إجابة على هذه الأسئلة السخيفة كما وصفها "أبو" بنفسه. جلس "أبو"، ووضع ساقيه الطويلتين تحته، وهذه الجلسة تسمى باللغة الكازاخية "مولُداس"، واستطاع "أبو" أن يتحوّل لساعات قليلة إلى تمثال حجري، أو هكذا رأى نفسه، وتحول إلى ثعبان لامع أملس.

في مثل هذه الحالات، كان "أبو" يغلق عينيه وينفصل عن "هذا العالم"، لكن اليوم قبل "الانفصال"، استطاع أن يتمتم: ""آينا" و"بولو"، سيأتيان في الصباح!" وفكر أيضًا؛ "لذلك لا يزال من الأسهل تحمل هذا الألم اللا إنساني، إن هذا اختبار شيطاني، "اصبر، اصبر، اصبر، يا "أبو"! إنك سوف تتخلص أولًا من هذا... "آينا" و"بولو"... ثم... ثم... إرادتك، أيها المخلص العظيم "أبو"! "

في النهاية، انتصر، "أبو"، على نفسه، بالفعل... الغريب، أنه قد حل المساء، يعني أن هذا استمر لمدة خمس ساعات، أحسنت يا "أبو"! أحسنت! تحملت! لقد تحملت تعذيب عدد لا يحصى من الجلادين القساة المسعورين الذين تلقوا متعة غير مسبوقة من التعذيب...

شعر "أبو" أنه قد تجمعت في فمه كتلة كاملة من القذارة، وكان أسوأ شيء هو أن هذه الحبيبات المتنوعة من الرمل والحجر قد تغطت الدم... دم بشري! في نفس اللحظة، شعر "أبو" بالتقيؤ، وتقيأ... تقيأ حصى صغيرة بيضاء... وفهم "أبو" فقط أن هذه فتات أسنانه. أجزاء صغيرة من أسنانه (!)، التي كانوا يحسدونه عليها، عرف "أبو" كل "نسور" الدورات السرية للغاية ساراتاو - 17 الشهيرة في جميع أنحاء أفغانستان، "يعني أنه في هذه العذابات قد حطمت أسناني. حسنًا، يا "أبو"، إنها النهاية!

في اللحظة نفسها، تلقى "أبو" ضربة أقوى في وعيه، "إذا كنت، يا "أبو" (!)، قد تمكنت بالكاد من أن تتحمل هذه الآلام الجهنمية، فكيف تمكنت "آينا" و"بولو" من التغلب على هذه العذابات الوحشية؟"

شعر "أبو" بوضوح أن شخصًا ما دفع إبرة ملتهبة إلى دماغه، "من هذا؟ كيف هذا؟ ومن يريد أن ينفذ إلى الطبقات العميقة لعقلي؟ وما هو الشيء الذي يبحث عنه هذا الشخص في العصيدة الرمادية؟ ما هذا؟ معجزة أم محنة؟

بالطبع، محنة! -، أجاب "أبو" نفسه بنفسه بلهجة مرحة... - هذا يعني أن وحشا ما قد نفذ إلى خزانة وجودك البشري، إلى عقلك، يا عزيزي "أبو"! وهذا بالمناسبة، خطير للغاية.

كان "أبو" على يقين من أن هذه الأفكار قد أخذت منه بضع دقائق فقط. لكنه كان مندهشا عندما أدرك أنه... كان يقف على "سنام جمله" المهجور في شمال غرب مدينة ألما - آتا. "متى أتيت إلى هنا؟ كيف وصلت إلى هنا؟ أجبني يا عزيزي "أبو"!!"

لم يستطع العزيز "أبو" أن يجيب بأي شكل من الأشكال عن ذلك المزاج الهزلي ل"أبو"، لسبب بسيط أن "أبو" في تلك اللحظة تذكر طفليه!

إنني أستطيع أن أسمح لنفسي أن أكون هنا على منبري (25) قبل منتصف الليل، لأن "آينا" و"بولو" سيعودان إلى البيت فقط في الصباح...."

وفقط في الصباح سيعود إلى منزله العزيز "أبو" "! استمر في السخرية من نفسه،كان التعامل بسخرية تجاه نفسه نوعًا من الدرع الواقية ضد النوايا المأساوية، التي... سيقدم عليها "أبو" (!).

في أعماق روحه الخفية، خمّن بشكل غامض أن واقعه المزيف يدفعه إلى "بطولة" رهيبة، لا إنسانيّة، ذلك الواقع الذي تقدمه جميع وسائل الإعلام والمعلومات الفاسدة كأنه كضرورة مقدسة، وحتى كواجب وطني.

مسكين أنت يا "أبو"!

بالطبع لم يخمن "أبو" المسكين من أجل ماذا تم "جره"، كما عبر عن ذلك أقرانه، إلى مثل هذه البرية، إلى مثل هذا "الخلود" ولماذا يقف على "سنام الجبل"، لم يخمن.

لم يخمن، لكن... في أكثر الزوايا "الخفية" في وعيه، كما هو الحال، في المساحة اللانهائية من الفضاء اللام تناهي، كانت هناك نجمة، تثير، وتغري وهي تختفي، ثم تعاود الظهور مرة أخرى بوهن، وكذلك كان هناك أمل واحد، وبشكل أكثر دقة، ليس أملًا، بل أُميلًا (أمل صغير جدًا)، إن جاز التعبير... ويبدو أن هذه النجمة الغامضة الضعيفة كانت تلمح إلى ما يأتي: "سوف يشفي طفلاك، "آينا" و"بولو"! لا تفقد الثقة في الخالق، لا تفقد!"

لكن الحياة العملية في أفغانستان أجبرت "أبو" على النظر إلى الحقيقة في أعينها. في الأعين القذرة، الموحلة،

(25) يقصد الجبل.

السكرانة للواقع. عيون المرتشي! عيون المحتال! عيون التاجر. عيون السياسي، ولطالما أثارت أعين السياسيين لدى المحارب الأسطوري اشمئزازًا شديدًا.

استطاع "أبو" أن يقبض بسهولة على النجمة التي تغمز، وتختفي في نظام جواده آك بوز آت. ويطلق الكازاخيون أحيانًا على نظام النجوم هذا اللصوص السبعة. وتقول الأسطورة الشعبية: إن هؤلاء اللصوص السبعة سرقوا الابنة الوحيدة لرجل مسكين، ولا يزالون يخفونها حتى الآن عن أعين الناس حتى لا تلحق النظرة الغريبة الجشعة الضرر بمظهرها اللامع.

كان "أبو" يعرف منذ طفولته أين يبحث عن هذا الجميلة السماوية" أولًا يجب "اصطياد" هؤلاء اللصوص السبعة" إن ذلك أسهل من السهولة: إنها هناك! وبعد أن أحنى جواده الجميل رقبته الطويلة على جرينلاند، ركض إلى مكان السقيا، أما الحوافر الأربعة للحصان – فها هي هناك! مشرقة لامعة. كما لو أنها تفيض.... وفوق النجمة الوسطى " العنق المنحنى "، إذا نظرت باهتمام، لفترة طويلة، طويلة وضيقت عينيك.... فسوف تراها! سترى الجميلة الغامضة!

إن هذه النجمة الغامزة، الغامضة ذات الشخصية، تخدع أولئك الذين " يصعدون بوقاحة " إليها. و"أبو" أيضا ليست استثناء، بالطبع! " وهي بالطبع لديها خطيب، إنها تنتظره هو فقط، إنها تكشف وجهها له فقط! " لقد عرف "أبو" بإحساسه المميز أنه، بالإضافة إلى إرادته، فإنه الآن، في هذه اللحظة... يبتسم.

حاول "أبو" أن ينسى، لكونه في حالة غيبوبة عميقة، ينسى هذا العالم اللعين، ينسى هذا الواقع اللعين. وكلما كان يوم القيامة أقرب، يصبح القذف أكثر جنونًا، أنا أعلم ذلك جيدا، فإن ذكر الجمل يثور في أوائل الربيع، خلال فترة شبقه الطبيعي.

بالطبع لم يبحث "أبو" مسألة كونه في غيبوبة عميقة عن سبب لعدم التفكير، لا سمح الله، كما يقولون، عن خاتمة للكارثة القادمة، لا تفكر! لا! لا! لا! ولعل هذا هو السبب في أنه، وللمرة الألف في حياته، كان يستسلم تمامًا للتفكير بالخالق العظيم للخلود واللانهائية.

وظهرت الأبدية واللانهائية أمام عينيه، أولًا على شكل درب التبانة، ومجموعات من ملايين من الشموس ومليارات من النجوم التي تلف، وتتشقلب، كل واحدة منها حول شمسها.

تجول "أبو" الحالم فترة طويلة، وهو يتنقل من مجموعة نجمية واحدة إلى مجموعة كوكبية أخرى.

ثم ارتعد قلب "أبو" الذي كان بحجم القبضة، وتجمد لثانية لأن "أبو" قد لاحظ وهو في حالة من الرعب أن كلب الصيد ذا العينين يحدق باهتمام وحماس في "درب التبانة" الخاص به.

كان كلب الصيد أيضا، مثل درب التبانة، "معروفًا للحالم" الأفغاني منذ فترة طويلة.

يعرف "أبو" الحالم أن كلب الصيد له عينان، العين اليسرى منهما جاحظة، والعين اليمنى ضيقة، العين اليسرى سوداء، وتشعر أنها عميقة جدا والعين اليمنى ضيقة، ويبدو كأنها تومض، وتغمز بخبث، اللعبة الخالدة للأبدية نفسها.

كان "أبو" الحالم يعرف... عندما كان لا يزال في أفغانستان فتش في غرفة القراءة للجيش، وعثر، ربما عن طريق الصدفة، وربما بشكل طبيعي، وعلى الأرجح - بشكل طبيعي (!) على مقال صحفي للكاتب الياباني موكوتو ميوسي، الذي أكد بجرأة أن العين السوداء لكلب الصيد ليست سوى "حلق" لثقب أسود لا يشبع... ولا يزال الثقب الأسود ينتظر، وينتظر أن يقترب درب التبانة، لابتلاع كل هذا القطيع من البجع، كما يطلق الكازاخيون على درب التبانة، إن قطيع البجع هو مسار البجع الأبيض العائد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي في أوائل الربيع، ليبتلعها الثقب الأسود النهم. هكذا هم الناس، وهكذا هي الأمم.

شيء ما غير مفهوم منعها من التنفس، شعرت أنها تلهث بشكل يائس،" ماذا حدث معي؟ من أراد أن يخنقني؟ إنني أتذكر شخصًا كان يخنقني بحبل، من هو ذلك الشخص؟ الحبل.... الحبل... نعم، كان هناك حبل. هذا أمر مؤكد... لمست "زارا" بطريقة آلية رقبتها بيدها اليمنى، وخلُصت بشكل بديهي إلى قولها:"لا بد أن ذلك الوغد حاول أن يخنقني.... " ومازال الحبل الرفيع، المتين للغاية حول الرقبة. "أيها، الوغد! سوف أجدك وأقتلك". كلما تلفظت بكلمة "سأقتلك"؛ ضغط الحبل أكثر على رقبة "زارا".

استعادت "زارا" تفاصيل الجريمة التي ارتكبها ذلك الحثالة ذو الشارب الذي لم يتجاوز عمره الأربعين عامًا جزءًا جزءا، ثم تمالكت نفسها... تغلبت على ضعفها والألم الفظيع المصاحب لها مع كل حركة، وتمكنت بطريقة ما من الجلوس على الأرض المحروثة، كان كيانها البشري الأنثوي قد كسر، وسحق، وقتل. إن "زارا"... "زارا" الفخورة لم تستطع الدفاع عن شرفها، "ليتني مت... الآن كيف يمكنني أن أنظر في أعين "أبو" وأنا مبصوق على ومشتومة؟! يجب أرمي نفسي تحت الترام أو تحت الحافلة... ليس لدي خيار آخر!

تذكرت طفليها، ونطقت اسميهما همسا بشكل تلقائي، ودون وعي، ونسيت حالتها، ثم حاولت أن تنهض بحدة من مكانها، فسقطت على الأرض المحروثة بسبب الألم الحاد الذي يشبه البرق، ثم أجهشت بالبكاء... لأول مرة في حياتها، لأول مرة في حياتها! ونظرًا لشخصيتها القوية، كان صديقاتها يطلقن عليها عندما لا تكون بجوارهن "كارا تاس" أي الحجر الصوان... هذا " الحجر الصوان " أي، "زارا"، بكت بكاء مريرا لفترة طويلة، وبجهد جهيد من الإرادة نهضت على قدميها.

وقف هذا "الحجر الصوان"، "زارا"، على قدميها، و كانت تقع، وتنهض، وتترنح من جانب إلى آخر، ثم استطاعت أن تقوم بعدة خطوات غير متساوية كانت تدفعها إلى الأمام، و إلى الوراء، وإلى الجانب، وسرعان ما ومضت في ذهنها فكرة مبهمة: "ماذا سيعتقد الناس، عندما يروننني في مثل هذه الحالة؟" سيعدّني الناس سكرانة! يا للعار!

في هذه الحالة.... بعد ساعتين، عندما أشرقت أخيرًا شمس يوليه المنهكة، وانطلقت إلى أحضان قمم آلاتاو

المغطاة بالثلوج، وصلت "زارا"، وهي تترنح، إلى كوخ المستوطنين القادمين من أوكرانيا، حيث يعيش فاسيل الفلاح غريب الأطوار مع زوجته السهبية القوية الطيبة ماريا.

جرَت "زارا" نفسها بآخر ما تملك من قوة إلى الباب العالي المصنوع من خشب أشجار تنوب تيان – شان، ثم التقطت أنفاسها، وبالكاد وقفت على ساقيها الضعيفتين، وبقبضة يدها اليمنى الضعيفة بدأت تطرق الباب الأصم الرطب من الأمطار المتكررة.

لكن المالكين لم يستطيعا سماع طرقاتها الضعيفة، ولكن بعد فترة من الزمن، شعر الكلب ذو الأنياب الكبيرة والذي يستخدم لصيد الذئاب بمحاولة اختراق مخلوق غريب عن للمنطقة التي يحميها، فأخذ يهدر بهدوء في البداية، ثم غضب من بلاده... الكائن ذي الساقين، ولكن مع حفاظه على "إيتكيت" الكلاب، نبح بصوت عال ثلاث مرات، ثم هدأ، الآن، ربما، أدرك هذا الغريب أنه يجب عدم اقتحام المنطقة التي يحميها هذا الكلب بنفسه.

" أدركت " "زارا"، بالطبع أنها لن تستطيع أن تصل إلى هذه المنطقة، وحاولت الوصول إلى أكواخ أخرى، لكنها لم تستطع ذلك، وصلت إلى حالة الإنهاك، فتأوهت بشكل ضعيف، وسقطت على الطريق الذي تدوسه أبقار وخنازير فاسيلي وماريا شميتكو.

كان فاسيل وماريا شميتكو اللذان يعيشان في قرية بودجورنوي الواقعة في الضواحي المعروفان باسم فاسيل وماريا، أسرة كريمة وصادقة وذات مبادئ، رغم أنهما، للأسف، لم يكن لديهما أطفال، ولكن... رغم ذلك، كان يحظيان بالاحترام الكامل "لمدمني العمل، وعلى هذا المنزل المتثائب الخالي من الأطفال، وبالطبع، بأمر من العذراء مريم المقدسة، هبطا بشكل غير متوقع، وغير منتظر من السماء ملكان لطيفان... مرتديان ملابس أنيقة...

قام فاسيل وماريا في البداية بإطعامهما بسخاء، ثم سألاهما عن من يكونان، ومن أين أتيا؟ ولماذا ابتعدا عن والديهما، ولماذا كانا على مشارف هذه القرية، ومن "أبو"هما، ومن أمهما، وما هي أسماؤهما، وأين يعيشان، ولماذا هما، "آينا" و"بولو"، هربا من شخص ما أو شيء ما متعبين، لاهثين، وظهرا عند بوابة منزلها... ولماذا طرقا باب منزلهما بالذات؟

وبعد أن تلقيا إجابة كاملة، وشاملة من "آينا" الأكبر سنا، والتي كانت تتحدث بلغة روسية لا تشوبها شائبة، ابتسم الزوج والزوجة برضى، واستمرا بحماس شديد في إطعام "الملكين الصغيرين" من جميع أصناف قائمة الطعام الغنية.

بعد الوليمة الدسمة لم تجرؤ "آينا" و"بولو" احتراما لهما أن يتحادث بعضهما مع بعض بلغة غير مفهومة

لأصحاب المنزل المضياف، وكانا يلتزمان الصمت طوال الوقت بوقار معبرين عن امتنانهما بالطريقة العالمية المعتادة، ويجلسان على أريكة واسعة، وعلى الفور، وكأنهما قد اتفقا مسبقًا، يخلدان إلى النوم.

ابتسم فاسيل وماريا بفرحة لا يمكن تفسيرها في الوقت نفسه، كأنهما قد اتفقا على ذلك مسبقًا، ثم وكأنهما قد اتفقا على ذلك مسبقًا نقلا الولُد النائم إلى سرير رجالي واسع، وتركا الفتاة نائمة في مكانها، وابتسما بهدوء، وغطياهما بأغطية بيضاء تخشخش من النظافة، وتفوح برائحة طازجة.

ثم، كما لو كانا قد اتفقا مسبقًا، اتخذًا مظهرًا جادًا في الوقت نفسه، واقتربا في وقت واحد من وجه المخلِّص، وشحب لونهما معا على الفور، ورسما علامة الصليب بتؤدة وإخلاص.

بعد ذلك، لم يستطع كل من فاسيل وماريا اللذان كانا يشعران بفرح مفاجئ، أن يخلدا إلى النوم، وبالتالي استسلما واحدًا تلو الآخر، بدون أن يقاطع أحدهما الآخر لذكريات منسية منذ زمن بعيد؛ حيث عاشا في قريتهما فيلسو بالقرب من أوزجورود.

لم ينم كل من فاسيل وماريا، "فتحدث فاسيل على الفور، ونهضا، وارتديا ملابسهما، "وشربا الشاي"، ثم "رقد" فاسيل فترة طويلة تحت السيارة "مسكيتشيوم (26) "، "، سيارتهما البالية " كما كان الزوجان يسميان بمحبة" وسيلة النقل الخاصة بهما" والتي تم إنتاجها في عهد ستالين، وتمكنا من إصلاحها، وتشغيلها. وفي تمام الساعة التاسعة والنصف صباحًا جلس فاسيل، كما هي الحال دائمًا خلف عجلة القيادة، وماريا، بجواره، وجلس الطفلان "اللذان أرسلهما الله بنفسه" في مقعد الشرف الخلفي،، وانطلقوا جميعا صوب مدينة ألما – آتا.

بشكل رسمي، لا تزال قرية بودجورنوي تسمى ضاحية، ولكن في الواقع لم يكن هناك سوى ثلاثمائة متر فقط للوصول إلى العاصمة.

لم يلاحظ فاسيل وماريا اللذان كانا يبتسمان بسعادة، ويتحدث بعضهما إلى بعض عن شيء معروف منذ زمن طويل، كيف أن وسيلة النقل الخاصة بهما كانت تندفع بالفعل في شوارع المدينة.

في مثل هذا المزاج الجيد قاد رجل أوزجورود الذي استعاد شبابه في أقل من 24 ساعة "وسيلة النقل الخاصة به" إلى موقف للسيارات غير المجاني الواقع أمام المتجر المركزي، وهو يتمتم ببعض الأغنيات الأوكرانية. وابتسم بطريقة غامضة، وهمس بشيء ما في أذن زوجته الصالحة، وبهذا المزاج الجيد نفسه، ذهب إلى المدخل الكبير...

بعد خمس عشرة دقيقة، عاد السعيد، المتهلل، "محتضنًا" دبًا كبيرًا من القطيفة، ودمية باربارا جاحظة العينين.

كان الدب الكبير المصنوع من القطيفة من نصيب "بولو"، وأخذت الدمية باربارا جاحظة العينين "آينا"،

(26) سيارة مسكوفيتش ولكن الزوجين كانا ينطقان الاسم بطريقة خاطئة (المترجم)

تهلل وجها الطفلين على الفور.

كان "الفتى" البالغ فاسيل أكثر سعادة منهما، وشعرت ماريا وهي تراقب زوجها في الأربع والعشرين ساعة الماضية، كأنها فتاة صغيرة، وأنها قد وضعت عن غير قصد في فمها في الوقت نفسه ملعقة من السكر وملعقة من الفلفل...

بالكاد وجد فاسيل المتهلل، سائق "سيارته الخاصة"، وهو يتجول في شوارع "ألما-آتا" الضيقة والمنحنية التي لا معنى لها، الشارع المنحني المطلوب، وفي هذا "الشارع المتعرج يوجد المنزل" رقم 526.

بعد ذلك يمكن ألا نذكر كيف دخل فاسيل المتهلل وماريا إلى الكوخ، وكيف التقى الكازاخي الطويل الرشيق طفليه... و... المحسنين الغريبين اللذان أحضراهما، والكلام القصير الصادق الذي قاله في حق فاسيل وماريا، وكيف أن "أبو" الصلد، كان مرتبكا، وعثر بالكاد على قطعة من الورق وقلم رصاص، وكتب عنوان النبيلين الأوكرانيين ووعدهما بالقدوم لزيارتهما، وكيف أن "أبو" كان محرجا بشكل رهيب بسبب بؤس مسكنه، وقام بالاعتذار الذي لم يكن من عادته، وكيف ودع المحسنين، وهلم جرا، وما إلى ذلك.

لكننا يمكننا الاستغناء عن ذلك.

كان "أبو" على يقين من أن الطفلين سيعودان بنفسيهما، لكن ثقته قد خضعت لعملية تعديل بسيطة: وهو ظهور الزوجين الأوكرانيين.

كان "أبو"، كرجل كازاخي، حزينًا للغاية، إنه، كرجل كازاخي، لم يستطع أن يستضيف الزائرين اللذين ظهرا بشكل غير متوقع، حتى ولو لم يكن قد دعاهما، وهو، كرجل كازاخي كان يجب عليه أن يستقبلهما، ويدعوهما إلى المرور إلى غرفة الضيوف، ويجلسهما في أفضل مكان، ولكنه ليس لديه وهو الكازاخي غرفة ضيوف، وليس لديه مكان على الإطلاق ليجلس فيه هذين الغريبين النبيلين اللذين أحضرا طفليه حيين صحيحين في سيارتهما، وتجولا طويلا في الشوارع القذرة، الملتوية (!)، - لم يجد حتى كرسيين متهالكين ليجلس عليهما الضيفان (!)! هذا... عار مميت لصاحب المنزل، حتى ولو كان صاحب أفقر كوخ، (وإنني أنا المؤلف أعرف أحد الأشخاص من بلدتي، الذي كان في مثل هذا الوضع المهين، فقام بشنق نفسه... أحيانًا يحدث ذلك، ولُدينا مثل شعبي يقول: "الشرف فوق الموت").

شعر "أبو" أنه كرجل كازاخي بالذل، لكن هذا غير مهم، المهم هو ما قرره "أبو"، إنه على حال قد اتخذ قرارًا" ولكن ماذا قرر؟ - توجه "أبو" فجأة إلى نفسه - ما ذلك على وجه التحديد؟ ما ذلك؟ لا يمكنك الإجابة؟ حسنا، قل ما تشاء!

ارتجف "أبو"، كإنسان، على الفور، بعد أن أدرك أنه، على ما يبدو، قد تحول إلى تمثال حجري إلى أجل

غير مسمى" يجب أن أستيقظ!" أستيقظ، ولكن اتضح أن الطفلين ليسا في الكوخ... خرجا بهدوء، نعم، وكان الطفلان في الحديقة الصغيرة بين أشجار التفاح الستة يلعبان" يا للعجب!"

أثار مشهد الطفلين وهما يلعبان شعور ال"أبو"ة عند "أبو"، ابتسم بشكل غامض، ودعا الطفلين إلى الاقتراب منه، وعندما اقترب كل من "آينا" و"بولو" قال الأب بشكل احتفالي ومفاجئ له شخصيًا وللطفلين:

- دعونا نذهب للنزهة!

مشوا كثيرًا، في البداية، أخذ "أبو" الطفلين إلى حديقة الحيوان، تسكعت "آينا" فترة طويلة، ويمكن القول، لفترة طويلة جدًا حول ثلاثة أفيال: الأم، والأب، والأهم من ذلك، الفيل الصغير، كان مرحًا جدًا، هذا الفيل الصغير الأخرق، مرح جدًا، وربما، يرجع ذلك إلى اهتمام خاص من الزوار الرحماء، توصل "أبو" إلى هذا الاستنتاج.

قال أحد الزائرين: يبدو أن هذا الفيل يأكل الحلوى، وهو يحب الآيس كريم كثيرا.

أعطى "أبو" الطفلين المال بسخاء. ركضت "آينا" خمس مرات لشراء الآيس كريم، وقام "بولو"، بالطبع، بالمبالغة في هذا الأمر، وسجل رقمًا قياسيًا عائليًا في إطعام الفيل الصغير، و"أبيه" و"أمه".

وانطلق الثلاثي العائلي على مهل، وبزهو، على الطريقة العسكرية، صوب مملكة القردة.

وعندما وصل الثلاثي العائلي إلى وسط المملكة، هتفت "آينا" بحماس:

- رائع!

وهنا، رُسم بالطباشير على لوحة مدرسية سوداء ثمانية وثلاثين نوعا (!) "الأقارب المقربين" لبناة الشيوعية، وبجانب "الثمانية والثلاثين نوعًا" علقت لوحة كبيرة لبناة الشيوعية بوجوه سعيدة وذكية، وعيون متألقة من السعادة لعمال المزارع الجماعية وعاملاتها.

اقترب من "أبو" أحد هذه الأنواع، وهو ذكر غوريلا ضخم بشكل مثير للإعجاب مؤكدًا تفوقه الواضح على الآخرين من أصحاب الساقين، ومن الغريب أن الذكر الذي كان يحدق باهتمام، وبدراسة في عيني المماثل له غمز للمماثل له بعينه اليسرى، تحديدًا بالعين اليسرى...، أما بعينه اليمنى، (لاحظ "أبو"، أن عينه بنية)... فقد سأل بشكل صارم مطالب: "أين هديتك، يا قريبي؟ أين؟

ارتجف "أبو" لأول مرة في حياته بشكل مخجل، نظر إلى "أبو" بوقاحة معلمه العظيم جنرال الفرقة الخاصة من قوات المهام الخاصة... المختبر للدورات السرية للغاية ساراتاو - 17، وأكثرها شراسة "إيفاسي" نفسه... (!).

هذا السلوك للزعيم أحرج "أبو" لجزء من الثانية، حتى إنه أحس بالغليان، لكنه لاحظ النظرات البهيجة لطفليه، فهدأ بسرعة، وابتسم بشكل متفهم، وسحب عشرة روبل من جيب الجينز الأيمن، وقال ل"آينا" و"بولو":

- خذا هذا الروبل واشتريا موزا...، - وإدراكا منه أن البائعة السمينة ستحاول أن تخدع طفليه والتي كانت تحاول أن تخدعه هو أيضًا حينما اشترى لطفليه آيس كريم باهظ الثمن ذكرهما قائلًا:

- لا تنسيا أن تعدوا الباقي من المال في مكان الشراء!

وقال "أبو"، بعد أن شعر، لأول مرة في حياته أنه أب سخي، وفخور بهذا الصفة الجديدة غير المتوقعة التي اكتشفها في نفسه:

- تنزها، يا طفلي، تنزها! الحياة جميلة! كان يمكن أن نعيش لولا...

وبدا، أنه يختنق بشكل حاد، وهو لا يزال ينظر بعيونه الواسعة والعميقة إلى "آينا" ثم إلى "بولو"... ثم توقف فجأة.

شعر "أبو"، بالدوار قليلًا، وهذا أيضًا، بالمناسبة، لأول مرة، في الحقبة الكاملة الكريمة في حياة "أبو".

لا شك في أن "أبو" قد عاش ساعات قليلة سعيدة، ساعات تساوي عدة أشهر من حياة رجل عادي. هذا ما احتاج إليه، بحيث عندما يأتي يوم القيامة لن يسمح لقلبه أن يلين، "لا تحرمني من الصلابة، يا خالقي!" ولكن عند مغادرة حديقة الحيوان، لم يدرك لماذا توجه إلى المهرج، في البداية، لاحظ أنه أن هناك اثنين من الشباب الكازاخي في حوالي الثلاثين، أو الخامسة والثلاثين من عمرهما، يقفان في الجانب، ويرتديان ملابس صوفية سوداء متماثلة، في مثل هذه الحرارة (!) والجو الخانق (!)، ومقفولة الأزرار، كما لو كانوا ضباطًا صغارًا في حفل استقبال جنرال.

تحول "أبو" إلى مهرج -، واقترب من هذين الرجلين وهو يبتسم، ويكشر،، مثل معتوه ميئوس منه وقال:

- يا شباب، أرى أنكما لا تقفان هنا عبثًا! إنني أري أنكم من هناك! - وأشار بعينيه إلى السماء، الأمر الذي من الممكن تفسيره كأنها مكاتب عقابية عليا. - أنا أطلب منكما أن تأخذا هذه الفتاة والصبي، خذاهما بعيدًا!

التزما هذان الصمت بغباء.

وواصل "أبو" المهرج، إقناع الأمناء السريين:

- خذاهما بعيدا، خذاهما بعيدا! وإلا سيكون الأمر سيئًا، ولن نستطيع أن نتجنب المصيبة، بل الكارثة!

قرر أحدهما، على ما يبدو، أن "يفتح فمه"، وقال من خلال أسنانه دون أن يفقد وضعية التفوق:

ماذا يعني "خذاهما "؟ ماذا يعني هذا؟

استمر "أبو" في التوضيح:

- سوف يقتلونهما...

- من سيقتلهما؟

تدخل الثاني الذي يرتدي البذلة الصوفية السوداء في درجة حرارة بلغت أربعين درجة مئوية.

- والدهما يريد قتلهما...

الآن سأل الاثنان اللذان يرتديان اللون الأسود في الوقت نفسه، وفي صوت واحد معتدل:

- من؟

- من؟

- والدهما! - كانت هناك إجابة، إجابة صحيحة.

سأل الاثنان اللذان يرتديان السواد بحيرة:

- من هو هذا الوحش؟

على ما يبدو، كان "أبو" ينتصر بلا وعي، كان ينتظر هذا السؤال، فأجاب بصوت حازم، وواثق:

- أنا! أنا والدهما!

ألقى الاثنان اللذان يرتديان اللون الأسود، أعقاب السجائر على الإسفلت، وبوحشية حيوانية "سمّرا" الأعقاب المسكينة بشكل منهجي في الإسفلت في الوقت نفسه، ودون أن ينظرا حولهما، ابتعدا بخطواتهما العسكرية المعتادة إلى أعماق حديقة الحيوان.

لكن في المزاج المرح نفسه، وبصوت خفيض، استدعى "أبو"، "آينا" و"بولو"، اللذين كانا يلعبان بالقرب منه، ومشى في طريق نحو متنزه الثقافة والراحة المسمى... مثل جميع متنزهات الاتحاد السوفييتي الكبير... المسمى باسم مكسيم جوركي.

في الحديقة المسماة باسم مكسيم جوركي، أعطى "أبو" "آينا" (!) ثلاثة روبلات، واحتضن الطفلين بالتناوب، وقال لهما بصوت مليء بالبهجة:

- هيا! العبا! واشتريا ما تريدان من الحلوى، والبنبون - والآيس كريم! العبا العبا! سأكون هنا! على هذه الأريكة! سوف أجلس وأنتظركما! حتى ولو مائة سنة! هل تفهمان!

- مرحى.

صاح الطفلان السعيدان في الوقت نفسه، وذهبا إلى حيث يبيعون الآيس كريم... والبنبون...

لم تكن الشمس الآسيوية الكسلانة تريد أن تتحرك من مكانها، قارن "أبو" ضوء النهار بالحمار الكسول للمهرج الأسطوري، الطفيلي ألدار- كوزي، الأمرد الماكر.

تبدأ هذه الشمس الآسيوية الكسولة وهي تلعب بسذاجة بالضباب الرقيق لعبة "الغميضة"، في القفز حول "أبو".

شعر "أبو" أن هناك نوعًا من الفوضى تحدث داخل رأسه، ثم فجأة دوت بعض المقطوعات من موسيقاه المفضلة، ثم توقفت على الفور بشكل حاد، كما لو أن سيدة عصبية قامت بضربة واحدة بإغلاق الجراموفون.

تفتح، وتغلق ؛ تفتح، وتغلق "القدر يلعب على هذا النحو، لأن خلفي بحرًا من الدماء... وأبرياء... و-شورا في..."

وظهر أمامه كما على الشاشة صورة الشورا في، و"إيفاسي" يبتسم ابتسامة ملتوية بشكل وقح، ودون كلمات

(!)، "سأل" بصمت:

- حسنًا، هل هدأت، يا أفغاني؟ كيف حالك؟... هه؟... يبدو أن التركمان الأفغان أطلقوا عليك الحصان الخيالي - و... اختفي، أو بالأحرى، انْمَحَى.

عند ذلك فقط لاحظ "أبو" أن الشمس قد تمكنت من الاختباء خلف "الرقبة" المشعرة، المنحنية نحو الشرق للحصان الذي لا يكل تلجار، وعلى شاشة الذاكرة... ظهر ببطء:... "إيفاسي" و 366 طريقة لتدمير الآخرين، والملا مراد... والعائلة التركمانية من قرية كيوك آيلا - أول ضحية تجريبية للدورات السرية للغاية ساراتاو - 17. والجميلة سايرا، كيف تعذبت هذه المسكينة، وكيف أنها توسلت ل"أبو" عدة مرات... أن يقتلها... " اصنع معروفًا -! اقتلني! - لقد كانت تبكي.... " إنها... جميلة فخورة... إنها... ولكنني حينئذ كنت قابلت "زارا"، ولا ينبغي للرجل أن "يعمل على جبهتين، لقد كانت تدعوني أخي، وأنا كنت أقول لها يا أختي، سايرا المسكينة... لقد تعذبت... توسلت لي لأقتلها... إن الانتحار خطيئة كبيرة... في حق المسلم وفي حق المسلمة بصفة خاصة... وماذا كانت درجة عذابها!!

هنا، استيقظ "أبو" ولاحظ أنه على الأريكة نفسها التي كان يجلس عليها، كانت هناك امرأة عجوز تجلس بحواره، مرتدية ملابس نظيفة وأنيقة، إنها من أسر نبيلة أرستقراطية، إنها على الأرجح طبيبة، أو طبيبة متقاعدة... الأطباء عادة لا يذهبون لقضاء إجازة، ربما يمكنني أن أسألها... عن مرض الإشعاع؟ ما رأيك يا "أبو"؟ توجه "أبو" إلى نفسه ذهنيًا - "كيف؟" - " بدون كيف! - أجاب "أبو" القوي "أبو" الضعيف. - يمكن أن تأتي الإجابة فقط من الخالق! إن إجابة الخالق هي تاريخ البشرية بأسره منذ ألف سنة! "

كان "أبو" الضعيف يخشى دون وعي من اللحظة المقتربة بشكل لا يرحم والتي كان "أبو" القوي سيقدم عليها، كان "أبو" الضعيف يتجنب بجبن فكرة القصاص، التي قرر القيام بها الذئب الوحيد اليائس من البلد العظيم، وهي الدولة التي اعتقدت لسبب ما أنه قد سمح لها أن تقرر مصير البشرية جمعاء... كان "أبو" الضعيف يؤجل وقت تنفيذ الحكم الذي أصدره العظيم "إيفاسي" الشهيد القاسي المتميز.

كان التلميذ الضعيف للعظيم "إيفاسي" يؤجل، ويؤجل... ولكن عندما عاد مع طفليه السعيدين إلى "نزله"، أخذ الضعيف يفكر. وبخ "أبو" القوي بشدة "أبو" الضعيف، وأخذ يفكر بقوة، بعد أن تحول كعادته القديمة إلى تمثال حجري، أخذ يفكر بقوة لدرجة أنه لم يلاحظ أن "آينا" و"بولو" ناما على الأرض. رفع الأب الضعيف ابنته "آينا" في البداية من على الأرض، وعانقها، وضمها إلى صدره، ثم بأصابع ومخالب حديدية ضغط بمهارة على الشرايين، وبعد أن ضم، ضغط ابنته مرة أخرى إلى صدره، ووضعها بعناية على السجادة السميكة، ثم قام بنفس "المراسم"، مع ابنه المدلل "بولو"، ثم تحول المحارب العظيم لبلد السوفييت على الفور

إلى تمثال حجري، وينظر الكازاخ إلى التماثيل الحجرية كرمز للحكمة والحسم.

استيقظ ""أبو"" القوي بعد ساعتين فقط، كانت الليلة عميقة، وكان "أبو" القوي يعرف بيقين أنه قد أطيح بالضعيف نهائيًا، خرج "أبو" القوي من "كوخه"، وقام يغتسل، وبدت أشجار التفاح في الحديقة مظلمة، وعمالقة صامتة، وكان هذا يعني أن القمر لن يظهر إلا بعد منتصف الليل.

في غياب القمر أضاءت النجوم بألوان زاهية، وأضاءت بحرية... كانت كبيرة وساطعة.... ساعدت برودة الليل بطريقتها الخاصة "أبو" القوي،"أنت، يا "أبو"، ليس لديك الحق في أن تعطي "آينا" و"بولو" لابن آوى (27) الزمن ليلتهمهما، يجب الإطاحة بابن آوى الزمن. لا تدع ابن آوى ينتصر يا "أبو"! لا تترك الأطفال الصغار ليمزقهم ابن آوى الزمن بسخرية! أنقذهم! أنقذ الملائكة الصغار. هذه هي البطولة الحقة!!!"

أمال "أبو" القوي رأسه بالتناوب على جميع الجوانب الأربعة للعالم، ثم انحنى أمام النجوم مشرقة الساطعة. وبدا أن كل النجوم كانت تغمز بالموافقة، حتى إنها كانت تبتسم بسعادة... ودخل "أبو" القوي " منزله "، وهو يشعر بعزم شرس، في البداية، حمل "آينا" على ذراعيه، وضمها إلى قلبه، وقبلها في جبينها ثلاث مرات، ثم وضع ابنته بعناية على السجادة... ثم كرّر "أبو" القوي هذه المراسم بأكملها مع "بولو". ثم عقد ساقيه، وانحنى أمام الطفلين، ثلاث مرات لكل منهما! لطفليه! وانحنى في نفسه للأطفال البعيدين، وقال بهدوء: بسم الله الرحمن الرحيم، واعتزم أن يمضي قدمًا في تنفيذ الواجب العظيم... لكن (!)... هنا... ولكن هنا، بدأت "آينا" أثناء نومها العميق تشهق وتئن وتصرخ بشدة، لقد فعلت ذلك لثالث مرة خلال شهر....

– يا أبي! يا أبي! خلصني من ذلك! يا أبي! يا أبي! لا أستطيع... لا أستطيع التحمل!!! أنقذني من هذا!!! يا أبي، من فضلك... من فضلك! أتوسل إليك...

احتضن الأب الضعيف المرتبك ابنته، وهو واقف بكامل قامته، وبعد أن جن جنونه، بدأ يهدئ ابنته البالغة من العمر خمس سنوات، وهو ينتحب ويقول: "بايوشكي، بايو، بايوشكي، بايو..."

واستيقظ "بولو" وهو يصرخ صرخة يائسة، كأنه فرخ توقع أنهم سيأخذونه إلى الذبح في مصنع معالجة اللحوم (لقد رأى "أبو" مثل هذا الرعب، عندما أخذ الأب الذكي ابنه البالغ من العمر عشر سنوات بحماقة لتسليم العجول إلى مصنع سيميبالاتينسك الشهير للحوم).

بكى الأب الضعيف البائس لاثنين من ضحايا الدورات السرية للغاية ساراتاو – 17 الميئوس من شفائهما (!) بصوت عال كأنه قرر أن يعلو بصوته على صوتي طفليه الحبيبين المعذبين، "آينا" و"بولو"... وقال وهو يتلعثم:

– سأخلصكما، سأخلصكما... أقسم أنني سأجد القوة، سأجد القوة! سأخلصكما!

(27) ابن آوى Jackal هو الاسم الذي يطلق على أي من الفصائل الأربعة الصغيرة أو المتوسطة الحجم والتي تنتمي لعائلة الكلبيات والتي تتواجد في إفريقيا و آسيا. (المترجم)

بدأ الوقت يقاس بالثواني، وبكسور الثواني. وتمكن "أبو" الذي وصل إلى حافة اليأس من أن يفكر: "كم هو جيد (!) أن "زارا" ليست في البيت الآن!"

بدأ الوقت يقاس بكسور من الثواني: أومض الرقم 365 في رأس "أبو"، وكان هذا الرقم يعني 365 + 1 طريقة لقتل الإنسان بواسطة الإنسان.

في أثناء الحمى قام "أبو" بإصبعين من أصابعه و"بالكماشتين" الحديديتين، (لكم كان الخبير "إيفاسي" يثني، ويتعجب من الأصابع الحديدية لتلميذه الموهوب "أبو")!...، وبضغطة طفيفة...، دون أن يترك أي أثر... ودون ألم، ودون عذاب، وبسهولة، والأهم من ذلك، دون أن يلاحظ الضحايا أنفسهم، بانتزاع الأرواح الملائكية لطفليه المحبوبين..."آينا" و"بولو".

والآن، على العكس من ذلك، تباطأ الوقت... فقد تحولت كل ثانية، وكل جزء ثانية إلى دقائق وساعات (!).

وقف "أبو" غير السعيد ببطء، كما في مشاهد السينما البطيئة، بكامل قامته، وثني رأسه حتى لا يدمر سقف الكوخ المنخفض، وغادر "المنزل"، ووقف منتصبًا، وقف في ظلام دامس، ومشى بضع خطوات بشكل عشوائي – أوه، إنها معجزة! – لقد أدرك "أبو" أنه يقف على سنام الجمل (!).

من هنا دائمًا ما ينفتح الكون بأكمله، من هنا يرى كل شيء.

من هنا، ينفتح الكون كله دومًا، من هنا يمكنك أن ترى كل شيء!

من هنا، رأى "أبو" القوي، بوضوح كيف أن درب التبانة الخاص به، بدون علامات تنصيص، مثل أرنب مسحور يقترب على مضض، ودون قصد، من العين – الفم النهمة المظلمة لكلب الصيد، ورأى "أبو" بوضوح كلًّا من الأرنب والكلب، وفي هذه اللحظة، اللحظة التي امتدت لقرون، في تلك اللحظة الجديرة بأن تكون قرونًا، أدرك "أبو" عظمة الكون.

بطريقة غريبة، بسطت، أمام "أبو" سجادة صفراء،، سجادة شهيرة، كانت بمثابة زخرفة للمكتب الفسيح الخاص بمديرة حضانة الأطفال الحكومية رقم اثنين في المنطقة رقم واحد من في مدينة ألماتي الصغيرة، التي يسكنها مليون نسمة.

على هذه السجادة الكبيرة جدا رقدت ثلاث جثث، ثلاث جثث لثلاث شخصيات "بارزة" – الخالدة آنا أندريفنا، والخالد بابياك مالشيباييف، والخالد نور الدين سعيدوف، الذين كانوا متأكدين، وليسوا متأكدين فحسب، بل كانوا يعرفون دون أدنى شك أنهم أبديون، لا يتزعزعون، وأن لديهم الحق في اللعب بمصائر العشرات بل الآلاف من الأطفال غير المحميين من أفقر العائلات والقرى.

تم تحويل الرءوس الثلاثة قليلًا إلى اليمين، كما لو كان وفقا لأمر "ثابت، وعلى أعناق الثلاثة، كانت هناك آثار دم مرئية بالكاد.

– يا لها من مهارة! – حينئذ... قال "أبو" ذلك.

– يا لها من مهارة! – قال ذلك الآن "أبو" من خلال أسنانه.

على السجادة نفسها " ظهر"، أو على الأرجح، "بدا" منظر كاماردين سعيدوف، المنحني والمتسول المتعب جدًا جدًا.

وبطريقة ما، قفز على السجادة المحارب "إيفاسي" وهو ينظر حوله بتردد، وجبن، وينظر إلى "أبو" خلسة، وبنظرة مذنبة، ويبتسم ابتسامة التائب، كانت هذه الابتسامة بائسة، ويمكن القول، إنها مصطنعة.

كان "أبو" لا يزال ينتظر، ينتظر ظهور شخص آخر، ظهر له الملا مراد، والجميلة الحزينة سايرا... إنها، سايرا، التي على الرغم من كل المحظورات، أخذت تحدق في "أبو" بجرأة، وفخر، كأنها أرادات أن تقول شيئًا ما ل"أبو" ذلك الشاب المهذب، وليس ل"أبو" المنكسر واليائس.

ويبدو أن "أبو" ما زال ينتظر ظهور زوجته، المحبوبة "زارا"، تلك البائسة، التي أرادت، وكان زوجها يعرف ذلك جيدًا، إنقاذ "آينا" و"بولو"، المريضين بمرض لا شفاء منه واللذين يتعذبان بشكل لا يصدق... من المحاولة القسرية من قبل زوجها لإنقاذهما؛ ولتنقذهما مهما كلفها الأمر.

يود "أبو"، أن يذهب إلى "زارا"، ليعانقها، والأهم من ذلك، ليركع أمامها، ويطلب منها السماح والغفران.

لكن "أبو"، "أبو" هذا، ينوي أولا أن ينحني أمام زوجته، ثم يتوسل إليها أن تغفر له، تغفر له كل شيء، كل شيء، كل شيء، ثم أخذ خطوة، ولكن تبين أن هذه الخطوة ليست بسيطة، وإنما سحرية، ومد ساقه اليسرى ليخطو الخطوة الأولى... وعلى الفور ظهر على سطح نجمة ضخمة كوكب درب التبانة (!)، والخطوة الثانية كانت على كوكب آخر، ثم الخطوة الثالثة والرابعة والخامسة... وظل "أبو"، يقفز من مجموعة نجمية إلى مجموعة نجمية... حتى وصل حلزونيا إلى المجموعة الرأسية، وحاول أن يصرخ بصوت عال ليحذر درب التبانة من خطر... من خطر... من خطر اقتراب كلب الصيد الشره، كلب الصيد، كلب الصيد الشره... آمين

كاليخان إيسكاكوف

(1935-2014)



- كاتب نثر وناقد وكاتب مسرحي ومترجم، تخرج في كلية فقه اللغة بالجامعة الوطنية الكازاخية، نشرت أولى قصصه القصيرة عام 1963، ولاقت ردود فعل جيدة من قبل القراء والنقاد والأدباء، وكانت إيذانًا بميلاد كاتب نثر جديد في الأدب الكازاخي له أسلوبه الخاص.
- في السنوات اللاحقة، صدر له العديد من المجموعات القصصية مثل: "قصة صديق"، "إخواني الكبار"، "ألحان بوختاريما"، كما كتب العديد من الروايات من بينها "المنطوى على نفسه"، "الغابة القاتمة"، "أكسو – جنة الأرض" وغيرها من الأعمال التي تعد بمثابة إنجازات أدبية في النثر الكازاخي.
- عمل بشكل مثمر في مجال الدراما؛ حيث ألف أكثر من عشرين مسرحية من بينها: "الأيام الحارة"، "سيطير الأوز في نوفمبر"، "صدى الصباح"، "عذاب الروح"، "جدي اللطيف"، وقد تم تمثيل كل هذه المسرحات على المسارح الحكومية في مختلف الأقاليم.
- قام بكتابة سيناريوهات العديد من الأفلام الروائية الطويلة.
- ترجم إلى اللغة الكازاخية العديد من أعمال توليستوي، وتشيخوف، وتورجينوف، وبونين، كما ترجم روايات لسبعة كتاب حاصلين على جائزة نوبل.
- تُرجمت أعماله الخاصة إلى اللغة الروسية والأوزبكية والطاجيكية والبشكيرية والشيشانية والأوكرانية والسلوفاكية والبلغارية، وقد كتب أكثر من مائة مقالة في أنواع الأدب والنقد المسرحي والصحافة.
- يعتبر شخصية مرموقة في كازاخستان.
- حصل على جائزة "موسريبوف الدولية"، وجائزة "جامبيل جبابايف" الأدبية الدولية عن روايته "أكسو – جنة الأرض".
- حصل على جائزة الدولة من جمهورية كازاخستان عام 1992.

المطر الأبيض

كان الوقت خريفاً. تساقط المطر اللطيف الذي لا نهاية له، والذي يسمى لدينا المطر الأبيض.

توحّل الطريق. في ألتاي تلك هي الفترة الأكثر قبحاً وضجراً. غطى الضباب الكثيف القمم الجبلية العالية، وحجب بجناحيه المنحدرات المائلة.

يبدو أن الجبال قد استكانت وتصالحت مع حقيقة أن الحكم على جمال المنطقة الآن سيكون من خلال التلال الشاحبة، والهضاب الخرقاء.

في الأسفل تحولت الغابة الكثيفة إلى مجرد ذكريات تختزن في الذاكرة، باستثناء مجموعات من الأشجار مازالت تحتفظ بنضارة خضرتها؛ هذه الأوتاد صعدت بعناد على المنحدرات تدريجياً، لتندمج مع مرور السنين بعضها ببعض، وتشكّل أدغالاً من الأشجار الكثيفة على شرفات وصهوات الجبال.

دخلت في أيكة تتكون بكاملها من أشجار الصنوبر، عندها سمعت أصوات قعقعة عالية من الجانب، وسرعان ما انطلقت عربة كبيرة محمَّلة بالكثير من العلف السيلاوي. كانت تسير أمامي بقليل، وفي اتجاه الطريق الممهدة، لتندفع نحوها عبر منطقة مسطحة، السيارة تقودها امرأة شابة بيضاء الوجه، مع شالٍ أبيض ناعم مربوط بإحكام على رأسها، لم ترني على الفور، فجذبت لجام الحصان بسرعة، كما لو كانت تحاول معرفة من كان يسير على طول الطريق المهجورة في مثل هذه الأجواء المطيرة، حملقت فيَّ باهتمام.

عزيزي قاسم، هل هذا حقاً أنت؟ -سألت في دهشة.

من عينيها السوداوين، اللتين تحدهما رموش طويلة، ومن الصوت النقي الرنان عرفت آلتين على الفور.

هل فقدت طريقك؟ من أين أنت قادم؟ إلى أين أنت ذاهب؟ -أمطرتني بالأسئلة.

وضعت حزمة القش الجاف التي كانت تجلس عليها، وأشارت إلى المكان المجاور لها.

هيا، إصعد، اجلس بجواري، اجلس! -أضافت آلتين بحماس.

لم يخطر ببالي أن أقابلها على الطريق، لكن في ذاكرتي كانت تظهر هذه المرأة النحيلة الجميلة ذات الخصر الرفيع، والعينين السوداوين كالزبيب، والخدين الورديين اللذين يقولون عنهما دم مع حليب. وهاهي تفاجئني الآن تجلس بقوة في مكانها، وقد زاد وزنهابشكل واضح. وجهها المستدير فقد خصائصه الفريدة من نوعها. حييتها بحذرٍ، على الرغم من أنها كانت ودودة، بل وسعيدة للغاية بلقائنا غير المتوقع. لكني لم أعرف ما الذي

جعلني أتعامل معها بهذا القدر الهائل من البرود، ألأنني فوجئت بالتغييرات التي طرأت عليها؟ أم أنه تأثير الشعور بالحرج الذي لم يبارحني خلال لقاءاتي السابقة بها؟

لم أتمكن من العثور على شيء أفضل من الهمهمة في الرد:

وأنت من أين أتيت؟

كيف من أين أتيت؟ حياتنا ومعيشتنا هكذا....-يبدو أنها شعرت بالتغيير في موقفي تجاهها. - أنت رأيتني في أيام طفولتك الذهبية، ومنذ ذلك الحين مرَّت حياة كاملة. لدى الإنسان خاصية التغيير: شيء جديد يظهر فيه، وشيء آخر يتركه إلى الأبد....

وكما لو أنها لم ترغب في مواصلة فكرتها التي يبدو أن وراءها ثمة ما هو غير مبهج، حاولت تحويل الحديث في اتجاه مختلف:

وأنت، أيها الصعلوك، لم تتغير على الإطلاق! ذات الوجه الصبياني -لا شارب ولا لحية! -ضحكت، لكنها صمتت في الحال بعد أن رأت أنني لا أستطيع التأقلم معها.

أغلقت قبة السترة المخاطة الخفيفة التي كانت تتأرجح مفتوحة فوق نهديها الممتلئين، وفي صمت حدقت في العربة الكستنائية الفاتحة التي بدت وكأنها تحبو من ثقل حملها.

كيف ذلك-من أين أتيت؟ -كرَّرت متأملة. -هنا، في توبكاين، أعيش منذ ذلك الحين. أعمل في مزرعة للثروة الحيوانية. وأنت أي قدرٍ قادك إلى هنا؟

لدي عمل هنا .... أنا قادم من سارميساك، لم أصادف ولا سيارة، بالكاد وصلت إلى هنا.

آ-آ، -أومأت برأسها دون أن ترفع عينيها عن الطريق.

كانت تكبرني بعامين. تعلمنا في نفس المدرسة، في نفس الفصل. اشتهرت آلتين بأنها الفتاة الأجمل بين تلميذات المدرسة. كانت تغني بشكل رائع. أغانيها لا تزال تصدح في أذني، بعد أن اقتحمت قلبي مرة واحدة، وإلى الأبد. أحلى أحلامي تشكلت جميعهامع شدو صوتها الرخيم. كان يكفي أن يصدح في روحي أي لحنٍ مألوف غنته آلتين، حتى تظهرعلى الفور أمام عيني هي نفسها، وأيام الطفولة البعيدة، والأماكن العزيزة. أنهيت سبعة صفوف في القرية، وبإصرارمن والديَّ اللذين لم يرغبا في أن أربط نفسي مبكراً بالعمل المرهق، توجهت إلى مدرسة توبكاين الداخلية، وكان عليّ أن أدرس في أماكن تبعد ثلاثين كيلومتراً عن قريتنا.

كان مدير المدرسة الداخلية في منتصف العمر، بديناً بشكل مفرط، مع غشاوة بيضاء على إحدى عينيه بحجم حبة القمح.نظر إلى طلبي وجدول درجاتي، وأخفي تحت أنفه دندنة حزينة،ثم تمدد على كرسيه كأنه مستلقٍ.نظرطويلاً إلى حذائي القديم وسروالي المصنوع من جلد كستنائي، والمصبوغ باليستيك[1] ،كان من الواضح أنني لم أناسب ذوقه، وكأن في عينيه سؤال محير: "أيعقل أن هذا الصعلوك سوف يواصل

(1) يستيك: عشب غابات، يصنع من جذوره صباغ برتقالي اللون.

دراسته؟"أخيراً توقف عن الشخير عبر أنفه السمين،وانتصب بصعوبة محدثاً بكرسيه صريراً عالياً.

همم-م، تقول إنك تريد أن تدرس؟ حسناً، حسناً، سوف نقبلك في مدرستنا، لكن سيكون من الصعب إيجاد مكان لك في نُزل التلاميذ.... همم-م! هذا أمرٌ لا تعرفه أنت .... في العموم كل شيء سيعتمد على "شلوكك".

هكذا انبثقت من بين شفتيه، ليس سلوكك، وإنما شلوكك. يبدو أن الكلام استنزف الكثير من قواه، لأنه ألقى أوراقي على الطاولة، وانحنى إلى الخلف مرة أخرى. مرَّت دقائق طويلة متعبة: المدير عيناه مغلقتان، ومستلقٍ على كرسيه، وأنا جالسٌ على المقعد بانتظار القرار النهائي. كنت أدرك جيداً أنه بدون مكان في نزل التلاميذ، لا يمكنني أن أفكر في مواصلة دراستي.

هل لديك مكان تبيت فيه الليلة؟ - سألني فجأة، -إذا لم يكن هناك مكان، حسناً، ستقضي الليلة بأي شكل في نزل التلاميذ، وتعال غداً. فجأة أخذ يشخر وهو جالس على الطاولة.

أدركت أن الجليد كُسر، ولا داعي لأن أختبر القَدَر أكثر، مشيت على رؤوس أصابعي، وغادرت المكتب بهدوء.

.... لأول مرة أجدني وحيداً بعيداً عن البيت. للأسف لم يكن لدي أقارب في توبكاين، ولم يكن لدي الشجاعة لأن أذهب إلى أناس غرباء، وأطلب منهم قضاء الليل عندهم. لفترة طويلة تجولت في القرية، وبحلول المساء ذهبت إلى المدرسة الداخلية.

كان نُزل التلاميذ يقع في مبنى كبير مُشيَّد من الطوب. وسط غرفة ضخمة، تشبه القاعة، انتصب موقد أسود عديم الشكل، يشبه وحشاً ضخماً. وكحملان مربوطة بسلسلة واحدة، اصطفت الأسرة الحديدية قريبة من بعضها البعض، وملقى عليها فُرش غير مرتبة. خمسة أو ستة أولاد، كانوا، برؤوسهم الحليقة بشكل قصير، يجلسون خلف الكتب المدرسية والدفاتر، ملتصقين بطاولة بالية. بمجرد أن دخلت، رفعوا رؤوسهم عن الكتب المدرسية، وحدقوا في وجهي مثل قطط شاهدت كلباً. صبي آخر، طويل ونحيف، مع خصلة شعر متدلية على جبهته، كان مستلقياً بحذائه على سريره، أدار رأسه فوق رقبته الرفيعة، وفحصني من الرأس إلى القدم، ثم لحس شفتيه بلسانه الثخين والخشن، وسألني:

ماذا، هل انتسبت إلى المدرسة الداخلية؟

من النبرة التي طرح فيها السؤال، أدركت أن أمامي واحد من زعماء عصابات المدرسة الداخلية. وخشية من أن يلقي بي خارج الباب، أومأت برأسي بسرعة:

نعم.

في أي صف تدرس؟

في الثامن.

هكذا إذن-ن-ن؟ يعني، سندرس معاً! تعال، تعال! أنا هنا وحدي.... الأسرَّة ليست كافية، سننام الاثنان هنا. هيا، لماذا لاتدخل؟ سوف نعثر على مكان لحقيبتك: عندي صندوق واسع! - ودون أن يسمح لي أن أستجمع قواي، اقترب، وربَّت على ظهري بودٍ،وأجلسني على سريره.كان من الممكن الاعتقاد أنه رأى فيَّ روحاً

قريبة.-ربما أن حقيبتك محشوة بالبورساكات[2] ؟

لا، فيها ملابسي.

على الفور نزل حاجباه تعبيراً عن عدم الرضا، واختفي الود من على وجهه، وظهرت التجاعيد على جبينه.

لكنه حاول إخفاء كدره، فقال متجهماً:

حسناً، حسناً! هنا لن تهلك من الجوع، هنا كل واحد يجلب من البيت كيساً مشبعاً بالدهن ومليئاً بالبورساكات. أصبحت أشعر بالتقيؤ من الطعام المدهن!

فكَّرت في نفسي: "نعم، لو كان في الكيس بورساكات لوضعتها أمامك، ونظرت كيف ستبدأ بدسّها خلف خديك، انظر، كيف يمكنك أن تخفي ذلك!"

بعد ذلك لم يهدر الطويل وقته معي، فالتفت إلى الصبي البدين الأسمر الذي كان يجلس خلف كتابه المدرسي، وأمره:

هيه، جاريكجولُديز[3] ، أنت أقصر قامة، سوف تنام أنت وقاسم على نفس السرير. أرى أن سريري سيكون ضيقاً علينا. - أخذ حقيبتي ورماها على السرير التالي.

رمش الولُد بعينيه المستديرتين ككوبين، وغمغم بحياء:

لماذا ترميه؟

تملكني الغضب: "آه، أنت، أيها الجربوع التعيس! لو أني التقيتك في القرية، لكنت سأريك كيف تقذف حقيبة شخص آخر! حسناً، لا شيء، أنت عجوز، حافظ على ذيلك مستقيماً!"(هذا الرجل المنحني، يقولون، إنه يعمل الآن في القرية كعامل لجمع الصوف. منذ زمن أنوي أن أفاتشه إن سمحت الظروف بإهانته القديمة).

لم يكن لدي متسع من الوقت لأعود إلى طبيعتي، حتى دخلت إلى الغرفة امرأة بيضاء الوجه، قصيرة، وهي تدق بكعبيها، وبدأت في تأنيب الجميع بصوتٍ عالٍ:

ماذا يجري هنا؟ لماذا أنت مستلقٍ؟ .... لماذا لم ترتبوا أسرَّتكم؟ .... وأنت لماذا تجلس بملابسك على السرير؟ -هاجمتني -اجلس!

أوه، كولياش- آباي، لقد سئمت من حشر الشيء نفسه فيهم، وهم كما هم! -تدخل الطويل وهو يلعق شفتيه.

-إنهم لا يطيعوني.

من هو الذي لا يطيع؟ أرني إياه!

تردد الطويلدون أن يجرؤ على أن يسمي أي شخصٍ بعينه.

أرسل اثنين من الصبيان إلى بيتي، ليجلبوا الماء! -أمرت المرأة، وخرجت من الغرفةوهي تدق الأرض بكعبيها بقوة.

---

(2) بورساك: مخبوز شعبي، من العجين المخمر على شكل كرات مقلية بالزيت.

(3) جاريكجولُديز: بالترجمة الحرفية تعني النجم المشع.

ما إن أُغلق الباب خلفها، حتى تمدد الطويل على السرير من جديد، وحمل بيده كتاباً، في حين كان البقية منغمسين أيضاً في كتبهم المدرسية.

حسناً، من سيذهب لنقل الماء؟ -سأل الطويل بعد بعض الوقت.

أصبحت الغرفة أكثر هدوءً، ولم يرفع أحد نظره عن الكتاب المدرسي، كما لو أن الاختبارات كانت تنتظر الجميع غداً. توقفت عينا الطويل مرة أخرى على الصبي البدين الأسمر.

هيه، جاريكجولُديز، اليوم دورك للذهاب من أجل الماء! وهذا قاسم ليس لديه ما يفعله، خذه معك. فليتعرف على حياتنا.

نهض جاريكجولُديز على مضض من مكانه.

حسناً، إذا كان الأمر لا بد منه، سأذهب! -أجبته. في الواقع، كل شيء أفضل من الجلوس بين فتيان لا أعرفهم بهذه الهيئة، كما لو أن شوكة غُرِزت في رجلك، ولا تعرف كيف تخرجها.

تنفس بقية الأولاد الصعداء، وبصخب أغلقوا الكتب المدرسية، ودفعوا بها بعيداً عن أنفسهم.

جلبنا أنا وجاريكجولُديز من الاصطبل حصاناً صغيراً بأضلاع رقيقة بارزة إلى الخارج، وربطناه إلى عربة متداعية رُكِّب عليهابرميل. ما إن لمس حزام السرج ظهره الخشن، حتى أظهر

الحصان الرمادي على الفور تبرمه، فبدأ يضرب بهدوء بذيله القصير، وظل واقفاً: ليس الحصان، وإنما الجزء الجلدي الذي لا يزال من المفترض حبسه بإحكام. في كل مرة، عندما يرتفع السرج الثقيل في الهواء، كان كوكشولاك -هكذا كانوا يسمون الحصان-يتمسك على الفور بكامل جسده، وذيله المحدب مستعد للركل في أي لحظة. فكَّرت أنه ما كان ينبغي على جاريكجولُديز أن يصب عليه غضبه. يقول الناس في مثل هذه الحالات: "الكلب المضروب يهاجم طائر الكركي المسالم". هذا الكلام قيل في مكانه، ولكن ليس بمقدور كل واحد فهمه.

آخ، ليلتوي طحالك! هه، لماذا تعذب نفسك وتعذبنا؟ ما إن نصل إلى النهر، حتى يتوجب علينا العودة، سيكون منتصف الليل! والسؤال: من يستحق هذا الذي نفعله؟ - كان جاريكجولُديز الذي بدا فاقداَ القدرة على السيطرة على هدوئه يصيح في غضب. لكن كوكشولاك لم يكن مهتماً بشكواه. صفع جسمه بذيله مرتين على الجانبين، لكنه وبكامل قوته انطلق أخيراً من مكانه.

اتضح أن جاريكجولُديز (لاحقاً عرفت أن اسمه الحقيقي هو كامشاباي) كان ثرثاراً صغيراً، ومنذ الطفولة ظل الجزء الذي تحت أنفه رطباً بشكل دائم، لذلك، أولاد القرية، الذين لا تنضب لديهم موهبة اختراع الألقاب، أطلقوا عليه لقب جاريكجولُديز، فبسبب المجرى الأبيض تحت أنفه، رأوا أنه يستحق شرف تسمية النجم الساطع المتهاوي.لكن الشيء المضحك هو أنه ما إن يقول أحد الأولاد: "النجم يتهاوى!"، حتى يبدأ المجرى من أنف جاريكجولُديز يتدفق أكثر؛ كان يرشق بصوت عالٍ، وبين الحين والآخر يمسح الرطوبة الوفيرة بالجانب الخارجي لأصابعه الطويلة.لكن "أثر النجم" لم يجف أبداً فوق شفته. لم تجرح جاريكجولُديز

الوخزات اللاذعة لأقرانه على الإطلاق، فالاعتزاز بالذات كان غائباً عنه تماماً. في طريقنا إلى البحيرة، أخبرني بالكثير من الأشياء المفيدة. أولاً، كان حديثه يدور حول الصبي الضعيف والطويل الذي أرسلنا لنقل الماء:

لا تطعه كثيراً، وإلا سوف يجلس على رقبتك، ويبدأ طالما هو موجود بإصدار الأوامر: افعل هذا، قم بذلك. اسمه الحقيقي قادير-خان، لكننا نسميه غورباتي[4]. دعني أخبرك هو من أولئك المحتالين الذين لم يعرف العالم أمثالهم. يتملق أمام المعلمين، والمربية، وحتى أمام الطباخ، ومع زملائه في الصف يتصرف بغطرسة، يؤلب الواحد على الآخر، فقط ليحقق مصالحه الخاصة، ولو بقدر زهيد. لزج مثل ملعقة مغموسة في الزيت، لا تستطيع أن تلاحق ما يرميه في الدقيقة التالية.

وماذا عن المرأة التي وبختنا جميعاً؟

لا تعرف! إنها كولياش، المسؤولة الأولى! - مرر جاريكجولُديز أصابعه تحت أنفه. يكفي أن تقول"هس"، حتى تتجمد المدرسة الداخلية بأكملها. هي أولاً مربية، ثانياً معلمة، ثالثاً زوجة المدير! ماذا أيضاً؟ نعم، هي تتحكم في المنتجات والملابس التي تأتي إلى المدرسة الداخلية. إذا لم تحبك، اعتبر أنك لن تحصل على ملابس جيدة. وفي الحقيقة، هي بم-بم، غبية حقيقية! لم تكمل في زمانها إلا سبعة صفوف دراسية، وها هي تعلمنا، نحن تلاميذ الصف الثامن. إنها تستفيد من حقيقة أن زوجها يذهب إلى المديرين،لا تعرف، أنت لا تزال لا تعرف حياتنا، -تنهد جاريكجولُديز في مظهر المقتنع،بحيث يمكن أن تتقبله كأكثر الناس هدوءً على وجه الأرض، -لا يوجد رجال في القرية ليضربوا مايمورون[5] على يده، وليس هناك امرأة من شأنها أن تهدّأه، فها هو يتخيل الكثير عن نفسه -مايمورون لدينا ليس رباً، إلا أنه ليس أقل منه.

ومن هو مايمورون هذا؟، سألت.

حديثي عن المدير! أيعقل أنك لم تره؟

رأيته.

ذلك هو مايمورون. واسمه كالماتاي. للمدرسة الداخلية مخصص أربع أحصنة وأربعة بقرات وثور عمره عام واحد، وكل شيء آخر تراه في مزرعتنا يعود إلى مايمورون. هناك ثلاثون أو أربعون رأس غنم، وحصان واحد، وفرس واحدة مع مهرها، ولُديه خمس أو ست بقرات. في الصيف نقوم نحن، كامل المدرسة الداخلية، بتحضير التبن لماشيته، والحطب لمنزله. والفائض يبيعه هو حيث يستطيع، في البلدة المركزية، في القرى، لقد أمسك في يديه كل شيء، اللعنة! كما ترى، ها نحن نحضر الماء لمنزله.

أنتم لستم عمالاً مسخرين للعمل لديه، كان بإمكانكم أن ترفضوا وتديروا له ظهوركم!

أوه-هو! جرب أن تعصيه! لا، انتبه لما أقوله لك أولاً، قبل أيام جاء مفتش من المحافظة. يجب أن يكون

(4) غورباتي: أحدب.

(5) مايمورون: لقب، في الترجمة الحرفية يعني "الأنف اللامع".

شخص ما قد كتب إلى المحافظة عن وضعنا المأساوي. لعب في عقلي الشيطان، واندفعت إلى المفتش بشكوى أنه لم يكن هناك نظام في النزل، الإطعام سيء، ويخبزون الخبز غير ناضج. وماذا بعد ذلك؟ غادر المفتش، وعوقبت عقاباً شديداً. "يبدو أنك أُصبتَ بالتخمة، لدرجة أنك تزدري الخبز الحكومي! ربما هناك شخص آخر من أصدقائك ليس راضياً عن الطريقة التي يطعمونكم بها هنا؟ يمكننا ببساطة فصل مثل أولئك الأشخاص من المدرسة الداخلية!" – قاموا بتثبيتي إلى الحائط، بحيث أصبحت جاهزاً لوضع قدميّ في فردة حذاء واحدة. حاول مرة أن تتسلق الجدار، حينها سيطردونك من المدرسة الداخلية، وإذا لم يتمكنوا من فعل ذلك فوراً، فإن مايمورون يبدأ ينحت لك اثنين[6] في مادة التاريخ. – هزَّ جاريكجولُديز كتفيه، كما لو أنه شعر بالبرد. –إذا أردت أن تدرس في المدرسة الداخلية، حافظ على الهدوء.

استغرقنا وقتاً طويلاً إلى أن وصلنا إلى النهر. أُنهكنا تماماً حتى ملأنا البرميل. وأخيراً قفزنا إلى العربة، وأمسكنا باللجام، لكن كوكشولاك لم يهزّ أذنه. كان يقف بلا حراك،ولم يستجب تماماً لحثّنا له، وتلويحنا باللجام.ولكن ما إن سحبه جاريكجولُديز بكامل قوته مرتين من أردافه، حتى قفز الحصان على الفور مرتدّ إلى الخلف.اصطدمت العربة بشجرة، وتصدعت العجلة المتشققة، وتناثرت قطعها كشظاياها، وفي اللحظة التالية سقطت العربة على جانبها، وتدفق الماء من البرميل تياراً قوياً.

فلتَمُت، اللعنة! لِتُشَل مرة واحدة وإلى الأبد! لتنتفخ وتنفجر مثل فقاعة صابون!

انشق فم جاريكجولُديز على سيل جارفٍ من الشتائم، في حين أن الحصان المسكين الذي اضطر لسماع لعنات لم يسمعها في حياته من قبل قط، لم ينتفخ، ولم ينفجر. على العكس، ضغط أذنيه إلى رأسه، واستعد لمعركة أخرى مع معذّبه. جرّب جاريكجولُديز جميع الوسائل لإجبار كوكشولاك على التحرك، وبعد أن رأى أن جميع جهوده تهدر هباءً، ضرب بعصاه على الأرض، وجلس على حافة الطريق.

يا للتعاسة! –تمتم في قلبه، –والآن ستأتي عربة من صاحب الرزق. اجلس! –توجه إليَّ، –لا جدوى من الوقوف، بطريقة أو بأخرى سنخرج.

كان الجو هادئاً، فقد خيم الشفق فوق القرية المختفية خلف الوادي المشجّر؛ وبدأت تخيم ظلمة السماء، منازل بنيت بشكل عشوائي، والشرر يتطاير من المواقد الطينية المكدسة في الأفنية. من وقت إلى آخر كان يسمع نباح قصير للكلاب، وتدوي أصوات النساء اللواتي يقدن الأبقار من المراعي. في مكان ما على أطراف القرية، سمعت أغنية بنت حزينة.

آلتين تغني! –قال جاريكجولُديز.

ومن هي؟

زميلتنا في المدرسة الداخلية.

(6) اثنان: تعني الرسوب، في حين ثلاثة–مقبول، وأربع: جيد، وخمس: ممتاز.

إنها تغني بشكل جيد، -استجبت، -بغض النظر عمن تكون، إلا إنها تغني بشكل جيد.

في الواقع، الأغنية التي أرهبت صمت المساء، فجأة تملَّكت كل انتباهي. تغلغل الصوت الرقيق والصافي في قلبي. بهدوءٍ هبَّ نسيم، تتلاعب عناقيد العشب المزهرة حديثاً مع الريح مثل خيوط متناثرة لوشاحٍ حريري، ثم تتمايل بهدوء، ومرة

أخرى تتجمد بلاحراك. في منتصف الممر الضيق، علا جرف جبلي مثل مرجل مقلوب. كانت قمته المغطاة بالثلوج تشيع في كسل فوق الوادي الصامت الذي يقطع المنحدرات الجبيلية. بدا البدر الذي ظهر في نفس وقت غروب الشمس، وكأنه يصغي إلى صمت المساء وأغنية البنت الرقيقة، على أية حال، بدا كضيف مرحبٍ به، سُمِح له بالاستقرار على كتف الجرف.

كانت الأغنية تقترب أكثر وأكثر، وتكتسب قوة ملهمة تدريجياً. "ثوبٌ ذو هدب على أطرافه، قدٌّ ممشوق، نسيم عليلٌ يتخلّف، يغازلك...." دغدغت هذه الكلمات أذني، لتتقطع بطريقة غريبة، فتفضح القلق العاطفي للفتاة.

كانت تشدو أغنية "بير بالا/الطفل الوحيد"الشعبيةالتي كنت أسمعها كل يوم في القرية. لكن الآن اللحن القديم، الذي أصبح مملًا بالنسبة لي، هاهو يوقظ في روحي مشاعر جديدة غير مألوفة كلياً. هل كان السبب في أنه لم يكن لدينا مغنون بارعون مثل آلتين، أو أنه الشوق لأقاربي وتوقي إلى المنزل؟! فجأة هبط قلبي، حين انطلق صوت المغنية مدوياً، كريح عاتية تستهدفني، فتعصف بدواخلي، ثم خفتت، وكأنها حفيف أعشاب بالكاد مسموع، لحظتها شعرت أنه ليس هناك شيء أكثر جمالاً في هذا العالم من لحن المساء هذا، العائم فوق القرية.

مرَّ بعض الوقت، وفي الشفق الكثيف ظهرت الفتاة نفسها. ثوبها الأبيض يتطاير في الهواء. كانت تقود أمامها عجلاً أبقع، يبدو أنه أكمل السنة الأولى من عمره.

آلتين! - ناداها جاريكجولُديز بصوتٍ عالٍ، وهو يقفز على قدميه. -آلتين!

قفز العجل الأبقع من المفاجأة، فأمسكت بذيله حتى قبل أن تستقر قدماه على الأرض، ورمت بنفسها إلى الوراء. انقطعت الأغنية. وقفت الفتاة لدقيقة تتطلع في الظلام، واستعلمت بحذرٍ:

جاريكجولُديز، أهذا أنت؟

هبط جاريكجولُديز بصخبٍ وقال:

نعم، أنا.

ماذا تفعل هنا؟

جئنا من أجل الماء.

اقتربت آلتين منا. رفعت شعرها الأسود من على جبينها. ليلمع كامل وجهها الأبيض الرقيق في ضوء القمر. كان خداها ورديين، والغمازتان الصغيرتان على خديها واضحتين للعيان. شفتاها الرقيقتان كأنهما مبللتان

بقشدة بيضاء كالثلج. تحت حاجبيها الرفيعين كهلالين، لمعت عيناها السوداوان كالعنب. واتاني خاطر فجأة وأنا أتمعن في وجهها "لن يكون مستغرباً على الإطلاق لو تدحرج من هاتين العينين الصافيتين ندى صباحي شفاف"

شاهدت آلتين العربة المستلقية على جانبها وضحكت.

آه، يا رطب الأنف، أنت في ورطة مرة أخرى! -ببساطة وبشكل غير مزعج وخزت جاريكجولُديز، واستدارت وسارت بهدوء نحو القرية.

اعتقدت أنها واحدة من فتيات القرية اللواتي يعرفن قيمة أنفسهن. لكن أغنيتها الحنون كانت لا تزال تصدح في أذني....مشت آلتين وكأنها ترقص؛ بدا لي أن بطتي رجلاها البيضاوان العاريتان يلامسان سنيبلات العشب بغنج. وتخيلت أيضاً أنها تمشي وهي تضحك على سوء حظنا، قرأت ذلك الآن في مشيتها. في الواقع كانت معها أغنية، تشدو بها بروح منطلقة، أما نحن فكنا نصلي من أجل العربة الرمادية، وكانت راحة بالنا رهن نزوات حيوان متقلب....

استولى على قلبي نوعٌ من الحزن. وفي خيالي أكثر فأكثر بدت آلتين فتاة شموساً، لا تظهر تعاطفاً مع مصائب الآخرين. لا أعرف ما الذي كان يفكر فيه جاريكجولُديز في تلك الساعة، لكنني اعتقدت أن الفتاة التي كانت تغنى الأغنية للتو هي آلتين نفسها."ثوبٌ ذو هدب على أطرافه، قدٌّ ممشوق، نسيم عليلٌ لا يتخلّف، يغازلك...."

هكذا لم أتأخر عن مايمورون، وفي النهاية أُجبر على قبولي في المدرسة الداخلية.

جاء اليوم الأول من الدراسة، ومن بين جميع أبناء صفي، أثارت آلتين في داخلي أكثر المشاعر دفئاً. جلست وحدها على المقعد الأخير. لم تكن تثير ضجة، كانت قليلة الكلام، حتى أنها لم تشاركنا المرح عندما يقوم أحد التلاميذ بمزحة تثير ضحك الجميع. كانت متوازنة، حافظت على كرامتها الشخصية، الأمر الذي يبرزها بحدّة وسط قريناتها. كان الفصل مكتظاً، ولم يكن هناك مساحة كافية للتلاميذ. كنت أتوقع أن أجلس في نفس المقعد مع جاريكجولُديز، إلا أنه تبين أن بجانبه استقر صبي مثله تماماً، أسمرٌ وبدين، ولم يرغب بطبيعة الحال في أن يتنازل عن مكانه لي. لم أكن أجرؤ على الاقتراب من آلتين، خاصة أنها منذ بضع دقائق من الباب شاحت بوجها عن غورباتي الذي حاول الجلوس بجانبها.

ماذا، هل غمر مكانك الماء؟ اجلس في مقعدك-دفعته آلتين من صدره الضعيف، -اذهب، اذهب!

رنَّ الجرس وتدحرج مايمورون إلى الفصل، سألني بصوت أجش:

لماذا تقف كصنمٍ عند الباب؟

لا يوجد مكان.

اذهب إلى كابديغالييفا!" وأشار إلى آلتين بإصبعه، -لا تخف، فهي لا تعض!"

ما إن قال مايمورون هذه الكلمات، حتى اجتاحت القهقهة الفصل. ولسوء حظي، ما إن خطوت خطوة

واحدة، حتى خشخش بشكل يائس سروالي المصنوع من جلد المهر الجاف. انفجر الفصل ضاحكاً، ومايمورون ضحك أيضاً وهو يهزّ كرشه الكبير محدثاً صوتاً يشبه بطبطة البط: "إيك-إيخ، إيك-إيخ!" لم أعرف ماذا أفعل: أأضحك أم أبكي؟!وحدها آلتين لم تضحك عليّ. لكن قرأت خوفاً في نظرتها التي لم تتحول عن سروالي البرتقالي.

أوه، يا له من زوج رائع! - من مقعده الأمامي صاح غورباتي بمجرد أن جلست بجانب آلتين.

واصل الفصل الضحك دون أن يتمالك نفسه. لحظات بدوت خلالها على استعداد لأن تبتلعني الأرض. على ما يبدو قررت آلتين تشجيعي، أو ربما أنها لم ترغب في أن يضحكوا عليها، فتدخلت بحزم في المسار اللاحق للأحداث.

وما المضحك هنا؟ زوج مثل أي زوج! - نظرت إلى غورباتي بنظرة لاذعة. إيه، ابتعد!

بعد أن هدأ الضحك إلى حد ما، قام مايمورون بتنظيف حلقه وبدأ الدرس. وضع أمامه كتاب التاريخ، وألقى نظرة خاطفة على الصفحات المفتوحة، وقرأ لنا بصوته الأجش فصلاً كاملاً تقريباً. استهلك هذا العمل منه الكثير من الجهد، فخفت صوته، وغطى جبهته العرق. بعد الانتهاء من قراءة الفصل، أغلق مايمورون الكتاب، ونهض من على كرسيه.

لدي أمور عاجلة، سأترككم لفترة قصيرة. وأنتم لا تصدروا أي ضجيج، اقرأوا في كتابكم المدرسي! - غادر مايمورون الفصل، دون أن ينتظر نهاية الدرس.

بالطبع لم يفكر أحد في قراءة الكتاب. حالما أُغلق الباب وراء مايمورون، ارتفع صخب، وتعالت الضحكات.

على الرغم من أنني عانيت من الكثير من الخجل بسبب سروالي، إلا أنه خدمني خدمة مهمة. يبدو أن مايمورون أخبر زوجته عما حدث في درسه الأول، لأنه في اليوم التالي جاء جاريكجولُديز ليناديني.

يقول أمين المخزن أنه يجب عليك أن تذهب إليه من أجل الملابس! -صاح بفرح من مسافة بعيدة.

كان أمين المخزن في المدرسة الداخلية رجلاً مسناً يدعى زين الله. بليدٌ ونّفورٌ مثل ثورٍ هائج. على مدار السنة كان يسير في معطفه الشتوي البالي مع قبة طويلة من فراء السنور. كان الأولاد يعاملونه بكل احترام، ولكن لسبب ما كانوا يسمونه في غيابه "رجل في الدرع". فقط بعد مرور بعض الوقت عرفت أصل هذا اللقب، ولكن عندها كنت اعتقدت أنهم أطلقوا عليه هذا اللقب بسبب البخل. كان زين الله ينظر إلى كل شخص لم يحبه كما ينظر إلى مكان فارغ، إمابعين، أو بأخرى، لكن ليس بالاثنتين معاً. كان من الواضح أنني كنت في فئة هؤلاء الأشخاص الذين اعتبرهم عبئاً عليه. أمامي كان وجهه يلتوي ويرتجف بشكل مؤلم، في حين انحنى هو بكامل جسمه ليفرز الأحذية التي كانت في صندوق ضخم، ثم، كما لو كان يقطع من جسده قطعة من اللحم، ألقى لي حذاء عمل من مقاس أربعين.

آغاي[7] ،يبدو كبيراً، -بدأتُ، ولكن سرعان ما صمتت عندما رأيت نظرة العيون المحتقنة بالدم مصوبة نحوي.

هل تعتقد أن الأحذية الصغيرة تسقط من السماء؟ مثلك موجود هنا ما يكفي أيضاً لمدرستين داخليتين. إذا كنت لا تريد، لا تأخذ! -صرخ وتحول عني.

جاريكجولُديز الذي كان يقف خارج الباب، هز رأسه بشدة لينبهني ألا أعارض. في هذه الأثناء كان أمين المخزن يفرز بيديه السراويل والسترات الواحدة تلو الأخرى، ثم نظر إليَّ من الرأس إلى أخمص القدمين، ومرة أخرى قام بطي الملابس وحشرها في الصندوق بشكل أعمق.بدا من الواضح أنه كان يتأسف في داخله لأنه يعطيني شيئاً يناسبني من حيث المقاس. لكنه مع ذلك اضطر لتسليمي آخر سروال وسترة.

لا تدخل في جدالٍ معه، فهمت؟ - دخل جاريكجولُديز إلى المستودع وهمس في أذني. -فهو والد زوجة مايمورون! خذ ما يعطونه، ولا تدخل في جدال. أنت نفسك تعرف: "روح بائسة تحرس ثروة غريبة". الملابس كثيرة في هذا المخزن، ولكن انظر ماذا نرتدي؟ لنذهب إلى نزل التلاميذ!

كان الحذاء المصنوع من الجلد الخام السميك كبيراً ببوصة كاملة تقريباً، حتى أن نهايات أصابعي لم تصل إلى حروفه المستديرة كتورسيك[8] .عندما كنت أمشي، كان حذائي يضرب الأرض بصوت عالٍ، لدرجة بدا لي أن قدميّ ستنهاران عند الكاحلين.أجبرني جاريكجولُديز على المشي ذهاباً وإياباً، وراقب مشيتي، وأمرني أن أخلع حذائي.ثم قلب الفرشة، ومزقها على طول الدرزة، وأخرج منها كرتين من القطن، ودفع بهما إلى داخل الحذاء.عندها تناسب الحذاء بطريقة أو بأخرى مع القدمين، ولكن مع السروال والسترة كان الوضع أسوأ.ما هو حجم الملابس التي كانت من نصيبي؟ الله أعلم، ولكن يمكن سحب حزام السروال إلى الذقن، وكانت أطراف السترة تغطي بطتيّ ساقي.بدوتُ أمام نفسي حصاناً تم جلبه إلى البايغي[9] ، ملفوفاً في غطاء من الرأس إلى القدم.

لا شيء مخجل، -هدأني جاريكجولُديز، -المهم أن يعلق على كتفيك، ولا يسقط من خصرك. هذا الزي جيد عندما يكون دافئاً، وليس عندما يكون جميلاً، مفهوم؟

لكنني لن أفارقه، حتى ولو لم تكن السترة معلقة على كتفي، والسروال لم يستقر عليَّ. كانت الملابس الجديدة بالنسبة لي ثروة، بالمقارنة مع السراويل القاسية المصنوعة من جلود المهر، والأحذية المثقبة التي تكاد أن تسقط عند كل خطوة. شعرت بنفسي وكأنني على حصان.

منذ ذلك اليوم شعرت بنفسي متكافئاً مع نظرائي، كما لو أنني انضممت إلى حياة جديدة مثيرة للاهتمام. وكل ما حدث في هذه القرية الصغيرة التي تحمل اسم توبكاين الذي يعني "أيكة القضبان"، وكل الهموم

(7) آغاي: يا عم، شكل محترم لمخاطبة من هو أكبر سناً من الرجال.

(8) كتورسيك: وعاء كازاخي قديم مصنوع من الجلد لحفظ الأغذية.

(9) بايغي: أحد أقدم وأشهر أنواع سباقات الخيل لدى العديد من الشعوب التركية.

التي عاشتها المدرسة الداخلية التي أصبحت الآن بيتي، بدت لي أنها حملت نفس وإيقاع العالم الواسع. كنت وسط العديد من الناس. كنا، نحن الفتيان، نعيش وننام في غرفة واحدة، كل اثنين على سرير، وكان الأمر مشابهاً للكيفية التي كنا نجلس فيها على الحصان في القرية، كل اثنين. كنا نتناول وجباتنا في غرفة الطعام الضيقة، واحد يحصل على طعام أكثر، وآخر على طعام أقل، وكان هناك امتعاض، ونشبت مشاجرات، لكننا على الأرجح لم نكن لنوافق على أن نبدل حياتنا في المدرسة الداخلية بأي حياة أخرى، حتى ولو كانت الأروع. شعرت بأنني ترعرعت أمام عيني، عرفت الحياة أكثر فأكثر، واكتسبت الثقة.

بدأت أفتش عن أصدقاء لنفسي -هكذا هي طبيعة البشر، كل واحد منا يجمع حوله دائرة اختلاط خاصة به، يفتش عن أشخاص يشعر بأنه يتنفس وسطهم بشكل أسهل، ويعيش بأكثر بهجة. بالطبع في تلك الفترة لا تعرف الناس جيداً، ولا تدرك من هو الموجود فيهم أكثر-الجيد أم السيء، فأنت لا تزن أفعالهم بميزان، لكي تحصل على الرأي النهائي حول هذا الشخص أو ذاك. في مرحلة الطفولة غالباً ما يكون هذا هو الحال: لم يعجبك شخصاً، تبدأ في تجنبه حتى دون أن تكتشف صفاته بشكل كامل. أو على العكس، تبدأ في السعي إلى شخص، مشبعاً بالتعاطف، وتشعر بكل قلبك به، وتتمنى له كل خير. يحدث أن هذا الشخص ليس باستمرار على حق في تصرفاته، فهو لا يتعامل دائماً بعدلٍ مع الناس، ولكنك في كل الأحوال تقف جبلاً إلى جانبه. كان لدي صديقان: جاريكجولُديز وآلتين.

كان جاريكجولُديز أول من شاركني شؤوني عندما جئت لأول مرة إلى المدرسة الداخلية، وهذا يعني شيئاً بالنسبة لي. نمنا على نفس السرير، ويمكن القول إنه لم يكن لدينا أسرار عن بعضنا البعض. أحب جاريكجولُديز الأدب، لكنه كان أيضاً قوياً في اللغة الروسية والرياضيات. بالنسبة لي، أنا الذي نشأت في قرية كازاخية منعزلة، ولم أكن قادراً على أن أربط كلمتين بالروسية، بدا لي أنه كان من المستحيل معرفة الروسية بشكل أفضل من جاريكجولُديز.

الآن، بعد مرور الكثير من الوقت، يمكنني أن أعترف: غالباً ما كنت أقوم بنسخ الواجبات المنزلية باللغة الروسية والرياضيات من جاريكجولُديز.

كنا نحضر الدروس معاً نحن الثلاثة: آلتين وجاريكجولُديز وأنا. لم ألحظ أن آلتين كانت تميل إلى مادة دراسية بعينها. الآن أستطيع أن أقول إن روحها الرقيقة والحساسةكانت مخلوقة للأغنية؛ كانت أكثر ميلاً إلى الفن.

في تلك الأيام حاولت كتابة القصائد. في إحدى المرات خربشت سطوراً اعتبرتها نجاحاًشعرياً أكيداً لي:

ألبسة المدرسة الداخلية الموحّدة،

الخبز مائتا غرام - معيار.

لا جائع ولا شِبَع،

والطريق يمتد إلى بعيد.

في إحدى المرات قرأت بعد الدرس قصائدي لأصدقائي.

لا، هذا ليس شعراً! -أجملت آلتين بعد استماعها لي.

لماذا؟

لم أصادف مثل هذا الشعر! أعتقد أنك تضيع الوقت. على الأغلب لن ينتج منك شاعرٌ.

أحزنني حكمها: مباشر، وحاد، وخالٍ من أي احترام لهوايتي. حتى جاريكجولُديز الذي سبق أن أومأ برأسه فقط عند الاستماع إلى إبداعاتي، هاجمني هذه المرة بنقد قاتل:

اكتب إما بالروسية أو الكازاخية، -قال، -نعم، والكلمات التي اخترتها لم تكن شاعرية إلى حدٍ ما. بالإضافة إلى ذلك، في الحالة الاسمية لا توجد كلمة "ألبسة". لذلك الأصح: زي المدرسة الداخلية الموحَّد، ومئتان من الغرامات من الخبز هي معيار ...." وإذا تحدثنا عن المحتوى، فهو بشكل عام شعر ضعيف، لا ينبغي الكتابة عن المدرسة الداخلية هكذا، ربما أنت لم تتقبلها بعد، ولكنها بالنسبة لي هي منزلي، وأهلي.

لكنك ذهبت في اتجاه آخر. في القصيدة هناك حقيقة. بالمناسبة، أنت نفسك شتمت مايمورون أمامي.

-قررت أن كتبت انتباهه إلى كلماته التي قالها مؤخراً، ولكن جاريكجولُديز كان في الأعالي.

صحيح، أنا شتمت مايمورون، ولم أشتم المدرسة الداخلية! وإذا كان هناك شيء خاطئ لدينا، فهذا ذنبه. وأنت، المدرسة الداخلية لا تلمسها يا قاسم.

بالفعل، اتضح أنه لم يكن بمقدوري كتابة الشعر. انتهت "عذاباتي الإبداعية" مع السطور التي ذكرتها أعلاه، ولم أعد أكتب الشعر. الآن أشعر بالخجل عندما أتذكر محاولتي الشعرية الأولى. ومع ذلك، سرعان ما انتشرت هذه السطور الأربعة المكرسة للمدرسة الداخلية بين الأولاد، وجرى غناؤها كمقطع شعبي، وبالطبع وصلت أيضاً إلى مسمع مدير المدرسة الداخلية.

يبدو أنه لا فائدة ترجى منك! - هاجمتني بعد يوم أو يومين كولياش، زوجة مايمورون- ولُدٌ لا يريد العيش، بنفسه يركض إلى قبره، على الأرجح هذا قيل عنك، أيها التعيس!

أجلستني يوماً كاملاً أقشر البطاطس. كان العقاب في صالحي، لأنني في المساء حصلت على وجبة إضافية من الحساء. وبعد يومين قامت آلتين بخياطة سترتي وسروالي، عدّلتهما وفق مقاسي، لذلك بدأت في الظهور وكأنني مدلل حقيقي. فقط الحذاء كان كبيراً جداً، ولم أستطع مجاراة الأولاد في الألعاب.

حوالي خمسين فتى وفتاة كانوا يدرسون في المدرسة الداخلية، الدولة تكسيهم وتطعمهم.

كانت آلتين يتيمة ال"أبو"ين، وربما أن فكرة أنها ستضطر للاعتماد على نفسها فقط، أجبرتها على أن تكون متزنة ورصينة. كانت تعتني بنفسها، وترتدي ملابسها بعناية، وكانت تخيط وتطرز ببراعة. لم تتذمر آلتين من أي شخص، ولم تثق بأي شخص بأفكارها العميقة. بدا لي أن لديها سراً ما....

مر عام على انتهاء الحرب. والأمر المؤسف هو أن هذه السنة كانت مملة للغاية، وأصبحت أمور الغذاء سيئة، واستمر الناس في الشعور بالحاجة. من القرى جاء الأهل والأقارب لزيارة الأطفال؛ لم يأتوا خاليي الوفاض:

منهم من أحضر الكشك والجبن، ومنهم من جلب دقيق الشوفان الجاف أو كوباً من الزيت. كانوا يطعمونا بشكل مقبول، لكن الأطعمة اللذيذة التي كانت تُجلَب من المنزل أصبحت عزيزة علينا. افتقدنا جميعنا مناطقنا الأصلية. كانت الأكياس والكورجينات[10] تفرغ من قبل كامل المجموعة على الفور، لأن الطعام كان في المدرسة الداخلية يعتبر ثروة مشتركة. نادراً أن يخفي أحدٌ شيئاً أحضر إليه من القرية. وإذا حدث هذا، فإن أشخاصاً مثل غورباتي "يفضحونه" بطريقة غريبة: أكلوا هم كل شيء حتى آخر الفتات.

ذات مرة حدث عيد في حارتي، فقد جاء لزيارتي جدّي بقبعته القديمة الكبيرة مع ريشاتها الطويلة المتدلية. حلَّقت في السماء السابعة من السعادة.

أوه، الفار العزيز حيٌّ معافى؟"-سار نحوي، ومع كلماته كانت تهتز لحيته النادرة، وعيناه الصغيرتان الحادتان تلمعان بالدموع.

كان جدي شخصاً مثيراً. اسمه إبراي، وكان شقيق والدي الأكبر. في القديم كان في عشيرتنا رجل يدعى إبراي، لذلك فإن العمة كانشايم، وكما هو معتاد، لم تجرؤ على دعوة زوجها بهذا الاسم، ودعته باسم شاليم الذي كان يعني "شيخي". وشيئاً فشيئاً بدأت قريتنا بأكملها، والمكونة من عشرة منازل، تسميه شال. كان الرجل العجوز في سنٍ يقرب من السبعين، لم يرزقه الله بالأولاد، فاعتبرني ابنه. بالإضافة إلى ذلك، فإن الإحساس بالقرابة لدى الكازاخ كان نامياً جداً، فكنت بالنسبة لشال بيت شقيقه المتوفى راكيش، لذلك كان يقدسّني. لم يكن شال شخصاً بارزاً، إذ أمضى كل حياته راعياً. منذ نعومة أظفاره كان يرعى قطيع أحد البايات[11] المحليين، كان، كما يقال، كادحاً دمثاً ومطيعاً، وظل كذلك: لم يسمع أحدٌ حتى ولو كلمة قاسية منه،ناهيك عن أي تصرفٍ قاسٍ في حياته.

أعتقد أنك سمعت أنه بعد رحيلك أصابني ألم في أسفل ظهري، وتركت العمل، -قال متأوهاً، -لكن صاحب العمل لم يدعني أذهب، وأقنعني بحراسة المحاصيل. العمل، كما يقولون، سهل، وسيكون هناك حصان تحتك. الآن أنا نفسي لست سعيداً لأنني وافقت، يا صغيري العزيز. اتضح أن العمل مجهدٌ. حين يجري حصاد القمح، من المستحيل الابتعاد ولو لخطوة. عمتك نخرت أذني وهي تقول إن صبينا مشتاق للبيت، اذهب إليه وانظر لرؤية كيف يعيش، وإن كانوا يضايقونه في المدرسة الداخلية. ومن أجل ذلك تركت العمل. ألا تجوع هنا؟ ألا يزعجونك؟

تكلم بسرعة، دون أن يدعني أفتح فمي. نظر متفقداً ما ارتديه، فقد أوصلني إلى المدرسة الداخلية بملابس باهظة الثمن، والآن هو قلقٌ من أن يكون شيءٌ ما من هندامي قد ضاع. لم يبق شيءٌ لم يستفسر عنه! وفي بعض الأحيان، لم يكن ينسى إبلاغي بأخبار القرية.

عمتك بصحة جيدة والحمد لله، وأرسلت إليك هذا الكشك، -أشار بذقنه إلى كيس صغير ملقىً على

(10) كورجين: خرج؛ كيس بسيط، عادة ما يكون منسوجاً، يتكون من جزأين.

(11) باي: مالك كبير للأرض (أو الماشية) في آسيا الوسطى في الفترة ما قبل السوفييتية.

رجليه، -في هذا العام، وخلافاً للأوقات السابقة، لم يكن لدى عمتك لازبدة ولا كشك. البقرة الرمادية اللعينة كبرت، والآن حتى الثور لا ينظر إليها. لو أنها تخجل من الناس، يبدو أنها في هذا العام ستصبح عاقراً أيضاً. وبحلول الشتاء سأذبحها من أجل اللحم، وسأجلب لك أفضل قطع من ظهرها، أليس من الممكن النظر تحت ذيلها، هذه الوقحة؟! الحياة تتحسن، وإن كُتب لنا أن نعيش أكثر، سيكون لدينا بقرة أخرى. الحمدلله، لم نصل إلى درجة يكون فيها المرجل في البيت فارغاً. أصحيح ما أقوله؟

استعرض جميع أقاربنا الذين يعيشون في عشرة منازل، وانتقل إلى شؤون ابن أخيه كابيكين.

أنت نفسك تعرف، -مال نحوي في ثقة، -أنت نفسك تعرف أنه في السابق أيضاً لم يكن قوياً لأن يشرب. والآن هذه البيضة الفاسدة فقدت رأسها بالكامل، يملأكرشه بالكحول، ويتسكع بلا هدف في القرية. لا يعرف ماذا يقول، كما يقولون، كلب أبيض يقفز إلى فمه، وتخرج منه كلبة رمادية. وصمة عار على عائلتنا.... نشعر بالخجل من مواجهة الناس. قبل أن أغادر إليك، ذهبت إليه خصيصاً، لكنك تعرف زوجته، ليست امرأة، وإنما جلد متين لا تنغرس السكين فيه، فكيف الكلمات، تحلب الحليب من أربع بقرات، لكنها استكثرت أن ترسل لك كوباً من الزبدة. وكيف ستحتمل الأرض أناساً لا يعرفون الرحمة؟ ليذهبوا .... إنهم ليسوا بشراً، بل أحجارا سوداء، على الرغم من أن روحاً بشرية في أجسادهم، جئت إليهم، نظرت فإذا بكابيكين في زاوية الغرفة. فكَّرت أن أنزع من رأسه الغبي جلداً أملأ به فمه، لكني بعد ذلك تذكرت: ينتظرني دربٌ، ولا ينبغي تدنيسه بأي تصرف متهور. لا يمكنك أن تفعل هذا عندما تكون ذاهباً إلى ابنك .... وإلا، لكان قد رقص حقاً، اللعنة! ....

بعد أن عبر عن أحزانه، أخذ نفساً قصيراً، ومسح العرق الذي كان يغطي جبينه، ثم قال من جديد:

حسناً، يكفي ذلك، نعم، لقد جلستُ طويلاً. أنت نفسك تعرف، يجب العناية بالزرع دائماً. المواشي تُفسِد القمح- المدير سيغضب مني، وقد يوقع بي عقوبة حقيقية! حسناً، ليباركك الله! -ركب حصانه وضربه بالسوط.

لكنه بعد أن ابتعد بضع خطوات، رجع وقال:

أنت نفسك تعرف، نحن أناس صغار، على الرغم من أننا نفهم كل شيء في هذه الحياة. لا تلهُ هنا، وأطع كبار السن، وتعلم كما ينبغي. أرى أنهم كسوك وألبسوك حذاءً كالعريس. ما كنت لأقوم بهذا التجديد لك. سلطتنا الشعبية تُطعمك وتلبسك، علم عقلك الفهم، عزيزي .... مُهيري، ليس لديك لا أب ولا أم، لذا لا تفعل أي شيء من شأنه أن يحرمك من دراستك في المدرسة الداخلية. كن ذكياً يا مُهيري! وليباركك الله!

ضرب بكعبيه على بطن الحصان البني، وانطلق مسرعاً، ولكن ما إن دخلت إلى المدرسة، حتى عاد جدي مرة أخرى، وقال:

أنت نفسك تعرف، - قال وهو يربط حصانه، -تحت أقدام مسافرٍ واحدٍ لا يرتفع الغبار. لذلك، تقاسم الكشك مع أصدقائك، هم أيضاً أطفال، كما أنت، مشتاقون إلى منازلهم. الإنسان يصبح إنساناً وسط

الناس. وأين له بدون الناس؟ لذلك لا ينبغي أن تكون جشعاً، يا مُهيري! حسناً، كن بصحة جيدة!

ابتعد، وفوراً صاح بصوتٍ عالٍ:

يا لذاكرتي المخرومة! كم مرة رجعت إليك وكدت أنسى، أنت نفسك تعرف أن عمتك تخبئ دائماً شيئاً لك.... -أدخل السوط من مقبضه في قوس السرج، وبدأ في تلمس عنق حذائه. -أين اختفت؟ هل تدحرجت تحت النعل؟ كم مرة طلبت من العجوز أن تخيط لي جيباً داخلياً في القميص! لم تسمعني، عجوز! وها أنا أتعذّب، أبحث عن الريح في الحقل. أوه، ها هي!

استغرق الأمر وقتاً طويلاً قبل أن يسحب من عنق الحذاء ورقة نقدية من فئة الخمسين روبل. الخمسون روبل بالنسبة لي هي ثروة كبيرة! لم يسبق لي أن كنت إنساناً غنياً كما أنا الآن!

استعد الجد من جديد للذهاب، لكنه فكَّر وأخرج من جيبه صندوقاً صغيراً. غرس إبهامه عمودياً بداخله، وبعد أن أشبعه،سحبه وقربه بالتناوب من منخره الأيمن، ثم في منخره الأيسر.

هل تعرف أين يباع التبغ هنا؟ -انتقل إلى احتياجاته. -هذا التبغ أعطاني إياه ماتريي، إما أنه خلط نصفه مع الغبار، أو أنه قُطفَ أخضر، ولكن لا توجد فيه أي قوة، ما علينا، التبغ ليس مرمراً، سأجده في مكان ما. حسناً، كن بصحة جيدة! سوف أذهب، لقد تأخرت. أنت نفسك تعـــعـــ... ـرف آآب ب ت شييي! نفسك تعرف أن المال لم يمكث لدينا قط. بالنسبة للنقود التي أتركها لك، اشترِ بها كتباً ودفاتر يا مُهيري! حسناً، كن بصحة جيدة! آ آ ب ب تشييي!

تطلب الأمر من جدي الكثير من القوة عند الفراق، وكذلك الأمر بالنسبة لي.

كان الخريف ممطراً. وليس من قبيل الصدفة مايقولون إنه -حتى العاصفة الثلجية- هي مدىً واسعٌ للأطفال والكلاب، وأيام الخريف الممطرة (حيث المطر، أعرف أنه يتساقط صغيراً ومملاً) لا يمكنها حتى أن تقلل من خفة حركتنا؛ أيام السبت والأحد هي أيام خاصة بالنسبة لأولاد المدرسة الداخلية، في هذه الأيام يغادر الجميع أو يذهبون إلى منازلهم. يصبح النُزل هادئاً، ولا يبقى فيه إلا نحن الثلاثة: جاريكجولُديز وغوراتي وأنا.

خلال هذين اليومين لم ينهض جاريكجولُديز من السرير. لف أسفل ظهره ببطانية، كما لو كانت الريح تلعب في المهجع، وبين الحين والآخر كان يمرر أصابعه تحت أنفه، وأمضى أياماً بأكملها في حل بعض المسائل الرياضية المحيرة. في هذه الحالة لا تطعمه خبزاً، ولكن دعه يتدرب على حل المسائل.

غورباتي لم يخرج من المطبخ؛ جمع السكر والزبدة التي وضعها الطلاب قبل أن يذهبوا إلى منازلهم، وخبأها في صندوقه الأحمر، بعد ذلك بقي حتى آخر الليل يمضغ ويلوك ويشخر بصوت عالٍ، في حين سال لعابنا، جاريكجولُديز وأنا.

كان الكسل نشاطي المفضل، فقد كنت أستلقي في الفراش، ورأسي مغطى ببطانية رقيقة واضعاً أنفي في الوسادة، وأغرق في أحلام سعيدة.

ما الذي يمكن أن يكون أفضل من الاستلقاء في سرير دافئ، والاستماع إلى صوت المطر يدق برتابة على زجاج النافذة، وقلبك يردد؟ إنها الجنة، وليست الحياة! تأخذك الأحلام بعيداً، تجوب محلقاً في أنحاء العالم، تزور مناطقَ غير معروفة، وتنسى أنك مستلقٍ نصف جائعٍ تحت بطانية رقيقة.

في بعض الأحيان تغفو مرهقاً من التعاقب الذي لا نهاية له للوحات الخلابة التي تمر أمامك، وترى حلماً أسطوريا.

آهٍ، كم هذا لطيف، كم هو جميل!

في الحلم رأيت دائماً آلتين، ودائماً حلَّقنا معاً، أنا وهي، عالياً في السماء. بقربنا تلألأت النجوم، كلٌ يتشبث بيد الآخر، طرنا عبر الغيوم. من خلف سحابة كثيفة، فجأة ظهر مايمورون البدين، وانتزع آلتين من يدي، واختفي معها. بعد أن أنهكني الصراع غير المتكافئ، أطير هابطاً إلى الأرض، واستيقظ فزعاً على سقوطي من السرير.

حين تبين لي أن تعاستي كانت تحدث في المنام، اجتاحتني مشاعر السعادة بشكل يصعب وصفه. تسلقت إلى السرير، وأغلقت عيني، في محاولة مني للعودة إلى الحلم مرة أخرى. أغلقت عيني بإحكام، دون جدوى ، وبدلا من حلمي الجميل، جاءت أحلام أخرى، كنت أهرب فيها من ملاحقة إما وحش رهيب، أو ثعبانٍ ضخم، أو مايمورون المعقوف. واستيقظ مرة أخرى، منهكاً مع صداعٍ شديد، وبعيني المفتوحتين استلقيت لفترة طويلة في الفراش، دون أن أعي أين أنا.

هناك أناس لا يحبون الطقس الغائم. أما بالنسبة لي، فقد كان الطقس السيئ نعمة. كل واحد وما يحب. جلست بجانب النافذة، نظرت إلى الأمطار التي لا نهاية لها، واستسلمت لأحلام طويلة، كان جاريكجولُديز يحل المسائل، وغورباتي يأكل الخبز، وأنا أجلس بجانب النافذة. كانت الغيوم تسبح في السماء بسرعة ودون توقف. الأيام الأخيرة من شهر كاراش[12] .دفعت الرياح الباردة السريعة القمامة في الشارع: أوراق الأشجار الصفر، سيقان العشب الجافة، قطع من الورق.كانت شجرة البتولا العجوز تتأرجح أمام النافذة، وكان سربٌ من الغربان يطير بصخب فوق تاجها، في محاولة يائسة منه للاستقرار فيها ليلاً.على جذع الشجرة التصقت ورقة. ربما كانت واحدة من تلك الأوراق التي كتبت عليها قصائدي الفاشلة؟ نعم، أخذت أكتب الشعر مرة أخرى، وكتبت الكثير، وكانت كل أشعاري مكرسة لآلتين. في ظل شجرة البتولا العجوز هذه كنا نحن الثلاثة، جاريكجولُديز وآلتين وأنا، نحضر دروسنا وواجباتنا المنزلية. في ظل شجرة البتولا العجوز شكلنا أحلامنا. في ظل شجرة البتولا العجوز كتبت أول قصة قصيرة، مكرسة أيضاً لآلتين. لكن لم يعرف أحد، سواي، عن تلك القصة. لم أكن أجرؤ على إظهار إبداعي.

في ذلك الخريف الذي لا ينسى، بعد أن تخرج من المعهد، غادر ألماتاي، الشقيق الأصغر لمايمورون، عائداً

(12) كاراش: شهر نوفمبر.

إلى القرية، وبدأ بتدريس الأدب في الصفوف العليا. كان شاباً نحيفاً، متوسط الطول، في الثلاثين من العمر. كانت عيناه واسعتين وصافيتين،تلمعان بحزنٍ تحت حاجبيه العاليين.كانت لديه بالقرب من تفاحة آدم ندبة مضلعة من قروح قديمة، حجمها بحجم حرشفة السمك.وبطبيعة الحال، فإن هذه العلامة الفارقة،أعطت لأولاد في المدرسة الداخلية المبرر لأن يكونوا حاذقين للغاية في إيجاد لقب له.ما إن التفت إلى الجانب بعد وصوله، حتى لقبوه بتيرتيك المعوج، تميز بقلة الكلام، إما لأنه كان كتوماً بطبيعته، أو لأنه قرر أن يبقى حذراً معنا.لم يسمح لنفسه بالصراخ على التلاميذ، وباستثناء سجل الصف، لم يمسك بأي شيء في يده: لا بكتابٍ، ولا بدفترٍ.كان يعرف الدروس عن ظهر قلب، ويتحدث دون أدنى تردد، الأمر الذي جعلنا نحترمه.

لا أعرف لماذا، ولكن من اليوم الأول أحببت ألماتاي. كنت أنتظر درسه بفارغ الصبر، واستمعت بانتباه إلى كل ما كان يقوله. كنت أرغب في إظهار نفسي، ولم أفوت فرصة في أطرح الأسئلة، وغالباً ما أقاطعه، ومن حين إلى آخر تطوعت للإجابة في الدروس. لكن ما هو غريب، أنه، بغض النظر عن مدى ما أبذله من جهد في الإجابة، لم يضع لي أي علامة أعلى من "أربع". والأمر المفاجئ أكثر أن بعض أولاد صفي حصلوا على "ممتاز"، نعم، حفظوا المادة عن ظهر قلب، لكن دون أن يستوعبوها. ومع ذلك، لم يعرني المعلم انتباهاً. وموقفه من معارف الطلاب أثار استيائي وإدانته.

ذات مرة بعد انتهاء الدرس أبقاني ألماتاي، لم أستطع أن أسميه تيرتيك، كنت أدرس في الفترة الثانية، وكان الليل قد خيم، والوقت متأخراً. أغلق الباب بإحكام، وجلس بجانبي. وضع يده على كتفي، وبدأ ينظر بصمت إلى وجهي. كانت نظرته حميمية. استغرق الأمر عدة دقائق مؤلمة قبل أن يتحدث.

يا فتى، يبدو لي أنك في عجلة من أمرك كي تصبح كبيراً، -قال فجأة.

لم افهم ما الذي كان يعنيه، ولم أتمكن من قراءة أي شيء على وجهه: لا استحساناً، ولا ظلال إزعاج، ولا أي تلميح للسخرية، حوَّل عينيه الحزينتين بعيداً، وثبتت عيناه على أصابع حذائه. مرت أنامله الطويلة على كتفي، ولمست شعري. سرت رجفة في كامل جسمي، كما لو أن زئبقاً بارداً لمسها. ضربته لا إرادياً على يده. على ما يبدو، هو نفسه لم ينتبه إلى ما كان يفعله، تراجع، وخجل، وابتعد عني.

هل آلتين قريبتك؟ -سأل بصوت منخفض.

لا.

ربما أنتما من نفس القرية؟

لا.

نهض ألماتاي، وذهب إلى الطاولة، وبدأ، وهو يقف وظهره لي، في تصفح المجلة. ثم عاد إلي.

أنت غير غاضب مني؟

من أجل ماذا؟

من أجل الدرجات التي أضعها لك.

لا.

وإذا بصراحة؟

لا.

هذا جيد. أنت لا تقارن نفسك مع الآخرين. أعرف، كما أعرف أصابعي الخمسة، مدى استيعاب كل واحد للمادة. أحدهم ما يريده هو فقط الانتهاء من المدرسة. وهذا يحتاج إلى الدرجة، وليس أكثر من ذلك. وآخرٌ.... أنت تحلم بأن تصبح أديباً، أليس كذلك؟ هذا يعجبني يا قاسم. لا يمكن تقييم حلمك "بثلاثٍ" أو "أربع". الشيء الرئيسي هو حبك للأدب. هل فكرت في هذا؟

لا أعلم.

سمعت أنك تكتب القصص.

من قال لك ذلك؟

كامشاباي.

لا، أنا لا أكتب.

وبصدق؟ -نظر إلي باهتمام.

لم أكتب.

حسناً .... أي كاتب تحب؟ لمن تقرأ أكثر؟

أنا أقرأ كل ماأصل إليه.

سأعطيك كتاباً مثيراً للاهتمام. هذا إن كنت أنت طبعاً ترغب في قراءته.

سأقرأه.

إذن، لنذهب إلى منزلي....

لأول مرة وجدت نفسي في بيت مايمورون. كان مكتظا بالأثاث، ومفروشاً بالسجاد.من كثرة الأشياء، لا تجد الإبرة مكاناً لتسقط فيه، خطوت نحو الغرفة في بطء،وترددت عندما نظرت إلى حذائي الضخم القذر، ثم تراجعت إلى العتبة، في المنزل كانوا لتوهم قد فرغوا من تناول العشاء.كان مايمورون، مثل تل، مرتفعاً في مكان الشرف، متكئاً، واضعاً اثنتين أو ثلاث من الوسائد تحت كوعه.كانت سترته مفتوحة، وكان الجزء العلوي من قميصه الداخلي مسوداً من العرق، وبدا وكأنه خرقة صُفيت بها مياه قذرة.امتدت خطوط سوداء رطبة من حلمتيه إلى سرته.تمايل مايمورون، وأخذ منشفة موبرة كانت ملقاة عند الرأس،وكومها تحت إبطيه،وبدأبمسح العرق بحركات قوية.زوجته التي كانت تحمل صينية مليئة بالباورساكات إلى المطبخ، رأتني عند العتبة،فتوقفت من الدهشة.

لماذا أتيت؟ -بعدها أومأت كولياش بإدراك، وأخذت حفنة من الباورساكات من الصينية، ودفعت بها إلي.

ربما اعتقدت أنني جئت لأطلب صدقة. كنت على وشك أن أرسلها هي وصينيتها بضربة واحدة إلى الجحيم،

لكن شيئاً ما أمسكني في اللحظة الأخيرة، بالأحرى، أوقفتني كلمات جدي الذي طلب مني ألا أفعل أي شيء من شأنه أن يحرمني من فرصة الدراسة في المدرسة الداخلية. استدرت إلى الباب، وهممت بالمغادرة، ولكن في تلك اللحظة خرج ألماتاي من الغرفة الجانبية. قذف زوجة أخيه بنظرة صارمة، وسألني:

إلى أين أنت؟ تعال إلى الغرفة! -أمسك ألماتاي بي من كمي، وسحبني بشيء من القوة إلى غرفته. سحب كرسياً لي، وصاح من خلال الباب: أحضروا لنا بعض الطعام!

لم تمر دقيقة، حتى كانت الصينية أمامنا. فوق الباورساكات كان هناك لحم ضأن بارد. ودَّع ألماتاي كولياش بنظرة عابسة، وتحول صوبي مرة أخرى:

هيا، لتناول العشاء!

لكنني لم أمد يدي إلى الطعام. لم أستطع أن أنسى كيف تعرضت للإذلال في هذا المنزل قبل بضع دقائق. جسمي كله كان متوتراً. يبدو أن ألماتاي فهم حالتي، فأخذ قطعة باورساك، مضغها على مضض ودفع بالعلبة جانباً. رفع الكرسي إلى الحائط على نحو صاخب، وسحب من تحت السرير حقيبة كبيرة مصنوعة من جلد التمساح. فتحها، وبدأ يفتش في الأشياء الموجودة فيها، أخرج كتاباً مهترئاً ووضعه على الطاولة، على غلاف الكتاب الظاهر كان هناك نقش بالخط اللاتيني لكلمات باللغة الكازاخية. لم يثر الكتاب لدي الكثير من الحماس، لأنني سبق لي أن أمسكت في يدي كتباً مماثلة له، بل وأحدث. غريبٌ، فكَّرت، هل كان الأمر يستحق دعوتي إلى البيت بسبب هذا الكتاب. ربما فهم ألماتاي أفكاري.

هذا هو الكتاب الأكثر إثارة للاهتمام، الذي وعدتك به. قال، -انظر، لا تضعه. هذا الكتاب أهداني إياه أقرب صديق لي. وثمة طلب آخر: لا تظهره لأحد، ولا حتى لوالدك. اقرأه، وسلمني إياه باليد، مفهوم؟

مفهوم، -أجبت.

هذا جيد.

وضعت الكتاب تحت صدر القميص، وذهبت إلى المدرسة. تصفحت الكتاب، ولم أجد فيه ما هو غير عادي. قرأت الصفحات القليلة الأولى، وفهمت طريقة تشكيل الكلمة المبينة فيه، وأدركت أنه تمت كتابته بطريقة مبتكرة، ولكن ليس أكثر.

لماذا عرض عليَّ هذا الكتاب المدرسي إذن؟

في نهاية الصفحة العاشرة فوجئت بجملة مبتورة، والصفحة التالية كانت مفقودة، وبدأت الصفحة الثانية عشرة كالتالي:"عندما غادرنا بيوتنا، كان الوقت يقترب من الظهيرة". على مايبدو قُرِأت هذه الصفحة مراراً، فاصفرّت، وجرى لصقها في بعض الأماكن. بدأت في قراءة المزيد: "كانت السحب السوداء الداكنة، بتواصل محكم، مثل قافلة، تسبح إلى الجنوب، وبسببها كانت الشمس تبحر تدريجياً، وتلقي أشعتها الدافئة على الأرض. ومع ذلك، اخترقت الرياح الباردة التي تهب من اليسار الملابس، وتسللت إلى داخل الجسد، كما لو أنها تذكر المسافرين بأن شهر سبتمبر قد حلّ. كنا اثنين".

هكذا تحديداً بدأت القصة، ما زلت إلى الآن أحفظ عن ظهر قلب هذه السطور. حتى ليس البداية وحدها، بل أذكر القصة كلها بشكل جيد. لا أعرف حتى أي ساعة قرأت الكتاب، لكن ما بقي في ذاكرتي هو التعاطف العميق الذي شعرت به مع المؤلف."شوغا إنسانة حقيقية!" – كررت في ذهني مودعاً بطلة القصة.

كم كنت أرغب في أن أجلس خلف الكتاب حتى الصباح، لوأن الحارس الليلي لن يطردني من المدرسة. من جديد وضعته في صدري، ومضيت إلى نزل التلاميذ.

من الآن فصاعداً كنت أقضي الليل مع هذا الكتاب، كما لو كنت مع عروسي، أحمله تحت قميصي، وأخبأه تحت الغطاء، وفي النهاية خلال أسبوع قرأته من الغلاف إلى الغلاف. لم يُذكر اسم المؤلف ولا عناوين القصص التي في الكتاب. كان من الصعب حتى تحديد المكان الذي تنتهي عند مؤلفة، وتبدأ مؤلفة ثانية.

في بعض الأحيان، في المكان الأكثر إثارة تقطع هذه القصة أو تلك، ثم تأتي قواعد نحوية، تمتد لعدة صفحات، كما لو كانت تأخذ القارئ بعيداً، وتجبره على الاعتقاد أن الذي أمامه هو كتاب مدرسي، ثم يأتي نص القصة مرة أخرى.

قرأت الكتاب دون توقف، كما لو كنت حملاً هزيلاً وصل بعد جوع الشتاء إلى عشب الربيع الأول. كأن صور حياة قريتي الأم. تنتعش أمام عيني

انخرطت في دوامة حياة كان فيها الكثير من الخير والشر، ويعيش ويقاتل فيها من أجل مستقبل مشرق كبار سن وشباب، أناس من مزاج حاد وروح لطيفة، ظالمون وصادقون، عنيفون ومسالمون. بكيت لأن شوغا ماتت من الحزن، وحزنت مع المسكين عبد الرحمن، وكنت إلى جانب العجوز أيراكباي الشبيه بشالي، ومع المرأة العجوز روشان التي تشبه، كقطرتين من الماء، جدتي كانشايم، استمعت إلى أحاديث أيداربيك وزينب وكأني أجلس معهما عند الموقد، وكنت ممتناً لأميرجان على كلماته الذكية وأفكاره الدقيقة، وضحكت من كل قلبي على حماقات الشاب كوريمباي.

كان عالماً حيوياً ضخماً! أستطيع أن أقول إنني نسيت نفسي، وكأن أفكاري وجدت أجنحة. وفي الوقت نفسه أسفت لأنني لم أتمكن من المشاركة في تلك الحياة التي صورها المؤلف ببراعة فائقة ودقة، وتحسرت لأنني لم أولُد قبل خمسة عشر–عشرين سنة.

من هو ذلك الشخص الذي صور حياة أبناء السهوب أولئك بمهارة، مغطياً فترة امتدت إلى ما يقرب من ربع قرن؟ قدَّم للقارئ تاريخاً كبيراً ومثيراً كما لو كان يصبُّ من كوب فضي مليء إلى الحواف، ووضع هذا الكوب أمام القراء: تفضلوا، اروا عطشكم، اشربوا هذا المشروب المنعش. هنا الطعم، واللون، ونَفَس الحياة، لم يفقد شيء، كل شيء مازال بطزاجته، ولم تسقط ولو قطرة واحدة.

أعدت قراءة القصص عدة مرات، حتى أنني أعدت كتابة "تذكار شوغا" في مفكرتي. ثم طرحت على نفسي سؤالاً: لماذا يخفي ألماتاي هذا الكتاب؟ لماذا لا يتطابق غلاف الكتاب مع محتواه؟ لماذا يتم وضع القصص بطريقة لا تخمن على الفور وجودها؟ فكّرت في هذا اللغز لعدة أيام وليالٍ على التوالي.

وفقاً لما اتفقنا عليه، أخذت الكتاب إلى ألماتاي، وسلمته له باليد. ثم سألته عن الشيء الذي يعذبني. لم يتفاجأ ألماتاي من أسئلتي أبداً. أخذ الكتاب مني وسألني:

هل قرأت مؤلفات تشيخوف؟

قليلاً.

إذن اعتبر أنك قرأت أعمال تشيخوف الكازاخي، -أجابني ألماتاي.

هل هو على قيد الحياة الآن؟

ستعرف في وقتك، يا قاسم.

لم يقل لي شيئاً آخر.

عدت إلى نزل التلاميذ، وأصبح قلقي الآن منصباً على مفكرتي التي أعدت فيها كتابة القصة. من أجلها لم أثق لابنفسي، ولابرفاقي. قطعت قميصي المبطن، ووضعت المفكرة تحت البطانة القطنية، وخطته من الأعلى بخيط قماش سميك. وهكذا بدا لي أن كنزي أصبح في أمان تام. في النهار كان القميص عليَّ، وفي الليل كان تحت رأسي. وصلت الأمور إلى درجة أنني عند سماعي أدنى حفيف، أمسك السترة المبطنة، خوفاً من أن يحاول أحدهم سرقة قصتي المحبوبة.

بعد أن قمت بتحسين وقت فراغي، ذهبت إلى القرية، وفتحت قميصي، وأخرجت منه المفكرة، ومن جديد أعدت قراءة "شاغا".ثم حلمت بلقاء المؤلف. أردت أن أخبره عن انطباعاتي،وأريه مفكرتي.اعتقدت أنه يعيش في ألماتي، وإذا ما زرت العاصمة، فإنني سأنجح في العثور عليه بالتأكيد.ولكن مرت عشر سنوات كاملة قبل أن أعلم الحقيقة الكاملة حول مؤلف قصصي التي أحببتها[13] .

هناك ساعات لا يجد فيها الشخص لنفسه مكاناً، تتملكه مشاعر غامضة ومضطربة. يعيش في توقع شيءٍ غير عادي، شيء من شأنه أن يهدئ روحه، ويجلب له شعوراً بالرضا الكامل. ما هي هذه القوة التي لا يمكن تفسيرها، والتي تقلق الإنسان وتجره بعيداً؟ ربما اسم هذه القوة الحب؟ باعتقادي، الإجابة على هذا السؤال ليست بمقدور الحكيم الذي يعرف أسرار الحياة، ولا الشاعر الذي يعرف الهزات الروحية للإنسان. من الأفضل أن ننطلق من الطبيعة البشرية ذاتها، من معجزة الحياة الدنيوية التي تسعى بعيداً، إلى الأمام وإلى الآمال. لقد فتنني عطش الحياة الذي لا مفر منه، والذي، بالمناسبة، يصعب نقله على الورق. ويكمن ضعف الإنسان في حقيقة أنه في بعض الأحيان لا يستطيع التعبير بشكل كامل عن أكثر أفكاره حميمية. علاوة على ذلك، الأفكار والمشاعر التي تقلقك، قد تبدو الأبسط بالنسبة لأناس حولك. في فترة طفولتي لم ألتق بشخص واحد كان يمكن أن يصدّق أنني أتطلع لأن أكون تلك الروح الحية، فيشمل حيز اهتماماتها أكثر قضايا الحياة الإنسانية تعقيداً. لم يصدق أحد أن ما كان يقلقني هو هذه القضايا تحديداً. مع ذلك، هذا أمر مفهوم تماماً.

(13) مؤلف "تذكار شوغا" الكاتب الكازاخي الشهير بييمبيت مايلين.

كنتُ يتيماً يريد أن يحصل على التعليم، وأن يصبح شخصاً مكتملاً. من لا يريد هذا؟

الاهتمام بدراستي حملته البلد على عاتقها؛ وماذا يمكن أن يتمناه صبي نشأ في قرية صغيرة بائسة؟ مأكل ومسكن وملبس، وتعلّم،ونضوج للعقل كل هذا و ما زلت صبياً.... لكن آلتين ربما مازالت تعتبرني فتىً غبياً،لا يزال غير قادر على تكوين أحكامه عن الحياة.في الحقيقة، عاملتني كما تعامل أخاها الصغير، كانت تشفق عليَّ أكثر من أن تنجذب إليَّ كروح قريبة، تمنت لي التوفيق، ولكن لم تشاركني أبداً أفكارها الداخلية كشخص متكافئ معها.أستبعد أنها شعرت كيف كان قلبي يدق بحرارة وقلق عندما أراها.ولو أنها شعرت بذلك،لكانت على الأرجح قد تقبلت ذلك كميولٍ صبيانية ساذجة، كمظهرٍ لتلك الصداقة الطفولية التي ترافقنا في حياتنا المدرسية.

الشخص الوحيد من الكبار، الذي قرأ أفكاري مثلما يقرأ كتاباً، كان ألماتاي، لكنه هو أيضاً لم يظهر ذلك بالكلمات، بل بالنظرة.

حتى بعد أن قرأت الكتاب وأعدته إليه، لم يتنازل ألماتاي، ويخوض حديثاً صريحاً معي. كان رجلاً كتوماً بما فيه الكفاية، وبدا لي شخصاً غامضاً للغاية. لكني رأيت فيه شخصاً ميالاً للتأملات العميقة، الأمر الذي أثبتته، كما بدا لي، نظرة عينيه الذكيتين، الغارقتين في الحزن على الدوام.

بشكل عام، في كامل مظهره غير الواضح والخامل، مثلت عيناه تلك الجاذبية الوحيدة، التي شدت إليه كل من قابله. بدا أن حياته كلها كانت في هاتين العينين العميقتين والقادرتين على الهيمنة على الشخص حتى النهاية. خلال الدروس كانت هاتان العينان تلاحقان كل حركة من حركاتنا أنا وآلتين. عندما كنت أنتظر ريثما توضح آلتين وصديقاتها الواجب المنزلي، كانت العينان السوداوان الحزينتان تنظران إلينا بشكل حادٍ وصارم؛ وعندما كنت أستمع كيف تشرح آلتين للفتيات مادة الواجبِ المنزلي، كانت العينان السوداوان الحزينتان تركّزان بشكل مستمر ودقيق حتى على أصغر حركة من حركاتنا. ربما كان ألماتاي في تلك اللحظة يتحدث أو يجيب على سؤال أحد ما، لكن نظرته المركّزة لم تسمح لنا بالانفلات ولو للحظة من مجال عينيه،.كانت هاتان العينان السوداوان، الغائرتان واللتان لا ترمشان، تقرآن أفكارك، وتتركانك مكشوفاً كما لو كنت مقلوباً من الداخل إلى الخارج.لا إرادياً عانيت من التوتر بسبب هذه النظرةالمزعجة والمخترقة في آن واحد،وآلتين أيضاً بدأت تشعر بالحرج من اهتمام ألماتاي هذا، غير المبرر والمفرط، بنا.ما إن كنت أسترخي قليلاً وأسمح لنفسي بأدنى حرية في الدرس، حتى تطأ آلتين على حذائي تحت المقعد لتنبهني بأنه يراقبنا.

تميزت آلتين وسط قريناتها بشكل واضح، إذ لم تكن مهملة، ولا غير مبالية. ذهبت إلى المدرسة بانتظام، ودرست بجد، وبعد الدروس لم تختلط بأحدٍ، ودون تلكؤٍ في الطريق تعود إلى النزل. تشد كتفيها إلى أعلى، وتضع رأسها بين كتفيها، وتمشي دون أن ترفع عينيها عن الأرض، كما لو كان هناك شيء ما يضغط عليهابعبء لا يطاق. في بعض الأحيان عند الغسق كانت تأتي إلى المدرسة، وتفتح ال"أبو"اب، وتتجول لفترة طويلة في الفصول الفارغة. كنا، أنا وجاريكجولُديز، نتابعها بقلق، عندما نتوجه إلى المدرسة كان ألماتاي يأتي بعدنا.

راقبنا بصمت، وبصمت أيضاً يتوجه إلى البيت.

كنا نظن أنه كان يتابعنا بشكل مقصود، كما كان يفعل الجميع في أيام الدراسة بالمدرسة الداخلية.كان موقفهم غريباً،لو أن واحداً من الأولاد ظهر بجانب الفتاة، تشتعل ضجة رهيبة، ويبدأ المعلمون على الفور مناقشة مثل هذه الحالات التي تبدو في منظورهم غير عادية، وكانوا يتعاملون مع أكثر اللقاءات اعتيادية لفتى مع فتاة، على الأقل كمجاورة الذئب مع النعجة-في كل مرة كان ينتظرهما مصيبة لا مفر منها.ولهذا السبب، كان علينا التواصل مع الفتيات أثناء الدروس في الفصل فقط، وإلا فإننا نخاطر أن نصبح موضوعاً لنقاش الطلاب،بل ربما يصل الأمر إلى ماهو أسوأ،حيث تعرض المسألة في اجتماع مجلس المعلمين الذي، بالطبع، لا يمكن توقع أي شيء جيد منه.

معلمونا الذين "غرسونا" في الدروس بذوراً للصداقة الحقيقية والإنسانية، فعلوا كل شيء في كثير من الأحيان لتقسيمنا إلى معسكرين متقابلين، وبالكاد تحدثوا عن العلاقة المتبادلة بين الأولاد والبنات، كانوا يسعون إلى أن يقتلوا فينا بشكل منهجي أي رغبة لإظهار المشاعر البريئة تجاه بعضنا البعض.

عندما أفكر في تلك الفترة الطفولية البعيدة، يضيق قلبي استياءً، لأن مثل هذا الموقف تجاهنا من جانب المربين والمعلمين قادنا إلى ترهيب الفتيات باستمرار، والتهكم عليهن وإزعاجهن، وأحياناً إهانتهن بكلمة طائشة. كذلك تصرفت الفتيات بتصنع، وغرقن في تنهداتهن بعد أن كن يسمعن منا أي كلمة من شأنها أن تلمح إلى شيء حميمي، وأغلقن آذانهن بشكل استعراضي، وهربن من الفصل كقطيع ظبيان خائف بعد أن شعر بالخطر.

كل هذا جرى فقط من أجل أن نبقى "لائقين" في عيون المعلمين. الآن أفكر كم قُتِلت وخُنِقت في تلك الأيام، مشاعر بريئة لم تشتعل بنار الحب، ولم تأسر قلوبنا بطموح شبه طفولي لعشقٍ سامٍ وفريدٍ لمن نختار! من جديد أرى العيون الفضولية والمحبة، وأسمع ضربات قلوبنا، وأقول في سريرتي تلك الكلمات التي كانت حينها تضغط على صدري. ربما أعتقد أننا فقدنا في أنفسنا تلك الشرارات التي من شأنها أن تؤدي في نهاية المطاف إلى صداقة واعية، وتبني في المستقبل عائلات

قوية ومُحبة. في النفس البشرية.

أيضاً هناك فصلا شتاء وصيف، فيهما تعصف العواصف، لكن أيضاً تغمر أشعة شمس دافئة الكون خلال أيام كثيرة هادئة.

طوال الحياة تحتفظ في ذاكرتك بكلمات دافئة، ونظرة واحدة،وحركة مرتعدة واحدة، وإيماءة لا تنسى، تستيقظ في ذاكرتك فيما بعد، خلال رحلتك في سن الرشد،كصدى أبدي لبداية الرحلة، كخلاصٍ، كدفقات مانحة للحياة، لا تعرف الكلل، لحركتك الدؤوبة على طول خط القدر.كل هذا، الذي لا يتكرر في حياة الإنسان لاحقاً، مهما كانت سريعة، ويتبين لك الجيد والسيء.في الصعود الطويل عبر الحياة، هناك برعمٌ واحد، رباطٌ واحد ووحيد سيبقيك عندما يأتي التعب اللاإنساني، حين يكون عليك أن تسقط من علوٍ.سوف يمنحك

إشعاع هذه اللحظة قوة جديدة، مما يثبت استمرارية الروح البشرية.

على الأرجح، كنت لا أزال أحمقاً، لكنني لا أذكر جيداً أول فصل شتاء طويل عشت فيه في المدرسة الداخلية، فهو تقريباً لم يبق في ذاكرتي. والآن، وأنا أهجع على العربة التي تقودها آلتين الناضجة، أشعر وكأنني شخص يحاول عبثاً أن يربط أطراف حبل مقطوع. أريد أن أترك هذا الشغل غير المجدي والمرير.... ليعذرني القارئ لأنني أقفز إلى موضوع مختلف، أو بالأحرى لأنني انتقل إلى فترة زمنية أخرى من حياة آلتين، وألماتاي، وجاريكجولُديز، وغورباتي.

الربيع يأتي على آلتاي متأخراً، كما لو كان يختبر مقدار صبر كل ما هو حي، لكنّه يجتث من الجذر بقايا الشتاء. بالحال يهبط على الأرض الكثير من الحرارة، بحيث في كل مكان يفقد كل شيء رأسه، ويشعر بنعيم غير مألوف، وينسى نفسه في الهناء الأسطوري. تكتسي الأرض بخضرة غضة وفواحة لدرجة أن القمم الثلجية لآلتاي تتجمد من المفاجأة أمام صخب الربيع هذا، كما لو أنها لم تجاور طوال حياتها غابة الصنوبر الكثيفة، حيث لا يستطيع الكلب أحياناً أن يحشر وجهه في أدغالها الخضراء الكثيفة. سحر الربيع! المعجزة التي تثير لدى المرء إعجاباً لا حدود له، وتولُد فيه دهشة مرتعشة. في هذا الوقت يصبح مسقط رأسي قريباً وعزيزاً عليّ لدرجة البكاء.

تقع قريتي في آلتاي. في فصل الشتاء الطويل تكون منغلقة على نفسها، كما لو كانت غارقة في نوم عميق، وفي الربيع، مع أشعة الشمس الأولى، تعود إلى الحياة على الفور.نخلع عن أنفسنا الملابس الثقيلة التي أزعجتنا طوال الشتاء،ونودّع الموقد الذي دفأنا في الليالي العاصفة الطويلة.في فصل الربيع من الصعب أن تتصالح مع قدوم الامتحانات، إذ ترغب في الخروج إلى الطبيعة،في حين عليك أن تجمع كامل قوة إرادتك للإبقاء على نفسك داخل الجدران الأربعة للصف.تشعر باليوم الواحد كأنه أسبوع كامل، في حين يمتد الأسبوع كأنه شهر طويل.لكن لكل شيء وقته: تنتهي الدراسة، ويقدم التلاميذ الامتحانات النهائية، ويعودون إلى منازلهم. تهدأ باحة المدرسة، وتخبو الحياة في النزل.لا أحد سوانا، يتامى الأب والأم، مثل الأغنام العرجاء التي تبقى في الزريبة عندما يندفع القطيع كله إلى المراعي الحرة.مهما كانت الرعاية التي يوليها البلد إليك، إلا أنك تشعر بمرارة وصعوبة افتقادك والدين ينتظرانك بأذرع مفتوحة.تتحجر الروح من الوحدة،وتملأ الصدر المرارة،وتكويه كالنار.تشعر كما لو أن أحدهم أساء إليك، الحزن يجدك، ويوقعك في مصيدته.هنا أكثر الكلمات غير ذات أهمية بالنسبة الآخرين،تجرح قلبك بتذكيرها لك مراراً وتكراراً بقدرك كيتيم.لاحظت أن الأيتام حساسون ومتحفظون، ويتطلب الأمر الكثير من القوة لتستدعي الصراحة من أعماقهم، وتستميل ميله الداخلي.

ما زلت إلى الآن أذكر بوضوح ذلك الصيف الحار، عندما كنا نحصد القش. تجمعنا في الكوخ. أنا وجاريكجولُديز نكدس أكوام القش على عربة كوكشولاك، وخلال الاستراحة القصيرة أحضرنا من المزرعة الجماعية الحليب والعيران –طعامنا البسيط.استنفد كوكشولاك كل قوتي، ويمكن للمرء أن يعتقد أنه بطبيعته

خُلق تحديداً لينهك الناس.تقول العامة: "تقود الحصان إلى المسكن،وهو يحاول الهرب إلى الصحراء".وهكذا هو الأمر هنا، فقد كان كوكشولاك تجسيداً كلاسيكياً لهذا القول، على الرغم من أننا كنا نربط قائمتيه،ومهما راقبناه بكلتا العينين، إلا أن صاحب الذيل القصير تحايل للفرار، إما إلى محاصيل المزرعة الجماعية، أو إلى حقل البطيخ في المدرسة الداخلية، أو حتى الهروب إلى القرية والوصول إلى الحظيرة، حيث كان السماد السائل ذو الرائحة الكريهة إلى الركبة.إذا هرب كوكشولاك، كان من الصعب اللحاق به، وإذا ما اختفي، فكما يقولون، فتش عن الريح.

كان ظهر الحصان مغطىً بقشرة قروح صلبة، وكان من المستحيل الجلوس على كوكشولاك بدون سرج، وكان من غير المعقول في بعض الأحيان أن تقود هذا العنيد.

كنت مستغرقاً في نوم هنيء قبل الفجر، عندما سحبني أحدهم من السرير من رجلي. كان أمين محزننا زين الله. كان مظهره قاسياً، وبخني بكلمات بذيئة، وقذفني ببضع كلمات قاسية بحق أبي الذي تآكلت عظامه منذ فترة طويلة تحت الأرض. اتضح أن كوكشولاكنا خرّب حقل البطيخ مرة أخرى. كابدت لإثبات براءتي، لكن زين الله جلدني بالسوط على قدمي العاريتين، واتهمني بالعصيان، الأمر الذي يكاد أن يكون بالنسبة له خطيئة مميتة.

استيقظ الأولاد على الضجيج، وهرعت الفتيات من الكوخ المجاور، وركضت المربية كاميليا- آباي لمساعدتي.

لماذا تصرخ؟ -هاجمت زين الله. -البهيمة تبقى بهيمة! لماذا تريد أن تحرم هذا الصبي من النوم ليلاًليحرس هذا الحصان؟ لا تتحامق، فهمت! عار عليك أن ترفع يدك على يتيم مسكين!

لم يضعوني هنا لعدّ الأيتام! وليست أمراً بالنسبة لي كلمات كل عانس عرجاء! -لم يفوت زين الله الفرصة ليؤكد حقيقة أن كاميليا- آباي كانت امرأة عرجاء وحيدة. -أعرف وظيفتي! يجب أن يكون لدينا نظام!

نفرت الدموع من عيني المربية. استغرقت في صمت العجز لمدة دقيقة؛ فلم تكن تعرف كيف ترد على زين الله الذي لم يكن لديه حتى أدنى فكرة عن مشاعر مثل التسامح واحترام الناس.

لكنها، حين نجحت في الانفلات من صمت العجز لم تقل سوى:

ليعاقبك الله على هذا! استدارت، وبدأت تحرك الرماد بالملقط بحثاً عن الفحم، لكنها استطردت: -لن يبقى ذلك دون عقاب!

إن رأيت البهيمة مرة أخرى في حقل البطيخ، لا تتوقع الرحمة! - عينا أمين المخزن الحمراوان من الغضب، والمتقيحتان بصديد رمادي، كادتا أن تخرجا عن مدارهما، وهو ينذرني.

جرو كاميليا- آباي ذو الشعر الأحمر، دخل راكضاً إلى الكوخ، ووصل إلى الأطباق، وتوقف عند الموقد، لكنه سرعان ما طار بعيداً وهو ينبح بوحشية بعد أن ركله أمين المخزن بحذائه المطاطي المنتفخ من الندى، كانت الركلة من القوة بحيث ألقت بالجرو المسكين عبر فجوة الباب، ليهرع إلى الكوخ المجاور.

هنا جاءت آلتين إلينا مسرعة. يجب أن تكون قد نهضت لتوها من الفراش، لأن شعرها كان مجدولاً

بالنصف، ومن القبة المفتوحة لفستانها بان الجزء العلوي من حمالة الصدر التي شدت نهديها الصلبين، وأبرزت جسمها الأبيض. فور دخولها إلى الكوخ، انتزعت السوط من يد زين الله.

كيف تسمح لنفسك، أن تكون تماماً كذئب تسلق إلى حظيرة الخراف؟ -واصلت صراخها: ماذا تحسب نفسك؟! اركب على الحصان وغادر ما دمت سليماً!

أو... أو....أرى أن أسنانك ظهرت! -تفاجأ زين الله من الهجوم غير المتوقع. لكنه سرعان ما عاد إلى رشده الفور، وتحرك عابساً إلى آلتين التي لم تنتظر حتى يضربها أيضاً، فهرعت إلى الخارج وضربت بالسوط عدة مرات على رأس حصان أمين المخزن الذي كان مربوطاً إلى الشجرة. رجع الحصان إلى الخلف، وقطع الرسن، وانطلق مندفعاً بعيداً.

كاد زين الله أن ينفجر غضباً، لكنه لم يجرؤ على قول أي شيء قاسٍ للفتاة، كان كله قاتماًمن الغيظ، وغادر ضارباً بحذائه الثقيل،في حين وصلت إلينا الكلمات التي كان يتمتم بها في طريقه:

سأحاسبك أيتها التافهة! وسأريك! - لم يشأ حتى الرجوع لاستعادة السوط، كما يفترض من الرجل، عدم السماح بإبقاء السوط في أيدي آخرين، وخاصة النساء.

كنت على استعداد لأن أغور في الأرض من الخجل. كم كنت ضعيفاً ومزعزعاً! أيعقل أن من دافع عني لم يكن الأولاد، وإنما آلتين! الفتاة الضعيفة لم تقف فقط إلى جانبي، بل أجبرت من اعتدى عليَّ على الهروب. شعرت بنفسي مهاناً، وبائساً، وعديم القيمة. تقزمت مع الخجل.

كانت الشمس ترتفع من خلف التل، وهدأت برودة الصباح. كان الأولاد يحصدون القش في الغابة المجاورة، وكانت أصوات مناشيرهم مسموعة. كنت مستلقياً في الكوخ، متكوماً في كتلة. جاءت كاميلا- آباي مرتين إلى الكوخ، وعرضت على الإفطار، لكنني لم أنهض من السرير.

الذين يغضبون من القمل، لا يرمون معطف الفرو في النار!، انهض يا قاسم، وغرّد! لقد حان الوقت للذهاب إلى المزرعة للحصول على الحليب، وإلا فإننا سوف نترك دون غداء، -قالت لي وهي تتحرك بنشاط في الخارج.-وصل كاشيماباي، تم إرساله لقص القش. على الأرجح ستذهب أنت وآلتين لمساعدته.

طريق أسود متعرج. كانت العربة تهبط متدحرجة قليلاً. جف النهر، أسراب البعوض التي ظهرت مع الدفء تطن،كان كوكشولاك يخطو ملوحاًبذيله القصير باستمرار.في الأكوام الترابية المكدسة على أنقاض المنازل التي كانت تنتصب على جانبي الطريق، كانت فئران الغابات المرقطة المتنوعة تركض، تجمع براعم الأرز الجافة.خافت إحداها من شيء ما، فتركت الكوز الأخضر،واختبأت في الشق، في حين التقطت فأرة أخرى على الفور الكوز، وسارعت إلى الجحر.كان نقَّار الخشب يضرب في الجذع.في بعض الأحيان يتوقف عن ضرب الشجرة،ويمسح منقاره الطويل بلحائها.تشكل شعور بأنه لا ينظف منقاره، وإنما يشحذه.رافقتنا بعض الطيور الرمادية الصغيرة ذات الأعناق الصفراء، قافزة من فرع إلى فرع، يبدو أن عشها كان في مكان قريب.جلست آلتين بساقيها المتدليتين في جانب العربة، تغني لحناً بصوت منخفض.في الآونة الأخيرة لم

تكن في حالة نفسية جيدة،حرمتها عائلة ألماتاي الهدوء.بدأ الأمر كله في نهاية العام الدراسي، عندما حاول مايمورون منعها من تقديم اختبارات مادة التاريخ. ثم تدخلت زوجته، كولياش، ونجحت في حمل زوجها على إعطائها تقييم "مُرضٍ". لكنها منذ ذلك اليوم، وبذرائع مختلفة، بدأت تأخذ آلتين إلى منزلها، وتجبرها على العمل في المنزل. والآن منذ أسبوع كامل وألماتاي يعمل في قص القش، يساعد في جمع القش وحفظه، لكنه في الوقت نفسه حاول البقاء على مقربة من آلتين ليتحدث معها على الأقل بضع كلمات. الآن جاء دوري لأتابع بعيني الاثنتين كل حركة له. عذبتني الغيرة، ولم أتمكن من النظر إلى ألماتاي بلا مبالاة. "وما الذي يبحث عنه هنا؟" -فكرت باستياء. -ما الذي يحتاجه من آلتين؟ وضع ألماتاي وآلتين القش على المكشطة، وقمت بسحبه على كوكشولاك إلى المكان الذي يتم فيه التكديس. في كل مرة كنت أضرب الحصان بلا رحمة من أجل العودة بسرعة. "كان العرق يتصبب منا كالبرد"...."لو أنك تعطينا القليل من الراحة"، -طلبت من ألماتاي، ولكن عندما سمعت كلماته، دفعت كوكشولاك بشكل أسرع. أثارني العناد. عملت حتى المساء دون أن أتذكر نفسي، ولم أهدأ حتى غادر ألماتاي إلى القرية للمبيت.

في إحدى المرات، عند عودتي من التكديس، رأيت أن آلتين كانت تبكي، في حين غادر ألماتاي بسرعة على طول الطريق. لم أكن أجرؤ على الاستفسار عن سبب البكاء، وجلست بجانبها عند الكومة. لم تمسح آلتين دموعها، كما لو أنها لم تلحظ وجودي. انتظرت قليلاً، ثم ألقيت بالقش على المكشطة، وسحبته إلى مكان التكديس. ولكن عندما عدت مرة أخرى، استقبلتني آلتين بابتسامة. لم يكن على وجهها المبتهج أي أثر لدموعها المريرة التي كانت تنهمر منذ لحظات، ولالحزنها الحاد.

بشكل عام، كانت شخصية آلتين متقلبة، كانت تنفجر بلحظة، وتهدأ بلحظة؛ إذا كان وجهها بارداً قبل لحظة، فإنه بعد فترة قصيرة جداً يشع بالفرح، واستبدلت الحيرة بالدماثة. ومع ذلك بدا لي أن القلق يكمن خلف ابتسامتها الصافية والمشرقة.

في المساء كانت تجمع حولها الفتيات، وظلت تشدو بالأغاني لفترة طويلة، كانت كلها حزينة، وكئيبة. لم يظهر ألماتاي في الحقل بعد ذلك ....

غنت آلتين لحناً بسيطاً، ذكّرني بأغنية المهرج أدلير كوسيغير المكتملة، والتي أطالها من أجل اختبار صبر الأشخاص الذين لم يكونوا يعجبونه. جلست مجبراً نفسي بكل قوتي على عدم النظر إليها مرة أخرى، وعدم التطلع إلى تعابير وجهها. هنا سُمع حفيف للقش، يبدو أنها جلست على العربة، أو تركت العربة. بعدها شعرت بأنفاس حارة على رقبتي. ما كنت لأصدق أبداًأن نفس الإنسان يمكن أن يكون حاراً إلى هذه الدرجة. بدا وكأنني تعرضت لنيران، سرت الرجفة في جسدي. الآن ربما ستقول لي شيئاً ما. لكن ماذا؟

قاسم؟

نعم.

قل لي لماذا أنت صامت؟

فقط هكذا ....

أعطني اللجام.

لماذا؟

ارتح أنت. ربما تعبت من ضرب كوكشولاك. - جلست آلتين بجانبي، وأخذت من يدي المقبض والعصا. - خذ قسطًا من الراحة.

تمايلت العربة على حفرة، فاحتك مرفقها بي. تملكني الخوف. لمدة عام كامل جلسنا على نفس المقعد، وحضرنا دروسنا معاً، ومشينا جنباً إلى جنب، لكنني لم أشعر أبداً بهذا الشعور المسكر؛ كنت على استعداد للبدء في رحلة بلا نهاية على هذه العربة المترنحة المربوطة بكوكشولاك الذي أكرهه، إذا كانت آلتين تجلس دائماً بجواري. كيف لي أن أخبرها عن هذا الحلم؟

نعم-نعم، استرح لبعض الوقت، -كررت مرة أخرى. ثم التفتت إليَ وضحكت؛ لتظهر الغمازتان على خديها اللذين تحول لونهما إلى وردي أكثر من المعتاد، -ضع القش، واستلقِ، وأرح رأسك على ركبتي ....

لم أرَ فوقي شيئاً سوى عينيها الصافيتين النقيتين. العالم كله هو الآن بالنسبة لي في هاتين العينين. دار رأسي. بدا وأن سحابة خفيفة كانت تقفز أثناء سير العربة، ومن وقت إلى آخر كانت تظهر تيجان أشجار الصنوبر الطويلة فوقي، تتأرجح مع الريح، وفوقها في الأعالي امتدت سماء زرقاء صافية ونقية كعيني آلتين، وفيها حام نسرٌ كنقطة سوداء-تماماً كما يلمع السواد الغامض لبؤبؤ عيني آلتين. كنت مستلقياً على ظهري، ولم أرفع عيني عن النسر، مستلقياً بلا حراك، خوفاً من أن تختفي هذه الصورة، تتبخر بسبب حركة واحدة غير ملائمة مني، حتى أنني بدأت بالتفكير بحذر. وكان قلبي ينبض بصوت عالٍ، كان يرقص حقاً، ولُديه استعداد أن يخرج من صدري.

اهتزت العربة بهدوء، كانت أشجار الصنوبر تودعنا، ملوّحة بتيجانها بلطف. انقلبت السماء الصافية فوقنا. ذهب النسر أعلى وأعلى. أغلقت عيني، الصورة هي نفسها: سماء صافية، نسر يحلق عالياً في السماء، عينا آلتين اللتان لا حدود لهما، تبتسمان.... شعرت بكفٍ حارة على جبهتي. مررت آلتين يدها من خلال شعري، فاحترق وجهي.

قاسم؟

نعم ....

قل لي لماذا أنت صامت؟

فقط هكذا ....

هل تحلم بشيء؟

نعم ....

بماذا؟

لا أعرف .... ولماذا أنت صامتة؟

أنا أحلم أيضا.

بماذا؟

بك .... أحلم أن أراك بعد عشر سنوات، عندما تصبح رجلاً حقيقياً. هل أحببت حلمي؟

نعم ....

من تريد أن تصبح؟

لا أدري ....

لا زلت ولُداً يا قاسم. وإلا لماقلت إنك لا تعرف. ستنهي المدرسة، ربما سوف تذهب إلى ألماتي. من ستصبح؟ معلماً، أم مهندساً، أم كاتباً؟ أليس لديك حلم يا قاسم؟

وأنت نفسك من تريدين أن تصبحي؟

نحن لا نختار .... سنحصل على ما يصل إلينا. لن يكون علينا أن نختار، -تنهدت آلتين.

فتحت عيني. كانت تحدق في وجهي باستمرار، مستندة بمرفقها على صدري. كانت ضفيرتاها المتدليتان من صدرها تدغدغان أنفي برائحة شعرها الذي أحرقته الشمس. رأيت فوقي عينيها الصافيتين، والقوسين الرفيعين لحاجبيها، وشفتيها المليئتين تتحركان بلا كلل. شعرت بالحرارة مرة أخرى، وفجأة رغبت في أن أشاركها أفكاري الأكثر حميمية.

آلتين ....

نعم؟

إذا كنت ترغبين، سأخبرك ....

بماذا؟

بحلمي.

لا، لا داعي! - انحنت وقبلتني في شفتي. - يكفيك هذا. -ثم عانقتني بشدة، وقربتني إليها. وفجأة بدأتُ في البكاء، وأغرقت وجهي على صدرها، لاهثاً، محاولاً ألا أتنفس. بكيت طويلاً، متنهداً بمرارة .... ربما، كان ذلك تجسيداً لمشاعري الصبيانية الأولى، وإجابتي على أسئلة آلتين. أو ربما كانت تلك الدموع هي تقديري وامتناني في الوقت نفسه لأول لمسة حانية أشعر بها في حياتي. يبدو أنها كانت الأمرين معا.

دون وعي شعرت بأنني الآن أُحرَم من آلتين، وأنها بعيدة عن متناول يدي، مثل طائر قوي يخترق الآفاق، ليختفي في السماء الزرقاء، بلا عودة

عدت إلى الحصاد بمفردي. بقيت آلتين في القرية، ولم تكن ترغب في البقاء، لكن زوجة مايمورون أجبرتها، كعادتها، وجدت لها عملاً في منزلها.

عدت منحرف المزاج، كنت أشعر بقلق في روحي، لم أرغب حتى في الطعام، وبحلول المساء، حاصرت

السحب السماء، ومع بداية الشفق بدأ المطر يتساقط مع البرد. غطينا الكوخ مسبقاً بطبقة سميكة من العشب الأخضر، بحيث لا يتسرب الماء من السطح، وذهبنا إلى الفراش في ذلك المساء مبكراً على غير عادتنا. طوال الليل لم يتوقف هطول الأمطار الغزيرة، وحتى الصباح كنت أرتجف وأنا أتقلب في الفراش، غير قادر على النوم، والأفكار المضطربة لم تترك قلبي.

انهض، لقد خطف ألماتاي آلتين، -دوت صرخة شخص ما عند الصباح-لقد خطف حمامتنا!

هرعتُ بدون تردد من الكوخ، ركض جاريكجولُديز بعدي. هرعنا الاثنان إلى الكوخ الذي كانت تعيش فيه الفتيات. اتضح أن كاميلا- آباي هي التي كانت تصيح، فقد ذهبت بعد العشاء إلى القرية من أجل الغسيل، وعادت في الصباح.

طفلة مسكينة، وبدون ذلك لم تكن الحياة سهلة بالنسبة لها! - كانت تنتحب بكل ماتطيق من نيران الغضب.

-منذ سنوات عمرها الأولى بقيت بدون "أبو"ين، وبما فيه الكفاية عرفت حياة اليتم! هذا هو نصيب اليتيم! اليتيم! كيف يمكن لألماتاي أن يفعل هذا؟!كل هذا من تدبير مايمورون!....

تجمدتُ كمذهولٍ من البرق. ماذا حدث معي بعد ذلك؟ لا أذكر. في وقت لاحق أخبروني أنني أمسكت بسكين طويلة كانت كاميلا- آباي تقطع بها الخبز، وهرعت مسرعاً نحو القرية.

يبدو أنني كنت أصرخ بأنني سأخرج أمعاء مايمورون. اتضح أن جاريكجولُديز وغورباتي لحقا بي في منتصف الطريق، وأعاداني إلى مكان الحصاد، بعد أن ألقيا بي فوق السرج. لو كنت مكانهما، ربما لما تركت نفسي للمصيبة.

عندما عدت إلى وعيي وفتحت عينيّ، كان في الكوخ شفق، وفي الخارج كانت رياح تهب، ومطر خفيف يهطل. في الجبال من وقت لآخر كان يسمع ضجيجٌ، كما لو أن تدفقاً طينياً يتحرك. كانت الغابة تهمهم. السطح يقطر، ألقى أحدهم بصخبٍ كومة من القش على الكوخ، تساقط رذاذ الماء على الأرض، ثم توقف.

كان جاريكجولُديز مستلقياً بالقرب مني، واضعاً كفه تحت خده. يبدو أنه غفا دون أن يشعر. فوق رأسه كانت تتدلى ورقة بيضاء. أخذتها وشاهدت عليها شعراً مكتوباً، بخط اليد جاريكجولُديز.

عزيزي آلتين، النبيلة،

كيف بشكل غير متوقع تتركينا!

الفراش الغريب البارد،

تغسلينه بدموعك الآن.

من كل قلبي أحببتك،

وأعطيتك دائماً قسم الوفاء،

والآن بحزنٍ ألعن نفسي:

لن نلتقي أبداً!

يا قدري-يا نصيبي البائس،
لماذا كنت اشتاق لتحولاتك؟
لقد حبست الحلم في الأسر،
لم تعط أملاً بالمقابل.
أيعقل أنك خدعتيني،
يا شبابي، يا فرحتي المشرقة؟
لقد حرقتيني بألم الحب المر.
كيف سأعيش بدون حبيبتي؟

بالطبع، أشعار الله أعلم ما هي، لكنها في تلك اللحظات الصعبة اتضح أنها تعبر عن أفكاري المريرة بدقة بالغة.

،في تلك اللحظة لم يكن هناك شاعر أفضل من جاريكجولُديز.

بعد قراءة هذه السطور، لأول مرة عرفت مشاعر جاريكجولُديز، الذي كان، مثلي، يكن الحب لآلتين. طويت الورقة أربع مرات، ووضعتها في جيبي. في الصباح بحث جاريكجولُديز طويلاً. لم أعترف له بأنني أخذت قصيدته لنفسي.

في ذلك العام تركت المدرسة. في البداية طلب مني جاريكجولُديز عدم ترك الدراسة، ولكن بعد رأى تصميمي، لوح بيده مودعاً. افترقنا بالدموع. ثم رافقني إلى منتصف الطريق. ودّعنا بعضنا البعض، وتمنى كل منا للآخر النجاح والرفاه، ثم افترقنا في اتجاهين مختلفين، ولكن بعد أن ابتعدنا لمسافة لا بأس بها، عدنا مرة أخرى، وبدأنا الوداع من جديد. عندها فقط عرفت للمرة الأولى أن الاسم الحقيقي لجاريكجولُديز هو كامشاباي. أخرجت ورقة شعر من جيبي وسلمتها له، لكنه لم يأخذها، وقال:

لقد خمنت بأنها معك. لتبقى معك ذكرى عن حياتنا في المدرسة الداخلية.

في المنزل لم أتلكأ، ألححت على جدي كي يبيع البقرة الرمادية، وبهذا المال سافرت إلى ألماتي. في وقت لاحق علمت أن ألماتاي لم يظهر في قرية توبكاين مرة أخرى، وحصل على وظيفة معلم في قرية أولكين-نارين. وقالوا إنه يعيش مع آلتين في سلام وانسجام.

والآن، بعد عشر سنوات بالضبط من تلك الأحداث الدرامية، التقيت بشكل غير متوقع بآلتين.ومرة أخرى ركبنا العربة، جلسنا جنباً إلى جنب، وكانت أكتافنا تلمس بعضها البعض عندما كانت العربة تجتاز الحفر.في بعض الأحيان كانت آلتين تحث الحصان وتشد اللجام،ثم تتجمد، وتجلس في صمت، كما لو كانت تستمع إلى صوت قطرات المطر.في أحيان أخرى تنزلق كتلة من الطين العالق بحواف العجلات على الأرض،ومن الرائحة المخمورة الحامضة للعلف، احتقن التنفس.تمايلت العربة على الطريق الممطر، وبدا لي أنها كانت تحاول أن تجعل منا، أنا وآلتين،قريبين من بعضنا البعض.في كل مرة تتلامس فيها أكتافنا، ترتجف رموش آلتين

الطويلة، وسرعان ما تتطلع إليّض بعينيها السوداوينالصافيتين،وتبتعد على الفور إلى حافة العربة.ولكنها مهما حاولت الجلوس بعيداً، فإن العربة المتأرجحة كانت مراراً وتكراراً تعيدها إليّ.

كم هي الحياة ممتعة. في تلك اللحظة تخيلتها على هيئة طريق متعرج فيه العديد من المطبات. البعض يعبر هذا الطريق بسرعة، ويقطعه في قفزة واحدة؛ والبعض الآخر يشقه ببطء، وكل خطوة يقطعها بصعوبة. على هذا الطريق يتوه البعض ويضَيِّعون أنفسهم، في حين يخوض البعض الثاني صراعاً مليئاً بالتوتر لا يمكن تصوره، ويقابل آخرون سعادتهم بسهولة. والناس، بغض النظر عمن هم، لا يعرفون أنهم يسيرون على طريق مباشر واحد للحياة، مرتبطين بلقاءات وانفصالات.

ملامح القرية بدأت تتشكل أمام أعيننا، كان قلبي ينبض بقوة. تعرفت على الخطوط العريضة المألوفة للبيوت. بدا لي أن القرية لم تتغير، فقد بقيت توبكاين هادئة صغيرة كما كانت. ومع ذلك، كنت أعرف جيداً ما الذي كان وراء هذه الصورة التي تبدو مسالمة. بدت المنازل من خلال الأشجار، شبيهةبعيون ناعسة تختبئ تحت الرموش. كنت أعرف عن حيلة قرية توبكاين هذه.

هل ما زال ألماتاي يعلّم في المدرسة المحلية؟ - سألتُ

لا. -بالكاد حركت آلتين شفتيها -يعمل هناك في أوليكين-نارين. منذ عام نعيش منفصلين. لدينا ولُد واحد، أحياناً يسحبه هو إليه، وأحياناً أنا. أحياناً أود أن أكون أكثر حزماً، لكني أشعر بالأسف تجاه ألماتاي. ليس لديه أحد آخر، الأمر أيضاً صعب بالنسبة لي عندما لا يكون ابني إلى جانبي، بدونه أشعر بالوحدة القاتلة.

ماذا حدث؟

لا أعرف يا قاسم. كيف يمكنني أن أقول لك؟! يبدو أن الأمر برمته هو أنه لم تكن ثمة مشاعر متبادلة بيننا، من جانبه لم يكن هناك أي شيء جعلني أشعر بالمرارة، من المحتمل أنني أنا المذنبة في كل شيء.

تلتفت إلى إمرأة شابة على الطريق:

- ....هيه، سارة، تعالي إلى هنا!

كنا بالفعل عند نهاية البيوت. التفتت المرأة الشابة التي ترتدي معطفاً واقياً من المطر وغطاء رأس إلى الصوت، ودنت من العربة.

تشرح آلتين:

- إنها الابنة الوسطى لكاميليا- آباي، متزوجة ولُديها طفلان، تعمل معي مربية عجول. أترى كيف تجري الحياة بسرعة!

-سارة، من فضلك، خذي العلف إلى المزرعة! إخلعي حزام الحصان، وضعيه في مكان جاف، ثم غداً افركي عنق الحيوان. سأذهب إلى البيت، يجب أن أقوم بواجب الضيف.

مشينا على طول الشارع المألوف حتى آخر حفرة. خلف الزاوية بدا نزل التلاميذ الذي كنا نعيش فيه. إنه الآن أيضاً مليءٌ بالحياة، بدون توقف كان الأطفال يركضون إلى داخله، ثم يخرجون منه. كانت هناك امرأة

عجوز مشغولة في غرفة الطعام.

انقلوا الحطب إلى الداخل، سيرطّب هنا! - عرفت صوت كاميليا- آباي.

لم يتغير النزل أبداً، فقط لم يكن هناك شجرة البتولا العجوز بالقرب من النافذة، الشاهد الصامت على حبي الصبياني الأول. اِسوّد فقط الجذع القصير الجاف، لكن خرجت منه إلى الأعلى براعم فتيه، كانت مستقيمة وثابتة. بدا أن الفروع الفتية كان هدفها ملء فراغ شجرة البتولا العجوز.

كان عليك أن ترتدي أحذية مطاطية، كي لا تتبلل قدماك. - قطع صوت آلتين أفكاري.

لا شيء، سنجففها في المنزل، -أجبت. لكن آلتين لم تعر أهمية لكلامي، رمتني بنظرة مستاءة، ولاحظت:

أنت نحيف؛ ألست مريضاً؟

صحتي على ما يرام. أنت تعرفين، دائماً كنت نحيفاً. - تذكرت كيف أن آلتين كانت تعتني بلطفٍ بي، فشعرت بالدفء يملأ قلبي.

هيا نذهب إلى هذا الشارع، -سحبتني آلتين من كمي.

رأيت ونحن نسير مايمورون يتدحرج كجذع شجرة مقطوع؛ ارتجف من الاشمئزاز. تحولنا جانباً.

هل هذا لا يزال يعمل هنا؟" غمغمتُ.

تولى التدريس فترة في الصفوف الأولى، ثم انتقل للعمل في مستودع "سكوتوايمبورت"، ما يشبه الحارس، مع مردود أفضل هناك.

تجاوزنا مايمورون بحذائه المشمع الغارق حتى الكاحل في الوحل. لفترة طويلة كانت أصوات خطاه الثقيلة ترن في أذني. بدا لي، كما كان الأمر من قبل، أن كل خطوة منه تدنس الأرض.

قادتني آلتين إلى منزل صغير تحت سقف خشبي، يقف على حافة القرية. فتحنا الباب، ورأيت كامشاباي على الطاولة. كان، كما في السابق، أسمر إلى درجةالسواد، أصبح أكثر بدانة وكروية لدرجة أنه بدا وكأنه مرجل أسود، لكن الشرر ومض في عيني، كما لو كنت قد رأيت شيئاً مشعاً يشبه الشمس. ربما هذه الكلمات تبدو طنانة، إلا أن الإنسان يمر بلحظات تهيمن عليه فيها مقارنات غير واقعية.

من الذي أراه؟ هل هذا حقاً أنت؟ -اتجه نحوي بشكل أخرق، متمايلاً بخطواته، واحتضنني بقوة. - هنا أنت، يا ابن العاهرة، كم كبرت!

جاريكجولُديز، متى ستكف عن الظهور عند الغسق في منزل امرأة وحيدة؟ -بدأت آلتين في توبيخه. -كم مرة يجب أن أقول؟

توقفي، لا تطردينني على الأقل هذه المرة! -أجابها جاريكجولُديز. - أترين، جاء قاسم، دعينا نتحدث بأرواحنا! ماذا تعتقدين، أنا أجيء إليك من حياتي الرائعة؟ حلقتنا تتلاشى. لا يوجد أحد للغناء في الحفلة الموسيقية، ناهيك عن المسرحية. العيد، كما تعلمين، على ال"أبو"اب.

هل جئت لإقناعي؟

وماذا أستطيع أن أفعل أكثر؟ أنقذينا! حسناً، لنترك مشاكلنا، والأفضل لنستمع إلى قاسم. أي رياح جلبتك يا صديقي؟ أخبرنا!

جئت إلى المنزل في إجازة. قررت أن أعرج عليكم.

جيد جداً! إذن أمورك بخير. لم نر بعضنا منذ فترة طويلة، لكننا نقرأ مقالاتك وقصصك في الصحف والمجلات. نحن سعداء بك. يحدث أننا نفخر، ونقول للجميع إننا درسنا معك، بل وكنا أصدقاء في طفولتنا. الأفضل أن تخبرني عن نفسك، -قاطعته: -ألم تكتب شعراً؟ هل تنتج شيئاً ما؟

ما الذي تتحدث عنه؟ -ضحك جاريكجولُديز، ملوحاً بيده في حرج. -أي أشعار؟ أنا متخصص في الرياضيات! ذهبت في اتجاه آخر.

يعمل مديراً للمدرسة الداخلية، -أطلقت آلتين صوتها، -لا وقت لديه للشعر الآن.

هذا-هذا، نثر الحياة! -قال جاريكجولُديز ضاحكاً. -أود أن أجمع الناس في حلقة الدراما!....

بعد الاستفسارات الحيوية الأولى، هدأنا تدريجياً. ساد صمت في الغرفة. علمت أن كامشاباي لم يؤسس حتى الآن عائلة، ويمضي وحيداً. وعاش في بيت كاميليا- آباي. اعتذر لأنه لم يكن لديه وقت للكتابة -العمل في المدرسة يستهلك كل الوقت. تذكرت محاولاته الشعرية، ونظرت بشكل لا إرادي إلى آلتين. الآن اقتنعت أن الامتلاء يناسبها، يمنحها المزيد من الأنوثة، في الدفء احمرَّ خداآلتين مرة أخرى، وأصبح وجهها أكثر جمالاً، على خديها تظهر الغمازتان وتختفيان.

جلسنا لفترة طويلة، تحدثنا بأرواحنا. تحررت آلتين أخيراً من التحفظ؛ وغدت أكثر حيوية وسعادة، كما في الأيام الماضية، كانت دائماً هكذا: واضحة وتنزع إلى الصراحة. الآن، عندما أنظر إليها، لم أكن أتخيل أنها عاشت حياة صعبة، كان الحزن فيها أكثر من الفرح.

قالت لي آلتين بعد العشاء:

عزيزي قاسم، الضيف، كما يقولون، ضيف الله، بإمكانك أن تبقى لتبيت هنا. هناك مساحة كافية في المنزل. لكن لا يمكنني أن أعرض ذلك. أنت تعرف أخلاق قريتنا.

سررت بكلماتها التي كانت، كالعادة، مباشرة ومفعمة بالكرامة. ذهبنا الى المدخل.

كامشاباي، انتظر لحظة! -نادته آلتين إلى الغرفة المجاورة. كان الباب مفتوحاً، وسمعت حديثهما دون قصد، -أنت من جديد لا تنتبه لنفسك. هاك، خذ القميص، لقد غسلته وكويته. واخلع هذا الذي ترتديه. عادت إلى الممر، ودَّعتني، وخرجتُ.

بعد بضع دقائق لحق بي كامشاباي. لهيب الغيرة الذي خبا في داخلي منذ زمن، اشتعل مرة أخرى. بدأنا حديثنا من جديد، وتحدثنا عن الكثير قبل أن نصل إلى منزل كاميليا- آباي. لم أستطع الصبر، وسألت كامشاباي عن سبب حياة العزوبية التي يعيشها. لم يتحدث على الفور، ثم قال:

الغريب أنني عندما كنت طالباً، لسبب ما لم أحب أي فتاة من الفتيات. الآن يبدو أن الوقت قد فات. لقد كوّن

أقراني منذ أمد بعيد عائلات، ويبدو أن الفتيات الأصغر سناً غير مفهومات إلى حد ما، ولن أستطيع إيجاد لغة مشتركة معهن. مع تقدم العمر، تشعر بالحرج من كل هذا .... نعم، وتخشى وتخاف من أن ترتكب خطأ. بشكل عام، لا أستطيع الزواج ولا بأي شكل من الأشكال. لا يمكنك أن تفهمني. يقولون من لا يؤلمه رأسه، لا يهتم بالله. وأنت ....

وماذا عن آلتين؟

آلتين هي آلتين نفسها. أنت تعرف أنني أحبها منذ فترة طويلة. ربما، في الحقيقة، أن السبب في حياة العزوبية التي أعيشها، يكمن في ذلك. لا تسألني أكثر، لا تزعج روحي.

لا تغضب. حديثي هو، كيف أشرح لك؟ مشاركة ودية، ليس أكثر، وليس أقل من ذلك. لكن أخبرني، ألم تتحدثا فيما بينكما حول هذا الموضوع؟

تلميحات، -ضحك كامشاباي بشكل محرج. - أرى أنها قلقة، ولا تظهر مشاعرها. أنت تعرف طبيعتها، ولكن لم أشرح لها بصراحة، تنقصني الشجاعة. لكنني ما زلت أسير ذات المشاعر نحوها، وهي لاتبالي. - تنهد كامشاباي وسكت.

الخريف هادئ. جلست بجانب النافذة ونظرت إلى الشارع. هطل المطر طويلاً وبلا نهاية. أمام عين أفكاري عامت أيام الخريف السابقة. في الخارج تعصف الرياح، وفي السماء تسبحُ قوافل الغيوم، وفي الهواء تتطاير الأوراق المرتجفة، والغربان القلقة تنعق-كل شيء كان يشبه إلى حد كبير صورة شبه منسية من حياة قرية توبكاين الصغيرة

كانت السماء تهبط أكثر فأكثر، وكانت ظلال الشفق تزحف على الأرض، السماء نفسها كانت في زمن ما معلقة فوق توبكايني الأم. من علوٍ تساقطت صرخات الطيور المهاجرة. بدا لي أن الطيور كانت تطير من قرية بعيدة ضاعت في تجويف التايغا، كأنهاتحمل رسالة من طفولتي البعيدة.

على الطاولة كان ثمة مخطوط. كان كتابي الذي اكتمل. وأمام عيني كانت لا تزال تقف قريتي الأم. لقد دُمجت القريتان؛ القرية التي بها وُلِدت، والقرية التي بها درست في المدرسة الداخلية.

اشتقت إلى كامشاباي وآلتين.

لقد مر عام كامل منذ أن التقينا في توبكاين. غمرتني فرحة هادئة عندما وجدت توافقاً مع الحزن الروحي. دمعتان أيضاً....

غريبٌ، ولكن عند اللقاء مع الأصدقاء يغمرك هذا الدفء، تتحدث بطريقة منفصلة إلى حد ما، مع لامبالاة متساهلة. وعندما تكون بعيداً عنهم، تشتاق بشكل مفرط.

اشتقت إلى كامشاباي وآلتين. لدى كل واحدٍ منا، في روحه، كان هناك الكثير الذي يريد أن يخبر الآخر به. لقد عشنا حياة لم تكن بسيطة، وظلت آثار العابرين عديمي الخبرة وراءنا، والمطبات على طريق حياتنا، وإلى الأمام تمتد تتمة الطريق المحددة بمعالم جديدة، حيث هناك ما يكفي من الأخاديد والمرتفعات والمنحدرات

التي لا تزال غير مرئية للعين. الجديد يشير إلى نفسه، والماضي يثير الدفء. هل سنقطع طريقنا القادم؟ ما الذي سيجلبه لنا الغد، وخطوتنا الجديدة؟

بشكل ضبابي أتخيل مستقبلي. ليس لأنه كان محاطًا بحجاب من الغموض أو عدم اليقين، بل لأنني كنت أنظر إلى الحياة على أنها معجزة من شأنها أن تضع أمامي الكثير من المشاكل الجديدة، وأن تقدم لي مطالب أخرى.

ما هو الجديد الذي يتطلع كامشاباي وآلتين إلى اكتشافه؟ لم أكن أعرف كيف هما يعيشان الآن، وبماذا هما منشغلان، وماذا اكتشفا خلال سنوات مابعد الدراسة، كل في عالمه الخاص، وفي الناس حوله؟

حزنت لأنني لم أكن أعرف ما إذا كان بإمكان كامشاباي أن يفتح قلبه أمام آلتين.

الإجابة كان يمكن أن تثري الفصل الأخير من الكتاب الجديد الذي أنهيته لتوي.

كان الخريف يمضي، والمطر المتواصل الذي لا نهاية له، ونسميه بالمطر الأبيض يهطل.



ساين موراتبيكوف

(2007-1936)



- تخرج في الجامعة الوطنية الكازاخية عام 1963، وحصل على دورات عليا في الأدب بمعهد جوركي الأدبي بموسكو عام 1971.
- بدأت أعماله في الظهور في خمسينيات القرن الماضي.
- له العديد من الكتب التي خرجت للنور مثل: ''أختي الصغيرة'' عام 1961، ''القرية'' عام 1964، ''النباتات الخضراء'' عام 1967، ''المدفأة'' عام 1968، ''التفاح البري'' عام 1972، ''باحثًا عن صديقي'' عام 1973، ''عاصفة الرياح'' عام 2004 وغيرها من الأعمال التي أظهرت مدى انجذاب الكاتب للنثر القصير الذي يلمع في سمائه كبار كتاب القصة القصيرة.
- تم إنتاج الكثير من الأفلام المستوحاة من قصصه مثل: فيلم ''ابن من أمين''، و''طريق الخريف المتعرج''.

- تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية، وحصلت على تقديرات مناسبة؛ لذلك تم نشر عدة مجموعات من قصصه في دور النشر في موسكو.
- ترجم موراتبيكوف من الروسية إلى الكازاخية روايات وقصص أنواربيك أليمجانوف، وأعمال النثر الوثائقي لنيكولاي تولماتشيوف، كما ترجم رواية ''الحجر'' لـ أليكس لا جوما.
- في عام 1990حصلت القصة التي كتبها ''الثلوج الثقيلة'' على جائزة مختار أويزوف من اتحاد كتاب كازاخستان.
- في عام 1998 حصل على وسام الاستحقاق من جمهورية كازاخستان.
- في عام 2003 حصل على جائزة ''تارلان'' المستقلة من رعاة الفن في كازاخستان على قصته ''التفاح البري''.
- حصل على جائزة الدولة في جمهورية كازاخستان عام 2006.

رائحة الشيح المرّة

طفولتي البعيدة منسية...

مع ذلك، ما زلت أذكر جيدًا ذاك الولُد النحيف الأعرج في معطفه ذي اللون الرملي المقشَّر، في بعض الأحيان تغلق عينيك وترى، كما لو كان في الواقع: مجموعة من الأولاد المشاكسين يندفعون في شوارع القرية، وخلف الجميع يجري هو جارًّا ساقه المصابة في محاولة لعدم التخلف عنهم، إلا أنه يتخلف، ومرة أخرى أسمع صوته: "هيه أنتم، انتظروني! تعالوا معي، عندي حكاية، سترون! إنها أكثر إثارة من حكاية أمس!.... "

في ربيع العام الأربعين توفيت والدة آيان وتركته وحيدًا مع جدته، في حين استدعى "أبو"ه إلى الجيش في بداية الحرب، وأحضرت الجدة آيان إلى قريتنا على أمل مساعدة أقاربها البعيدين.

كنا نلعب لعبة الحرب في الشارع المعبّد الوحيد، رمينا "قنابل يدوية" -تراب ملفوف في ورقة- عندما خرج من البيت لأول مرة.

تذمر الشيوخ والعجائز المارة: "هكذا إذن، غباء صبياني: لم تَكفِهم حربًا واحدة، فبدأوا بحربهم، كما لو لم تكن هناك ألعاب أخرى، يا لكم من عفاريت!"

كان النهار عديم الرياح، وعلق الغبار في الهواء لفترة طويلة، وكانت الشمس ساطعة، ومع صرخة "هوراااا!" هاجمنا "عدونا"، وفي غمرة انغماسنا في اللعب، لم نلحظ أحدًا أو شيئًا، وفقط قائدنا صادق توقف فجأة عند الحدود؛ حيث انتهت ستارة الغبار، وسأل:

هيه، من أنت؟ من أين أتيت؟

هنا ترك جميع الأولاد اللعبة، فقد كان هذا السؤال غير اعتيادي بالنسبة لقريتنا؛ حيث منذ الطفولة المبكرة يعرف الجميع بعضهم بعضًا، استدرنا فرأينا صبيًا غريبًا، في سترة بدون أكمام بيضاء، وسروال قصير، بدا أنه لا يشبه سكان القرية، فقد صدمتنا خصلة الشعر السوداء الصلبة النازلة على جبينه.

صبي جديد في قريتنا... حدثٌ بارزٌ للغاية؛ لذلك نسينا على الفور اللعبة، وحلقنا حول آيان، سعى كل واحد منا إلى الاندفاع أقرب، وتفحص الجديد بشكل جيد، بالنسبة لنا، أطفال القرية، كان آيان في تلك اللحظة كأنه مسرح أو "سيرك".

اسمع من هو، هاه؟

من أين هو، لا تعرف؟

سألنا بعضنا بعضًا، متدافعين بمرافقنا، ومتفحصين آيان من رأسه إلى أخمص قدميه بلهفة وعجرفة، كما لو كان جسمًا غير حي.

كان، بدوره، يحدِّق في مظهرنا الممزق، وبدت الحيرة في عينيه، كنا جيدين عندما نكون متسخين، كالخنازير، تحت طبقة الغبار فقدت سراويلنا وقمصاننا لونها الأصلي، وكانت معلقة في صورة يرثى لها، كما لو أنها كانت لتوها بين أسنان مجموعة من الكلاب، في حين لم تكن ملابسه متميزة بجدتها أو نوعيتها، وإنما بمظهرها النظيف والأنيق كالفخامة الملكية.

انظروا إليه، أي ولُد هذا، وأطلق خصلة شعره.

قال يسيكباي أولًا، مخفيًا حسده بشكل سيئ.

لم يكن الأمر مضحكًا بالنسبة لنا، لكننا ضحكنا محاولين أن ندعم رفيقنا أمام الغريب، جاء ضحكنا مزيفًا، كما لو كنا مجبرين عليه، في حين خجل آيان بشدة، ولم يقل شيئًا.

أما أنا، فأعرف من هو!

قال صادق بصوت عالٍ.

- لقد وصلتم الليلة الماضية، أليس كذلك؟ ولُديكم أيضًا بقرة رمادية داكنة، أليس ما قلته صحيحًا؟

صحيحٌ.

صاح الصبي بجدية

- لكنها ليست داكنة تمامًا.

- أنت رأيتها في المساء، أما في النهار فهي أفتح بكثير، ولُدينا عجل أيضًا.

وبدا لي أن ابتسامة انزلقت عبر شفتيه.

واصل صادق:

ما اسمك؟

آيان.

بعض الصبية تناقلوا بشفاهم اسمه، محاولين حفظه.

هيا معنا، سنصبح أصدقاء.

اقترح صادق، ودون أن ينتظر الموافقة، أمسك بيد آيان وسحبه معه.

نظر الوافد الجديد إلى أصابعه القذرة الخدشّة، وحرر يده بحذر، "حسنًا"، فكرتُ، "الآن ستبدأ، من غير المرجح أن يحتمل صادق مثل هذه الإهانة".

يا أولاد، أين يمكن السباحة لديكم؟

قال آيان كي لا يسمح لصادق بالغضب.

حسنًا، لدينا مثل هذا المكان، الماء هناك!

أجاب صادقنا الطيب عن الجميع.

- هل تريد، نذهب الآن؟

أريد!

قال آيان موافقًا.

قاد صادق الزائر إلى البركة، واصفًا على الطريق كل ميزاتها، ونحن تبعناهما، كان الأولاد يدورون أمام آيان، وحاول كل واحد منهم وضع كلمة لكي يرتفع في عين الصبي الغريب، لكن صادق كان سيد الموقف.

هل تعرف كم يمكنني البقاء تحت الماء؟ حتى تصل بالعد إلى الستين.

كان صادقنا الصادق يكذب بسرور، إلا أنه في تلك اللحظة كذب على نفسه.

بالمناسبة، لدي أيضًا قميص أبيض، إلا أنه موجود في صندوق كبير، أمي لا تسمح لي بارتدائه. تقول: "عندما تكبر البسه، صحة وعافية.

قال قاسم-تساربكا (1) .

أُطلق عليه هذا اللقب لأنه دائمًا ما يغرز في العراك أظافره في الوجه، يزعق بكل قوته، إلا أنه في الوقت نفسه يسعى للوصول إلى العيون؛ لذلك، حاول الكثير من الأولاد عدم مخالطة قاسم تساربكا، وحده يسيكباي لم يخف من مخالبه الطويلة القذرة.

الآن سار يسيكباي بحسدٍ جانبًا، كان بيديه الطويلتين المعارك الأقسى والأقوى؛ لذلك فقد تودد إليه بعض الأولاد باستمرار، والآن كما لو أنه غير موجود؛ كل اهتمام الأولاد منصب على الوافد النظيف؛ لهذا السبب سار يسيكباي في وحدته المتفاخرة، متذمرًا متفاخرًا بهدوء.

تعال، تعال إلى هنا، يا تساربكا!

صاح يسيكباي عندما أغلق قاسم فمه.

اقترب قاسم بحذر، وتحسبًا انحنت أصابعه مثل مخالب نسر.

وربما في صندوقك الكثير الكثير من الذهب أيضًا؟ هيا-هيا، أخف مخالبك، يا قطة، وضع رأسك هكذا.

نقر يسيكباي بشكل مدوٍ على رأس تساربكا، رنَّ رأس تسارابكا كالبطيخ الناضج، أما يسيكباي فقد نقر مرارًا وتكرارًا، واضعًا كل مهاراته وقوته.

من الغضب انفجر قاسم بالبكاء، وانقض على الجاني، لكن يسيكباي سبقه، وضربه على أنفه.

ضغط قاسم على أنفه بيده، ومضى مرتعشًا ومرتجفًا عائدًا إلى القرية، في حين نظر يسيكباي في عيون آيان بشكل معبّر، كما لو أنه يقول له: تعلّم للمستقبل أن حديثي مقتضب، أما آيان، فقد نظر إليه نظرة

(1) تسارابكا – المخرمش.

استفهام، وكأنه يقول: ما الذي يحدث لديكم؟ لم يرغب أحد بالاختلاط بيسيكباي، لقد أبعدنا أعيننا، كذلك لم يشاركنا قاسم الماكر موقفنا.

أنت، بالطبع، قوي، ولكن لماذا فعلت به ذلك؟"

سأل آيان بيسيكباي، وهو يهز برأسه.

شخر يسيكباي ساخرًا، ومرة أخرى سار بعيدًا إلى الجانب، لم يقرر المزيد بعد، لقد كان آيان اليوم بالنسبة له شيئًا غير عادي.

في ذلك اليوم سبحنا، وأخذنا حمامًا شمسيًا، وسبحنا مرة أخرى، ولعبنا حتى المساء في البركة، واعتدنا على آيان كما لو أنه يعيش في منطقتنا منذ ولادته.

باختصار، في الأيام الأولى حظي آيان بتعاطف الجميع، أحببنا بشكل خاص طبيعته الناعمة والوديعة. وبطبيعة الحال، بدأ الجميع بالتدريج يصبحون أصدقاء، لكن آيان عامل الجميع بودٍ على نحو متكافئ، مبينًا أنه يرغب في التواصل مع الجميع، حاول أحد المشاغبين إثارة آيان واختباره، لكن آيان قطب حاجبيه ومضى، وأجاب الأكثر إلحاحًا:

أنا لا أريد العراك، لأن ذلك غباء، ولأنني وحيد جدتي، لو تعاركت، فإنها لن تكون سعيدة.

وابتعد المستفز بسلام، حقيقة أن آيانلم يكن جبانًا ضعيفًا، كان قد اقتنع بها في يوم التعارف، عندها كنا نتعارك على الرمال، وتغلَّب الوافد الجديد على الجميع، وحده يسيكباي تغلب عليه.

نحو أربعة أيام روَّض هذا المُعارك نفسه على أن آيان هو مثل الجميع، وهذا يعني أنه يمكن ضربه بالإجمال، عندما ترسخ هذا الرأي، بدأ يسيكباي يثير الاعتراضات ضد آيان، إلا أن جرّ آيان الذكي والطيب إلى العراك لم يكن بالأمر السهل.

- كف عن ذلك! توقف!

ولوَّح آيان بلطف.

ولكن في يوم من الأيام فقد يسيكباي صبره، فرطَّب إصبعه بلعابه، ولطَّخ به وجه آيان، مسح آيان وجهه بظهر يده، وسأل على محمل الجد:

هذا يعني أنك لا تستطيع البقاء دون عراك؟

ماذا؟ ما الأمر معك؟ رأينا أمثالك!

غضب يسيكباي، وحاول أن ينقر على جبين آيان، لكنه ابتعد في الوقت المناسب.

لنذهب إلى الوادي، لن أتعارك في منتصف الشارع، هنا ستعرف جدتي حتمًا.

قال آيان بهدوء.

هل تظن أن ذلك سينجيك؟ سأزينك بحيث تُقرئك جدتك، كما تقرأ الكتاب.

استوحش يسيكباي.

ذهبنا وراءهما، نزل يسيكباي الراضي إلى الوادي أولًا، وقال:

حسنًا، تعال إلى هنا يا حبيبي، الآن سأريك.

خلع آيان قميصه وهو يسير، وعلَّقه بعناية على القصب، واستعد للمناوشة، وقف المتعاركان متقابلين. مد يسيكباي يديه أولًا، وأمسك بآيان، وشده إليه، وبدأ بضربه، لكن خصمه صمد بقوة على قدميه، وأصبح من الواضح لنا، الجمهور، أنه في المعركة العادلة لن يتغلب على يسيكباي الذي أدرك ذلك بنفسه، فانقض، وأمسك بآيان من خصلة شعره، ولوى رأسه، صرَّ آيان أسنانه من الألم، وسقط ببطء على ظهره، وصعد يسيكباي عليه من فوق وبدأ يكيل له اللكمات، وحجب ظهره وجه آيان، رأينا فقط رجليه تثيران بيأس الغبار، فجأة صرخ يسيكباي بشكل رهيب، وسقط على جانبه، أمسكه آيان من عظمة يده، ولواها قليلًا، بمجرد أن كشف نية يسيكباي القفز، وعلى مرأى من أعيننا، أُمسك يسيكباي الذي لا يُقهر من عنقه، ومُرِّغ مرتين في التراب، مثل قطة شقية.

هل هذا يكفي الآن؟

سأل آيان.

آي، أاي! بالطبع، يكفي!

صرخ يسيكباي خوفًا من أن يغير المنتصر رأيه.

خطا آيان من فوق رأس يسيكباي وانتصب، الآن يجب أن تتدفق قوة العدو إلى عضلاته، على أي حال، هكذا تؤكد الأساطير الكازاخية القديمة،لم يكن آيان يشك في ذلك، لبس قميصه بهدوء، ومسد بهدوء خصلة شعره ورفعها إلى أعلى، ولم يلتفت إلى الوراء أبدًا.

ثم جاء الخريف، وذهبنا إلى العجوز إيمانجانوف للدراسة في الصف الأول، كانت يدا معلمنا ترتعشان، وعيناه ملتهبتين، أحضر الرجل العجوز معه قطعًا صغيرة من الورق الثمين في ذلك الوقت، وعلمنا الأبجدية، جلست في المقعد نفسه مع آيان، وكنت الشاهد الأول على نجاحاته الدراسية، لقد تجلت قدراته من البداية، أذكر، بعد الأصفار والعصي المملة، كتب المعلم الحرف الأول على اللوح، ورسمناه، بدورنا، على الورق باذلين في سبيل ذلك كل جهدنا،لم تتمكن أصابعنا، القوية والمتينة في ألعاب الشوارع، من التحكم بقلم الرصاص إلا بصعوبة، كنا لا نزال نكافح مع أصابعنا العصية، عندما تململ آيان على المقعد، وبفارغ الصبر سأل العجوز ماذا عليه أن يفعل بعد ذلك.

لا تتعجل، لكل شيء وقته، يا آيان.

هدَّأه المعلم الذي كان فرحًا بالتلميذ المفعم بالحيوية والمحب للمعرفة.

بعد الدرس قال آيان بانزعاج:

لماذا لم يكتب كل الحروف؟ لكنت قد تعلمتها على الفور، وكتبت رسالة إلى والدي.

لقد فهمناه: كل واحد منا كان ينتظر اللحظة التي يستطيع فيها الجلوس على الطاولة ليكتب رسالة إلى والده

أو أخيه على الجبهة، معلمنا العجوز، كما لو كان يشعر بذلك، لم يدَّخر قوة أو صبرًا، وسرعان ما جاء اليوم العظيم، ففي واحدة من الفرص تجمهرنا خلف ظهر آيان الذي كتب بشكل مستقل كلمات: "أبتِ العزيز...."

منذ ذلك الحين، عندما كان آيان يعود من المدرسة، كان يجلس على الأرض ويكتب رسالة مبللًا بلعابه قلم الرصاص الكيماوي، وبعد السطر الثاني صُبغت شفتاه باللون البنفسجي، فذهب ليستحم بالبركة.

في كل يوم تقريبًا كانت تخرج من القرية رسالة موجهة إلى والد آيان، في بعض الأحيان كانت تخرج رسالتان، في حالة أن الجدة جلست في فراشها، وأملَت رسالتها.

كنا غيورين من آيان، لأننا لم نتعلم بعد كيف نربط الكلمات على الورق في جمل ذات مغزى، لكن صديقنا الجديدلم يتباهَ أمامنا قَطُّ، أحيانًا تأتي إليه، وتقول:

آيان، ساعدني، فأنا أود حقًا أن أكتب رسالة لأخي.

ويجيب هو بودٍ:

خذ رسالتي وانقلها، فقط استبدل اسم والدي باسم أخيك، مفهوم؟

تومئ: "مفهوم، وتنطلق إلى البيت بفارغ الصبر.

هكذا بدأ أبناء صفنا جميعهم تدريجيًا بإرسال رسائل إلى الجبهة، كانت الرسائل كالتوائم متشابهة تمامًا، لأنها، في جوهرها، من تأليف شخص واحد.

كأن ما انتظره معلمنا هو أن يتعلم طلابه كيفية كتابة الرسائل، فبعد ذلك لزم الفراش نصف مشلول، لم يكن هناك معلم آخر (وهل ستجده في الحرب من أجل قرية صغيرة!)؛ لذلك وبشكل إجباري بدأت عطلة امتدت طويلًا.

في تلك الفترة نفسها، التي ترتبط في ذاكرتي، حدث حدثٌ آخر.

ذات مرة كان آيان يقود الثور من المرعى إلى البيت، وعلى الطريق قرر امتطاءه، الثور، المطيع عادة، غضب وألقى بآيان من على ظهره، خلع الفارس غير المحظوظ قدمه، وجلس في المنزل لمدة شهر تقريبًا. وكان هذا الخلع بالنسبة لآيان مصيريًا، إذ لم يستطع منذ ذلك الحين التخلص من تبعاته.

أصبح اختلاطه معنا يقلُّ يومًا بعد يوم، وبعد ذلك اكتفي فقط بمشاهدة ألعابنا: جلس في مكان ما جانبًا، ونظر إلينا بحسد بينما كنا نركض في شوارع القرية، ونصور الجيش الأحمر.

ثم جاء الشتاء، وهطل الثلج الأول، وحان وقت الجبال الثلجية والزلاجات.

تقع قريتنا عند سفح جبل يشكيوليس؛ حيث حاولت رءوس أكواخها أن تصل إلى القمة، فزحفت على سفوحه، وتجمدت في بداية الطريق، يظهر مثل هذا الانطباع عندما تنظر إلى الشارع الوحيد في قريتنا، والذي يندفع بنهايته العليا في فصل الصيف في خصلة الشيح الكثيفة التي تغطي جبل يشكيوليس، وفي فصل الشتاء نتزلج على الزلاجات من أعلاه نحوه الأسفل في الثلج المرصوص، وحتى ساعات متأخرة من المساء تدوي أصوات الأطفال السعيدة في الشارع، الشتاء عندنا رائع، الثلج يسقط عميقًا، وفي الوقت نفسه يكون

الجو عند سفح الجبل مشمسًا ودافئًا، إنها نعمة حقًا، عندما تندفع مقابل الهواء اللين، والثلج يعمي عينيك، ويئن تحت المتزلجين، وتشاهد كيف يهرع أصدقاؤك بسرعة، والحر يشوي وجوههم، يسحبون الزلاجات إلى الأعلى.

لم يختلف التزلج في هذا اليوم عن السابق، كان الوقت يقترب في المساء، تضخمت الشمس، وثقلت، وامتلأت بالعصير الأحمر، وأصبحت جاهزة للسقوط خلف جبل يشكيوليس، في حين انعكست على الثلج انعكاساتها الوردية الناعمة، من القمة المشمسة لجبل يشكيوليس كانت المواشي التي كانت ترعى في بقع الذوبان تسير في طريقها المعتاد نازلة إلى القرية.

كان كل شيء يتنفس سلامًا، وكأن المتاعب والدموع قد اختفت، على الأقل في تلك الساعات؛ لأن صرخة اليأس رفعت كل الناس على أقدامها، تم الرد عليها بنحيب حزين، جعل التنميل يسري في ظهور أطفالنا، بعد دقيقة أدركنا أن الحزن قد اختار ضحيته المنزل الذي كان يعيش في آيان.

ولكن، ليس هناك مفر، حتى إن المصيبة تولّد لدى الأطفال طوفانًا من الفضول، تركنا الزلاجات وركضنا لمشاهدة مصيبة الآخرين، أولئك الذين تمكنوا بالفعل من معرفة كل شيء، همسوا عن علم:

سمعت أن جدة آيان ماتت.

وبالحماسة ذاتها نقلوا الأخبار إلى الآخرين، كما لو كانت بانتظارهم مكافأة عن السعادة سويونشي(2) ، وبالطبع لم يبعدوا عيونهم عن آيان، خوفًا من أن يفوتهم أهم شيء.

كان آيان واقفًا عند الباب، أبيض كالثلج الذي كانت زلاجاتنا تشق طريقها فيه، ويرمش كثيرًا، أثارت الجارات الفوضى: كن ينتحبن، منهن من كن يفعلن ذلك بصدق، والأخريات من أجل اللياقة، كان آيان يقف جامدًا وأصم وأبكم، يصفق برموشه، وأحيانًا يبدأ يرتعش، أما نحن فقد غامرنا للوصول إلى آيان، دافعين بعضنا بعضا، قابلنا بصمت، إلا أنه نظر بحيرة إلى الزلاجات التي كنا نجرها وراءنا.

اختبأت الشمس وراء قمة جبل يشكيوليس، وتلاشت الألوان، أصبح الهواء رماديًا داكنًا، تسمرَّت عيوننا على آيان في انتظار أن يبكي، حتى إن أحدهم قال بصوت عالٍ، وكأنه يلقّن آيان:

إيه، لماذا لا يبكي؟ جدته هي التي ماتت!

لكن آيان اجتاز العتبة بصمت، وسار بالقرب من النوافذ، وتحول إلى الزاوية، وليس من الصعب تخمين أننا هرعنا خلفه، مهتمين بسلوكه، ثم استدار وقال:

حسنًا، يا أولاد... هل تريدون سماع حكاية؟

قالها كما لو أن من ماتت لم تكن جدته، بل جداتنا جميعًا هن من فارقن الدنيا، ومن ثَمَّ نحتاج إلى عزائه.

-ماذا، هل أروي لكم حكاية؟

(2) سويونشي- باللغة الكازاخية، وتعني "يا لها من فرحة!" - البشارة، أو هتاف التعجب الذي يسبق نقل الأخبار السعيدة.

سأل وهو يبتسم بحزن.

اروِ!

قال صادق.

"ربما الأفضل لو كانت مضحكة" قال لنفسه، كان يفكر، ويفرك خده بياقة المعطف ذي الفرو القليل.

أمسكنا بزلاجاتنا بقوة وحدقنا به فاتحين أفواهنا معًا، تنهد آيان بشكل متقطع، وبدا كما لو كان قد نسي أننا موجودون، وخاطب نفسه:

في قديم الزمان... كان هناك صبيٌ... يتيمٌ...

روى الحكاية طويلًا مع التفكير، لأنه اخترعها مباشرة أمام أعيننا، الحكاية كانت حزينة، لكن اليتيم لم يكن متشائمًا حزينًا، ولم يستسلم، وضحكنا مرة أو مرتين، حتى إننا نسينا أن جدة آيان ماتت اليوم.

في اليوم التالي دفنت الجدة، وتبعًا للأعراف، فقد قامت قلة من الرجال المعفيين من الخدمة العسكرية بدفن الجدة، وهرعوا عائدين إلى القرية على ظهور الخيل، تاركين آيان عند القبر، كان يقف وحيدًا، مُطأطئ الرأس، وفي هذه المرة كانت عيناه جافتين، كما لو أنه لم يتعلم البكاء بعد، ثم أخذ كتلة من الطين ممزوجة بالثلوج من جانب القبر ورماها جانبًا، كما ينبغي أن يكون:

جدتي، ليكن التراب عليك خفيفًا!

نفخ على أصابعه المتجمدة، وانطلق في طريقه عائدًا إلى القرية.

في اليوم نفسه، انتقل آيان إلى بيت العجوز باباي الذي ربطته بجدته علاقة قرابة بعيدة، في البداية خرج من البوابة الجد باباي على زلاقته المحملة بجبلٍ من البطانيات والوسائد الملونة، بعده ظهر آيان يقود بقرة رمادية فاتحة، مشت البقرة خطوة واحدة، ثم قاومت لشعورها أنها تنتزع من زريبتها المعتادة إلى الأبد، أما نحن، فقط أعطينا مبررًا للعمل، ألقينا بزلاجاتنا، وسحبت العصابة بأكملها البقرة من الخلف.

واحد، اثنان، اسحبوا!

صاح يسيكباي.

حدَّقت البقرة بعينيها الواسعتين، وبكل شوق البقر هزت رأسها وذيلها، وكما لو أنها أصيبت بالعمى تظاهرت بأنها تريد أن تضرب آيان، لكنها أذعنت بعد ذلك، وخارت بحزن، وسارت وراء آيان وهي تشم معطفه.

إنها ذكية، تفهم كل شيء.

قال آيان محاولًا لسبب ما تبرير سلوك البقرة في أعيننا.

رافقناه حتى المسكن الجديد، وتناولنا زلاجاتنا من جديد.

لم يخرج آيان إلينا إلا في اليوم التالي، وقف جانبًا، ونظر بحرقة كيف يطير الأولاد من الجبل على زلاجاتهم.

أنا أيضًا كان لدي زلاجات، هناك، في المدينة.

قال لي عندما تحولت بمهارة وفرملت عند قدميه، قالها كما لو كنا قد اتهمناه بشيء ما.

أتعرف يا آيان، خذ زلاجتي، وانزل بها متزلجًا لمرة واحدة، اقترحتُ وأنا غير قادر على تحمل نظرته.

لمَ لا؟ ربما أجرب ذلك بالفعل؟"

قال وهو غير متأكد، ولكن بعد ذلك أشرق وجهه.

-حسنًا، من سيتسابق معي؟!

سحب الزلاجة إلى التلة، وهو يعرج، استلقى عليها على بطنه، وانزلق بسرعة إلى الأسفل.

شكرًا لك.

قال ناهضًا.

- واو، ما أسرعها! حتى إنني لم أستطع التفكير.

وزلاجتي أسرع.

قال صادق متبجحًا.

- آيان، جرب على زلاجتي.

أعطني زلاجتك.

قال آيان فرحًا.

ثم جلس على زلاجة يسيكباي، وما إن اندفع، حتى صرخ بقية الأولاد فرحين.

آيان، آيان! وزلاجتي؟ خذ زلاجتي!

أوه، لقد شبعت تزلجًا!

تنفس آيان بعمق وحماس، يبدو أنه تعب لعدم اعتياده.

إذن، مقابل ذلك، ارو لنا حكاية أخرى.

قال صادق ممازحًا:

ليكن ذلك، سأروي

ابتسم آيان.

- وعلى الأرجح ستكون أفضل من حكاية الأمس، ومفرحة أكثر.

عند المغيب تجمعنا بالقرب من منزل باباي محدثين ضجة، بحيث دوت صرخة العجوز التي كانت جالسة على الشرفة وفتحت الباب:

يا للعيب! فكَّرتُ، ما هذه الضجة؟ هل يقودون قطيع مواشي الكولخوز (3) تحت نوافذي؟ واتضح أنكم أنتم، أيها الصعاليك! هيا، اذهبوا من هنا، يا أوغاد! آخ، لو أنال منكم!

هزّت بقبضتها الجافة، وكان ذلك كافيًا، فجرينا كالريح بعيدًا عن بيتها، وقفنا في الشارع ونظر بعضنا إلى

(3) كولخوز: المزارع الجماعية في الحقبة السوفييتية.

بعض في حيرةٍ، "لقد بكت حكاياتنا" كأن ذلك مرتسم على وجوه الأولاد، وهنا انبرى صادق.

هيا يا أولاد، لنذهب إلى الإصطبل! نتسلق إلى السطح، وهناك اسمع بقدر ما تستطيع!

وكيف لم نفكر في ذلك من قبل؟ على سطح الإصطبل تبن مكدّس منذ بداية الخريف، ناعمٌ، وفواحٌ، اجلس واستمع، ليست هناك راحة أكبر من ذلك، مهما حاولت البحث عنها، آه نعم أحسنت، يا صادق!

صرخنا "هورا!"، وبشغف تحمسنا وانطلقنا إلى الإصطبل.

خلف الجميع جرى آيان ضاغطًا على قدمه المصابة،لم يكن تسلق الحجارة إلى السطح يستحق الكثير من الجهد، لا سيما بالنسبة لأولئك الذين لديهم حكَّة في أيديهم رغبةً في تسلق شيء ما.

على السطح كان الوضع رائعًا، فخلال الدقائق القليلة الأولى تقلّبنا مع الضحك والصراخ على القش الفواح، وخبأنا رءوسنا فيه مخمورين من رائحة الصيف.

بعد ذلك هدأ الأولاد مرة واحدة، وبدأوا يرتبون أنفسهم في دائرة، في حين جلس الراوي في منتصف الدائرة، وجمع كومة ضخمة من التبن تحته، ووجَّه نظرة حادة مركزة في اتجاه الوادي المظلم، بصعوبة ميز أشياء في الليل، وما الذي يمكن رؤيته في الظلام الدامس؟ لكن آيان أوغل عينيه في الليل، ورأى شيئًا غير عادي وغير مفهوم للآخرين، وشعرنا بشعور رهيب.

كان ذلك منذ زمن بعيد... في العصور القديمة... عاش ولدٌ... يتيمٌ...

بدأ آيان.

فتننا صوته المكتوم والمغمور، جلسنا دون حركة، مصدقين كل كلمة من كلماته، على الرغم من أننا كنا نعلم جيدًا أنها كانت مجرد حكاية خيالية اخترعها رفيقنا، في الأسفل، تحتنا، كانت الخيول تصهل بهدوء، وتدب بحوافرها، لكننا لم نعر انتباهنا إلى الأصوات اليومية للعالم الحقيقي، وانتقلنا إلى بلد غريب ترامى في الظلام عند سفح يشكيوليس.

منذ ذلك الحين، هذا ما حدث: بمجرد أن يحل المساء، نأخذ أماكننا المفضلة، ويبدأ آيان حكاية من حكاياته. في واحدة من هذه الأمسيات ظهر صادق على السطح مع جريدة وحفنة من التبغ جلبها من منزله، بعد أن استقر بطريقة محترمة، كما، في رأيه، يجلس الرجال الحقيقيون، لف لفافة "ساق الماعز" الخرقاء الطويلة، وأخرج من جيبه علبة فيها عود ثقاب واحد، وأشعل بارتباك سيجارة، نظرنا إليه بعيون واسعة، أخذ السحبة الأولى، وبدأ بسعال طويل، وفاضت من عينيه دموع لا إرادية، وقال بمرح:

والآن يمكنك البدء، امضِ قدمًا في حكايتك، يا آيان!

إيه، سأجربها أولًا، أعطني لأسحب مرة.

قال قاسم تسرابكا الذي كان يجلس إلى جواره، ومد نفسه بلهفة نحو السيجارة.

كان صادقنا سخيًا، مدَّ السيجارة التي لفها بنفسه، والتقفها قاسم بنهم كبير، كما لو كان خلاصه في هذه الدفعة من الدخان، لكنه بدأ في العطس والسعال حتى ضحكنا عليه، وقال أحدنا واعظًا:

تستحق ذلك! لا تكن جشعًا.

ثم تدخل يسيكباي في هذه المسألة.

أعطني يا صادق، سأريكم كيف ينبغي التدخين.

طلب بشكل رزين.

تفضل.

قام صادق بإيماءة واسعة مرة أخرى.

سحب يسيكباي بقلق، وملأ فمه كاملًا بدخان التبغ، وأفرج عنه ببطءٍ من خلال أنفه، بعد ذلك نظر إلينا نظرة مليئة بالتميز، كما لو كان يقول: "هكذا يجب، أيها الضعفاء"، عندها لم أصبر أنا أيضًا، وتبعني الباقون، وبسرعة لم يبق من لفافة "ساق الماعز" سوى عقب صغير لم يجرؤ أحد على وضعه في فمه.

في اليوم التالي أحضر كل واحد منا تبغه إلى السطح، ثم نفخ وسكب التبغ وخشخش بالجريدة، ولفَّ "ساق ماعز" قبيحة.

كنا ندخن في سماء الليل ونستمع إلى آيان، ومن الآن أصبحت حكاياته أكثر سحرًا، لقد رفعنا التدخين في أعيننا، وحسبنا أنفسنا أنواعًا رأيناها من البشر، ملهَمةً بحكمة أحد زملائنا، ثم وقع واحد منا في قبضة أمه أثناء سرقته للتبغ، ودقَّ الآباء ناقوس الخطر، أُزيل التبغ والصحف إلى مخابئ العائلة، لكننا أصبحنا بالفعل أناسًا خبيرين.

يا أولاد، يا أولاد، هل لاحظتم ماذا يدخن توورداغول الأخرس؟

سأل يسيكباي عندما عقدنا مجلسًا بشأن هذه المناسبة المأساوية.

نعم، لقد عرفنا ذلك جيدًا، ومن الآن فصاعدًا أصبحت حفنة من سماد الخيول الجاف (ليسامحني القارئ!) من الأشياء الضرورية التي كنا نحملها باستمرار في جيوبنا، ومن جديد أطلقنا دخاننا نحو النجوم مصغين إلى صوت آيان.

كانت حكاياته مذهلة بالنسبة لنا، كان فيها كل شيء: الشجاعة والقوة البطولية، والعقل، والجمال، لكن القوة الأكثر جاذبية لهذه الحكايات كانت في أن آيان جعل منا أبطالًا لها، فبحسب كلماته هرعنا بشجاعة إلى الهجوم على الفاشيين، واحد ضد مائة، لا، ضد ألف، بل وماذا هناك، ضد مليون، تحتنا كانت تصهل خيول خيالية، وفي أيدينا كانت تلمع سيوفٌ سحرية من الفضة الخالصة، اتجه العدو المرعوب حتى الموت متدافعًا إلى الهروب المذعور أمامي، وأمام صادق، وبطبيعة الحال أمام يسيكباي في المقام الأو، قاسم تسارابكا الذي يخوض في أنفه عادة، نسي مخاطه وأنه لم يلتهم فطيرته، فانسحب من المائدة، لأنه في تلك اللحظة وبضربة واحدة كان يسحق جحافل الفاشيين وحده.

استمعنا إلى آيان متناسين وجباتنا الفقيرة وملابسنا الخفيفة، كل شيء بدا تافهًا مقارنة بمآثرنا، وما إن تنتهي الحكاية، وتتلاشى الكلمة الأخيرة لآيان، حتى نبدأ بمناقشة ساخنة للأحداث التي انتهت للتو. فكانت

تُسمع:

وكيف أنا نلتُ منهم، ها! رائعٌ؟

وأنا؟

ودائمًا ما تحول النقاش إلى حرب حقيقية، يسيكباي أو أي شخص آخر قال: "لو كان عندي سيف سحري، لذهبت إلى الجبهة، ووجهت للفاشيين ضربة قوية، وحصدتهم جميعًا"، أو شيء آخر من هذا القبيل، أما صادق أو شخص آخر، فقد أضاف على نحوٍ حالم شيئًا مثل: "تخيلوا: أبي، والفاشيين من حوله، وهنا أظهر أنا مع سيفي السحري"، "أبي"، أقول، "هذا أنا، صادق؟" ضربة! ضربة! للفاشيين. كلهم حتى آخر واحد! ها، كم سيكون رائعًا؟!"

وافقه الباقون جميعهم، كل واحد حلم أيضًا بمساعدة والده أو أشقائه في أصعب اللحظات بالنسبة لهم...

في بعض الأحيان نسج آيان حكاية رهيبة، عندها امتلأ الليل حولنا بقعقعة أجنحة نحاسية حلقت عليها طيور تشبه الحيوانات، وأزقة، ومنحدر ووديان تعجّ بوحوش ذوات عين واحدة، وشياطين وأرواح شريرة أخرى. كان الليل مكهربًا بالرعب: بدا لنا أن الريح التي تهب من جهة الوادي، تنقل أصوات عواء، وما إن يصرخ أشجعنا "آه!"، حتى يصيح الباقون "أوي-باي!" ويختبئون في التبن.

ما حدث لآيان عندما وُلدت مثل هذه الحكايات في رأسه، لا أستطيع أن أتخيله الآن أيضًا، ربما كان يشعر بالاكتئاب بسبب الوحدة، وفي بعض الأحيان عندما انتصر اليأس، بدا له أن المصائب كانت تحدق به، وتقمصت صور حكايات في خياله الطفولي... حول ذلك لا يبقى سوى التخمين، ولكن حتى في مثل هذه الحالات، كانت حكاياته تنتهي دائمًا بسعادة، لأنه كان يؤمن بانتصار الخير، وفي الوقت نفسه، لم يكن أحد يسعدنا بقدر ما كان يفعل آيان نفسه، لسوء الحظ، نادرًا جدًا ما كان يحدث هذا، لكن عندما بدأ بحكاية مضحكة، كان يبتسم قليلًا ويظهر أسنانه السيئة القليلة، كنا نتلوى من الضحك، ونضرب بأقدامنا، ونختنق، ونمسك ببطوننا، كما لو لم تكن هناك حرب على الأرض، وكان آباؤنا وأشقاؤنا في هذه الساعة يجلسون في المنزل أصحاء آمنين في جو دافئ...

آيان، هيا، واحدة أخرى... هيا، ماذا تكلفك؟

توسلنا إليه عندما كان يصمت، ولكن مهما توسلنا، فإنه لم يروِ أكثر من حكاية واحدة، نهض، هزّ القشّ الملتصق على معطفه، وأجاب وكأنه مذنب:

الوقت متأخر يا أولاد، لقد حان الوقت للنوم، أعتقد أنهم في البيت سيشتموننا.

بدا لنا أن آيان فقط يتدلل أمامنا ليرفع من قيمته، فتأليف الحكايات ليس بالأمر الصعب، وكل ما يحتاجه هو طريقة خاصة، وآيان يعرف هذه الطريقة، ونحن لا ينقصنا إلا الشجاعة، ولُدينا كسل للاستفسار منه عن كيفية ذلك، ومن ثم نخترع الحكايات بأنفسنا، ولكن، على ما يبدو، لم يكن هذا بالشيء السهل، كان آيان يفكّر وهو جالس في مكان ما تحت أشعة الشمس، في حين كنا نحن نتزلج على الزلاجات غير مبالين بمَن على

التلة، وفي المساء ذهبنا متعبين وراضين ومبلولين من الثلج إلى الإصطبل للاستماع إلى ما أعده لنا صديقنا... كمكافأة لكل حكاية جديدة، يعطى واحد من الأولاد زلاجاته لآيان في صباح اليوم التالي، وأصبح ذلك عادة، هكذا كان الأمر في البداية، وفي الفترة الأولى كنا نزيهين للغاية، ولكن بعد ذلك برد اندفاعنا، ذات مرة، عندما جاء دور أحدنا، قال:

تعرف يا آيان! الأفضل أن أعطيك الزلاجة غدًا، لن تكون مستاءً؟

بالطبع لا.

أجاب آيان في حيرة.

كانت المبادرة الجديدة معدية، مثلًا، لمن يرغب بالتخلص من الزلاجة على الأقل ليوم واحد، عندما يلمع الثلج بشدة، ولا تنزلق الزلاجة عليه كما يجب، والريح تصفر في الآذان، الآن، إذا تمكن آيان من التزلج على الزلاجة ولو لمرة واحدة، إذا استيقظ الضمير لدى أحدهم وقال على مضض: "آيان، هل تود التزلج لمرة واحدة؟" يمكن حسبان ذلك نجاحًا، جرّ آيان الزلاجة إلى أعلى التل، لكن ذلك لم يجلب له السعادة السابقة نفسها، وعند تزلجه من الجبل، أعاد الزلاجة إلى صاحبها، وبدا أن آيان أخذه زلاجاتهم لأنه فهم كل شيء، وببساطةلم يرغب في وضع الصبي الذي صحا ضميره في وضع محرج، وبعد ذلك وقف لفترة طويلة في الأسفل، عند المنحدر مخبئًا أنفه المزرق من البرد في ياقة معطفه، ينقر الكعب على الكعب، ويراقب لهونا بصمت.

في بعض الأحيان كانت العجوز بابايا تندفع خارج البوابة وتصرخ:

آيان، أين أنت هناك؟ أين ذهب هذا الشقي؟! آه، ها أنت! اذهب اربط البقرة، وقُد البط والإوز إلى الحظيرة، نعم، لقد نسيت تمامًا: ثم اسق الفرس، ولا تنس أن تضع لها التبن!

سأفعل كل شيء، يا جدتي.

أجاب آيان وخرج إلى الفناء ملتفتًا بين الحين والآخر كما لو كان خائفًا من نسيان الشيء الأهم، وكان غالبًا ما يعود إلينا بعد أن ينهى أعماله.

لكن في المساء حصل آيان على نصيبه، فقد كان ينتظر طوال النهار بفارغ الصبر حتى تغيب الشمس وتختفي خلف قمة يشكيوليس ويبدأ الظلام، عندها تعود الحياة إلى وجهه، ويقول:

هيا، الآن إلى الإصطبل، لقد اخترعت لكم اليوم حكاية رائعة!... أفضل من حكاية الأمس بكثير!

وحدث أنه لم يستطع التحمل، ودعا للاستماع للحكاية خلال النهار.

أيعقل أنكم لم تملّوا التزلج؟ كل يوم الشيء ذاته، أين المتعة من الاستلقاء على البطن وإفساد الملابس؟ - بدأ، ونفخ شفته السفلية ازدراءً.

لكنه لم يكن يجيد التمثيل، ففهمنا حقيقة الأمر، ولم نستسلم لخدعته، وهل هناك ولو ساذج صغير يمكن أن يعارض:

آه، ربما، لنذهب! حذائي مبلولٌ بشكل كامل.

ومنح ذلك القوة لآيان.

وهل هذه زلاجة؟

تذمر وجعّد أنفه.

– إنها ليست زلاجة، وإنما خطأ، لو أنك تحصل على زلاجة بمقود ومحرك ومصابيح، مثل هذه الزلاجات لا تسير فقط إلى الأسفل، بل وإلى الأعلى أيضًا، أنا أفهم ذلك!

إيه، تخترع كل شيء! وهل هناك مثل هذه الزلاجات التي تسير إلى الأسفل والأعلى اندهشنا.

أجل، وأي زلاجات! مثل الحصان الطائر، كأنها حصان تايبوريل(4) .

حصان تايبوريل؟ الذي كان يمتطيه الفارس كولابادي؟

أجل... وهذه الزلاجات كذلك، لا فرق بالنسبة لها إن كان التزلج باتجاه الأعلى أو الأسفل!

لم يجرؤ أحد على مجادلة آيان؛ إذا أكد ذلك، فهذا يعني أن مثل هذه الزلاجات موجودة بالفعل، "كم أتمنى لو كانت لدي زلاجات كتلك التي يتحدث عنها آيان!" فكّر كل واحد منا.

كان طبع آيان غريبًا، قبل أن أنام أخرج متأخرًا بعض الشيء إلى الشارع، لأفكر وأتنفس الهواء النقي وأرى شخصًا ما في الظلام يندفع من الجبل على الزلاجة، ضوضاء، كما لو أن يشكيوليس زحف من مكانه، أفكر، من أي نوع غريب الأطوار هذا، من يخطر بباله أن يتزلج في مثل هذا الوقت؟ والضوضاء تقترب أكثر فأكثر، والجسم الأسود يطير باتجاهي، ضوء القمر يضيئه، فأعرف أنه آيان، امتد فمه من الأذن إلى الأذن في ابتسامة سعيدة، وكانت حروف معطفه ترفرف من السرعة، كما لو كان آيان في عجلة من أمره للحاق بشيء فاته، وعلاوة على ذلك، ليتزلج من جديد، ناديته.

هذا أنت!

قال بحماس.

– لقد أعطاني صادق زلاجته حتى الغد، تعال لنتزلج!

ماذا بك، هل جننت؟ التزلج في مثل هذا الوقت؟ منتصف الليل يقترب، وأنت تتزلج على الزلاجات!

ألا تعلم؟

سأل آيان متفاجئًا.

– ألا تعرف أن الأفضل هو التزلج تحت ضوء القمر؟ في هذا الوقت تظهر لدى الزلاجات خاصية خاصة، شيءٌ ما يشبه الأجنحة.

(4) حصان تايبوريل – حصان الفارس كولاباندي، وفقاً للأسطورة يمكنه أن "يطير" جميع البلدان في 40 يوماً.

لم أكن أعرف ذلك، وبالتالي فوجئت وصمتُّ، في هذه الأثناء ركض آيان إلى أعلى التل، وانتظر قليلًا، واندفع من جديد، وهنا يظهر في خط ضوء القمر، وبدا لي أنه كان يطير حقًا، ولكن، ليس عاليًا جدًا، في بضعة سنتيمترات من الأرض، لكنه يطير، اللعنة.

هورا!

صرخ آيان ورفع يده منتصرًا.

"ربما، بالفعل تظهر لدى الزلاجات تحت القمر أجنحة" فكرت، وركضت إلى المنزل لأحضر زلاجتي، وبدأت أتلمسها في الظلام، كما يحدث دائمًا، انزلقت وجلجلت الدلاء والأحواض اللعينة تحت قدمي.

إيه، هناك شخص ما يمشي في الممر.

قالت أمي من خلف الباب، ربما جاء الكلب مرة أخرى.

فتحت الباب، وعندما وجدت أخيرًا الزلاجة اندفعتُ راكضًا، لكن أمي عرفتني من خط الضوء عندما هربت من الغرفة.

آه، هذا أنت من تسبب في هذه الضجة؟! وما الذي كنت تبحث عنه هنا، قل بصدق؟

سألت أمي.

أمي، أريد أن أذهب للتزلج على الزلاجة.

ألم يكفكَ النهار؟

غضبت الأم.

- انظر، يخطر ذلك ببالك عندما يكون الناس الطيبون نائمين، هل أنت لص لتتزلج خلسة عن الجميع؟

هذا آيان يتزلج، يقول...

آيان، آيان... ليذهب إلى جهنم، آيانكم، لا نسمع إلا: "آيان قال... آيان هذا... آيان ذاك!" اترك الآن الزلاجة وبسرعة إلى السرير.

انتزعت الزلاجة، وألقت بها بقرقعة في الزاوية، وحصلتُ على صفعة ثقيلة، شعرت بأسى شديد، دخلت إلى الغرفة، خلعت ملابسي، واستلقيت بجانب جدي، ولم أستطع النوم طويلًا، في أذني كانت لا تزال خشخشة انزلاق الزلاجات على الثلج، وعندما انتصر النوم عليّ، جاءني في المنام آيان طائرًا على زلاجة مجنحة إلى الأعلى، إلى قمة يشكيولميس...

لقد دلّلنا الشتاء طويلًا بالطقس الجيد، ثم جاء اليوم الذي تلبدت فيه السماء بالغيوم، ومن السهوب هبّت ريح باردة قارسة، في ذلك المساء أضاءت المصابيح في القرية في وقت أبكر من المعتاد، لكننا لم نغير تقاليدنا، كما لو أن شيئًالم يحدث، فقد تجمعنا على سطح الإصطبل، وبدأنا في لف سجائرنا استعدادًا للاستماع إلى حكاية أخرى، أذكر أن وجه آيان توهج بفرح هادئ.

يا أولاد، سأخبركم بما حدث معي، لن تصدقوا! اليوم في الصباح رأيت والدي.

قالها بصوت شخص تلقى هدية غير مسبوقة.

– صدقًا، صدقًا، أمس فرشوا لي معطف أبي، وكانت رائحته رائحة أبي، تشبه رائحة الشيح، قالت الجدة خلال حياتها: "هل تعلم أين ولُدتُ أباك؟ ولُدته على تل الشيح، على قمته، كنت ذاهبة خلف الماشية، وولُدته"، يبدو أنه منذ ذلك الحين بقيت لدى أبيك رائحة الشيح، المرة، المرة والطيبة، خبأت أنفي تحت المعطف، وبقيت مستلقيًا لفترة طويلة، وهكذا غفوت، حلمت بأبي، سالمًا وسعيدًا، ينظر إلي ويضحك.

وأنا أتغطى بمعطف والدي، وهو أيضًا يفوح برائحة الشيح.

قال أحد الأولاد:

وهنا دارت أحاديث عن الآباء والإخوة، باختصار، وبما تفوح ملابسهم التي تركوها، والمثير للاهتمام أن الجميع اتفقوا على أن آباءهم وإخوانهم كانوا يفوحون برائحة الشيح، كما لو أنهم ولُدوا على تلة الشيح التي لم تكن بعيدة عن قريتنا، عندها حدَّق الجميع في آيان، وأعطوه الكلمة الأخيرة.

يا أولاد، ومني أيضًا تفوح رائحة الشيح، ربما لأنني أشبه والدي إلى حدٍ كبير، هكذا يقول الجميع، يمكنكم شمها بأنفسكم.

قال آيان بارتباك:

شممنا بأنوفنا، وبالفعل، من آيان جاءت رائحة الشيح البعيد ،كانت مرَّة، لا يمكن الخلط بينها وبين أي شيء آخر، أو ربما بدا لنا فقط، لأننا اعتدنا على تصديق كل كلمة لآيان.

أجل، منه تفوح رائحة الشيح.

أعلن صادق جازمًا، وبذلك وضع حد لشكوكنا.

كيف لكم أن تتخيلوا، لم يستطع يسيكباي التسالم مع حقيقة أن تفوح رائحة الشيح من شخص ما، ومنه لا، شمَّ بعمقٍ كمَّه وصدره وقال:

إن كان الأمر كذلك، فمني أيضًا تفوح رائحة الشيح!

بعد ذلك بدأ كل واحدٍ منا يشمّ كمّه، ومن جميع الجهات جاءت:

مني أيضًا تفوح رائحة الشيح!

ومني!

ومني!

يجب القول: إننا جميعًا كنا سعداء جدًا بالاكتشاف الجديد، وكانت السعادة كبيرة إلى درجة لا يمكن وصفها، أخيرًا هدأ الأولاد، واستعد آيان للحكاية منظفًا حنجرته.

انتظر.

قال يسيكباي: أود أن أسأل تسارابكا: "لماذا لم يعطك زلاجته؟" أمس كان دوره.

زلاجتي خربت.

بدأ قاسم تسارابكا يبكي بصوت متقطع.

ها ها، لقد خربت يوم أمس تحديدًا، ليس قبل، ولكن بالأمس بالتحديد، غريب، لقد جاءها الخراب في الوقت المناسب، مصادفة موفقة، أليس كذلك؟

تابع يسيكباي.

حسنًا، أعطه زلاجتك إذا كنت تريد ذلك كثيرًا.

قرر قاسم تسارابكا بسرعة بعد أن أدرك أنه فُضح.

أنا لا أبخل.

قال يسيكباي.

يا أولاد، هذا يكفي! بسبب مثل هذه التفاهة...

تدخل آيان.

لا تشوش يا آيان، يجب تلقينه درسًا.

لم يهدأ يسيكباي، ونزع من على رأس قاسم القبعة الشعثاء، ورماها من السطح إلى الأرض.

لماذا فعلت هذا؟ سوف يصاب بالبرد، أستطيع أن أبقى بدون زلاجة.

قال آيان عن تسارابكا.

لن يصاب بالبرد، ليذهب من هنا بسرعة.

نهض يسيكباي مهددًا.

- ها، لمن يقولون؟

نزل قاسم تسارابكا عن السطح على مضض، رفع قبعته، ووضعها على رأسه وأنزلها حتى عينيه، ووعد قبل مغادرته:

سأشكوك إلى تورجان، وهو سيحاسبك!

وانسحب وهو يشتم بصوت عالٍ يسيكباي وآيان الذي لا ذنب له.

قبل الحرب كان شقيقه تورجان مشهورًا بطبعه العنيف، قبل شهر عاد من الجبهة من دون يد، ويعتقد الآن أن كل شيء مسموح له، عادة ما يقول تورجان:

أنا جريح، لقد ضحيت بدمي من أجلكم، وأنتم تافهون.

والأولاد هم من يتلقون منه التهديد بشكل خاص، وهذا هو السبب الذي جعل قاسم تسارابكا يخيفنا بعقاب أخيه، ولكننا الآن لم نكن نخاف من أي أحد، كنا ننتظر حكاية جديدة.

في ذلك المساء عاد آيان إلى حكاياته عن الصبي اليتيم.

... قطع، على الأغلب، ألف كيلومتر على مهر قبيح تحدث فجأة بصوت بشري قائلًا: "هل ترى الجبل العالي؟ هو الأعلى في العالم، لكنه لا يهمني، لدي أجنحة قابلة للطي، علينا فقط الانتظار حتى يحلّ الليل،

وخلال النهار حتى الطائر لا يستطيع الطيران فوقه، لأنه يخاف من أن يحترق جناحاه تحت أشعة الشمس، انظر، ذلك هو الجبل، شاهق حتى الشمس، لكن عندما تغرب الشمس ويصبح الجو باردًا، سنطير، فقط انتبه، لا تسقط، تمسك بقوة، والأفضل أن تغلق عينيك، ثم سأخبرك متى يمكنك فتحها، سأقول لك: "والآن يمكنك فتح عينيك" –أفهمت؟ بشكل عام انتقلا في الليل إلى الجانب الآخر من الجبل العالي، وشاهدا كهفًا، كان فيه أحد ما نائمًا عند الموقد، "هنا يعيش الوحش ذو العين الواحدة"، قال المهر للفتى اليتيم.

نظر آيان إلينا محدقًا بعينيه كما لو أنه يرانا للمرة.. وخفض صوته إلى الهمس، كما لو كان ذلك الوحش ذو العين الواحدة بإمكانه أن يسمعه، قام بذلك بخفة كبيرة، إلى درجة أن التنميل سرى على ظهورنا، وبدا لنا خيال يشكيوليس الأسود الحاد، الجبل نفسه الذي كان خلفه يشخر الوحش ذو العين الواحدة في كهفه، وبدت الرياح الباردة التي تهب الآن هي تتمة لشخيره، والجبل يتأرجح ببطء من هذه الرياح، يرتفع وينزل كقبة اليورت(5) مع كل شهيق وزفير، ونحن خائفون من نفسنا، نتنفس بحذر شديد، وأرى أنه لا يوجد أحد يجرؤ على تحويل رأسه في اتجاه جبل يشكيوليس...

كانت الرياح تدوي بوحشية، ضاربة أحيانًا الوجه بحفنة من الثلج الرطب، وحده الله يعلم من أين جاءت بها، فوق القرية تجمعت غيوم سوداء ثقيلة، جاءت إلى هنا من القبة السماوية كلها، كانت معلقة فوق المنازل، كان الكلب ينبح ويعوي كحارس أمين للوحش ذي العين الواحدة، "سيوقظ الوحش الآن، وعندها تحمَّل"، فكَّرت وأنا ارتعش بشكل لا إرادي، وهنا، في المكان الأكثر إثارة، صرخ أحد الأولاد:

النجدة! حريق!

على حرف السطح زحفت أفعى رفيعة من النار، كانت الرياح تطاردها، وهي تزحف بسرعة، ثم التوت بعد أن وجدت لنفسها طريقًا أكثر راحة، يبدو أن أحد الأولاد ألقى بعقب سيجارة، وسقط على القش الذي كان يغطي السقف في أوائل الخريف.

هبطنا عن السطح مع قعقعة كفاكهة ناضجة من شجرة هزتها الريح، وهربنا من المكان، اتضح أن آخر القافزين كان آيان، أذكر كيف تبعتنا صرخة مؤلمة:

أوه، قدمي! قدمي!

من المخجل الاعتراف، لكن في تلك اللحظةلم ينتبه أحد له، فكل واحد منا كان يفكر في سلامته الخاصة، إضافة إلى ذلك كانت ال"أبو"اب في جميع أنحاء القرية تصطفق مع صرخة "حريق! حريق!" ، هرع الكبار إلى الإصطبل، وبرز في مقدمتهم تورجان،كان صوته الأجش الغاضب مميزًا وسط كثرة الأصوات.

سأضربهم على مؤخراتهم! من أجلهم ضحيت بدمي، من أجل هؤلاء الجراء!

توغلت خلف الشجيرات على جانب الطريق، ثم نظرت من مخبئي الآمن، ورأيت تورجان يهرع إلى المكان

(5) يورت: المنزل التقليدي القديم في سهوب آسيا الوسطى.

الذي اختبأ فيه آيان من الألم، تحرك الخيال المعتم في الظلام في رقص محموم، ووصلني صفير السوط، وفي الوقت نفسه تقريبًا سمعت صوت آيان متوسلًا:

لماذا يا عم!

سأريك "لماذا"، -هدَّر تورجان.

بعد ذلك، في النهاية ركل آيان بحذائه وألقى به في الإصطبل؛ حيث كانت الخيول تصهل مختنقة من رائحة الحريق،كان من الصعب على النار أن تلتهم القش الرطب؛ لذلك فقد تمكن الكبار الذين سارعوا من القضاء عليها بسرعة، بعد ذلك لاحظ أحد الرجال آيان، رفعه على يديه وقال موبخًا:

عجيب، كيف تضرب الولُد! رأس مجنون، انظر ممن تنتقم ليدك.

واسى الناس المحيطون آيان، وشجبوا تورجان، بعد أن أدركنا أن غضب الكبار قد اندفع في اتجاه مختلف، خرجنا ببطء من مخابئنا، ومن أجل توخي الحذر، اجتمعنا جانبًا دون أن ينظر بعضنا في عيون بعض،كنا خجلين من أننا هربنا بجبنٍ، تاركين رفيقنا في محنة.

يا أولاد.

بدأ أحدهم، رغبة منه على ما يبدو في التبرير.

يا أولاد، يا أولاد... اخرس.

قاطعه يسيكباي بقسوة.

أُخذ آيان إلى منزل باباي، ونحن، بعد أن مشينا وتململنا قليلًا لأن المحادثةلم تتواصل، غادرنا إلى المنازل.

عندما وصلت إلى المنزل، كان الكبار مستيقظين، كان جدي جالسًا متكدرًا على سريره المجهز، وكانت أمي وجدتي تبدوان مستاءتين بشكل واضح، يبدو أنهم كانوا ينتظرون عودتي.

- ها هو الشجاع قد ظهر، تنعموا بالنظر إليه!

قال الجد بغضب.

- لكن لماذا لم ينل سوط تورجان من هذا الجبان؟ لكان ذلك مناسبًا له!

ماذا كان بوسعي أن أقول مبررًا، فقط وقفت عند العتبة ومررت بصمت إصبعي على الحائط، كما لو كان ذلك عملًا مهمًا، كانت بطني يئن من الجوع، لكن لم يكن لدي ما يكفي من الشجاعة حتى أعطي ولو تلميحًا عن العشاء، والأهم من ذلك أنني بدوت لنفسي شخصًا تافها، لا يستحق أن يطعموه.

المسكين آيان، وحيدٌ تمامًا، وليس هناك أحد ليستشفع له، "أبو"ه على الجبهة، وباباي مع عجوزه هَرِمان في حاجة إلى الرعاية الدائمة، متهالكان للغاية.

تمتمت أمي، ثم التفتت إليَّ وقالت:

- اجلس لتأكل أيها المهمل.

بالطبع لا أريد.

تمتمتُ منعزلًا، ومشيت بشكل جانبي إلى السرير، نزعت ملابسي، وبسرعة تسللت تحت الغطاء،
الغريب أن النوم غلبني بسرعة، فلم أتمكن إلا من سماع كيف تمتم جدي:
لو رميت من عمري خمسين عامًا، للقنت تورجان درسًا، لقد استوحش تمامًا، ابن العاهرة.
عندما استيقظت في الصباح، رأيت أمي تصب الحليب من الإبريق في وعاء نصف لتر، وكما لو شعرت بنظرتي، استدارت وقالت:
هيا، انهض، وتناول وجبة الإفطار، وأنا سأحمل الحليب إلى آيان، فهو جائع، يقولون: إن الولُد المسكين لا يزال منهكًا.
أكلت بسرعة وركضت إلى آيان، كانت أمي لا تزال جالسة في منزل باباي تتحدث بهمس مع المرأة العجوز التي كانت تنسج الصوف، ومن وقت إلى آخر نظرتا إلى المريض، كان آيان مستلقيًا على فراش خشن فُرش له بالقرب من الموقد، لكنه لا يزال يرتعش تحت لحاف رث مصنوع من الرقع،كان وجهه متورمًا من الضرب، وعلى وجنته كدمة زرقاء ضخمة.
وكيف حالك؟
سألت بعد أن جلست بالقرب منه.
لا بأس!
أجاب آيان محركًا لسانه بصعوبة.
صمتنا، وبشأن ما إذا كان بإمكاننا التحدث، فقط نظرنا بعضنا إلى بعض، وبدأتُ بشكل لا إرادي الاستماع إلى همس الكبار.
ماذا عن ساقه؟ هل قمتم بتقويمها؟
سألت أمي.
من أين! عجوزنا من مساء الأمس يركض كالمجنون، ومن الصباح خرج من جديد، ما الفائدة، وهل في قريتنا مَن يقوم بذلك؟
تذمرت العجوز.
وماذا عن مقوم العظام أصيلبيك؟ يقولون إن بإمكانه أن يعالج.
إيه، لقد غادر أصيلبيك إلى المدينة، كما لو كان عن قصد، عندما لا يكون هناك حظ، لا يكون حظ حتى النهاية، وهذا شقينا الصغير الطيب، (هنا أومأت المرأة العجوز باتجاه آيان) يتسكع في منتصف الليل، كل همّه أن يتسلق قبل الآخرين؛ ليذهب لعبه إلى الجحيم، ونحن مسئولون عنه، عن هذا الفتى المسترجل... لقد سقط على رقبتنا، لو تنتهي الحرب بسرعة، ويعود "أبو"ه، عندها سنموت بهدوء، جميع الأغطية في المنزل أفسدت. في نومه يتبول مثل طفل صغير، على الرغم من أنه يجيد كتابة الرسائل.
قالت المرأة العجوز متكئة نحو أمي.

كانت العجوز صمَّاء، فبدا لها أنها لم تُسمع على الإطلاق، لكن في الواقع كان صوتها المدوي يسمع في كل أرجاء الغرفة، احمرَّ وجه آيان وامتلأت عيناه بالدموع على الرغم من أنني كنت أنظر إلى السقف متظاهرًا بأنني لم أسمع شيئًا، استدار باتجاه الحائط، وسحب الغطاء على رأسه.

آاااه.... الأمراض هي سبب كل ذلك.

قالت أمي بينما كانت تنهض:

- لا بأس، سيأتي الوقت ويتحسن... سأذهب، ربما شيء ما يكسر أسفل ظهري، عمومًا إذا احتجتم إلى أي شيء، فلا تترددوا، عندها سنساعد.

وضعت العجوز بابايا المغزل وذهبت وراء أمي، إما لتودعها، وإما لشيء آخر، المهم أننا بقينا لوحدنا، كانت تعذبني الرغبة في مساعدة آيان بطريقة ما، وهنا اخترعت خطة دقيقة من وجهة نظري.

لا يمكننا التغلب على تورجان، فهو شخص بالغ، ولكن، كما تعلم، ما سنقوم به هو أن نضرب قاسم، عندها سيغضب تورجان، ونحن كثر، ولن يمسك بنا جميعًا، اقترحت محاولًا مواساة آيان.

وما شأن تسارابكا هنا؟ لا ذنب له.

قال آيان وتوجه إلى الجدار.

حسنًا، وليكن، لكنه شقيق تورجان.

قلت مرتبكًا ومتعجبًا من ذكاء آيان الذي لم يستطع تقدير مثل هذا الانتقام.

وتورجان ليس مذنبًا أيضًا.

قال آيان، دون أن يدير وجهه.

ومن هو المذنب إذن؟

سألت متفاجئًا.

الحرب! إنها هي! كل شيء هي.

لا! كان طاعونًا حتى قبل الحرب، كل الكبار يتحدثون عن ذلك، لا تصدق، اسأل من تريد.

الآن لن أدخن حتى موتي.

قال آيان بشكل غير متوقع.

في جميع الأحول تورجان شخص شرير ومجنون بحق.

قلت مواصلًا مثابرتي.

استدار آيان بحذر، وطلبَ قائلًا: "أعطني ذاك المعطف... لا، لا، ليس ذلك، بجانبه... الأسود"، وأشار إلى معطف قديم معلق في مكان محترم.

سحبت الكرسي الوحيد، ووقفت عليه، ونزعت المعطف من المسمار.

أخذ آيان المعطف بعناية، ووضع خده عليه، وفركه بقماشه الخشن، ارتجف أنفه قليلًا.

تفوح منه رائحة الشيح، إنه معطف أبي، لو أنه يأتي بسرعة.

قال بهدوء، ثم ناولني المعطف متنهدًا.

- علّقه في مكانه، وإلا ستراه الجدة وتوبخني، زاعمة بأن هذا الشيء ليس لعبة، وستستمر، وتستمر! ولن تتوقف حتى المساء.

ثم استلقى على ظهره صامتًا يتلمس الكدمة على عظام وجنته، وأضاف:

سيعود أبي قريبًا، أعرف ذلك.

بعد نحو عشرة أيام نهض آيان من الفراش، وبدأ يسير قليلًا، عندما خرج إلى الشارع لأول مرة، أصبح من الواضح لنا أن وضع رجله كان سيئًا.

كما في السابق، جاء آيان إلى مكانه المفضل أسفل الهضبة الثلجية، وشاهد الأولاد المتزلجين من الجانب، راقب بشغف كل حركة من حركاتنا، وإذا حدث شيء مضحك، ضحك من أعماقه، كان سليمًا تمامًا كبقية الأولاد، لكن عندما عرض عليه صادق زلاجته، هزّ آيان رأسه رافضًا رفضًا قاطعًا.

رِجلي تؤلمني.

قال متنهدًا.

في بعض الأحيان كنت أذهب في المساء بعد العشاء إلى منزل باباي، أسير متعبًا بعض ركضٍ طوال اليوم. في معظم الأحيان كان آيان يجلس في هذا الوقت بالقرب من الموقد الحديدي يلقي حزم القش في النار، في أيام الحرب كانت الأمور ضيقة مع الحطب -حافة سهوبنا -وكان علينا أن نحرق القش، وحصل أن يُدرَس القمح بقرص حجري، ثم يبقى قش كبير كالقصب، ترى فيه في بعض الأحيان بقايا الحبوب، القش يتحرق بسهولة، ويذوب في النار بهدوء، في حين، وبالاختلاف عنه، تتكسر السنابل وتطلق الشرر، وعند سماعك للفرقعة المعهودة، تغوص بعصاك في اللهب، وتجرف إلى نفسك سنابل مع حبوب محمصة، ويبدو في هذه اللحظة أنه لا يوجد أي شيء في العالم ألذ من الحبوب المشوية، كثيرًا ما كنت أجد آيان يقوم بذلك.

إذا كنت حاضرا في منزل باباي وقت العشاء، لا يجرؤ آيان على دعوتي إلى المائدة المتواضعة، ويومئ بصمت إلى شجرة اللباد المهجورة بالقرب من الموقد، وفي الوقت نفسه، ينظر بحذر إلى باباي وعجوزه، اختبأت في الركن، ومن هناك راقبت كيف يجري العشاء في هذا المنزل الغريب برأيي، عادة ما كان العجوزان يأكلان تالكان(6) مع الزبدة، وكان الولُد يحصل في العشاء على حبوب القمح المقلية نفسها.

أنت ما زلت صغيرًا، لست مثلنا نحن العُجُز، وبالإضافة إلى ذلك، لديك أسنان قوية.

قالت العجوز بابايا بحكمة.

أومأ آيان، كما لو كان يوافق، وشرب شاي البذور، ثم طبَّ البيالا(7)، وانتقل إليَّ في الركن وسألني بهدوء:

---

(6) تالكان: طحين خشن مطحون محلياً من الدخن المحمص والقمح والذرة.

(7) بيالا– كأس بدون يد، تتسع من الأعلى، تستخدم بشكل أساسي لشرب الشاي.

هل تريد الاستماع إلى حكاية؟ إنها جديدة تمامًا، اخترعتها اليوم، ماذا؟ سوف تستمع؟

وتسأل!

أجبته بسخط.

إذن اسمع... كان هناك ولُد... كان وحيدًا تمامًا...

بدأ آيان، وظهرت اللحظات الرائعة بالنسبة لي.

الحمد لله،لم يعقنا لا باباي، ولا المرأة العجوز، أكلا تالكانهم المنتفخ بالزبدة، وشربا الشاي بمتعة وبكميات مذهلة، ثم انتقل الرجل العجوز المتخم بالشاي إلى السرير، وشقلب الوسائد لفترة طويلة، وتجشأ بسرور، وأحيانًا قال مازحًا:

بمَ تهمسان؟ تتهامسان؟ آه؟ انظر، متآمران! على الأرجح قررتما سرقة ابنة شخص ما؟ تعترفان؟

وتذمرت المرأة العجوز منه بنبرة:

يقولون إن الكلب السيئ ينبح بلا نهاية، ينبح وينبح، وهكذا شابنا: يغمغم، ويغمغم دون توقف،

قبل أن تستلقي، قللت من النار الضعيفة أصلًا في المصباح ذي الخطوط السبعة قائلة:

والكيروسين سينفذ عليكما، أيها المتسكعان، كفاكما ثرثرة.

وأخيرًا سقطا نائمين، ولبعض الوقت عزفنا الحكايات على نغمة شخيرهما، أخرج آيان من جيب سرواله الاحتياطي الثمين من الحبوب المتفحمة، وبعد أن نفخ القشور من كفه، تقاسم الحبوب معي.

لذيذ جدًا، أليس كذلك؟

سأل، وافقته الرأي، على الرغم من أن طعم الحبوب المحترقة لم يثر لدي أي رغبة أخرى غير أن أبصق خفية هذا الطبق "الرائع" بشكل مفرط، في بعض الأحيان تمكنت من إحضار قطعة صغيرة من الخبز الجاف القاسي، توسعت عيناه كقط رأى فأرًا، لكنه حاول أن يأكل بشكل رزين، دون أن يسقط كرامته.

ذات مرة، بعد تساقط الثلوج بغزارة، اقترح أحد الأولاد اللعب بكرات الثلج، اخترنا اثنين كشيخي قبيلة، ثم انقسمنا بالتساوي، وهنا لم يحتمل آيان الذي كان لا يزال يتمالك نفسه إلى الآن، وطلب قبوله في اللعبة.

ما حاجتنا بك، فأنت أعرج؟ لا يمكنك حتى الجري، ما المتعة من اللعب معك؟ أنت بنفسك احكم.

قال أحد شيخي القبيلة.

طفحت عينا آيان بالدموع، استدار بخيبة، وسار مبتعدًا وهو يعرج أكثر، كنت حزينًا جدًا لأجله، لدرجة أنني لم أستطع تحمل ذلك، فركضت خلفه.

آيان، إلى أين أنت ذاهبٌ؟!

هنا، هنا...

هذا ما قاله آيان خوفًا من أن يبكي.

سرت إلى جانبه، وكنا صامتين لفترة من الوقت، هكذا سرنا حتى صرنا بموازاة بيت أصيلبيك المُجَبِّر، هنا تنهد آيان بشدة، وتحولت إلى فناء منزل أصيلبيك، قررت عدم تركه حتى النهاية، وتبعته.

كان أصيلبيك العجوز يقوم بتنظيف الإصطبل من الروث، بعد أن لاحظنا، اتكأ على المجرفة وسأل من بعيد:

ماذا تريدان، أيها الصبيان؟

أرجوك يا جدي أن تفعل شيئًا لقدمي، أريد أن أجري أيضًا.

قال آيان متوسلًا.

وضع المُجَبِّر المجرفة إلى الجدار، واقترب منا، ونظر إلى أقدام آيان.

أخبرني باباي... لكنك أنت نفسك رفضت، الآن، ربما، بعد فوات الأوان: ستبقى ساقك ملتوية، تمتم أصيلبيك متهمًا.

افعل شيئًا يا جدي، أنا حقا أريد أن أجري.

كرر آيان.

إيه، هل تعتقد أنه من السهل وضع المفصل في مكانه؟ سيكون ذلك مؤلمًا لك، أوه، كم هو مؤلم! لو كنت طبيبًا حقيقيًا، لكان الأمر مختلفًا.... أما أصيلبيك فهو مُجَبِّرٌ قروي ليس إلا.

قال أصيلبيك دون أن يحيد عن آيان نظراته الفاحصة.

يا جدي....

شدَّد رفيقي المسكين مرة أخرى.

فليكن، يا صغيري، سأحاول.

سارع أصيلبيك فجأة.

- ادخلا يا ابنا شقيقي إلى المنزل، ادخلا، إيه، أحضري الطعام لابنيَّ شقيقي ليأكلا!

صرخ المُجَبِّر بعد أن تحول إلى النافذة.

وراء الزجاج المظلم ظهرت زوجته وأومأت، وكأنها تقول: سمعتُ.

دخلنا المنزل، خلعنا ملابسنا بحذر، وكنا متصلبين من الإحراج عندما أجلستنا صاحبة المنزل في مكان محترم، وقدمت لنا الطعام مع لبن العيران، اضطررت لتناول الطعام عن شخصين، لأن آيان لم تمرّ قطعة في حلقه. بعد حين ظهر أصيلبيك نفسه.

حسنًا، هل أكلتما يا ابنَي أخي؟

سأل بمرح من المدخل، أومأ آيان.

هذا أمر جيد.

تابع أصيلبيك وهو يخلع كالوشيه (8) .

- أنت يا زوجتي، افرشي لنا بطانية نظيفة... هنا، وأنت، أيها النسر، استلقِ بشجاعة، بشجاعة أكثر! أنت من رغبت، لم يُجْبرك أحد؛ لذلك، يجب أن تكون رجلًا حتى النهاية!

فرك ساق مريضه الصغير المصابة بشحم الليـة، ودلكها لفترة طويلة، شعرت كيف توترت كل خلية من خلايا آيان، كان يراقب بقلق من تحت جفونه نصف المرخية الحركات الرشيقة ليدَي أصيلبيك، ورفع رأسه ليرى بشكل أفضل ما كان يفعله بقدمه، وأبقى رأسه على هذا النحو حتى تعبت رقبته، أما المُجَبِّر فقد كان يدلك ساقه ويتحدث محاولًا صرف انتباه آيان، وفجأة قام بحركة غير محسوسة بالنسبة لي، لقد خمنت ذلك فقط لأن آيان صرخ كالمذبوح:

أوه! مؤلمة- أوه!

حسنًا، هذا كل شيء.

قال أصيلبيك وهو يمسد المكان المصاب.

ثم أحضرت زوجته خرقة نظيفة لفَّ بها المُجَبِّر قدم آيان بإحكام، وانحنى إلى الخلف متنعمًا بعمل يديه، قائلًا:

جميل، آه! الآن سيحسدك جميع الأولاد.

وأضاف بشكل جدي:

- لنأمل في الأفضل، وعلى كل حال كن حذرًا مع قدمك.

جاء الربيع.

لم يكن لدى الكولخوز ما يكفي من الأيدي العاملة، فذهبنا مع الكبار إلى الحقول. في البداية بدت مهمتنا بسيطة: الجلوس على الثور المربوط بالمحراث، ومن وقت لآخر حثَّه بغُصَين، ومن الخلف جلستْ بقوة على المحراث النسوة، لأن أزواجهن ذهبوا إلى الجبهة، ولم يكن هناك أي شخص آخر للقيام بهذا العمل.

بدأنا بالحرث مبكرًا في الصباح، سارت الثيران ببطء في الأرض الرخوة الذائبة ساحبة المحراث خلفها، وتبعت النساء المحراث، وخلفهن امتد أثر أسود كثيف من طبقة التربة المقلوبة.

ها هي شفرة المحراث تغوص بشكل أعمق مما ينبغي، فيتوقف الثور بعد أن أصبح غير قادر على التغلب على الحمل الإضافي، فقد خرج من فصل الشتاء هزيلًا منهكًا، لأنه في فصل الشتاء أيضًا حمل القش والحبوب، والآن يقف مرتجفًا قليلًا من التوتر، ومطلقًا اللعاب الجائع، وهنا يبدأ عمل الصبي الجالس على ظهره.

هيا، سر!

يصرخ الصبي ويضرب الثور بالقضيب على ظهره وعلى أردافه التي لم يكد يتخثر فيها الدم من السحجات

(8) كالوش: خف مطاطي يلبس فوق الحذاء العادي.

السابقة.

يجتهد الثور بآخر ما لديه من قوة، ويواصل جر المحراث إلى العقدة التالية، وهكذا من الصباح حتى المساء تصرخ حتى يبح صوتك، تجلس على الظهر العظمي الحاد للثور، يجف حلقك من الصراخ، ويداك متدليتان من الثقل، ومعدتك خاوية، ورأسك يعاني الدوران من ذلك كله، ومن خلف ظهرك تسمع توبيخًا هادئًا متعبًا:

يا بُنَيّ، ما بك؟

وترفع السوط مرة أخرى، ينتعش الثور من الضربة، لكن وتيرته لا تزال بطيئة وكسولة، تريد أن تنزل إلى الأرض، وتبكي، وتضرب على الأرض بقبضتيك، المرأة التي تسير خلف المحراث تخمن حالتك، تأخذ السوط من يديك، وتثنيه، وتقود بنفسها الدابة، وتقول لك بحنان:

تمسك بشكل أقوى، يا بني، واحذر من أن تسقط.

تحت عينيها دائرتان شاحبتان من التعب، خطاها ليست ثابتة، وأصابعها ترتجف، لكنها بمجرد أن تبدأ إحدى النسوة أغنية، حتى تبدأ هي في الغناء:

أوه، كم هو شاهق جبل كوكشي،

كم هو صعب تلقي خبر من عزيزٍ،

بعيدٍ.

ينضم إليها من المحراث الثاني، ثم من الثالث، وتنتشر الأغنية بهدوء في الحقل، مثل تنهد حزين يخرج من الأعماق الخفية للروح.

هذه الأغنية حزينة حزينة، تمسك بحناجرنا، فتأخذنا الشفقة على النسوة، وعلى أنفسنا، وعلى الدابة التي لا ذنب لها، لكن الكبرياء الذكورية لا تسمح لنا بالبكاء.

هذا ما قاله آيان بعد أول يوم عمل، عندما كنا مستلقين بلا تحرّك في المخبأ:

كل شخص يجيد البكاء، إن كنت رجلًا حقيقيًا، تمالك نفسك.

كوخنا معتم وأسود كالكهف، مصباح الكيروسين بضوئه الخافت لا يغير الأمور فيه، لدرجة أننا لا نرى عشاءنا، ولا نعرف طبخة التلكان إلا من خلال التذوق، بعد الأكل نستلقي مباشرة بملابسنا على طبقة رقيقة من القش تحل محل السرير، ونغفو على الفور، يبدو لنا أن النوم يمتد لمدة دقيقة فقط، ما إن تطبق جفنيك، حتى يصيح القائد تورجان وهو يمد برأسه داخل الكوخ:

إيه، أيها الأشقياء! نهوض!

صوته أجش، لأنه في هذه الأيام يتشاجر أكثر بمرتين من المعتاد، وها هو الآن يهز أكتاف الجميع تقريبًا، يصرخ في آذانهم، يسحب جسمك مثل قطعة قماش إلى المخرج، وكل شيء يتكرر من جديد، أنت مرة أخرى على الظهر الحاد للدابة، وتصيح من جديد:

هيا-ا! هيا-ا -ومرة أخرى ترفع السوط وتضرب الثور حتى تخدر يدك.

مع وقت الغداء تبدأ في النعاس من الإرهاق والجوع، وتغفو، تطير إلى الأرض على رجليك المتراخيتين. عندها يتوقف الثور، سعيدًا بالاستراحة، وتتوقف المرأة، ثم تقترب منك والشفقة على وجها، تشتم الحرب وتساعدك على الوقوف على رجليك، والتسلق على ظهر الدابة الحاد.

آيان أيضًا لم ينجُ من مثل هذا القدر، لكن بالنسبة له انتهى كل ذلك بشكل سيئ للغاية، صرخ وصمت، مدركًا أنه على ما يبدو حتى نهاية حياته كان مكتوبًا عليه العذاب مع رجله المصابة، استلقى ملتويًا، وطلب عدم لمسه عندما أراد أحد البالغين إزالة تشوكايه(9) ، رفعوا آيان ونقلوه إلى كوخ القائد، وتركوه في رعاية الطباخة ريثما تصل أول عربة.

لم تمر ساعة حتى هرعت الطباخة مندهشة، ونادتني جانبًا وهمست:

أي طبعٍ لدى هذا الولُد! صغير، ولا تتصور الشيء الذي قام به؟ كاد أن يخنق نفسه! نعم، نعم، لقد رأيت ذلك بنفسي، نظرت إلى الكوخ بعين واحدة، فإذا به يمسك بحجرته ويضغط عليها، الله يعلم كم خفت، "لماذا تفعل ذلك، ماذا بك؟" تخيل، عندها أغلق عينيه وتظاهر بأنه نائم... ولُد مسكين! أخشى عليه، لو أنك تكلمه.

هرعت إلى الكوخ بكل ما أوتيت من قوة، وخلفي جرت الطباخة لاهثة وواعظة:

-قل له: من منا مرتاح البال الآن؟ البلاء عامّ على الجميع، هذا يشغله أمرٌ، وذاك يشغله أمرٌ آخرُ. قل له أيضًا إنه لا ينبغي فعل ذلك.

كان آيان مستلقيًا على ظهره مغمض العينين.

آيان! آيان!

ناديته هامسًا، وجلست عند رأسه، فتح عينيه وقال وهو ينظر إلى السقف:

أتعرف، أردت أن أموت، ولكن لماذا أنا هكذا، أفكر؟ ثم تذكرت أبي...

لم ينهِ آيان كلامه، أدخل أنفه في قبة قميصه المفتوحة، وقال وهو يبتسم بشكل ضعيف:

كذلك تنبعث منه رائحة الشيح، مُرَّة مُرَّة... سيأتي أبي، وسيخترع شيئًا ما... سيأخذني إلى المدينة، هناك أطباء في معاطف بيضاء اللون... سيقول لهم: "عالجوا ابني"، وسيعالجونني بشكل يسمح لي بالجري والقفز بقدر ما أشاء، ولن يؤلمني شيء، ثم سيصحبني إلى المدرسة...

ابتعد آيان في حلمه، وبدأ يتحدث كيف سيبدأ مع والده العيش عندما يعود، واستمعت إليه متناسيًا كل شيء؛ لأن ذلك كان مثيرًا للاهتمام، مثل الحكايات التي يخترعها.

سترى: الحرب ستنتهي قريبًا، وسيأتي أبي، سيعود فور هزيمتهم للفاشيين.

قال بحزم، بدون أي تحفظ صدَّقته في أن والده سوف يعود قريبًا، أردت حقًا أن يأتي هذا الرجل الغريب إلى قريتنا، وينهي وحدة صديقي.

(9) تشوكاي: حذاء بسيط من الجلد غير المدبوغ.

في المساء وصلت عربة تحمل بذور البذر، وبعد تفريغها أخذت آيان إلى القرية.

ماذا أقول، لقد كانت الطفولة صعبة عليَّ، وعلى جميع أقراني، اندلعت المعارك في مكان ما في الأراضي البعيدة (كان من الصعب علينا أن نتخيل هذه الأراضي المغطاة بغابات كثيفة وتشغل سهوبًا ليست كسهوبنا)، لكن الحرب كانت دائرة في كل مكان، وكان لدينا جراحنا، الكبيرة والصغيرة، التي شفيت فيما بعد، لكن أثرها حتى يومنا هذا يذكر بنفسه، ربما لا يوجد شخص في قريتنا نجا من المصيبة.

بعد تورجان عاد كثير من الأشخاص من الجبهة، جالبًا كل منهم علامة فظيعة من الحرب، منهم من جاء من دون ساق، وآخرون من دون عيون، وغيرهم، مثل تورجان، من دون يد، لكن ظهورهم مثَّل في كل الأحوال عيدًا للقرية بأكملها، لأنه بدلًا من الآخرين الذين ذهبوا إلى الجبهة، جاءت جنازات.

لكن الحياة كانت قاسية بشكل خاص على الفتى آيان...

أذكر ذاك اليوم الحار في منتصف الصيف، عندما وصل إشعار عن وفاة والده، كانت الحرب قد وصلت إلى نهايتها، وفي ذلك الوقت، لم يكن هناك سوى حديث عن أن كل من بقي حيًا على وشك أن يعود، ومن ثَمَّ بدا لي هذا الحدث مأساويًا بشكل خاص.

ركض آيان وراءنا في الشارع الترابي ضاغطًا على ساقه المصابة، وممسكًا بسرواله الفضفاض على جسده الهزيل، وصاح:

إيه، أنتم! انتظروني؟ لدي حكاية جديدة؟ حتى لا يمكنكم أن تتصوروا كم هي ممتعة، إلى أين أنتم ذاهبون، يا أولاد؟!

ونحن في خضم اللعب لم نُعِره بالًا، بليد، ضعيف، كان عبئًا علينا في مثل هذه اللحظات، كان متأخرًا عن شلتنا التي كانت تطير بشكل محموم في الشارع، ووصل وحيدًا تمامًا، هنا ظهر رجل من مجلس القرية، يقولو: إن الرسول تردد طويلًا دون أن يعرف كيف يسلم الإشعار، نظر إليه آيان بقلق، ولم يتمكن من فهم ما يريده الرجل، وأخيرًا وضع الرسول الورقة الرهيبة بيد آيان، ونزل مسرعًا، بل راكضًا.

رأينا من بعيد كيف قرأ آيان الورقة، ثم قرأها المرة تلو الأخرى، كما لو أنه لم يصدق عينيه، ثم طواها أربع مرات، وخبأها في جيبه، وبدأ يتابع صخبنا كما لو أن شيئًالم يحدث، في ذلك الوقت لم نشك في الأمر، ولكن عندما أصبح وجهه هادئًا بشكل مخيف، شعرت أن هناك خطبًا ما.

حسنًا، وداعًا، سأذهب.

قال آيان وجرَّ نفسه إلى ضواحي القرية.

لا أرغب في العودة إلى المنزل.

قلتُ ومشيت خلفه، لكنه بدا كما لو أنه لم يسمع، وكأنه مفصول عن كل ما كان يجري حوله.

ذهب إلى الإصطبل؛ حيث كان الوضع خانقًا من رائحة الروث الجديد، وكان طنين الذبابات البدينة

السوداء مضجرًا، تحت السقف خلف العارضة، في عش العصفور، زقزقت الفراخ، بعد ضوء الشارع الساطع، بدا الإصطبل مظلمًا بشكل حالك، وقفت لفترة من الوقت لأسمح لعيني أن تعتاد، وسرت في الممر بين الزرائب مخرجًا يدي لأي طارئ.

جلس آيان في الزاوية البعيدة على كومة من القش، مخبئًا وجهه بيديه، ثم مسح عينه، وخرج من الإصطبل، من جديد ذهبت وراءه، كانت عيناه وأنفه متورمة ومحمرَّة، لكنه ابتسم وقال:

الجو حار جدًا، آه؟

منذ ذلك الحين مر أسبوع.

في أحد الصباحات قدت ماعزنا إلى المرعى، وعندما عدت إلى القرية، شاهدت رجالًا متجمهرين عند بوابة منزل باباي، وعربة وضعت عليها صرَّة ممتلئة بالمتاع المنزلي، كان الرجال يتحدثون بصوت منخفض وينظرون إلى البوابة.

آيان يغادر إلى دار الأيتام.

قال يسيكباي الذي كان يقف على الطرف.

ماذا تقول؟ إلى أين هو ذاهب؟

سألت، دون أن أستوعب أي شيء في البداية.

يقولون: إنهم سينقلونه إلى المحطة، ومن هناك بالقطار.

خرج آيان من البوابة مرتديًا لباس الحروج، رافقه باباي مع زوجته العجوز والفارس، صاحب العرب،. وأثناء سيره ألح باباي على الفارس أن يوصل الصبي حتمًا إلى المحطة.

عانقت المرأة العجوز آيان، وفاضت دموعها، وقالت وهي تمسح الدموع:

كن سعيدًا يا عزيزي، لقد ترعرعت من بذرة طيبة، كان والداك معروفين، وأنت ستصبح كذلك، إن بقينا أحياء تعال لزيارتنا.

اكتب لنا فور وصولك، فأنت متعلم.

قال باباي.

– للأسف لا يوجد مشترٍ الآن، وإلا لبعت البقرة، الآن سآخذها إلى السوق ثم أرسل لك المال.

لماذا تبيع البقرة؟

تفاجأت المرأة العجوز، سيكبر آيان، وستكون مفيدة له في المزرعة، لا تستمع يا بنيَّ لجدك، لقد فقد عقله تمامًا، عندما تأتي، ستكون لديك بقرة مع ذريتها.

ما حاجتي للبقرة!

قال آيان، والتفت إلينا، وبدأ يودعنا.

سأكتب رسائل لكم، للجميع! لكَ، ولكَ....

قالها مصافحًا، ثم صعد آيان إلى العربة، وتلمس السائق الحصان.

هيا، اذهب!

تمسك يسيكباي بالعربة وصاحب آيان مودعًا إلى نهاية الشارع، وقفنا هناك لفترة طويلة ننظر إلى العربة تبتعد مع آيان مثيرة غبارًا رماديًا خلفها، تقلص خياله تدريجيًا، خلع قبعته ولوّح لنا مودعًا، ثم اختفي نهائيًا خلف المنعطف.

هيا نلعب يا أولاد!

قال قاسم تسارابكا، كما لو أنه لم يحدث شيء.

أشعر بصداعٍ في رأسي.

قال صادق وذهب إلى بوابة منزله.

أمي تناديني لسبب ما.

قال ولُد آخر من الأولاد.

في ذلك اليوم قبل المساء بوقت طويل تفرقت الشلة، تذكرنا آيان وحكاياته لفترة طويلة، اجتمعنا في بعض الأحيان في أمسيات الشتاء الشديدة مسترجعين كل كلمة قالها ذات.

مؤخرًا، مرة أخرى، كما في طفولتي، خرجت إلى شارع قريتنا، وبدا لي فجأة أنه في ظل قبعة جبل يشكيولميس الشعثاء، كان الوحش ذو العين الواحدة، الذي واجهه الفتى اليتيم الشجاع، نائمًا، يهزه بشخيره،

هل مصير هذا الفتى سار بشكل جيد، أم إنه يقاتل من جديد شخصًا ما؟

هبَّ النسيم حاملًا معه رائحة هضبة الشيح المرَّة المألوفة، وفكَّرت: إذا كان آيان على قيد الحياة، فإنه سيأتي بالتأكيد إلى هنا، لأن رائحة الشيح المرَّة ستغريه عاجلًا أم آجلًا.

كابيدش جوماديلوف

(ولُد عام 1936)



- من أهم كتّاب النثر في الأدب الكازاخي، ولُد في الصين، والتحق بكلية فقه اللغة بالجامعة الوطنية الكازاخية، وأنهى دراسته بها عام 1965، وفي الفترة من 1965 – 1967 عمل كبيرًا للمراسلين بمجلس تحرير جريدة "الأدب الكازاخي"، وفي الفترة من 1967 – 1976 عمل كبيرًا للمحررين بقسم النثر بدار نشر "جازوشي".
- بين عامي 1976 – 1981 أصبح كبير محررين باللجنة الحكومية الكازاخية لشؤون الطباعة وتجارة الكتب، وبدءًا من عام 1981 وحتى يومنا هذا يعمل بالمجال الإبداعي.
- ظهرت أول أشعاره عام 1954في صحيفة شينجيانغ، ونُشرت أولى قصصه القصيرة في عام 1956 بمجلة "شوغيلا" تحت عنوان "قوسقزح".

- من بين الكتب التي صدرت له: "فترة الشباب السعيدة"، "وتطير الطيور"، "بعض مراحل حياة الإنسان"، "البيت الذهبي"، "أرجاماكي"، "سكان المدينة الواحدة"، "المصير"، "أرض الأجداد"، "العالم الرائع"، "الجسر الممتد فوق النار والمؤدي إلى الجنة"، "الحرب الأبدية" وغيرها.
- باعتباره كاتبًا كبيرًا، فأنه يعرف التاريخ والعادات والتقاليد الكازاخية جيدًا، وهو متخصص في مجال الواقعية النقدية.
- حصل على جائزة الدولة من جمهورية كازاخستان عام 1990، وحصل على لقب فنان شعب كازاخستان عام 1998، وقد حصل على جائزة "مختار أويزوف" الأدبية على روايته "آخر الرحل".

موسيقى الشارع

ترجمة د. محمد رياض غلوش

هبط أيدار بيك كعادته من الحافلة في أحد الشوارع المركزية للمدينة، وكان يحمل على ظهره جرابًا يحوى آلة الأكورديون، وعلى كتفه الأيمن حقيبة سفر، كانت يداه مشغولتين فقد كان يرتكز بهما على مقابض عرضية لعكازين، ظهرت الشمس بالكاد من خلف المباني الشاهقة، توقف قليلًا بدون أن يلمس الأرض بساقه اليمنى نصف المنحنية عند الركبة، واستنشق ملء صدره هواء مايو الخفيف الذي لم يتشبع بعد بدخان غازات العادم، غادر المكان، واندفع إلى الأمام، مثل حصان مقيد، كان المكان الذي كان عليه الذهاب إليه غير بعيد عن محطة الحافلات، ضغط قليلًا على ساقه السليمة، وسار وهو يعرج عبر طريقه المعتاد، وهبط إلى النفق الأرضي.

في النفق الأرضي الذي يتدفق خلاله التيار البشري طوال اليوم بلا انقطاع، كانت هناك الكثير من الأكشاك والمحلات التجارية، هنا يعمل صانع الأحذية الذي يصلح الأحذية، والصانع الذي يرمم الصور القديمة ويضعها في إطارات، ومناضد تبيع الصحف والمجلات والكتب وجميع الأشياء الصغيرة اللازمة... وعندما مر أيدار بيك بجوارهم، وهو يطرق الأرض بأرجل عكازيه، كان "جيرانه" يومئون برءوسهم، ويلوح بعضهم له بأيديهم علامة على الترحيب به، غير أنه لم يتوقف بالقرب منهم لحظة واحدة، واتجه إلى ركن خال شبه مظلم في النفق؛ حيث تكتنفه رطوبة باردة، وعندما وجد نفسه في مكانه المعتاد، ضغط كتفه الخالي إلى الحائط، ونزع ببطء حقيبة سفره، والأكورديون، كان في حقيبة السفر كرسي قابل للطي، أسند العكازين إلى الحائط، وجلس على الكرسي.

بدأ يلتقط أنفاسه قليلا، وأخذ يقبض راحتي كفيه ويبسطهما، فدلك بالتالي أصابع يديه المخدرة من العكازين، في ساعات الصباح كان هناك عدد قليل من الناس، وكان لا يسمع من الأعلى سوى ضجيج السيارات المارة فوق الأقبية الخرسانية للنفق الأرضي، جلس بلا حراك بضع دقائق أخرى، ثم بدأ في تشجيع نفسه ذهنيا: "كفي، يجب أن أبدأ العمل، لم يكن "العمل" بالنسبة له يمثل صعوبة كبيرة، أخرج من حقيبته صحيفة، ونشرها أمامه، ووضع فوقها قبعته القديمة المجعدة، بعد ذلك مد يده إلى الجراب الواقف بجواره،

كان داخل هذا الصندوق القديم الباهت ذي السطح الرث أكورديون بني أرقط اللون. وبرقة مرتجفة كما لو كان يمسك أثرا مقدسا في يديه أخرجه، ووضعه على ركبتيه، ألقى الأحزمة عن كتفيه، وركض بأصابعه التي اعتادت أن تستخرج الكثير من الأصوات المختلفة على أزرار الأكورديون.

بأي شيء عليه أن يبدأ اليوم؟ تضم قائمة أيداربيك أكثر من مائة لحن ونغمة شعبية كازاخية، وروسية، وتترية، لكنه لن يؤدّيها بشكل عشوائي، ولكن كفنان يؤدّي في حفلة موسيقية، سيختارها وفق قائمته الخاصة، من ناحية أخرى كان كل شيء يتوقف على مزاجه اللحظي، وأحيانًا كان يبدأ عزف ألحان احتفالية، مرحة صاخبة، وجميلة بشكل متقن، وأحيانًا يعزف ألحانا طويلة بطيئة وحزينة. في الآونة الأخيرة، بدأ يأخذ في الحسبان جنسية سكان المدينة وأعمارهم، على سبيل المثال، عندما بدأ يعزف لحن "كاتيوشا " الذي يحظى بإعجاب الجميع على السواء، لم يبق أي من قدامى المحاربين غير مبال لهذا اللحن، ومنذ فترة قريبة، في عيد التاسع من مايو، أمضى طوال اليوم يعزف فقط ألحان أغاني الجبهة، بدءا بـ "كاتيوشا"! وفي الأعياد، عندما يكون مزاج الناس دومًا سعيدًا وممتلئًا بالحيوية، يحصل منهم على مبلغ مالي جيد... والآن ظهرت على لوحة عقله بعض الكتابات، مثل "فالس الحب"، "الطيور – الطيور"، و"أمواج الدانوب" و"ليالي موسكو"، و"جاليا بانو"، ولكن، بعد أن لاحظ أن مجموعة من الشباب يهبطون على الدرج، عزف بسلاسة على الأكورديون " آق بانتيك". (1)

اليوم يسير كل شيء على ما يرام، كان المارة بجواره ذهابا وإيابا يلقون في قبعته بين الحين والآخر خمسة أو عشرة تينجي(2) ، وأحيانا يلقون فيها عشرين قطعة تينجي معدنية، يأتي إلى هنا أشخاص مختلفون: يلقي بعضٌ بالمال، ويمرون بسرعة كما لو كانوا يريدون التخلص بسرعة من الهموم، في حين يبقى الآخرون، ويستمعون لبعض الوقت إلى أصوات الأكورديون، وهناك من يستمعون إلى الألحان ببطء، كما لو كانوا يفحصون باهتمام نوافذ الأكشاك أو الكتب المرصوصة على الرفوف المجاورة له... وكان من العار أن يطلبوا عملات معدنية صغيرة من المتسولين؛ لذلك كان بعض المارة يحفرون في جيوبهم بحثًا عن العملات المعدنية الصغيرة، والتي أحيانا كانوا لا يجدونها، ولعدم رغبتهم في التخلي عن أوراق البنكنوت كانوا يباعدون بين أياديهم بنوع من الذنب علامة على الدهشة وقلة الحيلة، بطبيعة الحال، لا يلوم أيداربيك أحدًا على هذا، إنه يدرك أن الكثيرين منهم ليسوا أغنياء، بل يعيشون عيشة الكفاف، ويعلم أن مستوى المعيشة لدي الناس مختلف، فهناك شخص غني، وشخص فقير، وكان أضداد الشحاذين هم الأغنياء الذين لديهم محافظ مليئة عن آخرها، لكن أولئك لا يهبطون قط إلى الأنفاق طوال حياتهم، وهم الآن يهرعون بسرعة كبيرة مستقلين السيارات على الطرق الإسفلتية فوق هذه الأقبية.

في البداية، كان أيداربيك يشعر بالخجل الشديد مما كان يكسبه، وكان على استعداد لحرقه من الخجل،

(1) بانتيك: الأبيض.

(2) تينجي: عملة كازاخستان.

لكن مع مرور الوقت، اعتاد على وضعه، وعثر على تبرير ملائم لذلك الوضع، "إنني لست متسولًا يطلب المال بيد ممدودة من كل قادم، وإنما موسيقي شارع يعيش من بيع موهبته"، طمأن كبرياءه ذهنيا، ومع ذلك، إذا كانوا، على كل حال، يدفعون مالا مقابل فنك، فما الفرق الذي يمكن أن يكون بين أن تؤدي أمام الأشخاص على خشبة المسرح أو الجلوس في ممر تحت الأرض؟! الفرق في أن سعر التذاكر في قاعات الحفلات الموسيقية أكثر تكلفة قليلا، ولكن هنا أرخص، وتقريبا بالمجان، ومن الممكن حتى أن تسمع ولا تدفع شيئًا مقابل ذلك، وإذا كانت الجمعية الموسيقية تقوم بعد لصق الملصقات في الشوارع ببيع التذاكر في مكاتب بيع التذاكر الخاصة بها، فإن مكتب تذاكره هو القبعة القابعة أمامه، أما من حيث عدد المشاهدين، فإن هذا المكان يمكن أن يفوق أي مسرح عشر مرات.

هذا هو العالم غير الدائم الذي حول وجهه تجاهك بالأمس واليوم يدير ظهره لك، في وقت ما كان أيداربيك الذي كان معروفا باسم "سينجيرتاوسكي سيري"(3) ، لكنه الآن يجلس هنا، ويحيا حياة فارغة! كان لديه منصب مرموق بوصفه مديرًا لبيت الثقافة، ولُديه نادٍ للسيارات، وتحت إمرته بعض الأشخاص، بما في ذلك مشغل السينما، وأمين المكتبة، وحارس، وآخرون، وفي المنطقة كانت هناك حلقة النشاط الفني للهواة، وفي أيام السبت كان يقوم معها بتنظيم الحفلات الموسيقية، ولم يكن هناك حدث رسمي في تلك الأيام، أو أي احتفال يتمان دون مشاركته؟ وكان دائما ما يجلس في الصدارة، ويعزف على الأكورديون، ويفرد منفاخه على نطاق واسع... وإذا فكر في ذلك، فإن كل هذا يبدو له الآن وكأنه في حلم.

المثير للدهشة أنه على مدى أربع أو خمس سنوات من هذه الفترة السعيدة لم يبق سوى الذكريات، في البداية، قامت قيادة المنطقة بعد أن وجدت الأسباب والدوافع التي لم تكن مفهومة لأيداربيك بتبديد جميع الممتلكات العامة، وعندما لم يعد لتلك الممتلكات أي وجود؛ فقَدَ الناس دخلهم تماما. وتم حل جميع المجموعات التي كانت متماسكة في وقت ما، وأصبح الناس عاطلين عن العمل، وبعد مرور عام واحد، فقدت سينجرتاى وضع المنطقة، وأصبحت جزءًا من المنطقة المجاورة لها، وأضحى الناس بدون قيادة، وبدون عمل، ولرغبتهم في البقاء على قيد الحياة، تفرقوا في جميع الأنحاء، وكما يقول المثل "يمكن فقط للشِبَاع من الناس القيام بالصلاة والصيام"، ومَن في هذا الوضع يحتاج إلى أغانيك وألحانك، ودار ثقافتك التي علقوا على "أبو"ابها قفل مخزن الحبوب؟

في السنوات القليلة الأولى، قام أيداربيك الذي أصبح بدون عمل بكسب قوت يومه بالعمل بتلاوة الأنخاب في الولائم وهو يعزف على الأكورديون، ولكن الولائم لا تُمَدّ كل يوم، حتى عندما كانت تنعقد، لا يبقى لدى المنظمين لها أي قرش فائض، وأحيانا لا يجدون ما يدفعونه له، وكان عليه فقط أن يستمتع بالطعام والشراب من مائدة الطعام، بالإضافة إلى ذلك، في السنوات الأخيرة،لم يعد الأكورديون يحظوا بشعبيته السابقة؛

(3) كلمة "سيري" تستخدم هنا بمعنى – المغني، الموسيقي، الفنان، غندور، المتأنق.

فقد فضل الشباب عليه في الوقت الحاضر تسجيلات موسيقى الألعاب الشيطانية التي يرقصون عليها وهم يهتزون بشكل محموم، ويتلوون بكامل أجسادهم، ثم توقفوا تماما عن دعوة أيداربيك إلى الولائم، من الجيد أن الراحلة كايشا لم تعش إلى ذلك اليوم الذي أصبح فيه عاطلًا عن العمل، ولم يعد يحتاجه أي شخص، لقد توفيت زوجته قبل بضع سنوات من حدوث هذا الأمر، وكان هذا الموت المفاجئ الذي لا مبرر له شائعا في المناطق المجاورة لموقع التجارب في سيميبالاتينسك، كان الناس الذين يبدو أنهم لم يتعرضوا للمرض أبدًا والذين لم يشتكوا من صحتهم يموتون فجأة بدون أي سبب على الإطلاق، الشيء نفسه حدث مع كايشا، فبينما كانت تجلس أثناء العشاء مع أفراد الأسرة، سقطت فجأة ميتة.

وبعد ذلك، بقي أيداربيك في منزله مع ابنته آيجول البالغة من العمر ثلاثة عشر عامًا، كان الابن البكر يدرس في ألماتي، يا إلهي، من كان يظن أنه سيصبح طالبًا؟! قبل عام من وفاة والدته، قرر الذهاب إلى الدراسة بدون أي مساعدة، وحصل على علامات ممتازة في امتحانات القبول، والتحق بمعهد السكك الحديدية، ولكن بعد ذلك لم يستطع حتى الذهاب إليه! أصبحت الرحلة ذهابًا وإيابًا بالنسبة له مكلفة للغاية، وكانت أسعار التذاكر باهظة جدًا... تفكر أيداربيك في هذا الأمر، حتى إنه سأل نفسه ذات مرة: "هل سأعاني هكذا لفترة طويلة؟ " لم يقرر بشكل نهائي: "لا عجب أنهم يقولون أن "الكلب الجيد لا يظهر موته للعالم"، إذا كنت سأموت فمن الأفضل أن أفعل ذلك بعيدًا عن سينجيرتاي؟ سأكون في أسوأ الأحوال في ألماتي حتى يكون ابني وابنتي تحت رعايتي".

بعد أن اتخذ أيداربيك القرار النهائي، باع بقرته الوحيدة، وحصل على بعض المال، وفي الصيف الماضي، جمع متعلقاته في حقيبة واحدة، وعلق الأكورديون خلف ظهره، وأمسك بيد آيجول، وهرع إلى مدينة ألماتي، بالإضافة إلى ذلك، كان يحدوه الأمل في أنه سيتمكن بطريقة ما من أن يطعم من فنه، وربما سيجد نوعًا من العمل في المدينة الكبيرة، ولكن، كما يقولون، إن كل ما تم التخطيط له في المنزل تدمره التجارة التي تسود السوق، ولم يكن مقدرًا لآماله أن تتحقق أبدًا، بعد أن وصل إلى هنا، جاب ألماتي طولًا وعرضًا، وتوجه إلى كل مكان، وطرق جميع ال"أبو"اب، ذهب إلى جميع مراكز الثقافة بالمدينة والتي كان يعرفها عن طريق السمع. لم تكن هناك أي وظائف شاغرة، واتضح أنه قد حدثت تخفيضات في أعداد الموظفين في كل مكان، ولا يعرف الناس كيف سيعيشون مستقبلا، في كل مكان كان يصطدم بجدار أصم من عدم الفهم.

- لقد قررت أن تطير عاليًا جدًا، يا رجل.

هاجمه مدير الجمعية الموسيقية كما لو كان يريد أن يصب جام غضبه عليه.

- نحن نكسر رءوسنا هنا من التفكير ولا نعرف كيف نوظف الفنانين المشهورين، وليس أشخاصًا مثلك من "مديري النوادي" القادمين من القرية!

بعد ذلك، انهارت آمال أيداربيك تماما كما لو أنهم قد صبوا عليه سطلا من الماء البارد. حتى الوظيفة العادية لم تكن متاحة له ناهيك عن وظائف المؤسسات الثقافية، لم يكن هذا حال القادمين من المدن الأخرى

فحسب، ولكن كان أيضا حال الصناع المهرة ذوي الأيادي الذهبية من أهل المدن الذين كانوا يتجولون في عمليات بحث عقيمة عن العمل... الشيء الوحيد الذي استطاع أيداربيك فعله هو إلحاق ابنته آيجول بمدرسة داخلية، وأقام الابن أيكين في المدينة الجامعية التابعة للمعهد، ولكونه من الطلاب المتميزين دراسيا، فقد كان يحصل على راتب متواضع لم يكن يكفي طعامه اليومي.

أقام أيداربيك في كوخ قديم متهالك خارج المدينة مملوك لأحد أصدقائه، وكان لا بد من ترميمه وإصلاحه، في هذه الأثناء، انقضى الخريف وحل الشتاء، يا إلهي، لا عجب أنهم يقولون إن المصائب لا تأتي فُرادَى، في ذلك اليوم، عندما بدأت الثلوج تتساقط لأول مرة في ألماتي، علم بأنهم في المكتب الذي يقع على مشارف المدينة، يحتاجون إلى حارس، فأزمع التوجه إلى هناك، وأثناء عبوره بسرعة أحد الشوارع انزلق عن طريق الخطأ، وأصيب إصابة بالغة، ولحسن حظه، كان هناك رجل طيب أخذه على الفور إلى الطبيب، ولكنه كان شخصا ذا حظ لا يحسد عليه، وأسوأ ما في الأمر أنه تعرض لكسر في ساقه اليمنى، كان يعتقد لسذاجته أنه سيبقى في المستشفي حتى تلتئم ساقه، لكنهم الآن في المستشفيات قد امتنعوا منذ فترة طويلة عن إبقاء المرضى في المستشفي لعدة أشهر، بعد أسبوع من وضع الجبس على ساقه، قال له الأطباء وكأن قصرًا فخمًا به سرير ناعم ومريح ينتظره:

- الآن يمكنك المغادرة والعودة إلى المنزل، سيتم إزالة الجبس فقط في غضون شهرين. حينئذ يمكنك الاتصال بنا!

"لم يمكنّي فعل شيء، واضطررت إلى المغادرة."

آه كم عانى حينئذ من هذه الساق! ولا عجب أنهم يقولون: "إذا لم تكن هناك سعادة فإن الشقاء يدلى بدلوه"، وقد فتحت له المعاناة التي جلبها الشقاء له الطريق لممارسة عمله الحالي، وقد بدأ كل شيء بالنسبة له بشكل غير متوقع وعن غير قصد تمامًا.

في ذلك اليوم، عندما خرج من المستشفي، كان يسير ببطء وهو يعرج معتمدًا على عكازين قاصدًا محطة الحافلات للذهاب إلى "شقته" خارج المدينة، لم يكن من السهل عليه السير على العكازين، خاصة إذا كان الشارع زلقًا، وقبل وصوله إلى محطة الحافلات بعدة أمتار انزلق العكازان على القشرة الجليدية، وسقط، وطار بعيدًا إلى الجانب، اخترق ذلك الألم الذي لا يطاق ساقه المكسورة لدرجة أنه كاد يفقد الوعي، عندما سقط، ارتطم بشجرة حور، ولم يستيقظ لفترة طويلة، وأصبح غير قادر على رفع غطاء رأسه الذي طار على الأرض، لقد سقط المالاخي(4) القديم الذي حاكته منذ فترة بعيدة زوجته الراحلة كايشا من فراء المرموط السنجيرسكي، وانقلب رأسًا على عقب، على مسافة قريبة، على الرصيف مباشرة.

ثم حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد ألقت امرأة روسية مسنة كانت تعبر الطريق في الملاخاي بعملة معدنية

(4) المالاخي – غطاء رأس ريفي

قدرها عشرة تينجي، وألقى رجل عجوز كان يسير وراءها عملة معدنية قدرها خمسة تينجي... "لابد وأنهم اعتقدوا أنني متسول يطلب الصدقة!" فكر أيداربيك بنوع من الضيق وهو يكابد الشعور بالذل "هل حقا إنني بهذا المظهر أشبه المتسول؟"

لكنه ترك الملاخاي في مكانه، ويبدو أن هذا الوضع أصبح بالنسبة له مضحكا للغاية، لدرجة أنه ظل يتابع باهتمام ما سيحدث بعد ذلك، فما الذي يمكن أن تفعله إذا ما أصبح جميع الناس رحماء وطيبين، أم إن ساقه المغطاة بالجبس والعكازين قد جعلت المارة يشعرون حياله بالشفقة، لكن في ذلك اليوم أصبح لديه في القبعة خلال نصف ساعة حوالي ستين تينجي، كان ذلك مبلغًا غير قليل من المال في ذلك الوقت؛ إذ يستطيع أن يشترى به رغيفين من الخبز أو لترين من الحليب، وهذا يكفي الشخص الحريص تمامًا لأن يكون ممتلئ البطن مدة يومين... وهنا خطرت فكرة على بال أيداربيك: "إذا لم يكن لديك ما تأكله؛ فإنه يمكنك العيش في مدينة كبيرة، على هذا النحو، بأن تطلب الصدقات! من يعرفني هنا؟ وأمام من هنا سأشعر بالخجل؟"

لذلك، سار أيداربيك، بإرادة القدر، في مسار الرجل المتسول، وبعد أن تمكن قليلا من السير على العكازين، ذهب إلى محطة السكة الحديد حاملا الأكورديون على ظهره، كان هناك الكثير من الناس، ولم تكن الإيرادات سيئة، كانت تكفي لشراء الخبز والشاي، بل تكفي حتى لطعام الأطفال. وكان كل عشرة أيام يعطي المال إلى أيكين وأيجول. لكن كان هناك شيئًا واحدًا سيئًا فقط، فقد كان هناك الكثير من أولئك الذين يحافظون على النظام، كانت الشرطة تطرد باستمرار من هناك أشخاصًا مثله، وربما، لم تكن ترغب في أن يشاهدهم الضيوف الأجانب الذين كانوا يجيئون إلى هنا.

كان هناك خطر واحد آخر: كان هناك الكثير من الناس الذين يجيئون إلى هنا، ويغادرون من هنا من منطقة سيميبالاتينسك، وكان من الممكن أن يقابل هنا مصادفة أحدًا من معارفه.

ذات مرة كادت أن تحدث مشكلة، فبمجرد أن اخترق أيداربيك حشدًا من الناس بصعوبة، ودلف إلى الرصيف، كاد يلتقى وجهًا لوجه مع أحد مواطنيه من سينجيرتاي، وهذا الشخص الذي كان يتمتع في السابق بمكانة مرموقة لكونه كان منظمًا حزبيًا في المزارع الحكومية، فيما يبدو، أنه يعمل الآن في تجارة الجملة والتجزئة، ولأن ذلك الشخص كان يحمل في يديه حقائب ثقيلة، وصناديق، فإنه لم يلحظ أيداربيك، نظر إلى الخلف بحدة، ولكن لحسن الحظ، كان كل شيء على ما يرام؛ ذلك أن ذلك الشخص لم يكن يعرف كيف يغلق فمه ولا ينسجم معه أبدًا، وإذا رآه حينذاك، فإنه لن يألو جهدًا في إخبار سينجيرتاي كلها أن أيداربيك يتسول في مدينة ألماتي... ومنذ ذلك الحين، لم يعد يذهب إلى محطة السكك الحديدية. وصار يتسكع في محطات الحافلات والأسواق داخل المدينة، وفي الممرات الأرضية مثل هذا الممر.

كان هناك خطر آخر حاول أيداربيك أن يتجنبه بكافة السبل، وهو أن يراه أبناؤه في تلك الحالة، كان يعاني أشد المعاناة أنه وصل إلى هذه الحالة البائسة، لذا لم يرد أن يضايق ابنه وابنته العزيزين اللذين يقوم بحمايتهما كما يحمى عينيه، لقد كذب عليهما، فقال إنه "حصل على وظيفة حارس في أحد المستودعات".

وكيف لطفليه أن يعرفا؟ إنهما يصدقان ما يقوله لهما... أما هو فقد وصل إلى حالة من اليأس لدرجة أنه توقف عن الخوف والخجل من الناس، وفي الواقع، لماذا عليه أن يكابد الشعور بالذل والعار؟ فهل هو يحيا حياة طيبة ويطلب الصدقة؟ فليس وحده من تعرض لهذه المحنة وإنما تعرض لها الكثير من الناس، وما هو الشيء المخجل في أنه لا يخفي حاجته ويسأل الناس المساعدة؟ إنه لا يسرق ولا يسلب المال من أحد، إنه يقبل الصدقة التي يعطيها له الناس طواعية، إن السرقة خطيئة، أما العطاء فهو صدقة من الناس لغفران الذنوب، وكم من الناس يكفرون عن خطاياهم أو يحصلون على مكافأة مقابل هذا العمل الذي يحبه الله بفضل الصدقات التي أعطوها إياه، وإذا كان الأمر كذلك، فإنه يتبع طريق الله، إنه خادم الله، إنه يجمع نوعًا من الرسوم والضرائب...

بدأ أيداربيك الذي أعطى الشرعية بهذه الطريقة لعمله يشعر بالذنب من شيء واحد" إن ما أفعله لا يعد عملاً شريفًا" فكر، وعَدَّ نفسه خاطئا أمام الله، وكان يعتقد ذلك، لأنه منذ ثلاثة أشهر، أزال الأطباء الجبس عن ساقه، وكما قالوا فإن العظام في مكان الكسر قد التأمت بشكل طبيعي، والتحمت مع غيرها بشكل جيد، وهو نفسه يعتقد ذلك، إن ساقه تؤلمه قليلًا بعد فترة طويلة من المشي، لكنه هذا لا يسبب له انزعاجًا كبيرًا، في المنزل يمشي بدون عكازين، إنه يعتمد عليهما فقط في الأماكن العامة عندما يخرج إلى الشارع، وقد اعتاد بالفعل على ذلك، وإذا سار بهذا الشكل، فإن هذا يناسب عمله تمامًا، إن العكاز هو سلاحه الفعال، الذي يبرر وضعه الحالي، وأولئك الذين يحصلون على المتعة الحقيقية من الموسيقى قليلون جدًا في الوقت الحاضر، ولكن عندما تمشي معتمدًا على عكازين، فإن ذلك يثير دائمًا الشفقة والتعاطف لدى الجميع.

وعندما كان أيداربيك يفكر في ذلك "الخداع" الذي يقوم به، كان على استعداد لأن يغوص في باطن الأرض من الخجل، ثم يبدأ بعد ذلك في تهدئة نفسه: "لكنني بالفعل كسرت ساقي، وإنني لا أرى أي خطأ في أنني لا أزال أسير قليلًا على عكازين"، لقد أتيحت له الفرصة ليرى الكثير من الناس، ووجد الكثير من المخادعين غير الشرفاء والكذابين بين المتسولين والشحاذين! وهم كل يوم يجدون بعض العذر لأنفسهم.

- لقد احترق بيتي...

- اليوم فقط خرجت من المستشفي.

- سُرقت، ولا أستطيع العودة إلى قريتي!

وعندما يبدءون في البكاء والنحيب، لا تنقبض عضلة واحدة في وجوههم.

ألا يعد سير أيداربيك على عكازين مقارنة بأكاذيبهم الوقحة شيئًا تافهًا؟ الناس لا يكذبون بسبب الحياة الجيدة. لقد قرأ ذات مرة في أحد الكتب أن التسول في الهند يعد إحدى المهن، وأن بعض الناس يتسولون بالفعل في الجيل السابع. ويقال إن هناك من بينهم من يَشُلّون عمدا أبناءهم في مرحلة الطفولة من أجل إثارة التعاطف والشفقة لدى الجميع... فلينقذني الله من مثل هذا التسول المهين الذي لا مخرج منه، والذي ينتقل من الأب إلى الابن.

أثناء التفكير في ذلك، كان أيداربيك جالسًا ورأسه منكس للأسفل، ويفرد بسلاسة منفاخ الأكورديون، ويعزف اللحن اللطيف لأغنية "جاليا بانو"، فجأة شعر أن شخصًا ما يقف بجواره، فرفع رأسه بعد أن انحنى ذلك الشخص فوقه مباشرة، لقد كان رقيب الشرطة الذي كان دائمًا يقوم بالحراسة هنا، إنه شاب كازاخي ذو شفاه منتفخة، وله وجه يشبه وجوه الدونغان(5) .

- حسنًا، ما الذي جاء بك هنا مرة أخرى؟

سأله بغرور وغطرسة، وقد قال له على على الفور "أنت".

- وإلى أين يجب أن أذهب؟ إنه مكاني المعتاد....

- حسنا، وهل الإيراد جيد؟

- نعم، إنني سعيد بما أرسله الله لي!

أومأ أيداربيك برأسه مشيرا إلى حفنة من العملات المعدنية الصغيرة الملقاة في قاع القبعة.

- إنكم تعيشون بشكل جيد!

قال الرقيب ذلك دون أن يحول عينيه السمكية الباردة عن المال.

- إنك لا تزعجون أنفسكم بشيء، ولا تدفعون قرشا للسلطات...

أراد أيداربيك أن يرد على كلامه: "إذا كنت تشعر بالحسد فدعنا نتبادل الأدوار" لكنه لم يقل شيئًا، فما الذي سيُفيده من الجدال مع شخص يملك السلطة في هذه اللحظة.

- حسنًا، استمر في أداء عملك"، وسأعود إليك بعد الغداء.

قال له الرقيب ذلك بينما كان يغادر المكان.

تنهد أيداربيك في داخله بصعوبة، فقد ألمح الرقيب بعد أن تعهد بالعودة في وقت لاحق إلى أن يعدَّ له زجاجة فودكا، وإذا لم ترضه، فسوف تتفاقم المشكلة، ولن يتردد في طرده من هنا. إنه غير قادر على إطعام طفليه، والآن ينضم إليه طفل ثالث، وهذه الحالة تناسب المقولة التالية: "إن الكلب السارق يكون على استعداد لأن يلعق مؤخرة الكلب الجائع".

يبدو أنه حان وقت الظهيرة، فقد أصبح عدد الناس أقل، وكان أحد دلائل ذلك أن شامجون العجوز الذي يبيع الكتب في المكان المقابل له استدعاه بإيماءة من يده.

- أيداربيك، يبدو أنه قد أصابك الجوع، تعال لتتناول الطعام، وتحتسي بعض أقداح الشاي!

قال ذلك وهو يخرج رأسه من نافذة متجره.

عد أيداربيك النقود القابعة أمامه في القبعة، ووضعها في جيبه، وذهب إليه وهو يعرج على العكازين، قبل ذلك تركت له المرأة التترية العجوز التي تعد الغداء لكل من يعمل هنا فطيرتي سمسا(6) امتنانا له على أداء

(5) شعب يعيش في قيرغيزستان وجنوب كازاخستان وأوزبكستان.

(6) سامسا - فطيرة باللحم، خبز على شكل هلال.

لحن أغنية "جاليا بانو"؛ فأخذهما مع الشاي.

إن العجوز شامجون كازاخي أورالي، وعلى الرغم من أنه لم يتخطَّ السبعين من عمره؛ فإنه كان حليق الذقن، نظيفًا، أنيقًا، يرتدي زيًا مهندمًا ونظيفًا، في السابق، كان يعمل في إحدى دور النشر المحلية، وكان يشغل منصبًا مرموقًا هناك، والآن يبيع الكتب. ويبدو أن التجارة كانت في هذا الأوان ناجحة مربحة، وكان مزاجه جيدًا، وفي زاوية كشكه الصغير؛ حيث يمكن أن يجلس بالكاد رجلان بالغان وضع الطعام فوق أحد الصناديق، وقد وضع في أحد الأطباق شرائح من الخبز وبصل أخضر مقشر، وفي طبق آخر بطاطس في الزي الرسمي وساقا دجاجة.

- تعال، اجلس!

قال ذلك لأيداربيك الذي دخل بصعوبة من المدخل الضيق، وأشار له إلى المقعد الخالي.

في الممر السفلي تحت سطح الأرض الذي لم تزره الشمس، مطلقا كانت المصابيح مضاءة طوال النهار والليل، سحب شامجون سلك إبريق الشاي القصديري من المقبس، وسكب الشاي في قدحين، ثم سحب من مكان ما زجاجة فودكا مفتوحة.

- ما رأيك في أن نشرب مائة جرام؟

سأله وهو ينظر في وجهه بحكمة، وبدون أن ينتظر الإجابة، سكب الفودكا في كأسين بالمقدار نفسه.

- هيا يا أخي، دعنا نشرب في صحتك!

لم يشرب أيداربيك الفودكا منذ فترة طويلة، ليس بسبب أن صحته لا تسمح بذلك، ولكن لأنه حذفها من ميزانيته من أجل التوفير، وهل دعاه أحد ما في الآونة الأخيرة لزيارته؟ بعد أن تذكر هذا، تأثرا جدا وشرب "ماء النار" في جرعة واحدة.

- حسنا، كيف يدرس أطفالك؟

سأله شامجون مع طقطقة غضة، وهو يأكل شريحة من البصل كمقبلات.

- الحمد لله، الأطفال بصحة جيدة، "إنهما الآن الدعم الوحيد بالنسبة لي"، أجاب أداريك وهو يمد يده إلى البصل.

- الحمد لله، كلاهما يتعلمان جيدًا، الابن طالب في السنة الثانية بالمعهد، والبنت في الصف السابع.

- كما يقولون، سيكبر الأطفال عاجلًا أم آجلًا، أما من لديه زوجة فسيكسب الثروة، سيكون الأطفال بصحة جيدة، وسوف تجد مكانك في هذه الحياة!

شجعه شامجون وهو يدفع نحوه طبق أرجل الدجاج.

بعد "مائة جرام"، كان كلاهما مبتهجين بشكل ملحوظ، وشرعا يتحدثان عن كل ما خطر ببالهما.

- لدينا في الأورال يعيش التتار طويلا.

بدأ شامجون يحكي، ثم انتقل إلى موضوع آخر من الحديث.

- ربما أصبح هذا الأمر مألوفا للسمع منذ الطفولة، ولكن عندما أستمع إلى ألحان أغاني " جاليا بانو" و"على طول نهر سارمان " بأدائك، فإنني أشعر في سائر جسدي باسترخاء لذيذ.

- هل صادقت في وقت ما فتيات تتريات؟

- إيه، كان ذلك في أيام الشباب! نعم، الفتيات التتريات لطيفات جدا ومغريات... وكما كتب قاسم أمانزولوف، "شواطئ شاجان ممتلئة بالمروج، وكنت أستلقي على ظهري في وقت الظهيرة "، وفي الأمسيات المقمرة كنا نتنزه مع الفتيات لفترة طويلة على ضفاف نهر شاجان.

قال شامجون وقد تنهد قليلا وهو يتذكر أيام الصبا التي ولت ولن تعود أبدا.

- أيداربيك، كم عمرك؟

- أنا الآن في السادسة والأربعين.

- إنني أراك صبيا! إن ابنتي الكبرى أصغر منك بسنتين فقط.

صاح الرجل المسن بعد أن لوح بيده

- هل درست في الكونسرفتوار أم عملت نفسك بنفسك؟

- معهد الكونسرفتوار؟!

ضحك أيداربيك باقتضاب.

- إنني تخرجت فقط في مدرسة سيميبالاتينسك الموسيقية، كان والدي يعمل مدرسًا في مدرسة، وعلى ما يبدو أنه لم تكن لدي قدرات خاصة تجاه المواد الأخرى، لذلك غرس والدي فيَّ حب الموسيقى منذ الطفولة، واشترى لي دومبرا، وأكورديون.

- نعم، إن هذا موجود في دمك، وإذا لم تكن في دمك القدرة على هذا الفن فلا فائدة ترجى من اشتغالك بالموسيقى.

تحدث شامجون بحيوية وحماس مثل رجل شاب.

- إنك فقط غير محظوظ، وإلا كان بإمكانك أن تعزف في أي أوركسترا، وكان يمكنك حتى إن تعزف على خشبة المسرح في الحفلات الموسيقية المنفردة.

تأثر أيداربيك الذي لم يسمع ولو لمرة واحدة الثناء بحقه في السنوات الأخيرة بهذه الكلمات الدافئة حتى أعماق روحه، قال أخيرًا بعد أن التزم الصمت فترة قصيرة:

- ماذا تستطيع أن تفعل، وهل يمكن الهرب من القدر إذا كان قد حكم علينا بذلك؟

هنا اختنق قليلًا كما لو أن هناك كرة قد علقت في حلقه، وبعد أن سعل، قال:

- كان جدي الأكبر بيك، وقد تمت إدانته فقط من أجل هذا، وفي عام 1928 نفي إلى سيبيريا؛ حيث لقى حتفه، ودفن هناك، وكان والدي مثقفًا ريفيًا عاديًا،كان يعمل مدرسًا... والآن في حين يفرح الآخرون بعد أن اكتسبوا الحرية، أجلس أنا هنا، وأحيا حياة كئيبة!

- لا تيأس!

قال له شامجون ذلك وهو يحدق في عينيه.

- المهم أننا أحرار! إننا لسنا عبيدا لأحد... فكر في مستقبل أطفالك، افعل كل شيء من أجل أن يكونوا سعداء!

هنا تمالك أيداربيك نفسه سريعًا، وتحدث بصوت قوي:

- إن كل شيء على ما يرام ما دام أولادنا لم يصبحوا عبيدًا ولم يسيروا بيد ممدودة! كفي، علينا أن نعود إلى "العمل" مرة أخرى، بالمناسبة، عليّ اليوم أن أدفع "ضريبة" للرقيب.

سارت الأيام ببطء، أخذ آيداربيك يفكر في مصيره فترة طويلة إلى أن قرر في نهاية المطاف التخلي عن العكازين، فمن البديهي أن الاستمرار في المشي متكئًا عليهما يعد أمرًا لا يمت للشرف بصلة، خاصة أن ساقه قد شفيت منذ وقت طويل، ولكن كان هناك شيء آخر، فقد منعه العكازان الملعونان من الحركة بصورة طبيعية، وقد جلب له السفر في وسائل النقل العام متاعب كثيرة، وإذا كانت هناك ضرورة لإعطاء المتسول شكلًا مطابقًا لوضعه، فهناك المزيد من الخيارات اللائقة والمريحة، في وقت قصير، وجد الحل الصحيح، الآن يسير وفي يده عصا، ويرتدى نظارة داكنة، من ناحية، كانت العصا تعد سلاحًا، أما النظارة فكانت تحمي العينين من الشمس الساطعة، إذا نظر إليه المارة قد يظنون أن لديه مشاكل في الرؤية، وهذا بالطبع أفضل. وهو يتسق تمامًا مع التعبير الثابت "موسيقي أعمى".

منذ أن تخلص أيداربيك من العكازين، أصبح من السهل عليه التنقل في المدينة، وأضحى يسير بشكل أكثر ثقة، وصارت خطوته أوسع، والآن لا يجلس طوال اليوم في مكان واحد، وإنما كان يستطيع الوصول بحرية وسهولة إلى أي مكان يوجد به عدد أكبر من الناس، والحقيقة أنه كان يمر يوميا عبر الممر الأرضي، الذي اتخذه مكانًا للجلوس فيه أولئك الأشخاص أنفسهم الذين يعيشون في المنطقة المجاورة له. ، وإذا كان الكثير منهم قد قاموا بإعطاء المتسول المألوف لديهم قطعة نقدية مرة واحدة على الأقل، فإنهم لن يلقوا إليه بالا لفترة طويلة؛ لذلك كان عليه، مثل الراعي الذكي، الذي يبحث كل يوم تقريبًا عن مراعٍ جديدة لقطيعه، أن يقوم بتغيير موقعه باستمرار.

في الآونة الأخيرة صار أيداربيك يتصرف على النحو الآتي: إذا ذهب اليوم إلى السوق، فإنهم يرونه في اليوم التالي في محطة الحافلات، وفي بعض الأحيان يجدونه بالقرب من المساجد والكنائس، حينذاك لاحظ خصيصة مثيرة للاهتمام: يبدو أن المسجد والموسيقى عالمان مختلفان تمامًا؛ لأن رهبان الكنائس وكهنتها كانوا أكثر سخاءً من المريدين والمسلمين المخلصين الذين كانوا يحضرون صلاة الجمعة، لقد نجح نجاحًا باهرًا في عزف الألحان الروسية القديمة عندما كان يقف بالقرب من الكنيسة في عيد الفصح! حينئذ يحصل من ذلك الأمر على مبلغ جيد من المال.

أثناء السير في الشوارع، لاحظ أن هناك في المدينة متشردين أكثر من ذي قبل، فبالإضافة إلى المتسولين

المعروفين له كان هناك حشد كبير من جميع أنواع النصابين، والمحتالين الذين يتسولون المال، وقارئي الكف، وكبار السن من الرجال والنساء الذين كانوا يمارسون الكهانة على الكومالاك. وظهر الكثير من المتسولين من الجمهوريات المجاورة: الطاجيك، الأوزبك، وعندما رأى أيداربيك موجة جديدة من المتجولين الغرباء والمتسولين الذين جاءوا بأعداد كبيرة بحثا عن الطعام، شعر في روحه بهبوط وكآبة رهيبة كتلك التي يشعر بها من خاب أمله في هذه الحياة، لم يشعر بالحزن من جراء أن هؤلاء المتسولين كانوا منافسيه، وأنهم سيحرمونه من " أرباحه"، ولكن لأنه قد حلت أوقات صعبة، ولن يحدث تحسن في المستقبل القريب.

بعد عشرة أيام، عاد آيداربيك إلى الممر الأرضي نفسه الذي اختاره مكانا لمزاولة عمله، فأصيب جيرانه الدائمون الذين كانوا يشتغلون بالتجارة هنا بالدهشة، كان بدون عكازين، وبدلا منهما كان يحمل في يده عصا جميلة الشكل، وأصلح من شأنه، فهذب شاربه ولحيته بدقة، وجعلهما ناعمين. لقد تغير مظهره بالكامل إلى حد أنه لا يمكن التعرف عليه، باستثناء الأكورديون المعلَّق على ظهره.

- إنك بالفعل رجل وسيم!

صاح شامجون العجوز بدون أن يخفي فرحته.

- لقد اشتقنا إلى أكورديونك، اعزف لنا اليوم "جاليا بانو" من صميم روحك.

أخذ الآخرون يدعمونه بود، وشرع كل واحد منهم في طلب أغانيه المفضلة، اليوم، كان أيداربيك في حالة من الدهشة، وجاء إلى هنا مع نوع من الإلهام العاطفي، لفترة طويلة لم يشعر بمثل هذه البهجة والانطلاق، عزف بشكل جامح وجريء، كما كان يفعل في سنواته السعيدة، وملأ على الفور النفق كله بأصوات مذهلة وساحرة. في مثل هذه اللحظات، كانت أكتافه تتحرك على إيقاع كل لحن، كما لو أنه قد شكل مع أوكورديونه وحدة واحدة، كأنه كان يستعد للطيران مثل الصقر الأبيض، كانت أصابعه الطويلة تتحرك بسرعة وخفة وجموح على أزرار الأكورديون، وتقفز بسرعة البرق عليهم عبر لوحة المفاتيح لدرجة أن العين لا تستطيع أن تلتقط حركاتها، كما أن منفاخ الأكورديون البني، كان يتباعد اليوم، أكثر من أي وقت مضى، إلى أقصى اتساع له! كانت الأصوات تشبه إما صرخة البجعة، وإما هدير الإبل الصغيرة... اليوم، لم يول أي اهتمام لتيار المارة المهرولين ذهابًا وإيابًا، ولم ير كيف كان بعض منهم ينظر إليه بإعجاب واهتمام. كان يعزف اللحن تلو الآخر باستمرار، ودون توقف، من أجل أن يسكب بوفرة، حتى آخر قطرة، كافة أحزانه وعواطفه التي كانت تستعر في تلك اللحظة في روحه.

بشكل عام، كان هناك في نهار هذا اليوم بعض الغموض الذي لا يمكن التنبؤ به، أو ربما أناره شعاع مبارك من الفضاء، من دون شك، كان جميع الناس اليوم يقفون على قدمهم اليمنى، وعندما نظر أخيرًا إلى قبعته القابعة أمامه وجدها قد امتلأت عن آخرها بالقطع النقدية، وتناثر بعضها على الصحيفة الراقدة تحتها.

بعد أن تعرق أيداربيك في ذلك الوقت، مثل عداء في السباقات، ودخل في إيقاع الوتيرة السريعة، ملأ في اللحظة التالية فضاء الممر الأرضي بأكمله بإيقاعات الفالس وهو يعزف ""بولو"نيز" لأوجينسكي، وعندما

انتهى من عزف هذا اللحن، رأى شخصًا ما يرتدي الزي العسكري يتوجه نحوه، في البداية، ارتجف، واعتقد أنه هو ذلك الرقيب نفسه، لا، لم يكن الرقيب، بل كان رائدًا، ولم يكن شرطيًا، بل كان ضابطًا بالقوات المسلحة، لقد كان كازاخيًا يبدو من هيئته أنه لم يتعد الثلاثين من عمره، التفت إليه بلطف، ودود.

- يا أغا، هل يمكنني التحدث معك؟

- تكلم، إنني أسمعك!

- بينما أستمع إليك، وقفت هنا بعض الوقت، إنك تعزف ببراعة على الأكورديون!

- وما العجب في ذلك؟ إنني لم أبدأ العزف على الأكورديون بالأمس

قال أيداربيك بدون أن يعطي كلامه أهمية خاصة.

- إنه لا يساورني شك في أنك تعرف النوتة الموسيقية، أين حصلت على التعليم الموسيقي؟

- ليس لدي تعليم خاص، لقد تخرجت فحسب في مدرسة الموسيقى، وعلى ما يبدو أنها تسمى الآن "كلية".

بعد هذه الكلمات أشرق وجه الرائد، واقترب منه.

- حسنًا، ذلك شيء رائع! إننا سنقوم في منطقتنا العسكرية بإنشاء فرقة موسيقية محلية، ما رأيك أن تنضم إلينا كعازف أكورديون؟

" يا الله، ماذا يقول لي هذا الرجل؟ "هل هذا حقيقة أم حلم؟ " تحير أيداربيك، ولم يدرِ إن كان سيصدق ما سمعته أذناه أم لا.

قال الرائد:

- الآن هناك الكثير من الموسيقيين ذوي التعليم الخاص لكن نادرًا ما تلتقي عازفين موهوبين مثلك.

بقي أيداربيك صامتًا، وارتفعت إلى حنجرته صرخات صامتة، لكنه لم يستطع أن يقول شيئًا، وبدا أن الرائد نظر إلى صمته بشكل مختلف تمامًا، فبعد أن ألقى نظرة على الأوراق النقدية الكثيرة الملقاة حول القبعة واصل حديثه:

- بالطبع، إن الراتب لدينا ليس كبيرًا جدًا، ولكن بالإضافة إليه، سنوفر لك السكن والإعاشة المجانية.

في هذه الأثناء، أفاق أيداربيك، وثاب إلى رشده تدريجيًا، لقد فهم ما كان يلمح إليه الرائد، وتحدث معه بصراحة:

- يا عزيزي، هل تعتقد أنني أعد المال هنا، إنني مندهش من الفرحة غير المتوقعة؛ لأنني أفتقد المسرح كثيرا!

لم يكن الرائد صارمًا ومتطلبًا، مثل جميع العسكريين، لكنه كان مهذبا ومتواضعا جدًا، مثل فتاة صغيرة، نعم، من الممكن أن يكون هو نفسه الملاك الذي نزل إلى الأرض من الفضاء،لم يخفِ الضابط فرحته أيضًا، وأخذ دفترًا من جيبه الداخلي، ثم بدأ يكتب فيه شيئا ما، وسلّمه ورقة انتزعها منه، ثم قال:

- حسنًا، لقد اتفقنا، يا أغا! غدا في الساعة الحادية عشرة سيعقد اجتماع للجنة حول هذه الموضوع، يجب

أن تأتي إلينا على هذا العنوان!

في ذلك اليوم، عاد أيداربيك إلى المنزل مبكرًا، وفي الطريق إلى منزله عرج على محل الحلاقة ليقص شعره، وهناك هذب لحيته كي تكون أنيقة ومستديرة، ثم شذب شاربه كذلك، اغتسل في البانيو، وفي منزله كان يحتفظ بملابس المسرح وأزيائه التي رفض أن يبيعها، حتى عندما كان يكابد أقصى درجات الفاقة، قام بكيِّ هذه الملابس، وأعاد إليها رونقها القديم، كانت هذه الملابس تتكون من بذلة سوداء، وقميص أبيض، وعقدة أنشوطية سوداء، وحذاء لامع كان يرتديها في تلك السنوات التي كان فيها يؤدي كفنان على خشبة المسرح... وعندما بدأ أيداربيك يعجب بنفسه وهو واقف أمام مرآة جاره الكبيرة، مثل محارب الجبهة القديم الذي يسعده أن يتباهى في يوم النصر في زيه العسكري القديم أو في الزي الرسمي، تعرف على نفسه بالكاد، وأصبح فجأة أصغر سنًا، منذ مدة طويلة لم ينظر إلى نفسه في المرآة بمثل هذا الاهتمام، في السنوات الأخيرة، أصبح نحيفًا للغاية وشاحبًا، وأصبحت البذلة فضفاضة عليه، في السابق لم يكن في رأسه شعرة واحدة رمادية، لكن الزمن قد حول فَودَيه إلى اللون الفضي بشكل واضح، وعلى الرغم من أن الجمال الذي كان يتصف به في السنوات السابقة قد تلاشى بشكل ملحوظ، إلا أنه ظاهريًا ما زال رجلًا جذابًا.

لقد توقع بشكل حدسي أن الحظ قد سوف يحالفه اليوم، وأن الملاك في هيئة الرائد لم يلتق به أمس مصادفة، وأن الله نفسه أراد له الخير، ولم يخدعه حدسه، فقد أعرب الخبراء، الذين اختبروا في البداية ثقافة أيداربيك الموسيقية، ثم طلبوا منه أن يؤدي بعض القطع المختلفة على الأكورديون عن تقديرهم الشديد لقدراته الأدائية، في اليوم نفسه، قاموا بتعيينه، وأعطوه وثيقة تثبت أنه العازف المنفرد في الفرقة العسكرية. في ظهيرة ذلك اليوم، ربما، أصيب بالدهشة الكثير من الناس الذين التقوا في شوارع المدينة رجلًا مجهولاً في منتصف العمر يحمل أوكورديونا على ظهره، والحقيقة أن أيداربيك لم يكن قادرًا على كبح جماح نفسه، وأخذ يسير، ويبكي ساكبا دموعا غزيرة دون مشقة، وبدا أن الشتاء البارد الذي دام ستة أشهر طويلة قد انحسر أخيرًا، وتبدد، وقد انسكبت الآن الدموع التي لم تنسكب في تلك الأيام عندما عانى الإذلال، والاستياء، والمتاعب اليومية، واليأس الرهيب،، وروت وجهه بغزارة، وعلى ما يبدو أن المسافة بين السعادة والشقاء ليست كبيرة! سارع بقدر ما يستطيع لمقابلة طفليه ليبلغهما بالخبر السار، ويدخل السرور عليهما كي يكونا فخورين به.

عسكر سليمانوف

(1992-1938)



- كاتب ومحدث وناقد أدبي وكاتب درامي كازاخي، ترك سليمانوف بصمته المميزة في العديد من ألوان الأدب الكازاخي،
- تخرج في الكلية الأدبية التاريخية التابعة لجامعة آباي الوطنية الكازاخية عام 1959، كما أنهى الدراسات العليا بنفس الجامعة عام 1962.
- نشرت أولى مقالاته النقدية تحت عنوان: "بداية الطريق" عام 1961 بجريدة "جاس ألاش"،
- بذل سليمانوف جهوده لتغيير المواقف الأيديولوجية التقليدية القائمة في الأدب الكازاخي، وحاول إنشاء أدب حر جديد وتحقيق مُثله على أرض الواقع، كما عكست أعماله الجذور التاريخية والتقاليد الوطنية وروح الحرية.

- يميز الباحثون بين ثلاثة أوجه في إبداع سليمانوف في النقد الأدبي، حيث سعى للتأكيد على القيمة الفنية لتحليل الأعمال الفنية بشكل منفصل عن تحليل السمات الأسلوبية للنص.
- بدأت المواقف الفنية والجمالية لـ سليمانوف تظهر عندما نشر مقالًا "بضع كلمات" عن الشكل والذي تسبب في نقاش حاد في البيئة الأدبية آنذاك.
- إذا نظرنا إلى سليمانوف بوصفه كاتبًا، فإن كل أشكال النثر في القرن العشرين قد وجدت انعكاسًا في أعماله، وليس من قبيل المصادفة أنه يعتبر كاتبًا محدثًا، وتؤكد ذلك أعماله النثرية المتنوعة مثل: "نصف يوم"، و"الترحال"، ومن أكثر الأعمال التي تعكس رؤيته قصة "القناصة" التي كرسها لحركة التحرر الوطني عام 1916 وبالأخص انتفاضة مدينة سوزاكسكي بتركستان، كما أن أعماله الدرامية تتطلب تحليلًا من وجهة نظر فلسفية جديدة للفن.
- قام سليمانوف بترجمة أعمال توماس كارليل، وموليير، وإرنست هيمينجواي، وميخائيل بولجاكوف، وبيرتولت بريخت، وتينيسي ويليامز إلى اللغة الكازاخية.
- من ضمن أعماله الدرامية مسرحية "الانتقام"، والحوارات الدرامية "سجادة الصلاة"، "المجلس السابع"، "الأرملة الشابة".
- كتب سيناريوهات العديد من الأفلام الروائية والوثائقية مثل: "البشر والخيول"، "تريزنا"، "كولاجير"، "بايانيل" ـ التي استوحاها من الملحمة الغنائية ـ و"كوزي كاربيش – بايان سولو".
- في الفترة 2007 – 2009 نُشرت أعماله في أربعة مجلدات، وحصل على جائزة الدولة من جمهورية كازاخستان بعد وفاته بأربع سنوات وتحديدًا عام 1996.

العجوز الأسمر

"أوكين((1))، أوكين، أجل أوكين، حسنًا، نعم، أويباي!((2)) هو ذا أوكين، إنه أوكين نفسه، هو تحديدًا أوكيباي، أوكيباي عمروف، الرفيق عمروف...."

شعر نيغميت سافين بسعادة غامرة لأنه تذكر أخيرًا اسم العجوز الأسمر الذي كان يجلس عند الباب، وبارتياح قوّم كتفيه الصلبين، لكن الرجل العجوز حتى لم ينظر إليه، واستمر في الجلوس محدقًا في الأرض. أي أعمالٍ في السوفخوز((3)) لم يعمل بها هذا الرجل العجوز القصير القامة والبدين كالجذع: في زمانه اعتاد الخروج إلى الحقل، وعمل في المحمية، ورعى الخيول، إن لم تخني الذاكرة، يبلغ الآن واحدًا وسبعين أو اثنين وسبعين عامًا، واحتفلوا بتقاعده منذ سنتين أو ثلاث، ومنذ ذلك الحين لم يره.

– أوه، يا له من عمل لعين.

قال نيكان((4)) جالدًا نفسه عقليًا.

– ننغمس إما في المزرعة، وإما في أمور أخرى، ويتضح أننا نبتعد عن الناس أكثر فأكثر....

في لحظة النقد الذاتي القاسية، فرك الرجل النحيل، ككلبة الصيد الأم، جبهته بقوة، لدرجة أن أصابعه الطويلة أصدرت صوتًا قويًا، ثم امتد نيكان مرة أخرى، ومال إلى الوراء، ونظر من جديد إلى الرفيق عمروف. كان يرتدي حذاءً مطاطيًا، والقطن من تشيمبور((5)) التشابان يظهر من الشقوق تارة من هنا، وتارة من هناك، في حين جلس هو نفسه في أحضان أريكة قديمة ذات وجه أحمر.

من ناحية، كان سافين متفاجئًا؛ هذا نفسه أوكيباي الذي كان يعرفه قبل ثلاث أو خمس أو عشر سنوات! لو أن أحدًا تحدث عنه بشيء، لأسكته على الفور، كثيرًا ما رآه بأم عينيه في لحظات؛ حيث كان يعتقد بغرور أنه يستطيع قول كل ما يفكر فيه، وأن يفلت من العقاب، كان ذلك في فترة عمله كحلقة وصل، وفي مزرعة الخيول

(1) أوكين، أوكي –صيغة الاحترام للمخاطبة من اسم أوكيباي.

(2) أويباي –هتاف للتعبير عن التعجب باللغة الكازاخية.

(3) سوفخوز: مزرعة الدولة في الاتحاد السوفيتي.

(4) نيكان: شكل من أشكال اسم نيغميت.

(5) تشيمبور: حبل ثخين يربط به الخيل.

اضطر سافين إلى أن يحميه بشكل متكرر أمام الكثير من المسئولين المهمين، الذين وضعهم في موقف حرج للغاية، لكنه لم يره قط في مظهر متواضعٍ وديعٍ، رجلًا عجوزًا يخاف الله.

تذكر سافين على الفور الأوقات التي لم يكن فيها الرجل العجوز يجادل فقط، بل يتشاجر كذلك بصوت عالٍ، لكنه الآن كما لو أنه أقسم ألا يعارض.

شعر سافين الذي كان متعبًا نوعًا ما من الجلوس على المقعد الصلب، بشيء من التوتر بسبب إغفاله تلقي "شوباته"((6)) على الغداء، فخاطب الرجل العجوز قائلًا:

- حسنًا، أوكي.

الرجل العجوز لم يتحرك.

- حسنًا، أوكي، على الأقل استمع....

كرر نداءه مرة ثانية لكن الرجل العجوز لم يتحرك.

- أوه، يا أوكي، يا لك من شخص عنيد.

قال نيكان أخيرًا مخففًا بصعوبة من صوته الذي بدأت تظهر فيه نبرة الاستياء.

لحسن حظ سافين أن في هذه الكلمات التي أفلتت من حنجرته المتجعدة، سُمعت فقط أصداء بعيدة من هيجانه المكبوت، لا ينبغي التجميل، فالسبب هو أن ما أهان سافين بشدة هو سلوك هذا الزائر، عجوز عديم القيمة جاء إلى مكتبه، ويجلس هنا ليس كما يجلس أمام رئيس أو مسئول، وإنما بدا له كما لو أنه يجلس في مكان الشرف ضيفًا على أصغر أبنائه، ويتوقع التشريفات المفترضة في مثل هذه الحالة.

عقب ذلك، ووفقًا لعادته التي كانت قد تشكلت منذ الزمن البعيد الذي لا يمكن إرجاعه الآن، أراد نيكان أن يصيح في وجهه، لكنه تذكر عامل الجهاز الذي كان ضيفًا عنده قبل أيام، والصحيفة التي عرضها، والمقال في تلك الصحيفة حول واحد من الأكتيفات((7))، وكان تحت عنوان "اضرب واهرب"، لم يقحم سافين نفسه في جميع تفاصيل تلك القصة، لكن الشيء الذي استوعبه منها، منعه. يجب الاعتراف أن السبب الثاني كان سوط هذا القزم، الذي كان سافين ينظر إليه، يقولون إنه حتى القديسين يضطرون في بعض الأحيان إلى الفرار، في اجتماع السوفخوز لن تسأله، فقد نأى بنفسه عن العمل فيه، ولا يوجد ما يمكن فصله منه، فهو ليس عضوًا في أي من المنظمات، وماذا لو أنه، لسببٍ أو بلا سبب، جلدَ، ليس هو نفسه، وإنما الطاولة التي يجلس عليها؟

بصراحة، إن إمكان حدوث ذلك، هو بطبيعة الحال مجرد مخاوف بسيطة، ونيكان نفسه يدرك ذلك، ولكن كيف يمكن للمرء أن يغيب عن باله حقيقة أن المراقبة الحزبية في يومها الثالث، وهي مستعدة لرؤية الثغرة؛

(6) شوبات: شراب من حليب الناقة.

(7) أكتيف: هيئة قيادية في ظل السلطة السوفيتية، تضم موظفي الجهاز الحزبي، واللجنة التنفيذية، وأعضاء الحزب الشيوعي. هنا: هيئات الإدارة المحلية

حيث لا توجد، ودراسة الأوضاع في السوفخوز طولًا وعرضًا؟ هل من الممكن للحظة أن تنسى أنه في السنوات الأخيرة على وجه الخصوص، أصبحت الكلمة التي تفلت من الأفواه تصبح عُرفًا من خلال إفسادها للتفاصيل الجديدة، وتغدو معروفة في كل مكان؟

"لا، لا، لا، أيها الرفيق عمروف، لا يصلح هذا، أنا أحترمك، أنت بنفسك ترى تعامل الاحترام الذي أعاملك به...." بمجرد أن يصيح به الآن، أو لا سمح الله، يصرخ في وجهه، فإن أحد أولئك الذين يبقون آذانهم مفتوحة وتدربوا على كتابة الشكاوى، سوف يأخذ ذلك ويعرضه على أنه مجزرة دموية، ويعرضه على الفور على لجنة المقاطعة....

على الرغم من أن سافين كان في منتصف العمر، إلا أنه لم يحقق نموه الوظيفي على الفور؛ فقد حدث أن فقدت مسيرته المهنية أنفاسها؛ وبدا وكأنه ينتمي إلى الجانب المهمش من الوجود الانساني، رأى طاولة مغطاة بالمخمل الأخضر في مكتب ألجانوف؛ هو بنفسه برز وحيدًا في العمق، وحك حنجرته، ومتظاهرًا بمواصلة حكها، قام بفك الزر العلوي لسترته البنية المخيطة من البوستون((8))، بعد ذلك مزق ورقة من التقويم المعلق على الجدار، كان 22 مارس 1961، على ظهر ورقات التقويم كانت هناك قصائد مؤثرة، ومقتطفات من الروايات، ونصائح مفيدة كثيرة، لكن سافين الآن لا يقرأ بتمعن أسطر الورقة الصغيرة التي تسلط الضوء على جميع ظواهر العالم؛ ربما بعد أن قرر أن يستمتع بالقراءة في المنزل، وضعها في جيب الصدر داخل دفتر الادخار((9)) الملفوف بورقة لامعة، بعد ذلك قام بتصنيف التقارير والصحائف والرسائل المتناثرة حول الطاولة بعناية، ووضعها في الأدراج، أخرج مفتاحًا من جيب معطفه المعلق على علاقة خلف الرجل العجوز، وبمصاحبة كل حركة بنقرات موزونة، أغلق جميع الأدراج؛ ثم نظر مرة أخرى إلى الرجل العجوز الذي كان لا يزال جالسًا يحدق في الأرض، ومن وقت لآخر يحك بمقبض السوط رأسه الأصلع كاليقطين.

تنحنح سافين، ثم، ما يمكنك القيام به هنا، بدأ في السعال أكثر بنشاط أكثر، ثم، ربما بغرض أن يقمع بقايا سعاله، أو، ربما لأنه تعرض لهجمة حازوقة، بدأ بصوت مبحوح يغني أغنية "في الجبال"((10)). بتعبير أدق، لم يغنِّ، لكنه أراد الغناء؛ لأنه لم يسمع صوته، بعد ذلك، بعد أن أشعل سيجارة "جامبول" رفيعة كقصبة، وقف قليلًا في حيرة، ثم جلس مرة أخرى على كرسيه، لن يصل المرء إلى شيء عندما يفكر في حقيقة أن هذا الشخص -أعني نيكا -يختار الكلمات لأوكيباي خصيصًا، ويغلف كل هذه الكلمات المختارة خصيصًا بنغمات ناعمة لا يتميز بها صوته، لأن أوكيباي الآن لم يستوعب ما كان نيكا قد قاله، ولا ما لم يقله بعد، لكنه يحتفظ بسرٍّ في نفسه، ولكن في مثل هذه الحالة، لا داعي لأن يغضب نيكي من أوكي، لأن هذا المخلوق الوديع الصامت لا يعتبر خط السلوك الذي اختاره بوعي، إنه ما هبط عليه بشكل غير متوقع، حالة معينة من أصل غامض،

(8) بوستون: نوع من أقمشة البدلات.

(9) دفتر الادخار: دفتر يمنحه البنك، تحفظ فيه حركة ادخار الأموال.

(10) في الجبال: أغنية "تاودا" الكازاخية.

غطت رأسه، سحقت الرجل الأسمر القصير قرب الظهيرة، عندما وصل إلى هنا بمشية الدب، ورأى مقابله سافين إيسباي، إيسباي الذي كان يسكن في الجوار، كان مثله، متقاعدًا، وأتيحت له الفرصة للحصول على 15 روبل، لكن إيسباي الماكر، الذي لم يكن مقتنعًا بهذا المال، إذ كانت لديه أيضًا عادة رعي مائة رأس من أغنام القرية؛ لذلك فوجئ أوكين برؤيته في البداية، ربما لأنه انحنى بظهره المستدير كعجلٍ: "أين هي مواشي هذا المارق؟ لماذا يذهب هذا المارق إلى المكاتب؟" لم تومض أفكار أخرى في رأس أوكيباي، ودون أن يعرف كيف يفهم حركة ذقن سافين، وبشكل مماثل لما يميز الحصان قبل السباق، توقف.في هذه اللحظة توجه سافين إلى يسباي:

– ماذا إذن؟ اتفقنا يا آكساكال؟((11))

وفي إشارة إلى الموافقة، أومأ إيسباي بحماسة مرة واحدة فقط برقبة طويلة، ومنذ ذلك الحين تخلى الهدوء عن أوكي، لم يلاحظ كيف صافحه إيسباي وهو يغادر؛ ولا كيف كان هو نفسه متخبطًا على الأريكة الحمراء، الشيء الوحيد الذي قاله، وحتى ذلك فعله في سريرته، كان "لقد ضعتَ أنت"، عقب هذا انتقل على الفور إلى موطنه تيريساكان، ووجد نفسه مع كيزيل أيغير((12))، وفحل الحصان الأشهب يشرب الماء منه. لكن، كما يقولون، الشيطان وحده مجرد من الأمل؛ حتى عندما كان على انفراد مع سافين في المكتب، الذي غطت جدرانه صور رءوس الخراف والأبقاء،لم يتوقف عن الأمل في أنه لن يسمع الكلمات التي كانت قد قيلت لإيسباي من قبل، وببقائه في مثل هذه التأملات، بدأ الرجل المسن في حساب الضرائب التي قد لا يكون قد دفعها؛ وبينما كان مشغولًا بذلك، بدأت مخاوف مظلمة بالتسرب إلى روحه بدايةً، ثم أسرته بالكامل، واستقرت في صدره المغطى بشعر كثيف، مثل جمل فتيّ، قبل أن يتبين أن هذا الكادح دفع بالفعل جميع الضرائب.

لديه أمل بأنه ربما بسبب بعض الديون تم استدعاؤه إلى مجلس القرية، بدأ في ثني أصابعه القصيرة، وهو يسعل. نظر إليه أوكي، وقفز برأسه بحدة، وكأنه ينوي أن يقطعها مع كل ما علق فيها من آمال وشكوك. سَمعُه الذي كان حتى وقت قصير قد أظهر خللًا كاملًا ، أصبح حادًا فجأة، بدأ يسمع كلمات سافين حتى قبل أن تصل إليه، التقطها في اللحظة نفسها التي ولُدت فيها على شفاهه.

– نعم، يا أوكي، على الأرجح أنك سمعت بالفعل عن ذلك، يجب تسليم كل شيء إلى السوفخوز.

هذا كل شيء، شاهد كيف كانت شفتا سافين الشاحبتان تتحركان، يمدهما تارة، ويجمعهما تارة، كما لو كان في ذلك الوقت يأكل لحمًا لذيذًا، وسمع كيف اتحدت بالكلمات، وقذفته بها، فقط منذ لحظة كانت هذه الكلمات، عندما كان يختنق منهكًا من الألم، كما لو أنها تقطعه بسكين، وتمكنت من أن تحرقه من الداخل كليًا، لكنه الآن، عندما سمعها أخيرًا، نسيها على الفور، ومرة أخرى وجد نفسه في تيريساكان نفسها، التي

(11) آكساكال: صيغة احترام لمخاطبة الرجل العجوز، "ذو اللحية البيضاء"، شيخ.

(12) كيزيل أيغير: فحل الحصان من السلالة الرمادية.

كان قد زارها قبل ذلك، عندما كان تحت سلطة رهوانه الأشهب.

عندما كان هناك، شاهد كيف دفع سافين يديه في الجيوب المنتفخة لسرواله، ومشى بشكل مهيب ذهابًا وإيابًا، بعد ذلك، كما لو أنه لم يعثر على مكان آخر، وقف أمام النافذة الوحيدة في الغرفة، في هذا الوقت، صفع سافين مرة أخرى أوكي بكلماته:

- وهل الآن وقت تربية الخيول؟ بقرة مع عجل، وخمسة خراف، وهذا كل شيء!!

- إذن، أنت تقول إن تربية الخيول ممنوعة؟"

قال أوكي بعد توقف، خافضًا رأسه بشدة، بحيث لمست لحيته صدره.

من المستحيل القول إنه لم يسمع السؤال، لقد سمعه وفهمه، إلى جانب ذلك، كان يعرف أن هذا الشاب لا يمزح أبدًا، حتى لو كان يمزح، فلن يستدعيه خصيصًا إلى المكتب ويستقبله، اضطر لأن يجيب على سؤال بسؤال فقط؛ لأنه لم يكن لديه ما يقوله، حاول أن يجلس بعد أن سمع السؤال، وكأن شيئًا لم يحدث، لكن الإنذار دقَّ في قلبه.

- بالطبع.

قال سافين، وبعد ذلك أصبح المكتب المعتم مضيئًا من جديد، اتضح أن سافين ابتعد عن النافذة، والآن يجلس أمامه جاثيًا.

- ممنوع على من؟

- عليك، وعلى إيسباي، وعليَّ أيضًا.

- وعلى اللجنة التنفيذية؟

- ما شأن اللجنة التنفيذية بخيولك. لديها سيارة.

- لكن ليس لدي سيارة.

- لا يهم.

- لماذا لا يهم؟

- دعنا لا نتناقش كثيرًا، يا آكساكال.

- وأنت خذ بقولي.

- هذا مستحيل.

- خذ العجل.

- طيب، قلت ....

- وماذا، هل لديك إسهال من لحم البقر، أم ماذا؟

- لقد قلت إنه من المستحيل، يا أوكي.

- لماذا ممنوع عليّ؟

- ما الممنوع؟

- لماذا لا يمكنني الاحتفاظ بحصان؟

- وبماذا أنت أفضل من الآخرين؟

- ليس أنا، حصاني أفضل.

- وماذا؟

فهم الرجل العجوز ما الذي تعنيه منفصلة هذه الكلمات "ماذا" "وماذا"، فقد سمعهما من قبل، ولكن عندما كان سافين يصدر صريرًا بحذائه الكرومي أثناء المشي، دمجها معًا، ارتبك الرجل العجوز، إذ كان الأمر بالنسبة له مدهشًا، كما لو أن كلبًا وثعلبًا يأكلان من وعاء واحد، ويلعبان معًا.

- طيب.

قال الرجل العجوز.

- ما معنى "طيب"؟

قال سافين.

- ماذا؟

قال الرجل العجوز.

- ما هو "ماذا"؟

قال سافين.

- آ-آاا.

قال الرجل العجوز لنفسه، وهو يثني السوط المطوي من منتصفه في عنق الحذاء.

- هذه الـ"طيب ماذا" عنت عند هذا الشقي "وماذا من هذا، ما هو أفضل؟"

ثم أراد أوكي أن يشرح لهذا الشاب أن الخيول كانت معه منذ أن تذكر نفسه؛ وأنه إن لم تكن الخيول بقربه، لن يلمس الطعام؛ وأنه حتى الأيام الأكثر صعوبة كانت تُعَدّ بلا قيمة فقط عندما لم يتمكن من تمسيد عُرف حصانه.... أراد أن يشرح له كل ذلك بالتفاصيل والدقائق كافةً، مع تلك العناية التي يتطلبها خيوط رقيقة من الجلد، لكنه عندما رأى عيني سافين، تخلى على الفور عن فكرته غير المتوقعة. لقد سمع أن سافين مصاب بمرض السل، ربما كان الأمر كذلك، كانت عينا هذا الشقي متعبتين، شبيهتين بعيني كلبة ولُدت لتوها، سمع أوكي أن الأشخاص الذين يعانون هذا المرض غير أنانيين، على الرغم من قلة قوتهم، فإنهم يتميزون بالمثابرة، مثل سنجاب الأرض إذا عضَّ، فإنه لا يفتح فكيه أبدًا.

آمال الرجل العجوز في أنه تم استدعاؤه إلى هنا بسبب الضرائب غير المدفوعة، تبددت. الآن علم من سافين السبب الحقيقي، وفهم كل شيء بشكل مثالي، ومع ذلك، لكي يكون مقتنعًا بشكل نهائي بجوهر ما سمع، حاول إيجاد طريقة للتراجع، لكن سافين لم يمنحه الفرصة. فقط صعقه بكلماته "طيب، وماذا؟". وكانت تعني

بالنسبة له: "وماذا أفضل من هذا ؟!".

بعد ذلك خرج الرجل العجوز من المكتب ضاغطًا على تيماكه((13)) تحت إبطه.

يسير متفاجئًا من أحواله؛ الآن جسده العجوز، الذي جفَّ كقضيبٍ، أصبح عديم الجدوى؟! في السابق، كان كعباه يلتهبان بمجرد أن يسير بضع خطوات، والآن هما باردتان، وقلبه، الذي بدأ في الوقت نفسه بالضغط على حلقه، لا يدق الآن بقوة.

"ما الذي كان يعنيه ذلك؟" فكَّر الرجل العجوز، وهو يشعر بجسده يبرد، كما لو كان قد ابتلع ملعقة كبيرةمن زئبق برَّدت جسده، فقط عيناه ساخنتان،لم يفهم أوكي هذا.

في قرية مثل تورلان، لا تلاحظ في أي من أيام السنة، ولا في أي من أيام المواسم، علامات على حياة مفعمة بالحيوية، على الطريق الريفي الرمادي، من جهة الجبال، رأى أوكي سيارة وحيدة، وأمامه تمامًا أطفالًا مع حقائبهم المدرسية، عندما اقتربت السيارة، هرُع الأطفال مراوغين مثل أرانب، وتبعثروا على جانبي الطريق، في حين سارعت السيارة إلى تجاوزهم، لكن أوكي لم يسمع أي صوت، بعد ذلك ضرب أوكي بكفيه على أذنيه، حتى إنه حاول أن يحفرهما بأصابعه القصيرة، وإذا وضعنا في الحسبان أن رئتيه امتلأتا ببخار البنزين، فإنه لم يتمكن من سماع صخب الأطفال، أو ضجيج السيارة.

"إنها إرادة العلي" قال أوكي، وهو يلبس التيماك على يده بإحكام، رافعًا الطيتين اللتين كانتا تغطيان الأذنين، "بالطبع، ولكن من الأسهل أن تموت، من أن تصاب بهذا المرض".

لو أن أوكي اختار الطريق المباشر، لانعطف بعد الجسر إلى اليمين، أما الآن، عندما وصل إلى مبنى مكتب البريد القديم، تحوّل إلى اليسار، إلى الممر عند سفح التلة الخضراء، لتوه تذكر أن في الساعة السادسة جنازة جاكان.((14))

كان، رحمه الله، من عمره نفسه، توري ((15)) من السوفخوز المجاور"كومكنت." لمدة ثلاثة أشهر كان المسكين طريح الفراش، لم يأكل أو يشرب أي شيء، ذاب أمام الأعين، واستراح أمس،كل ذلك بسبب سرطان المريء، الذي أصبح، خاصة في السنوات الأخيرة، مراوغًا بشكل متزايد.

فجأة بدأ رأس أوكي يحكّه كثيرًا، فخلعَ قبعته، في تلك اللحظة، من أعلى صدرت منه قعقعة بالكاد مسموعة،لم يفرح العجوز بذلك، ولم يتفاجأ،كأنه نسي أن كل ما نُسب إلى الأصوات،لم يستطع الوصول إليه مؤخرًا، بعد ذلك، وعلى الرغم من أن ضوء الشمس لم يكن ساطعًا؛ فإن أوكي غطى عينيه بالقبعة، وتأمل في السماء الزرقاء الشاحبة حتى خدرت رقبته.

على الرغم من أن الرجل العجوز لم ير الأجنحة الفضية التي ظهرت أربع أو خمس مرات في اليوم من جهة

---

(13) تيماك: قبعة شتوية مع طيات تغطي الأذنين والعنق.

(14) جاكان: صيغة الاحترام من اسم جاكسيليك.

(15) توري: عرق من الجنكيزيين.

بيتباك-دالا؛ ((16)) فإنه تفحَّص اثنين من المسارات الممتدة قسرًا في السماء، وخلُص إلى أن هذين المسارين المتلاشيين هما دليل على الطائرة نفسها، فلبس قبعته.

في أعلى التل تُرى شجيرات برية من الشوكة الحمراء، على أغصانها عُلِّقت وهنا وهناك ملابس. وبالقرب ثلاثة أو أربعة فتيان يحفرون الأرض، إنهم، على ما يبدو، حفارو قبور، قال أوكي: "أوه، إنه الوقت، هناك رِكابٌ، ولم يعد هناك من يسير في الركاب معك، هناك شبابٌ، جاك غير موجود بعد الآن، من الآن سيدفع، ويضرب على أرداف مهيري؟ كان يقول: "حسنًا، اهجموا الآن عليَّ، يا مساكين، اهجموا"، كل الباقين أحياءٌ أصحاءٌ، والرجل الصلب الذي كان سندًا للجميع،لم يعد موجودًا، هنا، بعد أن حُفرت الأرض الحمراء، وأُخرجت أكوامًا من التراب الطازج تعادل أمتعة لجمل، كان يُجهز منزلك الجديد، وقريبًا سيغطونك بها، تيتَّم المهر، وبقيت المرأة العجوز والأطفال يبكون بلا هوادة، تيتم مهرك الأسمر، نيغميت، الذي لن يتركه، ها هو نيغميت أصبح الآن نزيلًا في دار أيتام الخيول.

بالأمس فقط هطل مطر، الأرض المباركة ذابت، ثم تحللت كحلوى في الشاي، ولكنها الآن بدأت تعود إلى شكلها السابق، تجف، أطلق زفيرًا، كمدخن يطق الدخان.

للحظة تذكر أوكي فجأة سافين وسجائره الرقيقة، ثم تذكر كيف كان بالأمس مع رجلين أو ثلاثة من كبار السن، يغسل جثمان جاكسيليك، وفوجئ بأن ساقيه القديمتين بقيتا قويتين، مثل ذكر جملٍ؛ فكَّر أن هذا الجسد اليوم سيمضي في رحلته الأخيرة.

قال الرجل العجوز بعد ذلك: "أوه! لكنني لا أستطيع الذهاب إلى التشييع اليوم". لم يشرح لماذا، هو يعرف أن طريقه اليوم يتجه نحو تيريساكان، إنه يعلم اليوم أن كبار السن في القرية سيغسلون عظامه، عندما يتفاجئون بأنه لم يأتِ، سيلومونه، لكن ما الذي يمكنك فعله؟ من المجدي له أن يتخيل أمام عينيه حصانه الأشهب، وكيف أن ساقيه الملتويتين على الفور، وبسرعة، تسيران نحوه.

"رحمة الله عليك، يا جاك." قال أوكي، وهو يبتعد مسافة من المقبرة، في حين كان الرجال الثلاثة أو الأربعة يتخلصون من الغبار على ملابسهم، ويحركون أجسادهم.

الآن فقط لاحظ أن الشجيرات البرية الشائكة، والتي لم تحظَ حتى بأن يمر بها أكثر كلاب القرية تعاسةً، بدأت تُزهِر.

جلست المرأة العجوز أمام المنزل على العتبة، محوطة بثلاث فتيات صغيرات، تغزل صوفًا شوكيًا يبدو أن المسكينة تريد أن تنسج منه حبلًا لسيفٍ.

هل يوجد كوجي((17))؟ سأل الرجل العجوز، واضطجع على بطانية قديمة.

- إيي، تكذِب على نفسك، كما لو كنت قد قمت بالكثير من الأشياء... جاء ابن جاكسيليك مرة أخرى، أين

(16) بيتباك-دالا: سهل في كازاخستان.

(17) كوجي: شراب حامض مع إضافة حبوب الذرة، القمح وما إلى ذلك.

كنت تلهو؟

مع ذلك، لم تبق جالسة في مكانها، وقفت، جلبت الشراب، شراب الذرة أضيف إليه لبن عيران، كان باردًا جدًا، طهر الرجل العجوز حنجرته.

- متى ستذهب؟ قالت العجوز.

- إلى أين؟

- إلى الجنازة.

- لقد حان الوقت بالنسبة لك للذهاب إلى المنزل للجنازة.

الفتاتان اللتان كانتا تلعبان بالكعك المصنوع من الطين، وهما ابنة الأخ الأصغر لأوكي، وابنة السائق، لم تفهما ما معنى الجنازة، بالإضافة إلى ذلك،لم تفهما لماذا كان العجوزان يحدِّقان أحدهما في الآخر، ولا لماذا كانا يتبادلان نظرات الغضب.

اقترب الرجل العجوز من رايا ذات السنوات الثلاث، والتي كان يمدحها عادة، حيث وصفها بذهبه الذي لا يشبهه أي شيء في الإقليم، ولا في المنطقة.

-لحية.

قالت محبوبته، وهي تتعلق به، وتمسك بذقنه، هذا، على ما يبدو، يعني أنه كان عليه أن يعض لحيته، وهي تسحبها في اتجاهات مختلفة.

دفع أوكي الطفلة بعيدًا، فسقطت على الأرض، ولكنها لم تبك، ثم سحب إلى خارج الفناء حمارة شهباء كانت تمضغ بقايا حبوب العام الماضي، التي تكون عادةً ثقيلة ومزعجة.

"لا تطلقي المهر" قال للمرأة العجوز، معلقًا ساقيه، ليستقر على ظهر حماره، منطلقًا إلى السهوب التي انتشر منها بخار أبيض، في اتجاه تيريساكان، وبعدها لمسافة خمسة عشر كيلو مترًا، إنه النبع، هنا كان يرعى عندما يفرغ من سباقات الخريف والصيد في فصل الشتاء، الآن الشمس تغرب، وأفق مينجيلكا((18)) يتوردُ مثل دمٍ مسكوب، السهوب في كل مكان، على مرمى البصر، مغطاة بدخان أرجواني فاتح، يصل إلى ركبتي الحمارة، والرجل العجوز وحمارته وكأنهما يسبحان في الحليب، من جميع الاتجاهات يسمع ما يشبه التجشؤ المتخم للثيران والأبقار العائدة من المراعي- ربط العجوز بإحكام القبة تحت ذقنه.

عندما ابتعدا عن القرية لمسافة كبيرة، بدا الحمار متكاسلًا، وكانت أداة الرجل العجوز، الذي نسي السوط في المنزل، عبارة عن حبلٍ صغير رُبط به مفتاح صندوقٍ في عنق حذائه.

القيد الذي قيَّد الدابة، ولم يسمح لها بمتابعة السير،لم يكن عناد الحمير، بل هو ابنها الرائع، الجحش الأسود مع العلامة البيضاء على وجهه، الذي تركته في الحظيرة. لكن الرجل العجوز لا يستطيع أن يفهم

(18) مينجيلكا: اسم موقع جغرافي، في الترجمة يعني "ألف حصان".

هذا، فهو يضرب الحمارة، مثل طائر جارح، بالمفتاح، ممزقًا جلده.

عندما أظلمت الأجواء تمامًا، ووصل الرجل العجوز إلى تل بازارباي، بعد ذلك لم تمشِ الحمارة خطوة، بل صرخت فجأة بصوت أجشَّ عالٍ لدرجة أن أحشاءه بدت أنها كادت أن تنفجر من هذا الصراخ،كان صوتها الغاضب القادم من أعماق جوهر الأم، يشبه اللعنة.

"يا إلهي! أوه، هذا العالم الفاني!" قال الرجل العجوز وهو ينزلق على العشب إلى أسفل، والخدر يسير على جسمه كله، قال ذلك للحمارة، وتذكر جاكسيليك وحصانه الذي تيتم بعده، ثم حدق أوكي لفترة طويلة في الظل الأبيض الذي كان يتحرك بسرعة على مسافة بعيدة منه، نظر باهتمام شديد إلى درجة أن عينيه أخذتا تؤلمانه، وظهر الخوف في روحه، بدا له أن الظلام لم يكن يخيف الحمارة، بل كان يخيفه هو نفسه، بعد ذلك استدار الرجل العجوز فجأة وركض كالمجنون، ضاربًا بيديه على ركبتيه.حين وصل إلى تيريساكان، خلع أوكي قميصه، وخلع حذاءه، ودخل إلى النبع الذي كان كبيرًا، ما أن دخل الماء، حتى بدأت عظامه بالصرير؛ دخل أكثر، وفرك أقدامه المتصلبة بحجر حادٍ في القاع؛ توقف عن الارتعاد، ولم يفكر للحظة في أن يقوم بشيء غريب؛ استعاد أنفاسه.

في الأعماق، على السطح اللامع مثل مرآة سوداء، استلقى القمر الفضي المهتاج على ظهره. انحنى أوكي فوق القمر، وشرب الماء. شرب رشفات كبيرة، نعم، على ما يبدو، بشراهة حتى إنه اختنق.

بعد ذلك غسل وجهه، وأذنيه، مبللًا فوق إبطي القميص، ونظر في اتجاه كانجوغان((19))، حيث توفي والده. هناك، على قمته، نمت أشجار كثيرة.

ومع ذلك، إما لأن ضوء القمر الفتي كان باهتًا، أو لأن عينيه فقدتا يقظتهما السابقة، فإنه في الوقت الذي كان الشفق فيه يصارع الظلمة القادمة،لم ير تلك الأشجار أمامه، وربما أمام نظره الداخلي، ظهرت قمة مستديرة تشبه بيضة، مع أنها مغطاة بالقليل من الضباب الأسود المزرق، إلا أنها لم تكن اليوم مثيرة للإعجاب، كما لو أنها، بعد أن استسلمت إلى التأمل الهادئ لليل مارس الصامت، أصبحت حزينة، وانحنت تحت هذا الثقل.

بعد ذلك قال الرجل العجوز: "الأرض أيضًا كالإنسان، هي خصبة، ولُديها الجسم. وتهتاج، وتغضبُ، وأحيانًا تنزعج، فهذه القمة سمعت صهيله عندما كان حصانًا أسمر، وربما هي الآن شعرت أيضًا بالتهديد منه، المعلق فوقها".

حزن أوكي، وحاول العثور على الأقل على ما يشبه العزاء، ولم يقتصر على هذا، وإنما نجح في مواساة نفسه في بقائه وحده بين السهوب المضاءة بضوء القمر، لكنه لم يكن يعلم أن كل هذه المحاولات المريرة ليصالح نفسه مع الخسارة، سوف تصبح مجرد واحدة من حالاته العقلية المؤقتة، والتي يمكن أن تنهار مثل طوب

(19) كانجوغان: اسم مرتفع، في الترجمة يعني "المغسول بالدم".

مصنوع من الرمل.

الرجل العجوز، الذي كان قد غمره مؤخرًا عرق بارد أمام نيغيميت، قلبه الآن يمزقه بكاء لا عزاء له، تذكر كيف كان قبل تسع سنوات، في أبريل، يمتطي ببطء وسلاسة في السهول الرملية لكيندير لي((20))، حصانه الكستنائي الشبيه بالفهد((21))، عندما ظهرت هذه الصورة أمام نظره، انتعش بقوة، وأصبح أكثر سعادة عندما تراءى له أنه رأى حصانه الكستنائي في الحشد المتحمس لكوكيبار((22))، يستعد مع الصهيل للاندفاع إلى الأمام، "يا حصاني، يا فهدي، يا حصاني...." قال الرجل العجوز.

أصبحت عيناه رطبتين مرة أخرى، تمامًا كما كانتا في تلك اللحظة التي رأى فيها أزهار الشوك المتفتحة.... الناس الذين يعرفون جيدًا مزاج كل من الرجل العجوز، وحصانه الكستنائي، حتى لو تجاسروا، فذلك للاستعراض فقط، ولكن يتنافسون معهما بشكل فعلي؛ لذلك، اندفع الرجل العجوز إلى الأمام، شاقًا الحشد، فقط في بداية ووسط الكوكيبار، ووثب حول الخيّالة حتى لا يفقد الجمهور الاهتمام بالمنافسة، حائزًا على النصر مع الذبيحة في نهاية اللعبة، في حين بدأ فرسان "الدائرة السياسية" للسوفخوز المجاور في اللجوء إلى كل الحيل الخادعة الممكنة.

في ذلك الربيع، كان منزله عند سفح كانجوغان، وكان الوحيد هنا، بعد أن غادر الحشد، حاول الرجل العجوز العودة إلى المنزل بسرعة، فاختار طريقًا مستقيمًا، دون أن يسمح للجام أن يرتخي بين يديه لحظة واحدة.

في هذه المرة استمع إلى تنفس حصانه الكستنائي الذي لم يكن له حتى الآن شبيه في الشكل، ثم، لا، لا.... نظر إلى الوراء إلى موكب الفرسان الممتد خلفه. عندما أصبح على مقربة من المنزل، بين الحين والآخر بدأ الكستنائي يتباطأ، وتوقف،لم يعر الرجل العجوز لذلك أهمية، معتقدًا أن أكويان((23)) يقطع دربه. وعندما بدأ الكستنائي يقلق بشكل فعلي، نظر الرجل العجوز إلى الأمام، فرأى أنهما وصلا إلى القناة الواسعة التي حفرتها ثلاثة جرارات في الخريف الماضي.

لم تعد هناك فرصة للعودة إلى الوراء، وبعد أن تردد الكستنائي قليلًا، قفز ووصل إلى الجانب المقابل، ولكن في تلك اللحظة انفصل كلاهما، وتناثرا في اتجاهات مختلفة، يتذكر الصرخة المؤلمة للكستنائي، لقد كانت صرخة الاحتضار، ما زال يذكر كيف قام بذبح كستنائيه بسكين ضخمة، عندما كان يشخر بألم ويحاول النهوض، لا يتذكر أي شيء أكثر.

وزعت المرأة العجوز لحم الكستنائي على الجيران، تاركة قطعة صغيرة من الإبط، بعد بضعة أيام طبختها،

(20) كيندير لي: اسم منطقة.

(21) الشبيه بالفهد: يشبه البطل مهره بالفهد، وهذه المقارنة مع القوي مميزة للثقافة الكازاخية.

(22) كوكيبار: لعبة يتنافس بها الخيَّالة لسحب الذبيحة "كبش".

(23) آكويان: لقب للكلب.

لكن الرجل العجوز لم يمسها، شعر بالغثيان، كما لو كان عليه أن يتذوق مرق قريب له، كان هو نفسه قد دفعه إلى الحتف الأكيد، أراد أن يستسلم لعادته في عدم كبح غضبه، وأن يركل الطاولة المستديرة المنخفضة، لكنه رأى كيف كانت المرأة العجوز تشيح بوجهها عنه، وهي تفرك بطرف المنديل أنفها....

في ذلك الصيف والخريف -حتى بداية أكتوبر -لم يعرف أوكي الهدوء. ومع قدوم الربيع امتلأت أدغال القصب الكثيف في جاماناي بالفحول الهرمة والفتية، في محاولة منه للحماية منهم، أبقى الرجل العجوز الفرس مربوطة، والتي غطاها الحصان على مرأى منه، كان لا يزال خائفًا من أن يحدث خطأ ما، وبالتالي نظر إلى بطن الفرس بارتياب، وأخيرًا، ظهرت حلماتها بدينة كأصابع....

"حسنًا، قف، قال الرجل العجوز وهو ينظر إلى كانجوغان.

تذكر مكتب مجلس القرية، وجيوب سراويل ركوب الخيل الواسعة؛ وسافين الذي يحجب ضوء مارس، للمرة الأولى منذ أن غادر القرية، تذكر المكتب، وسافين، وجيوبه، لكنها الآن لم تسبب له الخوف أو الغضب، لأن هذه الرؤية؛ هذا المشهد يبدو الآن له لحنًا سمعه في العصور القديمة، لحنًا مؤلمًا مثل الحكم، إلا أنه ماضٍ، غرق في الماضي، لماذا؟ ألم يسمعه اليوم؟ ألم يكد أن يختنق مما سمعه اليوم؟ لا يعرف، الشيء الوحيد الذي يعرفه: الشيء الرئيسي في هذا اللحن هو الحكم، وبما أنه سمع هذا الحكم، فقد قبله، ولماذا العودة إليه؟ لماذا يزعج نفسه أكثر وأكثر؟ لو أنه لم يُطع لكان الأمر مختلفًا، أما الآن فهو، المسكين، على الرغم من أنه لم يتفق مع كلمات سافين، إلا أنه اعترف بأنه سيطيعها. وهل لديه مخرجٌ آخرٌ؟!

في هذه الحياة الطويلة كالأمعاء الدقيقة لخروفٍ، كان هناك الكثير من الأشياء التي لم يوافق عليها، بمقدار تلك التي كان مضطرًا إلى إطاعتها، عند موافقته في كل مرة، بدا كأنه يبتلع سكاكين حادة ومشحوذة، واعتاد على ذلك منذ زمن؛ لذلك، م يقلق الرجل العجوز على الإطلاق عندما بدأ جيب سافين الواسع في تغطية القمة التي قتل عندها حصانه الكستنائي.

مرة أخرى بدأ حزن ثقيل يتحرك في صدر الرجل العجوز، في هذه اللحظة كانجوغان الذي كان ينظر إليه طوال الوقت، بدأ فجأة يتبدد وكأنه سراب قابل للغسل، مما جعل الرجل العجوز يقول بصوت لم تتغير نبرته: "ها قف!"، في الآونة الأخيرة، كان بعد أن درس وفهم بصعوبة هاتين الكلمتين،لم ينتبه إلى مغزاهما التهديدي، لا يستطيع الرجل العجوز أن يستوعب أن ما جرف كانجوغان ليس بسراب، بل دموعه التي يصبها وهو يقف في وسط تيريساكان، الدموع، التي تدحرجت قطراتها الواحدة تلو الأخرى على شعر لحيته، لهذا السبب، أوكي في الظلام الحالك الذي ينتشر في ليالي يوليو، في صمت تام، كما لو كانت أذناه مقطوعتين، فكَّر بحذرٍ واندهاشٍ من أين يمكن أن يأتي من هذا السراب في منتصف الليل. ثم قال الرجل العجوز مرة أخرى "ها قف!"، دون أن يفكر بشكل خاص في، إلى، من، ولماذا يقول هذا، لكن كانجوغان، الذي كان متعًا ومهدًا وفي الوقت نفسه قبرًا لحصانه الشبيه بالفهد، لم يظهر.

الليل الكثيف يغطي سوزاك القديمة، مثل الحليب الأول لفرس ولُدت لتوها، مع هلال صغير مضطجع بحرية

إلى الخلف، يبدو أنه ابتلع كانجوجان، وبالإضافة إلى ذلك، هذا "ها قف" نفسها.

كان حلق الرجل العجوز جافًا، ابتلع الدموع وشعر بطعمها، قال في نفسه إنه ليس سرابًا، بل دموعه.

فرك عينيه بكمي قميصه الداخلي، بيد أن كانجوغان لم يظهر، نظر حوله، الصورة ذاتها، في المقابل على مسافة عصا ممدودة، لف الظلام الطريق، بعد ذلك بقليل، أدغال القصب المهتز، ومن اليسار كانت تومض أضواء القرية البعيدة، وعند قدميه يستلقي القمر.

تذكر الرجل العجوز أنه كان يقف في الماء، لكنه لم يستطع التحرك، مصيبة، مثل الغراء، يشده إلى قاع الجدول، أوه، لم يختفِ كانجوغان وحده، ولكن أيضا المكان الذي كان فيه كما لو بشفرة حادة قُصَّ من الجذر، بالضبط الشيء نفسه. الآن اضطرب الرجل العجوز بشكل فعلي.

الأرض، التي في الوقت نفسه تحمل في رحمها الموت والحياة على حد سواء، غاصت فجأة في النعاس، واستولى الخوف على جسد الرجل العجوز، هذا الخوف، من دون أي احترام، بأيدي الليل قيَّد جسد الرجل العجوز بقبضة حديدية.

ما هو هذا الرعب غير المتوقع؟ لا يعرف، ربما كانت هذه هي روح الكستنائي، ربما كبُرت أدغال القصب الكثيفة، التي لم تعد طعامًا للكستنائي في الربيع ونمت في الخريف، باحثة عن وريثه الوحيد، الأشهب، قال الرجل العجوز: "إيه، لماذا تحتاج إلى البحث عن الأشهب؟" لدى الكستنائي انتهت فترة صلاحية "جواز السفر"، والأشهب يمشي هنا، تهمس في مكان ما بالقرب أعشاب لحية التيس والهندباء.

بدأ الرجل العجوز بشكل غير متوقع في تقديم التبرير لنفسه أمام الليل والأرض، حيث لم تكن هناك أي أصوات أخرى باستثناء صراخ عصفور زمار الرمل الجائع ونقيق الضفادع. لكن يد الخوف لم تضعف قبضتها.

تعرَّق الرجل العجوز، وعندما تصببَ العرق البارد على طول عموده الفقري وبدأ، مثل كثيرات الأرجل، يزحف على جبينه، سمع صهيل الكستنائي، كان ذلك صهيل الكستنائي الراحل، الذي صهل بشكل قصير ومتقطع، وكان فيه مرحه وطبعه.

في البداية، جاء هذا الصوت من بعيد، من جانب أحجار كيندير لي الرملية القاتمة، وعند تقطعه من وقت لآخر، كان يُسمع أحيانًا بالكاد، فجأة انفجر من تحت أقدامه، من مياه النبع التي تشبه المرآة، ومن ثم عبر السماء، بدأت تتردد بشدة بصدىً في أدغال القصب أغنية الكستنائي الذي لم يعد موجودً، روحه الثكلى وعظمته وشجاعته، تبين أن العرق الذي غمره من قبل كان عرقًا خفيفًا، الآن هو غارق بحق.

ثم نظر مرة أخرى نحو كانجوغان، ومن جديد لم يكن كانجوغان مرئيًا.

-ما به؟

قال الرجل العجوز.

غالبًا ما زاره حصانه الكستنائي في المنام، في بعض الأحيان رآه، واستيقظ كما يستيقظ من كابوس، لكنه في الواقع لم يسمع صوته بهذا الوضوح من قبل، وحقيقة أن صوته كان اليوم تحديدًا، عندما كان يختنق من

الحزن، وغير قادر على ضمه إلى روحه، تحت غطاء الظلام، في هذه الليلة الصافية، مثل سجادة صلاة كانت قد صبت على المنطقة، ظهر بشكل غير متوقع مرة أخرى إلى هذا العالم وارتفع فجأة عاليًا، ورمى بالرجل العجوز في رعشة تشنجية، هذه الرعشة في لحظة، مثل قضيب، قطّعت جسده فوق الركبتين، هنا صهل الفحل الكستنائي، صهل حيوانه المحبوب الراحل كما كان يصهل بحماس من قبل، طالبًا العلف، ونافخًا منخاريه، هذه المرة كان يُسمع من الخلف وأقرب بكثير، علاوة على ذلك لم يتردد صدىً.

سرب من البط طار فوق رأسه تمامًا، عندما بدأت الأصوات من رفرفة الأجنحة الكثيرة، مثل أصابع مؤدي كيوي((24)) شاب قادرة على استخراج ألحان غامضة من الدومبرا، ومع ابتعاد السرب، سُمعَ الصدى.

قال الرجل العجوز: "واه، واه، أيها الأشهب، أنت الغالي، الغالي، اتضح أن هذا أنت"، على الرغم من أن الأشهب كان يبلغ ثماني سنوات من العمر، والذي يمتطيه ثمانية فصول ربيع، وثمانية أشهر يوليو يمتطيه، إلا أنه لم يسمع صهيله قط، "تمامًا مثل والده، لا سمح الله أن يتكرر هذا المصير، صوته مثل صوت أبيه".

– يا غالي، السلام على المرسلين، يا غالي.

صاح الرجل العجوز، وهو يبتلع تتمة السورة التي كان قد بدأها، لقد نسي، منذ قليل كان خائفًا حتى الموت، والآن ركبتاه لم تعودا ترتجفان، فقط قلبه، كما لو مسته عصًا متوهجة، يدق ويدق.

خرج أوكي من الماء، بصعوبة، بدون أن يشعر بهما، لفّ ساقيه الخدرتين من البرد، مع حذائه الخشن القذر، بصعوبة، قبل أن يضع رجليه في الركاب، سحب الرجل العجوز حذاءه، ورمي القفطان على كتفيه، وذهب، وسقط بين الحين والآخر في طين المستنقع الذي من المستحيل السير فيه، في اتجاه وادي جوغين؛ حيث كان يدوي صوت الأساور المعدنية.

والعالم الليلي الذي يوجد فيه الرجل العجوز غير مبالٍ وغير مكترثٍ، كثيرون هدأوا، مثل طفل حالم لم يعرف الحزن بعد، هذا العالم لا يعرف إلا نفسه، ومنشأه، ورطوبة مارس التي تتجول في عروقه، يعرف أغنية الخضرة، هذا العالم هو مثل امرأة ولُدت للتو، سلمت من الحمل، وشبعت كالجا((25))، والآن بعد أن تعرقت، نامت، هذا العالم، مثل المرأة، متعبٌ أيضًا، لكن تعب هذا العالم هو نفسه العصائر الواهبة للحياة؛ يشرب منها ويتمتع بتواضع، عاثرًا في ذلك على الهدوء، لا يهتم بالأشهب الذي صهل عندما رأى الظل الأبيض في تيريساكان؛ ولا بأن ساقيه السريعتين مقيدتان بالأغلال؛ ولا بالرجل العجوز وبأنه قديم مثل كانجوغان، بالطبع، ما لم يوضع في الحسبان حقيقة أن هذا الأخير هو قمة جبلية؛ ولا بالحزن العميق في روحه الخَربة، مثل كانجوغان. إنه عالم الليل.

بعد مرور بعض الوقت، رأى الرجل العجوز جزيرة أدغال القصب، ربما يرجع ذلك إلى حقيقة أنها ظهرت من مياه النبع السوداء كالنفط، ولم تنحل سلالها بعد، وبدت سيقانها فاتحة، كلها مندفعة إلى السماء

(24) كيوي: قطعة موسيقية شعبية كازاخية، تعزف أساسًا على آلة الدومبرا.

(25) كالجا: مرقٌ، يحضَّرُ للمرأة النفساء.

الدافئة، وإلى الهلال الفتي، ومن ثَمَّ كانت تمدُّ قصبها إلى الأعلى.

وسط دغل القصب، سار الرجل العجوز، على رأسه قلنسوة غارقة في العرق وفقدت لونها الأصلي، وعلى كتفيه تشابان((26)) قطني، كان القطن يطلُّ من ثقوبه في بعض الأماكن، ساقا سرواله متدليتان فوق حذاء المشمع، إنه ذاهب إلى أشهبه الذي يُعدّ بالنسبة لسافين شيئًا، علامة في اللائحة، وبالنسبة له هو الشيء الوحيد المتبقي من الإلهام والشجاعة؛ إلى أشهبه الذي يعرف كل مذاق السهوب المحيطة به، من خلال الأغلال التي تربطه.

في هذه الأثناء، أمسك الرجل العجوز بعدة قضبانٍ من القصب وسحبها، لم تقاوم القصبات ورضخت له من الجذور، وخاطبها قائلًا: "أنت ما زلتِ غضة، مثل الأطفال الرضع الذين لا يزالون بلا أسنان".

قال كل شيء لحزمة القصب، بل نصحها بألا أن تنحني أمام أي قوة آمرة مهما كان بطشها، قال ذلك في شكل تعليمات تصدر من الأكبر الذي يرى أن من واجبه تحذير الشتلات التي لم يقوَ عودها بعد، في الوقت نفسه، تجاهل حقيقة أنه هو، مثل هذه القصبة الفتية، سهل الانقياد وهش، على الرغم من أن مفاصله لم تتحجر مثل زهر النرد فحسب، لكنها أيضًا بدأت تجف، ولم يكن لدى أوكي أي فرصة للتفكير في ذلك.

والحقيقة أنه في عجلة من أمره الآن، كما لو أنه مع كل خطوة قصيرة له، يركل جانبًا كل الأفكار غير الضرورية والزائدة التي تهاجم رأسه في بعض الأحيان، والحقيقة أن الرجل العجوز، بعد أن خرج من النبع، لاحظ أنه بمجرد أن يمتلئ الرأس، يصبح الأمر أثقل بالنسبة للساقين، هو يخشى إذا هاجمته الأفكار باستمرار، ألا يتمكن من الوصول إلى وادي البرسيم، حيث يرقد الأشهب. لكن حتى في الوقت الذي كان خلاله في أدغال القصب، وبعد أن خرج منها، التصقت بأوكي كالعلَّيق هذه الأفكار اللعينة التي ومضت من حيث لا يدري.

في مثل هذه اللحظات، لم يكن قادرًا على مقاومة الغزو القوي للعليق، وكان عليه أن يتكيف مع وجوده: دون حماس، ولكن بدون غضب أيضًا، وخلاصه الوحيد تمثَّل في الهروب، ركض، مشى مثل الثعلب، وكما لو أن الأفكار الملتصقة برأسه، لم تنجح في التشبث برجليه.

فرح الرجل العجوز بقوة لأنه تمكن من تجاوز أفكاره الخاصة، بالإضافة إلى ذلك، كان سعيدًا لأنه كان لديه أمل في التخلص من شظية الرصاص المغروزة في صدره، إنه لا يعرف كيف له أن يتخلص منها، لكنه يشعر بأنه سيصل إلى الحل اللازم، يشعر بذلك، وينزل من جديد في جريه الثعلبي....

تخلص الرجل العجوز من الجدول الجاف منذ ثلاثة أو أربعة أعوام، ووصل إلى تلة جوغي، بعد ذلك توقف، وبدأ يقرأ مقطعًا من سورة من القرآن الكريم تبادر إلى ذهنه، وفجأة قال بصوتٍ مختنق "عين العين، يا غالي"، في هذه اللحظة، دوى صهيل حصان، والرنين الفضي لسلسة.

بالتأكيد كان ذلك رنين سلسلة الأشهب، في حين كان الصهيل لحصانٍ آخر، بأكثر دقة صهيل فرسٍ.

(26) تشابان: اللباس الخارجي.

عقب ذلك، ومع تدلي قميصه الداخلي الأبيض حتى الركبتين، مشى الرجل العجوز وركض بالتناوب، وأخيرًا تدحرج متشقلبًا إلى الغور، تدحرج، لأنه شعر ببرودة في قلبه، من حقيقة أنه في مايو،كان عيد الرعاة، وأراد هو وضع أشهبه في السباقات، والآن ظهرت هذه، الكسول....

أوه،... أمك ....

لم يضطرب الأشهب عندما رأى الظل الأسود والأبيض يتدحرج من الربوة، هو يعرف أنه هو، انتظر الأشهب طويلًا، انتظره، لأنه كان دائمًا ينزع عنه الأغلال المقعقعة المزعجة، ثم يمتطيه بدون سرج، ويمضي، الفحل الأشهب، الذي شعر في أردافه بدغدغة نسيم المساء الخفيفة، انطلق في عَدْوٍ متأنٍ.

عند اقترابه من الظل الأسود والأبيض المتمايل، صهل الفحل الأشهب، وحفر التراب بحافريه، لعلمه جيدًا أن هذا فقط هو الشخص الذي يمكن أن يعتقه من العناق الثقيل للأغلال، لكن الرجل العجوز لم ينظر إليه، وهرع إلى مطاردة الفرس ذات الذيل الضخم، التي التقت مؤخرًا بالأشهب خارج هذا الغور، ومنذ ذلك الحين، تلاطفه، ولم تبتعد عنه.

الفرس الشقراء، التي بدأت فروتها للتو بالتساقط، استدعت في جسد الأشهب رعشة حارة، وجرأة غير ناضجة، وغمرته بفيض من المرح الممتع.

متأخرًا، على الرغم من أنه تدحرج من التل كما لو كان هاربًا من ذئاب، غمغم الرجل العجوز وتحرك بشكل مغاير، وليس كالمعتاد، لينثر مشاعر الفرح الجارفة بالأشهب الذي رآه عند الغسق، ومع ذلك، فإن الفرس الفتية التي وجدت الآن قرينها، لم تفكر في أن تولي اهتمامًا بصرخة الرجل العجوز، الذي يمكن أن يهددها وهو يلوح بسوطه، ومع ذلك ابتعدت ووقفت تتلوى.

تمتم الرجل العجوز: "يا إلهي، يا إلهي"، هذه الأنثى، ورغباتها الجسدية لا يمكن كسرها بكلمة،" لقد قيد العجوز الفرس الشقراء بالأغلال، ثم، مع الاعتقاد بأن هذا لم يكن كافيًا، ربط ساقيها بشكل غير وثيق بالحبل الذي كان مشدودًا حول خصره، وجلس على تلة صغيرة.

الفحل الأشهب، وهو يشم بالتناوب تارة الرجل العجوز، وتارة الفرس، اقتنع أخيرًا أنه سيحصل على المساعدة من واحدٍ، وعلى الحنان من الآخر، فوقف مرتبكًا قليلًا، إذا خرج الآن فإنه سيفارق الفرس، وإن بقي فهو لم يشرب الماء طوال اليوم، وليست هناك أغلال على ساقيه.

رفع الفحل الأشهب ذيله بمرح، وتحرك إلى تيراساكان.

لم يعره الرجل العجوز اهتمامًا، وجلس ضائعًا، كما لو أنه ضُرب بكل قوة على مؤخرة رأسه.

ذلك أنه عندما انتهى من ربط الفرس الشقراء بالحبل، تذكر سبب وجوده هنا؛ فالأشهب كان موضوع صفقة قذرة: مهما حفظه من الفرس الشقراء، فإنه اليوم أو غدًا سينتهي "جواز سفره" كسهم اخترق قلبه.

لم يرَ الرجل العجوز كيف وثب الأشهب فوق الرابية، ولم يسمع حتى كيف ارتجفت الكرة الأرضية الكروية،

وكأنها غير قادرة على تحمل وزن الصولجان.

في صمت تام استلقى مجعدًا البرسيم الذي برَّده ندى ما قبل الفجر، دون أن يتحرك.

هناك فرس شقراء، هناك قمر وسماء غطت بعض أجزائها غيوم خفيفة؛ هناك، بطبيعة الحال، ليل فتنه بكاء عصفور حزين، لكن كل هذا فقد كل معنى بمجرد تذكر الرجل العجوز سبب وجوده هنا.

قال الرجل العجوز بصوتٍ كئيبٍ من الحزن، وكأنه يخرج من صدر كوبيز((27)):"واو، إلى أين سأذهب غدًا؟ إلى أين سآتي غدًا؟ ها أنا على الأغلب أصبحت مجنونًا تمامًا: لقد ظهر عاشق سباقات، يفتقد إلى كل شيء ذي قيمة، ولكن ما الذي يفكر فيه؟

"ماذا فعلت بحق الجحيم، تضعه أنت في السباق، ماذا فعلت بحق الجحيم، أوه، ....أمك ...." قال الرجل العجوز، متحمسًا على الفور، من أنه سيسخر الآن من نفسه. "وأنت ضع نفسك في السباق، أو أبعد بقرتك المرقطة الهزيلة".

نيغميت لم يأخذها، نيغميت لم يأخذها أبدًا، ضع حمارتك الرمادية، ضع، ضع، أقول، لماذا دلّيت رأسك مثل بومة عجوز؟ اركب، ومن لوح بلحيتك، فالبقرة في كل الأحوال لا تقفز بسرعة، لذلك، دون قلق بشأن إمساك الرَّسن، دُس كيفما كان، على الرغم من أن الدورات الست لن تكون كافية بالنسبة لك، حتمًا ستكون الأول في واحدة منها، وبالفعل بدا له أن يشارك في سباق للخيول على ظهر بقرة، ويسمع بالفعل ضجيج وصرخات الناس الذين تجمعوا في السهول المكسوة بالعشب خلف القرية.

كاد الرجل العجوز أن يسقط على الأرض.

انتابته حالة من تأنيب الضمير لشعوره بأنه يذل نفسه بوحشية، لكن ماذا تبقى عليه أن يفعل؟! ليس هو من مد الشباك، وكان خطؤه الوحيد هو أنه وقع فيها، إلا أنه لم تكن لديه القوة ليبدأ الآن في الحفر ليصل إلى جذور معاناته، وفهم حالته، الشيء الوحيد الذي فعله أنه تدحرج على جانبه، لأن ساقيه بعد أن دفئتا أصبحت خدرتين.

البرسيم بارد كالجليد، بعد أن التصق بخده غير الحليق منذ زمن بهذا البرسيم البارد، العجوز الصغير يجثم منحنيًا.

يمور في جسمه الصغير غضب بحجم جبل، الرجل العجوز، الذي يمزق صدره هذا الغضب، فكر في أن حياته، تضاءلت بالفعل إلى حجم مقبض مجرفة صغيرة.

هل سينتظر طويلًا صلاته المسائية، التي يدفع ثمنها لحيته الرمادية، وعمق تجاعيده، صلاة الليل هذه ستنزعه من كيندير لي، ومن حفيده آبيلاي، ومن هذه الليلة الهادئة، الهنيئة للأرواح الخانعة، ومع ذلك فإن هذه الفكرة لم تُخف الرجل العجوز، ومنذ أن قُتِل ابنه الوحيد سيريك في الحرب التي هدأت، يعلم أن لدى

(27) كوبيز: آلة موسيقية وترية.

كل شخص في عيد الحياة هذا صباحه، وظهره، ومساؤه، "إذا كان العالم قد ابتلع فارسًا شابًا قويًا في الحال، فهل سيشعر بالأسف تجاه شخص آخر؟ "قال عندها الرجل العجوز، "نعم، صلاتي المغرب هي يومي الحالي،" -قال الرجل العجوز الآن. - غدًا -صلاة العشاء؛ ابتداء من يوم غد، صلاة عشائي.((28))

لا يشعر الرجل العجوز الآن بالألم من حقيقة أن الموت يمشي على رءوس أصابعه ويراقبه، مختبئًا وراء أغصان الأشجار والوهاد؛ ولا حتى من حقيقة أن سافين يسلبه سعادته الحقيقية الأخيرة، يؤلم الرجل العجوز أنه يفعل ذلك بهذه الطريقة.

يعرف الرجل العجوز أن المزرعة الحكومية هذه السنةلم تنفذ خطة شراء اللحم، ومن ثَمَّ فإن الأصول بأكملها تتبع طريقها المعتاد مع السكين في الحلق لزيادة الأرطال الناقصة، من خلال القيام بالتدوين المعتاد، لكنه ليس ضد أفعالهم هذه، هنا، فوق رأسه سماء ضخمة، هنا، فرس فتية،لم تنسكب من حلماتها قطرة من الحليب، مستعدٌ لأن يحلف: إنه ليس ضد ذلك على الإطلاق.

"كان الشتاء قاسيًا، وقعت الأغنام المسكينة، لذلك لم تنفذ الخطة، حسنًا، وماذا إذا لم تنفذ؟ من سيلومك على ذلك، من سيتهمك بأنك وغدٌ؟ فأنت بحاجة إلى اللحم؟

حسنًا، ما الضروري؟ اخرج، وتلك البقرة المرقطة خذها، فقد قال "خذ" وهل لا تحتاج إلى اللحم، يا عزيزي نغميت؟ ليس لحصان، وليس لسباقات الخيل، لا لصهيل، تحتاج إلى اللحم! سوف تزن اللحم على الميزان، وحزني اليوم، ومرارتي التي تحرق هذه الحنجرة العجوز، على أي ميزان ستضعها، على أي إله يمكنك أن تعرضها لتنمو ذريتك، إيه، يا نيغميت؟ لهذا السبب أنا غاضب، وليس بسبب أنني كبرت وأفكر في الموت، روحي تتمزق، أتخبط مثل ثعلب مُطاردٍ لاصطياده بالنار والدخان. إذا كان الموت لا يخاف مني؛ لماذا عليَّ أن أخافه؟ لقد عشنا حياتنا، عايشنا النبي لموشيل((29)) كاملة.

والشخص الذي بلغ هذا العمر ليس من المفترض أن يخاف من الموت، بل من الحياة، وهل لديَّ، أنا العجوز الذي لم يعد قادرًا على إمساك السوط بيديه، القوة لمحاربة رجل ضخمٍ مثلك؟ تتلاحق عبارات الرجل العجوز، وبالكاد يمسك دموعه.

الرجل العجوز نجح في كبح موار الغضب بداخله على نحو ما، لكن جرح الروح، الذي ضغط عليه طويلًا بسبب سافين المهذب، لم يهدأ، وعلاوة على ذلك، ترقب فحله الأشهب، الذي ذهب ليروي ظمأه من نبع تيريساكان، مرة أخرى بشكل لا إرادي نكأ الجرح.

بعد ذلك نظف أنفه، وفك قيد الفرس الشقراء التي ظلت تتطلع طوال الوقت إلى الهضبة.

اتضح أنه هو أيضًا مربوط بقيود، قيود الشغف بالأشهب، يعرف الرجل العجوز هذا جيدًا، حتى إنه في لحظة كآبته وحزنه، رأى أنه في الحالة البائسة نفسها التي تعانيها الفرس الشقراء، لذلك أطلق سراحها، ولكن من

(28) يشبه المؤلف فترات عمر الإنسان بالصلوات التي تؤدى على مدى اليوم.

(29) موشيل: 12 عاماً.

الذي سيحرره، من سيفك قيوده؟

لا يعرف، هو حقًا يرغب في أن يعرف، لكنه لا يعرف، هو نفسه لا يعرف، وهو لا يعرف من كان ليعرف، لم يغضب الرجل العجوز قط، عندما لم يحصل على شيء ما، أو لم يحصل عليه بالمقدار اللازم، لم يقلق إذا أعطى أكثر، كان يقول إن العائلة لا يمكن أن تكون بدون نفقات، ولكن اليوم، في الوقت الراهن، عندما يرى الأشهب يدور ويتلوى حول الشقراء، يدرك أنه من المستحيل أن يقدم كل شيء بالتسلسل. يمكن للإنسان أن يعطي الكثير، يمكن أن يعطي القليل، لكنه لا يستطيع أن يعطي نفسه، لأنه هو ألا يحتاج إلى نفسه، عداك عن الآخرين؟

في تلك اللحظة، ليس أمامه إلا الغضب، أو الدموع، بدا وكأن قضيبًا ملتهبًا انغرس في صدره.

عندما وقف الرجل العجوز، في محاولة لتجنب هذا الألم، أدرك القيمة الحقيقية للأشهب وأهميته.

نعم، نعم، من هو الأشهب، من أنا؟"

بعد ذلك، بعد أن طرد الأشهب، خلع عن الشقراء القيود.

عاد إلى مكانه، وجلس، وضع الأغلال جانبًا.

ومرة أخرى قال: "نعم، نعم، من هو الأشهب، من أنا؟"

بعدها لم يستطع الرجل العجوز أن يقول أي شيء، أراد أن يتحدث عن الكثير للتخفيف عن قلبه، لكنه لم يجد الكلمات، على الرغم من أن هذه الكلمات التي لم ينبس بها ،لم تكن في الحقيقة ضرورية للرجل العجوز. لأنه في ست كلمات، في كل واحدة منها، مثل ساكا ((30)) أرخار، كانت حياة الرجل العجوز العاشق للخيول.

نعم، نعم، من هو الأشهب، من أنا؟ "

أود أن أقدم نفسي لحمًا، وكنت متأهبًا لأن أفعل ذلك، لكنك في الواقع لن تقبل، يا ابن العاهرة، أنت لن تأخذ، وإلا لكنت قد أعطيتك... الحصان هو الريح، الحصان هو الروح التي تتملكك بمجرد أن تلمس عُرفه، نعم روح، روح السهوب، السهوب نفسها، بعد أن هرب من السهوب، أعطيت السهوبَ لحمًا، أين يمكنني الذهاب! أوه .... بدأ الرجل العجوز، ولكنه لم يستطع إنهاء كلامه، بدأ في البكاء، ثم سقط مرة أخرى على الأرض، وكان الرجل المسن مغطى بحزن شديد، انهارت السماء الملطخة بالغيوم الملونة، وكأنها قُطعت من "كيريغي"((31)).

انهار وتقلص قلبه الذي جن جنونه من الحزن والدموع.

مستلقيًا هكذا، شعر الرجل العجوز بضغط عدواني في صدره، هل جاء من السماء؟ أم من الأب والابن والكميت والأشهب؟ إنه غير مرئي يشعر به فقط، يرميه على الأرض، لكن الأرض غير المكترثة والغاضبة لا تفتح أحضانها للرجل العجوز، وكأنها تقول له: "اكذب، ابكِ، بقدر ما تشتهي، فقط لا تسألني الشفاعة، على

(30) ساكا: العظم الذي يُضرب في لعبة الآسكي.

(31) كيريغي: الشبكة الجانبية لليورت.

الرغم من أنني أنجبت شفيعة، ولكن أنا نفسي لست واحدة منهم، أنا أعرف فقط أن كل شخص لديه مصيره وقدره الخاص، أنا أقول، لا تهمني المواربة، إذا كنت تريد أن تتخبط، تفضل، فقط لا تجرب أن تتعدى على أغنية التزهير، ولحن التزهير الراقص في روحي"، ما هي؟ كما لو أنها تقول: "مت، اغرب".

نهض الرجل العجوز، على الأرض كانت القيود الملقاة تلمع بالبرد، صهل المهر الأشهب، ثم لمس بشفتيه جانب فرس، عضه، قبَّله، ناظرًا إلى الرجل العجوز بغير اكتراث.

القمر غائبٌ، العصفور الزمار لم يعد مسموعًا، لا يوجد سوى حزمة من البرسيم الصغير تمضغها الفرس الشقراء.

الليل الآن أسود، مثل القاع المحترق لمرجلٍ؛ غير مبالٍ، ومتغطرس، مثل جثة ميتة.

الرجل العجوز بحث عن كانجوغان، هذه المرة لم يختف كانجوغان، ومع ذلك، استمر في فقدان عظمة ظهوره، كما لو تم قصه من الأعلى، بدا أصغر، مثل قبرٍ عملاق، انحنى وغرق في نوم عميق.

بعد ذلك، بعد أن وضع الرجل العجوز الرسن على الأشهب، كالعادة بدأ بالبحث عن مكان أعلى، وقفز عليه على الفور، ثم، بعد أن علق الأصفاد أمامه من خلال السرج، اتجه نحو القرية.

الفحل الأشهب يعرف جيدًا أي تقلبات طرأت على المسارات التي لم يتم السير عليها منذ زمن في هذه المناطق.

مد عنقه على الفور، ولم يشعر بمقاومة طوق الرسن، وتحول فجأة ليغادر الخمائل.

سارا على طول الطريق.

أضواء الليل، كقاعدة عامة، تومض وتتأرجح، وتبدو في برودة وغضب، على الرغم من أنه يمكن رؤيتها من بعيد، فإنها، هنا وهناك، كثيرًا ما تومض.

يعرف الأشهب أنه في الطريق إلى القرية، لن يعطيه الرجل العجوز الحرية. لو أنه توانى قليلًا، لأحرقت كامل جسده موجات من الأصفاد النارية، بعد ذلك، خطا بعناية، ووجد الطريق تحت حوافره، ودون سماع تايت((32)) المعتادة، قفز الرجل العجوز ببطء في البداية، ثم شخرَ واندفع إلى الأمام... عندما مسد الرجل العجوز رأسه، لمست يده الجمجمة العارية؛ العارية الرطبة، اتضح أن قبعته طارت.

.... كانت السماء تمطر منذ فترة طويلة،لم يلحظ الرجل العجوز ذلك، ولم يلحظ ذلك الآن أيضًا، انحنى نحو عرف الأشهب، لا لأنه أراد أن يحجب وجهه عن صفعات الأمطار الضاربة، لكن تلك كانت عادته.

.... سمع الرجل العجوز لحنًا، هل هو جزء من كيوي، أم نواح على ميت، أم صوت شقراء لعوب؟ هو يُسمَع أحيانًا مثلما بكى بشدة ذات مرة حفيده الأسمر النحيف الذي سافر إلى ألماتي للدراسة؛ إنه أنشودة، ما هذه الأنشودة؟

.... شعر الرجل العجوز برائحة دماء طازجة تنزف من جسد بلا إحساس، الآن فقط سمع الرجل العجوز

(32) تايت: صيحة عند قيادة الحصان.

قرشة الحوافر التي كانت تعجن الوحل، وبمجرد أن اخترقت أذنه هذه الأصوات، أدرك أخيرًا جوهر القرار نفسه الذي كان يلمع في رأسه طوال الوقت، ويفر باستمرار من وعيه: "سأذبحه!"

"سأذبحه" صاح الرجل العجوز في وقت لاحق، طامسًا لبرهة صوت المطر، وجارفًا صوت الحوافر التي تعجن الوحل.

.... يسمع الرجل العجوز لحنًا، هل هو جزء من كيوي، أم نواح على ميت، أم صوت شقراء لعوب مع إشارات حرقة بلون إكليلية المروج؟ بشكل عام أنشودة دموية، ما هذه الأنشودة؟

.... إنه هو من ربّاه!

هو من أراد أن يزرع الشجاعة في جسد حفيده الأسمر الواهن، والنار في عينيه، وأن يغرس الشجاعة في روحه!

وهل مَن لا يمتطي الحصان بقوة كاملة، يمكن حُسبانه رجلًا؟!

هل يمكن أن تعيش الأرض بدون قرشة الحوافر؟!

إلى أين سيقفز الآن، متى، علامَ سيقفز؟

.... شعر الرجل العجوز برائحة دماء طازجة من جسد بلا إحساس.

باغت ضوءٌ عينيه، جفل، اتضح أنه وصل إلى المنزل، كان ضوء المصابيح الأمامية للدراجة النارية "ذات العجلات الثلاث" لشقيقه الأصغر موكان الذي كان يصلح شيئًا ما فيها، اقترب موكان.

-إلى أين ذهبت؟

لم يسمع الرجل العجوز سؤال الشقيق الأصغر.

كان يتأرجح لينزل الأصفاد في الضوء الساطع الذي كانت الدراجة تحدق به، وسرعان ماخرجت المرأة العجوز البيضاء الوجه، وهي تغطي رأسها بتشابان، في حين اختبأت الفتيات الصغيرات، ممسكات بأطراف ثوبها، المتشابكة تحت قدميها.

- أيها المسكين، ما الذي خطر ببالك لتقتحم القرية في منتصف الليل على الحصان؟

صاحت وهي تتناول الأغلال من يديه.

- أحضري السكين.

- ماذا يقول هذا التعيس؟ قالت المرأة العجوز، بعد أن شحب وجهه.

- أحضري السكين.

قال الرجل العجوز، وهو ينزل من على الأشهب.

مشى عبر البرك، وسار بخطوات سريعة نحو الدراجة، ليركل أضواءها، وعلى الرغم من أن زجاج المصابيح الأمامية قد تحطمت، إلا أن إحدى اللمبات لم يصبها أذىً، فركلها.

عصبية الرجل العجوز معروفة للجميع، إذا أجبر على أن يكرر الفعل مرتين، فإنه في المرة الثالثة ينال

من الجميع، جلب الأخ الأصغر السكين، بعد ذلك قطع الرجل العجوز قطعة من عُرف الأشهب الذي عضه بيده طالبًا الطعام، مسحها في البداية بنفسه، وبعد أن رطبها بلعاب الأشهب، أعطاها للمرأة العجوز، المرأة العجوز النحيفة ذات الوجه الأبيض فهمت الآن أفكار الرجل العجوز، وهي تدفع الفتيات بعيدًا عنها، وتلقي كلا من الأغلال والعصا، وصرخت:

- أيها التعيس، ما هو ذنب المهر المسكين، الأفضل أن تذبحني أنا، ما الذي يخجلك كرجلٍ ستخجل أمام أبيلاي، اذبحني أنا.

همت بانتزاع السكين الكبيرة من يد الرجل العجوز.

كانت السكين ذاتها التي أسالت قبل ذلك دم الأشقر.

لم يقم الرجل العجوز بدفعها، لكنه لم يترك السكين من يديه أيضًا، نظر إلى عجوزه الصغيرة التي تحول بياض وجهها ومنديلها إلى اللون الشاحب، وهو يلمع في الظلام، قال: "ما العمل يا رابا؟، ماذا عساي أن أفعل الآن؟

لم يتوقف المطر، بل على العكس، اشتد عزمه وغزارته. عندما ومض البرق. صغرى الفتيات الثلاث رايا، حبيبة الرجل العجوز، التي لم يكن من الممكن العثور عليها وسط هذا "الصراخ"، صرخت من الخوف، ورأت في النهاية جدتها التي أضاعها نظرها، أمسكت بيد الرجل العجوز، كما لو كانت تصافحه، بجانبهم الأشهب يبدو غير مبالٍ، لم تر أباها على الرغم من أنه كان بالقرب، كما أنها لم تر الأصفاد المعلقة فوق كتفه.

آبيش كيكيلبايف

(1939 - 2015)



- تخـرج كيكيلبايـف مـن كليـة فقـه اللغـة فـي جامعـة كيـروف الكازاخيـة الحكوميـة عـام 1962. وعمـل مستشـار الدولـة لجمهوريـة كازاخسـتان (1992-1993)، ثـم رئيسـاً للمجلـس الأعلـى لجمهوريـة كازاخسـتان (1994-1995)، ثـم أصبـح نائبـاً فـي المجلـس ببرلمـان جمهوريـة كازاخسـتان، ورئيـس اللجنـة (1996) ، ثم أصبح وزير دولة بكازاخستان في الفترة (1996 – 2002) وشغل العديد من المناصب الرسمية. وفي فبراير عام 2002 تم انتخابه عضوا بمجلس الشيوخ ببرلمان جمهورية كازاخستان.
- صـدرت أولـى دواوينـه الشـعرية عـام 1962 بعنـوان "الشـعاع الذهبـي"، وصـدر لـه حتـى الآن مـا يقـرب مـن عشـرين كتابـاً تثريـاً وصحفيـاً. ومـن بيـن تلـك الأعمـال: "السـحابة الوحيـدة" عـام 1966، "قصائـد السـهوب"، عـام 1968، "طيـور الكُركـي الصارخـة" عـام 1973، "حفنـة مـن الأرض" عـام 1974، "جنـاح الطائـر" عـام 1978، "المنافسـة" عـام 1965، قصـة "خانشـا- داريـا" عـام 1968، قصـة "الهاويـة" عـام 1971، قصـة "النقوش الرائعـة" عـام 1974، قصـة "منـزل فـي الضاحيـة" عـام 1978، قصـة "نهايـة الأسـطورة" عـام 1971، قصـة "العش والسـهم" عـام 1968، قصـة "إيقـاظ الجميلـة النائمـة" عـام 1975، قصـة "وجهـا لوجـه مـع العصـر" عـام 1972، قصـة "محادثـة مـع زمـن الحداثـة" عـام 1994، قصـة "صبـاح الحريـة المشـرق" عـام 1998، كتـاب "عالـم الأدب وتطـور الفـن" عـام 1999، كتـاب "الاسـتقلال واللغـة" عـام 2009 وغيرهـا مـن الأعمـال.
- يمتاز ابداع كيكيلبايف بالثراء اللغوي، والتشبع بروح الوطنية وعمق التحليل النفسي. كما ساهم في الفن الدرامي من خلال كتابة المسرحية البطولية الشعبية "أبيلاي خان" عن الخان الكازاخي أبيلاي.
- تُرجمت أعماله إلى اللغات الروسية، والبلغارية، والألمانية، والبولندية، والتشيكية والهنغارية.
- قـام بترجمـة روايـة "الحـرب والسـلام لــ" تولسـتوي، وروايتـي "بيـر وجـان"، "الحيـاة" ل جـي دي موباسـان إلـى اللغـة الكازاخيـة. كمـا ترجـم الأعمـال الدراميـة لشكسـبير مثـل "الملـك ليـر" و "روميـو وجوليـت"، وروايـة "العـم فانيـا" لــ تشيخو. كما ترجم أشعار الشاعر الروسي ليرمنتوف، وأشعار الشاعر الألمانى هاينرش هاينه، والشاعر السوفيتي إيفيندي كابييف والشاعر الداغستاني راسول حمزتوف.
- حصل عام 1986 على جائزة آباي الحكومية من كازاخستان عن روايتيه: "كوكبة الأمل"، "قبيل الفجر"
- حصل على جائزة "تارلان" عام 2003 وجائزة" السلام والوفاق" من رئيس جمهورية كازاخستان.

أعشاب السلحفاة

إذا كان مقدَّرًا للمرء أن يكون محظوظًا، فعندئذٍ كل شيء يسير بسلاسة وبنجاح من البداية، في الوقت الذي تستغرقه الزوجة بطيئة الحركة ساكيب في صناعة الشاي، تستطيع القرية الرحيل، والوصول إلى المكان المقصود، ونصب الخيام، لكن في هذه المرة استغرق إبريق الشاي وقتًا أقل بكثير ليصل إلى درجة الغليان، الحصان سريع القدمين، الذي دائمًا ما يكون عند الفجر بعيدًا عن القرية، اليوم، كما لو أنهم أبقوه مقيدًا في الليل، يقف بالقرب من اليورت وينظر بانتباه إلى نبتة القرغانة البعيدة بالقرب من الممر.

كارابالا، الذي وضع قدمه في ركاب السرج، فكَّر: "هيه، يبدو أنني سأكون محظوظًا اليوم"، ثم أمسك في يديه الشعرات الرقيقة للجام، وتثاءب: "أوي، ماذا عني؟ كيف لن تكون مذنبًا أمام الله لمثل هذه الأفكار"، قرأ في نفسه آيات، وكررها ثلاث مرات، بعد ذلك، ضرب بكعبه على جانبي الحصان، وقال بهدوء: "اللهم احفظ وارحم".

لمدة يومين أو ثلاثة لم ينم حتى الصباح، إذ لا يوجد شيء في العالم أسوأ بالنسبة له من طلب شيء ما من أحدٍ ما، حسنًا إذا أعطوا، حتى بعد إذلالٍ وطلبات طويلة، ولكن أسوأ من الموت، إذا خرجت خالي الوفاض من ال"أبو"اب التي دخلتها مع الأمل، الحمد لله، ولكن بفضل السندان الأسود والمطرقة السوداء، نادرًا ما كان يتوجه إلى الناس بطلب، الناس هم الذين يسألونه، من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من المساء لا يخرج من ورشة الحدادة على مشارف القرية، لا يذهب مثل غيره من كبار السن من سكان القرية إلى الاحتفالات والتجمعات، صحيح أنه يشارك في الجنائز، في الحالات التي يرى فيها أن الثرثارين يتحدثون هناك أيضًا، عندما يكون المتوفى مستلقيًا على الجانب الأيمن من المنزل، يغضب في نفسه، هذا المحب للمنزل والسكوت، كارابالا، امتطى اليوم الحصان، قرر عدم الذهاب إلى أي مكان، ولكن مباشرة إلى مركز المقاطعة، قرر الذهاب إلى المكتب الرئيسي...

من أجبره على الذهاب هو ذاك المستأسد في الاجتماعات، ذاك المبقبق من المنبر العالي، ذاك الشاكي الذي كان أول من وقَّع على جميع البيانات الجماعية، والذي يعرفه الجميع باسم أونباي، بغض النظر عن عدد الرؤساء الذين يتم انتخابهم في القرية، فإن أونباي هو أول من يتعامل مع كل منهم، ويعارضه بوقاحة، إذا نشب بالقرب من مكتبٍ ما نزاع صاخب يطفح بالشتائم، فإن أونباي يكون في مركز الشجار، باستمرار

يتبادل السباب مع شخص ما، يشتم شخصًا ما بدءًا من أجداده في الجيل السابع، في هذا المجال لا يمكن لأحد أن يقارن معه، كان خبيرًا في الشتائم بالكازاخية والروسية على حد سواء، لم يمر حتى عام واحد منذ أن انتقل إلى هذه القرية خياط كوري عجوز، وبحلول الخريف؛ أصبح أونباي يتبادل معه الشتائم باللغة الكورية بشكل كامل.

مؤخرًا أرسل أونباي ابنه إلى الحدَّاد، ما أن عبر كارابالا عتبة بيت أونباي، حتى بدأ الأخير بالتوبيخ: "أي نوع من الأقارب أنتم، لا تهتمون حتى إن كنا على قيد الحياة، لا تحتاجون إلى أونباي إلا لكي يتجادل مع الآخرين ويشتم الجميع من أجلكم، منذ ستة أشهر وأنا طريح الفراش، لم يأتِ أي كلب إليَّ، قوتي أصبحت غير كافية للاتكاء على هذه العصا الجافة، ابنتك!!!!...، أمك!!!!، - بدأ أونباي يشتم العصا، يجب على الحكومة أن تخصص لي، كعاجزٍ، سيارة، هل تعرف ذلك؟ لذلك اذهب إلى مركز المقاطعة، وحل هذا الأمر، في وقتنا الحاضر، إذا لم تذهب إلى جميع المكاتب أربعين مرة، وتغني جارابزان(1) المقدسة، لن تحل أي مشكلة، أنا نفسي لا أستطيع الذهاب، لأن جسدي أصبح بالنسبة لي عبئًا لعينًا، بعد كل شيء، فقد رضع جدي وجدك من ثدي نفس الأم، وأي فائدة منك الآن لي؟ لن يحدث أي شيء لك إذا لم تطرق يومًا بمطرقتك على قطعة الحديد البائسة، اذهب، يا قريني، إذا لم تلبِّ طلبي، ثم غدًا، بمجرد أن أموت وأنت تصرخ بالبكاء، تبكي وتنشق بأنفك الكبير: "أوه، يا أخي"، -سوف أتعامل معك بهذا العكاز على جبهتك مباشرة.

ارتعش شاربا كارابالا الضعيفان وتشتتا، انظر أي نوع من الأفكار لدى قريني! حتى وهو ميتٌ يحلم بأن يمسك شخصًا ما من قبة قميصه، لكن من ناحية أخرى، أشعر بالأسف من أجله، فقد تحول إلى جلد وعظام، لا شك أنه قريبٌ قريب، قريب جدًا، لا يمكن خطبة ابنته بسبب قرابة الدم، بالإضافة إلى ذلك، هما زميلان من نفس العمر، منذ نعومة أظفاره، كان أونباي مستأسدًا، ما أن بلغ الخامسة عشرة، حتى أخذ عادة أن يفرك جسمه كمهرٍ باليورتا الذي كان لدى أصحابه بنات ناضجات، وكان رجل عجوز أبيضُ شرسٌ يطارده ويضربه، عاد أونباي من الجبهة تاركًا إحدى ساقيه هناك، بعد أن بُترت من أعلى الفخذ، لكنه حتى مع ساق واحدة، هرع باستمرار من طرف القرية إلى طرفها الآخر، ناهيك عن أطفاله الستة، لدى ثلاثة أو أربعة أرامل من أرامل القرية كان هناك أطفال ولُدوا بشكل غير شرعي، يشبهون إلى حد كبير أونباي بصدر الجمل المنتفخ. في طفولته، عندما كان يقاتلُ ويهزم، كان ينهضُ على قدميه، وينفض الغبار من سرواله، ويقول: "على أي حال لم يخسر أونباي"، وكما قال، لم يخسر أونباي أي شيء في الحياة، كانت مزرعته الصغيرة حتى الأمس بسيطة للغاية، بيد أنه في هذا العام، منذ جاء فصل الشتاء، لم يتجاوز عتبة منزله، كان طريح الفراش، على ما يبدو، مع تقدُّم العمر بدأت آثار الجروح القديمة تظهر من جديد، منذ أن استلقى أونباي، أصبحت الأمور في المكتب هادئة، لكنه، هو الذي لم يعتَدْ على إغلاق فمه، لا يسكت في البيت أيضًا، في كلمة واحدة، يصل إلى

(1) جارابزان: أغنية طقوسية تؤدى أثناء عيد الفطر.

الناس أن "أونباي قال إن..."، "أونباي قال هذا..."، إذا كان بعضٌ قد شعر بالضيق؛ تذمروا قائلين: "ما الذي يحتاجه هذا الشخص ذو الرجِل الواحدة، حان الوقت لأن يموت"، فإن أشفقوا عليه يقولون: "حسنًا، لماذا هذا المخلوق الضعيف لا يستريح، بدون جدوى سيجلب العار لنفسه"، الغاضبون كُثر، والمشفقون قلّة، هو الذي اعتاد على مجادلة الجميع والدخول في خلاف معهم الآن يصارع أمراضه، كان يتعذب على مرأى من الجميع؛ ضعف، وتدريجيًا تخلت عنه قواه، لم يكن الأطفال شبيهين بأونباي الرشيق، وإنما بأمهم البطيئة، صامتون، غير حاسمين، هادئون.

كان الابن الأكبر سائقًا، فجأة سحبوا منه السيارة، انفجر أونباي: "كل شيء لأنني سقطت، وإلا، لو كان بإمكاني النهوض، لضربت هذا المدير المصيبة على جبينه، وأخرجتُ له من عينه...، ومن أذنه...، أباه الميت". لعن ابنه وشتمه: "لماذا لم تقل لذاك كذا وكذا؟"، تمتم الابن بصوت بالكاد مسموع: "يكفي، كفَّ يا كوكي!" الآن سيرسلون الابن السائق إلى قطيع بعيد راعيًا، ليستقبل نسل الأغنام.

يبدو أنه عندما أدرك أن ابنه الهادئ لن يحقق أي شيء، نادى على كارابالا.

كان أونباي دائمًا يتعاطف مع أقرانه، "مهما كدحت وتصببت عرقًا، فإنك في جميع الأحوال لن تواكب كالي الذي يتبختر في القرية، ويلعب الورق، الأغنام ترعاها زوجته وأولاده، في حين يستولي هو على العظمة والمجد، ليس من المعروف ماذا يعرض في المعارض مع مظهره الضعيف وأنفه مع القصبة المهروسة، إلا أنه إلى جميع المعارض، حتى في ألماتي، حتى في موسكو، لا يذهب إلا هو، في كل مرة يعود، محملًا بالسجاد والشاي الهندي، لا يسمع هو إلا عبارات التملق من جميع الأشخاص المحترمين والمشهورين، في حين لا تسمع أنت على مدار الأيام إلا رنين السندان الأسود، وطرق المطرقة السوداء".

كارابالا يذهب إلى مركز المقاطعة للمرة الثانية في حياته، المرة الأولى كانت في العام الذي بدأت فيه الحرب، حيث تم استدعاؤه مع بقية الشبان إلى مكتب التسجيل والتجنيد العسكري، هناك قيل له إن ركبتيه مخلوعتان، وإن عظم كاحله التأم معوجًا، باختصارٍ تبين أنه غير صالح للخدمة العسكرية، وبالإضافة إلى هاتين الرحلتين، سافر أيضًا مرتين أو ثلاث مرات إلى القرى النائية إلى ناغاشي، أقارب زوجته، على الرغم من أنه قرر المغادرة اليوم، إلا أن الشكوك تنخر روحه، فهو يشعر بعدم الارتياح، مثل رجل شرب زيتًا سائلًا، إذا تكلم أونباي عن شخص ما، فلن تسمع منه أي شيء جيدٍ.

ربما لهذا السبب، أصحاب المكاتب التي يتوجه إليها كارابالا، من كلمات أونباي يبدو الواحد منهم أسوأ من الآخر، الأول منهم مراوغ صغير، مثل كلب سلوقي أسود يتابع الفخ مع حنجرة مرتعشة؛ يُقال إنه مرتشٍ، الموظف الثاني هو وحيد، رجل علم، يعُد نفسه من العظم الأبيض، ذا جذور نبيلة، سليل الجينكيزيين، حتى لو جاء والده، يجبره على الانتظار ساعتين في غرفة الانتظار، الثالث، كما يقولون، خبيث، كأنه ملتزم بكل القوانين، ولكنه في الحقيقة شكليٌّ يدرس كل ذرة في الورقة التي تقدم إليه، قادر على أن يخفي ويخبئ لنفسه ممتلكات الدولة المعروفة تحت طبقات الأرض السبع، وكما يقولون، يمسح فمه الزفر الدهني بقشة جافة حتى

لا يلمع، لذا، وفقًا لأونباي، لا يوجد في مركز المقاطعة شخص جدير بدرجة أو بأخرى باستثناء عاملة البوفيه البارعة، التي إذا غمزتها بعينك ووضعت ورقة الروبل مع أذن صفراء في يدها، ستضع على الفور أمامك جبلًا من الطعام وزجاجة من الفودكا، والآن سيكون من الضروري أن تنتزع منهم، من هؤلاء المكتنزين الغشاشين، سيارة للمعاق أونباي، من سيعطي لكارابالا مثل هذه القوة، بحيث بعد أن يقلص الجبل الأسود ويمزق الجبل الأبيض إلى نصفين، أن ينتزع ما لا يتعطش الناس على الانفصال عنه؟ كان كارابالا مضطرًا لامتطاء حصانه والذهاب إلى مركز المقاطعة فقط؛ لأن القرين أونباي قد يمتعض حتى الموت إذا رفض قرينه، وسيظن أنه شعر بالأسف على الحصان الذي سيتصبب منه مرة أخرى عرق مالح، سافراسايا، التي عادة ما تندفع مثل زوبعة عندما تتركها ترعى، تسير ببطء عندما يجلس عليها خيال، كما لو أنها تمكنه من أن يعد بهدوء جميع شجيرات الشيح التي يمر بها.

أينما نظرت، في كل مكان وسط الحشائش تتحرك السلاحف، تتجول رافعة مؤخراتها عاليًا، عندما تسمع صوت الحوافر، تتجمد مخفيةً رءوسها تحت الدرقة، ولكن بمجرد أن تبتعد، تبدأ في الزحف مرة أخرى، محنية الرءوس.

هذه سلحفاة بحجم مقلاة، خرجت زاحفة من حفرة، استدارت على ظهرها وتهز أرجلها في الهواء، بشكل غريب تسحب رقبتها القصيرة المتجعدة، وبكل قوتها تضرب وتضرب بأرجلها، من فمها تتدلى سيقان العشب، عيناها الرماديتان الصغيرتان، بحجم حبة القمح، تنظران وتحدقان في وجهك، ومن غير المعروف كم عدد القرون عاشتها السلاحف العجوز الساحرة، كما لو كانت تنتظر ما سيفعله هذا الكازاخ في التيماك (2) الرث، الجالس على الحصان.

أراد كارابالا أن يقلب بمقبض السوط المسكينة المعذبة، فانحنى من حصانه، لكنه، بعد أن تذكر الفأل الذي يقول إنه إذا نجح شخص في الربيع من أخذ ساق أو خصلة من العشب من فم سلحفاة، فسوف تتحقق جميع رغباته، ترجل من حصانه، مشى مقتربًا، وبعد أن قال "بسم الله"، أخذ ورقة من العشب.

ساق واحدةٌ وحيدةٌ، بثخن الإبرة، تبدو وكأنها ساق الجزر البري الذي ينمو في التربة الرملية، فركها بكفه، ثم قلب السلحفاة التي كانت مستلقية على ظهرها مع عينين منتفختين، ركب حصانه، ومضى قليلًا ثم عاد، السلحفاة، التي يُلْبسها الناس قوة خارقة، كانت تزحف بصعوبة إلى الأمام وسط أغصان شجيرات الشيح الجافة المفروشة التي لم تنهض بعد.

"يا إلهي...، هل أصدق عيني أم لا؟ هذا يعني أنني عبدٌ محبوبٌ للخالق! بماذا استحققت رحمة الله!"، من الفكرة المفاجئة، كان قلبه ينبض بسرعة، حتى إنه نسي خوفه الكامن الذي عذبه في الآونة الأخيرة: "فأونباي سيقرّعني إذا ما عدت من مركز المقاطعة بلا شيء"، لف ساق العشب في ورقة وصفة دواء أعطته إياها زوجته،

(2) تيماك: قبعة شتوية مع طيات تغطي الأذنين والعنق.

قائلة: "بما أنك ذاهب إلى مركز المقاطعة، أحضره"، ووضعها في الجيب الداخلي، ولم يلاحظ كيف ضرب الحبوب بسوط الحصان المطاطي المتراخي المتدلي من الكم الطويل لقميصه، الحصان الكسول وصل بكسلٍ إلى الخبب.

"حصان أشقر! واه، حـ-صـ-ان أشقر!

جيغيت(3) مع فتاة يجمعان الفحم...، "

كانت هذه الأغنية مسلية، ويبدو أنها أرخت قليلًا شارب كارابالا الأسود القاسي، عندما يكون مزاجه طيبًا، يغني دائمًا هذه الأغنية، من تلقاء نفسها تتفلت منه كلمات هذه الأغنية الندية التي سمعها من أونباي، في الألعاب والتجمعات، في البداية ودون أي سبب، يبدأ في مشاجرة مع أقرب شخص له.

ثم، بعد أن يثني كمي القميص فوق مرفقيه، يبدأ بالشرب، الكأس المملوءة حتى الشفة، بالكاد تلمس شارب أونباي الرفيع، على الفور ترجع إلى الطاولة فارغةً، بعد فترة من الوقت، إذا خسر أونباي شجارًا، تبدأ عيناه تقدحان شررًا، والعُقَيدات تتنقل فوق عظام وجنتيه، لكن إذا فاز في الشجار، فبعد أن تخرج قطرات عرق على جبينه، يقفز من مكانه، ويتكئ على عكازه، ويلوح بيده وهو يحمل كوبًا مليئًا من الفودكا، ويبدأ في الغناء بصوت حادٍ عالٍ: "حصان أشقر! واه، حـ-صـ-ان أشقر! تبدأ النساء اللواتي يجلسن على الطاولة بالضحك، لم يفهم كارابالا أي حصان أشقر، وما علاقته بالجيغيت والفتاة، وكذلك من الذي يجبر المسكينين في مثل هذا الوقت الهادئ على أن يجمعا الفحم، ولا يستطيع أيضًا أن يفهم ما المضحك هنا، ولكن أيًا كان، فإن هذه السطور الندية بقيت في الذاكرة، إذا كان كارابالا في حالة مزاجية جيدة، فإنه يبدأ على الفور في غناء هذه الأغنية تحديدًا، لكنها، هذه الأغنية، التي تُضحك الجميع عندما يغنيها أونباي بهدوء، تأتي معه ثقيلةً ومملةً، مثل مشي الحصان الكسول الذي أثناء مشيه يميل إلى النوم، لدى هذه الأغنية قوة معينة تحرره من عبء المشاغل، كما لو أنها كوب من العيران البارد، يُشرب في واحدٍ من أيام يوليو الحارة.

كان والد كارابالا جمّالًا، عاش في يورتا وحيدًا في السهوب، ترعرع خجولًا، إذا ما رأى الغرباء، يختبئ دائمًا وراء ظهر والديه، والآن ينظر بحذر حوله، حتى لا يسمعه أحد وهو يركب وحيدًا في السهوب الخاوية، ويغني أغنية، فيسخر منه، ويطلق شائعة: "اتضح أننا لم نكن نعرف أن كارابالا يمكن أن يغني بصوت عالٍ عندما لا يكون أحد بالقرب".

سهوبُ عذمِ ربيعيةٌ مهجورة، في الأعالي سماءُ شتاءٍ مغيمة، لم تتمكن من أن تصفي بعد، كما لو كان يدرك أنه رباعي القوائم الوحيد في هذه السهوب المترامية الأطراف، كان الحصان الكسول يصهل بدون نهاية، بثقةٍ وبصوت عالٍ.

كارابالا، بدون سببٍ، ومن تلقاء نفسه، يبتسم فجأة، ما الذي لم يأت إلى ذاكرته! عندما انتزعه سكرتير

(3) جيغيت – فارس، شاب.

مجلس القرية، المتألق والعملي، بالقوة تقريبًا من يد أبيه، واقتاده إلى المدرسة، كانت المدرسة تقع في مبنى المسجد القديم، حيث كان أحد الملالي السابقين يعلّم الأطفال، تم تغيير الاسم السابق للمبنى الصغير المصنوع من الحجر الكلسي الأبيض في شكل رباعي الزوايا مع نتوءات في الزوايا، ليس من "المسجد الأبيض"، "المكتب الأبيض"، وإنما أُطلقت عليه تسمية "المدرسة البيضاء"، في "المدرسة البيضاء" تجمع من كل ناحية حوالي عشرين من الفتيان، كان أكبرهم سنًا أونباي وكارابالا البالغان من العمر اثني عشر عامًا.

كان أونباي قادرًا جدًا على التعلم، في حين تعلم كارابالا بشكل متوسط، لم يكن يخطئ عندما كان يحصي خلال درس الحساب عدد الجمال والخيول والأغنام والماعز، ولكن عندما كان الأمر يتعلق بالعصافير الواقفة على الأسلاك، وصناديق التفاح المقطوف في البستان، وسرعة اثنين من راكبي الدراجات اللذين سارا بعضهما نحو بعض من مدن مختلفة، يصبح مشوش الذهن، وهذا أونباي الذكي، كما لو أنه كان يركب دراجة منذ ولادته، جمع التفاح في البستان، وبدون كسل أحصى كل العصافير الواقفة على الأسلاك، وكان يجمع بذكاء عندما يُطلب منه الجمع، ويطرح إذا ما طُلب الطرح، ويضرب إذا ما أُمر بالضرب، ويَقسم إذا ما طُلبت القسمة، بعد "المدرسة البيضاء"، أنهى سبعة صفوف في الكولخوز (4) المجاور، لم يقتصر الأمر عند كارابالا في أنه لم يدرس في الكولخوز المجاور فحسب، بل لم يتمكن أيضًا من إنهاء "المدرسة البيضاء"، وبقي جاهلًا، تحول إلى فارس جميل، كان يخرج من المنزل مبللًا شعره مع فرق مائلٍ، مرتديًا بذلة سوداء وقميصًا أبيض، شعره الممشط بعد ترطيبه بالماء، وأسنانه البيضاء كالثلج، وعيناه المبتسمتان، وحذاؤه الجلدي الذي كان ينظفه كل يوم –كل شيء يرتديه تلألأ مثل جلد حملٍ لعقته أنثى بعناية، كان كارابالا بطيئًا، مع قبة قميصٍ مزرَّرة بإهمال.

تقريبًا جميع فتيات القرية، ذوات المظهر اللطيف بدرجة أو بأخرى، تلقين رسائل في أشعار من أونباي، في حين كانت جيوب أونباي مليئة بمناديل طرزتها الفتيات، لم يكن بمقدوره الجلوس في الاجتماعات بهدوء، عيناه تشتعلان مثل جمرتين، وخداه يتوردان، لم يكن هناك اجتماع لم يتحدث فيه، الأمر سيان بالنسبة له إن كان الاجتماع رسميًا، أو اجتماع تقارير، أو اجتماعًا لمناقشة الشؤون الاقتصادية لقصِّ صوف الأغنام، أو التبن، أو مكافحة الحشرات، أو أغطية اللباد على الكباش لمنع الجماع المبكر، على الفور بعد تلاوة التقرير، يذكر رئيس الجلسة فورًا اسمه، يضج الناس ويصفقون، جميع الحضور في القاعة، وفي هيئة الرئاسة، يهزّون رءوسهم وينقرون ألسنتهم بإعجاب، والمندوبون القادمون من مؤسسات عليا، راضون عن هذا الشاب النشط الواعد، يشدون على يده، ويربتون على كتفه، لولا الحرب، لذهب أونباي بعيدًا، عندما يفكر كارابالا في ذلك، تؤلمه روحه من الشفقة، لم يشعر بالغيرة قط، عندما كان الجميع يثنون على قرينه، فكَّر، إن لم يثنوا على أونباي، على من يثنون؟! إذ ليس هناك جيغيت مشابه آخر، كارابالا، الذي كان في طفولته يختبئ وراء ظهر

(4) كولخوز: المزرعة الجماعية في العهد السوفييتي.

أبيه، لا يبتعد الآن عن أونباي، عندما يعجب الناس ويثنون على صديقه، فإن فم كارابالا، على الرغم من وجود غرز، يصل حتى أذنيه، حتى عندما قرر الأطباء حُسبانه غير صالح للخدمة العسكرية، وودع أونباي، الذي كان يقف مذعنًا على رأس الطابور، بوجه شاحب، وفرّت الدموع من عينيه؛ أونباي فقط حرك شفتيه، وبارتعاش صافحه، وبقي واقفًا مرتبكًا، كارابالا، المنهك، بالكاد وصل إلى القرية، لفترة طويلة، وقف أمام عينيه وجه أونباي الشاحب وجبهته العريضة، شعر بالأسف لأن مثل هذا الجيغيت الفخم مثل تمثال مصنوع من العظم، والمليء بالحيوية والقدرة على التوجه تحت وابل الرصاص، كارابالا، الذي اعتاد منذ طفولته أن يعُد أونباي مميزًا وسط بقية الفتيان الآخرين، لم يشفق إلا عليه وحده في طابور الفتيان الشباب، شعر بالحرج لأنه بقي في القرية، في حين ذهب أونباي إلى الموت، لم يظهر لى الناس، خشية من أن يقرأ في عيونهم ما يضمرونه: "بمَ هو أفضل من الشبان الآخرين الذين يغوصون الآن إلى ركبهم في الدم؟"

منذ ذلك الحين، طوال السنوات الأربع، لم يبتعد عن الجمر الحار في الفرن وعن السندان الأسود، قبل سنة من نهاية الحرب، عاد أونباي، لم يخرج كارابالا قبل حلول الظلام إلا في ذلك اليوم من سواد دخان ورشة الحدادة.

لم يستطع أن يتمالك نفسه حين رأى صديقه مستلقيًا على الحنطة، على وسادة ريش، وعكازين يميلان على الحائط، وفردة الحذاء الوحيدة المهترئة عند العتبة، جلس مرتبكًا، بعد أن صافح صديقه الذي بدا في الزي العسكري أكثر حزمًا، مسَّد أونباي بإصبع واحد أطراف شاربه الجميل، وحياه: "إيه، على قيد الحياة، بصحة جيدة؟" كأن كل الموجودين في المنزل، فهموا على طريقتهم الخاصة كلماته "ما الذي يمكن أن يحدث معك، ما دمت تعيش في القرية"، لم ينتبه كارابالا، فقد فسر على طريقته الخاصة المظهر المتجهم لقرينه، وهل من السهل على أونباي، الذي كان بالأمس مدللًا ، متخايلًا بين الناس، أن يرجع بساقٍ واحدة ؟! في عينيه الواسعتين مثل سلطانيتين، نبع بريق الشجاعة السابقة، تظهر الآن قسوة وشدة، أيًا كان من يتكلم، يقاطع الجميع بحدة.

في خريف ذاك العام، تم انتخاب أونباي رئيسًا لمجلس إدارة الكولخوز، الساق الوحيدة في الرِكاب، خلف ظهر السرج عكازان مربوطان، كان انتخاب ذي الساق الواحدة مفاجئًا وغير متوقع، تبين أنه كان يعلم ويرى كل ما لم يره ويعرفه الآخرون، الناس الذين كانوا في السابق معجبين به، يمسكون الآن بياقاتهم من الخوف، النساء اللواتي كن يقمن بقص القش، خشين من أن يظهر المدير فجأة، فتوقفن عن التجمهر عند الكومة والتفتيش عن القمل في رءوس بعضهن، كبار السن الذين يعملون بالتناوب، توقفوا بعد نهاية الدرس عن صب حفنة من القمح في هدب كل امرأة كعلامة على فأل خير، والعاملون في المكاتب مشوا على رءوس أصابعهم، وخطة قروض الكولخوز نفذها أونباي أولًا، بدأت حتى ضريبة العزَّاب، أصبحت مع قدوم أونباي تنفذ قبل أي شخص آخر، في عهد أونباي أصبحت الماشية ترعى على الأراضي المرتفعة التي كانت خاوية، في عهد أونباي بدأوا في قص العشب حتى في تلك الأماكن؛ حيث لم تكن ترعى في السابق إلا الأرغل والسايغا، في عهد أونباي

شُقت القناة الرئيسية لتصريف المياه، وزُرع الشعير والدخن والقمح، في عهد أونباي خرَّجت القرية الحصان الأشقر، الذي لم يدع أي حصان يتفوق عليه في البايغا (5) .

في عهد أونباي أصبح الأجر يُدفع لقاء أيام العمل، في عهد أونباي بدأت صحيفة الحائط تظهر في وقتها، في عهد أونباي حتى كارابالا بدأ في حضور الاجتماعات باستمرار، ربما لأنه أصبح عضوًا في مجلس الكولخوز، بعد يوم واحد جاء إليه فتى مع دعوة إلى المكتب، لكن تبين أن فترة إدارة الرئيس ذي الساق الواحدة، الذي لم يحرك القرية وحدها، بل المنطقة بأكملها، كانت قصيرة، أحد الذين نادوا "نحن بحاجة إلى دمج المزارع الصغيرة"، كان أونباي، لكن عندما توحدت المزارع الجماعية الثلاث المجاورة، لم ينتخبوا أونباي رئيسًا، بل رئيس المزرعة الجماعية المجاورة، في حين أصبح أونباي نائبًا للرئيس، كان الرئيسان في الاجتماعات ينظران بعضهما إلى بعض شزرًا، وشرعا في تبادل الاتهامات عبر شكاوى تقدما بها إلى السلطات العليا، في النهاية توقفا عن العداوة خفية، واندفعا في صدام علني.

تم إرسال الرئيس إلى الكولخوز المجاور، في حين أُرسِل النائب أونباي إلى المزرعة، أونباي لوح بيده، ولم يغادر المنزل، وبعد شهر، تمت دعوته إلى مركز المقاطعة، حيث عُرض عليه منصب مزود اللحوم، رفض قائلًا: "هذا ما كان ينقصني، أن أحرس الموازين"، وفي المرة الثانية التي عُرضت عليه خلالها وظيفة محصل ضرائب، قال: "هذا ما كان ينقصني، أن أعد الكوبيكات"، بعد ذلك، توقفوا عن البحث عنه، انتظر طويلًا متأملًا، كان منزعجًا وحزينًا ومستاءً، حتى إنه فكر بتقديم طلب إلى أعلى الشيوخ، في النهاية، خرج أونباي للبحث عن العمل بنفسه، في ذلك الوقت، كما لو أن الله أرسلها، وصلت إلى القرية حملة للتنقيب عن النفط أو الماء، الله وحده يعلم لمَ أعجبهم أونباي، أخذوه أمينًا للمستودع، في تلك الفترة كان الكولخوز بحاجة إلى كل شيء، ولم يكن هناك ما يكفي من البنزين والمطاط وقطع غيار الآلات، إذا أعجبَ مقدمُ الطلب أونباي، فإنه يعطي باللغة الروسية ما هو ضروري، وإن لم يعجبه صاحب الطلب، فإنه يبصق ويطلق بعض الفظاظة: "أبلغ رئيسك المجنون كذا وكذا"، وأيًا كان الأمر، فإن السائقين وسائقي الجرارات، عندما كانوا في حاجة ماسّة للبنزين، لم يتوسلوا إلى أحدٍ، وإنما إلى أونباي وحده، ولم يتمكنوا، ولا بأي طريقة، أن يلقوا كلمات أونباي في مهب الريح، لذلك نقلوا إلى رئيسهم ما قاله بالضبط، بدأت كلماته في الانتشار في القرية: "أونباي قال كذا، أونباي قال هذا"، في السابق سرت أحاديث: "لو أن كرتنا تتكلم، لأصابت الهدف"، والآن يقولون: "إذا قال أونباي، فإنه يلكم الحقيقة في جبهتها"، كم كان البنزين الذي أُخرج من المستودع كافيًا لصهاريج جرارات وآلات الكولخوز الفارغة، لم يكن يعلم بذلك إلا مقدّم الطلب نفسه، لكن الشائعات والتفسيرات الخاطئة، بانتظام أطلقها هو نفسه، مقدم الطلب، الكلمات التي قالها أونباي عن الرؤساء، أثرت فيهم مثل حريق مستعر، ماذا بوسع الرئيس أو المدير أن يفعل؟ بعد أن يسمع من السائقين الكلمات المسيئة المنقولة

(5) بايغا: نوع من رياضات الخيل التقليدية لدى الشعوب التركية

بعناية، يهتاج المديرون وكأنهم ابتلعوا جمر رمثٍ ملتهبة، ها هم يحمرّون، ويشحبون، وينزعجون، ويهددون: "حسنًا، الوغد، سنرى"، يطلقون التهديدات، ولكن ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟ أول مدير كان ممتعضًا، قرر: "يجب علينا أن نجعل الساق السليمة لهذا الأعرج تقع في فخ دموي"، وإلى صندوق الفودكا من متجر القرية، ربط صندوقًا من الكونياك من مركز المقاطعة، وذبح كبشًا ممتلئ الجسم، ودعا رئيس البعثة إلى منزله مع نشطاء الكولخوز، كما تبين أن رئيس البعثة كان ماكرًا أيضًا، أشاد ب"الهامش" الجميل للمدير، ومدح "الكباش"، وأشاد بحجمها، وأثنى على المدير، وأثنى على رأس الكبش المحروقة التي ظهرت أمامه بأذنيها المنتفختين ظهرت أمامه، دون أن يعرف كيف يأكلها، أشاد بالعيران: "ليس حامضًا، لذيذ"، ومدح شراب الكوميس(6) بأنه كان "حامضًا"، لم يُغضب المشروبات الكحوليّة، ومتكئًا على كتف المضيف في منتصف الليل، مسد على جبين الكلب الأسود، وقبّل الواحدَ تلو الآخر، كل الرجال والنساء في المنزل، وبالكاد تمكن من أن يقول وداعًا لأصحاب البيت.. لكن عندما تطرق الحديث إلى المورد، الكازاخ إلى بيسينوف، ضحك فجأة ونقر بلسانه، بدأ المدير بالافتراء بالتلميحات على أمين المخزن، وذاك يضحك، عندما تطرق المدير إلى الموضوع بالرموز، ضحك الرئيس، بدأ بالحديث علنًا ضد أونباي، هز ذاك رأسه وابتسم، وبعد أن أدرك أن كلماته لم تؤثر في الضيف في شيء، شتمه المدير بالكازاخية، الأمر الذي جعله يضحك بصوت عالٍ، وعانق وقبّل المضيف: "أحسنت، أحسنت"، في قصف أونباي، كرر شيئًا واحدًا فقط:"بيسينوف شخص ذكي"، يبدو أن هذا يعني أن "شائعات قريتكم لا تصل إلى قريتنا"، وبذلك، لم يكن من الممكن انتزاع البقعة الدافئة تحت الشمس من أونباي.

المدير هو المدير، لديه مشاغل كبيرة، يجب قص القشّ، يجب حصاد القمح، ونقل العلف إلى الحظائر...، باختصار، هناك حاجة إلى تنفيذ الخطة، لهذا من الضروري أن تكون المركبة والجرار في حالة جيدة، هذا يتطلب بنزينًا وإطارات وجميع أنواع قطع الغيار المعدنية، التقنية الحالية ليست كما كانت في السابق، عندما كانوا يتضرعون إلى الله ألا يصاب كارابالا بمرض، هذا ليس المنجل أو الفأس أو المحراث القديم، أو ليس حتى الحصادة المسلفة...، مهما رفس، ومهما كان يكره أونباي، فإن اللقيط يُضطر إلى أن يذهب إليه بيد ممدودة، لأن كل ما يتعلق بمعدات الكولخوز هو في يد أونباي، ومن غير المعروف ما إذا كانت مثل هذه الإمكانات موجودة عند مخلوقٍ آخرَ، وأونباي يعرف أنه يمكنه أن يتكبر بدون أي شيء، في نهاية الشهر، في نهاية هذا الربع، بحلول نهاية العام، لا يتكلم، ليس فقط مع السائقين، ليس فقط مع رؤساء المجموعات، ليس فقط مع الميكانيكيين، ولكن حتى مع المهندسين أيضًا، إلى أن يأتي المدير بمظهر المتوسل، يجلس أونباي بنفسه ويبصق في السقف، ورئيس البعثة يستشهد: "بيسينوف نفسه يعرف"، ما العمل؟ على المدير أن يجمع كل شيوخ ووجهاء القرية ويذهب في حشد من الناس، في مثل هذه الحالات، من دون أن ينطق بكلمة، يعطي على الفور،

(6) كوميس: شرابٌ هام لدي شعوب آسيا الوسطى، أحد منتجات الألبان المخمّرة، يصنع من حليب الفرس.

يسلم، يصب، حتى أكثر من اللازم، إذا ابتسم هؤلاء له، فإنهم يسمونه "أونيكي"، ويقولون، "أنت نفسك تعرف كل شيء"، فإنه لن يفرج عن البنزين والقطع الحديدية فقط، ولكن حتى يقدم المشورة ويشرح بدقة أين يلزم بناء الحظائر، وحفر البئر، وقص القش، وأين يكون من الأفضل تغذية الخيول والإبل والأغنام.

المديرون، الذين لا يبخلون بكلمات الامتنان، يعودون راضين، لكن هذه السعادة لا تدوم طويلًا، وما أن يهدأ الجميع، وينفذوا الخطة بطريقة أو بأخرى: "أوه!" – حتى تظهر في القرية شائعات تقول: "لو لم يكن أونباي، لجلسنا في بِركة"، الآن مرة أخرى يضطر إلى أن يصرّ أسنانه على مُحسن الأمس مع عبارة: "حسنًا، انتظر!" في النهاية، بعد ثلاث أو أربع سنوات، هذه البعثة التي هبطت من السماء، مثل ذيل سمين على الرأس، عادت من حيث أتت، يشمت كثيرون، فرحوا لأن لسان أونباي الخبيث، قُطِع أيضًا، ، لكن هذا لم يحدث، لسانه بقي في مكانه، إلا أن الوقت كان عصيبًا على أونباي المسكين، في بادئ الأمر، كنا نحتاج إلى مديرين متعلمين، ثم مديرين شباب نشطين، اضطر أونباي إلى أن يحسب الكوبيكات التي كان في السابق يتخلى عنها، واضطر إلى أن يراقب الميزان الذي كان في السابق يرفض الوقوف عنده.

هذا ليس كل شيء؛ فالجيغيت ذو الساق الواحدة الذي اعتاد أن يغلق أنفه من رائحة الصوف المحترق، بدأ الآن في جمع الجلود ذات الرائحة الكريهة، والصوف الممزق، في المستودع البارد يقف عند الميزان الفولاذي، متكئًا على عكازه، يضرب حلقات العداد، اليوم، المتوافر بكثرة لدى الناس، هو الجلود المختلفة، بالإضافة إلى ذلك، أثقل لفافات التبغ في جيب أونباي، في أحد أركان المستودع الضخم شبه المظلم، هناك زجاجات بيضاء وحمراء عالقة من قاعها في الأرض الرطبة، هناك ما يكفي من التشهيرات المختلفة بأونباي، حِيكت وراء ظهره، لذا، هناك الكثير من الزوار للمستودع يختلسون النظر إلى أونباي.

أونباي، يتمايل، وبشق النفس يصل إلى المنزل، على الطريق، ينظر حتمًا إلى حيث يجتمع الناس، هناك لا يستطيع أن يتصرف بهدوء، الشخص الذي اشتهر في زمانه بلقب "الخطيب البليغ"، أصبح يُعرف الآن بـ "المشاكس" و"المؤذي" و"المشكلجي"، إذا كان الناس في السابق ينجذبون إليه، فهم اليوم يتجنبونه، يسير أونباي المسكين على طول الشارع العريض وحيدًا، يلوح بعكازه فوق رأسه، يصرخ ويصيح بكل أنواع السخافات. في مثل هذه الحالات يتحول نحو منزل كارابالا، ومن العتبة يرمي عكازيه في اتجاهين مختلفين، ويقفز على ساق واحدة، ويدخل إلى صدر الغرفة، ويسقط على جانبه مستندًا على وسادة، تحاول ساكيب إرضاء أونباي، وذلك من خلال فرشها له أفضل القطع، وإعطائه أفضل وسادة، أونباي، بعد أن يتمدد على الصدر، يأكل الكيورداك المدهن، يشرب الشاي، ويسكر من نصف اللتر الذي أخرجته صاحبة المنزل من الصندوق، ويصب لكارابالا الذي لم يكن من محبي المشروبات الكحولية، ما أن يشرب كأسًا صغيرة، حتى يبدأ على الفور بالضحك بلا معنى، إذا أقنعوه بالشرب أكثر، فإنه يسقط رأسه على صدره ويبدأ بالشخير، أونباي لا يرغب في أن يفقد الأذن الوحيدة التي تستمع إليه، لذلك، يصب لقرينه وقريبه مرة واحدة فقط، ويبدأ ذاك في الضحك بشكل متقطع، في حين هو، أونباي، يشرب وحده ويتحدث مع نفسه، ينظر إلى وجه صديقه بشكل

ثابت، كما لو كان يراه للمرة الأولى، ويعلن:

أونباي، أيها المسكين أنت! لن تلمع جبهتك العريضة من الحظ، الذي يمكن أن يكون بمثابة طرد لقطعان الكولخوز، فأنت تمتلك القوة، ولُديك ميزة، ولست أسوأ من الآخرين، كل صحيفة ستتزين بصورتك مع هذا الأنف الضخم، والشارب الجميل، وهذا الوجه المستدير، فبدلًا من عرض أشخاص مثلك على أنهم "نجمنا"، يدفعون إلى الأمام أمثال كالي، الأقزام الصغار التافهين، الذين ضربتهم الحياة، المتجردين مثل عظام عارية من اللحم، اتضح أن الحظ لا يفهم الناس، شخص يبتسم له الحظ، وشخص آخر غير محظوظ، اتضح أن السعادة عملاقٌ ذو عين واحدة، لا يعرف من يحمل على كتفه حتى يراه بعينه الوحيدة، وما أن يراه، حتى يرميه من عن ظهره، ويرفعه من رقبته ويرميه جانبًا! ربما ليس بعيدًا ذلك اليوم الذي ستطير فيه هذه الثيران عديمة الفائدة رأسًا على عقب!

بعد هذه الكلمات، يقلب محتوى الكأس في فمه، تبين أن في صدره نار سخط، لا يمكن أن تطفئها فودكا، أو بصل حاد، أو كيورداك، أو شاي أعشاب كثيف مع الحليب، يخمد أخيرًا عندما يقولها.

أونباي يرفع إلى أنفه البصل الحاد، يجلس، يجلس ويصرخ فجأة:

يا إلهي! لو كانت الأوقات السابقة، لساعدتك، ولرفعتك عاليًا، لرفعتك.

إيه، يا قريني، من يمكن أن يشك في ذلك.

ساكيب التي تصب الشاي، استيقظت وهي تستمع.

واي، ماذا يمكنني أن أقول هنا، وأنا نفسي مذنب، -أونباي بعد وقت يصيح ، رافعًا بكل قوته الوسادة تحت مرفقه، وكأنه ينتقم منها لشيء ما: عندما قاموا بدمج الكولخوزات، تبين أنهم أرادوا تعييني رئيسًا، وبدلًا من أن أتصرف في هذه الفترة بهدوء، شتمتُ السكرتير، وفي اجتماع المقاطعة، قمت بانتقاد السلطات لوجود الكثير من الروتين الورقي، ولم ألاحظ أن برأس عصا واحدٍ، كما يقولون، ضربت السكرتير الأول على جبينه، ومنذ ذلك الحين بدأت السلطات تنظر إليَّ بارتياب، منذ ذلك الحين، لم أتمكن من إيجاد لغة مشتركة معه، تمامًا مثل اللبن الرائب، لا يمكن أن يفسد ترويبه مرة أخرى وتحويله إلى عيران، لماذا كنت أنا وحدي في تلك الأثناء نشيطًا جدًا! الآن لا يمكنك أن تكون متواضعًا جدًا، ولا نشيطًا جدًا، ولا رشيقًا جدًا، ولا ذكيًا جدًا، ربما أن الثروة الزائدة لن تضر، لكن التفلسف الزائد ضار، هذا أمر مؤكد، أنت نفسك تعيق سعادتك، ما يعطينا إياه الله لا شيء، سيزول، ما يعطيه الله، ثم يستعيده، أيضًا لا شيء، لكن الأسوأ، أن يلوح لك الحظ ببشارات عن أيام سعيدة قادمة ثم فجأة يمنحك ظهره، هذا لا يُنسى أبدًا، حتى الموت، هكذا هي الأمور، يا قريني....

أونباي بعد أن ينظر بفضول في اتجاهه، يصب لنفسه من الزجاجة مع القرقرة، وبعد أن يأخذ الكأس في يديه، يفرغها في فمه، ويلقي بها بعيدًا، ويستند على كتف قرينه، ويقفز على ساقه الوحيدة من مكانه، ساكيب على الفور تمسك بالعكازين الموجودين عند الباب، وتحشرهما تحت ذراعيه، يبدأ أونباي في الغناء بأعلى صوته، في البداية، حتما يغني أغنية روسية؛ أغنية حزينة تمزق الروح، على الرغم من أن كبار السن لا

يفهمون الكلمات، إلا أن هذه الأغنية تلامس أعماق الروح، كلما غنى، أصبح أكثر حيوية، شارباه المتواضعان المتجمدان كزغب حائر على جانبي شفتيه، يرتفعان فجأة، في عينيه الضبابيتين الحزينتين، ينتعش ويومض البريق، شفتاه المنكمشتان، اللتان أحرقتهما الفودكا للتو، تتحولان إلى اللون البني، كلحم مطبوخ.

يرفع أونباي كتفيه، يقوّم صدره، كما لو أنه يقف بقوة على ساقيه، ولا يستند على عكازيه، عندما يستبدل الأغنية الروسية بأغنية كازاخية، تنفر الدموع من عيني ساكيب الطيبة التي فتنتها الأغنية، كذلك عينا كارابالا مبللتان، أونباي يشعر أكثر بالمرارة، عندما يرى كيف يؤثر غناؤه على هذه النفوس البسيطة، مشهد الدموع الشفافة في عيون هؤلاء الأشخاص الذين يتحلون برقة القلب، يؤثر في أونباي كنسيم منعش، يطهر روحه التي ما زالت تدخن مشتعلة من الحسرات الأخيرة، ومن الفودكا المريرة التي تحرق الحلق، يضع يديه على أكتافهم، ويقول:

إيه، يا مساكيني! وسط أقاربنا الذين يشكلون عشر عائلات، لا يوجد غيري شخص رشيق قليلًا، لا سمح الله، إذا حدث غدًا شيء ما لي، فمن سيندفع ويدافع عنكم جميعًا؟!

يزداد كارابالا حزنًا، ويبدأ في البكاء بمرارة، لديه غصة في الحلق، يشهق مثل طفل:

يا سندي!

يتكلم بصدق، بشكل مؤثر يَفطُر القلب، معبرًا عن كل حزن ممكن، أونباي، بعد أن فتح جروحهما، يدوس وينقر على عكازيه مغادرًا المنزل، عبر نافذة المنزل الصغيرة، يُسمع ضربه لفترة طويلة، كما لو كانت تُطرق هناك، في الليل، مسامير في الأرض السوداء الصلبة.

لم يستطع كارابالا في ذلك اليوم أن يغلق عينيه.

هذا الرجل الضخم، الذي لا يعير في الحياة الاهتمام للكثير من المحن، لم ينزعج من التفاهات، الحمد لله، لم يكن يشعر بالملل، الحمد لله، ساكيب، على الرغم من أنها كانت بطيئة، ووحيدة الاتجاه، لكنها لم تواجه قط، أنجبت له ابنًا واحدًا وابنة واحدة، تزوج الابن، ويعيش في منزل منفصل، وهو مربي خيول، الابنة متزوجة في القرية المجاورة، ليس أسوأ من الناس بشيء، إذا قالوا: "كارابالا، افعل هذا وهذا"، سيفعل.، وإذا قالوا: "كارابالا، اذهب إلى هناك"، سيذهب، الحمد لله، إلى الآن لم يقم أحد بإبداء ملاحظة عنه: "لقد فعلت هذا على نحو غير لائق"؛ لذلك نادرًا ما ينزعج من شئون عمله، فقط في بعض الأحيان، في تلك الأيام، عندما يأتي أونباي، يبدو لحداد القرية أن العالم القابع بهدوء تحت أقدامه، يبدأ فجأة في الانهيار، أشياء كثيرة لا يفهمها تبدأ ببث الخوف في روحه المتواضعة، لا يستطيع أن يفهم لماذا لدى قرينه، الذين يجله كإله، تسير الأمور بهذا السوء، في ضوء أن أونباي يؤكد طوال الوقت أن في الحياة هناك حقًا مكانًا للمشاحنات والمكائد، يفكر، في هذه القرية يبدو أنه لا يوجد أحد يستطيع أن يرمي في وجهه: "إيه، أيها الكافر! أيها الملحد! الجميع مثلهم، أناس بسطاء، وفي كل الأحوال، ها هو أونباي يعيش ويتعذب، قد تكون الحياة في الواقع هي ليست ما يعرفها هو، كارابالا، أي أن الحياة لا تنحصر فقط في سندان مقوسٍ ومطرقة سوداء، على

الأرجح، ليس كل ما يسقط في حجر رحى الحياة يمكن أن يناسب الآخرين، كما أن ليس كل ما يقع في يديه، يمكن أن يناسبه، إذا لم يكن هذا كذلك، هل كان أونباي ليمشي في مثل هذه الحال؟ ربما السبب برمته هو الرصاصة الطائشة التي أطلقها هتلر لو أنها أصابت جده...، والد هتلر...، عليهم اللعنة...، هنا وهناك...، في الفم والأذن...، كأن تلك الرصاصة لم تقطع ساق قريني وحدها، بل قطعت جميع أجنحة الروح معها، وكل آمالها، وإلا، فلماذا أونباي، الذي تميز عن الآخرين بفطنته وقدراته، لم يتعلم؟ من يعرف أين سيكون، ومن سيصبح، لو أنه تعلم؟ رصاصة طائشة أصابته، وهو، الجيغيت وسط السلاطين، وجد نفسه بجوار الوادعين، الخجولين، الخانعين، مثل كارابالا، الآن لا يستطيع قرينه أن يجد مكانًا لنفسه، عندما يفكر كارابالا في ذلك، تشتد لديه الحمى.

هو نفسه، حتى وصل إلى هذا العمر، حمل كل ما تمكن من أن يحصل عليه، وأكل ما كان مقدرًا له منذ الولادة أن يأكل، ولم يحزن بشدة على شيء ما، "أبو"ه أيضًا لم يفكر بشكل خاص عندما أنجب هذا الابن، لم يفتح الكتاب المقدس بهذا الشأن، ولم يرفع الأذان عندما أطلق عليه اسمه، بمجرد ولادة الجسد الأسمر، أطلقوا عليه اسم "كارابالا"، والآن هذا الكارابالا، على الرغم من أنه أصبح عجوزًا، لم يناده أحد في هذه القرية قط بصيغة الاحترام "كاريكي"، الجميع يقولون: "هذا فعله كارابالا"، "هذا صنعه كارابالا"، "يجب أن تحجز لدى كارابالا"...، أحيانًا إذا قدم شخص من قرية أخرى إليه في عمل، وأسماه "كاريكي"، مؤخرة رأسه تغرق في العرق الذي يتصبب على الفور، وتبدأ الحكة، على المآدب والتجمعات لا يجلس على السدة، بل يضطجع ويتكئ على مرفقه في مكان عند العتبة، بدون تكريم خاص، أليس لدى كل شيء قيمته الخاصة، وجاذبيته الخاصة؟ على سبيل المثال، من رأى محراثًا مصنوعًا من القصدير، ومبصقة من الفولاذ المقاوم للصدأ؟ لا يبدو الوضع الحالي لأونباي من منظوره دائمًا، إلا مجرد حالة غير مناسبة، في بعض الأحيان تأتي فجأة إلى رأسه: "وهل الإله يمكن أن يكون غير عادلٍ أيضًا!"، ولكن على الفور يستدرك، ويقول في نفسه: "التوبة، التوبة! اغفر لي!".

غريب، كما لو أن في جميع أنحاء العالم ليس هناك شخص طبيعي واحد، تحديدًا هو، الحر في الوضيع، الذي أنهى بطريقة ما ثلاثة صفوف دراسية قبل أربعين عامًا، والذي لديه الآن من القراءة والكتابة ما يكفي فقط للسماح له، مقابل قائمة استلام الرواتب، أن يكتب بدلًا من كنيته الحروف الأربعة الأولى من اسم والده، ثم بشكل أخرق يرسم بشرطة منحنية ذيلًا، كارابالا حصل على الساق الرقيقة من العشب من فم سلحفاة، وهو ما ليس في متناول أي شخص بسيط، لكن سيكون من الأفضل لو حصل على الأعشاب شخص، مثل أونباي، الذي، كما يقولون، يصطاد بأسنانه الطيور على الطائر...، لو أن أونباي حصل على العشبة السحرية، من يدري، -ربما كان سيطير فاردًا جناحيه، كما كان في سنوات شبابه النارية، الجيغيت الشاب البارز والوسيم، الذي تقتحم صورته ذاكرة كل من رآه، ولو لمرة، وتبقى في ذاكرة كل من سمعه، ولو لمرة، ألم يكن قادرًا على الدراسة، ناهيك عن الكولخوز المجاور، ولكن في المنطقة، ولا حتى في المنطقة، بل في المحافظة، ولا حتى في

المحافظة، بل في ألماتي نفسها، أو حتى في موسكو؟ ألا يكون جالسًا بشكل مهم في أحد بيوت العلم واحدًا من العلماء، بجبهته العريضة والمتألقة! ألا يكون قد سجل في الدراسة جميع الشبان الذين لديهم أي علاقة بهذه القرية؟ ألا يوقف لديه جميع من هم من هذه القرية الذين مرضوا أو كان لديهم عمل في المدينة! كان أونباي ليصبح واحدًا من هؤلاء المسئولين الكبار الذين يتحدثون فقط على الراديو، ولا يظهرون إلا في الأفلام، هو بالتحديد، كان، كما يقولون، ليحول واحدًا من الأنهار من أنفه إلى أرض أجداده، لو أتيحت له الفرصة لما ظلت دون جدوى هذه الأرض العارية التي لا تتخبط في رمالها الآن إلا الإبل، عندها كان كارابالا ليبلغ قرينه من خلال الناس: "إيه، أيها الكلب المتكبر، لا تنسَنا، أصدقاء الطفولة، يجب أن يكون لدينا نحن أيضًا شيء ما، إذا كانت في يديك قوة القانون، ابني كواتبيك مربي خيول، مربي خيول ماهر، لديه الأوراق الحمراء والزرقاء تقبع في رزم، إنه يشبهني، غير حاسم، يبدو أنه يرغب في شراء سيارة، تبين أنه يتوجب عليه الانتظار في الطابور اثني عشر شهرًا، وفقًا للناس، من الضروري لهذا أن يكون هناك بالإضافة إلى المال لصوص معارف، باختصار، هناك ما يكفي من العناء، ومع ذلك، أنت نفسك تعرف أن هذا شيء لا نجيده، لا أنا ولا ابني، ساعدنا في هذا الأمر، جانيل الصغيرة، التي رأيتها مرة على وعاء تبول الأطفال، هي الآن متزوجة، لديها أطفال، لكنها لا تملك منزلًا لائقًا، مثل الآخرين، هل يمكنك مساعدتها؟ القرى الأخرى مثل القرى، في قريتنا، لا يزال هناك الكثير من الأكواخ المغروسة في الأرض، تبدو نوافذها وكأنها ثقوب سوداء، ضع ذلك في الحسبان أيضًا، بالنسبة لنا، كل ما هو خير غير قابل للتحقيق، كما في الجزء العلوي من كاراتاو المغطاة بالثلوج، وماذا أيضًا؟-اتصل لمرة واحدة فقط".

يا إلهي، يكفي، كل هذا مجرد حلم، وهكذا نعيش بشكل غير سيئ، لم يتخلف هو، كارابالا الحدّاد، كما يقولون، عن البدو الرحل، بغض النظر عن ذلك، ولكن إذا أصبح أونباي مسئولًا، سيكون الأمر له نفسه على ما يرام، إذا سأل أونباي أولئك الذين يجتمع بهم: "الحداد كارابالا كان صديقي، هل هو على قيد الحياة؟"-بهذا سيكون سعيدًا جدًا، بكلمة واحدة، لو أن قرينه لا يسير تائهًا، مثل كلب ابتلع إبرة....

عندما تذكر هذا، ظهر أمام عيني أونباي، الذي كان قد شاهده قبل ثلاثة أيام؛ لجلد والعظام، الوجه، الذي كان ذات مرة بلون القمح الفاتح، هو الآن شاحب، مليءٌ بالتجاعيد، ترقق الحاجبان المنحنيان، والشعر يتدلى في اتجاهات مختلفة، في التجويفين عينان مثل زجاجتين عالقتين، ينظر بحقد، وحده لسانه اللاذع والحاد يذكّر بأن هذا الشخص النحيل، كهيكل عظمي، الشخص الذي يجلس مغطيًا كتفيه بغطاء قديم، هو أونباي السابق.

ضرب كارابالا بكعبيه جانبي الحصان، يجب أن يبتسم الحظ اليوم، ربما ليس عبثًا أنه حصل على عشبة السلحفاة، من يدري، ربما، بعد أن يرى أن رغبته قد تحققت، فإن قرينه المسكين، الذي بصعوبة يجر عظامه، سينهض على قدميه.

نحو الظهيرة، ظهر مركز المنطقة، بعد أن سأل الناس، وجد في البداية المكتب الذي أمره أونباي أن يذهب

إليه أولًا، امرأة شابة عصبية تجلس في الغرفة الأمامية، وتتحدث طويلًا، دست رأسها في مكتب المدير الذي قال: "دعيه يدخل".

في صدر الغرفة، على طاولة صنوبرية، جلس بهدوء، ملقيًا بمعطفه على كتفيه، رجل عريض المنكبين، متين، أسمر اللون، ذو وجه نحيل جاف، سأل عن الأحوال، وامضًا بسنه المعدني الأبيض، عند الاستماع إليه، من وقت لآخر خشخش بورقة في صندوق منسوج من الأسلاك، وبصق في كيس ورقي، عندما انتهى كارابالا من إخباره عن الحالة التي كان قد جاء من أجلها، صاحب السن المعدني، كما لو كان يرغب في أن يفك ويخرج رقبته الطويلة من جسده، أدار رأسه بحدة إلى الجانب، ومشى بأصابعه مرتين أو ثلاثًا ذهابًا وإيابًا وهو يفكر، من الذقن حتى الجبين، ومن الجبين حتى الذقن، كشف سنه المعدني، وابتسم ابتسامة عريضة، كارابالا جالسٌ يفكر: "نعم، هذا ما قالوه،-بالفعل يبدو المسئول ككلب صيد مقرف يحرس الفخ".

أعلم، أيها المحترم...،

بدأ الوجه المشدود...

- الحديث يدور عن المدعي بيسينوف، أليس كذلك؟ وهذه هي رسالته التي يشتمنا فيها جميعًا على التوالي، بدءًا من الجيل السابع للأجداد وأجداد الأجداد، وأقرباء الأم السبعة والسبعين، فقط بسبب هذه الورقة كان من اللازم أن نعذبه لفترة أطول، ولكن لأنك أتيت أنت...، تم استلام الورقة لمنحه السيارة، لكن قرار منح هذه السيارة في أواسط هذا العام، في يد رئيس مؤسسة أخرى، إذا أعطوا "الموافقة"، فنحن مستعدون، وجهك طيب، ليس كوجه ذاك المدعي، يجب عليك أن تذهب إلى المؤسسة التي أخبرتك عنها.

نظر إلى كارابالا بارتياب، كما لو كان يدقق في تأثير قراره، نهض كارابالا من مقعده على نحو أخرق.

هل هبطت بسلام يا "أوشكين"؟ كيف جرت الولادة؟

سأل الوجه المشدود.

الحمد لله، ليس سيئًا.

كأن كارابالا رأى في مكان ما هذا الوجه المشدود والعنق المتدلي عاليًا، أغلق الباب خلفه، نظر ثانية، لكن لم يستطع أن يتذكّر.

في المؤسسة الثانية كان هناك عدد أكبر من الناس، ليس كما في المؤسسة الأولى، ووُضعت الكراسيّ في صف على جانبي الغرفة الطويلة،

كان هناك أناس يجلسون على هذه الكراسي، غالبيتهم يضعون أمامهم مجلدات منتفخة على ركبهم، ليسوا مثله، بيدين فارغتين، يبدو أن المدير كان متأخرًا، لأن الفتاة ذات الوجه الأبيض، كانت تجيب بسرعة على الهواتف الرنانة المستمرة:

لا، لم يأتِ بعد، الناس في الاستقبال كثر.

في كل مرة تتحول فيها نحو الهاتف، تلقي نظرة جانبية نحو غرفة الاستقبال، الشباب، الجالسون باحتشام

مع المجلدات الممتلئة، يبدون اهتمامًا بالفتاة السكرتيرة،

بعد حين ظهر المدير، كان شابًا رقيقًا، ناعمًا، أسمر، مع نظرة صارمة، عظام وجنتيه حادة متلألئة مثل شفرة سكين، لكنه يخطو إلى الداخل بثقلٍ كما لو كان شخصًا بدينًا، بالكاد يحمل جسده، دون النظر إلى أي شخص، ذهب إلى الصدر، إلى الباب المنجد بجلد أسود، فتح الباب، وتحول إلى الفتاة السكرتيرة، وبعد أن قال لها شيئًا، انزلق نظره إلى كارابالا، الذي كان جالسًا على كرسي عند العتبة، رفع حاجبيه السائلين وهو ينظر لبعض الوقت متفاجئًا، ثم دفأت نظرته، وأومأ برأسه للرجل العجوز.

عين العين، لتكن بصحة، يا عزيزي.

أجاب كارابالا بلطفٍ، والكرسي يئن تحته.

قال ما قاله، لكنه في الحال احمرَّ بشدة، كل الناس حدقوا ونظروا إليه، ذهب المدير إلى مكتبه، بعد وقت قصير، رن الجرس، فتحت الفتاة باب مكتب المدير، ثم تحولت وقالت:

يا أكساكال، المدير يطلب منك أن تدخل.

كارابالا، كما لو كان يطلب المعذرة من الجالسين، ألقى عليهم نظرات خجولة، توجه إلى المدير.

المكتب الكبير، الذي، كما يقولون، كان مساحة كافية لإطلاق حصان للعدو، كان مليئًا بالأثاث المتلألئ، من خلف الطاولة الكبيرة في صدر المكتب، نهض الشاب الأسمر ضيق الوجه والحيوي، ومثل صقر، من وراء الطاولة اندفع بسرعة نحوه، اقترب منه وأخذه بيده، اصطحبه متأبطًا ذراعه، وقرّب طاولة ضيقة صغيرة كانت أمام الطاولة الكبيرة، وأجلسه على أحد الكراسي التي كانت على جانبيها، كارابالا، الذي لم يسبق له قط أن جلس على شيء غير الكراسي القاسية، خاف من أن يغرق في المقعد اللين، سحب على الفور فروة التيماك المبللة ووضعها على الطاولة الصغيرة أمامه.

جلس الشاب الأسمر الشبيه بالصقر صامتًا ينصت إلى الزائر، كتب شيئًا ما على ورقة كانت أمامه، وبعد انتهى الرجل العجوز من الكلام، ضغط على الزر، فظهرت السكرتير من وراء الباب.

صليني مع يسينكولوف أولًا، ثم مع جوزبايف.

حسنًا.

ما إن أغلقت الفتاة-السكرتيرة الباب خلفها، حتى رن جرس الهاتف، مدّ المدير الأسمر يده إلى الهاتف.

مرحبًا، و...، هكذا إذن...، إذن ابدأوا في تحضير الورقة، سنخترع شيئًا ما، حسنًا.

لدى الشاب الأسمر النحيل، الذي التصقت عظمتا وجنتيه بالجلد، الكلمات أيضًا دقيقة، ما أن تحررت يداه، حتى رن جرس الهاتف مرة أخرى.

آه...، مرحبًا...، هذه السيارات الثلاث ظلت على حالها، جيد أن الأمر هكذا، سنقدم واحدة منها إلى شخص معاق، القرار، تقول...، سوف ننظر، والأوائل لن نتركهم خالي الوفاض، لا تقلق بشأن ذلك.

اتضح أن الشخص الذي كان على الجانب الآخر من الخط كثير الكلام، على جبهة الأسمر ظهرت وبدأت

تلعب التجاعيد.

الأول غير موجود بعد، سأكلمه عندما يأتي، أخبره بأنني أنا أمرت.

لدى المدير وجه صارم، يبدو أنه اعتاد على أن يصل إلى ما يريد، من وقت لآخر ضرب بقبضته على الطاولة بهدوء، وكان ممتعًا لكارابالا أن يرى كيف كانت منفضة السجائر التي كان فيها عقب سيجارة مع ذيل أبيض، تقفز على الطاولة الصغيرة مع كل ضربة، ربما ما يسميه أونباي عدلًا، هو ذاته استقامة هذا الشاب الأسمر الذي يتحدث بصراحة وبصرامة بنبرة آمرة، حتى منفضة السجائر تخافه، بعد أن أنهى المكالمة، التفت إليه المدير قائلًا:

آكساكال، اذهب إلى المكتب الذي كنت فيه، وخذ أوراقك، ثم اذهب إلى الرفيق جوزبايف، سوف يحل قضيتك، هل لديك أية طلبات أخرى؟

لا، يا عين العين، شكرًا جزيلًا، ليتجاوزك كل ما هو سيئ،

وشكرًا لكم أيضًا، في العام الماضي نجحتم في التعامل مع مهمتنا، كُلّفت بالإشراف على إقامة نصب تذكاري لمقاتلي الحرب، لولا مساعدتكم، لأصابنا العار.

الآن فقط فهم كارابالا، في العام الماضي، لمَ لمْ تحل منظمة الحزب عنه، ولم تهدأ، حتى صنع كارابالا قطعة معدنية لامعة، ربما هو يتحدث عن ذلك، نهض المدير الأسمر، وصافحه مودعًا.

اتضح أن جوزبايف هو مدير التجارة، اعتقد كارابالا أن في التجارة لا يعمل سوى المتملصين الرشيقين القادرين على التسلل عبر خرم الإبرة، كان ذاك ضخمًا مثل جمل ذي سنام واحد، منخران منتفخان، شعر مجعد، عندما يتحدث، يتحرك باستمرار إلى الأمام وإلى الخلف باستمرار على الطاولة بجدعة يدٍ بترت برصاصة.

إذن، يا آكساكال، هذه السيارة ضرورية لك شخصيًا؟

لا، لدي قريب معوق، أرسلني.

هكذا إذن! للتو كنت عند الرئيس؟

نعم، كنت.

لم نتسلم هذا العام من المؤسسة سيارات للمعاقين، صحيح أن في المحطة هناك ثلاث سيارات، في مكتب لجنة المقاطعة اتخذ قرار بأنه يتم منحها لأولئك الذين يحصلون هذا العام على الإنتاج الأكثر من نسل النعاج، وقبل ذلك تلقينا تعليمات بعدم لمسها، الآن هنا يقولون إنه يجب علينا منحها لمعاق، غدًا سوف يصل السكرتير الأول ويحاسبني، سيحشر، إذا جاز التعبير، ساقيَّ هاتين في فتحة واحدة، هذا بالطبع ليس له علاقة بك، لكن كيف يمكن أن نتصرف؟

لا أعرف، هؤلاء الرجال قالوا إنه ممكن.

بالطبع، يجب أن يُفعل الخير، ولكن القانون يجب أن يُحترم، من المستحيل عدم احترام القانون، ماذا نفعل؟

إذا كان ذلك ضد القانون...

لا.، لا، هذا ليس خطأك.

آه...، وما العمل؟

كان جوزبايف في مأزق، بعد أن بعثر كل ما كان على سطح الطاولة، بدأ ينقب في الأدراج المتحركة، وجد ورقة مطبوعة، لبس نظارات مستديرة مثل شانيراك، وقرأ، بعد ذلك نقر على الطاولة بإصبعه الثخين القبيح.

اتضح أن ذلك ليس ضد القانون، وها هم في المكتب قد نجحوا في إصدار القرار...، هل أنت من أوشيكين؟

نعم.

ترعى الماشية؟

أنا حداد.

آه، ما اسمك؟

كارابالا.

منذ متى وأنت تعمل في الحدادة؟

ولُدت هناك، أنا أعمل مع الحديد منذ سن مبكرة.

هل تذكر مجاعة عام الثلاث والخمسين؟

بالطبع.

هل تذكر كيف أن الكثير من السيارات توقفت في شهر مارس في الصقيع أمام قريتكم؟

بالطبع، أذكرها جيدًا! ألم تقف حتى ذابت التربة المتجمدة؟ في معظمها كُسر عمود الكردان، وكان لدي عمل لمدة شهر كامل.

هكذا إذن! سمعت أن في أوشكين هناك حداد ذو أيدٍ ذهبية، تبين أن هذا الحداد هو أنت.

احمرَّ كارابالا، وشعر جوزباييف الذي لاحظ إحراجه، بالحرج.

أنا أيضًا كنت في ذلك الاضطراب، قمنا بإفراغ السيارة من الحمل، وجمعنا جمال قريتكم، وحملنا عليها العلف إلى الكولخوز المجاور، حيث هلكت الأغنام.

آه، تبين أنك من اللجنة التنفيذية للمنطقة! يا رفيق جوزبايف.

في ذلك الوقت كنت أعمل في اللجنة التنفيذية للمقاطعة.

صمت الاثنان، الآن فقط تذكر كارابالا ذاك الرجل الأسمر من اللجنة التنفيذية للمقاطعة، في ذلك العام كان الشتاء قاسيًا، وكان الربيع على وشك المجيء، لكن فجأة سقط الثلج، بدأت تنفق الماشية التي ضعفت خلال فصل الشتاء، في القرية بدأ الجميع يتحدثون عن أن الرفيق جوزباييف نفسه كان يقود سيارته، ويقدم العلف للماشية، والطعام للناس، ذات مرة ملأ الهدير التلال السود من الجانب الغربي للقرية، على تلة عارية، بالقرب منها لم يكن هناك غطاء واحد أو مظلة، السيارات غرقت في الثلج، الرفيق جوزباييف الذي

كان يقود قافلة سيارات، أمر الرفيق أونباي بجمع كل العربات التي تجرها الخيول، جبنا كل المنازل بحثًا عن السروج، يومين على ظهر الخيل، اندفع جوزبايف ذهابًا وإيابًا بين التلال والقرية، لم يذق طعم الراحة، ولم يسمح للناس بالراحة، كان يرتدي ثوبًا منسوجًا، مربوطًا بشريط شعر، وساعد في تحميل الحمولة دون أن يرتاح، ثم، جالسًا على ظهر جمل ضخم ذي سنام واحد، ترأس القافلة.

طويلًا تذكر الصغير والكبير هذا الرجل الذي لا يهدأ، الذي، على الرغم من كونه مسئولًا، شمر عن ساعديه وعمل على قدم المساواة مع البقية؛ تحدثوا عن أنه في تلك المرة غضب بشدة على أونباي: "على الرغم من أنك تحافظ بحزم على مزرعتك، لكن اتضح أنك قاسٍ، وتفتقر إلى الشفقة تجاه جيرانك"؛ كان هناك أحاديث كثيرة عن هذا الرجل، الذي تبين أنه في القول والفعل حاسم وسريع، قالوا إنه في وقت لاحق تم تخفيض منصبه، وها هو يجلس في مكتب، كما تبين.

الرجل الأسمر، ذو الشعر الأشيب، والصدر العريض، والمنخرين المفتوحين، كان ينظر من النافذة ويفكر.

حسنًا، ما العمل؟ حسنًا، بما أنك جئت...، وهل هناك أي شخص يمكنه قيادة السيارة؟

لدى هذا الرجل المعاق، ابن سائق.

إذن ليأتِ ويتسلمها.

نهض كلاهما، وتصافحا مودعين،

-كيف هي الأمور هذا العام في أوشكين؟

في الشتاء تساقطت الثلوج بما فيه الكفاية.

هذا يعني أن كل شيء سوف يسير على ما يرام.

بعد أن أنهى كارابالا أموره في المكتب، اتجه إلى ضواحي البلدة، حيث ترك حصانه، وعندما مرَّ بأحد المنازل، حيث سمعت أصوات الأطباق، تذكر أنه لم يتناول طعام الغداء، آه.، ربما هذا هو المقهى الذي امتدحه أونباي، ما أن فتح كارابالا بدفعة واحدة باب المطعم، حتى صرخت امرأة من هناك:

انتهى الوقت! استراحة، تعال في الخامسة.

ربما حتى الخامسة أكون قد وصلت إلى القرية.

أدخليه، يبدو أنه مسافر،

جاء صوت من هناك آخر،

دخل كارابالا إلى المطعم، جلس على طاولة عند الباب، جاءت إليه امرأة نحيفة مع صدر حمامة.

ماذا ستشرب، يا عم؟

نعم، أي شيء، يا عزيزتي، يثير اهتمام دودة بطني.

ربما تأخذ شيئًا آخر لفتح الشهية؟

يا عين العين، هل هذه زجاجة؟ أنا لست مغرمًا بها، يا عزيزتي.

لدى المرأة ذات صدر الحمامة، ارتعش الركن الأيمن من فمها بطريقة ملتوية، سرعان ما أحضرت ووضعت أمامه كوبًا من الألمنيوم مليئًا بالبورش، وطبقًا رئيسيًا من الأرز عليه قطع من رأس ورئة وكبد، وشيءٌ أكثر سوادًا، بعد ذلك، هزت ردفيها بدلعٍ، وانضمت إلى النساء اللواتي يرتدين معاطف بيضاء ويتهامسن على الطاولة في الجزء الخلفي من الصالة، هناك، تكثف الهمس بشكل ملحوظ، ما أن تقول المرأة النمشاء التي تجلس في الوسط شيئًا، على الأرجح، مضحكًا للغاية، حتى تهتز الجوانب السميكة من الضحك لدى النسوة اللواتي يجلسن خلف ظهره.

بدأ كارابالا بتناول الطعام على عجل من أجل المغادرة بسرعة، تعرَّق، على الرغم من أنه أكل طعامًا باردًا، واحدة أو اثنتان من الذباب المتغذي جيدًا من مجرد لعق الأطباق الكثيرة، حطتا بالتناوب على أذنيه، ولكن لم تعضا، فقط طنتا، وكأن كلا منها تهمس في أذنه : "لمَ أنت في عجلة؟!"، كارابالا أكثر من أي شيء آخر في الدنيا، لا يطيق الذباب، كما أنه لا يطيق النساء التافهات اللواتي يضحكن في حضور الرجال.

ذات مرة منذ زمن، حتى في ذلك الوقت في مكتب التسجيل العسكري والتجنيد، عانى من متاعب من ذبابة خضراء واحدة ذات ساقين مغبرتين، ومن طبيبة شابة، مكتب التسجيل والتجنيد العسكري، بطبيعة الحال، مؤسسة جادة، ولكن من السيئ، أنه بعد أن يجمعوا رجالًا كبارًا، يجبرونهم على خلع ملابسهم كما ولُدتهم أمهاتهم، الناس يشعرون بالحرج بعضهم من بعض، ولا يعرفون إلى أين يذهبون من الخجل، فهم يغطون عوراتهم بأيديهم، في هذه الأثناء، تدخل إلى الغرفة المكتظة نساء في أثواب بيض يضربن بكعوبهن، أيضًا دخلت الغرفة امرأة شابة جميلة ذات قوام رشيق، وجلست بصمت في مكان قريب على حافة طاولة غير مستقرة متموجة، وقف وفكَّر في نفسه: "يا إلهي، الأفضل أن يسرعوا في إرسالنا إلى الخنادق التي يعلو فوقها أزيز الرصاص، بدلًا من الوقوف عرايا أمام هذا الملاك الأبيض".

اقترب الناس الواحد تلو الآخر، ومع اقتراب دوره، بدأ يرتعش، عندما نادوا فجأة اسمه، بدا له أن الرعد يقصف وسط السماء الصافية، واقترب مرتعشًا من الطاولة.

آغا، أبعد يدك.

قالت المرأة كاشفة أسنانها في ابتسامة.

كان فمه جافًا، قال:

يا عزيزتي، أخجل...

عبست المرأة...

في هذه الأثناء طارت ذبابة خضراء الأجنحة من النافذة، وحطت على الجزء الخلفي من رأسه، وبدأ هذا المكان يحكه، حرك رأسه إلى هنا وهناك، إلا أن الذبابة لم تفكر في الطيران، عندها غضب ونزع يده من المنطقة الحساسة، وليس كيفما كان، وإنما بكامل قوته صفع عنقه بكفه.

في هذه الأثناء كانت المرأة الماكرة تتفحصه بدقة، بعد ذلك استدارت، رأى مؤخرة رأسها، كانت تهتز من

الضحك، ثم جلست على الطاولة، وأخذت تضحك علانية، وعندما رأى الشباب العراة الواقفين خلفه في الطابور المرأة تضحك، فرحوا بمثل هذه الفرصة، وبدأوا يقهقهون بأعلى أصواتهم، الشابة الجميلة التي كانت للتو قد بدت لكارابالا وكأنها ملاك ذو أجنحة بيضاء، بدت له الآن شيطانًا حقيقيًا.

وفي هذا الحشد من نسوة المطعم، اللواتي يضحكن بهدوء، بدا له أن امرأة مكتب التسجيل العسكري والتجنيد نفسها كانت موجودة أيضًا، بعد أن انتهى بسرعة من الطعام أمامه، نهض، وسار بسرعة نحو المشجب، هرع إلى الباب، واضعًا تحت أحد إبطيه التيماك، وتحت الإبط الآخر معطف جلد الغنم الأسود، ما أن صفع باب المدخل، حتى انفجرت النساء اللواتي كن في عمق الغرفة من الضحك المكبوت بصعوبة.

كلما ابتعد عن هذا المبنى الملعون بذبابه الطنان، ونسائه الضاحكات، يسترد شيئًا فشيئًا هدوءه،

قفز على الحصان الذي كان ينتظره في ساحة "زاغوتسكوت"، وانطلق عائدًا، وفقط عندما بقي مركز المقاطعة خلف التلال السوداء، فرح كارابالا وغنى:

يـ- يـ-- يـ-- ي!

وعند كلمات "جيغيت مع فتاة يجمعان الفحم...." غطى فمه بيده، وتثاءب بشكل كبير، لدرجة أن عظمتي وجنتيه كادتا تتكسران، "إي، الله...."

حصان أشقر! حـ-صـ-ان أشقر!

ربما، لأن قريته الأم كانت تنتظره، زاد الحصان من سرعته، جلس كارابالا متكئًا على السرج مع القوس المنخفض، ومن وقت لآخر، قال: "وهكذا، تم حل هذه القضية بنجاح!" لم يبدِ مسؤولو المكاتب الثلاثة له أي مظاهر للتكبر على الإطلاق، استمعوا إليه بعناية، نفذوا طلبه، تبين أن اثنين منهم يعرفانه، وذاك، ذو السن المعدني، والوجه النحيل، يبدو أن كارابالا يعرفه أيضًا، انتظر لحظة...، أين رآه؟ في جنازة حماته يبدو أنه لم يصادف مثل هذا الرجل، وفي عزاء والد زوجته، عندما تولى بنفسه استقبال المعزين، يبدو أنه لم يكن هناك أيضًا، أم هو واحد من المسئولين الكثر الذين وصلوا على الخيول المتعبة ؟، كيف له أن يتذكرهم جميعًا؟ إذا كان بعضهم لا يحتاج إلى أي قطعة من الحديد للمركبات، فليس لهم شأن مع الحداد كارابالا، انتظر...، انتظر....في العام قبل الماضي، الكثير من الأشخاص في قبعات من القماش، عرّجوا في الليل، قبل أن يصلوا إلى الباب، سألوا وتوسلوا: "آغاتي، انكسرت المقصات، ساعدنا من فضلك"، جاءوا عند الغسق، وغادروا في الصباح، عندما بدأ الضوء في البزوغ، عربة من القماش المشمع، يبدو أنهم كانوا عائدين من الصيد، كان القماش ملطخًا بالدم، على ما يبدو مسحوه بالعشب الأخضر، عندها، تذكر، كان هناك مشاكس عبث بالسيارة، ودار حولها، على الأرجح هو نفسه، يبدو وكأنه ركب أسنانًا.

ولكن أيًا كان الأمر، فقد تم أخيرًا تنفيذ رغبة المسكين أونباي القديمة التي عذبت روحه، ولم تمنحه الراحة، المسألة التي لم تمكن أونباي ذا الأسنان الكبيرة من أن يحلها، بعد أن سافر إلى مركز المنطقة مرات عديدة، شاتمًا الجميع دون استثناء حتى نفخ بطونهم، وكم مرة عاد خالي الوفاض، كانت بالنسبة لكارابالا أمرًا

تافهًا! فمن الصعب عليه أن يربط بين كلمتين، لدرجة أن قميصه تبلل من هذا العمل...، وكل هذا، بالطبع، بسبب القوة العجيبة لتلك العشبة الخضراء، الرقيقة مثل إبرة، التي كانت تتدلى من فم السلحفاة، ليس عبثًا قال الأسلاف! ليس عبثًا، النعمة لمست أخيرًا أونباي، على الأرجح سيطير قلبه من الفرح، عندما يقوم كارابالا قريبًا بتسليمه وثيقة الإذن في يده، سيضحك فجأة، وربما، سيقول: "آه، أيها المسكين، تبين أنك أنت أيضًا تستطيع أن تفعل شيئًا".

فليضحك، ليضحك المسكين أونباي...

عندما دخل كارابالا المنزل، لم يكن هناك صوت في الغرفة المظلمة، على السدة، بعد أن وضع وسادتين على كلا الجانبين، كان أونباي مستلقيًا، كل سكان المنزل الآخرين مشوا على رءوس الأصابع، بصمت، كما لو أنهم ليسوا بكائنات حية، وإنما أشباح بالكاد ملحوظة، في عيني أونباي الواهن والمرتعش، الذي بالكاد احتسى الشاي، لمعت ابتسامة ماكرة، أشار إلى مكان فارغ بجواره: "تعال إلى السدة"، ما إن ثنى كارابالا ركبتيه وأراد أن يقول شيئًا، حتى ابتسم أونباي وقال:

يمكنك عدم التكلم، أنا أعرف كل شيء مسبقًا، تناول بعض الشاي أولًا.

بعد ذلك، حرك شاربه، وبدأ هو يشرب الشاي، لم يستطع كارابالا ابتلاعه، ولم يمشِ شيء في حلقه، كان يتوق إلى نقل الخبر إليه.

قلب أونباي الكأس، وبعد أن رفع بطانية الساتان الملونة على كتفيه، انزلقت ثانية، ثم أخذها مرة أخرى، ثم سأله بصوت هادئ تمامًا:

كيف كانت رحلتك؟ كيف هم المسئولون، وأمهم، على قيد الحياة، وبصحة جيدة؟

نعم، يبدو أنهم أصحاء.

ربما استقبلوك بأذرع مفتوحة؟

الحمد لله...

حسنًا، نعم...، أنا أعرفهم.

لمس ناسيباي ظفر إبهام أونباي، لمس أنفه، فاستدار عائدًا.

ماذا قال كلب صيد اللص ذو السن المعدني؟

اتضح أنه جهز الأوراق نيابة عنك.

لمعت ابتسامة ساخرة في عيني أونباي على الفور، لكن على نهايتي الحاجبين الملتويين لا تزال ترتعش دهشة مرتابة.

وهل كنت المدير الغندور؟

كنت.

- ماذا؟ تذمر طوال الوقت، مثل النعجة التي لا تستطيع أن تلد؟

لا على الإطلاق، حلَّ كل شيء على الفور.

الآن أونباي، بعد أن قوّم نفسه، حدَّق فيه بنظرة خارقة، كما لو كان يريد أن يصرخ بغضب: "لماذا تهرج معي؟

وماذا قال الرجل الضخم مع الجدعة؟ مسح فمك بالقش الجاف؟

في المستودع، كما تبين، كان هناك ثلاث سيارات، وقال إن واحدة منها تم أخذها، وهذه الورقة.

فتح أونباي الورقة بعناية، أخرج نظارته من تحت الوسادة، وقرأ بتأنٍ واهتمام، وقلب الورقة هكذا وهكذا، هز برأسه، شخر، وأخيرًا ظهرت ابتسامة على شفتيه.

انظر كيف تلكأ الجشعون الذين ظلوا يتأسفون في أن يعطوا حتى صباح اليوم، أصبحوا أسخياء، فقط كان عليك الذهاب!

شعر كاربالا وكأن حملًا ثقيلًا قد أزيح من على كتفيه، أصبح يشعر بالارتياح، خرجت حبات العرق على جبهته العريضة، وما أن همّ بالحديث عن أعشاب السلحفاة، حتى لاحظ بأن وجه أونباي شحب، وبدأ في الانتفاخ، والتورم، والاحمرار وكأن نبات القراص أحرقه، فتوقف.

لم يكن لأي من أهل البيت علاقة بالنبأ السار الذي أحضره، كانوا كلهم يلهثون، وينظرون إلى السدة.

فجأة أمسك أونباي بجانبه، وكأن سكينًا طعنته، بدأ ببطء في الاتكاء على الوسادة الملونة وراء ظهره، وبدا وجهه وكأنه ملوث بزجاج أزرق بارد، بعد فترة، قال بصوت ضعيف:

حسنًا، شكرًا لك، اذهب الآن إلى منزلك.

نهض كاربالا من مكانه، وضع التيماك، وأخذ السوط، وعندما اقترب من العتبة، نظر إلى الوراء، كان لدى أونباي المظهر الأزرق الباهت نفسه، على الجانب الأيمن من فمه، بدا كأن ابتسامة ثقيلة ملتوية علقت.

عندما خرج كاربالا، وضع يده في جيب الصدر لمعرفة ما إذا كانت عشبة السلاحف في مكانها، عندها تذكر وصفة الدواء، أخذ حصانه واتجه ببطء إلى أطراف القرية، ربما، صحيح أن الطريق في الظلام يبدو طويلًا، المنزل، الذي كان في متناول اليد عمومًا، يبدو الآن بعيدًا جدًا.

سار كاربالا وهو يشعر بالندم لأنه نسي من العَجَلة شراء الدواء لزوجته.

سابيت دوسانوف

(ولُد عام 1940)



- تخرج في جامعة الفارابي الوطنية الكازاخية، وفي الفترة 1985 – 1989 عمل مديرًا لفرع كازاخستان بالصندوق الأدبي للاتحاد السوفيتي.
- أكاديمي في أكاديمية العلوم التربوية والاجتماعية بروسيا.
- في الفترة 1991 – 1995 عمل مديرًا للمركز الجمهوري للفنون الشعبية والثقافة، وبين عامي 1997–1996 أصبح مديرًا عامًا لدار نشر "قاينار".
- قام بالتدريس في أكاديمية جورجينوف للفنون، كما قام بتأليف العديد من الروايات والقصص القصيرة التي صدرت في كتب مثل: "صباح الخير" عام 1966، "نوع المصير"، "ربيع الثامنة والثمانون"، "النسور لا ترتاح أبدًا"، وقصة "الطريق الجبلي" عام 1971، رواية "الحياة الثانية"، "الخزينة"، "لا تطفئ نار القلب"، "اليوم الثامن من الأسبوع"، والرواية الملحمية "القرن العشرين" التي أعادت خلق الصور الأدبية للتنويريين الكازاخ في القرن العشرين.

- في عام 2002 صدرت المجموعة الكاملة لأعماله في مجلد واحد بموسكو.
- في عام 2018 صدرت بمدينة ألماتي المجموعة الكاملة لأعماله في 12 مجلدًا.
- تم عرض مسرحيته "الإعصار" على مسرح مختار أويزوف الأكاديمي بكازاخستان، وكذلك على خشبة العديد من المسارح الأخرى في أتيراو وسيمي وأقاليم أخرى.
- فاز بجائزة "القلم الذهبي" الأدبية من جمهورية قيرغزستان.
- حاز على جائزة الدولة في جمهورية كازاخستان، وهو شخصية مرموقة بالبلاد.
- حصل على جائزة "ميخائيل شولاخاف" الدولية.

على قارعة الطريق

1

حامَ الحرُّ الخانقُ فوق المدينة دخانًا يلف كل ما يصادفه في طريقه، سدَّ الأنف، وأحرقَ الصدر، وأجبرَه على أن يرتعش، وحال بينه وبين الهواء الضروري المنعش، فمع كل رشفةٍ جديدةٍ لا يجلب الهواء الحياة، بل الحرارة، لا نسيم، ولا مطر، منذ شهرٍ، اصفرَّت قبل أوانها أوراق الأشجار تحت وطأة الشمس الحارقة، تشققت الأرض، وجفَّت، حتى إنها تحت الأشجار بدت ميتةً، لم يقاوم الإسفلت، إذ كانت قدماه مقيَّدتين في المستنقع الإسفلتي، المدينة الجميلة عند سفح آلاتاو، بدأت تغطيها طبقة من الغبار الرمادي الكثيف، فقط في الصباح الباكر هبَّ من الجبال نسيم منعشٌ بالكاد يُشعر به،

منذ الصباح، وقبل أن تبدأ الكتمة العنيدة، أسرع آيدين كعادته إلى كشك بيع الصحف، فمنذ عدة سنوات يبدأ يومه مع قراءة الصحف، رغم كبر سنها، كانت البائعة الروسية الشقراء المتقاعدة تتميز بحدة الذاكرة، إلى درجة أنها كانت تعرف حتى الصحف التي يشتريها، ومن غير أن يبتعد عن الكشك، بدأ آيدين يتصفح الصحف، وفجأة سمع صوتًا هادئًا مألوفًا مع بَحّة خاصة:

آيدين!

التفت بسرعةٍ، ولم يصدق عينيه،

آيدين، أليس كذلك؟، ألم تعرفني؟

بشكل ملتبسٍ قال الرجل الأسمر، المتوسط القامة ذو البطن الكروي، وبشكل ماكر حدّقَ بعينين ضيقتين فاحصتين في آيدين،

لماذا لم أعرف؟ غفور!

آيدين الذي أسعده اللقاء جدًا، مدَّ يده، وبحرارة عانق صديقه،

لم أكن أتوقع، لقد اختفيت لسنواتٍ، وظهرت فجأة هكذا، بشكل غير متوقع! لفت الصوت الهائج لغفور انتباه المارة،

أشار آيدين إلى بناءٍ من خمسة طوابق ينتصب في القرب، وقال:

لماذا نقف هنا؟ لنذهب الى منزلي؟

أدرك غفور على الفور أن آيدين يعيش بمفرده، كانت الشقة نظيفة، بل نظيفة جدًا، لكنها لا تشع برائحة أنثى، ولا بأجواء الدفء الأسري، فمن الجدران البالية التي كانت قد طُليت في وقت ما باللون الأزرق، والبوفيه الفارغ، والفراش المرتب الذي يشبه أَسِرَّة الجنود، كانت تُشمُّ رائحة العزوبية.

- آسف، أين ريمجان وآيبار؟ لماذا أنت وحدك؟

- فقدتُ زوجتي وابنيّ،

يسود للحظات صمتٌ يقطعه آيدين بصعوبة، وهو يحاول أن يحبس دموعه،

- قبل أربع سنوات، حادث سيارة، كان آيبار وريمجان مسافرين إلى شيمكنت، وفي ممر كورداي انقلبت الحافلة، وتوفي كلاهما،

لم تدعه الغصة في حلقه ينهي كلامه،

لمس غفور يد صديقه قائلًا:

ومنذ ذلك الحين وأنت وحيدٌ؟ لم تتزوج؟

لم أرغب في الزواج، أنت تعرف كم أحببت ريمجان وكيف تزوجتها، ربما تتذكر! كان هناك عتاب في صوت آيدين، لقد كنت أنت وصيف زفافنا؟

بالطبع أذكر! أذكر الولائم الضخمة بمناسبة ولادة آيبار وبداية حياته المدرسية،

آيبار مات على الفور، في حين توفيت ريمجان في مستشفي منطقة غيوغيفكا؛ حيث أُحضرت بعد وقوع الحادث، قبل أن تغلق عينيها إلى الأبد، كانت آخر كلماتها: "كم سيكون الأمر صعبًا على آيدين، لقد كان يعتمد عليَّ في كل شيءٍ،"

صمتا، وبرد الشاي منذ فترة، لكن غفور الذي كان من محبي الشاي المخمّر والساخن ويطلب دائمًا صبَّه حتى الشفة، شرب الشاي باردًا من كأسٍ كبيرة متظاهرًا بالرضى،

نعم، وماذا عن العمل؟ هل ما زلت تعمل في المكان ذاته؟

لا، وقعت تحت طائلة تقليل العمالة،

كيف ذلك؟ مَنْ؟ مَنْ؟ كان من الواجب ألا تقع أنت تحت تلك الطائلة!

قال غفور باستياء،

آيدين أومأ برأسه بهدوء قائلًا:

أتظن؟

أنت تخرجت في المعهد وحصلت على الدبلوم الأحمر، وطوال الوقت عملتَ في مكان واحد فقط، لديك خبرة عمل كافية، نحن مسألة أخرى تمامًا، لا، مهما قلت، فلديك رأس ذهبي، أذكر أنه في ظل السلطة السوفيتية شاركتَ في مؤتمر المخترعين لعموم الاتحاد في موسكو، أليس هذا صحيحًا؟ وهل يوجد في كازاخستان الكثير

من المهندسين الموهوبين أمثالك؟

بقي أولئك الذين جاءوا فيما بعد، في حين غادرنا نحن،

بدا آيدين هادئًا تمامًا،

هذا ظلم، هل ما زلت بعيدًا عن التقاعد؟

أخشى من أنني لن أستطيع الانتظار حتى التقاعد،

قال آيدين بهدوء،

- الناس العارفون يقولون إنه عند حساب المعاش التقاعدي؛ تؤخذ رواتب سنوات العمل الخمس الأخيرة، وأنا منذ عامين أجلس بلا عمل، وحتى التقاعد لا يزال هناك اثنا عشر عامًا،

إذن لا بد لك من أن تبدأ بأي عمل دون اختيار المنصب،

وهل الآن هو وقت اختيار المنصب؟! مؤخرًا عملت في أحد الأماكن بوابًا، وجُرّدتُ من هذا العمل،

تلوح على وجهه ابتسامة مريرة

- اتضح أن هذه الوظيفة كانت لازمةً لأحدٍ ما،

لا عليك! لا تقنط!، لن نتركك خارج الركبِ، إذا وجدتُ لك عملًا، هل توافق على الانتقال إلى أستانا؟

يمكنك تغيير هذه الشقة ذات الغرف الثلاث؟

لا أستطيع أن أترك ريمجاني وآيباري،

قاطع آيدين صديقه،

- أخشى أن يكون من الصعب أن تفهمني، لكن...

ضاق نفس آيدين،

خيم الصمت مرة أخرى، بدأ غفور يتهيأ للذهاب،

فكَّر في الأمر،

قال بغير إلحاح،

- سأبحث لك عن عمل في أستانا، كملاذٍ أخير، سألجأ إلى مديري،

سأفكر في ذلك،

ابتسم آيدين بودٍ،

تعال إلى أستانا، سأكون مضيفك، إليك أرقامي وعناويني،

أوه،

صاح آيدين قائلًا وهو يلقي نظرة على بطاقة أعمال غفور،

- ولُديك هاتف محمول أيضًا،

أوه، أنا لست بحاجة إلى بطاقة العمل هذه، ولا إلى الهاتف الخلوي، لكنها رغبة مديري، بالمناسبة، ماذا عن

أطروحة الدكتوراه؟ هل دافعت عنها؟

لم أدافع،

لماذا؟ لقد انتهيت منها منذ فترة طويلة؟

أنت تعرف، أنا لا أحب أيا من الألقاب والضجيج هناك،

ابتسم آيدين،

أعرف، بالطبع، لكنني سمعت من كثيرين أنه بإمكانك، بوصفك متخصصًا، أن تطيح بالأكاديميين عن عروشهم، لو كان لديَّ عِلمك؛ لقلبت العالم،

الآن ليست المعرفة، وإنما المال هو الذي يحكم العالم،

نعم! للأسف، أنت على حق!، حسنًا، سأذهب، سيقلق مديري،

كم ستبقى في ألماتي؟

اليوم، بالرحلة المسائية سنطير مع المدير إلى موسكو، وهو سيسافر إلى الخارج للراحة، وأنا سأجلب سيارة الجيب الجديدة إلى أستانا.

اصطحب آيدين غفور حتى محطة الحافلات مودعًا.

كان الصبح حارًا والسماء صافية، لكن الطقس في ألماتي مثل مزاج امرأة نزوية، يمكن أن يتغير بشكل جذري أربعين مرة في يوم قصير، فجأة حجبت الشمسَ غيومٌ داكنة ثقيلة سبحت من مكان ما، لتشتدّ كتمة الجو، وحتى الرياح التي هبت فجأة من الجنوب الغربي، لم تُزِح الغبار عن الأسفلت، وأحرقت الوجوه، في حين ضربت قطرات المطر الدافئة الكثيفة الأرض ببطء.

وقف آيدين طويلًا وهو غارقٌ في التفكير، من دون أن يجد تفسيرًا لهذا الجو المتغير،

2

هل ما عذَّبه هو الجوع، أم هي الأفكار الثقيلة مثل الغيوم، التي دون أن تهدأ حامت الواحدة تلو الأخرى، أو ربما كتمة الجو تجسدت، وجثمت رصاصًا على صدره؟ أم إن اللقاء مع غفور فتح جروحه؟ لم يستطع معرفة ذلك، ونام في وقت متأخر من الليل، "يا إلهي، متى سيتركني الشريط الأسود؟، أيعقل، يا إلهي، ألا ترى كيف أصبحتُ فريسةً للمصاعب التي تسحقني دومًا؟ ساعدني، يا الله!،، أعطني الدعم! أتوسل إليك، لا تغفل عني! فأنا حاولت أن أفعل كل شيء حسب وصاياك!"

مع صرير السرير الخشبي القديم، لم يستطع أن يغفو، وبقي يتقلب من جانب إلى آخر، لينهض أخيرًا متعبًا

ومحطمًا.

من الأشعة الساطعة للشمس المشرقة المتسللة من خلال فتحات الستائر القديمة، أصبح الجو في الغرفة الصغيرة في المنزل الخرساني حارًا بشكل لا يطاق، لسبب ما تحرك بصعوبة وقدماه تهتزان، مترنحًا من جانب إلى آخر، فتح النافذة، كان الجو في الخارج أكثر سخونة، واندفع الهواء الساخن بسعادة إلى الداخل، كما لو كان يبحث عن ملاذٍ له من الأشعة المحرقة، من جديد انقبض قلبه، وغبَّشت عيناه، الآن فقط تذكر أنه لم يأكل منذ يومين، فكَّر في المرق الذي وضعه جانبًا للحاجة إذا جاع بشدة، "يبدو أنه كان هناك شيء صالح للأكل في الثلاجة"، اعتراه الأمل، ووصل إلى المطبخ مستندًا على الجدران بيديه المرتجفتين، فتح باب الثلاجة وتسمَّر في مكانه، جميع الرفوف كانت فارغة، فقط في الزاوية لاحظ قطعة خبز وقدرًا صغيرًا مسودًّا مع بقع بنية من الاحتراق، أكل بعد أن سخن ما بقي في قاع القدر من الحساء المصنوع من العظام قبل أسبوع، وأغلق الثلاجة، "يجب غسلها وتنظيفها، إذ لا توجد زبدة لكي أحفظها فيها، حتى ولا كوب حليب لأشربه مع الشاي، هل سيأتي اليوم الذي يمكنني فيه أن أطهو مرقًا من العظام؟، لم يتبق في المنزل شيء لأبيعه، ربما سيشتري أحد ما هذه الثلاجة بثمن بخسٍ!"

بعد أن تناول نصف طبق الحساء وشريحتين من الخبز، انتعش آيدين قليلًا، تعرَّق، الآن لو يشرب! لم يرغب في استخدام ما تبقى من الشاي المخمَّر، بعد أن غلى الماء مع عشب أمس المجفف، وشرب شاي الأعشاب، وليخفف من مرارة شاي الأعشاب المخمَّر، أضاف إليه القليل من الملح، لأنه منذ فترة لم يكن لديه سكر، فاكتسب الشاي طعم شراب الجلد المخمر.

الحي التاسع الذي بني منذ أربعين عامًا، يقع على أطراف المدينة من جهة الرياح، عاش آيدين في الطابق العلوي من مبنى متهالك من خمسة طوابق،

عندما دخل إلى غرفة المعيشة، لفتت انتباهه بقعة سوداء، بحجم زر، على الأنبوب النازل من السقف إلى نقطة التدفئة، الآن فقط تذكر أن في الربيع انثقب الأنبوب وتسرب الماء منه، لمس البقعة وأدرك أن الفتحة سُدّت من تلقاء نفسها من الوسخ المتشكل، "الله إلى جانب الفقراء"، خطر في باله.

استلقى آيدين على الأريكة، وبدأ يفكر في طعام الغد، "ها هو اليوم قد جاء، ما الذي ينتظرني غدًا؟" قضيت أمس في السوق السوداء، من الصباح حتى المساء، بعد أن قمت بعرض كتبي الأثرية القديمة وهي آخر ما تبقى من ثروتي، وحصلت لقاءها على ثلاثمائة "تنغي" فقط، عشرة منها دفعتها للتنقل، واشتريت الصحف، كم يومًا ستكفي المائتان والسبعون المتبقية؟ الناس غريبون جدًا! لا يشترون بالثمن الحقيقي، بل بسعرٍ أقل بعشر مرات، الكتب التي كانت في الاتحاد السوفييتي غير متوافرة، وبيعت فقط من تحت الطاولة، الأمل الأخير هو دليل طبي من ثلاثين مجلدًا، إذا ابتسم لي الحظ، يمكنني العيش لبعض الوقت على النقود التي سأحصل عليها"، التليفزيون منذ فترة طويلة معطّلٌ، ولسوء الحظ المذياع صمت أيضًا!، الآن بماذا سأشتري الصحف؟ آيدين، الذي شعر بنفسه متروكًا في جزيرة مهجورة، بدأ يعلم بآخر أخبار العالم من جيرانه.

مع مرور الوقت، الماء الراكد الذي يملأ البركة، يصبح عفنًا، وكذلك هو الإنسان، إذا لم يتواصل مع أحد، مع مرور الوقت يصبح غير نفسه، لأسابيع وأشهر بدون أن يتحدث مع أي روح حية، شعر آيدين أنه يتحول إلى متوحدٍ نفورٍ ومنغلقٍ وكئيبٍ، حتى طبيعته وعاداته بدأت تتغير، وكان نفسه يشعر بالاشمئزاز من نفسه، آيدين الخائف، الذي كان الشعور بالوحدة بالنسبة له أبشع من الفقر، بدأ في التواصل مع الجيران أكثر، قدر الإمكان، لكن في بعض الأحيان حدث أنه لم يتحدث مع أي شخص، لقد ولّى زمن "أنت لي، أنا لك"، والناس، فيما يبدو، أصبحوا أكثر حذرًا في اختيار الأولويات، إلى الآن اثنان فقط يتحدثان مع آدين عن طيب خاطر، أحدهما عقيدٌ متقاعد يعيش مقابل شقته، والآخر هو مالك الشقة الأولى، وهو صحفي، أصبح قبل أوانه عاطلًا عن العمل.

عندما تراجعت الحرارة، وامتد الظل إلى مساحات أكبر، خرج آيدين إلى الفناء، لكن لم يكن هناك أحد، وبدون أن يعرف ماذا يفعل، وبينما كان يفكر بالفعل في العودة مرة أخرى، رأى فجأة أحد الجيران، وهو شاب تتري، في السابق كان هذا الجار يسلّم بإيماءة من رأسه، لكنه اليوم سلَّم بأدب خاص مادًا يده:

كيف حالك، يا صاح؟ لم أشاهدك منذ فترة طويلة، هل سافرت الى مكان ما؟

إلى أين لي أن أذهب؟ أجلس في المنزل...

وأنا كنت أبحث عنك...

لماذا؟

فوجئ آيدين...

قلتَ إنك عاطل عن العمل، أردت مساعدتك وتحدثت مع الأصدقاء بشأن عملٍ لك،

حقًا؟

انتعش آيدين،

توجد وظيفة، وظيفة حقيقية! صعبة نوعًا ما، ولكن المرتب ليس بقليل، ابتسم بمكرٍ،

قاطع آيدن الجار بسرعة:

رفيق جان، أي نوع من العمل؟ قل أخيرًا!

هل تقود السيارة بشكل جيد؟ صباح الغد انتظر هنا، خذ معك رخصة القيادة وجواز السفر، و...

وبعد ذلك؟

أراد آيدن بسرعة معرفة ماهية العمل.

بعد ذلك سأعرِّفك على الشباب، هم ستة أخوة، سوف تكون السابع، ستسافرون إلى الإمارات العربية المتحدة.

لماذا؟

ذبل صوت آيدين، لقد فهم أنه يجب عليه السفر إلى الخارج لأجل المال.

هم رجال أعمال، يزاولون تجارة السيارات، هناك سوف يشترون كثيرا من السيارات، أنت فقط ستقود إحدى هذه السيارات معهم.

كم ستستغرق السفرة؟

كل سفرة تستغرق سبعة أو عشرة أيام، كل يوم سيدفعون لك مائة دولار، سيأخذون على عاتقهم تذكرة الطيران والسكن، وحتى الطعام.

جميل! عمل رائع،

قال آيدين، كاد يقفز قلبه من صدره من الفرح: "الله لم يتركني! لم يكن أملي عبثًا!!!"

- يقولون: "من أجل جارك ضحِّ حتى بالصلاة"، لقد حاولت من أجلك ووجدت هذا العمل.

ابتسم رفيق برضا.

أوه، رفيق جان، لن أنسى أبدًا معروفك، شكرًا لك يا عين العين،

"شكرًا" وحدها لا تكفي، اغسلها جيدًا عندما تعود،

فهم آيدين التلميح وضحك قائلًا:

بالطبع، سنغسل!

حسنًا، أراك غدًا،

تلألأت عينا آيدين الزرقاوان بسعادة، وتشرب باللون الوردي خداه على وجهه الأحمر الممتلئ، وانسحب بسرعة، "لقد سخَّر الله لي هذا اللقاء، يا إلهي، هل هو حلم أم حقيقة؟ فرك آيدين عينيه، وبعد أن تأكد من أن ذلك لم يكن حلمًا، وقف لفترة طويلة أمام الباب، واستعاد وعيه تدريجيًا.

3

بعد تحميل السيارات التي تم شراؤها في دبي على متن العبارة، قاموا بإيصالها إلى إيران، في اليوم التالي، مع برودة الصباح، انطلقوا، جلس ستة سائقين خلف عجلات ست سيارات، وسارت السيارات على طول الطريق الأسفلتي الأملس، كان آيدين أحد هؤلاء الستة، في حين استقر الشاب السابع، رئيسهم، على المقعد الخلفي للسيارة الأمامية.

بعد مغادرتهم الميناء الإيراني بندر عباس، توقفوا لفترة قصيرة، تناولوا فيها وجبة خفيفة على عجل، في الغداء بيَّن رئيسهم تكملة الطريق قائلًا:

بعد قطع ألف وسبعمائة كيلومتر، سوف نصل إلى قرية سيراك على الحدود الإيرانية مع تركمانستان، ثم سنصل إلى حدود أوزبكستان عبر مدينتي ماري وتشاردجو، المحطة التالية في قرية فارات في أوزبكستان،

بعدها ستأتي بخارى ثم نافوي، وأخيرًا كازاخستان الأم، الجوحار، والطريق شاقة!، لكننا لن نتوقف حتى سيراك، فليخبرني مَنْ يتعب منكم، لا تخجلوا! أنا شخصيًا سأقود عنه، وأدعه يستريح، هيا يا فرسان، إلى الخيول!"

بعد ذلك استقلوا السيارات وانطلقوا، عُهدت إلى آيدين قيادة سيارة "أودي" عمرها عامان فقط، من الخارج تبدو نظيفة للغاية، والقمرة نظيفة، كما لو كانت قد خرجت للتو من المصنع، والمحرك لا تشوبه شائبة، بالفعل السيارة الجديدة مثل الحصان الجيد.

على الرغم من الحرارة، لم يشعر آيدين بالتعب، على العكس من ذلك، بمعنويات عالية ضغط على دواسة الوقود، كانت الأفكار تندفع في رأسه أسرع من السيارة، تخيَّل الأوراق الخضر التي سيحصل عليها فور وصوله إلى ألماتي، "سأتخلص من الجوع المعذِّب والفقر القامع"، حلَّقت أحلامه نحو السماء، وقفز قلبه من الفرح، "ما أروع الطبيعة! متنوعة للغاية! من الخضرة الاستوائية إلى الصحراء الصفراء! في كل مكان جميلة، تسرُّ النظر! يا إلهي، شكرًا لك على كل شيء!"

للمرة الأولى خلال السنوات الأخيرة تتملكه الرغبة في الغناء، وهو يسبح بنظره مستمتعا بالأجواء حوله، غنى "خوسني خورلان يستاي"، كانت ريمجان تحب الاستماع إلى هذه الأغنية، بالطبع، هو ليس مغنّيًا، لكن صوته كان طيبًا، في تلك السنوات التي كانت فيها ريمجان لا تزال على قيد الحياة، غنى أكثر من مرة في الحفلات، نعم، لقد كان وقتًا ممتعًا، خلاله لا تفكر أبدًا في الغد، ولا فيما ستأكل أو تلبس، عندما كانت ريمجان وآيبار على قيد الحياة، كان آيدين أسعد إنسان! لكن حياته انقسمت إلى ما قبل، وما بعد، العالم خادع! لم ترمش عينه، حتى مرت هذه الحياة بسرعة، وبدا مجرد وجود، الآن القلب يتألم، يُسحق تحت وطأة شوق إلى سعادة لن تعود، لكن الاستمرار في الوجود ضروري،

وصلوا إلى فارات في وقت متأخر من المساء، ومكثوا في منزل أحد الأوزبك، قبل الذهاب إلى السرير، جمعهم الرئيس، وقال:

يا شباب، لقد تعبتم من الطريق، بقي القليل، الآن استريحوا جيدًا، سأوقظكم في الصباح.

نام آيدين بعمق.

حين استيقظ في الصباح، اكتشف أنه لا توجد سيارات ولا رفاق طريق، بدأ يسأل صاحب البيت الذي كان ينتحب، كما لو كان يبكي على ميت:

أوه، يا إلهي! اتضح أنهم محتالون حقيقيون، لم يقتصر الأمر على أنهم لم يدفعوا لي ثمن طبق رز الأمس والمنامة، بل سرقوا مني ثوبين من القماش، كنا نخيط من هذا القماش الملابس، وبهذا كنا نتدبر أمورنا، ماذا سنفعل الآن؟

سيارة! هل لديك سيارة؟

سأل آيدين دون أن يستوعب شيئًا: "إنهم شبابٌ طيبون، لا يمكن أن يفعلوا ذلك!"

نعم، توجد سيارة، لكن بلا فائدة، لن نتمكن من اللحاق بهم!،،

وإذا تمكنا من اللحاق بهم؟

"-لا ينبغي الاستسلام، يجب أن نتصرف"،

هذا مستحيل، حتى لو لحقنا بهم، لن نحصل على أي شيء، سيقتلك كازاخيوك في السهوب،

وماذا سنفعل الآن؟

ماذا نفعل؟ سنحصل على لقمة عيشنا بطريقة ما، وأنت ماذا ستفعل؟ عد إلى وطنك، ما دمت سليمًا،

كيف سأصل إلى وطني إذا كانت جيوبي فارغة؟

في هذه الحالة، ابحث عن عملٍ مؤقت هنا، واكسب النقود من أجل الطريق،

تذكر آيدين برعبٍ فجأة:

ليس لدي وثائق، الرئيس أخذ من الجميع الوثائق كافة، وقال إنه من الأفضل الاحتفاظ بها في يد واحدة،

لقد ضعتَ أيها الشاب،

أجل، لقد ضعتُ تمامًا!

قال هذه الكلمات، حتى دون أن يخوض في معناها،

صدمته خسة البشر والخيانة، شعر بألمٍ؛ ألمٍ محرقٍ، لا نهاية له، شاملٍ! اخترقه، مزَّق روحه، وأحرق داخله، فقد عقله تقريبًا، وجلس بلا حراك لبعض الوقت، أظلمت عيناه، ولم ير شيئًا حوله، عندما يريد القدر أن يضرب؛ فإنه يضرب بشراسة، عندما استعاد وعيه، نظر حوله، كان الرجل الأوزبكي العجوز قد مضى، بأمل ضعيف، سحب مقبض بوابة المنزل، حيث نام، لم تفتح البوابات، ضغط على زر الجرس، لم يجب أحدٌ، لا يعرف ماذا يفعل، مشى في اتجاه المجهول.

4

وصل آيدين الهزيل بالكامل إلى ألماتي، مرت ثلاثة أشهر، وهنا أمام الشقة؛ حيث عاش لسنوات كثيرة، كانت هناك مشكلة أخرى في انتظاره، فقد استُبدِل الباب الخشبي بآخر حديدي، وبدلًا من القفل الواحد، وُضِع قفلان، لم يفهم آيدين شيئًا، ضغط على الزر، ففتحت البوابة الحديدية.

عمّن تبحث؟

سأل شابٌ منتفخ الخدين مع شعر أشعث،

افتح الباب، هذه شقتي،

هل جننت؟، اخرج على الفور! وإن لم تفعل، سأتصل بالشرطة!

أغلقَ الباب الذي اصطدم بأنفه،

قلبه يدق بقوة ودمه يغلي، انتقل إلى جاره التتري، رفيق، واشتكى إليه من أن غرباء استولوا على شقته.

نعم،

قال رفيق بهدوء،

– بعد مغادرتك، جاء أشخاصٌ وبدأوا في إجراء إصلاحات كبيرة، واستقروا مؤخرًا، سألت ماذا؟ وكيف؟ أجابوا: "لقد اشترينا هذه الشقة"،

ماذا أفعل؟

اذهب إلى الشرطة،

بناءً على نصيحة رفيق، ذهب آيدين إلى مركز الشرطة، الشرطي الشاب الذي أحضره آيدين إلى هنا، بدأ في استجواب ذاك الرجل البدين ذي الرأس الكبير، لسوء الحظ، كانت الوثائق صحيحةً تمامًا، ثم ذهب الاثنان إلى جمعية مالكي الشقق، وهناك تم التأكد من الوثائق بالطريقة اللازمة، أكدت هذه الوثائق أن آيدين، من خلال وسيط، باع شقته مقابل 3000 دولار.

يا شيخ، آسف، لا أستطيع مساعدتك بشيء، قال الشرطي الشاب ومضى في سبيل.

"على ماكار المسكين تنهال كل الحمم"، "المصائب لا تأتي فُرادَى"، هكذا اعتقد آيدين، العقل يرفض أن يفهم: "مستحيلٌ!!! هل سأبقى في الشارع؟ من أنا الآن؟، لا يوجد حد للإنسانية البشرية! وهم ألا يخافون الله! لماذا؟ لماذا يحدث هذا لي أنا تحديدًا؟ لأي سبب؟ سبحانك يا الله! لماذا تعاقبني هكذا؟ ما السيئ الذي فعلته لك؟ هل يمكنك حقًا أن تترك شخصًا في مثل هذه الحالة؟، هل أنا مذنب حقًا بشيء لا تسامحني عليه؟ لماذا؟ لماذا؟" من الأفكار الثقيلة دار رأسه، وأظلمت عيناه، ارتعدت ركبتاه، بصعوبة حرك ساقيه حتى وصل إلى المقعد، وهبط عليه خائر القوي.

كانت الشمس تغرب.

5

منذ الصباح الباكر يتبعثرون في اتجاهات مختلفة، ويتجمعون فقط في المساء، أممية كاملة، ممثلو شعوبٍ مختلفة، كانت هذه المجموعة متنوعة الألوان.

إيفان، الذي كان دائمًا مخمورًا، وله أنف ضخم، أحمر مزرق، هو الزعيم الواضح للتجمع الروسي، يده اليمنى شاخفات التتري: بدينٌ، أعور بعينه اليسرى، الأويغوري توختاخون متوسط القامة، قصيرها، تغطيه حبوبٌ مزرقة، باك كوري، قصير بدين، يولُداش الأوزبكي نحيفٌ، ذو عضلات، ثرثار، الأوكراني تيموفيي هو الأطول، ساقاه طويلتان، ومن نحفه اكتسب لقب "الهوائي"، معهم عاش في وقت ما أبيض الوجه آيدين،

منزلهم الحالي هو قبو صغير لأحد المباني في الحي، كان يستخدم سابقًا مستودعًا، إلى هنا أحضر شافخات أصدقاءه الذين كانوا يبيتون على أسطح المباني أو في غرف الصرف الصحي تحت الأرض،

قال إيفان لشافخات:

كلب ذو رائحة، تجذب كل ما هب ودب! لولاك، ما وجد هؤلاء الرعاع مأوى،

تنخم إيفان بصوت عال، حتى طار البصاق على رأس آيدين الجالس في المقابل،

صحيحٌ ما يقوله الأمير.

يولُداش المعتاد على موافقة الزعيم أكد قوله.

- وهل تجد ركنًا أفضل من هذا؟!

لا يوجد بالنسبة لنا عيش أفضل،

لماذا؟

لن يدعونا نعيش في أحوال أحسن،

نعم، هذا صحيح،

رجال الأعمال ينتقون،

كفي! اخرس! أيها الفاشل!

قال إيفان، وقد أصبح وجهه أكثر قتامة من السحابة.

فجأة صمت المجتمعون بعد أن كانوا صاخبين كخلية نحل.

لدى هذه المجموعة، التي يسميها الناس "المشردين"، قوانين غير مكتوبة، لإدراكهم أنهم سيقعون في الوحدة، عاشوا في الآونة الأخيرة معًا، في فترة ما بعد الظهر يتجولون في جميع أنحاء المدينة التي يبلغ عدد سكانها مليونا ونصف مليون نسمة، وفي المساء يجتمعون في هذا القبو، هذا المأوى بالنسبة للمشردين المتسكعين، لا ينقص عن قصر خان، إيقاع حياتهم اليومية لم ينكسر اليوم أيضًا، مع حلول المساء، عند الغسق، بدأوا الواحد تلو الآخر في العودة إلى هنا، إلى "منزلهم".

إيه، آليك، أشعل شمعة،

هكذا أمر توختاخون، الذي كان يجلس أسفل الكازاخ، ضاحكًا بصوتٍ عالٍ، ممسكًا أنفه بأصابعه القصيرة البدينة.

اسمي ليس آليك، ولكن آيدين،

اخرس! أمك! الأمير قادمٌ، وإذا لم يكن هناك ضوء، فسوف يريك أين يشتّي سلطعون البحر! سوف تنسى اسمك على الإطلاق!

قال توختاخون مهددًا،

ما إن أشعل آيدين الشمعة، حتى دخل إيفان، وهو يفرك بسبابته أنفه،

كيف حالكم هنا، يا صقوري، الكل مجتمعون؟

نعم، اليوم مزاج الأمير جيد، – فكّر آيدين، لديه عادة: إذا تمكن من أن يشرب، يبدأ في تسميتنا "صقوري"، وإذا لم يكن محظوظًا في الشرب، يبدأ في الصراخ، وينادينا بـ"الكلاب والخنازير".

– الكل هنا،

قال شافخات، وهو يلعق شفتيه الجافتين بلسانه الطويل الذي لا يدخل إلى فمه،

– حسنًا، علامَ حصلتم؟، ارموا كل شيء في الكيس المشترك في الوسط! ،، لنجلس! ،، هوائي، كأن الصنبور هناك عطلان، "أنت سبَّاك،" قال إيفان بصوت عالٍ وبسخرية "ولستَ مُصَنِّع قنابل؟"

– نعم، عملت سباكًا في جمعية مالكي الشقق،

عدَّل تيموفيي جلسته

– لا تخف! لن ينفجر!،

– لماذا تركت عملك؟

– كانوا يدفعون قروشًا، وحتى ليس في الوقت المحدد!، لكني أخذت بضع عدادات، وعطَّلتها، نعم، حاكموني، وأمضيت في السجن أربع سنوات، باعت زوجتي العاهرة المنزل، وارتبطت برجل، وهربت إلى مدينة أخرى، وهكذا بدأت رحلتي مع العذاب،

– وأنا لم أجد عملًا في تتارستان، فجئت إلى كازاخستان، قيل لي إنني يمكن أن أكسب هنا،

دعم شافخات الكلام.

– هل تصدقون، صحيحٌ أنني تمكنت في السنة الأولى من الجلوس خلف مقود "كاماز"، وكنت أنقل المعادن غير الحديدية إلى الصين، لكن رجال الجمارك اللعينين حلبوا كل شيء، وتبخر كل شيء كالغبار، وفقدت عملي ووثائقي.

يعني كنتَ تود القيام بمشروعٍ؟

انفجر باك ضاحكًا...

– أنا أيضًا كنت أزاول الأعمال التجارية، حتى إنني رهنت بيتي، احترقت الصفقة، وذهب بيتي هباءً!! أو بالأحرى إلى أحد المحتالين! وأخذ امرأتي! نعم! النساء جميعهن كلبات! المال وحده ما يبحثن عنه!

أكد يولُداش قائلًا:

هذه الكلمات تجسد الحقيقة،

وأشار بسبابته إلى آيدين،

– "لا تعتمد على زوجتك وحصانك،" أنا عدت من سيبيريا، لأجد زوجتي مستلقية مع عشيقها، عاريين في غرفة النوم.

وماذا بعد؟

سأل تيموفيي ناثرًا اللعاب،

مهلًا، أيها الكبش، لا تقاطعه،

هاجمه شافخات،

- أي رجلٍ يمكن أن يغفر مثل هذه الإهانة؟

واصل يولُداش،

- أردت قتلهما بالسكين، لكن الكلبة الشرسة هربت، واختبأت في شقة الجيران، وقتلتُ ذاك اللقيط، عشيقها، فزُج بي في السجن،

ولماذا ذهبت إلى سيبيريا؟"

سأل باك،

أوه، مغفل، كيف يمكنك أن تفهم؟ سافرت لبيع الخضرة،

ما الذي يمكن أن أخفيه، عانيت من الفودكا،

قال توختاخون.

- لا أستطيع العيش بدونها، حبيبتي!،

وأنت أيها الأمير؟

ابتلع تيموفيي لسانه،

ما بك، هل تستجوبني؟ تريد أن تعرف الكثير!

أكمل إيفان:

أيها الأمير، لدى الكازاخ قول مأثور: "إذا أشفق الخان على الناس، سيُذبح الجمال أيضًا"، قال شاخفات الذي كان مساعدًا لإيفان، سامحًا لنفسه بالحرية في بعض الأحيان.

إيفان الذي كان تحت تأثير الفودكا القوية، أحب كلمة "خان"،

أمك! إذا كنتم تريدون أن تعرفوا ما لم أخبركم به ،،،

قال وهو يمسد سطح أنفه بإصبعيه،

- فأنا ملعون لثلاث مرات!!! لم أر الحرية لقرن!!! حياتي مثل مصير هذا الأبله، الفودكا هي صديقي وعدوي.

بعد أن عرفوا أن "الأبله" هو لقب تاختاخون، فهم الآخرون الآن لماذا كان إيفان يحميه،

حسنًا، يكفيكم هذا اليوم،، انصراف!

قال إيفان بغضب.

على الفور سقط الجميع على القش كخرق، بدون أن يخلعوا ملابسهم، وسرعان ما أصبح مسموعًا كيف تنافس المتسكعون المساكين بالشخير فيما بينهم، تاركين خلف ظهورهم يومًا آخرًا.

مكث آيدين في هذا الوكر كقريبٍ مسكين لمدة شهرين آخرين، وسط أولئك الذين هم أقوى منه، كان عليه أن يكون هادئًا أكثر من الماء أسفل العشب، لكن رغم ذلك، لم تتقبله هذه المجموعة، ولم يتمكن من أن يستقر هناك، في النهاية طردوه.

إذا كان قد عانى قبل ذلك من العذاب، فقد تحولت حياته الآن إلى جحيم، ذات مرة عثر على محفظة، فتحها بفارغ الصبر ولم يصدق عينيه عندما شاهد أوراقا جديدة من ذات الخمسمائة، جديدة تمامًا.

من السعادة التي سقطت على رأسه، كاد أن يصاب بالدوار، بعد أن استعاد وعيه، عدَّ النقود، واتضح أنها خمسة آلاف تنغي! لم ير وجبة ساخنة منذ فترة طويلة، لذلك فقد ركض إلى المطعم المقابل، وشعر بالفعل بمذاق شيء مميز، في هذا الوقت لاحقه اثنان من المتشردين كانا يحملان حقيبتين صينيتين ملونين على كتفيهما، اقترب منه أحدهما، وكان وقحًا ذا عينين زرقاوين، وقال:

إيه، أنت، أيها الكبش، أعطني النقود!

أي نقود؟

قال آيدين باضطراب،

لقد رأينا كيف وجدتَ المال على الطريق، قال قاطعًا الطريق على آيدين،

ركض آيدين، سرعان ما تمكن البلطجيان من الإمساك به، قاوم بشراسة، لكنه لم يتمكن من الإفلات منهما، كانت القوى غير متكافئة، بعد أن خارت قواه وسقط أرضًا، انهالا عليه بالضرب، لكن آيدين لم يدع المحفظة تفلت من يديه، لم يتمكن قاطعا الطريق من فتح أصابعه، وفجأة شعر بألمٍ شديد أجبره على فتح يديه، فقد قطعا أصابعه بشفرة حادة، وبعد أن أخذا المحفظة المليئة بالمال، اختفيا في الزحمة، ولم يأت أحدٌ لإنقاذه! حتى لم يحاول أحد التدخل.

بعد أن غسل يده من الدماء في قناة الري، سقط آيدين تحت شجرة حور عالية في الفناء، في ذلك الوقت كان الظلام قد حلَّ، والناس خلدوا للنوم، لكن آيدين لم يستطع النوم لفترة طويلة، كل المحن والإهانات التي عانى منها في الأشهر الأخيرة، مرَّت أمام عينيه، تذكر كيف وقف مع العاطلين عن العمل في شارع سيفولين قبل انضمامه إلى المشردين، وكيف طردوه، حين أطلقوا خلفه كلبًا، ولاحقوه بصراخهم، قبل شهر عثر في صندوق القمامة على علبة من القصدير، وكان مسرورًا بلقيته كطفل صغير، لكن هذه السعادة لم تدم طويلًا، بسرعة فتح العلبة المكتوب عليها "معجون لحم"، وهدَّأ قليلا بطنه، ولكن عقب ذلك كاد يموت من التسمم، وما أكثر ما رأى، ذات مرة، في وسط ليلة ممطرة رهيبة، يقال فيها: "إن المالك لا يسمح حتى للكلب بالخروج من المنزل"، أيقظه سكارى عائدون من زيارة، وركلوه بأقدامهم.

آه، أيها الوغد، انهض وارحل،

قال كازاخ أحول بدين، مهددًا وهو يرفع شعره المنسدل على عينيه، قبل أن يقف فوق عنقه،

توسل آيدين قائلًا:

آغاتي، دعني أنام هنا حتى الصباح،

لم يأبه الكازاخ الأحول، وصرخ:

اغرب على الفور! أغرب، أقول! أنت تلوث المدخل!

عند خروجه، سمع كلمات امرأة كانت مع الكازاخ الأحول:

أف، يا له من مشردٍ كريه الرائحة،

أُغلِق الباب الحديدي، فرش آيدين المرتجف صحيفة قذرة على الأرض بالقرب من المرآب في الفناء ونام.

في ذلك اليوم، في الغداء، كان آيدين يفتش في حاوية القمامة، يجمع الزجاجات، سمع خلفه صوت امرأة مألوف، لم يجرؤ على النظر مباشرة، وألقى نظرة سريعة من زاوية عينه، واكتشف على الفور: هذه ناغيما صديقة ريمجان، درستا معًا في المعهد، لم يتمكن آيدين من رفع رأسه حتى ابتعدت، وهكذا وقف طويلًا، مثل نعامة تخفي رأسها في الرمال،

كانت الرائحة الكريهة لحاوية القمامة مألوفة له من قبل، لكنه شعر اليوم بها بشدة، وأصابته حالة من الغثيان، عندما نظر إلى سترته القديمة وسرواله القذر مع الثقوب على ركبته، ومرَّر كفيه المتشققتين على خده غير المحلوق؛ شعر وكأنه وحشٌ مُطارد، كل شيء حوله محاط بالأعلام الحمراء، ولا يوجد طريق ولا مكان يركض إليه، في كل مكان نظرات شريرة، وفوهات بنادق تطير منها موجة من الرصاص القاتل على الأهداف، احتقر نفسه، ولعن مصيره التعيس، أراد أن يبكي، لكن لم تكن هناك دموع.

6

مر عام منذ أن اكتسب آيدين وضع "بلا مأوى"، وأصبح متشردًا، لكنه تذكر ذلك الآن فقط، عندما جاء الخريف البارد، يقولون: "الإنسان في ثلاثة أيام يعتاد على القبر"، وهذا صحيح، اتضح أنه اعتاد تدريجيًا على معيشة الكلب، التي بدت له في البداية صعبةً للغاية، تحمَّل الجوع وكل أنواع الإذلال، لكنه لم يرغب في الانفصال عن هذه الحياة اللعينة، وعاش قدر استطاعته، والآن بدأت هذه الحياة تزعجه.

لإدراكه أن الحياة القاسية لن ترحمه، تعذَّب أكثر فأكثر، آلمه قلبه، وبكت روحه دموعًا، "من يحتاج لي في هذا العالم؟ سأرحل، ولن يلاحظ أحد، ربما سيكون الوضع على الأرض أكثر نظافة، وأقل اتساخًا!، لقد تحولت إلى شخصٍ عديم الفائدة، لا يحتاجه أحد، ولم يعط الدفء لأحدٍ، لكل حشرة جحرها الخاص، بيئتها، ذريتها، أما أنا، فما الذي سأتركه في هذه الحياة؟ ما قيمة وجودي؟ لا قيمة! وهذا كل شيء! يكفي مجرد الوجود! يكفي! يجب أن أغادر ما دمت لا أزال إنسانًا!!! كم يمكن تحمل هذه الأوساخ وهذا الإذلال، الأفضل أن أموت بدلًا من أن أتحمل كل هذا!!!" منذ هذا اليوم فصاعدًا لم يترك التفكير المهووس آيدين: "متى وكيف

سأموت؟"، وبدأت هذه الأفكار تسيطر عليه.

في السابق، خاصة في السنوات الأولى من العيش مع ريمجان، كان آيدين خائفًا للغاية من الموت، ومنذ أن فقد ريمجان وآيبار، بدأ ينظر بجرأة إلى الموت مباشرة، وتوقف عن الخوف منه، وفي الآونة الأخيرة، بدأت فكرة "الموت أفضل من حياة الكلب اللعينة"، تهيمن عليه كليًا، من يدري؟ ربما تحت تأثير هذا الفكرة كان يرى ريمجان في المنام، كما في السابق، في أيامهم السعيدة: تمشيا إلى ميديو، أراد آيدين أن يعانق ويقبل ريمجان، لكنها هربت، ركض آيدين وراءها، سارا في المياه القذرة، بعد مرور بعض الوقت، تجاوزا كوكتوبي، واقتربا من كينساي، وعند الوصول إلى حافة الضريح، سقطت ريمجان، أراد آيدين أن يرفع ريمجان، وفي ذلك الوقت استيقظ.

كان الألم في ساقه اليمنى يزداد شدة، ركض في الشارع، عندما نظر عن كثب، رأى أن جرحًا عميقًا بحجم بيضة الدجاجة ظهر على ركبته اليمنى، أدرك أن جرذًا قضم قطعة من لحم ساقه.

بصعوبة مشى آيدين على ساقه المريضة، وجلس على مقعد في الفناء، لا يعرف ماذا يفعل، ومن أين ينتظر المساعدة، نظر حوله، رأى صحيفة تحت قدميه، بيده تناول الصحيفة على مضض، كانت عبارة عن عدد من "ألماتي أكشامي" تاريخ الخامس من مايو من العام ألفين، بلا اهتمام نظر إلى صفحتيها الأوليين، ووقع نظره على مقال قصير بعنوان "متشردون بلا مأوى"، وبدأ يقرأ: "في الوقت الحاضر أصبح هناك كثير من المشردين بدون مأوى، بدون وسائل العيش والعمل، ليس كل هؤلاء الرجال الأقوياء مدمني كحول أو مخدرات، هم استُبعدوا من المجتمع بسبب الحقائق الصعبة للوجود الاجتماعي، بسبب عدم توافر السكن، يُجبرون على العيش في الأقبية، وعلى أسطح المنازل حياة بائسة، يفتقر مجتمعنا إلى الرحمة والرعاية الاجتماعية لمثل هؤلاء الناس، ومع أخذ هذا في الاعتبار، تعهد بروفسور جامعة ديميدوف في ياروسلافل في روسيا فيودور زافيالوف والدكتورة في الاقتصاد يلينا سبيريدونوفا بدراسة مشكلة المشردين، ونتيجة لعملهما الدءوب، عُثر على أقارب 83 في المائة، وآباء 27 في المائة، وأخوة وأخوات 64 في المائة، وأطفال 54 في المائة من المشردين، من ذلك نستنتج أن الناس يفتقرون إلى النُبل، ووفقًا لما حددته الدراسة، فإن لدى الكثير من هؤلاء الأشخاص المشردين مستويات عليا من التعليم، ويمكنهم الحصول على وظيفة في أية مؤسسة كسائقين، أو ميكانيكيين، أو حرفيي تصليح سيارات وآلات، أو موظفي بدَّالات، أو خرّاطين، أو فنيي كهرباء، إنهم يرغبون في أن يعيشوا مثل الناس الطبيعيين، ولكن بسبب عدم وجود سكن، لم يتم تسجيلهم في أي مكان، والسبب في الحرمان من السكن هو السجل الجنائي، وبمَ يعيشون؟ 43 في المائة منهم يحصلون على المال عن طريق الصدفة، والباقون يجمعون الزجاجات والمعادن الخردة والمواد الخام، وفي الصيف يبيعون الفواكه والخضروات المسروقة، لا يتلقى سوى خُمس المتشردين معاشًا تقاعديًا بحكم السن أو العجز، دخلهم الذي يحصلون عليه بشق الأنفس، يذهب على الطعام والمشروبات والسجائر، بالإضافة إلى ذلك، كم تحتاج الأدوية والملابس والصابون؟ ما هو جيد أنه تبين أن المشردين ينفقون 17 بالمائة من دخلهم على الصحف

والمجلات! وشكرًا لذلك!

وضع آيدين الصحيفة على المقعد، ونظر حوله، لقد حان الصباح منذ فترة طويلة، ولكن لم ير أحدًا في الفناء، كأن ساقه لم تؤلمه عندما كان يقرأ الصحيفة، لكن الألم ازداد الآن.

جلس آيدين مستغرقًا في التفكير لفترة من الوقت، تصلب وجهه، أخذ مشطًا من جيبه، ومشّط شعره ولحيته المتدلية على خدَّيه، نظر حوله، وسحب بحزم سكينًا كانت في جيبه، يده القوية لم تُخطئ، نصل السكين الصلب والحاد واللامع في أشعة الشمس التي ارتفعت لتوها، اخترق الجسد اللين، بعد أن أغلق عينيه، طعن آيدين بشفرة السكين الحادة بطنه.

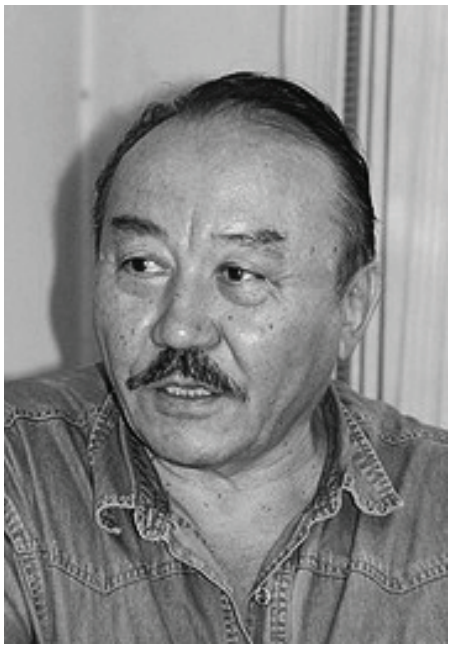
غطى آيدين أحشاءه بيديه، وبدأ يخبو ببطء، كانت عيناه نصف مغلقتين، وظهر زبدٌ على شفتيه، في تلك اللحظة عادت الشمس التي كانت مختبئة خلف السحاب إلى الظهور مرة أخرى، وأصبح كل شيء مضيئًا، ذهب الألم، أمام عين آيدين ظهر سراب لامع من الضباب الشفاف، حامت بجعة بيضاء، طارت إلى هنا باكية نصفها الآخر، أهو لحن حزين أم أنين، أم بكاء صامت؟ سرعان ما تحولت هذه البجعة إلى ريمجان مرتدية ثوبًا أبيض طويلًا، أراد آيدين أن يعانق حبيبته وانحنى إلى الأمام، لكنه سقط، رفت بجناحيها فنشرت برودة، ابتسمت ريمجان له، ابتسامتها الساحرة ملأته بفرح غير عادي، وسعادة لا توصف، وهدوء طال انتظاره، كل أيامه ولياليه المظلمة التي جلبت الكثير من الحزن، بقيت وراءه.

فجأة نهض آيدين ولمس ريمجان أخيرًا، أصبح جسده خفيفًا، وذاب هو في البريق الساطع للسراب، لكن الحياة على الأرض، التي لم يجد مكانًا لنفسه فيها، وبالتالي أرسلته إلى السماء، استمرت كما لو أن شيئًا لم يحدث، تألق جمالها الخادع، وأشرقت الشمس، وارتفع القمر، واستبدل الليلُ النهارَ.

تلك هي الحياة القصيرة والعابرة مع همومٍ لا نهاية لها.

مختار ماغاوين

(ولُد عام 1940)



- كاتب وناقد أدبي ويكتب في أنواع مختلفة من الأدب.
- تخرج عام 1962 في كلية فقه اللغة بالجامعة الوطنية الكازاخية، وحصل على الدراسات العليا في الدراسات الفلسفية عام 1965.
- كانت أول أعماله المنشورة قصة قصيرة بعنوان: "في المساء" نُشرت بجريدة "جولُديز" عام 1964، وفي عام 1969 خرجت للنور أول مجموعة قصصية له بعنوان "رجل الثلج"، وصدرت أولى رواياته عام 1972 بعنوان: "البرج الرمادي".
- صدرت له في السنوات اللاحقة العديد من الكتب مثل: "الأسرة"، "الكوخ الشتوي البعيد"، "الحمام"، "موت النملة"، و"فتاة القبجاق".
- ألف رواية تاريخية بعنوان "الوقت العصيب"، و"حزن شاكان" وغيرها من القصص والروايات التي صنفت على أنها الأفضل في النثر الكازاخي المعاصر.
- صدرت له مقالة متخصصة بعنوان: "ألحان آلة القبيز" عام 1968 والتي ناقشت فيها إبداع الشعراء الكازاخ خلال فترة الخانية الكازاخية بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلادي، وقد ألمحت هذه المقالة إلى اهتمام الكاتب بدراسة التاريخ والأدب الكازاخي.
- صدر له العديد من المقتطفات مثل: "البصل"، "يقولون خمسة قرون"، وفي عام 1995 صدر كتابه "أبجدية التاريخ الكازاخي" الذي كشف العديد من الصفحات من تاريخ كازاخستان.
- في عام 2002، تم نشر مجموعة من أعمال الكاتب في ثلاثة عشر مجلدًا، في وقت لاحق، على مدى عدة سنوات (2011-2017)، تم نشر دراسة وثائقية تاريخية بعنوان "جنكيز خان" في أربعة مجلدات.
- قام بترجمة أعمال سومرست موم، وهنري هاغارد، ونيكولاي باجادين إلى اللغة الكازاخية، كما تُرجمت أعماله إلى عدة لغات أجنبية.
- حائز على جائزة " آباي" الحكومية من جمهورية كازاخستان عام 1984.
- فاز بالجائزة الدولية لجمهورية تركيا على إنجازاته في العالم التركي عام 1997.
- حصل على جائزة "تارلان" المستقلة عام 2002.
- حصل على لقب فنان الشعب لجمهورية كازاخستان.

موت السلوقي

1

قرب النهاية كان منهكاً تماماً. ومع ذلك، لمرتين، في البداية على جانب، ثم على الجانب الآخر، اقترب من الرابية ساحباً على الأرض جسده المستنزف والمثقل بالألم، ومستنشقاً من جديد في كل مرة.

كانت الرابية مسطحة، محفوفة من الجوانب برياح السهوب ومسحوق الثلج الأبيض الطازج الذي لم يمسه أحد. بيضاء، رابية صامتة.... تهبّ منها وحدة مرَّة وحنين.

في الصيف، عندما كان الثلج لا يزال هشاً، كانت الرائحة مختلفة هنا. شيء مألوف يفوح في تلك الرائحة -بدا حاداً على الأقل. في ذلك الوقت كان يأتي إلى هنا كثيراً، مندفعاً بأنفه في التراب المصفرّ المختلط مع الحصى الصغيرة. كانت الرائحة التي كان يميزها ضعيفة ومبهمة. لم تكن من الروائح الطيبة. كذلك كانت تفوح من الثعالب بعد يومين أو ثلاثة، بعد أن يسلخوا جلودها، ويلقوا بها في السهوب، بعيداً عن المساكن. تسكعت في جيف الثعالب النتنة ديدان ونمل وذباب بدين كسول....

كان تازي[1] شديد الحساسية، جعلته تلك الرائحة يشعر بالغثيان، لكنه هنا، على الرابية، شعر بشيء مختلف، فمع رائحة اللحم المتعفن، امتزجت رائحة صاحبه، التي يبدو أنها ممسكة بخياشيمه الحساسة. إنه يرقد في هذه الأرض! من الصعب تخيل ذلك، لكن الأمر كذلك. إنه يعلم، رأى كل شيء بعينيه....

شعر السلوقي بالارتياح. صاحبه هنا، في القرب.... وهو على وشك أن يستيقظ. ربما، غداً. كم سيرقد؟.... لكن القلق حلّ مكان الأمل، أو الثقة تقريباً. فجأة نهض وغادر؟ ويجلس في المنزل، كما في السابق؟ .... لم يكن عليه أي أثر للثلوج التي تساقطت في هذه الليلة. هذا يعني أنه هنا.

أجهد جسده كله، ببيده السليمة بدأ السلوقي يجرف الرابية عند القاعدة. تحت طبقة الثلج الرقيق، ظهرت

(1) تازي: كلب الصيد، السلوقي، في آسيا الوسطى.

الأرض. غير لينة، رطبة، تنبعث روحاً حية، سخية ودافئة، لكنها متأصلة، صلبة، كالتي تكون عند مدخل جحور الحيوانات الفارغة. تصلبت وتجمدت وأصبحت كالحجر. لم تنل المخالب منها، بل خدشتها فقط.

توقف السلوقي، تجمد وهو ينظر إلى الرابية الممدودة. باردة، جامدة، تشبه جلموداً أسوداً غارزاً في الأرض.... لا، لا تشبهه. هناك، في أعماقها، يرقد صاحبه. صاحبه يرقد تحت هذه الرابية!

حوّل رأسه، وألقى نظرة إلى أسفل، إلى الوادي المكسي بالشجيرات. عند بدايته، في الشق الضيق، ينبض في الصيف جدولُ نبعٍ جليدي. عندها يغطي العشب الأخضر قاع الوادي الممتد، عشبٌ طويل لدرجة أنه بالكاد تُرى منه ظهور المهر. لكن الآن أصبح الوادي، والمكان الذي فوقه تقف القرية على المراعي الصيفية، مغطيان بالكامل بالثلج. فقط في تجويف صغير محميّ من الرياح، يظلم جدارٌ مترنحٌ -كل ما تبقى من مخيم قديم. عندما استعدت القرية ذات مرة للرحيل، تحت هذا الجدار بقي مستلقياً حمل مريض، مغطىً بصوفه القصير المتناثر. بقي مستلقياً، ولم يستيقظ، ولن يستيقظ أبداً. لن يقضم العشب الريان الفتي، ولن يشرب من نبع الماء الصافي. هناك، في المكان الذي كان يرقد فيه، لا يلوح الآن إلا العظام الرقيقة الصغيرة التي لم يمهلها الوقت لأن تتقوى.... كان ذلك مثل البرق، مثل ضربة سوط. سرٌ كان في السابق غامضاً، كُشف للسلوقي. كان فظيعاً إلى درجة أن أذنيه انتصبتا، وتجمد محدقاً في الهضبة بلا حراك. فقط بعد مرور الوقت اللازم لقضم عظم ساق كبير، استفاق السلوقي وعاد إلى وعيه. ولكن هنا ارتخت كل مفاصله وضعفت، ودخل جسمه إلى رجفة خفيفة، جف حلقه، ووقف شعر الفراء على ظهره، وجرت قشعريرة في مؤخرة رأسه. جثم على قائمتيه الخلفيتين، ورفع وجهه إلى السماء. فتح فكه من تلقاء نفسه، وخرج صوت ثقيل مطولٌ من حلقه. صمت السهوب اخترقه العواء الذي ارتفع فجأة فوق الأرض. وكان هذا الأنين، هذا البكاء المثير للشفقة عن اللارجعة، رهيباً ولا نهاية له....

2

كم هو مشرق العالم! كم هو رحبٌ! والسماء -إلى حدٍ هي زرقاء، عالية! والشمس!.... بالطبع، تحترس من النظر إليها مباشرة، على كل حال هي دافئة، ولطيفة! ...الجرو الأبيض الذي كان جالساً تحت جدار الحظيرة، في الشمس لم يقاوم، ونبح من المتعة. المكان بالنسبة له جافٌ ولين، فتحته حزمة من القش مع قطع من روث الخيول الجاف .... يا لها من نعمة!

في القرب بركة مليئة بمياه الثلج الذائب. بركة صفراء، مياه صفراء .... نهض الجرو، اقترب، ارتشف بحذر - مرة، أخرى. طعم الماء مالح، مزعج، ورائحته شنيعة - روث حيوانات. تنشَّق الجرو. لا، لا يمكن شرب هذا الماء. لقد تعلم بالفعل أن كل الأشياء تنقسم إلى أشياء يمكن أكلها أو شربها، وأشياء أخرى غير مناسبة لذلك، وأن الأشياء غير الصالحة هي، للأسف، أكثر بكثير. مع ذلك، كان الكدر قصيراً. قفز الجرو

على الثلج الهش. كان الثلج قاتماً، تغطي قمته القمامة والأوساخ. غمس كفيه بعمق فيه، فخرج الماء على الفور، وجرى إلى حفر الآثار، التي كانت حبيبات الثلج عند حوافها متلألئة بتوهج. لم يكن بالإمكان أكلها، ولكن يمكن لعقها. وعلى الرغم من أنه لم يكن لها أي طعم، إلا أنها برَّدت اللسان. التفت الجرو بعيداً. كان شبعاً، فقبل إطلاقه في الفناء، قدموا له الحليب حتى الشبع.

في هذه الأثناء، المكان القديم تحت جدار الحظيرة الذي تدفئه الشمس، نجحت في الاستيلاء عليه دجاجة مرقَّشة مع عائلتها الصاخبة التي تقرقر، وتقشقش، وتنشر فضلاتها. صيصانها صفراء شعثة، تندفع إلى هنا وهناك، تتضارب بصخبٍ عند قدمي أمها. يكفي أن تعطي الدجاجة إشارة، حتى تندفع الصيصان بمجموعات إلى النداء، متجاوزة ودافعة بعضها البعض: "أعطني! أعطني! لي، لي!"

"لحظة – وسرب من الكتل من مختلف الأجناس – أمطرت. ولكن مرة أخرى يتم توزيعها: "لقد وجدتها، وجدتها!" – والفراخ، متعثرة، تندفع إلى أمها. من المثير مشاهدتها، مضحكة، لمشاهدة .... واللعب معهم ربما أكثر إثارة للاهتمام ....

بعد أن أرجع ذيله القصير، صفّر الجرو، ودفن صدره في الثلج الرخو، ينحدر من ثلوج. لكن الدجاج على الفور أثار ناقوس الخطر: "احفظ نفسك، ومنتجع صحي –قفز الدجاج، الذي يسير في مجازر، إلى المدقة، تحت حمايتها. الدجاج يزرع عسكريًا أجنحة: "كيت! كيت! قبالة، جرو رديء! "وقالت انها تنثرت.

الكثير من وقتك! ... أخذت الجرو فجأة. بعض الدجاج الذي تمسك به كان منقار أسود، لكنه اختفي في ذلك الوقت الريش في مهب. حسنا، حسنا .... جرو لا يزال اتخذ اثنين أو ثلاثة خطوات غير حاسمة، غرقت على الأرض، مع وضعت، ثم ارتفع ومرة أخرى وقفز. الدجاجة في الاستجابة غضبت بشكل جدي. يبدو أنها لم تعد تعتزم أن تحصر نفسها بـ "كيت! كيت! "، ومهرج – للهجوم. يتم فقدان الجرو تماما، ولكن لا متوقع، من روح التناقض، ربما، تقدم. وارتفعت الدجاجة، وتهدد، مع أجنحة مفلطح، لمقابلته. يبدو أنها كانت على وشك الاندفاع إلى جرو .... ولكن بدلا من ذلك، تحولت المدقة فجأة ذيلها إليها وببطء، والحفاظ على كرامتها، انتقلت وراء الحظيرة، لها "كيت! كيت! ". والدجاج معها ....

جرو، بحزن من حقيقة أنه لم يكن لديه فرصة للتمتع به، ليأخذ روحه، يطارد السباق، كما تحول وسار وحدها على مشارف القرية.

لم يكن لدى الأرض وقت لتجف. في المجوفة والنهر دينا بريق ودخان في برك أزرق فاتح. في غابة سميكة من ميدوديد بقع بيضاء من النوم ها، ولكن كل شيء قد تغير، اتخذت بعض مظهر جديد ومذهل. في الآونة الأخيرة، بدا كل شيء قاتمة وكئيبة هنا، ولكن الآن يضيء بابتسامة ويرضي التخييم، في عجلة من امرنا للحصول على عصير ذهبي في حالة سكر من أشعة الشمس. الهواء رائحة حلوة وحيوية. من أين هو، هذه الرائحة الحلوة؟

اشتعلت الجرو أنه كان ينضح العشب القصير، مع ساق رقيقة وقبعة رقيق، وهو يدوس. خفّض وجهه ودمّر

العشب في الأعشاب. يكاد يكون من الممكن تناوله، ولكن من اللطيف أن تشمّه .... ومن حوله توجد سيقان طرية ومرنّة تخرج من الجبن. سرب من أعماق الخصلات، ولكل منها رائحة على طريقته الخاصة. كان من دواعي سروري الخاص أن جرو تشم في السهام مشدود من العشب الريش تنمو هنا بكثرة.

استلقى، استعد، انزعج وحلم. كما لو كان يقف أمام كتكوت أصفر ويصرخ، ويدعوه للعب. مثل هذا الفرخ الصغير .... بالطبع، هو من ينقبض الجنين بمرارة، والآن كلاهما يندفعان واحدا تلو الآخر. ما دجاج القدمين، ومع ذلك! عدم اللحاق به .... ولكن لا يتخلف الجرو وراء، يدير بعد الوعاء خلط -فقط الريح في صافرات أذنيه. وأخيرا -يتفوق. الآن سوف يمسك بها -صغير، رقيق. انه مناسب بسهولة في الفم. بعد كل شيء، الدجاج هو فقط ما هو جيد للطعام .... ما اكتشاف غير متوقع! نعم، نعم، الدجاج جيد للطعام! ... لكن فجأة يتوقف اللون الأصفر عند الجرو أمام أنفه مباشرة. خوف، غير راغب في العائد. "برررررر-يهرب من الدجاج. -

أذهل، يفتح الجرو عينيه. فوقه علّق كلب ضخم، هزة سوداء. يمسح الجرو شفتيه وكأن شيئًا لم يحدث، مثقل طولاً، ممتدًا. ثم أخذ صوتًا ضعيفًا وبدأ في الارتفاع. لكن الكلب الأسود، متكئاً عليه، رمى الجرو إلى الأرض، ثم .... لم يكن لدى الجرو وقت لفهم أي شيء. حرق جسده مثل اللهب، وضرب الضباب الأحمر والأخضر في عينيه، هزت كل شيء حولها.

- يا، كيت! كيت! اذهب!

اندمجت الصرخة اليائسة مع ركوب الخيل المتزايد. اختفت الشدة التي ضغطت على جرو على الصدر. شعر بالمالك، الذي وصل في الوقت المحدد كثيرا، ونهم تذمر بحزن، بكى. سارع المالك على عجل. والآن التقطت يديه جرو، أثير من الأرض .... ولكن هو كانت لمسة هذه الأيدي حذرة وحذرة، كما لو أن الرمح قد دخل جسمًا مرتعشًا واخترق طريقه. بدأ الجرو ينزف مرة أخرى، يئن، كما لو كان مرة أخرى في فم كلب أسود ضخم.

قام المالك بقيادة الحصان نحو الجرو إلى صدره وحمله إلى المنزل نفسه، ثم عذبه لفترة طويلة، ملطخًا بشيء مؤلمًا جدًا للجروح. أخيرا، ضمد الجرو ووضعه على السرير الحديدي في زاوية الغرفة، مغطى بشبكة على الجانبين. هذه الأيدي نفسها تغذي الجرو الآن وتنقله إلى الهواء النقي ثلاث أو أربع مرات في اليوم. بقية الوقت، يكمن الجرو بلا حراك في السرير. لم يكن هناك مساحة كافية للتسلق والمشي، وللتخطي على الشبكة لن يكون لديك ما يكفي من القوة. نعم، لم يرد ....

بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، تلتئم الجروح الموجودة على جسم الجرو. لكن قلبه عانى من جرح لا يمكن شفاؤه. بالطبع، لم يُعطَ لفهم أنه يوجد في العالم الظلم والقسوة والعنف، وإذا كان لديك سوء حظ على رأسك وسوء حظك، فإن صوابك كله يفشل في حمايتك .... في حد ذاته، لا يستطيع أن يفهمها. لكن من الآن فصاعدا بين كل الكائنات الحية أنت غير مألوف سمع الريبة وحتى العداء الصريح.

3

عندما تعافى الجرو وعاد إلى حياته الخالية من الهم، جاء صبي إلى منزل المالك توموبوي، تم إلغاؤه. أنا قفزت للتو من العربة وأنا على الفور هرعت إلى جرو. وقد تعلم بالفعل أن يقسم كل الناس إلى قسمين: الملاك - لهم، بالمناسبة، من واندفعت امرأة مرتدية ملابس طويلة أيضا، ملأ صحنها إلى الحافة كل يوم وتعج بالحركة حول المنزل - وعلى الغرباء والغرباء. ارتد الجرو من الصبي، وخبأ وراء المالك. لكن المالك لم ينظر إلى الجرو، لكنه سحب الصبي لنفسه وقبلات، قبلاتي .... خرج من احتضانه القوي، وواصل الصبي من جديد إلى الجرو. كيف تكون؟ وبمجرد أن أظهر المالك مثل هذا التصرف إلى الصبي، لا يحق للجرو الهروب منه. وصاح المالك بنفسه وهو يهلل: "لاشين، لاشين، تعال إلينا!"

كانت يدا الصبي ناعمة ودودة. استولى أوي على جرو، ورفعه، قائلاً: "كلبي، كلب"، بدأت بضرب رأسي وظهري، ثم وجه وجهه إلى الوجه، متضخمة بالفراء الأبيض، وسحب أنفه، مشموم. على الأم، قاد إلى الشخص الذي كان وقته للحلب، لم ينتبه، على الرغم من أنه لا يزال من بعيد، رؤيته، صرخ: "آديل! آديلتاي! ... "ضغط الجرو على صدره وركض إلى المنزل.

في ذلك اليوم، تجمع العديد من الناس هنا في المساء. كان على مقربة من المائدة المستديرة المنخفضة حيث وقفوا سرب من رودي جديدة، وكانت تتناثر عينيه من عصير المكرر الأبيض. وضع عادل لايشين على ركبتيه وأغريه مع وأحيانا مع السكر. وحول العيد كان صاخباً، كان الضيوف السعداء محادثة مبتهجة وهم يحتسون الشاي الأسمر الكثيف الداكن المليء بحليب الإبل.

- وقال عمر أكسال وهو ينظر إلى عادل بابتسامة: "لقد نشأ خيول حقيقي"، وأضاف: "سنوات طويلة من الصحة والسعادة له!"

- حسناً، يا ماعز، فرحاً لك بأربعين يوماً للاحتفال بهذا، "التقطت" إيزيجوكول "، وهو البائع الذي أحضر عادل." قال المعلمون إن عادل هو الأفضل الذي انتهى من الدرجة الأولى وانتهى من خمسة وعشرين شخصاً. وقال إنه تم حل المهام للصفين الثاني والثالث، وتعلم جميع الكتب المدرسية عن ظهر قلب. الآن لن تزعج نفسك -قل، أخبر حكاية خرافية .... سوف تقرأ كل الكتب في كتابك الأحمر يورت حتى الخريف ....

- ذهب إلى والده .... وكما يقول المثل، يتبع اتباع الأجداد والسهام شحذ بشكل حاد ....

- وأظن أن هنا هو رواية كاى مى من شيستينكي، - زوجة إسنهول تلتصق بمحادثة عامة، خريطة علاوة على ذلك، ملأت فمها بالكامل، ومضغه، بالكاد تحدث كل الحرب ". ما هو.... ننظر إلى كم يتم إعداد روث في فناءها .... أوه، وهي في المزرعة، أوه وأنها في ....

– اسكت، الزوجة، ستقول عفريت، لا تزعج الشيخ ....

– أنت شيحة الأنا لي قيادة؟ لقد جئت لكم نعم كفازيبو .... إيسي يجب أن أعطيك شراب، اعتني بنفسك فكرة جيدة ....

– اسكت، أقول! امنح الناس شخصًا محترمًا للاستماع.

– إن الأسلاف الذين يتبعون السلف والأسهم قد شحذوا بحدة "، كرر عمر تعويذة" أكاسكال "، بعد أن استمر وقفة." كان الأمير الراحل، "أبو" كاظا، من الفرسان. وكانت الكلاب السلوقية ممتازة. مثل أن الثعلب، مثل زوبعة، تجاوز، وليس الكلاب السلوقية، ولكن الفهود. مهلا ، والآخر ليس كذلك كنت تعتقد حتى ترى ذلك بنفسك .... الآن تريد جعل جميع الماشية عالية السلالة. حول الماشية لا نحكم – روسيا، وكلاب الصيد من الكازاخستاني وفي العصور القديمة سوف أنقى الدم. ماماي، على سبيل المثال، كان سلوق يدعى بيسكار. عرض ابن أحد الباي له خمسة فرس مع المهرات، لكنه لم يتغير، عنيد! كلب منذ ذلك الحين ودعا –بيسكار، على الرغم من أنه كان له لقبه من قبل. رمادي، أتذكر، في شريط مظلم –مجرد نمر. إذا قلت إن غول موضوع الصدر ليس على جزء كامل تملص –أنا أكذب، ولكن إذا قلت ذلك بثلاثة أصابع، فهذا أمر مؤكد. كان هذا هو الصدر العريض البارد العريض الذي لم يستلقي على بطنه، باستثناء الجنب. الرأس هو عظام ضخمة وجميلة. لا يمكن أن يتطابق أي كلب مع ارتفاع بيسنارا. أن تؤمن أو لا تصدق هو عملك، وفقط بعد كل شيء بين الناس ولُدوا حكماء، الذين تأتي الشهرة من حافة الهاوية إلى حافة الهاوية، أو البطار، الذين لا يعرف الخوف منهم، مثل البشر الآخرين. الله عظيم! هنا وفي الحيوانات هناك مثل ذلك مع الانتظار يختلف عن الزملاء. كان بيسكارا كلبًا كهذا. كانت معسكراتنا الشتوية مع ماماي تقف في مكان قريب، لذلك رأيت بعيني: في فصل واحد، أخذ بشركار ثلاثة عشر ذئباً. حسنا، والأرانب البرية والثعالب –وليس هناك حساب. وغالبًا ما ذهب هو وأرغالي. ثم أبقت ماماي الكلب السلوقي الرمادي في المنزل قائلة إنها من بيسكارا. عاش السلوقي لشيخوخة وتوفي في العام انتهت الحرب، في الربيع. شعرت بالموت وغادرت لمكان غير معروف. لا عجب يقولون: "كلب جيد لا يريد أن يرى ميتا". أحزن ماماي بضعة أيام. سيموت شخص آخر –لا يحزن أقاربه كثيرا. نعم، واليمين قل، على الرغم من أنه ليس بيسكار، لكن السلوقي كان هو المطلوب. الآن لا يوجد مثل هذا أصيل. أين يوجد الناس تجد الوقت للحفاظ على الكلب، كما ينبغي أن يكون، على المشي، أو للحفاظ على طائر جارح ....

قال كازي: " هذا هو ما هو عليه. من الذي يجب أن يرعى ماشية الدولة، يجزس القش؟ ... "السعال، الرجيج من أعماق صدره، اشتعلت أنفاسه، كازا لم ينته من الأحكام.

– من ينبغي أن يشرب الفودكا بعد ذلك؟ ... "اشتعلت إيسنجول بالتسجيل، ووجهها مليء بالتجاعيد في ابتسامة مجعدة.

– سكران أفضل! أبدا، كما ترون، الرواد قال أيسولو: "لا تكن رجلاً صالحًا".

– حسنا، من الجيد أنه لا يوجد شيطان على الطاولة هنا أومأ عمر بصوت عالٍ إلى إيجنغول. "حسناً، هذا لم يجلب.

– كنت أحضر، " إيجنغول ابتسم ابتسامة عريضة،" ولكن كل واحد انتهى، وليس هناك زجاجة في القاعدة. المنطقة لا يزال متخلفا، أول يقولون إنهم يعيشون بالطريقة القديمة، وفي الثقافة أيضا، المهر الأم تبدأ .... في الماضي، كان صندوق واحد يكفي لقرارتنا طوال فصل الشتاء. باستثناء اثنين من لي، نعم، لم أكن تقلص قليلا. حسناً، وفي ذلك الخريف، أخذت ثلاثة صناديق صغيرة بيضاء وحمراء – وكيف لم يحدث ذلك. حتى كازي. عندما ذهبت آخر مرة إلى المنطقة، تمكنت من شمها، لعن. في ذلك الصيف، عندما جميع الناس في يوليو من الحق، لدي أمل لشيخ واحد .... لذلك فهو لا يقبل رشفة في حياته، قال، أنه سوف يفقد قوته من صلاتها.

– الله يغفر لك، متحدثاً، الله –تنهد عمر – وبالنسبة لأولئك الذين لا يمتثلون لتعليماته، فإن الفودكا أيضاً شيء غير لائق.

– أم، أكسال، لم تجرب ذوقها، لهذا تتحدث هكذا. مرة واحدة ذاقت فون كازي، ورأى أن حياته السابقة بأكملها قد طار من قبل. وأشعر أنني بحالة جيدة: هناك شخص ما يتسكع. بعد فترة وجيزة، سيشاهد الله زوجته بنصف ليتر ....

– حسنا، بعيدا عن السيطرة .... عليك فقط أن تخدش لسانك! كان الأمر كذلك، حدث أن شربت –ماذا الآن؟

– شرب، في كثير من الأحيان، نتمنى لك التوفيق لك ....

– وقال بايريش نوريلا زوجة عمر، ذات الوجه المظلم، إنهما تم العثور عليهما، كما كان الحال في الأيام الخوالي بين الأطفال في سن عام واحد –الأكراد، وكلهم يسخرون من بعضهم البعض. امرأة تبلغ من العمر في كيمشيك الأبيض. لقد أرادت تغيير المحادثة.

" عندما التقى كوداس، فإنه يحدث بمرح،" وضعت آيسولو في.

جرو، بما يكفي لاشباع والسكر، كما لو الموافقة كلماتها.

– هذا ما الشيخوخة، رئيس أومار – أبدأ حول بدوره إلى أخرى .... ماذا أفعل السباقات كان يقول؟

– حقيقة أن من بين الكلاب هناك أولئك الذين لا يمكن مقارنة شخص حتى، ركب يسينهود.

– نعم، تذكرت .... كلا الوحش والرجل يشبه أسلافهم. على سبيل المثال، الرغبة في اتساع البولية الكلاب عادل الشعر إلى جده، الأمير الراحل ....

" بالإضافة إلى ذلك، فإن ماماي القديم، الذي تحدثت عنه، لدي ناغاشي"، قالت وزارة الخزانة: "أخذت هذا الجرو منه عندما ذهبت إلى باكاناس في الشتاء. انها فريدة من نوعها ولُدت، وأمه، لنكون صادقين، لا تريد أن تعطي "له. كما نما حفيد يصل، والخروج على البحث، والكلب وقال انه يحتاج .... لذلك أنا بالقوة

في وجهه، تقريبا بالقوة يأخذ: هذا، كما يقولون، وعلى حساب من أربعين الماعز، هذا هو العرف .... وجرو .... في رأيك، ما هو يستحق؟

- رأيت الكثير من الكلاب الجيدة، لكنني لم أحاول البحث عن نفسي. أي واحد منى هو خبير؟

- على أي حال، مقارنة بنا، أنت شخص ذو خبرة. عادل، اخماد الجرو .... قل لي، الشيخ، كلمتك.

- ماذا يمكنني أن أقول .... مفلس -وهذا يعني التحمل على التوالي. الرقبة قصيرة، الوجه مرتفع -إنه يعني مسنن، قوي. الساقين الخلفيتين مع ساق القرفصاء -علامة مؤكدة من السرعة. لا أعلم، لا الذئب سيأخذها، ولكن تيماكامن ماكر سيعطينا كل شيء، علامة كلامي ....

- نعم، كل ما قلته سوف يتحقق! أول ما لك هو ماك! - صاح كازي.

" ليس من أجل لا شيء لم لا يريد ماماي أن يتنازل معه"، قال يزنزه .

بعد مرور بعض الوقت، ظهر طبق باللحم أمام الطاولة، وعلى رأسه رأس خروف دهني مع آذان متدلية، غلى إلى أسفل حيث تعرضت عظام الجمجمة. لكن عادل وجراده الأبيض استسلما بالفعل، حيث كانا يقفان على الحائط، خدعين إلى الخد.

4

أيام سعيدة وهادئة جاءت في حياة لاشينا ....

معاقبة الأب عادل:

- يجب أن يتجول طليقا، فإنه لا يجلس في المنزل وهو يبتسم. في الآونة الأخيرة، كاد هذا اللقيط يقترب منه. لو لم يكن لي، لكان قد قتل متاعب نيجو. اضطررت لوضع لاشين في سرير الطفل، حيث كنت نامت قليلا. عشرون يوما حتى وصل الى قدميه. لذا انظر له.

لم ينفصل عادل عن لاشين. ثلاثة منازل في وسط سهوب مهجورة - هذه هي القرية بأكملها ؛ هنا الأطفال عادل، لا، وكان فقط متعة، لم ذوبان الكتب - جرو. في اليوم الأول من ذلك وضع الثعلب على نهاية فترة طويلة. لاشين ولكن ليس بها، ما هو كل شيء "يتم تحديد لدغة عليه وسلم -عادل في القضية. خفض عادل طرف ذيله تقريبا إلى أنفه، وسمحت له بالشم، والمضايقة، ثم فجأة، واقفا لا يزال، نسج، عقد كوروك في يده الممدودة. هرع لاشين وراء الذيل، لكنه طار في دائرة، وبقي غير قابل للوصول. هنا خفضت، تزحف موجة سهلة، تقريبا لمس طرف جرو وجوهها يضيف لاشين حركة، لكن الذيل يرتفع. جرو يهرع في دائرة بأقصى سرعة. الآن سيكون الكلب في فمه! ... ولكن الذيل بعيد المنال تقلع مرة أخرى ويندفع في الاتجاه المعاكس.

أيضا جرو على تدور إلى الوراء. مخالبه ثقيلة، والجرو يعمل بشكل أبطأ وأبطأ. لكن الذيل، الذي يتدفق بلطف عبر الهواء، لا يتركه بعيداً. رائحة غريبة، ولكن لطيفة، تبقى في الهواء، تثير الجرو، تضخم شعلة العاطفة غير المفهومة في الروح. امتصاص التخييم مع الأجداد الصيد العاطفة مرة أخرى لتعزيزه، وبدأت جرو مع جنون أكبر حتى تصل في السعي وراء ذيل الثعلب.

لكن الطرف الرقيق يقع في فمه! الجرو مع المتعة يمزق والدموع له، يسحب ولكن الأرض الشرقية لفترة طويلة، الهدر، تافه معها. وفجأة ينزلق الذيل الأذكى من أسنانه مرة أخرى. جرو يتمادى في يوم أقود -ومرات عديدة ....

منزل كازا تقف في مأمن من الموقع الرياح، عند سفح التل إلى أعلى جدا متضخمة مع العشب ريشة مزرق والمروج، هيل بسلاسة في الأراضي المنخفضة، عندما تهب الرياح، والعشب الكثيف على يتمايل لها، كما لو المتداول حد ذاته الأمواج الكسلى. اليافوخ طروب التسرع على طول القاع تشريح الحالية المنخفضة واد، وعلى طول السرير لف قصب الشباب ....

في عادل الرئيسية - لدفع الفرس لوضع نوح وقت الحلب أنها الجروح بين طويل القامة، وطلبه الغليان عصير ومحطات الكهرباء. وجرو التي تومض بقعة بيضاء بين ينبع الأخضر، والإسراع الرئيس الوحيد التخييم رحلة الخروج لعادل. في طريق العودة، هو مليء بنباح مرح، يطارد الفرس. وقالت إنها القيح تاب بالفرس، لاشين يتخلف تماماً، والخلط في حي العدل في.

- ولماذا لم تقوم بسحب وراء هذا في حد ذاته شيشين غبي؟ - كيف غاضب كاميلا. - تكرار: لا ني الطبعة تعكير صفو حلب فرس، وقالت انها يخسر من هذا الحليب.

لكن عادل لم ينفصل عن الجرو، ولم يفوت فرصة قضاء وقت ممتع مع الفرس. فقط بعد أن فقدت الأم صبرها، صدمت عديل بعصبية جيدة بكلمات: "انظروا - صغير، لكن عنيد!" - وعثر الجرو تحت ذراعه بعصا، أخذ الطفل الصغير نظرة أقرب على تعليماته. جعل الأب طوقا منقوشا بشكل جميل، والآن قاد عادل الجرو معه، مما يعوق حماسته القتالية. ومع ذلك، وبعيدا عن العادة، بدأ الجرو، الذي كان بالكاد يرى الفرس الرمادي، ينبح، والفرس، إما أن يرضخ له، أو يرثى له ويخشى أنه لن يمزقه النباح المحموم، الذي لا يزال يسير في القرية. لذلك، حدث ذلك بينما حشى كازي كتابه "هورغين" بالكتب، سيحصل، بعد أن قضى نصف يوم، على القرية التي تركها لصنع الخبز، ولا يقل عن يوم واحد يسافر القطعان المنتشرة حول جايلاو، - حدث أنه خلال هذا الوقت حصل كل من آديل ولاشين أكثر من مرة سيارة إسعاف لمعاقبة كاميلا.

وراء هضبة، على مسافة، تمتد سلسلة من التلال، تفصلها ممرات منخفضة. هنا يتم تجعيد الضفائر السميكة في كل مكان. اللمعان في غابة القصب الأصلي -شفافة ونظيفة، مع الماء الجليدي. الأعشاب البرية في المروج كبيرة عالية بحيث حماية محصول الأرض على جمل ....

كما صيف مرت لوسط ومتوهجة السماء، هطلت ضيق، الضمور الحرارة، ونصائح من أعشابنا سواء تجف

وتتحول الأصفر، بدأت عادل لمغادرة أثناء المشي على أبعد وأبعد من المنزل في التلال. ولاشين التي لا تزال الحدود كان واد الآن على أجنحة عالم جديد وغير معروف. العديد من الروائح المجهولة أصابت أنفه. وكان من بينها لاذع رائحة، تحصل على تغطية في تراب روث، ورائحة التوابل من المروج العصير، ورقيقة، ورائحة الدقيق الأحمر، قصر المنشأ، الزهور الزرقاء، ورائحة الصاحب مخيط كامي التربة العشب، ورائحة المريرة من الخشب المتعفن .... جرو، التي حلقت في رأسي من الطبقات حصيرة مشبعة بالهواء، والمرح النبح من بلا سبب لقد كان منتصراً، يتدحرج على العشب، ويقفز حول عادل، يركض، يصرخ، ذهاباً وإياباً، مرتفعاً في سعادته الكاملة. وأبعد من القرية، كلما كانت هناك روائح من جميع الكائنات الحية. هنا - رائحة لوش ، هناك رائحة البقر، عقدت هناك رجل، حسنا، رائحة إذاعة صوت ذيل رقيق، الذي طار لكوروك .... نعم، نعم، كان هذا الذيل هنا، حيث الأرض حفرت، ثم تحاشى تحميل شجيرات شائكة ومشى مكان بارد إلى الامهات .... لاشين يريد الترشح في خطاه، ولكن بصوت وراء عادل، وطلب العودة، وانه بالضرورة اضطر الى العودة الى الوراء.

في بساتين صغيرة على سفوح الوديان باردة وحتى مبللة. الأرض هنا هي شمولية، العشب ناعم، حريري. رائحة مثل الورود البرية، هوب، ولكن كل هذه الروائح محشوة برائحة الكشمش الأسود. عادل دون الكثير من المتاعب إلى الأعلى يملأ دلوه الصغير بتوت كبير تحت فيلم ضبابي رمادي. ثم، والعثور على المكان الذي يوجد فيه العشب أطول، وضعت تحت لوتشيف تحت رأسه بعقبة سميكة. لذلك فهو يكذب على ظهره، تحت الفروع المتدلية زبيب الوجه جدا، والسماء، بين تنقسم إلى ثلاث شوكات سواء تظهر هنا متقطعا، ممزقة إلى الطباشير كيي أشرطة زرقاء. لكنها ما زالت جميلة نيماي، وأيضا - ليس بعيدا جدا، فقط تمد يدك لأعلى، أوراق الشجر - وهنا هو، في أصابعك جدا .... التوت هي بالفعل كثيرة جدا، ولكن عندما تنظر من الأسفل، يمكنك رؤيتها أكثر من ذلك. لم يعد لإخفاء الأوراق، وأنها حبات سوداء لامعة بشكل وثيق التخييم هو 1-1، في كثير من الأحيان، في كثير من الأحيان. عادل مع ساقه على الآخر، يلتقط ببطء التوت حفنات وإرسال من الممكن في الفم. وهناك، حيث تصل اليد، ينتهي التوت، يتحرك مرفقيه، يغير مكانه. ولكن سرعان ما يأكل التوت ليس حفنة، وبتكاسل يكسر واحدا تلو الآخر، كما لو على مضض مرات ضاغطة الشفاه عصير الحامض. ثم وضع يديه تحت مؤخرة رأسه، فهو يكذب لفترة طويلة دون أن يتحرك ويبحث في الهدف قتال السماء تتلاشى عندما تمر عليها الغيوم. الجرو الأبيض، الذي يقلّد مالكه، يسطح نفسه أيضًا على الأرض، يميل صدوره ضد العشب الرطب. هنا هو بارد، وقال انه، مع رأسه على الكفوف الممدودة، ل في العالم، لا ينطق حفيف. هو قلق على سكب البعوض والبعوض. وبدونها، حتى الحلو هل يمكن أن النوم الكثير لرؤية الأحلام السعيدة! ولكن بعد الاستلقاء مع الجرو، استرح في الغبطة الكاملة، عادل، وكأنه يتذكر شيئا فجأة، يقول "هوب!" ويقفز. يهز ذيله، جرو يقفز وراءه والثابت في جميع أنحاء يشير. القفز فوق قطرات الربيع الايماء بين اسودت، المتعفنة الاخشاب الطافية وجذوع الذين سقطوا، وكسر قبالة مع اثارة ضجة خيوط عنيد

من القفزات، من غابة مستمرة. في الوعظ قائظ، متجهم الوجه. الشمس في خبز الذخيرة، تحرق الجبين. عادل ربط لل صيد، حلق، منديل، وجنبا إلى جنب مع شين منهم أنها تعمل لتمرير. هنا هو نسيم بارد. وراء الممر - القرية....

كان لاشينا يبلغ من العمر ستة أشهر، وقد امتد، ونما أكبر وبدأ في الظهور وكأنه كلب بالغ. وبحلول ذلك الوقت كان قد أدرك أن شيني والجمارك له، وليس فقط على أصحابها، ولكن بصفة عامة المخلوقات التي تدب على اثنين، وهناك العديد من النوع الذي لا يستطيع أن يفسر. رانه شي كل أو تقريبا كل شيء، ما أوو اجه بدا له واضحا جدا ومعقول. ولكن الآن، كما، شيئا واحدا تلو الآخر فقط لا تنسجم مع أول الصيد.

دعونا نقول نفس الحصان. لديها أربعة أرجل قوية سريعة. هي لا تتعثر أبداً ولا تسقط مثل عادل. بالفرس - وليس رجل وراء ذلك ليس بينتسي. في يوم من الأيام، غضب فرس رمادي من شيء ما ودعونا نركب كلتا الرجلين الخلفيتين، بحيث لم يستقر السياج، سقط على الأرض. وإذا قبل رجال الشرطة التي أصيبت رجل ... ما من شأنه أن يترك له ... ولكن على الرغم من كل هذا، والحصان لا يترك له؟ إيه، وقالت انها سوف تأمر أي شخص - كل هذا الزمن. نعم، و عادل الصغير -وهذا من رئيسها. كيف نفهم هذا؟

أو، على سبيل المثال، بقرة. بطريقة ما كانت لاشين تدور بجانب عجولها، وفجأة هزت مثل جرو مع هدير. لا يضرب جانبا، لا تدع بموقفهم، سيكون لجميع من وجهة له المحطمة. وماذا؟ ... البقرة أيضا بخنوع يخدم الرجل. وضعف الجمل القديم - انها ما الفزاعة ، بل وحتى مع اثنين من الحدب - انه ببساطة تلتقط السلع التي عشرة من مباراتين وليس تحت قوة، وأيضا، في اليوم يوما بعد ينفذ لرجل له سنويا بوت. وتهدر، بصراحة يأتي طافوا، والمسكين، ولكن بيريك أن الشخص يذهب أبدا.

حسنا، والكلب الأسود، والتي أسفرت عن مقتل ما يقرب من وزن نوح ... الأسنان الأصليين، انه تعميم الوصول إلى الخدمات شخص أو؟ كن - لا أحد من قبله لم يحظ. ولكن بعد ذلك يتم إخضاعه للإنسان. إنه متواضع وبائس حتى -لا يُسمح له، مثل لاشين، على سبيل المثال، بدخول المنزل، ولا يُسمح لهم بالذهاب أبعد من العتبة. والشيء الرئيسي في الحياة -الطعام -هو أيضًا تحت رحمة هذين الساقين. أنها تأكل كل الحلوى اللذيذة، ويأكلون كما يحلو لك. ومع ذلك، لا شين تناول لم العادات لا تفتقر، ولكن إذا حكمنا من خلال الطريقة التي يختار الكلب الأسود من بيت إلى بيت، استنشاق شيء، لاشين النظر في فريقه الغارقة، يفهم أن الحقيقة ليست في كثير من الأحيان أحضر إلى ملء كامل بطنه.

يوم بعد يوم نشأت المزيد والمزيد من الألغاز حولها. يستحق الحديد ما لا يقل عن أربع، والتي في وقت واحد ذهب إلى القرية بعض الناس! لم يتم تسخير حصان ولا جمل لها، بل ركض من تلقاء نفسه، إلى جانب جعل هدير يشبه هدير الرعد البعيد. مرة أخرى هبط طائر ضخم في السهوب. جنبا إلى جنب مع القرية الذين مثقلة الخيول، وهرع إلى الطيور ولاشين. ماذا رآه؟ الحديد العادي، الضوء على اللون. خرج من الشعب، وقفت قليلا التحدث مع يخدع الأسماء المستعارة، شيء ما، وعاد الى الطيور الحديد. كان صوتها مرعباً؛ بالإضافة

إلى ذلك، أثار الطير، الذي كان يقلع، عاصفة كاملة. إذا لا -شين ونجت، بعد ذلك، لأنه قبل الخيول تراجع تحت الرياح الوحشية من الرياح وتمكنت من الجري جانبا ....

و كاسالز أكثر غامضة قلت له الرجل، وزيادة لاشين يعتقدون في وسعها. وبالإضافة إلى ذلك، هناك المدى الخاص، وبعد ذلك لاشين توقفت تماما أن نتساءل كل شيء حي في العالم بكل تواضع الرجل واعترف هو نفسه كامل له، التفوق غير المشروط ....

وكان كذلك. بعد آخر، غزوات بعد الكشمش، عاد هو وعادل إلى القرية. وتلتف بالكاد كنت الشجيرات، التي كانت متضخمة مع منحدر لطيف، رأوا أمامه بارداسوك. في خطوتين، على مسافات سري المناسبة الفرس. نحيل ذلك، نهب إمدادات البذور والقش التي جمعتها الفئران المجال، بفارغ الصبر الوقت سخيف الكفوف أرض لينة. مواجهة في حفرة واستنشاق، الهدر الجشع. ثم يبدأ العمل مرة أخرى، وفي كل مرة يصبح ملتهبا أكثر، يشعر على الأرجح بالفريسة .... تجميد عادل من. مفاجأة، واصطياد تنهد أكو وراء هذه البلدان الاحتلال. حسنا، في لاشينا، عند رؤية العدو اللدود، غرق القلب. هززت ذلك - كل عظمة، الدخان - واختبأ تحت قدميه عادل، وتبحث عن واقية لك. ثم تذكرت عادل أن والده أخبره عن هذا السارق الأسود، التي مزقتها تقريبا إلى أشلاء بفعل شق له من الليل، و كان جميل لاشين، عندما كان لا يزال تماما لينكا ....

توغل، مسك يده على الأرض. سماع شوروه، انسحبت الكلب كمامة للخروج من الحفرة، ولكن بعد فوات الأوان. في أقرب وقت كما كان الوقت لتحويل رأسه إلى الخطر، باعتبارها الحادة، uvesi الحبيبات الحجر أصابته في الجانب. صرخة يائسة ردد من النقر في التلال، والكلب انطلقت، تشغيل، تقوس سنام آلام الظهر. الحجارة الثانية، أصغر قليلا من الأولى، تبعت برداسوك، لم تضرب، وتحطمت في مكان ما في أدغال المروج.

"لعنة! ..." - صفع عادل فخذيه بإزعاج. الآن فقط لاشين، تماما أعطى مثل هذا التحول في الأحداث جاء أعذب. ثم غضب. بدأ بصوت رقيق وهرع بعد فرارداك الفارين. فقط من خلال مرافقة عدوه القديم وقال مسافة كبيرة له سوف توقف طاعة عادل، الذين ايه هز له، والتسول ليعود. ووقتا طويلا لا يمكن أن يتعافى، على التعافي من الصدمة، والذي أعاد جميع الأفكار السابقة له عن الحياة، عن الوجود، نقاط القوة والضعف.

إذا آديل-الأصغر بين كتابه الشهير يومين تدب -التطوير التنظيمي بن لمثل، ثم ما يمكن للبقية ...؟

"أين جئت منه، من أنا، أين أنا ذاهب؟ ..." لا، بل هو على درجة من التعقيد ناي المسائل الفلسفية، وبطبيعة الحال، لم يولُد في شين الرأس. ولكن بعد الحوادث التي تم وصفها، حرص لاشين على أن يكون هناك مالك لقوى قوية وقوية. يأمرهم، يمكنه أن يفعل ما يريد. اسم هذا السيد هو الرجل.

5

كازي، السعال القوي، بالكاد تفكيك الخطاف على الباب المتضخم. قفز لاشين قبل المالك وفوراً خارج. برزت وأغمض عينيه، أعمى مذهلة ضوء ساطع. كل حي، ولكن أمس القذرة الرمادي والبني و"اليوم لم يتغير: باردة وبعيدة، نحن، والفناء وسقف مظلات -الجميع" احتفالية الأبيض الحجاب. اتخذ لاشين، وهو يرتجف قليلاً من الهواء النقي، خطوتين أو ثلاث خطوات للأمام. شيء تحت قيادته الكفوف الصورة. التفت له بوضوح عن المطبوعة آثار. وهنا المالك -يذهب إلى السقيفة، وخلفه توني يرسم بسلسلة من العلامات. لبعض الوقت وقفت لاشين، في حيرة من الفتح الجديد تيا، ثم اتبع مثال المالك ذهب إلى الحظيرة. ومرة أخرى رأى آثارًا، ولكنها تشبه آثارًا خاصة به، أصغر فقط. ممرغ، وقالت انها مشموم - وتبين من أنهم قد غادروا بارداسوك. على ما يبدو، طار هنا، يبحث عن شيء صالح للأكل.

كان الهواء واضحًا، وخالٍ من الروائح الغريبة، السميكة من الصقيع، حيث شعر كل شخص بأنّ صدره سكب بالقوة. اجتاحت الثلوج الجافة والباردة، ركض عدة مرات على طول الفناء. وزاخو غاية أخيرة التسرع في ربيع - ثم لتمرير، الشحم على الجمل المنحني، وأكثر من ذلك - إلى مرح في هذا المجال. إلا أن المخاوف في مكان ما بالقرب تجول الشاعر عصير، يمنعه. الى جانب ذلك، أرى أن صاحب جلب اكتناز وبربط سياج على الخارج، وأعاد خاط انه ذاهب في مكان ما، وتذهب، وربما مع ما يكفي من انتحاره.

جرو، وفي الآونة الأخيرة، أرجل طويلة، ذيل قصير، ضيق البطن، وتحولت بالفعل إلى ما يقرب من السلوقي الكبار. أصبح أقوى، رن، في العظام، ونسج الصدر واسعة، شد البطن. رأسه كبير جدا مقارنة مع الجسم يمكن أن تصمد أمام أي الخفايا التيارات: تاج عالية، وذكية، آذان كبيرة، متوسطة عريضة، تتدلى الفرسان شعر. الأسنان على التوالي، والأبيض، حيث ينبغي أن يكون - منذ فترة طويلة، وأشار، حيث - أسنان قصيرة وقوية، والتي لا إراديا عندما يفتح فمه - أسنان طريقة ل لنا، يبدو أن نخر، وسمكا عظم الجمل.

منذ عاد آديل لمدرسته الجرو رعهت كازي. دون إعطاء السلوقي بول الحساء، والتي يمكن تثبيتها على الدهون، كازي انتظار أول تساقط الثلوج حديثا. ولكن، للأسف، تأجل الخريف. مشحونة الأمطار طويلة الأمطار، فجر رياح باردة الكئيب. وفي الوقت نفسه، إذا كان الكلب لا تجلب مطاردة للذهاب العمر، والعضلات في رقبتها بنك الخليج الدولي تفقد العظام، وتتصلب، ومن ثم لم يعد من الممكن لها قبضة ذكيا كيم الكلب. هذا قلق بشكل خاص حول كازي. وعندما، في النهاية، سقط أول تساقط للثلوج، كازي. رمي طوال الليل في السرير، ارتفع بظلام، استقر على عجل بحصانه، لاشين السائل تغذية الحساء وذلك محفوظ في وقت قصير المطلوبة الحليب، غادر الفناء.

للصيد، اختار منحدرات جاوورتاغ. وأي نوع من العلامات لم أراه هنا في الثلج الطازج لاشين! كل من

الآثار الكبيرة والصغيرة، في معظم الأحيان غير مألوف تماما من الرسم والروائح. ثم تتشابك، ثم تمتد إلى سلاسل، ثم تتباعد في اتجاهات مختلفة. كان على استعداد للهروب على طول كل درب، إلا أن الأمر من المالك أبقته، وتواضع نفاد صبره. ولكن هنا يرمز البصمة على غرار الدبابير بالقرب من الحظيرة بارداس شخص ما، ولكن ليست كبيرة جدا. استشعر بورزوي ذيل طويل ورقيق، طارده في الصيف .... توجه إلى الأرض، وركب الكلب على المنحدر الصخري. اودناكو لم المالك لا تتبع له، من ناحية أخرى، خفض من لوس، دعا الى الوراء. ثم أشار إلى العكس مائة رونو وتحول لي. أدرك لاشين أنه كان على خطأ. سرعان ما سار بثقة أسفل الدرب.

بالقرب من هضبة بين تلال منخفضة، متضخمة شيه نادرة، وذيل رقيق تباطأ فجأة وذهب تشغيل خط متعرج، وتبحث عن فريسة بين حين يجلجل في الادغال الثلوج. هنا وهناك التقينا مرة واحدة - الثقوب على الفأرة. الأرض التي لم يكن لديها وقت لتجميدها حتى الموت كانت مختلطة مع تساقط الثلوج. ذيل رقيق تحت النيم على التل، ثم اتجه الى جوفاء وتهرب فترة طويلة من جانب إلى آخر. الكلب عديم الخبرة الذي هو دائما الحذر للحفاظ على مسار، وعشر مرات على الأقل، وربما وجدت الدوائر لمكان واحد، في الماضي. تعبت من مطاردة لا صعبة جدا، أليس كذلك مجرد غبي عيني -ودون أي نتيجة .... ولكن عندما سيد تقريب كنت غاضبة منه، وقفز الإثارة من الصيد مرة أخرى في لاشين، وهو يسير على طول الطريق، والآن تحول إلى المنحدر. بمجرد أن مرت فوق التل، ما هو مبين أدناه، عند سفح التقى في غابة الوحش، وكوتو واحد وقتا طويلا وسعت دون جدوى. والذيل هو في الواقع تحولت إلى أن تكون طويلة ورقيق، وكان شيئا على الذهاب مظهر للكلب. لكن الوحش كان أحمر اللون وبدا وكأنه شعلة تهبها الرياح .... كان من المستحيل بالنسبة لهم ألا يعجبوا! أحمر، والساخنة الشاهدة اللسان هو الثلج الأبيض .... في لحظة جمدت لاشين، ولكن الثانية في وقت لاحق، الكفوف قوي الثلوج بالفعل لو الهاتف الازدهار.

يتم تقليل المسافة بسرعة. وصلت الروح المميزة للثعلب إلى أنف من السلوقي. شاهد لاشين بوضوح أمام ظهر الوحش. "أنا سريع! - معجباً بوروزي.- الشباب أوه، أنا سريع، "على الرغم من أن الساقين الثعلب قصيرة وعلى الذهاب، وقالت انها اللحوم المفرومة، لهذا كله كان يعمل حتى أكثر! مجرد أنها لا ترتفع. كان لاشين بالفعل على بلدها، ولكن بعد ذلك لاحظت أن الفاصل الزمني بين أي بدأ في الزيادة. والآن سحبت فوكس عبر أي زينيس، ترك شيئا فشيئا نحو التلال. الأمر يستحق ذلك لتأخذ فوق منحدر صخري، وتم حفظها أنها .... ولكن للأسف لجبهتها تخطو خيال مظلم من صاحب الكلب. على ما يبدو قرر أن يقطع طريقها ويقفز عبر الطريق. سواء -كما قامت الأمة بتوتر كل قواها، لكن الرجل الذي كان يجلو فوق حصانه ويصرخ في أعلى حنجرته، تمكن من قطع طريقها. تحول الوحش جانبا وركض بشكل غير مباشر. استطعنا الفوز بمسافة صغيرة. الآن، وكان من المأمول أن متقدما على المتسابق، وسوف تكون قادرة على التسلل بعيدا أسفل المنحدر إلى وحدة دولية آمنة مئة. وحقا، وبعد فترة من الوقت متسابق، ارتفاعه على طول سفح التل،

وبدأ في الانخفاض وراء. لم يكن بورزوي خطرا على الثعلب الآن. ويبدو أنها على وشك التقليب من هناك بالنسبة لهم لتكون في متناول اليد ....

ولكن في تلك اللحظة أمام واسعة فتح الدين. ورأى الثعلب أنها ارتكبت خطأ قاتلا. على طول الكآبة، غطت الأرض بالعشب الطويل، جفت وقاسية، رشي عليها طبقة رقيقة من الثلج. في الصيف، كان مرجًا مبهجًا أخضر هنا لم يكن يعرف المنجل، وكان العشب الخصب المتضخم يخفي الحصان إلى الرأس. الآن، وهذا المرج، ذبلت وتلاشت، قبل وضع حاجزا منيعا إلى الثعلب مع سيقانه قصيرة. لم تكن تعرف أي طريق آخر، هرعت إلى الجوف مباشرة، على منحدر حاد من العشب لم تكن سميكة جدا. لكن سيقانها الجافة وخزت بطنها وخدشت بطنها، وركض الثعلب يتسلل، وألقى جسدها كله. لكن الكلب، طويل الساقين، الشاب، المليء بالقوة، السيقان الهشة لا يمكن أن يكون بمثابة عقبة، لا تقل سرعته ومن يطلع. المسافة التي الثعلب قد تمكن من الفوز، والاستفادة القصوى من أربعة الكفوف قصارى جهدها تقلص بسرعة. "أنا سوف اللحاق! – مرة أخرى تفرحون.– ليس كثيرا .... وأنا سوف تتفوق لها "!

كان الثعلب في الصابون، ذيله ملتوية بلا حول ولا قوة! هو لم يدفع نفسه، لم ينتفخ في الريح، لكنه جر بعده، بالإضافة إلى كل شيء، مما أدى إلى إبطاء رحلتها. "الآن! – الاحتفال رمح.– الآن سوف الاستيلاء عليها "، تقرع أسنانه، قبل! لذيذ المذاق لحظة نهاية الذيل الناري الحمراء ستكون في فمه. ولكن بعد ذلك قطع منحدر معشوشب حاد شيا، الكفوف الثعلب مست بالأرض بقوة، على نحو سلس، وعلى ضوء خطاب النوايا من الثلوج التي يتمسك بها هنا وهناك، والسهام كامي ريشة. جمع له مشاركة قوة، واستنفدت من مخالب ريك صارخ الرقبة الخوف الثعلب اندفعت بالأمر المستحيل أد. الموت، التقليب الفم، قفز، ولكن إلى متى؟ ... المسافة بين الثعلب والكلب ليست أكثر من حصان المياه. وبالإضافة إلى ذلك، وأنفق الكثير من الجهد على ذلك، للتغلب على منحدر حاد .... الكفوف، والمكتسبة، دون سابق بسهولة بعيدا عن الارض. ولكن الرعب من الموت إذا قاد إلى الأمام.

وراء الثلوج قياس وأعلى صوتا مطحون منظمة الصحة العالمية النبوية اقتراب العدو ثابتة، وغير معلنة، لوي الشخير لهذا الثعلب سمعت بوضوح فوفا، الأسنان، حادة وبلا هوادة، فقط على استعداد لوهج في جسدها العطاء. عرق عينيها، ضحكة ضباب بني حولها. لا أمل في أن ينقذها ذلك من الخطر، ولكن فقط من العادة، غريزيًا، رفع الثعلب ذيله –ونشأ على طريق الكلب، العقبة الأخيرة والدفاع الوحيد. كان ساذج لودي السلوقي! حتى الآن، كان يطارد الثعلب لا على الإطلاق من أجل الاستيلاء عليها وتمزيقها في النادي. شيء ممتع كان بالنسبة له هذا هو المضايقة التداخل، والاستيلاء على أسنانك قليلا، للفة على الثلج، للعب المنافسين. عندما أزهر الذيل الأحمر أمام عينيه، أخذها من أجل لعبة جديدة، والآن كان يسعى إلى الاستيلاء على الذيل. لكن الذيل كان يهز من جانب إلى آخر ولم يعط. فقط رفرفة في كمامة جدا – وعلى الفور الاندفاع جانبية. السلوقي كمامة بدوره، استهداف المخيمات، على وشك انتزاع –وارتفع الذيل، وقال انه طار. الكلب من قبل

الجمود يندفع بسرعة، والحيوان الماكرة مرة أخرى جانبا، على مسافة. الكلب في حرارة سكا حتى بالنسبة له، يطارد تقريبا في أعقاب. لكن اللهب الأحمر يتوهج في مكان ما إلى اليسار، ومن ثم إلى اليمين، ومرة أخرى إلى اليسار -يمسك السلوقي المعكرونة بالهواء الفارغ، ويلتف رأسه ويرى أن الثعلب قد فاز بمسافة منه لا يمكن التغلب عليها بثلاث قفزات جيدة.

استنفدت لاشين من هذه المطاردة. الثعلب، كما ارتفع بتلهف على منحدر حاد، تحول فجائية إلى غابة من المروج، ركض حول دائرتهم، تماما من موتا الكلاب السلوقية، وركض قبل خط، لا تزال تنتشر في الهواء وذيله الرائع خبيث. لحظة أخرى، واختفت من عينيها، وتخطي السرج الضيق بين المتاخمة.

توقف لاشين كان صدره ينفجر، تضخم لسانه ولم يصلح في فمه. كانت أقدام، غرباء، شقيين، تدور في رأسي. سلسلة يصل هارب آثار شمال شرق فروع الأدغال والتلال بالثلج - جميع تمايلت، طرحت في مكان ما .... ولكن فجأة بدأت السلوقي، على الرغم من أنه لا يعتقد نفسه في اللحظات الأولى. نفس الثعلب، الذي كان على ما يبدو في النهاية على أن يخسر برز مشهد، من الحافة والآن بأقصى سرعة هرعت الى مقابلته. يجب أن يكون حيوان ماكر يشتبه في ان الكلب، ومطاردة من بعده حتى فقط "كوك-أسيك ،" وهذا هو الأخضر، فإنه لم يبلغ النضج وغير قادرة على اتخاذ قرار عزم الدوران هو لتمزيق والسعي. نعم، كان هذا الثعلب لا تتوقع .... تخطي السرج، وقالت انها اندفعت إلى الجانب، ومكتب المفتش العام باي التل على منحدر صخري، والذي لم يترك موس المسارات. حتى انها تأمل في إرباك سيئة كلبها. لكن مكرها انتهى: العدو، الذي تمكنوا من خداعه ببراعة، وجد نفسه على غير المتوقع أمامها، وجها لوجه.

في كل مكان، شعر الثعلب أنها سقطت في مخالب الموت. وفي حالة من اليأس، ألقت بنفسها مرة أخرى، لكن لاشين، التي كان لديها وقت لأخذ قسط من الراحة، تنفست أنفاسها، وقبضت عليها في قفزتين. الذيل الزحف على الأرض كان بالفعل في فمه. تحول الثعلب، بت السلوقي في وجهه. والكلب، الذي لم يكن يعتقد أن تسبب ضررا فروي الوحش كو غاضبا عندما غرقت أسنان حادة في ذلك. الثعلب، بعد أن حرر نفسه، انطلق مرة أخرى للفرار، وأين كان يمكن أن ينقذ من الهيكل المعلق فوقها! القفزة -والكلب مرة أخرى استحوذت عليه، تشبث الفخذ، ضربت الأرض، ثم ضغطت الأنياب، مرارا وتكرارا، فقط التقطت الأضلاع ....

المالك وصل. القفز إلى أسفل من فوق حصانه، وقال انه ركض للكلب، والثعلب عناء هامدة: "هيا، لا مالك الأرض، ! بما فيه الكفاية"، وانتزع من بين فكي السلوقي فريسة، مع رفع ذيل الثعلب وضرب رأسه على الأرض.

- الصيد سعيد لك وللذرية.... انه كلب.

لم يدرك لاشين، بطبيعة الحال، ما الذي يكمن وراء كلمات السيد، لكنه أمسك بالشيء الرئيسي: إنه ممتن له، وهو سعيد للغاية.

هكذا تعلم السلوقي العراك. له جاء إلى حياة مليئة بالنضال وبراعة البراعة، معارك دموية وانتصارات ثابتة.

6

سرعان ما انتشر صيت السلوقي في جميع أنحاء البلاد. ورجل نادر بين أولئك الذين يعيشون في القرى المجاورة لم يزين رأسه بتوماك الثعلب الجديد هذا الشتاء. كان الجميع سعداء وأشاد لاشين. خصوصا سرطان البحر القديم. "الآن أنا لا ، كما كان من قبل، في الخراف كربي - كان يقول.- الآن دافئة بالنسبة لي، وجميع عادل، الذي تدرب كلب، ولكن سوف تزدهر له ذرية، ولكن ليس ترجم له خمسة، دعه يكون النظير الأول كثيرًا ما كرر هذه الكلمات عندما ذهب إلى منزل كازا لسماع آخر الأخبار عن حيوانه الأليف. الرعاة والحراس من المناطق الشتوية المحيطة إما أن يلتفوا على كازا، أو أرسلوا تحياتهم من خلال الرسول، لكن بطريقة ما حصل الجميع على ثعلب. وكان البقالي، مدير المزرعة، حتى اثنين حصلت معهم معهم: وضعهم أحدهم في القرية، والآخر -عندما ذهبت إلى حكومة المزرعة الجماعية أو إلى المقاطعة. وبقي فقط إيسيجول البائع دون ثعلب. "دعونا أولا شمال شرق الناس في حساباتهم - يزعم سكا قاعة كازي .- نعم، والسماح لهم لا يخدع ولا واش!"

مرة واحدة، بعد وقت قصير من أول عملية صيد، غادر كازي القرية مع بيكاالي، الذي سارع إلى مركز المقاطعة مع تقرير سنوي. عادوا المنزل في غضون أسبوعين. في مساء يوم قبل سكان أربع وسائل التحقق، بشكل جماعي، مزرعة مانور المركزية، كولأليس في قضاء . على النقيض من المعتاد، في منتصف المائدة المستديرة اصطف ثلاث زجاجات من سائل واضح. ولكنه لم يكن داستراخان البهجة صاغية نيا، منها الضوء والفرح تملأ المنزل بعد وصول عادل. معظم الوقت تحدث عمر، والباقي -والده البقالي، الذي، على الرغم من حقيقة أنه كان أقل من ثلاثين، انتفخ في بطنه وخدوده الدهنية كانت مشدود ومراوغة، مثل أحمر تراجعت سيك، ايسزول، في كل كلمة -انهم جميعا سكب بجد الماء الشفاف في أنفسهم. حتى أن كاميلا وزوجة بيكالي ذاقتها مرة واحدة. لاحظت النودلز كيف أن كل من الأنثى الأخرى والعبوس الملتوي. ليس كثيرا، على الأرجح، لذيذ شفاف جديد الماء الذي هو المر .... ولكن صاحب لها رفض. وصب الضيوف، وأقنعوا بالشرب إلى القاع، ولم ينسوا نفسه. السعال، مع الستوما -ومن ثم مفاجأة في كأس الفم. ثم تصرف لغريب تماما: الضيوف لم تقسيم، ولكن انحنى ضد سادة وسقطت نائما، والشخير. لا يبدو الأمر كذلك .... لا، لا. حدث شيء له، كا كايا تغيير في الحياة.

غالبًا ما كان كازي يطارد الصيد، خاصة إذا سقط المسحوق، الذي يترك فيه الوحش آثارًا جديدة ومتميزة. السماح لهم لاشين بحثا عن فريسة، إذا كانت هناك في ذلك الوقت، كما يطلق عليه الكازاخ، "السونار طويلة"، وعندما توقف الثلج في منتصف الليل، أو "السونار الدموي" عندما نازلة حتى الصباح، أو "قصيرة جديلة السونار" عندما تنثر يوم صغيرة ليلا ونهارا و: حلم ل غو كصفحة في كتاب مفتوح، والعين من ذوي الخبرة عن

القراءة، ومنذ متى وعقد الوحش وإلى أي مدى يمكن أن تذهب. وأحيانًا، دون انتظار الطقس، اعتمد كازي بالكامل على الكلب، على رائحته، وخفة دمه وسرعته. ولا عجب: حتى في سا أيام سيئ الحظ، عادوا كر لا يقل عن اثنين من الطيور. لاشين أصبح جسده أقوى، وكان جسمه مرنًا، وكانت عضلاته ممتلئة، للغرباء شكله وحجمه المستوحى من الخوف الطوعي. ومع ذلك، في قريته، وقال انه دير تشبث بدلا استحياء، وتذكر، ربما، من سترا ها قد لحقت به في هذه الأماكن في وقت واحد، في فم الكلب الأسود ....

لكن دى المساء عندما يسعل باستمرار كازي، وشرب القليل من الماء المر، وانبطحت ولجأ إلى العرق، لاشين خارج الباب وقفت في المدخل كما بالسلاسل: في كان ساحة بارداسوك. وكان حذرا من المعتاد ولكن تظهر في عالم لاشين و، في الوقت الراهن روشيل الحظر وبالتفتيش بشغف من خلال كومة من القمامة. كما لاحظ وجود السلوقي. وقفت برداسك نصفه وتحولت إليه فقط ورأسه، ابتسم ابتسامة عريضة وغرس. ومع ذلك، كان يسمع لاشين في هدير له الخوف أكثر من التهديدات. تفاجأ بعض الشيء، وطمأن من هذا، لاشين بدا أقرب إلى ملاحظة فيها منذ وقت طويل لا نرى. يبدو أنه أصبح أصغر وكان رث، مثير للشفقة في المظهر. على ما يبدو، قارن أيضًا قوته وقوة كلبه وأدرك أن المعركة لم تعده بشيء جيد. تذمر مكتوما، التفت الذيل ونيويورك أسلوب كعب نحو منزله. الغضب غسلت فجأة على السلوقي. في عدد قليل من قفزات تتفوق الكلب الأسود بنفس الطريقة كما لو قذف، أمسك به، أسنانه في الفخذ، وانتقد على الأرض وانحنى جسده على القمة. ولكن الكلب تحول على المزيد من الثعالب. عواء تدمى القلب، وقال انه بت في السلوقي الذي موجودا، وفقط عندما أغلقت الأنياب الحادة على رقبته، وتوقفت المقاومة. يبدو خنس خنقا في حلقه، مخالب التشنجي الوخز وتنظيف الأرض.

الدم غمر عينيه السلوقي. رؤية شيء أمامه، واصل خنق بارداك. غير متوقع فقط متناظرة تسبب تأثير له أن ينزل. لحظة لاشين يعتقد أن ريدج قد تصدع، وانشطرت الى نصفين -بكل ما أوتي من قوة ركل التمهيد له إيسنجول مزورة. ثم عاد في المرة الثانية. تهرب لاشين. إطلاق سراح ضحيته، أطلق النار عليه إلى الجانب، ولكن لم يركض -وتوقف عكس ذلك، أسنانه.

- كازي، الذي جاء ضجيج المشاحنات كلب، أنت سكوش بها وخرج هرعت إلى ايسنجول...

- مهلا، لماذا تضرب كلبي؟ صاح.

أنا أضرب؟ ... نعم، سأحميها!

- الجلد؟ ... نعم أنت .... من أنت؟

" آه، ما زلت لا تعرف؟ ..." ابتسم ابتسامة إيززول. "حسنا، سوف تجد". سوف أجعلك تعرف اذهب بعد ابن أخيك.

" أنت لا تهتم بابن أختي"، قال كازي، فجأة تهدأ، "وأنت لا تهددني". الناس يقولون: سوف ينحني الحقيقة، لكنك لن تكسرها. سفكت الدم. يعلم الجميع ذلك. هنا! - وكازي، وهي منحنية قليلا أكثر، تصفق الصفر

كفه ولكن ساق خشبية.

– آه، حمامة، لقد رأينا مثل هذا أنيق! الملائكة مع أجنحة، وفقط! – ارتفع صوت إيسنجول وترتعد. وأبعد من ذلك، وأكثر اتخاذها شيء، كسر في البكاء. – هل تعتقد أن كل أعمى، واليقظة NOSTA فقدت؟ ليس كل شيء! ولُدينا عيون وآذان! ... هل تقوم بجمع أي كتب في يورت ريد لديك؟ و؟ ... كا كيي، كتب الحديث؟ ...

– كيف هو – ماذا؟ تلك التي هي من الاتحاد السوفيتي الافراج عنهم.

– كانوا خونة لإنتاج، مثل الخاص! كل ما عليك التوت الصفر .... أعتقد أنني لا أعرف كا كيي استغرق الكتاب الذي الصيف إيسنجان ابن طالب؟ ... كل الألمانية نعم الأمريكية. وماذا تكتب لكتابنا؟ الكتب القديمة، القديمة! عنها، وكتب في الصحف! لحرقها على فترة طويلة من قبل، وكنت الكنز. ربما تجيب – لماذا؟ هل أنت صامت؟ حسنًا، حافظ على هدوئك. ولكن الشرفاء عدم التزام الصمت! ...

– أغلق فمك القذرة، مخلوق وقح! – أمسك كازي إيسنجول من البوابة.

كانوا محاطين بالجيران من جميع الجهات.

– لذا أيها الأصدقاء الأعزاء ! نظرة! – قال إيسن يول، رفع مستوى اليد.– انظر .... صاحب كلب كلبي للقتال والآن يريد أن يقتلني. كن شاهداً يا ليامي! ...

– حثالة! – تعامل مع كازي من خلال أسنان مثبتة –أو عليك فعلاً أن تصنع وجهًا!

وحاولت، في محاولة ....– إيسنجول دون جهد تحررت من البوابة وفتح أصابعه بحدة الصفر كازي. ينظر إلى عدوه، الذي استقر بشكل خفي في الثلج، ألقى: –رجل مخمور هو بائس! – والضحك في الاشمئزاز، مشى بعيدا.

بقيت لاشينا كلمات غير مفهومة تنطق أثناء الفضيحة. ولكن كان من الواضح أن سبب الشجار السفير عاش معركته مع بارداسوك. عندما أمسك كازي إيسن يول خلف البوابة، في السلوقي على نهاية حتى الفراء على النوم لم يكن كذلك، لكان قد هرع لمساعدة صاحب السلطة الفلسطينية، لن يمنعه جاء للشعب الإنقاذ. ومع ذلك لاشين شك في أن يسود المالك على الضعفاء واهية . لكنه حدث بشكل مختلف ....

عادة لا تعلق لاشين أهمية على كيفية ارتباط الأشخاص ببعضهم البعض. صحيح، بدوافع مختلفة. كاميلا، على سبيل المثال، تستفيد من حقيقة أنها كانت أكبر من عادل، وكثيرا ما سخرت منه بشكل خاص، وبعد ذلك كان الصبي يغادر لدفع الفرس، أو الذهاب إلى الماء. ومرة واحدة، عندما كاميلا المطاردة خصوصا عادل، ركض كازي إلى التمهيد لها، والتي ستاس في الوقت أوما مع قدميه .... ولكن كل هذا لم يعط الشعرية تقدر نيا. لكن المعركة، وسبب الذي كان مقتنعا البورون زوغو أن الناس، مثل جميع الكائنات الحية، وتنقسم إلى القوي والضعيف .... ومع ذلك، لم تنخفض احترام المالك لاشين. إدراك أنه في لحظة صعبة، هو مستعد للتوسط له، دون الاعتماد على رئيسه الخاص هبوب على العدو، أحب لاشين أكثر منه....

7

بارداسوك بالكاد نجا من الموت، والآن تقريبية التعاقد لم يجرؤ على كازي المنزل. عندما رأى لاشين من بعيد، اختبأ بسرعة. أما بالنسبة للغازي، أنه على الرغم من أنه هزم في اشتباك مع إيسينجول، واحدة ل حضور هذا البائع بأي حال من الأحوال خجولة. كل يومين أو ثلاثة أيام، وذهب إلى المتجر، أخرج جيبه قطعة من الورق وسلم إيسينجول وحضن هدأ من ضربة رأس زجاجة مليئة شرب القليل من الماء المر ....

السلوقي يرضوا عندما توجه إلى صاحب كان في الجانب الآخر، حيث كان هناك بائع المنزل المجاور إلى المخزن. بارداسوك، والاستشعار نهجها، خسر ل الجحيم. ركض إلى القاعة، وقال انه قفز ومرة أخرى ومباشرة، وعندما اختفي الشكوك الماضية، قبل تكريم للخروج من الفناء. كازي، ومع ذلك، لا تبدو لإيسينجول الى داخل المنزل، وقال انه فتح الباب الضيق محلات صغيرة، حيث اثنين منهم لم يتحول، وبعد ذلك، على عتبة فجر يده في جيبه ....

كان الطريق إلى الجانب الآخر من السلوقي لتذوق والخالي من جديد -لا. كلفه قليلا بعيدا عن المنزل بيعها إدارة أمن النقل، بعد يعرج على عجل المضيف، وشريط قفز على كومة السماد الفاسد اندلعت بعد أجش مع الغضب، ينبح: "يخاف؟ حسنا، هذا هو نفسه! ترك قبالة بينما كنت على ما يرام! "سيتوقف لاشين، ننظر إلى الوراء -الكلب الأسود سوف يسكت على الفور. حتى في البوابة سوف يسجل، والذيل بين ساقيه. ولكن بمجرد أن يسير السلوقي وراء السيد، مرة أخرى لنفسه. في البداية، فإنه أغضب لاشين ولكن نريد التسرع، لتعليم جبان المتغطرس جيد سرعان ما توقفت عن دفع له الهبوط المانع. آخر لاش بالانزعاج. في الوطن، وضرب صاحب كف الجزء السفلي من زجاجة من الحراس كا الفلين، تدفقت إلى أسنانها مع زجاج الأوجه والشراب في جرعة واحدة. بعد ذلك، شعرت لاشين شيء في ذلك من لي .... لا، فإنه لا يضر الكلب، وكامل لا ترومان غال -قالت الراقصات بالفعل بهدوء الظلال، وسار في جميع أنحاء المنزل .... الحجامة يد رئيس المالك جلست لفترة طويلة دون أن تتحرك. لكن مهما بدا وكأنه وديع، كان لاشين يخاف منه في مثل هذه اللحظات.

جميع المنازل في القرية في القرية، تقع بجوار المزرعة. في المتجر، سيقدم للمقيمين الشاي والسكر ومختلف أنواع الطعام والملابس طوال اليوم، وسيظهر ثلاثة أو أربعة عملاء. لكن إيسينجول بدقة كنت أجلس وراء العداد من الوقت المخصص -من العاشرة صباحا حتى السادسة مساء. يقرع على الحسابات، شيء مهم، يروي، يفك، وصلات. غير أنه في استراحة الغداء ساعة يسمح لنفسه ذوبان بقية الاحد. لكن إذا، على سبيل المثال، الرعاة يأتون من فصول الشتاء البعيدة في يوم عطلة، ثم اطلب عدم السؤال، ولن يزيل القفل من الباب. . "متجر مختومة، وليس لديهم الحق في انتهاك الدولة أي أوامر - من انه بجفاف. - أنا، عزيزتي،

لديّ رأس واحد على كتفي. " ويبقى إما العودة، أو الانتظار حتى الغد. اعتاد الناس الذين رعى الماشية على مدار السنة، دون معرفة عطلة نهاية الأسبوع، على مثل هذا العلاج. لم يحدث لهم أبدا أن يستاء أو يشتكي. وبينما كان هناك حديث عن أن إيسينجول تبيع السلع على الرعاية فيشين الأسعار، وحتى خداع المشترين بدا في ذلك من خلال الأصابع أيضا. مثل، هنا، في السهوب غلو شي،وهذا المحل شكر، و إيسينجول – خمسة عشر فلسا واحدا – لا مشكلة .... شج صخرة روح السهوب، لا تستخدم لإضاعة الوقت في تفاهات، واتخاذ الشتائم!

بطريقة ما عاد كازي إلى المنزل دون زجاجة مألوفة. انتهت المريرة الماء، وأود أن لا يعتقد، لكنه إيسن يول أراه المربع الفارغ. ماذا يمكنك أن تفعل كازي، يعرج أكثر من المعتاد، مقيدا الى المنزل. كان المالك قاتمة، ولكن لاشين كان مرحا. الطحن لبعد عاصفة ثلجية، وقال انه كان يعمل في دوائر منظمة الصحة العالمية لو استضافة مرتين أو ثلاث مرات في الثلج. زرعت الحبوب النادرة من السماء. لذلك، في المساء سوف الثلج، وغدا أنها لن تجلس في المنزل.

بدا كازي لتخمين ما كان يأمل في السلوقي. قاد حصانه إلى الربيع إلى الربيع، ثم ربطها بسياج من الصوف، وحمل ذراعا من التبن المجوف. وانا ذاهب الى الحظائر، في حين أجريت من أجل سرج مع ملحقاتها. وتول كو عندما الشموس الأرجواني والأحمر ضعيفة من خلال الغيوم المنخفضة، واختفي في الأفق، إدخالها لاشين المنزل.

كانت الغرفة الشفق. رمى كازي والأحذية، وآخر رفع عند المدخل، إزالة أطقم الأسنان له، كالعادة، يشق تحت السرير. ووضع أمام الموقد، وسادة على رأس سورماكي، على بطانية مطوية في نصف. يقع الكلب عند أقدام المالك. نافذة هو طوف أنه تأخر ظلام الليل، والزحف الى داخل المنزل من خلال الزجاج. فقط وهج النار، مع اثارة ضجة وشي الغناء آكلة روث تحت موقد من الحديد الزهر، والي على الجدران والسقف المنخفض. رياح عاصفة تنفخ في الأنابيب، في بعض الأحيان قاد النيران في الداخل، وأنه هو أنت تغلب على الألسنة الحادة بسبب صمام الفرن. ثم للحظة كانت الإضاءة مضاءة وبصورة حادة. بور زوي رأى مالك، لا تزال قاتمة، والصمت نيويورك تقع، شارب عيون الزاوية توق.

روث في فرن حرق تدريجيا، وتحول في يوم سحب الفحم الرماد رمادي، الظلام حوالي مئة سمكا. فقط موقد حديد ملتهب تحت غلاية كازان تألق عابس إطلاع الحمى القرمزية. اللحوم المطبوخة مرجل لاشين مدغدغ الخياشيم لمواكبة رائحة لحوم الخيل، والسذج الحلو جذبه رأسها .... ولكن وقفت صاحب فجأة، والقفز على ساق واحدة، اختبأ في الغرفة المجاورة. عاد مع دومبرا في يديه. إعادة يجلس بجانب الموقد، وجلس وكان صامتا – وبدأ بالعزف غريبة، يسمع الهيدروكلوريك لاشين يزال لحن.

ضرب أصابعه السلاسل، كما انها كانت حذرة لكن لمس بالكاد، عد لهم. ركض صرخة الرعب، لسبب ما، في الكلب من خلال الجسم. حزين، غريب، ليست واضحة، وليس صحيحا الروح – والحزن كما لو كان في

انتظار شيء ما. قدم لاشين المسلك مع العشب الأخضر المتداول، وأعلى التلال، والسهوب الصفراء المحروقة في الشمس. وإذا كانت تشق طريقها إلى صاحب مرج، ثم تدحرجت ريدج لانهائية محدودة، بعد التلال، والتسرع في النيوجين السهوب واسعة. ضربات باردة من السماء الزرقاء الساطعة، خبب الحصان بسلاسة ومرحة. تجعيد الشعر الناعم نباح الغزل من تحت حافر وعلى الفور تبدد، كما لو حلت في الهواء. لا يوجد رقم في أعقاب الوحوش البرية في كل مكان. لكنهم جميعًا يذهبون مباشرة ومستقيمة، ولا يهتمون بها. كم عدد الروائح! يقود لاشين أنفه، ويمسك برائحة زهور الحقل، ورائحة الشيح، وعشب الريش، ورائحة المخلوقات المألوفة وغير المألوفة. هرعت من أسفل تحت الشجيرة في الخوف، وهناك، تحت جذع بني اللون من المروج، تربى الثعلب .... ولكن الإثارة الصيد المتعثرة في السلوقي: أنها تندفع إلى الثعلب، لا تمزق ، لا خنق، سحق على الأرض. لا. واحد للموحد – هبوب الغرض كوم القبض على له المتحدة واحدة الحلم النهائي .... ما هو هذا الشعور، ما هو الحلم – لاشين نفسه لا يعرف. يتم استبدال الممرات والتلال مرارا وتكرارا من خلال ممرات وتلال جديدة، السهوب الصفراء لا يوجد لديه حافة .... ويسعون، مع المالك، إلى المضي قدما .... وفجأة – انتهت النهاية. غير قادر على التقاط أنفاسه، ذهب المالك، وخنق في السعال. كسر أغنية دونغ بولا .... توغلت الباب وتحيط بها فاترة سحابة ظهر كاميلا. يبدو أنها مرت، وترتب الماشية ليلاً، ولم يكن لدى الباب حتى وقت لإغلاقها، كما سمع تذمرها. عقد كازي السعال في صدره، والتنفس مع صفير، وأغلق فمه مغلقا. كاميلا لا يزال التذمر، أقلعت على رداء المدى، جلس على جوهر النقطة، يد ممدودة إلى لوحة المزاريب مع قليل من الفرح، ثم أشعل مصباح الهيدروكلوريك تحت انتقل إلى مائدة مستديرة كازا، تنتشر على مفرش المائدة. المصباح الذي أدخله على الطاولة أقرب إلى الباب، وهو نفسه، أخذ الألم بدأ الحذاء، مع الطبق نصف المضلع والمصفاة، في إخراج اللحم من المرجل.

المالك، والحصان لقطع اللحوم، ألقى وزارة الدهنية السلوقي الصحة العظام. نجت منه قطعة من اللحم – بحجم كاميرا الأطفال. كاميلا طعن مستنكف. حتى الآن، صمت كازي، صقل فقرة أمام زوجته، مغطاة باللحم على إصبع جيد. كاميلا ، ومع ذلك، لا أوتسي نيلا هذا ثم هز بغضب عن شيء. لم يتم إغلاق لها صغير، كشتبان والفم وردية، يونيو ناي التلاميذ الرائعة يبدو تثير لطيف بارز وجه مظلمة. النظر اليها من وجهة نظري زاوية والبورون زوي قد لا تكون قادرة على التمتع الكامل. شيء مشموم رائحته منه، خوفًا من ريح باردة تلمس القائد رأسه .... هدأ قليلا فقط عندما تلفظ كاميلا قليلا وتوفيت. بدأ المالك وزوجته في تناول الطعام، ولكن كلاهما كانا قلقين. اشتعلت لاشين على الطاير عظام ألقيت له ....

إيه، حتى ذلك الوقت غير السعيد، تذكر، سوف تبدو لاشينا تحسد عليه ....

8

في الصباح التالي، في وقت مبكر من الجرح، عندما غادرت أخذ غفوة قبل الفجر، نهضوا مع المالك، وبدا بالكاد في الشرق، انطلقوا. تساقط الثلوج لفترة وجيزة را الليل، فجر الرياح في المناطق المنخفضة، والآن على خلفية طويلة الأمد، والقشرة المظلمة التي تغطي جميع السهوب نهاية إلى نهاية، وقال انه بلغ بقع بيضاء ميل. بدا المتكأ وواضح، كما لو صنع من بقع قذرة. من قبل الفجر منظمة الصحة العالمية الباردة روح أصبح من الصعب وحادة كما شفرة الصلب. ومثل نهر جليدي في يوم عاصف، الغيبوبة في الصمت الثقيل للسهوب، لم يكن هناك سهوب مع كتل من التلال القرفصاء، التلال المتكسرة من التلال، ولم يكن هناك شيء حول ذلك كان يرضي العين، باستثناء الشجيرات النادرة من المروج هنا وهناك. ولكن إما من البرد، أو من مشاجرة المعارك الدموية، فإن جسم السلوقي بأكمله، بمجرد مغادرتهم المنزل، اخترقت قشعريرة طفيفة.

أول تركت وراءها. جاء لاشين تدريجياً إلى رشده، وأصبح رحلته أكثر حيوية وأسرع. انتقل يحدق دي المضيفة، على مسافة لاسو، والتهرب إلى اليمين وإلى اليسار، الزور إلى نظرة عابرة حولها. أدرك كازي أنها لم تكن مهمة سهلة في مثل هذا اليوم لمهاجمة الثعلب والقبض عليه، ولكنها مع ذلك كانت تأمل حظًا سعيدًا. ربما يكون الحظ محظوظًا، والقضية، كما يقولون، ستضيف إلى سرج السرج ....

وراء، وفصل من الأفق منذ فترة طويلة، مثل الكتان التي تلقي بظلالها، ظهرت الشمس. وكان دائرة كبيرة و لوي، أثبتت بمثابة الغطاء، والأحمر كما حديد ملتهب في النار. شعاعها، يمتد في كل الاتجاهات، وليس مع الدفء بدا، والسماء والأرض، وأضاف البرد. ومع ذلك فقد تغير العالم. الميت، تنفس الصعداء السهوب تحجرت وعلى قيد الحياة. إذا كان جانب الظل من التلال المغطاة بالثلج لا يزال مظلما، ينذر بالسوء، ثم بدأت الشمس للعب، تومض مع البريق الوردي الوردي. حسنا، حيث الثلوج المتراكمة قد انخفض في اليوم السابق، البوتاسيوم الفضة النقية.

وفي وقت لاحق، عندما الظلال القاتمة هي مدة أقصر وأشرقت، كما لو ذاب في سمك السلور الأرنب الثلوج اندفعت إلى الأمام. كان الطريق بعيداً عنه، ولكن الكفوف كانت بالفعل الغمغمة المتواصلة لفترة طويلة، وعلى الرغم من الأرنب، حساس الخطر، ثم اندفعت المنحدر، واندفع الكلب خلفه. بالوتيرة التي أخذها، واستغرق وقتا طويلا للحصول على أقرب إلى زي تشو. كازي، مما دفع اكتناز، ولا شك، أن مجرد شمال شرق والحلق الأرنب، رشها على قرمزي الدم الثلج، والتقاط الذبيحة من رجليه الخلفيتين البيضاء إلى مقعده. ربما لاشين يتصور الشيء نفسه .... ولكن خلاف ذلك. الأرنب، سمع وراءه أزمة متنامية من الثلج، طار مثل سهم. وضعت لاشين لخداع تسا، ولكن لم تقل المسافة بينهما. كل واحد منكما سكوتش على ممهدة في مساحة الشقة

من الهضبة. ولكن بغض النظر عن كيف صدمت الرياح له، وكان الثلج لا يزال هنا. هير ثم كان واقفا، والكلب في ذلك فشل بين الحين والآخر. رأى لاشين: الأرنب ببطء ولكن بثبات الابتعاد عنه ....

وقال انه في حياته الصيد الجائر كما الثعالب والأرانب البرية، والتي يتم تعلمها جيدا: حيوانات مختلفة – وخمسة ليست قادرة على الصيام تشغيل لعوب فقدت، ولكن لأن في نهاية المطاف وقررت كل شيء ليس فقط من خلال وثيقة أو بعيد بدأ مطاردة المسافة. هذا الأرنب الأبيض طويل القدم، والذي بدأ بالفعل في التلاشي من ذيله – كان ذيله أغمق بشكل ملحوظ من جسمه – وقد برز بوضوح بين زملائه. ثم تجمع في حفنة، ثم انتشر على الأرض – وسار حتى لا تستطيع أي روح حية أن تستمر. لكن فخر الكلب، الذي لم يكن يعرف الهزيمة، لم يكن ليعطي لاشينا معرفة نفسه كشخص مهزوم. اين هناك! عاجلا أم آجلا، وأدرك أنه ومنحرف، تيتوس، القناة الهضمية .... وحاول لبسلاسة، والدم من شيطان أعطى الأسلاف العددي له الحماس، سعى فقط ألا يغيب عن الأفق من الأرنب.

صعود صعود وديل لديل .... من شدة تيو على لم يصب قدميه، ولكن لا تعطي لاشين. وأخيرا، عندما شمال شرق متضخمة وشغل لهم المنخفضة مساحيق الثلوج وبدأت مرة أخرى لتسلق أعلى التل، لاشين احظت أن الأرنب من كل شيء على مسافة لاسو. والجري ليس حاذق كما كان من قبل. وآذانه الطويلة تتدلى مع التعب .... الكلب المتوترة، جمعت قوته الأخيرة، وهرع إلى الأمام. لكن الأرنب، المحموم بالخوف، قفز أولاً إلى الممر. قفز – وذهب ري إلى حيث الشجيرات السوداء من كانت اسوداد. الكلب تان جلد فقط مع أسنانه عندما رأى الغوص الأبيض الغوص في الغشاء. قام بورزوي بالجلد عبر الفروع المجمدة، وبالكاد تمكن من خوضها. في هذه الأثناء، هرب الأرنب الرشيق أخيرًا منه واختفي دون أن يترك أثراً. تماما – لأن داخل غابة كاراغان، التي امتدت على طول المنحدر كما العين يمكن أن نرى، كان تعيين مجموعة من مسارات أرنب، متشابكة، المتعرج، المتقاطعة ، لنجد بينهم الحقيقية الوحيدة لم يكن ممكنا. لاشين، واللسان شنقا، يلهث، فقدت ولكن حثت على جانب واحد، ثم من جهة أخرى، أدرك أنه فقد منذ فترة طويلة ذو أذنين، وتعود الى الوراء.

قاد كازي، في معطف من الفرو مع أقلام تحلق في الريح، حصانًا محترقًا على طول طريق لاشين. رؤية الكلاب السلوقية، وقال انه قفز من السرج، برعونة في الهواء كوي. بادئ ذي بدء، نظر بعناية في الكلب، وفحص كمامة، والفم، والتنفس الصدر متحمس. لم تلاحظ فلو ترشّ بالدم على صوف أبيض. كيف كان ذلك؟ ... لم يكن منزعج كثيرا كما فوجئت. حتى الآن، كان كازي يعتقد أنه لن يكون هناك وحش يفتقده كلبه. ولعل المشكلة هي في لصق، مع تغطية الحالي الثلوج وكسر تحت وطأة السلوقي ....

الموسم، عندما اصطياد حارس، قد مرت بالفعل. ولكن وفقا للإشارات، التي يعتقد فيها أحد الأشخاص، من لا يفعل ذلك، إذا اجتمع أحدهم في طريق الخروج من المنزل، فينبغي بالتأكيد مطارده. خلاف ذلك، فإن مطاردة ذلك اليوم سوف تكون ناجحة، وفي اليوم التالي لا يكاد يأتي أي شيء يستحق العناء .... حسنا، لماذا تهتم؟ فحص كازي الكفوف الكلب. كانت سليمة، فقط الكلب بدا وعيناه بدت بشكل خاطئ، بصراحة. انه

عرق وغارق في الرقبة والجانبين، وتحت النضوج. في بعض الأماكن، والصوف المعهد الوطني للإحصاء يرتب عليه. كان كازي ينفض عن معطف الفرو من جلود التنورة، وينثره على الثلج ويلف الكلب. ثم أخذ من مكان ما قطعة الأصفر من الدهون الأغنام ووضع فم الكلب.

عندما حان الوقت ما يكفي لحلب واحدة مثقلة حصانه وحوله في اتجاه القرية. ما دي خطوط الطول، واضطررت الى أن تتصالح مع حقيقة أن اليوم أنهم ليسوا محظوظين .... ولكن لاشين الفكر الواضح على خلاف ذلك. القوات التي استعادها، كان لديه وقت للراحة. بورزوي على كوم ذهب إلى الأمام وتجوب، وتحول إلى اليمين وإلى اليسار، والبحث بدقة درب. ومع ذلك، من دون شارب. وهكذا، انتقلوا لفترة طويلة قبل أن يصلوا إلى الهضبة الواسعة. الأغنام ترعى هنا. قشرة صلبة من الصقيع هنا وهناك حول بعض الشيء مخالب حادة، المراوغة الثلوج الحبيبية ن الأراضي والضحلة الجليد كوي. غرقت، وإطعام الشمس والأغنام الظلام الكريات. في مكان ما والي، انحنت تحت الريح، متناثرة، شفرة توقف من العشب، والناجين من غزو العديد من قطعان.

و-السلوقي المراعي يبدو تماما أن يكون فقدت الأمل في العثور على أي أثر، لمست على الفور وجود رائحة. كانت الرائحة طازجة، الوحش، على ما يبدو، مرت للتو هنا. ثور لاشين على الفور، واستنشق وسقط على الفور على درب. العادية الكلب درب الدبابير الثلوج، خففت حوافر الغنم. لكن الرائحة .... لا، بالطبع ليس هذا هو الأرنب. وليس ثعلب. طباعة كبيرة جدًا .... هذا هو العدو. نعم، العدو .... كان الكلب متحمسًا. غضب الأخير يرتبط مع فقدان الأرنب ختم مرة أخرى خنزير في ذلك. من طرف الأذنين إلى الذيل، ركض هزة حادة من خلال جسم لاشين، وقفت الفرو على الظهر عند النهاية. وقد وقفت قليلا ، كما لو كان تهدئة نفسه، دفعت السلوقي إلى الأمام.

كان العدو - ولاشين، اللذان لم يعرفان من هو، قد ظن أنهما كانا عدو - بعد السرب الذي انتشر عبر المراعي. كان لاشين يصرخ، وليس على عجل حتى لا يخسر دربه. عندما وصلت الى الممر، ظهرت كيلومتر واحد ونصف مرقش، الحديد عشر بقع بيضاء منتشرة بشكل غير مباشر شاقة القطيع. هنا، على امتداد الأغنام بين تيم مكان ما شجيرات من المروج وقفت بالفعل في الثلج إذابة. وكان ينظر إليه باعتباره الراعي، الاشتراكية على المنحدر الآخر من الملل مسليا من حقيقة أن مجموع كومة من الحجارة. كان حصانه، مع ساقيه المتشابكة، يقرص في الجزء السفلي من الأعشاب في العام الماضي ....

فجأة، أمام من لاشين لاحظت تزايد شعار الكلب الرمادي. سوف تتوقف وراء بعض الحافة أو الرابية. كما لو أن دفن .... المعنويات قفزت في نباح السلوقي - وهو شديد، بشدة - الصمت الجليدية قطع. مرتين أو ثلاث مرات أعطى لاشين صوتًا، و- لم يحدث هذا أبدًا- توالت على طول المنحدر. في مكان ما وراءه جاء تحت المضيف الصراخ.

توقفت فجأة رمادي، بالكاد شعرت بالخطر، ثم تحولت في اتجاه التلال العالية. فإنه ربما الخلط ليس

فقط محرجا، من الصعب الراكض المسار، كلب، مفلس، كبيرة –في كثير من الأحيان ونظروا حولهم ياس في وجهها، وقال انه لا يمكن أن يساعد على إبطاء المدى. لم ينجح في الذهاب بعيدا، الكلب القبض عليه وراء التمريرة الأولى. صوت جلد كلب، ولاشين، يحس أن العدو يخاف منه، والتجاوز الرمادي، من خلال قوة العادة، مثل الثعلب، وقال انه غرق أسنانه في الفخذ. وأردت رميها في الهواء واقتحاميها بقوة على الأرض. لكن جراي كان كثير ليا لاشين مما كان متوقعا. وكان جسده قويًا وقويًا، وأعطى على الفور لاشينا نقطة أنه لم يكن من السهل أن ينحني تحته. فقط الحمار له رفت إلى انتزع لاشين جسد الذئب بأسنانه. وفي نفس اللحظة نقرت الأنياب الحادة على أذني لاشين. لكن جراي لم حساب، الدوران في المكان، ووصل ما يقرب جدا أن من شأنه أن الاستيلاء على الكلاب السلوقية في وجهه. عندما مرة أخرى، مع الحبر احمرت العيون، وضرب الكلب، وامض ابتسامة وأسنان بيضاء طويلة، وكان لاشين. ابتلاع الرمادي الهواء الفارغ، ولكن تمكن من بعقب من ميل الحديد في السلوقي. كان هناك هتاف – هذا صاح من قبل الحصان الراكض من كازا. غراي، تاركا وراءه درب من الدم، بدأ في الجري. هرع لاشين بعده، غاضب من حقيقة أنه لا يستطيع هزيمة وضرب الذئب في قتال. لكن في هذه المرة لم يكن العدو من الضعيف، فهم بالفعل. وأدركت أنه ليس هناك سوى سرعة ومراوغة نيس ساعدته على البقاء سالمين. ومع ذلك، لم يكن لديه خوف، ولكن المرتفع، أعطته المرارة القوة والشجاعة.

بعد أن قضمت السلوقي قشعريرة الموت حتى الموت، بدأ في البحث عن المعارك. لم يكن هناك راحة من لاشينا للكلاب التي رافقت أصحابها الذين جاءوا إلى القرية من منازل الشتاء المحيطة. سريع، رشيق، حاذق، كما يليق بكلب من سلالته، ساد لاشين على كلاب الحراسة التي لم تكن أقل شأنا منه في القوة. حدث وبوروزي جرب أنيابهم. ولكن من أي قتال، خرج في نهاية المطاف منتصرا. ومع دبابات مرة واحدة على الأقل لزيارة ضحيته أكثر نيكو نظم التوزيع العالمية لا غامر للنظر في القرية.

تذكر لاشين أن الانتصارات السابقة على المراقبات الأشعث قررت تطبيق تقنية مجربة ومختبرة. ويترتب دوف، الاستيلاء على لحظة، والاستيلاء على الذئب أسفل الأذن أو الحلق. الذئب، مستشعرا أنه لا يمكن أن ينقذ عن طريق الجري، لم يعد يأمل في قدميه. لقد رأى أن الفرصة الوحيدة للبقاء هي السيطرة على العدو في معركة دامية . أحرقت عيناه بنار قاتمة لا ترحم. الذئب والكلب، ومشاهدة أدنى حركة من بعضها البعض، وتعمل جنبا إلى جنب تقريبا، أنوف لمس تقريبا، ومئات من راياس اغتنام اللحظة المناسبة للهجوم. كانوا متقدمين على كازي، الذي تبعهم. وقفت وانتظرت: انه توقف فجأة على التوالي والمادة هرع فجأة إلى آشينو، من خلال القصور الذاتي واصل التحرك إلى الأمام. وهذا يكون مجرد التأكد من المن نيس انقاذ السلوقي – الذئب زيارتها إلى الاستيلاء عليه في جانب، وكنت المسيل للدموع قطعة من اللحم بين الضلوع، ن عن وفقط حول. الجرح الدم .... لاشين، ومع ذلك، لم تلاحظ ذلك في خضم المعركة. وبدا له هو أن النيران محروق الجانب، ولكن اختفي هذا الشعور على الفور، والحل هو في حالة من الغضب العارم، إلى ثريا تدور

رحاها الآن في حياته كل الوريد.

ومع ذلك لم يتسرعوا في الذئب. الذئب، مع كل نفس قاتمة، النار لا ترحم في عينيه، رمح في الكلب، والإجهاد من المجمدة، بلا حراك. ولم يصنع أحد ولا الآخر صوتًا - لم يسمع أي نباح أو هدير. نجا فقط من التنفس السريع من فم الذئب والأسنان النقر عليها، والاستيلاء على الهواء.

انتظر لاشين. كان كافيا بالنسبة له للقبض على الذئب في التحرك الخطأ الوحيد من أجل إنهاء المعركة برمية ساحقة. كل شيء تقرره التعرض ....

وانتظر له. الذئب، واعتبرت أنه من الكثير الكلب أوديت في الواقع، فقد تورب التاسع والحذر. رعشة .... ولكن لاشين تهرب بمهارة والإخلال بأحكام في كتابه الأحمر هرعت الى الذئب. استهدف الحلق. لكن أحصيت التخييم -تشبث عنق سميكة كبيرة. لكنه التمسك القتلى. دخلت أسنانه في جسم الذئب. حاول الذئب أيضا للاستيلاء على الكتف الكلب، ولكن أسنان فقط في سودرا هل رفرف من الجلد مغطاة الشعر على نحو سلس. لاشين حول تواصل حفر أعمق الأنياب، تعتزم تحويل رقبة الذئب ويشق الوحش على الأرض. ومع ذلك، فهو ليس تحت -أعطيت. وكانت الرقبة العضلية قوية، ويبدو أن الأنياب قد نمت فيه وتصلبت. ولكن لاشين شعرت لفترة طويلة الذئب في وضع يمكنها من عقد شمال شرق، وبعنف راي الحصول تحاول قرب فكيه. لكنها لن تتخلى استراحة .... فجأة جئت وراء الحوافر الخيول والمضيف صوت. الذئب يستريح في الأرض بكل جروح الكفوف، وضعف قليلا، انتقل، ولاشين، والشعور ولكن دفعة من الطاقة، وتحول الوحش رقبته في لحظة. سقط الذئب، خدش في الهواء. ومع ذلك لم يستسلم، وحاول النهوض، ودفع السلوقي من نفسه، وحلقت كتل من الثلج الممزوج بالأرض من تحت أقدامه .

لكن في هذا الوقت، الغمغ إلى نفسه باليود "أنف الله" أو شيء من هذا القبيل، فإنه سرعان ما انزلق من الحصان أكثر من القفز من كازي . تعثر وسقط على المدى، انتزع سكين صيد واسعة من سلالته وخفض الذئب عبر البطن.

واضطررت إلى وضع نهاية للقبضة في السلوقي في الفم، بحيث يتم فتح الفكين، التي سويت بالأرض . على الجانب لاشين وكان هناك جرح، كانت كبيرة جدا، ولكن ليس خطيرا جديد: على حواف من الجلد قد مزق، انسحبت خصلة من اللحوم .... تلتئم. والجروح الموجودة على الصدر، على شفرات الكتف - لذا، الخدوش البسيطة، ستشفي في خمسة أو ستة أيام. كان كازي سعيدًا لأنه نجح في إيقاف الدم الذي كان ينزف من جسم الكلب.

وفي الواقع، انتعش لاشين قريبا. ومع ذلك، والدكتور على إلى جانبه، وأخيرا كانت حجم كف، منذ فترة طويلة، ولكن ندبة متضخمة .... ولكن قضاء، الذي نظام تقييم الأداء الصيد الرياح الباردة، خرجوا إلى سريره.

9

بدأ ذوبان الثلوج في الصحراء لتكون خضراء، والسماء، والكلمات ولكن تحركت بعيدا في عمق واتساع. نزلت أسرة كازي بالعربة القديمة المجففة يورت شعر، إلى ثريا منذ فترة طويلة المخزنة في السقيفة، وكان يعلق على سلسلة من الإبل مع نفس الأمتعة وتوجهت نحو على القش. بواسطة ويورت الأحمر انتقلت تحت سلطة زوجته إيسيجول- لدغ أيسولو. كازي لا يخل لو. يشعر بأن المرض يتغلب، فضل أن يعيش حياة هادئة، لا أن يلعب خجلا ويشرب كوميس طازج من حصانه الخاص.

إن صنع القشّة هو ما يسمى بخمس أو ست يورات، حيث يعيش مربي الماشية، الذين اضطروا إلى تحضير التبن والعلف للقطيع الجماعي. وتم توزيع الأغنام، التي يرعونها بأنفسهم، في الصيف على قطعان مجاورة. ولذلك، كل حد ذاتها اثنين أو ثلاثة كلاب اليسار المحروم بصفة مؤقتة من المعتاد الكثير من الطبقات. وكان العديد منهم ساحة بسيط كوبي لي، ولكن كانت هناك أيضا نادرة نصف سلالة. لى بعد وتبين ان معارفه لاشين، وليس مجرد الحصول على توبيخ منه، مع بقية - في نفس الترتيب - والآن اجتمع عليه. المضيفين غالبا ما يشفع للعض من قبل على دبابة وجاء إلى مشاجرة، ولكن ليس لفضيحة إساءة معاملة من هذا القبيل ولكن مثل ما حدث في الشتاء بين كازا وإزنزول. الكلاب - ولُديهم كلاب، سواء بسببها إهانة بعضهم البعض ... وبعد كل تسويتها على ، مرة واحدة في المساء تعميق سومر كاه على وسرعة عالية في أربع، التي انتقلت من تلقاء نفسه، إلى قرية توالت ثلاثة غرباء في الأفق لاشين يرتدون ملابس غريبة جدا، ودون تأخير ياس فترة طويلة، واستغرق معهم كازي. لاشين، ومع ذلك، ليس في إعطاء قيمة لهذا الحدث. وكان في مقتبل العمر، في نضج المسام عندما افترقنا أمامه لأول مرة ليس غير مستكشفة والتي أدت إلى عالم المشاعر، والتي تصل إلى ذلك الوقت انه ليس لديه فكرة. والسبب كله ل لا الكلبة - نصف سلالة يدعى أوشار. من الوقت الذي دخلت فيه شبق، تبعها كل الذكور في أعقابهم.

وذلك عندما معارك دامية يغلي! ... لاشين وراء وغالبا ما تترك وحدها، وليس أنه مجرد حدث أن يقف ضد حزمة كاملة من الكلاب الغاضبة! خصلات الصوف حلقت، وإلا، وحجم من العمر سنة واحدة، حرموا الكلاب أشعث من الأذن، فر آخرون من أرض المعركة، والنزيف، ولكن أيضا لاشين طويلة ثم لعق الجروح العميقة. ومع ذلك، بعد التغلب على المنافسين، بقي المالك الوحيد لأوشار الجميلة. الكلاب الأخرى، نظرة عابرة كما أنها ممتعة، فقط تحلق في المسافة، دون المخاطرة لمنعها. لكنه لم يغني السلوقي للاستمتاع الكامل بالاحتفال، كما هو الحال مع اللاعبين الآخرين جاء عادل في العطلة الصيفية. وأول شيء فعله كان مشتتًا بعصا الكلاب الأخرى، وأخذ لاشيب من الياقة. في أدى إلى يورت وربطها إلى العتبة على الرسن الشعر. بور زوي، على الرغم من أن ظهور مجموعة سعيدة صغيرة، ولكن مثل هذا العمل لا يمكن أن يوافق. ومع ذلك، فإن

أيا من الحزينة لم ينبح أو لا يهدأ لا تلمس عادل. أفرج عن الكلب فقط عندما هدأت كل مشاعر الكلب في القرية. تغير عادل بعدة طرق. وبطبيعة الحال، فقد كبر سنه على مدار السنة، فدفعت انفجاراته إلى جبهته، لكن الشيء الرئيسي هو أنه أصبح أكثر جدية بالنسبة لعمره. وقال بعض الشيء في جميع أنحاء محاكمة ل تذهب إلى الكبار. اللعب مع الأطفال من القرية ليس في الآخرين جذبت. كان هناك حوالي 12 كتابًا سميكًا ورفيعًا في اليورت، وأخذها عادل، كل منها بدوره. على واحد نفسه ولا جزء - وقرأت عن نفسي، ن بصوت عال معك التعبيرات. وعندما يليها يورت بصوت واضح عدي تأرجح باب مفتوح على مصراعيه من ضربة خفيفة من موظفيه، وكان يورت جزء عمر القديم، الذي انتقل مع كازي على والخلفية إلخ بالوكالة هو جديلة.

كانت تقع على المرجع مزق، مدسوسة تحته قدماه، والاستماع إلى الطفل وسأل:

- أي نوع من الأبطال تقرأ -ما هو اسمه؟

- ألباميس.

- ذكي، حمامة .... وحيد ويقول الله -اللائحة العامة. هو أيضا، كان الوحيد مع والده وأمه، مثلك. لم يحترق في النار، ولم يغرق في الماء، ولم يأخذ سهما ولم يقطع سيفه، وسار لوحده ضد الآلاف من الجنود، لأنه كان شجاعا، شجاعا، لم يكن يعرف الخوف. لم يعد هناك مثل هؤلاء الباتر بعد الآن، لقد مروا .... وليس هناك قوة في الإنسان. لكن هناك معرفة، كتب حكيمة - تعطي شخصًا قوة، قوة، وهي تمنح جناحيه، وتعطي قلب الأسد، وتضيء نجمًا في الصدر. تعلم، حمامة. سوف يبتسم لك القدر - تصبح جيغيت حقيقية، رجل جدير . استعد لهذا اليوم واحرص على عدم المجيء إليه بأي شيء. تعلم. سوف تتعلم أيضا - سوف تحقق كل ما تريد.

وكلاهما صامتان، يفكران. أخيرا يقول عمر:

- والآن، آديلجان ، احترام الرجل العجوز، اقرأ ....

يحدث كل يوم تقريبا.

في بعض الأحيان يأخذ عادل، وفي الصيف الماضي، لاشين ومعه ويتركه بعيداً عن القرية. لكن الصورة القفز فوق الحفر العداد والشجيرات، وليس التلويح الصفصاف هو في حالة فرار، يصرخ في بأعلى صوته، لا يستمع إلى أصداء التي ترجع بصوت يعكس التلال، وليس الكذب والرياضية، في العشب الخصبة. يرى بعض التل فوق - تسلق على ذلك، يجلس على حجر ويجلس في صمت تبحث في طريق متعرج، مهد بواسطة عجلات السهوب وعرة ر تختفي في الأفق. نسيم ثابت يهب، يتحرك بانفجار قصير على جبينه. في مثل هذه الأوقات، النعيم لاشين، ونعلق الدير ومنزل مع عادل، على بعض الحجارة المغطاة الطحلب، استبدال، مثل الصبي الصغير، التنفس في الصدر، السهوب، ورفع درجة حرارة ظهرك في الشمس.

في الوقت الذي بدأوا فيه تذويب أطراف العشب، عاد كازي إلى القرية بعد ظهر أحد الأيام، مع بيكالي، الذي كان يغادر إلى مركز المقاطعة. قراءة العادل عمر العمر الكتاب وخرج للتو وما إلى ذلك المكان في قصيدة عن عير-تارغ ليس عندما باتير والتشويه، وألقيت سورو في تقع في جبال بولغار.... سماع أصوات سوء تشيك

نفد خيمة. الأب، الذي كان قد ترجل للتو، وعانقه، وعادل بكى، ودفن وجهه في الآباء كال الصدر.
في المساء، تجمع القرية بأكملها في اليورت. وكان الجميع مبتهجين، وخاصة عمر. قاد كيم بجد للحفاظ على درجة، لائقة الحكمة مو الحياة. ولكن بمجرد دخول ضيف جديد إلى الخيمة، التفت إلى كازا وبصوت عال، حتى يتمكن الجميع من سماع ما يلي:
- الانحناء صحيح، نعم ق كسر .... لا، ليس في حكاية باطلة لنا هذه الكلمات ... إذا كنت آمنة وسليمة في الوطن، وحصلت على التخلص من ويلات، لذلك ليس هناك عدالة في أوروبا الوسطى والشرقية! تلك. يمكن أن يرى، سمع الله عادل ووالدته. هو الخالق، وجميع رحماء على كل شيء! - ووضعت عمر على مقطوع شفة مخضر، ثم مرة أخرى أنه أخرج، وتذكر في نفس المصاعب القديمة التي سقطت حصة تعميم الوصول إلى الخدمات للشعب، وكل شيء ليس طويلا الحرب الرهيبة، ومرة أخرى شكر الله على حقيقة أن كل هذه المشاكل هي وراءنا.
حسنا، وقال غازي أكثر قليلاً... تسقيف إلى عادل الضغط على صدره، القوية فقط شعره، تكدرت بإعادة تنمية على جبهته الصيف. في بعض الأحيان بدأ كازا في خنق السعال، وبعد ذلك أصبح من المؤلم النظر إليه .... لقد تغير كثيرًا في مظهره، وانحنى عليه، وتحول شاحبًا. واترك الشارب الاسود. ذهبوا إليه، ولكن يبدو أنهم أكدوا أكثر على رقة الوجه.
لم يتعافى كازي من مرضهم بعد عودته. عندما القرية، وتغيير موقف للسيارات، وانتقل الى سوق-بولاك - جيلي ، تطرق خدها على حبيبي، الذي لم يكن مقدرا أن يرتفع كان. توفي في منتصف الليل. في تلك الأيام من سوق-بولاك هطول الامطار، توقف العمل في مجال جميع البالغين لنا كنا في المنزل. بالقرب من موقف للسيارات، والذي يقع في التخييم القرية، على رأس تلة منحدرة بلطف، وأقل بقليل من ذوي القربى كا الناشئة عن الخانق، نقوم بحفر عمق القبر في النمو البشري. كما هو معتاد، لا تأخير لفترة طويلة احتفلوا للمتوفى، وفي اليوم التالي عند الفجر خيانة الجسد الميت على الأرض. لم يكن هناك شخص لا يبكي. في عمر القديمة، اندلع صوت يرتجف عندما قرأ صلاة القداس. فقط عادل وقف الكلام، شاحب و. عندما ينزل الجسد ملفوفاً في السافان الأبيض في القبر، تصبح عيناه رطبة. وعندما دفعه الشيوخ، حصد حفنة من الأرض السوداء الرطبة، وألقى بها في القبر، ومن دون انتظار انتهاء الجنازة، غادر.
عندما لم يستيقظ صاحبه في فراشه في المساء، لم يستيقظ في الصباح، لم يكن الأمر مزعجًا بالنسبة إلى لاشين. وعندما تم اقتياده ودفنه في الأرض، لم يكن لاشين يشعر بالقلق بشكل خاص. هل هناك أي شيء غير مفهوم في حياة الإنسان؟ سوف ينام المالك جيداً ويستيقظ، ويستيقظ من النوم، ويعود إلى المنزل. بعد كل شيء، قبل أن يغادر، غادر دائما، لكنه عاد دائما. وهذه المرة لم يذهب بعيدا على الإطلاق. انها تقع خلف الطريق. وليس نيا الارتفاع غدا ....
ومع ذلك، كلما كان الكلب السلوقي لا يزال لديه ركام كبير، كلما ازداد الاكتئاب لروحه. شيء غامض قد

جعله يستمر. ما هو ذلك على غرار الخوف –ماذا لو الودائع المالك لفترة طويلة، فارغ فجأة، من دون أي من المنزل، كما حدث في الصيف، عندما خسر بقدر ثلاثة أشهر .... تذكر طن من الوقت لاشين شعر م نظام التشغيل وحيدا، التخلي عنها. وعندما غادر عمر، خمسة أطفال أو ستة أطفال على طرف الثور، الذين كانوا يحكمون المدرسة، غادروا القرية، تبعهم السلوقي. مهما حاول عادل إجباره، فإن الكلب لم يقف. وعندها فقط عاد، عندما الصفصاف مع عربة، أطلقت حجر في وجهه.

شعر لاشين بالإهانة، وأساء دون أي شعور بالذنب .... شعر بذلك. لكن، بالطبع، كان من الصعب الوصول إليه ليفهم أن عادل، الذي كان يغادر في أرباع هزّة من علاء لا، كان الشخص الوحيد في العالم.

10

لا يزال كازي يسقط على قمة الهبوط. ينام دون الاستيقاظ. دون محاولة النظر إليها مرة واحدة. في هذه الأثناء، كانت الأوراق تتلاشى، والسماء أصبحت قاتمة، وقرية مجلس الشيوخ المتناثرة – الناس غادروا لأراضيهم الشتوية. كما عادت كاميلا ولاش إلى مزرعتهما. | وبينما كان كازا يكمن في الأرض، ظل مستلقيا بالقرب من المعسكر القديم.

كان الفراغ في المنزل، في كل من غرفه الثلاث. كنت أرغب في الهرب دون النظر إلى الوراء، من غريب هذا الفراغ. ولكن في السهوب كان قاتما. الامطار. ومع ذلك، لا يمكن أن يطلق عليه المطر. لذا، فإنه يزعج ويهتز من الصباح إلى المساء، أبدا لمدة دقيقة. حتى لو صب المطر أسفل، ربما، أو في السماء ، ومن ثم رشها مع قطرات صغيرة، والمسافة بأكملها المستمر المن تشديد –. وسيتوقف المطر لفترة من الوقت – الرياح تهب، السخام، وثقب في العظام ....

الجو بارد انه حزين

وإلى جانب، والجوع، إذا كانت الحقيقة هي أن أقول. لاشين هو الآن كامل، كما فعلت. في بعض الأحيان، تنسى كاميلا ما إذا كان موجودًا في العالم أم لا. مرة واحدة، عندما السلوقي لتذكير نفسي، وأنا أصبحت في حيرة في بلدها الساقين، وقالت انها حتى ركل له، وهو الأمر الذي لم يسبق أن حدث من قبل. طردت، ابتعدت عني، كما لو أن بعض المتسولين .... حسنا، لم تعد تزعجها لاشين. وضعت و، كرة لولبية في الزاوية خلف الموقد، وطرح في مضيف الانتظار. حالما فتح الباب كما فورا من براثن رأسه، ولكن إلى بيت غريب يدخل جبين القرن. سوف تسمع أصوات الذكور خارج –سوف يقفز لاشين، يدفع الباب مفتوحا، يطير خارجا إلى الفناء .... لكنك لا تستطيع رؤية المضيف بين الناس يتحدثون.

كنت صبورًا، لكن لم أتمكن من التعايش معها، اعتاد لاشين على مثل هذه الحياة. كان الأمل الوحيد بالنسبة

له هو أن المالك سيعود.

مرة واحدة عند الغسق دخلت بيت ايززول. كاميلا ، وإعطاء ولكن حكيمة، قاتمة، مشرقا. في قازان، بولس السعرات الحرارية، و اللحوم المطبوخة. إيسينجول، عبور العتبة، قال شيئا، يضحك، وكأن شيئا لم يحدث كان يقع على الجبل. كاميلا على عجل تعيين الطاولة وبدأ لك يفرض على طبق لحم الضأن. تولى إيسينجول بسبب الأخدود مرحبا زجاجة بالماء واضحا أن وضعت على مفرش المائدة. عندما ضحك، له البثور الوجه التجاعيد، انكماش صغر في عدد قليل. بالكاد قبل إيسيشكول كان هناك صحن المنتهية ولايته مع البخار الحلو، لأنه في البداية ألقى كومة كاملة من العظام أمام لاشين. نعم لا - الدماغ، مع قطع اللحم لا قطع بسكين! لأول مرة منذ ع، كما عاد من جايلاو، يمكن أن يكون راضيا بما فيه الكفاية الكلب. واختفت الجريمة الشريرة التي عاشت في قلب لاشين، واختفت، وأعرب عن امتنانه للضيف على لطفه. الطعام لذيذ، وشغل فارغة قفص الاتهام لاشين الجسم كله استرخاء والهدوء، قانع، وبدأ الغفوة. بدا جفنيه عالقة معا، سقطت نائما.

ومن غير المعروف كم هو ينام قبل أن يستيقظ يبتسم من أنين غريب. لم يتم إطفاء المصباح. لا يتم إزالة الجدول. الطبق مع بعض اللحوم لا يزال قائما في صفوف الجدول، والقادمة -زجاجة مهجورة. لاشين واضح وا بدأت تغرق في سبات، ولكن سمعت نفس الأصوات. لقد فهم -هذا صوت كاميلا. جاء أنين من الغرفة المجاورة. يبدو أن أحدهم الاستحمام حتى امرأة، وقالت انها الإختناقات .... حلم ذهب في لحظة، والكلب قفز الرعاية الصحية الأولية عبر الطاولة، هرعت لنجدة. على ضوء مصباح يسقط من خلال باب مفتوح، رأى أن إيززول قد سحق كاميلا تحت سريره. هرع بورزوي إليه، سحب البطانية. بعد ذلك الأنياب الحادة ذهبت لثتي في الحمار الدهون عارية.

صدى صرخة يائسة من خلال المنزل. قفز كلاهما من السرير في الارتباك الرهيب. ولكن عندما والكلب إعادة ري على إيسينجول، كاميلا ، في برتقالي، بدلا من المساعدة، هاجم السلطة الفلسطينية نفسها لاشين. والحمر كاه لها في لحظة لم يكن هناك شيء، والكلب، والهدر، مع عيون محتقن بالدم، ويعتقد أن ينسحب. وأخيراً، أمسك كاميلا بعصا من كازا، وهو يقف عادة على سريره بجوار السرير، وركل كلبه في الشارع. للمرة الأولى في حياته، كان لاشين يقضي الليل في الفناء، وليس في منزله، تحت السقف، في الحر ....

منذ ذلك اليوم، عاش لاشين بطريقة سيئة للغاية. كان سلطانيته فارغة باستمرار. وكان لجعل القيام مع القمامة ميل المكب وأحيانا يجوع لمدة يومين أو ثلاثة أيام. لكن في الأيام الأكثر جوعًا لم يكن يُنظف، مثل بار داسوكو، من منزل إلى آخر، ولم يشم أي شيء صالح للأكل في الوحل البقعي. من الأفضل البحث عن الفئران حتى لا تموت من الجوع. مرة واحدة بالقرب من القرية كان محظوظا حتى القبض على الأرنب.

كان أصعب بكثير تحمل الطقس السيئ في الخريف. بحث بورزوي عن ملاذ ، حفر وقش، مكدس في كومة خلف الحظيرة. لكنها تحسنت كثيرا الكلب، الذي نشأ في أربعة جدران. خاصة في الصباح، عندما كان العشب الذي يبيض من حواف الصقيع والرياح الثاقبة ينفجر أكثر، كان السلوقي، الذي لا يعرف أين يذهبون،

يرتجف من جسده كله. حسنا، في المطر كان له، وضيق جدا. لاشين شارب على قيد الحياة تحت جدار من السقيفة اتجاه الريح وهكذا التقى الفجر. لا أحاول أن لا أنين أيا كان ذلك لديك لفتح الباب، مع العلم أنها لا تزال لم تلين.

شخص واحد فقط في قرية العطف إلى الكلاب السلوقية. قديم جراد البحر، قال مرة ان الكلب لكن يشعر الخارج، تحت سماء مفتوحة، جاء لاشين السيد وحمل إلى منزله. وتولى قيادة وقهر جيد ميت له. أمل عمر أن ينام السلوقي معه، لكنه لم يكن هناك. يبدو أن الكلب ينتظر فقط فتح الباب حتى يتسرب إلى الشارع. ومن ثم العودة إلى موقعه الأصلي، إلى sa الجنة.

ليس فقط مرة واحدة أو ن استأنفت البريد اثنين من عمر محاولاته، ولكن مع خزان وليس وقعوا في كبار السن. تناول الطعام – ومرة أخرى . كيف يمكن ذلك – فجأة سيعود سيد؟ ... كان لاشين الآن على استعداد لعدم الرجوع إليه خطوة واحدة. اركض خلفه أينما ذهب. فقط إذا لم تخسر مرة أخرى .... لكن المالك لم يظهر. الحالات الأيائل، وأحيانا بعد يوم، وأحيانا يومين أو ثلاثة أيام، وبعد منتصف الليل أو الظلام، هناك من هو الحذر ولكن استغلالها في جزء الإطار، وفتحت كاميلا. لأول مرة، السلوقي، واثق من أن الرجل الذي ظهر في مثل هذه الساعة في وقت غير مناسب هو سيده، قفز على الفور وركض إليه، لكنه رأى فقط مجرد الانزلاق في المنزل إيسينجول. قريبا، لا بصوت عال يطرق في النافذة والباب الخلفي الصلب صرير اشين المعتاد. بقي في حيه ولم يتحرك. الروح الى إيسينجول انه لم يضع يزال، والشعور بأن تدخله غير مناسب هنا، والكلب، لطيف من الطبيعة، رعت لها حتى مجيء استياء عميقا في الداخل.

مرة واحدة في منتصف الليل، سقط الثلج في رقائق. ليلة كنت أعطيت هادئ وكان أكثر دفئا من المعتاد. أمضى الكلب الراحل نصفها مستيقظا، ودفن نفسه في القش. وفتح عينيه، فقط عندما الآية مع شيء. كل شيء كان أبيض، أبيض. في الهواء النظيف الشفاف، كانت الخطوط العريضة للتلال واضحة بشكل مثير للدهشة، كما لو أنها تراجعت طوال الليل من القرية إلى مسافة بعيدة. وصل بورزوي خارج، وتمهيد على هز الجسم وصاخبة. ثم، والتنفس بعمق والهواء النقي هش، والقفز نا لي مرة واحدة، مرتين .... شيء استيقظ طويلة تصل فيه، ومشاكل لكني أردت أن أحضن نفسي، أحضن شخصاً ما .... ركض حول الفناء. جاء شخص إلى المنزل وليس على الفور، ولكن بعد حين خرج. آثار التي أدت إلى الباب، تمكنت من وضع على الثلج. نفسها التي امتدت من الفناء، من مطبوعة بشكل واضح، وحتى أنماط على باطن حذائه كانت مرئية. هذا هو إيسينجول. ومن المالك، على ما يبدو، لا يوجد حتى الآن أخبار ....

وقفت لاشين هناك، وتبحث في ملامح أعطى لينوي ريدج من التلال، ثم على مضض، كما لو كان ضد رغبته، بوتيرة بطيئة سار من القرية. على مشارف تأخير يتجمعون مرة أخرى وقفت. وحسمت بالفعل، دون النظر حولها، مباشرة في اتجاه سوق-بولاك.

11

وانخفض سطح الثلوج خلال الليل كان الفرقة التالية مجموعات من الحيوانات. هنا، كل شيء على مرأى ومسمع. الذي كان، متى، أين طريقه – لاشين مع حارة تبدو واضحة. هنا على ثلاثة أرجل قصر ذوبان عناق. اختفت آثار لها في مكان قريب، تحت شجيرة، المروج، إلى الخطوة من خلال مرة أخرى عشرة أو خمسة عشر في الثلج .... وفي الواقع، انهم على حق هناك. تلك في ابن عرس تحولت الصحيح. لكنها لا تحتاج لاشين a. الحيوانات الصغيرة، ما هو سعرها؟ ... حسنا، والأثر الذي يذهب إلى اعتراض هو النمس. وإن كانت صغيرة، وقوية ومتحركة، واليائسة – العاطفة! أحب سيده. هل فالو، يذهبون على درب من الثعلب، وتلبية النمس – لا تحولت له. لكن الآن لاشين في عجلة من أمرها. في وقت ما في وقت لاحق، جنبا إلى جنب مع المالك، سيكون هناك فرصة للذهاب إلى النمس ..... على الأرجح، ركضت بخفة، ولوح بذيلها، رقيق، لعوب .... مرت أيضا، وليس هناك حاجة لملاحقتها. وهذا الثعلب. حسنا، باركه الله، دعه يقفز. تكنولوجيا المعلومات مرة أخرى الثعلب. درب جديد، ركض مؤخرا. على درب من السهل تخمين – ذكر. أوه، والآن تزحف في مكان ما في الثلج، متلألئة في الشمس في لغة حمراء، ناري .... في مكان ما قريب، واحد أو اثنين من التلال تفصل بينهما. إنه لأمر مؤسف!

لكن لا، الروح لم تستطع الوقوف. السماح لاشين فقط على درب، ارتفع مجرد قمة الأولى وذهب في المسافة، لدفن الحافة، رأيت أن يزي إدارة أمن النقل يتجول حقا بين الشجيرات في الوادي.

هرع الكلب على الفور نحوها، وقطع قطريًا منحدرًا لطيفًا. وقبل الثعلب، واشتعلت على حين غرة، والاستماع إلى سرقة وخرجوا إلى عقبيه، وكان لاشين منها على مسافة ألقيت اسو. لم يدعها تذهب بعيدا وسحقت تحت قيادته.

لكن إليكم ما هو غريب. لم يكن الكلب لديه نفس الإثارة. لماذا مطاردة ثعلب؟ لماذا اشتعلت لها –لمن؟ ما هي الحاجة لقتل الحرائق؟ لم يكن يعرف. بلا حراك، ممدود بالكامل، الثعلب يكمن أمامه. قطرة من الدم انزلقت من أنفها إلى الثلج. بدا بورزوي حول – سواء الحيوانات الأليفة واحد بوبل سست؟ لا. لا احد على الرغم من أن ماذا يعني أي شخص؟ وماذا عن المضيف؟ بعد كل شيء، هو شيء قريب جدا .... ولاشين ، وتذكر ما سجن الصفر المنزل، لا تبدو حتى في أكثر من فرائسها و تسابق مرح يقفز طويلا –بولاق. كان يعرف أقصر الطرق. وبقيت لتتحرك، تتحرك ضيقة جوفاء، حافز حاد، متضخمة مع الكلباروز والأذن الشائكة.

إذا كنت في السلوقي جوفاء يبدو أن شخص ما مع مئات رون يراقبه. عاد لاشين إلى الوراء، لكنه لم ير أحدًا. ورأت شيء ينذر بالخطر،. دون توقف أبعد، ركض إلى الأمام. لكن الشعور غير السار، والقلق جاء مرة أخرى. لاشين ارتجف في كل مكان، نظر حوله بعصبية. لا، لا شيء كان يمكن أن نبهت انتباه .... ومع

مثل مالك الغامض الذي ليس واضحا، قوة خارقة للطبيعة تشديد يمسك له الباردة، وقبضة وحشية الحجم. أنها تمتد سواء لاشين من جميع الجهات – وقاسية، وغير مرئية .... بور زويتسارع وتيرة. حفز بالفعل مغطاة الشجيرات، من قبل زادي، ونحن الآن يجب أن ترتفع إلى مستوى بين التلال، وهناك بالفعل قريب من المضيف .... وفجأة لاشين لل إجراءات على أرض الواقع، فاجأ على حين غرة. مباشرة على عكس ذلك، متوكئا على صخرة رمادية، شخص كان واقفا. شخص، غامض، مع بقعة بدلا من الزيزفون، وخطوط جسمه كانت أيضا غير واضحة وغير مؤكدة. ولكن كان كازي – على رأس الثعلب توماك، ألقيت معطف النمس على كتفيه. يبدو أنه ينظر إلى لاشينا ويبتسم. ويدعو لنفسه – دون كلمة واحدة أو صوت، ولكن لاشينا تفهم كل شيء .... هرعت نباح بهيجة من فم الكلب، السلوقي، بعد أن تغلبت على الفضاء بقفزة واحدة وقفزت إلى المالك. لكن شيئا تشابك. وقد اختفي كازي. وأن يساء فهمها نوح ضغط لاشين من جميع الجهات نقطة الإنطلاق وحشية مقاعد البدلاء، وغرقت فجأة أسنانها في بلده الجبهة اليمنى لا بو، في المكان الذي ينمو الزند.

شخص ما من الرعاة الذين استمروا حتى الطقس البارد في ربما وضع فخًا على ذئب، وقد نسيت ذلك ....

12

استولى لاشين على الارتباك. ألقى بيأس – لم يتم إطلاق سراح الملزمة الحديد، وليس غير مندل. مرة أخرى – ولكن سحبت الوحيد للخروج من تحت والعتاد الحديد الثلوج المضمون إلى اعتراض أطوال نوح سلسلة الحديد. عبء ثقيل سحب مخلب له لزيم لو السلوقي، تحطمت التستر على المد والجزر الحجارة الثلوج. الزند متصدع، وكسر تعريف. الدم هرعت إلى عيني لاشين، وقال انه جلس وكي إلى اعتراض. فولاذ رمادي، صدأ قليلاً مع صدأ، يقضم تحت أسنانه. ولكن كانت أنياب عاجزة، فإنها لم تكن فتح نفسها المفيد الفك .... السلوقي في موجة من عض معدن وريدى. وسرعان ما غطت الفخ، والثلج مع تطور. لم يقم النائب بإغلاقه – على العكس من ذلك، أغلقوا كما لو كانوا أكثر إحكاما. من الإرهاق، طرقت السلوقي التخييم في الثلج. وهكذا استلقى لفترة طويلة، دون سماع أي شيء، لا يرى.

وأخيرا فتح عينيه. الخوف والارتباك السابق تركوه. الآن وقال انه يتطلع في فخ، والتشبث بإحكام إلى مخلب له، باعتباره واحدا إيف المخلوقات الخطرة اليدين. مدخل هذا الفخ نفسه – فقط قديمة، وكسر – ويضعونها في الفناء. هذا هتف الكلب، الأمل الملهم.

بعد أن وصل إلى رشده، عانى لاشين، بالإضافة إلى الألم، من الجوع الشديد. في الأيام الأخيرة لم يسقط قليلا. و يعتقد من الثعلب اشتعلت، وعلى الرغم أبدا في حياتي لم اللحوم الثعلب كان آسف الآن أنه لا التهمت

فرائسها، لا يحصلون على ما يكفي منها. عن طريق الخطأ، وعيناه انزلاق الأصفار لكن بقع من الدم مع القشرة المجففة على الثلج. ليس فقط بجوار الفخ، بل حتى على بعد خطوتين أو ثلاث خطوات، كان كل شيء موجودًا في الدم. ثم، ورفع لاشين، بدأ لابتلاع الدم الاكرم البارد. دقائق قليلة والثلج لم يكن هناك الناصعة. الجوع توفي للتو الى اسفل، مبلد، والسلوقي يشعر رمح أكثر تفاؤلا. أدرك أن نفسك من الغدد الحكومية براثن أنه لم يخرج، والخروج ما في وسعها فقط الرئيسي. والخروج، فقط للحصول عليه. فقط للحصول على ....

تحولت عجلة تروس تعلق على الفخ كحمل إلى ثقيلة بشكل لا يصدق. أعطيت لاشين مع صعوبة رهيبة في كل خطوة. يفرك العظام المكسورة معا ومطحون. كان من الممكن أن تكون كل البساطة ممكنة، إذا كانت القدم، التي تم تثبيتها بقدم ساق، ستبقى في الأسنان الحديدية. لكنها دعت البريد تريد المشاركة مع الجسم وراحة بقوة على الأوتار قوية والفأرة زاك. في كل خطوة، عندما يقع لاشين على مخلب الأمامي الأيمن، أمام السلوقي ملتف الحمراء ومضات الخضراء، وغرق في ضباب رمادي. ومع ذلك، فيرشوك بعد فيرشوك، تقدم لاشين إلى الأمام. من الصعب الربيع جره ذلك تشبث الحجارة، ثم حصلت على تمسك في الادغال. في هذا دقيقة لاشين أنه يبدو أنه لم يكن لبناء من ركلة. ولكن، بأمر من العذاب، استمر في طريقه. مرة واحدة الفودكا التشويش بين جذوع، لا يمكن أن يطلق سراحه. في الوقت الذي استغرقه لب الباطل ناي محاولات لمواكبة اللحوم مرجل .... وكل السلوقي - تفكر في سحب العجلة إلى حد ما تحصل عليه، والخروج من غابة. وبعد أن تعلمت من التجربة، لديه مائة واد حيث لم يتم أي الشجيرات أو الصخور.

لكن الفخ أصبح أثقل مع كل خطوة. كا كيم ولا حتى بدا المكان الذي الكلب بروكلوس طريقهم، وفقا ليجري باستمرار اكتشاف غير متوقع الإعدادية الثلوج السلس غدرا البديهية. كان الأمر أكثر صعوبة في الصعود إلى قمة التل حيث يكمن المالك. سابقا تغلبت الكلاب السلوقية في القفزات قليلة هذا عالية، ولكن الآن يبدو أنها نمت، وتحولت إلى جبل حاد. واحد جيد الشيء - ومخلب تمسك هذه المرة، فقد أصبح. ولا تؤذي، حساسة التعلق، بلا حياة. جمع بقية قوته، جر السلوقي على. كانت الشمس تسقط عندما وصل أخيرًا إلى التل العزيزة....

13

طويل القنفذ السلوقي. معوي مع فترات راحة قصيرة، مع الشكاوى تنهد. حتى يعوي أروا خسارته، - مع طويلة، انفجار تأوه الروح. صدى من جيرانه من القرية . لم يكن كافياً للتعويش، وليس لمحاولة إعطاء لاشين عندما تم الكشف عن أبشع أسراره له .... رجل، رب كل الحياة على الأرض، يتنفس الحياة إلى حديد غير عاري وتشبيهه بحصان سريع، الآن طائر، يرتفع فوق صقر ؛ رجل - القاهر وكل الرحيم - أب يموت جدا ! مثل حمل صغير أو فأر حقل! هنا على أي الكثير من الأيام والليالي ملقاة على قمة تلة، س في. وليس

هناك واحد في العالم كله من شأنه أن يساعد لاشين تنتهي ، ملمحا الى قرية على قيد الحياة ساعات ....
عوى السلوقي، بكى المضيف. عوي، يشعر بالفعل قرب موته. عويل، وداعًا للضوء الأبيض، مع الأرض والأرض السماوية ....

حدث الموت حتى في وقت أقرب مما نعتقد، وليس كاي كما كان يتوقع. الذئب الجائع مع ثلاثة اشبال، حلقت لفترة طويلة بالقرب من أرض فصل الشتاء، والتنفس في رائحة الدخان، والسكن، والطعام المغذي، والاستماع الى توق سوبا عواء، وهرعت على الفور للتصويت. العواء في لبس فيها أدى بها إلى الهدف. حتى من مسافة بعيدة، واختيار مأوى، أدركت أنه لم يكن هناك أشخاص في مكان قريب، وأنه كان هناك كلب وحيد أمامها في السهوب. الخوف، كما لو أن الضحية نفسها زحف بهم إلى أيدي، لا يؤدي هروبهم منو المتاعب، كل أربعة من مؤامرة حافة الصمت، الزحف، وتحيط التل على جميع الجوانب الأربعة وفقط إلى ذلك الحين، مع حرق النار مع عيون الجياع، وكشف في ابتسامة المفترسة بيضاء، وأسنان طويلة، كانت على السلوقي.

في ذلك اليوم، وحصة لاش أون سقط الكثير من المتاعب، وقالت كاي سر رهيب، لا تتخلى عن الأمل، وكشف له، وكان بالضجر ذلك من الألم والمعاناة التي لا شيء الدهشة ويخاف من أي شيء. لقد خسر وجوده لنفسه، بكل معنى الكلمة. لكنه كان لا يزال على قيد الحياة، والحياة لديها قوانينها الخاصة. والسلوقي لم يستسلم، لا مؤطرة رئيس صاغرين مصير ينتظر القاتل القدم ضربة ....

انتهى الهجوم الأول من الذئاب، الذي يعتبر الفريسة سهلة وحيدا، عبثا. فقط ثور المدارة، مفتعلة، رعشة الوركين لاشين. الأنياب السلوقي الأحاديث مهددا، مع سرعة البرق ميلك سواء في الهواء، وعدم السماح للشباب إلى الحيوانات المفترسة حتى تلمس جسده. تراجعت الذئاب، ولكن سارعت على الفور إلى فريستهم مع غضب مزدوج.

كان وحده -أربعة منهم. وكان مربوطا في حركة فخ -كان شيئا لمنع هجوم كلب، ردم الفاي هجوم غاضب. كانت الموازين غير متكافئة. لم تعد الشابة، التي قاتلت في معارك ضارية، تشك في أنها ستشرب الكثير من الدم الحار وتتناول اللحم الطازج. الحذر تركتها. كل شيء ممزوج، اندمجت في واحد صفير غاضب، تشقق الكتلة، يلوحون في سحابة من غبار الثلج. كان الذئاب السلوقي في القاع. ولكن، توقعًا للحظة التي كانت تمزق فيها الذئاب، مزقها، مع حركة مراوغة تمكن من تمزيق بطن الذئب.

والدته كانت تدور بشراسة في الثلج، في محاولة للحصول على عقد من نفسك لتصل إلى الجانب البطن مع ملقاة الشجاعة، لاحظت الذئاب الشابة فقط عندما يتم الانتهاء من ذلك مع الكلاب السلوقية وقضم عظام على عجل. لم يكن الكلب منهكًا للغاية، ولم تُملأ بطون فارغة. على العكس من ذلك، المعذبة جوعهم فقط أوفي الشهية. وربما الذئاب شهدت الدم يتدفق من الجروح الرهيبة، سواء على الفور هرعت للذئب.

ولم يمض وقت طويل، ومن ذئبة، كوتو السماء أنجبت لهم، مرضع حليبها ورعاية قوية الحكومية ولا يرحم، لم يكن سوى غيض من الذيل القصير وأربعة صلابة، وباطن الصعبة.

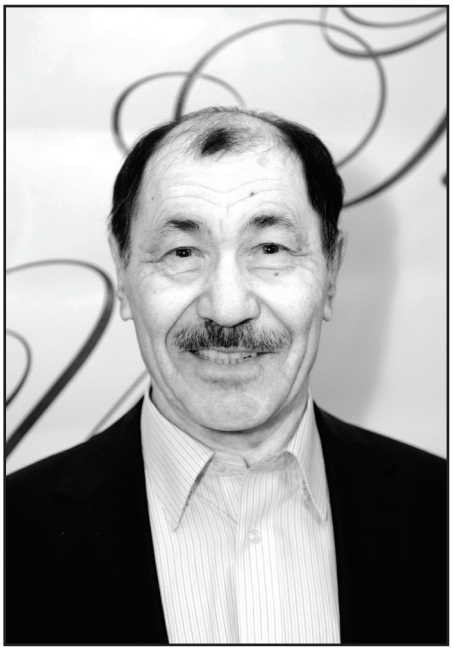
14

في الجزء العلوي من قطع بشكل غير مباشر، مثل تلة قلنسوة يقف فوق أحد الوديان العميقة، التلال الوعرة العلامة، وسكب الباردة منخفضة الترابية هيئة التصنيع العسكري. عندما تقترب إحدى القرى القريبة من أحد السجون الخضراء، يتأرجحالإكساكال، الذي يرتكز على صورة قاطعة وقوية، على المراهق على هذه الربطة ويقرأ صلاة بصوت خافت. تل النخيل الخميس سحق المتوفي. وفي تلك الأيام التي يقع فيها الصبي بعيدًا عن والدته، يأتي إلى هنا ويجلس وحيدة لفترة طويلة، بصمت، وأحيانًا ينغمس بجسده كله. هذا التل - موجيلا كازي، ولوقدم واحدة، ولكن السير على هذه الأرض. والمراهق هو ابنه عادل.

هنا، في القبر، تم إلقاء دماء كلب الكلاب السلوقي يدعى لاشين. صحيح، لا أحد يعرف عن ذلك. كل ما تبقى من الكلاب السلوقية - وتيماكي الثعلب على رؤوسهم الحكومية الرجال. لكنهم ابتعدوا منذ زمن طويل. تم استبدالها بقبعات بسيطة، رخيصة .... بعد كل شيء، كان لاشين الكلب الأصيل الأخير في هذه الأجزاء من البلاد.

بيكسلطان نورجيكييف

(ولُد عام 1941)



- تخرج في كلية فقه اللغة بالجامعة الوطنية الكازاخية عام 1965، ونشرت أولى مقالاته بعنوان "الحب المذنب" بمجلة "جولُديز" عام 1968، وفي عام 1972 صدر أول كتاب جامع لقصصه تحت عنوان: "متفكرًا في المقطوعات الموسيقية الكازاخية".
- بعد ذلك صدرت له العديد من الأعمال الأخرى مثل: "الحياة التي مضت في الانتظار"، "حب واحد فقط"، و"سر المرأة المجهولة"، كما قام بكتابة العديد من الروايات مثل "أسف واحد، أمل واحد"، "عندما يقف العدو على البوابات"، "الأزواج"، و"يا لهذا العالم المادي".
- كان الحب والمشاعر الروحية بين الرجل والمرأة أحد الموضوعات الرئيسية التي تناولها في إبداعه، ومن خلال الشغف والحب الذي لا ينضب نجح في أن يعكس فرحة الحياة ومأسوية الأقدار بدقة وحرفيه شديدة، وقد انبهر الجمهور الأدبي بأعماله وأطلقوا عليه لقب "موباسان الكازاخي" و"مغني الحب".
- ومن بين الموضوعات المفضلة لدى الكاتب: التاريخ الكازاخي القديم، والتاريخ القومي؛ حيث انعكس هذا الموضوع في العديد من أعماله ومن بينها مقالته التاريخية "القرية المحاطة بالأنهار" التي صدرت عام 1982.
- بعد ذلك بدأت تنشر أعماله المهمة بشكل منظم ودوري في الصحافة الحكومية، وقد كرس هذه الأعمال للتاريخ القديم والحديث للشعب الكازاخي، واللحظات الحرجة التي عاشها وكذلك الصفحات الساطعة في هذا التاريخ.
- في عام 2002 خرج للنور كتابه "القوة المبهرة للفن"، وقد جمع في هذا الكتاب العديد من المقالات التعريفية عن الشخصيات الفنية الكبرى والشهيرة أمثال كولياش بايسيتوفا، وجمال عوماروفا، وموكان توليبايف، ودانيش راكيشيف وغيرهم.
- في عام 2003 صدر كتابه الثاني تحت عنوان: "خواطر الفكر" اشتمل على مقالات مكرسة للمغنيين والعازفين الشهيرين، أمثال: أسيت نايمانبايف، وسارة تاستان بيكيزي، وتوريباي، وكذلك مقالات عن أشهر خانات الكازاخ أمثال قابانبايو، وباجينبايو وأجينتايو.
- في عام 2016 صدرت المجموعة الكاملة لأعماله ومقالاته في 15 مجلدًا.
- تُرجمت أعماله إلى اللغات الروسية، والإنجليزية والتركية.

مـوت الــروح

قالوا في السابق "ماتت امرأة -تحطم المقبض لدى السوط".

بغض النظر عن صاحب هذا القول، إلا أنه من الواضح أنه قيل في الوقت الذي كانت لا تزال فيه للسوط قيمة. هل السوط بدون مقبض يمثل سوطًا بالنسبة الرجل الذي يركب على الحصان ويزاول تربيةالمواشي؟!

لهذا السبب فإن الأعزب الذي يعيش بدون زوجة، يماثل سوطًابدون مقبض.

كايران[1] الذي دفن للتو زوجته، فكَّر بهذه الطريقة، وأدرك عمق هذه الكلمات.لكن بدا لكايران أن زوجته لم تدفن اليوم، بل منذ زمن طويل، قبل سبعة عشر عاماً[2] .

عندما عمل كايران في الحفريات الأثرية، أقام في محافظة كاراغاندا لأكثر من شهرين. افتقد بشدة ابنه الأكبر "ماكسات"، وابنه الأصغر "مورات"، وابنته "أوريم" التي كانت في التاسعة من عمرها، وزوجته "أولُدير[3] ".وكيف لا يفتقد رجل في سن الحادية والأربعين محبوبته ذات الثمانية وثلاثين عامًا؟!

نعم، علاوة على ذلك، فقد هيمنت البرودة الآركية[4] الخالية من الثلوج التي جاءت في أكتوبر.

الله يعلم، لو كان أصغر سنًا، لأسرع بعنادٍ إلى ألماتي[5] دون أن يلتفت خلفه.

كان المدير رجلًا متمرسًا، لكنه متقدم في العمر. ربما من زواجه المستمر لسنوات عديدة، تآلف في برود مع

(1) يترجم اسم كايران على أنه تربة رملية صلبة في القاع، وعلى ضفاف نهر أو بحيرة، وكذلك: صغير، ضحل.

(2) بالإضافة إلى الخط الذي تم بناؤه هنا، تنشأ أفكار أكثر عمقاً، مبنية على الرحمة والمغفرة والتفكير العقلاني الحديث والتسامح وما إلى ذلك، الأمر الذي لا يمثل خروجاً عن العقائد الثابتة.

(3) أولُدير - اسم أنثوي، يعني أنيقة، رقيقة، مغرية، بالإضافة إلى الشيء الناعم والرقيق وما إلى ذلك.

(4) الآركية - يقصد بها ساري-آركية (ساري-آركا)، مناطق وسط وشمال كازاخستان.

(5) من الممكن أيضاً النظر في سلوك الأبطال ليس فقط من الجانب القومي، ولكن أيضاً من وجهات النظر الاجتماعية والفسيولوجية والمعيشية-الدنيوية وغيرها، عندما يظهر الظرف الذي يكمن وراءه الفكرة "كلياً وقريباً"، والعديد من الضحايا لا يبنونه من هذه المأساة المعقدة، أو يوصلونه إلى طريق مسدود.

التحولات الأسرية المفاجئة، ولم يفكر في كثير من الأحيان في زوجته وأطفاله. على ما يبدو، لم يفتقده ممثل كايروان. ومع ذلك، فهو شخص عفوي ومرن، يفضل الموائد المرحة ودور الضيف المحاط بمودة واهتمام عميقين. عندما كان يتواجد في جو دافئ، كان يشعر وكأنه سمكة في ماء، يمكن أن يمزح ويغني بشكل جيد. ولأنه كان من جانا-آركي[6] نفسها، كان لديه أصدقاء وأقارب في كل قرية.

عادة عندما كان يعلن: "إذن، يا شبابي، سنكون اليوم ضيوفًا في منزل رائع آخر ....."، لم يكن مفتونًا بالأمسية نفسها، وإنما بشيء آخر، أن يكون خلفه تابعوه الثلاثة. كان كايران أكبر أولئك الثلاثة، فحفارو الأرض هم من طلاب جامعة كاراغاندا، ومن بينهم واحد أو اثنين من السكان المحليين.

عندما خرجوا من جلودهم ليستكملوا في غضون عشرة أيام مهمة العام الجاري، جرَّهم المدير مرة أخرى إلى معارف له آخرين. اتضح أن عميد الأسرة هو من نفس عمر رئيسهم، وعلاوة على ذلك يشبهه في الميول والطباع.

كان المنزل الذي يقع إلى جانب مباني المزرعة الملحقة، على واحدة من قنوات نهر ساريسو، مغطىً بالقصب والصفصاف.

على مقربة من الطريق الرئيسي استقبلهم أبناء المالك الأربعة، وكنائنه أيضًا الأربعة، وابنته الشابة بحفاوة كبيرة.

خلال فترة الخصخصة الشاملة في البلاد، تمكنوا من الحصول لأنفسهم على حصة دسمة. وبعد أن أوكل إلى أحد أبنائه بقطيع من الأغنام، وإلى الثاني بقطيع من الخيول، وإلى الثالث بقطيع من الأبقار، وعين أكبرهم رئيسًا عليهم، هيمن الأب مع أبنائه الأربعة على المنطقة بأكملها بأيديهم: يخفف عنها - هي على راحة يده، يعصرها -هي في قبضته.في الصيف، كما في الشتاء،تدفق الكوميس[7] والعيران في تيار متواصل. لاحظ كايران أن الأسرة الودودة بنت جنتها بأيديها.

على الرغم من إعجاب كايران الشديد بمهاراتهم العريقة في تربية الحيوانات،إلا أن أكثر ما أدهشه هو أن الأبناء الأربعة، والكنائن الأربع، والابنة الوحيدة تمتعواجميعهم بأصوات طبيعية، وغنّوا بشكل رائع، فما إن يُعلن عن أغنية خاصة، حتى يبدأ أكبر الأبناء بدندنتها.يا إلهي، لحنها، طولها، فكرتها-كل شيء فيها كان متناغمًا، ولم تخدش السمع الخبير.

عندما كان الملحنون الآخرون يؤلفون أغانٍ مشابهة للأغنية، كانوا مستعدين للانفجار من التفاخر، وعندما يجتمعون، يشهد الله، إماسيزرّقون عينيك، أو سيُخْرجون روحك. ووفقًا للعادة، إذا ما أُبعد شخص ما فجأة، فإنهم يقولون: "إنهم شعب ماهر، من غلاظة غنائه" -أيقظ فيه انعدام الارتياب."آه، لقد غمرني

(6) جانا-آركي - إقليم جانا-آركي في محافظة كاراغاند.

(7) كوميس - شراب هام لشعوب سهوب آسيا الوسطى، وهو أحد منتجات الألبان المخمرة، يصنع غالباً من حليب الفرس.

الهاوي أيضًا!" -كان يعتقد. بعد الاستماع إلى الفارس-الخيّال، بشكل لا إرادي كان لا بد من أن يعترف بالهفوة التي قام بها، ولأول مرة، وبدون مرارة، يلوم نفسه: "آه، يا لنا من شعب، لا نقدّر مواهبنا الخاصة!"[8]

لم يشعر كايران في أي من الزيارات بهذه الدرجة من البهجة وعدم التكلف، ربما في حرارة الإثارة، وبما أن صاحب البيت غنَّى أغنية،فقد غنى كايران للجمع الممنون أيضاً.

بعد أخوانها الأكبر سناً وزوجاتهم، غنَّت كارليغاش أغنيتين أيضًا. إحدى الأغنيتين كانت على شفاه الجميع، في حين الأخرى، المليئة بالشوق والحزن، بدت لكايران غير معروفة.

من يعرف أي نوع من الحزن أرادت إخباره الفتاة التي لم تتزوج بعد على الرغم من بلوغها سن الخامسة والعشرين. بدا كما لو أنها من خلال الأغنية، كانت تحاول التلميح إلى شيء ما. في نهاية الغناء جالت بنظرها خلسة على الجميع، وعلى كل واحدٍ من الحضور، كما لو كانت ترغب في معرفة ما إذا كانوا قد فهموا شيئًا، أو ربما كانت تستفسر عن انطباعاتهم عنها؟

أياً كان الأمر، فلم يرد على خاطر كايران أيضاً حقيقة أن لدى هذه الفتاة نوع من الكآبة.لكن، أي نوع من الكآبة: "ربما، لأنها خُدعت في شبابها من قبل شخص ما؛ ربما لأنها لم تلتق فارسًا يحبها حتى الجنون؛ أم أنها أحبته وهو لم يحبها، أم...."- يقوده خياله، بين الحين والآخر، إلى حدود غير معروفة[9] .

المنزل واسع، ومستلزمات النوم تكفي للجميع وتزيد" -صاح صاحب البيت محاولًا إقناعهم بقضاء ليلتهم هناك.

في نهاية المطاف باتوا. وبما أنهم حسموا أمرهم، فمن جديد كويرداك[10] وشاي مغلي مع الحلويات.

اقتنص كايران اللحظة، وعند خروجه إلى الفناء،ارتطم أنفه بأنف كارليغاش التي كانت تعد الساماور[11] .

أفٍ، آسف يا عزيزي! لم أر في الظلام، -قال ممسدًا على كتفها.

لا بأس، يا آغا[12] ! وحتى لو كنت متعمدًا، لا بأس، -قالت كارليغاش ضاحكة.

لا أيتها الرقيقة! لا يمكن للمرء بعد الضوء الساطع أن يرى على الفور، حتى تعتاد عيناه. أجل، وأن تضرب برفستك أختًا مغنية نادرة، مثلك، هل حقًا سئمت من العيش؟

وأنت نفسك، يا آغا، اتضح أنك مُغَنٍ!

---

(8) البطل متعصبٌ، لكن لديه الحق في التطلع نحو أخلاق نقية ومبادئ راسخة. في الوقت نفسه، لكل شخص الحق في ارتكاب الخطأ، لكل شخص حرية الاختيار أو الخيار شخصي. وعلى أي حال، يجب أن تكون لحياة الإنسان وحدها قيمة لا تزول. علاوة على ذلك، ليس لأحد الحق، من أجل "أخلاقه الشخصية العالية"، أن "يسحق" عُمر شخص آخر، لكنه في الوقت نفسه يدمر عمره أيضاً مبرراً أو مختبئاً خلف "حب الأطفال". الحب الحقيقي يعني السماحة التي لم يتم العثور عليها خلال الأعوام الـ 17 التالية. أيعقل؟ نوع من القسوة القهرية التي تقود الأخلاق الاجتماعية المتذبذب الناس حولها، هل هي مقبولة للطبيعة البشرية والله؟ الموضوع واسع، والحقيقة، كما يقولون، تعتمد على وجهة نظر .... لذلك، كان للبطل خياره.

(9) تترك تسمية "شيكّان جان/ذهبت الروح" انطباع تصويرية وعدم اكتمال الفعل. ولا يناسبها أي بديل مباشر غير تركيب "خروج الروح....".

(10) كويرداك -أكلة شعبية من المعلاق الطازج المقلي بالسمن: رئات، كبد، قلوب، كلاوي. تعدُّ عادة للضيوف أو عند ذبح الماشية.

(11) سماور -وعاء معدني يستخدم لغلي الماء وتحضير الشاي، يستخدم في روسيا وأوروبا الشرقية وآسيا الوسطى وبعض بلدان الشرق الأوسط.

(12) آغا - صيغة الاحترام في مخاطبة الشخص الأكبر سناً من الرجال.

لا-ا، هذا أنا فقط من أجل دعم الجلسة الحلوة.... ليس للدعم، ولكن من أجل الاحترام....اعتبري ذلك. بهدف عدم إفساد اللمَّة. في بعض الأحيان، بهذه الطريقة، يمكنك ذبح نفسك في نار التضحية. و، لا تتسرعي في الضحك، يجب أن يُفهم على أنه تقديس للجمهور.

لا-ا، يا آغا، أنا لا أضحك على الإطلاق! كثير من الناس يؤدون الأغاني فقط بحبالهم الصوتية، وأنت تغني من القلب. لديَّ القدرة على أن أميز الشخص الذي يغني من القلب ويتكلم من القلب عن باقي الناس.

مهما قلتِ من المجاملات، فأنا أعلم جيدًا أنني بعيد عن المغني كل البعد.

ليتك تعلم، أنك مخطئ جدًا. الأغاني لا تؤلَّف فقط لكي يؤديها المغنون. الحقيقة أن الأغنية الناجحة تتشكل وفقًا لذوق مستمعيها. ولذلك، فإن المستمع وحده هو من يفهم الأغنية حقًا، ويقدرها بعمق. أنت، وفقًا لكلماتك، تبدو لي مستمعاً متقدمًا جداً.

من جديد، يا كارليغاش، تسخرين مني. بدون أي "جداً"، لو تقولين ببساطة "مستمع".

حسنًا، لتكن ببساطة مستمعًا. ومع ذلك، فأنت مستمع لديه تصورٌ عن الأغنية، وعن الفن. أليس كذلك؟

من فضلك، يا كارليغاشيتشكا[13] ، لا تقولي هكذا! أنا كالجميع، لا أختلف بشيء مميز عن الآخرين. مهما قلت، لا تضعيني، من فضلك، في وضع محرج.

تبين أنك شخص غريب الأطوار! لأول مرة أرى كازاخياً لا يقبل المديح. بالمناسبة، هذه الصفة تناسبك. المهم أنها ليست مصطنعة، بل هي فطرية. بالفعل، فكرت بماذا هذا الرجل جذبني على الفور، هكذا هو الأمر إذن....

كارليغاش، هل قررت مرة أخرى السخرية مني؟

ليس هناك أي سخرية، يا آغا!

لقد بدأت بالفعل باحترامك. لماذا لم أركَ من قبل، حبست نفسك في صخب المدينة وضوضائها؟

تركا الفناء سويا وابتعدا عن حرارة الموقد، والسماور البركاني.

تبين أن كارليغاش لم تكن فتاة صريحة فحسب، بل وأيضاً منفتحة وشجاعة: فهي لا تخفي أفكارها؛ تسأل مباشرة ما تريد أن تسأل عنه؛ عازمة وواثقة بنفسها، بدون تواضع مخادع كما يحدث.

عبثًا أنه رأى فتاة طويلة ومشرقة والنهار في نهايته، فتارة الضوء الخافت لنجوم السماء، وتارة أخرى انعكاس لمعان على آخر، ولكن عندما كان يقع بصره على جسمها الممشوق، اندهش كايران من أن منطقة صدرها الأبيض الثلجي سُلّط الضوء عليها بشكل خاص. في هذه اللحظة، دعا نفسه إلى كبح شهوتها، تذكّر أولُدير، فصدرها أيضاً أبيض بشكل مميز، حتى مع العتمة، يواصل بياضه وسحره.

آغا، ما الذي تفكر فيه؟ يبدو أنك تفتقد عائلتك؟ الغياب عن البيت لفترة طوية هو للزوجة معاناة، وللأطفال

(13) كارليغاشيتشكا - صيغة التحبب من اسم كارليغاش.

عذاب.

أجل، تظهر مثل هذه الصعوبات. بشكل خاص أفتقد ابنتي، في نوفمبر ستبلغ التاسعة. أبدأ بالتفكير بها، فأشعر برائحة شعرها تقترب من أنفي. أسمع صيحاتها"أبي، يا أبي!" وكأنها بالقرب مني. وشقيان أيضًا والداي.لم أُلمهما في شيءٍ حتى لا يكبران ثرثارين.لدى العامة تعبير مناسب:"واحد من أسماء الشخص الجيد–شرير! وواحدمن أسماء الشخص التافه –ثرثار!"

لم أسمع به، وحتى أنني لم أكن أعرف. وفهمه على الفور ليس بالأمر السهل.

عندما سمعت ذلك لأول مرة، لم أفهم أنا أيضًا تمامًا كيف يمكن أن "يُنْسَب شخصًا شريرًا، أي خبيثًا، إلى الجيدين". فكّرت، وتبين أن الشخص الموسوس واللحوح ينسبه كثيرون إلى نوع الخبيث. باختصار، هو يعرف ويطالب بالشيء الذي لا يرغب الآخرون حتى التفكير فيه. وأيضاً الرخوي –هو معروف أنه شخص لا قيمة له، غير قادر على الوقوف بين العدالة والنذالة. أترين أي فلسفة لدى العامة؟

أنت، يا آغا، لا تشبه الكازاخي الذي نشأ في المدينة. كازاخيو المدينة لا يجيدون، حتى بلغتهم الأم، المناقشة على هذا النحو.

حسناً، لا داعي لإهانة الكازاخي المتمدن بدون قصد! لنفرض، على الرغم من أنني نفسي أعيش في المدينة، لكنني بروحي أحلّق يوميًا في القرى والبلدات. في القرية لدي أب يتجاوز عمره السبعين، وأم فوق الستين. عقليًا أنا دائما معهما، ولكن لسوء حظي، نادراً ما أزورهما. وفي كل مرة، عندما يغمرني الشوق لهما، أعانق أطفالي، وبذلك أطفئه، حتى ولو لفترة. أخدع نفسي بهذه الطريقة. أحيانًا أدخل في فرحة لا تصدق عندما أراقب صخب ابنيَّ. لو يقلبان البيت كله رأساً على عقب –لن أقول شيئًا. نقول شيئًا، وهنا شيء آخر، ولكن الأطفال هم السعادة الحقيقية للإنسان، وكل ما عداهم هو عابر. حب الأطفال هو واحد من أعمق المشاعر الأبدية التي لا تفتر.

في هذه الحالة، أيها الأغاشكا[14] المحترم،في أي فناء خلفي تحتفظ بحب زوجتك التي أهدتك هؤلاء الأطفال ؟

كيف ذلك، في أي فناء خلفي؟ ستبقى في مكانها. أليس حب الأطفال وحب أمهم شعورين متكاملين وغير متضاربين؟

إذا ما سألتك شيئًا ما لن تغضب؟

لن أغضب.

أنت دائمًا تتحدث عن الأطفال، ولم تقل أي كلمة عن زوجتك، ألا تفتقدها؟

لماذا لا أفتقدها؟ لكن عقلية السهوب لاتسمح للكازاخي بالحديث من ساعة إلى ساعة حول زوجته مع

(14) آغاشكا – من "آغا" – صيغة احترام متصنعة باللغة الروسية. قارن "باباشكا/أبي"، "براتيشكا/أخي"

الغرباء. مرة أخرى، في شعور الشوق إلى الأطفال هناك بالتأكيد معنى خفي يفهمه الجميع عن وجود زوجة. أنت، يا آغا، تشرح أشياء بسيطة، كما يبدو لي، بلغة علمية. لذلك، من المستحيل التحدث إليك بدون النظر إلى الوراء. سيخاف المرء باستمرار أن يقول شيئاً زائداً فيقع في الحصار.

كارليغاش، لم ألحظ أبدًا أنك تحدثتِ بحذر.

أنا عموماً شخصٌ، أفضّل عدم كتمان أفكاري، وعدم إخفاء أحاسيسي. ولكن، ربما، بسبب الاحترام، أو ربما تحت تأثير أسلوبك في التعبير عن أفكارك بدقة وبشكل ملموس، أجد نفسي معك مجبرة على أن أحسب لك حسابًا، وبشكل عام، التكيف وفقك في الحديث.

حسنًا، لقد تمكنتِ مني، آه؟! حتى أنني لم أكن أتخيل أنك تتمتعين بكل هذه الكاريزما.

ربما فيك قوة خفية تؤثر عليّ شخصيًا

وهل هذا حقيقي؟

إذا لم يكن كذلك، كيف يمكن أن تفسر هذا؟

كارليغاش، كأنك تسخرين مني!

ليس منك، يا آغا، أنا أسخر من نفسي.

وكيف يفهم ذلك لو سمحت؟

لن تفهمه ولا بأي شكل!

هل هكذا تتكيفين معي، وتحسبين لي حسابًا؟

هكذا. هكذا، يا آغا. وهل هذا قليل؟ أنا الآن فقط بدأت أدرك كم أنا ما زلت شخصًا سيئاً، ووضيعاً.

كُفِّي، يا كارليغاش، لا تتلفظِي! ما بك؟ لماذا تقولين ذلك؟ لنرجع، أفضل، إلى البيت. قد يبدؤون بالبحث عنا.

إن كانوا سيبحثون، فعنك على الأغلب. لا أحد سيبحث عني.

في تلك اللحظة ومض في ذهن كايران بعض الشك. "كفي، -تمتم لتهدئة نفسه من الداخل. - إنها تعلم أن لديَّ أسرة وأطفال، ومن غير المرجح أن تمضي إلى مثل ذلك. أو .... أوأنها عرفت رجلاً من قبل؟". بعد أن خجل من أفكاره الخاصة، وتحت جنح الظلام، نظر كايران بلمحة إلى كارليغاش، كما لو أنه استشعر أن الفتاة كانت تنظر إليه.

كارليغاش، لقد تغيرتِ بعض الشيء؟ للتو كنتِ تتحدثين بشكل جيد.

لقد تعبتُ، يا آغا. على الرغم من أنني أعيش وسط أكثر من عشرين شخصاً، بجوار والديّ وأشقائي، إلا أن الوحدة استنفدتني تمامًا. حتى سن الخامسة والعشرين، لم يأخذني أي شابٍ من ذراعي. حُرِمت من حب الفتيات الأول، ولا حب الشخص البالغ. ضع يدك على قلبك وقل لي، هل هذه حياة، يا آغا؟

لم يعترف لك أحد إلى الآن، ربما الذنب في ذلك يقع عليك أنتِ؟

لا، أنا لست متعجرفة. لم أقابل ولا حتى شاب عادي يحبني ويقع في حبي. على سبيل المثال، لو ألتقي بشخص مثلك، سأقدّر ذلك على الفور. للأسف، ولكن لم أصادف ذلك الشخص في طريقي. من يدري، وربما الآن لن نلتقي أيضاً.

لا تقولي هذا، يا كارليغاش. الحياة كلها أمامك.

يا آغا، لا يليق الكذب عليك. الحياة أمامي لا يمكن أن تكون بالطريقة التي أريدها. أخشى أنني في النهاية سأُجبر على ربط حياتي بشخص ماتت زوجته، أو مع مطلق.

لكن هذه هي حياة أيضًا. أفضل من لا شيء.

لو أني فتشت عن شيء أفضل من لا شيء، لكنت قد وجدت مثل هذا الأفضل منذ وقت طويل. لكن ليس بمقدوري أن أحطم هذا الطبع العربيد! لماذا لا تفهم ذلك؟ أم أنك لا تريد أن تفهم؟

الطبع العربيد يقول اذهبي فقط إلى الحبيب. ما هو الشيء غير المفهوم هنا؟

لذلك فهو طبع عربيد، لأنه ليس بدون نذالة، كيف يمكنني أن أكون، إن أعجبت بذلك الذي لديه زوجة وأولاد؟ قل لي بصراحة، افترض لو أني أحببتك، هل يمكن أن تتخلى عن عائلتك وتتزوجني؟

بالطبع، لن أتزوجك.

لماذا؟

لأنني تزوجت بزوجتي عن حب، وهي بدورها تزوجتني عن حب. بالإضافة إلى ذلك، نحن كلانا نحب أطفالنا. وبالإضافة إلى مشاعر الحب السابقة لدينا، حبنا لأطفالنا، وفي الوقت الحاضر، نمت هذه المشاعر بشكل لا يصدق.

وماذا عن الرأي القائل إن الزوجين يبردان تجاه بعضهما البعض بالتدريج؟

ولكن عاماً بعد عام، يمكن أن تصبح المشاعر أقوى أيضاً. كنت قد قلتُ إنها زادت لدينا بفضل الأطفال.

إذن، يكذبون حين يقولون إنها تبرد مع مرور الوقت؟

من يدري، الحياة لا تعطي مقاييس صارمة، يمكننا أن نتوقع منها هذا وذاك على حد سواء....

"إذا ما نظرنا من وجهة نظر علمية" تريد أن تقول؟

بينما كانكايران يتريث لعدم فهمه كيف يرد على المكر البنَّاتي، استدارت كارليغاش، ودون أن تنطق بكلمة، مشت باتجاه المنزل. لماذا هكذا تصرفت، هي وحدها تعرف. قبل أن تغضب من كايران، بالطبع، كان يجب أن تكون هناك رابطة وثيقة وقديمة بينهما. لم يكن مثل ذلك.إذن، ما هذه المزحة؟ ومع ذلك، فقد عذّب الإحراج الحاصل كايران، وشعر بنفسه مذنبًا، ولم يدرك تمامًا خطأه. رفع عيناه بشكل عفوي إلى السماء المرصعة بالنجوم الراقصة، رفرف برموشه وغمز بهدوء، كما لو كان يقول بصمت لها "كيف يمكننا أن نعرف".

.... إلى ألماتي عاد كايران في منتصف شهر أكتوبر.

في الصباح، عندما نزل من القطار، وفي عجلة من أمره عندما وصل إلى المنزل، تمتم فجأة: "أوه، يا

للتعاسة! ..." فقد تذكر أنه عند مغادرته، لم يأخذ مفتاح الباب معه. لم يفكر بشكل مسبق أنه عند وصوله، سيكون الأطفال قد ذهبوا إلى المدرسة، وزوجته إلى العمل.

نظر إلى أقرب متجر، واتصل بأولُدير في العمل، وقيل له "لقد طلبت إذنًا للخروج اليوم". "على الرغم من أنني لم أخبرها، لكن يبدو أنها، بعد أن عرفت يوم وصولي، حرصت على التحضير" -فكَّر، وغمر الدفء روحه، وفي مشاعره الجياشة سرى ارتخاء طيب. ترك حقيبة الأمتعة اليدوية لدى الجيران، واعتقد أنه من الصواب أن ينتظر لدى صديقه ديغدار الذي كان منزله قريبًا.

"هل هو في المنزل، أم أنه ليس هناك، ربما يتوجب الاتصال به ومعرفة ذلك"-توقف للحظة، ومن ثم توصل إلى خلاصة:"آي، هنا، ليس بعيدًا، إن لم يكن هناك، فسأعود، وعندها تكون أولُدير قد وصلت".

منذ أن حصلت البلاد على استقلالها، زاول ديغدار البيع والشراء في السوق السوداء، وفتح شبكة من المتاجر والمحلات التجارية في زوايا مختلفة من المدينة، فأصبح رجل أعمال. خطرت لكايران فكرة جمع المدخرات، وبعد التشاور مع الصديق، فتح نقطة تجارية خاصة به. لذلك، فقد فكَّر في مناقشة هذه المسألة أيضاً خلال اللقاء.

لدى اقترابه من باب ديغدار، وما إن ضغط على زر الجرس، حتى اهتز في الجانب الآخر شيء ما، ووقع على الأرض. من الواضح أن شخصاً ما في الشقة، لكن أحداً لم يفتح الباب. ضغط مرة أخرى على الجرس، وهذه المرة لفترة أطول. نشب صخب مسموع بالكاد بالقرب من الباب.

ديغدار، هذا أنا، -قال بصوت عالٍ. وبطرف أذنه سمع همس امرأة تقول:"لا تفتح!"

كايران! - سمع صوت ديغدار الذي اقترب من الداخل. - آسف! في المنزل شخص غريب. متى وصلت؟ أوه، كم أشعر بالإحراج منك. لكن أعتقد أنك ستتفهم.

إيه، حسنًا، لا عليك! وصلت بالقطار في الصباح. نسيت أن أحضر المفتاح. أولُدير ليست في العمل، ولا في المنزل. هيا، هي على وشك القدوم. أنت أيضًا لا تؤاخذني!

في اللحظة التي استدار بها ليذهب، بدا له مرة أخرى همس تلك المرأة. بدا أنه سمع هذا الصوت في مكان ما. لم يكن صوتًا، وإنما همسًا مألوفًا. نزل من الطابق الثالث، وعندما عرَّج إلى الثاني طنَّت أذناه، وغطى ظهره العرق: فهذا الهمس يشبه همس أولُدير! لا شك، همسها! ....ارتجفت أصابعه، وانحنت ركبتاه، وكاد يسقط في مكانه. كيف يخرج إلى الشارع، لا يذكر. عندما التفت للنظر إلى النافذة في الطابق الثالث، توقف فجأة: فهمَ، قد ينظران إليه."لو أنها ليست أولُدير! لو أنها ليست هي!" -دعا في نفسه دون أن يعرف لماذا. بعد ذلك اندفع مرة أخرى باتجاه المدخل،"سأحطم باب الزنديق الملعون، وسأخزيه أمام كل الجيران!"، -راودته الفكرة، لكنه قمع نفسه مرة أخرى "عندها لن يصاب بالخزي هو، بل أنت.... على الأغلب ليست هي، بل هما لا يستطيعان التصرف هكذا؟!.... افترض أن أولُدير جالسة الآن في المنزل وتنتظر. سأذهب إلى بيتي". - حسم أمره.

مع هذا التفكير، ودون أن يتحول إلى أي مكان، هرع إلى المنزل. ذهب وراء زاوية البناء المقابل ونظر. "ربما، عندما غادرتُ، شاهداني من خلال النافذة. لو كانت تلك أولُدير، لهربت على الفور إلى الشارع. لماذا أمضيت حياتي نهبًا للشكوك ؟، اسمح لي، دون أن أبتعد، أن أستوضح كل شيء" – قرر، وبعد أن اقترب من البناء المقابل، اختبأ وراء الزاوية الأمامية، حيث بدا مدخل ديغداريُرى جيداً.

بعد اثنتي عشرة دقيقة بالضبط، خرجت من المدخل هامة ديغدار. لدى خروجه التفت بوجهه نحو نافذة الطابق الثالث. يبدو أن شخصًا ما أعطى من هناك إشارة، تحول ديغدار فجأة، وذهب في أعقابه إلى المبنى المقابل. حقيقة أن هذه هي خطوة استطلاعية، وأن هذا لم يعد علامة جيدة، شعر بها كايران بداخله. جفَّ حلقه، وزادت الرعشة في جسده، وتمالك نفسه بصعوبة. بماذا كان يسترشد: بغضبٍ، أم بحكمةٍ،أم بحسبانٍ،أم بمكرٍ–لم يدرك، ولكن، أيًا كان، تحت تأثير شيء من هذا القبيل، وحتى لا تلاحظه عينا ديغدار، انتقل كايران إلى المدخل الأخيرمن المبنى المجاور.

بعد بضع دقائق، عاد ديغدار وهو ينظر حوله. اختبأ في مدخل المبنى الذي يقع فيه منزله، وراقب لفترة من الوقت. تعززت افتراضات كايران أكثر وأكثر، وغدا مقتنعاً أن ديغدار كان يتعقبه هو تحديداً. ودون أن يلاحظ أي شيء يثير الريبة، صعد إلى شقته، حيث اختفي جسمه المسود.

بعد ذلك، عندما اندفعت أولُدير كطلقة من المدخل، وقف كايران في مكانه كصنم بلا حراك. وبوقوفه هكذا، لم يستطع إغلاق فمه المفتوح، ولا الانتقال من النقطة الميتة. الفكان مشدودان، والجسم لم يطع، وخوفًا من أن يسقط،لم يتمكن من أن يخطو ولو خطوة.هي، لم تذهب مباشرة بمسار ديغدار وكايران، بل تحولت وسارعت نحو البناء الذي كان كايران يختبئ فيه.كايران المغشوش أكثر بالخداع الأنثوي، خرج من المدخل، ووقف بعرض الطريق.

آآآه! –صرختْ وسقطت على الفور.

أراد أن يلقي في وجهها أقذر كلمة على وجه الأرض، لكن نكاية، لم تأت هذه الكلمة على لسانه. وبدلاً من ذلك، نظر إليها نظرة احتقار، بصق في وجهها، ودون أن يستدير، واصل سيره.

ضرب وركل باب شقة ديغدار في الطابق الثالث، وصرخ بكل مرارة وغضب: "أخرج، أيها الوغد، سأقتلك! وغد! خائن!"–. وفقط عندما انزعج الجيران بصراخه،مهددين بـ"استدعاء الشرطة"، خرج مرغماً بالكاد يجر رجليه.

افترض في عقله أن أولُدير وصلت إلى المنزل. وكيف الآن سيجتاز عتبة البيت الموجودة فيه؟ بأي عينين سينظر؟ ماذا سيقول للأطفال، ماذا سيقول لزوجته الخائنة؟ أليس الانتحار أسهل عليه من دخول هذا البيت؟ يقولون "الكلب الجيد لا يحتضر على الملأ"، أليس هو أسوأ من الكلب؟!

كما لو كانت بانتظاره حفرة سوداء فاغرة فاها، مستعدة لابتلاعه كله، لم يستطع حتى تحريك قدمه في اتجاه المنزل. استدار إلى الغرب، ومشى متثاقلًا خارج المدينة. "كيف لي أن أكون؟ ماذا بوسعي أن أفعل الآن؟

-سأل نفسه، مغتاظًا ومهانًا حتى أعماق روحه. بالطبع، حاول أن يهدأ، ويستعيد عقله توازنه، ولا يستسلم لمشاعره، ولكن الأفكار الخسيسة تطفح، تسحقه: "يبدو أنهما اعتادا اللقاء في شقة ديغدار؟!

في الطريق إلى الطرف الغربي لشارع آبايكان هناك مطعم صغير، ذهب إليه، شرب زجاجة كاملة من الفودكا. نقر مرتين وثلاث مرات بالشوكة على الصحن، وقفت الوجبة الخفيفة في حلقه. لم تترك لا الفودكا ولا الوجبة الخفيفة أي انطباع أبداً، وبدت غريبة: لا في الرأس، ولا في الساقين، لا ثملٌ، ولا شبعٌ. وكأن من كان يشرب ويأكل ليس هو، وإنما شرفه المنتهك، وحنقه المثار، وغضبه الرهيب.

دون أن يستخدم وسائل النقل، ذهب سيراً على الأقدام. "إلى أين أذهب؟ إلى أين أندفع؟ - دارت في رأسه. "ربما، إلى الجحيم، والتخلص من كل شيء دفعة واحدة، وأشنق نفسي في مكان ما؟!" "هل هو الطلاق؟ عندها، ماذا عن أمهاري؟ بدونهم، في النهاية، سوف أعذب نفسي! بدونهم، أي حياة ستكون حياتي؟"

"يا أمهاري! يا أمهاري! وهل أنا طلبتكم من الله من أجل هذا؟ بدونكم حياتي ليست بحياة! كيف يمكنني أن أقول لكم الحقيقة، الحقيقة الرهيبة، وأشهّر بأمكم؟ وإن لم أخبركم، كيف، إذن، سأفسر؟"الجريمة المميتة هي موت الروح"، كيف يمكنني الآن مشاركة الفراش معها؟ وإن لم أشاركها، فما حاجتي لمثل هذه الزوجة؟ ليس فقط أن أكون معها، بل أصبحت أشعر بالغثيان من مظهرها، ومن جسدها، وحتى من نَفَسها.... ماذا عساي أن أفعل، أنا البائس: كيف أكون معكم، كيف أكون معها، كيف أكون مع نفسي؛ ما العمل، كيف لي أن أواصل العيش بعد ذلك؟...."

لم يعرف كايران إلى أين تحمله قدماه، وإلى أي أزقة تأخذه، -مشى ومشى، يذرف الدموع كطفل صغير. بالتناوب مع الدموع، تسربت من صدره مرارة وصفراء، تذوب، وخطوة وراء خطوة، كما لو كانت تضعفه. نظر حوله، أدرك أنه كان لا يزال يسير على شارع آباي مرة أخرى.

ولكن إلى أين يذهب بعد ذلك، وإلى من يذهب، ولأي سبب يذهب، وبأي حق؟ - لم تكن لديه إجابات. وفي صدره ما زالت الحياة تومض بشكل خافت. اللعنة! بإمكانه أن يتخلى عن كل شيء، ولكن ماذا عن الأطفال، على الرغم من أنهم منفصلون من حيث المضمون الجسدي، إلا أنهم روح واحدة؟ خيانة ولا ترى أطفالك بسبب زوجة فاسدة؟ بتركها للبيت لن تنال العقوبة هي، بل هو من سيعاقب؟!وهل هذا عدلٌ؟

طالما أنه أحبها حقاً، يبدو أنه أخطأ عندما صدَّق أنها تحبه أيضًا. سعادته الوحيدة الآن هي الأطفال. لكنها أمهم. الطفل الذي فقد أمه هو يتيم حقيقي، فهو يمكن أن يجعل بيده من أطفاله أيتاماً! اللعنة على مثل هذا الأب! إذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني الاندفاع إلى أحضان هذه الخائنة ؟ لو أنني لم أرَ ولم أعرف، ما كنت لأشك بشيء -لكن الأمر مختلف، أن أرى بأم عيني وأتراجع؟....

... أين فيه الرجل، أين فيه الإنسان، في هذه الحالة؟

في حرارة الشهوة العمياء، كالمجنون، كان يقول لها في بعض الأحيان: "يا حبيبتي!" - الآن لا يمكنه أن يقول هذه الكلمة لها. إلى القبر، لقد تبين أنها ليست حبيبة."آهٍ! يا روحي!" - تمتمت بها، وهي شبه غائبة عن الوعي.

الآن، ينهار كل شيء، السعادة التي غمرته حين كانت تقول له ذلك في لقاءاتهما الحميمية، كانت وهماً كلماتها طفح شهوة رخيصة، تلقي بها للشخص الذي يملكها؛ ليس هناك ما يضمن أنها لم تقل ذلك له أيضاً...

يمور داخله بالغضب، بالحيرة:

-عقوبة الخيانة يجب أن تكون واحدة، الطلاق. وهذا يعني تدمير السعادة الوهميةالتي بنيتها بنفسك. ولكن، هل سيكون الأطفال ل"أبو"ين مطلقين سعداء؟من غير المرجح أن يكونوا.فقط عندما يعيشون ويكبرون، يمكن أن يعودوا إلى رشدهم.في الوقت نفسه، إن الصفح عن خيانة الزوجة من أجل الأطفال،يعادل الاعتراف بالخيانة كقانون للحياة.ولا يمكن اعتبارها خطأ، لأن الخطأ يمكن أن يقترفه المرء، عندما يكون عليه في وقت المحن اختيار واحد من العديد من الطرق المتشابكة. وبالطبع لم تقع أولُدير في مثل هذه الحالة. سترغب في الحصول على الطلاق، لأنها مشمئزة، هذه رغبتها، لتقرر بنفسها. أجل، ولتخبر هي نفسها الأطفال عن كل شيء.

تجول في الشوارع جيئة وذهابًا حتى وقت متأخر من الليل، وتعب للغاية. أُنهكت ساقاه، وبدأ رأسه يطن. حتى الأفكار المتناثرة في فوضى، واضح أنها تعبت. "ستكون، أم لن تكون! قال في لحظة وهو يصرّ على أسنانه: - "أقسم بروح الأجداد: سأمضي إلى ذلك من أجل الأطفال!"

بعد أن رسخ هذا الخيار في تفكيره، اقترب من منزله. تردد قليلًا عند الباب، كبح جماح هيجانه. مدَّ يده إلى الجرس مرتين، وخفضها في المرتين. أخيراً، وبعد أن استجمع شجاعته، ضغط على الزر.نقر من جديدٍ منصتًا. "بابا!" - سمع صوت ابنه البكر، تبعه صوت الطائرين الصغيرين- ابنه الأصغر وابنته. قاوم كايران دموعه المندفعة، وارتبك، ولم يتمكن من التحديد بوضوح في أي جهة يقع الباب، ولا في أي جهة يقف هو نفسه. سطع ضوء مبهر، خشخشة فتح الباب، وذراع الابن الأكبر يلف رقبته على الفور، والصخب الرنان لابنته الصغيرة التي لم يساعدها طولها الذي فردته بالكامل على احتضانه. سار خطوة، تعثر بشيء ما، اتضح أنه كان حقيبة اليد التي لم يعرف إن كان الجار قد أحضرها، أم أن الأطفال أنفسهم ذهبوا لإحضارها. الشيء الرئيسي أن الأطفال عرفوا عن عودته. لم تتم الفراخ، انتظروا بصبر وصوله. يا أعزائي!

أبعد بلطف ابنيه اللذين كانا يشعران بشوق كبير إليه، فأحاطا به من الجانبين، وقرَّب ابنته ذات السنوات التسع، وقبَّلها، وبينما كان يشم رائحتها، تدفقت الدموع على خديه، وتساقطت على شعرها.

أوريمتايكاتي[15]! - قال هامسًا وهويقربها بلطف إلى صدره. - يا عصفورتي!

أبي، لماذا تبكي؟ -سألت الابنة وهي تمسح وجهه بيدها. -هل أغضبك أحد؟

لا، يا نوري! فقط لأنني اشتقت إليكم.

(15) أوريمتايكا - صيغة التصغير والتحبب من اسم أوريم.

سوف استلقي بجانب والدي!،قال الابن البكر ماسكات.

وأنا، صرخ موراتيك[16] متدخلًا.

لا، أنا يا أبتي!،انزعجت أوريمو، تذمرت بصوت عالٍ.

لأن السرير الواحد لا يتسع للأربعة، فرشوا على الأرض بطانية سميكة، وبدأوا بترتيبها.

سأستلقي إلى اليمين من أبي، صاحت أوريم.

إذن، أنا إلى يساره –قال موراتيك.

حسناً، فليكن، وأنا سأنام من الطرف، –قال ماكسات مظهراً وعياً.

استقروا في أماكنهم، إلا أن كايران لم يستطع حتى الصباح إغلاق عينيه. لأول مرة في منزله، ينام منفصلاً عن زوجته.

في اليوم التالي، وليس من دون حساب، بعد أن عاد إلى البيت في وقت لاحق، لم يعرف لا الشاي ولا العشاء، شم ومسد على رؤوس أطفاله النائمين، وذهب إلى غرفة النوم. تبعته أولُدير. إلا أنه لم يبد أي اهتمام، ولم ينظر إليها.

افرشي لي بشكل منفصل هنا، –قال مشيراً إلى الأرض بالقرب من الجدار. دعي الأطفال لا يعرفون ولا يشعرون بأننا ننام منفصلين. هذا هو طلبي الأخير منك.

وعليه، استمر سلوكهما هذا لمدة أسبوع. لم تواجهه أولُدير، وفعلت ما قيل، ربما مفترضة أنه في النهاية سوف يرتد عن سلوكياته هذه.، حسب عادته السابقة، رجع إلى البيت من العمل، وتناول الغداء مع الأطفال، وسألهم في دروسهم، وأرشدهم، ولم يُظهر أي شيء. وعندما استمر على هذه هذه الحالة لمدة شهر أو أكثر، أظهرت أولُدير طبيعتها الأنثوية:

وماذا بعد، هل ستتصرف على هذا المنوال حتى نهاية القرن؟

من الآن فصاعداً، لن أعيش من أجل نفسي، وإنما من أجل أطفالي. حسنًا، وأنت، إن كنت بحاجة إلى حياة أخرى وزوج أفضل، يمكنك الذهاب للبحث، الطريق مفتوحة لك، وأنت حرة! من الآن فصاعداً لا أحتاج إليك، ولا إلى أي امرأة أخرى، –قال بصوت نزيه ومنخفض.

جمدت أولُدير في مكانها مذعنة. لم تكن خائفة من كلمات كايران، وإنما من نبرته التي بدت لها مليئة إما ببرودة قبرٍ قاسية أو جليدية لجسد ميت، أو بشكل عام، برهبة يصعب تفسيرها.

(16) موراتيك – صيغة التصغير والتحبب من اسم مورات.

بعد تخرجه من كلية التاريخ وزواجه في السنة الأخيرة، وحصوله على وظيفة في معهد الآثار والاثنولوجيا والتاريخ في ألماتي، كان كايران في غاية السرور لأنه تمكن من الإمساك بعرف"الحصان المحدب" الذي سيطعم أسرته بشكل أكيد.

كانت خطيبته أولُدير لا تزال طالبة في ذلك الوقت. استأجر معها"زاوية" في حي "كومبوت"، كما كان يسميه الناس. الحي المؤقت الذي استقرا فيه، أزقة

ضيقة ومظلمة، تذكر بالقرية أكثر من المدينة. وبسبب خوفها من المشي ليلاً، حاولت أولُدير بعد غروب الشمس عدم الذهاب إلى أي مكان. لم تذهب إلى سينما، ولا حتى إلى مسرح، لم تذهب هي، ولم تدع لكايران يذهبُ.

قالت له ممازحة:

-أنت كل مسرحي، ومسرحك، أنا فقط!".

كان هذا أسلوبها في التواصل بدون لفٍ ولا دوران، وذكر الشيء، على الرغم من الاسهاب، أرجع كايران ذلك إلى تكاليف التربية والتعليم باللغة الروسية، وبالتالي، لم يعر هذه الصفة أي اهتمام. بالإضافة إلى ذلك، كانت حقيقة الحياة أيضًا قريبة من ذلك. أولُدير المرحة والرقيقة لم تدع كايران اللعوب والنحيف يخرج من حضنها. لكن كايران أيضًا لم يكن يرغب حقًا في التحرر. بدا وكأنه لن يكون للحلم السعيد نهاية أو حد. ونتيجة لذلك، في هذا الكوخ ظهر إلى العالم كل من ماكسات وموراتٍ. فقط عندما ولُدت أولُدير ابنتهاأويريم، قام المعهد على الفور بتخصيص شقة لهم من ثلاث غرف.

كانت تلك هي الفترة التي يسميها العامة ممازحين بفترة الولائم الشاملة. بعد فترة قصيرة دافع كايران عن أطروحته لنيل لقب دكتور مرشح. وبانغماسه في العلم، وبعد تعيين معلمه مديرًا للتنقيب، قبل دعوته، وأخذ موضوعًا يناسب أطروحة الأستاذية في المستقبل. في البداية سار كل شيء على ما يرام، ولكن بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، بدأ النسيج الموحد للعلوم بالتصدع، وظهرت العيوب هنا وهناك، حتى جاءالفصل الكامل. الراتب أيضًا مُنح في بعض الأحيان، ولم يُمنح في أحيان أخرى. ليس من دون جهد، بعد أن أكمل كتابة أطروحة الأستاذية، استعد للدفاع عنها في ربيع العام المقبل، وللأسف، فعلة أولُدير قوضت بشكل ملحوظ حماسته. ومع ذلك، بعد أن استجمع قواه، حاول عدم إظهار مشاكله. وهذا ما حصل لدرجة ما.

دافع عن أطروحة الأستاذية، وخلال شهر واحد تم تأكيد اللقب في جانا-آركا، مع بداية فصل الصيف، وأُرسل كايران بالفعل كرئيس للبعثة.

في هذه السفرة دعته كارليغاش شخصيًا للزيارة. لم يكن الاهتمام والاحترامأقل شأنًا مما كانا عليه العام الماضي.

كلام الشابة الجميلة وأفكارها لم تتغير على الإطلاق. ومع ذلك، أخذ كايران على نفسه عهداً لا رجعة فيه:"إن كنت من أجل الأطفال قادراً على إخفاء تصرف أولُدير الحقير عن الناس، فهل من المعقول أن

أخفي عن كارليغاش مشاعري الحقيقية؟ سأقوم بتربية الأولاد، دون أن أبعدهم عن أمهم، كما لو أن شيئًا لم يحدث، سأواصل قيامي بواجبي ال"أبو"ي" -قرر، وأمسك بلجام الحرية، وشرع بالتنفيذ.

يبدو أن لديك سرٌ ما، لا يستطيع شخص غريب ملاحظته. أخبرني، أنت لست مريضاً؟ -قالت أورليغاش بصراحة، بعد تناولهما الشاي، والخروج في نزهة على الأقدام.

وكيف قررتِ؟

إنزع نفسك من مكانك، تبدو وكأن هناك شيئاً يلتهمك. بعد أن كنت تضحك بمرح، فجأة، شردت عيناك بعيدًا.

ما بك؟ وهل قمت بمراقبة كل ذلك في صمت؟

بالطبع!

من أجل ماذا؟

ولماذا المراقبة؟ ربما وقعت في حبك! أنا معجبة بك. ولكنك بالطبع تحب أطفالك، وليس أنا. كما يبدو من كلامك أنك تحب زوجتك، أنت تحاول أن تخدعني. ما تقوله غير صحيح، أرى ذلك من خلال تصرفاتك وسلوكك. افترض أنك تحبها، ولكن زوجتك، ربما، لا تحبك. أنت تعرف ذلك. أنت تعرف، لهذا السبب تمضي حياتك نهباً لهواجس وحشية. منذ ذلك الحين، لا تريد أن تترك الأطفال. أعتقد ذلك .... سامحني إن كنت مخطئة، وتدخلت فيما لايعنيني، ومض في رأسه فجأة خاطر أن يكشف لها الحقيقة كاملة، لكنه رفض على الفور مثل هذه الفكرة، فقد بدا له أن التشهير بالزوجة يماثل التشهير بالذات.

زوجتي تعاني من مشاكل صحية، لذلك أشعر بالقلق! قال منتقياً عذراً أكثر معقولية.

قالت كارليغاش، كما لو كانت تحدث نفسها:

هكذا الأمر إذن! أوه، هذه الحياة التي لا ترحم، تؤذي الجميع ببلاءٍ ما، مهما كان!

.... بعد عودته إلى ألماتي أيضاً في الخريف البارد، جعل من العودة إلى المنزل في وقت متأخر كل يوم قاعدة له. ومع مرور الوقت بدأ ينظر إليه زوجته كطيف منزلي، أو شبحٍ. في البداية تملكه الرعب، وفكر أنه من الجيد في يوم، أو في آخر، أن يمنع نقاط ضعفه تجاه أولُدير. وبالتدريج تولُد فيه شعور بالاشمئزاز لا يعرف الكلل، ومعه تزايدت خشيته من إظهار كراهيته المؤلمة لأولُدير بشكل غير مقصود أمام الأطفال. ويبدو أن أولُدير شعرت بكل هذا، وفي يوم من الأيام، لم تفرش لا فراشها ولا فراشه، جلست وظهرها باتجاهه، كما لو كانت في احتجاج صامت. هرع كايران ليفرش الفراش بنفسه، قفزت وسحبت البطانية من يديه.

كفي!، صرخت بعد أن استدارت-لن أحتمل سخريتك!

لن تحتملي؟! لا أحد يجبرك على القيام بذلك. تفضلي اذهبي إلى حيث تشائين!

لماذا يجب أن اذهب أنا؟ اذهب أنت!

إذن، نادي على الأولاد. أخبريهم دون تحفظ بما حدث، وليقرروا هم من منا يجب أن يغادر.

أي شرير أنت، هاه؟!

بعد أن عبَّرت بنفس الطريقة، فرشت أولُدير فرشاها وفراش كايراندون أن تقول أي شيء أكثر. ويبدو أن كل الآمال في كايران تحطمت من ذلك اليوم. تكيفت تماماً مع القيام بكل الواجبات المنزلية دون أسئلة. في حالات أخرى، سمح كايران لنفسه بتبادل الكلمات مع أولُدير، دون النظر إلى عينيها، ودون ملاحظة التعبير على وجهها. فقط مع الأطفال تحدث بحب، ودللهم.

بعد عشر سنوات، تزوج ابنهما الأكبر ماكسات بعد أن بلغ الرابعة والعشرين. وعلى ما يبدو، على أمل أن هذا الظرف سيجلب لحياتهم بعض التنوع، اجتهدت أولُدير في الاستعدادات لحفل الزفاف. وكما لو أنه لم يكن بينهم أدنى إغفال، بقيت حيوية، توهجت بالفرح، تحدثت كثيراً، وفي حضور الناس توجهت إليه وسألت عن أشياء مختلفة. ولكن بمجرد انتهاء مراسم الزفاف، عادت العلاقة الباردة من جديد.

بعد عامين، ظهر أول حفيد.

كان واحدًا من أسماء آبلاي[17] ، الذي منحه إياه بي تولي[18] ،لذلك ليكن مانكين!-أعلن كايران.

تبين أنه لم يكن لدى الأنسباء والأقارب أي اعتراض. ابتهج كايران كأي إنسان سعيد. في الوقت نفسه، هل كان سعيدًا حقًا؟ أم أنه تظاهر بذلك ؟، لم يستطع أحد التحديد، لا أولُدير، ولا الأطفال، ولا حتى هو نفسه. لم يرغب كايران، في الواقع، في التفكير في الأمر. لم تكن هناك صيغة أخرى في رأسه إلا "سعادة الأطفال- سعادتي!"

بينما كانوا يعيشون ويتزينون، تزوج ابنهما الثاني مورات حين أصبح في الخامسة والعشرين من عمره. الأسرار العائلية للزوجين الذين ينقلان القوس من زفاف إلى زفاف، من مرح إلى مرح، لم يستطع ملاحظتها حتى الأنسباء. لم تستدع الحياة المريحة ظاهريًا لدى الغرباء أي ريبة.لكن كايران، بدلًا من أن يلين، من سنة إلى أخرى أصبح بروحه أقسى، مشبهًا إياها بالقلعة الحجرية القوية.

ذات يوم، سألت ابنته، وهي طالبة، وهي تنظر إلى والدها:

أبي، هل تعاني من ألم ما يؤلمك؟ أو ربما تواجه صعوبات في العمل؟

لا يا ابنتي. كل شيء على ما يرام.

لست متأكدة يا أبتي. في بعض الأحيان لا تسمعني، كما لو كنت تفكر في شيء ما غير مفهوم. على الرغم من أنك تجلس بجانبي، إلا أن أفكارك بعيدة، كما لو كانت تحلق في مكان آخر.

ربما، يا أوريمتاي[19] ، رغبت تحديداً في أن أسمع كيف تقلقين بشأن والدك. تزوج ولُداي، وأنت أصبحت

---

(17) آبلاي -آبلاي خان، أو خان آبلاي-اسم أحد خانات الكازاخ، الذي شارك بفعالية وقاد نضال التحرير الوطني ضد الزونغار الغزاة (القرن السابع عشر-الثامن عشر). جامع الأراضي والأجزاء (تجمعات قبلية برئاسة خان) الكازاخية.

(18) بي تولي (تولي بي) - اسم أحد القضاة الشعبيين الشهيرين الثلاثة (القضاة المتحكمين بالمصائر)

(19) أوريمتاي - صيغة التصغير والتحبب من اسم أوريم (الخميلة الفتية، التشابك، ضفيرة البنت)، أضيفت إليه اللاحقة "تاي". تعني "مهرتي"، أي عزيزتي، حبيبتي وما إلى ذلك.

عروسًا، لذلك فقد أضفتم لي همومًا ومتاعب. مع هذا، إنه همٌ عذب، ستفهمينه عندما يقع على حصتك. أنا شخص سعيد: لدي ابنة مثلك،وأبناء مثل ماكسات وموورات، أليس كذلك؟

وزوجة مثل أمي!

أجل، يا ابنتي....

التفتت نحو أمها وصاحت:

أمي، اجلسي، من فضلك. اسمعي. ألا تودين أن تسمعي كم هو "أبو"نا محظوظ؟

الآن.

تمتمت أولُدير منفجرة في البكاء. تابعها كايران، بينما قالت أوريم وهي تتنهد في أسى.

ماما انفجرت بالبكاء.

واستطردت في تأثر:

-وأنا أيضاً أريد أن أبكي، يا أبي". نحن بحق سعداء: كلنا، أنا، وماسكات، وموورات، لأن لدينا مثل هذا الأب، ومثل هذه الأم! انحنِي، يا أبي، دعني أقبلك على ذلك. أوه، حسنًا، يا للهول! الآن أبي أيضاً انفجر في البكاء. بسببكما أصبحت عيناي مبتلتين. لكن البكاء من السعادة، نعم، هو أيضا سعادة، أليس كذلك؟ قل يا أبي، أليس كذلك؟

إنه كذلك، يا عزيزتي! حتى لا تنقطع سعادتك هذه، "أبو"ك المسكين مستعد للتخلي عن حياته، يا حبيبتي أنتِ!

إن كان هناك ثمة شخص فهم معنى الكلمات المنطوقة، فهو أولُدير التي رجعت من المطبخ، في حين لم تتمكن أوريم معرفة سبب دموعها المتدفقة.

سارت الحياة كالمعتاد. في العام التالي، زوَّج كايران وأولُدير ابنتهما أوريم التي كانت قد بلغت لتوها الثالثة والعشرين. بعد أن وزعا "ولُديهما في عشيهما، وابنتهمابعيدًا"، بلغ كايران الخامسة والخمسين، وأولُدير الثانية والخمسين.

في اليوم التالي بعد وداع ابنتها، ارتفع الضغط لدى أولُدير، وتم نقلها إلى المستشفي. ومع ذلك، لم يزرها كايران قط، إذ مثّل السير خلفها بالنسبة له كفرًا أمام الحقيقة المتشكلة.

منذ ذلك الحين، أصبح مرض أولُدير يظهر بشكل متزايد. في الفترة الأولى أصابها المرض مرة كل شهرين أو ثلاثة، بعد ذلك ارتفع إلى ساقيها. فيما بعدبدأت تمرض كل أسبوع. ونتيجة لذلك، وفي ضوء تدهور حالتها، انتقل موورات وزوجته إلى والديه للإقامة الدائمة، إلا أن أولُدير لم تتعافَ من ذلك. إذ أصبح المرض في العام الماضي أكثر تواتراً، فمنذ بداية هذا العام ظهرت من وقت لآخر صعوبات في الكلام، وتوقف اللسان عن الاستجابة. في أواخر نوفمبر أدخلت المستشفي من جديد. وقد تكون قد رغبت في التحدث مع زوجها، فطلبت من ابنتها باكية لكي يأتي حالًا. ---"هيا!"، قالت الابنة، وجذبت أباها من يده. وبما أن الابنة نفسها هي من

ستقوده إلى أمها، لم يستطع أن يرفض.

كانت أولُدير مستلقية على جانبها في غرفة منفصلة. بإيماءة، أفهمت ابنتها أنها تريد أن يبقيا وحدهما. ثم دعت كايران إلى الجلوس بقربها.

أأ نننننت عاااااقبتني بقسوة، -تحدثت بصعوبة ودموعها تصب. شكراً لأنك لم تخبر الأولاد .... لاتخبرهم بعد موتي، ستكون روحي مطمئنة.

لن أخبرهم. لكن ما يجب عليك معرفته هو أنك عاقبتيني أيضاً، وأنا، بسببك، لم أعش لمدة سبعة عشر عاماً إلا في دور رب أسرة لديه أطفال، إلا أنه لم يكن هناك زوجة لي.

نعم .... ولكن ....

تذكري، أنك ارتكبت بنفسك الخطيئة، وعبء العقاب تحملناه معًا. من أجل أطفالي. لذلك لا تلوميني!

لا .... هزَّت أولُددير رأسها بجنون. حركت ذقنهابتشنج، وأغلقت أجفانها بإحكام.

أياً كانت الفترة التي جلسها كايران بانتظار أن تفتح عينيها طويلة أم قصيرة، فإنها لم تفتحها. انتظر لفترة طويلة، ثم نهض من مكانه وخرج من الجناح.

بعد يومين، في 27 فبراير 2011، فارقت روح أولُدير الدنيا.

يقولون إنه حتى قبل عصرنا، توفي ولُدا جدنا الأكبر آريس[20] ، كان اسم أحدهما "آك[21] "، والآخر "بان[22] "، وبإرادة القدر القاسي ماتا من البرد في السفوح الدنيا لجبل خان-تينغري[23] العالي. ومنذ ذلك الحين يسمى هذا الشهر بـ"الأخوين"، أي "آك-بان[24] ".وهل بسبب ذلك يرتبط بهذا الشهر معنى آخر، يعني النهاية، أو الخاتمة.بهذا الشهر ينتهي الشتاء. وحياة أولُدير انتهت في هذا الشهر. سيحدد الزمن ما إذا كان الموت يحل عقدة الحياة المنحلة.



(20) آريس – الدعم القوي، الهيكل العظمي لشيء ما، أو لشخص ما.

(21) آك – الأبيض، النبيل.

(22) بان – الراعي، الحامي.

(23) خان-تينغري – قمة في جبال ألتاو.

(24) آك-بان-اسم شهر فبراير.

صوفي سماتايف

(ولُد عام 1941)



- كاتب نثر ومسرحي، ويعتبر واحدًا من أنجح وألمع ممثلي الأدب والفن الكازاخي.
- التحق عام 1959 بكلية فقه اللغة بالجامعة الوطنية الكازاخية، وبعد عام واحد انتقل للدراسة بمعهد موسكو للصلب والسبائك وتخرج فيه بنجاح عام 1965 في تخصص الهندسة التعدينية.
- بدأ مساره الإبداعي من خلال الشعر، ونشرت أول أشعاره في كتاب "أضواء أستانا"، وله العديد من الأعمال النثرية مثل: ثلاثية "وطني الأصلي"، وروايات "الفستان الأبيض"، "البداية الأبدية"، "إذا لم نكن عبيدًا، فماذا نكون؟!"، "الممر الأول"، "يا لهذا الشباب!" وغيرها من الأعمال.
- قام بكتابة بعض الأعمال للأوبرا ومن بينها: "سر العذراء"، "جامبول"، و"العزاب". ومن بين مسرحياته: "من أنت؟"، "المزحة اللعينة"، "نجمتي العالية"، "المصائر"، "المهد الذهبي"، ""آه يا سهوبي، آه يا ملجأي"، "الانتقام على الطريقة الكازاخية"، "الافتخار على الطريقة الكازاخية"، "التاكسي الأزرق"، "صخب الزفاف"، "الآمال والشكوك" وغيرها.
- كتب سيناريوهات بعض الأفلام السينمائية مثل: "التي تشبه القمر"، "نجمة بيرجان الأخيرة".
- ترجم إلى اللغة الكازاخية أعمال ويليام شكسبير، وفلاديمير كارولينكا، وفسيفالود إسفانوف، وفلاديمير سالوخين، وأندريه لوبان، وبافلو زاجريبلني، ولاريسا عبدولينا وإمري دابوزي وغيرهم الكثيرين.
- في عام 2008 صدرت أعماله كاملة في سبعة عشر مجلدًا.
- حصل على جائزة "ألاش" الأدبية الدولية عام 2002.

الأغنية

كم كانت حزينة هذه الأغنية!

في مثل هذه اللحظات هزَّ عينيها ضبابٌ مزرقٌ قاتمٌ، نظرت بشكل أعمى أمامها، فارتجفت رموشها النحاسية الضاربة إلى الحمرة، وعندها بدا أن الرطوبة التي تحجب النظر المغبش المتجمد، كانت على وشك أن تنسكب، إلا أن أحدًا لم يرَ دموعها؛ فالفتاة المشردة، رثَّة الثياب، التي أثار صوتها المرتجف القشعريرة في أرواحنا الصبيانية، أخضعتنا تمامًا إليها، ولم تسمح لنا بالتحرك.

إيه، لو نفهم ولو كلمة واحدة من أغنيتها!

حاولنا في ارتباك أن ننضم إلى الغناء، انتقينا ما هو قريب من حيث اللفظ من أغانينا الكازاخية الأصيلة، إلا أنه بسبب عدم التناغم لذنا بالصمت، ترتجف قلوبنا خجلًا من أصواتنا الجشة والمتقطعة من الارتباك، واللحن الغريب، المنمق وغير المألوف للأذن، والذي نقل إلى السماء الملبدة بالغيوم اللفظ الساحر للغة الأجنبية، سحرنا وأثَّر بشكل مؤلم فينا، وحدَّث القلب النقي عن شيء قريب، عزيز ومفهوم.

ما زلت لا أستطيع فهم هذه المعجزة...

كانت الفتاة تأتي دائمًا من الجانب الآخر للساقية، تخوض في المياه الجليدية، وبشكل رهيب تدس قدميها الحافيتين الأرجوانيتين من البرد في التيار الجليدي المظلم، وتمسك يدهابالحافة المتهالكة، وعندما تطأ قدماها الشاطئ الثلجي، تنظر إلينا بحذر، وتدنو بخوف، مرتعشة ومرتابة، والآن، بعد سنوات كثيرة، أراها في ذاكرتي من خلال تلك المياه المظلمة، تسير على الثلج الأبيض، متجهة نحوي...

كان ذلك في أواخر خريف عام ثمانية وأربعين....وهل كنا نحن الصبية نشعر بالتعب، من الركض مع الصراخ والضوضاء بين بيوت القرية! منذ الفجر الباهت، حتى بعد غروب الشمس، دون لحظة واحدة نلتقط فيها أنفاسنا من هذا العدو المستمر، متناسين في بعض الأحيان أن نمسح أنوفنا بأكمام ستراتنا المألوفة، التقينا بها في تلك الفترة من طفولتنا، الرشيقة والشرهة لكل ما هو ممتع.

أذكر جيدًا ذلك الصباح الذي بدأ مع صرخات مبتهجة، انهيار ثلجي تجاوز النوافذ على طول شارعنا، آلكاي(1) ! لقد هطل الثلج! هورا!

يا له من هطول! ثلج! ثلج!

الثلج الأول، المطر الأول، العشب الأول، دائمًا وفي كل مكان يفرح به الأطفال الصغار، وهذا الفرح الصاخب، وفقًا لقوانين العالم النقي للطفولة، لا حدود له، بغض النظر عن المكان الذي يعيش فيه الناس، هذا الفرح لا يعترف بحدودٍ للزمن، وليس هناك بالنسبة له حدود إقليمية أو غيرها من التي اخترعها الناس في أوقات مختلفة ولأسباب مختلفة.

ينطلقون بكعوب سوداء، ويندفعون خارج العتبة، وها هو الثلج القطني الأول!،

من أعماق السماء السديمية الرمادية تهبط الفراشات البيضاء هائمة، متأرجحة، مصابة بالدوران، ترفع كفك مبسوطًا إلى الأعلى، تهبط بثقة على كفك، وتذوب عندما تلامسه، يمكنك أن تنحني وتلتقط الثلج من الأرض وتضغطه بقوة في قبضتك وتضحك من الفرح، وترفع باتجاه السماء وجهك الحار، وتفتح فمك واسعًا، يستولي البرد على خديك وجبهتك، ولا يشعر طرف لسانك إلا برطوبة عديمة النكهة، طازجة، تساقط الثلج هو عيد الطفولة!

عندما كنا نرمي بعضنا بعضًا بكرات الثلج، كنا ننسى كل شيء في الدنيا، لأن في العالم كله لم يتملكنا إلا فرح واحد، لا يوصف، هابط من السماء...ثلج! ثلج! ثلج!

فجأة، وبشكل غير متوقع دغدغت آذاننا كلمات أغنية...، صوتٌ مليء بالشوق، صوتٌ طفوليٌ رقيقٌ طاف من بعيد، لكنه كان مميزًا وحقيقيًا، ولم يتوقف اللحن غير المألوف، بل اكتسب قوته، وحزِنَ، وخفتَ،

استمرت بالتساقط بغزارة ندفات الثلج المذهلة، لكننا في تلك اللحظة لم نره، توقف اللعب، نظرنا بقلقٍ بعضنا إلى بعض، تريثنا لدقيقة، وهرعنا بكامل سرعتنا إلى المكان الذي جاءت منه الأغنية، ركضنا على أقدام من القلق أن يفوتنا شيء مهم، خفنا من أن يتوقف اللحن، خفنا من أن يذهب، وأن يغيب عنا طويلًا، خفنا بشدة من ألا نلحق!

وها نحن نحيط بهذه الفتاة الغريبة من جميع الجهات، في حين وقفت هي في جمود تام، على كتفها حقيبة سفر، طرف ثوبها الرث ممزق، كانت تقف حافية القدمين، الأمر الذي لم يفاجئنا على الإطلاق، في ذلك الوقت لم تتلامس كعوبنا القوية مع أي شيء سوى الأرض، متوهجة من الشمس، أو مازالت مغطاة بالصقيع الأول، أو مرشوشة بالثلج، كذلك لم تدهشنا ملابسها، في سنوات ما بعد الحرب لم نرتدِ ملابس أفضل.

لكن الأغنية...! في رعشة الصوت الحزين الذي يجري تضفيره فجأة مع إيقاع مألوف للقلب، والكلمات الغريبة على الأذن، تضيء آلامنا التي لم نكن نعرفها من قبل، إلا أننا نخمنها بحدسنا، آنذاك رأيت نظرتها

(1) آلكاي: صرخة الابتهاج باللغة الكازاخية.

الغامضة التي كانت تهز الرطوبة، وذُهلتُ من حقيقة أن الروح الطفولية المعذبة، تبدو كما لو أنها سعت لتنسكب من هذه العيون المتوترة والمفتوحة على مصراعيها، ولم تستطع، لذلك كابدت وغَنَّت هذه الأغنية الرائعة، عندما تباطأ اللحن قليلًا، بدا أن الظل كان يدور على وجه الفتاة الشاحب، ولكن ها هي الأغنية تبدأ بالتحليق من جديد، وعاد وجه المغنية غير المغسول إلى الوراء وأشرقَ.

وسما اللحن إلى الرنين الأنقى، وانقطع، كما لو قُطع بسكين.

تمت مقاطعة الأغنية من قبل تليوكور؛ الفتوة، تليوكور شجاعنا وزعيمنا، لم نلحظ كيف انحنى، وكيف جمع الثلج بكفيه، رأينا فقط كيف ومضت كرة الثلج القوية التي أطلقها على مؤخرة رأس الفتاة.

انقطعت الأغنية غير المكتملة كما لو أن الفتاة فعلت ذلك من تلقاء نفسها، لم تحرك الفتاة ساكنًا، التفتنا في الحال إلى تليوكور، ونظرنا بتجهم إلى زعيمنا، خفض تليوكور رأسه، وخبأ يديه وراء ظهره، لكننا انتظرنا التفسير، هي أيضًا وقفت وسطنا، بلا حراك، شاحبة برموشها الضاربة إلى الحمرة، المرتعشة.

في تلك اللحظة رفع تليوكور رأسه وابتسم ساخرًا،.

أنا أعرفها!

قال وصمت،

كان هذا التليوكور أكبرنا، ودومًا يعرف كل شيء، وتعمَّد عدم التسرع في الإفصاح عما كان يعرفه.

هذه الفتاة ألمانية!

صرخ أخيرًا،

رأيتها بالأمس...لدى أندريه، في منزلهم، إنها هي!

كنا نعرف جيدًا من هو "الألماني"، مسخٌ بعين واحدة، مع أنياب ملتوية، "الألماني" يعني الحرب، "الألماني" يعني الموت، إنه ذلك النحيب اليومي، والنوح، والحداد التي نشأنا فيه، الوجه الشاحب للفتاة ذات الخدين الغائرين، مع شعرها الباهت المتدلي على صدغيها، أصبح في لحظة يشبه قناع نسلٍ عجيب.

انظر، انكشفت!

تكلمنا من بين أسناننا،

-....هذه أنتِ إذن،

التزمت الفتاة الصمت،

نظرنا بعضنا إلى بعض، وفهم بعضنا بعضا على الفور: كان هناك الكثير من الثلج في الحفرة التي تقع في القرب؛ ثلج يكفي لحرب بأكملها، حرب مع هذه الألمانية، هرعنا إلى الحفرة، وفي أصداغنا كان يدوي بحماس الشيء ذاته: "ألمانية"!"ألمانية"!"ألمانية"!

ثلج! ثلج فوق الكاحلين! ثلج إلى ما يقرب من الركبة.

... لكن لماذا لا تهرب؟ انزلقت حقيبة السفر من كتفها، الفتاة واقفة، وعلى الثلج الأبيض الباهر، تحمرُّ

قدماها الحافيتان كبقعتين حادّتين، من الدم.

فجأة لوَّح زعيمنا، تليوكورنا الشجاع، بيده، وقال بخمول:

هيا!... عليها!

وكان هو أول من خرج من الحفرة.

في اللحظة نفسها ابتسمت الفتاة، هزَّت رأسها، رفعت ذؤابتها المجعدة عن جبهتها، وغنَّت بصوت عالٍ، تلك الأغنية نفسها، لكن صوتها فقط أصبح أعلى، وشوقها غير المألوف أكثر رقة، وحزنها أكثر شفافية وبساطة.

وقفنا على حافة الحفرة وأفواهنا مفتوحة، وكانت الفتاة معنا مرة أخرى: لم نعد نتذكر الماضي.

نظرت باندفاعٍ إلى اليمين، فوقع نظري على تليوكور الذي وقف بالقرب بصمت، كان وجهه رطبًا من الثلج المتساقط، وفي تلك اللحظة بالذات فهمت، هذا ليس الثلج، ارتجفت ذقني، وشعرت بأن دموعي على وشك أن تتدفق، لم أكن أذكر والد تليوكور الذي قتل في السنة الأولى من الحرب، ولم أدرِ لماذا أبكي؛ من الشفقة على تليوكور؛ أم من الشفقة على نفسي؛ أم من أغنية هذه الفتاة المشردة، لكني بعد أن تمالكت بصعوبة نفسي، سحبت تليوكور من كمّهِ، وفي اللحظة نفسها ضربتْ قبضته وجنتي.

خفت الضوء، تلاشى، دار رأسي، سقطت.

عندما رفعت كفي عن وجهي الملتهب، رأيت أنه لا يوجد أحد بجانبي غير الفتاة.

وقفت الفتاة قريبةً جدًا، وابتسمت في وجهي الآن، خفضت رأسي الثقيل، وفهمت، وجهها الشاحب والذي كساه البرد القارس بالزرقة تجلى وتجلى أمام عيني، وابتسم بشكل غامض في وجهي.

لقد تركني الجميع، تركوني مع الألمانية، لم أبكِ، وابتسمت هي، كما لو أن ما حدث لي لم يكن بسببها، مضحكٌ، بالطبع، مضحكٌ بالنسبة لها، للألمانية...

في محاولة مني لتهدئة رعشتي، نهضت بصعوبة، وضربت بكل قوتي وجهها الصغير، بدا أن يدي ضربت حجرًا، في اللحظة نفسها، بقي ما رأيته إلى الأبد في ذاكرتي، نزلت الدماء من أنف الطفلة، في عينيها المتسعتين بلا إحساس، لم يكن هناك لا خوف، ولا استياء، وإنما فقط ذهولٌ، ذهولٌ أبله.

أنفها الغارق في الدم، وفمها الملتوي كمثلث، كل هذا لم يكن شيئًا مقارنة بعينيها اللتين لم يكن فيهما أي ألم، أدركت أنه مع مثل هاتين العينين لا يمكن لأي شخص أن يغني، أبدًا! أبدًا!

اهتز كتفاي من الصراخ الهائج العالي.

في ذلك اليوم ارتفعت درجة حرارتي؛ رقدت، تشبث المرض بي بإحكام، قضيت معظم الشتاء في الفراش، قرر الكبار والأصغر سنًا، أنني مصاب بالبرد، إلا أن الطاعنين في السن كان لهم قرار آخر، أن شخصًا شريرًا أصابني بالعين.

عند المغيب كانت الغرفة المنخفضة هادئة تمامًا، لم يزرني أقراني، فقط من وقت لآخر تواردت الأصوات الضعيفة للأولاد والتي بالكاد يمكن تمييزها، والصرخات المجنونة لأصدقائي المتزلجين على التلة الجليدية.

ما زلت إلى اليوم أشعر بالسعادة لأنني في ذلك الشتاء علمت أن أمي راوية حكايات رائعة، ففي المساء بعد أن تنهي عملها مع الماشية من زربٍ وإطعام، تدخل الفحم في الفرن، وتضع القدر الحديدي على الموقد، وتبتسم في وجهي، ثم تسارع وتجلس على فراشي، وقبل أن تبدأ حكاية جديدة، تشد دائمًا منديلها الأبيض على مؤخرة رأسها، حتى الآن أذكر هذه الحركة العزيزة على قلبي، وصوتها الأحادي النغم والمنخفض والمحبب.

بالطبع، عندها تحديدًا أمتطي الجمل الرهوان جيلمايا (2) جنبًا مع الرحالة العجوز أسان كايغي (3)، حيث نجُوب معًا جميع البلدان؛ باحثين ومفتشين عن الأرض الموعودة... وأحيانًا كنت أذهب للصيد مع كولاميرجين (4) نفسه الذي لم يعرف الخطأ.

كذلك كانت عند أمي حكاية خيالية غريبة عن بكاء ماريا اليتيمة، عرفت فيها ما لم تستطع أمي الطيبة معرفته: عرفت كيف يدوي نحيب تلك الماريا المجهولة، عرفت كيف يدوي في اللغة غير المألوفة لهذه الفتاة رثة الثياب، وهذا النحيب هو أغنية، أغنية لن يسمعها أحد ولا في أي مكان.

لكنني انتظرتها، وأنصتُ بشغف إلى أصوات الأطفال التي يصعب تمييزها خارج النافذة، سمعت هذه الأغنية في المنام، وأحيانًا رأيت في المنام عينيّ تلك الفتاة المشردة، فاستيقظت مرعوبًا، ونظرت في الظلام أمامي، خائفًا من أن أطبق جفني، فأرى من جديد نظرتها اللامبالية، المندهشة والخالية من الألم.

على الرغم من أنني أنصت إليه، إلا أن هذا اللحن لم يعد يصدح في شارعنا، والفتاة اليتيمة لم تعبر عتبتنا، ولم تظهر بجانبي.

بدلًا منها جاء إلينا آخرون، زارنا أقاربُ، وقدم إلينا جيران، وجاءتنا ممرضة القرية الشابة التي كانت تفحصني أولًا، ثم تخبر أمي بهمسٍ واثقٍ بشيءٍ ما، في حين كانت أمي تسمع وتهز برأسها بصبرٍ متنهدةً بإذعان، لكن الممرضة أصبحت تأتي إلينا أقل فأقل، ثم توقفت تمامًا عن القدوم، استلقيت على السرير ذي الصرير، وطوال اليوم نظرت من النافذة الملغاة بصليب.

من خلال النافذة المنحنية التي لم تصلَّح منذ زمن، والمعتمة من الرطوبة المستقرة على زجاجها، فجأة

---

(2) جيلمايا: نوع من الجِمال معروف بسرعته، يُذكرُ على نطاق واسع في الأساطير والحكايات الشعبية الكازاخية.

(3) أسان كايغي (القرن الرابع عشر–ستينيات القرن الخامس عشر) – شاعر وفيلسوف وشخصية أسطورية. لُقّبَ بـ"كايغي" وتعني "الحزين" بسبب أفكاره وتأملاته الدائمة.

(4) كولاميرجين: صياد ماهر في الأساطير الكازاخية.

هناك، في الشارع، قريب جدًا، سمعت الأغنية، نهضت، في البداية حاول الصوت الرقيق أن يهدئ رعشته، ثم تغلب عليها، وصدح عاليًا وصافيًا.

أبّا-ا-ا! - صرخت بشوق، -أبّا-ا-ا!

لكن أمي لم تكن في المنزل.

لا أعرف كيف تمكنت من الإمساك بظهر السرير، بأعمدته المعدنية الضخمة، تحركت بصعوبة على ساقيّ المنحنيتين، متعثرًا وملتقطًا لأنفاسي، وبدأت في البحث عن الملابس، أدخلت قدميّ الحافيتين في حذاء أبي المبطن بالمطاط، واتجهت بشكل خاطئ نحو الباب، لقد أعماني ضوء النهار، أغلقت عيني لتخفيف الدُّوار، وقمت بخطوة متغلبًا على الوهن، لم أسقط، وها هي الأغنية، بقوة لا يمكن مقاومتها، تسحبني، تسحبني إلى الأمام، درتُ حول زاوية المنزل، ورأيت الصورة نفسها كما في السابق، رأيت المغنية النحيفة الصغيرة في دائرة أقراني.

عندما لهثت ساحبًا بصعوبة الحذاء الثقيل، واقتربت منها عن كثب، انكمشت الفتاة، وسكتت، بأصابعي المرتعشة أمسكت بيدها، نظرت متجهمة، ودفعتني بقوة في صدري، فسقطت على ظهري، بوثبةٍ واحدة قفز تيليوكور نحو الفتاة، لكنني صرخت برعب:

لا تلـ-م-سها! لا تلـ-م-سها!

بالكاد سمعت صرختي،

نظرتُ في وجوه رفاقي الذين تجمهروا ورفعوني من الأرض، وضحكتُ، كم شعرت بالارتياح عندها! لقد دفعتني! ولم أعد مذنبًا تجاهها! كانت هي التي أنقذتني من الذنب الذي التهمني، أشعر بالضعف من الضحك المتهور، ومن شمس ما قبل الربيع، ومن الرياح التعسفية، لم يعد بإمكاني الوقوف، لكن أقراني يمسكونني بقوة من تحت ذراعي، وأنا بالكاد أنطق:

غنّي! دعها تغني...

خفضت الفتاة رأسها، وها هي شفاهها ترتجف، وتندفع الأغنية ببطء، وتنتشر في كل الأرجاء، وفجأة رأيت كيف أمسكت يدان رجوليتان قويتان بالفتاة، ورفعتاها إلى السماء، في مخيلتي المريضة ظهر بوضوح غير عادي وجه أنثوي غير مألوف، يرقب الفتاة بحب وشفقة الأم، فُتحت لي بلادٌلم تكن مألوفة لي، ولم أزرها قط، والأغنية واصلت فعلها السحري بي، وحملتني إلى مناطق بعيدة، بعيدة لم أرها من قبل...



كانت دائمًا تأتي من الجانب الآخر للساقية، وكنا نلاحظ من بعيد جسمها النحيل، ونهرع للقائها، منذ ذلك اليوم بدأت صحتي بالتحسن، وانضممت بسرعة إلى ألعاب الأولاد المرحة والمليئة بالضوضاء والصراخ.

قرر الكبار أن جسدي قد تغلب على المرض، وشكر كبار السن الله تعالى على رحمته، ورأوا في ذلك قدر الله، ولكن لا أحدَ، غيري، عرف عن القوة الجبارة للعفو التي أنقذتني من هذا المرض.

وجاء الصيف المبارك، وبغير حدٍّ أشرقت السماء بذهبيتها وسماويتها، ووسط فرحنا الذي لا يعرف الكلل، في مركزه، تستحق الذكر الفتاة المغنية الصغيرة المبتسمة إيما، كنا قد عرفنا أن والدها الشيوعي الألماني قتل بشكل بطولي في معركة ستالينغراد، وأمها تجمدت في السهوب في أوائل ربيع عام ستة وأربعين وهي تنقذ قطيعًا من الأغنام في عاصفة ثلجية عنيفة، وربما كان من الواضح تمامًا أنه في الأيام المأساوية والصعبة غالبًا ما تنفتح الأيادي البشرية المتلطفة.

في القرية اعتادوا على إيما الصغيرة، أرى أيادي القرويين السمراء تمسد شعرها الأشقر، وأرى أيادي الأمهات الغريبات تغسل رأسها، وأرى أياديَ تناولها قطعة خبز، ونصف حفنة من الحبوب، مع كل نبضة قلب أعي أكثر أنني حتى آخر نفس مدين لأبناء قريتي؛ فهم بالبساطة البريئة لحياتهم اليومية، سيمثلون لي مثالًا أبديًا على اللطف والرحمة.

لم نتذكر قَطُّ يُتم إيما؛ فهي بالنسبة لنا لم تكن مختلفة عن غيرها من الأولاد الذين نشأوا بعد الحرب بدون حنان آبائهم، كان للكثير من أقراني مثل هذا النصيب...

لم تعد إيما الفتاة الوحيدة التي لا مأوى لها، وكأنها مشردة حملتها عبر السهوب رياح يُتم ما بعد الحرب، عادت الحياة إلى وجهها، واختفت منه الظلال الحادة، وبدأ التألق يلعب في عينيها، والآن أصبحنا نسمع ضحكتها الرنانة والرخيمة، لقد أصبحت بالفعل قادرة، ومن دون تشويه للكلمات، على غناء الأغاني الكازاخية، وأصبحت أنا وتليوكور أعز أصدقائها.

ذات مرة كنا -الشلة كلها- مستلقين على الضفة الساخنة لنهر كاراسو، معرضين للشمس أجسادنا البنية النحاسية من الحمام الشمسي الطويل، وكزني تليوكور بكعبه الحافي في جانبي:

هيه! انظر، والدك قادم.

قفزت واندفعت جاريًا، طاويًا أثناء سيري سروالي الطويل الساقين: والدي سائق قاطرة، وأحيانًا يغادر لرحلات لمدة يومين أو ثلاثة أيام، وخلال ذلك الوقت أفتقده كثيرًا، وها أنا ألقي بنفسي على رقبته، وأدس أنفي في سترته الموحّدة، متنفسًا بشغف الرائحة القوية والرائعة للفحم وزيت الوقود المعشعش في ثيابه.

كفي يا بُنيّ، انظر، لقد لطختَ أنفك...

والدي يقول دائمًا هذه الكلمات لي، بينما يغمس وجهه في خصلات شعري، ينظر إلى وجهي، عيناه البنيتان تضحكان، إلا أنه يقول بحزم:

تجري طوال اليوم، هل نسيت؟ أفترض أنك ستذهب في الخريف إلى المدرسة،

أذكر! أذكر! إلى المدرسة!

هكذا استمر، لا تنسَ،

ويسحب أبي من جيبه قلمي رصاص مدهشين، أزرقين من طرف، أحمرين من الطرف الآخر، وأعطاني إياهما كما لو كان يقدّم لي كل ثروات العالم! حتى قلم الرصاص البسيط كان من الصعب شراؤه في تلك الفترة، جننت من السعادة، قفزت عدة مرات في مكاني.

حسنًا، اذهب بسرعة...

دفعني أبي في ظهري، وهو يستطرد قائلا:

- أسرع، استحم!

أومأت برأسي لأبي، وهرعت إلى رفاقي وأنا أشعر كيف كان يتبعني بنظره مبتسمًا، لكن لم يكن لدي القوة للالتفاف، وصرخت وأنا أركض بكامل قوة رئتيّ:

هنا! هنا! قلما رصاص، ص-ص! أحمران، أزرقان! ملوَّنان!

كل هذا الوقت لم ينزل الأولاد عيونهم عنا، وعندما ركضت، لم يُبدِ أي منهم أدنى سعادة، استدار بعضهم إلى الجانب الآخر، ولم ينظروا إلى أقلامي؛ أقلام الرصاص المدهشة، في حين نهض الآخرون، لكن ليس على الفور، واقتربوا بكسل، كما لو كانوا يفعلون على مضض.

وحده تليوكور مدَّ يده، ولمس بحذر النهاية الحمراء لقلم الرصاص، وقال بصوت غير طبيعي، كشخص بالغ بعد أن سعل:

حسنًا، الآن تعلَّم جيدًا...

التفتُّ إلى إيما، لم تنظر في اتجاهي على الاطلاق، كان شعرها الأشقر متناثرًا على كتفيها، ودون أن ترفع خصلاته عن جبهتها، ظلت تحدّق في ظهر أبي الذي سار مغادرًا، وبقيت صامتة.

عندها فقط بدا لي أنني فهمت صمتهم الغريب، يمكنك أن تنسى يُتم الآخر، ويمكنك ألا تلاحظه، ولكن هناك الكثير من الأسباب في العالم من شأنها ألا تسمح للأيتام أنفسهم بنسيان حرمانهم.

ذهلت من تخميني، ولعدم معرفتي بما ينبغي فعله، سحبت إيما بخجل من كتفها.

هل ستتعلم؟

سألت، وهي تنظر إلي بشكل غير مبالٍ...

نعم! سوف أتعلم! وأنتِ سوف تتعلمين! سوف نتعلم جميعًا! قريبًا سنذهب إلى المدرسة، سنجلس معًا، حسنًا؟ ليس لدي ورقة وأقلام رصاص!

قالت بلا مبالاة، واستدارت.

خذي! واحدٌ لك! وواحدٌ لي، خذي يا إيما!

أمسكت إيما بقلم الرصاص في يدها غير مصدقة عينيها، وهزت رأسها، وضحكت بهدوء، غنَّت تلك الأغنية، ولكن بسرعة وبشكل هزلي، واختنقت فجأة فتوقفت، ورفعت وجهها إلى السماء مبتسمة، في عمق لازورد السماء حامَ وحامَ عاليًا فوقنا طائر أبيض، صغير جدًا، بالكاد يمكن رؤيته في الأعالي...

في المساء، عندما تفرقنا إلى المنزل، اقتربت مني إيما بحياء، ونظرت إلى الجانب، ووضعت قلم الرصاص نفسه في يدي.

لماذا؟

لم أفهم،

وقفت دون أن تستدير، وأخيرًا قالت:

ليبقَ لديك، سوف آخذه لاحقًا؛ أخشى أن يضيع،

حسنًا! سأخبئهما معًا، قلمك وقلمي، سوف أعتني بهما!،

خبئهما،

قالت بدون أن تستدير.



مرَّت عشرة أيام...

في الصباح الباكر، عندما وضعت طاولة مستديرة في وسط الغرفة الأمامية، وجلست عائلتنا بأكملها لشرب الشاي، فتح الباب بقوة، أومأ لي تليوكور لاهثًا، واختفي على الفور في الممر، وضعت البيالا التي كنت قد حملتها إلى فمي، وقفزت وراءه، لم أر قط تليوكور حائرًا كما كان.

إيما ستغادر...

إلى أين؟

يقولون إنه وصلت إلى المدينة م-م-م....

تلعثم تليوكور وهو ينطق بصعوبة الكلمة الروسية، كو-ميسيا (5) ، ها هي،

لم أفهم شيئًا...

سيأخذون إيما إلى دار الأيتام،

(5) كوميسيا: كلمة روسية تعني "لجنة".

الآن ؟!

تمتمت دون أن أتحرك من مكاني، عندما وصلت أخيرًا إلى المنزل راكضًا، وبعثرت على عجَل البطانيات والملابس والوسائد، لم يكن قلم الرصاص هناك، بحثت تحت السرير، على الطاولة، تنقلتُ من زاوية إلى زاوية، دون جدوى.

ما الذي تبحث عنه يا بنيّ؟ ماذا حدث؟

هل يمكنك شرح ما حدث؟

أوه، لم أتمكن من نطق ولو كلمة ردًا على والديّ!

وأخيرًا أمسكت بقلم الرصاص في يدي، وهرعت بسرعة إلى الشارع بدون أن أغلق الباب خلفي،

ركضنا إلى المحطة، كانت على بعد كيلومتر واحد فقط من قريتنا، لكن المسافة كانت طويلة للغاية في تلك الدقائق!

لدى صديقي ساقان طويلتان، يندفع إلى الأمام بطول حبلٍ، وعلى ما يبدو، من الشفقة يتوقف، وينتظرني:

أسرع!

يصرخ:

-نحن لا نتسابق، أسرع! إيه، لقد تأخرنا.

لم تعد ساقاي تطيعانني، أختنقُ من الجري، والعرق المالح يكتسح عيني بموجة حارة.

فجأة، من بعيد، على خلفية السفح الأحدب للجبل، ظهر قطار، عرباته التي تلمع بمرح في شمس الصباح، كانت تقترب أكثر فأكثر، قطارات الركاب لا تتوقف في محطتنا أكثر من دقيقتين، في هاتين الدقيقتين، أدركت أن حياة الإنسان تقاسُ أحيانًا باللحظات.

بالكاد توقف القطار، حتى انطلق بجانبنا تاركًا في محطتنا دفقات من دخان قاطرته الأسود،لم أتمكن من الوصول، وقعت في عجز بمنتصف الطريق، خادشًا بأظافر قدميّ طين السهوب الناصع، أسمع الصوت الحائر والمواسي للمثابر تليوكور، ويدوي هذا الصوت في أذنيّ صدىً متكررًا، أسمع الصرخة النافذة للقطار، ونَفَسي المتقطع، في لحظة ما تحدث معجزة، أسمع أغنية إيما، تصدح بداخلي كشوقٍ إلى حلم لم يكتب له أن يتحقق أبدًا، وصداها الخيالي سيصدح في حياتي لفترة طويلة، طويلة، لكني لن أسمع أغنية إيما بعد الآن، سأجلس خلف طاولة الكتابة، وفي كل مرة أفتح الدرج، وأنظر طويلًا إلى قلم الرصاص الأحمر من طرفٍ، والأزرق من الطرف الآخر، القلم الذي لم أخط به لسنوات كثيرة ولو سطرًا، إنه قلم إيما، وفي كل مرة سأفكر في الشيء ذاته: هل سأتمكن في يوم من الأيام من تأليف أغنية من وحي طفولتي، يمكن أن أكرسها للمغنية الصغيرة إيما؟



تولين أبديكولي

(ولُد عام 1942)



- كاتب نثر شهير في كازاخستان، تخرج في كلية الفارابي الوطنية الكازاخية عام 1965. وبدأ حياته المهنية موظفًا بجريدة "أولان"، ثم مجلة "جالين".
- عمل بعد ذلك بجريدة "الأدب الكازاخي" الحكومية ابتدءًا من رئيس قسم ثم نائبًا لرئيس التحرير حتى أصبح رئيسًا لتحرير الجريدة، وفي الفترة 1979 - 1990 كان مسؤولًا كبيرًا باللجنة المركزية للحزب الشيوعي في كازاخستان، ومنذ عام 1993 وحتى التقاعد عمل بمنصب كبير بإدارة الرئيس الكازاخي.
- من أهم أعماله: "الأفق" عام 1969، "أوراق الخريف" عام 1971، "الحقيقة" عام 1974، "الحقيقة الخفية" عام 1979، "الاعتدال" عام 1985، "صراع العقل" عام 2002.

- ترجم إلى اللغة الكازاخية أحد النصوص من الأساطير اليونانية القديمة بعنوان "رجال هيلاس".
- التزم الكاتب بالاتجاه الواقعي في الفن؛ لذلك استخدم أساليب الحداثة وما بعد الحداثة بحرفية.
- حصل على جائزة الدولة من جمهورية كازاخستان عام 2004.
- حصل على جائزة "كافكا" الدولية.
- حصل على جائزة " نادي القلم الكازاخي" عام 2003.

حرب العقل المشتعلة

"أكون أو لا أكون... هذا هو السؤال.
هل ينبغي أن تحتمل وصمة القدر
أم تقاومه... تنهض، تتسلح، تنتصر
أو تُقتل، وتموت، وتغفو؟
وإدراك أنك بهذا تكسر سلسلة آلام القلب
وآلاف المصاعب المتأصلة في جسدك!
أليس هذا هو المأرب الذي يصبو إليه الجميع؟
الموت، النوم، الرقاد؟
ورؤية أحلام؟" (مناجاة هاملت - وليام شكسبير)

"يجب عليك أن تصنع الخير من الشر، لأنه ليس هناك شيء آخر تستطيع أن تصنعه منه"، (روبرت بن وارن).
دفتر اليوميات أعطاني إياه طبيب من معارفي، بالمناسبة، صاحب اليوميات كان من معارفي القدامى أيضًا، حقًا، مهما كان عالمنا الدنيوي واسعًا؛ فإن كل المسارات فيه تتقاطع.
في شباننا نعيش كما لو كنا في بازار صاخبٍ ومزدحمٍ، والأصدقاء والرفاق لا يعدّون ولا يحصون، صديق صديقك يصبح صديقك، ثم يختفي في مكان ما، في دوامة الشباب المحمومة، تتلاشى من الذاكرة وجوهٌ، وتظهر أخرى جديدة.
تذكرت هذا الشخص الذي جمعنا معه لفترة قصيرة صخب الحياة المبهج، في الذاكرة يظهر شخص عظمي شاحب... طويل القامة... نحيلٌ، لا... نوع من الرقة "الذكية" لبنية الجسم، ويبدو أن الطبيعة التي كان يتمتع بها، كانت مطابقة لمظهره، إذ كان يحمرُّ قليلًا متأثرًا بأية ملاحظة بريئة أو مزحة عفوية من أصدقائه، في مجموعات الشباب، خلال الموائد، كان يجلس جانبًا، مفضلًا التزام الصمت، وعدم الدخول في النقاشات الصاخبة، وكان الجميع يعاملونه بطريقة خاصة، بطريقة بالغة الرقة محاولين عدم مسه، كما لو كان ضيفًا أجنبيًا، أو شخصًا ليس من هذا العالم.
لم يهمني آنذاك على الإطلاق، ولم تخلف بعض الأحاديث العرضية على الطاولة المشتركة أي شيء في

ذاكرتي، باستثناء الشعور بأنه كان شخصًا لطيفًا، رقيقًا، رفيع الثقافة، من عائلة متعلمة على ما يبدو. هو نفسه لم يدخل في الحديث، وإذا لم يُجذب إليه، يمكنه لساعات الجلوس بصمت جانبًا.

بعد مرور سنوات عديدة بقي انطباعي عن اللقاءات مع هذا الشخص كما لو أننا سافرنا معًا على سفينة واحدة لبعض الوقت، وأجبرنا على التواصل باحترام، لكننا لم نبذل أي محاولات متبادلة للتقارب، انتهت الرحلة، وبعدها لم يُتَح لنا أن نلتقي ثانية.

الآن أقرأ اليوميات التي تتكون من العديد من الدفاتر، ولا أستطيع بأي شكل، أن أتخيل أنه هو مؤلفها، من المستحيل وفقًا للمدونات أن تشكل ولو تصورًا عن حياته الخاصة، أو عن تعاقب الأيام البشرية، المفرحة والحزينة، اليوميات تعبر حصريًا عن الأفكار والمشاعر المعقدة لصاحبها.

فقط في الدفتر الأخير تُرسمُ حدود مبهمة لمصيره.

هناك تم وصف بعض أحداث الحياة بمزيد من التفصيل، وتم نقل "المراسلات" كاملة إلى صفحات اليوميات.

يبدو أن كاتب الملاحظات كان لا يزال يفترض أنها ستقع في وقت من الأوقات في يد شخصٍ ما، وستجذب انتباه روحٍ أخرى، هذا طبيعي تمامًا، لماذا يثق الإنسان في الورقة شهادةً على وحدته الرهيبة على الأرض، أليس لكي يستجيب على الأقل شخصٌ آخرٌ في العالم لمحنه العاطفية؟

وأنا أفترض أنني سأقابل هذه الرغبة الخفية للمؤلف، وذلك من خلال تقديمي للقارئ الجزء الأخير لليوميات، الذي هو في رأيي الجزء الرئيسي، تجسدت فيه أكثر الأحلام إشراقًا للروح الاستثنائية التي أسرها المصير المأساوي لأولئك الذين يبحثون عن الحقيقة في هذه الحياة، ويجدون أنفسهم أمام متناقضاتها القاتمة التي لا يمكن التغلب عليها.

على الأرجح لن يكون من المناسب ذكر اسم صاحب المذكرات.

سوف نفترض أنه واحدٌ من كثيرين من معاصرينا المجهولين، واحدٌ من أولئك الذين يعيشون بالقرب منا، ولم يتم تخمينه في جوهره الداخلي الخاص.

1
13 مارس

يبدو أن شيئًا ما في حياتي قد تغير، لكن ما هو بالضبط، أنا نفسي ما زلت لا أعرف، وهذا يثير قلقي، ربما بدأ ذلك منذ وقت طويل، لكنني لم أشعر به إلا الآن، لا أعرف، أو أن أعصابي قد تعبت كثيرًا، لا يوجد ترتيب لأفكاري، أنسى ما كنت أفكر به لتوي ...

في اليوميات هناك مدونات بتاريخ 3 مارس، في حين تغيبت لسبب ما مدونات الأيام التالية، 4 و5 و6 مارس، فقط من 7 مارس تستمر مرة أخرى، حتى لو قتلتني، فإنني لا أتذكر ما فعلته في الأيام التي مرت،

عن إخفاقات الذاكرة سمعت من قبل، ولكن بمَ يرتبط ذلك؟ لا أعرف.

هذا ما يحدث: كلما تمتد الحياة أطول، يزداد عدد الأشخاص واللقاءات والأحداث التي تغيب في غياهب النسيان، تغادر إلى الأبد، كما لو أنها لم تكن، وحتى ما كنت تعطيه ذات يوم أهمية كبيرة، يسقط في النسيان، بل وتنسى أسماء أشخاص كانوا مقربين في الطفولة والشباب، لا أستطيع تذكر صداقة قديمة، الأمور تبدو ضبابية، كما في الأحلام، يمكنك برؤيتك الداخلية المتعبة تمييز الوجوه المتآكلة لأولئك الذين مرت معهم أيام عديدة من الحياة، أو الدراسة، أو العمل، وحقًا حياتنا مثل الماء الذي يختفي في الرمال بدون أي أثر.

ولكن، فجأة، من أعماق الذاكرة، يظهر شيءٌ صغير، شيء غير مهم، لم تكن تعره أي أهمية، يبدو أن الذاكرة البشرية تعيش وفق قوانينها الخاصة بها، ولُديها نظام قيم خاص بها.

تسأل الطبيب عن سبب إخفاقات الذاكرة هذه، يجيبك بأنها بسبب الإجهاد، يمكنك اعتبار الأمر كذلك، وسيكون الطبيب مُحقًّا، إجهاد الحياة، وهل هذا غير معقول؟ في الواقع يوجد هناك ما يُجهد، في هذا العالم يتوجب عليك أن تختبر وتدرك كل شيءٍ؛ الضروري وغير الضروري على الإطلاق، السار والقبيح، البسيط لدرجة البدائية، والغامض لدرجة الإزعاج، تفكر في كل هذا، وتتوه كمسافر وجد نفسه على مفترق الطرق، أسرار الحياة غير مفهومة، ولمن تشكو من الوداعة الكبيرة للعالم؟ وممن تستاء؟ من الله؟ من الإنسان؟ عطايا الله جلية؛ فمن ناحية أولى، هو خلق العالم والناس فيه، ونبههم إلى الإحسان والإيمان والخير، ماذا نحتاج أكثر؟ ولكن، من ناحية أخرى، كيف لا يمكن أن تتعاطف مع الشخص الذي يتصرف بأمر الله، والعواقب يترقبها هو وحده؟

الخير والشر -أوه، إنهما مجادلان بارعان! من غير المحتمل أن تتمكن من تغيير اعتقاد أي من ممثليهما في أي شيء. كل واحد ينبري للتسلح بمختلف الحجج، وأعمق البراهين، وكل واحد يبني كوخه الصغير داخل بيت الله الرائع، ويستقر فيه بشكل مريح، معلنًا جنته الخاصة في الكوخ.

ولكن كيف لرجل محشور في كوخ صغير أن ينتصب بطوله الكامل، محشور ومظلوم؟ أشعر بإهانتي المتواصلة التي لا أعرف لها أسبابًا ولا تسميات، إهانة كوخية صغيرة وحقيرة!

وتحت وطأة هذا الاضطهاد الذي فرضه عليَّ المجادلان البارعان، الخير والشر، تنغلق أمامي روعة الدنيا: لهو ضوء الشمس، جمال الطبيعة، التشرب الفواح للأعشاب في هواء الربيع.

وجع الرأس يطفئ هياج القلب، الانغماس في العالم الكوخي للذكاء العقيم يحرمني من بقايا السعادة، ما حاجتي بكل هذا؟

"هل عالمنا الفاني هو للمفكرين سجنٌ...."؟

2
15 مارس

يقولون إن الإنسان يعتاد حتى على الجحيم في غضون ثلاثة أيام، ربما يكون ذلك كذلك، وفي الواقع، إن التعود على عذاب الحياة هو ببساطة ضروري، وإلا كيف العيش في هذا العالم؟ لكن هل التعود على المعصية والكذب والظلم والقسوة، نعمةٌ بالنسبة لنا؟

يبدو أننا لم نعد نولي اهتمامًا لحقيقة أن الصحف اليومية تنشر عن رجاسات وحشية يرتكبها أناس فقدوا المظهر الإنساني، فتعفّنت نفوسهم، وتفسخوا وهم على قيد الحياة، ولكن ما يخيفني أكثر هو أنهم يعيشون إلى جانب أناسٍ آخرين دون أن يشعروا بأي اشمئزاز، أيعقل أن يكون ذلك بسبب التعود؟ أم أن ذلك يماثل لامعقولية الفتيان اليافعين، الذين من أجل المتعة المرعبة، يدنون ويلمسون الجثة البشرية، ليثبتوا لبعضهم البعض جرأتهم، لا يفقه مدنسو المقدسات اليافعون ماذا يفعلون، ألذلك هم أبرياء؟

لقد توقفت منذ فترة طويلة عن قراءة الصحف، إن تصفحت أيًا منها، هناك بوضوح:شخص اغتصب وقتل والدته.

آخرُ اغتصب وقتل ابنته.

تلك قتلت طفلها الوليد، وألقته في البالوعة.

مليونيرة تزوجت من ابنها.

مهووس قتل الناس، وأكل لحمهم.

رجلٌ تزوج رسميًا من رجل.

حانوتي يجامع الموتى.

تلك هي شئوننا في جميع أنحاء العالم، في جميع أطراف أرضنا الأم المكتظة بالبشر.

كل هذا يجعلني أتقيأ، كما لو أنني ابتلعت جيفة، من الاشمئزاز يتجمد الدم في عروقي، كما لو أنني وقعت في حفرة مرحاض عمومي، وليس هناك إمكانية للاغتسال من القرف!

أما المواطنون المسالمون، الذين هم بجانبي، فكأنهم لا يلاحظون شيئًا، يعيشون بهدوء، كما لو كانوا مُكرّسين لمعرفة فلسفية رفيعة، يمتلكون حجرًا فلسفيًا يحوّل كل هذا القرف إلى خبز يومي، والذين يتمتعون بالحكمة الخفية، مستعدون لإضفاء الشرعية على كل هذه القذارة العالمية.

معروفة هي الحكايات القديمة عن التنين الذي طالب من وقت لآخر بأضاحٍ بشرية، ولم يكن لدى أتباع التنين أي مفر، فاختاروا أجمل فتاة، حتى يرضى الوحش، وأطعموه إياها، وبذلك كسبوا لأنفسهم السلام والأمن لبعض الوقت، يبدو أن الوحش العالمي ما زال إلى اليوم يهيمن على البشرية، ويهزها بحروب دموية، وأعاصير وزلازل هائلة، ويرسل أوبئة أمراض رهيبة، وطاعونًا جائعًا، جامعًا من الجنس البشري ضريبته القاسية، ولكن،

كما لو لم يكن راضيًا بكل هذا، يطالب التنين العالمي بأن تتم التضحية له بالروحانية البشرية ذاتها.

كان بلزاك محقًا عندما لاحظ أنه "لا شيء يتم على الأرض بالكامل، مثل تعاسة الإنسان".

نعم، فالصحف تتحدث بكل سرور عن الكوارث النووية والبيئية والفضائية الوشيكة، وتنبئ حتى بإمكانية حدوث طوفان عالمي جديد، وكل هذا لا يتم تقديمه على شكل أنباء مثيرة رخيصة، وإنما كتوقعات علمية موثوقة، وكقاعدة عامة، لا يتم تحديد التوقيت الدقيق للكارثة العالمية، إذن، ما حاجتنا إلى كل هذه التنبؤات التي تحرمنا الهدوء؟

بالطبع، يمكننا تمامًا أن نفترض أن الشمس تتلاشى في وقت ما، والحياة البشرية على الأرض سوف تختفي وكأنها لم تكن قط، والتفكير البشري الرفيع، وليد الخليقة الرائع، سوف يغرق في غياهب النسيان، ويأخذ معه إلى فوضى العدم أفراحه وآلامه، والأمل واليأس، وكل ما منح وصبغ الكون بالأخلاق العقلانية، ولكن كيف التصالح مع حقيقة أن ما جُمع بآلاف السنين من الانتظار القلق، قطرة وراء قطرة، من الطيبة البشرية والرحمة والتعاطف مع آلام الآخرين والحب والتضحية بالنفس، سوف يختفي في ظلام الفوضى البدائية؟ هل سيذهب كل هذا في فراغ الفضاء البارد؟

بيد أنه، مهما احترت في ذلك، لن يتغير شيء في العالم، والصحف عبثًا تتململ ناشرة عن الشيء نفسه، كل شيء عن الشيء نفسه...

الله وحده يعلم كيف ستكون نهاية البشرية، ومتى تأتي، ولأي سبب ستحدث، ربما ستتكرر بالفعل قصة نوح، وسيكون هناك طوفان عالمي، وربما لن يتكرر شيءٌ من هذا القبيل، سيهبط شيء آخر، وستبدأ الحياة مرة أخرى من بكتيريا صغيرة، ومرة أخرى سيحتاج الأمر لمليارات السنين حتى يظهر إنسان بعقلٍ عالٍ.

مع ذلك، إذا كان مقدّرٌ على هذا العالم أن يموت، وأنه يعيش أيامه الأخيرة، أوه، فكم أود الخروج منه عبر نار كارثة كونية، أو منقولًا بانحدارٍ ضخم لموجة ماء، ولكن محتفظًا في روحي على الأقل ببقايا الكرامة الإنسانية العالية واحترامي لنفسي، وألا أكون ممحوًا من على وجه الأرض، كبزّاقة عديمة الجدوى، مقيتة بيولوجيًا، تخلصت من نفسها من الداخل، مدمَّرة، ومتفسخة من التصعدات النتنة لذنوبها.

3
25 مارس

يقولون إن أمراض الجسم من الطعام السيئ، ومن الأفكار القاتمة، إنها علة الروح، ربما كان الأمر كذلك، أيًا كان، لكنني لليوم السابع في المستشفى، محاطٌ بسياج إسمنتي عالٍ، مأواي جناح صغير من غرفة واحدة، الملجأ لكثيرين وكثيرين أقاموا فيه من قبل، يبدو بسيطًا للغاية، وبصراحة شديدة، كملابسي الرسمية التي

كنت أرتديها، المنظر الكامل للدنيا محاطٌ بسور المبنى الشاهق متعدد الطوابق، وفقط إلى اليمين، في نهاية هذا المبنى، وأمام نهاية المبنى التالي، بخطٍ ضيق تضيء قطعة صغيرة من السماء اللانهائية، وهناك، بعيدًا جدًا، يمكن للمرء أن يميز رأس القمة الجبلية.

كنت قد أقسمت، حتى لا أزعج روحي بأيام ولّت دون رجعة، أن أنسى اليوميات، وألا أمسك القلم بيدي، لكن اليوم لم أستطع التحمل، وهناك سبب خاص لذلك، حادثة غريبة نوعًا ما، لا يمكن تفسيرها، جعلتني ألجأ إلى ملاحظاتي من جديد.

في الصباح، عندما تهيأت لتناول الدواء، مددت يدي إلى كوب الماء على منضدة السرير، وفجأة رأيت ورقة مطوية في أربع طيات، لن أنسى أبدًا هذه اللحظة... ورقة من الورق المصفر الرخيص، عليها نقشٌ غير مقروء، في خط اليد هناك ثمة شيء مألوف، كما لو كان يعود إلى شخص أعرفه، لكن لم أعد أتذكر من هو...

مع خوفٍ غير مفهوم، كما لو كنت أخشى وجود عبوة ناسفة، قمت بفتح الورقة، وبدأت أقرأ:

"صديقي الغريب! أولًا، اعذرني! لقد قرأت يومياتك دون علمك، ولكن قراءة ذلك أجبرتني لا إراديًا أن أُقبل على كتابة هذه الرسالة، لقد أجبرتني حرفيًا، دفعتني إلى التأمل العميق، إلى حوار داخلي معك، مرة أخرى أرجو أن تعذرني، لأنني تجرأت على الدخول إلى أوراقك دون إذن منك.

المهم! ليس من الصعب فهم أنك عزمتَ بشجاعة الانخراط في عمل محفوفٍ بمخاطر بالغة، وهو ما يسمى بلغة المشككين "البحث عن معنى الحياة"، لماذا "بلغة المشككين"؟ لأن الأمر هو في الواقع خطر جدًا، وجادٌ، ومبؤوسٌ منه... مع ذلك، لا أريد أن أداهمك بالحزن، بل على العكس، أتمنى لك كل خير، والأهم رحلةً آمنةً في عالم الروح الرحب؛ حيث تنتظرك اختبارات بالغة الصعوبة.

حظًا سعيدًا يا صديقي الشجاع!

في رأيي، إن الرأي الثابت القائل بأن الحياة البشرية تمثل صراعًا أبديًا بين الخير والشر، لا ريب فيه على الإطلاق، على الأقل لأنه من المستحيل فصل هذين الجذرين بعضهما عن بعض، أو توزيعهما على جوانب مختلفة، بنفس القدر من استحالة فرز حشود الشارع، والكشف عن "الجيد"، و"السيئ"، إن مثل هذه الفكرة فيما يتعلق بالإنسان، تبدو غير صحيحة على الإطلاق، بل ساذجة، بالنسبة للأعداء الإنسان وغدٌ، أما في عيون زوجته المحبة، فهو غالٍ ولا يقدر بثمن، وبالنسبة للأصدقاء شخص وسيمٌ، وأكثر الناس طيبة، إذن، أين الحقيقة؟ وحتى الحب والكراهية تجاه الإنسان، هما انتقائيان، وليسا وفقًا لعلامات مدى قربه من الخير أو الشر، أي أننا في الإنسان لا نقبل الجيد وحده فقط، ولا ننفي فيه كل ما هو سيئ فقط، هناك الكثير من الأمثلة، ف"الجيدُ" يصاحب "السيئَ"، والعكس بالعكس، كما أن شخصين محترمين وفاضلين تمامًا، يكونان على خلاف مع بعضهما البعض، هذا يعني أن الحياة ليست فقط مواجهة بين الخير والشر، وإنما هي أيضًا تصادمُ الخير مع الخير، والشر مع الشر؛ ولذلك، نحن مضطرون للاعتراف بأن الخير والشر هما من حيث الجوهر مشروطان، وذاتيان، ومختلفان تمامًا بالنسبة للأشخاص المختلفين، ومع ذلك، إن هذا هو مجرد

جزء ضئيل من المشكلة التي قمتُ بطرحها.

الشيء الأكثر أهمية والأكثر إثارة للاهتمام هو أن الخير والشر المعروفين، هما مثل توأم سيامي، متحدين فيما بينهما بشكل لا ينفصم، ولا يمكن لأحدهما أن يوجد بدون الآخر.

هناك، كما تعلم، في الفلسفة الصينية مفهوما الين واليانغ، البدايتان البيضاء والسوداء، السماء والأرض، الأعلى والأدنى، وهناك مفهوم المعاودة الدورية، عندما، بمرور الوقت، يتحول أحدهما إلى الآخر، إزاء دوران هذه التحولات إلى المعاكس يقف العالم، وإذا ما قمنا بتحويل هذه الفلسفة إلى سلسلة حياتنا البشرية الصغيرة، فإننا نحصل على ما يلي.

يعد الماء أساس الحياة، فمن أجل ري الحدائق، وري الحقول والمراعي يبني الناس السدود، ويشيدون الخزانات ليجمعوا الماء لاستخدامه لمنفعة أنفسهم، وفي هذه الحالة يتجلى الماء كبداية يانغ الإبداعية، لكن الماء نفسه في وقت الفيضان الربيعي للأنهار، يهدم السدود، ويزيل البيوت، ويدمر كل شيء حي في طريقه: نفس الحدائق والحقول، والحيوانات البرية الأليفة، والناس، وهنا بالفعل، بعد الوصول إلى اللحظة الحرجة، يتحول هذا الحدث الطبيعي الطارئ إلى قوة مدمّرة، من خلال نوعية معاكسة؛ ين.

لكن تدريجيًا ينحسر الفيضان الهائج، ويهدأ، وتعود الأنهار ثانية إلى ضفافها السابقة، ويصبح الماء المتموج نعمة للناس، ومع ذلك، من الضروري أن ننتظر الربيع المقبل، عندما قد تتحول القوة يانغ إلى البداية الكارثية؛ ين، وهكذا، من سنة إلى أخرى في دورة الزمن التي لا نهاية لها، والطارئة الطبيعية نفسها التي تظهر إما خيرًا وإما شرًا بالنسبة للحياة، هي نفسها، الماء، هي كلها الماء نفسه!

أي استنتاج ينبغي أن يكون من ذلك؟ أليس من نفس المادة يتكون خيرنا وشرنا اللذان يبدوان مختلفين، وهل من الممكن فصلهما في أوانٍ مختلفة؟ وما مدى ضرورة هذا؟ فكّر كما يجب في ذلك.

صديقي الغريب! ألا يبدو أنه مازال بوسعنا أن نتحدث معك عن الكثير؟ احسب رسالتي هذه هي مجرد بداية للحديث، سيكون طيبًا ومفيدًا جدًا أن نتقارب ونتقاسم أعمق ما لدينا، نفتح روحينا لبعضنا البعض! وليصبح لدينا في هذه الحياة الكئيبة سر خفي.

قرر أن تكتب لي إجابة، ضع رسالتك في الدرج السفلي للطاولة الموجود في الردهة.

نظيرك المجهول".

قرأت مرة أخرى الرسالة من البداية إلى النهاية، متفاجئًا ومضطربًا قليلًا، لا أدري من؟ ماذا ؟

وكتيار بارد اخترق قلبي خوف معين، هل هم يراقبونني؟ شخص ما بشكل غير رسمي يقرأ مذكراتي؟ كيف وصلت الرسالة إليَّ في الجناح؟ إذ لم يأتني سوى الممرضة! هذا يعني أن شخصًا ما جاء إلى هنا في غيابي! ولكن إن كنت مهمًا لهذا الـ "شخص ما"، فلماذا هذا التعقب؟ يمكن أن يأتي ويتعرف علانية، لا، ثمة أسرار، رسالة غامضة.

بقلقٍ أتجول في أرجاء الجناح، ولا أشعر برجليّ تحتي، كما لو كنت أسبح في الهواء، كما في الحلم، لكن -بهدوء! بهدوء، فكّر في كل شيء، فكّر مليًا، فليكن الأمر كذلك، أنت لا تعرف أبدًا أي النزوات لدى الناس،

ولا تنس أنك في مستشفي للأمراض النفسية، هناك ما يكفي من غريبي الأطوار...

بعد أن هدّأت نفسي بهذه الطريقة، قررت ألا أعير أهمية كبيرة لما جرى، لا يستحق القلق...

في الساعة 11:00 ذهبت إلى حصة تدريب التحفيز الذاتي، قدَّمت الحصة فتاة شابة بيضاء الوجه لم أرها من قبل، لطيفة جدًا، عندما تتحدث، تلتوي شفتها العليا من الزوايا في كشرة لطيفة، جادة نوعًا ما، وتبتسم في نفس الوقت، أسنانها لؤلؤية، نظرتها مُشعَّةٌ ومشرقة، كما لو أنك تستحم بأشعتها، عندما تبقي عينيها عليك.

لقد استرخيتم، لقد تملككم شعور النعيم اللطيف، كما لو كنتم قد غرقتم في نوم خفيف، أنتم تغرقون في النوم، تغرقون في النوم -قالت هذه الشفاه الجادة المبتسمة، ثم شرعت في تشغيل الموسيقى، في البداية هادئة، من بعيد، لتعلو أكثر فأكثر، وتتزايد، كما لو كانت أجنبية، مُخدِّرة، وتحملك إلى حدود أخرى؛ حيث لا يوجد مكان لمشاعرنا البشرية المقلقة، وعندها فقط تبدأ في الشعور، وتتحرر من كل هشاشة الوجود هذه، شيءٌ كاللانهاية، كاللامحدودية، كالحرية...

وها أنت جالسٌ على ضفة لينة ومتقلبة لبحيرة لازوردية، وفوقك يستدير قوس قزح متعدد الألوان، واسع، خلفك، محتضنًا الروائح العطرة للأعشاب الطازجة، يمتد سهل أخضر وجاياياو[1] مزهرٌ، وأنفاس الخضرة الدافئة تدغدغ أنفك.

من بعيد شخص ما قادم نحوك، يلوح بذراعيه فوق رأسه مناديًا، يقترب جالب السعادة إليك، وها هو قريبٌ جدًا، بقربك تمامًا، يمكنك لمسه بيدك...

الآن استيقظوا،

يباغتنا صوت، كما لو كان يتسرب من خلال خرطوم مطاطي طويل.

- لقد استيقظتم! أنتم مفعمون بالحيوية؛ لقد أصبحت أجسامكم خفيفة، كالهواء، وامتلأت عضلاتكم بقوة متينة، وأعينكم مليئة بالبريق، أنتم مستعدون للتحليق... استيقظوا! استيقظوا بسرعة!

على مضض أفتح عينيَّ، أتثاءب وأتمطى، وأرى أمامي الطبيبة النفسية بعيون مبتسمة، تنظر إليّ كما تنظر إلى طفل صغير، يبدو أنها على استعداد لتمسد رأسي.

جيد جدًا!

تقول ببهجة، وغير مفهوم بالنسبة لي إن كانت تشيد بنا، نحن الذين نمنا في الجلسة، أو بنفسها، هي التي أنهت حصة تدريب التحفيز الذاتي بنجاح.

في البداية شعرت بعدم الارتياح، كإنسان يربكه الشعور من أن بعض الأسرار الحميمة لروحه أصبحت متاحة لشخص غريب، حتى أنني بدأت أنظر حولي ببطء، نظرت إلى جيراني بشكل مريب، ولكن بعد ذلك هدأت، الجميع، مثلي، كانوا يخرجون من الغشية، يتثاءبون ويتمطون، كان مظهرهم مشوشًا بعض الشيء، هذا يعني أنني لم أكن الوحيد في هذا الوضع، حسنًا... أخيرًا، بعد أن عدت إلى وعيي، نهضت من الكرسي وتسللت بتراخٍ إلى الجناح.

(1) جاياياو: المرعى الصيفي على جبال آسيا الوسطى والقوقاز والقرم.

4
26 مارس

أشعر بشيء غير مُرضٍ، في الليل رأيت منامًا مزعجًا، أمشي في ممر مظلم، المصابيح غير مضاءة، الطريق ممترس بشتى القاذورات، صناديق، وأشياء حديدية بارزة، أنتقل باللمس، يبدو أنني مسرعٌ إلى مكان ما، أحاول أن أذهب بسرعة، وفجأة شيء حادٌ هوى على رقبتي، بالكاد تمكنت من ملاحظته، كان يمكن أن يكون خنجرًا موضوعًا في مقبض معلقًا على الحائط، يبدو أنني لم أشعر بأي ألم، لكنني لاحظت أن رأسي بدأ يتدلى من جانبٍ إلى آخرٍ، وأمسكته تلقائيًا بيدي، اتضح أن رقبتي كانت مقطوعة بالكامل تقريبًا، ولا يمسك رأسي سوى شريط من الجلد، كان الشعور مثيرًا للاشمئزاز.

اضطررت للمضي إلى الأمام، ضاغطًا بيدي الأولى على رأسي من قمته، وباليد الأخرى أتلمس الجدار مثل رجل أعمى، من الضروري أن أسير بحذر شديد، حتى لا أتعثر بشيء ما عن غير قصد، وإلا فسوف يسقط الرأس من كتفيَّ ويتدحرج في الظلام، وجرِّب أن تجده بعد ذلك، والممر يمتد إلى ما لا نهاية، أهو مقدَّرٌ عليّ أن أتجول إلى الأبد وفي مثل هذا الوضع؟ مصيبة!

لكنني أخرج في نهاية المطاف إلى مكانٍ رحب، يبدو وكأنه بهو فندق، سقفه مرتفع، ومضيء، مليءٌ بالناس، جلست بعناية على الكرسي، واتخذت قراري، بحركة خفيفة قطعت رأسي تمامًا، ووضعته على الكرسي المجاور، المارة يرمقونني في ذهول، تتملكني حيرة شديدة، ألتقط جريدة، وأغطي بها رأسي بسرعة."يا له من عار! - أفكّر، - كيف لي أن أتخلص الآن؟ أين أخفي هذا الرأس؟"

يبدو أنني كنت مضطرًا لأن أسرع إلى مكان ما، والآن ما العمل؟ بدون رأس ...، أرفع بحذرٍ حافة الجريدة وأنظر وأراه! إنه موجود في مكانه، يجب أن أتخلص منه بسرعة، وهكذا أتعذب وأنا جالس في مكاني، إلى أن أستيقظ.

بقيت مستلقيًا لبعض الوقت، يتملكني الرعب، قلبي يخفق بجنون، أخيرًا، أبدأ بالاستيعاب، وأفكر:كيف تمكنت من أن أرى رأسي إذا كان مقطوعًا وموضوعًا جانبًا؟ بالإضافة إلى ذلك، كنت أفكر عندها بشيء ما، بماذا نظرت، بأي رأسٍ كنت أفكر؟ عبثٌ كامل، لكن كل شيء حدث بشكل واضح، وبدقة! أذكر كل إحساس. بعد ذلك ، لفترة طويلة، لم أستطع النوم، شفقُ الجناح، وضوء الشارع الباهت عبر النافذة، امتزجا ليشكلا في المكان محلولًا لزجًا لجزعٍ جامحٍ، لكن، من خلال حجاب الضوء الميت، زحف تيار حقيقي تمامًا، باردٌ ولاذعٌ، باحثًا عن شقٍ خفي في مكمني المرضي المغلق بإحكام...

كان الكابوس مزعجًا، كذبابة مضجرة لا يمكن طردها، ما أن أغلق عينيّ، حتى يظهر فيهما الرأس الملقى على الكرسي مع قطع اللحم الأحمر في مكان الرقبة المقطوعة.

5
27 مارس

ما الذي يمكن أن يكون أشد رعبًا من أن يبدأ الشخص بالخوف من نفسه؟ يصبح عالمك الداخلي متوحشًا ومبهمًا، مثل غابة شبحية، أضعت طريقك فيها، يتملكك رعب مسعور من أنك لن تخرج منها أبدًا، وفجأة تشعر بأنك لم تعد موجودًا، وأن من كان تائهًا في أدغال الغابة الكثيفة، هو شخص آخرٌ، لقد أصبحت غريبًا عن نفسك.

وذات مرّة، تخرج كفأرٍ مذعور، من ثنايا روحك، وبذهولٍ مشوب بالخجل تنظر إلى العالم الخارجي، وبغض النظر عن كيفية ظهور فظاعة حياتنا للوهلة الأولى، إلا أن ثمة شيئًا فيها، شيء بالنسبة لنا يبعث على الراحة، انظر! هذه الشمس! وهنا حشود من الناس، مثلي، نسير في كل الاتجاهات، نجري إلى مكان ما، ترافقنا موسيقى الحياة، تعدد أصوات هذا العالم الوحيد بالنسبة لنا، العالم الذي تعم فيه جميع رغباتنا ومشاعرنا وآمالنا، وبالتدريج يعود إليك الشعور الطبيعي للحياة، ويبدو بالفعل أن فيها ثمة هدف، وبداية معقولة، وتعليل لكل أحداثها.

والآن مهمتي الأولى هي العثور على ذلك الشخص، الذي كتب لي الرسالة الغريبة، يجب إيقاف هذه اللعبة في الأحجية الخيالية، لماذا يحتاج إلى ابتكار مثل هذه الأحجية؟

كجاسوس في معسكر العدو، أتسلل إلى باحة المستشفي، وأتفحص بعناية كل من يقابلني، أنا متأكد من أنه يكفيني أن أنظر في عينيه، لأنني سأعرفه في الحال.

يجب أن أقول إنه أثناء بحثي عن نظيري الغامض، اكتشفت الآتي: نحن نعيش الحياة، نتعامل معها بشكل سطحي جدًا، ولا نعرف سوى القليل عن الناس، ما أن بدأت بالنظر في ساحة مستشفانا، إلى المجانين الذين كنت أراهم كل يوم، اكتشفت أنهم من أنواع كثيرة مختلفة! ولكن بدوا لي في السابق متماثلين، لهم نفسه الوجه.

هذا الأشقر ذو الشعر الخفيف، الذي كان يبدو لي في السابق صامتًا متجهمًا، اتضح في الواقع أنه مولعٌ عظيم بالحديث عن أصله، عندما تعرفت عليه، قبل أن يُعرِّف بنفسه ويذكر اسمه، أمسكني من كمي وبدأ يُمطرني بأسماء أجداده، ويتباهى بمآثرهم العظيمة، ويسهب في الحديث عن أن أحدهم ذهب في زمانه إلى القيصر الروسي نفسه، وآخر أصبح عالمًا بارزًا.

لقد أضجرني فعليًا بثرثرته! كاد أن يجلب لي انهيارًا عصبيًا.

وهذا البدين الأصلع، الذي يمشط بعناية البقايا الهزيلة من شعره، من الجانب إلى تاج رأسه الأصلع، في كل

لقاء يقترب مني مهددًا، ويندفع دائمًا بخطبة عصماء: "إيه، يا أخي، ألا تعلم من أنا؟ في هذا البلد لا يوجد كازاخيٌ لا يعرفني، من أين أنت؟"

كان هناك غريب أطوارٍ آخر، إلا هذه الحالة، هي في غاية الصعوبة، قال إنه يسوع المسيح، نزل من السماء ليقيم النظام على الأرض، لكن الأشرار، بعد أن ارتعبوا، أخفوه في المستشفي، والمدبر لهذه الجريمة هو منظمة الأمم المتحدة التي لا تريد أن تفقد نفوذها في العالم، بشكل عام، مسكين، حمل هراءً مفرطًا ومثيرًا للشفقة.

مع ذلك، فوق بيتنا تحولت شمس الربيع لتصبح أكثر إشراقًا، على الرغم من أنه في بعض الأحيان كانت تهب رياح رطبة تتغلغل إلى العظام، وفي الظل كانت البرودة القاسية ما زالت مهيمنة.

ذات مرة، قبل الغداء، حدث عراك في الفناء، فقد هجم رجل ملتحٍ قوي البنية على شابٍ طويل الشعر، ولكمه بقبضتيه القاسيتين، بصعوبة تم تفريقهما، شرح الشهود سبب القتال الناشب بطرق مختلفة.

رواية الممرضة: ما أغضب الملتحي الطويل القامة أنه عندما كان كبير أطباء المستشفي يعبر الساحة، توقف وصافح ذا الشعر الطويل، انتظر الرجل الملتحي حتى يذهب للطبيب، ثم هاجم المريض الشاب، وهدَّر مهددًا: "لماذا صافحك، ولم يصافحني؟"

عندما تنظر إلى ذلك كله طويلًا، فإنك تفكر بشكل عفوي: بماذا تختلف الحياة هناك وراء السياج الخرساني عن حياتنا، في ساحة مستشفي الأمراض العقلية هذه؟ ربما، لا اختلاف، نفس الغرور، والكبرياء، والغيرة، والتعصب.

بعد الغداء ذهبت إلى الطبيب المعالج للمعاينة، كان رجلًا صغيرًا يرتدي نظارات طبية، جالسًا على كرسي مباشرة، مستقيمًا كمسمار مطروق، رأسه مستلقٍ، ينظر من خلال زجاج نظارته مع حولٍ بعينين متألمتين، وكأن شيئًا ما يؤلمه، لكنه يسأل كل شيء عن الحالة، يبدو أنه اختصاصي جيد، قام بقياس الضغط، واستمع إلى القلب، والرئتين، ثم تحدث عن "الحياة"، سألني ماذا كنت أفعل قبل المستشفي، بدا لي أنه سئمَ كل شيء، ويبحث عن محاور مناسب، تحدثنا حتى عن جميع تفاصيل الحياة في المستشفي، وعن أنهم أغلقوا الليلة الماضية الماء الساخن، وأن الطقس متقلب...

فيما بعد، انتقل الحديث إلى الموضوع الطبي بدقة، قرأ محاضرة كاملة عن علم النفس المرضي، حيث ركَّز بشكل خاص على انفصام الشخصية، وأورد مثالًا، يعيش شخص، رجل عائلة لطيف، عامل جيد، لكن ذلك خلال اليوم، وفي الليل، بعد الثانية عشرة، يتحول إلى مهووس خطر، يقتل الناس، ويغتصب النساء، مثال آخر:كان هناك طيار مشهور، وهو شخص محترم، كان على مدى سنوات عديدة يغري الفتيات، ويغتصبهن، ثم يخنقهن، تم إلقاء القبض عليه متلبسًا بعد ارتكابه واحدة من جرائمه، ومن كان ليشك في أن رجلًا من هذه المهنة النخبوية، قائد طائرة، يمكنه أن يعيش حياة سرية أخرى، شائنة، ومليئة بأشد الجرائم فظاعة. مثل هذه الأمثلة لا تعد ولا تحصى، شخص ثانٍ مختلف تمامًا يفاجئنا داخل الشخص الذي نعرفه، بالطبع

هذا الاختلاف ليس سوى مظهرٍ من مظاهر مرضٍ عميق في نفسيته.

لكنني شخصيًا أميل إلى الاعتقاد بأنه في الوقت الحاضر، عندما يختلط الطبيعي وغير الطبيعي إلى درجة لا يمكن التمييز بينهما، فهذا يعني أنه من المستحيل تمامًا تحديد الحدود بين المرض والصحة.

والمذهل أنه لو ولُد طفل بستة أصابع، فهذا يعد مرضًا، أما عندما يخون المرء محبوبه الذي يرتبط معه بعلاقة عشق ملتهبة، أو قرابة دم، أو صداقة لا يسمون هذا بعرض مرضي، وإنما ممارسة حياة يومية، يتضح أننا اعتدنا على هذا الهراء، وإلا أي مرض يمكن أن يكون أسوأ من خيانة قيمنا الأخلاقية؟

الوضع الأخلاقي اليوم: أنانية مسعورة، أنانية حيوانية، قسوة وحشية، حسدٌ شيطاني، تباهي وتفاخر أقوياء هذا العالم، أليس هذا مرضًا؟

هل ستصادف اليوم شخصًا يود التخلص من عيوبه، حتى إن كان عددها أكثر من شعر رأسه؟ أوقف في الشارع مائة شخص على الأقل، وتحدث مع كل واحدٍ منهم، كلهم سيقدمون أنفسهم على أنهم ملائكة، جميعهم يتعرضون للإهانة، أو يُخْدَعون، أو يُضْطَهدون بوحشية، إذن من هم مضطهدوهم، وأين هم؟

6
31 مارس

اليوم رموا مرة أخرى رسالة، على الرغم من أنني أقسمت بعدم النظر إلى الدرج السفلي للطاولة التي كانت في الممر، لكنني لم أتمالك نفسي، ومددت يدي إلى هناك و...، ربما أنا واحدٌ من أولئك الذين يسعون بعناد إلى هلاكهم، ثمة شيءٍ متهور دفعني بإلحاحٍ وحشي منذ الصباح إلى هناك، في البداية قاومت، ولكن عند الظهر هرعت إلى الممر، إلى الطاولة، وها أنا أقف، كلي مثبطٌ كحيوان نصف مخنوق وقع في حبل مشنقة، في يدي رسالة.

بصراحة، أنا خائفٌ جدًا من هذه الرسائل، فهي بالنسبة لي كدعوة لمنازلة مميتة، وأنا لا أريد أي منازلة.

لو لم تكن هذه الرسالة الأخيرة، لو كان هناك على الأقل فترة راحة صغيرة في المعركة مع تلك القوة السوداء التي أواجهها باستمرار، والتي يصعب عليّ التغلب عليها، كنت أرغب في هذا الاستراحة، لأكتسب قوة روحية للمواجهة، لكن العدو غير المرئي قام بهجومه الغادر، ها هي، الرسالة الثانية...

"نظيري الغريب! لم أستطع انتظار إجابتك؛ لذلك كنت مضطرًا لأن أكتب رسالتي هذه، مرة أخرى أعتذر عن جرأتي لقراءة مذكراتك دون علمك، منها صار واضحًا لي أنك متحيز، إذا جاز التعبير، فأنت تؤمن فقط بالخير البشري، ولا تؤمن بالشر، وفي رأيي، سيكون من الصواب ومن المنصف الإيمان بالأول، كما في الثاني، ألا ترى أن عالمنا يستند إلى هاتين الدعامتين؟ إذا تم سحب عربة الحياة من عمودين، فأحدهما سيكون بالتأكيد الشر، لكن ليس لديه، كما تعتقد، جوهر ضار حصرًا، لا يجلب للناس سوى المتاعب، خذ

الموت، على سبيل المثال، يصنفونه، من دون أدنى شك، على أنه شر مطلق، لكن فكّر يا صديقي، ما ستكون حياتنا إذا لم يكن هناك موت، لو لم يمت المسنون والمرضى، ولو لم تُقصَف حياة الأوغاد والمجرمين والطغاة الرهيبين الذين يهددون بالبؤس البشرية جمعاء؟ ...، تخيل معي أي جحيم فظيع كان يمكن أن يستوطن على الأرض!فقط بوجود الموت، وبفضل فعالية الموت، يستمر دوران "المحرك الأبدي" للحياة، ويتواصل تجديدها.

وأخيرًا، إذا لم يكن لدى الناس الإرادة للقتل، فكيف يحمون أنفسهم من الحيوانات المفترسة المتعطشة للدماء؟ فنحن نخاف سم الثعبان القاتل، ولكن ما أكثر العقاقير المنقذة لصحتنا من الوهن والمرض مصنوعة من سم الثعبان نفسه؟ إذًا، أخبرني الآن: هل سم الثعبان "جيد" أم "سيئ"؟

لا ينبغي، يا صديقي، أن نعلّق على أي شيء واحدةً فقط من هذه الرُّقع، سيكون هذا خطأ وغباءً، إننا نتعمد إضفاء صفة الخير أو الشر فقط في حال إذا كانت هذه الظاهرة أو تلك في العالم تحمل فائدة أو ضررًا عندما تلامسنا بوضوح، فإن استبعدنا مصلحتنا الذاتية، لا يوجد ، لا هذا، ولا ذاك يا صديقي.

الآن لنتحدث عن الكذب والخداع، الكذب ليس شرفًا بالنسبة للأشخاص المحترمين، نعلمُ ذلك، ولكن لو كان بإمكانه، الكذب، أن يتكلم، لسمعنا الآتي: "إيه، يا أعزائي! أليس بفضلي ما زلتم أحياء وأصحاء، وتشعرون بأنفسكم بهذا المقدار من الثقة الذاتية ؟ لو أنكم قلتم دائمًا الحق، والحق وحده، لقضم بعضكم منذ زمن حناجر بعض! كم مرة أُنقِذتم بفضلي أنا وحدي، وكم مرة ستُنقَذون أيضًا بفضلي! لا يمكنكم أن تعيشوا يومًا بدوني!"

سأروي خصيصًا لك قصة سمعتها من أحد معارفي.

ركَّبت إحدى النساء الذكيات وغير الشنيعات لزوجها قرنين، لكن سوء الحظ، انتقل إلى المسكينة بالعدوى مرض تناسلي، لن نبتعد كثيرًا بالتفاصيل والأخلاق المبتذلة، فقط نقول إن حقائق الخيانة الزوجية في عصرنا أصبحت عادية للغاية، وربما، لو سارت هذه الإنسانة الخائنة في أبسط الطرق المعتادة، أي لو أنها أخفت كل شيء عن الجميع، وخضعت سرًا للعلاج المناسب، لشفيت وانتهت القصة بسلام.

واليوم أصبح مثل هذا المخرج من هذا الوضع الحساس سهل المنال، وسهل التنفيذ، ومع ذلك، فإن السيدة التي عانت بألم من موقفها، وجدت نفسها غير جديرة بزوجها الذي فضحته، وقامت بشنق نفسها، ونتيجة لذلك تُرك زوجها وطفلها بدون زوجة وأم، هذا ما حدث، يا عزيزي... الزوج المخدوع حزن بشدة.

لكن لنتأمل ما حدث ، الخطأ الشنيع الذي ارتكبته الزوجة الراحلة التي عدّت زوجها الشخص الأنقى في العالم، والذي كان من المستحيل التكفير عن ذنبها تجاهه، ولا خيار أمامها لها سوى أن تشنق نفسها، لكن الزوج أحبها بصدق حبًا كبيرًا، وكان قادرًا على أن يصفح عن كل ما فعلته، ولأنه كان يعرف أنه قد ارتكب بعض الخطايا، لم يكن بإمكانه حسبان نفسه نموذجًا للنقاء.

ما الذي أميل إليه؟ كان بمقدوره العيش بسعادة مع كل هذه الإزعاجات اليومية، مع العيوب العادية دون السعي على الإطلاق إلى قمم النقاء والحشمة.

الآن لن يعيد السعادة السابقة، يا له من ضياع! يا له من إجحاف! إنها تدمر العالم، وتشل الحياة على الأرض، ما الذي سنحققه من خلال تسميم وعينا بفكرة نقاء سامٍ معين، لا يمكن أن يوجد في طبيعة الأشياء.

تلك كانت هي القصة، يا صديقي الغريب، هل أعجبتك؟

من أجل بلوغ السعادة، يجب على الإنسان أولًا أن يفهم بدقة من هو، وماذا هو.

وبغض النظر عن مدى عدم ارتياحه، سيكون عليه أن يعترف، وبشجاعة، أنه ليس قديسًا على الإطلاق، بل هو إنسان وبشر عادي، مولود في الخطيئة، ومن ثَمَّ، منذ البداية هو ملوثٌ بالذنوب بعمق، إذا لم يعترف بإذعان بكل هذا، لن يسلم أحد من الآلام العقيمة والغبية واليائسة للتعذيب الذاتي الروحي.

الآن، أفكر في ذلك، وأنا أحلم بأنني بحاجة فقط لمد يدي إلى الأمام، حيث يطير طائر السعادة، ويصفق بجناحيه بصوت عالٍ، سوف يهبط على هذا الكف، من الضروري فقط أن تكون خاليًا من تحيزات النقاء والعفة البريئة.

حسنًا، أتمنى من كل أعماقي أن تصغي إلى كلماتي، وليحط طائر السعادة في يديك، وأبقى متمنيًا لك الخير وأتمنى بشدة أن ترد برسالة.

زميلك المجهول."

أذكر عندما قرأت السطور الأخيرة من الرسالة، كانت الورقة تهتز في يدي المرتعشتين."بهدوء! بهدوء أكثر"، أمرت نفسي، لكن عاصفة المشاعر الساخطة لم تسمح لي بالهدوء، الأفكار المشوشة، كما لو كانت وحوشًا في حالة ذعر عند وقوع زلزال، ركضت في كل الاتجاهات، ولم أتمكن من التركيز على أي شيء واحد، ولكن، في النهاية، تمكنت من التعامل مع نفسي، فخفَّت حدة الاضطراب في رأسي تدريجيًا، حاولت أن أفكر بوعي في محتوى الرسالة.

إلا أن ظل الخوف الغامض يرفرف على قلبي مثل غيمة مرعدة، يبدو أن شخصًا ما قد استحوذ عليّ تمامًا، ويقتحم روحي ذاتها، ماذا يريدأن يسخر مني؟ أو أنه يخطط لشيء ما ، قاتم، وشرير.

سرعان ما هدأت، وبدأت أتعمق أكثر في محتوى رسالة الغريب التالية، وهنا تملك روحي ارتباك جديد، الحقيقة هي أن الشيء الكثير من الرسالة لم يحرم من القدرة على الإقناع، بيد أن التهديد يتربص هنا تحديدًا، اندفع وحش الشك إلى روحي، متنكرًا في مظهر المذعن، الذي يعمل من خلاله كمذيع للحقيقة، لكن هذا ليس الحقيقة، إنه كذب، مغطىً بغطاء الحقيقة، وهنا يكمن الخطر الكبير، الوغد الأكثر تهورًا هو الشخص الذي يريد أن يظهر في شكل العاشق الوديع للحقيقة، التغلب عليه هو الأصعب، ومع ذلك، من الواضح بالنسبة لي أنه اختار الاتجاه الرئيسي لنفسه بشكل خاطئ، إذا كان الكائن المطلوب موجودًا في الشرق، فإن الشخص المتجه غربًا، بغض النظر عما يظهره من الخفة والدهاء والمثابرة، لن يجد ذلك الكائن أبدًا، ومن أجل العثور عليه، يحتاج إلى تغيير الاتجاه.

بالطبع، أعلم أيضًا أن كل واحد بإمكانه أن يكون جيدًا وسيئًا في شخص واحد، ولكن هذا لا يمثل على الإطلاق دليلًا على عدم الفصل بين الخير والشر، هاتان البدايتان يجب علينا التمييز بينهما، وهما دائمًا

يتعارضان في عالمنا الرائع والعنيف.

إذا كان الحصان أبقعًا، على سبيل المثال، ذا لونين، الأبيض والأسود، هل يستبعد مفهوم "أبقع" المعنى المستقل لمفهومي "أبيض" و"أسود"؟ بالطبع، لا.

ببساطة في لون حيوان واحد يجتمع اثنان من الألوان المختلفة، كذلك الأمر مع الخير والشر، كيفما مزجتهما، فإنهما لن يتمكنا في أي مجموعة من الانصهار في مفهوم واحد غير قابل للتجزئة.

كذلك في الرسالة أفكار أخرى ماكرة وجذابة، وهي أفكار غريبة، لا لأنها تحتوي على حقيقة عميقة، بل لتناقضاتها الخفية اللاذعة .

في حرب العقل المشتعلة من أجل فهم الحقيقة، لا يوجد مكان للبراعة والزخرفة، كم هي قاسية ووحشية هذه الحرب، لكنها ضرورية من أجل الوصول للحقيقة المجردة، العارية، بدون زخرفة، والجمال ليس للحرب، فهو يشتت الذهن عن الحقيقة، وهو، في جوهره، معادٍ لها، شخص وسيمٌ، لكنه غبيٌ، زوجة جميلة، لكنها غير مخلصة، كلمات جميلة، لكنها مخادعة...، كم مرة هزمنا كذبٌ مرتدٍ ملابس الجمال، وكم من الأفكار المخادعة المفصّلة بشكل أنيق، كدليلٍ تافهٍ، تضلل الناس. (2)

7
1 أبريل

لم يعد لدي قوى، تتملكني شكوك لا نهاية لها، كل يوم أبني تخمينات: من، لماذا، كيف، أين يختبئ؟ تخلق اللا إجابة شعور اليأس.

يا له من شخص حقير، هذا "النظير المجهول، "، يزحف في كل مكان، يتجسس عليّ، يبدو لي أنه عندما أقرأ رسائله يتابعني من خلال ثقب غير مرئي، إنه على دراية تامة بي، كما لو أنه يقرأ أفكاري، حتى التي لا أستطيع أن أعرضها في ملاحظاتي.

لقد بردت قليلًا رغبتي في القبض عليه وفضحه، أن تحاول أن تتفوق بالدهاء على من هو أكثر دهاءً وذكاءً منك، هو مزحة جوفاء تمامًا، ربما هو الآن في مكان ما في القرب، من الممكن جدًا أن يكون على اتصال وثيق، أو حتى تواطؤ، مع الممرضة والعاملات، وحتى مع الطبيب المعالج، هو يعرف كل شيء عن كل شيء، هو غير موجودٍ في أي مكان، وهو موجود في كل مكان، لا، لن أستطيع التغلب عليه.

تمر أيام وليالٍ وأنا لا أفكر إلا فيه، جاءني في المنام الليلة الماضية، وأظهر نفسه أخيرًا، بالضبط في ملابس

(2) ملاحظة: جوتفريد بن: "هيغيل، داروين، نيتشه –هؤلاء هم من غدوا السبب الفعلي لهلاك الكثير من الناس. الكلمات أشد إجرامًا من أية جريمة قتل. خلف الأفكار يصفي حسابهم أبطالٌ وحشود".

المستشفي، كملا بسي، يقف وظهره لي ويقول:

حسنًا، وها نحن قد التقينا.

أجل، التقينا.

كررت كلماته، كما لو كنت أستهزئ به.

أريد أن أرى وجهه، ولكن لا أتمكن ولا بأي شكل، لا يزال وجهه إلى الجدار، أتظاهر بأن لا شيء يدهشني، أنتظر سرًا أنه سوف يستدير، هو لن يحتمل، وبعد انتظار الاستراحة، سوف يخطو نحوي، بيد أنه يقف كصنم، لايتحرك.

حسنًا، يكفي! توقف عن لعب الغميضة! -لقد نفذ صبري، ومددت يدي لأديره من الكتف.

لكن ما هذا؟ توقفت يدي، كما لو أنها رُبطت إلى جسمي، أبذل جهدًا لا يصدق، لا نتيجة!

هنا سقط ثقل الكون على صدري، وبدأ يخنقني، بدأت أئن، واستيقظت على الفور، غمر كامل جسمي عرق بارد، كابوس داهمني في الليل المظلم.

كنت أرغب في إعادة الحلم، أنظر مرة أخرى في عينيه، أحاول تذكر على الأقل بعض السمات المميزة على وجه "نظيري الغريب"، ولكن كل ذلك عبثًا، استلقيت على السرير، وأغلقت عيني بإحكام، ولم أر شيئًا أكثر من ذلك.

وماذا لو رأيته؟ أيعقل في اليوم التالي، عندما ألتقي بشخص ما في الساحة، كنت سأمسك بالرجل من سترة المستشفي التي يرتديها، وأصرخ منتصرًا:"آ-آ! هذا أنت مَن رأيته في المنام؟ هل كان أنت؟ لا تنكر!"

8
2 أبريل

أنا مثل صياد، خلال تعقبه للوحش، تاه في سهوبٍ غير مألوفة."ما العمل؟" - لن أفكر في ذلك، لا أستطيع النوم في الليل، المأزق يسوقني إلى الاكتئاب، في الصباح استيقظ وكل جسمي محطم، وفي رأسي طنين سيء، لا يمكن لذلك أن يستمر، أنا مثبطٌ تمامًا، على استعداد للاستسلام، لكن كيف؟ وإلى من؟

حرب الأعصاب الطويلة هذه ليست لي، أخيرًا لا أحتمل، وأقرر كتابة رسالة، "نظريا لغريب!" البداية هي نفسها كما في رسائله.- أجرؤ على استحضار الأمل في أن تسامحني لأنني لم أرد على رسائلك على الفور، لكن القصة كلها في أن الأسئلة التي تثيرها معروفة لي منذ فترة طويلة، وقد أجبت عليها لنفسي منذ فترة طويلة أيضًا، لذا بدا لي أنه لا ضرورة للدخول في مناقشة معك، اعذرني، أنا لست من محبي المناقشات الساخنة، إذا كانت لديّ بشأن أمر ما أكثر الأفكار وضوحًا، وعلاوة على ذلك، يتوافق العديد من أفكاري مع أفكارك.

ومع ذلك، اكتشفت في وقت لاحق أن الأمور ليست على هذا النحو تمامًا، فكثير من مواقفك الابتدائية تختلف اختلافًا كبيرًا عن مواقفي، بالطبع، لا يهم هذا كثيرًا، لأنه من السذاجة الاعتقاد بأنه في عالمنا المكتظ بالناس، يجب على الجميع التفكير والتصرف بنفس الطريقة، لكن في الوقت نفسه، من المستحيل أن نجلس مكتوفي الأيدي عندما ينتهكون معتقداتك بشكل غير رسمي، ويحاولون فضحها أو تشويهها، ولذا قررت أن أجيبك.

الحياة هي عبارة عن صراع، آسف على التفاهة، في البداية، في هذا الصراع شاركت البشرية، وكل ما هو حيّ على الأرض، جسديًا وبدنيًا فقط، مستخدمة قوتها العضلية، ولكن فيما بعد اخترعوا كل أنواع الأسلحة، وبدأوا في تدمير بعضهم البعض بشكل أكثر نجاحًا، بشكل جماعي، الآن، في يومنا هذا، بدأت تُنفذ حرب العقول، وقد اشتعلت في جميع أنحاء الأرض، في كل حدود البشرية، إنها الحرب الأشد خطورة! على نتائجها يعتمد إن كانت البشرية ستحتفظ ببدايتها الخيّرة، أم أنها ستخسرها بهزيمتها من روح الشر، إذا حدثت هذه الأخيرة، وحل عصر الانهيار العالمي للروحانية، فلن ينجو أحد.

هذه الحرب، المحلية، -واحد ضد واحد-يبدو أنك أعلنتها ضدي، "نظيري الغريب" المحترم"! وأنا مجبرٌ على قبول التحدي.

لننتقل الآن إلى المحدد، أنت تدعوني إلى الإيمان في الشر، تمامًا مثل إيماني في الخير، مناورة ماكرة، من خلال إقناعي بالاعتراف بوجود الشر، أنت تقودني إلى الإيمان به، إلا أن الحقيقة تكمن، يا عزيزي، في أنني بالفعل أعترف بوجود الشر البشري، لكن بداخلي إيمان في الخير! الإيمان هو تفضيل، واختيار، وانصهار روحي مع ما تراه قيمة أسمى، قال دوستويفسكي: "حيث لا يوجد الإيمان، لا يوجد الخير"، إذن ماذا يعني هذا، إيمانك بالشر، الذي تدعونني إليه؟ ما الذي تريده؟أن أصبح مؤمنًا في الشر؟ هل تريدني أن أتمنى انتصاره على الخير، وليس العكس؟

هنا أنت تكرر وبإلحاح فكرة عدم وضع رقعة "جيد" أو "سيئ" على أي شيء في العالم، وتقود، في الواقع، إلى عدم فصل الخير عن الشر، لكن إذا لم يتعلم الإنسان فصل أحدهما عن الآخر، بماذا سيكون مختلفًا عن الحيوان؟ ومفهوم الإنسانية نفسه، أليس هو نتيجة لهذه الميزة البشرية: القدرة على تمييز الخير من الشر؟ وقوانين الإنسانية، أليست هي نتيجة لهذه المهارة؟ فهي، الإنسانية، تمثل القانون الأساسي للعلاقات بين البشر في جميع الأوقات ولُدى جميع الشعوب، يا عزيزي المراسل! بدون هذا القانون الأساسي للوجود، من المستحيل تنظيم حياة المجتمع البشري، وحياة الفرد، صحيح أن هناك الكثير منا ينتهكون هذا القانون بوقاحة وبشكل علني، ولكن يجب أن نشكر الله لأن عالمنا لا يقوم على مثل هؤلاء الناس.

لا أستطيع الاعتراف بنجاح فلسفة الموت التي تتبناها، إذا كان الحديث يدور عن الموت الطبيعي، مصير الإنسان عند نهاية الحياة التي منحه إياها الله، كتنازل عن المكان في الوجود للجيل التالي، فإن البشرية تعلمت منذ زمن طويل أن تتفاعل بتفهم مع هذا "الشر".

ولكن هناك موت ليس كهذا على الإطلاق، موت يسلب بلا رحمة من شخص ما محبوبه الوحيد، واضعًا حدًا لحياته في منتصف الطريق، وبالنسبة لمجرم أو مهووسٍ ما، فإنه يعطيه للسخرية والعذاب والهلاك ليتحول إلى ضحية بريئة، وبالنسبة للطاغية الدموي وزمرته الفاسدة، في سبيل انتصارهم والنشوة المجنونة لسلطتهم، يرمي الموت في القبر الأخوي للتاريخ الآلاف والآلاف من الناس المذبوحين قسرًا.

وكل هذا التنوع للموت الظالم، لا يتناسب مع دفاعك الفكري عن الموت، الذي يهدف فقط إلى شيء واحد: إلقاء الشك على مفهوم الخير، وحتى أن الهدف البعيد المدى هو قتل هذا المفهوم ذاته.

إن رأيك حول الكذب يبدو متناقضًا، نعم، ففي تاريخ البشرية كان هناك أزمنة، فيها عاش الناس في الكذب، وصمدوا بفضله، ربما والآن أيضًا هناك عدد غير قليل من أمثال هؤلاء الناس.

لكن هذا ليس لأن الكذب يتمتع بجدارة معينة، إنما لأن المجتمع نفسه مبنيٌ على الكذب، ولو كان هذا مجتمعًا عادلًا مبنيًا على الحقيقة، لانكشف أمر السيد الكذب، وفُضِح على الفور، ولن يجرؤ على التصرف على نحو متغطرس ومستبدٍ، كما تصفه.

في نهاية الرسالة الأخيرة أوردتَ قصّة فاجعة للمرأة التي شنقت نفسها لأنها خانت زوجها المحترم والمخلص والمحب لها، أما هو فلم يكن ملاكًا، والمرأة المسكينة كانت ضحية لخيالها: فهي كانت تؤمن بوجود نقاء أخلاقي، لكنني سأقبل هذا المثال كحيلة سفسطائية حاذقة، كلعبة عقل لعينة، إذ يمكنك إيراد بقدر ما تشاء من الأمثلة، حيث بعد خيانة الزوجة المحبوبة، شنق أزواج أنفسهم، لذا، فإن استنتاجك الذي يزعم أن سبب كل المصائب هو النقاء الأخلاقي الذي لا يوجد في الطبيعة، لا يمتلك أي أساسٍ.

من الخطأ أن نفترض أن تناسب قوى الخير والشر متكافئ، وأنه، كما يقولون، نحتاج فقط إلى محاولة الحفاظ على هذا التوازن، وعندها سيكون كل شيء على ما يرام، لا شيء من هذا القبيل! لا يمكن أبدًا أن يكون هناك توازن بين الشر والخير، فبما أن الخير هو انتقائي، فهو ليس حرًا في الوسائل، قال رجل حكيم: "هناك طرق كثيرة لفعل الشر، وطريقة عدم فعل الشر هي واحدة، مجرد عدم فعل الشر"، وهذا كل شيء، حاول أن تفعل الخير، وسينتج السيئ من تلقاء نفسه، دون أي جهد منك.

وأخيرًا، أنا بعيد عن التفكير في إثبات شيء لك، أو حتى أكثر من ذلك، في تعليمك وتوجيهك إلى الطريق الصحيح، وكل ما سبق ذكره في رسالتي كان فقط كإجابات في الجدل الذي فُرض علي بالقوة، في نظرتك للعالم، هناك شيء يسيء إلى روحي بشدة، ويؤذي أفضل مشاعري، ومن الصعب للغاية بالنسبة لي مجرد تبادل الآراء معك، وأنا لا أريد أي تقارب أو علاقات صداقة، لذلك، أنصحك بأن تجد شريكًا فكريًا آخر مناسبًا لك، وأرجو أن تتركني وشأني.

9
3 أبريل

لم أستطع حتى أن أتخيل أن "نظيري الغريب" سينخر في روحي بهذا العمق؛ ليلا ونهارًا لا أفكر إلا فيه، كما لو كان حبيبًا، أشعر بوجوده على مدار اليوم في كامل بدني، في كل أعصابي، وأحيانًا يبدو لي أنني أسمع صوت قلبه القريب، أشعر بنَفس غريب يلفح مؤخرة رأسي.

أستمر في متابعة كل واحدٍ من المتنزهين في الساحة، ولكن في هذه المتابعة أنا أهدر الوقت بلا جدوى، كل ليلة أقضيها في أرق، وفي الصباح أستيقظ نصف ميت.

وفي الليلة الماضية سمعت صوت خُطى، يبدو أنها كانت في الممر، لكن الشيء الغريب، بعد أن اقتربتْ من باب غرفتي، لم تبتعد، وإنما خبّطت وخبّطت في مكانها، نهضتُ من السرير، وخرجت بحذر إلى الممر، لم يكن هناك أحد، الآن بدأت أسمع الخطوات خارج النافذة، في الشارع، وضعت أنفي على الزجاج، لكنني لم ألحظ أحدًا في الخارج، كان الشارع الذي يلوح به ضوء خافت فارغًا، ولكن ما أن ابتعدتُ عن النافذة، حتى بدأ صوت الخطوات من جديد، في بعض الأحيان كانت تُطمس بسبب هدير سيارة تسير في الشارع، لكن عندما تبتعد إلى مسافة، من جديد يصبح خطى القدمين الحذرتين لشخص ما مسموعًا، ويبدأ قلبي يموت بهدوء من الخوف المجهول الغامض، هل أنا فعلًا أسمع أم لا أسمع؟ -فكَّرت بحزن كبير، واقفًا وحيدًا في ممر المستشفي الطويل وشبه المعتم، أسمع أم لا أسمع؟ أعيش، لا أعيش؟ وفقط قلبي المسكين مع كل إقناع الحياة يدق في صدري الضعيف، رغبت في الخروج إلى الشارع بسرعة، إلى الهواء النقي، تحت السماء المرصعة بالنجوم، لكن "أبو"اب الأقسام في كل طابق كانت مغلقة بقوة في الليل، وكانت المفاتيح عند الطبيب المناوب.

عدت إلى الجناح، واستلقيت على السرير مرة أخرى، وما إن غفوت أخيرًا، وأنا المنهك بشكل رهيب، حتى بدأت الخطوات الغامضة في الاقتراب، فاستيقظت على الفور.

10
7 أبريل

استيقظت في الصباح مع قلق غامض، كما لو أنني أضعت أمرًا بالغ الأهمية بالنسبة لي، أو تأخرت إما عن طائرة أو عن قطار، أول ما رأيته عندما رفع رأسي عن الوسادة، كان ثمة رسالة على طاولة السرير، وقع قلبي، كان الخوف، كنيران مشئومة، يسري عبر أوعية جسدي، وينتشر في روحي المهدَّمة مُطلقًا دخانه اللاذع، بحركات محمومة فتحت الورقة، كنت أرغب في التأكد إن كان خط اليد نفسه، نعم، إنه نفسه، عندما بدأت

بالقراءة، وجدت نفسي أنني، إلى جانب شعوري بالخوف، أشعر بالفضول تجاه محتوى الرسالة.

"عزيزي الغريب! شكرًا جزيلًا لك على الرد، مرة أخرى اقتنعت بأنك شخص صاحب معتقدات إنسانية تقليدية. لكن حياتنا تشبه سوقًا ضخمًا لا حدود له، يمكن لكل شخص أن يعثر فيه على كل ما يحتاج إليه، وفقط بهذه الحاجة تُحدد احتياجاته، هل سبق لك أن اشتريت شيئًا غير ضروري إطلاقًا وغير نافعٍ بالنسبة لك؟وهنا تكمن المكيدة الرئيسية، وافقني الرأي: إن لم يكن هناك حاجة إلى تغيير الشرائع والأفكار القديمة، فلماذا السعي إلى شيء جديد؟ لكنك لن تنكر أن أي تطور وتقدم هو مستحيل بدون ابتكار؟

بإلقاء نظرة على تاريخ حضارتنا الذي يمكن تصوره، من المستحيل التوصل إلى استنتاج مفاده أن البشرية كانت في وقت ما سعيدة، الخصائص الرئيسية لهذا التاريخ هي حروب لا نهاية لها، ومجاعات، وأوبئة رهيبة، وكوارث طبيعية، وفقر بشري، وعنف، إلى كل هذا أضيفت في أيامنا كوارث محضة من صنع الإنسان: تسميم المياه والتربة والهواء.

لكن دعنا نبتعد عن التعميمات العالمية، وننتقل إلى مصير الفرد، لنأخذ على الأقل أنفسنا، أنا وأنت، هل نحن سعيدان؟ أنا شخصيًا لا أجرؤ على تأكيد ذلك، كيف يمكنني أن أكون سعيدًا وأنا أرى الكثير من العنف والظلم وعدم القدرة على مقاومة كل هذا، لكن لنترك الدوافع الشخصية ونفكر: كم من القرون ونحن نؤمن بالخير والعدالة، ومع ذلك، نحن مقتنعون دائمًا بأن عقيدتنا، عندما تواجه الحياة الحقيقية، تتفتت إلى قطع صغيرة مثل لعبة فخارية؟ في كل الأحوال، بغباء وبتهور نتمسك بقناعاتنا القديمة، يقولون إن الأعمى يتمسك بيأس بكل ما يقع في يديه، ربما نكون نحن عميانًا، وعمانا روحي...

نحن بحاجة إلى الإيمان، ونحن نؤمن بالقوة الخفية للنار والماء... لم يبق عنصر لم نعبده، وكم كان لدى البشرية من الآلهة! وأنبياء! وقادة وخطباء عظام! أمنوا بهم جميعهم، وماذا بعد؟ هل أصبح مصيرنا الحزين مع ذلك سهلًا؟ آمِنوا بانتصار الخير، الإنسانيون يناشدوننا، كم قرنًا وهم يخدعوننا؟ ربما بقدر ما هو مفهوم النزعة الإنسانية موجود، الانتصار هذا لا يأتي، يا للتعاسة! متى إذن، في أي قرن، سيحتفل بفوزه هذا الخير المحكوم بالنجاح؟ وفق جميع الاحتمالات، أبدًا، وأنت تعرف أيضًا يا صديقي: لدينا رغبات لا تتحقق، مهما أردنا نحن ذلك، هناك سؤال منطقي تمامًا: لماذا هذا مستحيل؟ نعم، لأن البشرية تاهت منذ زمن في فضائها الفكري، وعلى نحو خاطئ، تم بناء معابد الخير والشر لدينا مع انتهاكات لقوانين البناء، والآن لا يتبقى سوى شيء واحد، محو كل هذا القديم من على وجه الأرض، ومن جديد تمامًا، من الصفحة البيضاء، بناء أفكار جديدة حول الإنسانية والضمير والعدالة.

قال نيتشه ذات مرة: "تأتي أعظم العصور عندما تكون لدينا الشجاعة لإعادة تسمية كل شرورنا بأفضل ما لدينا".

لا تمكننا الصور النمطية للأيام الماضية والعادات والأفكار من النظر إلى وجه الحقيقة.

العديد من الأسماء معروفة، وتمت إدانة أصحابها وإعدامهم في وقت من الأوقات عن طريق الحرق، أو الشنق، أو وصمهم بالعار، ونفيهم إلى أراضٍ أجنبية، ومن ثم تم الاعتراف بأنهم عباقرة وعمالقة البشرية، حتى إن بعضهم أدرجوا في قائمة القديسين، كم من أعمال الفنانين والكتّاب في البلدان الأكثر تحضرًا، تم إعلانها

غير أخلاقية، ومقوضة لأسس المجتمع القائم، وفيما بعد، ومع ظهور أجيال جديدة، تم الاعتراف بها كأفضل إبداعاتٍ للثقافة الإنسانية، كل هذا ينبع من حقيقة أننا نقع في أسرِ التحيز والمحافظة، بمجرد أن نتخلص منهما، سيشع وعينا فورًا بوميض الذكاء العالي، وسيفتح أمامنا مدى الحياة الجديدة، المرئي والجلي والواضح. وعليه، فإن وعينا بحاجة إلى التحرر، الحرية الروحية مطلوبة، لا ينبغي أن يكون هناك أي عقبة في طريقها، فقط الحرية الروحية غير المحدودة يمكن أن تجلب للإنسان السعادة الحقيقية!

مع خالص التقدير... "زميلك الغريب"، كل بذرة من الخير أو الشر تنشأ على الأرض في البداية ككلمة، ثم تنمو بالأفعال التي تحتوي على طاقة الإيمان، أما بالنسبة للفكرة التي تتخلل رسالة "الغريب"، فهي قابلة للمقارنة، ربما... مع قنبلة نووية تسقط على عالم روحانيتنا، ماذا ستكون عواقب انفجار وإشعاع هذه القنبلة، الله أعلم.

لم أتمكن من التفكير بهدوء أكثر، أعصابي مشدودة، كسلاسل شُدَّت أكثر من طاقتها، على وشك أن تنفجر، إخفاقٌ جديدٌ قادمٌ، لم أعد أسيطر على نفسي، قفزت إلى الممر وأنا أصرخ: نعم، ما هذا! اللعنة! من يسمح له بالدخول إلى الجناح؟ وبأي حق؟!

جاءت الممرضة مسرعة على صراخي.

إلى أين تنظرين؟ لماذا وضعوك هنا؟ -صرختُ بفظاظة في وجهها، دون أن أتمكن من كبح نفسي، -من هو؟ ولماذا تسمحون للغرباء بالدخول إلى جناحي؟

بدأت الممرضة بكل ما تستطيع تهدئتي، سألت عما حدث، كان كل كياني يرتجف من الغضب، لم أستطع أن أشرح لها بوضوح ما شكواي، فقط لوَّحت بالرسالة أمام أنفها، مكررًا بلا نهاية: "هاك... هذا! أي إثباتات أخرى تحتاجين؟" في النهاية بدأت تفهم شيئًا ما.

لم يأت أحد إليك أثناء مناوبتي، -قالت وهي تنظر إلي متفاجئة.

كيف لم يأتِ؟ ليس فقط أتى! من أين جاءت هذه؟ - صرخت وأنا ألوح بالرسالة.

إذن، حسنًا، -قالت الممرضة في محاولة لإرضائي، وكأنها توافق على شيء معي، -يجب أن تهدأ أولًا، احصل على قسط من الراحة، ثم سنوضح ذلك كله.

قادتني الممرضة إلى الجناح، وأعطتني قرص دواء ونصحتني قائلة:

اليوم، من الأفضل ألا تخرج إلى النزهة، وفي المساء، إذا كان هناك شيء سيزعجك، اطلب من الطبيب المناوب أن يعطيك حقنة قبل النوم، اتفقنا؟

قلت بنبرة أكثر هدوءً ممسكًا بشكل ودي بيد الممرضة:

اعذريني! كنت غاضبًا، صرخت في وجهك، لكن صدقيني، كل هذا يحدث في الواقع، أنا لست في هذيان، أشعر وكأنني وحش مطارد، استلمت مؤخرًا رسائل من شخص مجهول، وهو يلعب لعبة الغميضة معي:يلقي الرسالة، لكنه لا يعلن عن نفسه، هاك، انظري، هذه هي رسالته الأخيرة، منذ زمن أريد أن أمسك به، ولكن لم أوفق، وهذا يخرجني عن طوري.

يبدو أن كلماتي قد تركت لديها الانطباع المطلوب، نظرت إلي باهتمام، وفكَّرت، وسألت لاحقًا:

متى وجدت هذه الرسالة؟

للتو.

للتو؟ - صاحت الممرضة في خوف، - أنت تعلم، أنا أعمل هنا منذ زمن قصير؛ لم أفهم كل شيء بعد... لكنني سأضع في الاعتبار شكواك، لكن عليك الآن أن تستلقي، وتستريح.

أسرعت نحو المخرج، وأغلقت الباب وراءها بهدوء.

أما أنا، فلوقت طويل لم أستطع أن أهدأ، قبيل الساعة الحادية عشرة ذهبت إلى حصة تدريب التحفيز الذاتي، بيد أن القلق المطبق كان يتملكني، بحيث لم تستطع الشفتان اللطيفتان والأسنان اللؤلؤية للطبيبة الشابة، ولا تعاويذها المنومة التي تدعو إلى النعيم الروحي، ولا الموسيقى الهادئة، من إخراجي من حالة الاكتئاب.

وفي المساء جلست لأكتب رسالة.

"الغريب الموقر! منذ وقت طويل ونحن نلعب الغميضة، نتناقش دون أن نرى بعضنًا البعض، نقفز بشكل غير متسق من موضوع إلى آخر، نجمع في كومة واحدة كل ما نعرفه لغرض وحيد، هو إثبات سداد رأينا، وإذا لم نحدد معالم مناقشاتنا، ولا نضع قواعد لسلوكها الصحيح، فأنت وأنا يهددنا خطر الجدال بدون جدوى لبقية حياتنا. مثلًا، أنت تؤكد أن المسار الذي قطعته البشرية هو وهم مأساوي، لأن النجم الهادي الذي يدعو إلى الفضيلة، تم اختياره في الأصل بشكل غير صحيح، ومن هنا، كما يقولون، تم تشويه مفاهيم الخير والشر، والحب والكراهية، والشرف وعدم الشرف، والأولويات تم تحديدها بشكل تعسفي، ما النتيجة؟ هل ينبغي أن نتخلى عن مُثُلنا العليا وتطلعاتنا الروحية؟ بطبيعة الحال، أنت لا تتحدث بصراحة، ولا تستخدم كلمة "رفض"، ولكن كل ما لديك يفضي إلى ذلك.

لكن الناس وجدوا أنفسهم غير سعداء في عالمهم الخاص، ليس لأنهم واظبوا على الالتزام بكل القوانين الأخلاقية، بل العكس تمامًا، لأنهم انتهكوها، غير سعداء ليس لأن معابد الروح بنيت على حسابات غير صحيحة، بل لأننا أنفسنا دنسناها، ولم نحتفظ بها في النقاء المطلوب.

يسعى إلى الحرية كل كائن حي في العالم، والإنسان أيضًا، ومن يجادل في ذلك؟ الحرية، وفق رأيك، هي الخلاص من كل قيد، افعل ما شئت، لا ينبغي لأحد أن يعيقك، لكن ألا ينبغي على الإحساس بالواجب تجاه الآخرين، والرحمة، والأمانة، والضمير أن تحدّ من أفعالنا، وتكبحها في إطار القانون الأخلاقي؟ أنت تود أن تقنعني بأن الحرية لا تعترف بأي إطار، حتى الشرف والكرامة، هكذا ينتج أن الأفعال البشرية التي لا تعترف بالحدود، وكل انتهاك للقانون، واحتيال، ودعارة، وسلب وما إلى ذلك، ليست سوى مظهر للحرية غير المحدودة، وفقًا لهذا المنطق، فإن القياصرة الرومان نيرون وكاليجولا وغيرهما، الذين سمحوا لأنفسهم بكل الأعمال الشائنة من فسق، وقسوة شديدة، ودموية، وصفاقة، وخيانة خبيثة، سيعتبرون أكثر الناس حرية في تاريخ البشرية، لم يعترفوا بأي قيود أدبية وأخلاقية: فقد تعايشوا مع أمهاتهم، وأحضروا خيولهم

المفضلة إلى مجلس الشيوخ، وما شابه ذلك، ولكن هناك قول مأثور: لدى الكلب المالك، ولُدى الذئب رب، العدل موجود على الجميع، جميع الذين تجاوزوا حدود ما يسمح به الله، سوف يتم تقديمهم عاجلًا أم آجلًا أمام محكمة التاريخ.

ربما أن الدين تحديدًا هو الذي أنقذ البشرية من الفوضى الكارثية، والتفكك الروحي، وإذا لم يتمكن من هزيمة إبليس وإغراءات الشيطان بشكل نهائي، إلا أنه على الأقل تم الكشف عن الشيطان وإدانته، الخوف من الله فصل الإنسان عن الحيوان، هل توافق على هذا؟ ومجامعة الرجل لبناته حرَّمها على الناس قانون الشريعة، وليس قانون الحرية التعسفية اللامحدودة.

ولكن لو أننا، كما ترى أنت، فصلنا الحرية عن الحياة الحقيقية، وعبدناها كصنم، فمن الممكن جدًا أن نعود إلى تلك الباخوسية المجنونة.

كل شهوة خسيسة، وجشع حيواني للرذيلة، وقسوة، ونذالة، وجحود وخيانة محبوسة في زنازين لاوعينا، ومحروسة هناك، ومدانة بالقانون الأخلاقي، كل هذا الحشد الأسود للروح الشريرة يندفع إلى الحرية، وينتظر الساعة التي نضعف فيها، ونفقد الثقة في أنفسنا، ونهدر احتراسنا، وإذا حدث هذا، فما أكثر الوحوش الرهيبة، والقتلة واللصوص المتعاقبين الذين سنطلقهم من زنازين عالمنا الداخلي!

عندما ترى في الشارع امرأة جميلة، تنشط رغباتك أمام جاذبيتها، يمكنك فهم ذلك، فالإنسان ليس ملاكًا، لكن القليل من رباطة الجأش! ربما هي زوجة مخلصة لرجل محترم مثلك، وأم مهتمة بأطفال لُطفاء، كأولادك، وهل هذا التصور عن المرأة يتوافق مع ميولك الفاسقة؟ هنا يجب عليك، من خلال إظهار الحزم، أن تعطي لنفسك أمرًا: "توقف!"، بما أن الحرية تتمثل في إمكانية القيام بكل شيءٍ لا يجلب الضرر للآخر، فإنك إذًا لم تستطع التوقف، ستجد نفسك ببساطة عبدًا لغرائزك الحيوانية.

عندما سئل سقراط العظيم: "ما هو الفرق بينك وبين الملوك؟" أجاب: "إنهم عبيد لأهوائهم، وأنا سيدها"، سقراط هو حرٌ أكثر بمائة من هؤلاء الملوك العبيد.

إن جوهر الحياة يتكون من حقائق بسيطة، ومصيبتنا أننا لا نتقبل هذه البساطة، نحن، من تلقاء أنفسنا، نحب أن نختار أكثر المسارات تعقيدًا، ونصنع عليها مختلف المآثر غير المعقولة وغير الضرورية ونتغلب على أي صعوبات، لنقل مثلًا، من لا يعرف كم هي ضارة عادة التدخين.

يموت أناس بسبب سرطان الرئة أكثر من أمراض الشيخوخة الطبيعية، بسبب غبائنا أو رذائلنا أو عاداتنا السيئة.

وهكذا، من أجل التغلب على السرطان، تنفق الدول أموالًا طائلة، وتعمل الصناعة العالمية على مكافحة الأورام، في حين أن المشكلة في غاية البساطة، حسنًا، التدخين ضار وخطير، لذلك أقلع عن التدخين!لكن لا! مشكلة تافهة، يمكن حلها بجهد بسيط من الإرادة، تتحول بالنسبة للبشرية إلى المشكلة المستعصية رقم واحد!ولكن أليس هذا شنيعًا؟ حشرة صغيرة أمام أعيننا تتحول إلى وحش ضخم مروع!("يصنع الناس

المعاناة الكبرى لأنفسهم لأنهم يتجاهلون الحقائق البسيطة" -كلمات حبيبك نيتشه.) ، ربما تعتقد أن لحل هذه المشكلة، يجب عليك إدخال التدخين الإلزامي الشامل بموجب القانون، وهذا انطلاقًا من منطق وجدلية استنتاجاتك عن الخيار الحر للإنسان، يجب أن يتخلى عن أي محاولة لمحاربة عادته السيئة، لأن ذلك يبدو عنفًا ضد الإرادة الحرة لمحبي التبغ، إنك، بهذا الشكل، تسعى سرًا إلى أمرٍ واحدٍ-أن يبقى الإنسان عبدًا لرغباته، مثيرًا للشفقة.

الحرية هي داخل الإنسان، في وعيه.

مهما كان عدد الحريات المعلنة المقدمة للإنسان"من الخارج"، فإنه في حال كان نذلًا ومتزلفًا، فإن جميع الحريات لا فائدة لها، حيث أنه في الأصل كان عبدًا واضحًا بآذان مقطوعة، وسيبقى كذلك إلى الأبد.

"ما الحرية؟ هي الضمير النقي!"-قالها الحكيم بيرياندر الكورينثي الذي عاش قبل سبعة قرون من الميلاد، اِعترف، بالفعل قول رائع! هذا يعني أن الحرية تتحقق فقط من خلال الكمال الروحي! أمام مثل هذه الحرية يجب أن نرفع القبعة، وننحني حتى الأرض.

عندما تطرح أنت من دون خبث سؤالًا: في أي عصر سيأتي انتصار الخير؟ سيكون من الغباء والسذاجة افتراض أنه يعني القضاء التام على الشر على الأرض، انتصار الخير هناك، حيث يدرك الناس، وبشكل راسخ، ضرورة فعل الخير بشكل دائم.

من الضروري أن نعرّف بوضوح ما هو الانتصار والهزيمة في هذا النضال الباقي والمتواصل، عن هذا لم نتحدث أنا وأنت حتى الآن.

في الوعي المألوف يجري تصور النصر على أنه ضربة الملاكم القوية والموفقة التي وجهها إلى خصمه ضربة قاضية، أو براعة قاطع الطريق من فيلم مثير، تمكن من الاستيلاء على السلاح أولًا، وإطلاق النار على عدوه، أي، القتلى يعتبرون مهزومين، ومع ذلك، فإن هزيمة يسوع المسيح، الذي قتل على يد أعدائه بقسوة لا تصدق، لم تمثل الانتصار الأعظم للبشرية؟ نعم، هناك خسائر في هذه الحياة، هي أغلى من النصر. ما الذي يمكن أن يكون أسمى من مأثرة عصفورة شعثاء، في محاولة منها لحماية فراخها، تدفع بنفسها إلى فم ثعبان ضخم؟ أليس موتها أعظم انتصار، وهي تستحق إعجابنا؟

ما "المأثرة"؟ ما "الشجاعة"؟

أيعقل أن الأشخاص الأكثر وحشية، والقادرين على إراقة الدماء، نعترف بهم شجعانًا، ونعتبر قدرتهم على القتل بمثابة مأثرة؟ آباي كذلك علَّق بسخط: "لماذا يعتبر كل هؤلاء الأشرار المؤذين شجعانا يائسين؟ "أيعقل أن الوضع كذلك؟ - ماذا تبقى لأولئك القادرين على المأثرة الروحية؟على سبيل المثال، أليس الانتصار على الذات مماثلا للقيام بمأثرة؟فأكثر الأسود رعبًا غير قادرٍ على أن يكرر مأثرة العصفورة الصغيرة التي كان لديها الحزم لأن تلقي بنفسها عمدًا على أقوى وأخطر عدو، ربما الشيء الذي ليس بمقدور الإنسان فعله، لكنه يفعله بعد كل شيء، يمكن تسميته مأثرة.

تقوم اعتباراتك على حقيقة أن مُثل الخير لا تنسجم مع عيوب الناس، ولا تتوافق مع الواقع الأرضي نفسه، حيث لا يوجد ثمة ما هو مثالي بالمطلق، أتفق في الأمر الأخير معك، لأن النقص في العالم هو الدافع لتطويره، واستمرارية الحياة تخضع لقوانين التطور المستمر، نعم، كذلك هو الأمر، لوأن شيئًا قد بلغ الكمال التام، فإن من شأنه أن يسقط من السلسلة غير المنتهية للنمو، ويفقد قدرته على الحياة، فها هم الفنانون، من خلال سعيهم لبلوغ الكمال في إبداعهم، يدركون بوضوح أنه غير قابل للبلوغ، ومع ذلك، بفضل النزعة الجامحة إلى ذلك، تمكنوا من إبداع أعمال فنية رائعة.

فقط من خلال سعيها لإيجاد طريقة لعلاج الأمراض الأكثر فظاعة، والتوجه إلى مهاجمة أكثر الحصون منعة، وتحملها للهزائم التي تستحقها الانتصارات العظيمة، ووضعها لأهداف الكمال الروحي صعبة التحقق، البشرية قادرة على توسيع آفاق قدراتها.

ومن ثَمَّ، فإن التناقض بين عدم تطابق المثل العليا السامية مع الواقع الدنيوي، هو ليس عيبًا فيها، بل على العكس، هو ميزة لها.

لقد وهبنا الخالق جميعًا مشاعر طيبة، وهيئة جيدة، وظروفًا ممتازة للحياة، حتى نتمكن من تحسين هذا العالم، لكننا لم نتمكن من استخدام عطايا الله الجيدة هذه، الآن، وبدلًا من أن نبحث عن أسباب الأخطاء في افتقادنا المخزي للإرادة، وضعفنا، وعدم ثباتنا، نحاول تدمير ما صنعته روح وضمير الإنسان، نريد أن ندمر روحانية البشر بأكملها.

إن قوانين الوجود البشري وضعها الناس أنفسهم، ومن ثَمَّ، فإن تنفيذها يعتمد عليهم أنفسهم، صحيح أن قوانين الطبيعة أكثر قسوة بكثير من قوانين الإنسان، وكثير منها ينتهك مباشرة مشاعرنا السامية، والقوانين المقدسة، والأخلاق، مع ذلك، هذا لا يعني أننا، ولكوننا جزءًا من الطبيعة، يجب أن نخضع للقوانين الوحشية للوجود.

لا توجد فيها، ولا يمكن أن تكون، أي معايير أخلاقية، مثل التضحية الذاتية في سبيل الله، وفي سبيل مثل الحب العليا، لا يوجد، ولا يمكن أن يوجد، طموح للتطهر الروحي من خلال المعاناة، يمكن لتصور القداسة أن يكون لدى الإنسان وحده، ولا يوجد عند غيره من المخلوقات الدنيوية، وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا يجب علينا، أنا وأنت، أن نؤكد أن قوانين الطبيعة هي فوق القوانين البشرية، وأنها وحدها حقيقية، وأن هذه الروحانية موجهة من الله فقط لتعرية فسادنا اليائس وتحديده؟

وعندها يتضح أننا نتخلى عن المبادئ الأخلاقية، ونطيع غرائز الحيوانات، وباتباعنا للطبيعة نبرر كل عيوبنا، ونُخضع الأخلاق نفسها للتشكيك، ونعتبر أنه يجب تصويبها، ولكن ليس روحينا، أنا وأنت، المذنبتين. بذلك، فإننا نضع، أنا وأنت، ترتيبًا جديدًا للقيم: ما كان يعتبر سيئًا، يصبح الآن جيدًا، قتل شخص هو أمر طبيعي جدًا، لأنه يتوافق مع قانون الطبيعة، الذي بموجبه لا تخضع أي جريمة قتل لأية محكمة.

وهنا أمامنا حرية غير محدودة! افعل ما تشاء، كل الأغلال الأخلاقية أسقطت، إذا كنت ترغب، انغمس

في الفجور، بع زوجتك، تاجر بضميرك، اسخر من كل الأنقياء والأبرياء، اكذب وغش، فكل هذا من طبيعة الأشياء، ويعتبر حقًا طبيعيًا للجميع، أنت مثل السارق الهارب من السجن إلى الحرية: اذبح، أقتل، اسرق، (هذا، على ما يبدو، هو "طير سعادتك" الذي ينزل على يدك الممدودة!)

أوه، لا، يا نظيري الغريب! قواعد الحياة العظيمة لم نضعها نحن، أنت وأنا، لم ينتهكها الأقوياء، بل الضعفاء، وهي لا تطاق بالنسبة للآخرين، وليس للأولين.

أوه، بالمناسبة، جميع الأبطال المضطهدين، أحرقوا على المواقد، شنقوا كملحدين، والأولياء والأنبياء حُكموا بالموت ليس من قبل الناس، وإنما من قبل السلطة.

الناس أنقذوهم من النسيان، واحتفظوا بأسماء الشهداء في ذاكرتهم إلى الأبد... وداعًا".

بعد أن أخفيت الرسالة في المكان المحدد، عدت إلى الجناح، وتحت انطباع رسالتي، استلقيت طويلًا دون أن أغفو.

بدأت أتذكر الرسالة الأولى للغريب، التي تتحدث عن معاني "الين" و"اليانغ"، المفهومين الرئيسيين للفلسفة الصينية، انتقال النوع الأول من الظاهرتين إلى الثاني، والعكس بالعكس، وحدة المكونين المتضادين، كل هذا يبدو واضحًا لي، ولكن لماذا ينبغي أن تندمج هاتان البدايتان، وتشكلان شيئًا واحدًا، ويجب أن تفقد كل منهما قيمتها المستقلة؟ لماذا بالضرورة يجب أن يختلط الأبيض مع الأسود، المفيد مع الضار، الخير مع الشر؟ بعد إبعاد لعبة العقل الماكرة، لا يمكن للمرء أن يطلق تسمية النار على أشياءٍ من نفس الترتيب، مثلًا، في الموقد لطهي الطعام، واللهب المدمر للحريق التي يحترق فيه كامل الخير البشري المكتسب، على الرغم من أنه في هذه الحالة، وفي الحالة الأخرى، تنشط عملية الإحراق، لا، هذه ظواهر مختلفة، على الرغم من أن العنصر الأساسي المشترك هو النار، ولكن من هو المستفيد من وضع أشياء مختلفة في مقلاة واحدة؟

وهذا مربح، اللعنة عليهم، لجميع أنواع الوحوش الأخلاقية، المخنثين الروحيين، البرمائيات الأخلاقية الزلقة، المستعدين للانحراف، وفي آن واحد خدمة السيدين: الكذب والحقيقة، أوه، مسوخ هذا العالم ينظرون دائمًا إلى الحياة بعيون قاسية؛ فهم يودون أن ينتقموا من العالم كله بسبب قبحهم.

وأنا أجد هذه الخصائص في مراسلتي السرية، مثله مثل متعصب إرهابي، لا يرحم، يضع الخط ليفجر المعبد الروحي المشترك لعموم البشرية، الذي من أجل تشييده بُذل الكثير من الجهود الأخلاقية، يريد أن تُدَمّر نتائج آلاف السنين من العمل البشري في لحظة، الأمر الذي بعده سيتعين علينا، سواء كنا نريد ذلك أم لا، أن نعود إلى الوجود الوحشي الخالي من الروحانية، يجب مقاومة الإرهاب الروحي.

11
8 أبريل

الشعور بالوحدة، ما هو؟ ولماذا هو؟ أعتقد أنه من الممكن تحمّل جميع أعباء الحياة، يمكن تحمّل أي افتراء، حتى والعنف، لكن تحمّل الوحدة الدائمة يتجاوز قوة أي شخص.

سمعت أن الانتحار ينتشر في كثير من الأحيان في أكثر الدول ازدهارًا، وليس في البلدان ذات المستوى المعيشي المنخفض، أسباب الانتحار متباينة للغاية، يمكن أن يمثلها مرض عضال، أو حب غير موفق، أو حلم محطَّم، لكن السبب الرئيسي هو الشعور بالوحدة.

بالطبع، ليس كل شخص مريض ميؤوس منه يقرر أن ينهي حياته منتحرًا، إذا كان إلى جانبه أناس مقربون يحبهم، فإنه من المستبعد أن يخطر بباله أن ينهي حياته، ولكن إذا ما أصابك حزن، وليس لديك من تشاركه به، فإن الشعور بالوحدة سيغدو سيدك، ومن الآن فصاعدًا، هو، كالحبيب، يستحوذ على كل انتباهك، يرافقك في كل أركان وجودك المعتم، الشعور بالوحدة هو شقيقك التوأم، التوأم، الشعور بالوحدة هو مصيرك، في النهاية، أنت تمسك به من معطفه وتتبعه بخنوع إلى النهاية، وتذهب إلى بلد ضبابي من العالم الآخر.

اكتشف العلماء ما يسمى بـ "الثقوب السوداء" خلف المجرات البعيدة، تبتلع كل ما يقترب منها، حتى النور، بشكل لا رجعة فيه، الشعور بالوحدة هو ثقب أسود، يبتلع بشكل لا رجعة فيه كل ضوء روحك، وكل قواك، وكل مشاعر الفرح في حياتك، الطاقة الروحية التي يلتهمها شعورك بالوحدة، كانت تكفيك للقيام بالكثير من المآثر.

لقد حلَّ بي أيضًا هذا الشعور، هو قريب مني للغاية، أشعر بلمسه بقلبي الذي أصبح فجأة يشعر بالألم والضيق والانزعاج.

وأنا أجري برعبٍ، أفتش عن مُحاور، أوقف الممرضات والعاملات في الممر، وأقبل على سؤالهن عن حياتهن ومعيشتهن، واستمع إلى أجوبتهن، كما لو كنت مهتمًا جدًا بكل هذا، وأنا في نفسي أدعو لو يتحدثن معي لأطول فترة ممكنة، وكثيرات منهن ينظرن إليّ، ويفتحن أعينهن واسعًا، معتقدات أنني لست في وعيي، في حين لا يقمن أخريات بإرضائي بالإجابة، ويبتسمن بسخرية، ويتابعن طريقهن.

انتظرت، أخيرًا، حصة تدريب التحفيز الذاتي، أجري مسرعًا إلى هناك، حيث سأرى من جديد الطبيبة اللطيفة بشفتيها الطفوليتين المتناسقتين، المستعدتين دائمًا للزقزقة بما هو مشجع، جلست على الكرسي، ولكن في روحي الشيء نفسه، طوال الجلسة تظاهرت بأني كنت نائمًا، جلست مغلق العينين، لم أفتحهما، حتى عندما انتهي كل شيء، أخيرًا تظاهرت بأنني استيقظت، -واو، يا للمعجزة! رأيت أمامي الطبيبة ترمقني بنظرة فاحصة صامتة، مع ابتسامة لطيفة على وجهها!كانت عيناها طيبتين، وضوؤهما المشع أشاع الدفء

في روحي للحظة، كم هو قليلٌ ما يحتاج إليه الإنسان! نظرة طيبة واحدة، يمكنها أن تجعلك سعيدًا تقريبًا.

مع ذلك، أربكني قولها: "لكنك لم تنم؟"، كنت على يقين من أنني استطعت إقناع الجميع بأنني غارق في نوم عميق، قالتها بلهجة ودية مرحة، واختفي حرجي على الفور، آخ، أنا لست بحاجة إلى أي شيء، فقط أن ينظروا إليّ بمثل هذه النظرة اللطيفة.

فجأة أخذت يدي، وسألت سؤالًا غير متوقع تمامًا:

هل بإمكانك أن تعطيني الأفكار التي تعذبك؟

ومرة أخرى وقعت في الارتباك.

كيف ذلك، أعطيك؟ بأية طريقة؟

تعرَّق كفي من الاضطراب، حررت يدي بلطف، كانت الطبيبة الشابة لا تزال تنظر إلي بودّ، وكأنها تقول: "حسنا، ما بك، اهدأ، فأنا لم أقل شيئًا يمكنه أن يسيء إليك"، عيناها، اللتان لا قاع لهما كالبحر، المتلألئتان كالسهوب الصباحية، صبتا الدفء السعيد في قلبي البارد، تلك العينان هدأتاني، أراحتاني، سكّنتاني.

"أعتذر إذا أزعجتك بأي شيء، -قالت عيناها الرقيقتان، - لم أكن أود فعل ما يؤلمك، أنا فقط أردت أن أخفف معاناتك، روح الإنسان لا يمكن أن تساعدها إلا روح إنسان آخر، انظر، انظر في عيني، إنهما لا تكذبان، لا تقولان إلا الحقيقة".

"أنتِ دافئة، نسيم الدفء الناعم يهبّ منك، -أجبتُ، أيضًا بعين واحدة فقط، - لقد لاحظت ذلك من المرة الأولى، لكنني لم أفهم حينها إلى من كان دفؤك موجهًا، بدا لي أنه إلى لا أحد، والآن أنت تتوجهين إليَّ تحديدًا، وأنا أجيبك، نعم، أفكاري تعذبني، لكنها كثيرة، هناك الكثير جدًا جدًا من الأفكار القلقة، وأنا أخاف أن أعطيكِ إياها، أخشى أن أسبب لك ضررًا لا يمكن إصلاحه، سيكون من الأفضل لك أن تظل أفكاري هذه محجوبة عنك دائما.

- إنقاذك من الأفكار المؤلمة هو سعادة بالنسبة لي.

بدا لي فجأة أنها لفظت العبارة الأخيرة بصوت عالٍ.

ماذا؟ - سألتُ رغبةمني في التأكد من صحت ما سمعت.

إنقاذك من الأفكار المؤلمة هو سعادة بالنسبة لي، -كررت بهدوء.

الحوار الداخلي الصامت تحول إلى خارجي مسموع، وهذا لم يناسبني، كان الحديث بالنظرات أكثر صدقًا ووضوحًا بالنسبة لي، غالبًا ما تبدو الكلمة المنطوقة غامضة وغير مفهومة، فضّلت التحدث بالعيون.

"أن أعطيكِ أفكارًا تضطهدني، يعني بالنسبة لي أن أسلمك مصيري".

واصلت الحديث الصامت، متخيلًا بوضوح أن قول بصوت عالٍ لمثل هذه الكلمات التي لا تقال إلا مرة واحدة في العمر، كان سيمثل بالنسبة لي مشكلة أكثر صعوبة".

"أنا على استعداد لتولي... كل شيء"، -أجابت عيناها المليئتان بالإصرار.

كان قلبي يخفق بصوت عالٍ.

حقًا؟ - لم ألاحظ كيف تحدثت بصوت عالٍ مرة أخرى.

حقًا، -قالت بهدوء وحزم.

تيارٌ قوي من المشاعر الواهبة للحياة، كمياه تحطم السد، اندفع إلى عالمي الروحي نصف الجاف، وهذه الصحراء البائسة في لحظة تحولت إلى واحة مزهرة مغمورة بالخضرة، نعم، هناك في العالم تلك القوة العظيمة التي ترفع الإنسان، وتملأ حياته بمغزىً عالٍ! لا يتطلب الأمر سوى القليل من الحظ لمقابلتها والإقلاع...

بكفي الجافة والملتهبة أمسكت بلطف يدها، باستسلام، وبشيء من الحزن، وبلا حيلة نظرتُ إلى أسفل مخفضة عينيها، وبحركة واهنة حاولت أن تحرر نفسها، لكني حافظت عليها، لأن قلبي كان مفعمًا بالثقة، وروحي محتشدة بشجاعة وقوة لم يسبق لها مثيل، شعرت في نفسي بانتصار وشيك.

لكن هذا، بالطبع، هو خفةٌ واضحة، فقبل دقيقة واحدة فقط أنا، البطة العرجاء، المعذَّب كلي بسبب الوحدة العالمية، تم تخليصي من الخوف الرهيب أمامها، من قبل هذه الفتاة اللطيفة، والآن، بعد أن اكتسبت قوىً لم يسبق لها مثيل، أريد أن أوجهها ضد محسنتي العزيزة.

قربتها إلى نفسي، الرائحة العطرة لعطورها فاحت عليّ، كفاها الرطبتان ارتعشتا قليلًا، و، يا إلهي، كلما كانت ترتجف أكثر، كانت تنطلق في داخلي، بثقة أكبر وعدوانية أكثر، رغبة شريرة، مثل سمكة قرش تستشم رائحة الدم، أنا لا أفهم نفسي، كما لو كنت قد استبدِلْت، وأخيرًا يصل الأمر إلى وعيي: نعم، أنا، كلي نفسي، لكن في جوهري الحيواني البهي، ووحش غرائزي استفاد من اللحظة الموفقة، وزحف خارج ظلمة السجن العميقة للاوعي الخاص بي.

لا! لا! -قلت مذعورًا، -أبدًا! مستحيل!

بعد أن انشغلت كثيرًا مع وحشي، أرجعته أخيرًا إلى الزنزانة مرة أخرى، ورفعت رأسي بصعوبة مع تنفس الصعداء، ورأيت... رأيت وجهها الفتي حائرًا ومتوردًا من الاحمرار.

هذا ليس لك، هذا حديثي لنفسي، -بررتُ للطبيبة كما لو كنت طفلًا، غارزًا إصبعي في صدري الضعيف.

ابتسمتْ بخجل، والفجر الوردي على وجه الإنسان الصافي هو علامة أكيدة على النقاء الروحي والرقة، من الناس الذين لم ينسوا بعد كيف يحمرّون، يمكننا أن نتوقع أنهم قد وُهبوا جمالًا داخليًا، ويمتلكون ضميرًا أصيلًا، وممنوحون حب الحقيقة...

جلست على الكرسي بجواري، وأرادت أن تقول شيئًا، إلا أنني غطيت بعناية فمها بيدي، لامست شفتيها الناعمتين المذهلتين كفّي.

لا داعي لقول أي شيء!... هس-س-س، -همستُ قائلًا، - بعد مناجاة روحينا-لا داعي لقول أي شيء... كل شيء سيكون زائدًا." وليست هناك حاجة إلى أي كلمات.

ضحكت بصوت عالٍ، وكما لو كانت قد وضعت النقطة الأخيرة لحديثنا الصامت الحميم، نظرت إليَّ بلطف كبير ورقّة بالغة -أوه، بهذه العيون المشعّة! ومرة أخرى بدا لي أن في روحي واحة فاتنة مزهرة بخضرة نضرة. في بعض الأحيان يكون الواقع مثل أكثر الحكايات سحرًا.

12
9 أبريل

أنا سعيدٌ كشخص كان منذ فترة طويلة موجودًا في غرفة مظلمة وخانقة، وفجأة خرج إلى ضوء الشمس، إلى مساحات حياةٍ نشطة، مزدحمة بالناس.

يبدو أن الفكرة الفضولية التي يحاول صاحب الرسائل المجهولة بأي وسيلة تتبعها، بدأت تدريجيًا تتركني، وغير الشاب النحيل، صاحب الناصية الطويلة الذي وقعت عيناي عليه، والذي حاول دائمًا أن يختبئ في الجناح عندما يراني، لم أكن أشك في أي من المرضى.

وأيضًا هذا الزميل، كما علمت منذ وقت قريب، عانى رهابًا نادرًا، من النظرة المباشرة إليه، وكان يختبئ، ليس مني فقط، من الجميع .

مع ذلك... مرَّ بعض الوقت، وبدأت الأفكار عن "القرين المجهول" تعاودني مرة أخرى، وبدأت أفكر في خطط جديدة، وفي كيفية اكتشافه."سأذهب... قد يقع فجأة اليوم تحديدًا... -مع هذه الفكرة خرجت إلى النزهة في الساحة، لبضعة أيام لم أخرج إلى هنا، خلال هذا الوقت، كما تبين، كانت هناك بعض التغييرات في تشكيلة جمهور ساحتنا، لم يكن موجودًا الرجل الملتحي الضخم، هاوي العراك، ولا خصمه الأشعث الذي، بلا حول ولا قوة، سمح لنفسه أن يُضَرب على رقبته، واختفي الثرثار الأحمر الذي كان يسرد جميع أسلافه المشهورين، من الأشخاص القدامى المألوفين لم يكن هناك إلا "يسوع"، جالسًا على المقعد الركني، يعظُ نفسه بهدوءٍ وبعمقٍ بشيءٍ ما، أما الباقون فقد كانوا من النزلاء الجدد، معظمهم يفضل المشي على طول المسارات بشكل حزين، دون التواصل مع أي شخص؛ كل محاولاتي للتواصل معهم باءت بالفشل؛ وسرعان ما شعرت بالحرج؛ لأنني أنظر إلى المساكين في وجههم، وكأني أحاول اتهامهم في نذالة ما.

وعبثًا، بعد أن تجولت في المساء، تعبت كثيرًا وعدت إلى جناحي، هويت على سريري، وغفوت.

13
13 أبريل

تملكتني لامبالاة بكل شيء، في كل الأيام الأخيرة عانيت من ألم دائمٍ في الرأس، يتأجج وينخر في الدماغ، لا أستطيع حتى العمل في يومياتي.

والنظير الغريب كما لو كانت الأرض قد انشقت وابتلعته، لو أنه أرسل خبرًا عن نفسه، فهو ألقى في رأسي أفكاره الخبيثة، واختفي، لا أشعر بالقلق لو مات، حتى ولا يهمني إن كان لا يزال على قيد الحياة، إلا أن الأفكار الشريرة التي أعطاني إياها، لا تعطي راحة لروحي.

الصحراء تقترب من الأراضي الخصبة، تجتاحها بالرمال، مع هذا التوسع العالمي للشر، تضيق بشكل متزايد واحة الأخلاق البشرية.

كلما أصبحت الأعمال الفنية والكتب والأفلام أكثر فظاظة وفسقًا، ازدادت الأموال في سوق التصريف، إنهم لا يستمعون إلى بيتهوفن أكثر، ولكن مثل النمل على العسل، يركض العشاق إلى الموسيقى الأكثر فظاظة وصخبًا وبدائية، لعقود من الزمن لا يستطيع مخرجٌ كبير العثور على الوسائل اللازمة لإنتاج فيلم جديد، في حين أن محتالًا يُسرِّب المواد الإباحية، غارقٌ في الذهب، ويدخل ضمن النخبة الثقافية العالمية، ماذا يعني هذا؟ أن الفجور هو السلعة الفضلى في عصرنا، إذا قامت نجمة سينمائية مشهورة في بلد متقدم للغاية بالتقاط صور عارية للمجلات، وتعرض مقابلة تشارك فيها القارئ بعدد هزات الجماع التي يمكن أن تصل إليها في الجماع الجنسي، وأن برلمان ذلك البلد يقرُّ قانونًا يسمح بزواج المثليين، ويقدَّم كل هذا على أنه إنجازٌ للديمقراطية، هل يمكننا الحديث عن انتصار الخير على الشر؟ بالأحرى لدينا هنا هزيمة للخير.

لكن الأخلاق في عصر انحدار الإمبراطوريات لا تعتبر تجسيدًا لقوانين الحياة لكل البشرية، هذه القوانين تحتوي على منطق رياضي متأصل في خلق الحياة، في حين لا يوجد في الفسق الكلي للحداثة مثل هذا المنطق، لا يوجد فيه سوى الموت والميل المباشر نحو التدمير الذاتي، تمامًا كمدمن مخدرات أدرك عدم قابليته للشفاء، أو مدمن كحول مخمور ينهيان حياتيهما منتحرين، لا يمكن للبشرية التخلص من التفكك الروحي إلا على حساب الانتحار العالمي، إذا تعرض الخير في الواقع للهزيمة في الحرب من أجل الروح والعقل، فإنه لا يمكن أن تكون هناك توقعات أخرى عن عواقبه.

نعم، نعم، ليس من السهل تدمير البشرية الحديثة بعوامل خارجية، من المستبعد أن يكون سبب موتها كارثة نووية، أو كويكب ينزل من السماء، البشرية سوف تموت نتيجة لفجورها.

لكن يجب أن يكون هناك سبب رئيسي للانحلال الروحي الشامل، بلا شك يتمثل هذا السبب في مرض الأنانية، في "الأنا" القادرة على كل شيء، والتي لا تقهر، والجامحة، ولكن هل يرى الإنسان أنه من الضروري

كبح جماح "أناهُ" الوحشية؟هل هناك بالفعل من هو سام قادر على التغلب على نفسه؟

لنأخذ الفهد المفترس مثالا؛ فهو يأخذ قطعة من اللحم من جرائه، يخطفها مباشرة من أفواههم، ولكن ليس لأنه يظهر أنانية حيوانية، كما اعتقد علماء الأحياء في البداية، وإنما بسبب الحاجة إلى حمايتهم من الموت، إذ قد تموت الجراء الجشعة من الإفراط في الأكل، اهتمت الطبيعة بكيفية إنقاذ الحيوانات من الأنانية والجشع، أما فيما يتعلق الإنسان بذكائه العالي، فيبدو أنه لم يُفَكَّر في ذلك، للأسف، الناس في كل شيء يشبهون جراء الفهد، ولكن لا أحد يستطيع أن ينقذهم من الجشع الكارثي، باستثناء أنفسهم... على سبيل المثال، عن طريق توحيد "الأنا" المنفصلة في "نحن" شاملة، رفض مبدأ "لي"، أعتقد أن السلطة يجب أن تعود لي، كما يعتقد الحاكم -لا، لي، يعتقد المطالب بالسلطة، -وتبدأ الحرب الداخلية في البلاد، الأسر تتفتت لأن الأزواج لا يرغبون في الاعتناء ببعضهم البعض، ولا يفكر كل شخص إلا في نفسه، هناك، حيث تسود "الأنا"، تغيب "نحن"، لا يمكن أن يكون هناك حب، ولا أخوة، ولا وفاق جيد، "الأنا" دائمًا غير أخلاقية، إنها ذاتٌ عديمة الضمير، وأولئك الذين يعيشون تحت سلطتها هم دائمًا غير سعداء، رغم أنهم في بعض الأحيان، من الخارج، يبدون في غاية السعادة، لا يمكن لـ "أنا" أن تنتصر على بقية العالم، وستهزم.

"الحياة هي دائمًا غرق السفينة"، -قال خوسيه أورتيغا أي غاسيت.

غرق السفينة؟... مثل هذا حدث في 14 أبريل 1912، غرقت تايتانيك، الجميع يعرف ذلك.

بعد ارتطامها بجبل جليدي ضخم، سرعان ما وصلت السفينة الفاخرة التي تم بناؤها مؤخرًا، إلى القاع، قبل ذلك كان أكثر من ألفي شخص من الأغنى والأسعد في رعب ما قبل الموت على سطح السفينة، كيف يمكن إنقاذ "الأنا"؟ -فكّر كل واحد منهم، كل واحد من هؤلاء فقد عقدة "الأنا" من الخوف.

وعد المليونيرات بأموال غير محدودة مقابل مكان في قارب نجاة، لكن القبطان أمر بوضع الأطفال والنساء فقط في قوارب النجاة أولًا، وتم كل شيء كما أمر، وبعد مساعدة أولئك الذين ينبغي أن يُنقَذوا، بقي طاقم السفينة بقيادة القبطان وألف وخمسمائة مسافر على متن السفينة الغارقة، عزفت أوركسترا السفينة حتى اللحظة الأخيرة، كان الموسيقيون في المياه بعمق حتى الركبة، وهكذا ماتوا، وهم يرددون النشيد المجيد لـ "نحن" المنتصرة، التي طارت على أجنحة الخلود فوق أعماق المحيط البارد.

لقي قبطان السفينة حتفه مع الطاقم وجميع الركاب المنكوبين.

هذا ما حدث في ساعة الكارثة الكبرى ومواجهة الموت الوشيك، وحدة "الأنا" الصغيرة المثيرة للشفقة في "نحن" الكبيرة والخالدة.

14
19 أبريل

دخلت في بيت العنكبوت هذا، فعقلي سليمٌ وذاكرتي جيدة، وأبدو وكأنني بدأت أعتاد على وجودي في وضع عدم اليقين، وعندما اكتشفت رسالة دورية أخرى في الدرج، أخرجتها دون أي خوف في روحي، فتحت المغلف وبدأت في القراءة، كما لو كانت رسالة من صديق قديم.

"صديقي العزيز! لفترة من الوقت لم أتمكن من الكتابة لك لأنني كنت مريضًا للغاية، "ابتسمت ابتسامة لا إرادية: كأنه توأم لي، مريض في نفس الوقت معي".

أسعدتني رسالتك الأخيرة، رغم أنني، كما تفهم، لا أتفق معك في كل شيء، أنت تجعل معنى الخير مطلقًا، على الرغم من أن مفهوم المطلق لا ينطبق إلا على الله، وبعد ذلك، أي قانون لا يتوافق مع حقيقة الأشياء، غير قابل للتنفيذ، وقوانين الخير، وفقًا لرأيك، غير قابلة للتطبيق، ومن ثَمَّ فهي قوانين وُلدت ميتة، وإذا كانت قوانين الخير غير قابلة للتنفيذ، فإنها إذن لا تؤدي إلا إلى إثارة المجتمع، وتعميق التناقضات فيه، وتسبب لدى الناس حزنًا على الرغبات غير المحققة، وعدم الرضا عن الحياة، والارتباك والقلق، والتنافس الذي لا معنى له فيما بينهم، إن التغلب على كل هذه الأمور السلبية لن يساعده إلا إلى التوصل لحل وسط بين الخير والشر، والاعتراف بالأول والآخر كبدايتين متكافئتين وضروريتين للنشاط الحيوي للبشرية، ومفهوما الخير والشر، بحرف كبير، اللذان تشكلا في العصور القديمة، لم يعودا حيويين اليوم، وبدلًا من هذين الأثرين المقدسين، الفلسفيين والنمطيين الأوليين، يجب أن نستخدم مفاهيم القوة السلبية والإيجابية، التي لا تقل ضرورة بالنسبة للحياة، مثل الشحنات مع رمزي "موجب" و"سالب" في الكهرباء، فقط عندما نقرّ بتكافؤ هاتين القوتين، سوف يتوقف عالمنا عن الانقسام إلى قسمين مختلفين، وإلى معسكرين لا يمكن التوفيق بينهما.

بوقت طويل قبلنا، أنا وأنت يا صديقي، كان هناك أشخاص أذكياء حددوا بشكل صحيح المحتوى الداخلي للشر.

الشاعر الفرنسي شارل بودلير أنشده في الكتاب الذي حمل عنوان "أزهار الشر"، وكتب الكاتب الياباني ريونوسكي أكوتاغاوا: "الحياة البشرية لا تستحق سطرًا واحدًا من بودلير"، ولو أصبحنا جميعنا بمثل هذه الصراحة والاتساق في استنتاجاتنا، لتغير المفهوم العالمي "للنزعة الإنسانية" بشكل كبير، وتحرك نحو محتوى ديمقراطي حقيقي...

هل تذكر لوحة بيكاسو "مينوتور في الحلبة"؟ وسط حلبة مصارعة الثيران يعوي مينوتور الجريح كالذئب، ويرفع وجهه إلى السماء، وهناك شخص من وراء درع الحاجز يمد يده إليه "من الواضح أنه لم يرهبه حتى الآن المفهوم المتعارف عليه بشكل عام عن شرّ الشاب"، يمسح الوحش على رأس الثور، ويظهر تجاهه الشفقة

والرحمة، وهذا الشاب يقف أقرب بخطوة من الحشد الجامح من المتفرجين، إلى المثل العليا للخير الحقيقي. يستنتج من ذلك أنه من دون تقسيم الناس إلى خيرين وشريرين، فإن التعاطف ممكن مع الجميع، وليس فقط مع القريبين.

إن المثليين جنسيًا الذين تحتقرهم، والذين لا تعدهم بشرًا، هم رغم كل شيء يبقون بشرًا، والقوانين التي تكتب بالنسبة لهم لا يتم اتخاذها من قبل برلمانات الدول الديمقراطية فحسب، بل من خلال الحياة نفسها، "أعتقد أنك قد لاحظت بالفعل أنني أقرأ مدوناتك الجديدة في اليوميات، فأنت في السابق كنت تخفي دفاتر الملاحظات، خوفًا من أن ينظروا فيها دون قصد، ولكنني الآن أرى أن اليوميات موضوعة بشكل مكشوف، وحتى إنها مفتوحة، لذلك لم أستطع المقاومة مرة أخرى، وقرأتها، آسف، أرى أن رسائلي أعيدت كتابتها هناك، والآن بإمكاني القول بشجاعة إن هذه هي مذكراتنا المشتركة، أليس كذلك يا عزيزي؟"

وبصفة عامة، أليس من المضحك أن تعاملني مع نوع من الاحتقار المثير للاشمئزاز؟ ولكن، كما الطبيب، لا ينبغي أن يكون شديد الحساسية تجاه المرضى، فإن أتباع الفضيلة الحماسيين لا ينبغي لهم أن يزيحوا أنوفهم عن شوائب الفجور الكريهة، ألا تظن أنه من غير اللائق بالنسبة لأمثالك من الأخلاقيين والمدافعين عن الخير والأخلاق، إظهار الاشمئزاز؟

دعنا لا ننسى يا صديقي أنه من بين الناس العباقرة الذين عملوا بجد لمجد البشرية، كان هناك الكثير من المثليين الجنسيين.

أوه، سيكون من الجيد لنا أن نلتقي في النهاية!

في انتظار رسائل تحمل إجابات.

صديقك الغريب

الله وحده يعلم ما الذي يريد أن يصل إليه هذا التعيس مني.

بعد أن رجعت إلى الجناح، واستجمعت أفكاري، كتبت بسرعة ردًا على رسالته.

"الغريب المحترم! هناك مشاعر ومفاهيم تتطلب فيما يتعلق بها نقاءً غير ملوث، إنه الحب والشرف والعدالة والضمير، يجب أن تبقى في الشكل النقي، الحياة لا يمكن أن تسير بنصف وفاء ونصف غدر، وأمانة تمتزج بالخداع، وحب مع قطعة من الخيانة، إما نعم، وإما لا، إن مبدأ الخير لا يمكن أن يكون قاعدة للحياة اليومية، مع إمكان أن يتحول كل شيء إلى العكس، حسب الظروف.

والمثل الأعلى للخير هو النجم الهادي، الذي لا يشير إلى المكان الذي ينبغي الوصول إليه، وإنما يعطي الاتجاه الذي يجب اتباعه، لذلك لا ينبغي في أخطاء إنسان على الأرض أن يذهب إلى إلقاء اللوم على النجم الهادي في السماء، من أجل تحسين الحياة، ليس هناك حاجة لتغيير المثل العليا، بل من الضروري أن نصحح أنفسنا، إن مراجعة قوانين الخير والشر ليست إلا في متناول الآثمين والأشرار، فقط هذا يمكن أن ينقذهم من وصمة العار المخزية على جباههم، "يمكنك تبرير، لا يمكنك معاقبة، ولكن سمِّ الشر شرًا"، -قال دوستويفسكي-

وهل هو مخطئ؟

لا أجادل في أنه ينبغي أن نحب كل الناس، لا أن نقسمهم إلى جديرين وغير جديرين، لكن مينوتور الذي ذكرته، لا يمثل رمز الشر نفسه، والرجل الذي أشفق عليه، هل مسَّد رأس الشر وشعر بالأسف عليه، وليس رأس المخلوق، ضحية الشر نفسه، الذي يعاني والمحتضر؟ ربما المعنى الحقيقي للوحة في هذا الأخير، مثل هذا الحب لكل ما هو حي-فانٍ-أمر مفهوم تمامًا، أنت، في المنطق الخاص بك، تريد أن تمحو الخط الفاصل بين الخير والشر، الشفقة بإنسان مريضٍ ميؤوس منه، لا تعني شفقة على المرض نفسه، هنا الشفقة على من يموت من هذا المرض، قال المهاتما غاندي:"الصراع لا ينبغي أن يكون مع المخطئ، وإنما مع الخطيئة"، الذين لا يتجنبون الخطيئة، لن يحاربوها أبدًا.

تُعد السرقة لدى كل الشعوب عارًا وجريمة، إلا أنها بالنسبة لشخص اعتاد على السرقة لا تمثل عارًا على الإطلاق، وبالنسبة للمرأة التي ذاقت حلاوة خيانة زوجها، لا يمثل ذلك خطيئة، ولا فجورًا مخجلًا، الفظيع بالنسبة لها ليس الخطيئة، وإنما إمكان اتهامها في الزنا.

نعم، كل هذا يتوقف على العادة، التدخين، والسُّكر، والإدمان على المخدرات، والفجور، اعتدت عليه، ثم كل شيء سوف يسير بسلاسة، يكفي أن يتخطى المرء الضمير مرة، لن يكون بعدها ثمة ما هو مخجل بالنسبة له، فقد أصبح تحت سماء أخرى، في بلد آخر، هناك، حيث كل شيء أصبح ممكنًا، ولا يندم إلا على أنه لم يفعل كل هذا قبل ذلك بكثير.

إن تجاوز الضمير أسهل مائة مرة من عدم القيام بذلك، هنا يتطلب الأمر الكثير من الجهود، مجرد إطلاق العنان للغريزة الحيوانية، ومن أجل الإحجام هناك حاجة لإرادة وقوة الأخلاق، لكن الأخلاق ليست منزلًا فارغًا مهجورًا، يمكنك الدخول إليه بدون إذن في أي وقت، لا، بل هي، على الأصح، ديرٌ ذو ميثاق قاسٍ، لا يُقبل فيه إلا الشخص الذي يتقيّد بتواضعٍ وحسن نية بهذا الميثاق، ومن المستحيل أن يدخل إلى هناك شخص يعتقد أنه لا يوجد شيء رهيب في أنه تجاوز عتبة الضمير لمرة واحدة فقط، لا يعرف أنه بفعله لذلك، فقد ضميره إلى الأبد.

أنت تقول إنه لا يجب أن أكون شديد الحساسية، هل تقول ذلك لي؟إن ذلك غير لائق، وماذا بالنسبة لك أيضًا ؟ يا عزيزي، الشعور بالاشمئزاز هو فئة من الأخلاقيات، بهذا المعنى، قد يكون الطبيب أيضًا شديد الحساسية، من يعرف النظافة لا يمكن إلا أن يشعر بالاشمئزاز من القذارة، أود كثيرًا أن أتمنى أن تجرّب هذا الشعور يومًا ما.

غريبُك.

هل كتبت الإجابة بشكل صحيح أم لا؟ قررت قراءة الرسالة الأخيرة للغريب مرة أخرى.

وهنا لاحظت أن فكرته الرئيسية غابت عن ذهني، الشذوذ الجنسي، في رأيه، له الحق في الوجود، لأنه إنساني بالكامل، ولا يمكن احتقاره.

"إيه، سيكون من الرائع بالنسبة لنا أن نلتقي في النهاية!" -لفتت نظري، انتظر ...، انتظر...، وفجأة ساورني شكوك جاء من أي مكان، أحرقني كتيار في تخمين رهيب: نعم، هذا الشقي -أليس شاذًا جنسيًا بحد ذاته؟! إذًا كل شيء أصبح واضحا، اتضح أن كل حججه البارعة لا تهدف إلا إلى تبرير ميله الدنيء، هذا هو السبب في أنه يحتاج إلى خلط الخير والشر في مقلاة واحدة، ويثبت بإصرار أن القذارة ليست قذارة.

تذكرت بعض رسائله السابقة، هنا، أن تنفق هذا الكم من القوة العقلية لتبرير الرذيلة، بدا تخميني غير متوقع كليًا بالنسبة لي، أما أنا، فقد حاولت بجدٍ مجندًا أدمغتي لإجابته كما يجب! يا له من عار ...، نذل! كم هو مهينٌ اهتمامه! أصابني الغثيان منه!لم يسبق لي أن شعرت بمثل نجاسة الروح هذه، حسنًا، حسنًا، هل تريد مقابلتي؟ هيا، أنا لا أمانع، سترى أي وحشٍ أيقظت في داخلي بإهاناتك، ليس لدي ما أخشاه، أنت من يجب أن يخاف، أيها الشقي!

وعندها كتبت في نهاية رسالتي: "أنتظرك غدًا الساعة 30 ,20 في منطقة الخدمات في القبو".

أخذت الرسالة إلى المكان المحدد.

الآن سأنتظر المقابلة بفارغ الصبر، أريد أن أراه، لأنه لا يوجد أخطر من عدوٍ مجهول، لم تلتقِ به وجها لوجه.

15
20 أبريل

وصف لي الطبيب المعالج حقنًا حارّة، والممرضة التي بدأت في إعطائي تلك الحقن كانت ثرثارة، كررت مباشرة في أذني: "كن صبورًا، لا تخف من أي شيء، فقط ستشعر بالقليل من الحرارة...، الآن ستسري في جميع أنحاء جسمك موجة ساخنة...، إنها ليست مخيفة ...، سوف تمرّ بسرعة ...، الآن، الآن ...، الآن ...."

لم تطمئني عباراتها، بل أخافتني تمامًا، تملكت كامل جسمي القشعريرة، وقفز الضغط، وهاجمني فجأة اختناق شديد، اضطربت، وقفزت من على الكرسي، وسقطت مرة أخرى.

أم-و-...، ت!"-بصوت خافت قلت مختنقًا، ولم أعرف صوتي.

من الخوف هربت الممرضة بصمت من غرفة العلاج، تاكتني وحدي، لكنها سرعان ما عادت مع امرأة في ثوب أبيض، زرعتا في جسدي حقنتين، ثم وضعتاني على مقاعدٍ مصفوفة بعضها بجانب بعض،

بعد نصف ساعة فقط بدأت أسترد وعيي، شعرت بحيوية أكبر، حتى أنني حاولت المزاح مع المرأتين، وأخبرتهما كم كنت خائفًا من كلمات الممرضة، وكيف أخفتها بدوري بالإغماء المفاجئ، لكن الممرضتين لم تصدقا مطلقًا حالتي المرحة، ولم يستجبن لمزاحي، أخذتاني إلى الجناح، إلى فراشي كي أنام دون أن أتناول عشائي.

زارني الطبيب، ذات الطبيب الصلب كمسمار مطروق، والذي يرتدي نظارة طبية، بعد أن جس نبضي، وبكفه اللزجة، كما لو كان يصنع لي فضلًا عظيمًا، لمس جبهتي، ثم نهض وخرج بصمت، وكأنه بكامل مظهره يقول:كنت أعرف كل شيء مسبقًا، هكذا ينبغي أن يكون، وكل شيء سيكون كما توقعت.

بعد الغداء تمكنت من النوم، ورأيت منامًا، مبنى ضخم مع سقوف عالية، فيه حشد من الناس، الجميع يقفون في طابور، وينبغي عليّ الوقوف في الطابور، لكنني لا أستطيع أن أجد نهايته، اضطررت إلى الخروج إلى الشارع، ومن هناك رأيت كم كان الطابور ضخمًا، يمتد إلى مكان ما خارج حدود المدينة، ورغبة مني في رؤية أين نهايته، تسلقت إلى على ناطحة سحاب، ومن على سطحها، شعرت بصدمة هائلة يرتج تحت وطأتها أعمق أعماق روحي، وأنا أرى أن السلسلة السوداء للطابور تمتد إلى الحافة الضبابية للأرض، وتغيب ما وراء الأفق، بشعور التوق الشديد والثقل على قلبي، نزلت إلى الأسفل، وسألت أحدهم: "كيف لي أن أقف في هذا الطابور؟"رد عليّ الشخص قائلًا: "ما أنت يا عزيزي! إلى الآن لم يصل أحدٌ إلى النهاية، وسيترك كثيرون مكانهم في الطابور لأحفادهم وأبناء أحفادهم"، كان الرجل مسنًا، يجلس القرفصاء، بدا لي وجهه مألوفًا، لا أستطيع أن أتذكر أين التقيت به.

استطرد بصوت ناعم ودود:

-اسمع يا أخي، اترك كل شيء وتعال معي.

أسير وراءه من خلال الحشد، انتقل إلى منطقة مكاتب، يبدو أن الطابور ينقسم هناك إلى تيارات ، إلى مكاتب مختلفة."مكاني هنا، قال الرجل، - اجلس وانتظر"، خرج هو، أجلس على الكرسي، ويغمر روحي فرح النجاح غير المتوقع، يا إلهي، لن يكون عليّ الوقوف في هذا الطابور مدى الحياة! وهنا خطر ببالي: ما الذي أحتاجه هناك، في المكتب؟ حسنًا، سأدخل إلى هناك، ثم ماذا؟ حول ماذا سيسألونني؟ أجل، فأنا في الواقع لا أعرف حتى لماذا وقفت في هذا الطابور، كان الأمر محرجًا... وهنا رأيت لافتة على باب المكتب الذي كان علي أن أدخله، وقرأت عليها كنيتي، "يا عزيزتي، هذا أنا!" - قلت للسكرتيرة مشيرًا إلى اللافتة، "وماذا عساي أن أفعل؟" أجابت السكرتيرة بحدّةٍ خفيةٍ في صوتها، -"إذا كان ذاك هو أنت، إذن اذهب إلى نفسك!" أقف حائرًا أمام الباب، سمعت أصوات التشجيع من الخلف: "كن جريئًا، أيها الشاب! أدخلْ أيًا كان هناك!" لكنني أسمع شيئًا آخر: "كن حذرا! لا تؤذِ نفسك!"وأخيرًا، قررت أن أدخل... يا الله! للقائي... يخرج من خلف الطاولة... أخرج أنا نفسي، كلّي متوتر، شاحبٌ، غاضبٌ، بخوفٍ تراجعت إلى الخلف، يخطو نحوي، أصبح قريبًا جدًا، أشعر بأنفاسه تلفحني، يمد يده، يده قاسية وباردة كيد رجل ميت، أصرخ وأستيقظ من صراخي.

أول ما رأيته عندما أستيقظ كان وجه الممرضة التي كانت تقف بجانب سريري، اتضح أنها توقظني لمستني بيديها، وكفها باردة لأنها، على ما يبدو، كانت قد غسلت للتو يديها تحت صنبور الماء البارد.

آسفة، -قالت بحرجٍ، - لقد أخفتك، أحضرت لك بعض الشاي، تناوله قبل أن يبرد.

شكرًا لك، -قلتُ دون أن أفرج عن يديها الباردة.

كم هو رائعٌ أن تستيقظ بعد كابوس، وتجد نفسك من جديد في العالم الحقيقي، حيث كل شيء في غاية الوضوح: جاءت الممرضة، وجلبت الشاي على صينية.

بحلول المساء أصبح الجو سيئًا، وبدأ المطر يهطل في الخارج، فجأة هبت عاصفة شديدة، بدأت بالقذف والتمزيق في جميع أنحاء ساحة المستشفي، في حين جلست أنا في ذلك الوقت في الجناح قلقًا، منتظرًا الساعة المحددة للقاء.

لم ألمس طعام العشاء، حاولت إجبار نفسي على الأكل، لكنني لم أنجح، سرت في الجناح الصغير ذهابًا وإيابًا، ثم خرجت إلى الممر الطويل، خرجت، تجولت في ساحة المستشفي، كانت الأمطار قد توقفت منذ فترة طويلة، والآن عصفت رياح متربة مستعرة، لم يكن هناك أحد، مشيت وحدي، وهمست لنفسي قائلًا: "هيا، استجمع قواك! ارفع رأسك أعلى!"

لا أعرف كم من الوقت مرّ، لكنني تمكنت بشكل تدريجي من ترتيب مشاعري، وتعزيز ثقتي، وسرعان ما أصبحت مستعدًا بشكل كامل للقاء.

في الساعة 20:30 نزلت إلى قبو الخدمات، ولكن لسوء الحظ، في ذلك القسم الذي تحفظ فيه الفُرش والملابس والأثاث وأشياء أخرى من مستلزمات المستشفي، لم يكن يعمل الضوء، إما لأنهم أطفأوه، أو لأن المصابيح محروقة، ظلام دامس، يجب أن يكون هناك كرسي قديم في مكان ما، ولكن هل ستجده في مثل هذا الظلام، كان اختيار مكان اللقاء غير موفق، أو ربما كان هو من أطفأ الضوء بشكل متعمد، تبادرت إلى ذهني شكوك.

فجأة بدا لي أنني أسمع حفيف خطوات شخص ما، جمدت في مكاني، نعم، هذا هو! بعد أن ضغطت ظهري إلى الجدار، حاولت أذناي تحديد اتجاه الأصوات، وها أنا أسمعها الآن سمع من الجانب الآخر، مرة أخرى يعربد غريبي! بالطبع، هو يعربد، بدأت الأصوات تُسمع الآن من جميع الجهات! خشخشةٌ، شجارٌ، طرقٌ.

هنا، نفد صبري، فتحدثت محاولًا إعطاء صوتي قدرًا من الهدوء والحزم قدر الإمكان:

حسنًا، هذا يكفي، أنا أعرف كل شيء، أنت هنا.

بدا صوتي في صمت القبو عاليًا بشكل مخيف.

أنت رغبت باللقاء، وها أنا...

أردت أن أقول "جئت"، لكنني لم أستطع،

لم يكن لديَّ ما يكفي من النفس، وبعد أن استجمعت كامل قواي قلت:

... جئت!

لم أتخيل أن صوتي سيبدو عاليًا لهذه الدرجة، مع هدير صدى حجري في فراغ خرساني، أنا نفسي انتابني رعبٌ منه، ثم حلَّ صمت القبور، وكان أسوأ من الصراخ بكثير، وعندها فتحت ذراعيّ واسعتين، ومشيت

متحسسًا في الظلام الدامس على طول الممر، لمعَ شيءٌ ما أمامي عندما استدرت بعد الزاوية، وفجأة ومض حولي خيالٌ شبحي... ودوت صرخة وحشية لا إرادية مني، وأنا ألوّح وأضرب بقبضتي في هذا الخيال، سقطت يدي على شيء صلبٍ وهشٍ، فدوى رنين زجاج مكسور...

وها أنا أجلس جاثمًا في ظلام دامس في قبو المستشفي، أنا ضائع، أنا تعيس، دخلت في عراكٍ مع خيالي في المرآة... انهمرت من عيني دموعٌ غير مرئية للعالم، يا إلهي! لماذا كل هذا العذاب؟ ما ذنبي؟

ذراعي تؤلمني بشدة، يبدو أنني قد جرحتها، نهضت بصعوبة، سرت نحو المخرج، تحت قدمي شظايا الزجاج المطحون، مترنحًا ومرتطمًا بالجدار، وصلت بطريقة أو بأخرى إلى جناحي، وبمجرد دخولي إلى هناك، هرعت خلفي الممرضة، على ما يبدو، كانت تنتظر عودتي.

يا للفظاعة! ما الذي حدث معك؟

في الخارج... كل شيء رطب هناك... انزلقت وسقطت، -أجبت بشكل غير واضح، وكان صوتي غير مألوف، غريبًا.

نعم، وجهك شاحبٌ، شاحبٌ! سأذهب لاستدعاء الطبيب.

لا...- قلت بصعوبة، لقد تعبت لدرجة أنه بدا أن قواي الأخيرة تغادرني، - لا يستحق الأمر استدعاء الطبيب... -أخذت نفسًا عميقًا لأجمع شتات نفسي وقلت: ضمدي يدي ...،

خرجت الممرضة من الجناح راكضة، وسرعان ما ظهرت مرة أخرى بصحبة الطبيب المناوب، في الوقت الذي كانت فيه تغسل الجروح، وتضمد يدي، وتقيس الضغط، وتستمع إلى قلبي، وتطرح بعض الأسئلة، لم أعرهما انتباهًا، كنت صامتًا، لأن روحي كانت بلا نهاية بعيدة عن كل هذه الضجة، يبدو أن الطبيب وصف لي حقنة على الفور، ونصح بفعل شيء آخر معي، صفعتني الممرضة على الأرداف وغرزت الإبرة هناك، لكنني كنت أنظر إلى كل أفعالهم من خلال عيون شخص بعيد، كما لو أن ما كان يحدث لم يكن يهمني.

بمجرد أن غادروا الجناح، غفوت على الفور، واستيقظت في الساعة الثانية عشرة ليلًا، كان النوم قصيرًا، لكنه كان عميقًا بلا حدود، بعد أن استيقظت، لم أستوعب على الفور أين كنت، لكن تدريجيًا عدت إلى وعيي، وبدأت أستوعب مرة أخرى.

أستعيد كافة الأحداث الأخيرة في الذاكرة، كانت الفكرة الأولى التي تبادرت إلى ذهني هي: "لكن مع ذلك، لماذا لم يأتِ هو إلى اللقاء المقرر؟"، لكن - بالمناسبة- هل استلم هو رسالتي الأخيرة؟ حين لاح السؤال في رأسي فجأة، قفزت من السرير، واندفعت كرصاصة إلى الممر، ركضت إلى الطاولة، أدخلت يدي إلى الدرج، شعرت بوجود قطعة مطوية من الورق... الأمر كذلك إذن!كانت رسالتي! هذا يعني أنها لم تصل إليه، لسبب ما لم يتمكن من أخذها، قلبي يخفق بقوة، سقطت على كرسي كان بجانبي، إذن هذا هو الأمر... "لم يستلمها...، لم يستلمها"، -تمتمت لنفسي بصوت منخفض، الآن كل شيء واضح، وأنا كلي أُنهكت، كما لو كنت ذلك المجنون الذي صارع طاحونة الهواء...

16
21 أبريل

اليوم، خلال فحصي لتصريف أمس من جميع الجهات، وجدت فيه عددًا من التناقضات، أولًا، هل من المعقول أنك، ودون أن تتلقى من الشخص الموافقة، تسرع بتهورٍ إلى المكان الذي حددته أنت؟إنه أمر محرج بالنسبة لي، لكنني في الحقيقة لم أفكر في ذلك.

ثانيًا، لم أكلف نفسي عناء معرفة من أين جاء الغريب، هل هو من هذا المستشفي؟ أو ربما ليس من المستشفي على الإطلاق، وإنما من مكان آخر؟أليس من الغباء إذن تحديد مكان اللقاء في قبو المستشفي البالغ الصعوبة؟ على ما يبدو لأنني بإصرار حشوت رأسي بفكرة كثيرًا أنه هو المتملص العارف بكل شيء، والموجود في كل مكان، وأن تواجده في أي مكان، وفي أي وقت، لم يكن يمثل مشكلة بالنسبة له.

ثالثًا، لماذا احتجت عمومًا إلى مثل هذا اللقاء؟ وما هي الصلة المباشرة بين هذا اللقاء وحرب العقول التي اندلعت بيننا ؟ مع أنه، من يدري... فالجانب النفسي للمنازلة مهمٌ أيضًا.

طوال هذا الوقت كانت قواعد اللعبة يمليها هو حصرًا، وأنا فقط تبعته دون تأفف، التواصل في شكل مراسلات، والمخبأ في الممر، والغزو لعالمي الداخلي، والقلق والصدمة العاطفية التي داهمتني، كل هذا كان بمبادرة منه، لقد حان الوقت بالنسبة لي لأنتقل إلى الهجوم المضاد، وأضع شروطي، وأجبره على تنفيذها...

في الساعة 12 ظهرًا في غرفة الطبيب، كالعادة، جلس بدءًا صامتًا، يدرسني بالنظر إلي، بادلته النظرات بدوري صامتا ، أخيرًا سأل:

كيف تشعر بنفسك؟، قالها بنفس الطريقة التي تتلقى بها "مرحبًا" رسمية، الأمر الذي لم أجد معه ما يدعوني للإجابة عليه: "شكرًا، أشعر أنني بخير".

لم أرد على الطبيب الذي كان يجلس أمامي مباشرة دون حركة، كما لو أنه قد ثُبّت بمسمارٍ في الكرسي.

بعد وقت قليل قال:

اذهب، واسترح.

يعني أن اللقاء انتهى، نهضت وعدت إلى الجناح أخرجت رسائل الغريب وقرأتها بالترتيب مرة أخرى، كما لو أن حياة كاملة قد مرت بين أول وآخر رسالة من رسائله.

أشعر أن بعض التغييرات العميقة قد حدثت لي خلال هذه الفترة، لا، الحديث لا يدور عن آرائي، فهي ما زالت كما هي، لكن نوعٌ من الحزن الثقيل والشديد ينخر فيَّ باستمرار، قبل هذه الرسائل لم أشك قط في أن جذور القوى المظلمة المعادية للخير تغوص في كل هذا العمق.

التطلعات البشرية موجهة بطريقين، الطريق الأدنى -دنيوي، مادي، مستهلك، فيه يسير حشدٌ، والطريق

الأسمى -روحاني، أخلاقي، لا يستطيع بلوغه إلا قليلون، مختارون.

لكننا أطلقنا الآن في كل مكان دعاية مفتوحة للقيم الدنيوية، يبدو أننا نقبل حقيقة أن وقت الحشد قد حان. والاهتمامات الدنيوية مبنية على الأفراح والمتع والبهجة اليومية. الرضا هو مثل الخمر: من يرفض تذوق الخمر الجيد واللذيذ والعطري؟!، إنه يرفع المزاج، ويعطي شعورًا بالدفء والضوء.

"وأي شيء آخر هو ضروري في هذه الحياة القصيرة التي تعطى لمرة واحدة فقط؟" -في بعض الأحيان تبدو هذه الفكرة شرعية وطبيعية، ولكن الخمر الحلو نفسه محفوف بالكثير من التهديدات والأخطار الخفية، يتمثل أكثرها شيوعًا في المصير البائس للذين أصبحوا سكّيرين من الخمر، المتعة بلا حدود والقيود تؤدي عاجلًا أم آجلًا إلى إدمان الكحول الروحاني والفجور الأخلاقي، هكذا أيضًا هم الرفاق الآخرون لـ"الكيف" المتهور، تعطش للكسب، والمشي إلى السلطة على الرؤوس والجثث، والزنا، والبغاء، و"حرق منزل الجيران من أجل طهي عجة"-كل هذا هو أكثر معارض صور الانحطاط الأخلاقي اتساعًا، من المحزن أن الكثير من الناس لا يلاحظون انتشار هذا الشر، أو لا يرغبون في أن يلاحظوا، لا توجد حتى رغبة في المقاومة، ناهيك عن الصراع النشط، لذلك، لا يزال العدو الخطير غير مسمى، لم يتم تحديد لونه، ولم يتم تحديد مكان وجوده. إن الحياة المجنونة والجشعة والثملة تسحق بأنانيتها الضمير الأساسي، لا تعرف حدودًا لا في الطعام، ولا في النوم، ولا في الرغبة، ولا في الحسد!أجل، إنها حياة مجنونة! لا يمكن تسميتها بغير ذلك.

تجاوز معاصري الغريب جميع هذه الحدود التي يمكن تصورها، والتي لا يمكن تصورها، عدم الإيمان بالخير، وعدم الاكتراث به؛ صيغة مخففة من تشجيع الشر؛ مع هذا يمكن للمرء أن يعيش بطريقة أو بأخرى، وبطريقة أو بأخرى أن يعثر على لغة مشتركة، الترويج العلني للشر، أن تكون شريكًا له هو شكل أكثر حدة من العداء، وإمكان التصالح معه هي صفر، لكن غريبي لا يدعم الشر فحسب، بل ويشجعه وينشطه بشكل فعال، ويعبده، أيُّ تحدٍّ وتهديدٍ يمكن أن يكون أكثر خطورة؟!

يتباهى أنه يقرأ دائمًا لبودلير الذي تغنى بالشر والموت والقوى المظلمة، ولكن مهما كان عبقريًا القائل إن الحياة البشرية لا تستحق سطرًا واحدًا من بودلير، فإنه من المستحيل الاتفاق معه، بالمناسبة، لم أقرأ لبودلير نفسه، على الرغم من أنني صادفت في السابق آراء مختلفة حول أعماله.

بعد الغداء، أثناء خروجي للنزهة، عرجت على المكتبة، إلى غرفة واسعة مليئة بأرفف الكتب من الأرضية إلى السقف، تطل بنوافذها على الجهة المشمسة، لذلك كانت حارّة بشكل خاص، خانقة، وزاد على ذلك رائحة الورنيش والطلاء التي كانت تفوح منها، على ما يبدو كانوا يقومون بإصلاحات في الغرفة المجاورة، أمينة المكتبة الكورية، المرهقة من الاختناق، بدت حادة، وتحدثت إلى الزوار وكأنها مشحونة بالغضب تجاههم لسبب ما، ولم ترغب حتى في النظر تجاههم، وكانت تجيب على جميع الأسئلة على مضض، وبلهجة ساخطة للغاية، جلست على طاولة عليها ملفات الصحف، تصفحتها، فحصت الصور وقرأت العناوين فقط، حتى من خلالها وحدها يمكن فهم أن الدولة تزدهر، وأن نجاحات كبيرة قد تحققت في... وأن هناك صعوبات

مؤقتة... ومن الخارج يذكرون أن... لم أكن حتى أنظر إلى الإعلانات مع الأخبار المثيرة؛ كنت أخشى أن يصيبني الغثيان منها، كم من الدناءة من الدناءة تطفح منها عادة.

هل توجد لديكم مجموعة قصائد بودلير؟ سألت أمينة المكتبة رافعًا رأسي فوق الصحف.

ألقت المرأة الكورية السمينة، بعد أن توقفت لمدة ثانية واحدة فقط، بالإجابة مثل إنسان آلي:

موجودة، لكنها ليست في متناول اليد الآن.

ثم دست يدها في درج بطاقات الكتب، وقالت:

لقد انتهت فترة الإعادة، الكتاب موجود في الجناح العاشر.

قالت بهدوء، كما لو أنها كانت تتحدث إلى نفسها.

في أي مكان ؟ -سألت متلعثمًا.

في العاشر.

أجابت وهي ترمقني بدهشة.

كيف هذا؟

اختنقتُ من الذهول،

- العاشر... هو جناحي! أنا وحدي هناك، وأنا لم آخذ مثل هذا الكتاب، أنا لم أره حتى!

انظر بنفسك، انظر، رشقتني بنظرة غاضبة وهي تلوح بالبطاقة، اقرأ، إذا كنت لا تصدق.

هرعت إلى طاولتها، وأمسكت بالبطاقة وتفحصتها بعناية، لكن لا أستطيع رؤية أي شيء، "ما هذا؟ هذا مستحيل، لا يمكن أن يكون ولا بأي شكل من الأشكال -تمتمت لنفسي، -لا أرى أي شيء... لا يمكن أن يكون... "وهنا بدأت أفهم: المشكلة الحقيقية قد حلّت، حلت بي المصيبة.

ما بك؟ - أسمع صوتًا مضطربًا، - هل تشعر بالسوء؟ سأتصل بالطبيب الآن، اجلس ولا تتحرك...

لمَ لا أتحرك؟ وماذا سيحدث لو تحركت؟

رفعت رأسي، تطلعت حولي، الناس يتجمعون، أميز وسطهم ممرضتي، تسأل: "ألا تشعر بدوران في الرأس؟ "ألا يؤلمك قلبك؟" لا أستطيع الإجابة عن أي شيء، باستثناء "لا... لا"، لأنني في الواقع لا أشعر بأي شيء.

سندتني الممرضة من كتفي، وأخذتني إلى الجناح، ووضعتني في الفراش، جاء الطبيب المناوب، وبدأ يستفسر عما حدث، أنا على نحو ما، على مضض، وبكلمات متخبطة، وصمت طويل، بدأت بإخباره.

لم آخذ أنا هذا الكتاب، أقسم حتى لم أره بعيني.

صحت بشيء من الصلابة، كما لو أنني كنت أثبت براءتي من ذلك، ليعود كل شيء إلى مكانه.

بدا الطبيب وكأنه صار يفهم شيئًا ما، بدأ بإعطاء الأوامر للممرضة، ثم خرج بسرعة، أعطتني الممرضة الدواء، وبدأت أهدأ، لكن الرعشة المزعجة الخفيفة واصلت هزّها لجسدي، لكن فقط بعد العشاء، الذي لم ألمسه، أُعطيت حقنة، وغفوت كقتيل.

17
22 أبريل

يبدو أنه تَقرر عدم إيقاظي، واستيقظت فقط وقت الغداء، عندما أحضروا الطعام إلى الجناح، اصطحبتني الممرضة إلى الطبيب، وسرتُ مذعنًا خلفها، كان يجلس وحيدًا في ذات المظهر، وبدا كما لو أنه لم يكن لديه ما يفعله سوى اللقاء بي، جلست طويلًا أمامه، في حين كان هو ينقر بأصابعه على الطاولة صامتًا.

أريد أن أتحدث معك بجدية، هذا طبعًا إن كنت أنت مستعدًا للحديث.

قال أخيرًا بتجهم، كما لو كان يستعد لإبلاغي بدنو أجلي.

سألت بارتباك:

ماذا يجب علي أن أفعل كي أكون مستعدًا؟

يبدو أنه لم يتوقع سؤالي، خفض عينيه، وفكّر، وفي النهاية قال:

إذن، ستبدأ الحديث أنت، أخبرني، هل لديك ثمَّ ما تخبرني به؟

نظر إليَّ من فوق نظارته مترقبًا إجابتي، فقلت:

هناك حديث! منذ أن دخلت إلى مؤسستكم، وأنا أتلقى رسائل من شخص مجهول.

عليك فقط ألا تقلق، وأخبرني بكل شيء منذ البداية، ولا تتعجل، هل تريد أن تدخن؟ - ابتسم للمرة الأولى حسبما أذكر، وأحضر لي علبة سجائر.

هززت رأسي وقلت:

شكرًا، أنا لا أدخن... وهكذا، حاولت جاهدًا معرفة صاحب الرسائل المجهولة، لكن دون جدوى، إنه يختبئ مني، وأصبح وقحًا لدرجة أنه صار يرميها مباشرة في الجناح، لكن المشكلة ليست في ذلك، وإنما في شيء آخر، إنه خطير للغاية بأفكاره المدمّرة، مثل إرهابي مسلح بعبوة ناسفة، هذه الأفكار، مثل الأوبئة، تنتشر بسرعة كبيرة، لأن مبادئ حياتهم لا تستند إلى المسئولية الأخلاقية، بل إلى أكثر الغرائز خسة، وتتوافق تمامًا مع غرائز القطيع، فالوباء القادر على إهلاك حياة الملايين من الناس، يبدأ في جسم شخص واحد بعينه، لا أحد يستطيع أن يضمن أن هذا العش الملتوي في رأس واحد، لن يؤدي إلى مأساة البشرية جمعاء غدًا، لهذا السبب كان عليّ أن ألتقي به حتمًا، وفي مواجهة سُمّه يوجد لدي ترياق جيد، لكنه يتجنب الاجتماع معي، الأكثر وحشية هو أنه في واحدة من رسائله يقول إنه يقرأ مجموعة من القصائد للشاعر الفرنسي بودلير الذي كان يسمى بمغني الشر، بالأمس سألت في المكتبة، وهناك أخبروني أن الكتاب موجود للقراءة في الجناح رقم عشرة، لكن "عشرة" هي رقم جناحي! وأنا لم آخذ أي كتاب من هذا القبيل...

مرة أخرى اضطربت، وسكتُّ للحظات، أخذ نفسًا وهو يتطلع إليَّ كي أواصل فاستطردت :

- ... هذا ما أود قوله، مهما كان ذكيًا وجريئًا، فإن كل هذه الحيل لا يمكن لشخص أن يقوم بها بمفرده، بدون مساعدة.

رفعت رأسي لكي أنظر في عيني الطبيب، وسألت :

-قل لي، يا دكتور، هل هو على صلة بك بأي شكل من الأشكال؟"

خيم على المكتب صمت مميت، أخفض الطبيب رأسه، وحدّق في سطح الطاولة، ونقر بأصابعه برفق عليها.

على صلة،

أجاب باختصار.

قفزت من الكرسي، لم أتمكن من قول شيء، وكأن لساني قد اختفي، تشابكت الأفكار في رأسي، وكل ما فعلته أنني كنت أفتح فمي، وأغلقه بصمت،

لكن هذا الطبيب القرنفلي الذي يرتدي نظارة طبية ابتسم بشكل غامض، وطلب مني الجلوس، امتثلت بشكل لا إرادي، لكنني لم أرفع عيني عنه، قال بهدوء:

لقد عرفت كل ما يحدث لك منذ فترة طويلة، استمع إلي الآن بعناية، سأبدأ من بعيد، في الطب مجال النفس البشرية هو الأكثر غموضًا، وما تم اكتشافه بشأنه قليل، لذلك، في مجالنا قد تكون هناك صوفية أكثر من العلم الحقيقي، خذ مثلًا ظاهرة انفصام الشخصية، أخبرتك ذات مرة عن هذا، العلم لا يزال بعيدًا عن فهم كل شيء فيها، لسبب ما وكأنه يظهر في نفس الشخص شخصان متناقضان فيما بينهما.

نظرة فاحصة حادّة صوبها نحوي من خلال النظارات ، مفعمة بالتساؤل :-هل أفهم أم لا....

استطرد :

... وهذه بعض الأمثلة، تم توصيفها منذ فترة طويلة في تاريخ الطب النفسي، في أوائل عام 1887 وصل رجل مسن إلى مدينة نوريستاون الأمريكية، قدَّم نفسه للجميع تحت لقب براون، داوم على الكنيسة بانتظام، من وقت لآخر كان يسافر إلى فيلادلفيا من أجل جلب وبيع بضائع، كان يعمل في التجارة، رجل مفتوح ومحبوب، سرعان ما اكتسب السيد براون ثقة واحترام سكان المدينة، ولكن في أحد الأيام، في 14 مارس، سمع سكان المدينة منه أنه لم يكن براون بائع القرطاسية، وإنما هو شخص آخر؛ القس بيرن، وهو كاهن من مدينة غرين، وتوسل إلى الجميع لكي يصدقوه؛ الأمر الذي جعل سكان البلدة الريفية محرجين للغاية، هم بالتأكيد لم يصدقوه، لكن سرعان ما وصلت إلى نوريستاون زوجة بيرن التي كانت تبحث عن زوجها المسكين الذي اختفي دون أثر، والذي اتضح أنه الكاهن، وأخذته إلى البيت، لهذه القصة تتمة، لكنها بالنسبة لنا غير مهمة كثيرًا، المهم أن مثل ذلك يحدث للإنسان.

أشعل الطبيب سيجارة، ثم انحنى على الكرسي، وبهيئة رجل يبدي رأيًا خاصًا في دائرة مختارين، واصل حديثه برصانة:

على الأرجح الجذور الاجتماعية لهذه الظواهر مخفية بعمق كبير، فعلى الرغم من حقيقة أن الطب ينسبها

عادة إلى فئة الأمراض، إلا أن أشياء مماثلة يمكن ملاحظتها في سلوك شخص يتمتع بصحة جيدة، بعد ارتكاب خطأ أو تصرف غير لائق، وخلافًا للطبيعة، يدين الشخص نفسه، ويكون مستعدًا للتوبة: "أغواني الشيطان"، "خدعني الشيطان"، "القوة الشريرة تغلبت"... وهذا في الواقع نوع من نقل السلطة مؤقتًا من يديك إلى يدي "الأنا" الثانية، وللحقيقة نحن جميعنا، دون استثناء، أفراد منفصمون، التغييرات في "الأنا" تحدث، مع ذلك، في كل خطوة، مثلًا، نحن نقول "لا" عندما يكون واضحًا لنا أنه ينبغي علينا أن نقول "نعم"، نقول "أحب" الراسخة لتلك التي نكرهها في الواقع، نحن ندعم المبادرة المشبوهة للسلطة العليا التي لا نؤمن أنفسنا بأمانتها، أليس كل هذا دليلًا على انفصامنا؟ أو شخص متواضع ومحبوب، بعد أن يصبح غنيًا أو يصل إلى السلطة، يصبح مختلفًا تمامًا: فظًا، متعجرفًا، ولكنه تجاه من هم أعلى منه يتحول مرة أخرى إلى هادئ وخجول، سمِّ ذلك ازدواجية الشخصية أو انفصام الشخصية، لن يتغير جوهر هذه المسألة.

هنا اكتسب وجه الطبيب ملامح المتشامخ، نفض رماد السيجارة، ثم نظر إلي، كما لو أنه تذكر أني موجود، وواصل:

تَذْكُر "بعد الرقصة" لليو تولستوي؟ حول ذلك الكولونيل الذي لمع في المساء في الرقص كأشجع فارس، ساحرًا جميع السيدات بأساليبه الرائعة، وفي صباح اليوم التالي، على أرض الميدان حيث جرى إعدام الجندي، تجلى كوحش متعطش للدماء، كجلاد شرس، أليس هذا مثالًا على انفصام الشخصية؟

هنا لم أحتمل فقاطعت الطبيب، قائلًا:

حسنًا، أنا أتفق مع كل أفكارك، ولكن ماذا حيال "حالتنا"، وأي علاقة لكل ذلك بقضيتي؟

فقط لا تعتقد أنني أطلت حديثي من أجل المتعة، ليس كذلك، الغريب الذي تحدثت معه لأكثر من شهر، لا يختبئ في أي مكان، هو في داخلك، هو أنت نفسك.

ماذا يعني هذا؟

تساءلت معبرًا عن عدم فهمي تمامًا لحديث الطبيب.

ليكن بعلمك أنك مع فترة فاصلة من ثلاثة أيام، وأحيانًا أربعة، تستيقظ في الصباح شخصًا آخر- خصمك، "الغريب" الغامض، بالمقارنة معك، الذي يجلس أمامي الآن هو توأمك، شخص أكثر انفتاحًا، وأكثر اجتماعية؛ أدرك منذ فترة طويلة الحالة التي هو موجود فيها، ويعرف تشخيصه، وقراره المراسلة معك، اتخذه أيضًا بشكل مستقل، وأنت لا تتذكر نفسك السابق، أنت كتبت كل هذه الرسائل لنفسك، ولم نخبرك بأي شيء؛ خشية من أن نؤذيك بشكل نهائي؛ ويصبح العلاج ميؤوسًا منه تمامًا، لذلك، فضّلنا طوال هذا الوقت عدم التدخل، واكتفينا بمراقبتك دون أن تلاحظ ذلك، الآن وصل كل شيء إلى الحافة، ولا يوجد مكان للتراجع، فقط من يمكنه أن يساعدنا، هو أنت؛ عقلك، وإرادتك.

اجتاح الرعب قلبي طوفانًا يطيح بكل شيء، كما لو كان كل شيء قد سحق بالحجارة، وغُمر بالطين، أناشد نفسي ألا أنهار بالكامل، ومع ذلك، بمجرد أن صدمتني الفكرة بأن هذه الأفكار المدمرة كانت في داخلي،

لم أستطع التحمل أكثر، كنت أعلم بأنني فقدت الوعي، عندما استيقظت، داهمتني رائحة الحقن اللاذع والحارق، كانوا يضعون النشادر تحت أنفي.

افتح النافذة.

يأمرني الطبيب الذي صفع وجنتي بكفه...

أخيًا عدت إلى وعيي، أخذتني الممرضة إلى جناح الأم، كل ما حدث كان بعد ذلك كحلم غامض،

ظهر الطبيب، أخبرني كم كان من الصعب عليه أن يخبرني عن تشخيصي! عن اللحظة الحرجة التي اجتزتها، وعن حقيقة أنه أراد استخدام العلاج بالتنويم المغناطيسي، وهكذا دواليك، لكنني لم أفهم تمامًا كلماته، كما لو أنه قالها لشخص آخر، فقط في اللحظة، عندما بدأ يصف فيها بعض سمات غريبي، عن أنه، كقاعدة عامة، يستيقظ في الصباح، بدأت مرة أخرى في الاختناق.

متى... هل سيظهر الآن؟

سألت وأنا أحبس أنفاسي.

اليوم، على ما يبدو، اليوم الرابع.

قال رافعًا عينيه بحزن، - أجل، الرابع، يتضح أنه صباح الغد.

شعرت برعب شديد... يجب أن أعوي، أن أصرخ للعالم كله: "آ-آ-آ-آ-آ!"، ولكن لا يوجد نفس، فالصرخة لا تخرج، في رأسي لا يستقيم أن غدًا هنا في هذا المكان، في هذا السرير، لست أنا من سيستيقظ، بل شخص ما آخرُ، وقحٌ وأكثر اجتماعية مني، "نظيري الغريب" المقرف"، لا، هذا غير ممكن.

في الليل، بعد انتهاء الجلسة، جاءت طبيبتي الجميلة، خبيرة التحفيز الذاتي، إلى جناحي.

تبين أنه كان لديها مناوبة ليلية، لو أنها جاءت في وقت آخر، لكنت قد فرحت بصدق، أما الآن فلم يبق لدي لا قوة ولا رغبة، لكني لاحظت أنها ليست هي، ليست كعادتها، لم تكن تلك الفتاة الحنونة والرقيقة والساحرة السابقة، وإنما بدت لي امرأة مسنة، ذات نظرة صارمة غريبة، وقالت كما لو كانت تشعر بالذنب:

نحن جميعنا نعرف ما الذي يحدث لك، ومن أجل دراسة حالتك بالكامل، كان علي أن أطَّلع على يومياتك...

ومن هم "نحن جميعنا"؟

سألتُ بحذر.

الجميع، بالطبع، من يعملون هنا، فالجميع يجب أن يكونوا مطلعين على الأمر.

قالت مبررة.

تخيلتُكم هو مضحكٌ ، مراقبة تشنجات أرنب التجارب.

أنا أتعاطف بصدق معك، ما حدث لك هو مصيبة كبيرة.

واصلت بصوت حزين:

-ولكن يجب أن أعترف بأن الاطلاع على يومياتك غدا واحدًا من أكثر الأحداث إشراقًا وأهمية في حياتي؛

منذ زمن طويل دُمِّر كل ما هو خير ونبيل على وجه الأرض، إنه مثل أنقاض قصر قديم، على وشك الانهيار على الأرض، وفقط بفضل الناس، من أمثالك، وربما بفضلك أنت الوحيد في هذا العالم، نجحت في رؤية جمال ونبل عالمنا الروحي، موثوقية الإنسان النقي، صدَّقتك، أنت رجل مقدس، للأسف، في هذا العالم تعد القداسة بالفعل حالة شاذة، كما هو الحال عندما تولُد الطفرات برأسين، لكن هذا غير عادل! قدسية الإنسان ليست قبحًا، هي بالتأكيد أكثر طبيعية من ظهور المسوخ.

لم أسمع كلماتها بشكل خاص، ظللت أفكر في ذلك الحديث الصامت بيننا منذ فترة طويلة.

أنا معجب بك، ولكن ليس بك الحالية، وإنما بك السابقة، الشبيهة بحورية بيضاء الأسنان، -قلت مع بعض الاستياء، لقد جئتِ بحديثك الصامت لتنقذيني في اللحظة الحرجة، وأنقذتني، الآن أنت ذكية جدًا، مثقفة وعملية، وأنا بالنسبة لك مجرد موضوع ذو أهمية علمية، أنت تسببت بأذى لي؛ أنت لست هي، هي الآن غير موجودة...

لكنها في داخلي! هنا! همست بشدة مشيرة بيدها إلى قلبها.

مرة أخرى أردت أن أتحدث معها بلا كلام، مثل المرة الأخيرة، وبعيني طرحت عليها سؤالًا: "متى سأراك؟ تلك، العزيزة، الرقيقة، التي لا تقدر بثمن بالنسبة لي؟"

لم تفهم "سؤالي"، كما لو أنها نسيت إلى الأبد كيفية فهم لغتنا المشتركة.

صرخت بصمت: "سأفتقدها إلى الأبد!"

"لم تسمع" هي.

مع قلب ثقيل، نكست رأسي حزنًا، وصمتت.

كلنا ذئاب ضارية، فجأة وصل إلي صوتها الأجش الذي لا يصعب تمييزه،

نحن مستذئبون، ولم يحفظ أحد منا في نفسه النقاء الملائكي الأصلي والنزاهة، مثل فاوست، بعنا شرفنا وعفتنا للشيطان، وفقط من وقت لآخر يدوي في أرواحنا البكاء المرّ لنقائنا الطفولي، ويحدث أننا حتى في بعض الأحيان نتوق إليه، ولكن مع ألم في قلوبنا يجب أن نعترف أنه لا مكان له في هذه الحياة الفاسدة القذرة.

يا إلهي...

أجل... يا عزيزي...

جفلت عندما لاحظت كيف اهتز صوتها، ورفعت رأسي، ورأيت الدموع تتدحرج على خديها.

أوه، يا إلهي!

كل شيء من حولي أصبح غائمًا، كما لو كان مغطى بحجاب من المطر.

نهضت من مقعدها، ووقفت في ارتباك، ثم ركضت خارجة من الجناح.

مع مغادرتها جاءت أكثر اللحظات صعوبة بالنسبة لي؛ مشيت متخبطًا في أرجاء الجناح الضيق، ولم أجد مكانًا لنفسي؛ في المرآة المعلقة عند الباب، رأيت وجهي البائس، لفترة طويلة لم أنظر إلى نفسي، تحت عينيّ

المنتفختين أكياس ثقيلة، وبين حاجبيّ تدلت تجاعيد قاتمة، فجأة ارتعبت، بدا لي أن شخصًا آخر يقف على الجانب الآخر وينظر إلي، انكمش قلبي في كتلة، ليباغتني ألم حاد، لا حدود له... يتقزم العالم إلى نقطة بالغة في الصغر، أسرعت بقلب المرآة على الحائط.

خفت من إطفاء الضوء، هكذا بدا لي أنه بمجرد أن يحل الظلام، سيظهر شخص ما ويتمتم: "أوه! الآن حان دوري... انصرف من هنا!"

"غدا سوف تستيقظ شخصًا مختلفًا".

أعتقد أن الطبيب قال لي ذلك في الصباح، هذا يعني أنني لن أكون هنا، وفي جسدي سوف يكون هناك من يشوهني ويهينني بلا حدود."لا! لا! أبدا! - أكرر مع المرارة، - أبدًا!"

سحبت نفسًا عميقًا وهدأت قليلًا، أخذت ليفة ومنشفة نظيفة وصابونًا، وذهبت إلى الحمام، في نهاية الممر.

هكذا ينبغي أن يكون كل شيء، ببساطة، ببساطة ووضوح، صابون، منشفة، ليفة، يجب تنظيف الحمام إلى درجة اللمعان الناصع، وملء حوض الاستحمام بالماء الساخن، ساخن قدر الإمكان، عدت إلى الجناح وأخذت شفرة حلاقة، فتحتها، ببساطة ووضوح، لا يوجد ندم ولا غضب ولا إهانة في روحي، هناك شيء واحد في عقلي: الإسراع باستكمال الشيء الذي خططت له، يا لها من بساطة رائعة! أجلس في الحمام، وأقطع وريد معصمي برفق، وبعد ذلك الأمر سوف تسير الأمور بشكل أسهل، جيد أن الماء حار، وكلما ازداد حرارة، كان الأمر أفضل، لن أشعر بالألم على الإطلاق، دون أن أحس سيغمرني نعاس تدريجي، بسلاسة أغادر الشاطئ، أسبح إلى مكان ما في المجهول، فقط يجب أن أغلق عيني بإحكام أكثر، حتى لا أرى الدم، وأتحمل قليلًا.

وبعد ذلك وأنت، يا أخي المقدَّر، يا من فكَّرت بتلطيخ العالم كله بالطين، سوف تتحول أنت نفسك إلى ملطخ بالدم الأحمر القاني، وتسقط في ذلك العالم الذي سترقد فيه بشكل مريح أكثر، وستنام، وتنام، ولن تستيقظ أبدًا إلى الأبد، ماذا إذن، كان عليّ أن أضع يدي على مصيرك الذي، كما يقولون، لن تفلت منه.

"لدي حلم مقدس:
لو مرة بالطوفان العالمي
يندفع الخيرإلى أرضنا،
سأقذف بكل الشر في العالم
وفي ذراعيّ
سآخذه معي إلى القبر.

... سأكون سعيدًا
إن غدوت ضحية مغمورة
بعد أن أحمل ذنب الرذائل البشرية،
بروح مبتهجة
أنقذ العالم من ثقل الخطايا.
هيا، احملوا إليَّ تعاساتكم،
وفي حقيبتي الكريهة،
حمِّلوا قذارتكم الشريرة!
وحين تهلك كلها
معي؛
سأكون سعيدًا
لو أموت حتى اليوم!
أرسلوني إلى رحلتي الأخيرة، –
ولا تبحثوا، أيها الناس، عن الشر في العالم أكثر.
عيشوا بدونه!
وفقط لا تدقوا أبدًا
على تابوتي الضيق مع الشر".

هكذا تنتهي اليوميات بواحدة من أكثر قصائد الشاعر الشهير موكوغالي مكاتاييف حزنًا... أنا لا أعرف المصير اللاحق لهذا الرجل المسالم وغير المتهاون، الذي أصبح النقاء الأخلاقي بالنسبة له مرادفًا لله، إذا نجا بأعجوبة، وبقي على قيد الحياة، أتمنى له السعادة من كل قلبي، وأتمنى ألا يفقد أبدًا إيمانه بالخير، وليحيَ هذا الموهيكان الأخير، الذي يحاول إنقاذ الشعاع الخافت للأمل البشري في خلاص روحه، وإذا لم يعد بين الأحياء، فليرقد بمشيئة الله في سلام!

كاجيغالي موخانبيتكالييف

(ولُد عام 1942)



- تخرج في كلية فقه اللغة التابعة للجامعة الوطنية الكازاخية عام 1965، وصدرت أولى قصصه القصيرة تحت عنوان: "الجد جوكي" ونشرت عام 1964 بجريدة "جاس ألاش".
- في السنوات اللاحقة صدر له العديد من الكتب الأخرى مثل: "الليالي النجمية"، "الصدى"، "أين أنت أيها الحب؟!"، و"النافذة المكسورة".
- إلى جانب الجيل الآخر من الأدباء الذي دخلوا الأدب في أوائل الستينيات أمثال: دولات إيسابيكوف، و توليين ابديك، وبيك سلطان نورجيك، ومختار شاخاناف، أدخل كاجيغالي شكلًا جديدًا ولغة جديدة في الأدب الكازاخي من خلال إثارة الرغبة في التفكير بشكل جديد وإيقاع جديد؛ لذلك فإن القصص التي ألفها كاجيغالي، تتميز بالقيمة الفنية العالية، وقد أصبحت مادة لأبحاث النقاد الأدبيين.

- في عام 2012 خرجت للنور الرواية التاريخية "الأوقات الصعبة" وهي أحد أهم أعماله على الإطلاق وقد ألف كاجيغالي هذه الرواية على مدار 20 عامًا.
- في عام 2016 صدرت مختارات أعماله في أربعة مجلدات، كما صدرت مقالاته الأدبية والنقدية في كتب أخرى.
- تُرجمت أعمال الكاتب إلى اللغات الروسية والأوكرانية والأوزبكية والتركمانية.
- ترجم إلى اللغة الكازاخية مختارات من أعمال جي دي موباسان، وبروسبير ميريمي، وليف تولستوي، وسومرست موبم، وأكوتاجافا ريونوسكي.
- حصل على جائزة الدولة من كازاخستان عام 2014، وجائزة "نادي القلم" في كازاخستان عام 2017.

الأصدقاء القدامى

تم استدعاء المدير الشاب لموقع البناء النائي الضخم نور الخان إلى ديوان الثقة بالعاصمة، كانت هذه زيارته الأولى إلى المدينة التي تخرج فيها في الجامعة، طار نور الخان في وقت متأخر من المساء، واستقر في غرفة منفصلة من فندق جديد، في الصباح أنهى بسرعة أعماله، وعاد إلى غرفته، حسنًا، وماذا سأفعل الآن؟ أخذ يبحث عن إجابة لسؤاله، وهو يقف في منتصف الغرفة الواسعة.

"ممم... نعم-م-م!-تمتم وعيناه مثبتتان على مرآة الحائط في الفندق، دنا أكثر من المرآة، وحرك شفتيه، وعينيه، وخديه، وعقد حاجبيه، وقام بالتكشير، ومع ذلك، ومهما حاول، فإن التعبير على وجهه لم يتغير تقريبًا، باستثناء أن عينيه البنيتين الواسعتين أصبحتا أكثر بهجة، "انظر، يا صديقي، في كلتيهما، إنها ليست إينسك المغبرَّة، - ردد بإلحاح: -"مهما سيقول سكان العاصمة: "أوه، من هذا أيضًا الذي جاء إلينا؟ ما به كله في خُرقٍ كعجل أضاع صاحبه!"... ابتسم على دعابته، لو يظهر الآن في الغرفة أي من أصدقائه القدامى الذين اشتاق إليهم كثيرًا !... ما الذي يفرحك؟ -سأل نور الخان بصرامة انعكست على وجهه في المرآة، الذي بدا متعبا.

قوّم كتفيه العريضين، وسحب سترة من القماش، وعلقها في خزانة الملابس، حل ربطة العنق، ورفع كمي قميصه النايلون الأبيض، ثم توجه إلى الحمام، فتح الصنابير وسمح بتدفق الماء الدافئ.

ما إن خلع ملابسه، حتى رن جرس الهاتف الذي كان يهتز، كما لو أنه كان خائفًا من منظر الرجل العاري. بقفزة واحد أصبح نور الخان عند الجهاز، وأمسك بالسماعة.

مرحبًا ! -قال بصوت أعلى قليلًا من اللازم.

هل هذه الغرفة رقم 213؟

نعم، 213.

مرحبًا يا يوريك! - سُمِعَ في السماعة صوت أنثوي لطيف.

"هممم!"فكَّر نور الخان: "بالتأكيد، في العالم، هناك شخص آخر لديه الصوت الجهوري الغليظ نفسه كما لدي، يبدو أن المرأة التي تتصل بالهاتف لا تميز الأصوات جيدًا".

ألو، هل تسمعني؟ قلت لك: "مرحبًا !" - قالت الفتاة مرة أخرى.

يا أختي، إن كنتِ بحاجة إلى نوريك، فهو يهاتف، ويوريك ليس هنا، لا يقيم هنا.

حقًا ؟ معقول؟ ومن أنت؟

وأي أهمية لذلك؟

له أهمية، ولذلك أنا أسأل.

أوه! يتضح... حسنًا، إن كنتُ ضروريًا لجميلة مثلك، أنا سعيد.

كيف عرفت أنني جميلة؟ انتبه لكيلا يخيب ظنك! - ضحكت المحاورة برقّة-هل أنت وحيد حقًا؟

واحدٌ وحيدٌ! مثل سلفنا آدم، يا عزيزتي.

ربما أنك تشعر بالملل في انتظار حواء؟! - ضحكت الفتاة -بالمناسبة، أنا أمزح، أضافت على عجل: هل تسمح لي بالتأكد من عدم وجود يوري سيليزنيف؟

ومتى تريدين أن تأتي؟

أنا لست بعيدة، في الطابق السفلي في اللوبي.

أوه-هو-هو-هو! نعم، أنا فقط كنت على وشك أن أستحم، وها أنا أقف عاريًا، أفكر بالمناسبة لو أن أحدًا يفرك لي ظهري؟

يبدو أنك تشعر بالملل. هل يمكنني الاتصال بعد نصف ساعة؟

لماذا؟ أنا ببساطة واختصار... لوى نور الخان أصابعه في الهواء، لست خارقًا، ربما، عادي!

المجنون لا يعترف قط بأنه مجنون، -قاطعته الفتاة. -طلبت منك الإجابة بإجابة أكثر تحديدًا.

ممم نعم! بتحديدٍ أكثر يا أختي، أسمع كيف تفيض المياه في الحمام! عذرًا ! - علّق نور الخان السماعة.

"بداية جيدة لديك، أيها الرفيق المدير"- قال لنفسه - إذا ما واصلت بالتحرك بهذه الوتيرة، ربما، قريبًا ستسعى لكي يبقوك في العاصمة، أليس كذلك؟ حسنًا، الآن اركض! ستغرق الحمام، وفراش النزيل الذي يقيم في الطابق الأدنى سيتحول إلى حفاضات مبللة!

وصل الحمام بقفزتين، وفتح الباب، الحمد لله نجح، لو أنه تأخر قليلا... وضع نور الخان يده إلى الكوع في الماء الدافئ وسحب السدادة -يولكي-بالكي(1) ! - هتف بالروسية، -أنت ضحية، وهراء!

... بعد بضع دقائق، جلس في المغطس مغطىً بكامله بالصابون، وغنى بهدوء، بسرور:

ماااء، ماااء

في كل مكان ماء...

بعد أن استحم، شعر نور الخان بنفسه منتعشًا ومفعمًا بالحيوية، ارتدى بذلته الرسمية، وربط ربطة العنق، وفحص نفسه بدقة في المرآة إن كان هناك أي شيء في ملابسه من شأنه أن يفسد مظهره، كل شيء كان

(1) يولكي-بالكي: اللعنة.

طبيعيًا، والملابس على ما يرام، وبدا راضيًا عن نفسه. إن الأرغاماك (2) الشاب، عندما يمر في القرية، يحدث أيضًا أنه ينظر بطرف عينه، ويسير بحذرٍ، ولكن بعد أن يتأكد أن كل شيء على ما يرام، إنه يصنع الانطباع الصحيح، يستقيم بفخر، ويصبح أنيقًا وهادئًا.

حسنًا، لقد عدونا كثيرًا في الأرض، والآن طالما أنهم م يسرجوك، لن يضرّك أن تغذي نفسك بالشوفان! -قال نور الخان مازحًا.

لم يرغب حقًا في أن يذهب إلى المطعم وحده، وللحظة شعر بالأسف قليلًا على نفسه، "لماذا لا أتصل بهؤلاء الماكرين؟ لكن هل هم في المنزل أم لا؟، أرجح أنهم لم يرجعوا بعد من العمل، وهذه الفتاة لم تتصل ثانيةً، ليس عبثًا أن دون جواننا كان يقول: عندما تترك الفريسة من يديك، فإنك ستُعاقب لا محالة..." نظر نور الخان إلى الهاتف الصامت بشيء من الأسف، وسار ذهابًا وإيابًا في الغرفة، وخرج.

في الوحدة لم يرغب بالأكل أيضًا، بعد أن طلب الكثير من المقبلات، قطّعها بالشوكة بخمول في الأطباق، ودفعها جانبًا، قال في نفسه وهو ينظر حوله: "ولتعاسة الحظ ليس هناك أيٌّ من معارفي، وهل تصادف أعداءك عندما تتوق بشدة لتلتقي بهم؟ حسنًا، انتظروني! غدًا لن تفلتوا! سأحاسبكم!".

أشار بيده للنادلة.

مائة غرام أخرى!

لا يا عم، سيوبخوننا من أجل ذلك. نظرت الفتاة بعناية في عينيه، كما لو كانت تدرس كيف أثرت الكأس السابقة.

لم أفهم أي شيء، -قال نور الخان بمرح. -حتى لم أشعر بمذاقه.

حسنًا، سأحضر الآن. فقط... -ووضعت سبابتها على شفتيها.

مفهوم! - هز نور الخان رأسه.

قلب الكأس، ودفع الحساب، وأهدى النادلة حلوى "لبن العصفور" للطفها، وأخذ معه علبة أخرى من الحلوى إلى غرفته.

"ليكن، أنتم لا تريدون أن تلتقوا معي؟ حسنًا، لا داعيَ! سأريكم! -قال لنفسه وهو يصعد الدرج. "سأربيكم!"

بينما كان يأخذ المفتاح من المناوبة، خطرت بباله فكرة.

هذه لك، يا آباي (3) ! - قال نور الخان، ووضع علبة الحلوى، طاولة، تقبليها من أحد عملائك الذين تحرصين على راحتهم طوال اليوم...

أوه، يا عزيزي، لماذا هذا؟ فمن واجبنا تهيئةكافة الظروف لراحتك، ولو أن شخصًا ما...

خذي، خذي! -قال نور الخان بعد أن شعر بأنه من الواضح أن المرأة تريد أن تقبل هدية -الآن لا أستطيع

---

(2) أرغاماك: سلالة خاصة من خيول السباق القبائل التترية والتركية والمسلمة، تتميّز بتناسقها، وسرعتها، وسهولة حركتها.

(3) آباي: صيغة احترام لمخاطبة المرأة.

أن أعيد الحلوى.

نعم، إنه مربك بالنسبة لي، كما لو كنت أنا من رتب إقامتك في الفندق...

لا بأس! خاصة لأنك أعجبتني.

شكرًا ! لا أعرف كيف أشكرك...

مشى نور الخان بضع خطوات ثم التفت فورًا إلى المناوبة.

بالمناسبة، آباي، هل يمكنك أن تخبريني من كان يقيم قبلي في الغرفة 213؟ سأل بشكل غير مبال.

بدأت المرأة بالتفتيش في الأوراق.

إذن.... في 213 أقام تيرليكباي موساكالوف، من السابع عشر حتى الرابع والعشرين، أي حتى هذا اليوم.

يمكنك أن ترى بنفسك، -دفعت له بالسجل.

نور الخان كان مصدّقًا بدون إثباتات أخرى، لكنه بدافع اللباقة تظاهر بأنه يدرس السجل بعناية.

"مهما جرى، لنقل لو أن تيرليكباي هذا تحول إلى تيرينتي، لكنه لا يمكن له أن يتحول إلى يورا".

على صفحة دفتر الملاحظات الأحمر لم يكن سوى ثلاثة أسماء فقط (وضعت إلى جانبها الألقاب)، وثلاثة عناوين وثلاثة أرقام هاتف، مهما كتب نور الخان في الصفحات الأخرى، فإنه لا يلمس هذه الصفحة، الألقاب الأخرى غير مناسبة هنا، سيكون خيانة لأفضل أصدقائه، لو أنه أضاع أسماءهم وسط البقية، سوف يشعر نور الخان كأنه رجل ضائع نسي أغلى أوقات حياته وأكثرها روعة، لا، لا يمكن فعل ذلك!

خلع سترته على عجل، وقرَّب الهاتف، وجلس، كرسي.

"من الذي سأبدأ به؟"

لمدة أربع سنوات عاشوا في كامل الوئام والصداقة، وبعد ذلك فقط، في السنة الخامسة، "تمرَّد" بييسيك، كان أول من يتَّم غرفتهم، وغادر واحدٌ من الأسرّة الأربعة، "طلبت يده زميلة الدراسة كولايشا"، كما كنا نقول ممازحين عندها، ربما يجب أن أتصل به أولًا، نعم، ربما، "مهما قلنا، فإن كولايشا هي زميلتنا، ونحن أنفسنا كافأناها".

"كوليمبيتوف بييسيك (دي أرتانيان)... " قرأ نور الخان بصوت عال،الهاتف... -بقلق ضرب الأرقام الستة، كان قرص الجهاز يهمهم بصمت، وفجأة قفز قلبه في صدره.

ألو! مرحبا؟ هذا منزل كوليمبيتوف؟

هذا أنتِ يا كولايشا؟مرحبًا، مرحبًا، يا كنتنا الغالية!- تذكر نور الخان فجأة قصة سمعها مؤخرًا، وأثارت إعجابه الشديد، ولذلك قرر أن يمزح قليلًا.

مرحبًا ! -أجابت كولايشا-مَن هذا؟

بدلًا من الرد، قصفها بكومة من الأسئلة التي لا معنى لها.

حسنًا، كيف حال أطفالك، هل كل شيء على يرام في المنزل! كيف يعيش الزوجان العجوزان؟ بصحة ورفاه؟...

كل شيء على ما يرام. لكنني لا أستطيع تمييز صوتك... - من الواضح أن كولايشا كانت مضطربة.

هل جميع أقاربك هنا بخير وصحة جيدة؟ هل يرسلون إليك أخبارهم باستمرار؟ كيف يبدو العمل؟ كيف حال أصدقائك ورفاقك؟...

جيد، جيد! عذرًا، ما زلت لا أفهم من يتصل؟ من فضلك أن تقول اسمك! - سُمع بعض التوتر في صوتها، وبدا وكأنها تهمُّ بإغلاق السماعة.

إيه، لقد نسيت تمامًا أن أعرف بنفسي! نعم، أنا قريبك، لقد جئت للتو إليكم، إلى العاصمة! هنا، أود تسجيل ابني للدراسة، ليتعلم في المركز، وهل يحصل المرء لدينا في المحافظة على تعليم حقيقي؟ لقد نزلت للتو من القطار، يا عزيزتي!نعم-م-م... تلك هي الأحوال! بالطبع أخذنا عنوانك في القرية، ولكننا نشكُّ في أننا سنتمكن من إيجاد البيت الذي تعيشون فيه، ربما سنضيع! ربما الأفضل أن ننتظركم في محطة القطارات، تأتون وتأخذونا إلى عندكم، آه؟ وإلا سنضيع هنا...

لاشيء، على الطرف الآخر سوى الصمت؛ يبدو أن كولايشا لا تعرف ماذا تقول، يبدو أنها تتحدث بهدوء مع شخص ما، واضعة يدها. ميكروفون.

أليو! أليو! - صرخ نور الخان في السماعة، وهو لا يزال يغير صوته قليلًا -أخبريني، يا عزيزتي، هل بييسيك في المنزل؟ هل يمكنك دعوته إلى الهاتف؟

الآن، -قالت المرأة بلطف وعلى عجل، سُمِع نوع من الحفيف، ومن خلاله وبوضوح جاء صوت منزعج: خذ، تكلم أنت! الآن لن يعطونا راحة! سينهال كامل القطيع!

ضحك نور الخان، كان يتخيل بوضوح الوجه الأسمر والنحيل لكولايشا التي عندما تشعر بارتباك، تعقد حاجبيها، وهنا سمع صوت صديقه.

مرحبا! إني أسمعك!

عند سماعها النغمات الأولى لهذا الصوت القريب، لم يستطع نور الخان الصبر، فصرخ كما لو كان في عرضٍ:

يحيا دي أرتانيان!

على ما يبدو أن بييسيك لم يتوقع ذلك، فوقع في الحيرة.

آرتـ-تيـ-ليـ-ريست؟-مدَّها في دهشة وفرح، -مرحبًا ! من أين ظهرت؟ أين أنت؟

أنا هنا، في فندق "ألما-آتا". هنا بمهمة...

كيف يمكن لي أن أفهم ذلك؟ حتى لم تتصل... إذن، أنت في الفندق؟

انتظر، انتظر! اعتقدنا أن أبناء العاصمة هم مثالٌ لنا بإقامتهم في فندق، ويبدو أن لديك رأيًا مغايرًا، بيروقراطي! محافظ!! آه؟ في البداية، تعرف، يحلقون في السماء، ثم يهوون إلى الأرض، دون أن يلاحظوا هم ذلك، لماذا لا تريدون الوقوف على أقدامكم على أرضية صلبة؟! لا يمكنكم ذلك، أليس كذلك؟

ها-ها-ها!يكفي، استسلمت! أرفع كل أطرافي الأربعة! مذ-نبٌ! ما دمتم ترغبون بالحصول، فدية! دائمًا في خدمتكم، يا سيدي!

لا، هذا الأمر أجّله. أفهمت أنه لا يمكنك الهروب منا؟ لذلك... -بييسيك همس بصوت منخفض مع شخص يقف بالقرب منه-... لذلك، تعال إلى منزلنا أولًا! وإلا سوف تنال فعلًا! هذه كولياياشا تقول: سأريه! هل تسمع؟

آو، كيف يفهم هذا؟ أليس هناك عرف قديم: إذا وصل صبي عمره ست سنوات من بعيد، فإنه يجب على الرجل العجوز الستيني أن يأتي ويسلّم عليه؟

إلا أن بييسيك، على الأرجح لم يسمع الكلمات الأخيرة، فكولياياشا على ما يبدو خطفت السماعة منه.

أوه، أنت أيها الأحمق، لماذا عوجت وجهك أمامي؟

وهل نحن أذنبنا في شيء ما أمام الله، يا بايبيشي(4) ؟ - اعترض نور الخان بهدوء، وضحك.

حسنًا، انتظرني! وستنال! كيف حالك، كيف العائلة، والأولاد؟

بخير وبصحة جيدة، وأنتم؟

الحمد لله الجميع بخير. لماذا تواصل ألاعيبك ولا تأتي إلينا؟

آي، أخشى أن أقلق هدوءكم! وإلا، فأنت نفسك تعرفين، سينهال هنا كامل القطيع... -ضحك نور الخان مرة أخرى ليغيظ كولياياشا.

أوي، يا لك من أحمق! الآن سوف تلصق بي هذه الكلمات كعلامة، في المدينة لا يوجد لحـم، أتفهم؟ لذلك خفتُ: بماذا سنكرم الناس الغرباء، أنتم الذين تعيشون بالقرب من القرى، محظوظون، كيف يمكنكم أن تستوعبوا سكان المدينة المساكين! بشكل عام الرجال لا يفكرون في أي شيء عن تدبير المنزل، وها أنت، يا عزيزي، هل لديك أدنى تصور عن الموقد والقِدر؟

... يعني، لو أتيت الآن، لا يوجد ما تقدمينه لي؟ يريدون أن يموت الضيف جوعًا، لكنهم يواصلون دعوته!...

إيه، أنت! - قالت كولياياشا بشكل مستبدٍ، تذكرت على ما يبدو عادتها القديمة بقيادة العزاب: -إن لم أطهُ لك لحمًا، لن تأتي؟ انظروا إليه! سأصب لك الشاي الأسود، وأقدم قطعة من الخبز الأسود، وسوف تفهم لماذا، أيعقل أنك نسيت كيف كنا نعيش أيام الدراسة؟!جرّب ألا تنظر!

(4) بايبيشي: مصطلح للزوجة الأولى لدى الكازاخ والقيرغيز.

أوه! أوه! أوه! وثلاثة "أوه" أخرى! وأخيرًا عرفت كوليايشا أيام زمان، خانشانا (5) الرهيبة التي تصون الموقد ووالد أبنائها ونحن-زملاءها الطلاب المساكين! لا، بالفعل ركبتاي ترتعدان من الخوف، لا يمكنني النهوض من مكاني! مذنبٌ، ألف اعتذار! عاقبيني كما تشائين. ولكن أليس الوقت متأخرًا الآن للقدوم إليكم، يا مولاتي خانشا الغاضبة؟ وماذا لو أنكم أنتم تأتون في الصباح إليَّ؟ كما يقولون، تتذوقون هدايا القرية... بالمناسبة إن كنتم لا ترغبون، سننزل إلى مطعم الكرم "مطعم الخبز والملح"، حسنًا ؟

تأخرت كوليايشا في الرد، وتحدثت بهدوء مع زوجها، التقط بييسيك السماعة مرة أخرى، وقال بصوت مذنبٍ نوعًا ما:

يا أرتيليريست (6) ، ماذا بك؟! ألا تستطيع القدوم إلينا؟أم إنك تفكر بالنوم؟ أتعرف، كنا لنأتي نحن إليك، إلا أنه لا يوجد من نضع الأطفال لديه.

لا، لا، لا تقلقوا، والوقت متأخر الآن، الأفضل في الصباح: خذ زوجتك من يدها وطر نحوي! والآن سأخبر دون-جوان وتسيبلييونوك (7) بوجودي، -قال نور الخان.

هممم... هذا صحيح حقًا... ليكن، واتصل بيرغازي وكانات، أليس كذلك؟

نعم! أفكر في جمعكم كلكم، ومتابعتكم بشكل صارم.

إذن... في الصباح؟ ما الوقت المناسب بالنسبة لك لكي نأتي؟ بالمناسبة، ما هو رقم الغرفة التي تنزل فيها؟

رقم 213، أنصحكم بألا تأتوا بعد الساعة الحادية عشرة صباحًا! بصراحة لا أستطيع تحمل رؤيتكم أكثر من هذا، هل تسمع؟!

حسنًا ! عمومًا سنرى...

ليلة سعيدة!

وضع نور الخان سماعة الهاتف، وفجأة تذكر الكلمات الأخيرة لبييسيك، "عمومًا سنرى..." - ماذا يعني كل هذا؟ ربما يجب أن أعيد الاتصال لأستوضح ماذا أراد بذلك أن يقول؟ وهل يستحق كل هذا العناء؟ فقط ربما ارتبك في هذا الإسهاب، وسقطت هذه العبارة العرضية من لسانه، لا، ليس هناك حاجة لإزعاج شخص بهذه التفاهات، -هدّأ نفسه، وقرر الاتصال بيرغازي.

هل تبددت الموجة التي رفعتها مشاعر المحبة تجاه الأصدقاء القدامى، أم إنه ببساطة تعب من التحدث مع بييسيك؟ ولكن فجأة شعر بأنه لا يصلح أن يصدر ضجة وصخبًا بالاتصال، كما لو أن سنوات البعد لم تضف شيئًا إلى عقل الجيغيت.

تذكر أيضًا أن يرغازي في السنة الخامسة ذهب إلى قريته، وقبل الدفاع عن أطروحة الدبلوم، تزوج، ولم ير

---

(5) خانشا: زوجة الخان.

(6) أرتيليريست: جندي المدفعية، رامي المدفعية، قاذف المدفعية.

(7) تسيبليونوك: كتكوت، صوص، فرخ.

نور الخان زوجته. (بالمناسبة كانت كولايشا ويرغازي ينتميان لقرية واحدة، وعلاوة على ذلك تزوج يرغازي من شقيقة كولايشا). في هذا الوقت لا يمكنك التحدث بشكل جيد، وإلا فإن هذه الأخت غير المعروفة ستكون انطباعًا سيئًا عنه.

بالطبع، كان هو ودون جوان ينالان بعضهما من بعض في المزاح، وبعد ذلك يبدأ كلاهما في إحداث إثارة، وسيكون من الصعب عليه- نور الخان- أن يقاوم عدم المضي إلى المغامرات السابقة لصديقه الذي كان قد منحه لقبه المستعار. بالمناسبة، أي نوع من المغامرات هناك، أكثر من أنهم كانوا يلقبون يرغازي بدون جوان على سبيل الدعابة.

لكن من المستبعد أن تكون زوجته راضية عن هذا اللقب. ومن ثَمَّ، ربما ليس من المجدي في حضورها تضخيم الصديق بهذه الطريقة.... أدرك نور الخان كل هذا في وقته، وفي الوقت نفسه كان يدير قرص الهاتف.

رنين طويل.... وأخيرًا انتعشت السماعة، صوت كسول، كما لو كان أجشّ بتأثير النوم، أجابه:

ألو؟

هل هذه شقة أويزبيكوف؟ -بارتباك سأل نور الخان؛ بدا له أن الرقم كان خاطئًا.

نعم.

يرغازي؟

أسمعك.

إيه، لتذهب! أم إن مغامراتك جَلَدَتكَ أخيرًا إلى درجة أن صوتك ذهب؟ أو ربما إنك نفخت نفسك؟

آ-آ! كنت غارقًا في نومي... من هذا؟

واحد كازاخ بسيط، وصل للتو إلى العاصمة من الريف، أليس لديك علم بهذا؟

أرتيليريست؟! أحييك، أحييك! حمدًا لله، سلامة! آو، أي رياح حملتك إلينا؟

عابرة، أيها العجوز، عابرة، كيف حالك؟

حسنًا... وأنت؟

كذلك... هنا، موظفو ديوان الثقةدعوني لثلاثة أو أربعة أيام!

مهلًا، عن أي ثقة تتحدث؟ هل غيرت عملك، أم ماذا؟

تلقيت للتو موعدًا من ديوان الثقة في صناعة البناء.

مبروك، تهانينا! إذن، الرئيس الطازج الجديد؟ لماذا لا تقول، فور ذلك، الخجل يمنعك؟ آه، لن تخدع! أنت خائف من إيذاء شرف رفاقك الذين لن يخرجوا ولا بأي شكل من اللقب الفخري "المهندس السوفييتي البسيط"، آه، يا خبيث أنت!

إيه، شيطان، عبثًا أنا،، أرجح، خيبت أملك، حسنًا، انتظرني! وأين هي زوجتك؟ أعطني لأسلم عليها، على الأقل.

تستريح. هل أدعوها أم ماذا؟ إذن أنا ذاهب...

انتظر! هل ترقدون فور غياب الشمس؟ الأمر لديكم في العاصمة مختلف عما لدينا، ينتشر الضوء في النهار والليل، أليس كذلك؟

أنت تقول: العاصمة، العاصمة... نعم، لدينا هنا في النهار تتعب من الجري، في المساء نمشي ونتعثر، نسينا الهدوء!

حسنًا، توقف عن صنع الظلال، سياج. غدًا يوم عطلة -تعال أنت وزوجتك إلى الغرفة 213 من فندق "ألما-آتا" - هنا ستهدأ وتسترح.

هل تحدثت مع الأولاد؟ متى وصلت؟

مؤخرًا... عديلك وعد بالقدوم إلي عند الحادية عشرة.

ممم؟ هكذا قال؟ كما يقولون، "مرت سنوات عديدة في البعد"! حسنًا، لن ألتزم بأي قواعد وأدعوك إلينا الآن، فالوقت منتصف الليل، كل شيء يجب أن يكون الاحترام بالاحترام، والمكانة بمكانة! فأنت ستزورنا؟ وبيتنا، آمل، سيبقى في مكانه، ليكن، أنت نفسك تريد أولًا أن تحترم مشردي ألماتي؟ أفهم، أفهم، لفتة مدير كبير! سنريكم، يا أبناء العاصمة، اتساع صدر فون-بارون(8) من مدينة إنسك!

ألم تمل؟... فقط اشتقت إليكم جميعكم، أصدقائي القدامى، أريد أن أرى أصدقائي وبسرعة؛ لذا لا تتأخر في الصباح، حسنًا ؟

ولا بأي شكل.

إلى اللقاء! لن أزعج الأطفال، وهم نيام...

وداعًا.

كن بصحة جيدة!

نظر نور الخان في ساعته: لقد كان الوقت العاشرة والنصف، أي الحادية عشرة والنصف وفق التوقيت المحلي، أيعقل أن منتصف الليل على وشك القدوم؟ نظر إلى ساعته باندهاش مرة أخرى، وسارع إلى تقريب الهاتف إلى نفسه.

هل تعيش عائلة بيي"بولو"ف هنا؟" - على سؤاله رد صوت أنثوي لطيف بالإيجاب.

اعتذر نور الخان عن إزعاجه في هذه الساعة المتأخرة، وطلب دعوة كانات.

أتعرف، إنه لم يعد بعد، -أجابت المرأة بنعومة، كما لو كانت تطلب المغفرة منه لتأخر زوجها.

أين هو؟ "نور الخان كاد أن يضيف:"يتسكع إلى هذا الوقت" لكنه أوقف لسانه في الوقت المناسب. -في المدينة، أم إنه سافر في رحلة عمل؟

---

(8) فون-بارون: شخصية هامة، شخص بارز.

لا، لم يغادر كانات إلى أي مكان. في مكان ما مع أصدقائه، بمجرد أن يعود، سأخبره، فور أنك اتصلت. ماذا تريد أن أبلغه؟

أنا صديق كانات، درسنا معًا. وصلت للتو من إنسك، وها أنا أتصل برفاقي القدامى.

آه... بالمناسبة، ألست أنت نور الخان؟

نعم، نور الخان. أنتِ لم ترينـي، وعرفتِ! – شعر فجأة بالتعاطف مع هذه المرأة الغريبة، وغضب من كانات الذي يتسكع حتى وقت متأخر في مكان غير معروف – عفوًا، اعتقدتُ أنك لم تسمعي عني أيضًا ؛لذلك؛لم أقدّم نفسي، كان الأمر محرجًا بالنسبة لي. آسف مرة أخرى.

لا شيء، فنحن غرباء، وكما يقول المثل: "الجاهل يمكن أن يشرب السم"، لا أعرف إن كنت قد قلت ذلك بشكل صحيح؟ ارتجف صوتها قليلًا، لا بد أنها كانت قلقة حقًا من أنهالم تقل هذا القول بشكل صحيح،– لماذا لم تأتِ مباشرة إلى منزلنا؟ كانات يحبك كثيرًا، وها أنت تكتفي بمكالمة هاتفية، هل يتصرف الأصدقاء على هذا النحو؟

أوبيراي، لقد أخجلتني تمامًا، افهمي، أنا وصلت للتو؛ لماذا الاندفاع إلى الأصدقاء وإزعاجهم؟ –تصبب نور الخان عرقًا من الحرج. – بالإضافة إلى ذلك، كانات ليس في المنزل بعد... –أضاف مترددًا.

وما في ذلك، لكننا جميعنا في مكاننا، تعال، تعال! –قالت برفق. كانات سيكون سعيدًا جدًا، أنا لا أعرف كيف! بالأمس تذكرك؟

صاح نور الخان:

ولكنني عندها سأكون مذنبًا بحق الآخرين جميعًا!"

واستطرد:

–لا تلوموني، لكنني قررت أن أجمع الأصدقاء أولًا عندي، وبعد ذلك فقط سأذهب إلى زيارتهم، لقد اتصلت لتوي ببييسيك ويرغازي، ودعوتهما مع زوجتيهما في الساعة الحادية عشرة غدًا، وهذا ما أردت أن أخبرك وكانات به.

ممم... إن كنت قد أبلغت رفاقك بالفعل، فعندئذ ربما يكون الأمر غير مريح حقًا.

بدا الصوت الرقيق والمرتعد يفيض بالتسامح، واصلت بحزم:

– أنت فقط لا تلمني، ثم استطردت بمزيد من الحزم:

–غدًا لدي مناوبة في المستشفي، من المستبعد أنني سأتمكن من الحصول على إذن؛ لذلك اعذرني، لن أستطيع القدوم.

هكذا إذن؟ –ارتبك نور الخان. –ماذا يمكنني أن أفعل؟

لا، لا، لا تقلق! –ارتجف صوتها مرة أخرى. –سيأتي كانات بالتأكيد، ألا يكفي أن يكون واحد منا موجودًا في اللقاء؟ أليس كذلك؟ و... لو أنك لا تعرف... مدى سعادته عندما يرى صديقًا قديمًا ! أوه، كم هو رائع أنك

أتيت!

ربما، حسنًا...

لم يعرف نور الخان ماذا يقول. لم يتبادر إلى ذهنه شيءٌ، اختفت كل الكلمات.

شعرت محاورته فورًا بذلك.

سوف أنقل إلى كانات حديثنا بالضبط، لا تقلق، -كما لو أن موجة من الفرح عبرت صوتها. -ليس لدي أي شك في أنه سيكون سعيدًا !

هذا جيدٌ....

ليلة سعيدة وأحلامًا طيبة.

شكرًا لك، وبارك الله بك.

سقط نور الخان متهالكًا على ظهر الكرسي، حدث كل شيء كما يقول المثل: إن تعجلت، ستضحك الناس عليك"، حسنًا! على الأقل تمكنت من الاتصال بالشلة الصادقة كلها، ودعوت الأصدقاء لتناول وجبة الإفطار، فكّر بعد أن هدأ قليلًا.

وهكذا فإن المسافر الذي نجح قبل أن يخيم الظلام بالوصول إلى الليل، تشجعه فكرة واحدة بأنه الآن سيكون لديه مأوى؛ الملامح الحادة لوجهه هدأت بعض الشيء، وبدأت تشع بضوء ناعم.

استغرق في نوم هادئ عميق، كما ينام الصغار والأصحاء، ثم استيقظ أيضًا بالسهولة نفسها، في لحظة واحدة، فرك عينيه ونظر إلى ساعته بسرعة: كان الوقت التاسعة تمامًا، "رائعٌ! الدماغ البشري سيماثل الكرونوميتر قريبًا !-تمتم في نفسه. (ليلًا ضبط ساعته وفقًا للتوقيت المحلي، ولكنه على كل حال استيقظ في الساعة نفسها التي يستيقظ فيها في المنزل) - ليس عبثًا يقولون: المرض يمكن علاجه، والعادات تبقى، والديك يصيح مرة واحدة، على الأقل في منتصف الليل ليظهر أنه من الهند، حسنًا، انهض الآن، واصرخ كالديك!"

أعلى، فوق رأسه، شخص ما كان يطرق بكعبيه أرضية الباركيه، ومن خلف الجدار وصل سعال شخص ما؛ وضع نور الخان الوسادة فوق رأسه، محاولًا أخذ غفوة أخرى، لكن مكنسة كهربائية هدرت بالقرب من الباب. إذا كان الجميع يرغبون في شيء واحد فقط-أن يعيقوا نومي، فلكم ما تريدون! - ألقى نور الخان البطانية، وقفز على قدميه. فتح النافذة الضخمة على مصراعيها، وأدرك أنه نام جيدًا. برود ونضارة الصباح نشطتا جسمه المشدود والمعضّل، "حسنًا، الآن تمكن من التحرك! لنر إن كان ما يقولونه صحيحًا: من يستيقظ مبكرًا، يعطه الله"، -صاح وبدأ في ترتيب السرير. بطرف عينيه لاحظ وجود هاتف أزرق، "ربما ستتصل فتاة

الأمس، آه؟لقد وجدت حمقاء تتصل بك قبل الفجر!" ومع ذلك، من يدري... مع المرأة الشابة التي تستيقظ صباحًا، تحدث نزوات أيضًا "، "واو، انظر إليه، هو الذي كنت أحلم به!".

قال لنفسه وشمَّه، ثم رمى برشاقة منشفة على كتفه، وذهب إلى الحمام.

".... بام-با-بام!

لا تحلم مثل فارس، بنزهات مع قليل من الضوء -

سوف تضيع، كل سمعتك!

... بام-با-بام!"

دندن نور الخان الأغنية بصوت منخفض، وفرك جسمه بقوة بالمنشفة، عندما فجأة كان هناك طرق على الباب.

من هناك؟ - صرخ، وهو يخلع نعاله، أرض، فتح، ورأى كانات.

تسيبليونوك!

أرتيليريست!

هرع كانات نحوه.

تعانقا بقوة، وبدءا يربت أحدهما على كتفي الآخر، ويلكزان في خصريهما، ولم يفتحا أذرعهما حتى منتصف الغرفة، وتبادلا النظرات بسعادة، ثم افترقا إلى الجانبين، وبدقة ومحبة تفحص أحدهما الآخر من الرأس إلى القدم، وكل واحد منهما ربما يعتقد في الوقت نفسه، "لم يتغير أبدًا !" نور الخان طويل القامة، والقوي انحنى قليلًا، وعلى جبينه ظهرت تجاعيد، وعلى الرغم من أن وجهه بقي واسعًا ومليئًا؛ فإن عظام الخدين أصبحت خشنة ومشحوذة؛ وجه كانات المستدير كبُرَ، وعيناه الخبيثتان دومًا أصبحتا هادئتين وحازمتين، وكان ذلك واضحًا، على الرغم بالطبع من أنه في الدقائق الأولى لم يكن لدى الصديقين وقت لذلك، كانا سعيدين للغاية باللقاء، فلم يميزا التغييرات في المظهر، نعم، وهذا الاندفاع السعيد حوَّلهما في غمضة العين إلى طالبي الأمس، كما لو أنه لم يكن هناك سبعة أعوام من البعد.

توو، انتظرت أن تظهر في الحقيقة أمام عيني! -قال كانات، ملتزمًا بعادته القديمة بتفخيم أسلوبه- اعتقدت للأسف أنك مربوطٌ بحبل سري مع موقع البناء.

العمل، يا تسيبليونوك، هو العمل! حتى يكبر الأطفال، -ابتسم نور الخان بشكل ماكر قليلًا، ونظر بمودة إلى صديقه "فمن الواجب أن يتعرق شخص ما؟"

حسنًا، إذا كنت بالأطفال الصغار تقصدني أنا أيضًا، عليك أن تنتظر طويلًا حتى أكبر، وستصب الكثير من العرق المر في محافظتك.

لماذا هكذا؟ الخطيئة تبدو مسكينة مع رأسك! المشاكل العلمية تفصصها كبذر عباد الشمس، والأفكار كل واحدة أكثر جرأة من الأخرى... يمكننا أن نفعل فقط العمل الأسود، لا ننفع لأي شيء آخر، ها نحن نسافر،

كلاب، ضاربين الأرض بالسوط، -ضحك نور الخان بصوت عالٍ. إلى متى ستظل، أيها الرفيق العالم، تتواضع وتتظاهر بأنك أصبحت حقًا مثل بركة في صحراء؟

ضحكا معًا.

هذه الكلمات كانت قول كانات المفضل أيام الدراسة، كان يكفيه أن يتأمل في فكرة شخص ما، تقدَّم كاكتشاف، إن كانت ضعيفة أو شكلًا لمواضيع أفكار منسية تعود إلى شخصيات بارزة في العلوم؛ حيث يبدأ الشر يتكلم بشكل خبيث عن التزييف وصاحبه، وأثناء ذلك يقول: "لكنك تشبه بركة في صحراء: ضحلة، تطارد تفاهات، وتكرر المؤخرات، لكنك تفتقر إلى رأيك الخاص بك"، وكان الشيء الأكثر إثارة للدهشة هو أن الصورة التي اخترعها كانات تتناسب على حد سواء مع "المخترع"، ومع ثمرته.

حماسة الشباب تلك، عندما كنا نمزق حناجرنا في الدفاع عن آرائنا وقناعاتنا، مضت منذ زمن طويل، وتبدو الآن شيئًا صبيانيًا... ومع ذلك كان وقتًا مذهلًا !- ابتسم كانات عندما عاد بأفكاره إلى جدليات المعهد، الرأس مليء بالأفكار، أفكار واضحة، مشاعر نقية، ما أعظم الطاقة التي كنا نمتلكها! بدا أنها لن تدعك تهدأ، وها هي توشك على أن تتفتت إلى أجزاء، حينها فقط قل لنا "اجعلوا الجبل منبسطًا" - بعيون مغلقة نبدأ بالعمل...

توقف، تسيبليونوك! قال سيرجي يسنين: "لن تعيد ما مضى"، بالطبع، الحقيقة قاسية وبسيطة، مثل الحياة نفسها، لكن هل يستحق الأمر أن تقنط؟ كو-كو! استيقظ! ألم نصبح قليلًا مثل أولئك الذين يحسدون الآخر، لقمة، ويتناسون حقيقة أنه يجب إجادة كسب خبزهم الخاص؟! عمومًا، لنكف عن هذه الأفكار عديمة الجدوى!... بالمناسبة، لقد حان الوقت للتفكير في خبزنا اليومي، أعني بمعدتنا المسكينة، لنذهب ونتناول شيئًا ما إلى أن يأتي الأولاد، يبدو أن الفرنسيين قد لاحظوا بحكمة: الطريق المشرق للارتقاءات العقلية يبدأ من ممر الشبع؟ لذا، إلى البوفيه! ثم سنرى كيف سنواصل العيش.

كما قال آباي: "هل تهدأ المعدة الفارغة، إذا لم تستقبل طعامًا مدهنًا؟" حسنًا، الآن حدثني! -طلب نور الخان بعد أن تناولا طعامًا خفيفًا، وعادا إلى الغرفة، - أستمع إليك باهتمام شديد.

نعم، حول ماذا تحديدًا أحدثك؟ -أجاب كانات بسرعة، وهو الذي تميز دائمًا برد فعله الفوري، بدا في صوته ارتباك وريبة -اسأل على وجه التحديد ما الذي تود معرفته؟

كيف هذا "حول ماذا أحدثك"؟ أم إن أجنحتك أصبحت قوية للغاية بحيث وصلت إلى تلك الحدود من التطور، بحيث لم يتبق كلمات؟... حسنًا، سأطرح سؤالي بشكل أكثر تحديدًا: هل تمكن تسيبليونوكنا الموقر، الذي كان الشخص الوحيد في الدورة الذي حصل على الدبلوم الأحمر، أن يقود مخيمًا ضخمًا للبدو الرحل المتجهين من الجنوب إلى الشمال؟ وهكذا دواليك...

تقول مخيمًا ضخمًا للبدو الرحل؟... ها أنت تمارس عادتكم في المزاح! حسنًا، ربما أنتم على حق، فمازلتم

تنتجون، وتواصلون عملكم بثبات، ومن ثَمَّ أي واحد منكم... -ضحك كانات بصوت عالٍ، دون أن يستكمل كلامه.

إيه، يكفيكم عنا! فهنا لا يوجد ما يمكن الحديث عنه، -لم يلحظ نور الخان أن المزاج لدى رفيقه قد تغير، وتكدَّر باستياء - نحن، أتعلم، يا عزيزي، فقدنا بالفئات المعقدة عادة التفكير، فنحن ثيران بسيطة أسقطت حاركها، كل أفكارنا لا تتجاوز الخطط الفصلية والسنوية، ومن المستبعد أن نكون قادرين على ما هو أكثر، إذا كنا راضين عن شيء، فهذا الشيء هو أننا نلتزم بصدق، ولا نبخل بقوتنا، هنا لا يوجد مكان لأفراح أخرى! كما يقول المثل، هناك من يكون مشرفًا، حفل، وهناك من ينبغي أن يكون راعيًا، لا يصلح شقيقنا لقضم صوان العلوم، وكذلك لمطاردة الدرجات الفخرية، نحاول أن نفعل ما بوسعنا، وما زلت تريد مقارنتنا مع نفسك! تذكر، الناس من أمثالي، انتقلوا خلال سنوات المعهد الخمس من "الفشل" إلى "الجوقة". لا! شخص ما، أما أنا فقد درست نظامك بك بشكل جيد، (هنا تحول نور الخان إلى اللغة الروسية للتعبير بشكل أكثر دقّة)، الذي يتضمن "منطقًا حديديًا، وحسابًا دقيقًا بالإضافة إلى الخيال الجريء". لذلك، دعك منا يا صديقي، وأخبرنا عن نفسك.

تحدث نور الخان بصدق شديد لدرجة أن كانات فهم أن الصديق بالفعل لا يعرف شيئًا عن مصيره، وأنه ينتظر حقًا شيئًا غير عادي.

بصدقٍ لا يوجد ما أتحدث عنه، أيها العجوز، -قال بحزن، حسنًا، في البداية قمت بتقديم الكثير من المشاريع التي حُدِّدَت فيها التغييرات الأساسية في الهياكل الحديدية المسلحة، وحُسِبت الفوائد الاقتصادية المتوقعة، وهذه المشاريع منذ ذلك الحين تقبع وزنًا ميتًا في خزائن الوزارة، هذا كل شيء، لو أوجزنا القول، أمر معتاد كما يبدو لي: يكفي عدم دعمنا، نحن الشباب، في المراحل الأولى، لنتحول بسرعة إلى كسالى وخاملين، يبدو أنني متراخٍ تمامًا.

يي-يي، لماذا؟

أتصدق يا آرتيليريست، ما زلت إلى الآن نادمًا بشدة على أني انتقلت إلى معهد التصميم هذا، أترى، لو أنني لم أنتقل من مكاني السابق، لبلغت شأنًا عظيما كمتخصص، أما الآن... مَنْ أنا الآن؟"ارسم من فضلك هذا!"، "انظر إلى هذا المشروع!"، الجلبة نفسها طوال اليوم، أوراق، أوراق، أوراق بلا نهاية! في بعض الأحيان تصل إلى درجة أنك ترغب في قلع أسنانهم، ثم ترفع وجهك وتصرخ باكيًا... كلما حدث ذلك أتذكرك، كيف تخترق الحواجز بصدرك العريض، وكيف تسحب حملك كل يوم، كيف تسقط في المنزل بعد التبديل، بالكاد تقف على قدميك من الإرهاق. كم أحسدك إذن! إيه، بشكل عام يمكن مقارنته بعمل الإعياء الكامل، عندما تنفذ هدفك باستمرار! يا لها من سعادة!...

هاك! لم أعلم أن هناك أناسًا يحسدوننا على حياتنا، فنحن هناك نَشتم حتى تبح أصواتنا! ها-ها-ها! لا، حقًا لأول مرة أرى رجلًا يأسف لأن المشبك لم يحز رقبته!

لا تضحك، -قال كانات، وقد احمرَّ وجهه قليلًا وابتسم بصعوبة، أنا أقول ما هو موجود، بصدق يا أرتيليريست، إذا لم أذهب إلى أي مكان من هنا، فسوف أختنق حتى الموت من هذه الحياة النتنة، ما هي نقطة الضوء التي يمكن أن تكون في حياتي أن أكون مسئولًا محترمًا ؟وما الفائدة التي سيجنيها الناس من ذلك؟ احكم بنفسك... كل حياتك تتعامل مع الأوراق، وهكذا يومًا بعد يوم، حتى التقاعد. كل حياتك مجدولة بالدقائق: متى تستيقظ، متى تتوجه إلى العمل، متى تغادر العمل وتعود إلى البيت متعبًا !! وبالطبع ثمة إغراءات، لو أن الإنسان يفكر فقط في الشيء الأهم، يظهر ذلك المهاجم ورق اللعب! لياليَ طويلة ترسم "برك سباحة" لا نهاية لها، أينما تذهب، في كل مكان بريفيرانس(9) ، وأنت تشرب خلف ورق اللعب، بالطبع... وهذا كل شيء، وتذكُّره مقرفٌ! وعلاوة على ذلك، لأصحاب الطبيعة الحارة، مثلي، لا توجد أية مكابح. سئمتُ من كل ذلك، أيها العجوز!

أراد نور الخان أن يعارض كانات، لكنه بشكل ما فقد خيط أفكاره. كان لا يزال ينظر مفتونًا إلى رفيقه المحبوب، ولم ينزعج بعد من كل ما سمعه.

بالمناسبة، أين كنت الليلة الماضية؟ اتصلت بك تقريبًا في الثانية عشرة ليلًا، ولم تكن في المنزل، هل كنت تنفخ على ورق اللعب؟ -سأل بحزنٍ.

وماذا تعتقد؟

... واليوم لست في مزاجك، ماذا بك، هل خسرت؟ - ابتسم نور الخان بمكرٍ.

آه، اللعنة عليه، ورق اللعب هذا! إذا كنت تغضب من كل شيء، فلأنك تحرق وقتك، وليس المال فقط.

ابتسم كانات ابتسامة قاتمة، وهو يقول:"خسرت"! كما يقولون:لدى المرارة والحزن ضحكهما...

إيه، تسيبليونوك، تسيبليونوك! أرى،لم يبق لديك أي قدرة، تحمل. ربما صحيح أن هواء العاصمة لا يناسب الشبان المتحمسين؟-ابتسم نور الخان بشكل معبّر، -لو أنك تبرد، وتصبح منفذًا بسيطًا.

حسنًا، هذا ممكن جدًا، قريب من الحقيقة. في السابق كان الناس هادئين وباردين، والآن دخلت برودة التفكير في الموضة أيضًا.

هكذا إذن، يا أخي؟ حسنًا، على الأقل فهمتَ شيئًا.

لا أرى أي شيء جيد في هذا الفهم، حتى ولو كان الأمر خطأ! استوعب: الآلاف من الشباب مثلنا يتخرجون في الجامعات كل عام، وبشهاداتهم يتلقون أحدث الإنجازات العلمية،كلهم يتمتعون بالأفكار والطاقة والقوة والمعرفة، وما إن يصل الأمر إلى تجسيد الأفكار، فإذا بالموظفين ذوي التفكير البارد كظلام دامس في طريقهم،

(9) بريفيرانس: لعبة ورق.

-ماذا، ماذا، ولكن لا يمكننا الاعتماد عليها! ويصرحون ضاحكين، هؤلاء الموظفون الخبيرون: "حسنًا، أيها الشاب، اعمل واكتسب خبرة، وعندها سنرى..." يحاول المتخصص الشاب، ويحاول، ويكافح، ويكافح، وهناك ذات مرة يستسلم: "إيه، هل كل هذا ضروري لي؟!" ويرمي كل شيء في الجحيم، يضغط على نفسه من وإلى، لا أكثر، لماذا درس، ولماذا حصل، معرفة؟ لا-ا-ا، يا نور الخان، لا ينبغي بهذا الشكل التعامل مع الابتكار والتطوير الإبداعي للشباب. من ناحية أخرى، لا ينبغي السماح لهم بالنمو قبل أوانهم، وإلا فإنهم سيتحولون إلى رجال أعمال، وسوف يصبحون واعين، لم تخلق برودة التفكير أي شيء بعد، فقط تُكبّر الناس قبل أوانهم، وتدمر روح الشباب! هذا هو السبب في أن عدد الدهاة الحريصين آخذ في الازدياد، إنه لأمر مؤسف على هؤلاء الشباب الحكماء الماكرين، المقهورين بالتفكير البارد منذ سن مبكرة، فهم لن يسترجعوا أبدًا شعلة الشباب.

أوه! إذا لم نراك عازما بعض الشيء، فكل شيء، بشكل عام، صحيح. لكن ألستَ مغتاظًا جدًا؟

أنا؟... أنا لن أحيد عن أفكاري هذه قط. لا أفهم، ما علاقة الغيظ بما نقول؟

حسنًا، حسنًا، كما لو كنت لا أعرف أنك تبقى دائمًا عند رأيك، ويستحيل نصحك بالعدول عن شيء ما.

حسنًا، الأفضل أن تخبرني كيف هي أحوال "صاحبي المذهب العقلي" -بيبسيك ويرغازي؟

وماذا يمكنني أن أقول عنهما؟ سوف يأتيان قريبًا، ويشرحان كل شيء.

إيه، انظر: بينما نحن ندردش معًا، مرت ساعتان، الساعة الآن الحادية عشرة والنصف!- هتف نور الخان

- لماذا يتأخر أصدقاؤنا؟

الحادية عشرة والنصف تقول؟" الآن سيظهرون... وهل أخبرتهم من تدعو؟

بالطبع!

هل قلت ذلك بنفسك؟ أم... أم إنهم اهتموا، كما يقولون، بمن سيكون لديك غيرنا؟

ماذا يعني "اهتموا"؟ - نظر نور الخان في حيرة إلى صديقه ورأى على وجهه ابتسامة طفيفة؛ حتى إنه سعل من الدهشة.

يبدو أنك اندهشت؟ لا يوجد شيء مثير للدهشة أيها العجوز! هناك عادة أخرى أصبحت شائعة هذه الأيام،

-قال كانات غير ممازحٍ، ولا جادٍّ.

لم يفهم نور الخان ما إذا كان رفيقه يلمح إلى بيبسيك ويرغازي، أم إنه ببساطة وفق عادته الدائمة من التفاهات يقوم باستنتاجات بعيدة.

ما بك يا تسيبيليونوك؟ تحدثت بشكل غامض للغاية. ليكن، المهم أن تكون النهاية سعيدة.

أفهمك، أيها العجوز، لكن هذه النهاية الناجحة تعتمد بشكل مباشر، على الشخص نفسه، على نقاء أفكاره ورغباته.

- هكذا إذن؟ هممم! لكن لماذا يتأخرون؟

قرر نور الخان تغيير الموضوع.

- لقد أخبرتهم بالأمس ألا يتأخروا.

ولماذا العجلة؟ سننتظر أكثر، -جلس كانات في كرسيه، وأغلق عينيه.

في البداية اعتقد نور الخان أن الشباب على وشك الوصول، ثم قرر أنهم الآن غادروا المنزل، وبين دقيقة وأخرى سيظهرون عند العتبة... وهكذا انتظر حتى الساعة الثانية ظهرًا.

إيه، ماذا حدث لهم؟" - لم يحتمل، تعجب وأقسم كما لو كان يبرر نفسه أمام كانات.

"هل أتصل بهم أم ماذا؟ هل حدثت مصيبة؟"-فكَّر، لكنه رفض هذه الفكرة، فور: لو حدث شيء، لكانوا قد أبلغوا هم بأنفسهم، وأخيرًا انفجرت البقية الباقية من صبره ا، وتحول نور الخان إلى صديقه الصامت منذ وقت طويل.

حسنًا، يا تسيبليونوك، مهما كان الأمر، فإن شيئًا لا يحدث بدون سبب، على الأرجح هناك ظروف منعتهم من المجيء. ماذا إذن، سنتدبر الأمر، لنذهب؟ - ومع هذه الكلمات توجه إلى الباب.

في الحقيقة، لم يتوقع نور الخان أن يحدث هذا، بدا منزعجًا من أن الأصدقاء -بعد سنوات عديدة من البعد- لم يلبوا دعوته للجلوس حول المائدة، ومع ذلك، لم يرغب في إظهار امتعاضه، وما أن جهزوا لهما الطاولة، حتى قال بمرح:

حسنًا، يا تسيبليونوك، هيا! نخب اللقاء، نخب أن نبقى أحياء أصحاء!

... والآن نخب كل شيء طيب حدث في هذه السنوات السبع!

.... نخب صحة زوجتينا وأطفالنا!

توالت الأنخاب الواحد تلو الآخر بوتيرة سريعة نوعًا ما -وسرعان ما أصبح كلاهما ثملًا. على ما يبدو خمن كانات ما يشعر به صديقه، ولم يجبر نفسه، توسل، في حين لم يلحظ نور الخان كيف ابتعد الامتعاض جانبًا، وأصبحت روحه أكثر هدوءًا، وفجأة شعر بالحاجة للحديث عن الأشياء الحميمية.

بمجرد أن قالوا لي إنه يجب أن أذهب إلى ألماتي، نسيت كل شيء، فكرت فقط في اللقاء بكم، توالت الذكريات الواحدة تلو الأخرى، كل علامة وطبع، كل العادات والكلمات... -تدفق الدم إلى وجهه، ولمعت عيناه، -لقد اشتقت لكم جميعًا كثيرًا، ولا يمكن لي شرح هذا الشوق!".

إنه سوء حظ معتاد لأولئك الذين يعيشون في الأقاليم، -ابتسم كانات بخبث -الأرياف جيدة لأن الوقت هناك يجري بشكل أبطأ، أيها العجوز، هذا هو السبب في كونك أقرب منا، نحن سكان المدن، إلى الأيام الماضية، والماضي فيك أكثر حيوية منا، كل شيء كما ينبغي!

حسنًا، حسنًا، يا لك من مبتدع! - ضحك نور الخان الضحكة العالية والمدوية المميزة للأشخاص العمالقة والأقوياء

عبثًا دهشتك هنا، جرب وعش في هذه المدينة،الحياة سوف تدورك مثل عجل آلة الزمن، "اشتقت...

واستنفدت من الشوق" -لن تندفع هذه الكلمات من فمك قط.

إي، وأنتم لم تفكروا بي، إطلاقًا؟ ولا لمرة واحدة؟ في هذه الحالة إنكم أناس قساة!

إنه أمر مختلف تمامًا، ذكريات، عنها ببساطة لا يتحدثون، الشخص الذي يكره نفسه، يكره الجميع أكثر، ومن يحب بدون كلمات زائدة، يحب بصدق، افهم، لدينا كل شيء في داخلنا.

هذا هو نفسه! يا إلهي، عندما نفكر فيكم، لا نستطيع أن نأكل حقًا! إذا كنتم قد نسيتمونا تمامًا.... فلا أعرف حتى بما سينتهي ذلك. أنا شخصيًا لن أنساكم أبدًا، لن أستطيع!

أوه، أيها العجوز! إنه لأمر رائع أن تكون واثقًا من نفسك؛ وحدهم الأقوياء يمكن أن يكون لديهم مثل هذه المشاعر الراسخة.

نظر كانات إلى رفيقه بسرور واستطرد :

- الناس الأقوياء حازمون، صادقون، لا يستسلمون لأي شيء.

شكرًا، شكرًا ! بعد إصبعين فقط كنت سأصل برأسي إلى السماء! أوف-ف-ف! دعنا نشرب نخب ذلك!

لا، لا، لا تفكر أن هذه نكتة شائعة، رأيت كثيرين هنا، لدى معظمهم الكلمات والأفعال زلقة، وعلى كعب الحذاء، كما يقولون، لا يوجد رابط. وأنا أصدقك! أصدق أنك ستتغلب على أي صعوبة، وستحمل أي مصيبة على كتفيك، لأنك تفضل عدم التحدث عن نجاحاتك أو محنك، بدلًا من قول كلام زائد. هكذا، أيها العجوز! يقولون إن الجميع يريدون ما لا يمتلكونه، هذا، أرجح صحيح، في الآونة الأخيرة شككت بشدة في نفسي وفي الناس، والآن رأيتك، ويبدو أنني أستعيد الثقة، أتذكر، قلت مؤخرًا إنك لم تتغير، إطلاقًا؟ هذا هو الحال بالفعل، الأهم من ذلك، أنك لا تزال تشعر بقوة، ولم تفقد رغباتك نضارتها. أخشى أننا فقدنا كل هذا منذ زمن طويل، لنرفع نخب الثقة الكبيرة في الأصدقاء، بحيث تصبح مبدأ لحياتنا!

لقد قلت ذلك بشكل رائع! ولكن من أين لكم عادة مدح الشخص في وجهه؟

-قال نور الخان بتأملٍ-إنه لشيء غير مريح للاستماع... نعم... انتظر، دعني أفرغ قدري...، كخا! ونحن، كما تعلم أيها الشاب، فقدنا عادة التعبير عن أنفسنا بشكل صريح، ترى، من الصباح حتى الليل عمل! يبدو أن لديكم يتبقى المزيد من الوقت لجميع أنواع الأفكار الأخرى، لذلك أصابتكم عدوى هذا المرض-الحديث كقطع الحي، عن مثل هذه الأشياء يقولون: الأعصاب تعرَّت، يجب أن يكون الأمر هكذا، أن تنعكس هذه الضغوط التي لا نهاية لها... حسنًا، وعجائب أخرى جلبتها إلينا ما تسمى بالحضارة.

لقد قلت!... كان من دواعي سروري أن أخالفك، ولكن في كلماتك هناك الكثير من الحقيقة، لاحظت بدقة هذا المرض، هو من التعب، ولكن هل حاولت معرفة من أين جاء، التعب؟ في رأيي.... - فكَّر كانات وصمت.

لا أعرف كيف "في رأيك"، -ضحك نور الخان بمرح، وعيناه المحمرتان تومضان، -ولكن بالنسبة لنا، أبناء المحافظات، ليست لدينا أي ثانية لكل هذا، إيه، لا تفكر أن تختبئ خلف المزحة وتهرب من الإجابة. لقد تحدثت بدقة نادرة، وإذا كنت حقًا لم تفكر في ذلك، فعلى الأقل استمع إليّ.

حسنا، أستمع.

المرض العام من التعب الحالي هو نتاج علاقات العداء بين الناس، من أين تأتي هذه المشاعر؟ - رفع كانات أصابعه الطويلة في الهواء -حسنًا، من الفراغ، مثلًا، يريد شخص أن يبدأ عملًا مفيدًا كبيرًا، لكنه فجأة يصطدم بعقبات، ويتخلى عنه، وينشغل بشيء خفيف عابر. يندفع إلى جلبة صاخبة، تسلية (يا إلهي، لو أن كل هذا الهراء يخفف لو قليلًا، لكان الأمر كبيرًا وحقيقيًا!)، -وبالتدريج يتملكه عدم الرضا عن نفسه، ويستولي الغضب على مشاعره، في بعض الأحيان تشعر بنفسك عبدًا -مخلوقًا عديم التفكير، بلا عقل، غبيًا، يعيش عبثًا، دون أي معنى، لا طريقة أخرى! إذا لو قلنا باللغة الروسية، فإن هذا هو "دوخوفنايا نيأودوفليتفوريونّوست/عدم رضى روحي" حقيقي... امش أنت هكذا، دون أن تفعل أي شيء، مع إدراكك أنك لم تفعل أي شيء ذي قيمة، -وأنا أنظر إليك! في لحظة تتعب وتنغلق من الحزن. وهذا التعب ليس الذي يمنحه العمل الشاق، بل الذي يمنحه العمل المحبب، والأول يجلب الرضى والفرح وامتلاء المشاعر، في حين يجلب الآخر الكآبة والتذمر وسوء الإرادة. إنه بالفعل مرض! مرض يسمى "التعب". لقد لاحظت بشكل صحيح أن الجميع تقريبًا مصابون به... أعني أهالي المدن...

في هذه الحالة لطاقة دماغك التي تكفي لغلي مرجل مع حجر بارد أنزل فيه، ينبغي العثور، على الحمل المناسب، هذا كل شيء! - قال نور الخان مبتسمًا -لماذا البكاء لأنه لا يوجد ما يكفي من الإرادة، والكسل يذبح؟

أنا أوافق، علاوة على ذلك وصلت إلى اعتقاد راسخ بضرورة تغيير كل شيء، وأنت، أيها العجوز، تعرف أنني منذ فترة طويلة قررت الانتقال إلى أي موقع بناء إذا وجد شاغرًا، العلم لن يذهب إلى أي مكان!

مممم حقًا ؟ حسنًا، هل هذا قرار نهائي؟ أم... بدا نور الخان وكأنه يمزح، لكنه في الوقت نفسه نظر بعناية إلى صديقه، وكأنه يقيِّم مدى جدية تصريحه، على الرغم من أنه مؤخرًا أصبح مديرًا، فقد لاحظ بالفعل الرغبة الأنانية "للتهافت على مركز الصورة".

نهائي، ولا رجعة فيه! - قال كانات بالروسية، وهز برأسه للإقناع. -وعلى الرغم من أنه، وفقًا لعادة قديمة، عبَّر بحماس وحزم، كانت نبرته جدية للغاية، لا يعلنون على هذا النحو إلا القرارات المدروسة جيدًا. "أتساءل عما إذا كان قد اتفق بالفعل مع أحدٍ ما؟ - فكَّر نور الخان وهو ينظر إلى كانات مستفسرًا. - أي مديرٍ سيتلقفه أولًا؟ وهل يمكنك الآن العثور في مكان ما على مثل هذا المهندس الذكي الذي لا يزال إلى الآن بريئًا كطفل، والذي يمكنك الوثوق به كنفسك؟

آ.... وأي منصب تتوقع؟ ربما تريد أن تدير موقع بناء إداري وليس أقل، آه؟ -سأل نور الخان دون أن يخاطر بالإساءة إلى كانات.

عن ماذا تتحدث! من سيضعني في هذا المكان؟ وهو غير متوافر. هل تذكر المثل الروسي: "لن تجد المكان المقدس فارغًا أبدًا "؟ أضف إلى ذلك شروط العاصمة، وسوف تفهم وضعنا كله، أيها العجوز، جيدٌ لو

وُجدت وظيفة هندسية، -افترض، ولكن لن تعثر عليها -وبمنصب مدير موقع ستكون سعيدًا، بالمناسبة، ذلك هو الارتقاء نفسه الذي وصلت إليه بعد عامين من تخرجي في الجامعة، لكنك تعلم أنني لا أخاف الصعوبات، والآن أنا أبحث عنها بنفسي، كما يقولون، وفي أعراس الفقراء مشينا! لن يحدث شيء، فقد بدأت في وقت من فني نوبة، فقط لو أن الوقت لم يذهب بعيدًا مثل الماء في الرمال، وهناك لتشتم القيادة أو تثني، لا يهم، الشيء الرئيسي هو أنك في كل يوم تستطيع أن تقدم إلى نفسك تقريرًا عما تم إنجازه.

حسنًا، تحت هذا أنا أوقع أيضًا ! الإنتاج هو الإنتاج، مهما قالوا، كل شيء واضح؛ ما فعلته، وما لم تفعله.

أُضيف: وأنا نفسي في مرمى بصر نفسي! إذا كان الشخص لا يقدم تقريرًا إلى ضميره، فمن الصعب التحدث عن أي نوع من الوعي.

رائع! سأصمت، سأصمت: لقد دوى لديك صوت المواطن، حسنًا، هذا يعني أن تسيبليونوكنا اشتد وأصبح لديه أجنحة! - انتقل نور الخان مرة أخرى إلى النغمات الفكاهية.

حسنًا، لتذهب! - انكمش كانات بشكل مهين، -أنت تقول له الحقيقة بعينها... وأنت، مثل هؤلاء... وكيف لك أن تدلَّ أولئك، أمثال بييسيك و... إيرغازى، على الدعابات.

نظر نور الخان إلى صديقه متفاجئًا، كان كانات ينقر بالشوكة، على الصحن، حتى ولم يرفع رأسه، لم يدرك نور الخان، فور بأنه قد لمس أكثر الأماكن حساسية، هدأ، لا يجرؤ على أن يطرح سؤالًا، أو الأسوأ من ذلك، أن يقوم بتهدئته، أي كلمات الآن هي مجرد محاولة للتبرير... ليس من المعروف ماذا، وسرعان ما أدرك كانات نفسه أنه بصمته يضغط على صديقه للشعور بذنب غير موجود، فجأة تحدث بالحماس ذاته، كما لو كانت المشاعر المخفية عن الجميع منذ فترة طويلة، قد تدفقت.

لا، نور الخان، عندما يثق فيك شخص ما، ويريد أن يخبرك بما هو سري ومقدس، لا ينبغي عليك أن تمزح في الرد... في بعض الأحيان اضطررت لأن أشارك بييسيك ويرغازي في مشاعري، وماذا يكون رد فعلهما؟ يدفعان بمرفقيهما بعضهما بعضًا، وهما يبتسمان، ويستهزئان ولاشيء آخر! وما يضايقني بشكل خاص هو منطقهم المتغطرس والكسول: "أوه، أنت لا تزال مرتبكًا في قماط الدراسة، إلى متى ستظل طفلًا لا يفهم الفروق الدقيقة في الحياة؟ حسنًا، لا عليك، سوف تكبر وتتعلم منا وعندها ستفهم ماذا ولماذا"، ألم ندرس معا؟ أم إنهما بلغا قممًا لا يمكن الوصول إليها من الكمال، بينما كنت أتثاءب. وهل هما من الآن فصاعدًا يفكران من قمم المواطنة، وهل سيتصرفان وفقًا لذلك؟ بالطبع، سواء من حيث الرتبة أو السلطة، لا يقل صديقانا عن نظرائهما؛ هما خبيران جيدان، ويحدث أننا من ورائهما نفخر بهما، ومع ذلك ما أن تبدأ بالتحدث بجدية، حتى يبدآ من جديد بهذه الاستفزازات والتذاكي الرخيص والابتسامات المتكلفة...

حسنًا، ماذا يقولان بالضبط؟ -سأل نور الخان، ليس بغرض التوضيح، ولكن بغرض اللباقة، أو على الأقل بطريقة أو بأخرى، من أجل مواصلة، الحوار الذي تحول من مبهجٍ ومريحٍ إلى مملٍ بما فيه الكفاية.

نعم، الشيء ذاته! "أنت تذبح رحم الحقيقة كلها، يا تسيبليونوك؟ ولماذا؟

أنت تتحدث بشكل جميل، كما لو كنت من المنبر! لكننا لا نجلس في اجتماع... "

هممم!... -همهم نور الخان بشكل مبهم.

صمتا من جديد.

بالمناسبة، أخبرني يا كانات عن شبابنا!

ما الذي يهمك؟ -قال كانات وهو يقسِّم بشكل غير مبالٍ بالشوكة قطعة اللحم التي أصبحت باردة - غريبٌ، لم يأتيا! - قال متفاجئًا، كما لو كان للتو فقط اكتشف أن بييسيك ويرغازي كانا غائبين عن الطاولة.

ماذا يحدث لهما بشكل عام؟ -سأل نور الخان وهو ينظر إلى باب المدخل بشكل لا إرادي.

عمومًا كنت أعرف أنهما لن يأتيا. صحيح، أنني بعد ذلك ظننت أنهما يقدّرانك، لأننا لم نلتقِ منذ سبع سنوات، لكن الشعور الأول لم يخدعني.

كنتَ تعلم أن الشباب لن يأتوا، كيف؟، هل قاموا بتحذيرك؟

لا، لا! ببساطة... هناك لكن... "لكن" واحدة فقط...

أي "لكن"؟ - التقى حاجبا نور الخان عند قصبة أنفه.

أتذكر... -جاء صوت كانات غير مجدٍ وغير صادقٍ تمامًا -كنت قد سألتك: ماذا أخبرتهما عن اللقاء؟ وماذا؟

... خمنت أنهما سيسألان شيئًا من قبيل: "من سيكون بالإضافة إلينا؟" أليس كذلك؟

كذلك.

حسنًا، أترى؟ لا أعرف لماذا، أيها العجوز، ولكن في الآونة الأخيرة لا يستجيب الجميع لدعوات الأصدقاء، إذا كان لديهم أشخاص آخرون؛ لذلك، على الأرجح، لم يأتِ بييسيك مع يرغازي، مؤخرًا دعوتهما لزيارتي، لكنهما لم يأتيا. مزعج بالطبع، ولكن ماذا أفعل؟ لن تقطع يدك.

ماذا حدث لهما؟

اكتفي كانات بهز كتفيه، ولم يجب.

استغرق نور الخان في تأمله طويلًا.

-حتى لو أن شجارًا حدث بينكم، فهل هذا سبب لإهمال زملائك وزملائي في الدراسة؟ -قال بمرارة :-هذا ليس جيدًا !" يقولون عن الأشخاص القريبين: "مهما تبكي وتعض، لن تجد أفضل مني"، أيعقل أننا، الذين تقاسمنا لمدة خمس سنوات آخر قطعة من الخبز الأسود بعضنا مع بعض، بسبب بعض تفاهات يمكن أن نتفرق إلى الزوايا؟

أنت شخص ممتع، يا نور الخان -جمع قانا التجاعيد على جبينه، وقام بتلطيفها، على الفور، وواصل:

-تفترض أن روح كل شخص تتألم لهذا السبب؟، على الإطلاق! كل شيء يعتمد، على الطبيعة، وهناك كل واحد يتصرف وفقًا لما يرى! الشيء الرئيسي هو ألا تتفاجأ بأي شيء، أيها العجوز، إذا بدأ صديقك

القديم بالابتعاد، وإذا وجد لنفسه صديقًا أكثر ملاءمة، أو، على سبيل المثال، يفترض أنه وجده، هل ستحشر الصداقة القديمة في عينيه وتعطيه بعض الحجج؟ بدون فائدة! ما الفائدة، على سبيل المثال، درسنا لمدة خمس سنوات معًا، تقاسمنا، كما تقول، القشرة الأخيرة! وهل من المناسب أن يذكِّر بعضنا بعضًا بالمفاهيم المقدسة؟ إذا بدأنا بالتصرف على هذا النحو، فماذا يبقى من هذه الصداقة؟ في الواقع، في أعماق النفس البشرية يجب أن تبقى تلك الأشياء التي لا ينبغي أن نتكلم عنها بصوت عالٍ. لا ينطبق الشيء نفسه على صدق وأمانة مشاعر الزمالة! فقط المجهول هو مهم حقًا للإنسان؛ لذا احكم الآن! صديق يبتعد عنك، وأنت تؤكد له صدق مشاعرك؟ مضايقة تشبه مضايقة الطحال للمعدة؟!

ما بك، أيها الشاب، تتحدث بألغاز قاسية، حسنًا، لماذا تقوم باللف والدوران؟ قل لي مباشرة: من يفترق عن من، ومن يبتعد عن من؟

لماذا تسألني؟

لا، يكفي مني هذه الإغفالات!

نعم، ولا أنوي، أيها العجوز، أن أخفي أي شيء! على العكس.... ألم تثق كثيرًا في صداقتنا الجامعية، في ثباتها؟

وهل أنا لست على حق؟

إذا ما أردنا أن نكون صادقين للغاية، فإننا قد تحولنا منذ زمن طويل إلى أناس غرباء، ينحنون عند اللقاء ويمضون كل في طريقه، ليس أكثر من ذلك! لماذا نتذكر أننا في السابق أكلنا وشربنا من الأواني نفسها، والآن لا يمكننا أن نجتمع بوضوح ولو لمرة واحدة، لذا دائمًا أفكّر: ما الذي نفتقر إليه جميعنا الآن، ما هو الشيء المفقود؟ لماذا مع رخائنا اليوم، كل واحد يهتم فقط برفاهه، يقرع لشيء واحد –حتى يتمكن من الاستقرار بشكل أفضل في منزله، وأن يعيش بشكل أحلى؟ كان بييسيك صديقًا لشاب من النقابة الإقليمية، مثل قريبين! بالمناسبة، أنت تعرفه، يجب أن تذكره، درس في صف أدنى من صفنا، وكان يتسكع في اللجنة النقابية، يذهب إلى الأنشطة، شابٌ ليس بطويل القامة، جسمه مربعٌ، وجهه مستدير، جاحظ العينين!

نعم، نعم، أتذكر... ولكن نسيت، ما اسمه؟ في كل اجتماع كان يلقي كلمة. أجل، أجل، هو نفسه! والآن يقوم هذا الناشط السابق بتوزيع القسائم لقضاء العطلات في بيوت العطلات، بحر الأسود، وبييسيكنا يريد حقًا أن يدخل ملعقته في قطعة من الزبدة، أتتصور؟ نعم، وهذا الشخص يبدو مسرورًا لأنه وجد لنفسه مثل هذا الصديق؛ فهو رئيس إدارة التصميم والبناء، من أجل البيوت الصيفية، يحتاج الأمر إلى الطوب الأحمر، ويتقاسمان فيما بينهما ما يرسله الله، بالتساوي، الحقيقة لا أحد يعرف كم ستستمر هذه الصداقة... بشكل عام، بالنسبة لبييسيك أنا وأنت لسنا صديقين، بل أصدقاؤه مثل هذه الأنواع، وأنت تقول: لقد درسنا لمدة خمس سنوات، ولم نكن نبخل بعضنا على بعض بآخر قطعة خبز، هذا اليوم ليس في الحسبان، من الآن فصاعدًا، هم مع موظفهم النقابي، ليس فقط في أيام الأحد، يسافرون مع عائلاتهم إلى الجبال في سياراتهم

"جيغولي" الشخصية، ماذا إذن، في البداية أحسست بالغيرة من هذا الشخص، وفكّرت بماذا فتن صديقنا؟ ثم أدركت الحقيقة، لم يكن الأمر جيدًا، لا يمكنك أن تقدّم لرفيقك القديم أي شيء غير قلبك النقي، نعم، على ما يبدو، لا يكفي وحده...

ماذا يعني كل هذا، أيها العجوز!... باختصار، ليست علاقاتنا المتبادلة كما كانت، ولا يوجد ما كان من نزاهة، وطيبة، ونقاء، أين ذهب كل هذا؟ لماذا عكّرنا ذلك النبع الرقراق؟ لا أستطيع فهم كل هذا، رأسي لا تستطيع، الأسوأ من ذلك، حتى إذا التقينا الآن، فإننا نجلس كما لو كنا ضيوفًا: لا يمكنك أن تشرب كأسًا إضافيًا، والمجاملات مزيفة قاسية، نادرًا -نادرًا يحدث أن نفترق ونحن نتذكر أعوام الدراسة، تمزح قليلًا، وعلى الفور تمسك نفسك: لماذا؟ لأنك رب أسرة ويجب عليك أن تتصرف بشكل لائق، قل لي: أين هو الإخلاص الكامل في العلاقات؟ أين؟ إذا كنت لا تشعر بالحرية في مكان الشرف في منزل صديقك، فإن أمورك سيئة، نعم، سيئة!

كلما تحدث كانات لفترة أطول، ازداد وجه نور الخان تجهمًا.

كفي-ى-ى! يكـ-فـ-ي! فجأة قال بهدوء وحزم -إنه أمر لا يطاق، يا تسيبليونوك، أن تحفر في إساءات صغيرة، فنحن أصدقاء! أصدقاء! ألم تقل للتو أن كل شيء يعتمد، على الشخص نفسه، على نقاء مشاعره؟ وهل بييسيك ويرغازي صديقان ليوم واحد؟ لذلك دعنا ننهي هذا الحديث، الأفضل لنشرب نخبهم! هذا سيكون صحيحًا.

بخمول طرق كانات كأسه بكأس نور الخان، رفع نظره إلى صديقه الذي شرب الكأس دفعة واحدة، وقال وهو يتأمل:

عبثًا قررت أن تحفر في علاقتنا. ليس من أجل ذلك أقول، أولًا، أنت نفسك أردت أن تعرف أي قطة ركضت بيننا، ثانيًا، ليس لديَّ ما أخفيه عنك -بدا صوته مستاءً قليلًا -بغض النظر عما أصبحنا عليه الآن، فإننا كنا في وقت ما أصدقاءً حقيقيين، وهذا لا ينسى، عندها لم يكن بإمكان حتى الشعرة أن تمر بيننا... ولمن يمكن أن أقول ذلك، إن لم يكن لك؟! من الصعب رؤية كل هذا. المشاعر بقيت هي نفسها! أفكر أحيانا: "لماذا لا يعاملني أصدقائي كالسابق؟ فنحن أصدقاء قريبون"، بشكل عام، أعتبر هذا الابتعاد كخيانة... لقد تحدثت كثيرًا هنا، لا تلمني: لقد تراكم كل ذلك. ومع ذلك، لم أستطع أن أصمت، كنت سأعتبر ذلك ظلمًا.

شعر نور الخان بألم في صدره: هكذا، على الأرجح، يلعن ويئن جرو نسيه البدو الرحل في الصحراء...

ربما يكفي لي ولك تسميم الروح -قال بحزن. - لنطلب شيئًا آخر، هاه؟

لا! لنذهب أفضل إلى الخارج.

خفت حرارة النهار، وحلَّ الشفق البارد، ومن جهة الجبال هبَّ نسيم منعش، وتحولت أنابيب النوافير التي كانت صامتة خلال النهار، إلى جداولَ صغيرة بيضاء كالثلج ناشرة في الهواء رذاذ الماء.

يا إلهي! اتضح أن هنا هو المكان الذي تشعر فيه شعورًا رائعًا ! -قال نور الخان، معرضًا صدره الواسع

للرذاذ المنعش - اقترب أكثر، بلحظة ستصبح رجلًا. تنعّم!

هل تعتقد أنني أرى هذه النافورة للمرة الأولى؟! - نظر كانات مع ابتسامة إلى صديقه، وذهب إلى قاعة الفندق. بعد دقيقة عاد.

حسنًا، أيها العجوز، ربة المنزل عادت من العمل، وتنتظرنا منذ فترة طويلة.

رائع، لماذا لم تخبرني مسبقًا ؟ كيف يمكن أن نذهب في هذا الشكل... فنحن ثملان...

آي، لن نذهب إلى بيت غريب! - دون أن يسمح لنور الخان بالعودة إلى رشده، أمسك كانات ذراعه بقوة وجرّه معه.

انتظار ماذا؟ اعذرني، لقد نسيت أن أحذرك في الصباح أن زوجتي تدعوك لزيارتنا. والآن قالت: "لا تأتِ بدون الصديق!" لنذهب!

يا لك من ماكر! ربما أنت خائف من أن تعود وحيدًا، آه؟ - مازح نور الخان لإطالة الوقت ويستجمع أفكاره بطريقة أو بأخرى، فور تذكر محاورة الأمس، وصوتها الناعم اللطيف، فهي تحدثت معه بخصوصية، وبود كما لو كان كل منهما يعرف الآخر؛ حتى إنها عبّرت عن امتعاضها: "لماذا لم تأت إلينا مباشرة، هل يتصرف الأصدقاء على هذا النحو؟ "لا، من غير المريح أن أرفض، قرر نور الخان.

هيا، لماذا تماطل؟ - حثَّه كانات، ها هي سيارة أجرة تتوقف، لن نفوتها. هيا!

حسنًا... -جلس نور الخان بشكل مريح، على المقعد الخلفي بجانب صديقه. -أنا فقط أحذرك: إن جئت إلى مناطقنا في نفس المظهر المتعب، سآخذك إلى منزلي، بنفس الطريقة سأرد لك هذا!

موافق! والله يشهد، الرفض خطيئة! - ضحك كانات بمرح.

انفجر الاثنان ضاحكين، ملقيين برأسيهما إلى الخلف.

سرعان ما توقفت سيارة الأجرة أمام بناء رمادي من خمسة طوابق، في حي "كوكتيم".

كان الباب مفتوحًا.

بمجرد أن اجتاز كانات العتبة، نادى برفق وبصوت عالٍ:

جانا-ا-ا! استقبلي الضيف يا عزيزتي!

هرعت امرأة ممشوقة شابة من الغرفة الجانبية، ومدت يدها المرتعشة إلى نور الخان.

مرحبًا ! - قال وهو ينحني.

أهلًا وسهلًا في بيتنا! -أجابت. -كيف حالك؟ - بدا صوتها لطيفًا كما كان بالأمس، على الهاتف، لكنه ارتجف قليلًا بشكل ملحوظ. - تفضل!

دفعه كانات بكوعه بحماسة: "هكذا نعيش، اشعر بنفسك وكأنك في بيتك!" – ودخل أولًا إلى حجرة الجلوس.

في الممر ظهر صبي أسود وأجعد الشعر.

ما اسمك، يا جيغيت؟ –سأل نور الخان برفق، لكن الطفل اختفي، على الفور.

لاحظ كانات بطرف عينه المشهد وابتسم: "سا–ما–ا–اتـ–جان، يا بنيّ، هذا العم هو ضيفنا، تعال إلى هنا بسرعة!" بيد أن الصبي لم يفكر في إظهار نفسه، عندها ذهب الأب بنفسه وراءه، وسرعان ما أحضر الهارب على يديه.

حسنًا، سلّم، عم نوراش! أوه، مخادع، لماذا أنت صامت؟

وقف الصبي الصغير جانبًا، عابسًا، ينفث بعناد، وفجأة هرب بعجلة إلى غرفته.

هذا هو شقينا الصغير، اسمه سامات، مدلل أمه! والكبير، بولات، ذهب إلى جدته، –أشار كانات بمودة.

نظر نور الخان تدريجيًا إلى الغرفة المضيئة، نظيفة ومرتبة، حيث كل شيء يعرف مكانه وبطريقة مجهولة يخلق الراحة، استمع بسعادة إلى النغمات الهائجة أو الهادئة لصوت صديقه، وأدرك فجأة أن الرفاه والسلام سادا في هذا البيت، على الطريق كان قلقًا جدًا من أنه سيزعجهما باقتحامه، لكنه الآن يشعر بالارتياح، "لا، تبين أن كل شيء على ما يرام، الحمد لله"–فكّر، وشعر بالسعادة في هذا الهدوء، كما لو كان في بيته.

فرشت جانا الطاولة بسرعة وبهدوء، وسألت:

هل أضع اللحوم، أم إنكم ستشربون الشاي أولًا؟

آي، يا عزيزتي، لماذا تسألين الضيف؟ وفقًا للقول الشعبي الحكيم، ضيف العنزة الساذجة: ضع أمامه الزبدة – سيأخذها بالملعقة –قال كانات ممازحًا. –على كل حال بماذا تأمر أيها العجوز، بماذا نبدأ؟ – التفت إلى نور الخان.

حسنًا، أولا تقترح، ثم تسحب كلامك مرة أخرى. لقد قلت بنفسك إن الضيف أكثر سذاجة من العنزة، يأكل كل ما يُقدّم له– ضحك نور الخان بصوتٍ عالٍ. – حسنًا، حسنًا، أنا أمزح، ربما الأفضل أن نشرب الشاي الآن.

هل سمعتِ، جانا؟ –قال كانات وهو يجلس، على الأريكة إلى جانب صديقه، اسكبي لكل منا بيالا.

على ما يبدو لم ينتظروا في البيت نور الخان وحده: فقد تم تحريك طاولة الطعام، وببراعة رتبت جانا عليها الوجبات الخفيفة، ونظرت إلى زوجها بابتسامة.

اعذرنا يا نوريك، سيدنا في حضور أقرب الناس يشعر بنفسه ليس أقل من معشوقٍ وإقطاعي، أترى، لا يحرك حتى حاجبه لمساعدة زوجته، منذ الأمس يشعر بالسعادة لدرجة أنه نسي كل شيء.

يا إلهي، جانوتشكا، بالفعل نسيت. قادمٌ، قادمٌ! – قفز كانات بخفة وهرع إلى المطبخ.

كان نور الخان يعرف جيدًا الطبيعة المتجاوبة لصديقه، وكان بالفعل مندهشًا بعض الشيء لأنه كان يجلس، على الأريكة الناعمة، ولا يفكر في مساعدة زوجته في مشاغلها، والآن يضحك لا إراديًا، "إنه شبيه

لتسيبليونوك: أولًا يفكّر، وبعد ذلك يطير بتهور، ماذا بعد، والآن ينبغي علينا في كثير من الأحيان أن نركض".

لم يتبق لكانات أي عمل خاص: ما أن أحضر الفواكه، حتى أطلقت جانا سراحه:

الأفضل اجلس واسترح، سأرتب كل شيء بنفسي.

هذا صحيح! هنا، جاء الصديق الذي لم أره منذ سبع سنوات، كنت خائفًا من أن الوقت غير كافٍ للحديث، -غمز كانات نور الخان بمرح، وجلس بجانبه.

عبثًا تشفقين عليه، يا جانا! لو أنك ترين كم هو سعيد هذا المتهرب من العمل، -قال نور الخان منتقلًا إلى نمط الكلام الحر نوعًا ما.

بدا أن المرأة الشابة أعجبها أن الضيف يتحدث بسهولة، فردت كما ترد على شخص قريب:

نوريكي-أو! نعم، أنا نفسي دللته من الأيام الأولى لحياتنا المشتركة. وأعترف أنني لا أحب أن يشارك رجل في شئوننا المطبخية، الأفضل أن يجلس معك.

هذا ما تعنيه ربة المنزل الحقيقية!"-قال نور الخان.

في البداية بدا له أن هذه المرأة لا تمتاز بالتحدث مع هذه الحرية والبساطة، لكن زوجة كانات فاجأته، "إنسانة رقيقة جدًا ومتفهمة! -فكّر نور الخان.

ها، انظر الآن! - قال صديقه - زوجتي مع كل حديثها الهادئ، قادرة على أن تعاقب!... أنت تعرف، لقد ترعرعت في المدينة، وبالكازاخية كانت تتحدث بشكل سيئ في البداية -فبدأت بتعليمها، وسببت بذلك مصيبة لرأسي المسكين، ومن الآن فصاعدًا تتحدث بأمثال شعبية، بحيث تجبرني على أن أتوه.

هذا ما يلزم لك، وإلا لما غلبه أحد في الجدال، ولن يسمح لأحد أن يقول كلمة واحدة، يعني، كان هناك ثمرة من التعلم، -قال نور الخان محرضًا.

بجزءٍ كبير من الأحاديث، تنوب عني زوجتي وبنجاح كبير، -أومأ كانات برأسه باتجاه المطبخ-وثقت بها... ببساطة لم يتبق لك ما تفعله، -تدخلت جانا في الحديث، -نور الخان-أو، صديقك القديم... -نظرت بعناية إلى الاثنين وكأنها قررت عدم المواصلة، -هذا الصديق يسمح لنفسه بالتسكع في الشوارع حتى منتصف الليل تقريبًا، يذهب إلى بعض الرفاق، أو إلى رفاق آخرين، كل ما في أذهانهم هو ورق اللعب، أو البلياردو، أو الشطرنج! أين يذهب؟ الله وحده يعلم.

وأنت تبدأ في طرح الأسئلة، لكل شيء يوجد سبب، لمن يبقى الحق في التحدث في المنزل، إن لم يكن لي؟! هل قلت أنا شيئًا غير صحيح، يا كانات؟

اكتفي كانات بالضحك، إذ بدا جليًا، على الفور أنه ليس لديه ما يُعقِّب به، في حين كان نور الخان قلقًا بعض الشيء من أن يندلع من هذه المناوشات الساخرة حريقٌ كبيرٌ، ونهض على عجل:

حسنًا أيها الشاب، سأذهب إلى مكاني، وسأربطك بحبل، فهمت؟

لم تؤثر كلماته، وكيف لها أن تؤثر!كان كانات لا يزال مرحًا، ولم يعتقد أنه سيحزن، بالإضافة إلى أن جانا

خاطبته بدون أدنى قدر من الحقد، ولم تُظهر لا بتلميح ولا بإيماءة بأنها كانت متذمرة من زوجها؛ يبدو أنها اعتادت بالفعل، على الغياب اليومي، ولا توليه الكثير من الاهتمام، "نجاح باهر في كل ما علَّمه لزوجته! انظر الى تسيبليونوك! من كان ليظن... نعم، لو كنا نتسكع كل يوم حتى الليل، لكانوا منذ زمن قد قبضوا علينا وابتلعونا كجميلات!...

تذكر نور الخان خرافة تناقلوها في القرية عن الزوجات اللواتي يتعاملن بهدوء مع أزواجهن المتسكعين، ربما هن بطلات قصص خيالية، من يعلم! الآن لا يعتبر الجنس الأضعف نفسه أسوأ، ولا بذرّة من الجنس القوي، ومن ثَمَّ لا تترك النساء أزواجهن يبتعدون عنهن ولو لإصبعين، ولا يُعرف عن الأخريات، لكن زوجة نور الخان ترافق زوجها في كل مكان، "أحسنت، يا تسيبليونوك!" - فكّر نور الخان -تمكن من ترسيخ نفسه، والآن يتسكع بهدوء، حق الكلمة، أحسنت!

قطع أفكاره صوت جانا الرقيق وهي تدعو الأصدقاء إلى المائدة.

عرف نور الخان من نفسه: طبيعة السكر تعتمد، على المزاج، إذ تعزز هذه القذارة، الخمر، ما يكون موجودًا. وعلى الرغم من أنهما خرجا من المطعم ثملين بشكل لائق ومتعبين بشدة من الحديث، هنا، خلف مائدة كانات، لم يغير المشروب حالته الودودة.

قبل النوم خرجا لاستنشاق الهواء النقي، وسارا على طول الشارع الأخضر، ثم جلسا في المطبخ قليلًا، وشربنا بضعة أكواب من الكونياك.

حسنًا، ماذا سنفعل غدا؟ -سأل نور الخان - ما هو برنامجكم؟

ماذا تقصد، "ماذا سنفعل"؟ سوف نستريح.

قف، قف، أنا لا أسألك أنت، أنا أسأل جانا، -قال نور الخان وهو ينظر إلى كانات بعينين ضاحكتين. - أجيبينا يا جانوتشكا!

لا أعرف.... -أطلّت جانا وهي تغسل الأواني في الحوض. -وماذا قررتما أنتما؟

لا يمكننا مع كانات اختراع أي شيء هنا، لذلك قررنا التشاور معك -فكّرت جانا، ولم تجد جوابًا، في حين بدأ كانات يدندن بصوت منخفض:

إذا تشاورت مع امرأة

وأطعتها في كل شيء...

يي-يي-يي....

مهلًا، انتظر أنت، اللعنة! -لوّح نور الخان بيديه.

أوه، هل فهمت الآن حقيقة الأمر؟ لقد جربتها بنفسي-عندما تتحدث بجدية مطلقة، وتتحول كلماتك إلى مزحة ؟! ها-ها-ها!

حسنًا، لا يمكن جعلك مخطئًا، حسنًا، أنا أوافق، واحد صفر في صالحك.

هذا كل شيء، وإلا فأنت تسمح للضيف بأن ينفخ الريح على أشرعة الزوجة الودودة، ويبقى فقط انتظار اللحظة عندما تبدأ بالرقص على رأسي ذي المعاناة الطويلة، أليس كذلك يا عزيزتي جانا؟

فقط في وجود أكثر الأشخاص قربًا، سمح كانات لنفسه بسخرية لا نهاية لها على كل كلمة، في حين عرفت جانا هذا جيدًا، ومن ثَمَّ لم تعر أي انتباه إلى حدة زوجها، منذ فترة طويلة لم يشعر بمثل هذه الراحة والحرية، وكانت هي سعيدة بهدوء بهذه الجلسة الطويلة.

وماذا، كانات-آي، لو استرحنا غدًا بشكل جيد، آه؟لنناقش هذا بجدية، وإلا فكل شيء نكات ونكات... فنور الخان لا يأتي إلى أماتي كثيرًا. أقترح أن نذهب أولًا كوكتيوبي، إلى "أوول"، ثم إلى ميديو... فأنت أعتقد للمرة الأولى بعد التخرج تأتي إلى هنا؟ ومنذ ذلك الحين تم إعادة بناء كل شيء، أليس كذلك يا كانات؟

لماذا تسألينني؟ هذا ضيفنا، أخبريه!

انتظر أنت! - غضب نور الخان خوفًا من أن يحول كانات كل شيء مرة أخرى إلى حمحمات.

لا أعرف كيف سيبدو اقتراحي لك... فكّر مع كانات، -انتهت جانا وصمتت.

"كانات، كانات. لا تنسى زوجها للحظة" -فجأة فكر نور الخان وهو يتعجب بها، فجأة بدا صديقها لذي كان يبتسم بهدوء من الأذن إلى الأذن أسعد رجل في العالم، حتى إن ما يشبه الغيرة ظهرت تجاهه للحظة.

هذا بالضبط ما أردته، أنت فقط خمنتِ رغبتي يا جانا! -قال نور الخان.

جانتنا دائما تقرأ أفكار الآخرين؛ لذلك أنا لا أجرؤ على معاندتها، أنا "مع"! قال كانات ورفع إلى الأعلى كلتا يديه.

كان نور الخان مبتهجًا بطيبة قلبه، وابتسم بسعادة "هناك، حيث يحترم الناس بعضهم بعضًا، لا يمكن أن يكون مكان للخلافات"، -فكّر وهو ينقل عينيه من الزوجة إلى الزوج، حقيقة قديمة معروفة منذ زمن بعيد، لا داعيَ كل مرة لإعادة اكتشافها.

في وقت مبكر من الصباح غادروا المنزل، وزاروا الأماكن التي تم تحديدها، وفي المساء عادوا إلى المدينة، ونزلوا من كوكتيوبي بالتلفريك.

عند الفندق ودّع نور الخان كانات وجانا، وذهب إلى غرفته وهو يتنفس بحرية، ملء صدره، مع شعور الشخص الذي أنجز واجبه، والآن كان يحلم بشيء واحد: أن يستلقي وينام، ويتمدد بسرعة في السرير.

عندما كان، درج صاعدًا إلى الطابق الثاني سمع بعض الضوضاء، شتائم وشجار، اندفع على أي حال نحو مصدر الضوضاء، اتضح أنه عبثًا فعل: ما كان فقط هو أن مباراة "كايرات" مع "بختاكور" كانت تنقل، على التليفزيون، وكان البهو مكتظًا، والتلفزيون يعمل بأقصى صوته، صيحات وضوضاء آلاف المشجعين المحتشدين في الملعب مزقت غشاء الطبل، أضيفت إليها الصرخات الساخنة لمشجعي الفندق.

"يا إلهي، ربما أنا أيضًا أشاهد كرة القدم!"-فكّر نور الخان. بينما كانت المناوبة تسلمه المفتاح، لم تتزحزح عيناه عن التليفزيون، وفجأة صاح صوت مألوف بالقرب منه: "يا إلهي، انظر أي مشجع جاء!... "نظر فرأى كولياشا، وبييسيك أيضًا.

آوو، من جاء بكما إلى هنا؟

دُهش نور الخان. لم يكن يعرف ماذا يفعل في وسط هذا الحشد من الناس الذين كانوا يملأون البهو: من غير المريح أن نرى أمام الجميع. ليس من اللائق أن نتعانق على مرأى من الناس، ولا يليق أن تسلّم، على الأصدقاء بجفافٍ بالغ، وكأنك لست سعيدًا بلقائهم.

في عجلة تمكن من مصافحة بييسيك بقوة، وقال: "لماذا نقف هنا؟ لنذهب إلى الغرفة!

حسنًا، قدنا! -قال بييسيك بلطف.

حمدًا لله على سلامتك يا نوراش، أي غرفة لديك! -سأل كولياشا - وأنا أفكّر لماذا لا تأتي إلينا؟ اتضح أنك وحدك صاحب المنزل في هذه الغرفة الفاخرة.

أجل، بنى الأب المبنى لابنه، وتركه له من طيبة قلبه...

ليكن، لقد أتيت إلينا؟ -خلع بييسيك قبعته الخفيفة، وألقى بها على طريقته، على السرير، ثم نظف حنجرته تمامًا، كما لو كان ينوي بدء حديث مطول ومهم.

كما ترى، أيه االعجوز، كما ترى-كان نور الخان نفسه مندهشًا من شدة هدوء وتعبير ما قاله؛ هل لأنهما التقيا في مثل هذا الحشد، ربما، حتى لماذا، ولكن الشعور بمسافة معينةلم يختف، فكرة أنه الآن مع بييسيك سيندفعان بعضهما إلى بعض ويتعانقان بشكل أخوي، بدت بعد لحظة في غير مكانها -حسنًا، كيف حالك أنت؟-سأل بنفس الصوت الهادئ الذي يشعرُ فيه بالكثير من الإثارة - كيف صحتك يا كوليكي؟ لقد تغيرتِ تمامًا. يا إلهي، يبدو أن بييسكنا يحملك على ذراعيه، ويهدهدك على راحتيه.

لتذهب أيها المجنون، تتكلم أيضًا! انتبه، لكيلا تصيبنا بالعين! سمعنا أن زوجتك أيضًا لا تتنازل لأحد. كيف هيوالأطفال؟

لا بأس... هل طفلك أصبح يجري؟ بالمناسبة، لم تتوسع ذريتك، آه؟-سأل نور الخان وهو ينظر إليهما مبتسمًا.

لدينا معيار حضري: ابن واحد وابنة واحدة، الأفضل أن تتباهى بنجاحاتك في هذا المجال! -قالت كولياشا بشكل عفوي.

آي، هل تذكر الجميع! إما أربعة، وإما خمسة يركضون...

ابتسم بييسيك ببرود، محافظًا على عظمة رب الأسرة.

لو أنك تصمت أفضل، أيها الثرثار! -قالت كولياشا دون أن تفهم ما إذا كان نور الخان يمزح أم لا، -لم تمر سبع سنوات منذ أن تزوجتما، كيف يمكن أن يكون لديك أربعة أو خمسة أطفال ؟! أم إنك وجدت زوجة تلد في كل مرة توأمين؟

ولكن في هذا الشأن كل شيء يعتمد علينا... -قوّم نور الخان كتفيه بفخر -كما يقول الناس، إذا كان عمود اليورت قويًا... ما هي التكملة؟... فإن اللباد يغوص أعمق في الأرض. أليس كذلك؟

أو-أو-أوي! كما كنت تهرّج في شبابك، لم تتوقف، حسنًا، انظر إليّ!.... -التفتت كولياشا إلى نور الخان وأمسكت بعنقه بقبضة موت. - قل، هل ستتوقف عن التحدث بلغة الغباء أم لا؟ آه؟ هل ستسكت أخيرًا ؟!

يكفي، يكفي، أنا صامت! -أطلق نور الخان ضحكة. - شعب مثير للاهتمام هم النساء! فقط حول شيء واحد يفكرن: كيف يمكن إبطال الحقيقة، آه، يا بييسيك؟

حسنًا، ماذا يمكن القول في ذلك؟- ابتسم بييسيك ابتسامة هادئة. - لا يمكنك التخلص من أي واحدة إلا إذا قلت لها: "أنتِ محقة يا عزيزتي! وإلا فسوف تخنقك.

نظر كل منهما إلى الآخر، وشعرا بالتضامن، وفي وقت واحد التفتا إلى كولياشا، كما لو كانا يترقبان ما ستقوله الآن.

إيه، وأنت ماذا تريد؟ انتظر حتى نصل إلى عتبة البيت، هناك سأتحدث معك! - قالت كولياشا مظهرة لزوجها قبضتها القوية الصغيرة، هل شعرت بدعم نور الخان، أم ماذا؟

نعم، عندما نصبح، نحن الرجال، أكثر، يمكن للمرء أن يسمح لنفسه بالحرية أيضًا، أما في الوقت الآخر، فأنتِ لا تسمحين لي حتى بأن أفتح فمي.

هذا هذا نفسه!

بعد أن أقنعا كولياشا بالإطراء المتزلف، نظر الرجلان بعضهما إلى بعض مرة أخرى، ولاحت على شفاههما في نفس الوقت ابتسامة خافتة ومتفهمة، هنا فقط عرفت كولياشا بأنهما يستهزئان بها، وخوفًا من أن تُحرج مرة أخرى، سارعت إلى تغيير دفة الحديث.

-هيه! - التفتت إلى نور الخان - كم من الوقت ستطعمنا كلمات؟ بالأمس تفاخرت بهدايا القرية، أين هي؟ فنحن لم نجرب شيئًا بعد؟

أوي، حقًا ! - احمر نور الخان ولا يعرف لماذا نظر الى ساعته. لنذهب إلى الأسفل، اقترح وهو ينهض من كرسيه.

لا داعي -قال بييسيك بعد أن نظف حنجرته: لا تعتب علينا لأننا لم نتمكن من المجيء بالأمس، فقد جاءنا ضيوف فجأة، فقط لا تحاول سحبنا إلى المطعم، لا حاجة، في سننا يجب أن نكون أكثر صلابة...

نظر نور الخان إلى الوجه الأبيض الممتلئ لصديقه، وابتسامته الساخرة، وشعره الأسود الذي، على الرغم

من أن الشيب لامسه، ما زال مجعدًا وكثيفًا (لم يكن عبثًا أن أطلقوا على بييسيك لقب دي آرتانيان)، وقرر أن صديقه أصبح أكثر وسامة، في السابق كان يتميز بسلوكه النبيل، والآن اكتسب رزانة وبهاءً. ربما أنه يقمع الغرباء بمظهره المتغطرس، وطلته البهية، وكلامه الموزون، بيد أن عادته التحدث من فوق لم تبارحه، فحتى هنا يتحدث بييسيك أيضًا بلهجة آمرة، كما لو أنه لم يأت إلى صديق، بل إلى أحد مرءوسيه، هذا السلوك المتعجرف أحزن نور الخان.

أنت شخص فضولي: من قال لك إن الصغار فقط يذهبون إلى المطعم؟ - مع ضحكة اعترض نور الخان، لكن الزوجين ربما شعرا بأنه كان مستاء قليلًا.

آي، -اندفعت كولياشا، -أي مطاعم هذه! مثلها مثل هدايا القرية! منذ يوم أمس، بمجرد أن سمعت عن الطعام البيتي، أسير ولعابي يسيل.

إذن سأصمت! إذا قالت كولييكي نفسها، فأنا أطيع! - قال نور الخان وهو ينحني قليلًا. -لكنني أحذركم، لا تغضبوا إن لم يكن كما يجب -نهض من مكانه، فتح الخزانة، ووضع، على الطاولة زجاجتي كونياك، ونقانق مقطعة، وعبوة كافيار أسود، ودجاجة مسلوقة.

لذلك إذن غصت عندما خرجت من المنزل! - صاحت كولياشا، وبدأت بالمساعدة.

نعم، لقد خلقك الله من أجل الحصول على جميع حلويات العالم، كلمة واحدة تعبر عن ذلك-محظوظة! - قال بييسيك لزوجته.

استرجع نور الخان كلمات كاناتا لتي قالها منذ زمن بعيد، عندما سمعوا أن بييسيك سوف يتزوج. "يا إلهي، هذه الفتاة محظوظة، سترون، سينام دي أرتانياننا على ذراعيها، من الواضح أنها خُلقت لكي يقدموا لها الهدايا"، عندها اندهشنا من شخصية كولياشا الجريئة والحازمة، فقد جرَّت وراءها الطالب المسكين إلى شقة خاصة! وذات مرة، فور عودتهم من زيارة الزوجين الشابين من تاستاك، استلقوا على أسرّتهم الحديدية في الغرفة شبه المعتمة في نُزل الطلبة.

بصراحة، لا أستطيع أن أفهم ما هو الشيء المميز الذي وجده دي آرتانياننا في هذه الفتاة الشرسة؟! قال كانات.

ليست الجميلة رائعة، وإنما الحبيبة جميلة، يا صديقي، -قال يرغازي بنبرة توجيهية.

تدخل نور الخان قائلًا :

الأمر ليس هكذا، من أجل فهم السبب الذي كان وراء إعجاب بييسيك بهذه الفتاة، عليك أن تنظر إليها بعينيه. هل فهمت يا صديقي القديم هوراتيو؟

حسنًا، كفاكم، بعد قليل سيؤذن للصلاة، -عبأ كانات المنبه -وهل أنا أسأل عن شيء آخر؟ لو أن كولياشا جميلة ومشرقة، لكان كل شيء واضحًا، حسنًا، لو كان لديها ما هو مميزٌ، كمظهرٍ أو شيءٍ غير موجودٍ عند غيرها... ومع ذلك، هناك ثمَّ شيء في الكلمات الأخيرة، ربما هناك تكمن الحقيقة، والعبارة الرنانة عن أن الجميلة ليست رائعة، وإنما الحبيبة جميلة، ليست أكثر من كلمات جوفاء! كذبة! اختلاق أشخاص، مثلي، لا

يمكنهم الوصول إلى الجميلات، ماذا يتبقى لنا؟ فقط الغضب من العالم كله لأن الجميلات لا ينظرن إلينا، ونخدع أنفسنا بمثل هذه العبارات، لذلك دعونا لا نتحدث عن ذلك! في رأيي، هنا من الضروري التحدث عن النجم السعيد لابنة صفنا، التي نجحت في أن تصطاد شخصًا بارزًا، مثل دي آرتانيان، محظوظة حقًا لأن الحياةتمنحهامثلهذهالعروض!

لم يُعرف لماذا صمت يرغازي، لكن نور الخان كان يفكّر في كلمات كانات...

والآن، بعد سبع سنوات، سمع هذه الكلمات مرة أخرى، هذه المرة من فم بييسيك نفسه!

لم تسمح كولياشا لنفسها بانتظار إجابة.

وهل أنا لا أؤكد دومًا على أن هذه هي الحقيقة بعينها...

نعم، لقد تغيرت زميلة الدراسة كثيرًا، امتلأت، وبدأ يظهر لها ذقن ثانية. طبيعتها، كما كانت في السابق، منفتحة، وتحدثت الآن بكل حرية وصراحة، حتى إن حركاتها وإيماءاتها أصبحت أوسع وأكثر حرية، ربما كل هذا لأن حياتها ميسورة، فزوجها يحظى بالاحترام (فهو رئيس إدارة التصميم والبناء)، وهل هنا لا يرغب المرء أن يظهر نفسه للناس في كامل الأُبَّهة. فما بالك بالمرأة الحقيقة! ربما هذا هو السبب في أن في لهجتها تُسمع باستمرار: "بغض النظر عما أقوله، أنا دائمًا وفي كل شيءٍ مُحقّة!"

وبييسيك، يبدو أنه،، على الرغم من ذلك كله، يدللها، ويثبتها في صفتها الجديدة، فها هو يقول مازحًا بهدوء: حسنًا، فقط اسمح لزوجتي بأن تتباهى، ولن تتوقف.

وما المشكلة! كل شيءٍ من الله، وأنا سعيدة بكرمه، واليوم قدَّم الله لي هدية أخرى، ألا ترى ما لدينا، طاولة؟ -ضحكتكولياشامرةأخرى.

شعر نور الخان أن من غير اللائق أن يستمر بالصمت، فدخل إلى الحديث:

حسنًا، إذا كانت المرأة سعيدة، فلن تكون هناك مشكلة، هل أنت ضد ذلك؟ أيها الشاب؟-قال لبييسيك ممازحًا،ومنتقلًاإلىالجانبالآخرمنالمتراس.

هذا صحيح! لقد درست أنا أيضًا معكم جميعًا -وأحيانًا أحتاج إلى الدعم! - أجابت كولياشا بمرح.

سنقدِّم! -نطقها نور الخان بالروسية، مشددًا على كل مقطع صوتي- إذا ما أسأنا إلى المرأة الوحيدة بيننا، كيف سنعيش في العالم؟ تلك المخلوقات الشابة التي تركتنا-غمز إلى بييسيك بطريقة مستفزة- ذهبت إلى شباب من المعهد الزراعي والبيطري. أما أنت، يا كولياشا، فقد بقيت وفية لمعهدنا الهندسي، أنت ملكتنا! - انتقل نور الخان مرة أخرى إلى اللغة الروسية. - حسنًا، أيتها الملكة، هلّا سمحتما بالجلوس على هذه المائدة المتواضعة؟ نعم، لن تسمح فقط! الآن لن تستطيع، ولا بأي شكل، أن تطردها من هذه الغرفة! - ضحك بييسيك بحرارة -هيا، دعنا نجلس نحن أيضًا، على الطاولة.

بمرح وسعادة أخذوا أماكنهم.

"لقد جلسنا بشكل جيد للغاية!... رائع!"

بعد أن رافق نور الخان ضيفيه مودّعًا، عاد إلى الشارع المتلألئ بالأنوار، مستذكرًا طوال الوقت كلمات الوداع الخاصة بييسيك، "حسنًا، ما هو الرائع هنا بشكل خاص؟!" كرر كلمات بييسيك في نفسه، بذات النغمة والنبرة، لكنه لم يفهم معناها الضمني.

بكل بساطة لم يكن لديه في إينسك الوقت للاهتمام بهذه التفاهات، علاوة على ذلك، لم يكن يعتقد أنه سيفكر في كل كلمة، وينظر إلى المعاني الخفية في الكلام.

كان يرغب في الاسترخاء مع نفسه، ولكن... لم يكن الأمر مهمًا بشكل كبير، إذ لم يكن عليه إلا أن يقدم إلى مكتب الثقة تقريرًا عن الوضع الراهن للبناء والمشكلات والاحتياجات، والاستماع إلى التعليقات والاقتراحات، وكل ما تبقى قرر أن يكرسه لأصدقائه القدامى، وهكذا... يجر نفسه إلى الفندق، كما لو أن أثقالًا من الرصاص مربوطة بقدميه، كانت روحه كئيبة، وإلى رأسه تزحف مختلف الأفكار الغريبة.

"لماذا أحب هذا البييسيك لقاءنا؟ هل يمكنك وصف هذا اللقاء بالجيد؟ لم نتحدث بصراحة، لم نتشارك بأرواحنا... أم إنه أراد فقط أن يصحح خطأ غيابه بالأمس؟ لكن ما هي الكلمات؟ لو أنه كان يرغب حقًا أن نجلس بطريقة ودية، لما رفض المطعم. ثم سارعا إلى الهروب، إنه لأمر مثير! وبعد كل هذا يقول: "جلسنا جيدًا ! عظيم!" "لا أفهم!"

للوهلة الأولى، كما لو كان كل شيء كما ينبغي أن يكون، مزحنا، ضحكنا، وعندما شربنا نصف كأس أصبح الحديث أكثر حيوية، لكن من الذي تحدث؟ الضيفان وحدهما مدحًا في الغالب في نقانق القرية، "أوه، كم هي لذيذة هذه النقانق البيتية! ما أروع رائحتها! لا، أهل المدينة لا يجيدون تدخين اللحم هكذا!"، ثم تحدثا عن الكافيار الأسود الذي لايبادلونه إلا بالذهب، "أنت ذكي! يبدو أن لديك علاقات قوية مع المسئولين المحليين –قال بييسيك – "إنه يكلف خمسين للكيلوجرام الواحد، ولا يمكنك الحصول عليها في أي متجر"، أضافت كولياشا، أقر كلاهما بأن لدى مسئولي القرية أيادٍ طويلة، ويمكنهم الحصول على أي شيء مفقود. وهكذا... كان نور الخان صامتًا، ولم يرغب في أن يأكل، وبعد ذلك هاجمه الزوج وزوجته: "لقد أشدت للتو بهداياك، ولكنك أنت لا تلمس أي شيء، هيا، كُل!" ثم دوت ضحكة ودية.

كان يأمل أن يتوقف تبادل التذاكي والانتقادات اللاذعة، وأن يتحدثوا بجدية، من القلب إلى القلب. ولكن بالتدريج التهمت الوجبات الخفيفة بشكل تدريجي، وشُرب الكونياك، وتراجع الصخب، على الطاولة، ولم تُنطَق عن الشباب أية كلمة. عند الوداع دعاه الزوجان لزيارتهما، ومع ذلك، كاد يجري حديثًا مع بييسيك، "يا إلهي، كيف نسيت!" وبدأ الحديث، وعلى الفور خمد...

استرجع نور الخان الكلام كلمة كلمة، وهذا المشهد غير السار.

... أراد بييسيك أن يدخن... وعندما أعاقه نور الخان، خرج إلى الشرفة، بقي نور الخان على انفراد مع كولياشا التي كانت تنظر إلى زوجها كل دقيقة، وتهمس:

بالمناسبة، من جاء إليك بالأمس؟ هل جاء يرغازي وكانات؟

أنتما لم تأتيا... لماذا تسألين الآن عن ذلك؟ -أجابها نور الخان بنبرة...

بالطبع لم يكن ينبغي عليه أن يتحدث هكذا، لكن الكلمات قفزت من لسانه بشكل غير إرادي، أراد أن يهدئ من حدته، ابتسم وفكر، على الفور: "عليك أن تكون مغفَّلًا :في البداية تنطق الحقيقة، وبعدها بشكل مزيف تمد فمك إلى أذنيك"، الحمد لله، زميلة الدراسة السابقة، على ما يبدو، لم تفهم أي شيء.

لا تلمه! - أدارت رأسها في اتجاه زوجها-كانت هناك أسباب وجيهة لذلك، يا نوراش-خفضت كولياشا صوتها إلى الحد الأقصى، ونظرت خلسة إلى الشرفة. - عندما يلتقون، لا يمر الأمر بدون ضجيج، يتجادلون، ويتشاتمون، أنت تعرف كيف يغضب الرجال عندما يشربون، خاصة هذا الكانات... يدخل في حالة من الغضب، لا ينظر إلى أي شيء، لا يحسب حساب شيء، ويقول إنه صاحٍ، وإنه يخجل من نفسه، لا براعة ولا حذر! أيعقل بعد ذلك أن تحافظ على علاقات طبيعية؟ لم تتبق سعادةٌ من مثل هذه اللقاءات...

كما يقول المثل، الخيَّال يعرف أفضل من أي شخص آخر أهواء حصانه، -لقد فهم نور الخان شخصية كانات بدقة، ولكن مع كل مزاجه السريع، لم يكن هذا الصديق يستحق مثل هذا الانتقاد.

لم ألحظ شيئًا كهذا فيه"، -قال لكولياشا مع ابتسامة، شعر بعدم الرضى في نفسه، ورغب في أن يضحك ليغيظ محاورته مباشرة. - لأول مرة أسمع.

فليذهب! - صاحت كولياشا- وليفهم هو بنفسه، كما يقولون، الجيد لنفسك، والسيئ لنفسك... هذا ليس كل شيء! ومع يرغازي وزوجته العلاقات ليست على ما يرام.

وماذا حدث؟ إنه صهرك، وعديل بييسيك.

يا لك من مجنون! تخبره بأكثر الأشياء حميمية، وهو... -أطلقت كولياشا زفرة، وسكتت.

حسنًا، حسنًا، تحدثي، -قال نور الخان بلطف.

أين توقفت؟ نعم! في العام الماضي جاء أحد أقارب يرغازي للالتحاق بالمعهد. أوكلنا هذا الشاب إلى صديق مقرب لبييسيك، كما تعلم، لا شيء في الوقت الحاضر يتم مجانًا، وكما يقال: "الملعقة الجافة تجرح فمك"، حسنًا، اقترحنا أن يشكروا ذلك المدرس ولو بشيء ما، هاجمنا يرغازي... بالطبع لدى بييسيك الإمكانية للدفع ببضعة من المتقدمين إلى المعهد، الحمد لله، لدينا علاقاتنا. لكن هذا اليرغازي جيد: هل نحن ملزمون بالإنفاق عنهم؟! كما يقولون، لدى الأحمق ادعاءاته الخاصة، فقط أوجعوا رءوسنا، لم يعطوا أي شيء، وهذا الصبي رسب في الامتحانات، وحتى الآن لا يمكنهم أن يغفروا، ولا يتحدثون معنا بشكل طبيعي. وما علاقتنا نحن؟ أناس مثيرون!

هممم... نعم؟!

وهكذا... باختصار، توقفت صداقتنا. وهكذا نعيش، لا ننحني أولًا ؟ لا مشكلة في يرغازي، لكن... زوجته! فقط لو تتخيل كيف غضبت-ليسلها أي علاقات معنا. قل لي، كيف يمكننا بعد ذلك أن نجلس على نفس الطاولة مع هؤلاء الناس الجاحدين؟

ياله من وضع لديكم هنا.... -نورخان الآن فقط أدرك أن كولياشا تتحدث عن شقيقتها. وأخيرًا أصبح واضحًا له لماذا لم يأتِ أحد إليه إلا كانات. نظر مباشرة إلى عيني جليسته - وأنتِ، أحسنتِ! أصبحت زوجة حقيقية! -كان ميالًا لأن يقول لها بلغة صريحة -في رأيي... أنت بالفعل تلبين جميع المتطلبات لكي تسمَّي امرأة!

يا لك من أحمق!

لا، لا، أنا أقول الحقيقة!

هسس! -فجأة وبشكل غير ملحوظ أشارت كولياشا بعينيها إلى جهة الشرفة. تحول نور الخان -دخل بييسيك الغرفة. وهنا انقطع الحديث...

هاك... "يا له من لقاء رائع!"... لقد لاحظ لتوه أنه كان يتجول كشخص مضطرب بالقرب من الفندق، بعد أن نسي كل شيء آخر في الدنيا، نعم، على ما يبدو، ويتأرجح أثناء ذلك.

"هل هذا يعني أنهما يريدان مني أن أكون إلى صفهما، وأن أبتعد عن يرغازي وكانات؟ أو ربما يأملان بمساعدتي لترميم العلاقات مع الأصدقاء؟ -انفجر رأسه من الأفكار. -مهما يتشاجرون، إلا أنه من الصعب الانفصال عن الأصدقاء القدامى، لقد ظهرت، على الأرجح في فترة الانقطاع المؤلمة -وكلهم أرادوا أن يعبروا لي حتى النهاية؟

تنهد نورخان بقوة، وفي قلبه ألمٌ لا يطاق...

"يا إلهي، ما عساي أن أفعل؟ -سأل نفسه بدون أن يشعر بأي مخرج من هذا الطريق المسدود، فبالأمس، عندما أخبرني كانات عن ذلك، كنت مترويًا وحكيمًا، والآن؟ لا، لا ينبغي التصرف بهذه الطريقة، لا ينبغي! غدا سأذهب إليهم وأعبّر لهم عن كل شيء وجهًا لوجه، لن أذهب إلى واحدٍ - بل إلى الجميع! يجب أن أقول، وغير ذلك مستحيل..."

لم يتمكن نور الخان لا في اليوم التالي ولا في وقت لاحق من إنجاز ما كان يدور في خلده.

ذهب أولًا إلى بييسيك وكان متحمسًا حقًا وهو يفكر في كلماته. يمكنك أن تقول كل شيء له بلوم خفيف، أو ربما مجرد تلميح بطريقة ودية - سيفهم!، لكن اتضح أن بييسيك دعا حفنة من الناس إلى منزله. وهل يعقل أن تقول شيئًا بحضور الغرباء! "هذا الجيغيت من الوزارة، وهذا رئيس إدارة التصميم والبناء المجاورة، وهذا من نقابة البناء، ضع في بالك أنهم أفضل وأقرب الأصدقاء لي"، -أوضح وهو يقدم نور الخان إلى الضيوف.

"حسنًا، فكّر نور الخان في نفسه: -أردت أن أشرح شيئًا لبييسيك وكولياشا، واتضح أن لديهما ما يكفي من الرفاق الجدد... "لم يعرف أحدًا من المحيطين ببييسيك. ولم يتمكن حتى من التفكير بالحديث الصريح، فقد اضطر إلى الجلوس بشكل محتشم، على الطاولة، وهكذا غادر المحتشم واللطيف صفر اليدين...

بعد ذلك كان يتأمل في لقاء يرغازى، لكنه تبين أنه كان في رحلة عمل، أمر عاجل في المنطقة المجاورة، لم يلتقيا.

وحده كانات لم يبتعد عن صديقه، فقد كان يتصل في النهار، وفي المساء كان يأتي إلى الغرفة باستمرار، بدا لنور الخان أنه لن يكون مجديًا أن يخبره بشيء، لأن كانات نفسه كشف عن كل الأسرار في اليوم الأول، وهكذا مرت بضعة الأيام هذه في العاصمة، وزادت من ارتباكه الروحي، في كل يوم ازداد قلقه أكثر فأكثر، لكنه كان غير قادر على فعل أي شيء، وفي النهاية كان يتوق إلى شيء واحد فقط -العزلة. وقبل مغادرته، استطاع كانات أن يسحب صديقه إلى منزله، ومن هناك أخذه إلى المطار، تجولا طويلًا في المطار، متطرقين في الحديث إلى موضوعات ثانوية وغير مهمة، متجاوزين عمدًا الشيء الرئيسي الذي يعذب كليهما، كان نور الخان غير سعيد، ولم يستطع أن يسترجع بصوت عالٍ تلك الأيام الجميلة والصعبة للحياة الطلابية التي بقيت بعيدة، لم يرغب في التحدث عنها، كما لو أنه كان خائفًا حقًا من أن يمس الأثر المقدس بكلمة طائشة، في حين لم يحاول كانات معرفة لماذا أصبح صديقه صامتًا بهذا الشكل، ربما أنه شعر بكل شيء، وما الذي يمكن إثارته هنا...

دولات إيسابيكوف

(ولُد عام 1942)



- كاتب نثر ودراما مشهور في كازاخستان، تخرج في كلية فقه اللغة بجامعة الفارابي الوطنية الكازاخية عام 1966، وبين عامي 1966 - 1967 عمل محررًا لبرنامج "شالكر" في راديو كازاخستان، وفي عام 1971 أصبح رئيس قسم بمجلة "جولُديز" ودار نشر "جالين".
- في السنوات اللاحقة شغل العديد من المناصب القيادية، وأصبح رئيسًا لمجلس تحرير بوزارة الثقافة الكازاخية، ثم مديرًا عامًا لاتحاد تليفزيون كازاخستان، ومديرًا لدار نشر "جازوشي" وللمعهد الكازاخي للثقافة والأبحاث، ويعمل اليوم ناشرًا ورئيسًا لتحرير مجلة "الثقافة".
- نشرت أولى قصصه القصيرة عام 1963 بعنوان "في الطريق" ضمن أعمال كتاب القصص القصيرة في كازاخستان، وقد نشرت قصته "شون كولاك" وجلبت له شهرة واسعة.

- في عام 1966 وأثناء دراسته في السنة الأخيرة بالجامعة، صدر له كتاب منفصل يضم بعض القصص القصيرة التي كتبها، ومنذ ذلك التاريخ صدرت له عشرات الكتب في النثر، ومن أشهرها: "المحطة"، "العسل المر"، "جوهر تاس"، "دارمينا"، "في العالم الأبيض"، "المسافر الكئيب"، "لم نشهد الحرب"، ورواية "كارغين" وغيرها من القصص والروايات.
- من أهم أعما له قصة "من البرد القارس إلى النوروز"، "الأثر"، "المواجهة"، "زواج بونابرت"، "النساء الكاهلات"، وقد كتب أكثر من عشرين عملًا في مجال الدراما وتحولت جميعها إلى أعمال مسرحية تم تمثيلها على المسرح الكازاخي، وعرضت أفضلها على المسارح العالمية، ومن بين تلك المسرحيات: "أيام عمل رئيس الجامعة"، "الأخت الكبرى"، "في انتظار الغد"، "الورثة"، "القرية الصغيرة"، "لقاءان في البيت القديم"، "الشبكة"، وحتى يومنا هذا تعرض مسرحيتا "أيام عمل رئيس الجامعة"، و"الشبكة" على المسارح الوطنية.
- صدر له العديد من القصص القصيرة والأعمال باللغات الروسية والألمانية والتشيكية والهنغارية والبلغارية والصينية والتركية.
- حصل على جائزة الدولة من جمهورية كازاخستان عام 1992 وجائزة "تارلان" المستقلة عام 2006.

عتبة الكِبَر

غيوم أكتوبر الثقيلة لفت السماء كلها، كما لو كانت عازمة وبإصرار على أن تغرق الأرض بغضبها الشرس، فتارة تنطلق رقائق الثلوج الضخمة، وتارة يهطل الثلج وفي النهاية انصبت مطرًا، لتتصدع الأراضي الجافة والهشة في الشوارع في لحظة، وتتحول إلى برك وحلٍ يصعب اجتيازها.

بالتحديد في هذا اليوم نظمت أسبوعية كورماش وأيسولو، اللذين لقيا حتفهما في ظروف حزينة.

أهل القرية الذين يؤمنون بالخرافات واعتادوا على تفسير مظاهر أي طقس بعلامات وإشارات جيدة، تهامسوا قائلين: "حتى السماء تنتحب على وفاة الشابين"، و"الشمس تذرف الدموع، حزينةً على مصير الطفل الوحيد الذي تُرك من بعدهما".

الجميع، باستثناء الأقارب المقربين، أفاقوا نوعًا ما من الصدمة، وتراجع ألم الخسارة قليلًا، لكن صرخة تانات الصاخبة في لحظة الوداع الأخيرة، عندما بدأوا في رمي التراب على القبر، أجبرت الجميع على البكاء، وأيقظت داخل كل واحد الذكريات، وفي الوقت نفسه أوضحت كم هو ثمينٌ شعور الصداقة، ولا يقدر بثمن.

أمضى تانات بضعة أيام بالقرب من آوليت. كان لدى المرحوم كورماش شقيقان يعيشان في هذا الحي، والكثير من الأقارب الآخرين في القرية. تانات معهم عانى من جسامة ما حدث، وجنبًا إلى جنب شاركهم في عقد الأسبوعية. بعد المراسم، لم يبق إلا أقارب المتوفى، من بينهم تانات وزوجته.

- شكرًا.

شكر تانات نيابة عن جميع الأقارب تورسين، شقيق كورماش الأكبر.

- لقد قمتم بما لا يقدر عليه الكثير من الأقارب. الآن لا تضيعوا الوقت، لديكم كلكم أعمالٌ. سنخبركم بموعد الأربعينية.

استمر تانات بالجلوس، وكانت تنقصه الشجاعة للتعبير عن فكرة كانت تقلقه، وأخيرًا، في فرصة سانحة، قرر:

- المعذرة، لدي طلب منكم، لهذا السبب ما زلت جالسًا، ولا أغادر.

بدأ.

- تعلمون جميعًا أنني وكورماش، بإذن الله، صديقان منذ طفولتنا. هو وأنا وُلدنا معًا في اليوم نفسه، في الساعة نفسها، في مستشفي الولادة نفسه. معًا نشأنا وتعلمنا، جالسين على المقعد نفسه. وأنهينا دورات السائق معًا. تزوجنا في اليوم نفسه، واحتفلنا بالزفاف معًا. أنتم كلكم تعرفون هذا. وحقًا يقولون إنه إذا كان مكتوبًا أن نولُد معًا، فليس من المحتم أن نكون في الحياة معًا. بالفعل، بعد الزواج بقليل ابتعدنا بعضنا عن بعض قليلًا، ولكننا بقينا قريبين بروحينا. لديّ طفلان، ولُدى كورماش ....

قال، وهو ينظر إلى آوليت الذي كان جالسًا بجواره.

- كان يُنتظر أن يصبح أبًا لطفلين، رحم الله.... أيسولو....

بلع ريقه، اختنق، ولم يستطع نطقها، مسح عينيه بمنديل.

- لا، تانات، كن قويًا.

قال الأقارب كلمات الدعم المعتادة في مثل هذه الحالات.

- رحم الله أيسولو.... ماتت أيسولو وهي حامل.

بصعوبة أنهى كلامه.

- يا إلهي، ماذا يقول! هل كانت كِنتنا حاملًا؟!

صرخت زوجة تورسين مسقطة الكأس وهي تسكب الشاي....

بعد أن علموا بأن الكنة كانت حاملًا، حزن الأقارب أكثر. توروسين الذي ضرب على الوتر الحساس، بعد أن سمع مثل هذا الخبر الصديق المقرب لأخيه، ولكنه مهما كان شخص من قبيلة أخرى، نعم .... قبيلة أخرى، تنهد:

- من مشاغل الحياة أصبحنا لا يهتم بعضنا بشئون بعض. جمعنا الوالدان، إلا أنهما منذ زمن يرقدان تحت الأرض الرطبة. وبعد رحيلهما تشتتنا نحن في اتجاهات مختلفة. اتضح، حقيقة، أننا لم نعرف عن حمل كنتنا. كان هذا بسبب تشتتنا في اتجاهات مختلفة. ربما في يوم من الأيام لن نعرف، من منا أين مدَّ رجليه.

- لدي فكرة، أن آخذ ابن صديقي المقرب وتربيته.

قال تانات.

- بالطبع، لدى آوليت الكثير من الأقارب، لكن إذا ما قمت بإيصال الابن الوحيد لصديقي إلى سن الرشد، أكون قد قمت بواجبي تجاهه.

جلس الأقارب صامتين، خافضي الرءوس. طال الصمت. على الرغم من أنه وراء هذا الاقتراح كان نُبلٌ إنسانيٌ عميق، وشعور مؤثر بمودة صديقٍ حقيقي، والرحمة التي أصبحت بالفعل نادرة وسط الكازاخ، إلا أن كبرياءهم لم يسمح لهم بالموافقة، ورأوا أنه من المهين أن يعطى أحد أفراد الأسرة إلى أيادٍ غريبة، كما لو أنه لا يوجد لديه أحد، في حين أن خلف ظهره كثير من الأقارب.

لم يكن لدى تانات أي مخرج آخر؛ كان بلا حول له ولا قوة. لم يستطع ألا يخيب أمله بهم، وألا يوافقهم،

لذلك اضطر للمغادرة خالي الوفاض.

- ربما كان من الواجب إعطاؤه.

قال أليبيك الأوسط، عندما تلاشت قعقعة محرك السيارة بعيدًا،

- ربما انزعج.

- عمّ تثرثر؟!

صاح أبناء عمومته بسخط

- ماذا، هل أخوك خروف مربوط، لكي تسلمه حتى لا ينزعج شخص ما!

- توقفوا عن ذلك.

بدأ تورسين في تهدئتهم.

- ما السيء في أنه عبّر عن رغبته. لقد اقترح هو، ونحن رفضنا، وبذلك انتهى الحديث عن ذلك.

بالفعل انتهى الحديث عند ذلك، وساد العائلة الهدوء. بقي آوليت وحيدًا بين الكثير من الأقارب، الذين لم يكن مألوفًا لكثير منهم.

بدأت الحياة اليومية المعتادة التي لا تختلف بشيء عن حياة الآخرين. تدريجا، ضعف الحب الذي يكنه الأقارب تجاه ابن الأخ في البداية، والذي كان مغلفًا بالغرور، ولم يسمح لهم بإعطاء آوليت للغرباء، وخفَّ العطف والاهتمام على مرأى من الصبي، وجفّا مثل مياه جداول الري الموسمية. انتقل آوليت للعيش مع تورسين، الأكبر والأكثر قربًا من بين الأقارب، وإليه انتقلت جميع الممتلكات التي بقيت بعد "أبو"يه.

مر نصف عام دون أن يتلفظ تورسين أو آوليت علنًا قط بالشعور الخفي الكامن عميقًا، وكأنه "من الصعب إعطاؤه، إن لم يكن قريبًا". تلك المشاعر انفجرت نهارًا دون أن تلاحَظ، مثل فرخ داخل بيضة، ووصلت ذات مرة إلى وضع لم تستطع فيه أن تبقى داخل القوقعة.

بدلًا من أن يعتاد على هذه العائلة، ويصبح واحدًا من أبناء هذا المنزل، ابتعد آوليت كل يوم أكثر عنهم، وكثيرًا ما فتش عن عذرٍ لعودته إلى المنزل متأخرًا، وعادة ما كان يبرر ذلك بأنه يتأخر في العودة إلى أن يهدأ صخب الأطفال الطائش. أحب قضاء الوقت خارج المنزل، مع فتيان القرية يلعب حتى حلول الظلام، أو يتجول في البستان، ويتمشى على طول ضفة النهر، غارقًا في شتات الأفكار. بعد أن لاحظ تورسين وزوجته وأولاده هذا السلوك، بدأوا بإيلائه اهتمامًا ولطفًا أكثر، إلا أن جهودهم لم تؤثر في آوليت، لكنها، وعلى العكس، أيقظت في روحه الطفولية شعورًا متفاقمًا من حب الذات، وشعورًا بالكبرياء والانزعاج، وبدأت تضغط بقوة مع نموه السريع. الشرخ غير المرئي في العلاقات بين آوليت وأسرة تورسين، اتسع بشكل غير محسوس أيضًا.

ذات مرة، وكعادته، عاد من المدرسة متأخرًا. كانت الأسرة قد تناولت طعام العشاء، وكانت الأطباق مُنظَّفة في المطبخ، وكان الجميع مشغولين بشئونهم. لم يُعِره أحد اهتمامًا. خلع ملابسه، وكان يهيئ الوسادة ليستلقي، ولكن فجأة تخبط كما لو أن أحدًا وخزه بإصبعه. حتى الآن لم ينم على سرير والديه، اللذين نُقلا من منزله. اليوم بدلًا منه كان هناك سرير آخرٌ. فتح آوليت باب الغرفة المقابلة. تبين أن تورسين مع زوجته استبدلا بسريرهما سرير والديه. أطفأ آوليت النور واستلقى. بكى طوال الليل. كان يحلم بأبيه مع أمه، حيث كانا منزعجين، وانتزعا وحملا سريرهما. ومن فرحة آوليت الدموع ملأت عينيه.

"قالوا إنكما متا، كيف أنتما قيد الحياة؟"سأل آوليت، فأجاب الأب مبتسمًا:"لماذا يجب أن نموت؟ كيف يمكننا أن نموت، ونتركك في هذا العالم وحيدًا؟ لقد عدنا من سفرة طويلة. أتذكر عندما كنت على قيد الحياة، كنت أبحث عن أبي الذي كان مفقودًا، إلا أنني لم أصل إلى شيء، وتوقفت. تبين أنه كتب رسالة، يلومنا فيها لأننا لا نبحث عنه، ولم نكن عازمين على البحث، لو أنه لم يعلمنا. أمرنا بالمجيء، سافرنا إليه. وقريبًا سنذهب مرة أخرى". "يا أبتِ، لماذا لا يأتي هو؟" "هو لا يستطيع القدوم. القنبلة التي انفجرت بجواره، سوته مع الأرض، رأسه فقط يتدلى" أجاب الأب. "ألا يمكن أن ننبشه الآن؟" "لا، لا يمكن. تصلبت الأرض، جفت مثل الحجر". "أبي، أمي، كم أنتما ظريفان، فالحجر أيضًا يمكن حفره!" "لا، هذا مستحيل، فالأب نفسه لم يسمح بذلك. عندما سقطت هذه القنبلة، تبدد جسده إلى أجزاء جُمعت بصعوبة. إذا قمنا بإزالة الحجر، فسوف يتبدد جسده مرة أخرى. لذلك لم نلمسه. الآن من الضروري لصقه بشكل صحيح. ما إن بدأنا باللصق، حتى تلقينا منك هذه البرقية". أعطى آوليت قصاصة ورق. قرأ آوليت الكلمات المطبوعة على نموذج بريد عادي:

"لقد أخذوا سريركما. تعالوا بسرعة. آوليت"

"أنا لم أرسل مثل هذه البرقية.

نظر آوليت بذهول إلى أبيه.

– ولكن، في كل الأحوال، أتوسل إليكما، لا ترحلا الآن. حسنًا؟ الآن لن تغادرا إلى أي مكان؟ لماذا أنتِ صامتة يا أمي؟ لماذا لا تضحكين، لماذا لا تقتربين، لا تعانقينني؟ بالمناسبة، لن تغادري أنتِ بعد الآن، أليس كذلك؟" "لا." قالت هي وهي لا تزال كئيبة. "سنرحل. للتو تلقينا برقية من جدك، أي من والد والدك. ها هي!". سلمته قصاصة ورق مماثلة، على نموذج، مطبوعة تمامًا مثل تلك البرقية، كتبت عليها هذه الكلمات: "جسدي يتبدد. عودا بسرعة. الأب." خاف آوليت. "هكذا" قال الأب ولا يزال مبتسمًا كما كان. "لا يوجد مخرج. نحن نغادر. أنت لا تقنط. إذا أخذوا سريرك مرة ثانية، أرسل برقية مرة أخرى". "لا، لا!" صاح.... "لا، لا تغادرا. لن تغادرا إلى أي مكان! أفتقد المنزل القديم، وأريد العودة إلى منزلي. لن أدعكما تذهبان، لن أدعكما تذهبان!"...

استيقظ وهو يلهث. بقي مستلقيًا طويلًا، ينظر في السقف الرمادي، لقد كان مجرد حلم.

عانده النوم. في الآونة الأخيرة، أصبح من المعتاد أن يستيقظ في منتصف الليل، أو قبل الفجر. مهما حاول

أن يغفو من جديد، أغلق عينيه واستلقى طويلًا بلا حراك، ولكن في كل الأحوال لم ينم.

في الرابعة من عمره، ووالده لايزال حيًا، كان يقفز إلى سريره ويطلب منه أن يروي له حكاية. يروي الأب حكاية، وثانية، وثالثة، إلا أن ذلك لم يكن كافيًا بالنسبة له. وحين تنتهي الحكايات لدى الأب، يقول لصغيره: هذا كل شيء، نم. تحت تأثير تلك الحكايات، ليس فقط لم ينم، بل على العكس من ذلك، وقد غمرته البهجة، يبدأ، كما في الحكاية، بالتجوال إلى مملكة الجريمة، فيقول الأب: "يا آوليت، نم، يتعين عليَّ في الصباح المبكر أن أذهب إلى العمل". يصيح آوليت: "لا أستطيع النوم". نصح الأب: "إذن، عدّ حتى المائة". بدأ بالعد. في البداية، عدّ بصوت عالٍ. "آوليت، عدّ في نفسك من فضلك" طلبت الأم المستلقية بالقرب على السرير، تارة ضاحكة، وتارة غاضبة. بدأ يعدّ في نفسه. مائة، مائتان، ثلاثمائة.... "بابا لقد قمت بالعد حتى المائة خمس مرات"، قال وهو يوقظ الأب الذي كان يشخر. "أنت، لا تقل أرقامًا فقط، بل ألف إوزة ضعها في الحظيرة، واسمح لها واحدة واحدة بالخروج وعدّها. انتبه، لا تخطئ." قال دون أن يغضب أو ينزعج. أما آوليت فقد بدأ بحماسٍ وخيالٍ يمارس التسلية الجديدة. في مخيلته رعى الأوز، وإطلاقها الواحدة تلو الأخرى، وبدأ يعدها. وبالفعل، إن إطلاقها الواحدة تلو الأخرى وعدّها هو أكثر متعة من تسمية الأرقام مجردة. حاول جهده ألا يخطىء. عدَّ بعناية الأوزات الصائحة، المتمايلة بلطف عند خروجها من باب الحظيرة. صغير، لكنه لم يلاحظ أنه فجأة يخطئ في العد، كرر الرقم الواحد مرتين أو ثلاث مرات. بدأ يعد من جديد. بعد الرقم عشرين، ثلاثين، شعر بأن مخيلته أصبحت من جديد ضبابية. وما إن بالكاد وصل إلى مائتين، ثلاثمائة، حتى غفا منهكًا.

في تلك المرة، لم تستطع الطريقة الممتعة شَغل آوليت. عدَّ بسهولة خمسمائة وستمائة إوزة. بدأ ضوء الفجر. خرج إلى الهواء. بعد أن التقطت عشر دجاجات الفضلات أمام المنزل، ابتعدت بخمول عن الحظيرة. كانت ليلة أكتوبر، على ما يبدو، باردة قليلًا، غطى جليد رقيق المياه التي صبت بالأمس في الحفر الصغيرة المجوفة في الفناء. اقترب آوليت من القوس أمام المنزل، وبعد أن أبعد الشجيرات الكثيفة للنعناع الصغير والبراعم الفتية للقصب، وضع يديه في الماء.

كانت المياه صافية تمامًا وباردة جدًا. تدفقت بهدوء وصمت بعد أن تخلصت من ضغط لهب الصيف. بالقرب منها على أطراف الطريق المهشم، حيث تسير العربة، ظهرت لوحة جليد لامعة.

غسل آوليت وجهه بعد أن ملأ كفيه بالماء البارد. غسل فمه فشعر برائحة النعناع العطرة. كرر ذلك عدة مرات. تجمدت أصابعه، لم يطعها. قوّم ظهره وجلس القرفصاء. عندها فقط شعر بالبرد، وأن ضوءًا ساطعًا خرج من المنزل. شعر بنفسٍ ما خلف ظهره، استدار. كان ذلك آكتوس. الكلب أيضًا جاء معه وبقي معه لدى تورسين. كما لو أنه كان يرغب في أن يفهم لماذا صاحبه السابق جاء إلى القوس في وقت مبكر للغاية، ويغتسل. الآن يقف وراءه، ويتمطى. احتضنه آوليت من عنقه، ومسد على جبينه، وعلى وجهه البارد. لم يمانع الكلب أيضًا. قرّب وجهه من صدغيه ووقف يرمش صامتًا. ثم لعق بلسانه الطويل، واستدار بعيدًا بهيئة مستاءة. تبين

أنه اغتنم هذه الفرصة، وعبّر علنًا عن موقفه من وضعهما الحالي، ممكنًا صاحبه من فهم أنه لا يعجبه أنه لا يستوعب لماذا تخليا عن مسكنهما القديم، ولماذا هجرا عشهما الدافئ، ولماذا هما موجودان عند عتبة غريبة، وأين اختفي صاحباه الكبيران.

الكلب مسكين، من أين له أن يعرف أنه بعد بضعة أيام سيُحرم من هذا أيضًا، وأن المخلوق القريب الوحيد إليه سوف يذهب إلى المدينة؛ إلى المدرسة الداخلية.

حتى لا يفسر الأقارب الأمر بشكل خاطئ، تشاور تورسين معهم قليلًا، وسلَّم ابن أخيه إلى مدرسة داخلية في المدينة.

لدى آوليت بدأت حياة جديدة وغامضة تمامًا. في الفترة الأولى زاره أقاربه الواحد تلو الآخر. ولكن كل هذا كان فقط في الفترة الأولى. وتدريجًا أصبحت زياراتهم نادرة، وفي النهاية لم يعد يأتي أحدٌ. مثل دفء يوم شتوي، بدأ بالتدريج يضعف الاهتمام واللطف من الأقارب المشغولين بشئونهم واللاهثين خلف مصالحهم.

كل حياته السابقة ظلت حبيسة الماضي. في كثير من الأحيان بدأ آوليت في التفكير في الأقارب. في حين أن شخصًا واحدًا في العالم، تانات صديق أبيه، لم ينسه، ولم يتركه يشعر بمرارة الوحدة واليتم.

انتظر آوليت بفارغ الصبر أن تنتهي سريعًا العطلات؛ فترة الوحدة الأكثر إيلامًا. بدا أنه لن يكون هناك نهاية، ولا حد، ولن تنتهي أبدًا. شعر بنفسه وكأنه في سجن، لكن الإنسان خلق ليعتاد على كل شيء، ويذعن. من بين الأمور الأخرى، استوعب آوليت هذا الواقع أيضًا، وخلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع بدأ يعتاد. على العكس، بدأ تجنب المجتمع، ورغب في الهدوء والعزلة. أخذ من المكتبة حقيبة مليئة بالكتب، وشرع يقرؤها الواحد تلو الآخر. ولشغفه بالقراءة، كان في بعض الأحيان يتأخر على الغداء.

ومن صفحات الكتب التي أثارته كان ينسج أحيانًا بساط ريح، يمتطيه في مخيلته إلى بقاعٍ بعيدة، تذكر أمه، وتخيل ابتسامة أبيه وأسنانه الكبيرة التي كانت تظهر حين تنطلق ضحكاته، ورأى سيارته العالية كجبل. برزت صور الحياة المبهمة والقاتمة والكئيبة بعد رحيل والديه، ثم تذكر العينين الحزينتين للكلب اليتيم، وفكر في حياته غير السعيدة.

دون أن يقلب الصفحة التالية من الكتاب، بقي مستلقيًا على هذه الحالة طويلًا، دون أن يشعر كم من

الوقت مضى.

التفكير الطويل الذي لا ينتهي، مثل حبلٍ ملفوف، في لحظة ما ظهر بشكل حاد، وفي تلك اللحظة ظهرت في رحابات المخيلة صورة جديدة، واقتحمتها نفحة مختلفة تمامًا. في المخيلة ظهر خيال لفتاة ساحرة غير معروفة، تشبه النهار الربيعي المشمس الذي ينشر السعادة في كل مكان. من غير المعروف لماذا هي تجري تحت الشمس الزرقاء في السهوب القرمزية، بفعل أزهار الخشخاش والخزامى المتفتحة. ربطة شعرها البيضاء الطويلة تسبح فوق المرج الأخضر، كأنها فراشة تطير. يحب آوليت أن يقبع في الأسر الحلو للحلم الرائع بهذه الفتاة. تحت تأثير التفكير الساحر، تمتع بشعور مبهج لا يوصف، فيغلق عينيه مبتسمًا.

تمنى لو أن هذا الحلم الحلو لا ينتهكه طارئ ما. أحيانًا تتحقق الأمنية، وما دام الضباب يغلف الحلم، لن يعيقه أحدٌ.

لكن في بعض الأحيان، يجفل فجأة، ويستعيد وعيه ويبدأ بلف خيط الخيال الذي امتد بعيدًا جدًا. لماذا هذه الفتاة هنا؟ ومن هي؟ وهو بالفعل تخيل كيف يجريان يدًا بيد على المرج الأخضر. أحيانًا يريد أن يتوقف وينظر إلى ربطات شعرها، كالفراشات البيض كالثلج. أحيانا يريد أن يخبرها بصراحة كم هي جميلة. تخيَّل أن العينين الواسعتين الجميلتين لهذه الفتاة، اللتين تنظران إلى العالم بدهشة، وصداقتها النقية الحقيقية، وضحكتها البريئة تشع بشعور رقيق وقرب استثنائيين.

لم يعد آوليت يأمل بوعد تانات أن يأتي ويأخذه إليه في العطلة الشتوية، فقد وعد بأن يأتي في المساء، وهذا يعني أن شيئًا ما حدث. بل إن بعض الشبان الذين كان يراهم أحيانًا في الفناء، لم يعد يشاهدهم. ربما هم، مثل آوليت، جلسوا في السجن وحيدين: إذا تأخر الأقارب؛ اختفوا وحاولوا عدم الظهور.

جاء المربي مرتين، مع الاهتمام ذاته، والابتسامة نفسها على وجهه، كما في العام الماضي. قال إنه سيصحبنا غدًا للتزحلق على الجليد في الملعب.

شعر آوليت بالضيق؛ أراد أن يقفز من مكانه ويهرب إلى الشارع. بعد نصف ساعة خرج من البوابة، وجلس على مقعد خشبي صغير تحت لافتة "المدرسة الداخلية رقم 4". كان الوقت يقترب من الظهر. برد الصباح مازال صامدًا. ربما لأنه كان يجلس في الجانب الظليل، بدأت الرعشة تتسلل إليه.

بعد فترة من الوقت توقفت "جيغولي" حمراء أمام البوابة، وخرج منها رجل ضخمٌ طويل القامة ذو شاربين، وهو يرتدي معطفًا جديدًا من جلد الغنم. اقترب منه، وهو يجلس بمفرده على المقعد، وسأله متعاطفًا:

- تنتظر أباك؟

من غير المعروف لماذا سأل، وهو يحرك ذقنه بعد أن نظر إليه بمكرٍ.

- نعم.

أجاب آوليت على مضض على سؤاله الذي لم يعجبه.

في هذه الأثناء هرع صبي يدرس في صف أعلى من آوليت، وألقى بنفسه على عنق الرجل الطويل القامة.

- بابا، لماذا تأخرت؟ عطلتنا بدأت منذ يومين.

ابتسم، وفي الوقت نفسه كاد أن يبكي.

ربت الرجل الطويل القامة على ظهر ابنه، وشمَّ جبهته.

- تأخرت لأنني أحضرت جدتك وجدك، هما في انتظارك في المنزل.

أجاب، ثم أضاف مبررًا:

- اشتريت لك دراجة جديدة. وكذلك (حبس نفسه رافعًا إصبعه إلى الأعلى، كما لو أنه يرغب في قول سر ما) وحتى تتمكن من التحقق من سير الدراجة، نظف البلدوزر الثلوج أمام الباب، بطول ثلاثمائة متر وبعرض خمسين!

- وافرحتاه! أحسنت يا أبي!

تعانق الأب والابن، ناثرين في المكان ضحكهما. لم يلحظا مغادرة آوليت إلا في وقت متأخر.

ربما والده أيضًا لم يجد الوقت للقدوم بسبب العمل. قال الرجل مجيبًا على سؤاله الخاص.

صمت الصبي، وكان يعرف وضع آوليت.

- حسنًا، هيا، استعد.

أمر الأب ابنه.

- أنا مستعد، أنا مستعد منذ يومين.

قال الصبي وركض نحو الخزانة.

" يجب أن أغادر." فكَّر آوليت، بعد أن استقر في مكانه المعتاد عند النافذة. "يجب أن أغادر"، "إلى أين؟" اعترض صوته الداخلي. "إلى أي مكان" أجاب معترضًا تفكيره الجامح. "إلى حيث تنظر العيون. بشكل عام، من الضروري أن أغادر من هنا، حتى لا أرى شفقة المربي".

تخيَّل الزهور الحمراء النضرة دومًا على تقاطع الشارع أمام القرية، وبالقرب من الجسر من الأعلى. هناك قبر والديه.

"يجب أن أغادر".

ما أن نهض من مكانه، حتى فُتِح الباب وأطل رأس ذلك الصبي.

- إن كنت تريد الذهاب .... لتذهب معنا.

قال على استحياء، في محاولة عدم الإساءة، وعدم إيذاء مشاعر آوليت.

- سنتزلج على المزلجة، ونشاهد قتال الكلاب.

- لا، عمي يجب أن يأتي.

بعد الذي قاله بثقة عن أن عمه يجب أن يأتي، اشتعل الفرح بوجه الصبي.

- إذن، كن بصحة جيدة! إلى اللقاء!

قال مبتهجًا وأغلق الباب بصخب.

من جديد غطى الغرفة الصمت. عبر النافذة رأى آوليت المربي منصوروف، والرجل الذي يرتدي المعطف يتحدثان. بقي طويلًا عند النافذة، ها هما يقولان بعضهما لبعض وداعًا. توجه المربي إلى المكتب، ومن هناك خرج البواب، وبدأ على الفور بقذف الثلج. ما لم ينظف كل شيء في جميع أنحاء المدرسة، لن يستريح، ولن يرفع رأسه. هذه العادة تمنح آوليت فرصة مريحة للخروج من البوابة، والمغادرة بدون أن يلاحظه أحد.

لم يلحظ البواب آوليت الذي عبر على بعد أربع أو خمس خطوات بمحاذاته.

تتوجه الحافلة من المدينة إلى القرية مرتين في اليوم. نجح آوليت في الوصول إلى الحافلة الأولى، وفي الرحلة القادمة سوف يعود. يمكن الكذب على المربي، بادعاء أنه كان يتنزه في المدينة.

عندما وصل إلى محطة الحافلات، كانت الحافلة المطلوبة على وشك أن تغادر. جلس آوليت في الزاوية بالمقعد الأخير، ونظر من النافذة.

مع كل عطلة، ومع كل عيد زادت قناعته في أنه يتيم. إذا ما أصابه سوء، أو حتى إذا مات، لن يحميه أحدٌ. واقتنع أن اهتمام المربين والمعلمين ليس انبثاق مشاعر حب على الإطلاق، وإنما عناية يولونها الجميع بدرجة متساوية، طبقًا لمهام وظيفتهم. وإذا كانوا هم يفكرون فيه، وفي وضعه، فإن ذلك ليس نابعا من رأفةٍ ما، وإنما هو من الشعور بالمسئولية. وإذا ما علموا بأنهم ليسوا مسئولين عنه، فإنه مهما حدث له، وأيًا كانت المصيبة التي ستحل به، فإن ذلك لن يقلق أحدًا، ولا يكترث به أحدٌ إن كان حيًا أم لا. من غير المعروف لماذا تغيرت شخصيته في الأيام القليلة الماضية، وأصبح لا يعجبه أحدٌ، حتى إنه كفَّ عن تصديق أي شخص. ربما لأن شعورًا ما ثقيلا حلَّ تدريجيًا، مثل الهواء الخريفي الكئيب، محل ما يتميز به من ابتهاجٍ ومرحٍ وضحكٍ بريءٍ ودودٍ، ربما لأنه في الآونة الأخيرة فضَّل على التواصل السابق مع الناس، العزلة والنزهات منفردًا، وبعد أن يعود متعبًا، يستلقى ذابلًا في فراشه.

خلال هذين العامين اللذين أمضاهما في المدرسة الداخلية، لم يتمكن فقط من تعرُّف معلمي المدرسة وأطفال السكن الداخلي، وتكوين صداقات مع بعضهم، بل أصبحوا أعداء أيضًا. خلال هذين العامين تم تقدير قدرته على التعلم، وذكائه، وطاقته، وانضباطه. في تلك اللحظات كان مرحًا بشكل خاص، وكان فرحًا بشكل خاص. بعناية وبحماس استمع إلى القصص من المعلمين عن الصدق والنبل والحكمة والرصانة، وآمن

بكل ما قيل، لكن وبشكل غير متوقع اختفي كل إيمانه.

أحقًا كان ذلك غير متوقع؟

ألم يبدأ ذلك من منزل الأقارب؛ من الفراش الغريب بالنسبة له؟ كيف يمكن أن ينسى أن الأقارب بصخبٍ تقاسموا فيما بينهم جميع الممتلكات التي بقيت بعد رحيل "أبو"يه، ولم يعُدّوا وريثه الوحيد إنسانًا. حتى الكلب، الذي جاء معه، شعر أيضًا باليتم، وأكل ما تبقى بعد كلب العم تورسين.

بقي قبرا والديه أيضًا دون اهتمام. على التل ظلا أكمتين غير واضحتين وسط الكثير من القبور الأخرى. بين الأكمتين نصبت لافتة معدنية مشتركة، على منتصف عمودين، وثُبّتت قطعة من الصفيح عليها هلالٌ فقد مظهره الأصلي، وتحول إلى علامةٍ مبهمة.

للمرة الأولى زار آوليت قبري والديه عندما كان يدرس في الصف الثاني. في تلك الفترة كان يسافر إلى الأقارب في كل عطلة. في كل مرة كان أكتوس يجرى لملاقاته بمجرد أن يصل إليه النداء.

لم يكن لسعادته حدود. لم يكن قادرًا على التعبير عن شوقه المتراكم بداخله إلا في هز ذيله بابتهاج، على غير العادة، حيث يلوح أكتوس بذيله، إما التزامًا بالحشمة، وإما للإكراه أو الضيق، وهرع على الفور إلى أحضانه، ليشق الاثنان طريقهما نحو المنزل، فإن ركض بعيدا بعض الشيء، سرعان ما يهرع عائدًا إليه . ومن جديد يرمى بنفسه في أحضانه. وهو يمسد جبهته، ومؤخرة رأسه. وكما في السابق لم تظهر عليه "علامة" قط. حتى في أشد حرارة الصيف لم يسخن أنفه.

إلى حين مغادرته للدراسة، لا يبتعد عنه أكتوس ولو لخطوة، وفي اللحظات الأخيرة، يرافقه أكتوس حتى الحافلة، غير مصدقٍ أن صاحبه يغادر، حتى حين تغلق الحافلة ذات الجانبين المزركشين "أبو"ابها. مندفعة من المكان، مثبتةً أن السعادة خادعة، وجوهر الحياة القسوة. أكتوس الذي لا يستوعب مثل هذا التصرف الغريب لمالكه، يبقي وحيدًا جالسا على قائمتيه الخلفيتين وسط الغرباء المنتظرين الحافلة القادمة.

فقط عندما كبر آوليت، فهم معنى المثل الكازاخي "يعذب الله الكلب بصاحبه".

من علو الطير يبدو مركز المدينة عند سفح الجبل أنيقًا، ويقع في مربعٍ صحيح. الطبقة السميكة من ثلوج هذا الشتاء، غطت كليًا شوارع القرية ومنازلها، مسويةً إياها مع السهل الأبيض. فقط من خلال الدخان المتصاعد بشكل دائري من الأنابيب البارزة، يمكن للمرء أن يفهم أن أناسًا يعيشون في الأسفل. يمر الشارع الرئيسي للقرية بين البيوت الناصعة البياض كالسكر، والمبنية وفق الطرازات الحديثة. عجلات السيارات الكثيرة التي تنتقل إلى هناك، هناك، داست الثلوج، وصبغتها بلونٍ داكنٍ.

على الجانب الشرقي من الشارع، أمام باب بيتٍ من طابق واحدٍ، تقف شاحنة مع محرك يدور. من الأنبوب يندفع الدخان. الدخان الذي لا يُلاحظ في الأوقات العادية، يرتفع عمودًا، كما لو أن مرجلًا انفجر. في المنزل رجل أربعيني تقريبًا، يحلق أمام المرآة. إنه تانات صديق الطفولة لوالد آوليت. إنه يرتب نفسه لأنه ذاهب إلى المدينة. بالأمس كان عليه أن يذهب ويأخذ آوليت، إلا أنه لم يتمكن من الإفلات من العمل. من خلال باب

المطبخ المفتوح، يظهر جسم زوجته الغاضبة من شيء ما ويشاهد خيالها في المرآة، حيث توبخ زوجها:

- ليس لديك الوقت لتأخذ أطفالك إلى جدتهم. هل سيجلسون طوال العطلة في البيت؟

قالت متذمرة وهي تهز الأطباق.

- لقد قلت إني سآخذهم. لماذا تكررين بلا نهاية؟

أجاب بهدوء.

- متى ستأخذهم؟

- غدًا. أو بعد غد.

ازداد غضب الزوجة:

- إذن، أنا سآخذهم بالحافلة بنفسي! لا يمكنك أن تعيش إن لم تر هذا الصبي. لديه طفلان، لكنه لا يزال ينجذب إلى طفل غريب!

- أي غريب هو؟

التفت تانات بحدّة، ونظر في وجهها. على الرغم من أن الزوجة لاحظت الغضب المندلع من عينيه، إلا أنها لم تتراجع.

- نعم، ابن صديق!

قالت بسخرية وهي تضع مقلاة الفطائر على الطاولة.

- ربما هو.... ابنك!

رمقها تانات بنظرة طويلة غاضبة. صمتت الزوجة بعد أن شعرت في نفسها بأنها قالت شيئًا زائدًا.

عندما انتزع المعطف القصير من المشجب، واتجه نحو الباب، من المطبخ جاء صوت زوجته ينضح بالشعور بالذنب:

- ألن تأكل؟

بدلًا من الإجابة،جذب الباب بقوة.

توقفت شاحنة تانات أمام المدرسة الداخلية الواقعة في مركز الإقليم. عندما خطا على عجل، إلى داخل المدرسة، كان في استقباله المربي منصوروف الذي يرتدي نظارة. المربي الذي أخافة اختفاء آوليت، عندما رأى تانات، ذهب للقائه. انطلاقًا من حقيقة أنهما عندما يلتقيان، يتبادلان الابتسامات بحرارة، فقد تعارفا منذ وقت طويل.

- هل آوليت هنا؟

سأل تانات بعد أن لاحظ حالة الذعر في عيني المربي.

- كنت آمل أنك تعرف شيئًا!

رد منصوروف متنهدًا.

– في الصباح كان هنا. ليس في غرفته. ما العمل؟

– أنا المذنب في كل شيء.

قال تانات بعد توقف قصير.

– أعطيته كلمة. كان يجب أن آتي بالأمس. ربما ذهب إلى القرية إلى أقاربه.

– لا. هو لا يذهب إليهم.

أجاب المربي وهو يهز رأسه.

– حتى الآن لم يأت أحد من أقاربه؛ هل الناس أصبحوا مجردين من الإحساس، غير مبالين تجاه أقربائهم. في وقت آخر، لا مشكلة، ولكن في العطلة الأمر صعب. في معظم الحالات يبقى وحيدًا في البيت الداخلي. لولاك، لكان الطفل المسكين .... إنه يشعر برقةٍ بكل شيء. المهم ألا يكون قد ارتطم بشيء. فالطقس صقيع قاسٍ. كنا سنذهب غدًا مع أطفال من المدرسة الداخلية في رحلة. وفجأة هو غير موجود.

جاء البواب، يخاطبه المربي:

– ماذا حدث، يا شيخ؟ هل تريد أن تقول شيئا؟

– أجل، سأقول. نظفت المرحاض الجديد وعثرت على أربعة أعقاب سجائر. ها هي! ما هذا العار؟

– كان من الواجب أن تفتش أكثر؛ ربما تعثر على المزيد.

– لا تضحك. هذا يعني أن الأولاد يدخنون. يجب أن يُربوا بشكل صحيح.

– إلى المرحاض يدخل أناس مختلفون. بالإضافة إلى ذلك، نحن لا نقوم بالعمل التربوي في المرحاض. إذا رأيت تلميذًا يدخن، أحضره إلي.

أغلق المربي الباب خلف تانات الذي تبعه.

يقف آوليت أمام القبر. ينظر بصمت إلى النقش على اللوحة، على القبرين المتجاورين. "الذاكرة الأبدية للبطلين اللذين ضحيا بحياتهما في سبيل إنقاذ الأطفال من الحريق".

هذه القرية هي قرية آوليت الأم. ولُد "أبو"اه هنا، توفيا هنا. جميع أقارب الأب يعيشون هنا أيضًا.

في لحظات الشعور الحاد بالوحدة، كان لدى آوليت عادة القدوم إلى قبر والديه. في عينيه ووجهه لا يوجد حزن ولا كآبة، بل على العكس هناك شرارة تفكير جدي. هناك تماسك صبي ناضجٍ. ربما هو الآن فقط يدرك أن والديه عاشا حياة مختلفة عن حياة الأغلبية، عاشا من أجل الناس.

مسح بكمه صورتي "أبو"يه المغطاتين بالثلج، وتراجع خطوة، ونظر إليهما مبتسمًا قليلًا. "لا تقلقا، فأنا في كل

الأحوال جيغيت." قال، مطمئنًا "أبو"يه، ثم ازدادت ابتسامته جلاءً، وهو يلوح بيديه، مستديرًا ليخطو نحو محطة الحافلات.

يبدو أن العاصفة الثلجية التي بدأت مؤخرًا، اشتدت. كانت الحافلة المألوفة التي جاء بها، تقف بالفعل في محطة الحافلات. كان الناس محملين بحقائب سفر وأكياس، لكن بعضهم كانوا يحملون في أيديهم أشجار عيد الميلاد في انتظار العام الجديد.

عندما جلس آوليت في الحافلة، وضع شخص ما يده على كتفه. التفت بسرعة. اتضح أنه كان أحد الأقرباء الذين يعيشون هنا.

– آوليت، أهذا أنت؟ سأل الرجل متوسط القامة الذي يتزين وجهه بشارب أسود جميل، وتتدلى حقيبة من يده، وغمر آوليت بابتسامته.

– إما أن تجلس، وإما أن تنزل! لا تسد الطريق.

دوت أصوات من الحشد في استياء.

كان قريب الأب مخمورًا بعض الشيء. سحب الصبي من كتفه، وأنزله من الحافلة، وقبَّله على جبهته.

– لماذا تتجول أثناء العاصفة الثلجية؟ ولماذا تغادر دون أن تذهب إلى المنزل؟

قال القريب وهو يهتز:

– لماذا أنت غاضب؟ ألم تعرفني؟ أنا شقيق والدك.

– أعلم، مرحبًا.

من تجهم الصبي ونبرته الباردة، ارتبك تورسين.

– هيا، لنذهب إلى المنزل. لقد فرحت حقًا لأنك جئت لزيارة عمك.شباب اليوم يكبرون قساة.

لم يرغب الصبي في الذهاب معه، لكن تورسين جذبه من يده، وقاده. طوال الطريق ثرثر، دون أن يغلق فمه.

– عذرني، لأننا لم نستطع المجيء إليك. دائمًا عملٌ، عملٌ. لا تنتهي المشاغل. لا تغضب. أنت أصبحت كبيرًا، أنت نفسك لا تفكر في المجيء والبحث عنا. كيف هي دراستك؟

– ليست سيئة.

– أولادنا أيضًا أنهوا الفصل بشكل جيد. اليوم أردنا القيام بختان الأصغر. أمس ذبحنا مهرًا. ستكون هناك وليمة. حسنًا أنك أتيت. سيجتمع جميع الأقارب.

صرخ على شخص يسير أمامهما.

– إيه، أوتاش! قف! لقد جاء آوليت إلينا.

التفت الرجل إليهما وتوقف.

– من؟

سأل بصوت عال.

- آوليت أقول. ابن كورماش!

- آآآه! سيرا بسرعة، أنا تجمدت!

- هو أيضًا من أقربائك القريبين.

قال تورسين لآوليت.

-كان آباؤنا إخوة. يعمل في مزرعة طيور. قريبك هذا عمليّ، إنه مزارع.

- آي، هذا ابن كورماش؟

سأل أوتاش، عندما اقتربا منه.

- واو، بالفعل جيغيت كبير. في أي صف تدرس؟

- في الخامس،

تمتم آوليت.

- أحسنت! في المساء، عندما سآتي إلى تورسين، سأقبلك على خدك. اليدان ليستا حرتين الآن.

نظر إلى تورسان مبتسمًا.

- ها أنا أحمل قطع غيار للسيارة، أخذتها من بائع في القرية المجاورة. كم صندوق فودكا أخذت؟

- لك صندوق واحد، وللبقية صندوقان.

- إن كان لا يكفي، سنشتري أكثر.

ضحك وهو ينظر إلى تورسين.

- حسنًا، إلى اللقاء مساءً.

- حسنًا. رحلة موفقة!

وحتى يصلوا إلى البيت سلكوا اتجاهات مختلفة.

"مدرسة داخلية! ما الحاجة إلى المدرسة الداخلية؟!" غضب أوتاش الثمل المتأجج الذي كان يجلس في المساء عند تورسين. "كما لو أنه ليس لديه أقارب! فور انتهاء العطلة، اسحب وثائقه وليعش لدينا."

دعمه وأيده الأقارب الكثيرون الجالسون على الطاولة.

- تورسين يقول الحقيقة. الشباب الحديث ينمو غير مبال. عندما يكون لديك، يا آوليت، أطفال، لن يتعرفوا علينا مطلقًا. حتى الآن أنتم لا يعرف بعضكم بعضًا جيدًا. أخبرني كم عدد الأطفال الذين لدى تورسين ولُديّ؟

صمت آوليت ونظر أمامه.

- ها، كما ترى، لا تعرف.

بغطرسة لخّص أوتاش مايراه الحقيقة.

- حتى إنك لا تعرف اسمي.

تدخلت زوجته.

– كفي، اترك الولُد وشأنه. من أنت لتنصح؟ عندما تشرب، تصبح طيبًا، وعادة "أبو"ك لا تعرفه. أين كنت حتى الآن؟، ما دمت رحيمًا. إذا أصبح الفتيان المعاصرون غرباء، فالذنب ذنبكم.

– يا إلهي، لقد قلت ما أعرفه وما رأيته....

لم يستطع أن ينهي كلامه. ما أن همَّ بقول شيء ما، حتى حشرت الزوجة في فمه فخذ دجاجة سمينًا، وواصلت بهدوء شرب شايها.

ضحك الحضور. وعندما بدأ الضحك يهدأ، أخذ أحد الأقارب، آليبيك، الكلمة. كان قصير القامة، شعره ممشط إلى الخلف، وكأنه ملسه بلسانه، عيناه حادتان. وعلى الفور لم يعجب آوليت، لأنه تصرف بغطرسة، ولم يشارك في الحديث.

– اليوم عيد. قال آليبيك ضاغطًا على شفتيه، كما لو كان يذيع خبرًا.

– نعم، عيد! احتفال كبير. أريد أن أهنئكم بهذا. لدى هذا التقليد، جوانب جيدة وأخرى سيئة. الختان.... في عصرنا، يا رفاق....

– لسنا رفاقًا، وإنما أقاربٌ.

صحح أوتاش منزعجا.

– والأقارب رفاق.

واصل، دون أن يتراجع عن كلماته.

– في عصرنا، هذا تقليد أخرق بالٍ. أولًا، إنه خطير على حياة الطفل، وثانيًا، سيقضي الطفل ببساطة وقتًا في الفراش دون جدوى. لدى هذا التقليد....

– خلاصة القول!

طالب أوتاش وهو يصب الفودكا.

– إذا ما تناولنا الأمر من وجهة نظر الطب الحديث....

– إيه، أيها النسيب، اترك الطب وشأنه، تحدث عما يجب في الاحتفال.

قاطعته زوجة تورسين. بقية النسوة صحنَ أيضًا.

– أتساءل أي أولاد لديه؟

– لماذا الأولاد؟! اسألي عنه نفسه.

من جديد واصل ذاك كلامه.

– باختصار، أنا ضد طقوس الختان.

انفجرت النساء في الضحك بصوت عالٍ.

"يا له من برعمٍ، والبقية غير معروفة كيف...." همسن فيما بينهن.

- ما الذي يجب القيام بختانه؟!

تسود لحظات من الصمت قطعها آليبيك بغضب:

- على كل حال ينبغي أن نشرب نخب العيد.

- لمَ لمْ تقل ذلك، من البدء بدلًا من أن تثرثر بتفاهات؟

قال أوتاش، وحمل الكأس.

- إيه، ماذا تقول أنت؟ ما معنى "تثرثر بتفاهات"؟

قال آليبيك الذي لم يجلس في مكانه بعد بغضب.

- كان من الممكن عدم التعبير عن رفضك على المأدبة! إن كنت ترغب بشدة، فأين كنت قبل الاحتفال؟ هل حشوت فمك بالشوفان؟

- أنت، أيها الشاب، لا تمس الشرف! ما يمكنك القيام به، غير أن تشرب! هيا، اشرب! لهذا السبب أنت في عجلة!

- ولماذا أنت لا تشرب؟ هل بفضل ذلك جمعت شيئًا ما واشتريت "مرسيدس"؟

- أيها الأقارب!

تدخل تورسين في المشادة الكلامية.

- فلنتجنب التباهي بالثروة. لدى كل واحد سيارة. بعد يومين سيحل العام الجديد. حسنًا، لنهدأ، لنرفع من أجل ذلك نخبًا!

- أحسنت! هذه كلمة جديرة بالاهتمام!

ابتهج أوتاش.

- وأريد أن أضيف: الخير موجود بما فيه الكفاية. الآن وقت جيد. لنكن حريصين بعضنا على بعض. في صحة الأقارب!

تحدث تورسين وزوجته على انفراد. كانت الزينة على شجرة الميلاد تلمع في القاعة على ضوء مصباح الليل.

- آوليت يغادر غدًا. يجب أن نعطيه نقودًا.

قال تورسين.

أجابت الزوجة، معربة عن اعتراضها:

- لماذا يحتاج المال، ولُديه الملابس والطعام بالمجان؟!

- بالمجان بالمجان، ولكن....

- أوتاش تباهى وقال لو يعيش عنده. أين هو الآن؟ ليعطه هو.

- عبس تورسين، واستدار.

- وماذا الآن، هل نرسل الطفل خالي الوفاض، في إشارة إلى ذلك؟ فهو ابن شقيقي! إن لم يكن مالًا، فلنشترِ له ملابس على الأقل.

- في عطلة الصيف سنشتري، فالآن -في كل الأحوال- سيسرقونها منه.

- بالنسبة لك، يبدو كل ما هو حولك حالك الظلمة. حسنًا، ليعد دون كوبيك واحد!

في قلبه لوح بيده.

- لقد وجد قريبًا أقرب منا. أثرت مشكلة، لعدم رغبتك في أن تترك هذا السائق، الذي جاء وبحث عنه. الولد يميل إلى الغرباء. والآن لا يوجد مال....

- صحيح.

تنهد تورسين.

- من الصعب أن أشرح لك أي شيء. لديك إجابة على كل شيء. انتهى، سأصمت.

وغادر الغرفة.

غادر آوليت الأقارب بدون مزاج. وصل إلى محطة الحافلات. لتتلقفه الوحدة مرة أخرى. وبينما كان ينتظر الحافلة، دوى بقربه صوت تانات:

إيه، أيها الشاب، مرحبًا! استدار فجأة، ورأى تانات يبتسم، وألقى بنفسه في أحضانه. عانقه طويلًا، ولم يستطع أن يتركه.

- في هذه المرة، تبين، أنك اشتقت بشدة.

قال تانات، محررًا نفسه من عناقه.

- عرفت أنك اليوم ستعود، جئت خصيصًا لآخذك. ما بك، أنت لست في مزاج جيد؟

- تانات-آغا، هل لديك الكثير من الأقارب؟

- لست غنيًا بالأقارب. ولكن يوجد أقارب.

- لكن أنا لدي الكثير من الأقارب.

جيد جدًا. لنذهب إلى السيارة.

في الطريق، قال آوليت فجأة:

- تانات -آغا، كيف مات أبي وأمي؟

نظر تانات إليه في مفاجأة.

- أنت تعرف ذلك جيدًا.

مرة أخرى، أريد أن أسمع مرة أخرى.

-حسنًا

أجاب تانات هازًا رأسه.

- درسنا مع أبيك سويًا في المدرسة. جلسنا في المقعد نفسه. حتى الصف الثامن لم ننفصل. أنهينا دورات السائقين معًا. وما يثير الدهشة أننا خدمنا في الجيش معًا. كان الناس يضحكون ويقولون إننا مثل فتاة وشاب. في وقت واحد كل منا تزوج. حتى إننا لم نكن نأكل فرادى. بعد الزواج، تبين أن الأمور تسير بشكل مغاير. تباعدنا بعض الشيء.

- في البداية، يتضح، أنك أحببت أمي.

- ضغط تانات على الفرامل بشدة. انزلقت السيارة، وتوقفت على جانب الطريق.

- من قال لك ذلك؟ -سأل تانات وهو ينظر إليه.

- سمعت.

- هذا يعني أن واحدًا من أبناء القرية أبلغك....

تنهد.

- أنت لم تعد صغيرًا، يا آوليت. ربما سيكون من الأفضل أن تعرف. تعرفت على أمك أولًا. ثم.... تعرف عليها والدك. شعرت أنها أعجبته. وعرفت أنها معجبة بوالدك أيضًا. والباقي معروف.... لم أقف في طريقهما. على الرغم من ذلك، تزوجنا في الوقت نفسه، واحتفلنا بالزفاف معًا. بعد إنهاء الدراسة، عادت والدتك إلى القرية، وعملت معلمة في روضة أطفال. كان مبنى الروضة متداعيًا من الهيكل. عندما كان الأطفال نائمين في وقت الغداء، اندلع حريق. حتى الآن، لا أحد يعرف سبب الحريق. انتشر الحريق على الفور. عندما رأى كورماش الروضة تحترق، هرع إلى هناك. وعلى الفور دخل المبنى. وبطبيعة الحال كان هناك آخرون. لم يستطيعوا العثور على سائقي شاحنتي الإطفاء. يبدو أنه كان لديهما مهمة في مكان آخر. يحدث ذلك. عندما اجتاحت النيران المبنى بأكمله، عمَّ الذعر، ولم يجرؤ أحد على الدخول إلى هناك. وفي الداخل كان هناك الكثير من الأطفال، لم يستطيعوا الخروج، وركضوا لاهثين. هرع كورماش وزوجته لإنقاذ الأطفال المتبقين. وبعد ذلك بقليل انهار المبنى مصحوبا بدويّ، إلا أنهما تمكنا من إلقاء آخر طفلين من النافذة. لم يصب الصبي بأي إصابات. كان الطفل الأخير فتاة. كُسرت ساقها، وأُدخلت المستشفي، ثم تعافت.

تأثر تانات وصمت.

وظلا هكذا لفترة طويلة، لم ينبس أي منهما بكلمة واحدة، إلى أن بادر تانات قائلًا:

- بالمناسبة، تلك الفتاة تعيش في المدينة التي تدرس فيها.

قال تانات.

- إذا لم تخني الذاكرة فهي من مواليدك، أي تدرس الآن في الصف الخامس. كنيتها.... كنيتها سيريكباييفا.

نعم، سيريكباييفا. كان والدها ميكانيكيًا. بعد ذلك انتقلوا إلى المدينة.

نظر آوليت إلى تانات باهتمام، دون أن يرفع عنه عينيه. وبعد أن شعر بالحرج من هذه النظرة، أزاح تانات عينيه.

- هذا يعني.... أنك تحبني.... لأنك أحببت أمي.

تحول تانات إليه بسرعة، ولطمه فجأة على خده. آوليت لم يبك. بقي جالسًا، ولم يرفع عينيه عنه. وتانات أيضًا بقي جالسًا، دون أن يعرف ماذا يفعل.

فتح الصبي باب المقصورة وبدأ يخرج ببطء.

- وداعًا!

قالها وهو يغادر.

قام تانات بسحبه بقوة إلى الأرض وجعله يجلس.

- لا!

رفع تانات صوته.

- سوف تذهب معي!

وبعد ذلك، واضعًا رأسه على المقود، همس قائلًا: آسف، آوليت!

نظر الولد إليه وقال:

- حسنًا، لنذهب.

مرة أخرى تحركا من المكان.

ممر المدرسة طويل طويل. جميع الأطفال في الفصول الدراسية. يمشي آوليت أمام الباب الذي علقت عليه علامة "5 أ".

رن الجرس. يندفع الأطفال في صخب، وها هو باب الخامس "أ" يُفتَح. خرج المعلم، وتبعه أطفال.

نظر آوليت بعناية إلى كل واحدٍ منهم. عند النافذة جاءت الفتيات، وشرعن يناقشن شيئًا ما بحرارة.

اقترب آوليت منهن. نظرت الفتيات بحذر إلى الصبي غير المألوف.

- هل أنتن من "5 أ"؟ سأل، على الرغم من أنه كان يعلم.

- أجل، أجابت إحداهن مبتسمة.

- هل تدرس معكن.... فتاة باسم سيريكباييفا؟

- نعم، هي تلميذة متميزة!

بشكل عفوي أجابت إحداهن.

- هل بإمكانكن أن تنادين على هذه الفتاة؟

- سننادي عليها.

ركضت الفتاة إلى الباب وصرخت.

- دانا! شخص ما يسأل عنك.

بعد وقتٍ خرجت دانا من الصف. وكانت فتاة فائقة الجمال، بقامة أعلى من المتوسطة بقليل، وربطات شعر بيضاء طويلة كأجنحة فراشة، تناوبت الابتسامة والشك على وجهها. عندما رآها آوليت، لم يعرف ماذا يقول.

- هذا أنت الذي تبحث عني؟ سألت بصرامة.

- أجل، أنا.

- أنا لا أعرفك....

- وأنا....

تملَّك الضحك الفتيات اللواتي كن يقفن بالقرب. اضطرب آوليت أكثر.

- كان والدك يعمل ميكانيكيًا في قريتنا، أليس كذلك؟

سأل بتحفظٍ.

- أجل.

أجابت الفتاة، وهي تنظر إليه متفاجئة.

- كان والدي يعمل سائقًا. وأمي.... كانت مربية في روضة الأطفال.

من وجه دانا اختفت الابتسامة الساخرة المتعجرفة، ونظرت إليه بعينين مفتوحتين.

- وماذا بعد؟ سألت بفارغ الصبر، دون أن تستوعب كل شيء حتى النهاية.

- ثم.... هما.... أنا آوليت....

- آ-و-لي-ـت!! أنت آوليت! -لم تتمالك الفتاة نفسها، صرخت بصوتٍ عالٍ، وعانقته، لكنها تراجعت على الفور، وغطت وجهها بكفيها، وركضت إلى الفصل الدراسي.

لم يفهم الفتيان والفتيات شيئًا، هرعوا وراءها. وضعت دانا رأسها على المقعد وهي تبكي.

هرع إلى آوليت صبيان، "مدافعان".

- لماذا أغضبت الفتاة؟

بغضب سأل أكثرهما عجرفة.

آوليت لم يجب.

- أجب، أقول لك!

أمسك آوليت من رقبته.

- على كل حال لن تفهم.

أجاب ذاك بهدوء.

- ماذا؟ انظروا، كم هو ذكي! مارتيك، تعال ولقنه درسًا، أما أنا، فلا أريد أن ألوث يدي به.

ضرب مارات آوليت على ذقنه. آوليت لم يتوان. عندما كان ذاك على وشك أن يوجه إليه لكمة أخرى، صد قبضته، ولوى ذراعه خلف ظهره لدرجة أن وجهه تدلى فوق صدره. لم يفقد آوليت الثقة والهدوء.

- هل أنت مقاتل سامبو؟

سأل الفتوة بخوف. تصرفات أوليت الهادئة، على الفور أخمدت الحماس لديه.

- هذا ليس شأنك. اغرب من هنا بسرعة! هيا!

عندما همَّ هذان الشخصان بالركض، أوقفهما آوليت بصوت عالٍ.

مهلا! ليس إلى هناك، اذهبا إلى دانا.

ركض الفتيان إلى الغرفة، حيث كانت دانا تبكي.

لم يعرف آوليت ماذا يفعل عندما دوت من الركن البعيد للممر الفارغ صرخة أحد المعلمين وهو يناديه:

- يا ولد. تعال إلى هنا!

في مقصورة الشاحنة الواقفة أمام المدرسة الداخلية، يجلس تانات وآوليت.

- إذن، تقول إنك أصبحت جيغيتًا.

قال تانات ساخرًا.

-العراك ليس دليلًا على النمو. كيف وجدت تلك الفتاة؟

- في المدينة عدد من المدارس.

أجاب آوليت باتزانٍ، مثل الكبار.

- علاوة على ذلك، لم يكن عراكًا. أنا دافعت عن نفسي....

- أشعر بنفسي.... مسئولًا عن مصيرك. لكن لاشيء يحصل لدي. سامحني.... فأنت تفهم كل شيء.

- يوم الأحد الماضي كنت في منزل دانا. اتضح أن والديها في غاية اللطف. في الصيف، قررا أخذي معهم

إلى أنطاليا.

- هكذا إذن.

قال تانات بهدوء وهو ينظر إلى آوليت. في صوته دوت الغيرة أكثر من سؤال.

- أما أنا.... إلى منزل العطلات في مكان قريب.

أرخى شفتيه قليلًا في ابتسامة.

- بالطبع، أنطاليا أفضل كثيرا.

صمت كلاهما لفترة طويلة.

- العم تانات!

توجه إليه آوليت بعد وقت.

- قل لي، هل أنت تحب زوجتك؟

نظر تانات إليه بحدّة، كما في تلك المرة.

يا آوليت....

قال بصوت هادئ.

- أرجوك، لا تسأل المزيد من هذه الأسئلة.

- حسنًا!

صوته أيضًا بدا هادئًا.

في هذه الأثناء اقترب صبيان من المقصورة. من النوافذ الضبابية نظر وجهان مبهمان. مسح آوليت الزجاج، وتبين، أنهما كانا الصبيين اللذين تسببا في العراك.

- إيه، ماذا تفعلان هنا؟

- أوه، آوليت!

هرع ذاك الفتوة نفسه، وصعد على سلم المقصورة. فتح آوليت الباب.

- مرحبًا!حيا تانات.

- لقد جئنا إليك

قال مخاطبًا آوليت.

- في عطلة نهاية هذا الأسبوع.... عيد ميلاد دانا". لنذهب؟!

- لنذهب!

فرح آوليت.

- ما الهدية التي سنقدّمها؟

- لا أعرف.

- ما الذي لا يجب معرفته هنا؟! تدخل مارات.

- قطتي أنجبت خمس هررٍ صغيرة. سنقدم ثلاثتنا ثلاث هرر.

- ولُديَّ أيضًا ثلاث بطاقات يانصيب، أهديت إلي مرة في القرية.

أضاف آوليت.

- رائع! ثلاث هرر، وثلاث بطاقات يانصيب!

صفق مارات بسعادة.

- حسنًا، لنذهب. غدًا سوف نأتي مرة أخرى.

ذهبا.

- هل تدرسون معًا؟

سأل تانات.

- لا، نتعارك معًا، -بابتسامة أجاب آوليت.

في منزل آليبيك. لا يوجد أي شيء زائد. الغرف نظيفة ومرتبة للغاية، كما هو معتاد بالنسبة لرجل أعمال يعرف عمله جيدًا. في المطبخ زوجته وحيدة تحتسي مرق اللحم. فُتح الباب بهدوء، آليبيك دخل الغرفة. إنه مشوش، مرتبك.

- ماذا حدث؟ لماذا تأخرت؟

- - صافورا، الآن ماذا سنفعل؟

- - أنت شاحبٌ. ما بك؟

نظر آليبيك حوله، كما لو كان يريد التأكد من أنه لا يتنصت أحدٌ.

- تعالي إلى هنا!

- لا يوجد أحد، تكلم.

نظر مرة أخرى حوله وهمس بشيء في أذنها. خرجت عينا الزوجة من مداريهما، وتجمدت. ثم نهضت وقالت:

-ارتدِ ملابسك!

-أنت ارتدي ملابسكِ. أنا.... لم أخلع ملابسي....

في منزل تورسين، كان الجميع يشاهدون التلفزيون. ارتبكوا عندما جاء آليبيك وزوجته فجأة.

- أوه، هل كل شيء على ما يرام؟ تفضلا.

قال تورسين بسعادة غامرة.

- أيها الأطفال، اخفضوا صوت التلفزيون. حسنًا، ما الأخبار؟

- كل شيء على ما يرام

أجاب آليبيك وهو ينظر إلى زوجته.

- إيه، ما بكما؟ وجهاكما شاحبان.

- - وجهانا؟ لا، لا. ربما تأثير قطاف الربيع.

أجابت الزوجة مجبرة نفسها على الابتسام قليلًا.

- تبين أن القطاف يؤثر على موظفي المكاتب أيضًا. سليمة!

نادى زوجته التي كانت متجهة إلى المطبخ. -ضعي اللحم ليُسلق!

من المطبخ جاء قرع الأطباق وصوت الزوجة: "حالًا".

- أوه، لا تنشغلوا. نحن لن نمكث فترة طويلة.

أجاب الزوج وزوجته في وقت واحد.

- لا، لا يصلح. مادين، اركض، اذهب إلى المتجر.

- أبي، في غضون عشر دقائق سيبدأ الهوكي.... دع سيريك يذهب، فهو في كل الأحوال لا يفهم.

- أليس لديك ضمير؟ أنت تلميذ في الصف الخامس وهو في الصف الثاني، لا يزال صغيرًا لكي يذهب إلى المتجر. اِجر، ستلحق.

ضحك سيريك الصغير بسرور.

- إلى أن تعود، سأطفئ التلفزيون. عندها سيبدأ الهوكي لاحقًا.

أعطاه مادين نقرة على رأسه، ونهض.

- أوه، نحن في عجلة من أمرنا....

قال آليبيك.

ضغطت الزوجة على ساق زوجها.

- إذن.... لنذهب بالسيارة. عندها ستلحق.

قال، بعد أن أدرك.

- أليس من الأفضل أن تذهب بنفسك؟

سأل الصبي، بعد أن توصل إلى خاتمة منطقية.

- مممم.... بالطبع.... ممكن....

- وهل من الممكن إرسال الضيوف إلى المتجر؟! اذهب أنت! .. صاح الأب.



في طريق العودة من المتجر، أوقف آليبيك السيارة وسأل:

- أتذكر، يا مادين، أهديتك ذات مرة شيئًا ما.

- ماذا؟ متى؟ -أجاب الصبي وهو يفكر.

- في الشتاء. في حفل الختان.

رفع الصبي كتفيه، كما لو كان يقول: لا أعرف.

- هل نسيت؟... بطاقة يانصيب؟

- آه، أذكر.

أجاب الولُد وهو يضحك.

- أوه، أحسنت!

ربت على ظهر مادين.

- أنت رجل. شابٌ ذكي جدًا! قل لي أين هي الآن؟

- من؟

- كيف من؟! أنا أتحدث عن بطاقات اليانصيب.

- آ.... آ....آ لقد أعطيتها.

- أعطيتها؟

ظهرت حبات العرق على جبهته. انحنى إلى الولُد وقال متوسلًا:

قل، لمن أعطيتها؟

- يا عمي.... ما بك؟

- لمن أعطيتها؟

- لآوليت. أعطيته إياها في اليوم نفسه. لأنه لم يكن هناك نقود لأعطيه....

- يا للأسف! قال بحزنٍ. ولكن في محاولة منه، حتى لا يشك الصبي في شيءٍ، دفع بشبح ابتسامة على شفتيه.

- علامَ تتحسر؟

- أنا؟ لا. لماذا يجب أن أتحسر؟! كان هناك رزمة كاملة من أوراق اليانصيب، أنا أتحسر لأنني لم أعطك كامل الرزمة.

- آ-آ.... لنذهب، سنتأخر على الهوكي. اليوم، تلعب روسيا وكندا. هل تشجع الهوكي؟

- نعم. مشجع متعصب!

أجاب بصوت عالٍ ليظهر مدى حرصه واهتمامه، على الرغم من أن ذهنه كان مشغولًا بأفكار أخرى.

بارتباك نظر إليه مادين.

- لا أستطيع أن أفهم!

قال تورسين باسطًا ذراعيه.

- لماذا جاءا، ولماذا غادرا؟

- حتى إنهما لم يبقيا ليأكلا.

أضافت زوجته في مفاجأة.

- حتى لم يسمحا بفتح زجاجة الفودكا.

واصل تورسين وهو ينظر إلى الزجاجات الثلاث المنتصبة على الطاولة.

- مادين، ماذا قال لك؟

كان مادين غارقًا بالكامل في التلفزيون. الهوكي على قدم وساق، كاد التلفزيون ينفجر.

- مادين، هل سألك عن أي شيء؟

سألت الأم وهي تنكزه في كتفه. أجاب الابن، دون أن يرفع عينيه عن التلفزيون:

- نعم.

- عم سأل؟

-عن بطاقات اليانصيب. أمي، ابتعدي جانبًا! هيا، هيا! أحسنت! هدف!

- يانصيب؟

تبادل الزوج والزوجة نظرات الدهشة ....

- أي يانصيب؟ آ.... آ ...

بدا أن الزوجة قد خمنت شيئًا.

- إنها ليست صدفة. فهو بدون مصلحة لا يخطو خطوة. قف، قف.... مادين، كيف أجبته؟

- أمي، لا تشوشي.

- لا، ماذا قلت له؟

- قلت إنني أعطيت بطاقات اليانصيب لآوليت.

- لآوليت؟ هل هذا صحيح؟

- نعم. هيا، هيا.... إيه؟

أشارت الزوجة وأخذت زوجها إلى غرفة أخرى.

- هل فهمت شيئا؟..سألت تورسين.

- لا شيء.

- أنا فهمت.

بالقرب من المتجر وقف كثير من الأشخاص يتحدثون.

- يقولون إن البطاقة ليست معه.

- يقولون، أعطاها لابن أخيه الذي يدرس في المدينة.

- استثقلوا إعطاء المال. يستحقون!

- الآن كيف سيعيدها؟

- لكن الحظ ابتسم لهم! هناك سيارة. وفاز بـ"مرسيدس". أما أنا، لم أفز بكوبيك واحد في حياتي. عجيب!....

ظهر أوتاش، قريب تورسين، من السيارة، و كاميرا تتدلى من كتفه.

- إيه، أوتاش! لماذا لا تغسل؟

- ماذا؟

- الكاميرا.

فحص الرجل الكاميرا، وتحسسها.

-أصلحوها جيدًا.

قال وهو يلحس شفتيه.

- أجل. أُصلحت جيدًا!

قال آخر، دون أن ينظر إلى الكاميرا.

إذن، لماذا نقف!

أجاب أوتاش، بعد أن فهمها على الفور.

ومتى ستغسلون "المرسيدس" التي فزتم بها؟

هي ليست لنا. لآوليت. ورقة اليانصيب أهديت إليه. هو فاز. هو سيتسلمها. ولكن يمكنني أيضًا أن أغسلها.

إن كنت أنت تقول هكذا، ماذا سيقول إذن الشخص الذي أهدى ورقة اليانصيب؟ هذا هو السؤال!

ومع ذلك، هذا يعني أنكم ربحتم حقًا.

قال ذلك الفلاح الحزين.

- أما أنا، لم أجد قط ولو كوبيكًا واحدًا في طريق أو في حافلة. ببساطة أمرٌ عجيب!... لماذا هكذا؟

يعني، أنت لم تفقد أي شيء قط. حتى تجد. يجب أن تفقد، يا أخي!

دخل أوتاش إلى المتجر. وراءه دخل الباقون. بقي الفلاح الحزين واقفًا، فاتحًا فاه، دون أن يفهم شيئًا.

ممتع!... وماذا يجب أن أفقد؟ إذا لم يكن لدي ما أفقده!

آليبيك مع زوجته يجلسان في مكتب مربي المدرسة الداخلية منصوروف. كان المربي سعيدًا لأن الأقارب جاءوا لزيارة آوليت.

أفهم، أفهم.

قال وهو يشير برأسه.

- الآن كل شيء رهن بالوقت، فليس لدى الجميع وقت. الكثير من العمل، لا وقت لشيء آخر. شكرًا لأنكم جئتم. من الصعب أن نتوقع من طفل لم ير في طفولته ما هو جيد، رحمةً وعطفًا عندما يكبر.

بالطبع.

أجاب آليبيك مبتسمًا.

- نحن لسنا غرباء على آوليت. كان آباؤنا بعضهم لبعض إخوة. إذا لم نكن نحن، فمن سيبحث عنه؟! لكن الأمر في أنه لا يوجد وقت....

عندما كان والداه على قيد الحياة، تواصلا معنا أكثر من الآخرين

تدخلت زوجته في الحديث.

-لم نجلس على الطاولة بدونهم. المسكينان رحلا مبكرًا. كانا شهمين جدًا. آوليت ينمو شبيهًا بأبيه، شجاعًا ومتهورًا مثله.

هذا صحيح.

قال منصوروف المبتهج.

- مع زملائه صادق، وإذا رأى ظلمًا، لا يحتمل. ذات مرة دخل في عراكٍ ليحمي شرف فتاة.

تقاتل؟! لماذا تقاتل؟

سأل الزوج والزوجة معًا.

نعم. لا تخافا!

ابتسم المربي مهدّئًا إياهما.

ثم اتضح أن الأولاد هم من جاءوا للعراك معه. بشكل عام، هو الفتى الأكثر انضباطًا في فصله.

نعم، هذا ملحوظ. في العطلة كان في زيارتنا.

كذب آليبيك، ونظر خلسة إلى زوجته. فأسرعت إلى مباركة ما يقول.

درس مع أطفالنا، شرح لهم ما لم يعرفوه. إنه حنون: دائمًا "عمتي" و"عمي"، ويسأل بشكل مؤثر "بماذا أساعدك، ماذا أفعل". في مدرستكم الداخلية يُقدَّم عمل تربوي في غاية الجودة.

شكرًا!

أجاب المربي، بدون أن يخفي رضاه عن الثناء.

- يبدو أن جميع الآباء والأمهات راضون عنا. تعالوا في العطلة القادمة، حتى لا يبقى آوليت في المدرسة

الداخلية بمفرده.

أوه، عم تتحدث!

قال آليبيك، كما لو أنه أُهين. بسط يديه، ورمى برأسه إلى الخلف. والزوجة يبدو وكأنها تعرضت للإهانة، نفخت شفتيها.

– قبل العطلة سوف نأتي أكثر من مرة. الآن، ولله الحمد، كل شيء لدينا على ما يرام. ليس كما كان من قبل.

اعذرونا، في بعض الأحيان يرتكب المعلم أخطاء.

قال منصوروف، وهو يشعر بالحرج. ورغبة منه في التكفير عن ذنبه، ضحك بشدة.

صحيح ما تقوله.

أجابت المرأة، في محاولة لمواصلة الحديث في الاتجاه نفسه.

–نعم .... صحيح ماتقول. في قريتنا هناك معلم. ينهمك في الشرح، وفجأة في منتصف الدرس يسأل: "يا أولاد، أي صفٍ هذا؟". الأولاد يصدرون ضوضاء ويجيبون "السابع". "ماذا تقولون! لماذا إلى الآن لم تخبروني؟! "يصيح، وهو يلملم أشياءه ليهُمّ بالخروج.

واصلت المرأة بصوت وهي تطلق ضحكاتها بصوت عالٍ:

التلاميذ لم يقولوا الحقيقة ...نعم ...كانوا يخدعونه !!

ظنت المرأة أن الجميع يتابعونها، لكنها عندما رأت ابتسامة المدير الباهتة من خلال شفتيه المغلقتين، وزوجها الذي كان ينظر إليها بشكل مرعبٍ، شعرت بالحرج، وقطعت الضحك على الفور.

مممم. هل بإمكاننا اليوم أن نلتقي بآوليت؟

سأل آليبيك، مغيرًا دفة الحديث في اتجاه مختلف.

بالطبع، بالطبع.

أجاب منصوروف، وهو ينظر إلى ساعته.

بعد ساعة ستنتهي الدروس. تعاليا لأريكما غرفته.

يسير أوتاش وهو يغني، على رقبته الكاميرا، والأوساخ تتلاطم تحت قدميه. يكرر فقط سطرًا واحدًا، يتكون من كلمتين، وبلحن واحد:

حبيبتي الغالية....

حبيبتي الغالية....

نحوه قفزت زوجته، على ما يبدو، ووفقًا لمظهرها، بدت وكأنها تفتش عنه!

فظيع!

قالت مضطربةً عندما رأت زوجها المخمور.

- إيه، من أي حفل أنت قادم ؟

جفل الزوج، لكنه تماسك، وأظهر مظهرًا رزينًا. ولكن في كل الأحوال كان من الواضح أنه مخمور.

ببساطة. نحن أنفسنا....

قال، وهو يحاول الوقوف منتصبًا.

- غسلنا.

ماذا؟

ها... الكاميرا....

لتغرق أنت وكاميراك!

الكاميرا لا تغرق في الماء.

سأغرقها!

ردت الزوجة الغاضبة.

- يبدو أنه لم يكن هناك ثمة مبررات أخرى!

كان هناك مبرر آخر. غسلنا سيارة آوليت.

نظرت الزوجة إليه، وصمتت ليس طويلًا:

هل تستطيع قيادة السيارة؟

مم.... بالطبع! أقودها بشكل جيد! أين السيارة؟

اجلس!

أمرته الزوجة بعد أن غيرت رأيها، عندما اقتربا من السيارة على جانب الطريق، واستطردت:

- سأجلس خلف المقود بنفسي. أنت فقط تفسد الأمر.

جلست الزوجة خلف المقود، وأدارت المحرك.

لماذا تحملق في ؟! انظر إلى الخلف، إلى الخلف! ألا توجد سيارة؟

لا.

ما أن تحركت السيارة، حتى ارتطم بها شيء ما من الخلف، وسمعت شتائم أطلقها شخص ما. عندما التفتا كي ينظرا إلى الوراء، سقطت عليهما أكوام من القش، وأصبحت السيارة مظلمة.

بعد لحظات خرجا من السيارة. اتضح أنها مربوطة بعربة قش.

أوه، أيها الوغد السكير! ... صرخت الزوجة.

- ماذا قلت لك؟

لقد سألتك إن كان هناك سيارة.

أجل.

أجاب الزوج متحملًا اللوم.

- هذه ليست سيارة، إنها عربة....

فتحت الزوجة عينيها، ووقفت كصنم، لا تعرف ماذا تقول.

اتضح أن سائق العربة، من تأثير ضربة السيارة، طار، والآن يخرج من التبن أمام السيارة.

سأشتكي إلى المحكمة!

قال سائق العربة مهاجمًا.

الشكوى ينبغي أن تكون ضده!

صاحت الزوجة وهي تشير إلى زوجها.

- هذا هو من كذب عليَّ عندما سألته عما إذا كانت هناك سيارة وراء ظهر سيارتي، فأجابني بالنفي.

-لقد أجاب بشكل صحيح.

قال سائق العربة.

- هذه ليست سيارة، إنها عربة. إلى جانب ذلك، لم يكن خلف المقود الزوج، وإنما أنت! أنتِ ستتحملين المسئولية. ما أنت! في العام الماضي دهست كبشي المنتج الوحيد، أليس كذلك؟ هذا صحيح. بهذه السيارة ذاتها. الكبش المنتج الوحيد في القرية. الآن لا يوجد في القرية أي كبشٍ. لقد جلبته من توركستان. عندها سامحتك، الآن لن أسامحك.

نعم، لا يوجد كبش... أكد أوتاش.

لماذا تدمدم هكذا!

قالت الزوجة، وهي تنظر إليه بشكل مخيف.

- هل تود أن أُحاكم؟ حسنًا، فليحاكموني! فلتذهب إلى محكمتك!

قالت لسائق العربة.

فك سائق العربة الحصان، وجلس على سرجه. وقال وهو يستدير: إذا دفعتِ الغرامة؛ بإمكاني عدم الذهاب إلى الشرطة.

كم؟.. خمسة آلاف تنغي.

خذ! ... أشارت بإصبعها.

فتحرك سائق العربة من مكانه.

ألف تنغي.

تعرض المرأة.

خمسة آلاف.

قال بعنادٍ.

ألف وخمسمائة تنغي....

إن أغضبتني، سأرفعها إلى عشرة آلاف.

قاطع بعناد.

إيه، تعال إلى هنا.

نادى أوتاش على سائق العربة.

اقترب السائق.

- إلى هنا، إلى هنا.

اصطحبه أوتاش إلى الجانب الآخر من العربة، خلف القش. رجعا بعد لحظات. بدا سائق العربة الآن راضيًا ومبتهجًا.

حسنًا!

قال، وهو يقترب من المرأة.

- ألفان.

عدَّت المرأة النقود، واندفعت على الطريق الأسفلتية إلى المدينة بالسيارة التي كان جناحها الأيسر مشوهًا.

أنا لا أفهم شيئًا. ماذا قلت له؟ أصبح سعيدًا.

قالت المرأة لزوجها.

يجب أن نكون قادرين على إيجاد لغة مشتركة!

أجاب أوتاش بتعجرف.

نظرت إليه المرأة بارتياب.

إيه، إلى أين نحن ذاهبان؟"

سأل أوتاش، بعد أن صحصح قليلًا.

إلى آوليت.

لماذا؟

اجلس بهدوء. سأشرح لك فيما بعد. وإلا ستتسبب في حادث.

عندما رأى أوتاش أن عداد السرعة يصل إلى مائة وأربعين، أغمض عينيه، وقال وهو يضع يديه على عينيه:

"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم".



اليوم ستبيت لدينا.

قالت زوجة آليبيك لآوليت بلطفٍ.

- أذن لك المدير. في الصباح سنريك المدينة، ثم نقلّك بالسيارة إلى المدرسة.

شكرًا جزيلًا.

أجاب آوليت بفرحٍ.

من أجلك أخذنا أفضل غرفة في أفضل فندق في المدينة.

هل أنتما في إجازة؟

لا. استأذنا ليوم واحد كي نزورك. آليبيك، اذهب إلى البوفيه واشترِ شيئًا آخر لآوليت.

لا داعيَ يا عمة. لقد أكلنا للتو.

إلى أن تذهب إلى النوم، لا يزال هناك وقت طويل. ستجوع. أنا الآن....

وخرجت إلى الممر.

العمة جامال، وغدًا هل سنذهب إلى الحديقة؟

نعم، إلى حيث تشاء.

هنا.... توجد فتاة تدرس في مدرسة أخرى. اسمها دانا. أنتم، ربما، لا تعرفونها. هذه هي الفتاة التي أنقذها أبي وأمي.

نعم، نعم.... أذكر.

لنأخذها معنا أيضًا.

بالطبع! وأي حديث عن ذلك! لا نأسف على شيء من أجل أصدقاء آوليت. غدًا سنذهب إلى منزلها ونأخذها. كيف هي دراستك؟

جيدة.

ممتاز. والمدير أثنى عليك.

دخل آليبيك حاملًا ورقة ملفوفا فيها الكثير من الأشياء.

نجاح باهرٌ، بسرعة عدت. حسنًا! ماذا أحضرت؟ دجاجًا مشويًا، كافيار أحمر، عصير مانجو، كيوي! أين وجدت ذلك؟

عندما تكون الرغبة موجودة، يمكن لف الجبال أيضًا!

ضحك آليبيك بصوت حاد.

تبين أن لدى آوليتجان فتاة معجب بها.... و.... و.... هي صديقة جيدة. قررنا اصطحابها معنا للنزهة غدًا.

عظيم!

العم أليبيك! لماذا لم تأتوا إلي من قبل؟ في بعض الأحيان أحن إلى القرية.

اعذرنا، يا آوليت.

أجاب آليبيك برقة

– لن يحدث ذلك مرة أخرى. لديك الحق في أن تستاء منا.

لا-ا. لا استياء.

أجاب، كشخص بالغ.

الآن سوف نأتي. هل ترغب في الذهاب إلى إيساك-كول في فصل الصيف؟

بالطبع! حقًا؟

لا.

قال آليبيك باهتمام، وهو ينقر بأطراف أصابعه على الطاولة.

– أيعقل أن نرسل آوليت بمفرده؟ سوف نأخذه إلى إيساك-كول.

ما رأيك بكلمات عمك؟

موافق!

قال آوليت، وربت على يد العمة.

لفترة طويلة جلسوا في صمت. ذهب آليبيك وأدار التلفزيون.

في ذلك الوقت، في فناء الفندق كانت تقف سيارة أوتاش المشوهة.

تحدث آليبيك وزوجته في غرفة أخرى لفترة وجيزة على انفرادٍ.

أعتقد أنه لم يفز بأي شيء.

قالت الزوجة.

مستحيل. هنا، كل شيء مكتوب.

أجاب الزوج وأظهر ملاحظة في دفتر ملاحظاته

– ربما، هو لا يعرف!

إن كان الأمر هكذا، فهذا أفضل. بدون أن يشعر سنستفسر عن كل شيء.

كيف سنستفسر؟

اسألي أنتِ.

لا. أنت اسأل.

قال آليبيك بارتباك.

حسنًا. لديك قلب ضعيف. سأسأل أنا.

أوه، أوه، روزا روزمباييفا تغني.

قالت جامال وهي تقترب من آوليت.

كان آوليت صامتًا. جلس دون أن يرفع عينيه عن التلفزيون.

آوليت.... لو أنت.... فجأة.....

بدأت جامال بهدوء، مع ضحكة مصطنعة رنانة، بعد انتهاء الأغنية

- لو أنت ربحت فجأة سيارة "مرسيدس"، ماذا ستفعل؟

أنا؟ ضحك آوليت بصدق وبشكل طفولي.

عندها، سأقدمها لكم.

فجأة بدأت جامال تسقط، ضاغطة بيدها على صدرها.

العم أليبيك! العم آليبيك!

صرخ الصبي خائفًا وهو يسند جامال.

هرع آليبيك إلى الغرفة، بعد أن كان يستمع إلى حديثهما من خلف الباب.

لديها قلب مريض. لا تخف، لا تخف! الآن، الآن ....

ارتبك آليبيك وبدأ يهدئ آوليت، وهو يضع زوجته في الفراش.

العم آليبيك، سأتصل بالطبيب!

لا داعيَ. سأعطيها الدواء الآن. أحضر بعض الماء!

عندما ذهب آوليت لجلب الماء، همس في أذن زوجته:

وتقولين إنك قوية؟

وبخها.

- لو أني سألت بنفسي! عودي إلى وعيك سريعًا!

ها هو الماء

قدَّمه آوليت.

ملأ آليبيك فمه بالماء، ورشه على وجه زوجته.

بدأت رموش الزوجة تهتز قليلًا.

أخذ أوتاش وزوجته غرفة في الطابق الأول من الفندق نفسه، مباشرة تحت غرفة آليبيك وزوجته.

انزع هذه القذارة، هل التصقت برقبتك؟

قالت الزوجة متذمرة عندما دخلا الغرفة.

هناك ثقب. سألصقه الآن.

أجاب أوتاش.

- لقد استعاد وعيه.

وعلى الفور أمسك بالغراء.

أنت في المنزل لا تفعل شيئًا، وهنا فجأة بدأت! ها قد تأخرنا بسببك.

دخلا إلى جناحٍ من غرفتين، تمامًا كالذي عند آليبيك.

ما ضرورة كل ذلك؟

قال الزوج في تذمر.

إنه لأمر مخجلٌ حقًا.

هل هو قريبٌ لنا؟ قريب. لماذا يجب أن يكون الأمر مخجلًا! إلى أين أخذا الولُد؟ كل ذلك بسبب غبائك! على أي حال، سأفعل كل شيء حتى لا يحصلا على شيء.

هيا، دعنا نذهب إلى البوفيه. أريد أن آكل.

اجلس. سأحضر بنفسي. وإلا فسوف تشرب مرة أخرى.

نزع أوتاش الكاميرا من رقبته، وضع عليها الغطاء مرة أخرى، ودسها تحت السرير.

مساء الخير!

حيا تورسين الزوجة. حينها، ارتعش أوتاش، ونهض من مكانه.

من أين جئتما؟

سألت زوجة أوتاش.

نعم، أردنا شراء ملابس للأطفال.

أجابت زوجة تورسين.

- وأنتما؟

جئنا لإصلاح السيارة. الليلة الماضية ضربها أحدهم.

أين كانت تقف؟

نعم. هناك. حيث كانت واقفة.

أي نوع من الناس نصادف اليوم!

تنهدت زوجة تورسين.

أخبريني بصراحة....

استدارت زوجة أوتاش فجأة نحو زوجة تورسين.

– هل أتيتما إلى المدينة فقط لشراء ملابس أطفال؟

نظرت تلك إليها باهتمام.

نعم.

أجابت سافورا، غير راغبة في أن تقول الحقيقة. ولكن من عينيها وهيئتها تبدو علامات الكذب.

تبين أن آليبيك مع زوجته هنا أيضًا.

قالت زوجة أوتاش.

– لقد أخذا آوليت. أنانيان جشعان! يا لهما من ماكرين!

أعرف.

أجابت سافورا.

ماذا؟

أن آليبيك أخذ أوليت. ولماذا جئتما؟

في الحقيقة....

قالت زوجة أوتاش وهي تقترب جدًا.

– من حيث درجة القرابة، لا يوجد أحد أقرب إلى آوليت منا.

نعم.

أجابت سافورا بسخرية.

– في كل عطلة جاء وعاش لديكم! لقد عبّدتم كل الطرق إلى المدرسة الداخلية وأنتم تزورونه!

وأنتم؟

في العطلة الأخيرة أقام لدينا. وليس لديكم. والآن ها أنتم، تُحسبون أقرب الأقارب. ألا تشعرين بالخجل؟

نحن من أدخلناه إلى المدرسة الداخلية.

ونحن نريد أن نأخذه ليقيم عندنا. بدءا من سبتمبر سيعيش لدينا!

لماذا لم تأخذوه إليكم في سبتمبر الماضي؟

لم يكن هناك وقت.

لم يكن هناك وقت! لم يكن المكر كافيًا! ذلك هو الأمر!

كل شيء واضح.

قالت سافورا بعد توقف:

- بينما نحن نتجادل معك هنا، تكون زوجة آليبيك قد أدارت رأسه بالفعل. فهم علموا قبل الجميع!

هما أيضًا محتالان، حتى إن سيارتهم في الفناء غير مرئية. ربما ركنوها حيث لا يراها أحد. هم قادرون على كل شيء.

إذن، الأهداف أصبحت واضحة.

قالت سافورا.

- الآن نحن بحاجة للالتفاف على جامال، وقطع الطريق عليها.

صحيح! هكذا يجب أن نفعل!

وصلتا إلى غرفة الفندق، حيث أغلقتاها على زوجيهما. زوجة أوتاش أعطت سافورا الطعام الملفوف في ورقة لتمسكه، وفتحت الباب بالمفتاح.

اضغط، اضغط بقوة.

جاء صوت أوتاش من الغرفة الخلفية عندما دخلتا، إلا أنهما حين شعرا بدخول زوجتيهما، صمتا الواحد تلو الآخر وببطء خرجا إليهما.

تجمدت المرأتان، غير مصدقتين عينيهما: تورسين وأوتاش ثملان، يتمايلان، بالكاد يقفان على أقدامهما.

نظرت زوجة أوتاش حولها، راغبة في التأكد من عدم وجود "أبو"اب أخرى. اقتربت من النافذة، نظرت إلى أسفل. الطابق الثالث! لا يمكن أن يكونا قد نزلا من الشرفة.

مهلًا، من أين لكما؟

سألت زوجة أوتاش.

ماذا؟

سأل أوتاش.

ماذا ماذا؟ أين شربتما؟

لا، لم نشرب، قال أوتاش، وهو يبلع ريقه.

لم نشرب!

أكد تورسين أيضًا.

ذهبت زوجة أوتاش إلى الغرفة الأخرى، وأخرجت من هناك الكاميرا المتدلية وكأسًا.

ذلك هو سرك!

قالت بغضب.

- وأنا أفكر لماذا لا يزيلها من رقبته! "سألصقها، سألصقها". وأنا، المسكينة، صدقت! سافورا، أحضري

لي كأسًا!

وضعت سافورا الكأس على الطاولة. زوجة أوتاش بدأت بالضغط على الكاميرا والفودكا تخرج. خرج كأسان مليئتان تمامًا من الفودكا.

يجب أن نكون قادرين على إيجاد لغة مشتركة! أنا أفكر كيف تعلم أن يجد لغة مشتركة مع الجميع. حسنًا، هاك، الآن ابحث عن لغة مشتركة.

أفرغت كأسي الفودكا من النافذة.

أغلق تورسين عينيه، في حين مد أوتاش عنقه قليلًا، ونظر حيث انسكبت الفودكا.

آليبيك وزوجته وآوليت ودانا يتجولون بالسيارة في أنحاء المدينة. الابتسامة على وجوه الجميع. شمس أوائل الربيع الضعيفة، بسبب أغصان الأشجار، تلوح بصعوبة.

بعد أن انعطفوا إلى الشارع التالي، توقفوا أمام متجر "ملابس أطفال".

×××

تانات أمام البوابة يغير الخزان، بعد أن رفع السيارة برافعة، يساعده ابنه الذي يبلغ من العمر الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. خرجت الزوجة من المنزل، واقتربت منهما.

لماذا تقفين؟

سأل تانات، بعد فترة من الوقت.

ببساطة ....

أجابت مبتسمة.

- أنت توقفت عن زيارة الصبي في المدرسة الداخلية.

نظر تانات إليها متفاجئًا.

هل رأيتِ منامًا، أم ماذا؟

بالأمس.... ذهبت إلى القرية التي يعيش فيها أقارب آوليت. زرت زميلاتي ورفيقات الدراسة.

حسنًا، وكيف هي الأمور هناك؟

قد يشوه أحد ما الصبي. آوليت فاز في اليانصيب بـ"مرسيدس".

تحول تانات إليها بسرعة.

ماذا؟!

هو لا يزال طفلًا. إنه لا يعرف قيمة الأشياء.

ماذا تقولين؟

فاز ببطاقة اليانصيب بـ"مرسيدس".

يا للمفاجأة؟ هل هذا صحيح؟

سأل الصبي وهو يمسح عينيه الواسعتين.

أجل.

أجابت المرأة، كما لو كانت فعلًا قلقةً بشأن الصبي.

- في رأيي، من الضروري في أقرب وقت ممكن الذهاب إليه والبقاء إلى جانبه، أو أن نحضره إلى منزلنا.

من يدري، يمكن أن يشوه أحد ما الصبي....

ربما!

أجاب تانات الذي قلق حقًا.

- والأقارب لا يبحثون عنه. يا للحظ، اليوم تحديدًا ليس لدي وقت!

قال الصبي:

- أحسنت يا آوليت. الآن سأجلس في سيارته، أوه، سأركب، وأتنزه!

نظر تانات إليه باستنكار. توقف الصبي على الفور عن الابتسام.

- لا يمكننا ألا نذهب، يجب أن نجد الوقت ونذهب.

قالت الزوجة.

- لا يزال طفلًا، ويمكن أن يقع في خديعة شخص ما....

نظر تانات إلى زوجته بارتياب. في وجه الزوجة، لتخفض بلطف عينيها، بدا له الاهتمام الأصيل الحقيقي.

تبين أن لدى آوليت الكثير من الأقارب.

قال المربي وهو ينظر إلى أقارب آوليت الأربعة الجالسين في المكتب.

- ونحن.... لا أحد.... اتضح أن الإنسان يخطىء.

طبعًا، يخطئ.

أجابت زوجة أوتاش.

بعد أن تذكر المثال الذي ساقته في المرة السابقة زوجة آليبيك، قاطعها المربي قائلًا وهو يلوح بيديه:

هذا ليس خطأ المعلم، بل هو خطأ يعاني منه جميع الناس بشكل عام.

نعم.

أجاب تورسين

– نحن المذنبون.

أخبروني، هل هو عيد ميلاد آوليت؟

تساءل المربي دون أن يخفي دهشته.

– جميعكم تتوافدون من يوم أمس....

قريبًا ستبدأ أعمال الحقول الربيعية. لذلك قررنا المجيء قبل ذلك.

سارعت زوجة تورسين بالرد.

وأي أقارب أنتم بالنسبة لآوليت؟

أنا الأخ الأكبر لوالد آوليت.

أجاب تورسين.

نحن أقرب الأقارب.

أضافت زوجته.

أما هذا الرجل، فهو قريب من جهة الأم. وتلك التي تجاوره زوجته.

شرح تورسين.

هذا صحيح.

وبعد تأمل خفيف، سأل المربي: وأناس الأمس؟

هم مجرد أقارب. ليسوا أقرب منا.

أجابت زوجة أوتاش.

اتضح أنكم بالأمس وصلتم متأخرين، لم أكن موجودًا. بما أنكم جئتم، يجب أن نجتمع. على الأرجح سيوصله أناس الأمس إلى المدرسة. يمكنكم الذهاب إلى المدرسة، وفي الاستراحة ستلتقون.

لا. نرغب في أن نأخذه ليوم واحدٍ للتنزه.

قالت زوجة أوتاش.

إذن، غدًا هو يوم عطلة. اقضوا الوقت معًا.

إلى اللقاء. سنلتقي!

ودعوا وغادروا المكتب، إلا أن أوتاش توقف عند الباب.

لم يعد في إمكاني بذل أي جهد، لنذهب إلى المنزل. سنأتي فيما بعد.

وأنا أيضًا.

قال تورسين.

مفهومٌ أنه لا يمكنكما تحمل أي جهد!

لاحظت زوجة أوتاش

- أنتما ما زلتما تفكران في المطعم. كونا صبورين.

تخلفت السيدتان قليلًا.

المربي لا يعرف أي شيء.

قالت سافورا.

- لو أنه حقًا فاز بـ"مرسيديس"، لانتشر الخبر، حتى لضجت المدرسة الداخلية بأكملها، أليس كذلك؟

بالفعل.

تمتمت زوجة أوتاش، متفاجئة.

- ربما لم يفز بأي شيء. ربما أضاع البطاقة؟

آليبيك أعطاه البطاقة. لن يقوم المحتال بخطوة إضافية. يعني، صحيح.

إذا كان من أعطاه بطاقة اليانصيب هو آليبيك.... الوقح.... فهذا يعني أنه يطمح إلى الحصول على البطاقة التي أعطاها إياه بنفسه.

عمَّ تتحدثين! الناس في هذا الزمن نسوا ماذ تعني الأخلاق! هو أهداها لابننا. أي اليانصيب يجب أن يكون من حقنا؟ بموجب القانون.

نظرت زوجة أوتاش بشكل غير مباشر في وجهها.

البطاقة لدى آوليت. ابنك أهداها لآوليت. وآوليت هو أقرب إلينا. الأقارب من جهة الأم يعَدّون أقرب من ابن العم.

من أين جاء مثل هذا القانون؟

من فجر التاريخ!

وجدت ما تقولينه! كنت أفكر في أنه إذا ما حصلنا على البطاقة، فسوف نقسمها بالتساوي، أما أنت، فلديك نيّات خبيثة.

الخبث عندك! لماذا تتقاسمين؟ إذا كان هناك من يقتسم، فسيكون أنا.

بعد أن تبادلتا الشتائم، خرجتا إلى الشارع. لم يكن توسان وأوتاش موجودين.

إيه، لقد اختفي هذان الاثنان.

قالت زوجة أوتاش.

اللعنة عليهما!

أجابت سافورا بغضب.

- أترين؟ أنتِ شخص غير مبالٍ. أنت لا تشفقين على زوجك!

- نحن هنا.

صرخ أوتاش من وراء ظلال الأشجار. لنذهب. من الضروري إصلاح السيارة.

نظرت إليه زوجته متوعدة. صعد أوتاش إلى السيارة واستلقى على المقعد الخلفي.

آليبيك مع زوجته والطفلين يتناولون طعام الغداء في مطعم الحديقة.

البذلة على مقاسك.

قالت جامال وهي تنظر إلى ملابس آوليت الجديدة.

- دانا، هل تعجبك؟

تعجبني جدًا.

أجابت الفتاة مومئة برأسها.

آوليت، ماذا لديك من أخبار؟

سأل آليبيك، محاولًا التقاط شيء ما.

لا أخبار. قريبا سنذهب في رحلة إلى كازيكورت.

مممم!

قال دون أن يكترث بهذا الخبر.

لا تغييرات أخرى؟

لا.

أجاب آوليت دون أن يفهم.

عمة جامال....

تحولت دانا بابتسامة، وأظهرت أسنانها البيضاء.

- في صفنا هناك صبي. إنه مثير جدا للاهتمام. ذات يوم، عندما عاد من المدرسة، سأله والده عن الدرجة التي حصل عليها. أجاب دون أن يخفي، "اثنان". وبخه الأب: "لماذا تحصل على اثنين؟"، فأجابه الابن: " لست أنا من حصل على "اثنين"، وإنما أنت. فأنت الذي قمت بحل التمرين أمس".

ضحك آوليت من كل قلبه. آليبيك وزوجته فقط ذهلا.

ماذا، أليست ممتعة؟

سألت دانا، وهي تنظر إليهما.

ممتعة. ممتعة جدًا!

أجاب آليبيك وهو يهز رأسه.

- في زيارته الأخيرة، أخذنا العم تانات إلى الجبال. تزلجنا ثلاثتنا. آوليت، كما تبين، يسقط طوال الوقت.

قالت دانا وهي تضحك من جديد بمرح. قال مستاءً:

سقطت أربع مرات فقط.

لا، سبع مرات!

الشتاء القادم لن أسقط.

بالطبع، إلى ذلك الحين ستكبر.

من جديد شرع الجميع في تناول الطعام. أرسل آليبيك ساق دجاجة إلى فمه، موجهًا الحديث إلى موضوع آخر:

في قريتنا فاز أحد التلاميذ بدراجة.

بقي الطفلان صامتين. لم يهتما بهذا. تبادل آليبيك وزوجته النظرات، رافعين وهازّين أكتافهما.

أوه، لا بد لي من العودة إلى المنزل.

قالت دانا فجأة.

- لقد أعطتني والدتي الإذن بساعتين فقط!

حسنًا، لنذهب.

قال آليبيك وهو ينظر في ساعته.

في السيارة فقط آليبيك وزوجته وآوليت. بعد صمت طويل، بدأت آليبيك بهدوء:

آوليت، أتذكر؟ أنت.... لديك بطاقة يانصيب؟

يانصيب؟!

نظر أوليت إليهما بالتناوب.

نعم، يانصيب.

قالت جامال

-كما تبين، أعطاك إياها مادين عندما كنت في القرية في ذلك الوقت.

آ-آ، نعم-نعم!

قال آوليت وهو يضحك

-بالفعل أعطاني.

لم تنس، أحسنت!

قال آليبيك المبتهج.

- أين هي؟

فكّر آوليت، وكأنه يستصعب الإجابة.

ماذا، هل أضعتها؟

سألت جامال بخوفٍ.

لا. لم أُضِعها.

أوه، ذكي. طبعًا آوليت لم يضعها.

قالت جامال، وهي تربت بلطف على كتفه.

لماذا تسألان عن هذا؟

أتعرف....

قال آليبيك منتقلًا إلى النغمة الرزينة.

- لقد ارتكبت خطًا كبيرًا. تلك البطاقة ملك الشركة. ودون أن ألاحظ أعطيتها لمادين. وتبين أنه أعطاك إياها.

لم ينطق آوليت بكلمة.

تذكر، من فضلك.

طلب آليبيك.

- إذا كنت تريد مثل هذه البطاقات، فسأعطيك مائة مثلها.

لماذا لا تعطيها للشركة؟

إنه أمر مستحيل، يا آوليت. هناك أرقام مسجلة.

نعم، لا يمكن.

قالت جامال منضمة إلى الحديث.

- يريدون مقاضاة عمك.

مقاضاة؟!

خاف آوليت.

مغتنمة ذلك، بدأت جامال بالمبالغة:

نعم، مقاضاة. وإلا لماذا نسأل عن هذه البطاقات؟

أنا أعطيتها.... أعطيتها لدانا، في عيد ميلادها.

قال آوليت بصعوبة وعلى مضض.

لدانا؟

سألت جامال.

- لنذهب.

أمرت زوجها واخزة آليبيك في كتفه.

العمة جامال. لا داعي للذهاب. كيف سأسترجعها منها!

حينها وصل تورسين وأوتاش في سيارتيهما. نظر آليبيك وزوجته بحواجب مقطبة، متوعدين، مستعدين، ربما، لقتلهما.

إيه، ها أنتم هنا.

خرج تورسين من السيارة واقترب منهم.

فتشنا عنكم في كل مكان.

قالت زوجة أوتاش.

- إلى أين هربتما وأخذتما آوليت معكما؟"

خرج آليبيك وزوجته من السيارة.

لماذا أنتما تسيران في حشدٍ؟

سألت جامال وهي تنظر إليهما.

وأنتما؟ سألت سافورا.

نحن ننزه آوليت.

نعرف السبب؛ فلا تخادعي

بادرت زوجة أوتاش.

إن كنتما لا تصدقان، ها هو نفسه، يمكنه أن يخبركما.

أجاب آليبيك.

ماذا أصابكم! بحضور الطفل بدأتم دعوى قضائية!

قال أوتاش.

- ابتعدوا. لقد قلت إنه ينبغي أن نغادر....

ابتعدوا بعض الشيء عن السيارة.

ينبغي أن نكون صادقين

بطاقات اليانصيب نحن من أهداها!

قالت جامال.

الآن هي من حقنا.

ردت سافورا.

-كيف يمكنك أن تأخذيها الآن؟ أين الضمير؟

أوليت هو أقرب إلينا منه إليكم.

قالت زوجة أوتاش.

- القانون في صالحنا.

وكيف ستحصلين عليها؟!

بدت جامال أكثر عنفًا.

- أخبريني أولًا وقبل كل شيء، هل شاهد آوليت منزلك في العموم؟

إيه، أيها الأقارب....

صاح أوتاش.

- ما بكم؟ ألا تخجلون؟

إذا كنت تشعر بالخجل، فقف ساكنا!

قاطعته زوجته.

- إذا كانوا هم لا يخجلون، فلماذا يجب علينا أن نخجل؟

تورسين، أنت قل شيئًا.

نظر أوتاش إليه. لم يعرف ذاك ما يقوله، فبتردد وببطء قال:

أنا أيضًا أؤيد أوتاش.

في هذه الأثناء اقترب منهم آوليت، وهو يبتسم بشكل لطيف.

العم تورسين، مرحبًا.

حياه ببراءة.

أوه، آوليت، كيف حالك؟

صاح ذلك وهو يسلّم عليه.

- حسنًا! دعني أقبلك.

الآن كلتا يداي حرتان، وليستا كما كانتا في الشتاء. الآن يمكنني أن أقبّلك.

انضم أوتاش أيضًا، بعد أن تذكر لقاءهما في الشتاء، وقبّل هو أيضًا آوليت.

يا إلهي، يا للحظ، ونحن المساكين لا يمكننا أن نحصل عليك!

قالت زوجة أوتاش معانقة آوليت،

- الآن ستذهب معنا للتنزه، حسنًا؟

يجب أن أذهب إلى دروسي.

أجاب آوليت، وهو ينظر بدهشة وارتياب إلى جمع الأقارب.

تبادل آليبيك وزوجته النظرات، وابتعدا خلسة، واختفيا.

لا بأس إذا فاتتك دروس اليوم، لا يأتي الأقارب كل يوم. غدًا يوم عطلة،.

نبهته سافورا بلطف.

أنتم.... أنتم لماذا اجتمعتم جميعًا؟

سأل آوليت خائفًا من شيء ما.

في الربيع حصاد. في تلك الفترة لن يكون هناك وقت. هذا هو السبب في أننا جئنا لنجتمع معك، أجاب تورسين.

تحول الصبي إلى جهة الطريق وصرخ بصوت عال:

العم تورسين! العم تورسين! إلى أين أنت ذاهب؟ أوقفهم! أوقفهم!

انطلق آوليت في الاتجاه الذي ذهب به آليبيك مع زوجته.

ماذا حدث؟ إلى أين ذهبوا؟

ارتبكت النسوة دون أن يفهمن شيئًا.

لحق تورسين وأوتاش بالصبي:

آوليت! آوليت! ماذا بك؟

ذهبوا إلى دانا. أعطيت البطاقات لها! في عيد ميلادها!

صمتت النسوة.

آوليت! اهدأ! سنلحق بهما بالسيارة!

قال تورسين.

استقلوا السيارتين، وانطلقوا في ملاحقة آليبيك. في السيارة الأولى تورسين وزوجته وآوليت. كان الصبي يبكي.

انظر، كم هما مخادعان.

خلصت سافورا، وهي تشحذ أسنانها على أولئك.

- أنت تعرف منزل دانا؟"

- بالطبع! أسرع، عمي تورسين! أسرع!

مع الهدير توقفت السيارتان الواحدة تلو الأخرى أمام بوابة منزل خاص. خرج آوليت من السيارة، وهرع على الفور إلى المنزل.

اتضح أن آليبيك وزوجته كانا يتحدثان إلى والدة دانا.

إنه لأمر غير مريح، بالطبع، من جانبنا.

قالت جامال.

– لكن، كم هو مخجل أن نطلب استعادتها. اعذرونا.

أصاب القلق كل الموجودين في الغرفة عندما رأوا آوليت.

أين دانا؟ سأل. كانت عيناه مبللة بالدموع.

آوليت! أنت.... ما بك؟

سألت أم دانا.

من الغرفة الأخرى خرجت دانا مع ربطة شعرها الجميلة، وهي تبتسم. توقفت مندهشة عندما رأت آليبيك مع زوجته وآوليت المحبط، اللذين تناولت معهم طعام الغداء.

من الشارع دخل مجموعة من الناس على رأسهم تورسين، الأمر الذي أقلق دانا وأمها.

آوليت، ما بك؟

سألت الفتاة وهي ترتجف.

دانا، أعطيني البطاقات .... لي شخصيًا! أعيديها لي! بسرعة!

بطاقات اليانصيب التي أهديتني إياها في عيد ميلادي؟

نعم، نعم! بسرعة!

بعيون مفتوحة نظرت الفتاة إليه. وفجأة بكت وهي تخرج من الحقيبة الكتب، وبدأت تقلب صفحاتها. حبس آليبيك وزوجته النفس، وراقبا بشغف حركاتها.

ها هي! خذ!

قالت دانا بعد أن وجدت أخيرًا البطاقات. رمت البطاقات إلى آوليت، وهرعت إلى غرفتها باكية.

فظيع، يا للعار!

همست بهدوء أم دانا التي أصابها الذهول.

بعد أن أخذ آوليت البطاقات، قطّعها إلى أربعة أجزاء، ورمى بها إلى جهة آليبيك وجامال. وجلس وانفجر بالكاء.

بيدين مرتجفتين جمع آليبيك قصاصات البطاقات المتناثرة، ودسها بسرعة في جيبه.

ارحلوا، ارحلوا!

صرخ آوليت مع امتعاض في صوته.

- خذ، وهذه خذها! لست بحاجة إليها، لست بحاجة إليها!

خلع البدلة والسروال، ورمي بهما إلى جهة الباب، ورمى بنفسه على السرير. ظهرت الدموع في عيني دانا.

همّ آليبيك وزوجته في المغادرة، وما أن تحركا، حتى قطع تورسين وأوتاش الطريق عليهما.

أيها الأقارب! قالت أم دانا وهي تنظر إليهم بقسوة.

- كنت أعتقد أنكم اشتقتم وأتيتم! .... ربما اعتقدتم أن البطاقة ربحت. لم تربح شيئًا. دانا لم ترمها، فقط لأنها هدية من آوليت.

خمد الناس، كل واحد منهم تجمد في المكان، حيث يقف.

بدأ وجه أليبيك يصاب بالحمى. وضع أصابعه المرتجفة في جيب معطفه، في حين كانت زوجته تحدق بعينين مفتوحتين فيه.

هاكم، تحققوا إن كنتم لا تصدقون!

قالت صاحبة المنزل، وأخرجت من درج الطاولة جريدة.

قارن آليبيك وزوجته أرقام البطاقات الممزقة مع الأرقام الموجودة في الصحيفة. الغريب أن الآخرين مدوا رءوسهم إلى الأمام أيضًا.

فحص آليبيك هذه البطاقات الثلاث مرارًا وتكرارًا. بعد فترة من الوقت، وبعد أن نظر في دفتر ملاحظاته، رفع رأسه ببطء. على جبهته حبات كبيرة من العرق.

كتبتها بشكل خاطئ.

قال بهمس.

تدفقت الدموع من عيني زوجته.

اقترب أوتاش من آوليت.

آوليت، انهض.

قال وهو يربت على ظهر الصبي.

أبعد آوليت يده بحدة.

اخرجوا! اخرجوا! لا أحتاج إلى أحد منكم، لا أحد!

رفع رأسه ونظر إليهم بغضب.

- العم تورسين، اخرجوا! .... انتهى!

بكى وهو يرتعش.

في عيني سافورا وزوجة أوتاش ظهرت الدموع.

في مكتب مدير المدرسة الداخلية يجلس المربي على الكرسي. المدير واضعًا يديه خلف ظهره، يمشي في المكتب ذهابًا وإيابًا.

نعم، لو أني سمعت من شخص ما، ما كنت لأصدق. رأيت بنفسي. يا له من عار!

قال وهو يهز رأسه.

هل جاءوا للاعتذار؟

جاءوا. وما الفائدة من ذلك؟ نحن في بعض الأحيان لا نعرف أي أناس يعيشون بيننا؟! الأطفال الذين نربيهم سيصبحون بالغين غدًا. كيف سيكونون؟ هل كل شيء يعتمد فقط على التربية؟

هناك أساسيات في طبيعة الإنسان ذاتها، والتعليم يوجه فقط.

لا ....

أعلن قطعيًا.

- التربية ليست في المدرسة، وليست في المدرسة الداخلية، وإنما في المنزل، في الشارع، في محطة القطار، على متن طائرة، في السيارة، يجب أن تكون في كل مكان. ليس بالكلمات، بل بالأفعال كل شخص بالغ مربٍّ. يجب عليهم أن يقدموا قدوة وأمانة.

في هذه الأثناء فُتح الباب، وظهر حارس.

السيد المدير! لقد وجدت ثلاثة أعقاب سجائر جديدة في المرحاض!

قال بصوت عالٍ كما لو أنه يكشف سرًا عظيمًا.

ضعها في جيبك! أغلق الباب!

صاح المدير بغضب.

انصرف البواب.

نعم، هكذا....

تابع ما كان يقوله.

-كيف حال آوليت؟

لم ينهض من السرير بعد.

لا تزعجه. دعه يهدأ. ليس هو، أنا بالكاد تجاوزت ما حدث.

اثنان من أقاربه، اللذان جاءا في وقت لاحق، يبدوان متفهمين.

المدير، بصمت، بالكاد حرك كتفه.

وسط الفناء في زاوية مقعد حول الطاولة الطويلة، التي عليها يؤدي الأولاد في فترة الصيف واجباتهم، يجلس آوليت وحيدًا. جفت دموعه، لكن الحزن لا يتركه. الحدث المرير الذي واجهه في الحياة وجهًا لوجه، يبدو أنه أخرجه عن المسار، فبدا منهكًا.

فوق الطاولة أضاء مصباح واحد، حيث لم تكن هناك حاجة للبقية التي رُبطت من الأعلى. من نسيم الربيع البارد، كان المصباح يتأرجح بهدوء، ويضيء من وقت لآخر جسم آوليت.

من الشاحنة التي توقفت أمام البوابة، نزل تانات. ذهب إلى المبنى، حيث يعيش آوليت، لكنه سرعان ما غادر. لاحظ تانات صبيًا يجلس بمفرده، فاتجه بحذر نحوه. ابتهج ونادي بهدوء:

آوليت!

لم ينظر آوليت إلى الوراء. لم يفهم تانات سبب الصمت، توقف مترددًا.

آوليت.

قال بخجل.

- أنت لم تعرفني؟ لماذا لا تنظر؟

أراك.

أجاب آوليت ببرود.

- لماذا أتيت؟

كيف لماذا؟ آوليت، هل أنت مريض؟

أنا أسأل، لماذا أتيت؟ أجبني!

انحنى تانات قليلًا نحو الصبي، ونظر إليه بقلق.

لقد فزت في اليانصيب بـ"مرسيدس".

قال آوليت بحزن.

سمعت.

قال تانات.

- يعني هذا صحيح؟

نعم، حقًا! أنا أنتظرك لأقدمها لك.

لا، لا تقل ذلك، يا آوليت!

لماذا لا تفرح؟

سأغضب منك.

كذب!

أجاب الصبي، وتحول بحدة.

- كذب! كلكم تحبون التحدث بدون صدق. بتملق. كذب!

أنا لست بحاجة إلى أي شيء. هل سقطت في أي شيء؟ يبدو أني تأخرت. لم أستطع الخروج من العمل....

آسف....

أراد تانات أن يحضنه، فارتدّ آوليت عنه.

اخرج! اخرج! الآن أنا لست بحاجة إلى أي شخص! لا لأحد!

أو .... ليت!

رفع تانات صوته، وهو يقترب منه. تراجع الصبي إلى الوراء.

لا تقترب! لا تقترب مني!

بسبب هذه الكلمات، أنا لن أقترب منك فقط، بل سأحطم حنكك.

اندفع تانات نحوه، أراد أن يمسك به، لكن الصبي تراجع، ارتطم بشجرة وسقط. ساعده تانات على النهوض، واصطحبه إلى النور.

ماذا حدث، هيا، أخبرني! أمره وهو يهزه من ياقته عندما جاءا إلى المكان المضاء.

عدد من الصبية الذين لم يرقدوا بعد، مروا بالقرب منهما، وبعد أن شاهدوا الغريب الذي يهز آوليت، صرخوا. قفز من المبنى عدد آخر من الأولاد. حاصروا على الفور تانات، ودون أن يعيروا اهتمامًا لشيء، بدأوا يركلونه. عندما رأى آوليت أن الأولاد يضربون تانات بشدة على رأسه، أراد أن يتدخل، ويتوسط من أجل تانات، لكن لا يمكن إيقاف الصبية.

من الزاوية ظهر البواب مع مكنسة. "يدخنون. يتعاركون. يا لها من تربية!" تذمر بحقدٍ، منتقدًا المعلمين.

في هذا الوقت، فُتح باب مكتب مدير المدرسة على مصراعيه، وشريط من الضوء اخترق الظلام.

أتاس!

باختصار قال أحد الأولاد.

اختفي الأولاد في لحظة.

بقي تانات جالسًا ممسكًا برأسه.

في ركن مطعم صغير يجلس تورسين وأوتاش مع زوجتيهما. كل واحد منهم ينزوي وحيدًا مع أفكاره.

نعم، تلك كانت خساسة من جانبنا.

اعترف أوتاش علنًا.

لقد أهنا الطفل بشدة. لن ينسى أبدًا.

أضاف تورسين وهو يتنهد.

أي شيطان أغوانا؟

قالت زوجة أوتاش، وهي تمسح عينيها بمنديل.

ربما لا شيء يمكن أن يخفف من ذنبنا.

قالت سافورا وهي تبكي.

صمت الأربعة من جديد.

أيها الأقرباء....

بدأ أوتاش متحمسًا حقًا

-لم أفكر قط أن مثل هذا الوضع سيحدث معنا. في الحياة الهادئة الخالية من النزاعات، كلنا جيدون. تبين أنه عند رؤية المال ينفجر الشر، والنذالة المخبأة عميقًا في داخلنا، ويمكن أن نبدأ بسهولة العض، مثل كلاب غريبة بعضها عن بعض. لولا هذه الحادثة، لعشنا حياتنا كلها بدون أن نشعر بأي شيء. ما الفوائد التي نندم عليها؟ حتى الموت لن ننسى، لا نحن ولا آوليت.

ما العمل الآن؟

سألت سافورا، ومن جديد عادت الدموع إلى عينيها

-كيف نبلسم هذا الجرح في قلبه؟ لدينا جميعًا أطفال. لو كانوا مثل آوليت، يتامى، وعاملهم الأقارب بالطريقة نفسها....

لم تتمكن من مواصلة كلامها، وانفجرت في البكاء. انضمت إليها زوجة أوتاش.

توقفا. ماتفعلانه مخجل أمام الناس.

قال تورسين.

-كيف لهم أن يعرفوا لماذا تبكيان!

لينظروا.

أجابت زوجة أوتاش بصوت مختنق.



خارج المدينة، على جانب الطريق، تقف سيارة آليبيك، بجانبه تجلس زوجته.

أنت من بدأت كل هذا.

عاتبت زوجها.

- لديك على جبينك عينان أم زائدتان؟

ولو كان ذلك صحيحًا، ماذا كنتِ ستقولين؟

لا أعرف. كان من الواجب أن نفكر. كيف ينظر إلينا الناس الآن؟

ربما ننتقل إلى مكان ما.

وهذا لن ينقذنا.... لن تبتعدي.

اندفع تانات مع آوليت بالسيارة. رأس تانات مضمَّد. يبدو أن الضرب كان سهلًا على هؤلاء الفتيان.

بذلك أكون أنا قد فزت في اليانصيب بعمامة على رأسي.

قال تانات مبتسمًا.

كذلك ابتسم آوليت، وهو ينظر إليه.

هل تشعر بالألم؟

ضوضاء في الأذن اليمنى.

حتمًا يكون في الأذن ضوضاء، حين يقرر فتياننا أن يضربوا.

نظر إليه تانات، وابتسم من جديد.

نقوم ببناء خزان ماء كبير. عندما يكتمل البناء، لن تكون هناك حاجة إلى البحر الأسود أو بحر البلطيق. فيه ستولُد أنواع مختلفة من الأسماك. مع أبنائنا سوف تصطاد الأسماك طوال الصيف. في أيام العطلات سأقلّكم بنفسي إلى هناك....

غفا آوليت. لم يسمع تتمة حديث تانات. ما أن أطبق أجفانه، حتى ظهر أمام عينيه ما يشبه التوهج الضبابي. وأخذ يزداد جلاءً، وتحول إلى ربطات شعر، مثل أجنحة فراشة.

في اللحظة التالية، عبر حقل الأزاهير الحمر، تركض نحوه دانا مع ربطات شعرها البيضاء. ولكن لسبب غير معروف كانت تركض وتبكي. خلفها ظهر آكتوس يندفع فرحًا.

أور الخان بوكيي

(1943 -1993)



- كاتب نثر، وكاتب مسرحي وصحفي، تخرج في الجامعة الوطنية الكازاخية عام 1968.
- صدرت أول مجموعة قصصية له بعنوان: "الدافع"، وجذبت له اهتمام القراء على الفور، وفي وقت لاحق صدر له العديد من الأعمال الأخرى، مثل: "نجمة أوركر"، "أين أنت يا جوادي ذو العلامة على جبينك؟"، "ذروة الجليد"، "خفتت النجوم"، "فصول الشتاء الطويلة"، "الأرق" والعديد من الروايات والقصص الأخرى التي يصف فيها الكاتب جمال جبال ألطاي، ويصف مصائر الناس في شكل غنائي ورومانسي رائع.
- أثبتت هذه الأعمال أنه موهبة بوكي الأدبية تعد ظاهرة فريدة في الأدب الكازاخي.

- كتب العديد من المسرحيات، مثل: "جوادي"، "على درب الجبال"، "طفل في الخلف"، "أنا أخافك" وغيرها من المسرحيات التي تمت تأديتها باللغين الكازاخية والروسية على المسارح المحلية والمسارح الحكومية، وكذلك على مسارح الدول المجاورة.
- قام بتأليف العديد من الأفلام الروائية المستوحاة من قصة "الإنسان - أغزال" عام 1985.
- تُرجمت أعماله إلى اللغات الروسية، والإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، واليابانية، والعربية، والصينية، والسلوفينية، والبلغارية، والمجرية، وعشرات اللغات الأخرى.
- عام 1994 ، نُشر كتاب أعماله المؤلف من مجلد واحد، وفي عام 1996 نُشر كتاب شامل لكل أعماله في مجلدين وأعيد طبعه فيما بعد.
- حصل عام 1976 على جائزة "اتحاد الشبيبة" السوفيتي عن مسرحيته "جوادي".
- في عام 1978 حصل على جائزة "أستوروفسكي الأدبية" على كتابه "العاصفة".
- في عام 1986 حصل على جائزة "آباي" الحكومية عن كتاب قصصه بعنوان "فصول الشتاء الطويلة".

كيربوغو

- آ-آوآوآ!

الغزال الرمادي القوي لجيربوغو -هكذا يسمون في هذه المناطق زعيم قطعان الغزلان -لم يشرب ولم يأكل اليوم، كان شديد العطش، لكن ما إن لمست شفتاه المياه المجمدة للنبع، وحوافه الجليدية الرقيقة والمزخرفة كشريط زينة، حتى أصابته الرجفة، وضعفت ساقاه إلى درجة أنه على وشك أن يسقط مباشرة على قرونه، عندها تراجع.

لكن العطش الذي يلهب جوفه كان أقوى منه، دفعه، وحثّه، اقترب بهدوء من النبع ثلاث مرات، وتراجع ثلاث مرات، هو نفسه لم يستطع أن يفهم لماذا كان الأمر على هذا النحو: يريد أن يشرب، وعند قدميه يتلاطم ويغلي ويضحك النبع مبتهجًا، لكنه لا يزال غير قادر على اكتساب العزيمة، وأن يغمر وجهه فيه.

لا، صحيح أنه على ما يبدو قد كبر وضعف، وتلك مصيبة، لا يمكنك أن تفكر في أي شيء أشد منها،

ولكن، بعد بضع دقائق فكَّر، إنما بطريقة مختلفة: لا، لا، هذا ليس أوان شيخوختي، سيكون هناك... سيكون هناك لدى كبير الغزلان الرمادي أيام أخرى للبازار الممتع.

لم يكن ضعفه من الشيخوخة على الإطلاق، ببساطة خلال دورة شبق التزاوج، لمدة ثلاثة أيام لم يستطع إغلاق عينيه، ولم يعط راحة لساقيه أو قرنيه، وهكذا أُرهق بكامل قواه.

تذكَّر أن في العام الماضي كانت هناك دورة شبق تزاوج أيضًا، إلا أنه حينها لم يُنهك، وفي العام قبل الماضي تمكن حتى من التعامل مع قطيع من الإناث بالكامل، ولم يتجاوز أيًا منها.

ما الذي حدث له إذن؟ أم إن أوائل الخريف في هذا العام كانت باردة وعاصفة، وتجمَّد هو حتى العظم؟ نعم، ولكن بعد الخريف يأتي فصل الشتاء لمدة ستة أشهر، والتنين الشرس لهذه الأماكن، هل تحَملها دائمًا كلسعة البعوض؟

صحيحٌ أن هذا الخريف كان مبكرًا جدًا، والشمس الآن دائمًا في الغيوم الكثيفة والثقيلة، كجزر جليدية عائمة خلال الطوفان، أصبحت السماء منخفضة، رمادية، من الصباح حتى الليل تهطل الأمطار، صغيرة، مائلة، باردة، هكذا تبدو وكأنها ستجبر الأرض على أن تنتحب من الحزن، والريح تعوي وتعوي، أيضًا باردة، مخترقة، ومعها تطير خطوط المطر إلى مكان ما، بيد أن الأكثر كآبة هو سماع عويل الغابة، إذ يندمج صوتها

مع صوت المطر والريح، ولا يبدو ذلك نحيبًا، بل هو أغنية بكاءٍ حول الأيام الضائعة، وكيربوغو-الغزال الرمادي -أطلق نداءً مطولًا:

آآآآ-آوآوآو-آآآآ!

لم يعد صوته هو نفسه كما كان من قبل، لكن رغم كل ذلك، كان صدى القدرة الماضية لا يزال محسوسًا فيه! فيما مضى حمل الصدى نداءاته القوية لأميال كثيرة حوله، وكل ما كان حوله -الجبال المغطاة بالثلوج، والوديان التي حملت في نفسها الموت والرعب -التقط صوته المدوي، وكرر صداه مائة مرة، والآن لم يسمعه أحد، كان مجرد غزال عجوز يقف فوق جدول انتفخ من المطر، وهدَّر، تارة يشكو، وتارة أخرى ينادي على أحدٍ ما للمساعدة، لكن أحدًالم يستجب لندائه المتأخر، أين أنتِ أيتها السرعة السابقة؟ أين أنتِ أيتها القوة والشجاعة؟

من أجلك كنت دائمًا على استعداد للتضحية بكل شيء.

ليست هناك لحظة واحدة في حياته، لا يرتعش حين يذكرها لمكنوزها من البهجة، في حين طارت هي بعيدًا، وهو عجوز، وحيد، تمزق الدموع عينيه.

ومع ذلك، فإن الغزال لا يستسلم، لا، إنه لا يزال بعيدًا عن أن يكون عجوزً، إنها ببساطة الأريام الفتية بحماسها والخريف القاسي أضعفت قوته، وغير ذلك ما زال هو جيدًا، ولا يزال متماسكًا تمامًا، بعد أن تراجع عن الجدول، صاح مرة أخرى داعيًا قطيعه، لكنها لم تكن صيحة المنتصر للذكر القوي كيربوغو، وإنما صيحة غزال متأخر، لم يكن هناك جواب.

بعد الانتظار لفترة أطول، بدأ في تسلق الجبال، لكن الجبال، كما لو أنها تآمرت، لم تكن هي، هل كبُرت أم ماذا؟، يتسلق، ويتسلق، ولكن ليست هناك نهاية للنتوءات والدهاليز.

بالكاد يتسلق الصخور بجهد، تختنق أنفاسه، تمسك بحلقه، شيء ما يضغط ولا يدعه، توقف لأخذ استراحة... كان رأسه مخفضًا إلى أسفل، نعم، ربما، إن لم تكن هذه النهاية نفسها، فهو استسلام بالفعل، وخضوع للقدر.

كان رأسه الشامخ يتدلى، وصدره، الذي كان مرتفعًا عاليًا، منهكًا، كل شيء فيه كان فارغًا وأصمَّ كما في القبر، والحيوان البري العنيد، الذي أعطى القرون كل عام، ولكنه لم يسمح حتى بأن يُمسَّد، أصبح هادئًا وديعًا، وهذا يعني أعلى درجة من الإذلال.

الضربة القوية التي تلقاها خلال المناوشة الأخيرة على جانبه، ها هو يشعر بألمها من جديد، لدرجة أنه كاد يسقط، وفكَّر آنذاك أنه لن يرى رقص الأنثى الفتية إلا في المنام، وأنه لن يتمكن قط من أن يلمس برفق ردف أو ظهر الغزالة الأم التي تمر أمامه بفخر، وأنه فقد طريقه في ضباب كثيف، وغرق في دوامة نهر سريع، ولن يستطيع أن يسبح للخروج من هذه الدوامة.

كل هذا فكَّر فيه، وتذكَّره، وومض أمامه، فرفع رأسه، وارتعد من الألم والتوتر، وأطلق بكل عضلة:

آآآآآآ-آوآوآوآوآوآو-آآآآ!

في وقت مبكر من صباح البارحة، عندما قام كيربوغو، كالعادة، بتجميع الأيائل في القطيع وقادها إلى الجبال، أحاط به ذكور الغزلان، وكانت نظرتهم تقول إنهم سيموتون، ولن يتركوا الإناث معه، لكن لم يكن عبثًا أن كان كيربوغو زعيمًا لسنوات عدة، وانتصر في كل النزالات، فرّق الأيائل، ونفخ منخريه وصاح: "آآآوآوآوآآ". على الفور انقسم القطيع، هربت الإناث، في حين رفع الذكور قرونهم وحفروا بعنف الأرض بحوافرهم، واصطفوا، واستعدوا للمعركة، وقفوا بعضهم ضد بعض، وبدأوا يشخرون وينظرون إلى كيربوغو، والجميع يأمل في الفوز، الغزال الفتي القوي الذي كان يقف مقابل كيربوغو، أبعد عينيه: كان يرتجف بكل جسمه، وكيف! إنه ليس بالأمر السهل معارضة الزعيم نفسه، لكن كيربوغو لم يشعر بنفسه أفضل، كان يعلم بالفعل أن هذا العام سيكون صعبًا بشكل خاص بالنسبة له، ولذلك أراد قيادة القطيع في الصباح الباكر، ولكن الغزلان الشباب قطعوا عليه الطريق، نظر كيربوغو إلى خصمه، فتي، مع خمسة عشر فرعًا ليِّنا على قرونه، أما كيربوغو فقد كان خجولًا أمامه! ماذا سيحدث عندما يبقى في نهاية القتال وحده مع الأقوى؟ وقف الخصوم، ترددوا، وتغلبوا على خجل اللحظة، واندفعوا فجأة بعضهم إلى بعض بكل قوتهم.

طاخ!

بدأت المعركة!

ضربة قوية تلتها أخرى، القرون القوية التي بدأت بالتفرع، اخترقت مع الصفير الهواء، بدا أن الشرر من القرون والرءوس كان يتناثر على الأرض، لم تكن المعركة من أجل الحياة، ولا من أجل الموت، بل من أجل الحق أن تكون أولًا، رءوس الغزلان الجميلة كما لو كانت منحوتة على يد حِرفيّ ماهر، ترتفع إلى الأعلى، وتنقض بشكل بعضها محموم على بعض، لا تُرى إلا خيالات، لأن كل شيء يلفه هذا الضباب الكثيف الذي لا يحدث إلا في ألتاي، لكن ها هو الضباب يزحف جارًّا أطرافه إلى الأراضي المنخفضة، عندها أصبح من الواضح أن على المرج الأصفر والأخضر لم يتبق سوى كيربوغو ومنافسه الغزال الشاب جاسبوغو، البقية بعد أن تعرضت للهزيمة، بدت كما لو أنها ذابت في الضباب.

النزال! يراه كيربوغو قانون الشجاعة وقوة قطيع الغزلان الجبار، لكنه لم يكن يعلم أن هذا القانون موجودٌ أيضًا لدى أبناء آدم العقلاء، وأنهم أكثر دموية وقسوة، فالناس لا يستطيعون، مثل الغزلان، بعد أن يتقاتلوا مرة في السنة، العيش بسلام جنبًا إلى جنب، لم يحصل كيربوغو على أي معلومات حول هذا الأمر، على الرغم من أنه كان يتساءل في بعض الأحيان عن السبب الذي جعل الناس يحتفظون بالحيوانات البرية في الحظائر، ويشبعون شغفهم غير المفهوم بقرون الغزلان المجوفة.

حيث النزال، تكون هناك العدالة أيضًا!

مرت دقيقة نسيان، أمام الزعيم العجوز وقف جاسبوغو يضرب الأرض، أصبح في عيون كيربوغو ضبابيًا، بصعوبة رفع رأسه المنهك من الضربات الثقيلة، وعندها فقط أدرك أنه كان متعبًا حقًا، لكن جاسبوغو كان

ينظر إليه وهو يشخر، وكان جسمه الضخم متوترًا إلى أقصى حد، وكان بإمكانه الاندفاع نحو المعركة في كل ثانية، وفي تلك الثواني القليلة فجأة لم ير في جاسبوغو عدوًا، ولاخصمًا، وإنما نفسَه في أيام شبابه، ومن هذا الفهم الواضح لنهايته، أغلق عينيه، والألم في صدغيه، ربما كان في هذه الوضعية سيقع، وكان سيبقى على الأرض لو لم تدوِّ دعوة قوية إلى القتال.

رأى الغزال الفتي أن الزعيم ضعيف، وكان بمقدوره أن يتعامل معه بضربة قوية واحدة على جانبه، إلا أنه كان نزيهًا وفقًا لشريعة الغزلان، شعر كيربوغو بالخجل، جمع كل إرادته الوقورة؛ إرث أسلافه البريين الذي لم يخذلهم قط، رفع رأسه، ورمى القرون، عيناه الرطبتان المفتوحتان واسعًا، دمرتا العدو، وفي الوقت نفسه توسلتا طلبًا للرحمة: "تخلَّ لمرة واحدة عن دورك، لديك في الحياة كل شيء، وأمامك المستقبل، تخلَّ ... ففي الخريف المقبل ربما لن أكون موجودًا".

بعينيه المليئتين بالدماء، تراجع جاسبوغو إلى الوراء، واستعد للقتال، للحظة بدا لكيربوغو أن من يقف أمامه ليس بغزال، بل رجل عجوز ملتح قاس مع منشار، وأنه الآن سيبدأ بقطع قرونه الثمينة مع فروعها الثمانية عشر، وكحديد باردٍ، أحرقه الحزن، وارتجف من الغضب، ها هو عدوّه المميت!

إنهما يقفان بعضهما مقابل بعض، وفي الجانب تقضم الغزلان الأخرى العشب بهدوء، لا يهمها من سيسقط، ومن سيصبح زعيمًا، شخر كيربوغو، وحفر الأرض بحوافره المشعرة، وتراجع، واندفع العدو كالبرق فجأة.

طاخ!

لوهلة فقد وعيه، وعندما استيقظ، رأى كيف كان جاسبوغو ينسحب مذهولًا ومتعثرًا، نفرت الدموع من عينيه، وصرخ بقوة، كما كان يصرخ في شبابه:

آآآآآآآآ-آوآوآوآوآو-آآآآآ-آوآوآوآوآوآوآوآوآوآوآو!

.... رفع كيربوغو رأسه، قطعَ ورقة بتولا مصفرة، وبدأ يمضغ للمرة الأولى، في الصباح، لم يكن الضباب قد تبدد بعد، تساقطت قطرات مطر يتيمة، ضاربة إياه تارة هنا، وتارة هناك، كان الهواء رطبًا جدًا، وعلى الأرض وفي السماء كان الماء يتدفق في كل مكان، كان يكفي أن تلمس البتولا، حتى تسقط القطرات منها، دموعًا في كل مكان، لا روح في الغابة الميتة، يبدو أن كيربوغو البائس بقي وحده في العالم، حتى صيحته لا تُسمعر هو وحيد، ولا يوجد قطيع، نعم، وحتى قوته ما كانت لتكفي لكل هؤلاء الشباب، هذه الغزلان الفتية الجشعة، لأنها، فور شعورها بعجزه، بدأت بالجري، إنها حالة من الفوضى، عندما يبعثر غزال عجوز متهالك الذكور الشباب، لكن كيربوغو سحقها بقرونه، في حين كانت هي تجري إلى حيث يوجهها، والغزال الشاب، الخاسر في معركة اليوم (بصعوبة سحب أقدامه، وبصفة عامة كان مثل كلب ابتلع إبرة)، لم يتخلف عنها أيضًا، استدار كيربوغو عدة مرات، وأمال قرونه مهددًا، في حين تراجع منافسه المنهك، وهرب بعد دقيقة واحدة متعثرًا خلف القطيع، لكن حالمًا استدار كيربوغو، قفزت الأريام الفتية جميعها إلى جاسبوغو وبدأت تشمه، في حين لم يتثاءب هو.

كيربوغو الذي حقق بهذه الصعوبة الانتصار، ربما الأخير، أدرك أنه لا يمتلك القوة ولا الرغبة في أي شيء آخر، ومع ذلك، نفخ منخاريه وتودد إلى شابة فواحة لعوب ذات شعر أسود مزرق، ولحم غزال فواح بشدة.

كانت عظامه تؤلمه، وأوجعت بشكل غير محتمل جميع مفاصله المليئة بسائل أصفر ثقيل؛ فالمعركة استمرت طوال اليوم، أين أنت يا قوته وغضبه؟ أين ذهبت تلك الأيام، عندما كان يقود عشرات الأريام جملةً، ولم ينس أيًّا منها... والآن انقض أيضًا على فتيَّة، داعبها وهو يفركها جانبيًا، قفز، ولكن، كما لو جثم في صدره حجر أسود ثقيل، لم يستطع أن يفعل شيئًا، لا شيء على الإطلاق، والريم المعذبة التي فقدت بالفعل راحة البال، قامت بصمت وبحزن بتحويل عينيها الجميلتين إلى جاسبوغو الشاب الذي لم يخاطر بالاقتراب، وبقي طوال الوقت بعيدًا، أصيبت الريم الفتية بالدوار، وارتجفت بكامل جسمها، وبعد أن أُنهِكت أخيرًا، ثغت بحزنٍ ورقّة، وهي تتأمل مذعنة معذّبها.

للأسف كان كيربوغو عاجزًا، لم يبق شيء في جسده القوي سوى الرغبة، وهنا لم يستطع جاسبوغو التحمل، سئم من هذا الصخب، من العجز المتفاخر للعجوز؛ من حقيقة أن هذا العجوز لا يستطيع حتى أن يهز قرنيه. وهو، كنمر صغير، انقض وهو يهدر على العجوز الذي خار فجأة على ركبتيه بجانب الشابة. ("تموت أيها الكلب العجوز، وتندفع إلى هناك أيضًا!")، ووجه ضربة رهيبة إلى جانبه، جعلت الزعيم العجوز، الذي لم يذق لعشر سنوات طعم الهزيمة، يسقط إلى الخلف، في حين كابدت ساقاه بيأس في التشبث بموقعها، الأريام اللواتي شاهدن ذلك، بدأن يركضن نحو الفائز، يدرن حوله، ويلعقن شفتيه، وفي اللحظة التالية، قاد جاسبوغو القطيع بأكمله عبر الممر.

لم يستطع كيربوغو أن ينهض على قدميه، ويلحق بالقطيع.

حين كان شابًا، فإن أي غزالة أمٍّ قوية ما كانت لترفضه، ولكن كل الرغبات خمدت فيه، ولم يكن من الواضح لماذا اندفع إلى هذه المعركة، وما الذي أراد أن يثبته عندما كان يعلم تمامًا كيف سينتهي كل ذلك؟ آه، شيخوخة، شيخوخة، لماذا لا ترى نفسك! اليوم الذي تقضيه في سوق الشباب، لا بد من أن يجلب لك ألف يوم من العذاب والمعاناة، بقي كيربوغو مستلقيًا لفترة طويلة يستجمع قواه، في البداية، على ما يبدو، من الحمى لم يشعر بالألم، والآن كل داخله يؤلمه، لم تُطِعه ساقاه، وبالكاد جرّ نفسه إلى حافة الغابة، حيث أوغل في دغل، واستلقى واضطجع دون حراك حتى الصباح، وفقط عند الفجر اقترب ببطء من الجدول، بعد أن شرب، بدأ في تسلق الجبل، ورقة البتولا الذابلة التي قضمها مؤخرًا أعاقته كثيرًا، ويبدو أنها التصقت بحنكه، ولم يتمكن كيربوغو من التخلص منها، في بطنه ألم شديد، قبل الذهاب إلى الرعي لم يقضم ولا قطعة عشبٍ واحدة، غاصت خاصرتاه، وكأنهما التصقتا بعضهما ببعض من الداخل، وكانت البراعم التي أضيفت إلى القرون مؤخرًا تئن بصمت، جلبت له هذه القرون الكثير من الألم والتعاسة لدرجة أنه فقد الثقة في العالم بأسره، والآن قرر أن يفتش في مكان ما عن أدغال أرز كثيفة، ليستلقي وينثني فيها حتى المورد التالي، أو حتى نهاية حياته، وإليها ليس هناك أكثر من خطوة غراب واحدة... استلقاء، وتفكير، وتذكر، ولكن أول ما سمعه

كان الصوت المبتهج، الجاسبوغو الذي كان قد شلَّه، جاء من خلف الفروع الملتوية البعيدة للجبل الأبيض، كان هذا السليل المبتهج مألوفًا له. ذات مرة، بعد أن فتح جبهة زعيم عجوز، واستولى على القطيع، غنى أيضًا أغنية النصر الصاخبة هذه، لكن العالم متغير، وكل ما في العالم له نهاية.

آآآآ-آوآوآوآوآو-آآآآ!

ربما كان جاسبوغو، بلحمه ودمه ابنه، قرونه فقط ليست من ثمانية عشر فرعًا، وإنما من خمسة عشر، وربما كان كيربوغو هو الأخير في سلالة نادرة من الغزلان التي لها قرون بثمانية عشر فرعًا، ويمكن أيضًا أن يحدث أن هذا الأحمق الصغير، الذي "بآآآوواه" يُصمُّ الآن جميع السفوح، سينجب غزلانًا بثلاثة عشر فرعًا، ومن تلك-بأحد عشر، ثم بعشرة، وثمانية... آه. في النهاية سوف يولُد غزال بلا قرون، ولن يكون من الممكن تسميته بالغزال، كل شيء ممكن، كان على جاسبوغو أن يحترم قرون العجوز الثمانية عشر المترامية الأطراف، لأنه نفسه لن يحصل على مثلها أبدًا، لكنه لم يحترم ذلك، ودخل في المعركة، وأخذ القطيع، أي عقل لدى الأيائل الوقحة؟ من هو أقوى يحكمهم؛ ثم يتبعونه بخنوع، ليس لدى الغزلان لا عقل ولا قرون، وليس عبثًا بلا قرون.

في زمانها وُلدت فاجينكا (1) الطفل كيربوغو في دغل كثيف، في وحدة كاملة، لم يأت إلى هناك لا ناس ولا حيوانات، انتظرت حتى وقف على قدميه، وعندها فقط جلبته إلى القطيع، منذ ذلك الحين رأى الكثير: الحسن، والسيئ، وسعد بالكثير، وحزن من الكثير، ولكنه إلى الآن لا يزال غير قادر على نسيان معاناته الأولى.

كانت الغزلان عندها ترعى بهدوء على منحدرات التلة وفي التجاويف، لكنها سمعت صيحات وصراخًا، من خلف الشجيرات الكثيفة، قفز فرسان وغربان في أيديهم، وقف كيربوغو مذهولًا، لا يعرف ما كان يحدث، وفجأة رأى رجلًا ملتحيًا يندفع إليه مباشرة على حصانٍ أسودٍ بنجمة على جبينه، وما كان قد تمكن حتى من العودة إلى رشده، ليفاجأ بالحبل يهوي على قرونه، شاهد كيف كانت الغزلان تهرع إلى الأسفل، واندفع وراءها، إلا أن الناس الذين كانوا يمتطون خيولًا سريعة، كانوا يصرخون وينقضون من جميع الجهات، قادوه أولًا إلى سياج كبير، ثم إلى آخرَ، أصغر حجمًا، وهكذا انتقل من مطاردة إلى مطاردة كانت تصغر وتصغر، حتى قفز إلى بوابة صغيرة، سرعان ما أُغلقت خلفه، قام أحدهم بوخزه بعصا طويلة، ثم قاده على طول السياج، ثم أجبره على القفز على منصة خشبية، وأغلقها بحاجز عرضي، وقف كيربوغو، ونقَّل قدميه بخوف، كيف ولماذا كان في هذا المكان الصغير؟! لم يفهم، أراد أن ينجو، فسقط في الفخ، وفجأة، بدا شيء ما وكأنه كماشة تضغط على صدغيه، ثم توقفت فجأة، سقط قلبه، انهارت المنصة في سرداب، ضغطت مخالب الكماشة بشكل أقوى، سقطت السماء على الأرض، الغابة والجبال معلَّقة وقممها إلى الأسفل، والرجل رجلاه إلى الأعلى، انقلب الكون كله في العيون الرطبة للغزال، والرجل، مالك هذا الكون، سار في القرب حاملًا

(1) فاجينكا: أنثى الغزال.

منشارًا مُعدًّا، وفي عينيه الجشعتين الأنانيتين رأى الغزال انعكاسه، انغرست الأسنان المعوجة للمنشار في القواعد الشعثة للقرون، عندها بدا لكيربوغو كما لو أن مليون نملة انقضت على دماغه العاري وتلتهمه، واه، كيف أنَّت عندها أسنانه البيضاء المصفوفة كاللؤلؤ، عيناه الواسعتان الخائفتان المتوسلتان امتلأتا بالدماء وكادتا أن تخرجا من مداريهما، فلأول مرة هذا الغزال الفخور الحر الذي كان ينتقل مسابقًا الريح من تلة إلى تلة، من غورٍ إلى غورٍ، وصل إلى البداية المرة والحلوة للحياة، وتذوقها.

أُطلق سراحه من فك الكماشة، قفز مبتعدًا، وثب، أراد أن يهز قرونه، لكن رأسه العاري المتصدع بدا مثل برميل فارغ، عندها ثار فيه الغضب مثل حمم بركان، في ضربة واحدة قفز كيربوغو فوق الحصان الأسود بعلامة النجمة، الذي كان يقف في مواقف الخيول، وانطلق كزوبعة.

إلى أين تنظر العيون، بعيدًا عن البشر، ركض دون أن يتنفس، دون أن يتوقف، وكان على استعداد للركض على هذا النحو ما دام لديه قوة كافية، لكن سياجًا انتصب أمامه، سياج من أعمدة مقطَّعة، ركض كيربوغو على أمل الوصول إلى النهاية بسرعة، لكن السياج لم ينته، وبعد أن ركض حول الجبال والأغوار، وعاد إلى مكانه السابق، أدرك أنها، الغزلان، لا تعيش إلا مطاردة، في مساحة محاطة بالأوتاد.

في الصيف يكون حقل الرعي واسعًا، تسير فيه إلى السقاية، وترعى، وعندما يأتي الشتاء، يتم دفعها إلى مرعى أضيق، في الشتاء تشرب الماء من جدول غير متجمد، وتأكل علفًا فواحًا، في الصيف يتم دفعها إلى ممر ضيق، يبدو أن الغزلان لم تمتلك إرادة حقيقية، ولن يحدث هذا.

وهكذا استلقى كيربوغو تحت أيكة أرزٍ كثيفة، وتذكر كيف كان يتوق إلى الإرادة عندما قطعوا قرونه لأول مرة، كم شتاء مر منذ ذلك الحين، وكم من ربيعٍ طار، وكم مرة فقد قرونه...

إيه، طوال حياته كلها لم تكن هناك أبدًا حالة، حين يأتي الأوان، أن يلقى هو نفسه "أبو"اقه ذات الفروع الثمانية عشر.

نعم، الفروع الثمانية عشر هي السعادة التي منحتها الطبيعة لكيربوغو، وحزنه المرير... لم يكن عبثًا، حين يرى الناس ينقضون عليه، كغربان على دم، ويضعونه في الماكينة قبل الجميع.

استلقى لفترة طويلة مرتجفًا ككلب منهك، لم يأت أحد إليه، أين اختفوا؟! حتى الناس الذين كانوا في ذروة الموسم عادة ما يطيرون مثل النحل، لم يأتوا، ولا أي من تلك الغزلان التي كانت تحاصره ولم تسمح له بالمرور خلال فترة الشبق، وأين ذهب الغزلان الأصدقاء الذين في أوائل الربيع كانوا يدعونه يكسر الجليد أولًا، ويتبعونه بطاعة؟! الكل ذهب، الكل ترك الغزال العجوز، لكن الشيء الأكثر رعبًا ومرارة هو أن تعرف أنك تموت منسيًا من قبل الجميع، وحيدًا، وغير ضروري.

وتذكر مرة أخرى أنه عندما كان في أوج قوته وقدرته، لم تسمح الغزلان حتى للطيور أن تلمسه بجناحها، كان دائمًا في المركز، وفي أيام الجليد الأسود، وفي حال أي خطر، لم تسمح له الغزلان أن يكون في المقدمة، ولا في الخلف، فقط في وسط القطيع، أكثر أمانًا! أفضل الأعشاب، أنقى المياه الصافية؛ كل شيء كان مخصصًا

له، وها هو الآن، زعيمهم السابق، مستلقٍ ومرهقٍ، لا يأتي أحد إليه، استولى اليأس والكآبة على كيربوغو مرة أخرى.

رشفة من الماء على الأقل!

تبدد الضباب الرصاصي الثقيل، وأطلّت الشمس أخيرًا من بين الأشجار، كما لو كانت تسأل كيربوغو بحنان: كيف تشعر؟ في الوادي كان النهر الجبلي يجرف بصخب الصخور، الطبيعة الأم وحدها لم تنسه.

نهض كيربوغو من تحت شجيرات الأرز، وضع جبهته المثقلة مقابل أشعة الشمس، وصرخ بصعوبة شاخرًا حتى اختنقت أنفاسه من الخوف:

آآآآ-آوآوآو-آآآ!

تلاشى صوته، نظر إلى القمم الثلجية للجبل غير الشاهق، التي كانت تلوح من خلال الضباب، في سنوات طفولته، عندما كان غزالًا صغيرًا، بدت هذه القمة عالية بشكل مستحيل، وعندما نضج، بدت وكأنها أصبحت أقل ارتفاعًا، لكنها الآن تستقر عاليًا مرة أخرى في السماء، ولا يمكن الوصول إليها، بدت هذه القمة الثلجية البيضاء لكيربوغو حلمًا ساحرًا، اشتاق إليها، ونظر إليها بأمل، حيث راوده خاطر أنه في يوم من الأيام سوف تلمس حوافره بياضها النقي، في اللحظات الصعبة من حياته، ما أن كان يغلق عينيه، حتى يبرز من خلال الضباب الأزرق الجبل الأبيض، حلمه، -أكشوكي[2] - يومئ إليه ويدعوه بأصوات البوق "آآوآوآ".

لم يكن يعرف أن أسلافه البعيدين كانوا يعيشون عند سفح جبل أكشوكى هذا، لم تعرف قطعان الغزلان الحرة الغربان، واختارت أكثر المروج خصوبة، وأكثرها خضرة مع الأعشاب العطرية، وللشرب ذهبت إلى ألذ الينابيع وأكثرها نقاءً، وانتقلت ببطء من تل إلى تل، ومن غورٍ إلى آخر، وحين يجبرها التعب تنام ملتحفة بليالي الصيف المخملية، وفي الليالي الأخرى، عندما كان القمر المكتمل يسكب من السماء ضوءه الياقوتي، الآلاف من القطعان التي كانت ترعى هنا وهناك، وجدت نفسها في جحافل جيوش طائشة، في وقت لاحق فقدت الغزلان أماكنها الأصلية، ولم تعد راضية عن العشب والماء الغريبين، ومنذ ذلك الحين بدأت قبيلة الغزلان تنقرض تدريجيًا من سنة إلى أخرى...

بعد أن استلقى واستراح، نهض كيربوغو وسار ببطء إلى السياج، الدرج الخشبي المتورم من المطر والماء، كما هي الحال دائمًا، كان ينتحب شاحبًا بعيدًا، هكذا كان في العام الماضي، وهذا حاله الآن، وسيكون دائمًا... دائمًا... مدَّ كيربوغو بخفّة وجهه، وحكّ جسمه بالسلم، وصلت إلى أنفه رائحة الجيف الحامضة، شم كيربوغو وهز رأسه، ثم تراجع خطوة، نظر مرة أخرى إلى أكشوكي الذي مرة أخرى، مثل النورس الأبيض لحلمه، لاح أبيض من خلال الضباب الأزرق، من قمته هبَّ نسيم خفيف، كان طازجًا ودافئًا، مثل الحليب الطازج، وكما هي الحال مع الحليب، قام بضخ قوة جديدة ونشاط، وجميع الذين كانوا هنا منذ فترة طويلة واستنشقوا هواء

(2) أكوشكي: حرفيًا الحوت الأبيض.

القمم، اتضح أن لهم صوت الغزال، إنه "آوآوآ" قوية، وهي صيحة قتال قديمة تعبر عن القوة والجرأة، حياة حرة وخالية من الهموم! هنا فقط، بالقرب من الجبال البيضاء، كان ذلك ممكنًا، لكن الطريق إلى الجبال البيضاء كانت يعترضها حاجز منيع لا يتزحزح، ذو رائحة كريهة، ويتألف من أوتاد، ولكنه في كل الأحوال سياج لا يتزحزح، لو أنه لم يكن، لما كان كيربوغو أيضًا هنا، لهرع منذ زمن إلى الجبل الأبيض، وغمس وجهه في الثلج، ومضغه، وطحنه، حتى يبرد قلبه الجبار المحترق بالحزن والشفقة على نفسه.

هكذا وقف خلف السياج اللعين، ونظر إلى الجبل الأبيض طويلًا وبهدوء، بحيث بدأ الجبل يموج ويتلاشى مثل الضباب، جمع كيربوغو الهواء ليطلق صرخة، مثل هدير عنيف، صرخة منها يزحف الثلج من القمة، وصدره المليء مثل برميل، كان ليتمزّق إلى أشلاء، كانت صرخة متقطعة، هيستيرية، مثيرة للشفقة:

آآآآآوآو-ووآآآوآوآوآوآآآآ!"

لكن الصخور الرمادية العمياء لم تُشرّف الغزال العجوز بردٍ: بقيت واقفة كما كانت، ولم يستجب أي منها.

في هذه الأثناء كانت الشمس تحرق أكثر فأكثر، وحبات الندى التي كانت متلألئة كالخرز على الأوراق الزرقاء، اختفت، بيد أن الأرض كانت نهمة، وبكل لهفة امتصت كل قطرة.

في السابق كانت الطيور تغني هنا، لكن الآنلم يكن أي منها هنا، وفقط من الأعالي الشاهقة كانت تُسمع صرخاتها:

وداعًا، وداعًا، وداعًا!

من مكان بعيد جدًا، من غورٍ، كانت تسمع صرخات التزاوج بين الغزلان الفتية، وفجأة دوى صوت إطلاق نار، فصمتت، نعم، هكذا يحدث كل شيء، يتلاقى الشباب، ويغادر كبار السن، ويقتل الضعفاء، والحياة تستمر على أي حال.

في مكان ما هبطت طائرة هليكوبتر: الإنسان دائمًا ينقصه شيء ما، لذلك فها هو يتسلق إلى السماء.

لم يعد كيربوغو يؤمن بأي شيء، لم يتنظر شيئًا، أصيب بخيبة أمل في كل شيء، ولكن فجأة واتته شجاعة عظيمة وعزيمة، كان عليه ترك هذا السياج الملعون، والانطلاق إلى الحرية، كان جسده محطّمًا متداعيا، وكان الألم يقبض على صدره ويمسك بقلبه، لكنه بذل جهدًا وشحن كل عضلة من عضلاته بالأمل، هذا الإنجاز يمكن أن يكون الأخير فقط.

الآن حرر نفسه من كل ما كان قد انهال عليه، من الإنسان، من جشع يديه، من الأريام، الفتيات الوقحات، من العار أمام المنافسين الشباب، من الشيخوخة، وأخيرًا من العارضة الخشبية.

توهجت عيناه، واندفع بكل قوته إلى أسفل، ها هي الحرية! وقف لبضع ثوانٍ بلا حراك دون أن يستوعب ما حدث، ثم أدرك أن السياج أصبح خلفه، وأنه كان على الأرض الحرة، وأنه لم يعد هناك مالك له، فهرع نحو الجبل الأبيض.

ركض وهو خائف من أن ينظر حوله، لم يستطع حتى النظر إلى هذا السياج اللعين! وها هو حلمه، الجبل

الأبيض! انتصب أمامه عمودًا، قام بشمّه، وفرك به أنفه ثم جانبه، ثم نظر مرتعشًا بكامل جسمه، وأطلق فجأة:

آآآآآوآو-ووآآآوآوآوآوآآآآ!"

ومرة أخرى في تلك اللحظة كان شابًا وقويًا، ولم يكن هناك غزال أقوى منه في القطيع، وربما، لأنه أدرك أن الصخور أرجعت صوت صرخته، لفترة طويلة تدحرج فوق الجبال، لأن حياته كلها انتهت بهذه "آآآوآوآآ".

نعم، ربما كان الأمر كذلك، وقف ونظر: شاب، قوي، جاهز لأي عمل بطولي، وفي ذلك الوقت اخترقت رصاصتان قرنيه، في نقطتي الألم الحارقتين اللتين بقيتا بعد قرنيه.

الغزال العجوز كيربوغو، الزعيم الذي لم يذق قبل ذلك طعم الهزيمة، سقط على الأرض، حتى إنه لم يحرك قدمه، كان ميتًا، وكان ذلك كل شيء.

ليس من الواضح كيف حدث هذا، ولكن أُطلقت النار على الغزلان من جهات مختلفة، وعلى الأرجح، أصبحت على الفور خائفة بعضها من بعض؛ لذلك لم يقترب أي منها من الغزال الميت.

وهكذا ظل كيربوغو، الزعيم الذي لم يذق طعم الهزيمة من قبل، مستلقيًا تحت العمود الأبيض، لم يقترب منه أحد، ولم يأخذ أحد على عاتقه هذه الطلقة على الأرض الحرة وعلى الغزال الحر.

في هذه الأثناء، فوق الأعمدة الخشبية، دوت صرخة قوية، هرع إليها القطيع المذعن بأكمله، كل الذكور والإناث.

كان الزعيم الجديد جاسبوغو يعلن انتصاره.

مرحبات بايغوت

(ولُد عام 1945)



- تخرج في كلية فقه اللغة التابعة للجامعة الوطنية الكازاخية.
- صدرت أولى قصصه القصيرة بعنوان: "كونيكي المشمسة" عام 1967 بالجريدة المحلية،
- وعلى مدار السنوات اللاحقة، خرجت أعماله إلى النور ومن بينها: "يوليو"، "قطط فبراير"، "قصص القرية"، "قاعة المطالعة"، و"في ضيافة الأخت".
- صدر له العديد من المجموعات القصصية الكاملة مثل: "سيربولاك"، "طفل من الإنترنت"، "نورزيك"، "القلب الضعيف"، و"الحبوب الباردة".
- عمل الكاتب بشكل خاص في مجال القصص القصيرة، وفي كل مقابلاته الصحفية ومقالاته، يصف مرحبات القصة القصيرة بأنها نوع أدبي مقدس، حيث يعتقد أن فن كتابة القصة القصيرة يحتاج إلى مهارة كبيرة من الكاتب.
- ويرى أن القصة الكثيرة هى مرآة الأدب بأكمله، وأن الأدب الذي لا تتطور فيه القصة القصيرة ليس له المستقبل.

- لاقت أعماله استحسانًا كبيرًا من قبل القراء ونقاد الأدب بوصفه كاتب قصص قصيرة بارعًا.
- تُرجمت المجموعة القصصية للكاتب "لون الصوت" إلى اللغة التركية، كما تُرجمت أعمال أخرى له إلى اللغات الروسية والأوزبكية والقيرغيزية والأوكرانية.
- عبر الكاتب عما يجول بداخله من أفكار ككاتب وشخصية اجتماعية من خلال كتابه "أشتاق إليك"، وقد نشرت له الكثير من المقالات الأدبية التي كرسها لعظماء الأدب الكازاخي، ونشرت هذه المقالات في الصحافة الحكومية.
- ترجم إلى اللغة الكازاخية أعمال كايري إرفنج، وجنكيز أيتاماتاف، وفاسيلي شوكشين، وأناتولي كيم، ويوري بوكالتشوك.
- اعُتمدت إحدى قصصه ضمن البرامج التعليمية في المرحلة الابتدائية.
- حصل على جائزة "الأش" الأدبية العالمية عام 1996.
- حصل على الجائزة الدولية تكريما لإنجازاته في العالم التركي عام 2016.

كازاخيو هامبورغ

اكتفي فصل شتاء العام 1995 بهجمات بسيطة تشبه الحيل الخادعة لامرأة سيئة المزاج، في وقت قصير نجحت عواصف ثلجية جزئية بالضرب لبضع مرات، إلا أن الربيع الجاف أظهر أذنيه بشكل خفي، سكان قرية كوكتيريك، بعد أن استرخوا، نظروا الآن إلى حصاد القش باستخفاف، وأبقت الأغنام والأبقار في الحظائر رءوسها في مخزون غير محدود من القش، لكنها سرعان ما بدأت أنوفها تتجعد بعجرفة.

نمت أكوام البقايا غير المأكولة.

كانت المسافة بين كوكتيريك وهامبورغ بالضبط ستة كيلومترات وستمائة وخمسين مترًا، ومن قام بحساب هذه المسافة وضرب الأرقام بالألمانية هو ناتيبيك، ساكن المنزل الأول في قرية كوكتيريك، عندما حفروا ساقية اصطناعية على طول الطريق الأسفلتي الدافئ.

لم يسمع ناتيبيك من أحدٍ عن أن خمس أو ست عائلات من الألمان الأعزاء تغادر هامبورغ، وإنما من زوجته باتيما.

كانت الأيام الأخيرة من الجفاف الذي لم تبلله أمطار أبريل، بعد أن انتهى من مشاغل الصباح، جلس ناتيبيك وباتيما ليشربا الشاي، وعلى نحو غير متوقع برد الشاي على الفور، وبعد أن اختلط ما حدث على باتيما التي وضعت مكعبات السكر على الطاولة بدلًا من السكر الناعم، تعمَّق ناتيبيك في وضعيتها: جلست منحنية قليلًا على جانبها لتنظر إلى القرية البعيدة؛ حيث يعيش أقاربها.

لقد استلم نيميريباي وشوبيريباي في تشيمكينت شقة لكل منهما، -قالت باتيما التي كانت قد تحدثت للتو عن الألمان الذين كانوا يغادرون هامبورغ، لكن زوجها كان صامتًا عندها.

استلما، ليستلما، -صرخ ناتيبيك الذي لم يعد قادرًا على الصمت أكثر.- هذا يعني أنهما وفرا، فأحدهما عمل في اللجنة الحزبية، والآخر محاسبًا.

إنهما يتفاوضان مع هانس حول المنزل في هامبورغ، -قالت باتيما.

بعد أن كاد ناتيبيك يسقط البيالا(1) الزرقاء مع رسم القطن المزهر التي كان يقربها من شفتيه، رشف بشكل محموم رشفة طويلة، وعلى الرغم من أن لسانه كاد ينسلق، إلا أنه لم يرغب في أن يلاحظه ذلك نصفه

(1) بيالا-كأس بدون يد، تتسع من الأعلى، تستخدم بشكل أساسي لشرب الشاي.

المعادي، واصل الشاي الوقح انحلاله، مشعلًا كل شيء في طريقه.

نفرت الدموع من عينيه.

باتيما، التي كانت كما لو أنها قادرة على رؤية أقاربها على الجانب الآخر من تركستان، تسمرت وهي تحدق في نقطة واحدة.

بعد عام واحد من حصول كازاخستان على الاستقلال، أثبت مدرسو التاريخ في المدرسة المحلية التي عمرها عشر سنوات، وبشكل مقنع، أن قرية كوكتيريك حصلت على اسمها قبل عامين ونصف العام، أما هامبورغ، فكما هو معلوم، تأسست في العام 1942.

تم جلب المواطنون الألمان إلى هنا في الخريف البارد للعام 1941، وكما هي الحال في أي مكان آخر في كازاخستان، كان يُطلق عليهم اسم "المهاجرون".

نحو الظهر في واحد من أيام الصقيع تلك، ملأت المكان المركزي في المحطة عربات مغطاة، وضع فيها كل الألمان، المسنين، وأولئك الذين لديهم عائلاتهم وراءهم، ومن ثم، وبأمر من رؤساء لجنة المقاطعة، أُرسلوا إلى قرى نائية، وكيف لا تندهش ليس فقط بالطقطقة بلسانك من التعجب إذا ما استمعت إلى الحديث الذي يكرره الكازاخ المحليون إلى أيامنا، -عند التفريغ من القطار، وعند الصعود إلى العربات المدرَّجة المغلفة كان عدد الألمان كبيرًا جدًا، وبأكثر دقة، بغض النظر عن كثرة الأشخاص الذين كانوا يحملون أطفالًا، فقد حافظ الجميع على صمت وتفاهم مدهشين، ولم يخرقوا، ولا لمرة، النظام الموضوع!

لم يصدروا أي صوت عندها!

بطبيعة الحال، لا يخلو الأمر لدى الكازاخ من التدخل، أو التباهي، أو تشويه الحقائق قليلًا.

مع ذلك، فإن إحدى العربات المغطاة في ذلك الوقت كانت مملوكة للمرحوم نيسيبباي، والد ناتيبيك الذي لم يكن قد وُلد بعد، كان هذا الرجل واحدًا من أولئك العابدين الذين كانوا دومًا يهزون رءوسهم، ويطقطقون بألسنتهم، ووفقًا له، فقد سُمعت فقط أوامر الرؤساء، وشخير ضعيف من الخيول المنهكة، عندما توقف القطار وبدأ الألمان بالمغادرة، وعندما تم نقلهم في اتجاه القرى -فقط صرير وصوت ارتجاج العربات. ولا شيء أكثر من ذلك.

كما هي الحال في أماكن أخرى، تم إسكان "المهاجرين" في منازل الكازاخ، بعد تقسيمهم إلى مجموعات، وبما أن كوكتيريك كانت أفضل وأكثر روعة من القرى الأخرى، فقد تم جلب إليها المزيد من المواطنين الألمان الذين عاشوا في تواصل وثيق مع الكازاخ حتى قدوم الربيع، وفي العام 1942، وبعد أن نالوا حصة كبيرة في الجزء المرتفع من كوكتيريك، وسط السهل مع القاع، بدأوا في الاستقرار على طريقتهم الخاصة.

انهمرت الجنازات على منازل كوكتيريك كثلج في جو العاصف، خلال سنوات الحرب سار سكان القرية باكين ومنتحبين، وفي فترة ما بعد الحرب لم يتمكنوا من الخروج من حالة الكآبة والدوران.

سميت القرية رسميًا باسم "بارليك" ويعني "الوحدة"، أما الكازاخ فقد أعادوا تسميتها في السر بـ"هامبورغ"،

نفس الكازاخ، الذين بقوا على قيد الحياة، وانغمسوا في انفعالاتهم الخاصة، لم يلاحظوا حتى كيف نمت القرية الألمانية وتوسعت وتغيرت بشكل كبير.

من باب الإنصاف، لقد ساعد ألمان هامبورغ كوكتيريك بشكل كبير؛ حيث قاموا بالتزويد بالمعدات التقنية، وحل المشاكل المعقدة أثناء إنشاء مزارع، مثل مزارع الحليب التجاري، والخنازير التجارية، والدواجن التجارية وغيرها، وكما هو الحال في أماكن أخرى، دائمًا ما تجنب ألمان هامبورغ القيل والقال، ولم يكذبوا، ولم يضربوا صدورهم، ولم يعرفوا التعجرف الفارغ، بنفس الكفاءة تعاملوا مع أعمال الكولخوز (2) ، كما مع أعمالهم المنزلية.

كذلك تغيرت كوكتيريك بشكل كبير، ولا يمكن إنكار حقيقة أنها، بالمقارنة مع القرى الأخرى، استقرت بشكل واضح، واكتسبت الكثير من الأشياء، وكان واضحًا التقليد الخارجي، إن لم يكن الداخلي، للألمان، عندما انتقلت عائلتان أو ثلاث عائلات من هامبورغ إلى ألماتي، استقر ألمان آخرون في منازلها، الآن فقط ناتيبيك أدرك: الدولة المسماة بـ"جرمانيا" اسمها في الواقع "ألمانيا، يخلط البعض بينها وبين ألبانيا، لكن ألبانيا بلد مختلف تمامًا، كثير من الناس ما زالوا إلى اليوم لا يدركون ذلك.

بعد أن مرر ناتيبيك كل هذه الظروف في حاسوبه الدماغي، ودون أن يتمكن من التعامل مع لسانه المسلوق، تمتم قائلًا:

هل هذا "تَحيحٌ"؟ أن هانس "ويسليل" "ثينتكلُ"؟ إلى ألمانيا؟

ماذا أيضًا! نعم، صديقك وايسلير سينتقل، إلى ألمانيا أو ألبانيا -كيف لي أن أعرف ذلك؟ - بالقساوة المعهودة رمتها في وجهه زوجته-القرحة المسماة باتيما.

لم يسكن هانس وايسلير في جوف هامبورغ القديمة فقط، بل في أعمق جزء منها، كما هو معروف، تكون الأماكن المنخفضة في مناطق الجبال والهضاب خلّابة بشكل خاص.

في إحدى أمسيات الصيف الماضي كان ناتيبيك مارًا بسيارة ابنه الأكبر التي حصل عليها بعد أن انتقل بحكم وظيفته إلى مركز المقاطعة؛ حيث استطاع أن يثبت نفسه، فحوَّل السيارة للسلام.

هانس، وفقًا لملاحظة ناتيبك، ليس وسيمًا جدًا، بنيته قوية، عريض الكتفين، وكان ذراعاه وساقاه قوية، قابله بحفاوة، مع زوجته هيلدا المبتسمة بسعادة، النحيفة كشجرة حور، وكيف لا تفرح، ففي الشتاء الطويل القاسي للعام 1941، كان والدا هيلدا من بين الأشخاص الذين نقلهم الشيخ نيسيباي في العربة المغطاة، أمضوا الشتاء في منزله، وبعد ذلك بوقت طويل، وإلى وقت قريب من أيامنا هذه، كاد يصبح المرحوم نيسيباي ووالدا هيلدا أنسباء، نعم، كذلك لم يكن لدى ناتيبيك أي مانع من عقد القران، إلا أن أنف هيلدا الحاد الطويل غالبًا ما كان يتقشر ويحمرّ، وبينما كان يمشي ويفكر، وقع ناظره على باتيما التي كانت قد وصلت من

(2) كولخوز- المزرعة الجماعية في العهد السوفييتي.

قيرغيزستان البعيدة لزيارة أختها الكبرى، واتجهت إلى ممر توريكتاو، وحقيقة أنه لم يستطع مقاومة وجه وقوام الزوجة-القرحة الحالية، هي الحقيقة الأوضح، كذلك لم تكن الفتاة هيلدا معارضة، لكنها بعد رقصة واحدة في الحفل، مالت مرة وإلى الأبد نحو هانس، وكيف يمكنها تحمُّل دعواته التي لا نهاية لها لباتيما للرقص، والأسوأ من ذلك، النظرات المتحمسة التي كان يلقيها عليها؟

عندما دخل ناتيبيك، وخلفه ابنه الأكبر، كان هانس وهيلدا قد وضعا طاولة جميلة في الوسط، كما لو كانت مأخوذة من لوحة عند قدم شجيرة كاراغانا رمادية، ويجلسان على كراسيّ فاخرة كما في الأفلام، يشربان الشاي، نهضا بأدب واستقبلاه، انضم ناتيبيك وابنه إلى حفل الشاي، بالطبع، لم يكن وحده الشاي مع السكر الناعم كل ما قدماه، تعرق ناتيبيك من عدة أكواب، في حين لم يرغب ابنه الأكبر، بعد أن خجل، من إطالة المتعة، ولم ينسَ ناتيبيك بماذا كان يفكر آنذاك: "أي ملامح وجه ومظهر بِكري الخارجي، لو أني زرعت إلى جانبي هيلدا وليس باتيما؟"

اشترت للتو سيارة جديدة، أعلن ناتيبيك قبل أن يبلع الشاي الذي رشفه، -اركبيها يا هيلداجان(3) ، هدية مناسبة!

هيا، هيا، اختر بنفسك! وأعلنها على الملأ! -أجابت هيلدا وهي تمسح يديها بالمئزر. - ما تختاره، ستأخذه.

خياري هو يد هانس، -قال ناتيبيك، -فليكن هديتكما، للاستماع إلى قلب "جيغولي"(4) ، لا بد من لمس كبدها ورئتيها، يكفيني زوجك وحده.

إذن، لماذا لا تخبره بنفسك، وبشكل لائق تنقل السهام إلي؟ -أجابت هيلدا مستخدمة العبارات الملونة للغة الكازاخية.

أليس هانس خاضعًا لك؟" أم أنه يتخلى عنك؟

أوه، لا داعي، إنه يغني أغنيتك الآن أيضًا -أريد رمزًا (زوجة أصغر)!

لدى باتيمتنا أختان لا تستطيعان الزواج، دعونا نتناسب، ونصبح أهلًا! - صاح ناتيبيك.

هل تعرض من أجل الخدمة السيارة أم من القلب؟ -سألت هيلدا.

في زماننا لا يمكن الاستغناء عن الحسابات.

هل صحيح أن ناتيبيك كاد أن يتزوجك؟ - تدخّل هانس وايسلير في الحديث ضاحكًا.

لماذا فقط في زماننا؟ بدأ ناتيكين(5) بالحساب منذ وقت طويل، -قال هيلدا، -وبعد أن حسب، تزوج من باتيكين(6) .

يبدو أننا قد ذهبنا بعيدًا، لن نستغل اتساع صدر هانس، دعونا نغلق الموضوع، -قال ناتيبيك.

---

(3) هيلداجان – صيغة التحبب والاحترام لاسم "هيلدا".

(4) جيغولي- ماركة سيارة من الفئة الخفيفة، من انتاج مصنع "أفتوفاز" في الفترة 1970-2014.

(5) ناتكين- صيغة تحبب وتصغير لاسم ناتيبيك.

(6) باتيكين - صيغة تحبب وتصغير لاسم باتيما.

أوه، خبيث، تخاف أن يسمع باتيكين؟

خرج الجميع لتفحص السيارة الجديدة، كان هانس وهيلدا سعيدين من القلب، ناتيبيك يطيل متعته لأنه مرارًا وتكرارًا يستنشق رائحة سيارة ركاب جديدة.

توقف، في هذه المناسبة لن يعدّ إثمًا إذا ما تناول كل واحد منا مائة غرام، -قال هانس.

من جديد عاد الجميع إلى الفناء. للوهلة الأولى بدا أنه ليس هناك ثمة ما هو غير ضروري، نظرا حولهما مرة أخرى، واندهشا، ال"أبو"اب أنيقة، كأنها أسطورية، والنوافذ مزينة بالنقوش الذهبية، وهنا الحمَّام الذي يغمرك بسحرٍ لا يأتي حتى في الأحلام، وهنا مخزن المؤن... ملحق -مستودع، ملحق لشيء ما، ملحق ميكانيكي للماشية... بين المنزل وملحق المواشي تمتد كالخيط دوالي العنب المزروع الذي حتى أوراقه المتجهة إلى الأعلى حافظت على الترتيب، والأشجار المثمرة لا كثيفة ولا فارغة، يبدو أنها زرعت أيضًا مع حساب الثمار المتوقعة، يقول الناس، والتجربة الشخصية والتواصل يؤكدان حقيقة أن حظائر الماشية والمخازن الاقتصادية لدى المواطنين الألمان تبدو أكثر أناقة من منازل المعيشة الشخصية، أخبر بلا غوريو كوكتوبي حول ذلك مثل هذه "الأسطورة"، أمام "أبو"اب المنازل الألمانية تقف أبقار وأغنام وماعز وخنازير وغيرها من المخلوقات الحية، ومن المستحيل التخلص من النظافة المحافظ عليها في المنزل، ولا تهز رأسك من الاندهاش، الأبقار المحظوظة على وجه الخصوص: ماء، وتبن مسحوق، وأعلاف مركبة -كل هذا في كميات منتظمة بشدة، يتم سكبها في وقت محسوب آليًا من خلال خطوط أنابيب ومزلق، تنزل وتوضع أمام الحيوانات.

على سبيل المثال، يكفي أن تنقر على الزر الرمادي بهدوء وروية، بدون ضجيج وضوضاء، وبشكل عام بدون أي صوت، ليتدفق الغذاء على الفور، وإذا قمت بالنقر على الزر الثاني، الأزرق، ينصبُّ من الصمام المستطيل ماءٌ صافٍ ولذيذ للغاية، ومع الضغط على الزر الثالث، الوردي، تبدأ رائحة البقرة تنتشر في الهواء، وتتم إزالة الفضلات التي سقطت للتو بواسطة آلة، بعناية وسرعة، ليس من المستغرب أن الشعر لدى هذه الأبقار، إن كان أبيض أو أسود اللون، حتى بقاياه على الساقين، يلمع من النقاء، ولا تلتصق به جزيئات الغبار، الأغنام والماعز والخنازير والبط والإوز -كلها مرباة، أو أصيلة، باختصار، مميزة.

هذه الميزات تجلت لدى وايسلير بأناقة خاصة.

في تلك المرة، بعد أن تنعموا بالنظر إلى السيارة الجديدة، عادوا إلى الفناء مرة أخرى، وشربوا نبيذًا رائعًا، الألمان، خاصة سكان هامبورغ، لم يمتازوا بميلهم إلى الفودكا، حتى إنهم جربوا النبيذ قليلًا، وحتى في حالات نادرة جدًا، يمكنهم أن يتذوقوا فقط ما يحضّرونه، صبَّ ناتيبيك لنفسه، وبعد أن بصق على التقاليد، جفَّف كأس النبيذ، ثم جاب على من حوله بنظرة استقصاء.

لماذا تحدق يا صديقي، كما لو كنت لأول مرة ترى؟ عينك قاسية، ابصق، -قالت هيلدا مع كل ما يميزها من ملاحظة لكل شيء.

ما هو اسم بقرتكم؟ آ-آ-آ، ما اسمها؟

إيرا.

يقولون إن إيرا هذه تعرف اللغات، هل هذا صحيح؟

وكيف تعرف! إيرا وُلدت ثلاث مرات، وتعرف ثلاث لغات، -قالت هيلدا.

أوه، اللعنة عليك في الجحيم، لا جدوى للنقاش معك والإثبات! -قال ناتيبيك ونهض من مكانه.

أنت سألت، إن لم أجب -ستمتعض، -قالت هيلدا - إيرا من سلالة البقرة الكازاخية ذات الرأس الأبيض! لذلك، فهي تشتم اللغة الكازاخية جيدًا. وجدَّتها اشتريناها من مواطنين روس، وكيف لها ألا تشعر بهذه اللغة أيضًا؟ أقول الحق، منذ ولادتها، تلقت تربية ألمانية فقط، وهذا هو وضعها الحالي، احسبه بنفسك، وهل أنت لست قويًا في الحساب؟ إذا كان ناتكين لا يستطيع، فباتكين تستطيع.

هل تريدين القول - ارجع إلى باتيما؟

لا، لا! إذا كنت لا تمانع، يمكنك أن تبيت هنا؛ لذلك فقط قلت لنظيرك "لقد حان الوقت لوضع الغذاء للماشية."

لا، لا، سنغادر، -قال ناتيبيك - ما دامت هذه الساحرة لم تأكلنا بعد، يجب علينا الهروب! شكرًا لك، صديقي هانسيك (7) !

تعال، تعال، لتسلم على إيرا، لا يصحّ -قالت هيلدا - وفي الوقت نفسه، نرى ما ترسله عيناك الشريرتان! لا يهم، فإنه يكفي البصق، وكأن العينين ما كانتا!

حسنًا، دعونا نرى - وافق ناتيبيك، وسار بثبات على طول الممشى الخرساني المتلألئ المؤدي إلى مزرعة فايسلير، وعند الاقتراب، ووفقًا لأوامر هيلدا، مسح قدميه مرات عديدة، وألقى هانس برداء أبيض فوق أكتاف ناتيبيك. فقط بعد ذلك منحاه الإذن بدخول الحظيرة.

عندما شاهد ناتيبيك أصيبت عيناه بالحول، وهكذا جمد في مكانه، دون أن يزيح عينية المتضيقتين،

لم تكن تلك بقرة، وإنما لوحة.

إنها بقرة من لوحة.

حيوان مع صوف لامع كالياقوت، يمكن رؤيته فقط في الإعلانات التليفزيونية، أو المجلات البرَّاقة اللامعة، ولكن ليس في كوكتيريك ولا بأي شكل...

إيرا، هذا هو صديقنا، اسمه ناتيبيك، نحن نتحدث عنه باستمرار، يعيش في كوكتيريك. أرجو أن تتعرفي، هيا، بجرأة أكثر! - قالت هيلدا.

تحولت إيرا بكل جدية، وبدا كما لو أنها أومأت برأسها، ولم تقتصر على ذلك، بل قامت بهيئة الراضي بخوار هادئ.

(7) هانسيك - صيغة تحبب وتصغير لاسم هانس.

أفهمت، لقد حيتك بالكازاخية، -أضافت هيلدا مشعلة الوضع أكثر، شعر ناتيبيك بعدم الارتياح في الوقوف هنا، والنظر إلى كل ذلك بلا مبالاة...

خرجت الزوجة-الآفة، بعد أن جمعت عدة الشاي كلها، دافعة الإبريق، "ماذا يخطط صديقي هانس؟ لماذا عرف نيميريباي وشوبيريباي قبلنا؟ عن الانتقال؟ لماذا بدأا بالتفاوض قبلي؟ - تمتم في نفسه - في البداية أراد إبعادهما والتحدث بأكثر صرامة، ولكن، أولًا، كان خائفًا من باتيما، وثانيًا، ما كانت لتصمت.

بعد أن اجتاز الأيام الأخيرة في ذهنه، أدرك أنه توقف تمامًا عن لقاء هانس وهيلدا، كان من الملاحظ عدم وجود حليب تجاري في المزرعة، وانتقلت إدارة المنشأة الزراعية الخاصة إلى أشخاص آخرين، وسكرتير لجنة الحزب السابق نيميريباي، وكذلك كبير المحاسبين السابق شوبيريباي، تركا عملهما وترددا في الذهاب إلى المدينة، في حين ارتبط كبير الاقتصاديين السابق، ناتيبيك، بمزرعة الألبان، والرجال الذين زُرعوا هنا في الآونة الأخيرة، أي الفريق، لن يسمحوا بالتدخل في الشؤون الداخلية للمؤسسة الزراعية وفي عمل مكتبها، أصبح هذا العالم يضغط بشدة!

مع ذلك فقد أبقوا كلًا من ناتيبيك ونيميريباي وشوبيريباي في عداد أكثر البايات(8) الذين أصبحوا أثرياء، وتقدموا على الجميع، وصعدوا إلى القمة، ووجدوا في الفوضى المشوشة في تلك السنوات مسارًا أكثر أو أقل فائدة، وضبطوا حساباتهم ووزعوا قوتهم بشكل صحيح، هؤلاء الثلاثة، بالطبع، كما قالت باتيما في معرض تقييمها للمستقبل، إذا حصل اثنان منهم على منزلين في تشيمكينت، فهذا يعني أنهما يتقدمان على ناتيبيك، ليكن، هذا في حد ذاته، لكنه لن يجلس ويشاهد كيف يشتري هذان الاثنان كل ممتلكات هانس وايسلير، ولا بأي حال، مهما قلت، فإن باتيما لن تفقد بدون سبب أعصابها، وتصبح متشددة، مهما كانت نزاعية بطبعها، الغرور ينقط منها، عبثًا أن أقاربي من جهة أمي هم من القرغيزيين، هكذا كان ناتيبيك يتمتم بهدوء، مبردًا بلعابه لسانه المحروق، ومفكرًا بعمق، يمكن الوصول إلى هامبورغ مع حلول المساء.

مر يوم ونصف اليوم على عودة هانس من رحلة بعيدة، كانت هيلدا مريضة.

نحن، يا ناتيبيك، سننتقل فعلًا، -تنهد وقال هانس، -كما تعلم، ابنتي في موسكو تعمل في منصب كبير، وتمكنت من إقناعنا، سننتقل يا أخي، يجب علينا بسرعة ودونما إبطاء حزم أمتعتنا قبل نهاية هذا الأسبوع، حسنًا أنك جئت، لنتحدث على الأقل لبضع ساعات، فمن الغد لن يكون هناك ولو دقيقة راحة.

دارت مشاعر ناتيبيك كزوبعة.

بدا أن الحياة في هامبورغ بدون هانس تفقد معناها، وهيلدا، أيعقل أنها ستغادر إلى الأبد، وإلى الأبد ستختفي من العين؟

اتضح أنهما كانا أقرب من أقرب الأقرباء، هل سيغادران؟

---

(8) باي – مالك كبير للأرض (أو الماشية) في آسيا الوسطى في الفترة ما قبل السوفييتية.

كيف يمكننا تنظيم العمل في مزرعة للألبان بدونهما؟

ما أكثر الحصادات التي ظهرت خارج العمل عندما كانت تنتقل عائلة ألمانية واحدة في العام 1993؟

وراء هذه الزوبعة من المشاعر، ووراء التشوش، كان هناك حساب باردٌ أيضًا، لكنه، وبعد أن أبعده لبعض الوقت، سأل:

أخبرني بصدق، يا هانس، ألا ينوي المواطنون الألمان جميعهم الانتقال في نهاية المطاف إلى هناك؟

من يعلم؟ -أجاب هانس - ألم أخبرك بالحقيقة؟ بتعبير أدق، بعدنا سيتحرك فرانتس وإيريش وعائلتاهما. وفي العام المقبل يستعد آندريه ودافيد، ووافقت عائلة تسيشلير على الرحيل معنا، وعلى الأرجح أن مختلف بلهاء الشوارع هناك لن يغادروا على الإطلاق، هل أعد هؤلاء الذين لا يغادرون؟ هل تحتاج لذلك؟

لا، لا، أنا سألت فقط. في العام قبل الماضي لم ينتقل سوى اثنين أو ثلاثة من الألمان، وكم من الحصادات توقفت هنا؟ لماذا كل هذه الحصادات، انقلبت روح المرء رأسًا على عقب.

تنهد هانس مرة أخرى.

هدأت الرياح الهوجاء، وتسلل صمت المساء، وكما لو أن في السماء العطشى كانت تُرى أخبارٌ غير أكيدة عن مطر قريب، نظر كلا الصديقين إلى الأعلى بأمل، إما في منطقة كازيكورت، أو أقرب بقليل ظهرت سحابة رمادية شاحبة مع مسحة بنفسجية.

يجب أن أبيع المنزل والمزرعة بأكملها بسرعة، قال هانس.

ماذا؟ - ارتعد ناتيبيك وسأل، وبارتباك نهض وجلس ثانية محاولًا السيطرة على نفسه، حتى إنه ابتسم للياقة.

مرَّ نيميريباي - قال هانس وايسلير

ذُهل ناتيبيك من جديد.

شوبيريباي جاء أيضًا -قال هانس وايسلير.

اندهش ناتيبك بحق،ارتعش تمامًا كسمكة وقعت في الشباك، عندما يمسك بفمه الهواء البارد لنسيم المساء، غالبًا ما ينفث، شاعرًا ببردٍ تارة، وبحرّ تارة أخرى.

ألقى هانس وايسلر على الروح بكل ذلك. وبات واضحًا أنه لم يحدد لنفسه هدف وضع التعمد بوضع سعرٍ مرتفعًا حتى السماء من خلال إشارته إلى نيميريباي وشوبيريباي في الصفقة. لا داعي للحديث عن موضوعية ودقة الألمان، إنهم يحافظون على الصداقة بقوة، لا يتزلفون كذبا، ولا ينحنون رياءً، ومهما قلنا، إلا أن صديقه هانس، بتعاطفه الصادق معه كواحد من أفراد أسرته، فتح كل الأوراق، وقاد بشكل ملح إلى فكرة -أوجد المال وخذ، وستكون المالك للمسكن المثالي.

على وجه هيلدا الودود دائمًا، كانت اليوم آثار حزن، ومهما حاولت الإخفاء، إلا أنها قامت اليوم بتقديم الشاي ببطء أكثر من ذي قبل، وقدَّمت شيئًا آخر، بالطبع، النبيذ والمشروبات الأخرى، لم يسمح هانس لنفسه

الانتظار طويلًا، فصبَّ على الفور، لم يجبر ناتيبيك نفسه على إقناع نفسه، فارتشف بسرعة، ثم مرة أخرى.

عزيزي هانس! - قال، وهو ينتظر النبيذ الجيد الذي بدأ بالانتشار في الأوردة قارصًا الروح بلطف ودفء - أنت تفهمني في لمحة، وأنا كذلك، أنا شخصيًا لم أر قط منزلًا رائعًا كمنزلك، على فائض الثروة لا ألوم أحدًا، أنا لا أحسد، أنا لا أحسد أي شخص، هل تفهم؟ لكنني لا أرحب حقًا عندما يتصرف أشخاص مثل نيميريباي وكأنهم مالكان، فهمت؟ وإذا ما وضع شوبيريباي الجشع حافره على هذه الحكاية، فإنني سأتحسر بشدّة...

شعر هانس بالإحراج، فابتسم ابتسامة عريضة، وحك مؤخرة رأسه.

هل تفهم ما أقصده؟ -قال ناتيبيك - أعتقد أنك فهمت، لأنك تحك مؤخرة رأسك على الطريقة الكازاخية.

إنكم ثلاثة أقارب، -قال هانس. - وأنا، كما ترى، لا أحب التحدث عن أي شخص في غيابه.

وأنا لا أحب هذا أيضًا، فقط أريد أن أشاركك كقريب.

إذا نظرت، فإنكم، الثلاثة، متماثلون بالنسبة لي، وبالطبع إن كان هذا المنزل من نصيبك مع باتيما، فإنني سأكون أكثر سعادة، وسأسافر إلى المكان الجديد مرتاح البال.

أوه، كم أنت شخص حنون! -قال ناتيبيك نيسيبايأولي لهانس وايسلير وقبَّل خديه. - أين أنتِ يا هيلداجان! دعيني أقبلك بقلب نقي! فأنتما ستغادران قريبًا جدًا....

أنفلونزا الصيف معدية بشكل فظيع. لا ترى، أنا مصابة بالأنفلونزا. -قالت هيلدا وهي تجلس بعيدًا بعض الشيء: -وإلا لما أخفيت تعاطفي معك؟ ربما رأيتك في حالة الهيجان هذه قبل حوالي خمسين سنة.

من الأفضل عدم المجادلة مع صاحبة اللسان هذه -فلن تحقق أي شيء. -قال ناتيبيك. - إذن يا صديقي، أخبرني بقرارك الراسخ، كم يساوي منزلك؟

أنت تعلم أننا نعمل دون حيل فنية، -قال هانس وايسلير، وهو يمضغ البصل الأخضر، -دون أن ننسى مرابحنا، وبعد تسديد الديون المدفوعة، أقول قراري الأكيد هو سبعة آلاف دولار.

في مؤخرة رأس ناتيبيك خفق شيء ما، على الفور حول المبلغ إلى تنغي، وتصوَّر السعر في عقله؛ بالمقارنة مع المنزل الفخم، لا تشتم هنا رائحة ارتفاع السعر.

أما هانس فقد واصل كلامه:

لا يوجد لدى الكازاخ الأعزاء أمثال شعبية سيئة، أذكر على وجه الخصوص: "مع كل تروٍّ المردود أكبر". للأسف ليس لدي وقت، وإلا كان بالإمكان المناورة...

كان ناتيبيك يعلم أن فايسلر يحافظ على كلمته، ولا يدخل في نقاش فارغ، تفكّر طويلًا منغمسًا في الصمت، وعلى الرغم من أن زهور كارغانا بدأت تجف، إلا أن رأسه أخذ يدور من رائحتها العطرة القوية للغاية، فكَّر بابنه البكر، ثم تذكر ابنه الأصغر الذي كان لديه مؤسسته الصغيرة الخاصة، تخيل بفكره أقارب زوجته، ونقل عينيه نحو توركيتاو، رؤية أخرى تطير فوق طشقند وتلوح بجناحيها، وخلصَ إلى أنه سيكون من المعقول اتخاذ بعض التدابير حتى لا يندم، ما دام العجز لم يقهر، فهذا ليس تراجعًا، شعر هانس بالحاجة إلى نزع

فتيل الصمت بشيء ما، فبدأ يدندن أغنية شامشي كالدياكوف "إلى أمي". انتعش ناتيبيك على الفور، وصرخ هانس! هل لديك ما يكفي من الصبر لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال؟ هل ستصبر؟

سأصبر، إن كنت عازمًا بحق، لمَ لا أصبر، -أجاب وايسلير بحزم.

اسمع يا ناتيبيك! هل حقا ستأخذون منزلنا، إذن، تعرف، لن أبيع إيرا لأحد، سأهديها لباتيما، -قالت هيلدا، وسعلت جانبًا.

أشكركما من القلب يا عزيزيّ! إذا لم أعثر في غضون ثلاثة أيام على المبلغ، ولا أحصل عليه، فأنا المذنب، إذا لم أخبركما في اليوم الرابع بأنني على قيد الحياة، فليعاقبني القسم! إن وعدك نيميكين (9) أو شوبيكين (10) بشيءٍ ما من فوق، وتخليت عن وعدك، فليعاقبك القسم!

بعد أن قال هذه الكلمات، دخل ناتيبيك في الظلام، واختفي.

في تلك الليلة هطل القليل من المطر، باختصار، ولم تتحقق الآمال من الليلة غير المقمرة، لكن على الجانب الآخر من توريكتاو، في قيرغيزستان كان المطر غزيرًا، في الصباح المبكر ربطت باتيما الحزام بشكل محكم، وذهبت لمساعدة شقيقها الأصغر الذي كان يعمل في قرغيزستان، في منجم كان تحت إدارة دائرة تالاس.

أما الابن الأكبر، الذي كان يشغل منصبًا صغيرًا في مركز المقاطعة، فقد ذهب إلى صهره الذي كان يمتلك مصنعًا في مدينة تشيناز بمنطقة سيرداريا في جمهورية أوزبكستان المستقلة.

باختصار، عندما مرت الأيام الثلاثة المحددة وحلَّ الرابع، وبعد أن جمع المبلغ الذي وصل إلى سبعة آلاف دولار، سارع ناتيبيك إلى هانس وايسلير.

اتضح أن الوداع لدى المواطنين الألمان كان أمرًا صعبًا، لم يكن هناك شخص لم يتأثر بعمق، ولم يضع منديلًا على عينيه، ويمسح دموعه، وكيف لنا ألا نتعجب إذا ما تذكرنا كيف في الخريف البارد لعام واحد وأربعين البعيد أُجلس في مجموعة العربات التي ملأت المحطة مئات الألمان، كثير منهم من كبار السن والأطفال، ولم يصدر أي منهم صوتًا! والآن لا تنتقل سوى ثلاث أو أربع عائلات، إلا أنهم على الطريقة الكازاخية تمامًا، بكاءٌ وضوضاءٌ وضجيجٌ، كانوا يبكون ويتعانقون، لم يكن الأمر على الجميع بالسهل.

ها، أترون، يبدو أن ثمَّ شيئًا ما من الكازاخ قد انتقل إليكم، أترون؟ صاح ناتيبيك، وبكى بمرارة.

تعانقت باتيما وهيلدا لدرجة أنهما لم تتمكنا إلا بصعوبة ترك بعضهما بعضا.

بعد الوداع بثلاثة أو أربعة أيام، انتقل ناتيبيك وباتيما مع حفنة من أحفادهما من كوكتيريك إلى هامبورغ، بعد أو قبل ذلك بقليل استقر نيميريباي وشوبيريباي في هامبورغ، وكما هو معروف، فقد اشترى ناتيبيك منزل هانس وايسلير مع كل ملحقاته، وأصبح نيميريباي المالك لمنزل أدولف تسيشلير الذي لم يكن أقل شأنًا من منزل هانس، وانتقل شوبيريباي إلى منزل أندريه تسيشلير.

---

(9) نيميكين – نيميريباي.

(10) شوبيكين – شوبيريباي.

رغب الكثير من الألمان والكازاخ والروس وحتى الأتراك بشراء البقرة الحسناء إيرا، إلا أن هيلدا بقيت وفية لكلمتها، وعهدت لباتيما بهذه البقرة الرائعة التي كان حليبها يتدفق كالنهر، وكانت متلألئة كالماس، يبدو أن إيرا قبل الناس شعرت بأن هيلدا كانت على وشك الرحيل، فعندما بدأت تحرك رموشها وتصب الدموع غزيرة، حتى باتيما التي كانت منطوية ورابطة الجأش، لم تتمالك نفسها، وانفجرت باكية بغزارة.

بعد أن انتقلا إلى هامبورغ، تغير نيميريباي وشوبيريباي، وأصبحا ليس كما كانا في السابق، وأخذا يزوران ناتيبيك أكثر.

لناتيبيك وايسلير تحية نارية من تسيشلير الكبير، -قال نيميريباي فاتحًا بوابة المنزل.

غوتين أبيند، هير ناتي-بيك وايسلير!- قال شوبيريباي، - إيش هابي شوبيريباي تسيشلير!

حاولت باتيما تقليد صديقتها وقرينتها الحبيبة هيلدا، لم تدع نيميكين وشوبيكين يدخلان إلى الغرف الداخلية، فوضعت طاولة أنيقة في الفناء، نقلت إليها جميع أواني الشاي.

حافظ المالكون الثلاثة على ضبط النفس الألماني، أصبحوا لا يذهبون إلى مكان لم يُدعوا إليه، ويأكلون، ويقتطعون قليلًا، ويشربون قليلًا، في لقائهم الأول ناقشوا كيفية إدارة المنازل التي حصلوا عليها، وحالة مباني المواشي الملحقة، الآلية بشكل كامل أو جزئي، وتبادلوا وجهات النظر حول عدد من القضايا.

في اللقاء التالي كان نيميريباي وشوبيريباي في حالة من التوتر والحيرة بعض الشيء، قال نيميكين إن ثلاثًا من أشجار التفاح بدأت تجف، وقال شوبكين إن دوالي العنب المزروعة بعناية في صفوف كانت مغطاة بنوع من الشحوب، وناتيبيك، أيضًا، تنهد بصمت وبتحسر، وكأن لسان حاله يقول لأولئك إن فناء منزله قد فقد جاذبيته السابقة.

بالأمس أفسد ابني الأصغر شيئًا في المزرعة الآلية، -قال شوبيريباي بمرارة. - عندما كان التلفاز يلخبط، عادة ما كان "يضبطه" بقبضته، وهنا تعطل في المزرعة جهاز قص القش، حتمًا سيعالجه بعقب الفأس ويحوله إلى كومة من القمامة، أوه، الوغد، ليس عبثًا يقول: "مواشي الأب لن تصبح نعمة لابنه"، وهنا الأمر كذلك!

بالمناسبة، تذكرت حديثًا جرى قبل عقد من الزمان، -قال نيميريباي.

الكلام لدى الألمان مقتضب، لكن الفعل ليس متزعزعًا، مهما طال حديثك، -قاطعه شوبيريباي. لكن ناتيبيك دعمه:

تكلم، تكلم!

لدي قصة قصيرة، وأنتما تطيلانها - قال نيميريباي - إن لم تخني الذاكرة، قبل عشر سنوات وصل إلى قرية نورليسو دولات إيسابيكوف الذي يعدُّ اليوم كاتبًا مشهورًا في كازاخستان، وكان قد وُلد في هذه القرية، خلال الحرب استقر أهله في نورليسو، وبعد ولادة دولات انتقلوا مرة أخرى ودونما إبطاء إلى مونتايتاس. باختصار، نزل كاتبنا الكلاسيكي ضيفًا على العامل كاسيمبيك، وكما هو متوقع، جاءت قيادة المقاطعة، وأنا أيضًا بالمعية.

عمن تتحدث؟ - سأل شوبيكين.

الكلام عن دولات إيسابيكوف، الكاتب المسرحي، وسط الكتاب هو واحد من الأكثر شهرة، -أوضح ناتيبيك - ألا تعرفه؟

أعرفه جيدًا! أنا على معرفة جيدة مع الصحافي داوليت إيسابيكولي، - قال شوبيرياي على عجل.

أوه، لا لا لا، دولات إيسابيكوف شخص، وداوليت إيسابيكوف شخص آخر، مختلف تمامًا! - شرع نيميكين بالشرح.

أليس هذان الاثنان هما الشخص نفسه؟

حسنًا، يا أخي، يتضح أنك لا تقرأ الكتب، أم ماذا؟ كيف يمكنك أن تخلط بين دولات إيسابيكوف وأي شخص؟

قف، قف! لنبتعد عن الإهانة، تقول "مع أي شخص، أي نوع من التعبير هذه "مع أي شخص"؟ داوليت إيسابيكوف هو أيضًا شخصية معروفة، هو الآن ليس "مع أي شخص"، بل حاج بارز! حا-ا-ا-ج! فهمت؟ مفهوم... يوقع هو باسم داوليت حاج إيسابيكوف، ماذا أيضًا، طبعٌ لا يعرف الكلل، أصدر العديد من التقاويم، بالطبع أنه رجل صالح، وحاج مرموق، لكن الحديث ليس عنه، نحن نتحدث عن كاتب رائع، الكاتب المسرحي دولات إيسابيكوف!

تحول الجدال بين نيميكين وشوبيكين إلى حديث لا نهاية له، سأل ناتيبيك بعد أن نفد صبره:

نيميرياي، عماذا كنت ستتحدث في البداية؟

أردتُ أن أورد ملاحظة شفوية لدولات إيسابيكوف قالها عند وصوله إلى قرية نورليسو، لكنكم لم تمنحوني الإمكانية.

حسنًا، تكلم، صمت شوبيكين، لن نجر الحاج إلى هنا، وأنت انفخ دولاتك.

إذن، دولات إيسابيك في صيف عام 1985 في بيت العامل كاسيمبيك قال على هذا النحو: "الألمان شعب مميز، منذ سنوات عديدة، في الجزء العلوي من ألماتي اشترينا منزلًا، خلال السنوات الثلاث التالية، بعد أن نسينا بشدة العناية، كنا على وشك "كزخنة" هذا المنزل، قال ذلك، وهو جالس، وكأن شيئًا لم يكن! هذه هي القصة كاملة - قال نيميكين.

انفجر نوبيكين ضاحكًا بصوتٍ عالٍ، في حين كان ناتيبيك يهز من الضحك أيضًا.

خلال السنوات الثلاث التالية، بعد أن نسينا بشدة العناية، كنا على وشك "كزخنة" هذا المنزل، أوه-ها-ها! - لم يتوقف شوبيكين.

أرجو المعذرة، اتضح بأنني حقًا لا أعرف هذا الكاتب... أوه، هو-هو، الآن لا يمكن عدم قراءة أعماله، أترون كيف يذيب معنى الكلمة بعمق؟

بحلول نهاية الأسبوع الثالث، وبعد أن قسمت جميع نساء كوكتيريك إلى ثلاث مجموعات، قامت باتيما

بدعوتهن لزيارتها، وقدمت الضيافة لهن، بعد ذلك فقط شعرت بالارتياح، كما لو أنها ألقت عن كتفيها حملًا ثقيلًا، وشعرت بالحرية والمزاج الجيد، كان عدد النساء اللواتي قدمن إلى هذه المآدب الثلاث ما بين 10 إلى 15 في كل مرة، كن مذهولات من كل شيء، ويقعن في حالة التنعم عندما يجبنَ المنزل متنعمات بترتيبه، ويجربن كل شيء باللمس، أو التذوق، أو التمسيد، أو القياس، وعندما شاهدن إيرا، كاد يغمى على بعضهن، تمت مخالفة تعليمات ناتيبيك القاضية بعدم السماح لأي شخص بالدخول إلى المزرعة الآلية بشكل كامل بنسبة مائة بالمائة، إلى جانب ذلك، لم يكن هناك خمسون أو ستون مريولًا كافية لوضعها على جميع النساء، باختصار، من خلال زيارة نساء كوكتريك لثلاث مرات، "تكزخن" بشكل كبير منزل ومزرعة هانس وايسلير سابقًا، ناتيبيك نيسيبايولي حاليًا.

مرَّ الأسبوع الرابع بهدوء دون أي مغامرات ملحوظة، والمصيبة حلت بهم في الأسبوع الخامس، مرضت إيرا بشكل مفاجئ، وبدأت تعاني إمساكًا شديدًا، ولم تكن لمحاولات الأطباء البيطريين، ولما أعطوه من دواء، فائدة، وقفت البقرة الجميلة بعناد على قوائمها، كما لو كانت قد ابتلعت صخرة، تلبد شعرها، وسرعان ما أصبح مظهرها حقيرًا، كمظهر أبقار كوكتيريك، ودارت الأقاويل: "ألم تصب بعين؟"، "ربما حنّت لمالكيها السابقين، ربما يلتهمها العذاب؟"، "ألم تأكل شيئًا غير لازم؟" قال ناتيبيك لباتيما بصراحة: "أنت المذنبة". ردت عليه الزوجة-الآفة باتيما قائلة: "أنت نفسك لم تهتم بها، كما كان يفعل هانس، وعلى الرغم من طبيعتها الحازمة والانفجارية، إلا أن باتيكين لم تحتمل، فصرخت بمرارة مثل جمل صغير في حزن: "يا الله يا رحيم، لا تأخذ إيرا، خذني أنا! لا تجعلنا سخرية الناس، لا تلقِ بنا للتمزيق يا الله يا قادر!"

في اليوم الخامس، بعد الظهر مباشرة، غادرت إيرا الدنيا، توقفت رموشها السوداء عن الرمش، لم تتحرك، تجمدت إلى الأبد.

تم إرسال الخبر إلى كوكتيريك، جاءت النسوة في مجموعة كبيرة، وقدمن التعازي، جلست باتيما في الردهة، ووضعت يديها على خصرها، وبدأت تبكي، وتتأرجح بحزن، وتنحب، وتغني:

أوي-إي، بو-أو-أوي-أو-أوي!

آه-آه-آي-آي!

لا تهبُّ من تلك الصفعات إلا ريحٌ قوية،

لا يوجد ضعيف أكثر مني في العالم،

غاليتي ذات الصوف الأنعم من الحرير،

أي عين شريرة لمحتك؟

في الجنة، في هامبورغ نشأتِ في البداية،

نشأتِ بشكل سليم، لم تعرفي الحزن،

وانتقلتِ إلي أنتِ، يا إيرا، من هيلدا،

أي عدوٍ سممك بعيونه؟

في سايراموس(11) لا توجد حجارة، وإنما مِسَنٌّ،

ليس بحليب، وإنما قشدة أعطيتِ!

ثلاث لغات كانت تعرف إيرا،

أي شرير كدَّرنا؟

أويي-بوي-أو-أوي! أوي-أو-أو-أوي! آه-آه-آي...

استمعت النسوة القادمات من كوكتيريك إلى هذا النحيب، وأحرجن فجأة، قرصن وجوههن، وبدأن يهمسن فيما بينهن!

يا له من عار! المرأة تقيم حدادًا، ونحن عند دخولنا المنزل، كان بإمكاننا إعطاء أصوات على الأقل!

بالفعل!

كم أصبحنا قاسيات، لسنا برحيمات...

تبادلت عضوات الوفد الحائرات مثل هذه العبارات، ناتيبيك المبتعد نحو المخرج، ظهر فجأة وقال:

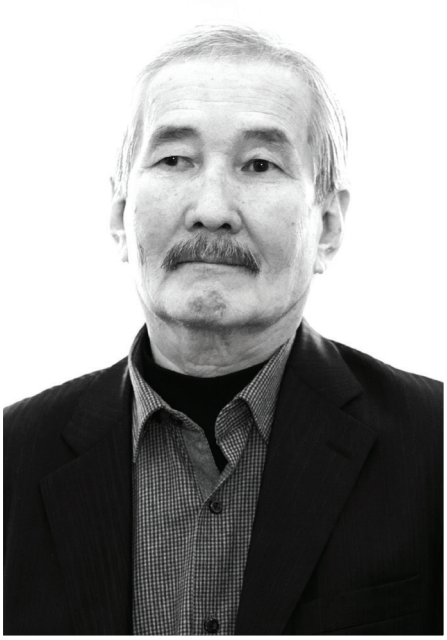
ما هذا الرثاء الذي رتبتِه هنا، ما هذا الهراء؟ - وأراد أن يضيف: "إذا كان لا بد من موت أحد، فلتمت الماشية، ولتأخذ الماشية كل المصائب معها، لكنه لم يجرؤ على القول.

للمرة الأخيرة قضت ليلتها في المزرعة الشاملة والآلية بالكامل، وفي صباح اليوم التالي دفنت جثة إيرا بين التلال والغابات الكثيفة.

(11) سايراموس – نهر في كازاخستان.

سماغول يلوبايف

(ولُد عام 1947)



- ولُد عام 1947 في تركمانستان، وفي عام 1961 رحل إلى وطنه الأم كازاخستان، تخرج في كلية الصحافة بالجامعة الوطنية الكازاخية عام 1971، وبين عامي 1974 – 1975 درس في دورات عليا لإعداد كتّاب السيناريو في موسكو.
- عمل محررًا للنصوص باستديوهات "كازاخ فيلم" في الفترة 1976 – 1995، وخلال الأعوام 1992 – 1995 عمل رئيسًا لتحرير لمجلة "باراسات" الحكومية. وبين عامي 1995 – 2004 عمل بقسم التحرير براديو كازاخستان "الحرية"، وفي الفترة 2004 – 2008 عمل نائبًا لرئيس نادي القلم الكازاخي.
- أصبح رئيسًا لتحرير استديوهات "كازاخ فيلم" في الفترة 2008 – 2010، ومنذ عام 2010 وحتى يومنا هذا يعمل مدرسًا بأكاديمية جورجينوف الوطنية للفنون.

- ألف العديد من القصص القصيرة مثل: "راعي الإبل"، "ممر ساتارا"، "ضوء مصباح الكيروسين"، و"العالم المضيء". كما ألف العديد من الروايات منها: "الخيمة الوحيدة"، "الصلاة"، و"كتاب التحذيرات".
- في عام 2016، تمت ترجمة رواية "الخيمة الوحيدة" إلى اللغة الإنجليزية وصدرت في نيويورك، وتُرجمت في العام نفسه، إلى اللغة التركية، وصدرت في أنقرة، وفي عام 2018 صدرت الرواية في مدريد باللغة الإسبانية، وتحكي هذه الرواية عن المجاعات التي تعرضت لها كازاخستان في ثلاثينيات القرن الماضي.
- وبوصفه كاتبًا للسيناريو، قام بكتابة سيناريوهات لعشرات الأفلام الروائية الطويلة التي تم عرضها لسنوات وكان آخرها فيلم "السيف المسحور" وهو ملحمة سينمائية تصور مرحلة التأسيس التاريخية للخانية الكازاخية.
- في عام 2018 انتهى من كتابة فيلمين عن "خوجة أحمد يسوي"، و"خان قاسم".

هديةٌ للحفيد

ما إن قطع القطار محطة "أوتار"، حتى بدأ العجوز شوناي يفقد صبره، وضع متعلقاته في الكورجين(1) ، وألقاه على كتف تشابانه(2) ، وذهب إلى النافذة وجلس وهو يمسد بعناية لحيته المحلوقة، نظر باستمرار مادًّا عنقه الأبيض النحيل، كما لو كانت ضواحي ألماتي على وشك الظهور، رفيقة طريقه فتاة تدعى آيمجان، ابنة الأكساكال(3) أولمان الذي يعيش في منطقتهم، وهي تدرس في ألماتي، فتاة مهذبة جدًا ومجاملة، بشكل عام، طوال الطريق كانت تقدّم له الشاي، الآن كانت هي مستلقية على الرف العلوي لعربة القطار تقرأ كتابًا، وتهزها ضربات عجلات القطار.

شوناي عجوز أسمرُ، طويل القامة، منحني الكتفين، ضخم البنية، والتشابان الذي يرتديه طويلٌ ومربوطٌ بوشاح، وهذه العادة أخذها من كبار السن القراقلباغيين والأوزبيك والتركمان الذين عاشوا في القرب، على الرغم من أن شوناي ولُد على هضبة أوستيورت(4) ، إلا أنه ترعرع في مقاطعتي شومان وكونيرا في قرقلباغستان(5) ، والآن هو مسافر إلى تلك المناطق، متجهٌ إلى ألماتي، حيث يعيش ابنه الذي انخرط مع الناس، لكنه يسافر شوقًا ليس لابنه، وإنما لحفيده يديغي، ابن السبعة أعوام، كما لو كان هذا العفريت الصغير يلوح له بيده، فقد الهدوء، ومدّ رقبته ونظر في النافذة بلا نهاية، "يا له من جروٍ!(6) "، يفكر في نفسه مستذكرًا حيله العزيزة على قلبه. عندما كان على وشك السفر إلى قريته مع اقتراب الصيف، أضجره حفيده إلى ما لا نهاية: "آتا(7) !"، وبدأ يحشر شيئًا في جيبه الصدري، سأله: "ما هذا؟"، وأجاب الحفيد: "هذا كيسٌ!

---

(1) كورجين: خرج؛ كيس بسيط (عادة ما يكون منسوجًا، يتكون من جزأين.

(2) تشابان: رداء.

(3) أكساكال (حرفيًا –صاحب اللحية البيضاء): من اللغة التركية، زعيم القبيلة وشيخها؛ الرجل المسن الوقور عند الشعوب التركية في آسيا الوسطى والقوقاز.

(4) أوستيورت: هضبة في شبه جزيرة مانغيشلاك غربي كازاخستان.

(5) قرقلباغستان: جمهورية قرقلباغستان ذات الحكم الذاتي، الواقعة آنذاك ضمن جمهورية أوزبكستان السوفييتية الاشتراكية.

(6) تستخدم بالمعنى غير المباشر للإشارة بتحبب إلى الولُد الصغير.

(7) آتا: صيغة مخاطبة محترمة جدًا من للرجل العجوز.

أحضر لي آلتشيكي(8) من القرية!"، انتفخ خداه، وبرزت شفتاه بشكل جامح: -"حسنًا، يا لك من جرو....! طوال الأشهر الستة التي قضاها في زيارة الأصدقاء والأقارب في كونيرات وخوجيلي وشوماناي ونوكوس(9) ، وتواجده في ولائم الكوكناكاس(10) هناك، في كل مرة كان يضع الآليتشكي في الكيس الصغير الذي أعطاه إياه حفيده، مع نهاية الصيف امتلأ هذا الكيس، والآن يقبع في أسفل الكورجين، بالتأكيد عندما سيعطي حفيده الكيس المملوء بالآسيكي، سيحلّق الحفيد في السماء السابعة من الفرح.

قريبًا من نهاية الرحلة، كان القطار يسير بشكل مضجرٍ طويلًا.

مر زمن قصير منذ أن انتقل العجوز شوناي للعيش في ألماتي لدى ابنه الوحيد توكتاسين، قبل عامين توفيت زوجته العجوز بسرطان المريء، وبقي شوناي وحيدًا في منزله الفارغ في كونيرات، والمؤلف من أربع غرف، وكما يقول المثل: "هل أردتُ حقًا أن أعيش حتى الخامسة والتسعين، كي آكُل البيلاميك(11) "، عندها حلَّ به وقت عصيب، حيث قام ابنه وكنته (قبل أن تمر أربعينية عجوزه) بشجارٍ كبير حول نقله إلى أبعد مسافة -إلى ألماتي.

"هل ستكون المنطقة المجهولة عزيزة على القلب!"، هل كان بإمكان شوناي أن يتخيل أنه في أسوأ الأحوال سوف ينتقل في وقت ما إلى ألماتي، اندفع - إلى المجهول - "إيه، أين سيهيم في شيخوخة الصيف، بعد أن ترك الأماكن؛ حيث يتواجد العديد من أقاربه؟ لمن سيترك المواشي والممتلكات التي حصل عليها مع الراحلة راويش، وبيته الضخم؟" على الرغم من أنهما أقنعاه وحرَّضاه، إلا أنه لم يوافق، بقي صلبًا، ولكن عندما بدأ ابنه وكنته بإخراج يديغي إلى خارج القرية، لم يستطع المقاومة، طفحت عيناه بالدموع، وعندها فقط أدرك أن منزله أصبح فارغًا تمامًا، مع العجوز ربَّيا الحفيد الشقي منذ الطفولة، عندما بدأ القطار يتحرك، بدا وكأنه مزق من قلبه وحمل أغلى شيء، كم كانت الدموع التي غسلت لحيته آنذاك سخية! لم ينهض من السرير لثلاثة أيام، محتضنًا الوسادة التي بدت له بغيضة.

يقولون إن "المنطقة الأم هي المهد الذهبي"، بعد أن علم الجيران والأقارب ما يعانيه شوناي من حزن شديد، أصبحوا يزورونه باستمرار، ويهتمون ويعتنون به: بعضهم يسقيه الشاي، والبعض يسخن الموقد، وآخرون ينظفون ويرتبون المنزل، إذا حضَّروا في أحد منازل القرية وليمة، فإن شوناي كان أول المدعوين، ولكن، مهما قلت، لا يوجد شيء أفضل من أن تغلي الحياة في منزلك.

من تفكيره بعجوزه (توفيت راويش في سن الثالثة والستين)، وبإديغي الذي اعتنوا به كتفاحة للعين، عانى

---

(8) آلتشيكي: (آسيكي) – عظام ركبة الكبش، لعبة شعبية.

(9) مدن وبلدات في قرقلباغستان.

(10) كوكناكاس: وليمة تذبح فيها الخراف على شرف قدوم شخص محترم.

(11) بيلاميك: حساء سائل من الحبوب المطحونة أو الدقيق، كان يحضر لكبار السن الذين لم يبق لديهم أسنان، أو لأولئك الذين يعانون من سوء الهضم.

كثيرًا في داخله، لدرجة أنه أصيب باليأس، وعلى الرغم من أنه استمع إلى التشجيع من قبل أقرانه وأصدقائه الذين أكدوا له: "يكفي، عليك الزواج من امرأة عجوز، على الأقل أنت بحاجة إلى شخص ما ليسخن لك الماء، ويسقيك الشاي، مهما حزنت، فإنك لن ترجع راويش، يجب على الأحياء أن يواصلوا حياتهم"، إلا أنه عندما بقي وحيدًا، فإنه لم يتذكر سوى الراحلة راويش، إذ أنه لم يسمح لنفسه حتى بالتفكير في أنه سيبقى على قيد الحياة بعد راويش، وأن يكون وحيدًا في شيخوخته، من كان يظن أن روايش التي كانت تحمل المنزل منذ زواجهما، ستموت مبكرًا؟! أجل، لا يمكنك معاندة مع القدر.

استمر على هذا الحال حتى أصابه المرض، فقد بدأ ضغطه يقفز على نحو متزايد، حتى إنه ذات مرة فقد الوعي عندما نهض من فراشه في منزله البارد. عندها أدرك مدى صعوبة العيش وحيدًا، أدرك ذلك وتملكه الرعب.

كان كل ما بقي له في مزرعته حصانٌ واحدٌ، وبقرةٌ مع عجلها، وعشرةُ خراف، تركت جميعها دون عناية، بعيونها اللامعة منتظرة عناية.

كان الشتاء على ال"أبو"اب، يقترب جارًّا سيفه.

أرسل الجيران برقية، دعوا فيها ابنه من ألماتي، فور وصول توكتاسين، أجبر والده على بيع المواشي والممتلكات للجيران والبيوت القريبة، بالجملة وبسعر بخس، عاند توكتاسين، ولم يسمح لوالده ببيع كل ثروته بسعر جيد، كان الوقت ينفد.

بعد ذلك، برمشة عين، انتهى الأمر بشوناي في ألماتي التي لم يتواجد فيها من قبل قط.

كانت شقة ابنه في الطابق الخامس، وشكّل الصعود إليها والنزول منها هناك عبئًا ثقيلًا بالنسبة له. العزاء الوحيد -يديغي... من الصباح إلى المساء تحدث معه، لم يتعب من رواية الحكايات له، ولم يملّ الحفيد من الاستماع إلى جدّهر الابن والكنّة في العمل، يغادران في الصباح الباكر، ولا يعودان إلى البيت إلا عند الغروب -ثم يجتمع جميع أفراد العائلة.

لو لم نعتبر أن كل هذا الترتيب كان مملًا للغاية لشوناي، وأنه كان يعاني حنينًا لا يطاق، فإن مثل هذه الحياة ربما كانت بالنسبة له أفضل قليلًا من الحجز الطوعي في سجن.

بصعوبة صمد حتى جاء الشتاء والربيع الممطر، ومع قدوم الأيام الهادئة، عندما جفت الأرض من الرطوبة، قريبًا من منتصف شهر مايو، ذهب إلى القرية على الرغم من كل شيء.

استقبل أهل القرية شوناي ببهجة صاخبة، كما لو أنه عاد للتو من المنفي، عانقه أقرانه بحرارة، وبكت النساء المسنات من شدّة الفرح، تهافت الجميع لدعوته للزيارة، وطوال الصيف لم يكن بإمكان شوناي أن يرتاح من هذا ...

عند المساء اقترب القطار من ضواحي ألماتي.

هل وصلنا أخيرًا يا ابنتي؟ -سأل شوناي بحماسة رفيقة الطريق.

ضحكت أيماجان مخفضة بخجل عينيها المتلألأتين من الإثارة، لم يحرم الله هذه الفتاة من الجمال، على الطريق، كان الكثير من الجيغيت(12) يدورون ويدورون حولها، يغازلون ويمزحون، في محاولة لأن تعجب بهم، ومع ذلك، فإنها لم تمنح أيًا منهم ابتسامتها، لم تمنح، كان شوناي في قرارة نفسه راضيًا عن أولمان الذي ربّى مثل هذه الابنة.

من محطة القطارات استقلا سيارة أجرة، وذهبا إلى ألماتي الثانية، أعطى شوناي السائق ورقة ما.

ما هذا يا أكساكال؟ -سأل سائق سيارة أجرة الشاب.

العنوان، -أجاب شوناي.

عندما كان شوناي زائرًا في منطقته الأم، وصلت برقية من ألماتي، حتى وقبل ذلك، كان ابنه وكنته قد أخبراه عن عزمهما القيام بتبديل الشقة إلى شقة في منطقة هادئة "للنوم" في المدينة، على الأرجح طُبقت خطتهما هذه، وعندما كتب له ابنه "كوكي(13) ، قمنا بتبديل الشقة"، -أشار إلى العنوان الجديد. وهذه هي البرقية ذاتها التي سلمها لسائق سيارة الأجرة.

شعر شوناي بالروعة، ما أن رأى أولادًا يسحبون حقائبهم، حتى رافقهم بنظرته، كما لو كان وسطهم يمكن أن يكون يديغي الشقي الذي يجب عليه الآن الذهاب إلى المدرسة، "مهما أصبحت تلميذًا مواظبًا، لا يمكنك أن تنسى آلتشيكي".

لماذا لا تذهبين إلى نُزل الطالبات قبل النوم يا ابنتي؟ سوف نذهب إلى بيتنا لتأخذي كوبًا من الشاي! لا تتعجلي! - اقترح بودٍ على رفيقة الطريق، فهي تستحق ذلك، كما أنها فتاة مستقلة.

راخميت(14) ، آتا، لقد حلَّ الظلام؟ - عارضت الفتاة بحرجٍ، أم أنها تخجل من توكتاسين لأنه كان يُدرِّسها، لا أعلم.

حتى إن توكتاسين غريبٌ أيضًا، في العام الماضي عذّب هذه الفتاة طويلًا، ولم يضع لها درجة، بدلًا من أن يدعمها، كابنة بلد، بدأ يتذمر: "فلتدرس كما ينبغي"، عندها استاء شوناي للغاية، بعد أن سمع بمثل هذه الفظاعة، وقال في نفسه: "نعم، هي تدرس غيابيًا، فهي لا تأتي إلى ألماتي إلا مرة واحدة في السنة، ومن أين لك أن تحصل على المعارف منها؟"، أخبر شوناي عن ذلك والدُ الفتاة-العجوز أولمان، الذي عاش في القرية المجاورة، فاتصل شوناي بألماتي ووبخ ابنه، صاح في وجهه، هو الذي "نسي" منطقته وجذوره: "ضع لها درجة، على الرغم من أن والدها ليس قريبًا لنا، لكنه ليس بغريب!"، وها هي لم تنسَ الفتاة هذا المعروف، لمدة ثلاثة أيام في الطريق اعتنت بشوناي، "أوه، عين العين(15) ، لتكن سعيدة!"

(12) جيغيت: شاب، فتى.

(13) كوكي: بمعنى يا أبتي.

(14) راخميت: شكرًا، أشكرك.

(15) عين العين: غالٍ، عزيز.

وصلنا! -قال سائق سيارة الأجرة، بعد أن توقف أمام واحدٍ من المباني العديدة التي اصطفت كلبنة تلو اللبنة على الجانب الغربي من المدينة.

توجه شوناي إلى الفتاة مرة أخرى بطلبه الملحّ، حتى كاد يتوسل إليها:

حسنًا، كالكام(16) ، انزلي! أصبحنا عند المنزل، والآن من غير اللائق أن ترفضي!

الفتاة التي كان محظوظًا بالسفر معها، أن تذهب إليها، قطبت حاجبيها الرقيقين الجميلين، وقالت بأسفٍ في صوتها:

لا، آتا! الأفضل أن أذهب بهذه السيارة إلى نزل الطالبات! راخميت!

ظن الرجل العجوز أن الفتاة لم تأت إلى المنزل، ربما بسبب توكتاسين، خلاف ذلك، فهي رفيقة درب جيدة، لثلاثة أيام متتالية اقتسمنا معًا الخبز والملح، كان لها حق المجيء إلى هنا بزيارة.

بعد أن غادرت السيارة، خطا والتقط أنفاسه قليلًا في الفناء المليء بحمرة الغروب، جلس بالقرب من المدخل على مقعد، كان يجلس إلى جانبه كبار سن من رجال ونساء، كان الأطفال يجرون بصخب، كانوا جميع غرباء بالنسبة لشوناي، حدَّق في الظلام بقوة، معتقدًا أن يديغي ربما يظهر، لم يره، "آي، يا جرو! أين يركض هذا الجرو!".

بعد أن وضع كورجينه على كتفه، اقترب شوناي من نساء روسيات مسنّات كن يجلسن بالقرب من باب المدخل، وسأل:

شونايف هنا؟

أي شقة؟ - سألته المرأة العجوز الجالسة على الحافة، وتبين أنها تترية.

السابعة والأربعون.

نظرت المرأة العجوز إلى الأعلى وأشارت إلى شرفة في الطابق الثالث، وقالت:

تلك هي الشقة، هناك.

ببطءٍ صعد شوناي بقامته الطويلة على الدرج حانيًا جسمه كله، يبدو أن البيت السابق كان من الطوب، أما هذا فيبدو أنه حجري(17) ، وأخيرًا وصل إلى الشقة السابعة والأربعين، من مكان ما، وصل إليه صوت طفولي رقيق، دقَّ قلبه، كما لو أن يديغي ركض إليه وتعلَّق بعنقه.

كان الباب مفتوحًا، تخطى العتبة، وبصوت عالٍ ألقى كورجينه على الأرضية الخرسانية.

يديغي-ي!

مَنْ هناك؟ - جاء صوت توكتاسين من غرفة المعيشة.

آ، نحن ...

---

(16) كالكام: صيغة تحبب للمخاطبة: عزيزتي.

(17) بمعنى أنه من الخرسانة المسلحة أو الألواح الكبيرة؛ يعتبر من بين المباني السكنية المتعددة الأدوار أقل هيبة وأقل تكلفة من منزل الطوب.

أوه، كوكي! – ظهر توكتاسين بردائه وشعره الأشعث.

آو(18) ، أين يديغي؟ –سأل شوناي، وهو يفتش في الكيس المليء بالآسيكي.

مباركٌ عليكم المنزل الجديد، سقفه أعلى.

يديغي ليس في البيت... تفضل إلى الغرفة!

وأين هم؟ أين كنّتي؟

الآن... اذهب إلى الغرفة... يديغي مع أمه...

حبس الابن نفسه، ومن الارتباك خدش مؤخرة رأسه، كما لو كان يخفي في روحه سرًا ما.

الإثارة البهيجة التي كانت لدى الرجل العجوز عندما كان يقف لتوه عند الباب، خرجت دفعة واحدة، كما لو كان قد صبَّ عليه حوض من الماء البارد، ووجهه ذو اللون الرمادي الداكن الممتد مع عظمتي وجنتين ضيقتين، والمقطَّع بشبكة من التجاعيد، غدا فجأة متجهمًا، ألقى نظرة فاحصة على غرفة المعيشة. يبدو أن هذه الشقة كانت من غرفة واحدة فقط، تجمَّد قلب شوناي فجأة، ضغط على ذقنه، وأمسك بقبضته لحيته، كما لو كانت كومة تبن منسية في السهوب العارية، واستغرق في التفكير، شبيهه، ابنه الأسمر الطويل والأكثر وهنًا، سحب بيديه الكورجين، واتجه إلى المطبخ. اشتم قلبه العجوز رائحة سيئة للغاية، وخفق من الرعب، وبدا أن الرعشة سرت في كامل جسمه، بعد أن خلع جرموقه، سار إلى منتصف الغرفة المدخنة، وتجمد كعمود في مكانه، عيناه الواسعتان اتسعتا أكثر، وبدأتها تتفحصان الشقة برعب، في الغرفة لم يكن ما يلفت العين من الأثاث سوى سرير وطاولة، من الطرف كان على خزانة الكتب القليل من الكتب، من المطبخ جاء هدير إبريق الشاي، دون أن يجلس، استدار شوناي إلى هناك، وصاح قائلًا:

إيه، أنت يا ابن الكلب! هل هاجم الأعداء هذا البيت؟ هيا، لا تراوغ، رتّب كل شيء كما يجب!

من جديد مرر توكتاسين يده على شعره المجعد أشعث، واستدار إلى والده وعيناه المحترستان تومضان. وكأن شيئًا لم يحدث، مرَّ من أمامه، وأشعل سيجارة، وسحبَ، واستعاد وعيه، وجلس على الكرسي بملل، الرجل العجوز لم يزحزح العجوز عينيه المحدقتين عنه.

كوكي! أنت ترى بنفسك، لماذا تسأل؟

وماذا أرى؟ أرى أن هناك شيئًا خاطئًا هنا، يا ابن الكلب! تكلم بصراحة، أين هي زوجتك، وأين الصبي؟

– صاح الرجل المسن مرة أخرى.

نعم، بصوت أهدأ يا أبي، ستخيف الجيران! – عبس الابن وقرر بسرعة – باختصار... لقد تطلقنا...

كيف تطلقتما؟

إيه، يا كوكي، إنها قصة طويلة.

(18) آو: حرفٌ يستخدم بمعنى المفاجأة، أو الشك، أو الافتراض، أو الأسف وما إلى ذلك.

أين يديغي؟ يا ابن الكلب! لماذا تطلقتما فقط، لماذا لم تطلقا النار بعضكما على بعض! أين الصبي؟ – ومضت عينا شوناي مهدَّدتين، وبقبضته اقترب من ابنه.

تركته معها... لا يؤخذ الطفل من أمه قبل سن البلوغ، ذلك هو القانون، –أجاب توكتاسين متهربًا خوفًا من غضب والده.

خذ هذا القانون! صاح شوناي، وضرب توكتاسين بغضب على أذنه.

دار توكتاسين في الغرفة راكضًا وهو يفرك أذنه.

خنزير! وهذا كل ما أردت أن تفعله لي في شيخوختي؟

كلما حاول شوناي أن يضرب توكتاسين مرة أخرى، تهرب الأخير منه باستمرار، أخيرًا، توقف الرجل العجوز لاهثًا من ضيق النفس، خلع كلباكه(19) القديم الذي يعطيه هيبة، وتشابانه الحريري الوردي، وعلقهما على ظهر السرير.

ابحث عن يديغي! ... وإلا سأتحدث معك بشكل مختلف! –قال لاهثًا، وجلس على حافة السرير،

أعاد توتكتاسين إشعال سيجارته التي انطفأت.

كوكي، عمن أبحث، لن تدعني حتى أن أقترب منه.

إيه، يا ابن الكلب!

ألقى شوناي عليه نظرة وصرخ:

– احشر في جيبك قانونك! اعثر على يديغي، وتلك هي القصة كاملة...

عليها اللعنة! لقد أقسمت أنها لن تريني حتى أثر يديغي... إنها أمه.

وحتى لي لن تراني؟

لن تُرى.

هكذا إذن... ما نوع الروح التي تتمتع بها هذه المرتدة؟ لا عليك! على الأرجح لأنها كانت غاضبة عليك، ما شأنها بي وبيديغي؟! خذني إليهما!

لا يمكنك، يا كوكي، لن أسمح لها ولا بأي شكل من الأشكال أن تهينك بكلمة... هي لا تحترم...

إيه، يا ابن الكلب، حرمتني من حفيدي، والآن ماذا تأمرني أن أفعل، أجلس محتضنًا ركبتيّ العاريتين(20) ؟ أو ربما هو، كما كان يحدث، ينتظرني الآن بفارغ الصبر ويسأل: "متى سيأتي جدي؟" كنت قد قلت لكما إنه لو تطلقتما، أو حتى أطلقتما النار على بعضكما البعض، فإنكما لن تبعداني عن يديغي، ولن تبعدا يديغي عني.

بعد أن بلع الكلمة الأخيرة، سحب الرجل العجوز منديلًا من جيبه، ومسح عينيه.

---

(19) كلباك: غطاء رأس قديم للرجال، خفيفة الوزن، مصنوع من الشعر الأبيض أو القماش، له حواف منحنية إلى الأعلى.

(20) عبارة ثابتة، تقال عندما يترك شخصٌ بدون أسرة، وبدون أطفال، وبدون أحفاد. البقاء بدون الناس القريبين والعزيزين على القلب.

بنظرة غير راضية سحب توكتاسين سيجارة.

كنتما تعيشان في وئام واتفاق، ما الذي حدث لكما، أو ما هي المصيبة التي جعلتكما بيديكما تهدمان عشكما العائلي؟

كوكي، كنت قد قلت لك إنها قصة طويلة.

إلى أي درجة كنتُ أحمقَ عندما جئت للعيش عندك، ظننت بأنك أصبحت إنسانًا، أحمق، وكل أقاربنا اعتقدوا بأنك ستكون سندي.

قال الرجل العجوز وتنهد بشدة.

ثم تدثر شوناي بالتشوبان، واستدار، واستلقى لينام. حتى إنه لم يلمس الشاي الذي صنعه توكتاسي، ارتفع ضغطه وهاجمته الحمى، واستدعى توكتاسين الطبيب في منتصف الليل، وفقط بعد أن أعطاه الطبيب حقنة، شعر بتحسن بسيط، وهدأ.

استيقظ قبل الظهر بساعتين أو ثلاث، وكان ذلك بسبب صوت غريب أيقظه، عندما فتح عينيه، غمر الغرفة ضوء ساطع، يبدو أن توكتاسين استيقظ منذ وقت طويل، وذهب إلى العمل بعد أن رتب سريره.

كو-كوك! - سمع صوت جاء من باب الشقة، كان الصوت أنثويًا عاليًا، "ما هذا؟"-فكَّر الرجل العجوز بخوف، ورفع رأسه.

كو-كوك! - صاح الصوت مرة أخرى. لم تكن صاحبته مرئية.

من هذا؟ - دوى صوت الرجل العجوز بقوة.

ظهرت فتاة غريبة، ممشوقة ترتدي سروالًا، وعلى كتفها حقيبة يد، فتاة جميلة، ذات قوام جميل ومتناسق، وخصلة شعر متدلية على جبهتها، نظرت إلى شوناي فاتحة فمها من المفاجأة.

مرحبًا، يا ابنتي! تفضلي! -قال شوناي واضعًا التشابان على كتفيه.

مرحبًا! - قالت له الفتاة الصغيرة بصوت رنَّان، محمرَّة قليلًا من الإحراج- هل توكتاسين في المنزل أم لا؟ ربما هو في العمل...

عذرًا... إلى اللقاء! -قالت وهرعت نحو الباب، ثم اختفت بسرعة خلفه، كما لو أنها كانت خائفة من أن يتم القبض عليها.

جلس شوناي في حيرة، لا يفهم شيئًا، "ما بها، سبحان الخالق، لماذا خجلت فجأة وهربت؟"

تزاحمت في رأس الرجل العجوز أفكار مختلفة شتى، "إما أنها طالبة تبحث عن توتاسكين للدراسة، أو أن هذا الابن اللعين ما إن طلّق، حتى أصبح يفكر بزواج جديد؟" دار رأس شوناي لأنه لم يستطع أن يستوعب كيف يفسر القدوم المباغت للفتاة الغريبة.

تذكر فجأة أيمجان الرقيقة والخفيفة كحرير يرفرف في الهواء، التي سافر معها بالأمس من القرية، "إذا كان لا يصبر إلى هذا الحد بدون زواج، فإنها تناسبه جدًا، أما هذه، ذات الساقين الطويلتين كالحصان،

من المستبعد أن تصلح له كزوجة؟"

جاء الابن على الغداء، قال له الرجل العجوز:

أتت إلى هنا فتاة بساقين طويلتين كأكحل تيكي(21) ، وسألت عنك.

آ....، -قال توماسين مرتسمة لامبالاة تامة على وجهه، ثم ارتدى المئزر، وثنى أكمامه، واتجه إلى المطبخ.

ومن هي؟ سأل الرجل العجوز بعد أن نظَّف حنجرته.

أجل، إنها طالبتي... يبدو أنها جاءت لأمر الدراسة...

قلى توكتاسين شيئًا ما، مالئًا المطبخ بالدخان.

على الغداء سأل الرجل العجوز:

أخبرني بصراحة، سمعنا أن حالات الطلاق مختلفة، أي نوع من الطلاق لديك؟ هل هو طلاق يمكن فيما بعد تسويته سلميًا، أم إنه طلاق نهائي لا رجعة فيه؟

نهائي... عن طريق المحكمة، وبه أغلقت القضية...

جلس شوناي كما لو أنزلته في الماء.

رأى توكتاسين لأول مرة والده عاجزًا، مجروحًا كيتيم، وشعر بالأسف تجاهه. ولكن ما العمل؟ لم يكن يرغب في تدمير العائلة... لكن اتضح أن شخصية زوجته كانت طائشة للغاية، ومتعنتة لدرجة العناد، بالإضافة إلى ذلك، فقد لعبت في دمه نوبة من جنون الجرأة، نعم، اللعنة، مهما حصل، فإن ذلك انتهى ومضى، "تخلصت من الإفراط".

جئت بالأمس بالقطار مع ابنة العجوز أولمان التي تدرس هنا، كم أصبحت مليحة، ليمنحها الله حياة مديدة! -قال شوناي بعد بعض الوقت.

لم يقل توكتاسين شيئًا، كان وجهه، ذو لون رأس عود الثقاب، مكفهرًا كما كان.

شرب شوناي الشاي أكثر من المعتاد؛ حيث كان يعاني صداعًا، بعد الغداء سلمه توكتاسين نسخة من مفاتيح الشقة، وذهب إلى العمل، حلَّ شوناي كورجينه، وأخرج كيس الأتشيكي، ووضعه في جيب الصدر لبيشميته(22) ، وأغلق الباب وخرج.

لحسن الحظ كان يعلم أن هنا توجد سيارات أجرة، إذا دفعت المال، سوف تأخذك إلى المكان الذي تريده، على الجانب الآخر من الشارع كان هناك موقف لسيارات الأجرة، اقترب شوناي من سيارة كانت واقفة في صف سيارات الأجرة، فتح بابها، وجلس في المقعد الأمامي.

إلى أين؟ -سأل سائق سيارة الأجرة متثائبًا.

خذني إلى المدرسة الكازاخية يا بنيّ!

---

(21) أكحل تيكي: سلالة خيول. هنا للدلالة على الساقين الطويلتين.

(22) بيشميت: ملابس خفيفة مع بطانة حتى الركبة.

المدرسة الكازاخية في هذه المدينة ليست واحدة يا آتا.

حسنًا، إلى المدرسة الكازاخية التي يدرِّسون فيها الصف الأول.

هممم. فكر السائق. - اجلس!

لم يخبره ابنه بالعنوان الجديد للكنّة؛ لذلك اعتقد شوناي أنه سيجد حفيده في المدرسة، بعد دورتين في المدينة، توقفت سيارة الأجرة عند إحدى المدارس.

ثمانية روبلات(23) ، -قال السائق.

قرر شوناي أن السائق يستحق تمامًا هذا المبلغ، فرمى إليه عشرة روبلات.

كان الوقت عصرًا، كانت ساحة المدرسة تعج بالأطفال السمر الذين كانوا يطاردون الكرة هنا وهناك. وجد شوناي نفسه في وسطهم تمامًا، بعض الأطفال الفُطَّس يصرخون له: "مرحبًا، آتا!" - ويضحكون، ويمضون حوله، في حين يجيبهم شوناي بسعادة: "مرحبًا بك يا عزيزي!"، ويستدير وينظر بعناية إلى المغادر. وبعد أن يتأكد من أن الشخص الذي سلّم عليه لم يكن يديغي، يصيح بعد ذلك:

يا بنيّ، انتظر! هل يوجد أطفال في الصف الأول؟

أجل، -يجيب الصبي ملتفتًا إليه.

هل تعرف شونايف يديغي؟ -يسأل شوناي، وينحني إليه بقامته الطويلة التي تبلغ ضعف قامة الولُد.

يهز الصبي رأسه، ويجري للحاق بأصدقائه الذين يطاردون الكرة.

أخذت فتاة أكبر سنًا شوناي إلى الصف الأول.

بيو(24) ، عين العين، وتقوده بيده، كان الدرس على وشك أن يبدأ، كانت المعلمة امرأة متوسطة العمر لها غرّة وشعر أشيبُ مصبوغ بلون مائل إلى الفضي قليلًا ، أجابت بصوت رزين:

لم يكن لدينا مثل هذا الفتى، يا آتا!

حسنًا، في هذه الحالة، يا بُنيّتي، هل توجد مدرسة كازاخية أخرى في القرب؟

أجل، على نفس شارع كيروف هذا، يا آتا، ليست ببعيدة.

سأل شوناي الناس في الشارع، ووجد هذه المدرسة، كان هناك العديد من شعب الصف الأول هذا.

هل حفيدك يدرس في "أ" أم "ب"، هناك صفوف "ت"، "ث"، "ج"؟

يا بُنيّتي، كان من المفترض أن يذهب حفيدي إلى الصف الأول هذا العام، لقبه شونايف، هو نفسه ولُدٌ ذو بشرة حمراء، ممتلئ الجسم مع خدَّين منتفخين، يشبه نغاشيه(25) -يديغي، -مضى شوناي مطلقًا العنان

(23) تعتبر مبلغًا كبيرًا بالنسبة لتلك الأزمنة، حيث كان متوسط الراتب الشهري يتراوح ما بين 120 و140 روبلًا.

(24) حرف هتاف – 1) للتعبير التعاطف والمواساة، آه! 2) للتعبير عن الاندهاش، أو الإعجاب، أوه 3) يستخدم في بداية الكلام، أوي! حسنًا! في هذا السياق هو للتعبير عن الاندهاش والإعجاب.

(25) نغاشي: الأقارب من جهة الأم. الأخوال.

لمشاعره الجياشة.

أسرعت المعلمة التي بدأ بالفعل درسها، وأرسلته إلى الشعبة التالية، وفي الشعبة التالية يتكرر نفس السؤال ونفس الجواب، إلى بعض الشُعب دخل شوناي بشكل غير رسمي، إذا كان في البداية الأطفال الصغار الذين يشعرون بالملل أثناء الجلوس في الصف، تأملوا بدهشة الأكساكال الطويل القامة الداخل إلى الصف في تشابانه الطويل الذي تكاد حروفه تصل إلى الأرض، فإنهم على الفور يشرعون في الضجيج بأعلى أصواتهم كحملان وجديان تجري في المرعى: "آتا"، "شوبان آتا (26) "، سلاليمتسيز بي (27) "، على الفور ينسى شوناي المعلمة، ويركّز كل انتباهه على الأطفال، ومع ذلك، لم يكن هناك يديغي أيضًا.

كان عدد المدارس الكازاخية قليلًا في المدينة بالكامل، ويمكن حصرها على أصابع يد شوناي الباحث عن حفيده، ولو قمت باصطحابه، فهو على استعداد لزيارتها كلها حتى المساء.

بإشارة من يده، أوقف شوناي من جديد سيارة أجرة، وحتى المساء ذهب إلى المدرستين الكازاخيتين الواقعتين على شارع لينين، وعند تقاطع شارعي بايزاكوف وتشابايف (28) ، واتضح أن شونايف يديغي لا يدرس في هاتين المدرستين.

عاد إلى المنزل متأخرًا ومنهكًا، لم يسأله الابن حتى ماذا كان يفعل طوال اليوم، وهو بدوره لم يخبر ابنه بشيء، لكن الشخص المتعب عادة ما يكون سريع الانفعال والغضب، أطلق على ابنه نظرات غاضبة، ووبخه حتى غفا.

مهما كان الأمر، فإن سيارة الأجرة، لحسن الحظ، ستأخذك بسرعة إلى المكان المطلوب، ما عليك إلا أن تدفع المال.

في اليوم التالي جاء إلى ألماتي الأولى التي كانت في العنوان الذي سجله بالأمس، كانت هناك مدرسة كازاخية تابعة للسكك الحديدية، أوقف الرجل العجوز الباحث عن "شونايف يديغي" هذه المدرسة على رجليها أيضًا.

الآن لم يبق هناك سوى مدرسة واحدة لم يزرها شوناي، إنها، كما يقولون، افتتحت مؤخرًا، وتقع في المجمّع (29) السادس، "حسنًا، سنبحث فيها أيضًا، وهرع شوناي، بعد أن أوقف سيارة أجرة، إلى الطرف الآخر من ألماتي، جلس في السيارة وفكّر: "ومع ذلك، ما دامت تقع في هذه المدينة، فلن يهدأ لي بال حتى أجدها".

بعد أن دارت سيارة الأجرة القديمة المدينة حوالي أربعين مرة، وجابت كل الأماكن، وجدت في نهاية المطاف المدرسة بعينها، اتضح أن سائق سيارة الأجرة رجلٌ حساسٌ ومتجاوب، فبعد أن حصل على مبلغ لا بأس به،

(26) شوبان آتا: وفقًا للأساطير الشعبية، هو راعي الغنم؛ يصور كرجل عجوز في تشابان ولحية وعصا في يده.

(27) سلاليمتسيز بي: السلام عليكم.

(28) شارع تشابايف: بعد استقلال كازاخستان تم تغيير اسمه إلى شارع دوستيك/الصداقة.

(29) أحد المجمعات السكنية الضخمة لما يسمى بـ"منطقة النوم" في ألماتي.

ضاعف من حماسه، بدأ يمشي بلطف أمام شوناي، مبينًا له الطريق بتزلفٍ، وأخذه بنفسه إلى المدرسة، كانت الدروس جارية، ولا أحد في الممر، ومن وراء ال"أبو"اب المغلقة جاءت أصوات الأطفال كثغاء الحملان، توقف سائق سيارة الأجرة الشاب عند أحد ال"أبو"اب، ونظر من خلال ثقب المفتاح، وقال: "هناك درس"، ثم دقَّ على الباب بلطف، فُتحَ الباب، ومن هناك أطلَّت امرأة شقراء مليئة وجميلة، حيتهما بالكازاخية، اتضح أنها تترية.

المعذرة، -توجَّه إليها سائق سيارة أجرة. - هذا الأكساكال ... يبحث عن حفيده، اسمه شونايف يديغي، هذا العام كان من المفترض أن يذهب إلى الصف الأول، أليس عندك هذا الصبي؟

شونايف يديغي، تقول؟ -سألت المرأة، وأوقفت نظرتها على شوكي(30) . - أجل، كان هذا الصبي لديَّ...

ضرب قلب شوكي باضطراب.

آ؟! - بالكاد نطقها، وتوجَّه في الحال نحو المرأة.

لكن المرأة واصلت على الفور:

ولكن منذ حوالي الشهر، أخذته والدته بعيدًا عن هنا...

من جديد تجعدت التجاعيد التي كانت على وجه الرجل القديم، وتحولت إلى طيات عميقة، وصرخ في أعماقه: يا الله!، ثم انحنى بكامل جسمه، كما لو أن مغصًا أصابه، وجلس ببطء على المقعد الذي كان بقربه.

نظرت المرأة إلى الرجل العجوز بخوفٍ، ثم إلى الشاب.

أكساكال... هل يؤلمك شيءٌ؟ -سأل سائق سيارة الأجر، وانحنى نحو شوكي.

انحنى شوناي من النصف، وفرك جبهته بصمت. في هذه الأثناء، رن الجرس للاستراحة، عاد شوناي إلى وعيه تدريجيًا، عندما رفع رأسه، شاهد سائق سيارة الأجرة واقفًا، وتحول إلى المرأة، وشرح لها ما الأمر، كان وجهها مستاءً، وهزت رأسها بصمت، ركض الأطفال بصخب إلى الممر.

هيا يا أكساكال!

سندت المرأة شوناي من ناحية، ومن الناحية الثانية قام سائق سيارة الأجرة بنفس الشيء، ورافقاه إلى المخرج.

آتا! لقد كنت تبحث دون جدوى عن حفيدك في هذه المدرسة، -قالت المرأة بعد أن استوعبت كل ملابسات القضية، قالت والدة يديغي: "سأعطيه لمدرسة روسية"، -وأخذته عن هنا، كان فتىً ذكيًا جدًا، لم أكن أرغب في أن أفارقه، وحاولت جاهدة إقناع والدته بعدم القيام بذلك، لكنها لم توافق. - يا الله! يا الله! - كرَّر الرجل العجوز وهو يهز رأسه بلا نهاية.

عندما خرجوا إلى الفناء، قال للمرأة:

(30) صيغة احترام مختصرة لاسم شوناي.

حسنًا، يا بُنيَّتي... الآن أخبريني كيف يمكنني أن أجد صغيري! أحدهم لعن أباه وأمه، وهما يعيشان منفصلين... وأنا عجوز تعيس أحاول إيجاد حفيدي متخبطًا بينهما.

آتا ...كيف لي أن أعرف... كيف لي أعرف في أي مدرسة سجلوه! إذا فعلوا ذلك، فقد كان من الواجب أن يسجلوه في إحدى المدارس القريبة من هنا... كان يديغي يأتي دائمًا ماشيًا على قدميه؛ لذلك لا ينبغي أن يكون منزله بعيدًا عن هنا.

قال سائق سيارة الأجرة، أعطاه الله العمر المديد:

آتا، اجلس، سآخذك إلى مدرسة أخرى!

بعد أن اجتازا شارعين، فتحا باب مدرسة أخرى، قال سائق سيارة الأجرة لشوكي: "انتظر الآن"، بينما ذهب هو ودخل، بعد مرور بعض الوقت، خرج من هناك منزعجًا يهز رأسه.

ليس هنا، -قال - طلبت أن أنظر في سجلات الشُعب، لا يوجد!

بعد ذلك ترك شوناي سائق سيارة الأجرة الشاب، وتذكر الكلمات التي قالتها المعلمة له: "يديغي يعيش في مكان قريب"، وبدأ يتجول ماشيًا في جميع أنحاء الحي، وقرر أنه لو مشى هنا وهناك، قد تقع عيناه فجأة على حفيده.

وقفَ تقريبًا أمام كلّ من صادفه، وتعلَّم أسماء الشوارع التي كان يمر بها، "لنفترض أنه يعيش في مكان ما قريب هنا، صحيحٌ... أين يمكن أن يذهب، لن يجلس طوال حياته في واحدٍ من هذه المنازل ذات النوافذ العديدة، وسوف يخرج إلى الشارع، حتى تقع عيني عليه أخيرًا"، -فكَّر شوناي في نفسه كل هذا الوقت... بدا وكأن الثقة بأنه سيجده حتمًا بدأت تظهر لديه الآن.

في المساء عاد مرهقًا تمامًا من التعب، جاء وسقط على الفور على السرير، لم يجب حتى على سؤال ابنه: "كوكي، أين ذهبت طوال اليوم؟" خبأ رأسه في تشابانه، واستلقى محولًا وجهه عنه، بعد أن غفا قليلًا واستراح، سمح لابنه، خلال تناول الشاي، بمعرفة أنه كان يجول طوال اليوم على المدارس بحثًا عن يديغي، الأمر الذي جعل توكتاسين يصرخ خائفًا:

أويباي[31] ، كوكي، لماذا لم تسألني مباشرة، لماذا تجهد نفسك هكذا بدون جدوى! في اليوم التالي بعد الطلاق، قامت بتغيير كنية يديغي... وذلك لمنعنا عن الاقتراب منه... -هنا أخفض توكتاسين عينيه بحزنٍ إلى الأسفل - عندما كان يدرس في مدرسته السابقة، كنت ألتقي به... لكن اتضح أن ذلك كان صعبًا بالنسبة لابني، وبالنسبة لي... وبشكل خاص بالنسبة لابني؛ لذلك، اعتبرت أنه من الأفضل عدم رؤية بعضنا البعض على الإطلاق... ماذا عساي أن أفعل، يا كوكي!

حتى لو تحترق، وليس فقط تغير الكنية، في كل الأحوال لن أتراجع... حتى آخر نفس، سأجده على أي

(31) أويباي: حرف هتاف للتعبير عن الخوف والدهشة والذهول – أي أي!؛ أوي أوي!

حال... إيه، ليس هناك سوى أولاد زنا؟! – قذف شوناي، ليس ممازحًا، ابنه بالبيالا التي كان يحملها بيده، طارت البيالا فوق رأس توكتاسين، واصطدمت بالجدار، وتفتت إلى قطع صغيرة.

بعد ذلك توقف عن إخبار ابنه بما كان يفعله، وما كان يريده.

بعد فترة وجيزة من برد أواخر الخريف، القارص بدون ثلج، بدأت الثلوج بالتساقط. خلال الشهر الماضي، أخذ بالتضاؤل شيئًا فشيئًا عدد الشوارع التي لم يتواجد فيها شوناي في هذه المدينة. في حال الضرورة، كان يذهب بالسيارة، وإن لم تكن، فإنه مشى سيرًا على الأقدام، ماذا يشكل المشي بمدينة واحدة بالنسبة لشوكي الذي كان في سنوات الحيوية ينزل من هضبة أوستيورت إلى خمس مدن؟ يسير ويتجول في الشارع، حانيًا ظهره، مصفقًا بجرموقه، أوقف الكثير من الناس، وسأل كثيرين، الأناس الطيبون كُثر، فعلى الرغم من العجلة، إلا أن كثيرين منهم أوصلوه إلى المكان الذي سألهم عنه، لم تبق مدرسة واحدة لم يزرها، إذا لم تبخل على سيارة الأجرة بالمال، فإن سائقها لا يبخل عليك بوقته.

بعد أن باع ممتلكاته والماشية قبل أن ينتقل إلى ألماتي، كان في جيبه نحو عشرة آلاف روبل سومي(32) ، فور وصوله أعطى منها خمسة آلاف لابنه وكنته الذين لم يكن لديهما ما يكفي من المال "للأثاث المستورد"، وثلاثة آلاف روبل وضعها في حساب التوفير، لاعتباره أنه "حيث توجد الحياة، هناك مكان للموت"، والآن ينفق ما تبقى من هذا المال.

في معظم الأحيان يتواجد شوناي في نفس الحي التي أخبروه به: "يجب أن يعيش يديغي في مكان ما قريب هنا"، الآن أصبح يعرف بالفعل كل بيت، وكل زاوية وركن هنا، في جيب صدره الآلتشيكي، يمشي مع أمل وحيد: ما دمت على قيد الحياة، فإنني بطريقة أو بأخرى سألتقي بيديغي، على الرغم من أنه لم يكن يعرف في أي بناء يعيش بالضبط، لكنه عندما يقترب من البناء، يشعر دائمًا بلمسة مؤثرة في قلبه، وكأن يديغي يقفز فجأة من مدخل ما، ويصيح: "آتا!"، وإذا رأى صبيًا يحمل حقيبة في يديه، يتوقف ويتوجه إليه قائلًا: "يا بُنيّ، ألا تعرف ولدًا اسمه يديغي؟"

هناك الكثير من الأطفال في هذه المدينة، وعينا شوكي موجهة على وجه الخصوص على التلاميذ الصغار الذين هم في سن يديغي تقريبًا، "يمكنهم معرفة في أي مدرسة يدرس يديغي، إذا كانوا يعرفونه"، يخجل كثير منهم، ويخفون نظراتهم المرتبكة، ولا يستطيعون الإجابة عن السؤال الذي يطرحه شوكي، وينطقون بالكازاخية المكسّرة بصعوبة: "أنا... لا يعرف"، ويبتعدون... ولاقتناعه بصحة الكلمات التي قالها الأسلاف الحكماء: "يتجدد الناس كل خمسين عامًا، والكازاخ – كل مائة"، يسير شوكي في الشارع منحنيًا، يشعر بنفسه وسط حشود من مواطنين قصار القامة، يرتدون ملابس متعددة الألوان، تتموج في عيونه ملابسهم، كغمامة، أو تراث لماضٍ سيكون، إن لم يكن اليوم، فغدًا، في طي النسيان، في بعض الأحيان يقابله كبار السن،

(32) سومي: هكذا كان يسمى الروبل بالكازاخية في العهد السوفييتي.

من عمره، ويقولون: "إيه، يا كاريا (33) ، حظًا سعيدًا!" ولكن على العموم، يبدو أنهم جميعًا ضيوف على الحياة الحضرية المتنوعة التي لا يمكن تفسيرها بالنسبة له...

عندما يقترب المساء، يفكر في نفسه قائلًا: "لا، يكفي، يجب العودة إلى البيت، ما دام الظلام لم يحل بعد"، ويتوقف على جانب الطريق، ويبدأ بعصبية في إيقاف أي سيارة عابرة، كان يقف بعد محطة الحافلات بقلي، "عندما يكون ضروريًا في مثل هذه الحالات، لن تلتقي تلك الفتاة التي تدعى آيمجان، لكونها متعلمة، كانت لتساعدني في العثور على يديغي".

في محطة الحافلات كان الناس في عجلة من أمرهم للوصول إلى الحافلة التي بدت وكأنها كيبيجي (34) بخطوط عرضية زرقاء، بعد قليل تتحرك الحافلة المثقلة بصعوبة من مكانها، أولئك الذين لم ينجحوا في الانحشار فيها، قفزوا من على سلمها، وظلّوا مبعثرين في مجموعات منفصلة على طول الطريق. عندما مرّ الباص من أمامه، وقعت عيناه على سيارة أجرة "خضراء العينين" فارغة تقترب منه، في هذه اللحظة بالذات، من مكان ما جاءت صيحة طفولية:

آتا-ا! آتا-ا!

التفت شوناي بسرعة إلى الخلف، ونظر حوله، من المفاجأة لم ينتبه من أين جاء الصوت، ثم وقعت عيناه على يديغي الذي كان بكلتا يديه يضرب على نافذة الحافلة المغادرة.

آتا-ا-ا! - دوت صرخة يائسة من الصبي.

الحافلة، كفزّاعة ببطن يشبه الصندوق، حملت الصبي، وزادت من سرعتها، وذهبت أبعد وأبعد.

عزيزي! مهلًا! صغيري! يديغي! -صرخ شوناي بكل ما أوتي من قوة وهو يجري على طول الرصيف، والريح تلعب بحواف معطفه.

لم يأبه بالمارة الذين قابلوه، الذين سرعان ما انفضوا من أمامه... يركض متأملًا بالبركة المقدسة، يندفع متوسلًا بينه وبين نفسه: "أوه، ساندني!"، عندما نظر، لاحظ أن الحافلة المخططة تباطأت قبل التقاطع التالي.

يا الله! - صرخ شوناي وحثَّ الخطى - إيه، أيها العود الأخضر، تعال إلى يدي! - ركض وشدّ على أسنانه، لو أنه وصل إلى يديه، فالحقيقة المقدسة أنه ما كان ليضيع، ما كان ليضيعه.

"يديغي-ي-ي!" - يجري ويصرخ بكل ما أوتي من قوة بصوت متقطع، في أذنيه ضجيج قوي، ولا شيء سواه. كما لو كان العالم امتلأ بأكمله واهتز فقط بصرخة يائسة واحدة من يديغي الصغير، فوضى قاسية تتملكه، من الدهشة يدير الناس وجوههم إلى العجوز الراكض في الشارع مسرعًا حافي القدمين، أول الناس الذين قابلهم في طريقه، ابتعدوا جانبًا من الدهشة، مفسحين الطريق له، وتجمدوا في مكانهم.

من جديد أسرعت الحافلة ذات اللون الأخضر الفاتح، التي كان شوناي يحدق بها وهو يجري، وبدأت المسافة

---

(33) كاريا: هنا 1) شكل من أشكال التوجه المهذب إلى الشخص الكبير في العمر، المسن، العجوز؛ 2) شيخ.

(34) كيبيجي: صندوق خشبي لحفظ الأغذية، أو الأواني، أو صندوق لنقل الأمتعة على الجمل.

بينهما تتسع من جديد، كان شاوناي يفقد آخر بقايا قواه.

"يا إلهي!" -صرخ ورفع عصاه وهو يجري، في تلك اللحظة انزلقت قدماه على الثلج المتجمد، وأُطلقت ذراعاه وساقاه بلا حول ولا قوة، وسقط العجوز شوناي بكامل جسمه على الأسفلت، من الجانب الأيمن ارتطم مفصل الورك بقوة إما بالجليد أو بحجر، من غير المعروف أين سقطت عصاه، تناثرت الآليتشكي،لم يعد قادرًا على إيلائها اهتمامًا، رافقت عيناه الحافلة المغادرة، بعد أن جمع بقبضته آخر قواه، بدأ بالنهوض من مكانه، إلا أنه سقط على الفور مرة أخرى، في هذه المرة لم ينزلق، كان حوضه الأيمن ثقيلًا للغاية، ولم يشعر بأي شيء، نفرت الدموع من عينيه، من خيبة الأمل استند بكلتا يديه على الأرض، كان كل شيء أمام عينيه ضبابيًا، ولم يعد يرى الحافلة أكثر، وجد شابٌ صغير عصاه في مكان ما، أحضرها، ومدَّها له بيد واحدة، في حين سنده باليد الأخرى، حاول الرجل العجوز، وهو يشد على أسنانه، النهوض، لكنه لم يستطع رفع وسطه، أغلق عينيه، وشد على أسنانه بقوة.

هل يمكنك النهوض من مكانك يا أكساكال؟ -سأل الشاب، هز شوناي برأسه، كانت عيناه مغلقتين.

- لا تلمس! -قال شخص آخر، -أعتقد أنه يعاني كسرًا في الحوض، لقد سقط بقوة، يجب علينا بسرعة استدعاء الطبيب.

بالتأكيد.

اتصل بـ"الإسعاف السريع"! بسرعة! - تحدث بصوت عالٍ الناس الذين تجمهروا حوله في ذلك الوقت.

كانت عينا شوناي مغلقتين، في حين كان هو مستلقيًا على حافة الرصيف، وشفتاه تتحركان بصمت.

إنه يقول شيئًا ما، -قال أحد الواقفين فوقه.

في غضون ذلك، انحنى آخر إليه ثانية، ووضع أذنه. اتضح أن شوناي همس بصمت: "أخخخ، يا لخيبة الأمل!"، ولكن هيهات أن يسمع الناس صوت رجل عجوز كان يئن، عندما كانت السيارات تهدر ذهابًا وإيابًا.

ديدأحمد أشيمخان أولي

(2015 - 1950)



- ولُد في العاشر من يونيو 1950 في قرية جاناولجي بإقليم شرق كازاخستان. شخصية مرموقة في كازاخستان.
- بدأ حياته المهنية بالعمل في الجريدة المحلية "علم الشيوعية" في الفترة 1975- 1976، تخرج في كلية الصحافة بالجامعة الوطنية الكازاخية عام 1979.
- عمل مراسلًا بجريدة "جاس ألاش"، وبحلول عام 1980 عمل رئيسًا لقسم بجريدة "كازاخستان بيونيري"، ثم عمل بجريدة "كازاخ أدابيتي" منذ 1980 وحتى عام 1992.
- بين عامي 1992 - 1993 عمل نائبًا لرئيس تحرير جريدة "زمان- كازاخستان"، ثم أصبح نائبًا لرئيس تحرير جريدة "تركستان" حتى آخر أيامه.
- في الفترة من 2003 - 2015 عمل رئيسًا للصندوق الاجتماعي "يل شيجري"، ومديرًا لدار نشر "ألاش".

- منذ عام 1986، عمل عضوًا في اتحاد الكتاب واتحاد الصحفيين في كازاخستان.
- تتابعت بعد ذلك أعماله التي شملت العديد من القصص القصيرة مثل: "أمواج العقبة" عام 1981، "الخريف الحادي عشر" عام 1987، "تساقط الأحجار" عام 1990، "القصص التي لا تشبه القصص" عام 2004 وغيرها من الأعمال.
- إحدى ميزات مهارة الكاتب هي القدرة على رؤية المشكلات الوطنية من وجهة نظر النموذج العام، وقد أولى اهتمامًا خاصًا في أعماله لمفردات اللغة الكازاخية، وحاول قدر الإمكان، استخدام الكلمات بشكل مناسب، وبالتالي تلبية أذواق رغبات القراء.
- تُرجمت أعماله إلى اللغات الأوزبكية، والقرغيزية، والصينية، والمنغولية، والروسية والأوكرانية.
- قام بترجمة بعض أعمال أناتولي كورتشكين، وعلي مجان أشيراف، وحزمت عبدولين، وبوزيفيرو وغيرهم.
- حاصل على جائزة "ألاش" الأدبية الدولية.

ساموار(١) جدتي

مر ما يزيد على عامين منذ أن أحضر الوالدان ابنتهما "أيجان" من القرية، كانت هذه الفترة كفيلة بإذابة جليد الاغتراب لدى طفل غريب، فما بالك إذا كانت الطفلة من لحمهما ودمهما؛ لكن رغم المحاولات اليائسة من جانب الوالدين، اللذين لم يبخلا على ابنتيهما بالمداعبة وكلمات التدليل من قبيل "حبة عيني"، "نور حياتي"، ظل القلب الصغير لدى الطفلة العنيدة حصنًا منيعًا يستحيل اختراقه، خلال هذين الشهرين الأخيرين انقلبت الحال في البيت رأسًا على عقب، فإذا كان كل فرد من أفراد الأسرة يكتفي بزوج من السندوتشات وفنجان من الشاي، فإن الإفطار الآن صار يمثل أحيانًا مشكلة عويصة، فالابنة التي نشأت في قرية نائية اعتادت على تناول اللبن الطازج؛ لذا -أردت أم أبيت- عليك أن تستيقظ من النجمة لتجول بالمحالِّ ريثما تحصل عليه؛ هذه المهمة تكلّف بها "تيلجان"، لكن "غولسان" أيضًا لم تكن تعرف طعم الراحة، فلا تكاد تفتح عينيها حتى تبدأ من الصباح الباكر تصول وتجول في أنحاء الشقة: تشطِّف الطفلة وتلبسها ملابسها ونعلها، ولا تبرح تقلق وتتعصب حتى ترى زوجها وقد ظهر عند باب الشقة ومعه اللبن؛ بعدها تعد الإفطار على عجل، ثم تأخذ البنت من يدها وتهرع إلى العمل.

وفي المساء يتكرر المشهد نفسه، لكن بالترتيب المعاكس؛ حيث تجر خلفها طفلتها المستكينة الصامتة، فتمر على المحالِّ في طريق عودتها، لتملأ سلة المشتريات عن آخرها بالأغذية حتى تنثني ركبتاها من ثقلها، ثم تعود إلى البيت.

- يا إلهي! أي إنسان أنت! لا تستطيع إيجاد روضة أطفال، ولا حتى مربية بالأجر، إلى متى سأظل في هذا العذاب؟!

هكذا كانت "غولسان" أحيانًا لا تتمالك أعصابها فتنفجر، والسبب في كل المصائب من هذا القبيل هو "تيلجان".

- كل هذا بسبب عنادك؛ فأنت ولا أحد غيرك من أصر على إعطاء الطفلة في عز صغرها لأمك لتربيها، والآن أصلح ما أفسدته.

في مثل هذه اللحظات كان "تيلجان" يلتزم الصمت، يصمت لأنه يدرك جيدًا أسباب غضب "غولسان"، فهي تفقد أعصابها، ليس لأنها تعبت من طول انتظار دور ابنتها للالتحاق بالروضة، ففي النهاية هذه مسألة شهور لا أكثر، والمطلوب قليل من الصبر ليس إلا، لكن ما يعذبها وينغص عليها حياتها أمر آخر، وهو أن ابنتها

(١) الساموار هو إناء يستخدم لغلي المياه لأغراض إعداد المشروبات الساخنة، وكان يعمل بالخشب أو الفحم بتقنية مبتكرة، إلا أنه بعد انتشار الطاقة الكهربية صار يُصنع منه ما يعمل بالكهرباء. المترجم.

التي خرجت من رحمها لا تريد حتى هذه اللحظة الاعتراف بأنها أمها، بل الأكثر من ذلك أنها يومًا بعد يوم تتجنبها أكثر فأكثر، وكأنها شخص غريب، و"تيلجان" يعلم مشاعر زوجته، لأن هذا الأمر في حد ذاته يثير لديه قلقًا شديدًا، في البداية كانا يطمئنان نفسيهما؛ حيث كانا يعتقدان أن هذا أمر لا مفر منه، فالمكان جديد على الطفلة، وستتكيف وتتأقلم، ووقتها.... لكن لم تظهر أي بوادر على أن "أيجان" تبدأ في التأقلم والتفاعل مع اللطف الذي يعاملان بها والداها، مر وقت ليس بقليل، ولا تزال تواجههما بنظرة حذر، متجهمة ودائمًا شاردة في شيء ما، وقلما تراها تلهو أو تلعب أو تتجول في حجرات البيت، وإذا جلسوا إلى مائدة الطعام لا تستطيع أن تنتزع منها كلمة، إذ تقتطع لقمة في تثاقل، وتغرس الشوكة في الطبق مرتين أو ثلاثًا بغرض التظاهر، دون أن تنبس ببنت شفة أو ترفع عينيها المنكسة، ثم تنزلق من خلف المائدة، وتظل على استعداد لأن تجلس طوال اليوم بمفردها دون حراك على الأريكة بغرفة الجلوس، والعجيب أنها لا تبادر بأي كلمة، فإذا سألتها عن شيء أجابت، وإذا طلبت منها أن تنتقل لتجلس في مكان آخر نفذت في صمت، في كل صباح كان "تيلجان" يلاحظ دومًا احمرارًا غريبًا في عينيها، يبدو أنها في الليل حين تختلي بنفسها تبكي خفية؛ ومنذ أيام حدث أن رآها بأم عينيه وهي تذرف الدموع في هدوء.

في ذلك المساء كان قد تأخر قليلًا في العمل، وما كاد يتخطى عتبة البيت حتى سمع صوت ابنته وهي تبكي، خلع نعله على عجل ثم هرع إلى غرفة الجلوس، كانت "أيجان" تستلقي هناك على الأريكة منكبة على وجهها، وتجهش بالبكاء، فيرتعد كتفاها الصغيران من آن لآخر.

- ماذا حدث يا حبيبتي؟ من ذا الذي أغضبك؟

سألها في ارتباك ثم مسح على رأسها؛ لكن "أيجان" دفعت يده بعيدًا في غضب، وانفجرت في بكاء أشد مبقبقة بأنفها.

ارتبك الأب، حيث أحس لأول مرة بعجزه أمام ابنته التي من دمه، أراد أن يهدئها، لكنها لم تتوقف لحظة عن البكاء، ثم تكورت في نفسها ولم تسمح له حتى بأن يلمسها، ثم إن "غولسان"هي الأخرى اختفت لا يعلم أين، وكأنها تعمدت ذلك، صار يجول في غرف البيت بحثًا عنها، لكنه لم يجدها، فاضطر إلى أن يحوم حول الأريكة بلا حول ولا قوة كالفراشة التي فقدت صوابها من شدة الضوء، الكارثة الكبرى أنه لم يكن حتى يعرف لماذا تبكي "أيجان"، لكن سرعان ما تمكن من أن يستمع من خلال شهقات خافتة كلمة "فرشاة الشعر!"، ثم بعد ذلك "فرشاتي؟". تخيل "تيلجان" ماذا يمكن أن يعني ذلك، فتوقف مرتبكًا في وسط الغرفة، وإذا بـ "غولسان" ترشق في هذه اللحظة باب الشقة، وتدخل إلى الغرفة مسرعة وقد تملكها الفزع.

- هل أنت التي أثرتِ غضبها؟

سألها الزوج عند باب الغرفة

- لماذا تبكي؟

لكن الزوجة تجاوزته في صمت، ثم أخرجت من حقيبتها المفتوحة فرشاة جديدة خضراء اللون، ووضعتها في عجل في يد ابنتها الباكية.

- عزيزتي، لم يكن الأمر يستحق البكاء من أجل فرشاة، ها هي فرشاة لك... فرشاة جديدة... اشتريتها لتوي، هيا انظري، فقط كُفِّي عن البكاء، فأنتِ ذكية.

هدأت "أيجان" للحظة، وأمعنت النظر في الفرشاة، ثم طرحتها جانبًا.

- فرشاتي...

وشرعت فجاة تكرر من جديد وهي تجهش بالبكاء: فرشاتي سوداء!

هنالك فقط أدرك "تيلجان" الأمر، فقد تذكَّر أن ابنته كانت لديها بالفعل فرشاة سوداء قديمة جاءت بها من القرية البعيدة، كانت قد خُرِطت ذات يوم من قرن الثور، فكانت صلدة للغاية، بأسنان مدببة، يتذكَّر جيدًا كيف كانت تحافظ عليها أكثر من عينيها، ولا تتركها من يدها. والغريب أن الطفلة لم تكن تتمشَّط بها تقريبًا، وإنما كانت من آن لآخر تقرَّبها في عجالة من أنفها الصغير وتستمتع برائحتها، وكأنها تتذكر شيئًا ما ذا أهمية. كما كان "تيلجان" يذكر جيدًا تعبير وجه "غولسان" في هذه اللحظات، حيث كانت دائمًا تقطب جبينها في اشمئزاز. إذن الطفلة تبكي بسبب هذه الفرشاة القديمة.

- أين هي؟

سأل "تيلجان" ملتفتًا نحو زوجته.

- أين فرشاتها السوداء؟

فأجابته الزوجة في تجهم:

- لقد رميتها. الوضع محرج أمام زملائي في العمل. الفرشاة مليئة بالقاذورات وهي تضعها في أنفها.

- هيا جديها!...أينما شئتِ جديها، حتى ولو من تحت الأرض!

لم تكن "غولسان" قد اصطدمت البتة بهذه الطريقة في الحديث من جانب زوجها، فتملكها فزع حقيقي، فتسللت كالطيف إلى الشارع، وسرعان ما عادت في صمت فألقت على المقعد بجوار الزوج تلك الفرشاة القديمة الشهيرة ذات الأسنان المفلجة.

في تلك الليلة نام الزوجان لأول مرة في مكانين منفصلين، وفي تلك الليلة نفسها شعر كلاهما لأول مرة، على ما يبدو، بمعزَّة هذا الكائن الصغير، فلذة كبدهما، وأدركا عن وعي ماذا تعني لهما...

شعر الأب بجسم ابنته الدافئ الذي يشع بالحيوية، وأنفاسها الرقيقة وهي تنام بجانبه، فشعر بإحساس غريب يسري في جوارحه، إحساس لم يشعر به من قبل، ترى ما سبب هذا الإحساس؟ هو نفسه لم يفهم، تحرك "تيلجان" بحذر، فشم الفرشاة القديمة الجافة المصنوعة من قرن الثور، التي كانت "أيجان" تحكم قبضتها عليها، خُيِّل إليه أنه شم رائحة عزيزة عليه للغاية، وقريبة منه منذ طفولته؛ كانت الرائحة تشبه إلى حد عجيب ربما رائحة اللبن الرائب، وربما رائحة اللبن الطازج المخلوط بأريج الدريس المحصود لتوه، تنشَّق مرة أخرى في سرور خشية أن يختفي هذا العبير فجأة.

ما كاد ينشغل عن الفرشاة حتى تملكه خوف غير مفهوم؛ حيث ظهر لديه إحساس ما بعدم إمكان استرجاع

ما كان يجب عدم فقدانه؛ وهو شيء مهم للغاية بالنسبة له وعزيز عليه في حياته يبدو أنه ضاع بلا رجعة، لكن ما هذا الشيء، ماذا سُلب منه؟... ظل غارقًا في عذاب الأفكار والظنون، حتى إنه لم يلحظ أنه غلبه النعاس، والشيء العجيب أنه في الليل رأى في المنام قِرْبة سوداء ضخمة مثبَّتة عند عتبة دارهم، لقد كانت قِرْبةعجيبة، كان الكوميس(2) لا ينضب منها أبدًا، حتى ولو ضيَّفوا به أهل القرية جميعًا، رأى في منامه أمه وهي تصب له لبن الفرس الطازج "الساومال" في قصعة كبيرة، الساومال هو اللبن الذي لم يصل بعد لدرجة الكوميس، فلكي يتحول إلى كوميس لا بد أن يبقى فترة في القِرْبة حتى يختمر، لم يكد يرفع القصعة المملوءة عن آخرها إلى فمه حتى انتزعها شخص ما بشدة من يديه فطرطش الشراب البارد على ملابسه قائلا:

- كفي! ما تبقَّى ستشربه في المدرسة!

- اسمح لي بأن أستزيد، رشفة أخرى!

بدأ يبكي بصوت متقطع ثم تجهَّم، كان يشعر بظمأ شديد، فبعد أن ارتشف بفمه الذي اشتد به الجفاف لعق شفتيه الجافتين.

تمدد بلا حراك في الغرفة التي تخللها ضوء القمر الأزرق الخفيف، فشعر في الظلمة برائحة الساومال تفوح بشدة؛ كانت الرائحة شديدة لدرجة أنها نفزت مشامَّه، آه، هنا مربط الفرس! ولكي يتيقن من ظنه انحنى وشمَّ شعر ابنته التي كانت تغط بجانبه في هدوء وسكينة؛ كانت الرائحة تنبعث من هناك، وخشية أن يوقظ "أيجان" من نومها، نزل من فوق الأريكة بحذر، وتوجه نحو المطبخ، أدار الصنبور فاندفع على الفور تيار الماء منبعثًا منه رائحة كلور نفاذة، شرِق حلقه، ربما من رائحة الكلور النفاذة وربما من برودة المياهر نفض رذاذ الماء من على وجهه، ثم رفع رأسه فرأى "غولسان" لدى الباب منكوشة الشعر؛ كان واضحًا من ملامح وجهها أن غضبها بالأمس من زوجها لم ينطفئ بعد.

قالت بعد شيء من الارتباك:

- اسمع! إذا كنت أنا أم الطفلة، فأنت "أبو"ها، فليس عليَّ أن أتحمل العذاب وحدي. من الغد سيبدأ دورك، جرِّب أن تأخذها معك!

ثم استدارت بحدة واختفت من المطبخ.

ربما كان هذا في الصالح، ففي الصباح خرج هو وابنته من المنزل مبكرًا للغاية، كانت الطفلة مسرورة بدرجة غير معقولة؛ والغريب أنها اليوم تبتسم وتضحك وتتصرف -مثل كل الأطفال- بحرية. كان "تيلجان" في غاية الابتهاج وهو ينظر إليها، أما ابتسامتها فكم كانت رائعة! ترى، لم كل هذا؟! لقد كانت هناك أسباب وراء ذلك.

في ورشة "تيلجان" كانت هناك لوحة بورتريه شبه مكتملة موجودة منذ زمن، وكان يفكر في تعليقها، كانت اللوحة

(2) لبن الفرس المختمر - المترجم.

تسمى "أجيه"(3) ، وترجع لجدة "أيجان" التي شرب من يديها الكوميس من القِرْبة السوداء في منامه ليلة أمس، ما إن تجاوز"تيلجان" وابنته عتبة الورشة، حتى وقعت عينا الطفلة على اللوحة، فتوقفت مفتونة وصاحت:

- جدتي! جدتي!

ثم سارعت إلى اللوحة وقد تلألت من أعلى رأسها إلى أخمص قدمها، فمسحتها ورددت:

- جدتي! هذه جدتي!

كم كانت الطفلة رائعة الجمال بعد أن غمرتها سعادة غير زائفة! أمسك بها والدها من تحت إبطيها ورفعها؛ تنشق منتشيًا رائحة شعرها الحالك السواد الذي يفوح برائحة السامواز، قبلها في جبينها ثم أنزلها على الأرض.

قال بعد برهة من الصمت:

- نعم، هذه بالفعل جدتك، لكنها الآن بعيدة عن هنا تمامًا، يا بنيتي؛ إنها هناك خلف الجبال العالية تبحث لكِ عن اليحمور ذي القرنين الذهبيين.

مطت "أيجان" شفتيها:

- لا، لا، يا أبي، ليس اليحمور، هي لا تبحث بتاتًا عن اليحمور خلف الجبال العالية، وإنما عن الظبي ذي القرنين الذهبيين، هي نفسها كانت تقول لي ذلك.

عض "تيلجان" لسانه من شدة المفاجأة؛ كيف أمكنه أن ينسى وقد استمع إلى هذه الحدوتة نفسها ألف مرة في طفولته؟ المؤسف أن الطفلة لا تعلم بعد أن جدتها لا تتجول خلف الجبال العالية، وإنما ترقد في مثواها الأخير تحت الأرض الرطبة أسفل التل الصغير بالقرب من قريتها، أنى لطفلة بريئة أن تعرف أن جدتها قد رحلت للأبد بحثًا عن الظبي ذي القرنين الذهبيين.

بعد هذه الواقعة تبدلت "أيجان" تمامًا فصارت تبدو وكأنها فتاة أخرى، ففي صباح اليوم التالي كانت أول من استيقظ في البيت، كما لو كانت تخشى أن تتأخر عن لقائها بجدتها، والشيء العجيب أنها على الإفطار أكلت طبق العصيدة بأكمله، وصار هذا حالها كل يوم.

بعد ذلك كانت ووالدها يخرجان معًا من المنزل، فيستقلان الحافلة إلى أقاصي المدينة حيث الورشة، كان تعجل الطفلة أمرًا مفهومًا، فقد كانت تتشوق للقاء جدتها الحبيبة، كانت تجلس أيامًا بأكملها لا تغادر مكانها أمام الصورة؛ تارة تطلب من أبيها وضعها في برواز، وتارة تجرها نحو النافذة وهي تلهث، وتارة تجلس في صمت تتأمل قسمات وجه جدتها، وتارة تدخل في حوار مُطوَّل معها، وأحيانًا عندما كانت تشعر بالملل، تتكلم مع والدها؛ كانت تلح في سؤاله:

- أبي، متى سنذهب إلى القرية؟

(3) "أجيه" بالكازاخية تعني "الجدة" - المترجم.

فيجيبها الأب مندهشًا من سؤالها:

- في الخريف.

- ومتى سيأتي هذا الخريف؟

- عندما تصفرُّ الأوراق فوق الشجر.

ظلت الطفلة تنظر دومًا إلى أشجار الحور العالية كثيفة الخضرة، فتظن أن أوراقها لن تصفر قريبًا، فتصمت وتتنهد في حزن...

في مثل هذه اللحظات كان "تيلجان" يشعر بالسرور أن ابنته انطلقت أخيرًا في الكلام، فكان ينتظر على أحر من الجمر المزيد من أسئلتها، أحيانًا كانا يتبادلان حديثًا طويلًا ذا شجون، وبدا أن "أيجان" قد بدأت تألف، والديها وتتكيف مع ظروف الحياة الجديدة، لكن سرعان ما عادت الطفلة إلى عنادها.

حدث هذا يوم الأحد، عندما كان أفراد الأسرة يجلسون جميعهم يتناولون الشاي في غرفة السفرة. كالعادة اقتطعت "أيجان" كِسرة من الخبز، لكنها لم تبدأ في تناول الطعام، وإنما نظرت بغرابة إلى الغلاية مستديرة الجوانب التي توضع أمامها على المائدة، ثم سألت فجأة دون مقدمات:

- أبي، متى سنتناول الشاي من سامواد حقيقي؟

باغت سؤال الطفلة أباها، حتى إنه ارتعد من وقع المفاجأة؛ فكلمة "سامواد" أحيت في نفسه شيئًا قديمًا، شيئًا يعرفه منذ الطفولة، شيئًا عزيزًا، دافئًا، يذكِّره ببيت أبيه، استدار ناحية زوجته "غولسان" كي يتقاسم معها أعز شيء أيقظته بداخله ابنتهما، لكنه رأى الاستياء على وجهها فتلجلج.

سألت "غولسان" ابنتها غير مخفية تذمرها:

- ألا يعجبك الشاي من الغلاية؟

- لا أحد يشرب الشاي من الغلايات من هذا النوع.

قاطعتها "أيجان" ببراءة خالصة.

- هذه الغلايات يسخِّنون فيها الماء كي يذهبوا إلى .... الـ....، الـ....

تلعثمت في الكلام.

- ما هذا الهراء؟ أين رأيت هذا؟

صرخت "غولسان" مفزوعة.

- عند جدتي، في القرية... جدتي نفسها كانت تقول من يذهب إلى الخلاء بدون غلاية فهو غير طاهر... حرام.

لم يحتمل "تيلجان" فقال مغتاظًا:

- ها أنت قد سمعتِ ما أردت أن تسمعي.

ثم نهض من خلف المائدة في هدوء.

رغم أن كلمات الصغيرة "أيجان" قد أربكت كلا الزوجين، فإنها بحلول المساء كانت قد صارت إلى حد ما في طي النسيان، وعادت الحياة في البيت إلى مجراها الطبيعي، إلا أن الغريب أن الطفلة لم تنس شيئًا، ففي صباح اليوم التالي أثناء الإفطار نظرت مرة أخرى إلى غلاية الشاي، ولكن في هذه المرة كانت نظرة نفور، ثم سألت مرة أخرى:

- أبي، متى سنتناول الشاي أخيرًا من الساموار؟

فأجابها "تيلجان" كاظمًا غيظه بالكاد:

- بنيتي! ماذا يعيب الغلاية مقارنة بالساموار؟ ما الفرق إذا غلينا الماء في غلاية أو ساموار؟

- لا... إن تناول الشاي من الساموار أفضل؛ متعة ما بعدها متعة، ثم إن جدتي كانت تقول أيضًا: إن الساموار يجذب الضيوف، والترحيب بالضيف والعمل على إرضائه يجلب الخير والبركة للبيت.

فقالت "غولسان" لزوجها بنبرة لا تخلو من السخرية:

- تيلجان، غدًا من فضلك ابحث لنا عن هذا الساموار، وأحضره ولو من تحت الأرض؛ فربما يتوافد علينا الضيوف نحن أيضًا، وتصبح حياتنا أكثر سعادة.

في اليوم نفسه، ذرع "تيلجان" نصف المدينة تقريبًا، حتى وجد ذلك الساموار المشئوم، وعندما رأت "أيجان" أباها وهو يضع على المنضدة ساموارًا جديدًا يتلألأ بالنيكل، صفقت بكفيها ابتهاجًا. بيد أن بهجتها لم تدم طويلا، فما كادت تفتح غطاء الساموار حتى تملكها الصمت ورفعت عينيها إلى أبيها مندهشة:

- أبي! وأين الماسورة التي نوقده منها؟

- بنيتي! هذا ساموار كهربائي والماء يغلي فيه بواسطة التيار الكهربي، قالها "تيلجان"، ثم بدأ يفك السلك الملتوي في عجلة، ويمسح الأتربة عن الساموار، الآن سنصب الماء هنا، ونوصِّل الكهرباء، سترين، لن يمر خمس دقائق حتى تغلي المياه، ثم بعد ذلك نعد الشاي، ونجلس ثلاثتنا لنستمتع بتناول الشاي بالنكهة الفواحة! وبالفعل، سرعان ما صُبَّت المياه في الجهاز، وتم فك السلك وتوصيله بمقبس الكهرباء، شعر "تيلجان" بالرضى بعد أن بدا له أنه نجح في تهدئة ابنته، فالتفت إليها فإذا بها تجلس ويرتسم على وجهها كأنها فقدت آخر أمل، ارتمت في أحضان والدها وهي تجهش بالبكاء:

- جدتي!... ساموارنا!...

راحت تردد وهي تنوح.

في تلك الليلة لم يستطع أحد من أفراد الأسرة أن يغمض جفنيه؛ حيث ظل كل منهم يفكر في شأنه... والسبب في ذلك هو ساموار جدة أيجان النحاسي القديم.



لم تتوقف "أيجان" عن التفكير في جدتها منذ اليوم الأول بعد وصولها من القرية إلى المدينة، واليوم ذكَّرها بها سامـوار الجدة الأصفر القديم، الذي طالما تناولوا منه الشاي؛ كلما أغمضت عينيها رأت جدتها أمامها، هاهي تفتح أحضانها وتركض تجاهها، يُهَيأ لها أن جدتها تهمس لها في أذنها في هدوء وحنان: "حبيبتي! لقد جريتِ كثيرًا وتعبتِ، هيا بنا نذهب لتناول الشاي، تشعر "أيجان" بدفء أنفاس جدتها وهي تدغدغ أذنيها. وكلما تذكرت الشاي انتابتها رغبة عارمة في تناوله؛ لكنها ستصبر وتتحمل، فمهما كانت رغبتها في تناول الشاي لن تتناوله من هذه الغلاية الزعراء المتكرشة، كم أريد شايًا! أجل، الشاي عند الجدة كان شايًا بمعنى الكلمة؛ يالها من متعة! تشرب قدر ما تشاء، ولا تشبع منه أبدًا، لأن الشاي من السامـوار دائمًا ساخن وذو رائحة زكية، عندما كانت تحتسي الشاي من سامـوار جدتها، كان أنفها يتعرَّق دائما، وتشعر بحرارة ما بعدها حرارة، لكن الأهم هو صدى حواديت الجدة أثناء تناول الشاي، إن الجدة تختلف عن الخالة "غولسان" التي تجلس متصلبة كالصنم، لا تعرف إلا الموعد المحدد لصب الشاي؛ إنها تفتقر إلى الصبر، أما الجدة فشيء آخر، فقد كانت تتبادل أطراف الحديث معها؛ وكأنها شخص راشد، حتى إن الجد كان يتدخل أحيانًا في حوارهما فيقول مازحًا:

- أيتها العجوز، ما هذا الذي تتحدثين عنه مع حفيدتك؟ إن عمرها لم يتعد ست سنوات، بينما عمرك ست وستون، شيء غريب!

- ومع من أتحدث إلا معها، ولمن أقول إلا لسواها؟ لعلي لم يتبق لي سواها، فالآخرون تفرقوا وتناثروا في أرض الله الواسعة، أظن أن أحاديثي معها لن تضيع هباء، ربما سيظل شيء منها عالقًا في داخلها، ربما سيبقى شيء محفورًا في ذاكرتها، فالطفلة لا تزال عديمة الخبرة، والله أعلم مَن سيحدثها بعدنا.

هكذا كانت ترد الجدة بفطنة، ثم تنزع ماسورة الوقود من السامـوار المتكرش وهو يغلي ويتصاعد منه البخار، كان السامـوار الأصفر القديم - ذو الأذنين المتدليين على جانبيه كورق اللبلاب، والصنبور الصغير المنمق المزخرف - يقف دائمًا إلى يمين الجدة، وكان لا يتوقف عن الأزيز والطنين المزعج كطنين الزنبور حتى بعد إدخاله من الفناء إلى داخل البيت، وأحيانًا كانت أعمدة البخار تتصاعد منه لدرجة يُهيأ لك فيها أنه على وشك أن يضرب الأرض بأرجله القصيرة ويقذف بغطائه الذي يئز مترجرجًا، كانت الجدة كعادتها تلف الصنبور الصغير ثم تبدأ في صب الشاي ذي الرائحة الزكية في الفنجان بعد أن تضع فيه ملعقة صغيرة من اللبن المكثف، آه، يالها من متعة أن تشرب الشاي من سامـوار الجدة!

- ولية العهد بمعنى الكلمة! انظري، أيتها العجوز، كيف تحتسي الشاي!

كان يتعجب الجد في تلك اللحظات وقد اكتسى وجهه بدهشة غير مزيفة

- هذه هي من سنترك لها السامـوار.

تنهدت الجدة بغصة ردًا على كلامه:

- أجل... من كان يخطر بباله أننا لن نجد من يرث السامـوار! كنت أظن أني سأتركه في أيد أمينة، لإحدى

كناتي الأكثر نشاطًا وحركة، لكن أبى القدر أن يتحقق أمليو شيء محزن! الكل متمدنون، لا يميلون إلا للأجهزة الحديثة، والساموار عبء عليهم، فيجنحون إلى ما هو أخف؛ يتأففون من القديم! لا يدركون أبدًا أنه سيأتي وقت يحتاجون فيه إلى القديم أيضًا، ماذا أقول؟ لقد رأيت بنفسي الكنة وهي تحلب الفرسة بذاك "الجهاز"، حتى اسمه غريب! تشغِّله فيظل يمتص الحليب من ضرع الفرسة إلى أن يخرج دمًا، ربما في الأبقار لا ضير، فهي قد تعودت على هذا، أما الخيل فأنا أشفق عليها منه، وأنا من غبائي أعطيتهن قِرْبتي، ما حاجتهن بها؟ هل بإمكانهن أن يقدِّرنها حق قدرها؟! لقد تخلصن منها بحجة أنهن لسن في حاجة إليها، وصرن يستخدمن بدلًا منها الطناجر الألومونيوم؛ من سيشرب لبن الفرس بعد أن تشبَّع بالمعدن؟ أسألهم: "حبيباتي، ما هذا الذي تفعلنه؟ من يعد هذا المشروب المبارك بهذه الطريقة؟" فيسخرن مني أنا العجوز، ويُجبن فيشرحن لي كما لو كنت طفلًا صغيرًا غير متمرس: "أيتها الجدة، إن زمن القِرَب قد ولَّى، كان بودنا أن نستخدمها، ولكن أنَّى لنا تلبية الطلب المتزايد بهذه الكشتبانات؟!"؛ لذا أخشى أن أترك لهم الساموار، هل تعتقد أنهن سيحافظن عليه؟ أشك في ذلك!

مهما تنهدت وتأوهت الجدة، لكنها حافظت على ساموارها أكثر من عينها، كانت تقول دوما: "إن الساموار هو مَلِك أي وليمة"، كانت تنظفه كل يوم وتلمِّع نحاسه البراق كالوهج بخرقة بيضاء نظيفة، وقد تأكد ضيوفها أكثر من مرة من الميداليات الذهبية الخمس المدموغة على الجانب المتكرش من الساموار، والتي كانت تلعلع بلونها الذهبي؛ وأدركوا أي شرف نالوه بتناولهم الشاي من هذا الساموار الأسطوري! إلا أن أحدًا بالبيت، حتى الجدة نفسها، لم يكن يعلم متى وبأي مناسبة ظهر عندهم هذا الساموار، لكن الجدة، بل و"أيجان" الصغيرة يعرفان كلتاهما أن هذه الميداليات لا توجد على أي ساموار آخر في قريتهم، كانت "أيجان" على قناعة بأن ساموار بلا ميداليات هو ساموار بلا قيمة؛ والساموار الذي لا قيمة له يخرج منه شاي لا قيمة له، ربما لهذا السبب كان الضيوف يتوافدون دومًا إلى بيتهم، كي يتناولوا الشاي من الساموار.

فعلًا، الحق يُعلى ولا يُعلى عليه، فقد كان البيت يعجُّ دائمًا بالضيوف، فلم يكن يخلو منهم أبدًا ر كان أهل القرية يأتون مترجلين، أما الغرباء فركبانًا على ظهور الخيول، زمرة تأتي، وزمرة ترحل، وزمرة تبقى حتى للمبيت،كان الجميع محلَّ ترحيب في هذا البيت، شيوخًا كانوا أم شبابًا، أحيانًا كان يلزم الأمر أن يظل ساموار الجدة الأصفر ينفث بخاره في فناء المنزل من الصباح حتى آخر المساء، "الضيف في المنزل مكروم، وله وقاره، ولا يمكن ردُّهر هذه عادات أجدادنا" – هكذا كانت تقول الجدةر في بعض الأحيان كان يأتي أعمام "أيجان" وعماتها لزيارة الجد والجدة، وكانوا أحيانًا يصيحون قبل أن يتجاوزا عتبة الدار بأنهم يتحرقون شوقًا لشاي الجدة من الساموار الأصفر.

– اشربوا يا أحبائي، اشربوا بالهناء والشفاء – هكذا كانت تردد الجدة في رضا وسعادة وهي تصب الشاي برائحته الزكية في فناجين الضيوف، ولم تنس أن تضع نتفة من القرنفل لإضفاء مذاق أفضل على حد قولها – بعد أن أرحل عنكم من سيسقيكم؟ ستبقون وحيدين تعانون في وحدتكم.

بعد أن يحتسى الضيوف كلّ الفنجانين، ويسترخوا من تأثير شاي الجدة، كانوا يجلسون ليتحاوروا في تأنٍ ويمزحون ويضحكون، وكما هي الحال دائما كانت الخالة "قولزيبا" هي من يدير موضوعات الحديث؛ ولم يكن في هذا أي غرابة، فقد كانت هي أكبر الكنَّات، عندما كانت حرارة الحديث تشتد؛ تنسى أحيانًا نفسها، حتى إنها تهجم في بعض الأحيان على الجدة نفسها مازحة:

- سأرحل، سأرحل! ما هذا الرعب الذي ترعبيننا به، أيتها العجوز؟

قهقهت ناقلة عدوى الضحك إلى الآخرين

- انظري كم سيبقى من البشر من بعدك، غابة بأكملها؛ فإذا أردتِ ألا تجف الغابة من جذورها من الظمأ، سلميني السامور الآن حالًا دون تفكير.

- وماذا تريدين أيضًا؟!

قاطعتها الجدة بحدة.

- ثم ألا تستحي من كلامك هذا؟ تعيشين كالذئب الوحيد، فلا أحد يدخل إلى بيتك طوال اليوم، وإذا حدث وتخطى أحد عتبة دارك يقبُّ شعرك، فما حاجتك إلى سامور كبير؟ سيكون بمثابة عبء عليك لا أكثر أنت، يا عزيزتي، يكفيك الشاي من غلاية.

- أوه، كفي يا أماه! إن الإنسان لا يستطيع أن يمزح معكر ثم ما الداعي لأن نختلق مشكلة بسبب قطعة خردة؟ هكذا اعتذرت الخالة "قولزيبا"

- الشيء الوحيد الذي لا أستطيع فهمه هو السبب وراء تمسكك الشديد بهذا السامور.

ثارت حفيظة الجدة فردت عليها:

- إيه، محبوبتي الجميلة، مالك أنت والسؤال عن هذا وأنت لم تجربي البرد والجوع في سنوات الضنك، يا لهول ما رأيناه وما عشناه على مدار عمرنا المديد! فكانت هناك أوقات عليك أن تمتني لهذا السامور القديم أن النار لم تنطفئ بداخله، وإلا لانطفأنا نحن وأنتم أيضًا أذكر أن المرحومة أمي اضطرت في وقت من الأوقات إلى بيع كل شيء بالبيت مقابل حفنة من القمح، لكنها لم تلمس السامور، إن السامور يأتي إليه الضيوف، ومع الضيوف يأتي الخير والبركة، هكذا كانت تردد أميدوما، وكلمات أمي ذكرتني بواقعة ما... كنا في فصل الربيع، وكان البيت تلعب فيه الكرة؛ حيث خلا من كل شيء سوى الجدران، وكان الأمل كله معقودًا على عودة الوالد من المدينة؛ حيث كان قد سافر إلى هناك في منتصف الشتاء، كنا ثلاثة أطفال جياع، لا نفعل شيئًا سوى الجلوس من الصباح حتى الساعات المتأخرة من الليل ننظر إلى الطريق التي كان من المفترض أن يعود منها الوالد؛ وكانت الأم بعد أن توقد السامور تنضم إلينا أيضًا في صمت، كانت كل العيون تصوَّب نحو الطريق، ومن آن لآخر كانت أمي لا تنسى السامور فتزوده بقطع الخشب؛ وكانت تفعل ذلك لا لكي تعد منه الشاي، ولكن ليزداد الدخان المتصاعد منه قدر الإمكان، فالدخان يُرى من على بعد، ذات مرة رأينا خيال عابر سبيل وحيد، فتملكتنا جميعًا فكرة واحدة هي: مهما كان هذا الشخص، نتمنى لو انعطف فسار ناحيتنا

ودخل إلينا!... لسبب ما كنت واثقة أن في عبّ عابر السبيل هذا لا بد هناك رغيف ساخن، وإذا لم ينعطف نحونا فسيكون الأمر مؤسفًا ومؤلمًا، ويبدو أن الرجل قد لاحظ دخان ساموارنا، فتوقف، ووقف قليلًا متكئًا بصدره على عصاه كأنما يفكر كيف يتصرف، ثم بدأ يتوجه نحونا بخطى واثقة، كان نحيفًا للغاية، يغطيه السواد، كثيف اللحية، كان تجويفا عينيه الغائران، بناظريه اللامعين -وكأنهما من أقماع سوداء - يشعان بالحيوية، وينمان على شيء واحد فقط هو الجوع، قابلته الأم بنظرة، ثم مسحت بكفها الدموع التي سالت على الخدين، ونهضت من مجلسها فذهبت لإعداد العشاء، كان العشاء يتكون من ضلعين صغيرين وعظام قديمة محفوظة منذ الشتاء، وضعت أمي كل هذا في القزان، وفي الوقت الذي كان يُطهى فيه الطعام لم ينبس الضيف ببنت شفة، استمر في الجلوس في صمت غاضًا النظر، ولم ينتعش إلا بعد أن أعطيناه طبقًا من الحساء، وظهرت حمرة خفيفة على خديه الغائرين، بعدها شرب فنجانين من الشاي، بل مجرد ماء ساخن، ثم نهض في صمت، ورحل متكئًا على عصاه، رحل ولم يترك لنا أي أمل في يوم غد، وبعد أن أعطت أمي ضيفنا آخر ما في البيت ظلت تجلس دون حراك، محدقة بغرابة في الساموار الذي انطفأت جذوته، في اليوم التالي لم تكن لدينا حبة غلال واحدة نقتات بها، وبدا لنا أنها النهاية... وبعد أن فقدنا الأمل تمامًا ونوينا النوم متدثرين بجلال قصير من الصوف، فجأة ظهر رجل لدى باب الدار؛ تعثر في العتبة في الظلام فدخل إلى البيت بصخب، ثم أنزل شيئًا ثقيلًا على الأرض فأحدث ضجيجًا، كان هو عابر السبيل ذاك نفسه الذي زارنا: "أختاه! ليت كل الناس كانت قلوبهم مثل قلبك... تالله قد حباك المولى بقلب طيب... أوقدي على القزان يا أختاه"، هكذا تمتم وكأنه قد فقد رشده، ثم صار، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، يحتضننا نحن الأطفال بيديه المرتعشتين ويقبل جباهنا، تبين أن الحظ كان حليف ضيفنا؛ حيث وقع في السهول على يحمور أصابه سهم، فأحضره لنا شكرًا وعرفانًا.

هكذا، يا أحبائي، كان هذا الساموار طيلة حياته شاهدًا على مختلف الأحوال، ثم بعد ذلك أتت سنوات سمان؛ وتحت هذا السقف كرَّمنا أجدادنا وكبراؤنا خير تكريم، واستقبلنا ضيوفنا مرارًا، قصارى القول أنه كان هناك الكثير من السعادة والفرح، لكن، على رأي المثل، دوام الحال من المحال، فقد مررنا أيضًا بحالات حزن وحسرة؛ حيث فارق دنيانا أقاربنا وذوونا، وعج البيت بالنواح، ومع ذلك كان هناك الكثير من لحظات السعادة، فقد دخلت الكنَّات البيت عبر هذه العتبة، واحتفلنا بميلاد الأحفاد والحفيدات، وكان الساموار العجوز شاهدًا على كل ذلك، بالنسبة لي هذا الساموار هو أغلى شيء في العالم، لأنه سمع مرارًا وتكرارًا صوت جدي، وصبَّت جدتي الشاي منه لضيوفها، فلم لا أعتز به كذكرى كريمة؟ إذا تعاملت معه كما يجب فهو أيضًا سيظل في خدمتك أبد الدهر!

إلا أن الخالة "قولزيبا" لم تستسلم:

- لكن زمن الساموار قد ولَّى، فكل وقت وله أذانه.

- أي نعم، سيأتي وقت تفقد فيه الفضة قيمتها، أنا لا أعترض على ذلكر لكن ليس من الذكاء أن نسخر

من القديم الذي قضى دهره، وإلا من الممكن ألا نلاحظ أن القديم سيرحل معه ما قد لا يأتي مع الجديد، لماذا أقول لكم هذا، يا أولادي؟ كي تتعلموا التمييز بين ما هو جيد وما هو رديء قبل أن تقرروا ما القديم وما الجديد، هذا هو ما أردت أن أتمناه لكم!

أنهت الجدة أمثولتها، ومررت يديها على وجهها بصورة معبِّرة، وكأنها تدعو لنا.

- وأرجوكم ألا تعتقدوا أني ألقي عليكم المواعظ، فأنا لن أعيش ثلاثمائة عام، فلا بد سيأتي يوم انتقل فيه إلى الراحة الأبدية في العالم الآخر، والإنسان في الكِبَر يصير كالطفل قليل الفِطنة وكثير الثرثرة، مثلي الآن؛ لذا إذا كنت قلت شيئًا ليس في محله فلا تؤاخذوني.

أضافت الجدة: كانت "أيجان" يروق لها كثيرًا حين تأخذها جدتها من يدها قائلة: "هيا بنا!"؛ لأنه بمجرد أن تنطق الجدة بهذه الكلمات السحرية كانا يستقلان على الفور الحافلة الزرقاء الصغيرة، التي كانت تمر بقريتهم مرة واحدة في اليوم، فيذهبان لزيارة الأقارب، زيارة الأقرباء شيء جميل، لكن الأجمل حين يهبك الأقارب الهدايا عند رحيلك عنهم، فمنهم من يهديك ثوبًا، ومنهم من يعطيك لعبة، أما كمية الحلويات المغلفة في علبة جميلة فحدث عنها ولا حرج! شيء يزيغ معه البصر! ثم عمَّ نتكلم! إن زيارة الناس مع الجدة في حد ذاتها متعة لا تقدَّرر لكن الشيء المحزن أن الجدة في المرة الأخيرة لسبب ما رحلت دون أن تخبرها، والدها يقول إنها ذهبت لتبحث لها عن اليحمور ذي القرنين الذهبيينر إن حزنًا شديدًا يغمر قلبها حين تتذكَّر آخر حديث لها مع الجدة، كان هذا قبل بضعة أيام لا أكثر من رحيل الجدة خلف الجبال العالية لتبحث لها عن اليحمور.

كانا يجلسان خارج القرية، فوق التل الأخضر، وكانت السماء فوقهما شديدة الزرقة، كانت أسطح المنازل الموجودة في وهدة القرية تلوح للأنظار في الدخان المائل للزرقة، وهدير النهر يترامى إلى الأسماع من بعيد، كانت الجدة تمسك في يدها مغزلًا وكتلة من وبر الماعز الناصع البياض، أما "أيجان" فكانت تجلس بجانبها تنظف الوبر من الشعيرات الخشنة، بينما كانت الجدة تغزل بمغزلها، وفي مكان غير بعيد، عند سفح التل، كانت ترعى معزتهم البيضاء العزيزة على قلبهم، والتي كانا يسرِّحانها هي والجدة كل يوم من بداية الربيع الباكر لترتع في هذا المكان.

- يا إلهي! هل من المعقول ألا يأتي في هذا العام أيضا؟ لا،لا، لا بد أن يأتي هذا العام! حتما سيأتي!

- عمن تتحدثين، يا جدتي؟

أجابت الجدة بنبرة حزينة:

- عن أبيك، نور قلبي، حبيبي.

تعلم "أيجان" أن أباها هو العم "تيلجان"، كانت جدتها، هذه السيدة العجيبة، قبل ذلك توبخ "تيلجان"، ولا تفتأ تقول إنه شخص مهمل، بارد الدم، ضعيف الإرادة، أما الآن فلا تفتأ تذكره كل يوم وتنتظر مجيئه على أحر من الجمر، بيد أن انتظارها يذهب سدى، كانت الصغيرة "أيجان" تشعر بالضيق حين كانت الجدة

تتحدث عن العم "تيلجان" فتقول: "والدك"، ""أبو"ك"، وهي لم تر "أباها" هذا سوى مرتين تقريبًا: المرة الأولى في الشتاء، وكان على عجلة من أمره، فبات عندهم، وفي الصباح استقل الحافلة الزرقاء ورحل إلى مدينته البعيدة؛ أما في المرة الأخرى فلم يكن بمفرده، إذ كانت برفقته خالة تدعى "غولسان"، إنها تذكر جيدًا: كان هذا في العام قبل الماضي؛ حيث بقيا في ضيافتهما هي وجدتها أسبوعًا بأكمله، حام الضيفان حول "أيجان" طوال اليوم، وفي المساء جعلاها تنام بجانبهما، أما هي فمن ناحية الموافقة على ذلك وافقت، لكنها استيقظت في بطن الليل، وصارت تبكي وتبحث عن جدتها.

فجأة بدأت الجدة تتمتم:

- إيه، أيتها العجوز، أخطأت حين أخذتك... أخطأت، أخطأت إذن...

مع من تتحدث؟ استدارت "أيجان" فلم تر على التل كائنًا حيًا واحدًا غيرهما.

- جدتي، عمن تتحدثين؟ عني، صحيح؟

لكن الجدة استمرت تلف مغزلها، وكأنها لم تسمع سؤال حفيدتها المحيِّر، ثم عادت بعد ذلك تتحدث مع نفسها جهرًا:

- طفلتي التعيسة، ماذا سيحدث لك بعد أن تُغمَض عيناي؟ كيف ستعترفين بأمك وأبيك الحقيقيين؟ فأنت لم تعرفي أبدا حنان الأب والأم، يبدو أن قدرك أن تعاني إلى أن تدركي بنفسك كل شيء بإحساسك، يالك من طفلة مسكينة!

احتضنت "أيجان" الصغيرة جدتها، وقد غرقت في الظن والتخمين:

- جدتي، من ذا الذي تشفقين عليه؟

- لا، يا حبيبتي، لا تشغلي بالك... تذكرت أباك فجأة... يا إلهي، كم أنت شعثاء! تعالي يا قطتي الصغيرة، سأضفِّر لك شعرك.

قالت الجدة وهي شاردة الفكر، ثم أجلست الطفلة على ركبتيها وفكت جدائل ضفائرها المنكوشة، وراحت تمشط لها شعرها بفرشاة قديمة من العاج، لم تعد الطفلة تتذكر كم من الوقت استمرت هذه العملية التي جلست تستمتع بها، وفجأة شعرت بأن يد الجدة توقفت وسقطت منها الفرشاة في لمح البصر.

- ماذا حدث يا جدتي؟

استدارت "أيجان" نحوها مفزوعة، فرأت أن جدتها ليست على ما يرام، فقد جلست مرتكزة بإحدى يديها على الأرض، بينما رقدت يدها الأخرى على صدرها، وسرت على وجهها ابتسامة غريبة غير بريئة، بعدها بقليل التقطت نفَسًا ثم هزت رأسها خفيفًا وكأنها تهدئ من روع حفيدتها، كما لو كانت تقول لها لا تفزعي، حالة وستمر بسلام؛ فقط دعيني أتنفس قليلًا.

- لا تخافي يا حبيبتي، هذا قلبي المسن يعلن عن نفسه لا أكثر.

قالت الجدة بعد أن أخذت نفسًا عميقًا

- المسكين بلغ الخامسة والسبعين، ويبدو أنه قد تعب، هو أيضًا بلغ به الكِبَر؛ أحيانًا تشتد ضرباته لدرجة يبدو معها أنه يوشك أن يقفز من صدري، لا أظن أن هذا يأتي من فراغ، لقد قربت ساعتي... آن الأوان، على ما يبدو، لأستعد للسفر الطويل.

- إلى أين هذا السفر، يا جدتي؟

من قبل كانت الجدة كأنها لم تلحظ هذا السؤال، لكن في هذه المرة وضعت يديها برفق على كتفي "أيجان" الصغيرين، وجذبتها إليها بحنان.

- هل تذكرين؟ هل تذكرين حكاية الظبي ذي القرنين الذهبيين؟

- أجل، يا جدتي، أذكرها.

- إذن اسمعي، في الأغلب سأذهب إن عاجلًا أو آجلًا لأبحث لك عن هذا الظبي، سيأتي "أبو"ك وأمك من المدينة، سيُحضران لك أشياء جيدة، حلويات كثيرة جدًا جدًا، فقط أرجوك لا تبكي ولا تبحثي عني، اتفقنا، يا حبيبتي؟

- أنا لا أريد أحدًا غيرك؛ ولا أريد أي حلويات.

انفجرت الطفلة في البكاء، بينما احتوتها الجدة بابتسامة تنم عن الشعور بالذنب، ثم ضمتها بقوة إلى صدرها.

في صباح اليوم التالي استيقظت من نومها على ضوضاء وصخب... كانت أصوات ما قادمة من الشارع، و"أبو"اب المنزل تُفتَح وتُغلق في ضجيج بلا انقطاع... ومن مكان ما كان يُسمع نحيب نساء... قفزت من فراشها مفزوعة، وهرعت نحو الباب لتعرف ماذا حدث في واقع الأمر، وبينما هي تركض أمسكت بها يدان قويتان، ولم يلبث شخص لا تعرفه يقول: "الطفلة، أبعدوا الطفلة!"، حتى ظهرت جارتهم عند الباب -وكانت سيدة قصيرة بدينة- فأخذتها بعيدًا إلى الشارع... كان آخر ما استطاعت أن تراه من خلف ثوب جارتها الفضفاض هو ساموارهم الأصفر، وقد انقلب على جنبه بالقرب من عتبة الدار.

ظهر في النافذة قمر في ليلة البدر يتلألأ كأنه ساموار الجدة بعد تلميعه، تشعر "أيجان" بالأرق؛ دفنت رأسها في الوسادة المبللة وهي ترقد مفتوحة العينين بالقرب من أبيها يبدو أنه هو أيضًا ليس نائمًا، تُرى، أي أفكار تستحوذ على عقله؟

"المكتوب ما منه هروب"، هكذا يقول المثل الشعبي، الذي يبدو أنه لم يأت من فراغ، من كان يظن أن الأم ستتركهم في هذا الصيف تحديدًا؟ إنها لم تكن مريضة، ولا أحد يذكر أنها كانت تشكو من صحتها.

إنه يتذكر كل شيء، فلا تزال الصورة مرسومة في عينيه... حين وصلا أخيرًا هو وزوجته إلى قريته، كان الحزن يخيم على جميع أركان البيت؛ كانت الحجرتان الصغيرتان تعجان بالبشر؛ حيث كان يجلس هنا الشيوخ المسنون، والحكماء الراشدون، بينما كان النساء والشباب يقفون، وعندما ظهرا عند الباب كأنما نزل سوط سحري على الجمع الغفير من الناس ففلقه، فانفتح ممر ضيق بين الحشد، كان والد "تيلجان" يجلس

على رأس المائدة (4) وسط الشيوخ، فنهض واقفًا بصعوبة، ودفن رأسه في صدر ابنه وانفجر في البكاء بحدة على طريقة الرجال، وبعد أن انتهى من بكائه أجلس ابنه بالقرب منه بإيماءة من رأسه.

- لم يستجب العلي القدير لرجائي.

قال الشيخ بعد لحظة من الصمت، دون أن يلحظ دموعه وهي تسيل على لحيته البيضاء

- إنني لم أسأل الخالق إلا شيئًا واحدًا، وهو ألا يتركني وحيدًا في آخر أيامي، لكنه لم يستجب لدعائي، رحلت المسكينة، وتركتني في وحدة ما بعدها وحدة، أربعون عامًا عشتها جنبًا إلى جنب مع المرحومة، ولم تنادني باسمي مرة واحدة، والآن رحلت إلى الأبد...

تنهد الحضور في أسى، وانفجرت "قولزيبا" في البكاء بالدموع وهي تجلس في طرف المائدة بالقرب من الساموار الأصفر، اغرورقت أيضًا عينا "تيلجان"، كانت الأم تردد دومًا: "من يملك الذهب لا يقدر قيمته". فهل سمع أحد كلام الأم في ذلك الوقت؟ وهل أمعن التفكير فيما يحتويه كلامها من حكمة؟ أما الأم نفسها فما أحكمها! فقد كان كل تصرف تتصرفه وكل خطوة تخطوها تحمل مغزى عميقًا، حتى مسألة أنها لم تكن تنادي زوجها باسمه أبدًا، بل تارة تناديه تدليلًا: "أيها العجوز"، وتارة "يا "أبو" تيلجان" كان احترامًا حقيقيًا وصادقًا، لكن هل كان هذا فقط كل ما يميز أمه عن غيرها؟ فهل رآها أحد في يوم من الأيام وشعرها مكشوف؟ ثم إن الضيف كان لا يغادر عتبة دارهم مكسور الخاطر! هل رفعت صوتها في يوم من الأيام وهي تمر بجوار الدار في وقار؟ أجل، لقد عاشت أمه حياة كريمة! لكن هذا كان بالنسبة لبعض الناس عادات قديمة، وبالنسبة لبعض آخر ذكريات ينفطر لها القلب.

- الموت مصيبة كبرى، لكن لكل موت أحزانه، يا بني.

نطق الشيخ"نورغالي" الذي كان يجلس بجوار الأب فقطع الهدوء القاتل الذي كان يسود المكان

- أحيانًا يموت الإنسان في صباه وهو في أشد عنفوانه، دون أن يذوق سعادة الدنيا ويتجرع همومها، وهذا بالطبع أمر مؤلم للغاية، لكن هذه هي سنة الحياة، غير أن الموت لا ينتزع إنسانًا عزيزًا لدينا فحسب، وإنما يجلب معه الحزن والحسرة، وماذا بيدك لتفعله؟! يبدو أن هذا قدرنا، نحن أبناء آدم وحواء، نبكي ونتحسر، لكن هذا لن يحيي الميت، ومع ذلك فلا يتملكنك شديد الحزن على رحيل شجرة أزهرت وآتت ثمارها، وكذلك على إنسان قضى مشواره في الحياة في عزة وكرامة، لقد تركت أمك هذه الدنيا الفانية بنفس مطمئنة، ومهما كان فقد عاشت حتى رأت أبناءها وقد وقفوا على أرجلهم وبنى كل منهم أسرته، وبناتها وقد سكنت كل منهن في عشها؛ وحملت على يديها ودللت أحفادها وحفيداتها، إذن يا بني، لا تحزن! هذا قدر المولى سبحانه وتعالى، يقبض أرواح البشر، لكن أعمالهم الصالحة وذكراهم الطيبة تبقى بيننا إلى الأبد، لقد عاشت أمك حياة فاضلة، ولذا نالت حب الناس واحترامهم، الجميع هنا في القرية، الصغير والكبير، كانوا ينادونها بكل

(4) من مراسم العزاء وتأبين المتوفى في ثقافة الكازاخ عمل وليمة كبيرة ونصب مائدة عليها مختلف أشكال المأكولات، يجلس إليها الأهل والأقارب والمعارف والجيران والأصدقاء الذين جاءوا لتقديم واجب العزاء.

وقار "جدتي"؛ لذا فلندع ما تركته من بر وإحسان يُسْعِد قلوب الناس...

- فتح الله عليك يا شيخ!

ترددت هتافات الحضور.

- أدعو الله أن يبلغك مرادك، يا بني...

بدأت "قولزيبا" في صب الشاي، وسرعان ما انتشرت الفناجين في أيدي الحضور.

ثم واصل الشيخ نور حديثه بعد أن احتسى عدة فناجين من الشاي محدثًا ضجيجًا مع كل رشفة:

- يا إلهي، من كان يتصور أن في نصف ساعة فقط قد يغمض الإنسان عينيه إلى الأبد، في اليوم نفسه بالضبط ذهبت في الصباح الباكر لأبحث عن فَرَستي الرمادية، فصعدت إلى التل خارج القرية، ونظرت فإذا بالعجوز تجلس هناك؛ دققت النظر فتبينت أنها هي بالفعل، بنت سني، ربة هذا الدار. قلت لها مازحًا:

- إيه! لم صعدت من الصباح الباكر إلى هذا التل المرتفع؟ لعلك لا تزالين تنتظرين شيخك، فأنت تراقبين الطريق أيما مراقبة؟".

- أي عجوز! العجوز سأظل أبحث عنه إلى أن أنتهي... إنني أنتظر ابني حتى يأتي من المدينة، وأسمِّن المعزة لهذه المناسبة، وهي بغبائها اختفت، كما لو كانت متعمدة، منذ الصباح لا أعلم أين.

ثم بعد ذلك صارت الكلمات تخرج منها متقطعة وبصعوبة

- لقد بلغنا أنا وأنت من السن عتيًا، يا شيخ نور، يومًا بعد يوم يصعب عليَّ صعود التل أكثر فأكثر، ها أنا الآن لا أستطيع أن أستعيد قواي، فقد كاد قلبي ينخلع من صدري وأنا صاعدة إلى هنا.

لم يمر نصف ساعة حتى عدت إلى هناك ممتطيًا حصاني، وإذا بها في المكان نفسه، لكنها ترقد بلا حول ولا قوة، خائرة، تطبق على صدرها بيدها، مسكينة، وجهها شاحب تمامًا، لا أذكر كيف نزلتُ من فوق الحصان، وهرعت نحوها؛ ولم تسعفها شفتاها إلا بكلمتين: "إليَّ.... بزوجي..."، وانتهى الأمر. هذه هي حياة الإنسان...

- ولم يمهلها القدر أن تنطق بوصيتها الأخيرة، آه يا جدتي!

شهقت "قولزيبا" وهي تمسح دموعها بطرف شالها الأسود الذي انزلق على قفاها.

عم البيتَ هدوء قاتلر بيد أن الأب خرقه قائلاً:

- واضح أنها كانت تظن أن أجلها قد قرب، وكانت لديها بالفعل وصية أخيرة وهي أن تُدفَن في المدافن الموجودة على قمة كاراتومسوك بجوار جدودنا.

- هذا أمر سهل.

قال الشيخ "نورغالي" وهو يفرك لحيته البيضاء.

- بالمناسبة، المسئول يجلس بيننا، فهل خمسة فراسخ من هنا تعد مسافة بعيدة إذا منحنا سيارة؟ هل كلامي صحيح يا "سلطان"؟

نظر "تيلجان" خلسة مقطبًا جبينه إلى الفارس الأرقط الذي اكتنز الشحم في جسمه بما لا يتناسب مع سنه، والذي كان يجلس لسبب ما في أكثر المكان شرفًا بين زمرة الشيوخ، ففي وقت من الأوقات كان تيلجان وسلطان هذا زميلين في الدراسة، والآن بات من الصعب أن تعرفه، فقد صار بدينًا بدرجة بشعة، حتى أصبح يشبه القِرْبة المحشوة بالزبد.

- إذن قررتم كاراتومسوك؟

كرر "سلطان" السؤال بأكثر من مغزى، مقطبا حاجبيه، وقد قسمت جبينه تجعيدة غائرة.

- كاراتومسوك... مممم... بالسيارة سيكون من الصعب بعض الشيء الوصول إلى هناك.

- إن لم يكن بسيارة، فربما بجرار؟ سنقطر به عربة، تصرُّفٌ عملي.

- إذن، غدًا يوم عمل... ثم إنكم كلفتموني بمهمة صعبة مع ذلك.

قاطع الشيخ نور الفكرة التي يفكر فيها "سلطان" جهرًا:

- أنا أخمن يا عزيزي ما جال في ذهنك فجأة، في رأيك، ما الداعي لسحب سيدة عجوز إلى أعلى الجبل، إذا كان من الممكن أن تُدفَن في المدافن المجاورة للقرية، طبعًا، من ناحية، معك حق، فالميت لا فرق بالنسبة له أين يرقد، فأرض الله واحدة في كل مكان؛ لكن لا تنس أننا أبناء شعب يقدِّر منذ قديم الأزل إكرام موتاه واحترام الأم وطاعة الكبار، والمرحومة، طيب الله ثراها، كانت واحدة ممن يقدسون ويحافظون على تقاليد الجدود، لذا فوصيتها الأخيرة نحن الأحياء ملزمون بتنفيذها، هذا ليس فريضة دينية، فلا تخف؛ هذا تقدير للميت ولذريته، وهذا واجبنا المقدس.

- وماذا تريدون مني؟

- أعطنا جرارا بمقطورة غدًا في الظهيرة، واثنين أو ثلاثة من الفتيان لحفر القبر؛ فقط لا غير، ياعزيزي.

تذمر "سلطان" قائلا:

- حسنًا، سنرى، من المساء للصباح على الله الفرج.

إلى أن أنهوا تناول اللحمة، ودعوا للميت، وأفرغوا المائدة، كان قد حل الظلام، لم يبق بالمنزل سوى أقرب الأقارب، ونحو خمسة أو ستة من الشيوخ المسنين، في الركن الأيمن، خلف ستارة حريرية حمراء كان يُسجَّى جثمان الفقيدة، وعلى بعد قليل منه أخذ الشيوخ راحتهم في الجلوس، وراحوا يتبادلون أطراف الحديث في تمهل، ساد الهدوء البيت، فلا يُسمع سوى طقطقة مصباح الكيروسين فوق الفرن من آن لآخر، حديث الشيوخ يفوح بالحزن ويتسم بالهدوء مثل هذه الليلة الظلماء؛ حيث صاروا يتحدثون عن الكِبَر، والضعف، والأمراض، وكيف ينسى الشباب عادات أجدادهم، الجميع يصغون بوقار إلى الشيخ نور، الذي عاد ليذكر المصاب الأليم الذي لحق بهذه الدار، ثم دخل فجأة في حديث عن الماضي البعيد، عن تلك الأزمان، حين كانت البلاد تحت إمرة الخان أبلاي:

- حدثت هذه القصة في قديم الزمن، حين كانت أراضينا يغطيها السواد من الأتربة، وكانت الشمس تسطع في السموات العلى كما هي الآن، حدث أن وافت المنية القاضي الحكيم"قاظيبيك" الذي لُقِّب في الأوساط الشعبيةبـ"نَدِيِّ الصوت" لموهبته الشعرية وعذوبة صوته، وحسب التقاليد كان أجدادنا في تلك الأزمنة يدفنون مشاهير الخانات والقضاة والحكماء في منطقة تركستان النائية، بجوار ضريح الشيخ الخوجة أحمد يَسَوي، وتقرر نقل جثمان القاضي"قاظيبيك" أيضًا إلى هذا المكان المبارك، لكن كيف؟ لقد كان هذا في منتصف الصيف، في عز الحر والقيظ، في شهر يوليو، والمسافة بين السهول الشاسعة في ساري أركا، التي فاضت فيها روح القاضي المعظم "قاظيبيك"، إلى تركستان -كانت القافلة تقطعها في نصف شهر سفر لا أقل، فكيف إذن يمكن نقل جثمان الفقيد كل هذه المسافة مع الحفاظ على سلامته؟ لكن الشعب الذي اعتاد على مدار قرون طويلة على حياة الترحال عبر السهول مترامية الأطراف لا يمكن إلا أن تكون لديه أسراره، قاموا بلف الجثة في جلد جديد مدبوغ، وفوقه لباد ناصع البياض، ثم رفعوه على نعش؛ وعندما حل الظلام، وتحت نسيم المساء انطلقت الجنازة لتبدأ مشوارها الطويل بقيادة البطل المقدام"بوليك"، واصلوا سيرهم طوال الليل دون توقف، وفي الصباح حين بزغ نور الفجر توقفت القافلة؛ حيث حُفرت حفرة عميقة حُفظت فيها جثة الفقيد حتى المساء.

بالنهار كانت القافلة تأخذ قسطًا من الراحة، لتستجمع قواها لسفر الليل؛ وخلال الاستراحة كان الفرسان يصبون الماء البارد على اللباد بلا انقطاع... من يفكر بهذه الطريقة المبتكرة الآن؟! أذكر في شبابنا حين كنا نرعى الخيول، كانت الشمس تلحف وجوههنا النهار بطوله، وكنا نلف الآنية بقطعة لباد أبيض مبللة بالماء، فكان الماء يظل فيها باردًا كالثلج حتى المساء... وبعد أن طوت قافلة البطل "بوليك"السهول الصفراء الشاسعة في ساري أركا، تجاوزت بسلام أراضي بيتباقدالا الجدباء القائظة، ووصلت أخيرا في يوم من الأيام إلى سفح جبل قاراطاو، وكالعادة حُفرت حفرة أُنزِل فيها جثمان الفقيد ،ولم يلبث الجمع أن خلد إلى الراحة بعد أن أنهكه عناء السفر بالليل حتى سُمِع هتاف مناوب الحراسة:

- العدو، العدو قادم!

بالفعل، لاح في الأفق من خلف قمة التل المجاور قرابة مائة فارس يندفعون إلى حيث حطت القافلة رحالها، أصاب الذعر الجميع، فمن هرع يمتطي جواده، ومن بدأ يبحث عن رمحه، وفي هذه الجلبة دوَّى صوت جهوري يقول:

- قفوا!.

كان صوت البطل"بوليك".

- لا داعي للفزع، تمالكوا أنفسكم! لقد رأيت الكثير في حياتي، لنفترض حتى إنهم قاطعو طريق جشعون ممن ينهبون القوافل؛ لكني لا أذكر أن حتى هؤلاء يمكنهم أن يتعدوا على حرمة الميت، التزموا الهدوء،

اجلسوا ولا تتحركوا.

يبدو أن هدوء الجمع في محط القافلة قد أذهل المهاجمين الذين دنوا رامحين، ثم كبحوا جيادهم فراحوا يدقون على الأرض متكدسين في كومة واحدة، وبرز إلى المقدمة على الفور أحد الضيوف المتطفلين، يبدو أنه كبيرهم، وثب بحصانه ثم صاح بنبرة تهديد:

- من تكونون؟ من أين جئتم وإلى أين تتجهون؟

وقتها فقط نهض البطل"بوليك" من مجلسه في هدوء وإباء، فأجابه:

- نحن أناس جئنا لنودِّع رفات نَدِيِّ الصوت القاضي"قاظيبيك" إلى مثواه الأخير.

- أيها التعيس، ما هذا الهراء الذي تقوله؟ أتريد أن تتستر باسم القاضي؟ نحن لا يهمنا من يرقد عندك في النعش، "قاظيبيك" أو غيره، كان أولى بك أن تقول إنكم تدفنون ميتًا.

ثم لف الفارس جواده الجامح بحدة، ولسع الحيوان المسكين بالسوط بكل ما أوتي من قوة، وتبعه بقية الفرسان بصياح مدو.

كانت أيام! حتى قطاع الطرق كانوا يوقرون الأموات، كان كل شيء عندهم مباحًا، لكنهم لم يكونوا ليجرءوا على أن يخطوا فوق رفات الأموات.

هكذا أنهى الشيخ "نورغالي" قصته بنبرة لا تخلو من العظة.

بدأت الديكة تصيح خلف النافذة، وبزغت أولى أنوار الفجر، ذهب العم "تيلجان" إلى مكتب المزرعة الحكومية لطلب الجرار، ولم يعد إلا قرب الظهيرة، لكنه عاد خالي الوفاض، إذ تبين أن "سلطان" استدعوه إلى البندر، ولم يجرؤ أحد دون إذنه على أن يسمح بخروج جرار على مسئوليته الشخصية. ثم إن المشكلة لم تكن في الجرار فحسب، فحتى الرجال المطلوبون لحفر القبر لم يتم العثور عليهم إلا بصعوبة! فالجميع مشغولون بالعمل؛ حيث كان الموسم في أَوْجِه.

لم يكن الأب يتوقع وصول الأمر إلى هذا الوضع، فوقف وفي عينيه حسرة شديدة ينظر إلى قمة كاراتومسوك، وكأنها جبل شاهق يستحيل على الناس بلوغهر هناك على قمة كاراتومسوك ترقد رفات جدودهم.

ودُفن جثمان الفقيدة بالمدافن القريبة من القرية، لكن حضر مراسم الدفن جميع أهل القرية، ما عدا النساء والأطفال؛ والفضل في قرب المدافن.

في فناء المنزل الذي خلا ظل يغلي الساموار النحاسي الأصفر القديم بأذنيه المتدليتين في يأس على جانبيه.

لم يساور "غولسان" أدنى شك في أن المياه بالساموار قد تبخرت عن آخرها، وبدلًا من أن تتأكد من هذا وتزوده بالماء أوقدته؛ بعدها تذكرت شيئًا مهما، فذهبت إلى البيت وشرعت تصلح من هيئتها، وأغواها الأمر فراحت تلون عينيها اللتين توَّرمتا من البكاء والسهر؛ ولم يقطع عليها انشغالها بنفسها إلا صوت "قولزيبا" وهي تصرخ وكأن أحدًا يذبحها:

- يا للمصيبة!يا للمصيبة! لقد انصهر، لقد انصهر!

راحت تولول وتدور حول السامـوار بلا توقف وهي تضرب كفًا على كف.

ضاع سـامـوار الجدة بسبب إهمالنا، وأين هذه، بنت المدينة السـاهية سـهو السـنين؟! غبية تعيسـة، أنى لها أن تدرك هول ما فعلت؛ يا لها من مغفلة! أي خبرة خَبَرَتْها في هذه الدنيا؟!

- أنت الغبية!

أفلتت الكلمة عن غير قصد من "غولسان" التي ظلت مكانها تختلس النظر إلى "قولزيبا" من شَقِّ الباب.

- كما لو أنك أنت التي خَبَرْتِ كثيرًا في هذه الدنيا؟! غبية!...

بدأ قـرص الشـمس الضخـم يرتفـع في الأفـق متلألئـا كالذهـب، وكأنـه السـامـوار الأصفـر القـديم بعـد تلميعـه، أخـذ تيلجـان اللَّبانـة الصغيـرة، وخـرج مسـرعًا إلـى محـل الألبـان على ناصيـة البيـت، بينمـا اتجهـت "غولسـان" حافيـة إلـى المطبـخ، تلطـم الأرض بقدميهـا ولا تـزال يغلبهـا النعـاس، فأدخلـت سـلك السـامـوار في مقبـس الكهربـاء، بعدهـا وقفـت تمعـن التفكيـر قليـلًا، ثـم صبـت المـاء مـن السـامـوار الكهربـي إلـى الغلايـة: "هكـذا سـيكون أفضل!".

جومابای شاشتایأولي

(ولُد عام 1950)



- كاتب نثر وصحفي، تخرج عام 1989 في كلية فقه اللغة بالجامعة الوطنية الكازاخية، صدرت أولى قصصه تحت عنوان: "في البرية"، وتحول اسمها فيما بعد إلى "الحظيرة السماوية"، وأُدرجت ضمن مجموعة كتاب: "ضوء الصباح".
- وقد كان هذا بمثابة إعلان ميلاد كاتب موهوب له برنامج إبداعي واضح، وقد صدرت أول مجموعة قصصية خاصة به عام 1984 تحت عنوان: "الجليد الأحمر"، وفي أعماله وصف حياة الرحل بدون تجميل؛ حيث رسم شخصيات أبطاله بصدق كبير، ولكنه تعرض للانتقاد اللاذع بسبب تشويهه لحقيقة الحياة الاشتراكية.
- وبعد ذلك، صدر له العديد من المجموعات القصصية من بينها "الافتراء والكذب" عام 1987، ورواية "الصدى" في جزءين، وقد اتصفت أعماله بالواقعية المتشددة التي تؤكد تفرد موهبة الكاتب وخصائص أسلوبه في الكتابة، وهنا يكمن السر في أن أعماله قد لاقت تقديرًا كبيرًا من النقاد والأدباء، وكذلك من القراء.
- ومن بين أشهر أعماله قصة: "أيازبي عصرنا" وهي واحدة من الأعمال النادرة التي يتم فيها تصوير فترة ركود الإمبراطورية السوفيتية وممثلي كيانات الحزب الكبيرة والصغيرة خلال أحداث ديسمبر 1986.
- وإلى جانب النثر، قام الكاتب بكتابة الكثير من المقالات الصحفية والأدبية والمذكرات، وقد صدرت كل هذه الأعمال في كتاب واحد تحت عنوان "الأغنية كالنمر" عام 1996 وكتاب "الحنين للصفات الصفراء" عام 2016.
- حصل على جائزة "جامبيل الدولية"، وجائزة "ألاش" الأدبية الدولية، كما حصل على جائزة رئيس جمهورية كازاخستان.
- يعتبر إحدى الشخصيات المرموقة في كازاخستان.

علمٌ أم حلمٌ؟

كان المليونير في السوق السوداء، الذي يحمل اسم الخان أبيلاي، يغط في نوم عميق، عندما استيقظ فجأة في الليلة المظلمة من الخوف، إلى حلقه قفز قلبه الذي كان على استعداد لأن يقفز من صدره، اختفي نفسه، وغطى العرق جبهته، وأصبح جسمه رطبًا.

عندما ضغط على زر على المصباح المكتبي المغطى بأباجورة حريرية، أعمى الضوء الساطع عينيه: جزء متناه في الصغر، مقطوعٌ من العالم الزاحف في صخبه والمبعثر في كل الاتجاهات، لا يعرف أين يختبئ، اختبأ في البلبلة في عينيه، غير قادر على مواكبة هذه السرعة المحمومة التي بسببها كانت أذناه تطنان، قفز فجأة من مكانه، وكما لو كان يحاول العثور على شيء للتشبث به من أجل أن يهدأ، بدأ ينظر حوله في حالة من الفزع، على الأرجح، المليونير في السوق السوداء، الذي يحمل اسم الخان أبيلاي، لم يضطر من قبل إلى النظر بمثل هذه الدقة إلى مثل هذا الضوء الساطع، لذلك فقد عانى لفترة طويلة من الذهول؛ وأكثر ما أخافه هو العينان المرتعشتان لهذه العينة المنافقة بجفنيها الرطبين البارزين، عمّت جسده بالكامل رعشة قوية، كما لو أنه إذا ما فتحهما الآن فجأة، فسيرى على الفور فيهما شرارات الغضب الأرجوانية النارية، إلى الإحساس بالاكتئاب من الشعور بالوحدة، انضم الشعور بالفراغ، والاندفاع الحاد المنفجر من أعماق الروح المظلمة.

على المرأة المستلقية على بطنها مع الغطاء المنزوع من الخصر إلى أسفل، لم يكن هناك ولا رقعة قماش، فقد كانت كما ولُدتها أمها، على الرغم من أن شعرها الأسود المزرق النازل حتى كتفيها، وجسدها الأبيض، قد جذباه، لكنه لم يبقِ عليها نظره عديم العاطفة والمفعم باللامبالاة إلا لفترة من الوقت.

كانت الزوجة، التي تقيم معه بقران قانوني، تتابع باستمرار كل خطوة من خطواته، دون أن تغفل أي تفصيل، وفي محاولة منه لعدم الخوض في ذلك، بدا وكأنه ضيف بقي ليبيت الليل، نظر إلى الأثاث والترتيب المحيط به كغريب، حبات الخرز المثلثة الصغيرة المتدلية من كامل محيط الأباجورة مصطفةً بجانب بعضها، بدت وكأنها كبرت في حجمها أمام عينيه، وبدا أنها يمكن أن تتحول بعد فترة من الزمن إلى كتل جليدية مدلاة.

فجأة ارتجف بشدة، كما لو كانت العينان الصافيتان والكبيرتان والجميلتان لزوجته ذات الخدين الممتلئين والمعربين عن يأس وصلاة، تحدقان بحزنٍ فيه من الخلف، على الرغم من أن عينيها الوادعتين المتسالمتين مع الآلام أثارتا الشفقة والمشاركة، إلا أنه كان يرتعش بلا كلل في مكانه.

هذه المرأة النائمة بهدوء بدت له فجأة شيطانًا، ألقى بشكل لا إرادي نظرة على الحائط حيث علّق جلد الذئب، احتار طويلًا في التخمين، غير قادر على تمييز أكان هذا أرلانًا (1) أم ذئبة، رأس الذئب وهو يبتسم بفكه ابتسامة عريضة خبيثة، كما لو أنه مع اللوم قال له: "يا لك من رجل أعمى، مخلوق على رجلين لا قيمة له، أي فائدة لك من هذا، إذا ما عرفت عن ذلك"، بدا بعد لحظة وكأنه سيتحول إلى ثعلب، انخفض مزاجه فجأة، ولم تكن لديه رغبة حتى في أن ينظر خارج النافذة.

خارج كل الشكوك، في واحدة من السيارات الأجنبية الكثيرة التي كانت تقف في الفناء الواسع، مطلقًا شخيره القوي على كامل المنطقة تقريبًا، نام حارسه الشخصي حليق الرأس، والمتين، وذو البنية القوية، والممتلئ، مع رقبة نمت في كتفين كما لو أنهما صُبَّا من فولاذ، يكفي أن يلعب عضلة واحدة على وجهه الموحش المسطح العريض دون أي تعبير عن دفء، حتى ترد مقارنته مع خنزير مستعد بشجاعة يائسة للانقضاض على أي شخص، في تلك اللحظة، عندما كانت عيناه البنيتان الواسعتان تحدقان به، لم يكن قادرًا على فهم أي معنى في البؤبؤين المتجمدين بشدة، وظهر فيه إحساس غير سار، مما تسبب في ارتباك في روحه، وحقيقة أن هذا العفريت الهادئ بطبيعته، مع تعبير قاتم كان يستمع إلى أوامره، وهو ينظر في نقطة واحدة، فسرها في البداية على أنها رفض للانصياع، فقط بعد ذلك، أدرك أخيرًا أن المسكين الذي اعتاد النظر إلى الموت في وجهه، كان بذلك يحاول إخفاء حالته الداخلية، اكتأب بشدة من حقيقة أنه بدأ يعبث بشكل مزعج في عادات حارسٍ هناك، في محاولة لطمأنة روحه الجريحة، لكن، عند الفهم بشكل جيد أي حارس شخصي كان هو...، إلى الجحيم، قبيح عادي.

بعد أن وصل فجأة إلى مثل هذا الاستنتاج، قام المليونير، الذي يحمل اسم الخان أبيلاي، كما بدا له، بتبديد حالته المرتبكة، ضغط على زر جهاز التحكم عن بعد للتليفزيون الياباني المحمول، وبدأ يقلّب الكثير من القنوات، على واحدة منها تلوّت في الرقص نساء رائعات بمظهرهن، متناسقات كالمهر، شهوانيات وعاطفيات، ونهمات؛ كانت عيونهن ملبدة بالرغبة في المتعة والحماسة الشيطانية لحث كل واحد على تجريب الملذات الجسدية، كما لو أنها تثير فيه إثارة ضعيفة، ولكن بدا كل ذلك عديم القيمة، لدرجة أنه لم يثره فقط، بل حتى لم يشجعه ولو لقطرة، ولم يخرجه من تلك الحالة المثيرة للشفقة التي كان فيها الآن.

سار بصمت كقطة، اقترب من المرآة المستديرة المعلقة في الزاوية حيث كانت المرأة مستلقية، عندما نقر على زر آخر، اصطدم بانعكاسه هو، لا يشبه إلى حد كبير مظهر الكازاخ، كان شعره الأسود المزرق قد لمسته في بعض الأماكن لطخات بيضاء خفيفة، في حين أصبح طرفا شاربه المتدليان من حافتي شفتيه أشيبين، وبدا وجهه البيضاوي الممدود متعبًا، ومهما تفرّس بشكل ثابت في عينيه البنيتين الغائرتين عميقًا، واللتين كانتا تنظران من هناك بنفورٍ وبدون أدنى بريق من الرحمة، فإنهما كانتا شبه ميتتين، وبدون ذلك، فإن أنفه

(1) أرلان: ذكر الذئب، ذئب عجوز.

الضخم بحدبته الكبيرة، جعل وجهه يبدو منتفخًا نوعًا ما، حسنًا! لو أن البشرة البنية الداكنة النقية، لم تفسدها القطعة اللحمية المعلقة بين العينين، والأسوأ من ذلك كله هو أن التجاعيد اللعينة تتراكم حولها بكثرة كرسول بارد لشيخوخة وشيكة، أزعجت روحه بشكل مخيف، ولعدم قدرته على تحمل هذا المشهد أكثر، أطفأ الضوء، وعندما نظر مرة أخرى لا إراديًا في المرآة المظلمة، برزت من هناك الخطوط العريضة لمحيط وجهه بشكل مبهم، كصورة سلبية.

غرق عالمه الداخلي كله في الظلام، ونظر لبعض الوقت إلى حركات الجسد المتهورة للنساء العاريات اللواتي كن يومضن على شاشة التلفزيون، كما لو كان بإمكانهن أن يفتحن له فجوة صغيرة، على الرغم من أنهن لم يعدن يهززن بالقَدر نفسه من الصخب الذي كان في البداية، لكن بدا له أنه لم يتبق في حركاتهن التي انخفضت وتيرتها، أي أثر للشهوة والإغراء المحمومين.

عندما انتقل إلى قناة أخرى، ظهرت أمامه صورة تماثل تمامًا ما حدث في منزله، المرأة العارية المستلقية بهدوء لم تتأثر بكل ذلك، لا بنومها ولا بروحها، الرجل الذي استعد للذهاب إلى مكان ما، تريث، وبدا مترددًا، مشى ذهابًا وإيابًا، ثم أمسك في النهاية بمقبض الباب، وتوقف فجأة، تحول بحدة ونظر بتوتر إلى المرأة التي كانت ترقد بلا حراك، وعاد، لم تستدع لديه أية دهشة حركات الرجل ذي البطن السمين ورقبة الثور، وبعد أن غمز بعينيه لمرات، حدَّق فيه بشكل ثابت، في حين كان هو ينقل قدميه بارتباك، اقترب من السرير، وعانق المرأة بلطف، وقبّل بحنان ظهرها البدين، وبعد أن أطفأ شهوته، غادر المنزل، "فووو، لعن الله أمه، ماذا يفعل هذا الخنزير!" ضغط على أسنانه في اشمئزاز، وضغط على الزر، وأطفأ التليفزيون.

صوت الضرب القلق للقلب الذي ينبض بشراسة في صمت نعاس القبور القاسي، بدا له وكأنه تكتكة ساعة عالية، ومظهر الأحمق الذي قبَّل المؤخرة البدينة، ظهر فجأة في مخيلته مماثلًا تمامًا لمظهر الحارس الشخصي، وأثار على الفور فيه شكًّا غامضًا: "ربما هو أيضًا يفعل الشيء نفسه؟"، تملّكه فجأة فضول لا يقاوم لأن يجرب، ما إذا كان ذلك نوعًا متطورًا من اللذة، ومهما بدا وضيعًا، فإنه لم يكبح جماح اندفاعه، فأنزل إلى الأسفل الغطاء الذي كان يغطي خصر المستلقية بجانبه، وماذا تبقى له أن يفعل، إذا كان الردفان المشدودان لصاحبة الجسم الفخم، اللذان برزا مستديرين كسنامي جمل، لا يعرفان أي خجل أو حشمة، ولم يكونا على الإطلاق شيئًا مثيرًا للاشمئزاز، وبسبب ذلك ظهرت لديه رغبة شهوانية لارتكاب مثل هذا الفعل المستهجن، وشعر المليونير، الذي يحمل اسم الخان أبيلاي، بنفسه وغدًا مثيرًا للاشمئزاز بشكل رهيب، مهما كان غنيًا ومتكيفًا مع الحياةفإن أمثاله يبدون تواقين جدًا لما هو تحت الحزام.

يا إلهي، لماذا يشعر بالوحدة، وإلامَ يجب عليه أن يصل ليجد العزاء والمغزى في ردفين سمينين لامرأة؟ على الأقل الآن هو موجودٌ في حالة يشعر فيها بالقرف حتى من مظهر الإناث كلهن، فماذا تفعل إذا كانت روحك نهمة! ألا يوجد في كلٍ من قريته ومنطقته ومدينته بيت، حيث يكفي أن يقال لك إن أنثى رقيقة تعيش فيه، حتى تسارع كلابك إلى تلبية النزوة دون الإجبار على تكرار ما قيل مرتين؟ لم يصل إلى درجة أن يرفض كل

ما يمنحه المتعة والسرور، ولا يعتزم تغيير رغباته وعاداته، لكن بمجرد أن يسرع بأقصى قوته، متخليًا عن كل هذا، فإنه يبدو له أنه سيكون مرة أخرى في أسرِ السنوات السابقة، وسيبدأ في الغرق في صور خيالات الأيام الخوالي التي تمر أمام مخيلته، أو سيغوص في صمت كئيب.

بدأ وهو مستلقٍ على ظهره يفحص الزخرفة في السقف، محاولًا التركيز على بعض الأفكار، هل قيَّم باستحقاقٍ عمل الفنان الذي نشأ معه منذ صغره؟ وكيف لم يلاحظ في السابق زخارف الزينة المنفذة بصرامة ودقة مع الحسابات الهندسية، والمربعات المتجاورة، الثروة تأتي وتذهب، حتى بعد موته ستبقى في شكلها الثابت هذه الزخارف المحاذية بعضها لبعض بانسجام، هل فكّر أو خمّنَ في وقت من الأوقات في السابق، أن الفنان الذي كان ينظر إليه بخوف بعينيه المتفاجئتين دائمًا، سيترك، بالخلاف عنه، بصمة لا تمحى، ولكن إلى أي درجة كان جديرًا بفضله لكي يقرّبه من نفسه، ويلاطفه، ويهبه، يكفيه الآن فقط التلميح إلى حشد مكّاريه الفضوليين، حتى يقوم هؤلاء بقبول مذعن بقلب الجبل، وتحطيم الأحجار إلى قطع من أجله، أما هذا، مع رقبة الثور، فهو قاسٍ وعنيد، على الرغم من فقره، تنهد بشدة مثل رجل منهكٍ سئم من كل شيء، وتعب من كل هذا.

مر أكثر من عشر سنوات بقليل، منذ أن هرب بسبب التأثير الخبيث للإدمان على الكحول من زوجته وأطفاله، ووجد نفسه في ألماتي، في البداية قاد سيارة أجرة، كانت تلك الفترة التي كانوا يسألون فيها الله في كل يوم تنفيذ الخطة، اتضح أن الرجل المتين ذا البنية المربعة -مدير محطة سيارات الأجرة -لا يشبع بالقليل، إذ توقف تمامًا عن الاقتناع حتى بالفائض الناتج عن الإيرادات اليومية، كان بإمكانه القول في منتصف الليل من خلال جهاز الاتصال اللاسلكي: "سأكون هناك، اتصل عندما تقوم بتوصيل الطلب إلى المنزل"، على الرغم من أنه انزعج في قلبه: "نعم، اللعنة، مثل قسمة القرابة هذه!"، لكنه حاول أن يعتاد ولا يعبر عن مشاعره، "إذا حاولت إرضائي، فإنني بالتأكيد سأخصص سيارة جديدة"، ودون الاكتراث بالوعود الأبدية لمدير محطة سيارات الأجرة الذي نجح بانتظام في جعله يمل، فإنه، كالعادة، استمر بالقيادة بهدوء، ممسكًا عجلة القيادة بقوة في يديه، ومن دون أن يغمض عينيه عن الطريق، "إيه، هل فهمتني؟! يقولون إن أسلافي في زمانهم تسببوا لأجدادك في الكثير من الإساءات، فهل تراكم أنت في روحك الحقد تجاهي، لكي تنتقم مني بشكل كامل لذلك؟" قال ضاحكًا بقوة، في الواقع لم يكن يذكر أباه، ناهيك عن أجداده الذين يبدو أنهم كانوا أقل حظًا من أسلاف هذا اللقيط؟ وإلا، فلماذا لم ينجب حتى ولو طفلًا واحدًا، كما فعل مدير محطة سيارات الأجرة؟ ما دام ذاك يشمت به بشأن ذلك، ربما هناك سبب لذلك؟

لكن لماذا هذا المليونير، الذي يحمل اسم الخان أبيلاي، عندما يكون مستلقيًا إلى جانب امرأة شابة في شقة منفصلة، بعد الكثير من الوقت يشتعل فجأة بشعور الثأر لسخرية قالها بازدراء مدير محطة سيارات الأجرة في المدينة؟ الآن لم يكن يعرف: هل يصدق أو لا يصدق أنه كان بمقدور هذا الأحمق أن يذله بغطرسة، "إيه، هل يوجد في عائلتك شخص يذكره الناس ولو بكلمة طيبة؟" -قالها في ذلك الحين، دون يهدأ، عندما

تم تذكيره بأنه كان شخصًا عديم القيمة تمامًا وسط أقاربه، فإنه، بعد أن شعر بنغمة الشفقة المزدرية في صوت مدير محطة سيارات الأجرة، شعر بإهانة لا نهاية لها، "إيه، لماذا جميع مشرديك فاسدون؟" بخوف حدّق به بعد أن شعر بأنه اليوم سيواجه مشكلة حتمًا، وبصعوبة عاد إلى رشده من مثل هذه الكلمات القاسية، كما لو أن أحدهم كان يضرب رأسه بكل قوته، "هيا، أعطِ لأخيك الأكبر كل إيرادات اليوم، سأُفرح زوجتك التي تنتظرني في المنزل، وسأرفع مزاجها، تحول إلى مديره القصير والبدين، ونظر على الفور في وجهه، لكنه لم يلاحظ فيه إلا ملامح البذاءة الوقحة والمستهترة، فارتبك، "انظر إلى الأمام، ستصدم أحدًا ما" -صاح الأبله المتين بوجهه غاضبًا، "يا أخي، لا يوجد أناس ليعوضوا بنزين اليوم" - غمغم في الرد، "ليس عبثًا يقولون: الجلد الجاف يكتسب شكله السابق(2) "، لا تحاول أن تتمسكن وفقًا لعادة أجدادك، ألستُ أنا من التقطك من الشارع عندما كنت تتجول هنا باحثًا عن عمل، هناك الكثير من الكازاخ، أمثالك، المتسكعين بلا عمل في ألماتي"، حاول أن يطلق العنان لغضبه، لكن، وعلى الرغم من الشعور بالسخط الذي كان في داخله؛ ظل صامتًا بجبنٍ في الرد، "فرمل! -صاح الأحمق في هذه اللحظة، -استمع لي بعناية، أي سائق سيارة أجرة لدينا في المحطة على استعدادٍ في أي فرصة سانحة لإرضائي، لكنه لا يعرف كيف يتقرّب مني، لقد أشفقت عليك هنا كواحد من أقربائي، واتضح أنك مخلوق جاحد، لا تذكر المعروف، اغرب عن وجهي ولتختفِ روحك من هنا! أُثيرَ المليونير، الذي يحمل اسم الخان أبيلاي، كما لو أن صرخة مدير محطة سيارات الأجرة آنذاك، قد وصلت بوضوح من جديد إلى أذنيه، في ذلك الوقت ابتلعها في صمت.

الآن حياة مدير محطة سيارات الأجرة ذاك أرخص من حياة الحراس الشخصيين المحيطين به، من غير المرجح أن أحوال ذلك الأبله قد صعدت منذ ذلك الحين، يرسل الآن إليه زوجًا من النوكيرين(3) ، فقط مع ذكر اسم الطفل الذي في المهد لهما، وأنه ينبغي إيقافه عن البكاء، فكيف سيغني ذاك عندها؟ هل سيقول إن شخصًا ماكرًا خدعه ويتوسل ويتضرع باكيًا كما يطلبون المغفرة قبل الموت، أم إنه سيصبح شخصًا عنيدًا لا ينكسر فورًا مثل فرع شجرة صنوبر؟ بيد أنه من الصعب أن تصادف مثل هؤلاء الكازاخ الآن، الكثير من حاشيته مثل الخيول الهاربة من عربة خيول، فهي تجمع البلطجية بإحكام، بالنسبة للعمل لا يعملون كما يجب، مطلّقون من زوجاتهم، وبعضهم محكوم عليه، وبعض آخر مخادعٌ لا يزال يعبر القرم والعيون(4) ، أكثر من مرّة اضطرّ إلى أن يحمرّ أمام نظرات حاشيته التي يصعب إرضاؤها.

هذا الجلف الغبي الذي يحميه الآن، ويجلس في سيارة أجنبية واقفة في الفناء، هو لص خيول ماكر حقيقي، لم يكن يعرف حدًّا للخيول التي كان يسرقها من أناس لا حول لهم ولا قوة، لو يقع غدًا في تغيير جدي، سيكون

(2) عبارة اصطلاحية: كل ما هو اصطناعي عندما تسنح الفرصة يكشف عن طبيعته، أو كل ما هو نتن يخرج إلى الخارج.

(3) نوكير: مقاتل من الحرس الشخصي؛ شخص من الحاشية؛ تستخدم هنا في معنى "بلطجي".

(4) عبور القرم والعين: "المرور عبر القرم وعبر العيون" ليس مرادفًا، بل هو تكملة للقول "عبور النار والماء والأنابيب النحاسية". بتعبير أدق، يقول المثل كله: "العبور من خلال النار والماء والأنابيب النحاسية والأسنان الداكنة وشبه جزيرة القرم والعين".

جميعهم على استعداد لأن ينقضوا عليه ويقطعوه مع معلاقه.

إذا فكرت في الأمر، فهو أيضًا عرف الحاجة، لكنه لم يمت، فما الفائدة مما اكتسبه، أي الثروة، إذا كان يسبب له مثل هذا القلق؟ عندما تتسلل إلى الوعي مثل هذه الأفكار المزعجة التي تجعل الروح تقشعر، يبدو له أن العالم كله مليء بالغدر والخيانة، ويرغب في أن يهرع بكل قوته إلى مكان لن يراه فيه أحد، ولن يسمعه فيه أحد.

ليس من الواضح، ربما، أن كل الناس يشعرون بالشيء نفسه، أم أنهم في وضع مختلف؟ لنأخذ مثلًا جوراباي ذاته، الذي يسعى إلى التنافس معه؛ إنه مختلف تمامًا، بالإضافة إلى ذلك، فقد حاولت أمه جاهدة أن تصلحه، ولم تتعب من صب الزيت على النار، وقالت له باستمرار: "أنت لا تحاول أن تصبح أكثر نجاحًا من جوراباي، كان أسلافه البعيدون بضمير مرتاح يذبحون الماشية الميتة، ويقولون: "ليكن.. إنها ماتت ميتة قذرة، لكنها كانت ترعى في مراعٍ نظيفة(5) "، إذا كنت تود أن تعرف، مكتوبٌ عليهم أن يخرجوا دومًا من القذارة إلى الثروة"، في مثل هذه اللحظات، كان يحدق طويلًا في وجه أمه، كما لو كان يراها للمرة الأولى، في حين كانت الأم المسكينة واقفة تلتقط أنفاسها خجلًا من المظهر الرهيب لابنها الذي أزاح على الفور عينه.

على الرغم من أن كل شيء لديه بدا أنه يسير على ما يرام، ولكن لماذا، إذن، كان وجها أمه وزوجته يعبران باستمرار عن نوع من الحزن الذي لا مفر منه، كما لو كانتا تستشعران ما هو سيء؟ أم إن ذلك لم يكن حزنًا، بل إهانة في الروح لا تذوب ولا تتبدد، متجذرة في القلب بقوة؟ وما أن يظهر للحظة على وجه أمه الهزيل المجعّد تعبير مشرق للحنان، حتى يشعر على الفور بالراحة، كما لو أن كل الأوساخ اختفت كليًا من روحه، إما لأنها عملت لفترة طويلة كمعلمة في مدرسة ابتدائية، ولكن لسبب ما، وفي بعض الأحيان بدون أي سبب، يظهر على وجه أقرب الناس إليك مثل هذا التعبير التأنيبي، الذي عادة ما ينظرون به إلى تلميذ ضعيف الأداء ؟ بدت التموجات المحروقة من البثور على وجهها، مغطاة ببقع حمراء، كما لو كانت من بثور صغيرة عولجت مؤخرًا، كانت لدى جميع أقاربها الذين تجاوزهم الجدري، وجوه شاحبة، بدون أي قطرة دم، يقال إن أباه كان رجلًا جميلًا جدًا، ولكن كيف استطاع والده الذي لا يُنسى أن يحصل على مثل هذه المرأة؟! على الرغم من أن هذه الأفكار الخاطئة تغضبه، لكنه غير قادر على كبح الأفكار التي تجتاحه، فيبتسم في نفسه ابتسامة عريضة: "أوه، أيها الجاهل البائس، وهل لديك زوجة ذات وجهٍ وسيم؟" فجأة استيقظ فيه إحساس رهيب أدخل روحه، الوحيدة والمضطربة والمقطوعة عن الناس، في ارتباك تام، بدا له فجأة أن عيني أمه المليئتين بالمرارة تحدقان في ظهره، من ذلك أخذت القشعريرة تزحف على ظهره، ولكن يبدو أن العينين اللتين فقدتا بريقهما الحي، والمغطاتين بغشاوة رطبة، كانتا مليئتين بالدموع من خيبة الأمل، "يا بنيّ، إن روح جدك شيكيل(6) تساندك وتوجهك، ولكن لم أقل ذلك إهانةً لروحك الراضية المرضيّة، على الرغم من أن

(5) هذا القول يعني هنا أنه ينبغي عليك ألا تشمئز من أي شيء على طريق الوصول إلى الثروة.

(6) شيكيل: الأصهب، الأحمر. وفقًا للتقاليد الكازاخية، لم يكن على زوجة الابن (الكنة) أن تسمي والد زوجها باسمه حتى في غيابه، لذلك تمنحه لقبًا

المرحوم كان يتمتع بنفوذ كبير بين الناس، إلا أنه كان شخصًا بسيطًا، ولم يتكبر أبدًا" والغريب أنه، على الرغم من أنها كانت معلمة في عصر الكفر والإلحاد، إلا أنها لم تنطق اسم ساريباي عبثًا، بل منحته لقب شيكيل، وبسبب هذا، بدا له جده رجلًا عجوزًا ذا شعر أحمر، ووجه أرجواني وأحمر، بعروق نافرة، من الإثارة، كان كبار السن، بدون استثناء، يسمون ساريباي، وحتى يومنا هذا يُذكرون مع الاحترام بـ"سيريكين(7) "، لو أن كل من حصل على وضع ثري، كان يتمتع بالورع، لما كان جد جوراباي، الذي كان لديه قطعان من الخيول والأغنام، شخصًا بسيطًا أيضًا على الإطلاق؟ ولكن ليصبه بالصمم في أذنيه الاثنتين، لو سمع أنهم يتحدثون عنه كشخص صالح، ليس عبثًا يقولون: "إن الأرض مليئة بالشائعات"، ويقولون إنه ما أن هبط عليه ضيوف، بشكل مفاجئ ولسبب ما، فإن جد جوراباي يراقب كيف يبدأ الفتيان من أفراد أسرته في التحرك بنشاط: يملأون إبريق الشاي الكبير بالماء، ويباشرون إشعال النار في الموقد، حتى يقطب فجأة حاجبيه ويصرخ عليهم بشكل مفزع: "ما بكم، هل تودون تنظيم حفل شرب ماء لهم؟"، في بعض الأحيان كان يشعر بالارتباك التام، لا يعرف ما إذا كان يصدق أو لا يصدق مثل هذا الشح الذي وصل إلى درجة الاقتصاد في المياه العادية، يتضح أنه لم يكن يعرف نوايا جوراباي على الإطلاق، كان بينهما احترام متبادل بسيط، عندما كان ينظر إليه بنظرة فاحصة، تمتد شفتاه في أنبوب، وتلمع عيناه الصغيرتان من خلف الجفنين المتضخمين قليلًا، مثل الغرير، حتى عندما كان ينطق تعليماته، كان يحوّل جسده بالكامل، كوحش مفترس ماكر، وبدون ذلك فإن جسمه الصغير والبدين أصلًا، يصبح أصغر، وفي الوقت نفسه يتجمد للحظة، ولا يتبدد الشعاع الذي يومض في عينيه الرماديتين الداكنتين، في حين كان هو يحدّق فيه بنظرة غير مبالية، وفجأة بعد ذلك تضيء عيناه بابتسامة، وكأنه سيقول شيئًا مشوقًا، على الفور تصغران بتأمل، وتبدآن في التعبير عن شيء من المعاناة، وبأناقة مرهفة يقرّب من شفتيه السيجارة التي كان يضغط طرفها قليلًا بين إصبعيه، كما لو كانت شيئًا عزيزًا بالنسبة له، عندما كان يسحبها بتروٍّ أنيق، ويطلق دخانها بمتعة، كان يتحول كله إلى اللون الأرجواني، وكأنه يكتسب عزمًا، في هذه اللحظات تحديدًا يبدأ جوراباي بالحديث نفسه: "تذكَّر كلامي، سأحاول أن أقاضي السلطة الحالية بحوالي ألف جواد سلبها من جدي البلاشفة اللعينون، إذا بدأوا في بيع الأراضي، فسوف أخصخص الجاياياو والكيستاو(8) التي كان يمتلكها"، كان نفسه أثناء ذلك رائقًا وهادئًا تمامًا، في كامل هيئته البدينة المتعجرفة تغلغل هدوء مطلق، بدا، وكأن ظلًا للمعاناة لم يلفه قط، يبدو أنه ليس لديه عادة التشقلب، مثله، طوال الليل من الأرق، ولا يمشي ذهابًا وإيابًا دون أن يجد راحة.

لقد جمعت حولك جميع ندمائك السابقين، ما أن تبتعد، حتى يبدأ الجميع في شرب الفودكا بشغف، لا أحد منهم يتعاطف معك، ولا يريد أن يكون مفيدًا بشيء، وأنت انظر إلى قرينك جورابايك، إنه ليس أفضل

حتى لا يصاب بالحسد، وكان ينبغي عليها أن تفعل الشيء نفسه مع أقارب زوجها الآخرين.

(7) سيريكين: شكل محترم لمخاطبة الشخص الأكبر في السن مع لمسة من الاحترام والتبجيل له. حرفيًا "ساريكنا".

(8) جاياياو: أراضي المراعي الصيفية،؛ كيستاو: المخيمات الشتوية، أراضي المراعي الشتوية.

منك بشيء، لكنه لا يبذر النقود، ولا يصنع جميلًا لأحد، لا تستطيع أن تقول أي شيء، إنه فارس قوي ومتين كالصوان،

بمرارة قوية عاتبته أمه، لا تزال الكلمات التي قالتها بغلٍّ عن "الندماء السابقين"، تخترق بألم موجعٍ قلبه، الآن لن يأكل ما اعتاد عليه، بعد أن ترك زوجته وأولاده، وقدم إلى ألماتي، ربما على أمل أن يكسب لقمة العيش كسائق سيارة أجرة، وإنما ما كان يصل إلى يديه اللتين وصلتا إلى الحضيض.

عندما سافر في النوبة التالية، نسي غطرسة المتين الذي لا يطاق، في الوقت المحدد أدار المحرك وانطلق مسرعا، كما لو كان على موعد غرامي، إلى المكان الذي يتدفق إليه الناس.

لكن هناك أيضًا كان يوجد حمقى يضايقونه، بالإضافة إلى ذلك، فإن سلوكهم كان متقلبًا، يفرشون بلينٍ، ينامون بقسوة، مهذبون قبل الغداء، عدوانيون بعد الغداء، خاصة تلك المتوحشة الصهباء، التي تبدو كفحل خيل يحرس قطيعه بشكل غيور، عندما تبدأ بالشتائم البذيئة، مازجة الكلمات الكازاخية والروسية المهينة، فإنه يدعو ألا يراه في تلك اللحظة أحد من أبناء قريته.

إيه، أيها الكولخوزنيك (9) ، –توجهت إليه نافخة أنفها، وفاتحة عينيها، – مكانك هو من تلك الحافة، وليس "حيث أريد، هناك أقف"، هنا الغطرسة لا تمشي، ولا أحد سوف يشبع نزواتك (10) ، انقلع!"

عندما يصيح ذاك عليه ككلب ضال، ويهدده، تصبح عيناه باردتين ومحمومتين لدرجة أنه بصعوبة يستطيع أن يكبح نفسه، لو أنه صادف هذا التافه في مكان منعزل، لحاول أن يتفاهم معه كرجل، في حين لو تصارع معه الآن، لانقض عليه على الفور ثلاثة أو أربعة على الأقل من هذا الحشد، لا شيء يمكنك القيام به، سيكون عليك أن تقف في نهاية الدور، عندها تحامل عليه ذاك كما أراد، وعندما شرح له حقيقة الأمر، قام ابن العاهرة بالتعبير باللغة الروسية، وباستمتاع، في الهدف،

أن تعاني من الإذلال والعجز مهما وصلا، هذا أمرٌ، لكن الأمر الآخر أن تقف واهن العزيمة، وتشعر بعجزك، بينما تصرُّ بأسنانك من عجزك، ولم يكتف المدير المتين الملعون بأن لعن كل صلات قرابته، بل تحدث معه أيضًا بلهجة آمرة متعجرفة ومتكبرة، وكان خبيرًا، يأخذ وينهب كل أرباحك اليومية، وفي الواقع لا تستطيع أن تعترض عليه بشيء.

المليونير، الذي يحمل اسم الخان أبيلاي، وهو يرقد في السرير نفسه مع المرأة الشابة التي أصبحت عبئًا آخر عليه، تذكر الفترة التي كان فيها سائق سيارة أجرة، فأصبح عاطفيًا تمامًا، عندما شعر مرة أخرى بعجز تلك الفترة، وهنا أيضًا تسلل الشك إلى روحه لأنه لم يتمكن من أن يرضي شهوته النهمة التي شعر بها باستمرار تجاه النساء.

ذات مرة لم تحتمل كاميلا براثن خيبة الأمل واليأس التي كانت تمسك بروحها، وتورمت عيناها الواسعتان

(9) كولخوزنيك: ابن الكلخوز (المزرعة الجماعية خلال الحقبة السوفيتية)، كانت تستخدم للإهانة والازدراء.

(10) من خلال هذه الجملة نُقلت العبارة التالية: "بالأمس فقط دخل المنزل، وأصبح يأمر، بعد أن أخذ المغرفة بيده".

من الدموع، وهي تتضرع:

لماذا الاستمرار في حب شرب السم، أليس من الأفضل لو أني مت شابة؟!

اشتدت الموجة الساخنة للشعور الذي اشتعل لأول مرة بينهما، وتعزز بهذه الأشعار، وغطت موجة مرتعشة قلبه، وبللت عينيه كما لو أن الندى غطاهما.

لقد اخترت لنفسك زوجة بدينة، إن شاء الله ستنجب لك حفنة من الأطفال البدينين،

من قال هذه الكلمات؟ أليست أمه؟ لا، ولماذا يُحسد إنسان ما زال في عقله كنته، ربما تفوه بها بشكل اعتباطي شخص ثرثار؟ سواء كان ذلك بسبب المراهقة، أو من قبيل قلة الخبرة، كان يؤمن لفترة طويلة في هذه الكلمات، الآن يتألم في قلبه خجلًا من فعله المتهور آنذاك، ينظر إلى المرأة بكل ازدراء...، تفوو...، عارٌ وخزيٌ...، بعد مرور ثلاثة أو أربعة أعوام ثرثر ممازحًا:

– انظري كم من الفتيات الجميلات ظهرن حولي، وكأنهن ينتظرنني لأتخذهن زوجات.

زوجته، التي كانت ناضجة بالفعل في ذلك الوقت، لم تفقد عقلها، ونظرت إليه عابسة، وقالت:

هذا إذن ما تبين أنك تحلم به، بمَ أفضُل المرأة التي تعيش بدون زوج؟! لدى أطفالي جميع الأحذية اهترأت، أنا غارقة في الديون، أنت أردت أن تسمع ذلك، لذا اسمعني حتى النهاية.

شعر بإحراج شديد وخجل من نفسه، لدرجة أنه تجمد وجلس بلا حراك مطأطئًا رأسه بشكل باهت، لم يفاجأ بالصراحة الحادة لكلامها، وأكثر ما أخافه كان النفور الذي نشأ بينهما، والذي هو أمر غير مقبول في العلاقة بين الزوجين، ويدمر المودة بينهما.

لماذا عليّ أن أعيش كما لو كنت لا بين الأحياء، ولا بين الأموات؟! أليس من الأفضل أن أكون أرملة مرة واحدة وإلى الأبد.

قالت له بشكل كامل، وهل ستصلي كاميلا لله من أجل صحته بعد كل هذا؟

طيبةُ المسكين بيريغين(11) الذي مدَّ لهم مرارًا وتكرارًا يد المساعدة في الأوقات الصعبة، أصبحت في نهاية المطاف منتهية ومنسية، الآن أصبح عبدًا لهم، يقوم بكل العمل الشاق في المنزل، وزوجته خادمة، ولهذا فهو يشعر بالخجل الشديد أمام بيريغين الذي نشأ معه منذ الصغر، عندما يكون هنا، فإن ذاك يحيّيه على عجل، ويتظاهر بأنه في عجلة من أمره لبعض الأمور العاجلة، ودون أن تعيره كاميلا أي اهتمام، وبتعبير ساخطٍ على وجهها، تجد عن قصد أي سبب لأن ترسله إلى مكان ما:

أحضر الطفل من المدرسة،

وما أن يقول: "إيه، بيكي، تعال لنشرب الشاي معًا، لا شيء إن انتظرك مورات قليلًا"، حتى تنظر إليه بعينين شريرتين، كما لو كانت تلمح قائلة: لا تتدخل في شئون غيرك، اجلس واسكت وتقول: "قد يتأخر

(11) اسم "بيريغين" الذي يعني في الترجمة "السخي" و"الموثوق"، لا يبرز في هذه المؤلفة صدفة، لأنه يحمل وزنًا دلاليًا معينًا. في النهاية لم يكن يُقدَّر سخاي بيريغين من جانب صديقه بطل القصة آبالاي.

سانيا على المدرسة، في هذا البيت يوجد ما يكفي للجميع من الطعام، سيعود ويأكل لاحقا"، وبيريغين، كما لو كان يعتذر لهما، يغمغم قائلًا: "آبيكي، حسنًا، سأذهب"، ومثل تلميذ يمسد رأسه، يخرج بسرعة من المنزل، وهي تقول له وهو يودع صديقه إلى الباب بنظره: "إنهم يعيشون على كل شيء جاهز: في هذا البيت هناك طعام وشراب لهم، وأحذية وملابس، يبدو أن بطونهم لا قاع لها، مهما أعطيتهم، قليل بالنسبة لهم"، فقط تسمع المسكينة، مع أي غطرسة تتحدث عن ذلك، نسيت، ربما، كيف كانت تمضغ في سنوات الجوع الجلد المغلي لرأس الخروف،

– وهذه المرأة ذات الجبين الضيق ورأس البيضة لا تستطيع حتى أن تنظف المنزل جيدًا، نعم، لتختفِ!"

واصلت كاميلا التذمر، وهي تمسح بيدها الغبار من على الطاولة، وتنشره إلى الأعلى وإلى الأسفل.

على نحو عفوي اعتقد المليونير، الذي يحمل اسم الخان أبيلاي، أن ذلك إثم حقيقي من جانب زوجته، وهنا رفض فجأة رغبته في تشغيل التلفزيون مرة أخرى، في بعض الأحيان، إذا حاول في أسوأ الأحوال أن يخزيها، فإنها، وفقًا لعادتها المتجذرة، تقاطعه على الفور بغضب وتكيل له الاتهام: "تفاهم بدايةً مع نسائك!".

اتضح أن صرخة شيطانية في الظلام الدامس لليل المخيف والصامت، دوت بصوتٍ عالٍ تحت أذنه بالضبط:

"يا كيكوات(12) ، سبعة أيام فقط، كيف وصلت إلى سن الرشد(13) !"

عندما كانت الأم المسكينة الباكية المنتحبة، تبدأ بالغضب صابَّة اللعنات، بدا له أنه يكاد يكون الوحيد الذي يبتليه الله في هذا العالم، عندما عاد لأسابيع، ولم يقض ليلة في المنزل، وتسكع في مكان ما أثناء جلسات الشراب؛ اشتكت:

ماذا عساي أن أفعل؟! أتمنى لو كنت بلا أولاد، أفضل من الانشغال مع هذا الحشد من البلهاء،

قد يكون لأنها لم تعبّر بعد بشكل كامل، فقد تحولت في النهاية إلى زوجها الراحل، حيث غسلت عظامه البالية في قبره:

أجبرني على أن أنجب الكثير من الأطفال، ومات، مسكين يا رأسي الذهبي، من لم يضحك عليّ، لم يسخر مني، وأنا أردت أن أصنع من هؤلاء الأوغاد بشرًا، علمتهم وربيتهم! كنت أريدهم ألا يحتاجوا إلى أي شيء، وألا يكونوا أسوأ من الآخرين، لكن دون جدوى، اتضح أنني حتى لجاكان ذي الأنف الأفطس تغاضيت عن كل شيء، فعلت كل ما قاله، نفذت كل نزواته.

هنا ارتجف المليونير، الذي يحمل اسم الخان أبيلاي، بشكل مفاجئ ولا إرادي، "كيف يمكن أن يفهم أنها لجاكان ذي الأنف الأفطس تغاضت عن كل شيء، وأنها فعلت كل ما يأمر به؟ بدا أنه لا يوجد أحد يخضع أمي في أي شيء، حتى جاكان ذو الأنف الأفطس؟"

---

(12) اسم البطل الإيجابي –الراعي الطيب كيكوات الذي ساعد البطل آلباميس من ملحمة تحمل الاسم نفسه، يستخدم هنا كاسم رمزي. تقول كاميلا هذا في عتاب، وتتحدث إلى زوجها الذي في رأيها قدَّم الخير الكثير لبيريغين.

(13) تلمح كاميلا بذلك إلى حقيقة، كما يقولون، أنك حرٌ الآن في أن تتصرف كما تشاء.

اختنق من حقيقة أنه أصبح الآن في حالة غير مفهومة على الإطلاق، حيث أراد أن يتخلى عن كل ما هو دنيوي وعبثي، تألم قلبه بشكل حاد، كما لو أن الظلام الدامس، دون أن يصب في روحه وميضًا واحدًا من الضوء، عاهد نفسه ألا يلوح الفجر مرة أخرى.

كل ما شربه من الفودكا قبل ذلك الوقت، وكل ما دخنه من السجائر، لم يوصله إلى سرير المستشفي ولا مرة، على الرغم من أنه سبق له أن ودّع أكماغامبيت(14) لمرة واحدة وإلى الأبد، فقد حاول الإقلاع عن التدخين، ولم يتمكن، فوجئ بأنه صمد لوقت طويل، وإلى الآن لم يشعل سيجارة، وقام بتشغيل المصباح المكتبي، الكئوس المليئة بعصير الرمان والبرتقال على طاولة القهوة، أسعدت نظره باللون الذهبي والأرجواني، سحب سيجارة من علبة "كاميل" التي كانت على الحافة، والتي كانت تحمل صورة جمل بسنام واحد يتجول في صحراء قاحلة، أشعلها بالولاعة التي كانت بالقرب من المرأة الراقدة، وتنهد بقوة، عندما أطلق سحب الدخان الكثيفة، اتضح أن مذاق التبغ اللاذع باعتدال كبت روح الفراغ المرتفعة من صدره، حيث كانت مضغوطة، في ذلك اليوم، عندما التصق بجسده مع جسد هذه المرأة، ولمس وجهه وجها، لم يكن قادرًا على تمزيق الستار غير المرئي للبرودة والنفور الذي نشأ بينهما.

على الرغم من أنه كان يحب النساء الطويلات العنق، والنحيلات، لكنه فكر بشكل لا إرادي في أنهن ما زلن صغيرات جدًا على النكاح، بدت له مغريات النساء اللواتي امتلكهن آخرون، بسببهن، في رأيه، كان من الممكن أن يفقد آخر بقايا الطهارة المحفوظة في عالم الاغتصاب الغادر هذا، لذا فقد استحوذ شعور معين من الرعب الداخلي على روحه، وأثار لديه المقاومة، وبالفعل ابتهج حتى فقدان النبض لأنه التقى أخيرًا بصاحبة الوجه البيضاوي الأبيض، والعينين السوداوين المعبرتين عن الحزن والرقّة المرتعشة، في البداية كانت خجولة، قاومت بهدوء، وفقدت وعيها تقريبًا حتى استسلمت لرغبته، وجعلته يصدق أنها كانت تحترق من الخجل، وعندها تأثّر بقوة لأنه بعد أن استسلم للضعف، أراد أن يبكي كثيرًا وينسى تمامًا كل شيء في العالم، يذكُر فقط أنه رغب في أن يغمر بكل رقته وطيبته هذا المخلوق الذي بدا له عاجزًا مثل يحمورٍ صغير، وبعد أن تأججت مشاعره، جثا عليه بمحبة، بعد مرور بعض الوقت، كادت تبكي وهي تئن قائلة "روحي"، وأطلقت اهتزازات مرتعشة لصوتها في الغرفة بأكملها، وبدا أنها جابت زواياها.

في البداية اشتعل لهيب الشهوة فيه دون أن يخمد، بعد ذلك تغلغلت برودة في وعيه، وبدأ صدغاه يتخدران، كما لو أن قطعة صغيرة من الجليد وضعت عليهما، عندما نظر إلى المرأة، كان بؤبؤا عينيها، كما لدى مهووسة، يجريان ويندفعان إلى الجوانب عشوائيًا، وعندما دارا إلى الأعلى توقفا أخيرًا، حيث اشتعلت فيهما بقوة شرارات مجنونة لرغبة حبيسة غير مُشبعة، مليئة بالتعطش إلى الشهوة، كان مستاء جدًا من أنه بعد أن تجاوز حدود سن الأربعين، واستبدل العقد الخامس، خُدع كثيرًا في توقعاته، واتضح أنه أحمق كامل.

(14) هكذا على سبيل المزاح تسمى الفودكا عند العامة.

إلى وعيه تمكنت من أن تسرع فكرة عن أنه لا تستطيع إشباع وتهدئة مثل هذا المخلوق النهم، إلا قوة وحشية ومطلقة العنان، في تلك اللحظة، عندما لم تكن المسكينة قادرة على أن تهدأ، بدأت تندفع بفارغ الصبر إلى العذاب، وهي تتلوى مع الأنين بكامل جسدها، كما لو كانت تنوي السقوط في نار الشهوة الخاطئة، ثم اتجهت بوجهها نحو جسده، وبدأت في اللعق وهي تنزل إلى أسفل وأسفل، لاحظ أن عينيها المضطربتان امتلأتا بالدماء، كعيني مهووسة، في حين اكتسب وجهها ملامح الضحية لشهوتها الجامحة التي أغرقت نفسها فيها كليًا.

على الرغم من أنه قاوم، محاولًا السيطرة على نفسه، حتى لا يجتاز هذا الخط الخفي الذي يفصل الإنسان عن الحيوان؛ فإنه افتقد الإرادة، بدأ رأسه في الدوران، وبدا له أنه يتهاوى بتهور في الهاوية، وأخيرًا، عندما أُنهكا وقررا أن يأخذا استراحة، درس الشابة بعناية لفترة طويلة، وعندما حاولت هي أن تلتقط أنفاسها، اصطخب ثدياها ككيري حداد، وانقبضت فتحتا منخريها الرقيقين، وانطفأت الشرارات الحمراء الناريّة، وغطى عينيها حجاب باهت.

"هل أنت عاهرة؟" سأل، وصوته يخرج من خلال أسنانه المشدودة.

لكنه لاحظ لتوه كيف أن لدى المرأة المستلقية بلا حركة، متظاهرة بأنها لا تسمع هذه الكلمات، هزّت الرموش قليلًا، انطفأت شعلة الشهوة فيها تمامًا، وبدا وجهها فاقد الدم قد تجمد متشنجًا، ويبدو أنها كانت غاضبة من أنها كشفت نفسها دون قصد، في حين استلقت بلا حراك، وكأنها ميتة، باسطة جسدها بأكمله، ولم تنطق بأي كلمة في الرد، حتى ولم تستفسر عن معنى كلماته، كما لو أنها كانت مفتونة بالاختراق الهائج الذي ضرب أطراف شهوتها النهمة، لم يمر يومان أو ثلاثة أيام حتى أثارته الرغبة في الجنس مرة أخرى. فقط في الآونة الأخيرة بدأ يشعر بما يشبه الاشمئزاز، وعانى من العذاب وهو غير قادر على التخلص من الشعور بأنه لم ينجس جسده فقط، وإنما روحه أيضًا، شعر بالغثيان إلى ما لا نهاية، كما لو أن عشبًا كان عالقًا في حلقه، من يدري، ربما التقط شيئًا ما بالعدوى عن غير قصد، "انتهى، من هذا اليوم فصاعدًا لن أقترب من هذا البلاء"، قرر أن يضبط نفسه.

بعد مرور بعض الوقت، ظهرت أمامه صورة هذه الجنية الساحرة، النهمة والمتوحشة في شهوتها، وشيءٌ يشبه العشب أو الفراء، بدأ في دغدغته وإزعاجه، مباشرة، أمام عين ذهنه، انحنت كاميلا فوقه، وقالت وهي تنظر بعينيها الواسعتين بحزنٍ: "لقد صنعوا لك سحرًا، لن تمرض أنت فقط، ولكن ستدمرني أنا أيضًا، اذهب إلى الملا"، في تلك اللحظة، كما لو أن العشب الذي كان يتحرك بلا نهاية في داخله، تحول إلى كرة من الديدان الزاحفة، وبدا أنه إذا ما فتح فمه، فإنها ستبدأ تتلوى وتخرج من هناك.

وهكذا، بعد أن أرجعه المتين في منتصف الطريق، سارع إلى إطلاق عنان غضبه، وقاد بسرعة كبيرة، الناس الذين كانوا يظهرون أمامه كأشباح هنا وهناك، رافعين أياديهم، كانوا يختفون على الفور، فجأة أراد أن يشرب الفودكا، وعندما اجتاز المنحدر الحاد من الجزء العلوي المرتفع من المدينة إلى أسفل، خفف من

سرعته على نحوٍ عفوي، أوه، كم رغب في تلك اللحظة في أن يتوقف في مكان منعزلٍ ليشرب الكثير، ويأخذ قسطًا كافيا من النوم، ويمدد جسمه كله، ولكن إذا ما سلّم النوبة، فسيضطر إلى السير على قدميه، وهو ما لم يكن يريده حقًا، نعم، من يظن نفسه هذا الأحمق، ممسكًا العجلة في كل مرة أقوى وأقوى، تصور كيف يمسك الأحمق من صدره، ويغرس أصابعه كمخالب في رقبته، ويخنقه ويعذبه بمتعة، عندما رأى في المرآة الأمامية كيف بدأت العضلات على عظام وجهه تنبض وتتحرك، وبؤبؤا عينيه المشتعلان نارًا يلفظان الشرر، لم يستدع مظهر وجهه لديه النفور فقط، بل الخوف أيضًا، عندما ومض النور في عينيه، بدا له فجأة أن الأشخاص الأذكياء وحدهم، يمكن أن يكون لهم مثل هذا الوجه البيضاوي الممدود، لاحظ أن الحقد الذي يكنّه تجاه الأحمق، أكسب وجهه ملامح رهيبة فيها ما يكفي من الجرأة لإخافة عدوه الذي أصبح في تلك اللحظة عنيدًا، وشعر بنوعٍ من الحماس الداخلي، مع خجله الأولي الذي تبدد بسهولة غير عادية، ولكن تعبير الثقة المفرطة بالنفس الذي ظهر لديه، كما لو أنه لم يرمِ زوجته وأولاده، ولم يكن مغضوبًا من أمه التي لا تُنسى، جعله، وهو الذي درس منذ زمن شخصيته بشكل شامل، ينظر إلى نفسه مع القلق، ويشعر مرة أخرى بالقلق من هيجانه القوي.

حاولت الأم الراحلة إقناعه أن النرجسية والرغبة في إلحاق الأذى والضرر بشخص ما لن تؤديا إلى أي شيء جيد، لأن مثل هذا الشخص لا محالة سوف يعاني هو أيضًا يومًا ما.

المليونير، الذي يحمل اسم الخان أبيلاي، جفل فجأة وبدون سبب على الإطلاق، وفكّر إن كان الغرور المتغطرس قد ظهر فجأة في روحه، لكن كيف بغير ذلك تُفسر حقيقة أنه نظر إلى نفسه بودٍ في المرآة الأمامية للسيارة، وبعد أن ترك زوجته وأولاده، انتقل إلى التجول في المدينة، ابتسم بمرارة،.

إنه لأمر مثير للدهشة، كم هو الأمل متينٌ وأبديٌ، مهما كان، إنه مجرد سائق سيارة أجرة، من المؤكد أن الذين أصبحوا أثرياء وحصلوا على الثروة، واحد، اثنان، وأصبحوا، هل سبق لك أن رأيت أن شخصًا يحصل على الفائدة من خلال توفيره للكوبيكات؟ وضع في فمه سيجارة "كاميل" أخرى، شيء سهل، تشتعل على الفور، مثل روث الخيل، وتنتهي بسرعة كبيرة، وفجأة اعتقد أن يومين أو ثلاثة أيام قد مرت منذ أن لم ير تازاته (15) ، تصور بوضوح الأوردة الحمراء المنتفخة لتلك الرقطاء، وبؤبؤيها الأسودين المستديرين تمامًا، وعينيها العابستين المضطربتين، ونظرتهما غير المبالية مع الحزن المتجمد فيهما من نقص الانتباه بها.

من المدهش أنه حتى في الكلاب هناك جاذبية معينة، شبيهة بالعفة، ولكن، كم الكازاخ أغبياء، لا يستطيعون تربيتها وفقًا للإرشادات المبينة في الكتاب، يجب أن تقدَّم إلى الكلاب المدرَّبة لحوم الأبقار فقط، وهل تستطيع فهم ذلك زوجة بيرغين، فهي تسكب لها المياه القذرة، وتقدم لها فضلات الطعام مع العظام المجردة من اللحم، من المحرج تذكير شخص بالغٍ بهذا الأمر في كل مرة، قد تكون أيضًا مستاءةً وحزينة ليس فقط

(15) تازي: -نوع من الكلاب في آسيا الوسطى؛ سلوقي، كلب صيد.

الرقطاء النحيلة، ذات القوائم الطويلة مع بطنها الممتد تحت ظهرها تمامًا مع عظامها البارزة بشكل مفرط، ولكن أيضًا تلك التي لها فراء قصير الشعر، مرة واحدة في الأسبوع يزورها، ولا تظهر الكلاب لصاحبها ولاء الكلاب، ولا تهرع إليه بنباح السعادة بلقائه، لو أنها تهتز بحيوية، في حين هي مستلقية لا تتزحزح، في عيونها غير المكترثة والمتجمدة بعزلة، ليس هناك حتى وميض أي مشاعر خفية، حسنًا، إلى أي درجة هي مخلوقات بلا إحساس.

آنذاك تحديدًا أراد حقًا أن يشرب الفودكا، التقط على الطريق اثنين من الركاب كانا بحاجة إلى الذهاب إلى مكان أقرب، وما يكيد أن واحدًا منهما كان من الكازاخ، إذا قلت كازاخ، فإن الأمر يمسني أنا أيضًا، اتضح أن اللقيط كان شحيحًا لدرجة أنه لا يحسب الحصى، وإنما كل حبة رمل، ما أن انعطف إلى شارع لا تكون فيه حركة السيارات نشطة، حتى يقول على الفور:

– إيه، المكان على مرمى حجر، وأنت تطيل الطريق بشكل متعمد، على كل حال لن أدفع كوبيكًا زائدًا.

لكنه أصبح لا ينتبه إلى حقيقة أن ذاك بدأ يظهر العداء نافخًا شفتيه:

أنا أعرف المدينة مثل أصابعي الخمسة، عبثًا تعتقد، هنا أمضيت أربع سنوات في مدرسة التدريب المهني، ودرست لمدة خمس سنوات في المعهد.

نظر بانزعاج إلى الراكب في المرآة الأمامية بضع مرات نظرة فاحصة، نعم، بالنسبة لي حتى ولو درس لمدة عشرين سنة، لكنه في مظهره يبدو أخرقَ سخيفًا، كان شعره الممشط إلى الخلف مكدسًا بشكل عشوائي، ومن الجانبين حلق كل شيء، مما أعطى وجهه مظهر العجوز، ربما، في طفولته كان الشباب يقصون مثل تسريحات الشعر هذه تحديدًا، وفي تلك اللحظة بالذات بدا له الأثر الذي تركوه، وغمرت قلبه موجة دافئة، عندما كان يبدأ بالكلام، كان فمه يمتلئ باللعاب، وتصبح عيناه منتفختين بغضب، مما أثار الشكوك في أنه كان من الواضح أنه غريب، وليس في عقله، على الرغم من حقيقة أن صوته كان قاسيًا وخشنًا، إلا أن فيه ترددت وبشكل واضح نغمات التردد وعدم الثقة في النفس.

باوريم(16) ، التزم اليسار، يجب أن نصل بشكل أقرب، توقف بالقرب من تلك السيارة ذات الخط الأحمر على هيكلها.

استمر في السير عمدًا، دون أن يبطئ، من أجل تجاوز المكان المحدد بمسافة صغيرة.

أوه، توقف!"،

بدأ الراكب يغضب، عندما داس على الفرامل بشدة، وكاد أن يرتطم وجهه بالزجاج الأمامي، وقفز إلى الأعلى بشكل حاد، وتخبط بجسمه كله على المقعد اللين، وفتح عينيه واسعًا، ونظر بشكل غريب إليه، أما هو، كما لو أنه لم يهتم بكل هذا، تجمد بلا حراك في مكانه، وحدق بصمت في نقطة واحدة في حين كانت نظرته

(16) باوريم: هكذا يقولون عن الغائب من أقرباء الدم أو النسيب أو الأخ، ولكن في هذه الحالة تمثل شكلًا ودودًا ومحترمًا لتوجه الرجال إلى الرجل. أخ.

تعبّر عن عدم اكتراث تام.

خذ.

مد إليه بخجل روبلين من قطع نقدية صغيرة،

لقد حذرني مديري قائلًا:

إذا قابلت شخصًا درس لمدة عشر سنوات في ألماتي، فلا تأخذ منه نقودًا أبدًا.

فتح ذاك عينيه واسعًا من المفاجأة، وشعر بشيء من الخدعة القذرة في هذا، في حين احمرّ وجهه اللامع:

يبدو أنه رجل جيد؟

إلى جحيم الكلاب، من أين لي أن أعرف أي شخص هو؟! فقط قال: "إذا صادفت شخصًا درس لمدة عشر سنوات، فكن حذرًا، ربما ليس الجميع لديه في المنزل(17) ".

وعندما حاول ذاك، مختنقًا من الغضب، أن يدخل في مناوشة لفظية معه:

إيه، أنت...

صرخ في وجهه مهددًا:

هيا، اغرب عن عيني، ما دام لم يحدث شيء!

أصبح وجه الراكب شاحبًا، وكادت روحه تسقط إلى كعبيه، وما أن وضع قدميه على الأرض، حتى داس على الوقود، وانطلق مسرعًا، في المرآة شاهد كيف ذلك المزعج بصعوبة حافظ على توازنه حتى لا يسقط، وظل واقفًا.

مرة أخرى تملكته لا مبالاة ميئوس منها وشعور اليُتم، المتين، الذي صدَّقه، تبين أنه متخمٌ بالتفاهة، والراكب آخر نذل، ما الذي يحدث لهذا العالم؟ بعد أن هرب من زوجته وأولاده، وتسكع بدون عمل، التقى بالمتين، والآن يحمل كل أنواع الأوغاد، ولماذا ينال مثل هذا العقاب؟! لماذا هو مؤذٍ جدًا وغير محظوظ؟!

بالفعل تبين أن من الطيب سيولُد سيء أيضًا، والدهم لم يمت من الفودكا، وإنما موتًا طبيعيًا، كان هذا المسكين فارسًا حقيقيًا، لم يخذل أحدًا، ولم يتذلل لأحد، وفي عائلتي لم يكن هناك أشخاص سيئون.

كعادتها، أفرغت الأم لجارتها مرارتها، عندما وصل ليلًا في عطلة نهاية الأسبوع، واستيقظ في الصباح، لم تهتم إن كان نائمًا أم لا، فتحدثت عن قصدٍ بصوت مرتفعٍ حتى يسمعها، لكنه بشكل عام شعر برجفة حزن واستياء في صوتها، مهما حاول عدم سماعها بتغطية رأسه بوسادة، فإن النوايا كانت قوية في كلماتها، على الرغم من أنه شعر بالذنب أمامها، لكنه في الوقت نفسه كان نفسه مندهشًا من انعدام الإحساس لديه الذي لا يمكن اختراقه.

إيه، باتيما، ما زال صغيرًا جدًا، وليس من السهل على الرجل أن يستقر ويصبح إنسانًا، هناك من يكون في

(17) عبارة تقال لوصف شخص ما بالجنون.

شبابه لا سمكًا ولا لحمًا، ولكن بعد أن ينضج يصلُح.

ليتوارَ قبل أوانه!

صرخت غاضبة، كما لو كانت تتبادل الشتائم مع شخص ما.

صُعقَ حتى الجنون، كما لو أن ماءً جليديًا صُبَّ على رأسه، يتضح أنه ضائع تمامًا، وميئوس منه؟ العروق على صدغيه كانت تطن بدون توقف، كما لو كانت من صدمة كهربائية، وأظلمت عيناه، وأصبح كل شيء أمامه ضبابيًا، اشتد صوت أمه بشكل غير طبيعي، وهزَّ كل الجدران في المنزل، ودوى في الهواء:

منذ فترة طويلة، بعد وفاة أسكار، تبعني جاكان ذو الأنف الأفطس خطوة خطوة، وطلب مني الزواج منه، وأنا، البائسة، فكّرت فيما سيصيب أطفالي، واتضح، عبثًا، لا عجب أن امرأة عجوزًا تعيسة في الأوقات السابقة اشتكت: "أن تعيشي مع عجوزٍ متهالك، أفضل من أن يكون لديك عشرة أطفال"، ما يؤسف له في أسوأ الأحوال، أنني على الأقل لم أتشبث بشخص مثل جاكان ذي الأنف الأفطس.

قالت الأم هذا وهي تقلد صوت جاكان القبيح، ثم همست بشيء في أذن جارها، وضحكت على الفور بصوت عالٍ.

كأن الضحك الأحمق أهانه كثيرًا، وذلك بمفاقمته لحالته التي وبدونها كانت مكتئبة، لدرجة أن المرارة من كل الكلمات التي قيلت قبل الآن، بدت وكأنها هدأت، إلا أن صوتها دوى مرة أخرى بشكل قاسٍ، مجبرًا على نسيان حالة التهدئة التي هاجمته بسرعة.

من الجيد أن يعيش الأطفال، بعد أن يكبروا، بشكل منفرد، بأنفسهم، ولا يعتمدوا على أي شخص، ولُديهم، كما لدى من هم أكبر منهم سنًا، ولُدى من هم أصغر منهم سنًا، لا توجد ذرة عقل في رءوسهم، أنهكوني تمامًا، ليس بالخبز والماء أربيهم، إذ يجب إعداد ما هو مغذٍ لهم ليأكلوه، مؤخرًا ذهبت إلى ابني نورليبيك، أمين مستودع بيريغين، يا بني، قلت له، صديقك ترك زوجته وأطفاله، ساعد إن استطعت باللحم والدقيق"، قال بدون كلام زائد: "جيد"، وفي صباح اليوم التالي أحضر لحم كبش كامل، ارتبكت، لا أعرف متى سأتمكن من محاسبته، في حين ابتسم بعرض فمه وقال: "اعتبري أنك دفعتِ"، كما يقول المثل "لو لم يكن هناك سعادة، لساعدت التعاسة".

ما إن تذنب بشيء، حتى يتضح أنه من الصعب أن تسترجع اسمك الطيب، في كل مرة كان يأتي فيها إلى القرية، كان يعطي أمه المال، بالعشرات وبالمئات، لكن لماذا لم تتذكر ولو لمرة ذلك؟! وحول الذبيحة التي جلبها بيريغين من المستودع، كررت بلا نهاية، كمجروحة، كما لو أنها لم تر غيرها أي شيء جيد في حياتها، من مثل هذه الأشياء التافهة تطفو بشكل مزعج من ذاكرته، وتضرب بروحه أشياء لا يمكن تسميتها بالأفكار، ويتعب دون أن يغلق عينيه حتى الفجر المليونير، الذي يحمل اسم الخان أبيلاي، في مثل هذه الأحيان

رغب في أن يذهب إلى برية خالية من الناس، خالية من الماء.

في تلك اللحظة، عندما ألقى نظرة على هذه المرأة العارية المستلقية مع غطاءٍ ملقىً عنها، بدا له أن في العالم قد حل الزمن الذي يكف فيه كل من فقدوا الخجل والضمير عن تغطية عارهم، ويفضلون السير هكذا، كيفما كان، عراة تمامًا، بدت له مؤلمةً فكرة أنه لو يقلبها على ظهرها، فإنها حتى لن تحاول، على الأقل بيديها، أن تغطي عريها.

الشيء ذاته، إن كان رجلًا، أو كلبًا، الذي يتبول تقريبًا تحت أول شجيرة يصادفها.

لشعور كاميلا بأنه ميالٌ إلى ما هو غير شرعي، قالت هذه الكلمات تحديدًا قبل وقت قصير من أن يبدأ العمل كسائق سيارة أجرة.

كيف جمعني القدر معك؟ ولو تحدثنا بدقة، كنت سأتزوج حتى من سائق جرار،

هذه الكلمات قالتها كاميلا خلال المشاجرة الأولى بينهما.

عندما ارتجف والتفت إليها، فإن زوجته بملامحها الكاميلكية، كانت شبيهةً نوعًا ما بالرجال المسنين، لو أنه نسي كل شيء، لكان يعيش معها الآن في انسجام وتناغم، ألا يكفي أن فراش الزوجية لديهما برد منذ زمن، فقد أصبحت تعامله بعناد وعدائية، إضافة إلى كل ذلك، كانت تنظر إليه بتعجرف وغطرسة، لماذا صاح كبار السن في الأيام الخوالي بسخرية مريرة: "أوه، أين أنت يا ماعزتي(18) !"؟ عندما ظهر مسجوع كلمة "كوزيول/ ماعز" على لسانه، هو نفسه لم يلاحظ كيف قالها بصوت عالٍ: "يا ماعزي!"، وألقى بشكل عفوي نظره على المرأة التي كانت ترقد بلا حراك على ظهرها، وتنام دون رجليها الخلفيتين، شعر بالحرج لضحكه الصاخب، بمجرد أن شعر بشيء مثل حرقة معدة خفيفة في بطنه، فمكان الغضب والحقد اللذين كانا يغليان في صدره، حلّت لامبالاة أبدية خفيفة.

من بين أصدقائه الذين تشير أمه إليهم باستمرار بتعريف مشترك "الندماء"، كان هناك معتوه ملعون، أهداه جلد الذئب المعلق على الحائط مع وجه مبتسم، وعند تسليمه قال: "أبيكي، علقه على جدار منزلك الجديد"، في حين فكَّر هو في نفسه أن هذا الشيء له خصائص مقدسة، ورأى ذلك فألًا طيبًا، بدا له الشخص الذي قدم الهدية نشيطًا بما فيه الكفاية، لذلك فقد قبله في إحدى الشركات التابعة له، وفي وقت قصير سلمه المستودع، وعندما قال إن المستودع تعرض للسرقة، لم يهتم بذلك بشكل خاص، ولكن بمجرد أن سمع أن حريقًا اندلع هناك، هرع على الفور، إذا كان أحد طرفي المستودع الطويل قد احترق بشكل تام تقريبًا، وانهار وتصاعد منه الدخان، فإن لسان التنين من اللهب الأحمر والأخضر بدأ بالفعل يلتهم منتصفه بجشع، عندما نظر كيف في أحضان العدو الصامت يموت الخير المتراكم نتيجة تبادل العين بالعين، أكثر من الموت شعر بعدم جدوى العمل والجهود المبذولة على كل هذا، فجأة وسط الناس الذين اندفعوا بشكل عشوائي في حالة

(18) تعبير مجازي؛ جميلة، رائعة.

من الذعر، لاحظ أن هذا يقف مرتبكًا يسحب رأسه إلى كتفيه، ضرب الدم في رأسه، ثم لا يتذكر كيف بعد ذلك وجد نفسه إلى جانبه، كان في حالة سكر شديد، وفي الوقت نفسه تمتم بصوتٍ باكٍ وبغباء: "أبيكي!"، بعد أن تفحص الرجل المسكين من الرأس إلى القدم، رأى كم كان مثيرًا للشفقة إلى درجة الاشمئزاز، وندم على أنه لم ير ذلك فيه من قبل، نعم، هو نفسه، كما تبين، ليس أفضل، نتيجة للحادث غطت وجهه بقع حمراء مرقشة، والجزء العلوي من الفك المتصل بالعظم الصدغي، والحافة الأنفية، والخدان حرقها البخار الساخن، ما الذي يمكن أن تأخذه منه، عندما قتلته الفودكا؟! لكن ما هو مؤسف، أنه لم يسأل هذا الوغد مزحة من كانت تلك: أرلان أم الكلبات؟!

مؤخرًا، عندما كان يسير بلا هدف من زاوية إلى أخرى، تبين أنه نسي أن يطفئ المصباح، بسبب الضوء الضعيف، كانت الغرفة مضاءة بشكل خافت، اتضح أن جلد الذئب المعلق بالوجه على الجدار، عادت إليه الحياة، وزحف إلى الأعلى ببطء، عندما تخيل أن عيني شخص ما، مع ابتسامة بالكاد ملحوظة على حواف شفتيه، كانتا تراقبان عن كثب كل ما كان يحدث في هذا البيت، بدأت عيناه مع شعور الخوف تلتصقان، يا إلهي، ألم تكن تلك الكلبة الصغيرة؟ رءوس الجراء العمياء التي كانت مستلقية بلا حراك، وكأنها نائمة، وتمددت بكامل أجسامها في خط واحد وهي ترضع من حلمة واحدة للسلوقية، مرتجفة بشكل بالكاد ملحوظ، كان عددها خمسة أو ستة على الأقل، يقولون إن الكلبة الجيدة لا تلد أكثر من أربعة، وإذا ما تمت رعايتهم والاعتناء بهم بشكل جيد، وإعطاؤهم لحم البقر فقط، فإنه بالإمكان تدريبها وترويضها بسرعة، ولكن هل ستحصل على شيء جدير بالاهتمام من هذه الأنثى ذات الرأس البيضاوي؟! في أسوأ الأحوال حتى لن تنفذ بشكل جيد ما تطلبه منها أن تفعله! على الأرجح سيكون من الأفضل لو تشرح لبيريغين ذلك جيدًا، يبدو أن الجرو ذا الظهر الرمادي والرقبة الملونة هو ذكر، تضيقت عيون الصغار المساكين الهائجين المتذمرين بحثًا عن الحلمة، وبدا مظهرهم حزينًا جدًا، وكأنهم يخفون أسرارهم الحزينة في أنفسهم، شعر بأسف شديد عليهم حتى تألم قلبه، وأصبح عاجزًا على النظر أكثر، فصعد إلى السيارة، وبعد أن ضغط على دواسة البنزين، انطلق مسرعًا بين المباني العالية والمتعددة الطوابق، وقاد إلى شارع واسع، وبدأ يرتفع إلى الأعلى، أمام عينيه كانت لا تزال ماثلة الصورة مليئة بالشفقة مع الجراء العمياء المستلقية عند بطن السلوقية، محاولين إيجاد حلماتها.

فجأة شاهد في الجانب صبيًا في عمر خمس أو ست سنوات يجري بكل قوته في زقاق ضيق، ويصرخ بشدة ملوحًا بيديه، ففكر بدهشة: "لأي سبب يفعل ذلك!" وعندما نظر إلى الأمام، شاهد جسد شخص ممدد يبتعد بسرعة كبيرة، ورغبة منه في معرفة لماذا كان الطفل يصرخ، أنصت فسمع صوتًا مليئًا بالتضرع، ينادي أباه، "هل فقد هذا اللعين عقله؟! لماذا لا يرجع إلى الطفل؟!"، فكَّر، وبدأ في متابعة تصرفات الطفل عن كثب، عندما حاول الصبي اجتياز قناة خرسانية ظهرت في طريقه، سقط فجأة، لكنه، على الرغم من هذا،

واصل الطفل البريء الصراخ بقوة، وهو يقول شيئًا ما، ويمد يده إلى ذلك الشخص الذي ابتعد أكثر دون أن يلتفت، وقطّعت قلبه بألم موجع التعابير اليائسة لقسوة المعاناة، حوّلت أشجار الجوز القاسية طريقه إلى شارع يمر بين مجموعة من الأبنية المنتصبة هناك بكثافة، فاختفي من عينيه، في حين أن الصبي، دون أن ينهض، واصل الصراخ والتلوي على الأرض، لم يفهم أي شيء، فواصل طريقة.

استيقظ المليونير، الذي يحمل اسم الخان أبيلاي، في حالة هيجان، آه، لو يضع جسمه تحت الريح الباردة للصيف الهندي، ويتنفس برئتيه بعمق هواءً باردًا، فإنه سينتعش على الفور.

كان المليونير الذي يحمل اسم الخان أبيلاي قد عاد لتوه بعد أن قضى أسبوعين أو ثلاثة أسابيع في الخارج، تبين أن مدراء الشركات الفرعية كانوا يتطلعون بفارغ الصبر إلى وصوله لعقد اجتماع في إحدى المدن الجنوبية، على الرغم من أن فكرة عنيدة جاءت إلى رأسه: "ألا يمكنهم أن يتصرفوا بدوني أيضًا!"، لكنه بعد أن فكَّر في أنه ربما يُخطط لشيء جدي، وكان حضوره ضروريًا للغاية، اضطر إلى الذهاب إلى هناك، وعندما وصل إلى هناك بدأ الجميع بإقناعه بالركوع للأماكن المقدسة قبل الشروع في العمل، فوافق على ذلك، وهكذا، اضطر إلى زيارة ضريح بقبة عالية بنيت بين القرنين التاسع والحادي عشر، كان للمبنى الرمادي بطلائه المقشر منذ زمن طويل تقشير أربعة "أبو"اب، في حين كان مدخله ومخرجه عند الباب من الجهة الشرقية، كانت شاهدة القبر على شكل مهد كازاخي كبير، واقفة في الوسط، ومغطاة بثوبٍ أبيض، الخادم الذي يجلس مقابلها، يجلس على ركبتيه مخفيًا ساقيه تحته، ويشعر بالبهجة وهو يجوّد مغمض العينين آيات الجنازة من القرآن، وكانت تقف شابة مغطاة من رأسها إلى أخمص قدميها في ملابس بيضاء، تتمايل، كتلميذة مواظبة، على إيقاع صوت الصلاة، وتتمتم بصمت مكررةً في نفسها كلمات السور، وتحرك شفتيها باستمرار، في تلك اللحظة، عندما نظر إلى الوجه الحنون والجذاب للمرأة ذات العينين المعبرتين عن حالة معاناة شديدة وقلق، ثارت فيه رغبة شهوانية آثمة ليتمتع بها، أصابه حرج شديد، عندما فكَّر أنه إثم لا يغتفر أن تسمح لنفسك في هذا المكان المقدس بمثل هذه الأفكار الشيطانية التي يثيرها الشيطان.

من حيث شكله، كان الوجه المليء المستدير للشيخ ليلائم واحدًا من تجار البازار الكثيرين، أكثر من ملائمته لخادم ضريح، لكنه ما أن فكّر مع الأسف حتى النهاية في أن القدر لم يهيئ له أن يأتي إلى مثل هذا المكان لشخص نقي بمظهره التقي، كخادم الضريح، وأنهى الصلاة، حتى ألقى نظرة متعبة على الأشخاص المحيطين به، لم يردَّ إلا مرة واحدة فقط على ترحيب الحاضرين الذي انهال عليه من جميع الجهات، واستمر في الجلوس في الوضع نفسه.

ألقت الشابة اللطيفة بقطعتين معدنيتين من فئة الخمسين تنغي على صينية مغطاة بقطعة قماش بيضاء، وغادرت الضريح بهدوء وبطء.

بدأ الخادم مرة أخرى في قراءة سور من القرآن بصوت خاشع، شرع مرافقوه، الواحد تلو الآخر، في رمي

الدولارات، فكَّر أنه قد أتى إلى هنا نقيًا تمامًا بعد أن تخلَّص من خطاياه، وشعر فجأة أنه مشاركٌ في النعمة، عندما وضع يده بشكل آلي في جيبه، كان هناك ورقة من فئة المائة دولار، وضعها بلطفٍ على حافة الصينية، عندما لاحظ أن خادم الضريح ألقى على الفور بنظره على الورقة الخضراء، فهم ظهور جشع من تصرفه، فاستاء للغاية، وبعد أن انتهى ذاك من دعاء الأموات، نظر إليهم بانتباه لبعض الوقت، "حسنًا يا أعزائي، لا أشكركم على تبرعاتكم، بل على حضوركم، والآن تذوقوا الخبز والملح في منزل سلفنا المقدس، وعند مغادرتكم، انعطفوا على الفور إلى اليمين".

حيا المرأة التي أعدت الشاي وكانت في انتظارهم، وذهب على الفور إلى مكان الشرف –توروي(19) ، أخذ بقية رفاقه أيضًا في الجلوس في أماكنهم، سرعان ما جاء خادم الضريح، وجلس على الطريقة التركية بالقرب من المرأة التي كانت تصب الشاي.

نحن عبيد الله، وأتباع رسوله، يمكنك أن تصبح ملكًا في ألف يوم، وعبدًا في يوم واحد فقط، لماذا يتوجه الناس إلى الأماكن المقدسة؟ لمن يفهم، لا حرج في أن تكون عبدًا ليوم بالقرب ممن حكم ملكًا لألف يوم.

اشربوا الشاي.

ارتجف صوت المرأة بشدة.

كانت المرأة ذات الوجه البيضاوي اللطيف تنظر إليه دون أن تزيح نظرها عنه، وكان عيبها الوحيد أنها تجاوزت الأربعين، وإلا لما كانت أسوأ من الفتيات الجميلات، كالمهر، اللواتي يعرضن الملابس في عروض الأزياء، في هذه الأثناء كانت المرأة تضغط بيدها على صدغها الأيمن، ليس واضحًا لماذا كانت تفعل ذلك، كما لو أن أنها شعرت بأن شخصًا من مرافقي المليونير، الذي يحمل اسم الخان أبيلاي، جاء إلى هنا نجسًا، فشعرت بالحرج من ذلك.

أوي، اتضح أنني لم أسكب لكم الشاي.

قالت مستدركة فجأة،

شربنا، شربنا!

صاح الجميع معًا في الرد عليها.

بعد أن شكر الأكبر سنًا الله عز وجل على النعمة المنزلة، نهض الجميع من أماكنهم، واتجهوا إلى المخرج، توجهت إليه المرأة المتجمدة بلا حراك عند العتبة:

كارغام(20) ، تأخر قليلًا".

بدأ قلبه ينبض بخوف، ووقف شعر رأسه.

قبل أن أصل إلى هذا العمر، كان عليّ تحمل الكثير من العذاب والمعاناة، وبمجرد أن ظهرت هنا، بدأت أشعر

(19) توروي: مكان في عمق الغرفة الرئيسية، مقابل مدخلها.

(20) كارغام: شكل مهذب ولطيف ومعبّر، يستخدمه من هو أكبر سنًا في التوجه إلى من هو أصغر سنًا؛ يعني حرفيًا "يا غُريبي"، "يا عزيزي".

بقلق شديد، يبدو لي أنك لست من هذا العالم، وبالإضافة إلى ذلك أنت سخيٌّ جدًا، قبل أربعة أشهر فقط، ارتكبتَ خطيئة كبيرة، كنتَ سعيدًا جدًا عندما ولُدتْ كلبتك جراء، ولكن عندما جرى ابنك وراءك، يناديك، تركته حتى دون أن تلتفت إليه.

يا إلهي، لقد كان هذا منامي؟

كيف لي أن أعرف، يا عزيزي، لقد كان ذلك علامة من الأعلى.



عليبيك عسكاروف

(ولُد عام 1951)



- أنهى دراسته بمدرسة الفنون في ألماتي، وتخرج في كلية الصحافة بالجامعة الوطنية الكازاخية، وقد نشرت أولى قصصه في صحيفة محلية عام 1967 تحت عنوان: "عندما خرجنا لاصطياد الثعلب".
- وبعد 12 عامًا خرج إلى النور أول كتبه بعنوان: "دار السعادة"، كما صدرت له العديد من الكتب والروايات مثل: "خواطر حول التايغا"، "الصقيع المبكر"، "القصص الاشتراكية"، "الروايات الاشتراكية"، "قصة الأمس"، "ألوان اليوم الفائت"، "روح الجواد سريع الحركة"، "حكمة النساء"، "الدب الأسود مهاجم الخراف"، رواية "كيجاش"، "الخريف الذهبي على قمم جبال ألطاي"، رواية "يا ألطاي العظيم، و"ماذا عساي أن أفعل مع ارتفاعك".

- عام 2016 صدر له مجلد من ستة أجزاء، واستقبله المجتمع الأدبي والثقافي بترحيب واهتمام كبيرين.
- يعتبر الكاتب نفسه شهيرًا، فوفقًا لآراء النقاد، يعد الكاتب رائد أدب السفاري والرحلات في الأدب الكازاخي، حيث تسلق جبال ألطاي مرتين، ووصل لقمة جبل موزتاو، وكتب كتاب "جبل موزتاو أو رحلة إلى مركز الأرض" عام 2016، كما سافر إلى أكثر المناطق برودة في كازاخستان وهي القرية الواقعة على حافة جبال ألطاي، التي سجلت بها درجة الحرارة 62 تحت الصفر، وفي عام 2017 نشر مقالًا بعنوان "شاناغاتي".
- وفقًا للأساطير الكازاخية، عندما حدث الطوفان في العصور القديمة، رست سفينة سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ فوق جبل كازيغرت، وقد اعتمد الكاتب على أدلة وثائقية جديدة، وأدخل تعديلاته على تاريخ الطوفان الذي اجتاح العالم، وأجرى أبحاثًا متعمقة في الفلكلور الكازاخي، وألف "كازيغرت أو أفكار عن الطوفان العالمي" عام 2017.
- كما سافر إلى أقصى جنوب القارة الإفريقية حتى وصل إلى رأس الرجاء الصالح، وكشف لجمهور واسع من القراء العديد من المغامرات المذهلة التي وقعت في هذا المكان، والتي يصعب تصديقها؛ وألف "رحلة إلى رأس الرجاء الصالح أو إلى أقصى الأرض".
- تُرجمت أعماله إلى اللغتين الروسية واللاتيفية.
- تم نشر رواية "يا ألطاي العظيم، ماذا عساي أن أفعل مع ارتفاعك"، وقصة "الخريف الذهبي على قمم جبال ألطاي" في إصدارين منفصلين في دار نشر الأمم في بكين على أساس نص عربي تم تكييفه مع الأبجدية الكازاخية، كما نشرت تلك الرواية مع قصة "الجيل التائه" في كتاب منفصل بسلسلة "مكتبة الجيل الناشئ".

موناليزا

حدث ذلك في أواسط الستينيات...

بعد السنة الرابعة، تم إرسال طلاب كلية الصحافة إلى الصحف؛ لخوض تدريب عملي لمدة ستة أشهر.

طبقًا لبرنامج توزيع الطلاب، توجه "توليأوجان" إلى كاراغاندا، ليبدأ التدريب في صحيفة إقليمية، عقب وصوله، وتسجيله في هيئة التحرير، بدأ على الفور بالبحث عن نُزلٍ، لأنه لم يكن قادرًا على تحمل تكاليف الإقامة لفترة نصف عام في فندق.

جلس عند الهاتف، وبدأ الاتصال بجميع الأرقام التي زوده بها موظفو هيئة التحرير، وأخيرًا عثر على غرفة صغيرة في بيت مكوّنٍ من ثلاثة أدوارٍ في إحدى ضواحي المدينة؛ حيث يعيش البنّاءون.

ألقى توليأوجان على ظهره حقيبته مع أشيائه، وحمل ربطة الكتب التي جلبها معه، وانطلق على الفور إلى العنوان المشار إليه.

جرف القمامة، ومسح الغبار الذي يعج به المكان، ثم رتب الغرفة، وجهز لنفسه مكانًا للنوم، ووفقًا لتقاليده الراسخة، علق على الجدار الرئيسي صورة "موناليزا"، التي، كما هي الحال دائمًا، يصطحبها معه.

بالطبع لم تكن النسخة الأصلية الشهيرة التي رسمها ليوناردو دافنشي، ولا نسخة معدَّة خصيصًا، وإنما مجرد ورقة كبيرة مقصوصة من ألبوم عادي للفنون الجميلة، قام توليأوجان بنفسه بتحديد هذه اللوحة بحدودٍ بيضاء، ووضعها بعناية في إطارٍ مذهب وجميل.

عندما التحق توليأوجان الذي ترعرع على أطراف بيتباكدالا (1) بالجامعة، شعر بذاته وكأنه يدخل عالمًا آخر، وبتلهف شديد كرَّس نفسه لاكتساب المعارف، وكمسافر خرج لتوه من الصحراء ويشعر بعطشٍ لا يمكن كبته، انغمس في الدراسة بدون أن يضيع أي محاضرة، أو حلقة بحثٍ، أو درس إضافي، لا يرفع رأسه في الليل أو في النهار عن الكتب، وفي الوقت الذي كان فيه زملاؤه يعانون صعوبة استيعاب المنهج الدراسي،لم يكن توليأوجان يكتفي وحسب بالتهام الكتب الدراسية؛ بل يحرص على الاطلاع بشغف على الكثير من المراجع الجديدة له كليًا.

---

(1) بيتباكدالا: تعني "السهوب الجائعة" – صحراء تقع في محافظات كاراغاندا وجنوب كازاخستان وجامبيل، تتوسط نهر ساريسو، ونهر تشو، وبحيرة بالخاش.

قام توليأوجان بدراسة أعمال الكثير من المؤلفين الأوروبيين البارزين من الأزمنة القديمة إلى يومنا هذا، حتى وإن لم يغص في كل شيء إلى الأعماق، إلا أنه قرأ كل ما هو رئيسي، دون أن يترك أي شيء قد يفيده مستقبلًا، من أدب وعلوم اجتماعية، وتاريخ، وفلسفة، وكل ما يرتبط بالثقافة الأوروبية، لم يترك كتابًا في أرفف المكتبات، شعر أنه قد يكون لبنة في تشكيل المفكر توليأوجان، العليم بظواهر وبواطن الحضارة الإنسانية إلا التهمه.

لم تعرف روح توليأوجان الهدوء، في الوقت الذي كان زملاؤه في السكن الجامعي يدعون الفتيات، أو يتنزهون في الحديقة، أو في ساحة الرقص، كان يرتدي ملابسه، ويعقد ربطة العنق، ويتجه إلى حفلة موسيقية سيمفونية، وبعدها يسرع لمشاهدة باليه أو الاستماع لأوبرا، وعلى الرغم أن كل الحفلات السيمفونية والباليه والأوبرالية لم تكن مفهومة جدًا له، وعلى الرغم من أن طبيعته الخشنة تشكلت بعيدًا عن التهذيبات الثقافية للحياة الحضرية ولم تتقبلها، إلا أنه لم يتراجع.

كان يعتقد أن أوروبا هي القوس الذهبي للثقافة العالمية، ومهما كانت صعوبة كل كتاب تصفحه، فقد قاد إلى مثل هذا الاستنتاج، الذي ترسخ بداخله بمرور الوقت، وكالمسحور تحمس أكثر لما عدَّه تحسينًا للذات.

في تلك الفترة، عندما كان يدخل إلى معرض فني، كانت المجموعة الكبيرة لأعمال ليوناردو دا فينشي أول ما يلفت نظره، وكان يتحرق شوقًا لاقتنائها، إلا أن ثمن الألبوم كان باهظًا بشكل لا يمكن تصوره، وكان توليأوجان يطرق "أبو"اب معارفه طالبًا إقراضه المبلغ اللازم، ليتمكن من شرائه، وكانوا يستجيبون.

لدى مشاهدته للألبوم، أدرك أن اللوحة التي كانت لها منزلة خاصة لدى ليوناردو العبقري من بين أعماله كانت "جيوكندا"، صورة لفتاة أضفت بابتسامتها على ملامح الوجه الكثير من الغموض الساحر، اتضح أن اسمها موناليزا، بالطبع ليست الفتاة نفسها، وإنما صورتها التي رسمها بأنامله، هنا قال توليأوجان لنفسه:

إذا كان ليوناردو دافينشي نفسه تصرف هكذا، لماذا لا أقوم بالشيء ذاته؟! وأربي نفسي كالعباقرة!

قص توليأوجان "موناليزا" بعناية من الألبوم، ووضعها في إطار فاخر، وعلقها على الحائط فوق سريره، كم من الغرف بدَّل في هذه الأعوام الأربعة! إلا أنه لم يفارق "موناليزا"، وبمجرد أن ينتقل إلى مكان جديد، كان أول ما يقوم به هو تعليق لوحته المحبوبة فوق سريره، فقط في الإجازات الصيفية، عندما يسافر مع فرق البناء، يتركها مكرهًا، معلقة في مستودع السكن الجامعي، أما هذا التطبيق العملي الإنتاجي فيمتد لمدة نصف عام؛ لذا أحضرها معه إلى كاراغاندا، وعندما دخل إلى غرفته في سكن البنّائين الجماعي، كان أول ما قام به هو تعليقها فوق رأس فراشه.

مرت عشرة أيام.

بعد أن استغرق توليأوجان في القراءة لليلتين، استسلم للنوم، وعندما وصل متأخرًا إلى هيئة التحرير، كان مدير القسم بانتظاره كما لو كان يجلس على لوح مزروع بالمسامير... بمجرد أن رآه صاح غاضبًا:

– قررت تكليفك بمهمة مستعجلة، اعتقدت أنك صحفي شاب وقلمٌ سريعٌ... وها أنا أكتشف غير ذلك ، تفعل

أي شيء سوى إعداد نفسك لتكون صحفيًا!

اعتذر توليأوجان، مؤكدًا له أنه مستعد لتنفيذ أي مهمة.

- حسنًا!

تمتم المدير بودٍ، معربًا عن هدوئه، واستطرد:

- اليوم في منجم كوزيمبايف، يجب أن يسجلوا رقمًا قياسيًا، اذهب إلى هناك، ارصد ما يجري واكتبه بسرعة؛ بحيث تكون المادة في الصباح على مكتبي! اتفقنا؟

"وأين المفر ؟ وكيف لا أوافق؟" تمتم توليأوجان في سريرته، وهو يغادر مكتب المدير.

أخذ توليأوجان معه مصورًا صحفيًا، وبسيارة هيئة التحرير انطلقا إلى الوجهة المحددة، هبطا إلى المنجم العميق، وأمضيا اليوم كله تحت الأرض، تلك هي المرة الأولى التي يجد توليأوجان نفسه في منجم، لذا أثار كل شيء فضوله، وبعد أن جمع المعلومات اللازمة، عاد في المساء إلى البيت مفعمًا بالانطباعات.

فور دخوله إلى غرفته، فوجئ بأمه تنزوي على مقعد في إحدى الزوايا بالكاد ميزها من هزالها، قريتهم تقع بجانب بيتباكدالا، يا للعجب! كيف قطعت غولياييم-شيشي كل هذه المسافة مشيًا! كيف عثرت في هذه المدينة الكبيرة على هذا السكن المشترك المنسي! تنتابه الشكوك في أن ثَمَّ شيئًا خاطئًا، نظر توليأوجان بارتباك إلى أمه.

- ذهبت إلى الجريدة لأبحث عنك... هناك أخبروني بالعنوان.

اعترفت... كان صوتها باردًا، كما لو كانت تتحدث مع غريب.

- تاتي(2) ، لماذا أتيت؟

سأل توليأوجان بعد أن عجز عن إخفاء قلقه.

- وصلت إلى القرية شائعة عن أنك حصلت على شقة في كاراغاندا، واتضح أن الخبر لم يكن صحيحًا، كان هناك خطأ، أصدقاؤك في الجريدة أخبروني.

- يبدو أن أحدهم، بعد علمه بسفري إلى كاراغاندا، قرر أنني سأحصل على شقة هنا، وحسدني...

- مَن يعرف... صدَّقت أنك تحتفل بالمنزل الجديد... فأسرعت لأرى بأم عيني.

ينتبه توليأوجان، عينا أمه منتفختان ومحمرتان، كما لو كانت تبكي طوال هذا الوقت، والآن، بعد أن تعبت من الدموع، تجلس مرهقة، حتى إن التجاعيد على جبينها بدت وكأنها ازدادت، وأصبحت أعمق وأوضح، على سطح أصابعها الرقيقة الطويلة، ظهرت عروق منتفخة، بل إن لون وجهها ليس كما كان في الصيف الماضي، أصبح شاحبًا وجافًا من الشمس، كأنه سهوب احترقت بلظى الشمس الحارقة.

- تاتي، ماذا بك؟ هل كل شيء في البيت على ما يرام؟

(2) تاتي: صيغة تحبب لمخاطبة الأم.

- كل شيء على ما يرام، يا مُهيري!

- تاتي، لماذا بكيت؟ كيف حال جدي هناك؟ هل هو بخير وصحة جيدة؟

- جدك بخير وصحة جيدة.

- ما الذي حدث إذن؟ وكيف عائشة-أبا (3) ؟

- وعائشة-أبا بخير، يا مهيري.

لم يعرف توليأوجان كيف عليه أن يتصرف، فدار حول أمه بدون هدف، وبعد تردد، بدأ بتحضير الشاي، غلى الماء، وضع على الطاولة ضيافة بسيطة.

- حسنًا، والآن تفضلي.

مد بكلتا يديه إلى أمه بيالا (4) الشاي الثقيل. -

- ماذا حدث، تاتي؟ لا تعذبي روحي!

أخذت غولياييم-شيشي رشفتين، وطفحت الدموع من عينيها مرة أخرى.

- وحيدي، مهيري!

نطقت أخيرًا مقوِّمة ظهرها.

- في سن السابعة عشرة ترملت، ولكيلا أزعجك عن غير قصد، كرّست نفسي لتربيتك، ولم أتزوج ثانية، وما الذي يمكن أن أخبئه الآن! الكثير من الرجال المحترمين طلبوا يدي،لم أمنح أيًا منهم حتى نظرة مني، وروحي يلتهمها الحزن، سخرت قواي من أجلك، وما أكثر الدموع التي ذرفتها في ليالي معاناتي! لكني ربيتك وأخرجتك إلى الناس، لا يوجد صنف من المعاناة لم أقاسها، ولا يوجد عذاب لم أكتو بناره، يا مهيري.... من مثل هذه الحياة تحولت في سن الأربعين إلى عجوز، ولم أبلغ الأربعين بعد.... هذا كل شيء!

- تاتي، وهل تظنين أني لا أدرك هذا! أنا أفهم كل شيء، إن كُتبت لي الحياة والصحة، سأثبت أن لبنك لم يضع هدرًا.

- يا مهيري، لا ألومك على الإطلاق على حليب الأم، ولا أطمح لثمن... لم أكن أريد أن أقول أي شيء، لكنك أجبرتني على ذلك.

- تاتي....

- كان "أبو"ك أفضل جيغيت (5) ، ولولا الحرب اللعينة، لكُرِّم وأصبح رجلًا بارزًا وزينة وفخرًا للشعب. ولكن ما يمكن عمله؟! كل هذه الآمال تبددت وتلاشت كحلم، ومهما حدث، فقد بقيت أنت، وفيك وجدت سندي... عشنا مع أبيك سويا لمدة ثلاثة أشهر فقط، لكني أمضيت حياتي كلها وفية لذكراه. ورفعت كفيَّ حمدًا للخالق،

(3) أبا: صيغة تحبب للجدة.

(4) بيالا: كأس بدون يد تتسع من الأعلى، تستخدم بشكل أساسي لشرب الشاي.

(5) جيغيت: فارس

وسأشكره في الدنيا وفي الآخرة؛ لأنه وهبني زوجًا كريمًا كأبيك. فخرت بك، ودللتك، ولم أستطع التنفس إلى أن كبرت قويًا لا ينثني، بشخصية عزيزة كشخصية أبيك....

- تاتي، أعلم. شكرًا لك على كل شيء، ولكن لمَ ابتعدت هكذا؟ قولي أخيرًا ما الذي حدث؟

- عندما ذهب "أبو"ك إلى الجبهة، كنتَ لا تزال في رحمي، عندها قال لي: إن كان المولود صبيًا، امنحيه اسم توليأوجان، وإن كان ابنة اختاري لها الاسم بنفسك، وتنفيذًا لهذه الوصية سميتك توليأوجان، عندما أصابتك الحمى، كنت أمضي الليل والنهار أصلي لله أن يعافيك، حتى إنني ذهبت إلى الكثير من الم"زارا"ت التي تبعد مسيرة يوم عنا، وقضيت الليالي هناك وحيدة: فأنت وريثنا الوحيد، والمواصل الوحيد لسلالتنا، سمع الله صلواتي، وتعافيتَ من الحمى. ، وبدأت أحلم بحلم جديد: ألا يترك الخالق، وحيدي، وأن تكبر وتصبح إنسانًا صالحًا، الحمد لله، وتحقق حلمي هذا، بدون جهد خاص التحقت بالدراسة، ولم يبق إلا القليل على نهايتها....

- تاتي، قولي مباشرة، لماذا تدورين، هل فعلت أنا شيئًا ما أغضبك؟ في نهاية المطاف ما الذي يجري؟

- وهل أتوقع منك شيئًا من هذا القبيل، يا بني؟

- لا تقلقي تاتي، ما الذي حدث؟

- كيف يفهم عدم احترامك لذكرى والدك، كيف ذلك يا وُلدي؟

- تاتي!....

- لقد عشت مع حلم أن وحيدي سيكبر خلفًا، ويكمل حياة والده، وزوجي الذي مضى في سن العشرين، سيولُد ألف مرة في أحفاده، وأنا بعد الكثير من المعاناة، سأستمتع بالرائحة الطيبة بصحبة أحفادي، وعندها فقط سأنعم بالهدوء والنعيم....

- تاتي....

- انتظر يا بني! يبدو أن أحلام والدك، وآمال أمك، ذهبت أدراج الرياح!

عيناي غولايايم-شيشي الغائرة عميقًا لمعت فجأة، ونظرت إلى ابنها بقسوة.

- يتضح... يتضح أنك لم تعر لأي شيء أهمية، وتريد الزواج من هذه... ألا يكفي أنها من دين آخر، بل وهي بدينة أيضًا؟! صاحت بلهجة جليدية ، وهي تشير بأناملها صوب موناليزا.

- تاتي....

جلس توليأوجان، وغاب عنه الكلام.

- ووجهها مثل القنب، ما الذي يربطك بهذه المرأة؟! إنها تكبرك بخمس، أو حتى بعشر سنوات؟

استدار توليأوجان بكامل جسمه نحو اللوحة المعلقة على الحائط، قد يكون لأنه كان ينقل اللوحة معه إلى كل مكان، بقيت على وجه الفتاة بقع واضحة، تشبه القنب، أو لأنه لم يمسح الزجاج منذ وقت طويل، ترك الذباب أثره عليه، أجل، وكأن بطنها أصبح دائريًا- يا للعجب! وأمي كم هي شديدة الملاحظة! ولحيرته لعدم معرفته

إن كان عليه أن يبكي أو أن يضحك، توقف مع دهشته عند موناليزا، وكأنه يراها للمرة الأولى.

يا للعجب!

- حسنًا، ولكن لماذا هذه الصورة التي أثارت الكثير من الضجة في العالم، لم تؤثر بشكل طيب في أمي؟"....

تشتعل دواخله بصخب الخواطر: "أنا أنحني أمام اللوحة، في حين فشلت هي بكل سحرها في إثارة روح من شكلتني في أحشائها، وأودعتني نور الحياة، وكم عانت في تربيتي! "

حدَّثت غوليايم-شيشي من جديد ابنها بشيء ما، ماسحة دموعها المتدفقة... إلا أن توليأوجان لم يسمعها، وكأن أذنيه أصابهما الصمم، نهض بصعوبة، وأزال اللوحة من على الجدار، وأخرج صورة موناليزا بعناية من الإطار، وطواها من النصف مرتين.... ثم التفت إلى أمه قائلًا:

- تاتي، هل كل المشكلة في هذا؟ ومد إليها الورقة.

نظر بسعادة إلى وجه غوليايم -شيشي الشاحب المتجعد. بدا وكأنه ارتاح قليلًا.

- كنت أود قول الكثير، إلا أن حنجرتي جفت، أعطني شايك، يا بني!

قالت الأم برضى، وكأنها أنجزت أمرًا ضخمًا مهمًا، وبدأت بعد أن شاعت الفرحة في أعماقها بتفحص الغرفة، وخبأت اللوحة خفية، ولكن بشكل آمن، في جيب ثوبها البيج الملون الفضفاض.

- نعم!، تغمر ابتسامة عفوية داخله وهو يواصل: تلك هي أوروبا، وهذه هي آسيا، ليس كل شيء بهذه البساطة، ولكن....

وضم أمه من كتفيها بقوة:

- يا إلهي، ليكن كل سوء فهم معها كهذا!

كلنا نكبر شيئًا فشيئًا، حتى متدرب الصحيفة الإقليمية الشاب، ولكن المتغطرس.

تالاسبيك آسيمكولوف

(2014 - 1955)



- يُعرف في الوسط الأدبي والثقافي بوصفه موسيقيًا موهوبًا، وكاتب نثر ودراما ومترجمًا وباحثًا فنيًا.
- خرجت أولى قصصه القصيرة إلى النور عام 1985 بعنوان "ديدوليا" بجريدة "أتاي".
- ألف العديد من القصص، مثل: "الحصان العجوز"، "التحرر"، و"الظهيرة"، وقد عكست هذه القصص حياة المطربين الشعبيين والملحنين في الماضي.
- قام بكتابة العديد من السيناريوهات مثل: "مقتل قوقبالاك"، "بيرجان سال"، "الساحرة"، "ألماتي - أستانا"، و"الملكة توميريس".
- كتب العديد من المقالات الأدبية والثقافية التي جذبت اهتمام القراء ونُشرت باللغتين الكازاخية والروسية.

- في عام 2016، قامت دار نشر "الموسوعة الكازاخية" بإصدار مجموعة أعماله في خمسة مجلدات.
- وباعتباره ملحنًا، فقد أسهم إسهامًا كبيرًا في تطور الفن الوطني.
- في عام 1973 وعندما كان عمره 18 عامًا، قامت شركة "ميلوديا" بإصدار شريط أغاني بعنوان: "مقطوعات بايجيكيتا الموسيقية" ومن ضمنها "اللحن الأبدي" التي شملت أكثر من عشرين قطعة موسيقية، ومن المختارات التي ألفها: "ألف لحن كازاخي" التي اشتملت على أكثر من 40 مقطوعة موسيقية عام 2009.
- في عام 2010 صدرت في باريس أسطوانة ألحان موسيقية بعنوان: "تراث تاتيمبيت"، وفي عام 2015 صدر ألبوم بعنوان "الظهيرة" به أكثر من 73 مقطوعة موسيقية، وقام بتأدية هذه الألحان الكاتب نفسه ومعلمه جونوسباي ستامبايف.
- حصل على جائزة تقديرية من مؤسسة Soros Foundation .

الكيويشي العجوز (1)

تفحص طويلًا بطاقته العسكرية، كما لو كان يراها للمرة الأولى (2) .

– هل قدمت إلى هنا للإقامة فترة طويلة؟

– سأقيم هنا لمدة شهر تقريبا.

أجاب آجيغيريي.

استند المفوض إلى ظهر كرسيه وضحك، وقال:

هذه هي المرة الأولى في حياتي التي ألتقي فيها بشاب مثلك. منذ عشرين عامًا أخدم بوصفي مفوضًا عسكريا في بارشاتاس. عندما جئت إلى هنا كنت شابًا مثلك، برتبة ملازم. والآن أنا نقيب.

أشار بشكل عرضي إلى شريط الكتف.

– خلال هذه السنوات العشرين لأول مرة أرى شخصًا جاء لقضاء إجازة لمدة شهر، وهو احتياطي عادي، فيسجل نفسه في سجل الخدمة العسكرية. أنت منضبط جدًا، ربما كنت جنديًا جيدًا. شكرًا لك يا أخي، – فتح الدرج، وتناول ختمًا رباعي الزوايا، ومرره بخفة على لوحة الحبر، وضربه خاتمًا به الوثيقة.

– خذ. عد إلى المنزل، واسترح. قبل المغادرة ستقضي يومًا آخرًا. إذا لم أكن موجودًا، ستقوم السكرتيرة بإلغائك من السجل.

نظر آجيغيريي في ساعته وهو خارج، كان الوقت التاسعة والنصف، أي هناك ساعة ونصف ما زالت تفصله عن موعد الحافلة. توجه إلى وسط القرية، فقد طلبت زوجته منه شراء شيء ما. كان المتجر مفتوحًا. عندما

---

(1) كيوي: مقطوعة آلاتية في الموسيقى التقليدية الكازاخية. كيويشي –ملحن الكيوي، وأحيانًا مؤدي الكيوي من المستوى الرفيع.

(2) تبدأ القصة من أن الموسيقي الشاب جاء من العاصمة إلى القرية في إجازة، ووصل إلى مركز المحافظة للتسجيل في السجل المؤقت في مركز التجنيد.

تفاجأ المفوض العسكري واعتبر أجيغيريي جندياً مثالياً.

هذه القصة – هي تكملة لرواية السيرة الذاتية للكاتب والموسيقي تالاسبيك آسيمكولوف "الظهيرة" عن طفولته وتعلمه على يد الموسيقيين التقليديين. خُطِّط لمواصلة الرواية عن سن النضوج والعيش في المدينة. في هذه التكملة كان من المفترض أن يتم عرض لحياة التشرد شبه القانونية للموسيقي الشاب الذي لم يتمكن من تسجيل نفسه (التسجيل في المدينة وفقاً لمكان إقامته، لأنه لم يكن لديه مكان إقامة دائم)، وبالتالي، التسجيل في السجل العسكري. كان من شأن مثل هذه الحياة أن تجلب العقوبة، لذلك عندما جاء في إجازة إلى القرية، حيث لا يطلب أحدٌ تسجيل مكان الإقامة، سجل نفسه على الأقل بشكل مؤقت في سجل الخدمة العسكرية في المناطق الريفية، وذلك لكي يكون في البطاقة العسكرية تسجيل.

فتح الباب الثقيل والمغطى بطبقة سميكة من الطلاء الأخضر، كانت البائعة الضخمة ذات الوجه الأبيض تلوح بيدها لرجل يتوسل إليها لإعطائه شيئا ما. نظرت إليه باهتمام.

ماذا ستأخذ، يا كايني(3) ؟

نظر آجيغيريي إلى الرفوف.

هل يوجد لديكم فلفل؟

نعم.

وضعت البائعة على كفة الميزان عدة عبوات.

– اختر. يوجد أوكراني، يوجد أوزباكستاني.

"غارمدوري". قرأ على العبوة الرجل الذي كان واقفًا بجانبها، وسأل بتملق: "ما هذه الكلمة؟"

هذا يعني "الجرعة الحمراء(4) ".

أجاب آجيغيريي.

– هكذا يصف الأوزبك الفلفل. بعض الكازاخ يقولون ذلك أيضًا.

أوييبيراي(5) .

قالت البائعة.

كم سنة وأنا أتاجر، ولكن لم أتمكن من فهم هذه الكلمة. وأنت، يا كايني، أوضحتها في دقيقة واحدة.

بعد أن شعر بأن البائعة لانت قليلًا، قال الرجل بسرعة:

خانشاييم، أعطيني نصف لتر.

لن أعطيك.

عادت البائعة على الفور إلى صرامتها.

بعد أن أمسك بطني ساقيه بكفيه، قال الرجل متألمًا:

رأسي على وشك أن ينفجر.

بالنسبة لي، ليسقط كليًا.

قالت البائعة، وتحولت إلى آجيغيريي.

حسنًا، كم ستأخذ؟

---

(3) كايني: -الأخ الأصغر (أو قريب) الزوج. ووفقاً للعقيدة الكازاخية التقليدية التي يتم التعبير عنها في أسطورة الأنساب، فإن جميع الكازاخ هم أحفادٌ لسلف واحد. ولذلك، فإن المرأة المتزوجة تستخدم "كايني/ الأخ الأصغر للزوج" للتوجه إلى الرجل الأصغر منها، في حين يستخدم الرجل "جينغي، جينيشي/ زوجة الأخ الأكبر" للتوجه إلى المرأة الأكبر منه سناً، ولكن الأصغر من أمه، و"آغا/الأخ الأكبر" إلى الرجل الذين هو أكبر سناً منه، ولكن أصغر سناً من أبيه.

(4) بالكازاخية "ديري"، بالأوزبكية "ديري"–دواء، جرعة، مسحوق، بودرة.

(5) أوييراي، أوييرماي: هتاف تعجب للإعراب عن الدهشة، المفاجأة، البهجة، السخط وغيرها. ترجع أصولها إلى "أوه، يا معلمي". المعلم هو الدليل الروحي في الصوفية، وكذلك الراعي الخفي الخارق، القديس.

نظر آجيغيريي إلى الرجل الذي كان في مثل هذه الحالة منذ الصباح الباكر. متوسط القامة، نحيل، وجهه نحيف شاحب، مع بقايا شعر أشيب، عيناه كأنهما تلاشتا، بسترة زرقاء بالية، وسروال أسود قذر مع فتحتين على الركبتين، يداه ترتعشان. أثيرت في نفس آجيغيريي شفقة غير مفهومة.

جينيشي(6) ، هل لديك فرطٌ(7) ؟ سأدفع.

لماذا تحتاج إلى هذا، يا كايني؟

نظرت البائعة إلى آجيغيريي بخجل.

إيه، خانشياييم، الشاب يريد أن يقدم لي ضيافة، ما شأنك أنت؟

انتعش الرجل.

- عملك هو البيع.

هذا ليس مطعمًا لكي أسكب.

أخذت البائعة وزنًا من أوزان الميزان، وضحكت بغضب في وجه الرجل.

لو أضربك بهذا على رأسك، فإن هذا لا يعدّ أوبال(8) على الإطلاق.

حسنًا، إذن، أعطيني زجاجة من النبيذ الأحمر.

وضع آجيغيريي ثلاثة روبلات على المنضدة.

- على حسابي.

أوف، وصلت إلى مبتغاك.

قالت البائعة، وسارت برشاقة نحو الصندوق. أخذت زجاجة من الصندوق ووضعتها بشيء من العنف على المنضدة.

- هاك، اشرب أتاو كيري(9) .

شكرًا لك يا أخي.

قال الرجل، وبدا كما لو أنه يزن الزجاجة في كفه، وتوجه إلى النافذة. ساد صمت في المتجر. فتح الزجاجة، وسكب الخمر مع غرغرة. ثم صاح الرجل: "كها".

---

(6) جينيشي، جينغي: صيغة احترام للتوجه إلى زوجة الأخ الأكبر، وإلى المرأة التي هي أكبر سناً.

(7) كان بإمكان البائعة في الاتحاد السوفييتي أن تفتح زجاجة المشروب الكحولي وأن تبيعها مجزأة، على الرغم من أن هذا كان محظوراً. في معظم الأحيان كان يشرب على هذا النحو مدمنو الكحول الذين لم يكن لديهم ما يكفي من المال لشراء زجاجة كاملة. الحديث يدور عن النبيذ الأحمر القوى والرخيص الثمن الذي كثيراً ما كان ينتج من بقايا الصناعات الغذائية، مثل التفاح الفاسد وغيره.

(8) أوبال: هو مفهوم عرقي-ثقافي كازاخي، قريب من "الخطيئة" المسيحية، ولكن ليس تماماً. أوبال هو انتهاك لمعنى أو غرض، أو تدمير شيء ما أو كائن ما، على سبيل المثال: رمي الخبز غير المأكول، ومنع شخص من العيش بشكل كامل.

(9) أتاو كيري: المأدبة الأخيرة ما قبل الموت، وكذلك طقس ما قبل المعركة المميتة، حيث يقسم القادة والمحاربون على القتال حتى النهاية ويشربون من الكأس التي يمسكها الخان أو القائد العسكري.

شرب، جاريكتيك (10) .

قال آجيغيريي بصوت مسموع بالكاد.

أونباغان. (11)

قالت البائعة وهي تهز جسمها الثقيل كله من الضحك.

– لا يمكن تقويمه.

من النافذة مرة أخرى سمعت "كها".

يشرب بوتيرة عالية.

قال آجيغيريي الذي انفجر ضاحكًا.

درسنا مع هذا الوغد معًا في المدرسة.

قالت البائعة.

– كان جيغيتين تريسي (12) . والآن انظر إليه. منبوذ. تأتي زوجته كل يوم وتسألنا بالله ألا نبيعه الفودكا.

وهل بإمكانك مواجهة القدر؟ إذا كان مقدرًا عليك أن تفقد أبيروي (13) ، فسيحدث ذلك.

قامت بوزن مشتريات آجيغيريي وتعبئتها.

ستة روبلات واثنتان وخمسون كوبيك.

رمى آجيغيريي سبعة روبلات على المنضدة.

أين يعمل؟

لوحت البائعة بيدها، وقالت:

ولا في أي مكان. هذا هو عمله. في السابق كان مديرًا لدار الثقافة (14) . كان موسيقارًا وعازف دومبرا (15) .

عازف دومبرا تقولين؟ ما اسمه؟

سأل آجيغيريي باهتمام.

جومان.

---

(10) جاريكتيك –سطوع الضوء، وكذلك عالي التقدير، والذي لا ينسى –احترام المتوفى، هتاف تعجب أو تأسف، مفهوم يعبر عن عبادة قوى الطبيعة، والقوى ما فوق العادية.

(11) أونباغان: وغدٌ، لعينٌ، ميئوسٌ منه.

(12) جيغيت–شاب. جيغيتين تيريسي –نبيلٌ وسط الشباب.

(13) أبيروي: الشرف، الكرامة، المجد.

(14) دار الثقافة: في العهد السوفييتي نادٍ تقام فيه الحفلات واللقاءات، وتنظم الحلقات والوحدات.

(15) دومبرا: آلة موسيقية لها وتران، تشبه العود. في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين عرّضت السلطة السوفيتية الموسيقى الكازاخية التقليدية للملاحقة بوصفها غريبة طبقياً، وصولاً إلى إطلاق النار وسجن الموسيقيين. ومن بقي على قيد الحياة من الموسيقيين وجدوا أنفسهم مهمشين. على الهوامش. في الثلاثينيات تم إنشاء نسخة رسمية من الموسيقى الكازاخية مدعومة من الدولة كفولكلور. تدور أحداث القصة في أوائل الثمانينيات، عندما لم يتبق موسيقيون تقليديون.

وجم آجيغيريي قليلًا.

انتظري .... جومان؟ أي جومان؟ هو .... الذي .... يا رب رحماك!

مع بعض الخوف التفت إلى النافذة. اتضح أن الرجل الذي كان يحني رأسه، ينظر إليه برقّة. التقت نظراتهما.

أجل، يا عزيزي. أنا ذلك الجومان.

اقترب وهو يعرج على ساقه اليمنى.

– وأنت – آجيغيريي. عرفتك على الفور.

هل أنت بصحة جيدة؟

سأل آجيغيريي بحيرة.

نعم، أيها الصعلوك!

قال الرجل. وفجأة التهب وجهه، وامتلأت عيناه بالدموع.

– وهل الكيويشي يحيّون هكذا؟

اتكأ قليلًا إلى الخلف، وفتح ذراعيه.

– هل نحن غرباءٌ عن بعضنا عن بعض؟ سأكون قربانًا لك "أينالأين"(16).

عندما احتضن آجيغيريي ظهر كيويشي الضعيف مع فقراته البارزة؛ لان كل داخله من الرقة والحنان. ثم جفل، كما لو أصيب بنوبة مفاجئة من البرد.

لا تحزن، يا عزيزي.

قال جومان مربتًا على كتفه.

– هذا ما حدث. لقد قابلت أخاك الأكبر، وهو يمر بظروف سيئة.

دونيي–أي(17).

قالت البائعة.

تعال معي.

قال جومان.

– على الأقل سنتحدث. متى سأراك ثانية؟

عندما غادرا المحل، كانت الشمس قد ارتفعت فوق الأفق بطول رمح(18).

"لن أفاجأ هكذا أكثر." فكر آجيغيريي، وهو يمشي في الحارات المتعرجة مع جومان.

---

(16) أينالأين: حرفياً "سأدور حولك" (طقس ما قبل الإسلام)، أي "سأكون قرباناً لك"، صيغة تحبب لمخاطبة من هو أصغر سناً.

(17) دونيي–أي: "اوه، دنيا" – للتعبير عن الدهشة والأسف وما إلى ذلك.

(18) مقياس قديم للوقت، أي الشمس ارتفعت بما يقرب من 6–5 أمتار فوق الأفق.

عذرًا، كارغام![19] قال جومان وهو ينظر إليه مع الدعاء.

– أنا رجل قميء، لا أستطيع حتى أن أدعوك إلى المنزل. لا أريدك أن ترى خزيي. لا تغضب، يا عزيزي.

– لا ينبغي عليك أن تقلل من شأنك، أخي الأكبر.

قال آجيغيريي.

– أنا أفهم كل شيء.

– هذه هي دار الثقافة.

قال جومان عندما اقتربا من مبنى كبير يعلوه سقف أزرق.

– سنجلس هنا.

سارا على طول الممر. فتح جومان الباب الجانبي. في وسط الغرفة الواسعة كانت الآلات الموسيقية مكدسة في كومة. أخذ آجيغيريي إحدى آلات الدومبرا وبدأ يتفحصها.

– هذه أوركسترا المنطقة.

أوضح جومان واضعًا كرسيين متقابلين.

– في هذه القرية هناك شخصان فقط لا ينظران إليّ بازدراء: تينيشتيك قائد الأوركسترا، وخانشاييم التي تعرفها.

أخذ آجيغيريي بيده دومبرا أخرى.

– هي لا تنفع لشيء.

قال جومان.

– اتركها. هنا توجد الدومبرا التي انتقيتها.

فتح خزانة في الزاوية بمفتاح، وأخذ منها دومبرا ملفوفة في قماش وناولها لآجيغيريي،

– هاك، هذه أفضل.

كان من الواضح أن الأداة، على الرغم من أنها إنتاج المصنع، أُعتُني بها جيدًا، وتبدو في حالة ممتازة. كانت مطلية بطبقة رقيقة من الطلاء، وكانت مفاتيحها الطويلة والضخمة مصنوعة من الخشب الصلب. لمس آجيغيريي أوتارها بهدوء. اتضح أن الدومبرا تم ضبطها ألكونير[20] . أمسك بالوترين بكامل قبضته، وانزلق على طولهما، وسحبهما جانبًا حتى صرّا، ثم تركهما. وعاود لمسهما مرة أخرى. لم يتغير الدوزان.

لا تنزعج.

---

(19) كارغام: صيغة تحبب لمخاطبة من هو أصغر سناً.

(20) ألكونير: الاسم التقليدي لدوزان الدمبرا لـ يا ري. وبالمعنى الحرفي اللون البني الأحمر. يرمز اللون الأحمر إلى الدم والحياة، وهو لون الراية العسكرية القديمة. ومفهوم "البني" هو فلسفة كاملة في الثقافة الكازاخية، وفي الموسيقى هو الصوت التقليدي المثالي؛ صوت عميق غني بالنغمات. وهذه واحدة من المقطوعات التي تتحدث عنها القصة، يؤديها المؤلف: https://www.youtube.com/watch?v=am5kX-yosKOg

قال جومان الذي كان يراقب كل تحركاته.

– ألكونير، أو وفقا لكم دوزان لا ري(21) .

لدى آبيكين(22) الدوزان أعلى من لا ري.

قال آجيغيريي.

لم يعزف آبيكين على أوتار رقيقة من أمعاء الماعز، وإنما على أوتار ثخينة من أمعاء الخراف، لذلك كان يضبط الدومبرا أعلى ألكونير بقليل. بصراحة، أنا سعيد بك. فقط لدى كبار أساتذة الأساتذة رأيت هذه الطريقة في هز الأوتار، وإمساكها في القبضة.

قال جومان.

– هكذا يتحققون مما إذا كانت جاهزة.

قام آجيغيريي مرة أخرى بالنقر على الأوتار.

– لا تزال الأوتار مشدودة.

نعم، يا عزيزي.

قال جومان وهو يتنفس ملء صدره.

–كان حلمي أن أسمع أداءك. يبدو اليوم أن هذا الحلم سيتحقق. اعزف!

نظرًا لعجز آجيغيريي عن انتقاء مقطوعة بسرعة؛ غرق في التفكير. أي مقطوعة بإمكاني أن أؤديها أمام مثل هذا الكيويشي؟ بشكل يصعب ملاحظته، رفع دوزان الدومبرا قليلًا. في الجزء السفلي من عنقها أزال دوستان(23) كاشاغان(24) والدوستان الوحيد. ودفع بالدوستان الناعم إلى يلي(25) .

برافو!

قال جومان السعيد.

– أنت لم تلمس الأوتار، وبدا لي أني أصبحت أسمع معزوفة.

"حسنًا، يا رب!" قال آجيغيريي في نفسه بقلق. وغمس أصابعه في لوحة مفاتيح الدومبرا. (26)

---

(21) "وفقا لكم": هنا يبين جومان الاختلاف بين الموسيقى التقليدية والموسيقى "الشعبية" شبه الرسمية، والمصطلحات التقليدية والمصطلحات ذات الأصل الأوروبي التي يتم تدريسها في نظام التعليم العام.

(22) آبيكين حاسينوف (1897-1958) – كيويشي وممثل نجا من المجاعة والقمع، وكان أول من بدأ في أواخر الأربعينيات بأداء الموسيقى التقليدية لكازاخستان وشيربتبي–كيوي على المسرح الرسمي.

(23) في الدومبرا التقليدية كانت دوستانات متحركة، واتسمت الموسيقى بتعدد النغمات؛ الأمر الذي دُمّر في ثلاثينيات القرن العشرين في النموذج الرسمي للموسيقى. فعلياً كان لكل مفتاح نظامه الخاص لتعدد النغمات. كاشغان بيرني، جيتيم بيرني، إيميريلي بيرني هي أسماء تقليدية للمقامات على رقبة الدومبرا.

(24) كاشاغان: "الحصان الهارب طوال الوقت"؛ الاسم التقليدي للمقام الرباعي الدرجات على رقبة الدومبرا.

(25) يلي: عرض الإصبع (قياس يساوي عرض إصبع واحد).

(26) تالاسبيك آسيمكولوف: كيويشي لامع، وصف في مؤلفاته ونصوصه الفنية تقنية أداء كل مقطوعة بشكل مميز.

جومان، الذي كان مكفهرًا، تجمد، لم يُزح عينيه المليئتين بالدموع عن الدومبرا، كما لو كان يستمع إلى المعزوفة، ليس فقط بأذنيه، وإنما بعينيه وجسمه؛ بكل كيانه. انتهت المعزوفة.

لا توجد كلمات.

قال جومان بصوت أجش.

– اتضح أنه يمكن أن تشرب المعاناة كالماء. شكرًا، يا عزيزي. أشعر وكأن أجنحة قد نمت لدي.

نهض وسار في الغرفة ذهابًا وإيابًا. جلس مرة أخرى. تحول وجهه المستنير إلى آجيغيريي.

"كوسباسار(27) البكاء المؤلم". المقطوعة التي أداها تاتيمبيت معزيًا كوشيكباي الذي فقد ابنه الوحيد.

أكثر .... اعزف أكثر.

قام بعزف الواحدة تلو الأخرى، بدون انقطاع، و"الكوسباسارات المرتبكة" الثلاث.... نادرًا جدًا ما صادف مثل هذه الآلة المعبرة المريحة .... بعد مرور بعض الوقت، تآلفت الأوتار والأصابع معًا، كما لو كانت قد انصهرت؛ كما لو أن الصوت لم يكن يتدفق من الأوتار، وإنما من أطراف الأصابع.

كان على وشك أن ينتهي من عزف "الكوسباسار القرمزية(28) ". لكنه لم يجرؤ على ذلك. وبدلًا من ذلك، بدأ بعزف "الماشي من القلب". نهض جومان، سار إلى النافذة، جلس وظهره إلى آجيغيريي. انتهت المعزوفة، لكن جومان، بدون أن يتحرك، واصل النظر إلى النافذة. أخيرا مسح حنجرته. بدا صوته باهتًا بعض الشيء.

اعزف "الكوسباسار القرمزية".

قام آجيغيريي بتصويب الدوستانات التي ضَعفت وتحركت من أماكنها قليلًا، وشدَّها بإحكام. وقام بأداء المقطوعة التي طلبها جومان، مستثمرًا فيها كل فنه، بدون أن يفقد ولا حتى طيفًا واحدًا.

في الغرفة ساد صمت يذيب كل شيء. كان الشخصان اللذان التقيا للتو مصادفة صامتين، كما لو كان كل منهما يعرف الآخر ويفهمه طوال حياتهما، بدون كلام، وانتهيا للتو .... لا.... لا، إنهما في هذا الحديث المتواصل.

في وقت لاحق ودَّع جومان آجيغيريي حتى الحافلة، وعانقه بقوة.

لقد أخطأتُ. لا، لقد كفرت.

قال في الهواء.

– اتضح أن الكيوي موجودة. لم تمت بعد.... لست أنا من يعظ. ومع ذلك سأقول. آجيغيريي، يا عزيزي، لا تحِد عن طريقك. لا تنفصل عن الدومبرا.

---

(27) كوسباسار: مجموعة من 62 معزوفة فلسفية عن الحياة والموت لكيويشي القرن التاسع عشر تاتيمبيت. تنقسم المجموعة إلى مجموعات فرعية جرى أداؤها الواحدة تلو الأخرى. وفقاً للأسطورة، أدى تاتيمبيت هذه المعزوفات ليعزي الأب الذي فقد ابنه الوحيد والذي حاول قتل نفسه.

(28) مغزى تسمية المعزوفة "الكوسباسار القرمزية" فسره تاتيمبيت: "تزهر زهرة السهوب هذه ليومين أو ثلاثة أيام فقط. الحياة قصيرة لدرجة أنه ينبغي عدم محاولة اختصارها أكثر من ذلك".

خجل آجيغيريي، ولم يجرؤ على الإجابة. فالشخص الذي جعدته الحياة يمكن أن يكون شديد الحساسية، وموسوسًا.

لم أكن أعتقد أنني سألتقي بك في مثل هذه الظروف.

قال في النهاية.

لا تتعذب يا عزيزي.

قال جومان.

- أنا أفهم ما تريد قوله.

أشعل سيجارة. وصمت غارقًا في التفكير.

رجاء آخر.

قال بعد توقف.

- ليس من أجلي، بل من أجلك. حتى ليس من أجلك، ولكن من أجل كيويانا المشتركة. في الطريق إلى البيت ليتك تتوقف في ساريكاميس. في هذه القرية يعيش الكيويشي آتيغاي. سمعت أنه لا يزال على قيد الحياة. عازف دومبرا استثنائي. تعرف عليه. احفظ ما يعرفه، ولا تغضب لأنني لم أعزف لك.

قال وهو يمد يده.

- لا أجرؤ على لمس الدومبرا الآن. في وقت لاحق، إذا كان مقدرًا لي، وإذا جاءني أفضل الأيام، إذا التقينا .... فسوف أريك فنّي.

نبه السائق للاستعداد للانطلاق.

حظًا سعيدًا، يا عزيزي!

قال جومان.

أنت أيضًا، أتمنى لك الصحة الجيدة والهناء.

قال آجيغيريي.

- سنلتقي في أوقات طيبة.

عندما وصلت الحافلة إلى نهاية الشارع، نظر إلى الخلف. كان جومان يبدو كشبح باهت بكتفيه المتدليتين. ارتجف قلب آجيغيريي، ولم يعد ينظر إلى الوراء أكثر.

كانت الحافلة على وشك الوصول إلى ساريكاميس. كانت الرياح الساخنة تهب بقوة، لتغطي كسحابة سوداء السماء، وبدأ مطر خفيف بالهطول.

أخيرًا، هانت.

قالت امرأة مسنة كانت تتعذب طوال الوقت من الكتمة. مسحت العرق عن وجهها، ورفعت إلى حلقها ثوبها الأخضر.

– عجيب، وهل حقًا يمكن أن يكون الخريف حارًا إلى هذه الدرجة؟ الحرارة أكثر شدة من يوليو.

في الإذاعة قالوا إن الحرارة ستكون 38 درجة،

ردد شاب.

بدأ النهار بالتدهور.

قال الرجل العجوز الذي كان يجلس إلى جانب آجيغيريي.

– في السابق كان كل شيء يجري في أوانه. كان مثل هذا الموسم يسمى "الصيف بدون ذباب". الخريف نعمة تمنح الروح البهجة. استمر حتى الصقيع الأول في نوفمبر.

عندما توقفت الحافلة في ميدان دائري وسط القرية، وتوجه الناس إلى المخرج؛ هطلت أمطار غزيرة. حل الظلام على الفور. سرعان ما غادرت الحافلة.

آجيغيريي، الذي بقي وحيدًا لم يستطع تحمل ضغط الأمطار التي كانت تنفذ من خلال الثقوب المعدنية. انحنى واضعًا رأسه بين كتفيه، ونظر حوله. في ومضات البرق لم تكن منازل القرية الصغيرة مرئية، والماء الطيني يغلي ويرغو في كل مكان. وميض آخر من البرق ينير المنزل القريب. مهما يكن، قرر آجيغيريي اللجوء إليه. ولكن حين اقترب من مدخل المنزل، فوجيء بعلامة قصدير مربعة كتب عليها "مقصف"، وكان الباب مغلقًا بقفل.

سمع شخصًا يناديه. عندما شبع العالم من الضوء الأخضر للبرق، رأى تحت مظلة المنزل المتداعي رجلًا في منتصف العمر يلوح بيده له؛ فهرع إليه وهو يتصبب عرقًا ويتعثر.

ادخل يا بُنيّ.

قال الرجل لآجيغيريي، وسمح له بالدخول.

– حسنًا، حسنًا، لقد ابتللتَ حتى الجلد! يقال إن من يبتعد عن منزله لخطوة، هو مسافر يحتاج إلى المساعدة. لننتظر المطر معًا، لنتحدث. على الأرجح سيخبو قريبًا.

في عمق الحظيرة الصغيرة كان هناك شاب يجلس القرفصاء ويدخن. نفض الرماد وقال لآجيغيريي مبتسمًا:

عبثًا طرقت باب المقصف. هذا الباب لم يفتح بعد الحرب العالمية الثانية.

من أين أنت قادم(29) يا بُنيّ؟

سأل رجل في متوسط العمر.

سافرت من بارشاتاس لأضع نفسي في سجل الخدمة العسكرية، والآن أنا عائدٌ إلى آيغيز.

أجاب آجيغيريي.

التصق القميص الرطب بجسده؛ فبدأ يعاني من البرد.

ولماذا نزلت هنا؟

لدي أمر في ساريكاميس. بالمناسبة، أنت من هذه القرية؛ في أي جانب منزل أساكاكال(30) آتيغاي؟

آتيغاي، تقول؟

فكّر الرجل خافضًا عينيه.

- حسنًا، أنا لا أعرف. أنا أعيش في مزرعة. لكن هذا قادير جان من ساريكاميس نفسها. يجب أن يعرف.

ماذا يعمل هذا الرجل العجوز؟

أطفأ الشاب عقب السيجارة ونهض.

لا أعلم.

إذا كان الأمر كذلك، فأنا لا أعلم أيضًا.

ابتسم الشاب.

أنا أعرف شخصًا اسمه آتيغاي. لقد كبر، لكنه ليس عجوزًا. ميكانيكي هذه القرية.

هل يعزف على الدومبرا؟

سأل آجيغيريي، وشعر على الفور بعدم أهمية سؤاله.

سأذهب وأطلب البشارة من زوج أختي. تعيس، يعضه الكلب حتى لو كان راكبًا على الجمل! وهنا شخص ما يبحث عنه

انفجر قادير جان ضاحكًا، وهو يسحب من العلبة سيجارة أخرى.

أخي، إن كنت تبحث عن هذا الآتيغاي؛ فأنت ضللت الطريق. أنا أسخر منه لأنه هو زوج أختي. لكنه لم يحمل دومبرا في يديه قط. أنا أقول الحقيقة.

ربما لديه الاسم نفسه؟ قال الرجل.

لا أعرف

قال قادير جان.

- أنا أعرف آتيغاي واحدًا.

---

(29) "من أين أنت قادمٌ؟" - من غير المرغوب فيه لدى الكازاخ السؤال "إلى أين أنت ذاهبٌ؟"، إذ يعتقد أن من شأن ذلك أن يخفق توفيق المسافر.

(30) أساكاكال: حرفياً "صاحب اللحية البيضاء"، شيخ، الرجل الوقور في سن الكبر.

بدأت غزارة المطر تخفت. من بين ثغرات السحب المتخلفة، لاحت الشمس، وتراجع الضباب الرمادي، وعاد العالم يشرق من جديد.

من زاوية الحظيرة ظهرت امرأة عجوز مع بقرة بحبل.

هذه العمة باتيكان.

قال قاديرجان.

- إذا كان هناك شخص يعرف؛ فإنه هي.

مرحبًا، أيتها الجدة.

قال آجيغيريي.

ماذا تريد يا عزيزي؟

سألت المرأة العجوز وهي تنظر في حيرة إليه.

- لم أعرف، ابن من أنت؟

أنت لا تعرفينه. جاء من آيغيز.

قال قاديرجان بصوت عال.

- لقد سلّم عليكِ.

أوه، جاء من آيغيز ليسلم عليّ؟

قالت الجدة.

- ليكثر الله ذريتك يا بُنَيّ.

كل سكان هذه القرية يحبون المزح.

قال الرجل.

يا عمة، جاء هذا الرجل باحثًا عن رجل يدعى آتيغاي.

صاح قاديرجان.

يقول إن هذا الرجل العجوز هو عازف دومبرا. هل تعرفينه؟

آتيغاي المسعور؟

وضعت الجدة أذنها عند قاديرجان. ماذا، ماذا؟ اشرح بشكل جيد. هل يقول إن كل المجانين جمعوهم في آيغيز؟ ماذا سيفعلون بهم؟

لم يستطع قاديرجان ضبط نفسه من الضحك على نكتة المرأة العجوز السامة.

يبدو أنهم أقران.

قال الرجل.

- الأقران فقط يمكنهم أن يمازح بعضهم بعض بشكل شرير.

من لا يعرف لعنة السماء هذه.

قالت الجدة.

لقد جئت في يوم طيب يا بنيّ. أطلب منك أن تأخذ مع آتيغاي كل المجانين من هنا. ولهذا سيحقق الله كل أمانيك.

أين يمكنني أن أجده؟

سأل آجيغيريي.

أخيرًا أجابت الجدة بشكل جدي.

كنت أمزح يا بنيّ. لا ترتبك. جدك آتيغاي يعيش بعيدًا عن القرية، في بيت والده القديم. اسلك هذه الطريق، بانحراف (وأشارت إلى الغرب)، وتمشَّ لمسافة كيلومتر واحد تقريبًا، فتصل إلى منزل آتيغاي. رافقتك السلامة، يا بنيّ. أبلغه تحياتي.

منزل من الطوب، مترامي الأطراف، مع سقف مسطح. حوله الكثير من المباني الملحقة وحظائر الماشية. لا يوجد سياج؛ فضاء مفتوح. موقد محفور أمام الباب، مملوء إلى حوافه بالماء.

قبل أن يدخل المنزل، نظر آجيغيريي مرة أخرى إلى السهوب. الجو لا يزال ملبدًا بالغيوم. السهوب الشاسعة تحت السماء تتنفس الرطوبة. "من المحتمل أن المطر سيهطل من جديد". فكّر.

بعد أن دخل وأغلق الباب خلفه، وقف آجيغيريي في الممر لفترة، حتى اعتادت عيناه الظلام، ثم ذهب بمحاذاة الجدار. بدأ يسمع حديثًا صاخبًا. تلمست يده مقبض الباب. نقر مرتين، لينفرج الباب الثقيل بصعوبة.

في الغرفة شبه المعتمة كان هناك اثنان. في الصدر في عمق الغرفة، وفوق سجادة سميكة من الفراء جلس رجل عجوز أحمر الشعر ذو بنية قوية مثل هذا الباب. سكبت الشاي امرأة عجوز كان ظهرها باتجاه آجيغيريي، ونظرت هي والرجل العجوز إلى الضيف بدهشة.

السلام عليكم!

قال آجيغيريي.

عليك السلام، يا بنيّ. تعال واجلس على السجادة.

قال الرجل العجوز.

انسحب آجيغيريي من مكانه، وانحنى أمام الرجل العجوز، ومد كلتا يديه للمصافحة(31) .

هل أنت في صحة جيدة، يا جدي؟ كيف تشعر؟

سأل، ثم تحول إلى المرأة العجوز المنحنية:

- هل أنت بصحة جيدة يا جدتي؟

(31) الرجل العجوز جالس على السجادة على الأرض، لذا يحييه آجيغيريي راكعاً على ركبتيه. ومصافحة الاحترام لدى الكازاخ بكلتا اليدين.

قال الرجل العجوز بارتياح، وهو يمسد لحيته:

حسنًا! أيتها العجوز اغلي شايا مرة أخرى. يبدو أن ضيفنا يشعر بالبرد.

ارتشف الشاي من كأس كانت أمامه.

– من أين أنت قادمٌ يا بنيّ؟ أخبرنا عن نفسك.

امتد وقت شرب الشاي. الرجل العجوز طوال الوقت كان يدفع نحو آجيغيريي بطبق صغير مع كويرداك (32) ، وزبدة على صفيحة وكورت (33) وباورساك (34) موضوعة على مفرش المائدة، مبتهجًا في سذاجة بشهية الضيف. شرب هو الشاي، وأعاد إلى زوجته كوبه الفارغ.

عندما شبع آجيغيريي، مسح وجهه، وجلس بعيدًا عن الطاولة. كان صاحب البيت قد أفرغ بضعة أكواب أخرى على التوالي، وكأن شيئًا لم يكن، ثم أخذ من جيب السترة البنية الفاخرة الضخمة مثل بطانية منديلًا ومسح ببطء العرق من على جبهته (35) .

حسنًا، يا بني، من المؤكد أنك لم تأتِ فقط لزيارة آتيغاي الذي يسكن بعيدًا عن الجميع. ما هو طلبك؟

صمت آجيغيريي وهو ينظر إلى الرجل العجوز الذي كان ينتظر الرد بهدوء. ثم، بعد أن قرر عدم المشي في دوائر، قال:

جدي، سمعت أنك عازف دومبرا. جئت لأتعلم منك.

من قال لك ذلك؟

رجل يدعى جومان.

ارتعش حاجبا الرجل العجوز. وفي اللحظة التالية نظر إلى آجيغيريي بشيء من السخرية.

إيه، يا عزيزي. منذ زمن طويل افترقت عن الدومبرا. جومان قال الحقيقة. في السابق كنت أقرص الأوتار. جبت السهوب كلها، عزفت أمام الناس. لكن هذا كان في السابق. والآن .... قواي ليست هي نفسها. أقول لك، أنا لم أحمل الدومبرا في يدي منذ عشرين سنة.

هل تشعر بالأسف لمشاركة فنك مع الطفل؟

قالت الجدة التي كانت قبل ذلك تصب الشاي بصمت.

– جاء إليك بطلب.

إيه، أيتها العجوز!

قال الرجل العجوز وهو يتحرك.

---

(32) كويرداك –أكلة شعبية من المعلاق الطازج المقلي بالسمن: رئات، كبد، قلوب، كلاوي. تعدُّ عادة للضيوف أو عند ذبح الماشية.

(33) كورت: جبن مجفف.

(34) باورساك: قطع من العجين مقلية بالسمن.

(35) مسح الوجه بكلتا اليدين، كما يفعل المسلمون بعد الصلاة، هو علامة على أن الشخص قد فرغ من الأكل.

- إن استعادة اليد الدومبرا مرة أخرى هو نفس استحضار أرواح الأسلاف الموتى. إحدى قدميَّ في القبر، والكلاب أكلت عظامي، وعقب وليمتي عادوا إلى منازلهم، ومع كل ذلك تريدين أن أقوم بتسلية الجمهور؟ من كلمات الرجل العجوز شعر آجيغيريي بالغثيان، كما لو كان قد شرب دهونًا. نظر من النافذة. حل الظلام. أدار عينيه إلى الرجل العجوز الذي اتضح أنه كان يمسد شاربه، وينظر إلى الضيف بتأملٍ. خفض آجيغيريي رأسه.

لا أعرف.

قال وهو يلهث.

لا أعرف. الكازاخ سهوب لا حدود لها، ميتة، منطفئة. أجري وأجري، هل سأبلغ الهدف؟ لا أعرف. نهاية الطريق وحافته غير مرئيتين. خلقني الله وملأ صدري بالكيوي، وبالتالي، على الأرجح، لا يتركني الأمل. هذا الأمل يقود إلى الأمام. كنت أؤمن بأخي الكبير المحب للكيوي وجئت إليك. تحدث عن الحور الرجراج مع أوراقه المرفرفة في الريح. في حين وجدت جدعة جافة، تصلح فقط للحطب. الكيوي غادرت الكازاخ. تبين أنني أحمق. الكيوي موجودة فقط في ذهني.

نظر من النافذة مرة أخرى. كان الظلام دامسًا.

كفي.

قال وهو ينهض ويتوجه إلى الباب.

- كل شيء يبدو بدون جدوى؛ عليَّ أن أعود إلى المنزل.

انتظر يا بنيّ.

قال الرجل العجوز عندما كان آجيغيريي قد أمسك بقبضة الباب بالفعل.

- انتظر.

استدار آجيغيريي. مع صرير عظامه. نهض آتيغاي من مقعده، وخطا نحوه متثاقلًا.

انتظر يا بنيّ.

قال وهو يمسك آجيغيريي من معصمه.

- اجلس، لنتحدث.

جلس آجيغيريي.

أوه، يا إلهي، كيف تحدثت إليك بهذا الشكل اللاذع.

قال آتيغاي وهو يجلس.

- حسنًا من أجلك، من أجل كلماتك، سأحاول مرة أخرى، كما كان الحال في الطفولة، أن أنطلق على مهر غير مسرَّج.

التفت إلى المرأة العجوز.

صالحة، أين هي دومبراي؟ أحضريها. أشعلي الضوء؛ المنزل أصبح مظلمًا.

سرعان ما غمر الضوء الغرفة. حل آتيغاي الدومبرا الملفوفة في قطعة قماش وفحصها بعناية. لا أوتار. على العنق ثمانية دوستانات.

زيدي الضوء.

من الزاوية سحب صاحب البيت شيئًا بحجم كتلة من الخشب. تبين أنه كان حجر شحذ.

سافرت من أجله خصيصًا إلى ضفة باكاناس. (36)

تجرأ آتيغاي، وفتح شفرة سكين قابلة للطي.

– حجر شحذٍ لين حقيقي. ببساطة شفرة السكين تذوب عليه.

شحذ السكين لفترة طويلة، مرطبًا الحجر بالماء من إبريق الشاي. ومن وقت لآخر جرب النصل من خلال قطع جزء من الورق.

إنه جاهز.

قال وهو يقرّب النصل من المصباح.

– تعال هنا يا بنيّ، الآن تحتاج إلى تنظيف العنق تحت الدستانات.

طلب وضع قطعة قماش بيضاء على الطاولة. وضع الدومبرا عليها.

يا بنيّ، أصابعي لا تملك مهارتها السابقة. اشحذ جميع الدستانات.

عند إزالته الدستانات من العنق، ذُهل آجيغيريي من براعة الخبير الذي صنع الآلة، فبعد أن أزال الصمغ من الخشب، لم يتبق أي أثر للصمغ بين جسم الدومبرا ولوحها العلوي. تمعّن آجيغيريي. نعم، قُطع اللوح العلوي من قطعة الخشب نفسها التي أزيلت عنها الجوانب.

يا جدي، لا توجد وصلة هنا.

قال وهو عاجز عن تمالك نفسه.

نعم، عادة ما يتم تجويف الجسم بقطعة من الخشب، ومن ثم يتم لصق اللوح العلوي به.

قال الرجل العجوز الذي كان يتابع آجيغيريي بسرور.

–إن جسم دومبراي منحوت ليس من الأمام، بل من الخلف، ولُصق الغطاء على الجسم من الخلف.

فوجئ آجيغيريي بالفكرة الرائعة للخبير الذي اخترع الطريقة الفُضلى لنقل اهتزاز الأوتار عبر اللوح العلوي إلى الجسم بأكمله. (37)

انتهيت.

---

(36) على ضفاف نهر السهوب باكاناس هناك مكامن لحجر الشحذ الطبيعي الذي يصبح سطحه ناعماً عندما يبلل.

(37) في السابق كان يُقطع جسم الدومبرا من قطعة واحدة من الخشب، ويتم إلصاق اللوح الأمامي على الجسم. وفي هذه الحالة اللوح الأمامي والجدران الجانبية تشكل جسماً واحداً، في حين يُلصق اللوح الخلفي.

قال آجيغيريي، وهو يعيد الدومبرا.

مسَّد أتيغاي عنق الدومبرا، وأزال مواضع الخشونة بالسكين. بعد ذلك نظر بمكرٍ إلى آجيغيريي، وقال:

انظر هنا. هل سبق لك أن رأيت مثل هذا من قبل؟

بدأ يصب الماء البارد من غلاية صفراء كبيرة في الحفرة على لوح الدومبرا، وسرعان ما بدأت المياه تسيل من الثقوب.

ماذا تفعل؟

سأل آجيغيريي المذهول.

- ألا يتمدد الغراء؟

يا صغيري، ما زلت لا تعرف الكثير.

قال الرجل العجوز بتباهٍ.

- لن يحدث شيء. سأشرح. هذا الغراء ليس المعتاد الذي يباع الآن في المتجر، وإنما الصمغ الكازاخي المصنوع بالطريقة القديمة، الذي يمسك بشكل أبدي. حتى لو غليت هذه الدومبرا في مرجل، فإن الوصلات لن تنفصل. هذا أولًا. وقد قمت بصب الماء لأن الدومبرا تصدعت. أنت لم تلاحظ شيئًا واحدًا. في المستقبل حاول أن تتذكره. الدومبرا الحقيقية، حتى بدون أوتار، يتردد صداها، تنبعث منها همهمة حزينة. حتى أنت لم تحاول مؤخرًا أن تنقر على الجسم. هذا هو خطؤك. الدومبرا لا تدندن، وإنما تغرد. أنت لم تلحظ هذا. الشجرة، وخاصة المتشربة بالصمغ المصفي، لن تمتص الماء الزائد أبدا. تشرب فقط بقدر ما تحتاج. هذا هو درسك الأول.

وكم ستبقى مع الماء في داخلها؟

سأل آجيغيريي.

ستبقى بقدر المستطاع.

قال آتيغاي.

- الآن يجب العثور على أوتار لها.

ألا تصلح هذه؟

أخرج آجيغيريي من جيبه حزمة من خيوط الصيد النايلون وناوله إياها.

فحص آتيغاي الوتر بعناية، لفه على قبضته حول السرير، وجرب أن يشده. وقع نظره على صورة السمكة على العلبة.

هذا خيط لصيد السمك، من المتجر.

أعاد الحزمة إلى آجيغيريي.

- يمكنك أن ترميه في النار. لا يصلح لشيء.

نظر إلى زوجته.

صالحة، ألم يبق شيء من الأوتار التي كنت تلفينها على المغزل؟

مسح الوتر الذي وجدته زوجته، وأعطاه لآجيغيريي.

هكذا تبدو الأوتار الحقيقية يا بنيّ. هذا الوتر من أمعاء ماعز عاقر تبلغ من العمر ست سنوات. فصيح. يتحدث بلغة البشر.

يبدو أن كل شيء جاهز الآن.

قال آجيغيريي، وهو يقيس على طول الدومبرا الوتر الذي ناوله إياه الرجل العجوز.

– متى يبدأ الدرس؟

لم يجب أتيغاي. فقط عندما وضع على الطاولة طبقًا ممتلئًا باللحم، وقام ببطء بتقطيعه بسكينه القابلة للطي، قال:

لقد استمعت لك. الآن أنت استمع لي. غدًا تعود إلى قريتك. وخلال أسبوعين تقريبًا سأكون مستعدًا. عندها تعال.

طوال الليل لم يهدأ مطر الخريف الغزير. كان الرجل العجوز يتقلب ويتنهد طوال الليل.

×××

كان النهار مكفهرًا، لكن الجو في البستان خانق وحار. خطا ببطء على غطاء طري من فضلات الطيور والأوراق الجافة والفروع المكسورة، وذهب إلى المرج. في الشرق تتحول جبال ساغا بشكل حزين إلى اللون الأزرق، وتنفتح الروح للنفس البارد القادم من القمم البعيدة ليداعب المناطق المحيطة. من جهة، فضاء جبلي يتحول إلى سهوب لا نهاية لها، ومن جهة أخرى غابة كثيفة، تنمو فيها أشجار البتولا، والحور الرجراج، والزعرور، والزيزفون الأسود، والعسلة. في الوسط الوادي الواسع لنهر آيغيز.

النفل الأحمر الذي تبدو زهرته كطفل برأس أشعث على رقبة رفيعة، والعشب الأزرق ذو اللون اللاذع، وميشاتنيك (38) الذي يسمى أيضًا بازلاء كاليك، وآلاف الأعشاب الأخرى التي لم يكن آجيغيريي يعرفها، تتمايل بلطف مع رياح الخريف الشفافة.

اقترب من نبتة الزعرور البري الوحيدة التي كان رأسها مرئيًا بين العشب الطويل. من الطفولة يتذكر هذه النبتة بحباتها ذات المذاق الحلو الخاص. قطف واحدة منها، وعضها بأسنانه. الطعم لا يزال هو نفسه. وضع ورقة على كفه، جافة كما لو أنها قطعت من النحاس الرقيق، وقال في نفسه: "عزيزتي الورقة المحترقة في الريح. غدًا .... لا، بعد يومين، سأمتلك السعادة التي كنت أبحث عنها لسنوات. سوف أتعلم من الكيويشي الحقيقي. يومان...." نظر مرة أخرى إلى الزعرور، واتجه نحو القرية.

(38) ميشاتنيك: نبات عشبي من فصيلة الفوليات.

لماذا يرتفع دخان الموقد في الخريف بشكل عمودي؟ وهنا، شخص يقفز من التل، وبجانب المقبرة الصغيرة سحب اللجام، وبدأ في النزول على المنحدر. الغبار الذي أثارته القوائم بقي واقفًا، كرمح عالق في الأرض. جميلٌ. يبدو أنه في مكان ما هنا كانت منحلة أكساكال غازيز. تذكر. اتضح أن خلايا النحل ما زالت في المكان نفسه، على المرج بين أشجار الزيزفون. كان مربي النحل مع شبكة على رأسه يدخّن خلايا النحل. سمع حفيفًا، فاستدار، وخلع الشبكة. كان غازيز نفسه.

السلام عليكم.

قال آجيغيريي مادًّا كلتا يديه ليصافح يد الرجل العجوز الضخمة كمجرفة.

عليك السلام.

ابتسم غيغازي في وجهه.

-رأيتك من بعيد. اعتقدت أنك ستمر في طريق العودة. هل تجمع الزيزفون؟

رغبت في ذلك، إلا أن نحلاتك لم تسمح لي، وكادت واحدة منها أن تلسعني.

أجاب آجيغيريي.

ضحك غازيز.

نعم، فهي تصبح شريرة إذا غضبت. لا تتساهل مع النكات. حاول عدد من الصعاليك مؤخرًا اقتحام الخلية لأخذ العسل. طاردهم النحل. هرع الأطفال الى النهر. لسع النحل عددًا من المساكين، حتى إن مجموعة منهم دخلت إلى المستشفي. بصعوبة هدّأت النحل عن طريق رش الماء عليها.

لوح العجوز بيده مشيرًا إلى الطريق:

لماذا نقف؟ هيا، ستكون ضيفًا في كوخي.

دخلا الكوخ الصغير على حافة المنحل. أخذ غازيز إبريق شاي مدخن من على حامل ثلاثي القوائم فوق الموقد، ودفع إلى آجيغيريي بوعاء كبير من العسل الأحمر الفواح.

هذا عسل الخريف الطازج.

قطّع شرائح كبيرة من اللحم البارد، وقسّم قرص الخبز المحمص في مقلاة على الجمر، ووضعها على مفرش المائدة.

حسنًا، كُلْ. لنشرب الشاي معًا. ذهبت ربة البيت في الصباح على العربة إلى القرية؛ أخذت وعاء العسل.

في السابق، في طفولتنا، كنتَ تنقل المناحل على العربة إلى المراعي الصيفية. أما زلتَ تقوم بذلك؟

لا. لقد هرمنا. وتعبنا. ويبدو أن الأولاد لا يرغبون في مواصلة هذا العمل. في السنوات الأخيرة لا أتزحزح من هنا. اتضح أنه من خلال العيش هنا، يمكن جمع العسل تحت أشجار الزيزفون. العسل الذي تأكله عسل زيزفون.

جلسا يحتسيان الشاي بصمت، إلى أن قال غازيز:

لم يكن شغفي بالمناحل يعجب المرحوم جدك، وكان يسخر مني بقوله "عازف الدومبرا، راعي الذباب". وبخني عدة مرات لأنني أؤدي الكيوي بشكل خاطئ. بطبعه كان المرحوم، الذي لا يُنسى، شديد الغضب. بالمناسبة، أود أن أسألك ....

نظر آجيغيريي إلى الرجل العجوز بأملٍ.

هل تعرف عازف دومبرا اسمه آتيغاي؟

آتيغاي؟

فكر غازيز.

– نعم، نعم. أذكره، ذات مرة منذ وقت طويل حُلَّت منطقة أبيرال، وتم ضمنا إلى منطقة آياغوز. كان ذلك في خريف العام تسع وأربعين. في آياغوز كان هناك عيد. على شاحنة أقاموا منصة ليقدم الموسيقيون فقراتهم عليها. عندها عزف آتيغاي أيضًا. فنانٌ حقيقي. عندها كان من العشرة الأوائل. على الرغم من كبر سنه؛ توهج كلهب النار. كان طويل القامة. كانت الدومبرا في يديه كملعقة في يديك. أجل. كان مبدعًا. كان موهوبًا.

هز غازيز رأسه، كما لو كان مندهشًا.

كان حدادًا في ساريكاميس. وذات مرة قاده الطريق إلى آياغوز. نزل ضيفًا في منزلنا. نظر إلى الفأس وضحك، وقال: "على الرغم من أنك تعرف لغة النحل، لكن يبدو أنك لا تجيد التعامل مع المعدن". أخذ الفأس من مكانها، وذهب إلى حداد قريتنا، وعاد بها وهي أكثر صلابة. بربك هل تصدق، في بعض الأحيان كنت أستخدم هذه الفأس لتقطيع الحديد، ولم يكن هناك حتى ولو صدع صغير على نصلها. حدث أن قطّعت بها العظام، والفأس، عند قطعها للعظام، كانت تحفر في الحجر. ما زلت لا أفهم ما هذه المعجزة. فأس عادية مصنوعة من الحديد البسيط.

هذا يعني أنه أضاف محلولًا أكسبها صلابة غير مألوفة.

قال آجيغيريي.

لماذا سألت عنه؟ هل هو على قيد الحياة؟

سأل غازيز.

نعم، في صحة.

ليوفقه ويعزّه الله.

قال غازيز.

أخذ من الرف جرة عسل، ووضعها أمام آجيغيريي، وقال:

خذ هذا العسل لزوجتك.

ما هذا، لا تكلف نفسك!

قال آجيغيريي.

لا كلفة هنا.

أجاب الرجل العجوز،

- أخبرها أن الجد غازيز يبلغها التحية. وأنت هل أتيت لفترة طويلة؟

لمدة شهر.

- لقد كنت في زمانك صبيًا أسود، مثل ديوها (39) ، والآن أنت شاحب. يقولون إن الهواء في ألماتي سيئ. يجب عليك أن تأتي على الأقل مرة في السنة إلى القرية، وأن تقرأ الصلوات على قبور أسلافك، وترتاح، وتشرب الكوميس (40) .

فكّر وتساءل.

- في التلبزيون أو أيًا كان اسمه، رأيتك تعزف على الدومبرا. أنت الآن في مستوى يجعل الناس الذين يستمعون إلى جدك يبكون. ولكن لا تهدأ عند ذلك. واصل تعليمك. نحن .... أنا مثل حصان مسموم، خارت قوائمه، لا يمكن امتطاؤه. لقد سبقنا جيلكم. لقد خرجتم إلى النور. تتسلقون إلى الأعلى، إلى حيث لم نتمكن من الصعود.

يبدو أن القمة في المستقبل.

قال آجيغيريي.

لا تنسني أيضًا.

قال غازيز مازحًا.

- فأنا أيضًا معلمك. على الأقل اثنتين أو ثلاث من الكيويتات تعلمتها مني. اذكر اسمي أيضًا.

بالطبع.

مدَّ آجيغيريي يده إلى الرجل العجوز.

- كيف يمكن أن أنسى معلمًا مثلك؟

وداعًا.

عانق غازيز آجيغيريي، وقبَّله على خده.

- هل سأكون في زيارتك القادمة على قيد الحياة، أم سأكون هناك.

أشار بذقنه إلى المقبرة على التلة.

هناك سأرقد كومة من التراب؟ اللّه يعلم. ليسعدك اللّه، ولتصحبك بركات قادير (41) .



(39) ديوها: عملاق أسطوري، كائن يقود إلى العوالم الأخرى، يمكن أن يكون له هيئة حصان، أو سمكة، أو إنسانٍ....

(40) كوميس: شراب شعبي حامض من حليب الفرس.

(41) قادير: شفيع المسافرين، ومانح البركة للموسيقيين وغيرهم. عادة ما يقرنونه بالعبد الصالح "الخضر".

حسنًا، يا عزيزي، اسمع.

أخذ آتيغاي الدومبرا، وجلس بشكل مريح أكثر. في قديم الزمان، قبل أن توضع وصايا "الصراط المستقيم" و"الطريق القديم" (42) ، عاش خان اسمه جينكيز. كان لديه باتير (43) اسمه كيت-بوغا. في إحدى المرات، تعمّق في التفكير جينكيز الذي كان جالسًا في مقره، وأبلغ المقربين منه: "يبدو أنني قهرت جهات العالم الأربع، والبلدان السبع". عندها قال أحد الوزراء: "لا يا سيدي، أنت لم تهزم بعد واحدًا من الأعداء". "تكلم!" أمر جينكيز خان. فقال الوزير:

- "الحاكم والبلد الذي لم تقهره مصر. أرسل جيوشك إلى هناك، ولينزل ملك مصر لك عن العرش، أو أصدر أمرك بقتله. فقط عندما تُخضع "مصر"، ستصبح جميع جهات العالم الأربع ملكك بالكامل".

أرسل جينكيز خان على الفور كيت-بوغا، وأعلن له أمره. ومع غروب الشمس انطلق جيش جرار برایاته وأعلامه المرفرفة.

كان آتيغاي ينقر على الأوتار بشكل متكرر. وكان يدوي صوت، كما لو أن موجة تضرب صخرة.

سار الجيش طويلًا طويلًا، وعندما استنفذت الخيول قواها، وصل إلى مصر. بيد أن ملك مصر كان عنيدًا. "جينكيز يريد أن يقاتلني؟ سأرى قوته." قال ذلك ودعا قائد جيوشه. "عند "أبو"ابنا يقف باتير كيت-بوغا، اذهب وأخبره بأن يرجع إلى بلاده ما دام سليمًا، وإلا سأرسل إليه محاربيَّ الشجعان على الفيلة". أمره الملك. خرج القائد المصري إلى خارج البوابة، وقال: "باتير كيت-بوغا، دعنا لا نسفك الدم، عد إلى بلادك".

عزف الكيويشي لحنًا قصيرًا من موضوع واحد. مذهلٌ! كما لو أن الكلمة النبيلة التي قيلت لمرة واحدة فقط كانت تصدحُ. في اللحن تجسد كامل جوهر القائد، الذي دوى كصرخة بجعة. ذهل آجيغيريي من حكمة الكيوي التي وضعت في سبعة أو ثمانية من الأصوات مغزىً كبيرًا.

لكن كيت-بوغا لم يوافق، وقال: "إن اليد اليمنى لخاني قوية، وبمقدورها أن تصل إلى كل كائن. دع ملكك ينزل طواعية عن العرش، ويلقي تاجه عند أقدام خاني".

دوى لحن عملاق مخيف يتماشى مع كيوي الكاليك.

من يستطيع تحمل ذلك؟ فتحت البوابات، وخرجت قوات مصر تحت أصوات ال"أبو"اق والطبول الضخمة من المدينة. بدأت المعركة التي طمس غبارُها الشمسَ.

في هذه المرة دوت كيوي كاملة. أصابع الكيويشي التي بدت للوهلة الأولى غير مرنة، انسكبت طوفانًا على لوح الدومبرا. حبس آجيغيريي أنفاسه.

وهل يتراجع محاربو جينكيز المتمرسون؟ هزموا العدو، وألقوا برأس الملك والتاج عليه عند أقدام كيت-بوغا. هنا سنتركهم، ونعود إلى أماكننا في السهوب. كان لدى كيت-بوغا ابن وحيد؛ باتيل، الذي كان أيضًا

(42) "الصراط المستقيم"، و"الطريق القديم": تشريعا الكازاخ في القرون الوسطى.

(43) باتير: قائد.

بطلًا مندفعًا. ذات مرة جاءت قافلة من الصين وبدأت بالتجارة. في القافلة كان هناك فتاة تماثل بإشعاعها الشمس والبدر. رآها الفتى، فاشتعل اللهب فيه، ووقع في حبها. اتفقا. "إذا كنت شجاعًا، تعال إلى القصب في المساء، سنلتقي هناك". -قالت. عندما خيَّم الظلام، ودون أن يأخذ أي سلاح، جاء باتيل إلى المكان المحدد مع صديقه آرغينسييت، لكن الحسناء التي وقع في حبها، اتضح أنها جنية ماء. حاولت أن تجرَّ الفارس إلى الأعماق. تقاتلا لفترة طويلة. عندما ظنَّ باتيل أنه اختفي بالفعل، تمكن من الإفلات من مخالبها الحديدية، وخاض نحو الشاطئ. عندها قالت الفتاة الجنية: ما دام أنه غير مقدّر لي أن أكون معك، مُتْ إذن". وأطلقت من قوسها سهمًا أصابه في ظهره.

شرب آتيغاي الشاي ليبلل حنجرته.

نعم، في الحياة يحدث كل شيء. الأب في الحملة، وفي هذا الوقت يموت الابن هكذا. في اليوم التالي جمع جينكيز الحاشية: "مات ابن باتيري. ابحثوا عن القاتل وأحضروه لي". كان لدى الخان كبير وزراء اسمه موكالي(44) . قام باستجواب آرغينسييت، وأرسل لمطاردة القافلة الصينية وإعادتها إلى مقرّه. أمر خان بإعدام الجميع. عندها ركع قائد القافلة أمام جينكيز، وقال: "أيها الحاكم، يمكنك قطع الرأس، ولكن لا يمكنك قطع اللسان". "تكلم!". قال جينكيز. "سيدي، نحن شعب نعيش تحت الماء. ابن ملكنا خرج إلى الأرض واختفي بدون أن يترك أثرًا. وأرسلنا للبحث عنه. قال قائد القافلة. "إذا كان الأمر كذلك، فلماذا قتلتم الابن الوحيد لباتيري؟ سأل الخان. "يا سيدي" قال قائد القافلة. "مع قافلتنا جاءت ابنة الملك. وهل ستسمع ابنة الملك كلامي؟ عندما انشغلتُ، تمكنتْ من إغواء الشاب المسكين. ماذا كان بإمكاني أن أفعل!". "إذا كان الأمر كذلك، أرسل أحد رجالك وراءها." قال جينكيز. لم يكن بيد قائد القافلة حيلة، فأرسل رسولًا إلى الفتاة. وهذه هي صلوات الفتاة عندما ألقوا بها تحت أقدام جينكيز.

دوت كيوي مؤلمة، تشبه لحن الكوبيز (45) .

لكن جينكيز خان لم تأخذه الشفقة، فأمر بإعدام الفتاة. لنتركها الآن ونعود إلى كيت-بوغا. لقد حان الوقت عندما استولى على مصر، حيث زرع حكامه المحليين في كل مكان، وكان سعيدًا. وذات مرة قيل له إن قافلة كانت تقترب من موطنه، وكان فيها أربعون شخصًا يرتدون ملابس الحداد. "أيها القديسون الشفيعون، ما الذي حدث هناك؟ ليحفظنا الله من الشر!"-كان باتير قلقًا. وصلت القافلة إلى المدينة. استقبلها كيت-بوغا. خلع هؤلاء الأشخاص الأربعون أحزمتهم، ورموها حول رقابهم كعلامة على أنهم يقدمون أنفسهم لرحمته، وخرّوا عند أقدام كيت-بوغا. انتحبوا ونتفوا لحاهم، وأبلغوا كيت-بوغا بموت ابنه. عندها، بهذه الكلمات "أوه، يا باتيلي، يا بؤبؤ عيني، لماذا اتصلت بالفتاة الجنية! لقد تُركت وحيدًا! بكى كيت-بوغا وأنشد هذه الكيوي.

ناح باكيًا ومنتحبًا، ومرددًا كيوي غير مألوفة قط. عزف آتيغاي لفترة طويلة متمايلًا، كما لو أن الابن الوحيد

(44) موكالي: كما كيت-بوغا، شخصية حقيقة، قائد قوات جينكيز خان، استولى على فيتنام وكوريا وكوريا الجنوبية.

(45) كوبيز: آلة موسيقية وترية قديمة، كانت مفضلة بشكل خاص للشامان.

لباتير السلف القديم قد مات الآن، كما لو كان الكيوشي يضرب بحزن الناقوس البرونزي الطنَّان ليبلغ الأب عن موت ابنه. بدا أن الحياة قد عادت إلى صوت الشجاعة والكبرياء القديم المنسي، فقفز مرة أخرى في صوت غاضب لموجة تندفع من صخرة.

هدأت الكيوي. تجمد الثلاثة، آجيغيريي وآتيغاي والمرأة العجوز المحنية التي كانت تجلس بالقرب من الباب، بدون صوت، وبدون حركة، وكأن أشباح الحياة القديمة، التي عادت من العالم الآخر، قد مرت أمامهم بشكل مهيب، قبل أن تذوب في الماضي.

قطعت الجدة الصمت، وقالت:

أوه! أوه! أوه! أيها العجوز.

قالت بصوت أجش.

اليوم أصبحت أنت نفسك، كما لو أنك ولُدت من جديد.

ضحك آتيغاي، وجلس بشكل مريح أكثر.

وهل فكرتِ ما إذا كان من السهل على آتيغاي الذي يندفع نحو العقد التاسع أن يجلس على السرج مرة أخرى؟

جلبوا على صينية فحمًا من روث الأغنام الجافة، وأضافوه إلى الدرج. غلت الجدة الإبريق مرة أخرى، وصبت الشاي الطازج.

ما هذه الكيوي، يا جدي؟

هذه كيوي كيت-بوغا "بوغا المحطم"، يا عزيزي.

قال آتيغاي. قام بمد ساقيه المتصلبتين، وجلس بالقرب من الطاولة. شرب على عَجَل عدة أكواب من الشاي، الواحد تلو الآخر.

- أوف، يا زوجتي، ما ألذ الشاي الذي قمتِ بإعداده!

قال وهو ينظر برضى إلى المرأة العجوز.

هز آجيغيريي رأسه:

في السابق سمعت من عازفي دومبرا مختلفيْن مقاطع من هذه الكيوي. لكني لم أر شخصًا يؤديها بالكامل وبشكل معبّر. في ذلك المساء أدى آلتيغاي أكثر من ثلاثين كيوي، الواحدة أفضل من الآخر. في ذلك المساء اقتنع آجيغيريي مرة أخرى بثراء الكيوي اللامحدود. وبلغ اقتناعه الذروة بأنه سمع وعرف ما يكفي. اتضح أن الكثير من الأسرار لم تكن معروفة له، وأنه لم يسمع الكثير من الألحان. والرجل العجوز، الذي يمتطي الإلهام، لوقت طويل لم يترك الدومبرا من يده، وفقط عندما خيم الظلام كليًا، أسندها إلى الجدار.

حسنًا يا عزيزي، لنتوقف عند هذا.

استلقى مستندًا على كوعه على بطانية مفروشة بجانب الطاولة، ومدَّ ساقيه بسرور.

لقد تعبت.

استلقى لفترة من الوقت مع طقطقة وتمرين لأصابعه، يثنيها ويمدها.

– لقد عزفت من أجلك. على مدى عشرين أو ثلاثين عامًا لم يتذكر الكازاخ آلتيغاي. لا أحد يسأل إن كان على قيد الحياة أم لا. مرة واحدة فقط جاءت مجموعة من الناس من ألماتي. تحدثوا معي بسرعة حتى سخنت سياراتهم. أيعقل أن تؤدي الكيوي لأناس جاءوا عند الغسق، ولم ينزعوا سروج خيولهم (46) ؟ وإضافة إلى ذلك، بدأوا في التحقيق، مثل موظفي مفوضية الشعب للشؤون الداخلية في الأيام الخوالي؟!!. سألوا في أي عام ولُدت؟ ماذا كان اسم الوالدين؟ ومن هو معلمك؟ لقد طردتهم.

ضحك آجيغيريي.

جدك هكذا.

ضحكت المرأة العجوز.

إذا لم يعجبه الحديث، فإنه يضرب ويطرد.

في وقت متأخر من الليل، بعد أن تناول آجيغيريي اللحم الطازج، وشرب الشاي مرة أخرى، لاحقته انطباعات النهار المرهقة، لكنه شعر بالبهجة، فخرج إلى الخارج.

"لماذا تبدو النجوم في الخريف ضخمة جدًا؟ هذا هو واحد من أسرار الطبيعة." فكّر وهو ينظر إلى سماء الليل. في السهوب، حتى في ليل الصيف، يكون الطقس باردًا لدرجة أن الزيت يتجمد. وفي الخريف يتجمد الماء. تنفس بسرور، ووضع وجهه وصدره تحت تيار جليدي من الهواء الذي كان يتدفق فوق السهوب.

قال آتيغاي الذي كان يجلس أمام الباب:

يا بنيّ كن أكثر حذرًا، قد تصاب بالبرد.

أدار المذياع الذي كان في يديه.

إنها عادة من أيام الحرب. أستمع إلى ما يحدث في العالم.

"تمثل هذه الاتفاقية نجاحًا سياسيًا كبيرًا للقيادة السوفيتية، وتنظر وسائل الإعلام العالمية إليها بوصفها أهم حدث في السنوات الأخيرة ".

تساءل آتيغاي مهتمًا:

ماذا يقولون؟

يقولون إنهم حققوا انتصارًا سياسيًا آخرًا.

تمطى آجيغيريي بارتياح.

– لكنهم مخطئون للغاية. الحدث الأهم في السنوات الأخيرة جرى هنا، في قلب آركا (47) ، في هذا الكوخ. لا شيء في العالم أكثر أهمية مما حدث اليوم.

---

(46) الحديث يدور عن الرحلة الاستكشافية العلمية الفولكلورية. في كثير من الأحيان ومثل هذه الحملات، التي لا تعرف العادات الكازاخية، أو تعمل في عجلة من أمرها، قوبلت بالرفض من الكازاخ التقليديين.

(47) ساري-آركا، آركا –سهوب وسط وشرق وشمال كازاخستان.

رحيمجان أوتار بايف

(1956 - 2018)



- تخرج في معهد أورال التربوي عام 1977، صدرت أولى قصصه القصيرة عام 1976 بجريدة "أوال".
- صدرت أول مجموعة قصصية له عام 1987 بعنوان: "ليلة سرية"، وفي السنوات اللاحقة صدرت له أعمال أخرى مثل: "مكان تساقط النجوم"، "الحزن"، "عودة الطيور المهاجرة"، "سمعت صوتك"، "فراشات بيضاء في السماء" وغيرها.
- نشرت الصحافة الكازاخية دراسات للنقاد والأدباء حول إنجازات الكاتب في القصص والحكايات الواردة في هذه الأعمال، وفي عام 2011 نشرت مختارات أعمال أوتارباييف تحت عنوان: "العالم المنبوذ" وأصدرتها دار نشر "الأدب الفني"، وحصلت هذه المختارات على استحسان وردود فعل إيجابية من قبل نقاد الأدب الروس.

- عمل بشكل مثمر في مجال الدراما، وألف العديد من المسرحيات مثل: "الظاهر بيبرس"، "الرأس"، "الحياة السعيدة"، "باتير سيريم"، "مصطفي شوقاي"، و"لن أعطيك"، وقد عرضت هذه الأعمال على المسارح الوطنية والأجنبية، وجرى تنظيم مهرجانات مكرسة لمسرحيات على بعض المسارح الموجودة بالأقاليم في مدن أتيراو وشيمكينت وتاراز.
- تم نشر أعمال الكاتب المختارة في دار نشر "الأمة" ببكين في شكل كتابين باللغتين الكازاخية والصينية.
- تمت ترجمة أعمال الكاتب إلى اللغة التركية، والعربية، والإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، والبلغارية، والأوزبكية، والقرغيزية.
- حصل على جائزة "جنكيز أيتاماتوف" الدولية عام 2009.
- حاز على جائزة "ماخامبيت أوتيميسولي" عام 2013.

فراشات السماء البيضاء

"لا تؤذ النملة التي تحمل الحَبَّ؛
فلديها روحٌ، والروحُ عذبَة" .
الفردوسي

مرة أخرى، وهو يركض خلف الفراشات البيضاء، حتى خارت قواه، وجف حلقه؛ استيقظ من نومه.



سار طويلا على الجانب الأيمن من الشارع المستقيم، تارة يختفي وتارة يظهر، تارة يطل، وتارة يتلاشى بين المارة المتعجلين المتزاحمين. كان متجها نحو السوق كعادته كل يوم، وفي كل ليلة لا يذوق طعم الراحة من الظمأ.

اشتدت شمس الصباح فصارت وكأنها قيظ الظهيرة، فراحت تلسع صدغه، أدار الكاب على جانب وجهه ليغطي صدغه الذي بدأ يهرَّشه؛ ثم نظر محدقا بعينيه إلى السماء الشاسعة، فرأى سحابة وحيدة تهيم في فضاء أزرق وترتع كأنها قعود يتيم أشعث تتهدل على جسده خصل الوبر.

العصافير الكسلى تحوم حول البشر، فتطير تارة وتحط تارة، لترطب مناقيرها بندى صباح شهر أغسطس؛ يبدو أنها هي الأخرى تبحث عن مصيرها في السوق.

- آه، أيها الزمن!

سمع صوتا غير بعيد فالتفت ناحيته، لكنه لم يلحظ أحدًا قد ناداه باسمه، كانت سيدة عجوز تمر بجواره، تخطو في حذر بالرجل اليمنى، التي على ما يبدو أنهكها الروماتيزم؛ من الواضح أنها كانت تسدي النصائح والأمنيات للفتاة الشابة التي كانت برفقتها.

- أنا كنتُ مثلك.

كانت رفيقتها الشابة، لعنها الله، تصعِّر خدها، وتقذف كل ما حولها بنظرةٍ مداعبةٍ؛ تلف بناظريها وكأنها تفتش عن شيء، سُرَّتها تبرز بين بلوزتها وزنّار تنورتها وكأنها عين ثالثة تصيب المارة المواجهين لها في مقتل، حتى إنها تصل إلى الجانب الآخر من الشارع.

تحدق وتحدق في المارة.

- وأنت أيضا ستصبحين مثلي الآن....

ولم يستجمع أفكاره إلا بعد أن اختفت عن ناظريه العجوز ورفيقتها. أهو وحده يغرق في أفكاره الحزينة، مثقلا على نفسه بالأسى الذي لا ينتهي؟ ها هم الجميع مثله....

كان "داورين"بطل حكايتنا يتاجر في السراويل بسوق ضخم في مدينة كبيرة؛ سوق ضخم، لكن في حانوت صغير يكاد لا يسع طستا لبائعة طماطم نحيفة. كان يرص البناطيل البيضاء والزرقاء والسوداء بشكل يجذب أعين الناظرين.

- عزيزي، كم هو جميل عليك....

- سيدتي، وكأنه فُصِّل لك خصيصا.

هكذا كان يردد مطريا بالثناء على سلعته، فالزبائن، لا أوحش الله منهم، ما أنوعهم! شبان يدورون كالدوامة، شيوخ انحنت ظهورهم حتى صارت كالعرجون، عمالقة فارعو الطول، أقزام حُنُف، مارقون يهرجون ويمرجون، بُدُنٌ تساوى عندهم الخصر بالأفخاذ.... سخاة لا يحسبون حسابا للأسعار، وبخلاء يتوسلون بالدموع للحصول على خصم.

لكن العملات التي تتجمع في جيبه على مدار اليوم كانت تكفي الفتى الوسيم ذا الشعر المجعد لسداد إيجار الشقة، وشراء الطعام المعتبر، وحتى في بعض الأحيان للسهرات الجميلة، ومساعدة أمه الوحيدة التي تعيش في قرية جارباي.

كانت الأم قد قررت - مهما كلفها الأمر - أن تحافظ على البيت الذي أواها والمرحوم زوجها. كانت سعادتها بزيارات ابنها لها أكبر بكثير من سعادتها بما يحضر لها من عطايا؛ وكانت المسكينة تودعه إلى طريق المدينة في كل مرة خلال عودته لغربته، وهي ترتدي ثوبها الهفهاف الفضفاض، بذيله الذي كان يعكس أشعة الشمس الذهبية، وكأن السيدة اغترفتها بذيل ثوبها ثم صارت تحملها معها. كانت في كل مرة تقول مودعة إياه "يا سندي الصغير!". كانت عند فراقهما تمنحه الراحة النفسية، بل البركة أيضا كما لو كانت تنتشلها من ذيل ثوبها.

بعد عودته إلى المدينة كان ينخرط على الفور في إيقاع حياة المدن السريع والمضني والمهلهل. هنا كانوا يتاجرون حتى في الأرواح، وهو لم يكن ليشارك في هذا المستنقع بإرادته....فهنا كانت توجد "عليمة"، تلك الفتاة التي كانت تبيع المياه عند بوابة السوق. كان بها شامة في حجم حبة السمسم تختبئ بين حاجبيها، فتتوسطهما تماما. نعم، نعم، إنها هي السبب! كان في كل مرة يبيع فيها بنطالا يذهب بعدها فيحتسي عدة أكواب من الماء زمرة واحدة.

- هل جئت من ملّاحات دوسور أم من رمال جاسور؟

سألته ذات يوم مبتسمة باستحياء.

- لا، بل من حانوت السراويل....

رنت ضحكة مدوِّية. لم تكن مجرد ضحكة، وإنما صوت الآنية الزجاجية التي تحطمت فملأ رنينها الجو. ومنذ تلك اللحظة صار يبحث لا عن الماء، وإنما عن هذا الرنين الذي يسعد أسماعه. الرنين! هاهو الآن لا تراه العين لكنه انتشر فملأ الجو.

كانت يتيمة، نشأت في كنف شقيقها وزوجته. كان أمل ما يطل دائما في وجل من هيئتها البريئة براءة الأطفال، وطبيعتها التي يتملكها الخوف؛ ربما هذا الأمل بالكاد هو ما حافظ على ضحكتها الشافية.

اتفقا أن يقيما عرسهما في الخريف، ويأتي بالأم من جارباي، ويعيشوا ثلاثتهم معا؛ لكن للأسف....

- هدموا المدافن حتى سووها بالأرض، ثم أقاموا عليها "قصر القِران"(1) . "قصّر الله في أعمارهم!" - سمع هذا الكلام، فالتفت مرة أخرى إلى هذا الصوت المعروف؛ تبين أنها تلك السيدة العجوز نفسها، التي تدوس بحذر على قدمها اليمنى المصابة بالروماتيزم، لكنها كانت قد بدأت تتصبب عرقا، تسير محركة عظام لوحها النحيفة بلا انقطاع.

- اليوم عدد فظيع من الأفراح.

قالتها الفتاة وهي تمط "ففففظظيييع"، وكأنها تمط قطعة علك مستمتعة للغاية بذلك، وهي لا تزال تعرض عينها الثالثة "سُرَّتها" للجميع.

- إيه، لقد اكتنزت الماشية شحما، واستوت الخضر والفاكهة على سوقها، فكيف لا يثرى البشر؟

قالت العجوز متلعثمة، بينما صمتت لسبب ما رفيقتها الشابة وتملكها شيء من الاكتئاب.

- للأسف لا جدوى من شباب اليوم.

واصلت العجوز تلعثمها:

- تنصحهم في المساء ينسون نصيحتك في الصباح.... أين هذا السوق الملعون، أخفاه الله!. على بعد خطوتين منك ولا تستطيع الوصول إليه.

معها حق! فإذا عرجَت إلى أي محل يقابلها في الطريق، راحت تتأرجح جيئة وذهابا فلا تعطي فرصة لأحد أن يمر....

لكن وا أسفاه!....

في ذروة تهافت الزبائن على سراويله صاحوا إليه:

- صاحب السوق يناديك! هيا، بسرعة!

تسمَّر في مكانه مندهشا. ما الداعي؟ إنه لم ير صاحب السوق هذا إلا مرة واحدة. رجل أحمر الوجه، أزرق

(1) المؤسسة الحكومية التي يتم فيها مراسم عقد القران وتسجيل إجراءات الزواج - المترجم.

العينين.لكم أشاعت نسوة السوق من شائعات عن ثرائه الفاحش ولم يسعفهن خيالهن في وصفه.

- ماذا أقول؟ إنه يبدل في اليوم حُلَّتين.

- يا لك من حمقاء! لا تفكرين إلا في الملابس. إنه يبدل السيارة كل أسبوع! واشترى لزوجته فيلَّا في باريس، أما هي فيقال إنها لا تسبح إلا بمايوه ماركة "شانيل".

- لديه بنت واحدة. لا تغادر سيارتها الجيب، تجلس بداخلها طوال الوقت. يبدو أنها ترغب في الزواج، ليت بها شيئا تجذب به الرجال.

- هوهو! إن بإمكانها أن تشير إلى العريس الذي تريده بإصبعها وهي جالسة مكانها. أيتها الخرقاء، أتظنين أنها تجول لتبحث مثلي ومثلك؟

- ليت لي ما لها، تخيلي لو أنها تزوجت من زنجي، ثم تشاجرت مع شيخ القبيلة، وطردوها من أفريقيا. كيف لها بعد ذلك ألا تجلس. بالتأكيد ستجلس!

جلسن وأصوات حكاياتهن تشبه طنين خلية النحل.

ماحاجة صاحب السوق إليه؟ أي خدمات يريد أن يسديها له وهو يغوص في بحر من السمن والعسل؟

تملك الشاب قلقٌ شديد؛ فما أكثر الوافدين الراغبين في التجارة. هل يبيت صاحب السوق النية لطرده من حانوته لا قدر الله ومنحه لآخر من هؤلاء الوافدين؟ لقد كانت أمه تنوح في كل مرة يسافر إليها: "بني! إياك والسعي نحو المناصب العليا!"، وكأن ابنها تاجر السراويل يشغل منصبا رفيعا يسعى الجميع لاقتناصه.

دخل إلى المكتب الرحيب وركبتاه ترتعشان رعشة من خان الأمانة، فإذا بالرجل أحمر الوجه أخضر العينين ينهض من مقعده مبتسما:

- ادخل يا عزيزي، ادخل. منذ فترة وأنت تسترعي انتباهي؛ أردت أن أقربك مني.

صار الشاب يرمش بعينيه في ارتباك، بينما رمقه صاحب السوق بنظرة إلى منكبيه النحيفين، ثم إلى قوامه كله كالترزي.

- السلام عليكم!

حيا الشاب صاحب السوق، والهواجس تزداد بداخله.

- وعليكم السلام. اجلس. هدئ من روعك. لتذهب السراويل إلى الجحيم. انسها! من اليوم ستكون مساعدي، أنت وابنتي معا....

- لكن لا يزال لدي الكثير من البضائع التي لم أبعها بعد....

انفجر صاحب السوق في الضحك بصوت عال.

- يا عزيزي، لن يبقى الناس دون سراويل؛ لا تقلق، سيبيعها غيرك.

ظل "داورين" طويلا لا يفيق من صدمته.

سار طويلا، تارة يختفي وتارة يظهر، تارة يطل وتارة يتلاشى، متجهًا إلى السوق. هكذا كل يوم. والظمأ الشديد الذي لا يرتوي لا يذيقه طعم الراحة. سار وهو يصغي إلى أحاديث الكازاخ البلهاء في الشارع. كان هناك عجوز قصير يعنِّف ابنه طويل الساقين ذا النمش بصوت أخنف مصحوب بصفير، خالطا بين الحروف.

- لقد بعت في العام الماضي ثورا أحمر مخصيا، لأدخلك المدرسة؛ والمدرشون يشكون منك، يقولون إنك حتى اليوم لا تعرف الحروف الهجائية. يا لها من مشيبة! أمك تعتقد أن ابنها شيشبح قاظيا. نحن في أيامنا كنا نلتهم الكتب التهاما. لطخت إشمي، إشم جيلكيباي، أيها الكلب الأجرب.

- أف! كفي يا أبي.

كان كلا المساعدين المستشارين لدى صاحب السوق من سن واحدة تقريبا. "سير غالي"، الابنة، كما كانت تقول نسوة السوق، خيبهن الله، تلك التي "تشاجرت مع شيخ القبيلة"، كانت فتاة ذات وجه وردي اللون، مدللة، تتصرف على هواها. عيناها ليستا خضراوين مثل أبيها، وإنما لون السماء. عندما تظهر أمامه تقف طلباتها في حلقه، لكنه ينفذها، أراد أم أبى.

يوم تعيينه قالت له "عليمة"، مازحة:

- نتمني لو تنازل السيد المستشار وشرب من مياهنا.

- مهما حدث، سأظل دومًا أرد مرواك.

قالها بسرعة، ثم أفرغ كالعادة الكوب المضلَّع في جوفه جرعة واحدة.

- بالمناسبة، لنذهب غدا إلى المسرح، سمعت أن مسرحية جيدة تُعرض الآن.

- هيا بنا. وهل ستجعلني أركب معك في السيارة المرسيدس؟

سألته بحذر هامسةً.

- بالطبع.

دوى الرنين، وتناثر فتات الآنية المحطمة فانتشر في الهواء.

بعدها دخل مكتب رئيسه، فوجده جالسًا في صمت منكسا رأسه، بينما تقف ابنته بجانبه، كأنها خازوق دُقَّ في الأرض، وقد احمرَّ وجهها. كان منظرها مرعبًا كالتيس الخصي المجزوز، والشرر يطل من عينيها الزرقاوين كالبرق في السماء.

- إييه؟! - انقضَّت على "داورين" - ماذا بك! أنت مسئول كبير، المسئول الثاني بعد أبي، وتقف عند البوابة تشرب مياها صفراء كبول البقر. أي تاجر في السوق سيحترمك بعد هذا؟ أه؟!

غمس "داورين" رأسه داخل كتفيه، وصار ينكمش كأنه ارتكب جرمًا.

- الثلاجة عندك ملأى عن آخرها، تكاد تنفجر. ماااذا بك؟

- حسنا، انتهى!

حاول والدها تهدئتها رافعًا رأسه المنكس.

- كفي! "داورين"، يا عزيزي، التعامل مع البشر مطلوب، لكن لا تسمح لهؤلاء الكازاخ بأن يقتربوا منك كثيرا؛ بمجرد أن يتملكوا منك ستكون نهايتك، سيمتطون أكتافك على الفور. فليذهبوا إلى الجحيم.... كن أنت وابنتي سندًا وعونًا بعضكما لبعض. أما أنا فسأجلس أستمتع من بعيد بالنظر إليكما والافتخار بكما.

- آسف.... كان هذا صدفة....

- نعمعم؟!

- سير غالي، كفي! اسمع يا "داورين"، أنا أخطط كالآتي: لن نظل داخل جلبابنا، ونكتفي بأن لدينا سوقا هنا ، في المقاطعات المجاورة، في ألماتي وأستانة الكثير من المراكز التجارية الجديدة والحديثة؛ لا بد أن ندرس إنجازاتهم، فإذا كانت هناك خبرة فعلينا أن نستغلها؛ السوق الشعبية إذا كانت موجودة اليوم، فغدا لن تكون؛ وواجبنا هو خدمة الشعب كما يجب. وهذا الموضوع أريد أن أسنده إليكما أنتما الاثنين.

- حسن، يا عمي.

أبدى "داورين" إذعانه.

- ممتاز! إذن ستسافران اليوم. ها هي تذاكر الطيران.

- وكم سنبقى هناك من الوقت؟

عاد إلى الفتاة وجهها الوردي وتجلى لون السماء في عينيها.

- سنتنزه بلا عجل، قرابة الشهر....

... سار طويلا، تارة يختفي وتارة يظهر، تارة يطل وتارة يتلاشى، باتجاه السوق. وهكذا كل يوم. والظمأ، الظمأ الذي لا يرتوي ينغِّص عليه حياته....

العجوز الأخنف السقيم لا يزال يفطِّن ابنه طويل الساقين كثير النمش:

- في شنوات الشباب مشلك الآن لم أكن أنجل من فوق الحِشان؛ شبابي التعيش الذي ضحيت به من أجلكم، قلت لك، طالما لا تنجح في الدراشة تجوَّج. أردتُ أن أخطب لك ابنة جارنا كودايبيرغين، ركبت رأشك وقلت إنها بدينة. وما المشكلة في هذا؟ أنت لا تعرف مشلحتك، أيها الحقير. البدينة تدفئك في الشتاء وتظلل عليك في الصيف.

- أف! كفي يا أبي!

واصل الابن الدفاع عن نفسه.

- أعوذ بالله! لقد بخ الشيطان في فمك....

.... كانا كلما توقفا في مدينة، استيقظا في فراش واحد. في الأيام الأولى حين كان يبتعد عنها استحياءً، كان يسمع منها صياحها المعتاد:

- نعمعم!؟! إن كل هذه النعمة التي تتمرَّغ فيها أعتقد أنها لم تسقط عليك من السماء، وإنما بفضلي أنا. إني أحبك لدرجة الموت. آه؟

فيتمتم قائلا: جيد. وأنا أيضا أحبك.

وكان لديه عُرف يتدلى كعُرف الديك.

- مادام "جيد"، إذن تخلص من بائعة المياه، فور عودتنا.

- مم....

- نعمعم؟؟!

- لقد قلت لك "اتفقنا".

بعد هذا.... بأي مظهر اكتسى؟ هل أسَرَتْه الركبتان الرقيقتان حين غاص بينهما؟ هل صار ذلك الفارس الذي يروض الفرس الجامحة؟ أم ذلك الذي يجلس على الكير، فينفخه جيئة وذهابا ليزكي نار الفحم المتوهج؟ أم ذلك الذي يتجول بحساب لا في السوق، وإنما في طيب النعيم؟ لا، إن شيئًا ما كان يعوق ابن جارباي الوحيد أن يشدَّ لجام الرجولة.

فور عودته من السفر هرع في لمح البصر إلى "عليمة". انتظر على أحر من الجمر ريثما انفضت جموع البشر المتهافتة على شراء المياه منها.

- ما زلت حيا؟

واجهته بابتسامة. ابتسمت، لكن الآنية الزجاجية لم تتهشم. أحاطت نفسها بشجن لا تراه العين، الشامة بين حاجبيها، التي تشبه حبة السمسم، كما لو كانت قد تكاثرت، وسرت في وجهها قشعريرة لا يكاد يرقبها رقيب.

قالت متذمرة:

- حضرت أمك من جارباي وظلت تبحث عنك. قالت إنها تشكو من ألم في يديها وقدميها، متى للأم أن تستعيد ابنها الذي صار مسئولا؟

- متى للأم؟

كررت ربما كلمات الأم وربما كلماتها هي.

- هممم.... متى سننقلها للعيش هنا؟

تمتم بعد برهة.

- والمسرح لم نذهب إليه يا "داورين".

- المسرحيات الجيدة انتهى عرضها....

- اغرب عن هنا!

تحاول السيدة العجوز التخلص من العجوز الأخنف. إن كليهما يطاردانه يوما بعد يوم. انظري، يقول إنه قرر أن يبحث في المدينة عن زوجة أخرى ليتزوجها. ليس فقط الأخريات، وإنما حتى أنا، العرجاء، لن تستطيع أن تسبقني في المشي!

- لا تمجحي هكذا! شأجعلك تحفرين الأرض بأظافرك. إني حتى الآن أشرب لبن الفَرَش، وأمشي على قدميّ، وآكل لحم الحِشان(2) .... هيا أعطيني عنوانك.

- اذهب، أيها الفاجر! ألا تخجل من الأطفال؟

أما طويل الساقين ذو النمش وصاحبة العين الثالثة، لعنها الله، اللذان كانا يطاردانه أيضًا كل يوم، فكانا، بعد أن يثملا ويلتهم كل منهما الآخر بعينيه، يمارسان المجون وهما يلعقان الآيس كريم....

.... في ذلك اليوم ذهب "داورين"مع "سيرغالي" المتلألئة إلى قصر القران، حيث تقدما بطلب لعقد قرانهما. استغرقت "سيرغالي" في أحلامها:

- متى يمر هذا الشهر الذي حددوه لطلبنا، ونتم إجراءات الزواج، ثم نسافر إلى الخارج.

- إلى أفريقيا؟

أستغفر الله! هل هذا كلام يخرج من فم عاقل؟ زوجة المستقبل كما لو كانت قد غاصت في غسق حالك،

(2) في الثقافة الكازاخية، لبن الفرس ولحم الحِصان يمنحان القوة البدنية والجنسية - المترجم.

واحمر وجهها.

- لا، إلى جارباي، سمعتُ أن المسافة بينهما ليست كبيرة.

انفجر الاثنان فجأة في الضحك، كل منهما قبل الآخر، فتخلصا من التوتر.

بعد الظهر شعر "داورين" بروحه تنقبض، فتوجه في عجلة من أمره إلى العمل، فسمع الناس يهتفون:

- "عليمة" أخذتها سيارة الإسعاف!

- يقال إنها شربت ماء، ثم سقطت على الأرض.

- أي ماء؟ بل سُمًّا! أجبروها على شربه، يا إلهي، أجبروها!

- كانت حاملا في سبعة أشهر!

صار النسوة يولولن، مزلزلات أرض هذا العالم الذي انقلب حاله.

غشيت عيناه، استدار على الفور عائدًا قرب بوابة المستشفي كاد يصطدم بـ "سيرغالي". ماذا تفعل هنا؟

- إييه؟!

صاحت بعد أن توقفت فجأة. واستحالت حمرة الصباح في وجهها إلى اللون القرمزي، بينما كسا البياض عينيها السماويتين.

- اسمحي لي بالمرور! إييه؟!

اخترق المكان حتى وصل إلى طاولة العمليات. كان هناك جراح كبير السن، متشح بالرداء الأبيض من أعلاه لأسفله؛ نظر إلى "داورين" بعينين رماديتين، وبجواره ممرضتان، صاحتا وكأنهما رأتا عزرائيل رأي العين:

- توقف من فضلك!

- صبَّرك الله!

- لقد قمنا بكل ما في وسعنا.

- البقاء لله!

فجأة.... شيء مُسَجًّى لتوه بكفن أبيض، ارتفع كهالة من نور. إنها "عليمة" خاصته الحقيقية! طارت فوق الماء كطيف من بخار، ثم توقفت عنده وقد تملَّكه ذعر مميت. نظرت إليه لبرهة بحسرة وعتاب، ثم صارت تتطاير، أيضًا كالبخار، وراحت تتطاير معها وحولها، مرفرفة، فراشات تشبه أزهار شجرة التفاح في فصل الربيع.



.... يسير طويلا، تارة يختفي وتارة يظهر، تارة يطل وتارة يتلاشى، متجهًا إلى السوق. وهكذا كل يوم. وقد أنهكه الظمأ، الذي لا يرتوي، تمامًا.

صار الناس يحتقرونه كأنه عدم، وتطاولت وقاحتهم فصاروا يدفعونه ويقطعون عليه الطريق! لم يعد هناك السيدة العجوز التي أنهك ساقيها الروماتيزم، أيضًا صار أخيرًا ذلك العجوز القزم أثرًا بعد عين. أما الفتى طويل الساقين ذو النمش فكان يعبِّط بشدة في الفتاة، لعنها الله، عند خصرها العاري، وكأن أحدا يعتزم انتزاعها منه. نعم، إنه كان يدافع عن مِلْكه، لم يستسلم.

- هل تريدين أن آكلك بأسناني؟

سأل الفتى صغير السن صديقته الطائشة، وهو يدلك لها سُرَّتها، معتزما التعمق أكثر من ذلك.

- وهل ستشبع؟

همست في أذنية بدلال، مصوبة عينيها كالسهام يمينًا ويسارًا.

- إذا لم أشبع سآكلك مرة أخرى.

يا حسرة على الثور الأحمر الخصي، الذي ذُبح في العام "الماظي" من أجل هذا الكلب الجائع! فرغم أنه حتى الآن لا يفرِّق بين الألِف وكوز الذرة، لكنه ترك أباه على الرصيف....

حام الطيف النوراني، الذي لم يلحظه أحد لحظة عقد القران سوى "داورين"، ثم توقف بينه وبين "سيرغالي"، ونظر هذه المرة بلا حسرة ولا عتاب. وفي المشهد الحزين حل الاضطراب والقلق محل الأمل الهزيل الذي انطفأ.

- لا- لا! - عض الطيف على شفته وهز برأسه متوسلا: - لا - لا!

راح سرب من الفراشات البيضاء التي تشبه أزهار شجرة تفاح الربيع يرفرف ويرفرف بين "داورين" والطيف الذي جاء من العالم الآخر، تزغللت عيناه كأنما غشتها أزهار التفاح، بينما كانت الموسيقى تعزف وتعزف بصوت عال، ويصدح "بيكبولات" مغنيا أنشودة "أيا شعبي!".

سقط على الأرض فاقدا الوعي....

منذ ذلك الحين وهو يركض في المنام خلف الفراشات البيضاء، ثم يستيقظ خائر القوى جاف الحلق. يقول الأطباء إنه داء السكري الناتج عن التهاب الأعصاب.

"الطفل اللقيط وهو يبحث عن أبيه لا يجد لنفسه مكانًا لا في هذا العالم ولا في العالم الآخر." مع صوتًا واعظًا عند بوابة السوق. حدق حوله، لم يكن أحد في السيل الجارف من الشيَّالين يعير انتباهًا سواء لهذا الصوت أو له هو؛ فقط يسبحون كالخراف في الماء. آه، تذكر أخيرًا: إنه صوت أمه التي حضرت عرس ابنها الوحيد، ثم عادت بعد ذلك إلى قريتها جارباي والدمع على خديها.

هل عادت إلى أسماعه كلمات أمه التي قالتها عن طفله من "عليمة"، أم إنها كلمات سمعها في لحظة ما في الماضي البعيد، في طفولته؟

ما أن وصل إلى المكان الذي كانت "عليمة" تبيع فيه الماء، وكان صاحب السوق قد غطاه بالأسفلت ، حتى جلس كطفل معاق.

- أعطوني ماء. ماء، ماء!

ظل يردد دومًا هذا الرجاء أو الشكوى في هذا المكان، ولا أحد يعلم ممن يطلب، ثم إنه لم يكن ينتظر الاستجابة لطلبه، ولا يبرح مكانه حتى الساعات المتأخرة من الليل. لقد تحول جلوسه في صمت إلى عادة يومية، فغدًا سيعود إلى هنا مرة أخرى.

إنها الفراشات البيضاء.... الفراشات البيضاء الخفاقة....



تورسينجان شاباي

(ولُد عام 1957)



- كاتب نثر وناقد أدبي، حاصل على الدكتوراه في العلوم الفلسفية، تخرج في معهد آباي التربوي الحكومي عام 1979، وقد بدأ نشر مقالاته في الصحافة الحكومية منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي.
- عام 1989 خرج للنور أول كتبه بعنوان: "الفكرة التي تنجب الكلمة، وقد كرس الكاتب هذا العمل للحديث عن المزايا الفنية والجمالية للشعر الكازاخي، وفي عام 1999 صدر له كتاب آخر بعنوان "القلب الحقيقي كان واحدًا".
- نشر دراسات أدبية حول القضايا الغنائية الكازاخية المعاصرة ومشكلات خلق الصور الغنائية الرومانسية.
- نشر مجموعة مختارة من المقالات بعنوان: "حقيقة آباي" كانت مكرسة لأعمال الكاتب الكازاخي الكلاسيكي آباي.

- أغلب الكتابات النثرية التي نُشرت للكاتب حتى اليوم تتمثل أغلبها في القصص القصيرة، والمقالات النفسية والغنائية ذات المحتوى الساخر.
- في عام 2001 صدر له كتاب جديد بعنوان: "روح الكازاخي"، وفي عام 2015 صدر له كتاب آخر بعنوان: "الضحك والدموع".
- في عام 2017 صدرت الأعمال المختارة للكاتب في مجلدين.
- ترجم الكاتب إلى اللغة الكازاخية أعمال منفصلة للكتّاب الروس والألمان واليابانيين والجورجيين.
- ترجم نصوص بعض النوادر الوثائقية والتاريخية والوطنية.
- حصل عام 1990 على جائزة "لينين" من اتحاد الشبيبة السوفيتي.
- حصل على جائزة "توليجين أيبيرجينوف" عام 1986.
- حصل على جائزة "ألاش" الأدبية الدولية عام 2000.
- يعتبر الكاتب شخصية مرموقة في كازاخستان.

معبد المرايا

كم من القرون مرت منذ أن أخذني ذلك الرجل العجوز معه، حتى إنني نسيت من أين أتى، ومتى أتى، ومن هو، مررنا عبر الممرات والتلال شاقّين طريقنا عبر صحاري قاحلة، حيث تحرق الشمس بلا رحمة، أبحرنا عبر بحار زرقاء، شاهدنا العديد من البلدان، ذات مرة وسط سهوب شاسعة مزهرة، في ضبابٍ فضي انعكست فيه أشعة الشمس، لاحظنا وجود شيء يبدو للبصر متموجًا، كقلعة رائعة راقصة، أو قصر.

كلما اقتربنا، تغير القصر الغامض المتلألئ داخل الضباب كل لحظة في حركة مغايرة، إما متوسعًا، وإما وامضًا متقلصًا.

بدون جهد، مشيت رويدًا رويدًا خلف الرجل العجوز، ولم أتخلَّف عنه، كان النعل ملوثًا بشكل لا يطاق بسبب الأرض المحروقة المشاطة في المنطقة المؤدية إلى السهوب المزدهرة، وكانت الشمس تحرق الرأس على نحو غير محتمل، كانت الحنجرة جافة، والحنك يابسًا، واللسان جافًا لا يدخل الفم، وعجزت الحنجرة عن قول أي شيء.

الرجل العجوز، كما لو أنه لم يحدث شيء، يمشي بسرعة، ويكاد يركض، وذيول ثوبه القديم ترفرف، وتبدو المسامير السوداء الداكنة على أقدامه كحذاءٍ ملبوس، نعل"الحذاء" كأنه جلد ثور سميك وغير مدبوغ، والقدمان السمراوان، لدرجة السواد، كجلد محروق، تتوحدان مع الأرض السوداء، وبالتالي لا يمكن رؤية كيف يمشي الرجل العجوز، وبما أنه يتجه إلى الأمام وذيل ثوبه الأبيض المتسخ يرفرف، كان يبدو أنه يسبح فوق سطح مظلم من الماء، شكل رأسه المألوف لي منذ فترة طويلة، والجانب الإغريقي البارز لوجهه الأسمر، تجمدًا، كما لو كانا لتمثال برونزي... يسبح... أم يعوم... ينعكس السراب الفضي في عينيه بلمعان ضارب إلى البياض.

حول قصر المرايا الغامض الذي تنعكس على قبابه أشعة الشمس، وتلعب وتومض على جدرانه كل ألوان الكون، تظهر جنَّة زمردية مع مروج خصبة مع العشب الأخضر الريان، كانت هناك برودة.

عندما وصلت أخيرًا إلى الأشجار الجميلة ذات الأغصان المنحنية من ثقل الثمار، سقطت في ظلالها... بدا لي أنني وجدت ما كنت أفتش عنه...

يبدو أنها كانت قطعة صغيرة كالكف من مرآة مكسورة، بعد أن حملتها عن الأرض، ومسحت الغبار بكمّي

عن سطحها، نظرت إليها بعناية، كلما أطلت التمعن، ازدادت لدي الرعشة من خوف غامض، وتحوّل سطح المرآة المسود إلى بئر عميقة.

صورتي الغبشة المعكرة المنعكسة في لمعان أسود، وثعبان يحدّق في وجهي من قاع الهاوية، كشبح وقع في مرآة العالم الآخر، أعلم أن ذلك أخافني... يبدو لي أنه إذا أصبحت الرؤية المرعبة أكثر وضوحًا، فإن قلبي سوف يتحطم في تلك اللحظة، كلما تمعنت أكثر في الهاوية المتدرجة في عمقها، فإنها بوضوح تقترب مني ببطء، لا أريد النظر، لكني أفتقر إلى القوة والإرادة، البئر السوداء تسحرني، لست قادرًا على أن أرفع عيني عن الشبح الغامض والصامت الذي أخافني، قطرة وراء قطرة أنزف في ظلمة لا نهاية لها، وبدأتُ أهمد، الوحش في تلك الهاوية على وشك ألا يترك شيئًا منّي، سيمتصني، ويبتلعني، ينوي البقاء في مكاني! أرتعش وأهتز متشبثًا بإحكام بحافة صغيرة كراحة يد من شظية الهاوية.

فجأة في الحلم أدركت أن ذلك كان حلمًا، في تلك اللحظة، عندما فهمت، صرخت كعادتي القديمة بشدة، بكل قوتي، بشكل حاد، في محاولة للاستيقاظ، وبالتالي أملًا في التخلص من الكابوس.

سقطت المرآة من يدي، ظننت أنني صرخت، عندما استيقظت مخنوقًا، مستنفدًا من عناء الحلم القاسي، بالكاد استطعت سماع صوتي الضعيف، كما لو كان يأتيني من مكان بعيد.

يتضح أن الرجل العجوز الذي كان يحملق، كان ينظر بثبات إليَ، بمجرد أن فتحت عيني، النظرة المخادعة لحكمته التي يبلغ عمرها آلاف السنين، وعينه عديمة اللون والمتلاشية، كالمياه المتراكمة الراكدة، انصب في داخلي، وانتشر بسرعة من خلال كل عروقي، واستوعبني تدريجيًا.

من جديد غطى عيني الرجل العجوز ضباب فضي، وبدأتا تلمعان بشكل باهرٍ كمرآة، وأنا مستلقٍ عاريًا تحت المرآة عديمة الشفقة المعلقة فوقي، والتي تصور بصورة كاملة روحي وقلبي...

العينان اللامعتان بشكل خافت، المغطاتان بسحابة من الضباب الفضي، تصبان في عيني تلك الموجات غير المرئية وعديمة اللون التي بدأت تتجول في أوردتي، ومن جديد تمتصها دفعة واحدة، تَقْرآنني ببطء مثل كتاب مفتوح.

كعارٍ، يعتريه الخجل غطى بسرعة عورته بيده، أغمضت عيني بإحكام، وغطيت وجهي بيدي.

كفي، استيقظ الآن! – أمر الرجل العجوز.

بدا أن الصوت الألفي المكتوم كان يخرج من تحت الأرض...

عندما نظرت إليه مرة أخرى من خلال جفنيَّ المفتوحتين قليلًا، لم يكن يقف بعيدًا، وفرك ساقيه بالتناوب بقدميه السوداوين الخشنتين كقدمي غراب، كان ينظر إلى قصر المرايا الذي تحركَ الضوء والظل على جدرانه كالغيوم.

رفعت رأسي، ونظرت حولي، على مسافة ذراع ممدودة بُسِط مفرش أبيض كالثلج، وفوقه وفرة من مجموعة متنوعة من الفاكهة والحلويات، وفي وعاء من الفخار، مياه ينابيع صافية.

مياه! مددت يدي نحوها وأنا ألعق شفتي المتشققتين بلساني المتورم.

توقف!

صرخ الرجل العجوز بحدة.

على الرغم من شدة رغبتي في الشرب، وبغض النظر عن حالتي شبه الواعية، إلا أنني أطعت الصوت المتغطرس القاسي وتوقفت على الفور.

أشار الرجل العجوز إلى البوابة المرآة لقصر المرايا، سحبت قدمي بصعوبة، ووقفت، وبصعوبة وصلت إلى الرجل العجوز.

على البوابة-المرآة انعكس خيالي معكرًا، وعلى الرغم من أنني أطلت النظر، إلا أن وجهي كان غير واضح، لكن ذلك لم يزعجني، وما أذهلني ليس هذا، أدهشني أنه على البوابة-المرآة بجوار خيالي المعكر، لم يكن هناك الرجل العجوز الذي يقف بجواري!...

أين أنت ؟!- سألتُ...

أنا قريب من الله...

أين أنت ؟!...

وجه القديس لا ينعكس على هذه المرآة.

أجاب الرجل العجوز، ثم أخذني من يدي، وقادني إلى البوابة-المرآة.

كلما اقتربنا، انتقل انعكاسي إلى الزاوية البعيدة للمرآة، وابتعد.

الآن فقط لاحظت أن الجدران، والقبة، وبوابة قصر المرايا هي ما يشبه فضاء بدون نهاية، وبدون حافة، يفتح، ويغلق نحو الداخل، متعمقًا ومبتعدًا تدريجيًا، عندما اقتربنا، كان الوميض المبهر للجدران-المرايا يتأرجح كالسراب، وأخذ يتلاشى تدريجيًا كأضواء المسرح، ويحل الظلام...

عند اقترابنا من البوابة، مسح الرجل العجوز جبينه المتعرق بكمه، وفي تلك اللحظة فهمت فجأة لماذا شكل رأسه بدا دائمًا لي مألوفًا؛ لقد كانت تلك جبهة سقراط المعروف للجميع...

الرجل العجوز، الذي كان يقف أمام البوابة-المرآة التي تحولت إلى رخام أسود، لوح بيده كالسيف، وفتحت البوابة، وكأنها انقسمت إلى نصفين.

بعد أن ضاقتا من الضوء الرهيب المهدد الذي لمع كنارِ برق، أغمضت عينيَّ... وعندما فتحتهما مرة أخرى، كنا نقف في ظلام دامس... أمامنا فُتح بنصف دائرة مدرج منحني ومقوس، على صفوفه المنحوتة من الصخر والمتصاعدة تدريجيًا، وضعت على مقاعد المتفرجين الآلاف من المرايا المتلألئة المبهرة والمصفوفة بإحكام.

بمجرد خروجنا إلى المنصة المضاءة، أنا... تشتت، منعكسًا في هذه المرايا التي لا تعد ولا تحصى، كما لو كنت هاربًا على الصفوف المحنية كقوس، كأوراق لعب بيد ساحرٍ، متحركة ومخلوطة ومقوسة كمروحة... كان المدرج بأكمله مليئًا بخيالي، كنت كممثل أمام صوره.

كل من يعرفك في هذا العالم موجود هنا، قال الرجل العجوز، مشيرًا بيديه إلى المرايا المحيطة، ثم استطرد:

-ابحث عن نفسك الآن!

بعد أن قال الرجل العجوز ذلك، أخذني بيدي، وقادني إلى صفوف منحوتة في صخرة، تراجع ومر من خلف ظهري، ووقف خلف رأسي مباشرة.

أنا شخصيًا لا أعرف كيف فهمت:

- هؤلاء "المتفرجون"هم صورتي المدهشة واللطيفة المطبوعة في أذهان أولئك الذين يعرفونني، صيغ مختلفة لـ"الأنا" الخاصة بي، في تقييم رؤية العيون المعروفة، أرى نفسي... هنا، على سبيل المثال، بدهشة تنظر إلي، بلمحة من المرايا المتطرفة، مظاهر مختلفة لي... أنا القديم منذ سنوات الطفولة... قد يكون هؤلاء أصدقاء الطفولة الذين لم ألتق بهم منذ أن كبرت، أو معلمين... أو حتى والديَّ بحزنهما في بعض الأحيان عليَّ... الآن، يحزنان على فترة طفولتي الملائكية البريئة.

رأيت نفسي في مرايا الفتيات اللواتي وقعت في حبهن في المدرسة، لا أبدو مميزًا، وهنا واحدة من المرايا المغطاة بضباب كثيف، قاتمة، مظلمة تقريبًا، لا شيء يُرى.

لقد نسيتك منذ زمن بعيد!... قال الصوت الواقف فوق الروح، شعرت بسخرية فيه.

بقيت لفترة طويلة أمام المرآة المعكرة...كانت حبي الأول...

تابعت سيري، متنقلًا بين الصفوف.

في أي مظهر لم أر نفسي؟! أنا... الراضي، أنا... الحساس، أنا... المتسكع، أنا... الجشع، أنا... الماكر، أنا... الضار، أنا... المخادع، أنا... الأحمق، أنا... المتقلب، أنا... العنيد، أنا... الجاهل، أنا...

من الصعب التصديق، ولكن كان هناك العديد من هذه الصيغ لصورتي.

يراك كثيرون على هذه الهيئة تحديدًا!، الرجل العجوز لا يتخلف عني، مثرثرًا كغراب العقعق.

- إن كنت تبحث عن الحقيقة، يجب عليك أن تعترف بهذا أيضًا.

لا أعرف لماذا، لكني الآن لا أريد أن أنظر إلى الوراء. أخشى... نفس الرجل العجوز بارد.

بعد أن فحصنا الصفوف المتلألئة، صعدنا إلى الأعلى، وصلنا إلى الوسط، هذا الرجل الشرير على هذه المرايا المظلمة القاتمة، السوداء والكئيبة، إما من الوسخ أو من سواد الدخان... لا سمح الله، لم أكن قذرًا لهذه الدرجة، وعلى الأرجح لن أكون أبدًا!

أعداؤك... انظر جيدًا! قال الرجل العجوز في صوت آمرٍ صارم، نفسه الجليدي المخيف يحرق مؤخرة رأسي، أرتجف...؟!

ظننتَ أنه ليس لديك أعداء؟ ها! لديك أقارب يصعب عليهم حتى إنك تمشي على هذه الأرض... أنت لا تعرف أي شيء... أنت لا تعرف أي شيء!

كل ما قاله الرجل العجوز كان صحيحًا، لقد أضعت عدد المرايا السوداء، شعرت بثقل على روحي، وتنهدت

بمرارة: "عالم فاسد!"

أدهشتني بشكل خاص إحدى المرايا، عندما اقتربت منها، رأيت أن الانعكاس فيها يتغير باستمرار، تارة يومض، وتارة يحمرُّ، خجل مني!

عندما رآني خيالي في المرآة، لم تكن لديه القوة على النظر إليَّ مباشرة، فأخفض نظره شاعرًا بالذنب، لا أدري، لكنه مدهش، قد يكون العجوز المستبصر واقفًا خلف ظهري، ينظر صوبي، ويدخل إلى وعيي موجات غامضة غير مرئية من الإيحاء، لكني فهمت، المرآة، تذكرت كل ذنوبي في هذا العالم الهالك، المقصودة أو غير المقصودة.

في لحظة ما، سوف يراني أولئك الذين كانوا أضعف مني في السابق، ولذلك عانوا أفعالي، في هيئة هذا الشخص التافه في المرآة... أو بالأحرى، يريدون أن يروا... أما أنا... أنا فهمت كل شيء، ورأيت... ولكن لم أشعر بأي تأنيبٍ للضمير، فهمت، ورأيت، ولم أكن آسفًا على أي شيء... أوه، عالم هالك! أشفقت على هذه المرايا الساذجة...

أجل... كل شيء خدعة! سخرية سيئة تبعتني بنظرة باردة، دون أن تضيع أي شيء، قارئة أفكاري، وتركتني في رعشة، وها هي السخرية اللاذعة تبتسم ابتسامة عريضة:

- في هذا العالم ليست هناك عدالة، ولا حقيقة، هذا العالم كالرمل يتفلت من خلال أصابعك، شبح ضبابي، سراب خادع. ولا شيء أكثر!

يبدو أن الرجل العجوز يريد أن يوقظ في داخلي شيئًا ما، ويخيب ظني، أو إذلالي، والسخرية مني... أنا لا أفهم هذا الرجل العجوز، أخشى أن أقول شيئًا ردًا على ذلك.

أخيرًا وصلنا إلى الصفوف التي أُرى منها في صورة جذابة، هنا بقيت لفترة طويلة، ونسيت التعب، والجوع، وسخرية الرجل العجوز، نسيت كم كنت منهكًا من العطش.

حدقت في المرايا المضللة، في مجموعة متنوعة من الصور الممتعة، متنعمًا بخيالي اللطيف... أعرف أن جميع المرايا تكذب هنا، السيئة والجيدة على حدٍ سواء، لكن، على الرغم من هذا، قبل المرايا "الجيدة" قوَّمت نفسي بشكل غير مقصود، وتحسن مزاجي، خصوصًا أمام هذه المرآة المتطرفة... هنا أنا أشبه نفسي كثيرًا... لا، يجب أن أكون هكذا... أود أن أكون هكذا، لا،... هذا أنا نفسي، هذه ليست صورة، هذا... أنا! لأن في المرآة انعكس الحب... ومن لا يحب نفسه؟ من نفسه...

هذا هو أفضل صديق لك، قال الرجل العجوز المقيت، مبتسمًا خلف ظهري، -إنه ينظر إليك من خلال عيون التوق إلى الكمال والمثالية، إنه لست أنت على الإطلاق!...

ليكن!، أجبته بعد أن ضقت ذرعًا، وكدت أنفجر من الغضب قبل أن أستطرد:

- الصديق هو "الأنا" الثانية للإنسان!

هم... م... يبدو أن من قال ذلك هو زينون... وهل تؤمن حقًا بهذه الكلمات؟ أتعلم، كان لدي العديد

من الأصدقاء أيضًا، وكانت لدي أغنام أكثر، من المثير للاهتمام أن الناس يعرفون عدد الأغنام التي لديّ، ولكن... ها، ها... لم يعرفوا عدد ما كان لدي من الأصدقاء... كانوا أصدقاء لا قيمة لهم...

قلت دون أن أرفع نظري عن المرآة:

هذا لا ينطبق على أصدقائي، صديقي!

.... لا يساوي خروفًا واحدًا، قال العجوز بلهجة واثقة، ثم استطرد:

– لقد مرت ألفيتان ونصف الألفية من السنين وأنا أتجول بين العوالم... ألفيتان ونصف الألفية! دهر من التجوال كفيل بأن يجعلني موضع ثقتك.

ارتجف ظهري وبرد من نفسه البارد، عندما ذكر الرجل العجوز بالألفيتين ونصف الألفية، كدت أستسلم، لكني بقيت بعناد عند رأيي، في نهاية المطاف، قلت رافعًا صوتي بغضب:

–هذا العالم، هذا الإنسان .... مرايا، في نهاية المطاف، أنتم... أنت مجرد نتاجات لإرادتي المستقلة! لا يوجد سوى "الأنا" في العالم! والباقي هو كذب... أنت أيضًا كذبة...

هيه... هيه... هيه... يبدو أن لديك مفاهيم ضبابية من هؤلاء الفلاسفة المساكين، هل لديك عمومًا كلماتك الخاصة؟ ها قد وصلنا الآن إلى تلك المرآة المنفصلة.

أحييت بعض الأمل في روحي، وسارعت إلى المرآة التي أشار إليها الرجل العجوز، كانت "الأنا" الأكثر واقعية، لا أكثر ولا أقل، وبدون زخرفة، لأنه بمجرد أن نظرت إلى خيالي في هذه المرآة، أخذني الشوق، نعم، كان ذلك أنا اليومي، الدائم... أنا الذي مللت من نفسي!...

هذا أنا.

لا، هذا ليس أنت، أجاب الرجل العجوز مرة أخرى.

– هذا هو مجرد تصورك عن نفسك... انظر في المرآة، في أي جانب هي أذنك اليمنى؟

إلى اليمين.

في أي جانب يدك اليمنى؟ ارفع يدك!

إلى اليمين.

انفجر الرجل العجوز ضاحكًا:

في المرآة أنت تقف مقابل نفسك، أليس كذلك؟ أي أن الجانب الأيمن من جسمك يجب أن يعكس في المقابل إلى الجانب الأيسر، أليس كذلك، ماذا تظن؟

لم يكن لديَّ ما أعترض به، صمت في غضب عاجز.

إن كل شيء خدعة، قال الرجل العجوز بصوت غير واضٍ، يهبُ الرطوبة لقاع القبر، صوت من مسافة ألفيتين ونصف الألفية، واستطرد:

–ناهيك عن الباقي، تصورك عن نفسك هو خدعة أيضًا، أنت لست هنا!

صرخت متنهدًا.

إذن، لماذا جئت بي إلى هنا؟!، أنت نفسك أثرت اهتمامي عندما وعدت بأنك "سوف تساعدني على فهم ذاتي".

ما إن قلت ذلك، حتى دوى صوت الرجل العجوز عاليًا كصدى يضرب الصخور:

إذن، انظر إلي!

من الصرخة العالية المفاجئة التي أطلقها الرجل العجوز، تجمدت كل مرايا المدرج، خفتت، وبدأ تألقها يتلاشى.

أنا... لم أتحرك... أنا خائف...

استدر إلى هنا! انظر إلي!

فجأة، في هذه اللحظة تحديدًا شعرت بأن من يقف خلفي لم يكن الرجل العجوز، بل مرآة باردة لا تعرف الشفقة، ليست صديقًا، وليست عدوًا، بعيون القبر المتثائب، من ظلمة الألفيتين ونصف الألفية، خلف ظهري نظرت إلي مرآة غير مبالية وبلا إحساس، بدا تألقها اللامبالي والمميت وكأنه يتوهج عبر كامل جسمي، واضعًا للعرض إياي، كلي، دون أن يترك شيئًا! مرآة قاسية! مخيفة، ميتة! الآن فقط صورتي معلقة فوقي مباشرة، خلف مؤخرة رأسي، إنها ليست سيئة، ولا جيدة، إنها بلا معنى، تقف فوق الروح، مثل تلك الرؤيا، الشبح الغامضة القاتمة، من أعماق الهاوية بعينيها الباردتين تتوهج كالزئبق بشكل خافت.

كم هم رحماءٌ أعدائي! الصور القبيحة على مرايا أعدائي لم تكن هامدة.

كم كان أصدقائي عادلين! كان الكذب الجميل في عيونهم لا يزال على قيد الحياة.

لا! الميت في المرآة الميتة، لم يكن أنا!

أنا...خدعة حية وجدت انعكاسها في المرايا العديدة للمدرج.

كل هذا غير صحيح! قال الرجل العجوز الذي قرأ أفكاري (الآن لم أشك في ذلك). واستطرد :

-الحقيقة موجودة خلفك مباشرة، على بعد خطوة أو خطوتين. فقط أدر رأسك.

ما زلت لا أجرؤ على النظر إلى الرجل العجوز، أنا تائهٌ، ارتجف خوفًا.

لا أريد أن ألتقي بنفسي، فألٌ سيئٌ.

استطردت بصوت مرتعش -هذه الخدعة هي بيتي، مَلجئي!

لماذا، إذن، تحتاج إلى البحث عن الحقيقة؟

لا أعرف لماذا، عندما سأل الرجل العجوز هذا، تذكرت عينيه، المرايا، المغطاتين بضباب مائل إلى اللون الأبيض، ومظهرهما الذي جعلني ارتجف عند الاستيقاظ...

الحقيقة في هذا العالم -هي هذه المرايا، قلت مانحًا الثقة لصوتي، أنا هو ما تقول، وهي تقول كذبًا، لكن كل هذا أنا، أنا لست بحاجة إلى حقيقة أخرى.

قال الرجل العجوز بصوت مندهش:

لقد بدأتَ تقول كلماتك، لكنك مخطئٌ جدًا! في هذا العالم لا يوجد سوى حقيقة واحدة، الحقيقة الوحيدة التي تبحث عنها في هذا العالم هي الحقيقة الأولى والأخيرة، هي أنت نفسك، في ذلك اليوم الذي تفهم فيه نفسك بشكل نهائي، ستجد نفسك بالقرب من المطلق... إن كنت لا تصدق، استدر، انظر إلي!

لا أصدّق، لن أنظر!

لماذا لا تصدّق؟ سأل الرجل العجوز بسرعة هامسًا ومتنهدًا... ثم استطرد:

تذكر تلك الأشجار في الجنة، والفاكهة المتدلية، والثمار على المفرش المفروش، وماء زمزم في الآنية الفخارية، كل هذا أُعدَّ لك!

خصوصًا عندما ذكر الماء، والمياه الباردة والصافية...

لا أصدّق!

صرخت بعد أن خشيت من أنني كنت على وشك أن أنظر إلى الوراء، كم هو صعب أن تصمد أمام إغراء الشيطان...

واصلت:

-أعلم، خلفي أرض قاحلة يابسة، هناك يُحرقون في الجحيم... أعلم أنه لا يوجد أحد يحررني من ذلك الجحيم، بعد أن تصل إلى هدفك، سوف تتخلى عني... وتختفي...

انظر إلى هنا، أقول لك! همس الرجل العجوز كالثعبان، مسيطرًا على مؤخرة رأسي بنفسه السام، فسرت القشعريرة في جميع أنحاء جسمي.

استطرد:

- استدر، وانظر في عيني، أيها التعيس!

ارتجفت، تمالكت نفسي، لا أتحرك.

فجأة انفجر الرجل العجوز بالبكاء، صوت غريب، صوت اليأس، كعواء ذئب جريح، دوى صداه في المدرج، فشعرتُ بالخوف.

لماذا-ا-ا؟!.

بصوت متوتر من اليأس، بكى الرجل العجوز بشدة ومرارة. - لماذا... أنا... مرَّت ألفيتان ونصف الألفية وأنا أتنقل بدون جدوى بين العوالم... ألفيتان ونصف الألفية! لماذا لا يريد أحدٌ أن يرى نفسه الحقيقي، لا يريد أن يعرف، لماذا يا إلهي؟! أنت أملي الأخير، أنت انظر إلى هنا، بالله عليك، استدر إلي! أنقذني من هذا العذاب! سوف تصبح في مكاني، وسوف تتجول بين العوالم... إلى الأبد... أنا متعب... متعب-ب-ب...

الآن، فقط بعد أن تأكدت أن مخاوفي بشأن مهمة الرجل العجوز كانت عادلة، جمدت...

سأبقى معها.

أجبت بحزم، مشيرًا إلى مرايا الأصدقاء والأعداء التي تحيطني...

كنا في قلب المدرج، فجأة على سطح المرايا ومضت أشعة وبدأت تلعب، كل شيء من حولي ازدهر بكل ألوان العالم، وعادت إليه الحياة.

اغرب عن عيني!

دون أن ألتفت، صرخت كالسابق بصوت عالٍ في وجه الموت المعلَّق فوقي الباكي بحزن وصمت،

مغفلٌ!

تمتم الرجل العجوز بصوت ضعيف ومجرد من الأمل...

- مغفلٌ؟، "مغفلٌ"؟

لقد أخطأ الرجل العجوز! هذا ليس صحيحًا! لا توجد حقيقة وراء ظهري في هذه اللحظة! الحقيقة ليست لها لغة، الحقيقة لا تعطي مثل هذا التفسير -"مغفلٌ"، إنها نزيهة، يمكن أن تُعاش، وتُقرأ في القلب، أو، عند رؤيتها، تموت.

شعرتُ بأن مرآة الرجل العجوز عادت إلى الحياة، وهي الآن منهكة، ومشوشة، لأنها عندما أعطت للمشاعر الحرية، لم تتحمل حزنها، ومعاناتها، وانحرفت عن الحقيقة.

بعد أن شعرت بذلك، استدرت فجأة، ونظرت إلى الخلف!

المرآة-الرجل العجوز خشخشت وانهارت أمامي وتفتت إلى قطع صغيرة، وتحولت إلى كومة من القمامة...

على الفور توهج المدرج بآلاف المرايا، كل معاريفي في هذا العالم، من مقاعدهم بدأوا بالتصفيق، مسح أقاربي وأصدقائي الدموع، في حين رمى أعدائي حزمًا من الباقات...

اختفي الرجل العجوز دون أن يترك أثرًا، كما لو أنه لم يكن...

... اتضح أن زوجتي جاءت، وجلست عند قدمي، وأدارت التليفزيون... اجتماع احتفالي بمناسبة يوم الاستقلال... الناس، واقفين من مقاعدهم، يصفقون بأيديهم، ثم يجلسون ببطء، أخذ الرجل الكبير رشفة ماءٍ من كأس تقف أمامه، واستعد لمواصلة كلمته... بدا لي أن شعاع المرآة الباردة ظهر خلف المتكلم، خلف مؤخرة رأسه مباشرة، بينما كنت أفرك عيني الناعستين، وأرفع رأسي، وأنظر بانتباه أكبر، تحولت الكاميرا إلى صورة مقربة.

نورغالي أوراز

(ولُد عام 1960)



- تخرج في كلية الصحافة التابعة للجامعة الوطنية الكازاخية، وصدرت أول قصة قصيرة له عام 1972 في جريدة "جاس ألاش"، وأول مجموعة قصصية له عام 1985 بعنوان "الرياح الوافرة".
- صدر له العديد من الكتب الأخرى مثل: "أطفال من باكيرشا"، "تاريخ قازيجروت"، "حكاية غير مشروعة"، "الجمال الصارخ"، "البحيرة الساحرة"، "الوحدة في الليل".
- استقبل جمهور القراء أعمال الكاتب بترحيب كبير، بل إن الكتاب أنفسهم ثمنوا موهبته الأدبية.
- عام 1985، كتب الكاتبان الكبيران شيرخان مورتازا ودولات إسابيكاف مقالة كبيرة تناولا فيها الموهبة الجبارة لدى نورغالي، تعليقًا على قصته "تاريخ قازيجروت".

- يكتب نورغالي مقالات عن القضايا المعاصرة، والمقالات الأدبية، والتي نشرت في كتابيه "أهل المدن الجدد"، و"دموع الحصان".
- يعمل نورغالي في مجال الدراما، ومن أهم المسرحيات التي كتبها "النجمة المفقودة"، "الليل في الجبال"، و"الكرة الأرضية" وتم عرض هذه المسرحيات على المسارح الوطنية.
- في عام 2007 تم إنتاج فيلم "سويتا" باستديوهات "كازاخ فيلم" وهو مستوحى من القصص القصيرة لـ نورغالي.
- تُرجمت أعماله إلى اللغات الروسية والتركية والأوزبكية، وتم تضمين قصته القصيرة "الخدعة" في برنامج الأدب في المدرسة الابتدائية.
- حصل نورغالي على جائزة "ألاش" الأدبية الدولية.
- حصل على جائزة "كاشجاري" التي تمنح للكتاب الناطقين بالتركية.

عش طيور
الكَراكيّ البيضاء

انتشر في المنطقة خبر غير متوقع: أكميراز أقلع عن الشراب.

الطبيعة نفسها ابتهجت بهذا التغيير، فها هي الشمس منذ عدة أيام تشع مشرقة في السماء الصافية، والثلوج الكثيفة الجاثمة منذ قرابة ستة أشهر، بدأت بالذوبان بسرعة، مفسحةً المجال للخضرة الفتية، وبراعم الأشجار مع كل يوم تنتفخ أكثر وأكثر، وغدت جاهزة للتفتح تحت ضغط الأوراق الناشئة.

عقب انتهاء العمل أمضى أكميراز ساعات على الأريكة بالقرب من المنزل،كان رجلًا قصيرًا نحيلًا، ودائمًا يظهر في قميص، يبدو وكأنه أنه وصل إليه بالوراثة عن جده الأكبر البطل.

كان يفكر، وكانت الأفكار ثقيلة مثل سحب الرصاص، حاول أن يتذكر سنوات حياته مع قمر، ولكن غير السُّكْر والسباب، لم يتبادر إلى ذهنه أي شيء.

لم يسمع أكميراز أصوات الكَراكيّ، لكن صرخة ابنه الأصغر كيليسباي نزعته من ذهوله.

– كوكي(1) ، انظر، طيور الكَراكيّ تحلق!

رفع أكميراز رأسه عاليًا لتجول نظراته فوق القرية، كانت طيور الكَراكيّ تحلق، دون أن تلفت انتباه أحد، حتى رفرفة أجنحتها لم تكن ملحوظة، كانت تطير ببطء شديد، كما لو أنها ترغب في فهم الحياة البعيدة في الأسفل...

سرت موجة دفءٍ في روح أكميراز، ووصلت حتى حنجرته، لتمتلئ عيناه بالدموع، "من أين تأتين أيتها الطيور المقدسة؟" –يتأملها متمتمًا: يا إلهي، لم أركِ منذ زمن طويل!

– كوكي، لماذا تبكي؟

(1) كوكي: صيغة احترام عند مخاطبة من هو أكبر سنًا.

مسح أكميراز الدموع المتراكمة.

- هكذا... ربما لأنني لفترة طويلة نظرت إلى السماء.

- أنا أستطيع النظر طويلًا، ولا أبكي، - قال كيليسابي متباهيًا.

- عيناي مريضتان، لا داعيَ!

تاشكينباي الذي كان يلهو على دراجته الهوائية، وضع العجلة جانبًا وحذَّر والده:

- كوكي، لا تمنعه، فالآن سيزداد شقاوة.

إذن هكذا... هزَّ أكميراز رأسه ندمًا وفكر: "لماذا لا أعرف أي شيء عن طبعه؟ ...."

- أمس الأول، حلَّقت أيضًا فوق القرية طيور الكَراكيّ، -نظر كيليسباي إلى والده مختبرًا. - يقول أريسبيك إن هناك أيضًا طيور كَراكيّ بيضاء، هل هذا صحيح، يا كوكي؟

- أجل، هناك بيضاء أيضًا.

- هل رأيت بنفسك؟

- لا، لم أر.

- وأين تعيش؟

- لا أعلم، بعيدًا، ربما.

أثارت طيور الكَراكيّ المحلّقة شيئًا في الروح، جعلت أكميراز يتذكر طفولته الحافية، والعشب الأخضر الذي كان يدغدغ كعبيه بلطف...

وفجأة رأى حذاءً مهشمًا وباليًا على قدمي كيليسباي، كان أكميراز قد شاهده من قبل، لكن للمرة الأولى انكمش قلبه من الألم.

- هل تذهب بهذا الحذاء إلى المدرسة؟

نظر كيليسباي مرتبكًا إلى الكعبان شبه الممزقين، وهزّ كتفيه، واتجه فجأة إلى والده:

- كوكي، ليس لدى تاشكينباي أحذية على الإطلاق، يمشي بحزم مطاطي.

من التنهد العميق هبط خدا أكميراز الغائران أكثر، سعل من الدخان الكثيف، واستدار دون أن يجيب بشيء.

بعد أن تذكر أكميراز قُرب تسلُّم المرتب، انتعش، فهو الآن لا يشرب، والنقود يجب أن تكفي للمشتريات، ولزوجته يجب شراء شيء ما... ومع تدفق هذه الأفكار هدأت روحه، وتنفس بارتياح.

كان يعمل ميكانيكيًا في ورشة، ولم يكن مرتبه سيئًا، لكنه لم يتذكر كم كان يشرب، وكم كان يحضر إلى البيت، في كثير من الأحيان كان يعود إلى البيت ثملًا، يدندن بالأغاني، وغير قادر على المشي بشكل مستقيم في الشارع،كانت تستقبله زوجته وعيناها مفعمتان باليأس، وأقسمت أنها ستتركه.... "إيه، قمر، قمر، أي ذنب ارتكبتِ ارتكبت لتتحملي معاناة تربية خمسة أبناء، وفوق ذلك تتحملين زوجًا سكّيرًا...."

خرجت قمر إلى الفناء، وأخرجت كل ملابسها ووسائدها، نظر أكميراز إلى زوجته، ولأول مرة في السنوات الأخيرة بدأ قلبه ينبض بسعادة، أراد أن يعانقها، لكنه خجل من القيام بذلك أمام الأطفال.

لم يكن أمامه سوى أن ينتظر حتى تنهي قمر أعمالها كافة، ومضى يتنقل بين الغرف حتى المساء دون أن يعرف مكانا به يستقر.

أراد أن يرى ما الذي يقرأوه أريسبيك، لكن الأخير، ولسبب ما، علت الحمرة وجهه وغطّى الكتاب بيده، لم يقل أكميراز شيئًا، مشى على الفور وذهب إلى الغرفة الكبيرة؛ حيث كان مونتاي وزاداريا يمرحان فخدش كل منهما أنف الآخر، لتصفعهما قمر، فناما بهدوء وبراءة، فقط ظل كيليسباي جالسًا مقابل التليفزيون، مكابدا في مقاومة النعاس، على أمل أن يُسمح له غدًا أيضًا بالجلوس لفترة أطول.

أخيرًا انطفأت الأنوار في جميع الغرف، تفقدت قمر الأطفال مرة أخرى، وصححت البطانيات فوقهم، وأزالت قطع الحديد التي أحضرها تاشكينباي من الشارع، لتستلقي أخيرً متعبة على السرير.

اقترب أكميراز من زوجته، ولمس كتفها بلطف.

– قمر، لقد أقلعت عن الشرب تمامًا، اسمعيني، لن أضع ولا حتى قطرة واحدة في فمي،صدقيني.

بدون أن تدير رأسها، أجابت قمر بصوت خافت:

– لا أعرف.

– صدقيني.

همس أكميراز بحرارة.

– أعطيك كلمة، أقسم بأولادي.

استدارت قمر نحو زوجها، وسألته بثقة أكبر:

– أكان(2) ، حقًا؟

ارتعش أكميراز من المفاجأة، فمنذ زمن طويل لم تناده على هذا النحو، غاص في شعرها الأسود الكثيف الذي تفوح منه رائحة خفيفة للبن الرائب، لمست يداه برفق زوجته، وداعب جسدها، في حين التصقت هي بثقة به، كما كانت في ليلة الزفاف الأولى....

رفعت قمر رأسها وتمعنت في وجه أكميراز :

– هل أقلعت حقًا؟ كن صريحا معي؟

– أقسم لك!

ألصقت قمر خدها بخد زوجها، وهيمن عليهما ارتخاء حلو،كانا مثل عاشقين التقيا بعد انفصال طويل، استلقيا متعانقين بقوة، لتترقرق المسام بمشاعر الحب بعد طول جفاف.

(2) أكان: صيغة تحبب من اسم أكميراز .

بعد أن تشجع أكميراز قليلًا، سأل:

– قمر، قولي الحقيقة، بمَ فكرتِ بي؟

تلاشت الابتسامة المريرة من على وجه الزوجة، لتظهر على الفور ابتسامة من القلب.

– لم يكن لدي الوقت لذلك، سعيت حيث كان لازمًا لإطعام نفسي، حلمت بأن يكبر أريسبيك، وأزوجه، ربما سيصبح الأمر أسهل.

– حسنًا، حتى ذلك ينبغي أن نستمتع بحياتنا.

– بعد الصف الثامن قرر الذهاب إلى المدرسة الثانوية.

تفاجأ أكميراز ، وهتف في دهشة:

– أوه! أيعقل أنه أنهى الصف الثامن؟ بدا لي وكأنه في السادس.

– أي سادس... بالأمس كان يقف عند منزل ماكان ويصفر، كان يغازل ابنته.

نظرت قمر بفخر إلى زوجها، وضحكت فجأة.

– عجوزان أنا وأنت....

ابتسم أكميراز لفرحة زوجته غير المتوقعة، لكن عندما تذكر الحديث مع كيلسباي، عبس.

– لقد اهترأت ملابس الأطفال تمامًا، غدًا اكتبي على ورقة، ما يحتاجه كل منهم، وعندما أتسلم المرتب سنذهب سويا ونشتري.

طويلًا لم يستطع تحاشي النظر إلى قمر النائمة، وإلى التجاعيد التي كانت بالكاد مرئية في الظلام، وشعر بالأسف عليها...

منذ ذلك اليوم سكنت السعادة في منزل أكميراز، بدت قمر أصغر سنًا، توردت، ودوت ضحكتها الرنانة في نسيم الربيع، وغرست الطمأنينة والثقة في قلب أكميراز، وخفت حدة جدليات ومشاجرات الأطفال، وانخرطوا في أعمال المنزل، جرف تاشكينباي الروث في الزريبة، وبهيئة الشخص المهم نظر إلى أبيه، في حين تجادل مونتاي وزاداريا من منهما سيجر العربة.

راقب أكميراز تاشكينباي، بابتسامة رضى، وفي محاولة منه للتشجيع وعد قائلًا:

– فور تسلُّمي النقود سأشتري لك حذاء.

ابتسم تاشكينباي بتحفظ:

– كوكي، أريسبيك يريد سروالًا قطنيا، وهو أغلى، من الأفضل أن تشتريه له، وأنا سأستخدم حذائي القديم.

انتاب أكميراز الشعور بالحيرة، إلا أنه أومأ برأسه، وقال:

– لا تقلق ، سأشتري كل شيء، النقود تكفي للجميع.

أراد أن يعانق ابنه، لكن تاشكينباي ابتعد، ونظر في عيون أكميراز بخجل، وقال بهدوء:

- كوكي، دعنا نعيد ثمن الطحين.

- أي طحين؟

لم يجب أكميراز، إلا أن رأسه ماجت بذكريات فصل الشتاء، حين أحضروا الطحين إلى المخبز، ولم يكن هناك أحد لتفريغه، طلب الخباز المساعدة من إكرام وأكميراز الذي كان مارًا بالقرب، على الفور وافق أكميراز الذي كان ثملًا، وأفرغوا السيارة بأكملها.

إكرام يركض إلى جانبه، ويمدح:

- ليعطكَ الله العمر المديد! الحمد لله!

أكميراز يحمل كيسًا آخر، ويسأل بارتياح:

- ها، كيف؟

ومرة أخرى ينصت إلى الرد:

- أوه، ممتاز! فلتعش ألف عام!

"يكفيني مائة عام"، - فكّر أكميراز ،- الأفضل لو يسكب مائة غرا،لم يتحمل، وألمح قائلًا:

- لو أبلُّ حلقي ....

تململ إكرام:

- أوه، أكميراز ، لقد أغلق المحل، وليس هناك شيء في المنزل.

- يمكنك أن تأخذ من عند كالمان.

رد إكرام وكأنه يترنم بمقطع من أغنية حزينة:

- وأين، وليس لدي مال؟

صاح أكميراز في غضب:

- إذن، أعطني كيس طحين.

أغلق إكرام عينيه بارتباك.

- لا يمكنك أكثر.

- مسموح لي.

قال أكميراز ، وهو يضع الكيس على ظهره متجهًا نحو المنزل:

- إيه، أكميراز ، أكميراز!

هزَّ إكرام رأسه، لكنه لم يلحقه، وظل واقفًا في المخبز.

علمت قمر بالأمر بعد فوات الأوان، عندما لم يُعد هناك حتى نصف كيس من الطحين. بكت، ولم يكن بوسعها ما تفعله، فالنقود ليست دينًا يُردُّ.

نظر أكميراز إلى تاشكينباي، وامتقع وجهه الشاحب ببطء:

- لا تذهب بك ظنونك بعيدًا، أنا لم أسرق، سأتسلم راتبي، وسأعيد كل المال.

جاء يوم تسلُّم الراتب، منذ الصباح تم إعداد قائمة بالمشتريات أملتها قمر، على ورقة من دفتر الطالب، وبحروف كبيرة كتب كيليسباي: لأريسبيك سروال قطني، لتاشكينباي حذاء، ولي قميص، ولزادا ريا ومونتاي سيارات، لأمي....

- إيه، أنا اتركوني للمرة المقبلة.

ضحكت قمر.

- الأفضل أن تذهبوا للعب.

لا حاجة لإقناع زادا ريا ومونتاي، فعلى الفور ركضا إلى الشارع، ووجدا نفسيها في سحب معكرة من الغبار من السيارات المسرعة، ركض بعضهما وراء بعض، وصاحا:

- سيشترون لي سيارة!

- ولي أيضًا.

تابع كيليسباي الصخب، ليهزَّ رأسه مستنكرًا، ونظف الفناء بحماسٍ، مثيرًا غبارًا لا يقل عن السيارات المارة.

من حين لآخر يستقل تاشكينباي دراجته متوجها لرؤية والده، إلا أن الخجل يحول بينه وبين الورشة، فيعود من منتصف الطريق.

هبطت الشمس أكثر وأكثر نحو الأفق، ذهبت أشكينباي إلى فناء المدرسة للعب كرة القدم، نادت قمر على زادا ريا ومونتاي، اللذين، لشعورهما بمعاناة أمهما، بكيا قليلًا وعادا إلى المنزل، وحده كيليسباي يقف بعناد عند البوابة منتظرًا أباه.

قريبًا سيغلق المتجر، لكن أكميراز لم يظهر بعد.

ينفد صبر كيليسباي، عندما رأى ناشكينباي راكضًا، أمسكت السعادة بحنجرة كيليسباي، وأصبح لا يقوى على الصراخ، وركض بفمه المفتوح للقاء أخيه:

- ماذا، "أبو"نا... كوكي قادمٌ؟ سأل لاهثًا.

مسح تاشكينباي الدموع بكمه، وبكى بصمت، لم يفهم كيليسباي شيئًا، فكرر السؤال:

- ما بك؟ هل تعاركت؟ أبي أين؟

- كوكي... كوكي ... سكران. بالقرب من منزل ماكان، يقف عند السياج.

لم يستوعب كيليسباي الذي انفرجت عيناه ليردد في ذهول:

-هذا غير ممكن، لقد وعد... وعد بالذهاب إلى المتجر.

جالت الدموع في عيني كيليسباي، وأراد فجأة ترك كل شيء ومغادرة القرية، على صراخه هرع إلى الفناء زاداريا ومونتاي، اللذان، عقب رؤيتهما للدموع في عيني الأخ الأكبر، كادا يبكيان.

بعد أن وصل بصعوبة إلى المنزل، رأى أكميراز أطفاله يصطفون رتلًا بالقرب من البوابة. كانوا جميعهم ينظرون بحيرة إلى والدهم، في حين حدَّق هو فيهم متمايلًا.

- لماذا يقفون؟ يصطفون كطيور الكَراكيّ.

هكذا بدا الأمر في رأسه الضبابية، أن أطفاله يشبهون بشكل مخادع طيور الكَراكيّ البيضاء، ها هم يرفرفون بأجنحتهم مرتفعين إلى الأعلى، خاف أكميراز ، وارتجف قلبه، "إلى أين.... إلى أين تطيرون؟ هذا هو عشكم".

بعد أن فكَّر بذلك، فتح ذراعيه، وهرع إليهم، فسقط.

جوسوبيك كورغاسبيك

(ولُد عام 1961)



- كاتب نثر ومقالات وسيناريوهات، تخرج عام 1984 في كلية الصحافة التابعة للجامعة الوطنية الكازاخية، وقد بدأت قصصه القصيرة في الظهور على صفحات الجرائد الحكومية الدورية في منتصف ثمانينيات القرن الماضي.
- من أهم أعماله: قصة "القافلة الزرقاء" عام 1985، قصة "المنيع" عام 1995. وقد أثبتت هذه القصة الموهبة الفريدة التي يتمتع كورغاسبيك في النثر الكازاخي الحديث، كما أن النوعية الدرامية التي يكتبها وديناميكية الأحداث والأبطال التي يرسمها جذبت إليه صناع الأفلام السينمائية.
- إنتاج فيلم "المنيع"، مستوحى من قصة "المنيع" لـ كورغاسبيك باستيديوهات "كازاخ فيلم"، وعلى أساس رواية "الإنسان - الذئب" تم إنتاج فيلم "النجاح" من الأفلام الطويلة.

- وفي السنوات اللاحقة، ظهرت رواية "الجوي" وتسببت في آراء مثيرة للجدل في وسائل الإعلام، إضافة إلى رواية "شجرة البتولا المجنونة"، و رواية"أمهات الذئاب".
- كتب كورغاسبيك العديد من المقالات والبرامج التلفزيونية المكرسة لمناقشة القضايا الأكثر حيوية في المجتمع، وقام بكتابة الكثير من المقالات الأدبية عن أكثر الشخصيات شهرة في الوقت الحاضر تاركًا بصمة مضيئة في الفن والأدب الكازاخي، ومن بين تلك المقالات " آباي الأسطوري"، "موكاجالي وفاريزا"، "أرالخان الأسطوري"، "بيك سلطان الأسطوري"، "تورانجا وتورسينجان" وغيرها الكثير.
- حصل على العديد من الجوائز الأدبية من دار نشر "جالين" عام 1987 ومن مجلة "أق جابيك" عام 2015.
- حصل على الجائزة الأدبية المستقلة "تارلان - الأمل" التي أنشأها رعاة الفنون في كازاخستان.

فــن

لا يحدث هذا كل يوم، أن يصادف المرء مثل هذه الرؤيا الرائعة، التي لا يمكن مقارنتها إلا بقوس قزح، حين يغمر الأفق بألوانه، بل وطالت تلك الألوان مكتبه الواسع، حتى بطتي ساقيها تحت الفستان الأزرق والأخضر القصير.

دلفتْ عبر الباب لتتنقل بين أرجاء المكتب بشكل مهيب، ولو وُضِع في تلك اللحظات إبريق مليء بالماء فوق رأسها، لما سقطت منه قطرة!

وهي تقترب منه في خطوات قصيرة بطيئة، بدأ غطاؤها الخارجي بالزحف والسقوط على الأرض، وبتحدٍ جلست في مواجهته.

مع امتلاكك مثل هذا المظهر، ما حاجتك للتجول ككويكب فقير؟!

ردد كلماته في غضب واستياء من شيء ما.

هو، الذي لم يكن قد بلغ بعد قممًا كبيرة من المجد، تملكه الغضب من تيار الحياة المتواصل والمتدفق بسرعة لا يمكن تصورها.

أيضًا هذه الفتاة الفراشة التي كان يفوح منها عبق الأرض البكر وأوائل الربيع، شعر بنفسه أمامها مجروحًا حتى أعماق روحه، ويكاد أن يكون مهانًا، عبس كنسر هرم غاضب، لكنه نجح في أن يلاحظ أن شعرها كان كثيفًا (1) كعشب تطاير بعد حريق، أسود كالفحم، طويلًا بحيث لو جُدل حول عنقها، فإنه سيشد بإحكام.

حول تجويفي عينيها بدا أن ظلالًا تسقط، ووجهها تحت قوسيّ الحاجبين أصبح قاتمًا، واسودَّ كماء ريٍّ على مرج، أما الرموش المنتصبة، والحاجبان السوداوان الكثيفان اللامعان، فقد أكسبت وجهها الجميل ملامح صارمة إلى حد ما.

لم يصبح شاعرًا، لكنه تذكر واحدة من القصائد نظمها في أعوام الشباب.

"لأجلك احترقت"صرخت،

أحببتك كثيرًا، لست حزينًا،

(1) الشعر الكثيف الناعم الطويل يعده الكازاخ منذ القدم أحد معايير جمال الفتاة.

ولكن هل يقعون في العذاب لأجل ذلك؟

أليس من الأفضل لنا ألا نخجل.

وبعد يوم على الأقل نلتقي!

تمضي الحياة وهي على الأرجح،

عندما لا تقع في الحب، تُنسى!

لكنك ستذهبين إلى فارسٍ آخر،

الشباب يختفي، باكيًا بإفراط...

بدا جسم الفتاة الفراشة، بكامله مصممًا بشكل جيد ليكون مناسبًا لأهوائها، أيعقل أنه من الضروري البدء من جديد، ولماذا يخسر بسهولة؟ بعد انتهاء أعوام الشباب، لم ينظر إلى الفتيات كنساء ولو لمرة.

ماكان يراوده باعتدال منزل دافئ، زوجة دافئة، شاي أسود، حبر أسود، لكنه كان مدركًا تمامًا لأصله النبيل، الأخلاق والعادات التي كان يتمسك بها هي أخلاق الأرستقراطيين الحقيقيين، مثلها نزوية، متزمتة، لامكان لها في مناخ كهذا، لكنه أحبها، وها هو الوقت يجري بلا تردد، وأصبح الآن أغلى من لبن العصفور(2) مع تجاوزه سنَّ الشباب!

- لماذا جئتِ؟

- لقد كبرتُ وأنا أقرأ وأعيد قراءة كتبك، يا آغا.

بدا صوتها الرقيق الرخيم كالرنين الرائع للكئوس، وبغض النظر عن مدى دغدغة هذا الصوت لمسامعه، إلا أنه دون أن يستسلم لجاذبيتها، شعر بأن كلماتها تخفي نية خبيثة في الهجوم! هنا، وبدون أي سبب ظاهر على الإطلاق، اشتعل الغضب فيه فانفجر كما لو أنه رأى عدوه اللدود:

الكازاخ كلهم يقرأون ويعيدون قراءة كتبي، وهل تعتقدين أن ذلك موضوع يستحق الحديث؟

بعد أن حوَّل الحديث إلى مساره المألوف، شعر بأن كلمات أخرى تندفع عبثًا من حنجرته

-"يا للروعة، كم أنتِ جميلة!".

بالفعل، بدا وكأن من مظهرها تفوح رائحة حليب الفرس الطازج ساومال(3) ، إذا ما لمستْكَ، فإن أصابعها ومرفقيها تبدو أنعم من الزغب، والفستان بلا أكمام، مما سمح لعينيه بأن تداعبا بشكل لا إرادي كتفيها اللامعين كبيض مقشر؛ لذلك أسرعت عيناه لشن هجوم مفترس -باريمتو(4) - على بطتي ساقيها الرشيقتين، اللتين انكشفتا أسفل الهدب القصير لفستانها الأزرق والأخضر.

أعشقك كمرشد، يا آغا، بعد أن اخترت المسار الأدبي، أحلم بأن أصبح كاتبة. لكنني لم آتِ إليك لكي

(2) التشبيه مأخوذ من الأسطورة الكازاخية، ويوجد مثَل: "الوقت أغلى من لبن العصفور"

(3) ساومال: بالاختلاف عن كوميس، هو حليب طازج غير مخمر، يحتوي على خصائص علاجية رائعة.

(4) تعبير مكشوف يشبّهُ وصف جمال الفتيات بمعركة عسكرية أو هجوم مفترس، مما يخلق تأثيرًا هزليًا.

أزعجك بطلباتي، ها أنا أرى طبيعتك النبيلة، وهذا كافٍ بالنسبة لي.

الشفتان الحمراوان اللتان كانتا متعجلتين، توقفتا أمام عين أفكاره، وكأنهما تنتظران شيئًا ما، لقد درس طبيعة غضب الأنثى بشكل جيد، لأنه في كتبه وصفها مرات عدة، في مشاهد مصاحبة الخانات والسلاطين، خمَّن بإحساسه أنها تقبلت إهماله للجمال كإهانة للشرف والكرامة، وهذا، على نحو غريب، منحه شعورًا با لبهجة .

فاجأه صرير باب المدخل البلوطي الذي انفرج عن رجل أسمرَ بدين ما أن دخل، حتى أطلق صرخة تعجبٍ، كما لو أنه وجد بشكل غير متوقع ذهبًا برأس حصان.

أوي-يي-يي-يي، هل هي لوحة أم إنسان؟ حلمٌ أم حقيقة؟ ما هذا المخلوق الرائع؟! من رسم هذه اللوحة؟ أية موهبة ولُدتها؟

حيلة البدين المرعدة والغشاشة هذه، أثارت الاشمئزاز الذي يحدث عندما تنغمس يد قذرة ونجسة ممدودة في طعام جيد.

بعد أن لاحظ أن خدي الفتاة الفراشة قد احمرّا قليلًا، كاد أن ينفجر من الغضب. توقفت عيناه البارزتان ولم تعودا تخفيان التهديد، وتجمد وجهه المشوه الشاحب في مرارة قاسية، عندما كان يحدق بعينيه، لم يستطع أحدٌ الصمود أمام نظرته، فالسيف الدمشقي المسحوب من غمده، لم يرجع من دون فريسة، وذاك المسكين جفل على الفور في مكانه.

مع ذلك، لا يستحق الأمر أن ترتجي شيئًا من مثل هؤلاء الرّثاث!

غير قادر على إخماد نار الغيرة المفاجئة، وبدأ يختنق من فرط العواطف. الرجل البدين الذي كان يأتي إليه في بعض الأحيان، وفي محاولة منه للتقرب، ألقى في وجهه إهانة ما كان ليقولها في حياته. شخص تافه، لكن غضبه الآن مصوب إلى نفسه، لأنه لم يستطع أن يفهم لماذا لديه كل هذه الغيرة على الفراشة، لو أن هذا المتملق لم يدخل؛ لحاسب هذه الفتاة التي قدمت إليه خصيصًا من مسافة بعيدة، والتي لا تستحق ولو ذرة اهتمام، وكان هدفه أن يُخرجها برفق من المكتب، لكنه الآن غير رأيه، ربما فقط برافعة، وإلا فإن النصف السفلي غير المتحرك للبدين ستزداد أطماعه اشتعالًا، دون أن يرتبك بشكل خاص، ودون أن ينفجر من السخط، قذفه بكلمة ثقيلة للغاية، عندما قال بصراحة ما يبدو أنه إهانة قاتلة لبعض الناس.

الأدب تصنعه المواهب، والبيئة الأدبية؛ الرِّثاث.

وبغض النظر عن مجلدات الكتب التي كتبها البدين، فإنه لم يتوقع مثل هذه الملاحظة الواضحة.

مثل حدث صغير، فجَّر في المناطق الأم ردود فعل ساخنة لدرجة أن الأزواج سكروا منها، أكثر من سكرهم من حمى الذهب؛ بعد أن ظهر فيها الثمر، لم يرَ أحدًا ولا شيئًا مساويًا له من حيث الأهمية، من يفتقر إلى التفكير، يفقد حقه إذا كان اسمه في الحقيقة ماتاي، ولن يتفوه ولا بأي ثمن بحق أي أحد بكلمة مزعجة، لقد جرح، لكن مع علمه أنه لن يحمرّ وجهه خجلا، مرة أخرى ألقى سهمه، وأصاب مكانًا حيًا.

لو سمحت، لا تنجس فمك يا شيندلر، عادة لا أتوجه بطلب إلى صغار الجراء، لكن حتى وسط الشياطين يوجد قديسون، كما هو معروف، فأنت لست مجرد رثٌّ، أنت رثٌّ موهوب.

عندما تمكن من رؤية التفاصيل، وكيف أن الرجل الأسمر مغطى وجهه بمسحة مزرقة... هذا مشهد رائع! كما لو كان طبقة محروثة من الأرض لا تُزرع، لكنها تلمع بلونها الأزرق، "ولماذا النساء لينات معه؟" فكَّر مصدومًا.

هرع البدين الغاضب إلى المخرج، وكما لو أن بدنه تضاعف ثقله؛ مشى ضاربًا بقدميه على الأرض، بعد ذلك بقليل ضرب باب البلوط بقوة، بحيث كان على وشك أن يهدم الجدار، أما هو فقد بدا كما لو أنه تلقى صفعة على وجهه من شخص ما. جفل وبسرعة تمالك نفسه.

آغا، عزيزي، لماذا تفعل هذا؟

ليس لدي أي تعاطف!

آه... ماذا قلت؟

أقول إنني غير قادر على أن أحب، لكني أغار حتى الذهول.

لا أفهم شيئًا، يا آغا، يا عزيزي ماذا تعني؟

لا أعرف كيف أشرح، مثلًا، أراك للمرة الأولى، ومع ذلك غمرتني الغيرة...

ممن؟ ... على من؟

بالطبع ليس عليك بالتحديد، على الجمال، أغار على الجمال من مثل هؤلاء الحمقى سميكي الجلد، كهذا، يتسلقون إلى جميع الشقوق، ينظفون كل شيء، يدنسون كل شيء.

في لحظة ما بدا له أنه في هذا المكتب الواسع الذي ضرب البدين بابه للتو، لم يجلسا هما، بل أشخاص آخرون، يتحدثون بتكتم فيما بينهم.

في الواقع، من المستحيل بالنسبة لفتاة متواضعة جاءت من القرية أن تنفتح على الفور، وتتحدث بمثل هذه الثقة. هو أيضًا لم يكن مغفلًا تافهًا، يمكنه، كالبطيخ، الانقسام على الفور أمام أول شخص يقابله، بتفكيره المرتبك في ذلك، أدرك بطرف وعيه بأنه كاتبٌ بارد الأعصاب، يغوص بشكل أعمق في جوهر بطل عاطفي.

وجهه المستدير الشكل، كالنمور المفترسة، إذا ما توتَّر، فإنه يصبح على الفور قاسيًا، وإذا سكنت تقاسيمه وابتسم، فإنه في كل الأحوال يبقى مع ظلٍّ مرير، عندما اتجه إلى غرفة الراحة المظلمة خلف المكتب، كان أول ما فعله هو إلقاء نظرة تقييمية ليس على الملامح الطويلة لوجهها، وإنما على كامل القوام النحيل. هناك، حيث تكون الإضاءة غير كافية، يبدو وجه الإنسان ممدودًا، وطوله مضخمًا، بمجرد أن أشعل النور، اختفت الفتاة على الفور، وظهرت أمامه من جديد لوحة بلا روح، مدسوسة في غطاء، أخذ اللوحة من الجانبين بشدة، وتمعن مرة أخرى فيها، مبعدًا إياها بقدر ما تسمح به ذراعاه، يعلم الله لو أنه يلتقي بهذه الفتاة المشرقة في الحياة الاعتيادية، ما كان ليحرك عينه، على العكس من ذلك، من الممكن جدًا أن ينظر إليها بقرف، بعد أن

تخيل كيف تدنسها يدا شيندلر النجستان، لسبب بسيط أن الملائكة الأبرياء تمامًا لا تلدهم إلا ريشته، ولم يكن فيها أي أثر لروح حية.

بغير ازدراء أو مزاح، مسح بسطح إصبعه المنحنيات الجميلة في اللوحة، تفحصها من زوايا متعددة، ثمَّ عيب في المظهر العام، ومع ذلك لم يتمكن من تحديده بالضبط، تراجع قليلًا إلى الخلف، اتكأ على الجدار، وتمعن مرة أخرى. كل شيء بدا في مكانه، ومع ذلك، رأى أن ثَمَّ شيئا مفقودًا، "لو جلست الآن وبدأت في وصف هذه الفتاة، فإن النقص، أيًا كان مكمنه، سيُكتشف" فكّر "ولماذا لا أحاول؟"، تحمس لذلك، لكنه سرعان ما تراجع.

- بدون ذلك فإن عمل الكاتب كثير بما فيه الكفاية.

حين استكان إلى هذا الخاطر، قلب اللوحة إلى الجهة الثانية، لكيلا تلهيه أكثر.

عندما عاد إلى مكتبه الواسع رأى أن الألوان الزيتية ذابت، وبدأت تقطر من القماش إلى الأرض، ما أن سحب قدمه، حتى داس عن غير قصد على حافة التنقيط، وكما لو أن أوساخًا علقت على نعله، هز قدمه ومسحها وخرج. تحول الطلاء البني المحمر إلى بركة، فبعد أن تجمع في مكان واحد، ولم يتسرب إلى الأرض الخشبية، بقي متوهجًا، فجأة وكأن هذا الطلاء غير الحي اكتسب قوة حيوية، انكمش وبدأ في التمدد صعودًا، بعد ذلك، في غمضة عين، في هذا المكان بالذات ظهرت الفتاة الشابة من اللوحة وهي تعدّل فستانها الأزرق والأخضر وشعرها، ولا أثر لمظاهر الشجاعة التي بدت عليها من قبل، لكن الوجه أيضًا خالٍ من أي شعور بالحرج أو الخجل، انتقلت هي أيضًا إلى المكتب الشاسع. رمت بلطف ضفائرها المنسابة والشعثة وراء ظهرها، وصعدت إلى مكانها الأصلي، مستعيدة شيئًا من حمرة الخجل وهي تجلس.

لم يلحظ، وهو يلقي على وجهها نظرة جانبية أي تغيير سوى بضع قطرات من الطلاء البني المحمر.

أن تكون كاتبًا فهذا عذاب مفرط. كأنك تمشي وتمشي على طول جسر أرفع من الشعرة، من ناحية جحيم ناري، ومن ناحية أخرى محيط مائج، مات كثيرون، بعضهم مختنقون في الماء، وآخرون احترقوا وتحولوا إلى رماد.

الجسد يئن من آلامه، لكن آلام الروح التي تلاحقه بصراخاتها حتى في منامه كل يوم أسوأ، هذا ما انتهى إليه ماتاي، كما لو كان يوجز نتائج اجتماع طويل في عبارة، وسكت.

وجهه المستدير كوجوه النمور المفترسة، تتكدر تقاسيمه بمشاعر الاستياء، وبدا في هذه اللحظة أكثر تشابهًا مع مفترس يلعق وجهه بلسانه.

جلست الفتاة الفراشة وكأنها تسمع معه الصرخات الملتهبة للنفوس المعذّبة، مبرزة صدرها إلى الأمام، ومتعاطفة بكل كيانها، ومعبّرة عن الأمل في الخلاص.

قال الكاتب وهو يطوي حوافَّ الأحزان والأفكار المؤلمة المتراكمة:

ذات مرة، في طفولتي جاء إلى قريتنا سيرك، من بين الذين قدِموا كان هناك فتىً، يسير حافي القدمين على

الجمر،الجميع أُعجب به، وأنا لم أُعجب، يبدو أنه لم تكن لدي طفولة، لأنني حتى في ذلك الوقت شعرت بأن كل الحياة ستكون سيرًا متواصلًا على الجمر، تورمت قدماي من الحروق المستمرة، وكانتا مغطاتين ببثور دموية، وهؤلاء "الأصدقاء"، الذين ينفخون على الجمر تحت قدميّ، المستلقين على جانبهم والواقفين على ركبهم، دائمًا كانوا كُثرًا، كقطيع كلاب.

اعتقدت الفتاة الفراشة أنه كان يحدق فيها باستمرار، لكن الكاتب، على الرغم من أن عينيه كانتا مسلطتين عليها؛ فإنه لم يرها على الإطلاق، كانت عيناه محجوبتين بسياج المحيط الحيوي الذي لا حدود له، في الوقت الذي كانت خلاله الفتاة الفراشة وسط هذه الموجات ذات العرف الأبيض، لا يمكن ملاحظتها أكثر من رقاقة مغطاة بزبد البحر.

صاح في لكنة تنز بالحقد:

لا يوجد في العالم كله شعب مثل شعبي، لكن مغرضيه الذين يتعمدون الابتعاد عن الطريق الصحيح، بلغوا هدفهم تقريبًا، نحن نخسر أمام خَدَمة القلم الذين يكتبون كتبًا عن الإنسانية، وفي الوقت نفسه ينظرون إلى شعوبهم رافعين أنوفهم بغطرسة، وكأن شعوبهم ليسوا جزءًا من المجتمع العالمي.

واستطرد في لهجة طنانة:

- إن أمتنا التواقة إلى الابتذال البرّاق، تذكرنا أحيانًا بالطفل، نخشى عليه من الاختلاط بالناس، ثم يبدأ بالتنقل بغباء هنا وهناك، وكأنه يطارد طائرات ورقية خضراء وحمراء.

وجهه المستدير الشكل، كالنمور المفترسة، تقلص إلى حجم القبضة، جاثمًا ككرة، مشوهًا بتكشيره الفتاة الفراشة، التي تعاملت بهدوء، وبطريقتها الخاصة مع غضبه الذي ينضح بالحقد، جلست في وضع منحنٍ مع تعبير معتدل لوجهها، بل بدت وكأنها تتمتع بهجماته الغاضبة.

- إن ضلال الشعب، الذي تجمع في بئر عبقريته، هو ضلالٌ كارثي، أسوأ شيء في الحياة هو عدم القدرة على التمييز بين الممتاز والسيئ، مثل هؤلاء الناس ما زالوا يسيرون بيننا، إما يعرقلون، وإما يحاولون جاهدين أن يعضوا من الخلف، بدخوله إلى المجتمع العالمي، حوصر شعبنا من كافة المخارج بشياطين، لهذا السبب تحرّض هذه الشياطين الشعب مرةً عليّ، ومرّة عليه، والآن لم يتبق أمامي سوى مغادرة البلاد، وإمكان القيام بذلك موجودة لديّ.

تمتم الكاتب بدون أن يمسح دموعه اللعينة التي كانت تتدفق من عينيه الواسعتين والمحدقتين بقليل من الهيجان.

أرادت الفتاة الفراشة أن تمسحها، حتى إنها مالت نحوه، كما لو كانت تستعرض حقها في القيام بذلك، بيد أن الكاتب، بدا وكأنه وارى دموعه إلى منطقة خفية خلفه، أو سحبها إلى داخله كي لا يخيف الفتاة.

لنفترض حتى ولو لم يقدّرني هؤلاء؛ الأجيال الناشئة ستقدّر، وماذا بإمكانكم أن تفهموا؟ نفوسكم محشوة بكومة من القمامة، التي... يحتاج التخلص منها إلى وقت، حجتك أنك حلمت، ولذلك جئت إلى هنا، ووجدت

العذر الفارغ، لكنك تتمسك بالنهج الصحيح، وليقدّرك النجاح.

قال الكاتب.

- قل الحمد لله لأنها لم تقع في أيدي رثٍّ كهذا.

أضاف بإصرارٍ، مشددًا على العبارة الأخيرة، كما لو كان كل شيء يكمن فيها.

كما لو أن الوجه الدائري الشكل، الذي هو سمة للنمور المفترسة، والمغطى بالعرق قد تحرر من التوتر الداخلي، هدأ قليلًا، بعد أن فقدت أملها الأخير، مثل جيفة قذرة ألقي بها من رحم وحش، خفضت الفتاة الفراشة المنكمشة رأسها إلى الأسفل أكثر وأكثر؛ لذلك، عندما بلغت القصة بالفعل نهايتها، اندفع الرسّام متعجلًا ومتعثرًا إلى مكتبه المضيء الواسع، وكما لو أن شيئًا من حوله وبقربه غرغر وتطاير ودوى، ثم توقفت الفرقعة على الفور، تغيرت الرؤية بسرعة كبيرة بحيث لم يلحظ أحد أي شيء.

من جديد مرت ثلاث أو أربع دقائق قبل أن يرفع الرسّام، الذي كان ينفخ ويندفع عشوائيًا، اللوحة الزيتية التي كان قد انتهى منها في اليوم السابق، وخرج ممسكًا بها أمامه.

روزا موكانوفا

(ولُدت عام 1964)



- تخرجت في كلية فقه اللغة التابعة لجامعة الفارابي الوطنية الكازاخية عام 1978، وهي كاتبة دراما ومترجمة شهيرة.
- من أشهر أعمالها: "الضوء الأبيض" عام 1994، "مراحل الحياة" عام 1997، "القيم المقدسة" عام 2001.
- عام 2007 صدرت لها مجموعة من المقالات في مجلدين.
- عام 2001 قامت بترجمة كتاب "قصص الأنبياء" للشاعر رابجوزي وهو شاعر تركي من خوارزم.
- مسرحيتها "المراهق الأبدي" تم عرضها للمرة الأولى على مسرح مختار أويزوف الأكاديمي الوطني بكازاخستان، وحصلت على اعتراف الجمهور بموهبتها.
- تمكنت بمهارة كبيرة من نقل مأساة الجيل الذي عانى أضرار التفجيرات النووية في موقع التجارب في سيميبالاتينسك، وهي محنة الأبرياء الذين يعانون كوارث اجتماعية.
- في عام 1997، تم عرض مسرحيتها على مسرح موسريبوف الأكاديمي، وهي مستوحاة من قصة "الجميلة في حداد" لمختار أويزوف.
- في عام 2001 قامت استديوهات "كازاخ فيلم" بإنتاج الفيلم الروائي "صلاة ليلى" وقصة الفيلم مستوحاة من إحدى مسرحيات موكانوفا بعنوان: "المراهق الأبدي"، وقد حصل هذه الفيلم على العديد من الجوائز من المهرجانات العالمية في فينيسيا وبكين وبراغ.
- حصلت مسرحيتها "مملكة القطط" على جائزة شركة "سامسونج" في نوع "الدراما الحديثة".
- كتبت العديد من الأعمال الدرامية مثل: "سارة"، "لا يوجد مذنب"، "تساقط الجليد" وغيرها من الأعمال.
- حصلت على جائزة الاستحقاق من جمهورية كازاخستان.
- حازت على جائزة "ألاش" الأدبية الدولية، وحصلت على ميدالية "فرانس كافكا" من الجمعية الأوروبية، وميدالية الجمعية البرلمانية الدولية "تقديرًا لإسهاماتها في تطوير الفن والثقافة" وغيرها من الجوائز.

المظهر الطفولي المتجمِّد إلى الأبد

في الليل المظلم، عندما كانت ليلى الغارقة في نوم غير مكترثٍ بشيء، تسير إلى الوادي السحيق، انسل أمامها خيالٌ متقلبٌ في سوادٍ حالك، "من هذا الذي يتجول في هذه الأماكن البعيدة؟" تسلل الشك إلى روح الفتاة، "أنا شبح الجنس البشري"، أجابها صوت غريب غير مألوفٍ من مكان بعيد.

في تلك اللحظة لو ظهر فجأة شبحٌ أمام ليلى المتجهة نحو الوادي السحيق، لما صدَّقت، لأنها منذ زمن طويل خاب أملها من أفضل صفات الإنسانية.

وسط الليل المظلم الصامت لا تستطيع أن تعهد بأسرارها إلا إلى القمر المكتمل الذي يعوم في أحضانه، ببياضه الحليبي الجميل، أعطى القمر الكامل المستدير لكاراول(1) المتدثرة بالأغطية السوداء سحرًا معينًا، في بعض الأحيان، مع ليلى الصغيرة التي كانت تحدّق بعيدًا، حدَّق بنظرة مليئة بالشفقة إلى رحابة كاراول المنقسمة إلى زغبٍ وغبار، وأحيانًا كان يستلقي ويميل على نحوٍ رقيق إلى الجانب، ناظرًا مع عدم اكتراث تام إلى ذلك الليل، وإلى القرية الصغيرة. ربما، عندما ينظر إلى الأرض الجريحة المتشققة في بعض الأماكن، بدا وكأنه يلومها:

"يا إلهي! يا إلهي! أيعقل أنك جُرِّدت حقًا من نعمتك؟ ما الذي حلَّ بك، لماذا تبدين منهكة مثل قطعة قماش مهلهلة؟ من هو ذلك المخلوق الذي جاء في منتصف الليل إلى الوادي ويختبئ هناك؟ هل يمكن أن يبدو حقًا مثل بويجيكتين(2) في سن السادسة عشرة؟ المسكينة، لأي سبب محكوم عليها أن تبقى إلى الأبد في مظهر طفل، لماذا حلّت بها كل تلك الآلام؟" أم إنه بعد أن شعر بالمصائب الكثيرة التي حلّت بأرض كاراول، يرسل من السماء اللعنات على مجهولٍ، ويبدو أنه يبكي بشدة، وبالتناوب يرتكز على السحب الرقيقة شبه الشفافة التي تسبح حوله. عندما كانت ليلى تنظر إلى القمر، بدأت تسقط في النوم، وكلَّما غفت، اهتزت وفتحت عينيها، من عينيها سالت قطرات دموع مرتجفة.

"أيها القمر الساطع، لست بحاجة إلى شفقتك، أنا فتاة بريئة، مشاعري ليست قوية، وعقلي جَليّ. وها هو

(1) كاراول: قرية في محافظة كازاخستان الشرقية.

(2) بويجيكتين: هكذا يدعوا الكازاخ الفتاة الصغيرة.

قلبي الصغير مع القبضة الصغيرة تخلى عن هذا العالم الهالك، ويفيض بالانتقام والحزن، يبدو أنني أشعر بنفسي إنسانًا، ولكن بالنسبة للآخرين لا أعتبر إنسانًا، فهم يعدونني عاجزة، تستدعي الشفقة المزدرية. في كل مرة يراني فيها أهل كاراول يفكرون: "لقد خلقها الخالق حتى يقتنع الآخرون بأنهم، ولله الحمد، ليسوا معيبين، أذرعهم وأرجلهم في مكانها، وصحتهم سليمة"، هل الأمر كذلك، أيها القمر الساطع؟! أنا أصدقك أنت فقط، أنت وحدك، آمل على الأقل أن تبرر آمالي، ما الذي إذن يتحدث عنه الناس؟ إذن، من أنا؟ يتضح، إلى الأبد وحقًا سأظل إلى الأبد في هيئة طفل؟

استمرت ليلى في الكلام، كان القمر الأصم والأبكم يبتعد تدريجيًا عنها، معانقًا بلطف كلًّا من ليلى، والأرض، "أريد أن أكون فتاة وفقًا لعمري. نعم... نعم... وأريد أيضًا أن أكون فتـ...اة جميلة ورقيقة جدًا".

خرجت ليلى راكضة من الوادي المظلم الذي كانت تختبئ فيه لتوها.

بدا لعيني الفتاة الدامعتين المنتفختين أن القمر الناصع البياض خجل وهرب خوفًا منها، وهذه الفتاة الناضجة المحكوم عليها أن تظهر على هيئة فتاة بعمر ثماني سنوات، أطلقت نحو السماء يديها الناضجتين بأوردتهما المنتفخة.

مهلًا، لا تهرب مني، لا تهرب! على أي حال سأجدك، هل خفتَ، وهل أنا مُقرفة لك، وأنت تخافني أيها القمر الساطع؟!

مع كل لحظة ينزلق القمر بعيدًا عنها... يبتعد أكثر وأكثر، مع نظرة ازدراء إلى الفتاة المعاقة، وإلى الأرض المشققة، أمسك يد رفيقه -الليل- ووصل إلى الاكتمال النهائي، وابتعد أكثر فأكثر، في حين كانت الفتاة ليلى تصرخ بقوة أكثر، وتلوح وراءه بيدها.

عد مرة أخرى غدًا، أراك غدًا في الوادي السحيق، سأنتظرك هناك، في الوادي السحيق سأنتظرك، أيها القمر الساطع!

عندما كانت تلفظ الكلمات الأخيرة، كانت ذقنها ترتعد، وقلبها الملعون يدق بشراسة غير محتملة.

الآن، عندما كانت ليلى عائدة إلى كاراول، كانت أعلى قمة في سلسلة جبال جنكيزتاو تبدو أمام عينيها مع كل خطوة أدنى وأدنى، الآن شعرت بخوف ورعب غير مفهومين أمام سلسلة الجبال التي دخلت بخطوطها في أحضان الليلة المقمرة، في عينيها ومض أيضًا الشخص الغامض الذي ادّعى مؤخرًا أنه "شبح الجنس البشري"، متدثرًا في ملابس داكنة، بدا وكأنه متشرد يبحث عن ملجأ عند سفح الجبال القديمة.

مع اقترابها إلى منزل العمة كاتيرا حيث كانت تعيش، بدأت في الاختناق، وأصبح تنفسها متقطعًا، مدت يدها إلى مسكة الباب، وسحبتها على الفور، لم تكن ترغب في رؤية العينين اللتين كانتا تنظران إليها بعزلة باردة، وكانتا مستعدتين لحرقها بنظراتهما، "على الأرجح سأجلس حتى يناموا"، فكّرت وبقيت عند الباب، في اللحظة نفسها صرخت بعد أن أخافتها الأصوات التي صدرت فجأة، كانت كاتيرا.

إيه، إلى أين تذهبين في الليل، من يراكِ يعتقد كأن شريرة تطردك من هنا؟ وأين تأخذك، آه؟

خفضت ليلى بصمتٍ عينيها، لم ترغب في أن ترى عمتها عينيها المتورمتين المحمرتين، وشكلها المتعب والمنهك، "هل تشاركني كاتيرا حزني؟ الأفضل أن أصمد وأصمت"، فكَّرت ولم ترد بكلمة واحدة.

أنا أسألك أين كنتِ؟

كانت ليلى صامتة من جديد، "لا، لا، لن أخبر أحدًا، لن أخبر أي روحٍ بأنني أجلس في الوادي السحيق؛ فأنا أذهب إلى هناك لألتقي القمر وأشاركه أسراري؛ وأركض إلى الوادي السحيق فقط لأنني لم أجد أحدًا يمكن أن يفهم روحي إلا القمر الساطع، في مثل هذه اللحظات من الأفضل عدم رؤيتي، وعدم البحث عني، وعدم سؤالي عن أي شيء!"

إيه، لا ينقصك إلا أن تصبحي صماء وبكماء! ستوصلين نفسك إلى ذلك، وستصبحين هكذا في وقت ما.

اشتعلت عينا الفتاة لهبًا، ابتسمت كاتيرا، وكأنها أرضت الغضب المتراكم في روحها، وبنظرة قاسية نظرت إليها من الرأس إلى أخمص القدمين، بصعوبة ضبطت ليلى السخط الذي اجتاح كامل جسدها، ارتجفت وارتعدت بجسمها المعوق، ما إن يوجه أحد انتباهه إلى يديها ورجليها الرطبة، حتى تعتريها حالة من الارتباك، ولا تعرف أين تضع نفسها من الخجل، كانت ترغب بشدة ألا ينظر أحد إلى يديها الناضجتين الكبيرتين، وساقيها غير المتناسبتين معهما، أما بالنسبة لكاتيرا، فقد تعمدت رفع رأسها بتجبّرٍ، معربة بوضوح عن ازدرائها الخائف، وباشمئزاز حدقت فيها، رغبة منها في أن تخزيها بألم أكبر في أكثر الأماكن ضعفًا، في مثل هذه الحالات تخبطت روح ليلى وتعذبت من الألم الذي لا يحتمل، ولم تعرف كيف تجنب نفسها من هذا اليأس المنهك.

سألتك أين كنت؟ إلى أين تهربين دائمًا، عندما تنقصنا الأيدي لدفع الماشية إلى الحظيرة بعد المرعى؟ ها، أجيبي، أوياي (3) !

من دون أن ترفع عينيها، قالت ليلى بهدوء:

-ألسنا بشرًا؟

كان ذلك كافيًا لإغضاب كاتيرا.

فقط انظروا كيف تتحدث! "ألسنا بشرًا"، أنت فقط انظري إلى نفسك، ما هو البشري فيك؟!

كان لسان كاتيرا الحادّ للغاية يمزّق على الفور قلب ليلى الطفولي الضعيف إلى أشلاء، ويقطعه إلى قطع دموية صغيرة، ويحطمه، ويبعثره إلى شظاي،سابقًا، في مثل هذه الحالات، بعد أن تسمع مثل هذه الكلمات التي تؤذي الروح، كانت تبكي بمرارة وبشكل يفطر القلب، وهذه المرة وقفت متجذرة كصنم، كلها شاحبة، ونظرت مباشرة في عيني كاتيرا، "إن صحة الناس القساة الذين لا قلب ولا مشاعر لديهم، هي دائمًا جيدة، وليس لديهم أدنى عيوب جسدية، أنت تسخرين، يعني، حسنًا، استمري في السخرية، اسخري! أنا نفسي

(3) أوياي: هتاف للتعبير عن الدهشة، أو الخوف، أو الذهول. أوي! آي! أها!

طلبت من الله نصيبي من القدر المرير! نعم، يتضح، في رأيك، أنني أنا نفسي قد اخترت هذا المصير، هذا تحديدًا! ما الخطأ الذي ارتكبته تجاهك؟ ألمْ أجلب الحطب، ولم أُخرج الرماد (4) ؟

جلست القرفصاء مغطية وجهها الصغير الناقص النمو بكفيها العريضتين والمسطحتين، وانفجرت في البكاء، لم تحتمل فأطلقت العنان لدموعها، في مثل هذه الحالات، عند النظر إلى ليلى الباكية، المنكمشة والجالسة عند العتبة، لا توجد روح تسأل: "إيه، ماذا يحدث لها، من لمسها؟" ربما يرون أنه من المشروع أن تعيش هكذا، هائمة، كادحة، باكية؟ ويبدو أنهم في أنفسهم يفكرون: "أوه، مسكينة، دعي الله يرى دموعك، وليس نحن، انتظري تعاطفه ورحمته!"، ويتمتمون أثناء ذلك، ويتحولون، ويعبرون، شعرت ليلى بذلك أيضًا؛ ولهذا السبب تتذكر في منتصف الليل القمر الكامل المتلألئ الذي يرتفع في السماء، وتشعر برغبة لا تقاوم في الركض دون النظر إلى الوادي السحيق الأصم.

ضوء القمر الذي يخترق الوادي السحيق، يضيء أكثر سطوعًا من ذي قبل، ينزل ويكتشف الأرض بحثًا عن ليلى، يبحث في كل مكان، يسأل عنها المياه، والمدى، والجبال على أطراف كاراول، "أين ذهبتِ؟ لماذا أنتِ لستِ في الوادي السحيق اليوم؟"كما لو كان يصل إليها صوت أمها التي وكأنها تمد إليها ذراعيها المفتوحتين، عائمة فوق الوهد، الوادي المحاط بظلام الليل، يصبح مضيئًا بقوة، والقمر يتحول إلى شاحب، كما لو كان ساطعًا بالفعل، "يا مهيرتي"، يأتي صوت أمها الحنون، ويبدأ في الابتعاد ماشيًا على طول الوادي، وهنا يغرق كل شيء في صمت ميت، ويدوي الصوت المليء بالمرارة لصورة أمها.

"عندما كنت لا تزالين في رحمي، تحت جبل ديغيلن مع هدير هائل يتنقل تحت الأرض، كانت تحدث تفجيرات، وهي توقفت الآن؟ في مرات كثيرة، عندما كنت مستلقية في المهد، بدأتِ تصرخين وتصيحين خائفة من هذه الانفجارات، ولم يهدأ صراخك لفترة طويلة.

دائمًا ما كان يجذبك عمود اللهب والدخان المتصاعد من سفوح جنكيزتاو، والذي بدا وكأنه فطر ضخم، وأنت تركضين بكل قواك نحوه، والآن؟ في بعض الأحيان كنتِ تقولين لي: "آبا (5) ، لقد حلمت مرة أخرى اليوم بفطر معلّق في الهواء فوق الجبال، عندها جدتك التي لا تنسى تقول لك بحنان: "أوه، يا صغيرتي! وأنتِ، إن شاء الله، كهذا الفطر الناري، ستجذبين انتباه الجميع بجمالك"، وتقبلك على جبينك. "أين أنت الآن؟ إلى أين ذهبت؟ بدأ الصوت في الوادي يضعف، حتى اختفي، بدا أن القمر قد ارتفع أكثر، ينظر من هناك ويبدأ بالبحث عن ليلى تحت كل شجيرة؛ ملكة المروج في الوادي السحيق، إلا أنه في هذه المرة لم يُر في الوادي السحيق مظهر الفتاة التي كانت تنظر إليه برقّة مرتعشة.

عادة ما كانت تتجنب الأماكن التي يتجمع فيها الكثير من الناس، محاولة مرة أخرى ألا يراها أحد، لكن كاتيرا تمسكت بها وبدأت تتوسل إليها قائلة:

---

(4) ألم أجلب الحطب، ولم أُخرج الرماد: هنا عبارة ثابتة تعني "أسعدتك في كل شيء، وساعدتك في كل شيء".

(5) آبا: أداة لمخاطبة الأم.

تعالي، اليوم في كاراول حفل، لنذهب إلى هناك، أنت، يا مسكينة، تحتاجين إلى القليل من الترفيه.

دون أن تعرف بماذا تجيب على ذلك، بدأت ليلى في كلام غير واضح بالكاد محركة شفتيها الرقيقتين الجافتين: "سيحدق الناس بي... ويقولون كل شيء..." عند قولها لكاتيرا التلميح، لم ترغب في الوقت نفسه أن تبدو محرومة، حاولت فقط العثور على سبب للرفض، قائلة: "أنا متعبة جدًا".

كفي عن ذلك، تعالي، لنذهب!

قالت المرأة بحزم وبدأت في إرباك الفتاة، وعندما رأت أنها لم تستسلم للإقناع، شرعت بسرعة في دغدغتها، وقرصها بيدها هنا وهناك، في البداية ضحكت الفتاة بصوت عالٍ، لكنها بعد ذلك قمعت الضحك في داخلها، ونهضت من مكانها، وبكفيها الضخمتين دفعت المرأة في صدرها، في تلك اللحظة شحب وجه كاتيرا بشدة.

لا تريدين الذهاب، حسنًا، لا داعيَ!

سأذهب!

فجأة، كما لو كان ذلك لإغاظة شخص ما، قالت ليلى "سأذهب".

"شيركين-آي(6) ، واو! الكل باستثنائي سعيد، الكل مبتهج، الكل باستثنائي، فقد تبين أن سعادة هذا العالم بأكملها تكمن في حقيقة أن لديك جميع الأعضاء الاثني عشر في مكانها(7) ، لماذا مثل هذا العقاب لي؟ لماذا أحرم من السعادة التي يمتلكها كثيرون؟"، نظرت ليلى بحسد إلى الناس السعداء الذين تجمعوا في المنزل؛ حيث جرى ذلك الحدث الاحتفالي، ومن وقت لآخر وخلسة عن الجميع، مسحت الدموع المتساقطة من عينيها، "أنا أعلم بأنني لن أكبر... أوه، يا قادر، كم من العذاب تعدّ لي، ألا يكفيك ما استهزأت بي؟! لماذا لا تجعلني أختفي؟ لماذا؟ لماذا؟ بالتأكيد أنا لست ضرورية لك أيضًا، هل تريد أن تضحك على مظهري غير الملائم؟ ألم تجد أي متعة أخرى، باستثناء خربشة مصير فتاة لا تكبر أبدًا؟

ليلى، لياليليك(8) ! ليلى البيضاء!

سمعت الفتاة صوت شاب لطيف، اندفع شخص ما من الحشد، واقترب منها فاتحًا ذراعيه.

"أوه!" فكَّرت الفتاة بذهولٍ.

- انظر فقط، إنه كومار، كومار! كم كبرت! كم أصبحت جميلًا! مدهشًا! هذا هو كوماري، الذي كان يجلس على المقعد نفسه معي، جاري، نعم، كومار....لقد كنت دائمًا تسميني "لياليك، لياليكي الأبيض"، لياليك؛ هكذا يسمون اللقلق، وقلت لي إنه طيرٌ رقيقٌ ساحرٌ!"

تشوش ذهن الفتاة للحظة من الارتباك، وتجمدت في مكانها.

عرفتِني؟

---

(6) شيركين-آي: علامة للتعبير عن الشعور بالذهول، أو الرضى، أو التمني، أو الأسف.

(7) جميع الأعضاء الاثني عشر في مكانها: عبارة تعني أن الشخص سليمًا ومعافى؛ أن كل شيء لدى الشخص في مكانه.

(8) لياليليك: طائر اللقلق.

سألها الشاب وهو يبتسم قليلًا.

عرفتك، ولماذا كان عليّ ألا أعرفك؟ لقد تغيرت كثيرًا، أصبحت وسيمًا، كم أنت محظوظ... اعذرني، لا تغضب...

أنتِ أيضًا... أنتِ محظوظة أيضًا يا لياليك.

لم يبدِ كومار اهتمامًا بالملامح الطفولية لوجهها المتجمد إلى الأبد، كما لو أنه لم يرها، ولم يعرف عنها، لم يكن يريد أن يؤذي بالرعونة قلب الفتاة التي كانت عيناها الحزينتان تحدّقان فيه بثبات، كما لو أنه لم يلحظ أي ارتباك يحدث في روح الفتاة، وضع يديه على كتفيها الرقيقتين، وقال:

لياليك، لنذهب ونرقص، جئت لأدعوك للرقص.

في اللحظة نفسها رفع عن الأرض ليلى التي كانت ترمقه بنظرة مثيرة للشفقة، وقبَّلها على جبهتها. اهتز قلب الفتاة مرتجفًا، اقتحم الشاب الحشد الراقص، مبقيًا على الفتاة في الوضعية ذاتها، للحظة نسي كلاهما كل شيء في الدنيا، ودارا راقصين، أغلقت ليلى عينيها ،لم تستطع أن تفتح عينيها، إما لأن رأسها أصابه الدوران، وإما لأن شعور الفتاة الناضجة الذي لم تره من قبل قط استيقظ فيها فجأة، أرهب هدوء جسدها العاجز... تجمدت، معانقة الشاب بقوة من رقبته، في حين همس هو بهدوء في أذنها: "لياليك! ليلى البيضاء"، فتحت الفتاة التي استيقظت من النسيان عينها.

قررنا أخيرًا أن نأتي إلى الحفل، اتضح أنه لم يتبق أحدٌ في القرية تقريبًا؟ كم سعدتُ عندما رأيتك...

ظهر التورد على خديّ الفتاة. كانت مُحرَجة وخَجِلة.

بشكل مؤلم كانت تشعر بالإهانة والازدراء لأن كاتيرا أصرت بعناد على أن ترتدي ملابس فتاة صغيرة، ثوب قطني قصير مربوط، بالإضافة إلى ربطة شعر حمراء فاتحة على رأسها، الأولى أثبتت أنها انفصلت بالفعل عن الطفولة وأصبحت فتاة، والأخرى -على العكس من ذلك- أنها فقدت كل أمل في المستقبل، ومآلها إلى الأبد أن تظل ناقصة نمو ومعوقة، أم إنه القدر نفسه؟

لم تستوعب أية كلمة مما قال لها كومار، إما لأن صوت الشاب الذي قال لها شيئًا ما، كفَّ في هذه المرة عن التأثير فيها، وإما لأنها كانت من جديد محاصرة من قبل فيضان مفاجئ من الأفكار الرمادية الكئيبة، كصنمٍ تجمدت في مكانها، كما لو كانت صماء بكماء، أخفت الفتاة ذراعيها الكبيرتين والمترهلتين كذراعي عجوز، وكما لو أنها استيقظت للتو من النوم، استعادت وعيها ونظرت حولها، لم يكن هناك أحدٌ حولها.

كومار، كومار! أين أنت...

بدأت الفتاة تنظر حولها في حيرة، فتشت بنظرها عن الشاب في الحشد، وهي تنظر إلى الناس بارتياب، وبدأت تسأل كل واحدٍ:

أين كومار؟ أين أخفيتموه، إلى أين ذهب؟

لأول مرة في حياتها كانت على قدم المساواة مع الناس، كما لو أنها أمسكت بقوة بحلمها العزيز، في حين

أفلتَ من يديها فجأة، قبل لحظة فقط بدا أنها تخلصت من كل الآلام، وحلَّقت في الهواء، قبل أن تهوي فجأة إلى الأسفل، لتجد نفسها على الأرض مرة أخرى، بيأسٍ صاحت الفتاة من جديد: "كومار!"، وشعرت أن شخصًا يضحك ويهمس، أرادت الفتاة فجأة أن تصرخ: "ساعدني، خلصني من هذا العذاب!" وعندها فقط، في هذه اللحظة، رغبت فجأة في أن ترى القمر الساطع، الذي أظهر لها شفقة وتعاطفًا غير محدودين، هرعت، وجرت، واندفعت نحو الوادي السحيق المكتسي بشكل كثيف بشجيرات ملكة المروج.

كانت ليلى تحدق في السماء، وعيناها المملوءتان بالدموع تداعبان القمر المكشوف، رفعت ذقنها إلى أعلى، ووضعت وجهها للقمر السابح في الفضاء.

في هذه الأثناء غرقت كارول في الحداد، كبار السن، الذين انغمسوا في حزن لا عزاء له، وقفوا متكئين على عصيهم، ومتنهدين بشدة، والنساء اللواتي ارتدين السوداء، بكين بمرارة وبصوتٍ عالٍ حزنًا على شخص ما، وبصعوبة رفعن رءوسهن المخفضة ونحبن: "فقدناهم! أصبحنا نحن التعساء حزانى، بدون أمل في المستقبل! بقينا أرامل، بدون ذرية! هذه كانت أرض آبائنا وأجدادنا العظماء، رمادهم انتشر في السماء!" النسوة، اللواتي لا حول لهن ولا قوة، وضعن رءوس بعضهن على أكتاف بعض، وبكين من الحزن. ليلى التي تملكها الذعر لم تستطع أن تجد كاتيرا في أي مكان، ولم تتمكن من فهم ما حدث في كاراول، ولماذا كان الجميع يبكون وينتحبون بشدة، كادت عيناها أن تخرجا من مداريهما، "يا إلهي! آه، يا إلهي! ما هذه الأيام التي حلَّت بنا؟ ماذا حدث للناس؟!"، بدأت يدا وساقا الفتاة ترتجف وتهتز، في حين كانت عيناها تغلقان.

في ذلك اليوم رأى سكان كاراول الأرض مفتوحة ومغطاة بالدمار، شاهدوا كسوف القمر والماء الذي أغرق الأرض، يبدو أن أصوات الحشود الغفيرة المنتحبة سُمعت من قبل أحدٍ ما، ففي منتصف الليل ظهر غرباء يرتدون ثيابًا بيضاء، جمعوا كل ناقصي النمو والشباب الذين تحمل وجوههم ملامح طفولية أبدية، وبدأوا في تحميلهم بسيارة مغطاة بالسواد، بكى الآباء بمرارة بسبب فصلهم عن أطفالهم الذين خرجوا من أصلابهم وأرحامهم.

في هذا الوقت كانت ليلى في الوادي السحيق، لم يستطع العثور عليها أولئك الذين كانوا يفتشون، ولا أولئك الذين كانوا يساعدون في البحث، كالعادة، وصلت ليلى، المتوارية عن عيون الناس، إلى الوادي السحيق، وقابلت القمر الساطع، بعد صمت طويل بدأت تخبره، هامسة وبكامل الصراحة، بكل أحلامها الطفولية، وكيف اشتعل فيها شعور البنت تجاه كومار، والقمر الغالي الذي أحزنه ذلك، بدا وكأنه يرتعد ويبكي بحزن تعاطفًا معها، وعلى الرغم من البرد القارس لتلك الليلة، جلست ليلى لفترة طويلة، محتضنة ركبتيها بيديها الضخمتين بشكل غير متناسب، عندما نهضت من مكانها، شعرت أن جسدها أصبح أثقل من ذي قبل، إما لأن برد أواخر الخريف تغلغل جسدها، وإما لأنها كانت تعاني الحمى، فقدت يديها اللتين تشبهان يدي عجوز مترهلتين قوتهما، وبصعوبة فتحت "أبو"اب منزل كاتيرا، حدّقت فيها العينان الغاضبتان للمرأة القاسية في إثارة روحها الجريحة أصلًا.

لا تقولي إني لم أحذرك، إن عدتِ في وقت متأخر مرة أخرى، سأطردك من المنزل، حتى لو كان الشتاء في الخارج، فما بالك إذا كان الوقت خريفًا، مفهوم؟

قعقعت كاتيرا بشكل جدي، في حين كان سمع الفتاة يلتقط عواء ذئب جاء من بعيد.

لا تطردينى!

قالت وهي تنظر إليها بحزن، وذقنها ترتجف، وعيناها يملؤهما اليأس.

لم تستطع ليلى فتح عينيها، وبمجرد أن لمست عن غير قصد قدميها بيديها شبه الجليدية، حتى بدأت شفتاها تتحركان بصعوبة وتهذيان: "كومار، كومار – هذا أنت... أين اختفيت؟ لقد بحثت عنك طويلًا في ذلك اليوم، اقترب، ارفعني عاليًا، مثل المرة الماضية، وارقص بي... اقترب... كومار!"

لم يُعِر أحد من أهل البيت انتباهًا إلى الحالة الخطيرة للفتاة، لذلك لم يعرفوا عما تتحدث.

فقط بعد أن جاء الطبيب في اليوم نفسه، عادت الفتاة المنهكة إلى وعيها، نظرت إلى الشخصين الجالسين فوق رأسها، يبدو أنهما من قيادة المنطقة المجاورة.

لقد جئنا معًا لمعالجة وضعك الصحي.

قالا، وهذا ما جعل من ليلى سعيدة للغاية، فملأت الحمرة وجهها الشاحب تمامًا، وحوَّلت نظرها جانبًا، توقعت الفتاة أن تسمع من هذين الشخصين شيئًا طيبًا، فحولت إليهما سمعها كله.

عزيزتي ليلى، كان عليك أيضًا أن تعاني الكثير من الشدائد.

قال الشخص الذي تحدث إليها أول مرة، وتردد للحظة في محاولة منه للعثور على الكلمات المناسبة.

– غدًا سيعقد اجتماع الحداد في منطقتنا، في المرة الماضية، تم نقل أولاد مماثلين لك إلى المدينة، ومنذ ذلك الحين، لا أخبار عنهم، الآن بقيت أنت الوحيدة، جاءتنا فكرة أن نحملك غدًا على أيدينا في مسيرة حداد.

على الفور شعرت الفتاة بصخب في أذنيها، وأصاب الدوار رأسها.

كدليل على الأيام الرهيبة، كدليل على التهديدات المحدقة بالناس... نعم... نعم، أنا علامة الشر الذي أصاب الناس، فقط الشر، وليس الخير. أوه، يا رب...

حسنًا، حسنًا يا ليلى، ينبغي أن نستعد...

بعد أن أغمي عليها، فتحت عينيها، هذه المرة لم تبكِ، وكانت عيناها المليئتان عادة بالدموع، جافة، إلا أنها كانت لا تزال تبكي بصمت.

لا أريد أن أكون دليلًا على الشر، ارحموني، أرجوكم، على الرغم من أنني أبدو في نظر الناس، وعلى نحو سخيف، عاجزةً، إلا أنني لا أحلم إلا بالأفضل، فقط بالأفضل...

جلس الشخصان اللذان قدِما إليها متجهمين وصامتين، لا أحد يستطيع أن يفهم روح الفتاة الدافئة بالكاد.

كم من الكبرياء في هذه القمامة!

صرخت كاتيرا بصوت حاد.

فتحت ليلى عينيها مرة أخرى، وحدقت بالجالسين بشفقة كاملة، ثم، ابتلعت لعابها بصعوبة، وسألتهما هامسة:

وهل سيكون كومار أيضًا هناك؟ هل سيشارك في مسيرة الحداد؟

لم يفهم الشخصان الجالسان بالقرب منها شيئًا، أغلقت ليلى عينيها مرة أخرى واستلقت طويلًا، ثم قالت فجأة بجلاءٍ ووضوح:

لن أذهب، لا أستطيع الذهاب، اذهبا ولا تتأخرا أكثر.

سمعت ليلى المستلقية على السرير بوضوح الصوت العالي لكاتيرا:

لقد قُدّر لي أن أعيش حتى زفاف ابني البكر، ولذلك أشكر القدر، وهذا يكفي بالنسبة لي.

أرادت ليلى أن تقول بصوت مرتفع: "ما أرخص الحياة، أليست جريمة أن تموتي قبل أن تتحقق سعادتك الوحيدة، إيه، مسكينة، توقفي عند هذا، توقفي!"، -لكنها لم تستطع، كانت كاتيرا تتجاذب أطراف الحديث مع أحد الشخصين اللذين جاءا إليها.

مباشرة بعد الزفاف، سأترك كاراول.

"أي نعمة كانت تملأ هذه الأرض، والآن فقدتها، يقولون: "كل الأشياء تصبح جيدة بعد أن تزول، أليس على هذه الأرض التي سار عليها جدنا آباي ذات مرة، يقومون بكل هذه المصائب التي لم يسمع أو ير أحد مثيلًا لها من قبل؟ إنها مشيئة الله"-فكّرت ليلى.

على وجه الفتاة طريحة الفراش سقط شعاع القمر، يبدو أنه فتش عن ليلى في جميع بيوت كاراول، نظر في جميع النوافذ، واجه صعوبة في العثور عليها، كان مكتملًا تمامًا، أبيض بالكامل، وبطريقة خاصة أضاء بشكل ساطع في وجه الفتاة. نظرت المريضة إلى القمر وابتسمت لأول مرة، عندما رأت في النافذة صديقها الحميم الذي عهدت إليه بكل أسرارها، تأثرت وتغلغل فيها الشعور بالحنان، كل استيائها من مصيرها ومن الناس، ذُرفَ في ذلك اليوم دموع وفيرة، في اللحظة نفسها، وكأنها كانت تخشى من أن تفقد القمر إلى الأبد، بدأت بشغف في التنعم به وهي تقول:

لا تنس أنك الوحيد الذي عهدت إليه، أنا المليئة بالشقاء المؤلم، بأسراري.

لم يرغبا في أن يفترقا، وبنظراتهما لاطف القمر والفتاة كل منهما الآخر، لم يرغب القمر الساطع في أن تبقى ليلى على الأرض، وفي الوقت نفسه، وللمرة الأولى، لم ترغب ليلى في أن تترك القمر في أحضان الليل. بعد وقت طويل بدأت جاذبيتهما المتبادلة تضعف، نظرا حولهما، ومثل رسولين لعالمين مختلفين، أخذا في

الابتعاد بسرعة بعضهما عن بعض.

كان القمر المضيء بشكل ساطع يبتعد أكثر فأكثر، تاركًا الفتاة والأرض، بقيت عينا ليلى مفتونتين بالقمر، ولم ترغبا في الانفصال عنه. بصعوبة جمعت بقايا قواها الأخيرة، إلا أنها لم تعد كافية، فالطاقة التي كانت في جسمها انخفضت فجأة وانتهت.

تحت شعاع القمر الساقط على وجه الفتاة، كانت هناك قطرة لدمعة تجمدت على خدها، والمسار الذي حفرته إلى هناك، أكان ذلك من حقيقة أن عيني الفتاة كانتا مليئتين بالدموع، إلا أن البريق فيهما أصبح أقل، حاولت يائسة أن تمسح بيديها المترهلتين دموعها، لكنها لم تستطع حتى أن تتحرك، ليلى التي تملكها حزن عميق، أغلقت عينيها، لكي تفتحهما من جديد بعد أن تستريح قليلًا، لكن...

القمر الذي داعب مظهر الفتاة الميتة في فراشها، ارتفع أعلى، وبدأ ببطء يغيب في الأفق، رحل مودّعًا إياها إلى الأبد.

مخلوقان: واحدٌ ابن الأرض، والآخر ابن الليل.

كاتيرا، المشغولة بترتيبات الزفاف، استفاقت واندفعت إلى ليلى التي كانت ممددة في الفراش بكامل جسمها وبدت أطول من المعتاد، وحدّقت في وجهها قائلة:

يا إلهي، هل ماتت هذه التعيسة صدفة؟ أوي، يا إلهي، لقد ماتت، ماذا عساي أن أفعل؟ من كان يظن أن هذه التعيسة ستموت في يوم الزفاف تحديدًا!

على غير هدى تنقلت كاتيرا من زاوية إلى أخرى وهي تحدث نفسها.

"واحسرتاه! تموت في يوم الزفاف تحديدًا. قمامة تافهة، من سيقوم في يوم الاحتفال بالإبلاغ عن موتٍ مفاجئ، لتبقَ مستلقية ما دام أنه لم يعرف أحد بذلك غيري"، فكَّرت، واتخذت القرار على الفور: غطت وجه الفتاة الميت الشاحب بمنديل.

بعد أن هرعت كاتيرا إلى خارج المنزل، اكتأبت، من بعيد وصلت إليها تنهدات وأصوات نواح معروفة لها منذ زمن، بالكاد مسموعة، عدة مجموعات من سكان كاراول يرتدون السواد كانوا يبكون ويتحدثون بقلق عن شيء ما، كانوا يقولون كلمات يقف منها شعر الرأس، وتقشعر منها الأبدان.

- يا إلهي! هل يريدون أن يقتلونا جميعًا، أم ماذا؟!. في الليل مرة أخرى يدوى صوت انفجار، ارتعدت كاتيرا "كما لو أن التفجير يستدعي موتها...." همست لنفسها، لم تكن ترغب في أن تقترب حشود الحداد المنتحبة هذه من منزلها.

بعيدًا! بعيدًا! هل تريدون إفساد متعة زفاف ابني البكر؟ اسمحوا لي أن أجرب قبل أن أموت مثل هذه الفرحة!

بعد ذلك، وما إن تذكرت أن جثة ليلى مازالت مسجاة في المنزل، حتى خارت، وشحبت، وانكمشت كلها، وجثمت على الأرض.

مع الصخب والصيحات كان حشد الحداد يسير في اتجاهها، لم تستطع كاتيرا أن تصدر صوتًا... وهي تارة تتوجه إلى الحشد بكفيها الممدودتين، وتارة أخرى تغطي رأسها بكلتا يديها متمايلة بكامل جسدها، وضاغطة بجبهتها على عتبة المنزل.

شعاع القمر الهابط بسلاسة مثل شريط رفيع، سقط على وجه كاتيرا المخبأ في الظلام، الجرم السماوي نفسه استلقى على جانبه، شعرت كاتيرا كما لو أن القمر قد انشطر إلى نصفين.

"يا إلهي"، همست قائلة، -اتضح أن القمر لن يظهر فوق كاراول بجماله الكامل، لن يكون كاملًا وتامًا وأبيض ساطعًا ليبدد ظلام الليل الدامس!

بأصابع مرتجفة، لوقت طويل فكّت ببطء أزرار البيشبينت(9) الذي كان يضغط على صدرها...

(9) بيشبينت: لباس خفيف مع بطانة، بطول الركبة.

آيغول كيميلبايفا

(ولُدت عام 1965)



- كاتبة وناقدة أدبية ومترجمة كازاخية شهيرة، تخرجت عام 1987 من كلية الصحافة بجامعة الفارابي الوطنية الكازاخية.
- في الفترة 1989 – 1994 درست بمعهد جوركي الأدبي في موسكو في قسم (النثر).
- كتبت رواية للأطفال بعنوان "رحلة إلى القارة السابعة".
- كتبت المجموعة القصصية "الوادي المغطى بالمروج"، ورواية "البرج".
- نُشر لها أكثر من مائة مقالة وترجمة أدبية في الصحافة الحكومية. وتركز في دراساتها على المصادر الروحية الوطنية والنظرة القومية العالميمية والتاريخ.

- في كتابها "القلب الهائج" قامت الكاتبة بنشر مقالات رائعة حاولت من خلالها دراسة الأدب العالمي والكازاخي في نطاق واحد وتحليل الظواهر التي تحدث فيهما.
- حصلت على الجائزة الحكومية الشبابية "دارين"، وجائزة "بولكيشيف" من اتحاد الصحفيين في كازاخستان.
- فازت بمسابقة (Soros Kazakhstan Debut)، وأيضاً بالمسابقة الأدبية (الرواية الكازاخية الحديثة) التي نظمها صندوق (Soros-Kazakhstan) عام 2000.

كوكيناي وكالكامان

(أصبح كالكامان منفيًا من أجل فتاة واحدة-وحيدة)

مهداة إلى ذكرى أنوربيك إيساخانولا
المؤلفة

في الأفق سطع ضوء نجمة، في منامه رأي كالكامان جدَّه البعيد، الذي كان في سلالته أقدم من أولئك الذين ينتمون إلى الجيل السابع، كان ممتطيًا صهوة جواده عبر المضيق المائي، واختفي خلف الأفق، كان رأس حصانه مغطّىً بجلالٍ سميك، مع حصانين تبع كالكامان الفارس الوحيد، سار كالكامان على ضفاف سيرداريا مع قرينه إيتباكا الذي أصبح يتيم الأم في سن مبكرة، في حين فقد أباه في الحرب، وكونه فتى يضمر الحزن في قلبه، كان يعد نفسه "ألداغاي" محاربًا انتحاريًا.

حسب العرف الكازاخي القديم، خلال حياة ألداغاي يقيمون عليه صلاة الجنازة، لا يمكن لأي مولود أن يتجنب الموت، كان الفتى اليتيم مستعدًا للموت بغضب في ساحة المعركة، كان هو، إيتباكا، قد أعطى أتسوييك.

استبدل حصان كوكيناي الميت في المعركة الشرسة مع الزونغار، منقذًا بذلك باتير من موت محقق، كانت قوات الزونغار على استعداد للتحرك، إلا أن خبرًا سيئًا، متلاطمًا كجليد متصدع أصابته مياه خارجية، أبلغه في الطريق بسرعة وصول رسول إلى زعماء آرغين ونايمان،

في الشتاء كان الكازاخ في وضع أكثر أمنًا، ومع حلول الربيع، مع صوت الوقواق في البساتين، تنشط القوات المعادية من جديد، على الجبل الأبيض قدّمَ القرغيز (1) لخونتايجي(2) مجموعات الخيول المسرَّجة

(1) قيرغيز: من الشعوب التركية، عاش أجدادهم في ينيسيي.

(2) خونتايجي: حاكم خانات الزونغار.

والمجهزة بكامل العتاد والتروس، بالإضافة إلى ذلك، قاموا بتزويد قوات الزونغار بالسلاح والطعام، كل هذا نقله الخفير سرًا إلى أبناء قبيلة أويسون(3) من الجزء الأقدم(4) ، كان القيرغيز الشعب الأكثر قرابة من الزونغار الكاليك، وتعهدوا بتقديم المساعدة لهم في حملتهم الدموية ضد الكازاخ، القبائل الكازاخية التي كانت تعيش في سيميريتشيه وعند سفوح كاراتاو عانت كثيرًا من غزوات الزونغار، وتعبت من الهروب باستمرار من الموت.

لم يفارق الفتيان الشجاعان كالكامان وإيتاباكا سلاحهما حتى خلال النوم، في كثير من الأحيان كانا يتجولان في السهوب، ويشاغبان... أصبحا كازاخ.

شخص ما يجري باندفاع، إما درويش أو لص، أخافَ بشدة الحبارى والطيور الكبيرة التي تعيش بكثرة في هذه الأماكن، رفع الفتيان المستلقيان بهدوءٍ على العشب رأسيهما.

– مرحبًا أيها الفتيان النبيلان!

حياهما الدرويش،

– ليُحفظ العالم من المصائب! البعوض يسير إلى النخر،

استلقى الدرويش على العشب، ووضع كيسه تحت رأسه، وغرق على الفور في النوم مطلقًا شخيره، بسرعة أيضًا استيقظ الدرويش المتجول، نظر حوله، وقال:

– أسلافنا الذين عاشوا في جبال كاراخان هم الشهود على أن هذه الأرض النبيلة عاش عليها وازدهر البيك الجليل إيتباكا!

جفل إيتباكا من هذه الكلمات، بدا له غريبًا جدًا أن يسمي هذا الغريب اسمه بالتحديد.

– أنا مكشوفٌ كالصقر، ليس لدي أي وتدٍ أو فناء أو عائلة أو ممتلكات، لا أملك سوى الكورجون.

قال الدرويش:

– أستلقي على الأرض الرطبة، أتغطى بأوراق الشجر، أنا مخلوق أهدأ من الماء وأدنى من العشب، البدو الرحل يطعمون الدراويش، يا ولُدي، إن طقوس الجنازة التي تقام عليك كميت، تدفعك في بعض الأحيان إلى شجاعة متهورة، أنت في المعركة مثل الصقر، تبيد بلا رحمة محاربي الكاليك، سيلعنك الأعداء كجلَّاد، ومقدّر عليك أن تعاني الكثير في هذه الدنيا.

– لن أقول أبدًا إن قبر كوركيت يتراءى لي في كل مكان؛ لأن الموت لا يهدد رسولًا، فمن الممكن أن مظهر الموت لا يذكِّر إلا بلمعان البرق.

قال ألغاداي بفخر:

– أذهب إلى القبر المقدس للجد كوركيت،

---

(3) أويسون: إحدى القبائل الهندية–الإيرانية للبدو الرحل.

(4) الجزء الأقدم: اتحاد 11 قبيلة كازاخية في مجموعة واحدة.

قال الدرويش:

– الدرب الرائع للتجول يبدأ من سيرداريا، على جبينيكما أنتما الاثنين هناك علامة من الأعلى، أنتما أشجع الفتيان، لذلك، فإن كليكما لن يطيع شيوخ العشيرة، وستحملان عبء القدر لذلك، لن تشاهدا فراشًا لينًا من جلد الغنم، والهضاب ستكون لكما وسادة، وسوف تعيشان وحيدين كأخدر منفصل عن السرب.

التفت إلى كالكامان بوجهه الأرجواني بلفحة الشمس والرياح، وكانت نظرته خارقة:

– أنت يا عزيزي ابن نبيل في العشيرة، الفتاة تطارد الفتى، ولا تختفي هي بعيدًا، لن يُنسى اسمك، مثل شمعة أشعلها كوركيت، يجب عليك أن تتحمل المرارة بثبات.

عزف الدرويش على الكوراي الذي ناح منه الرثاء باكيًا، بعد عزفه للحن، قال بانفعالٍ وحماس:

– في العصور القديمة كان ساردارايا يسمى كيزيل–داريا، حيث كانت مياهه تجري عبر صحراء كاراكوم الشاسعة، وببركة "تنكري" لم يجف مجراه، على الرغم من أن النهر كان منهكًا لدرجة أنه كان يتدفق ضعيفًا كمجرى الدمع، وفي الوقت الذي كان يعيش فيه أسلافنا في جبال كاراخان، كان نهر سيرداريا يصب في بحر كريديري، للأسف نسى الناس منذ فترة طويلة أنه كان يسمى في البداية بحر أوغوز، كان ذلك الوقت نقيًا كلبن الوليد، كان وقت ولادة كوركيت، إيه! على شواطئ سيرداريا كان هناك عبدٌ روحه الطيبة تتوق بشدة إلى الحرية، رأى في المنام معجزات تنكري، كان تنكري يلهم كل عبد بعلامة إلهية من فوق، قوة خارقة للطبيعة خلقت قوس قزح ملونًا بألوان مختلفة نقلتها النجوم، وأي قدرة تحنيها وتضعها على شكل قوس وتقرّبها في قناة واحدة؟ إذا كانت الأطياف مختلفة الألوان، الأخضر والأزرق والأحمر والأصفر، تسبك بكل الألوان قوس قزح في صف واحد، فلماذا لا يمكن لمياه نهرين أن يصبا في بحر واحد؟ عندما تندمج الأرض والسماء، ترتفع روح الإنسان إلى أعلى، مجريا النهرين –سيرداريا وأمودايا–اللذان يصبان في بحر الخزر، تحولا بفضل نبوءات ذلك السلف إلى بحر كارديرين، ومنذ ذلك الحين أصبح هذا المكان الدار العزيزة، أرض الآباء، ومكان النجاة بالنسبة لقبائل نوغايلي التسعين مع محاربيها الأبطال في سنوات المشقة والصعاب، إنها توران، ملاذك، انظروا، هذا مكان مناسب لقضاء الليل، اصطادوا الحبارى، وحفروا موقدًا أرضيًا، وأشعلوا النار، وعند الغروب لوَّنت الشمس كل شيء باللون القرمزي، وعلى الموقد تطايرت النجوم المضيئة من الحطب المشتعل.

منذ ذلك الحين يطلق الناس على ساردارايا اسم "الأم العظيمة"، يلجأون إليه ويلوذون بحضنه من الهجمة الشرسة للأعداء الذين يندفعون إليهم من كافة الجهات، بيتباكادالا تحميه السايغا والكازاخ من الأذى، توفر الصحراء الهادئة والصماء المأوى والحماية، هذا يعرفه الصوفي المتجول، وكذلك الهائم! أصاب الدوار المستوطنين، ما دام الناس على قيد الحياة، فهم يرون بعضهم بعضًا، أين قِرَبكم الضخمة، التي كان بإمكان الفتى أن يسبح فيها؟ أين التوريليك من فرو القاقم الأسود؟ هل ثمة بقية في تشيورني إيرتيش وإيشيم من نور، ما دام الحشد قد فر من هناك؟ سيفقد اللصوص رءوسهم على الطريق، وستمزق أحشاء محاربي

الزونغار الدنيئين، ومع معلاق الذبائح ستمزقها الكلاب الجائعة.

تراكم النجوم في السماء حتى قبل ولادة الحياة على الأرض، أضاء ذاكرتي الممتنة لعظمة تينغري، لا تنسوا أن رفات المرشدين الروحيين ترقد في مقبرة في تركستان، الإنسان يسهو، يخطئ، والمختارون أيضًا يجدون هناك ملاذهم الأخير، في لحظة ضرب البرق الناري سربًا من الأوز الطائر في السماء، فسقط، ميتًا على الأرض، حوالي سبعين روحًا! بأعجوبة فقط أصيبت بالسهم الذهبي هذه الطيور وهي محلّقة! علامة سيئة! سيذبح الزونغار-الكاملكيون ثلثي الكازاخ، لأكثر من أربعين عامًا سيهدد الثأر الجميع، وسينال الخنوع العُقاب.

خلال العشاء لم يصدر الدرويش صوتًا، وعندما استلقى لينام، تقلَّب بقلقٍ طويلًا على الغطاء العشبي، وفي الصباح الباكر لم يجده الفتيان بعد أن استيقظا، فقد اختفي بدون أن يترك أثرًا، في حين ظلت كلماته المشئومة في قلب الفتيين جرحًا لا يلتئم.

وسط قبيلة أرغين التي تتميز في شكل العيون، عاش جنس التوباكتي على عرف

الحصان، على سنام الإبل، بشكل محموم، في حالة خطر القتال.

"ذلك هو شعبنا، شعب أرغين، شعب نوغاي"، كان هذا القول في القدم، وكذلك في الأوقات العصيبة بسبب الغزوات المتكررة للمحاربين المرتدين، وحدث أن لف الكازاخ أطفالهم حديثي الولادة في روث الأخدر، أو دثروهم بالعشب الأخضر، لم تُنزع أسرّة الأطفال من الخيول، فالقبائل كانت على استعداد دائم للانتقال من أماكنها.

طرد الزونغار الكاليك قبيلتي نايمان وكيريي الكازاخيتين من موطنهما الأم، ألتاي وإيشيم، ثم هاجموا كالنار الجزء العلوي المسطح لهضبة آركا، عندها فرَّ مع القبائل القريبة جيتي مومين، رئيس الكهنة وجد سلالة التوبيكتينيين آنيت بابا، كان وقتها صبيًا في سن السابعة، ووضعوه على رأس سرج البعير، وهكذا وصل حتى الفرع الأدنى من سيرداريا، ومنذ ذلك الحين مرّت سبعة وسبعون من الأعوام، لم تتوقف غارات الزونغار، في الجانب الشرقي اكتسبت الزونغار زخمًا، عانى الكازاخ من أقسى الأوقات، حيث انخفض عددهم بمقدار الثلث بسبب هذه الحروب التي لا نهاية لها؛ كثيرون سقطوا قتلى، وآخرون وقعوا في الأسْر، ونظرًا لأن القرى الكازاخية كانت تمتلك قطعانًا ضخمة من الماشية، فقط تقلصت الأنهار من السقاية النهارية، وفي الصباح جاءت الفيضانات مرة أخرى من المصادر التي لا تنضب للأرض المباركة.

لم تستطع آرغين-كيبتشاك، ونايمان كونيرات، وكيريي أواك الصمود في إيشيم-نورا في سهول ومرتفعات ساريآركا الشاسعة والمغطاة بالغابة الشاطئية الكثيفة، وبعد أن فقدت الهدوء، اضطرت القبائل الست في الجزء الأوسط إلى الفرار، وانتقلت إلى أقربائها أويسون من الجزء الأكبر، وآلبيني في الجزء الأصغر، أراضي أوش كيان، وتيولكبايسين، وكازيكورت، وجيديليبايسين، وكوزيباسي، وشو، وسيميريتشيي امتدت في الجنوب، الطيور المهاجرة المحلقة فوق تيرناوز عبر جبال القوقاز، هبطت عند ضفاف سيرداريا.

منذ تلك اللحظة تغيرت جدًا ماماير ابنة مايغازا، فراخ الأوز والبجع في البحيرات المغطاة بغابات كثيفة من القصب والكاتيل، قبل قدوم البرد غادرت محلّقة إلى المناطق الدافئة من دون أن تبتعد أو أن تطير مبتعدة ولو لخطوة عن أمهاتها، كذلك ماماير، مثل البجعة الصغيرة، ما زالت غير منفصلة عن والديها، بقيت في منزل والدها، انتهى وقت تزويج البنت، والناس لم يجرءوا على التقدم لخطبة الابنة الوحيدة للرجل الغني، حتى لا يغضبوه، لقد ربّى الأب ابنته كابن، منذ العصور القديمة للحاكم ألاش خان، ربى الناس قطعانًا لا تعد ولا تحصى من الخيول في السهوب، ماماير التي لا يفارق القوس ظهرها رعت الخيول في الأماكن الجبلية؛ حيث يكون الشتاء خفيفًا، أسفَ الأقارب على بايغازي؛ إذ "ليس لديه ذيل أو عُرف"؛ أي ليس له وريث، ولكن لم يجرؤ أحد على التحدث عن ذلك بصوتٍ عالٍ.

كانت ماماير راعية قطيع متميزة، فبعد أن تجمع الخيول، تبقيها على فحل خيل قوي وتخبُّ مهرولة إلى قريتها.

في الطريق التقت باثنين من الفتية، أحدهما كان كالكامان، الابن الأصغر لآيتيك، شقيق أوليجاي، كانت فارسة مفعمة بالحيوية، مثل كثير من فتيات السهوب اللواتي منذ ولادتهن يظهرن مهارة في ركوب الخيل، كانت تمتطي الخيل بشكل رائع، وبقليل من الغطرسة بدون أن تتراجع بفروسيتها عن الفرسان، عندما رأى إيتباكا الفتاة المرتدية ملابس الرجال، أراد أن يتباهى بفروسيته، فبدأ بقليل من الحماس بقفزات صاخبة، السهل المترامي الأطراف والفواح برائحة الأعشاب المختلفة، حمّس الشباب على المنافسة، وجذبت قعقعة حوافر الخيول بقية الفرسان، فهرع الشباب بجنون، وحلّقوا على الخيول كالطيور في مساحات السهوب.

عندما كان كبار القرية يغادرون إلى احتفال في القرية المجاورة، قام الشباب، الذين بقوا وحيدين، بتنظيم باستانغي، كانت ماماير تشع بجمال الشباب والحركات الرشيقة، وبعد أن غيرت الصورة السابقة، ظهرت أمام الجميع في ملابس فتاة، لم يصدق الحاضرون أعينهم، على إصبعها خاتم مع رسم طير، وفي أذنيها آلكا فضية –قرطان مع حلقات، وفي ضفيرتها كانت ترن شولبي معلقة، هز هذا التغيير السريع الفتيان والفتيات، فقد ربّاها "أبو"ها كصبي، ولم تكن تعرف من قبل الحلي النسائية.

زارت والدتها أقرباءها من قبيلة نايمان بالقرب من سيرداريا، وفي ذلك اليورت كانوا ينتزعون برفق الريش من بوم جارح، جلبت الأم هدية من ثلاث ريشات زغبية صغيرة من قدم طائر الليل، وقامت بخياطتها على رأس قلنسوة ابنتها، والآن مع النسيم ترفرف هذه الريشات على قلنسوتها، وعلى قبعة كالكامان.

في ليل الصيف المقمر لعبوا آكسوبيك، حيث أضاءت عينا كالكامان في الظلام، وصاح:

– أيتها الفتاة ذات الريشات، ممتلئة الجسم، أنت لطيفة كفرخ الأوز، للأسف، يا إلهي، للأسف أنك شقيقتي المقربة، ماميرجان، إيه، ماماير ابنة باكي!

ابتسمت ماماير بمظهر المتفاخر:

– صحيح أنني بالنسبة لك لست من تلك العرائس اللواتي يبحثون عنهن عادة في الأماكن البعيدة،

يا كالكامان.

ما إن نطقت شفتاها هذه الكلمات، حتى غمرت النار قلب الفتى، واشتعلت روحه بدفقات الحب، وشعر بعدم ارتياح لا يطاق من هذه الحقيقة.

عندما رأت ماماير بوضوح وجهه كالمجنون، فكّرت، وهي المتماسكة الغارقة في حزن عميق، بالمستحيل، كان جميلًا مثل يوسف في الأسطورة، كل الأفكار الخفية للفتاة كانت أسيرة له، وهي نفسها تقنعه:

- لو أصبحت خطيبي، سأكون ممتنة لله دنيا وآخرة، لسنا أنا وأنت فقط من ينتهك قانون السهوب المقدس الذي يمنع تزاوج الأقارب حتى الجيل السابع! إذا قالوا إنني سأموت غدًا، لن أتخلى عنك على أية حال! ماذا تقول في ذلك يا عزيزي؟

ذُهل كالكامان عندما أدرك أنه بدونها سيكون العالم بالنسبة له كريهًا، وأنه كان مخطئًا للغاية،

التقى العاشقان عند المغيب بعيدًا عن القرية، في طقس سيّئ، على الرغم من أن كالكامان لم يفكر على الإطلاق في التخلي عن رغبته، إلا أنه لم يخف شكوكه:

- ماميرجان، محبوبة العم بيغازي...

كان جالسًا على الحصان وينظر في عينيها.

- أنت نفسك تعرفين بدقة أن إحدى السمات الطبيعية لسلالة الخيل، أن الفحل يطرد من قطيعه المهر الفتية، الزعيم هو "أبو" القطيع، لهذه الحيوانات من الغريب تزاوج الأقارب الذي يؤدي إلى تدهور السلالة، لقد عرف أجدادنا منذ البداية قانون الوراثة في الطبيعة، ومن خلال منع الزواج بين أقارب الدم، حافظوا على النسل الهزيل والأحفاد المعتلين من التدهور الحتمي، كيف يمكننا أن نخفي عن الناس أننا، أنتِ وأنا، ننحدر من السلالة نفسها؟

- كالكامان، ما حاجتي إلى إرادة الآخرين؟ لقد قمت بخياري، يا روحي! أنت حبيبي في هذه الحياة الفانية، والأعز بالنسبة لي من كل شيء هو مظهرك النبيل، على الرغم من أنني ولُدت فتاة، أحبني والدي كابن، ولم أفكر حتى الآن أنني ضيفة في منزلي، توهجت مثل نسر الجبل، عشت كما أشاء، وإلى متى تستمر هذه الحرية؟ عمري أصبح خمسة عشر عامًا، أنت أيضا لم تخطب عروسًا، لا يمكننا تجنب قانون زواج السهوب، إذا كان خط القدر يسير بعيدًا عنا، لا يمكننا أن نقاوم.

لفت السحب الراعدة السماء، وبوهجها الناري أخافت الومضات المضيئة للصواعق العالم، هطلت أمطار غزيرة مصحوبة بموجات من البرَد، بسبب مشاعر الحب، اعترت الفتاة فرحة وحشية جنونية، وكانت مستعدة لأن تموت هنا، بدلًا من أن تضربها ومضة برق سريعة تشتعل في الأفق مثل التنين الأسطوري.

في مطلع الصيف رحلت قبائل أوردا المتوسطة إلى سفح كاراتاو الذي يصب في تشو، أصوات طيور الوقواق تقوى في الليل، إنها طيور ذكور الوقواق التي تدعو الصديقات إليها، على البحيرات المحاطة بالنباتات البرية بنت أعشاشها عدة أنواع من الطيور المهاجرة: الكركي، الواق الأوراسي، الأرديا الرمادية، البط، الإوز، حتى

في الليل لم يهدأ الصخب الموسمي.

جرى لقاء الاثنين مرة أخرى وسط القصب الكثيف في بويوناك، كان القصب المنتصب في الأعلى يتمايل بشكل بديع مع النسيم، بقي القطيع، كما هو الحال دائمًا، تحت حماية الفحل العنيد.

- أنا أعرف ما يدور في خلدك، الحقأنها وقاحة لم يسمع بها من قبل، إذ لم يرتكب أحد من أبناء توبيكتين فعلتك؛ أن يتزوج من داخل سلالته.

هكذا بدأت ماماير الحديث، وهي تنظر بلطف بعينيها الجميلتين اللامعتين.

- السليل الرابع لتوبيكتا هو ساري؛ جدنا أنت وأنا، منه وُلد أربعة أبناء: مامبيتيي وأومبيتيي ومامبيتسوبي وكيشيك، من مامبيتيي وُلد أبي بيغازي، ومن كيشيك وُلد "أبو"ك آيتيك، وبذلك فهما أبناء عم، وأحفاد لجد واحد، ونحن الاثنان ابنا حفيدي والد جدنا، وأبناء من الجذر نفسه، لا تؤنبني لكوني فتاة مولعة بالنسب، جدانا من جانب الوالد أُنجِبا من أبٍ واحد، قرابتنا تعود إلى الجيل الرابع.

صمتت قليلًا، ثم واصلت بصوت باكٍ:

- يحزنني بشدة ،،، أقول لك يا كالكامان، اليوم من قرى نايمان في السهوب جاء رسول من الخطَّاب إلى يورتنا، وعلَّق سوطًا بقبضة فضية منحنية في مكان الشرف، لم يرجعه والدي، هذا يعني خطبة، والفتاة المخطوبة لا يمكن طلب يدها، هل تتفق مع هذا؟

- أوزتي الحبيبة، سأضحي بنفسي من أجلك!

قال كالكامان بصوت مكبوحٍ.

- إذا أصبحت لي، كل شيء آخر هو أكذوبة، حتى الرسول لم يكن بإمكانه توقع المستقبل والمجهول.

رأى آنيت بابا حلمًا رهيبًا، ظهر رسول عند الباب، وراء العتبة، جلب الأخبار السيئة:

- يا أبتِ، باتير كوكيناي، يعلن أن القانون المقدس للحكيم جانيبيك، الذي لا يسمح بالزواج حتى الجيل السابع، قد انتهكه مخادعوه، ولطخوا بشكل رهيب بالعار عظيم سلالتنا جيتي مومين، ويقول إنه سوف يقتل كلا الاثنين اللذين اقترفا هذه الحماقة، أولجاي وشقيق بايبوري حزينان بشكل رهيب، ويسألان: هل يمكن إرسال كالكامان مع الفتاة للهروب؟

- يا بني، تحدث دون هيجان عما حدث.

- كالكامان وماماير ارتبطا بخطبة سرًا! باتير كوكيناي أمر مامبيتيي وأومبتيي بمعاقبة الفتاة الرديئة السمعة، وأن يقوم بالشيء ذاته الأشخاص من جانب الشاب إذا كان الشرف عزيزًا بالنسبة لهم، هذا ما أردت قوله، يا أبتِ، أعلم أنني ثرثار، فاغفر لي!

في الماضي قام جد الحكيم تاوكي خان فيسوكي يريسيم بمهاجمة ممتلكات حاكم طشقند تورسين من قبيلة كاتاغان، وابنته كونيربيكي زوَّجها لساري، كونيربيكي هي أم كيشيك ومامبيتسوبي، من زوجته القديمة وُلد مومبيتيي وأومبيتيي.

آنيت بابا، رجل عجوز يبلغ من العمر ثمانين عامًا، مع الحزن في قلبه، ضيّق عينيه بشدة، وجلس على تيكميت، لقد صدمه هذا الخبر، وأخذت الأمور منعطفًا سيئًا، اجتمع كالكمان وماماير؛ الأمر الذي كان في الحقيقة الضربة الأكثر تدميرًا، كان آيتيك الأخ الشقيق الأصغر للرجل العجوز الجليل، ابنه كالكامان بلغ السادسة عشر من عمره، من زوجة آيتيك الأولى أولاجاي، ومن الزوجة الثانية ولُد ولُدان: بايبوري وكالكامان. بالطبع كان عمر ابن أومبيتيي دون السادسة عشرة، وفي كثير من الأحيان كان يشن هجمات على الزونغار-الكاليك، أخذًا بالثأر،كان كوكيناي الباتير الرئيسي ليس في قبيلة توبيكتي فحسب، بل لقبيلة آرغين كلها، مضت حياته كلها تقريبًا في الحملات العسكرية التي جعلت الأزواج ينامون في بعض الأحيان على ظهور الخيل، متكئين على رماحهم، ونشبت مناوشات مميتة مع العدو، كان كوكيناي الرهيب، الممتطي حصانه الرمادي الفاتح، عنيدًا شديدًا ومتهورًا عند الغضب، مثل كثير من الرجال القساة، لم ينحرف عن نيته قط، كان المرشد لثلاثة أجزاء، وبارك الشاب تولي بيا من عشيرة أويسونيي الذي جاء عمدًا إليه لهذا الغرض، أنهى آنيت بابا دراسته الروحية في طشقند، لاهوتي، وكان ضليعًا في العلوم الطبيعية، إن المظهر الروحاني المتوهج والملهم للرجل العجوز، كما لو كان قد سبح في حليب فرس بيضاء، تلاشى، وبدا مرتبكًا ومكتئبًا معنويًا بسبب الظروف المزعجة السائدة، "أوه، يا إلهي، لا يحدث، كما ورد في الأقوال المأثورة أنه بالكاد يلاحظ تحليق البوم، كذلك مخفي إثم الشباب، الآن عزيزي، ابن أخي يهدده خطر كبير، الوحش والأعداء يهاجمون في الظلام، ماذا عساي أن أفعل؟ "إذا سقط الأخدر في البئر، يصبح الضفدع فحلًا،" هكذا انغمس العجوز في حزن لا يهد.

عندما التقى مع ابن عمه كوكيناي على انفراد، اتضح أن طموحاته للمصالحة كانت غير مجدية، فذاك لم يفكر في تقديم تنازلات، رفض كوكيناي قرار العجوز عن أن المامبيتي(5) ، بالإضافة إلى مهر لعروس، سيؤخذ زيادةً على أنه "كون"(6) ؛ فدية للاثنين.

– سأحيل إلى القاضي تصرف كالكيمان المشوَّش والمخالف، لم يقيد بايغازي ابنته الوحيدة بأي شيء، منحها الحرية في كل شيء، سأعاقبها بنفسي، وإن ماتت، فهذا ما يجب أن يكون، ولا أسف عليها البتة، لن أتهاون في خزيٍ من أجل واجب القرابة، فهما انتهكا تقاليد الآباء، ولهذا عواقب وخيمة على الأمة كلها، إنه بداية المصيبة، الخيول المتروكة بدون مراقبة تجذب الوحوش الضارية، بالنسبة للرجال أحيانا يأتي التهديد من سحر الإناث؛ مثل الأفاعي الملتوية، ألا تملك الحق في منع الأعمال الإجرامية لهؤلاء الشباب الطائشين، الذين جلبوا العار للعائلة بأكملها، لكل سلالتنا، يا أبت؟ من وقت لآخر نتعرض لخسائر كبيرة من الأعمال القتالية للكاليك الذين يقضّون مضاجعنا، ويعاني الناس الأبرياء؛ لذا ينبغي عدم إقلاق الجميع، فليس من

(5) مامبيتي: أومبيتي ومامبيتي وكيشيك – أسماء أشخاص. ولكن وفقًا للعرف الكازاخي، فإن أسماء الأشخاص المحددة هذه أصبحت بعد عدة أجيالٍ تسمية للعشيرة، مثلًا: المامبيتيون، الأومبيتيون، الكيشيك، نايمان، آرغين وهكذا.

(6) كون: مبلغ يدفع كفدية عن قتل أو إصابة، وفي ذلك الوقت كان يعطى على شكل مواشٍ.

الجيد التفكك من الداخل، وزرع الفتنة، وأن يحدث شقاق داخل العشيرة في مثل هذه الأوقات.

قال القائد وهو يمسك الغمد بقوة وكأنه ينطق يمينًا.

- كوكيناي، كن هادئًا، يقول القرآن إنه وفقًا لأحكام الشريعة، يسمح بزواج أحفاد الأقارب، البشرية في الأصل جاءت من زوجٍ واحدٍ وحيد، من قطرة دم واحدة، للأسف، من غير اللائق أن يكون لدي نسل أبينا آدم وأمنا حواء مثل هذا الانحراف ونكاح المحارم، نكاح المحارم ليس غريبًا على كثير من الشعوب، ولكن ليس على الكازاخ، نحن، الكازاخ، ضد هذه الظاهرة،،، وأنا أعلم أن هيبة الرجال جعلت من الزواج نقيًا وجديرًا.

آنيت بابا الذي قتله الحزن أزاح نظره،

- يا أبتِ! والله، أنت تسمح لأبناء القبيلة الحساد أن يتحدثوا عني كوتوبيكية متعطشة للدماء، هذا يصيبني بالإحباط، الزيجات المتبادلة محظورة حتى الجيل السابع، هذا لا يعني أنهما لم يكونا على علم بذلك! لقد انتهكا قانون تايكي خان المقدس الذي يحظر نكاح المحارم! إن لم أجبر على فضح هذين المتمردين الضالّين لن يكون اسمي كوكيناي!

- لا داعي للقَسم، على الرغم من أن هذه حقيقة مطلقة، وكلمات مقدسة! هذان الاثنان أخوك وأختك بالدم، وليسا حصانين للذبح.

- عبثًا تقول، يا أبتِ! الزواج من الأخت ليس مجرد نزوة، أو وقاحة إنه جريمة رهيبة، في هذه البقعة لم يسبق أن ارتدّت عرائس، إنها تهزأ من تقاليد الآباء وتهينها!

أدرك آنيت بابا أن الشابين بالنسبة لكوكيناي مثل بيضتين فاسدتين، وكان على استعداد لأن يلقي بهما خارج عش الأسرة، على الرغم من كل شيء، قرر الرجل العجوز إنقاذ كالكامان، لقد رأى في المرأة واحدة من ثروات الحياة السبع، كما يقولون: الثروة الأولى هي الصحة، والثانية الزوجة.

- نسل التوبيك القليل العدد لم يفسد بعد، يا أبتِ، من يعرف قوانين الشريعة أفضل منك؟ في القرآن يحظر الزواج من الأمهات والبنات والأخوات، تنكّر من القريب الشائن،

كلمات كوكيناي المعاتبة دخلت، كما يقال، حتى العظم، وأحزنت الشيخ آنيت بابا، في حين كان هو أكثر حزنًا، كانت والدة كوكيناي نصف كالميكية، كما ترى، دم شخص آخر كان له مثل هذا التأثير.

في العام 1647 في مبارزة قطع رأس كوجابيرغين زعيم الأوردا المتوسطة الخونتايجا (7) الكاليك أولالا، وقعت زوجة كوجابيرغين الحامل في أسر الأعداء واسترقاقهم، الشقيقان الأصغران لكوجابيرغين، علي وساري، كانا يافعين، بعد 13 عامًا، ساري الذي تصادق مع قائد أولجاس من سلالة آرغين، انتصر في مبارزة على أولالا، منتقمًا بذلك لمقتل شقيقه كوجابيرغين، الابنة الجميلة الوحيدة لأولالا التي ولُدتها الغنيمة الكازاخية الحسناء، قدمها ساري زوجةً لابنه الثاني من زوجته الأولى أومبيتي، من أومبيتي ولُد كوكيناي،

(7) خونتايجا: لقب لكبار الإقطاعيين في القرن الرابع عشر، حمله أحفاد جنكيزخان الذين كانوا يمتلكون مناطق واسعة.

اسمه كوكيناي يعني بالكالميكية "الأفيون الأخضر"، حامل راية الحكيم تايكي خان، البطل الشهير الذي شارك في الحملات العسكرية للحاكم سالكام جانغير كوكناي، الذي امتطى منذ سن مبكرة صهوة الحصان، وكان شجاعًا وعديم الرحمة في المعارك مع الخصوم العنيدين -من الزونغار والكاليك-الذين يشبهون رايات مع شعر الخيل، كان مدافعًا قويًا عن بلاده، على حدود الأراضي الكازاخية، قاتل شهورًا وأعوامًا ضد الغزاة، لأكثر من مرة اجتاز بثبات الاختبارات غير المحتملة واللحظات القاسية للحروب.

بعد شهر حلَّت لعنة حقيقية، حيث اخترق سهم أُطلق من قوس كوكيناي قلب ماماير، الأنباء الحزينة عن مقتل ابنة الأخ على يد عمها، سرعان ما طارت إلى عشائر مومين السبع، والميرام(8) الخمسة، والجيران من عشيرتي نايمان وكوريي.

في اللحظة الأخيرة، ماماير التي ما زالت في الواقع طفلة، كانت ترفرف مثل إوزة، غير قادرة على لفظ كلمة "أمي"، خبت مع جمالٍ هادئٍ ساحر بالكاد تفتح كزهرة.

من بين العشائر الاثنتي عشرة اجتمعت كاراكيسيك، كانجيغال، باسينتين، آتيغاي، كاراول، توبيكت، أحفاد ساري انقسموا إلى مجموعتين، والباقون أجبروا على النظر بصمت لقصتهم المؤسفة.

أصبح إيشبيك سليل توبيكت من عشيرة كانجيغالي الشهير بفصاحته، وسيطًا محايدًا في النزاع عند الحكم بالقضية.

- واه، مرحبًا، يا حكيمنا آنيت بابا! وأنتم أيها البايات، اسمعوا!

بدأ بصوتٍ عالٍ:

- يا شيخنا النبيل، كالكامان مازال شابًا، فالعار أسوأ من الموت، عشائر مومين السبع ذات أصل نبيل، وهو ولُد من عبدٍ مجلوبٍ بلا أصل وضع على الشانيراك، لا أحد يستطيع أن يلومنا مباشرة، نحن كوكيناي، كيلباتشاك مع خمسة أختام، نايمان، كونيرات، كوريي، من أوردا أويكون ألبان، كانال، إيست، شانيشكيل، والذين يعيشون في الجوار كيتي-شوميكيي من عشيرة آليم، تابين-تاما من عشيرة جيتيرو، أفخاذ بايول الاثنا عشرة -كل عشيرة آلشين، التي وقعت أخيرًا مع آداي في شرك سييلخان(9) ، وباشورت، لا يمكن القول إن هذا النزاع سيصل إلى كل هذه القبائل التركية، النبل الموروث عن أوغوز، هو الذي يميزنا، ألا تولُد الفتاة لعشيرة أخرى، وهل رغبنا نحن في أن نشهد عارًا لم يسبق له مثيل، عندما يتزوج المرء أخته؟! "لا تتزوجوا من عشيرتكم حتى الجيل السابع، حافظوا على الوصية بقداسة، وإلا فإن السلالة ستفسد، وتعطي ذرية ضعيفة تافهة لا تلفت النظر بشيء"، هذا ما قاله أسلافنا العظماء، هذا الحزن بألم يخنق للأسف صدرك باللعنة في الكبر، أنا لا أحرّض، ولم تكن كلماتي بقصد الشماتة، نحن أبناء عشيرة قريبون، إخوة

(8) الميرام الخمسة: أبناء آرغين المولودون من الزوجة الأولى، والسلالات المنحدرة منهم: كونديك، سيوينديك، بيغينديك، شيغيننديك، كاراكيسيك.

(9) سييلخان: هكذا يسمي الكازاخ التركمان.

من عشيرة كانجيغالي-توبيكت، أيها الشيخ الحكيم، أنت رجل مقدس، مرشد روحي للجميع، كن عادلًا، لا تستسلم، لا تجعل شعبك القلق يقنط أكثر، احكم بنزاهة، أعطِ ردًا لائقًا! روح البطل في شعبه، والإنسان فقط في وطنه إنسان، العنزة الجرباء تطرد من القطيع، الشاب والفتاة عديما الأخلاق والضمير يستحقان عقوبة قاسية، عندما ينقسم شعب توبيكت القليل العدد إلى قسمين، فإن واحدًا منهما ينتقل إلى خارج الوطن، فماذا بوسعك أن تفعل؟ يمتعض ويرحل بعيدًا ، تلك هي أحيانًا طبيعة الكازاخ، التصرف الطائش لابن أخيك لا يغسله إلا الدم، لذلك كوكيناي الشجاع أصرَّ، هو ضد تطبيق عقوبة الفدية بماشية أو ممتلكات، لن يمر تعويض الضرر هكذا، إذا كان الشيخ على استعداد لحماية طقوسنا، والمحافظة على النظام العام، فلينزل اللعنة إذن بالسابقة الخطيرة، أن تسلُك مثل أبله مطلق، وأن تتصرف بشكل أسوأ من الغبي والخسيس، فليس هذا مثل العبد الصالح، وأن تتجاهل مباركة الكبار، فهذا يتطلب عقوبة، هذه الحالة ليست على الإطلاق خلافًا بسبب عروس، هي حقًا طردٌ للأرواح الشريرة، سلالتك منذ البداية افتخرت بالرجال البواسل، بالشهامة، بالتميز، إذا ضعفت عشيرة بسبب نكاح المحارم، والنبلاء، لن يبقى شيءٌ، حتى أثر طبيعة الذئب الحتمية التي حفظته بجلاء؛ لأن الذرية المعتلة محكوم عليها بالموت، ألن تهزل هذه السلالة؟ هو أحد أفراد أسرتك، شخص قريب، ومع ذلك، يجب عليك، أولًا وقبل كل شيء، أن تهتم بالشعب، أيها الشيخ الحكيم! كن مدافعًا مخلصًا لبلدك، أنت القاضي الأعلى، البار الصالح! فكل هذه الظواهر في العالم معدية، باستثناء كسر العظام.

- كالكامان يا ولُدي العزيز، يا نور عينيّ، كيف يمكنني أن أقدمك للذبح؟

قال آنيت بابا الحي بالكاد.

- مهما تكلمتم عن تهمته، لن أقوده إلى القبر ما دمت حيًا!

- هو ليس الشخص الوحيد الذكر من التوبيكتين، هو سيصبح ضحية لمصلحة الآخرين، من أجل الأخلاق، الصقّار الذي يعلّم صيد الطيور، يقول إن النسر الذهبي يعشش على الجرف المنحدر ويرمي بواحدة من البيوض، كوكيناي عمدًا أو عن غير عمد قتل ابنة أخيه ماميرا؛ هكذا أصدر الحكم الأخوان مامبيتيي وأومبيتيي، أنت مطالبٌ بمثل هذا الحكم الصارم، وإلا فهم لن يعيشوا معك بسلام، أبناء العشيرة يهددونك بالعداوة، ولن تكون هناك أية مصالحة، أنتم جميعًا أحفاد شخص واحد، أنتم أحفاد الجد ساري، هل ترغب أنت، أيها الشيخ، في العداء المتبادل، وأن تكون في خلاف معهم؟ فليكن ذلك خسارة، وعلى الرغم من أنه شقيقك الأقرب، إذا ما تركت كالكامان بدون عقاب، فإنك ستتحمل المسئولية أمام الله وأمام الناس، وسيلحقك العار إلى الأبد، خزيٌ وعار! احترس من الهزيل مثل احتراسك من النار، تجدر التضحية بالصغيرة من أجل الكبير.

كان آنيت بابا منهكًا جدًا من الجدال الذي لا نهاية له، لكنه بحماسٍ دافع عن ابن أخيه:

- أعشاب الوطن التي تفوح من أشعة الشمس السخية، حرارة متوهجة من الضوء الذي تسلل إلى قلوبنا، يبلسم الروح، الإشعاع يسمو بالإنسان إلى فوق، إنه ضوء الحياة، وليس الموت، لا تسرع لتبتر القريب، في الرحمة

والتعاطف يكمن خلاص النفوس، الله يحب الإنسانية، الحزن مرير للبريء، تأمرون برجمه بالحجارة؟ في سنوات الشباب، عندما كنتم عاشقين، مَن منكم لم يتصرف بجنون، ولم يسكر من نظرة عيون النساء؟ هل تريدون نزع الأجنحة والذيل معًا، وتتركوني بدون سند؟ الإنسان هو ابن الطبيعة، حتى الطيور، في الشتاء تنمي أجنحتها بكثافة، وفي الصيف يكون الزغب السائل، الطبيعة ليست قادرة على الشر، الطيور تجدل أعشاشها قبل التكاثر، الأبناء النبلاء يصبحون أرباب عائلات، أحيانا القلب الحار للشباب يقع في الحب بجنون، هذه التجاوزات ليست زنا، ليغفر الله الرحمن الرحيم! الذنب في بعض الأحيان يمثل كعبة للتوبة. الناس الذين انزعجوا من الظرف، ولا يريدون الموت العنيف لكالكامان الشاب، تفاءلوا بآنيا بابا، لم يستطع الجانبان التوصل إلى اتفاق، فقد عانوا بسبب الخلاف.

وأخيرًا حكم الشيخ على كالكامان بالعقاب من خلال اختبار السهم، "الربط بسهم" وإطلاقه إلى الموت المحتم: الجاني يجب أن يعدو على حصان سريع، كوكيناي يصوب نحو الهدف الحي، ويشد خيط القوس، إذا نجا كالكامان، فإنه لن يكون هناك تكرار للعقاب، عرف الناس بقوة أن كوكيناي كان رامي سهام دقيقًا، يصيب الهدف بدقة وبدون استثناء.

ذات مرة، في مبارزة مع الكاليك خورين أطلق عليه سهم مسمم، التقطه كوكيناي، وعلى الفور رد عليه بسهم طرح الخصم المحتد صريعًا، لحظة المناورة هذه شاهدتها بوضوح القوات من الجانبين.

هل سيصيب سهم كوكيناي أم لن يصيب؟ في ذلك تتجسد مشيئة الله تعالى، كالكامان لم يسلب ولم يغوِ عروسًا أخرى مع مهر مدفوع، لا يمكنك أن تأمر القلب.

– أوه، يا إلهي، يا خالق كل شيء، لتكن مشيئتك، وليست مشيئتي، لأنه لا يمكن إخفاء شيء عنك لا حقيقة ولا كذب! م

ثل هذا الحكم أصدره والدموع في عينيه كبير القضاة آنيت بابا.

على التلة الصغيرة قرب بوريوناك، حيث كان من المفترض أن ينفذ الحكم، تجمع الكثير من الناس، حسب العرف الكازاخي القديم، اصطف المحاربون في صف واحد، ويجب على المحكوم عليه بالإعدام أن يمر راكبًا الحصان عبر الرماة، كما لو كان تحت النار، إذا تمكن المتهم من أن ينجو من عقوبة الإعدام وظل صحيحًا معافَى، فإن ساعة موته لم تحن، إذا قُتل الخيال من السهم في العَدْو الكامل، فسيُحسب مجرمًا.

لتنفيذ الحكم انفصل عن الحشد كثير من الرجال، كانوا جميعهم من المحاربين الأقوياء الذين مروا بالنار والماء وعذاب الحروب التي لا نهاية لها مع الزونغار، مدافعين معروفين عن الوطن، أبطالًا حقيقيين، بسبب الانتقام، مستعدين لأن يشربوا دم العدو.

كوكيناي الذي ظهر على الحصان بوزشينغيل بخببٍ مضى نحو الموضع المحدد، فخرج إليه معترضًا طريقه شخص من الحشد، عرف كوكيناي الشاب الذي أعطاه حصانه في واحدة من المعارك الشرسة، منقذًا بذلك البطل الشهير، كان الشاب قريبًا من أم مامير.

- كوكيناي آغا، آه! قال الشاب.

- لن يأكل الذئب ذئبه الصغير! أنا من عشيرة أوكيريش نايمان، وأعلن أنه سيكون ثقيلًا عليك للغاية موت اثنين، أن تتولى بيديك إعدام اثنين، أقرب أقربائك، أيها البطل! الناس يحتجون ضد موت الشباب، حارب سلفي القديم كيشليك ضد جنكيز خان الرهيب، من دون أن يخشى الأعداء، امنحني حقك في الرمي، سأتظاهر بأنني أرمي، لكنني سأطلق السهم بانحرافٍ، يا عم، لا يمكن قتل شابٍ بسبب فتاة واحدة، لإثم صغير! إنه ليس عدوك اللدود!

كان كالكامان يصيح بحدة في أقاربه بأنه لن يطلب الرحمة، فهو لا يحتاج إلى عفو، آنيت بابا بارك كالكامان بيد مفتوحة، بقلبٍ صافٍ صلى الرجل العجوز طويلًا من أجل ابن أخيه، وبروح خالصة دعا الله عز وجل أن يجتاز الخطر القاتل، وأن يبقى على قيد الحياة من دون أن يصاب بأذى.

في ذلك الوقت، على بعدٍ، في كوخ فقير منعزل، عزف على الكوبيز شامان، ساحر ذِكرٍ، وكانت أصوات الكوبيز تشبه بوضوح الأنين من الألم.

تذكر كالكامان أفضل الأيام الخالية من الهم، عندما كان على ظهور الخيل، من دون أن يطفئ عطشه شرب مشروب العسل في جرعة واحدة، ارتدى الشاب الدرع، وبدون أي تردد قرر أن يصبح هدفًا حيًا، مذعنًا للقدر، وبدا وكأن الموت يغريه بسحره، قبل الاختبار القاسي، تذكر وصية آنيت بابا: "يجب أن يكون الفارس شجاعًا في شبابه، وأن يتصرف بلا خوف، وأن يكون مستعدًا للتضحية بنفسه، وأن يفعل دائمًا ما يمليه شرفه، إذا مت، فالموت ليس رهيبًا، وإذا بقيت على قيد الحياة، بعدها ستصبح رجلًا حقيقيًا مذهلًا، لن يرى الشخص بوضوحٍ ما هو مقدّر له في الدنيا، ما لم يتألم، وينزل إلى القب.

منذ فترة طويلة، في فم سيرداريا، في كوسرال تويغ الحاكم أورمانبيت، عندها تحطمت قبائل نوغاي كثيرة العدد بسبب خسارة قائدها، في الأفق، كانت هذه الروابي المتجمدة مغطاة بالضباب.

ركب كالكامان على ظهر الحصان، في حين أطلق الرماة سهامهم التسعة التي طارت جميعها بجانبه، شعر هؤلاء المحاربون بالحسرة، أن يقدموا إلى الأرض الجافة شابًا غضًا.

نظرت عينا كوكيناي الرماديتان بصرامة متوعدة، وبدا مظهره عنيدًا ورهيبًا، وأوحى بالرعب لحيته وشارباه، كوكيناي رجل قوي ببنية ضخمة، كما لو كان قد نشأ من ظهر حصان، مد نفسه وبسلاسة شد القوس، السهم الذي صفَّر أثناء طيرانه اخترق كالكامان الذي تأرجح للحظة على السرج، ثم كاد أن يسقط، لكنه تمسك بعُرف حصانه، وتنفس بصعوبة وبسرعة مبتعدًا بعيدًا.

شقيقة كالكامان التي وقفت في الحشد مرتدية ملابس رجل، بقلبٍ خافقٍ راقبت المشهد، كانت خائفة من منامها الثقيل، واستعدت للاختبار الأسوأ، لكنها كانت تعتقد اعتقادًا راسخًا بأن شقيقها سيعيش.

- لماذا لم يقبل الكلمات الصحيحة لسليل قبيلة نايمان، الذي قاتل سلفه حتى الموت مع جنكيز خان الذي احتل نصف العالم، ماذا يوجد في عقل كوكيناي؟

همس بصمت محارب شاب لصديقه.

– هذا المراهق، دون خوف من غضب كوكيناي الرهيب، طلب الرحمة لزميله حتى لا يقطع حياة الشاب، لو أنهم سمحوا له بالرمي بدلًا من كوكيناي، لأطلقَ السهم جانبًا، فهمت ذلك، مرحى له!

أبناء التوبيكتينيون هرعوا بصخبٍ خلف كالكامان، ونزلوا قافزين من خلال الحشد كله، صارخين بسعادةٍ، وبصوت عالٍ ارتفعت صرخات عشيرتهم: "الطريق الأبيض!"، "مايابوز"، السهم شطر القوس الأمامي للسرج واخترق الفخذ، ضاربًا العظم قليلًا، من الجرح خرج صوت بهدوء هستيري؛ صوت مثل وحش بريّ. هرع كالكامان إلى مسافة سهم، ولم يستطع اللحاق، على بعدٍ توقف وترجل من على حصانه، ثم قطع بحدّة ذيل الحصان بسكين القتال، كان ذلك علامة على اليأس الروحي، وتجسيدًا لاستيائه المميت، ونفوره، وتخليه عن عشيرته.

توقف أبناء القبيلة، كما لو أن شيئًا جلدهم بسوطٍ على جباههم، كان ذلك علامة واضحة على الشقاق والنزاع، ورجع الفرسان بشكل باهت إلى الوراء، ومع ذلك،لم يتخلف اثنان عن تتبعه، كانا صديقيه المخلصين، اللذين ترعرعا معه، من عشيرة نايمان وكانجيغالي.

منذ العصور القديمة، المحارب الكازاخي في الحملة يأخذ حصانين، يمتطي أحدهما، في حين يقود الآخر، أرسلت أخت كالكامان المحبطة صبيًا رسولًا مع حصان قوي، بدون سرج وعتاد خيل، وضعت الحمل في حزمة وملأت الخرج بالطعام: جبن مجفف، لحم مدخَّن، لحم خيل، ووضعت قربتي مياه شرب وأغصان إكليلية المروج لتكون حطبًا.

اقترب حصان الصبي الأحمر من كالكامان، الذي كان يجلس صامتًا في السهوب الخالية، بعد أن مزّق قميصه وربط الجرح النازف في فخذه، اقترب الحصان الأحمر أكثر، كما لو كان يشم رقبة كالكامان، في تلك اللحظة انهمرت الدموع من عيني الحصان الأحمر.

– لا يمكنك الابتعاد عن أهلك، لا يمكنك ترك منطقتك الأم، هذا بمثابة جنون، تراجع عن نيتك، لا ترحل!

بصعوبة قال إيتباكا، لقد كان هو مَن تقدم راجيا أن يحل محل المحارب الرهيب كوكيناي، – إذا رحلت دون أن تنظر إلى الوراء، سيعُدُّ الآخرون التوبيكتيين عنيدين وقساة، ستنتشر مثل هذه الشائعة، صحيحٌ أنك اجتزت المصادمة، ودخلت في المبارزة! ولكن ألا ننتمي نحن إلى شعبنا؛ إلى الكازاخ!

– لقد متُّ من أجل التوبيكتيين، وهذا حصاني يرتدي ملابس الحداد، إيتباكا، ليدفنوني كميت، كما فعلوا في حياتك، ليرفعوا راية الحداد على رمح في القرية!

قال كالكامان بصعوبة، متلعثمًا، كما لو سُحب لسانه،

– لم يعد لدي أقارب، لم يعد لي وطن، لن ألعن، لكن في داخلي تشتعل نيران، لقد دفعوا بي إلى الموت المحقق، لن أنسى هذا الحزن أبدًا، لن أنساه! أنا في حزن! دعهم لا يفتشون عني أكثر، أبلغهم!

ارتدى حزامه الفضي، وركب حصانه، وأخذ الآخر من زمامه، واختفي خياله، رجل مع حصانين، في

الأفق الأزرق، مغطىً ببياض الهواء المرتجف الهش، مثلما أنهكوا ذات مرة المحاربين من قبيلتي باشكورت وأويكورت من الترك،

لم تنته الهضاب في السهوب، والامتعاض يضغط على صدره بشكل لا يطاق على طول الطريق، كانت السهوب تفوح منغمسةً في الخضرة الكثيفة، في كل مكان كانت الحيوانات تمرح، إنه جمال الصيف!

في القرية إحدى الشابات، أرملة بعيون متموّجة، نحبت كالكامان الراحل، منشدة رثاءها شعرًا: "الحصان الذي انفصل عن قطيعه، من شوقه إليه يهز أذنيه، والرجل مشتاقًا إلى وطنه، يمتطي الحصان! هل هناك أرض مساوية لسيرداريا؟ هل هناك قبيلة تساوي توبيكت! كالكامان الشجاع أعظم العظماء، لا يمكننا رؤيته أكثر! حتى لو تقتله، لن يعود إلى أقاربه بعد الآن! الأفضل أن يذهب إلى درب التبانة ويكون متعذر المنال، أنا إنسانة مسكينة، أرملة بائسة، الآن فقدتُه إلى الأبد، عندما تتدفق مياه الينابيع، عندما يتحول البستان إلى اللون الأخضر، عندما تعود الطيور المهاجرة من البقاع البعيدة، عندها ستكون الحياة حلوة بشكل خاص لروحي الفتية، بعد كل شيء، لن يأتي مرتديًا الكفن، بل سيعود حيًا، يرتدي كيبينيك (10) !"،

توجه كالكامان من الغرب، من الجزء الصغير نجم الشمال، إلى الشرق، إلى الجنوب، إلى أقرباء أمه، كانت كالديكيز والدة كالكامان هي ابنة عشيرة شابيراشت من الجزء القديم، وفقًا للعرف القديم، الكازاخ يتزوجون عادة من فتيات خلف الأنهار السبعة؛ أي أنهم يأخذون زوجاتهم من بلاد بعيدة، كان شقيق الأم أيكيم يعيش على المنحدر الشمالي لجبل آلاتاو.

غنّت السماء، ومض البرق، تحولت الأمطار إلى وابلٍ، في الوادي كان الكثير من الغزلان ترعى، من النزيف أغمي على الشاب الجريح، واستلقى منهكًا على العشب في السهوب المهجورة.

بدأت لدى المصاب حمى شديدة، حرقت جسده كله، عندما استيقظ كالكمان بعد نوم طويل، بدا فجأة أن أحدهم انحنى نحوه، علمٌ أم حلم؟ غطت رأسه عمامة بيضاء ضخمة، رفع كالكامان رأسه بقوة عن الأرض الرطبة، قلقًا على حصانيه المربوطين بقوائمهما الأمامية، مرة أخرى لقاءٌ مع درويش متشرد!

جلب الرجل المسن أوراق حُمّيضٍ من ضفاف النهر، ووضع النباتات على الجرح، جثم على ركبتيه، وحل عمامته الطويلة عن رأسه، وأثارت قطعة القماش البيضاء التفكير في الكفن.

– سأقول باسم النبي محمد، هذا بياضي الذي جهزته لجنازتي، رضي الله عنه، يقولون إن واحدًا من الأربعين هو النبي الخضر، ليس بدون سبب صادفتك في طريقي، الولي هو عبد الله المحبوب، في الحلم أخبرني مولاي بابا توكتي شاشتي عزيز، وأرواح الأولياء الراحلين، الخصيصة الشافية للعشب سوف توقف النزيف، لماذا تتجول بمفردك في السهوب الخاوية؟

– الميت لا يختار المكان الذي يستلقي فيه، إذا مت، ليكن قبري بعيدًا عن أقربائي! لقد مت مرة، فمن غير

(10) كيبينيك: لباس خارجي للرجال من الصوف، يشبه البرقع.

المرجح أن أموت مرة أخرى.

– أنت ذاهبٌ، كما لو كنت تصرخ مثلما صرخ كيتي(11) مرة من سيرداريا، من جهة ساوران، يمر الرجل من خلال المحن.

قال الرجل العجوز، وباهتمام نظر إلى علامة أصله.

– فلتكن خاتمة الأمور سعيدة، العمل الصالح، مثل الذئب، سيجد لنفسه العيش على الطريق، اعبر الممر، وسوف ترى قرية، هناك سيعالجك مقوِّم العظام.

برودة داخلية لفّت وغمرت روح كالكامان منذ أن ترك أبناء عشيرته، ولم تتبدد على الإطلاق، مثل ضباب أعمى.

الغريب، على الرغم من أنه سيكون قاتلًا، ملكَ الموت، إلا أن الأمرين بالنسبة له سيان... لقد استسلم، عند غروب الشمس، أكل كلاهما لحمًا مشويًا على النار، غامسين قطعه في الملح، وشربا شراب الكوميز من الزهور المائية.

في الغابات الكثيفة الشمالية تعيش قبائل أخرى ذات شعر بلون القش، لهذا الرجل الغابي ذي العينين الزرقاوين، الذي يشبه السطح الناعم للبحيرة، سيبدو ليلًا نجم الشمال الذي يقف مثل ظبيٍ ورأسه باتجاه الشرق، وهكذا في هذا الوقت ستصل إلى أقاربك من الجزء الأكبر.

على الطريق اصطاد كالكامان الحيوانات بحبل، وقام بشيّ قطع اللحم على نارٍ بطيئة، كان يشرب من عنق القِربة، من دون أن ينزل من على حصانه، على سفوح جبال ألاتاو تدفق الكثير من الينابيع وتعرجات الجداول الجبلية، وعلى كل صخرة تقريبًا وقف بفخرٍ الماعز الجبلي البري مع اثنين من صغاره، وفي جماعات كانت تعيش الوعول والتيوس، تمايلت الأرض والسماء أحيانًا، فاح في الهواء النقي الصافي العبير، رائحة العسل الحلوة الرائعة، ورائحة البلسم الساحرة، والعبير المجهول الفواح يَسحَر الشاب.

من أين جنة عدنٍ على الأرض؟ الرائحة المدهشة البديعة نشرتها أشجار الفاكهة الوفيرة على المنحدر، التي لا تقل من حيث نقائها عن النجوم في السما.

دخل كالكامان في الغابات الفطرية الكثيفة من أشجار التفاح، التي لفت بحزام أخضر واسع وادي الجبال، هنا، حتى أواخر الخريف، تتجول الدببة، وتتغذى على التفاح، وكذلك الطيور اللطيفة تلتقط ثمار الفروع، تحت النجم القطبي الذي أضاء الطريق في الليل والنجوم الكبيرة في السماء على طول درب التبانة، لم يضل كالكامان طريقه، ووصل إلى قرية خاله آيكيم.

مرت اثنتا عشرة سنة منذ ذلك الحين، إذا لم يختف النجم القطبي من الطريق، ففي النهاية لدى التوبيكتين كان الهدف المنشود العثور على كالكامان.

(11) كيتي: اسم شخص أصبح اسم عشيرة.

عام الجوت(12) الثقيل حال دون تحقيق هدف الأقارب.

المصائب لا تأتي فرادى، في العام التالي، استعدوا فعلًا للبحث عن كالكامان، إلا أن الهجوم المفاجئ للعدو لم يسمح لهم بتحقيق الهدف المنشود، مات كثيرون في هذه الحرب غير المتكافئة، في حين أن الباقين على قد الحياة، نجوا بالفرار بصعوبة.

حاصرت قوات الابن الأكبر لحاكم الكالميك تسفان رابدان غالدان تسيرين الكازاخ من جميع الجهات، ومثل تنين بسبعة رءوس، أهلكت ثلثي السكان المدنيين، بالخناجر بُقِرت بطون النساء الحوامل مع الريش، ووضع الأطفال الرضع على حراب الرماح التي اخترقت أجسادهم، في الأيام الخوالي، مثل أنواع السلاح الخمسة -الرمح والسيف والفأس والقوس والعصا-لم يتراجع المحاربون الكازاخ أمام العدو في المعركة.

كانت قوات الزونغار مسلحة ببنادق وأسلحة نارية، وأطلقوا الرصاص من مسافة قريبة، تراجعت الوحدات المتبقية من القوات الكازاخية التي مرت بأوقات عصيبة للغاية، وتكبدت خسائر فادحة، لم يتغذَّ الناس إلا بشراب البتولا، وأكلوا جذور الأعشاب والنباتات، وأجبروا على الزحف بحشودٍ، حفاة، من دون خيول، وفي ملابس بالية، على الأطراف في الليالي غير المقمرة عوت الذئاب الجائعة، تغطى الناس بجلد غزلان السايغا وناموا، وكان اللاجئون يتغذون على حليب المهَر الضخمة، وعلى جذور الأعشاب البرية.

في وقت لاحق، أطلق الناس على هذه المصيبة اسم "كايين ساوغان"؛ أي "حلب أشجار البتولا"، في هذا الوقت الجهنمي العصيب، كان الطفل الكازاخي شبيهًا بصغير اليحمور، بكى الكبار بمرارة: "أوه، يا شعبي المسكين!"

في الحرب مع القوات السويدية نفدت خزينة القيصر الروسي الذي أمر بعد ذلك بالبحث عن الذهب في الشرق، وبأمر من بطرس الأكبر، قبل بناء الحصون والتحصينات على أطراف البلاد، على الحدود مع البدو الرحل، أُرسل علماء وباحثون إلى السهوب الكازاخية الشاسعة، وهكذا تحديدًا تصادمت الدولة الروسية الضخمة في الغرب مع العالم الشرقي: الزونغار، وأويرات كالميك، الفرع الغربي للمغول، القبائل المنغولية الكثيرة العدد لم تتسع لها أراضيها، أصبحت مزدحمة، وكما البدو الرحل، احتاجت إلى مساحات مفتوحة لرعي قطعانها، وهكذا، تحركت الأويرات والزونغار بأعداد كبيرة وبشكل مخيف في اتجاه أراضي الكازاخ، وأصبحت متاخمة لها.

الأراضي بين إيرتيش وإيشيم دمرتها قوات من الزونغار قوامها مائة ألف محارب، غطاها الدخان والغبار من حوافر الخيول وأجنحة الطيور، وكانت القوافل السرية من كوكاند وخيفا وبخارى تحمل السلاح إلى الزونغار والكاليك، في حين باع المواطنون الروس السلاح إلى الزونغار، وصبَّ السويدي الأسير (13) المدافع،

(12) الجوت: نفوق هائل للماشية من الجوع.

(13) السويدي الأسير: يوهان غوستاف رينات. بقي رينات وسط الأويرات لمدة 17 عامًا في خدمة حاكمي الزونغار تسيفان رابدان وغالدان تسيرين، وبمشاركة مباشرة من رينات بُنيت مصانع لصب المدافع والأسلحة.

أمسك الأعداء الخارجيون الشعب الكازاخي من عنقه، كان الأمر كما لو أنهم تآمروا على إزالة الجنس الكاراخي، وقتله، ومحوه عن وجه البسيطة، أضلهم شيطان الحرب، عندما تكاثرت العصابات الدموية بالقرب، هرب الجميع للنجاة إلى حيث تحملهم أقدامهم.

في عهد تسيرين حاكم غالدان، الذي تولى السلطة بعد تسيفان رابدان، بدا بوضوح أن الدولة الزونغارية أصبحت قوية للغاية، ونمت قوتها العسكرية، الأنهار السبعة التي تتدفق إلى بحيرة بالخاش، والسهول الخصبة الشاسعة أصابت الغازين بالجنون.

تملكت الزونغار حالة من الاهتياج، لا يوجد أسوأ من عدو يهاجم مرارًا وتكرارًا، بتيارٍ عنيف على ألاكول وبحيرة زايسان وبحيرة بلخاش وساسيكول، هجمت قوات زونغارية لا تعد ولا تحصى، إرتيش الأسود (النهر الذي كان بمثابة الحدود الطبيعية بين شعبين، ويهدر بالمياه المتدفقة، كالبحار) غمرت مياهه الجثث.

"إيه، أحسنتم، أيها الإخوة، الكفار الكاميك اللعينون هاجمونا مرة أخرى! لا تتحسر أبدًا، إن قضيت أنت في معركة من أجل وطنك الأم!"، صرخ الراوي الشاعر بحماسة شديدة،

تحت صرخة القتال هذه، القوات الكازاخية، المسلحة فقط بالأقواس والحراب والسكاكين القتالية الكبيرة والصولجان، وهي تلوح بالهراوات، مثل طيور الكركي، انقضت على العدو، مستردة من جعبته الكثير من السهام، وسط قوات الزونغار كان هناك عدد كبير من الرجال البدينين، مثل الكتل، عند تعرضهم لخطر الموت، هربوا أثناء الحصار، تاركين الجرحى بدون حماية، وهذا بالنسبة لهم قانون الحرب، الزونغار القتلى لا يُدفنون.

في عام 1723، على طول مجرى سيرداريا، وعبر تقاطع أكتال وكاراتال، على خط المواجهة قام كوكيناي مع خمسة آلاف جندي من قوات الجزء الأوسط ببناء سياجٍ، ولمدة شهر منعوا العدو من المرور، كما لو كانوا يمسكون بهم بقبضتهم، حتى عبر الأطفال والنساء وكبار السن جبال كاراتاو، إلى جهة الغرب، باتجاه نهر يايك، منقذين إياهم من خطر الحرب الوشيكة، في ساحة المعركة، قتل ستة من أبناء كوكيناي وخمسة من أبناء آنيت بابا.

من الآن فصاعدًا، لن يخطف الزونغار الماشية والأسرى، بل سيقتلون الجميع دون استثناء؛ الأمر الذي أظهروه بوضوح.

في حفرٍ في الأرض، تحت مرجلٍ مقلوبٍ، حيث كانت تتكدس جثث كثيرة، أخفت الأمهات اليائسات أبناءهن الصغار، ومن ثَمَّ أنقذن الذرية المنحدرة من جدٍ واحدٍ من الهلاك الكامل.

أمر قائد العدو المنتقم جيشه بعدم ترك أي من ذرية كوكيناي وآنيت بابا على قيد الحياة، لو أنهم أسروا حفيد كوكيناي، لأقاموا عندها لعبة سباق كوكبار حقيقي مع الطفل معرضين إياه للتعذيب، هذه كانت في

الأصل لعبة الخيول لدى الزونغار.

من أحفاد آنيتا باب نجا ابن شاكاباي وطفل آخر في رحم كِنته الحامل، وأطلقوا على الطفل المولود فيما بعد اسم باكاي، لأنه كان الحفيد الوحيد للرجل العجوز.

من عائلة كوكيناي، لم يبق سوى ابنه البالغ من العمر ستة أعوام، جامينكي، ومنه ولُد ابنه تويباك، وبفضل الحفيد، لم تنقرض هذه السلالة.

"لو مت لن أترك أرضي الأم من غير حراسة"، بقي آنيت بابا وحيدًا على الهضبة، في مهد الأرض، يبكي مودعا الناس الراحلين إلى الغرب، كان الشيخ يبلغ من العمر سبعة وتسعين عامًا، كان فصل الربيع، حيث حلّقت طيور الكركي صائحة فوق رأس الرجل العجوز، بقايا الرجل العجوز خلال فترة الهدوء القصيرة تمكن كوكيناي من نقلها من كوشكار آتا إلى تركستان، ودفنها إلى جانب ضريح خوجا أحمد ياسوي.

بعد تراجعهم عن الحروب المدمرة، سبق ساوران الكازاخ على الجانب الجنوبي من سيرداريا، أخذ الغرباء من حيث الأصل الكثير من الأطفال الكازاخ، استمرت حرب الزونغار الغازية ضد الشعب الكازاخي حوالي مائتي عام.

وقع عدد لا يحصى من الكازاخ أسرى عند الزونغار والكاليك، في حين انتقل عدد ليس بقليلٍ من أرامل الكاليك وأطفالهم اليتامى إلى معسكر القبائل الكازاخية، من كلا الجانبين، الفتيات والنساء اللواتي أصبحن غنائم حرب، أصبحن أمهات لشعب آخر، وربينَ أطفال دم آخرٍ بعيدًا عن الوطن.

حتى 1758، قبل سقوط دولة الزونغار، تحارب هذان الشعبان فيما بينهما، في السهوب الشاسعة تبعثرت البقايا، وظهر عدد كبير من المقابر الحجرية، مثلت بداية حقبة أبيل خان الحرية والقوة للشعب الكازاخي، الذي عانى من عذاب عظيم لمدة قرنين من الزمان.

من بين قبيلة أيسون، قام ممثل عشيرة أكسيك إليباي، عم آيكيم، بقلب محبٍ، بإيواء ابن أخيه من عشيرة توبيكت، وقال إن الشقي جلب إليهم النعمة، زوَّج أقارب الأم كالكامان وفقًا للأعراف الكازاخية ثلاث نساء: الزوجة الأولى، وفقًا لقانون زواج القريب من أرملة قريبه، زوجوه أرملة أحد أقاربه الذي قضى في المعركة، وفتاة وقعت في الأسر، بالإضافة إلى العمل الشجاع الذي قام به في الحرب أسياد عائلة الأم، بعد أن دفعوا الفدية، زوجوه من العروس الشابة.

أحفاد كالكامان يعيشون على جانب أيكيم شابيراشتا مع خمسة أختام، إذا سئلوا: "من أي عشيرة؟"، سيجيبون إنهم ينحدرون من كالكامان التوبيكت.

بقي قول مأثور: "مثل قضية كالكامان ومامير".

في ذاكرتهم حفظ أحفاد كانجيغال وتوبيكت وكورليويت اسم كالكامان المنحدر من كيبتشاك كورليويت الذي تبنى في زمانه كينجيسول، والد توبيكيت.

في واحد من الاحتفالات، سبق الآخرين فارس سباق من عشيرة كاكساراو من الجزء الأكبر، عندها سأل

التوبيكيت عن كالكامان، منذ ذلك الحين لم تتوقف الهجرات، عندما انتقلت عشيرة توبيكت من ضفاف سيرداريا.

من الزوجة الأولى لآيتيك ولُد أولجاي، وكان لديه ثلاثة أبناء: أيدوس وكايدوس وجاندوس، أبناء أيدوس الأربعة ولُدوا أيضًا في أوقات مضطربة.

وصلت أربعون عائلة من التوبيكت إلى جبال موغالدجار، وعبرت من خلال سفوح جبال الأورال أنهارا أربعة: أور ويليك وأويل وكييل، وحول ملتقى نهرَي إيرغيز وتورغايبحث الناس عن المخيمات، الأجيال الثلاثة التالية لأولجاي ولُدت في الترحال: إيرغيزباي وكينغيرباي وتورغاي وتوباي، واستوطنت من أجل الحملان بالقرب من نهر كوتيمالدي ولُد كوتيباك، عندما فروا من العدو، وأثناء الانتقال الدائم، سقط الناس في براثن الفقر، وأطلقت على الأطفال الذين ولُدوا في أوقات مضطربة أسماء مع علامة: بوكتي (القذر)، بيتّي (الخسيس)، كورتي (المدود)، كوليشيك (المُشعر)، تمتع الكازاخ منذ البداية بعقل طبيعي جلي، وبدقة شاهدوا وسموا الظواهر في كل مكان بأسمائها،

في عام 1728 قُتل كوكيناي في المعركة الشرسة الأخيرة مع الزونغار، وصرخ ماماي ذو الأعوام الثلاثين وهو يعانق رقبته، باكيًا: "عمي، عمي!"، في عهد نور علي خان كان التوبيكتي ماماي واحدًا من كبار أبطال الجزء الأصغر، شارك في تحرير الأراضي الكازاخية من الغزاة: نهري إيديل ويايك، وجبال ألتاي وتارباغاتاي، وبحيرتي بايني تينيز (14) وبالخاش.

قاد ماماي شعبه لمدة خمسين عامًا إلى أرض الآباء، الواقعة في الجبال مع ثمانية أنهار، على جبل كيندياكتاو، استقرت قبيلتا آرغين ونايمان اللتان وصلتا إلى هذه المناطق في وقت مبكر.

عزز الحاكم كينغيرباس سلالة التوبيكت القليلة العدد، والتي تتكون من خمس بلدات. (15)

(14) بايني تينيز: الاسم القديم لبحيرة زايسان.

(15) ملاحظة: من حيث الجوهر جرت أحداث "كالكامان ومامير" قبل عام 1923، وهناك معلومات عن أنها جرت في العام 1712 سيرداريا. وكما هو معروف، بعد 200 سنة، كتب الشاعر الكازاخي الشهير، ابن شقيق آباي نفسه، شاكير كودايبيرديف قصيدة حول هذا الموضوع "كالمكان ومامير". في عام 2012 مرت الذكرى الـ300 لهذه المأساة.

ديدار أمانتاي

(ولُد عام 1969)



- يعرف جمهور القراء أمانتاي باعتباره كاتبًا شهيرًا، وشاعرًا، وفيلسوفًا، وكاتب دراما، ونثر وشخصية عامة، كما أنه يتقن الكتابة باللغتين الكازاخية والروسية معًا.
- التحق بمعهد الهندسية الميكانيكية في كازاخستان عام 1986، وأنهى دراسته بكلية الفلسفة والعلوم السياسية عام 1994، وفي عام 1997 تخرج في معهد المسرح والسينما تخصص كتابة سيناريو بتقدير امتياز.
- في عام 1996 صدر أول كتبه بعنوان "التذييل"، وفي السنوات اللاحقة صدر له العديد من الروايات والقصص مثل: قصة "اعطني حق قدري" ورواية "الزهور والكتب"، ثم صدر له العديد من القصص القصيرة والروايات بعنوان: "موعد الخريف الغرامي"، كما كتب سيناريوهات العديد من الأفلام الوثائقية المكرسة لرجال الثقافة الكتاب، مثل: فيلم "نورجيسا تليندييف"، "الجبار أبيشيف"، "قاسم أمانجالاف"، "جوسبيك يلبيكاف"، و"مختار ماجون"، كما كتب سيناريوهات العديد من الأفلام الروائية مثل: "جاكو" ومسلسل "السيطرة المتبادلة".
- في عام 2010 صدر المجلد الأول من أصل خمسة مجلدات منتظرة لمقالاته تحت عنوان: "على قمة جبل كاركارالا"، حيث ساهم هذا الكتاب في توسيع آفاق النثر الكازاخي وصدر باللغات التركية والفرنسية والمنغولية. وقد اشتمل هذا الكتاب على قصة "موعد الخريف الغرامي" ورواية "الزهور والكتب"، وقصة "أشتاق إليكم"، وقصة "قبلة مع إبليس".
- كما اشتمل الكتاب على العديد من الأعمال الأخرى للكاتب التي صاغها بطريقة رائعة ومفعمة بالحيوية وبلغة تعبيريّة ومجازية مثيرة للإعجاب والخيال.
- تكشف رواية "الزهور والكتب"، بأسلوبها الفريد، وجهًا آخر خاصًا للبحث عن أشكال جديدة في الأدب الكازاخي.
- حصل على الجائزة الشبابية الحكومية "دارين" عام 1999.
- حصل على الجائزة المستقلة "تارلان" عام 2007.

لون عينيك

توب - توب.

يبدل قدميه بارتباك، متحركًا إلى الأمام على طول الطريق السريع، توقف فجأة بشكل حاد، البوابة المزدوجة الكبيرة التي عادة ما تكون مفتوحة على مصراعيها، اتضح أنها مقفلة بالترباس، من الذهول بدأ يصيح: توبْ.

رفع الساق الثانية: توبْ.

ثم سار متعجلًا يقذف قدميه، وواصل طريقه، عندما كان حذاؤه يلامس الأرض، كان يصدر صوتًا بالكاد مسموعًا، توبْ، فجأة، انحرف عن مساره؛ فتعثر وسقط على ركبتيه، انزلقت قلنسوته الضيقة الجميلة ببطء من على رأسه، وسقطت على الأرض.

بتثاقل وفتور نهض، وألقى نظرة حائرة على السور العالي.

أمامه علت ألواح مدهونة طويلة، البوابة الضخمة مغلقة بإحكام بترباس حديدي، من مكان ما، من وقت لآخر يداعبه هواء الصباح في بهجة بأصوات ناعمة لأطفال كانوا يمشون برشاقة حشدًا، تحدثوا عن الطوبوغرافيا القديمة، وعن الزمن القديم، في الزمن الغابر، في الحقبة الماضية كان البرق يومض في العالم باستمرار، وبدون توقف، كان هناك بَرَدٌ شديد مصحوب برعد صوته الهادر يهز الكون، من جميع الجهات تنسكب جداول الماء، وتتدفق السيول أنهارًا إلى السهوب الشاسعة التي لا حدود لها، ليغمر الطوفان العالم كله، خفتت الضحكات المرحة والأصوات المبتهجة، لتختفي تدريجيًا.

بدا مترددًا، نظر حوله وتفحص المكان بعناية.

القلنسوة الضيقة المطرزة بزخارفٍ والمزينة بحجارة باهظة الثمن، ظهرت بصورة مقربة (Close Up. Red One [1]) انزلقت على وجهه، فملابسه، لتصل إلى الحذاء القديم، ثم ابتعدت بشكل حاد، في الصورة ظهر منظر السهوب ورُسم المشهد العام، وسُجّل بدقة الصوت الضعيف، والهمس غير الواضح، والأصوات المبهمة التي اتحدت جميعها.

استدار إلى الخلف، عند المبنى غفت أشجار الصنوبر من الإرهاق، ومن حوله كان النسيم اللطيف كالحرير

(1) RedOne : آلة تصوير متعددة الأغراض ومتعددة الوظائف. من المفترض أن توفر آلة التصوير هذه جودة صور مماثلة للفيلم، وإنما مع مزايا أسلوب الحياة الرقمي/ DigitalLifestyle.

يتدفق، حاملًا معه رائحة لاذعة تدغدغ الأنف، إذا تغيرت الرياح، فإن هذا العطر سيتبدد ويصعد في السماء، سوف يندفع في الهواء ويتحرر، مثل الماشية من لجامها، مثل أسراب البط الرمادي التي تندفع محلقة من المروج في الوادي، ترتفع الأبخرة الكثيفة للأصماغ الحمضية، وتنتشر في جميع الاتجاهات، كل قطرة من القطرات ذات اللون المرجاني، تتلاشى كفقاعة، تثلج صدر من يستنشق رائحتها بشراهة.

الناس السائرون في الشوارع بشكل عشوائي ذهابًا وإيابًا، تنفسوا ملء صدورهم هواء الصنوبر، واستمتعوا برائحتها، مرة أخرى دوت في أرواحهم الألحان الربيعية التي لا تنسى والمخزنة في قلوبهم، بالأمس كان القمر يعوم بسلاسة مثل أوزة في السماء الربيعية، شاعرًا بالبهجة، كما في قلب الجنة، روائح بساتين الفاكهة وأنفاس الصيف المقبل بددت الحزن الجاثم في الروح، كل الناس كانوا سعداءً حقًا، ساد التوهج، منتصف ونهاية شيلد (2) ، –دهليزسومبيلي(3) ، قريبًا سوف يتجمد الناس في انتظار الصيف الهندي، سيأتي شهرا سبتمبر وأكتوبر، وبعد ذلك بخمولٍ وبطءٍ وصمت ولامبالاة سوف ينتظر الناس صخب نوفمبر، وبرد بوكيراو(4) بلا ثلج.

فُتِح الباب، وظهرت كلاب على عتبته، في البداية ركض جرو، وبعده اجتازت العتبة كلبة ضخمة بحجم العامين من العمر، كلبة هجينة، رقطاء مربوطة بسلسلة، وعليها كمامة وطوق عنق جميل، ظهرها بالكامل مغطىً بغطاء مع حزام جلدي مشدودٍ بحبال جلدية ومغطىً بشبك حديد لامع، كانت تسير والسلسلة المثبتة على الطوق تتلألأ بكل حلقة منها، عاكسة أشعة الشمس، وأحيانًا تشع ببريق غير متوقع مثل نصلٍ خنجر، ركض الجرو بأذنيه المتدليتين إلى الكلبة الهجينة، ابتسم بتكلف، ونظر إليها ببراءة، ونبح مرتين أو ثلاث مرات، بعد ذلك نظر إليها متوسلًا في صمت، وجلس على قائمتيه الخلفيتين معربًا عن إثارة بهيجة، كسر الصمت بنباحه من جديد، بعد أن أغراه مرحه الصاخب، هو نفسه خاف من الضوضاء التي بدأها، مشى خلف الكلبة، التي كانت تتهادى بترٍ كتوبيت(5) هادئ، كلب رزين ومهم بحجم عجل من عمر عام، لاحظ في الممر شابًا يحمل زجاجة بيده، بعد أن توقف في منتصف الطريق، ببطء في خط رفيع انسكب الكونياك من الكوب الأنيق، وبسرعة جففه.

مع بداية الخريف أصبحت ألماتي مليئة بالمنتحرين، في العام الماضي، سقط فؤاد بسيارته من فوق جسر وتوفي، وفي الشتاء، في غرفتها المفروشة ماتت بسبب الاختناق كامايرا، وأليشير قبل الفجر أحرق كل مخطوطاته وشنق نفسه قبل وصول مارفوغا، ومختار الوسيم ربط صديقه في ممر ميديوسكي الخاوي من الناس، وبسرعة أطلق النار على نفسه، فؤاد، عند مروره بشارع ساين؛ حيث يوجد الكثير من التقاطعات، في زاوية شاليابين، وبسرعة عالية ارتطم بسياج الجسر، وبعد أن تفتت السياج، اندفع بسيارته إلى الأسفل،

(2) فترة الصيف الأشد حرارة من 25 يونيو حتى 5 أغسطس، مربعانية الصيف.

(3) أغسطس، اسم الشهر السادس في التقويم الشمسي من 22 أغسطس حتى 21 سبتمبر.

(4) الشهر الأخير من الخريف، عندما يحل الصقيع الأول.

(5) توبيت: إحدى سلالات الكلاب المشهورة في الشرق الأقصى وأوروبا الشرقية.

شهود عيان قالوا إنه مات على الفور، من الموت الخاطئ الكلب يغرق في الوحل، والحصان يتعثر.

جلس على الرصيف، تتقاذفه الأفكار.

-أنا متعب، الحياة مثل الحافلة التي تسافر لمرة واحدة بخط سير واحد، الكثير من الناس نزلوا منها في محطات قاتمة على الطريق، لا أفهم إلى أين ذهبوا، أم إنهم لا يزالون يقفون في تلك المحطات؟ ولكن، بشكل عام، أعرف أن الحياة نفسها لن تمر ثانية عبر تلك المحطات، تحديدًا في تلك اللحظة أفتقد هؤلاء الناس، أنا فقط، والآخرون يفتقدون آخرين.

نظر بألم في وجهه النقي...

لماذا السرعة، ونحن ننزل في واحدة من المحطات، ربما معًا، أو بشكل منفصل في محطتين مختلفتين، بعيدتين بعضهما عن بعض، وعلى طرق مختلفة، ماذا يمكنك أن تفعل هنا؟ إملاء القدر، وجوهر الحياة، والغرض من العيش هو الموت، قوته سبحانه وتعالى فيما يجب أن يكون، لا يمكن تجنبها، هل تعلم، يا عزيزي، وفقًا لبولتي(6) ، هناك ست وثلاثون حبكة في العالم، وخورخي لويس بورخيس(7) في عمله الشهير "أربع دورات" لا أعرف لماذا قلل عددها إلى أربع قصص، برأيي، إن كلًا من محتوى العمل، والخيط الرئيسي للسرد الذي يعكس هذا العالم المحموم، للأسف، يمكن أن يكونا مجرد شكلين، ومثل اللانهاية يتألفان من عنصرين: أحدهما قصة تكرس الحياة، وتخبرنا أن الخير الطيب الذي ظهر للعالم هو أن الله موجود؛ والآخر هو محتوى كتاب طويل المعاناة؛ حيث يعاني الجميع حقيقة أنه لا يوجد إله، يمكن أن يتغير الشكل، إلا أن المضمون لا يتغير.

ساد صمت...

نحن نبني مدنًا لبقية حياتنا، لكنها تبقى بعدنا مثل مقابر، لا توجد فيها طهارة الوجود، والمظهر الطبيعي، ظاهرة ميتة من صنع الإنسان، موجهة ضد كل ما هو حي، وهذه القرى هي أقمار صناعية تحيط بالثقافة في الفضاء الروحي، المدينة، على ما يبدو، لم تكن الأصل أبدًا، البيوت، الصور المشوهة للمواقع الحقيقية الأولى، والكهوف الحجرية، نسخة وحشية منها، عبثًا تغنى فيها الشعراء، تمجيد خيالي، مجد رخيص، الشوارع الحجرية في الحقيقة هي مسكن المشاعر الطائشة، والتطلعات النهمة، والجشع الذي لا ينضب.

هب النسيم، فأصابته برودة خفيفة، إلا أنه واصل بصوته المتصدع:

في المظهر وجهه كبير ومخيف، قاس ككتلة جليدية، لا يمكن بلوغه مثل سلطان، قوسه مرنٌ، يرسل الكلمات، السهام إلى الهدف، يخض الجميع مثل راعٍ يقود أغنامًا، بكلامه العذب الممتاز يلمع، فحين يتكلم، فإنه يروض أي شخص كحصان السباق، سوف يحمي يورته(8) من العواصف، أكثر البايات شهرة، محبوب وموقّر، هو

(6) "ست وثلاثين حالة درامية" -كتاب لخبير المسرح الفرنسي جورج بولتي (1895)، مكرس لإثبات أن جميع الأعمال الدرامية مبنية على واحد من ستة وثلاثين حادث تصادم. إنها الدعاء، الخلاص، الانتقام، السعي وراء الجريمة وغيرها.

(7) خورخي لويس بورخيس -قاص وشاعر وكاتب أرجنتيني، أحد مؤسسي الطليعة في شعر أمريكا اللاتينية باللغة الإسبانية.

(8) يورت: منزل قابل للتنقل، تقليدي الهيكل، مُحاط بإطار من الخشب المقوس، استخدمته قبائل البدو الرحل في سهوب آسيا الوسطى.

سن جمل القبيلة الذي يمضغ الأدغال، قادر على تفريق الغيوم التي تحجب القمر، وينظف وجه الشمس المغطاة بالضباب، أشاع الإيمان، وطرد الكفار، ابن سيونوش-كازتوغان(9) !!!

عندما ذكر اسم كازتوغان، رفع صوته.

في الفترة المزدهرة للثلج السميك، من فوق صقيع، ومن الأسفل سجاد، لن يذوب تحت الشمس. وضعتُ الخيمة على العربة، عانقت زوجتي الجميلة، والجليد تحتنا ذاب من حرارتنا، وعلى رأس التومين(10) الثقيل....

هنا أخذ نفسًا.

وصرخ فجأة:

انطلقت في حملة نحو الشمس!

ارتجف من ذلك الصوت العالي.

إن بداية الحياة عبارة عن وليمة مبهجة، ونهايتها تدمير، وهذا هو الزعيم العظيم يغادر الدنيا، في المعركة دوسبامبيت(11) الصلب من قبيلة أزاولي.

وتابع:

-أين أنتِ يا رابعة سلطان بيغيم(12) ، جوهر-خانم(13) ، غايب-جمال-سلطان بيغيم(14) ، توختار-بيغيم(15) ، أكّوزي-بيكي(16) ، جاعان-بيكي(17) ، خوتشا-باتشاييم(18) ، جاغيم-خانم(19) . أروني ولو لمرة أنار(20) ، جانار، غوليرا، ساولي، بوتا، آينور، آسيم؟ آه! هل سأراكم في وقت من الأوقات بطرف عيني يا مرجان وشينار ويلميرا!

تقدم إلى الأمام، وقعت عيناه على طائر صغير بمنقار حاد، جلس الطائر الصغير على السور، تنقل بشكل رشيق محركًا جسمه كله، بعد أن أقلع، انقض نحو الأرض، والتقط فتات الخبز والبذور، رسمت حركات

(9) راوٍ من البدو الرحل-جيراو، زعيم خضعت له عدة قبائل، عاش في القرن الخامس عشر.

(10) تومين: وحدة عسكرية لدى الشعوب التركية، تتكون من عشرة آلاف جندي.

(11) راوٍ من البدو الرحل-جيراو، قائد عسكري لقبيلة نوغاي الصغرى، قُتل في عمر 33 عاماً (1490-1523).

(12) ابنة السلطان أولغوغبيك غوراغان.

(13) ابنة الخان بوروندوك ابن الخان كيريي وتوتختار-بيغيم ابنة القائد العسكري "أبو" الحير-خان كاراتشين-باغاتورا.

(14) ابنة "أبو" الخير-خان (غويوف-جمال)

(15) زوجة الخان بوروندوك ابن الخان كيريي وابنة كاراتشين-باغاتورا.

(16) كنّة "أبو" الخير-خان، زوجة ابنه شاه-بوداك.

(17) بايبيشي – الزوجة الأولى والأحب للخان جانيبيك.

(18) ملكة عاشت في تلك الحقبة، في القرن الخامس عشر.

(19) خوتشا-باتشاييم وجاغيم-خانم، من النساء الشهيرات في القرن الخامس عشر، إبان الخانات الأوزبكية والكازاخية.

(20) من هنا ولاحقاً تسرد أسماء فتيات.

الطائر الصغير الرشيقة ابتسامة على وجهه، فجأة، عندما كان الطائر يحدق فيه بعينيه الباردتين بحجم حبة القمح، شعر فجأة بعدم الارتياح، العدسة Red One، التي تحاول تتبع الحركات اللاحقة للبطل ذي الريش، التقطت صورته الصغيرة في Medium Long Shot (21) ، بجانب العصفور الصغير ظهرت حمامة، العينان اللتان كانتا تتابعان الحركات، حوّلتا الانتباه إلى الصورة الجديدة، بريشه الأبيض، وعُرف على رأسه يشبه العمامة، وحوصلته الكبيرة، وذيله الطويل، ذكَّر بطائر أسطوري رائع، رجعت الكاميرا إلى الخلف والتقطت الحمامة بحجم Full-Length Shot (22)، النافذة التي كانت تراقب عن كثب الفناء الضيق، عكست أحيانًا أشعة الشمس العَرَضية.

امرأة سمراء جميلة في وشاح حريري غالي الثمن خرجت من المنزل، على وجهها المتعب خيم حزن بلون إكليلة المروج، ووهنٌ ويأسٌ. سار حذاؤه بخطىً واسعة، ثلاث أو أربع خطوات، وبعدها بسهولة هرول إلى الأمام، وها هو يقف أمام المرأة الجميلة التي غمرها شوق ظالم وقاتم، جلست المرأة القرفصاء، بعدها، أمسكته بذراعيها، ونظرت باهتمام وشغف إلى وجهه الأبيض، ولفترة من الزمن تفحصت باهتمام عينيه اللتين عكستا خوفًا ورعبًا عميقين.

لا تخف.

قالت بحزنٍ:

- لديَّ أيضًا مزاجٌ سيئ... سوء حظٍ وتعاسة.

تراودهما خواطر حول الخطر، بنفورٍ رجع إلى الوراء، وابتسم بضعف.

- صحيح.

جذبته المرأة نحوها، ودون أن تعرف ما تقول، تجمدت للحظة مترددة، ثم عانقته بقوة في دفقٍ من المشاعر، بعدها تنعمت في صمت بابتسامته النقية، فجأة رأى عينيها الواسعتين المنتفختين، المليئتين بالدموع والتعاطف، ووجهها الذي بدا كما لو كان جافًا وشاحبًا، وفيه قرأ اكتئابًا وفراغًا، أراد البكاء، وتراجع إلى الوراء بنفور.

الحزن يحمي من الحنين، والبؤس والمعاناة يغرقان الحياة في ليل، ويغمرانها بالظلام، ويلونان العالم بلون مختلف تمامًا، لون داكن، وعندها، بإرادته أو مرغمًا، فإن الشخص الذي يعاني دومًا الحزن ويغرق في الحزن، يعتاد على الحزن ويتحجّر، يبدو أن العذاب والمعاناة أصبحا أمرًا اعتياديًا، يتحولان إلى عادة، وحالة روحٍ متأصلة ومرغوبة.

من النحيب المرير اهتز كتفا المرأة الشابة الغريبة،لم يحدث ذلك عند الغسق، وإنما في وقت النهار الذي بدا مستهترًا ومستخِفًا وغير ملائمٍ، تمزّق قلبها إلى قطع، وغمرت روحها المرارة، وحقيقة أن عزيمتها تحولت

(21) أي لقطة متوسطة البعد.

(22) صورة بالحجم الكامل، والطول الكامل.

إلى رمال، جُرِحَت كبرياؤها بقوة، اختنقت ولهثت، وبالتدريج هدأت.

اليوم سقطت نيغار كحجرٍ من السماء الصافية، مثل طائر، وكُسِر جناحاها.

بعينيها الكرزتين السوداوين الصافيتين نظرت حولها، وفجأة تطلعت إلى وجهه، في لحظة تأمل مفعمة بالحزن، عيناها الواسعتان المتلألئان تلمعان بألسنة ألهب، ابتسم، بادلته ابتسامته بشبح ابتسامة، فجأة انفرجت النافذة خلفها وظهر في فتحتها فتى.

أين الياقوتة؟

سأل.

- أين الياقوتة التي حفظناها أكثر من عيوننا؟

لؤلؤ، ماس، ياقوت أزرق، ياقوت أحمر، عقيق، زبرجد، ياقوت أصفر، توباز، زمرد.

وجمشت؟

التي في الصندوق؟

نعم.

لا أعلم.

وداعًا، يا نيغير-باتشاييم (23) .

فردوسي، وداعًا، لا تنسني، احفظ ذكراي في قلبك.

أنتِ، يا سلطان-نيغار-خانم (24) ، سأبقى أذكركِ إلى الأبد.

بكى الفتى، أُغلقت النافذة مرة أخرى، توجهت المرأة إلى البوابة، فتحت الباب، وخرجت إلى الشارع، ومن خلف البوابة قالت:

لا يمكنك القدوم إلى هنا.

نظر إلى المرأة المبتهجة، وابتسم بحرارة.

لا تخرج من المنزل.

قالت نيغير-باتشاييم،

- ماذا يمكن أن تفعل بعيدًا عن هنا؟ في الأماكن الغريبة ليس هناك شيء أيضًا.

ببطء وبهدوء بدأت تتحرك مفاصل الباب الحديدي، وانغلق بصمت.

بيد أن الحياة لا توجد إلا في المدينة، اخرج أيها الباتير المحظوظ.

قالت له المرأة مع انحسار الصوت المتناغم للخطى المبتعدة.

---

(23) الملكة نيغير (الأصح نيغيار)

(24) سلطان-نيغار-خانم: الابنة الرابعة لخان موغوليستان يونس وشاهبيغم باداخشا. أثناء دمار طشقند هرب أديك-سلطان من شيباني-خان، وغادر إلى الخانات الكازاخية. وتبعته سلطان-نيغار-خانم. وعندما توفي أديك-سلطان، أخذ قاسم-خان سلطان-نيغار-خانم زوجة له.

خطا خطوة، وأخرى، ونظر إلى الوراء، عدة مرات تغير Focus (25) في مخططات مختلفة ،Detail (26) Close-Up (27) ، (28) Medium Close-Up، CloseMedium (29) ، MediumLongShot (30) ، (31) Full-LengthShot، LongShot (32).

مدى الصيف قصير دومًا، من أحجار الأسوار وأشجار الصنوبر تنبع حرارة، ترتفع عن الأرض، وتغمر كل شيء من حولها، وتلمع من خلال الحواجز، وتتسكب إلى الخارج، يتدفق الصيف تدريجيًا وبسلاسة من خلال الباب، وينظر عبر النوافذ، وعندما يفر من المنازل، يبدو مثل طفلة تحل ضفائرها وهي تمشي، يجول في الطرق والشوارع، أو يندفع كزغبٍ في الهواء، يلفح الزهور في الشوارع، وتفوح حرارته من قضبان الترام الساخنة، وتنضح أنفاسه الساخنة من العشب المحترق، والمظلات الخشبية المشققة، والمباني الشاهقة الضخمة.

في يوم من الأيام كل ألماتي المذعورة تندفع مثيرة قدرًا من الضجيج مثل دودول (33) ، وتغتسل بصخبٍ تحت وابل المطر.

هناك الكثير من الهواء المشبع بالرطوبة، يهب على الوشاح الحريري لقوس القزح، عادة، في السنوات الممطرة، تتجمع الحجارة في أسفل الأنهار الجبلية التي تتدفق عبر المدينة، حالمًا ينزل الماء، يقوم شباب ألماتي الذين يخرجون في نزهة على الأقدام بقلب الحجارة على أمل العثور تحتها على شيء غير متوقع.

رأى عدسة آلة التصوير التي تنظر إليه مباشرة، ابتسم، الصورة المقلوبة لابتسامته، التي كانت تضم أيام يوليو المشمسة، وصيفًا مليئًا بالسعادة، مرت من خلال العدسة، على الفور وبشكل جميل وواضح في الصورة، وطُبعت بشكل رائع في مشهد Close-Up، فجأة بدد الصمت الذي كان قائمًا بينهما صوت امرأة لطيف:

كينيساري-ناوريزباي (34) !

توقف شلال الصور على الفور. التقطت Red One صورة لطيفة للطفل المبتسم.

---

(25) التركيز.

(26) التفاصيل.

(27) صورة مقرّبة.

(28) لقطة متوسطة القرب.

(29) متوسطة القرب.

(30) لقطة متوسطة الطول.

(31) لقطة كاملة الطول.

(32) لقطة طويلة.

(33) الحصان الأصيل، وفي القصص المتوارثة هو حصان أحد الخلفاء الراشدين الأربعة.

(34) كينيساري قاسم - سلطان كازاخي، جينكيز-توري، حفيد الخان آبيلاي-خان- آخر خانات الأجزاء الكازاخية الثلاثة. في كازاخستان المعاصرة يُقدّرُ على المستوى الحكومي كزعيم للحركة الوطنية التحررية للكازاخ من أجل الاستقلال من الإمبراطورية الروسية. نزارياي قاسم – الأخ الأصغر لكينيساري قاسم، قُتل معه.

داورين كوات

(ولُد عام 1973)



- تخرج في كلية الصحافة بجامعة الفارابي الوطنية الكازاخية عام 1997، بدأت أعماله وقصصه القصيرة تنشر في الصحافة الحكومية الدورية منذ عام 1995.
- في عام 2015 خرجت للنور أول مجمعة نثرية له بعنوان: "بكلمة واحدة"، وفي عام 2018 صدرت المجموعة الثانية بعنوان "درب الذئاب".
- دائمًا ما يبحث كوات ويدرس الاتجاهات الإبداعية للأدب العالمى المعاصر، وأكثر السمات الأسلوبية الفعالة والجذابة، ومنذ البداية جذبت أعماله اهتمام المجتمع الثقافي والأدبي، خاصة الأدباء، وأكبر دليل على ذلك هو ترجمة أعمال الكاتب الشاب إلى اللغات اليابانية والتركية والروسية.

- لا تقتصر أعمال كوات فقط على وصف ومناقشة قضايا العصر الحيوية بشكل جاف، لكنه يحاول دائمًا أن يقدم تلك الموضوعات في شكل حكاية، وأن يربط بينها وبين الأساطير الكازاخية القديمة، لذلك نجد أبطاله يشتاقون دائمًا لرومانسية حياة الكازاخ القديمة، ويشعرون بالرعب نتيجة عدم ثقتهم بالحاضر، وتتميز لغته بأنها غنية وموجزة ومعبرة.
- حاز كوات على جائزة "كاشكاري" الأدبية الخاصة بشعراء العالم التركي عام 2013.
- حصل على جائزة "موسريباف" الأدبية عام 2014.

"بجماليون"
من توشيبولاك

لم يكن فاره الطول، لكنه كان يعتبر طويل القامة. وحقيقة أنه كان يبدو بالمقارنة كالعمود، كان سببها البنية النحيفة والضامرة لجسمه. كان أقرانه يقولون ممازحين وساخرين: "لن تجد الفتيات ما يقرصنك منه". بالمناسبة، لم تبق المخلوقات المذكورة في القرية، ما أن تنهي الحسناوات ذوات العيون السود المدرسة، حتى يتوجهن إلى المدينة. والمشكلة كانت في ذلك فقط، أما العيش في القرية فقد كان ممتعاً للغاية. فمن الصباح إلى المساء تغلي الحياة في الأعمال اليومية في عرق الوجه والمشاغل المعيشية. عدد قليل من الناس تقلّبوا وتهربوا من العمل.

لكن مهما قلت عن أهل القرية، فهذا لا يتعلق بكل ما يحدث في العالم، فهم يناقشون السياسة بشكل صاخب، يشاهدون الأفلام، يقرأون الكتب، ومن عنق حذاء كل راعٍ يتدلى كتاب للقراءة، بالي وممسوح الغلاف. وتجلى الاحترام في موقفهم من الشعراء والكتاب، ويحلمون: "فقط لو أنهم يأتون إلينا إلى القرية. منذ زمن بعيد جاء إلينا موكاغالي[1] نفسه.

في كل بيت حُفظت الصورة التي ضمت الشاعر العظيم مع أبناء القرية، يمسح الصغير والعجوز الصورة التي اصفرّت من الزمن، ويقول بفخر: "إنه موكاغالي!". إما أن الشاعر أثّر فيهم بشكل جيد، أو أن الحياة في حضن الطبيعة الخلابة جعلتهم كذلك، لكن أهالي توشيبولاك كانوا دائماً يعجبون بكل ما هو جميل.

كلهم، بدون استثناء، خطباء، يتقنون الكلام بشكل احترافي، بإمكانهم أن يعطوا بشكل ارتجالي قصيدة من أحد عشر بيتاً – كارا أولين[2] . لو أن الشعراء والكتاب الذين يتذمرون قائلين "في هذه الأيام لم يبق قرّاء"، جاؤوا إلى هذه القرية النائية جالبين معهم إبداعاتهم، لاستقبلهم كاريكي الطويل والضامر بعفوية ساذجة ومودة، ولأوقفهم للحظة قائلاً:

توقفوا، من فضلكم، اسمحوا لي أن آخذ صورة لكم كتذكار".

---

(1) موكاغالي ماكاتيف: شاعر كازاخي بارز ومترجم "الكوميديا الإلهية" لدانتي أليغييري.

(2) كارا أولين: أحد الأشكال الأكثر ثباتاً واستخداماً في الشعر الكازاخي في الفترة القرن السابع عشر–القرن التاسع عشر. كان هذا النوع من الشعر منتشراً بشكل خاص في الإبداع الشعبي الشفوي.

لم يكن لدى كاريكي آلة تصوير، لكنه بأصابعه الطويلة صوَّر أنه يحمل بها آلة تصوير تلتقط الصور، كما لو كان يحددهم كهدف للتصوير، وينقر، تيك-تيك، "لا تقلقوا، غداً ستكون الصورة جاهزة". وبالفعل، في اليوم التالي أحضر كاريكي صورهم مرسومة بدقة بقلم رصاص. "تفضلوا".

أهالي توشيبولاك منذ زمن طويل توقفوا عن الذهول من فن كاريكي هذا، لكنهم كانوا سعداء به دوماً، وقدَّروه، واحترموه، وكثيراً ما يتوجهون إليه بطلبات:

كاريكي، غداً سيذهب ابني إلى المدرسة، "صوره" من فضلك صورة يشاهدها ويتذكرها عندما يكبر؛

كاريكي، يا صهرنا، نحن ذاهبون للاحتفال بالذكرى الأربعين لحياتنا المشتركة مع أوتغاسي[3]، ونريد دعوة الأقارب والأصدقاء والرفاق. ابتكر لنا شيئاً ما، أعني صورة نكون جالسين فيها، ومقربين رؤوسنا من بعضنا البعض؛

أوه، عزيزي كاريكي، تعال إلينا في عيد النيروز، يبدو أن الصورة القديمة تحتاج لتجديد....

كاريكي الذي كان مشغولاً بالفعل بتنفيذ مثل هذه الطلبات، جاء إليه في بعض الأحيان كبار السن من نساء ورجال القرية يشكون: "السلطات تقول: "قم بعمل صور جديدة لمزرعتك". لم يجبر كاريكي كبار السن قط على الطلب مرتين، وكان يقول: "حسناً، اجلسوا بشكل مريح أكثر، هنا، بالقرب من كيريغي[4]، حيث تتدلى البطانية البيضاء"، ثم ينقر عليهم. عندما يفحص موظفو إدارة الجوازات الرسوم التي رسمها موهوب توشيبولاك، كاريكي، بحجم "ثلاثة في أربعة" أو "أربعة في خمسة"، كثيراً ما كانوا يتعجبون، وينظرون إلى بعضهم البعض متسائلين: "أوه، لماذا لا يغادر هذا الشاب قريته بعيداً؟!" ولكن ما الذي يمكنك فعله، ربما كان كاريكي قد طار بالفعل بعيداً عن هنا، إلا أن أمه لا تدعه. وبسبب أن أمه العجوز تتنهد باستمرار، وتعصر دمعها الشحيح قائلة: "أنت وحيدي، ونور عينيّ، لتذهب هذه المدينة إلى الجحيم، لو أنك تبقى دائماً بالقرب مني"، كان عليه في النهاية أن يتخلى عن حلمه بأن يصبح رسّاماً مشهوراً. لكنه احتفظ دائماً بقلم رصاص في جيبه. إلى قطعة مقصوصة من مفكرة الطالب، أو حتى علبة حلوى، وفي أسوأ الأحوال أي مادة بيضاء – على كل شيء يمكن أن تصل إليه يده، كان ينقل على الفور أي مشهد يعجبه ويرغب برسمه. ربما لم تبق زاوية واحدة في قسم القرية السابقة الذي كان يسميه الناس "بيرمي[5]"، لم تقع تحت طرف قلم رصاص كاريكي دولغوفيازي....

مرت سنوات عديدة منذ أن نقل كاريكي إلى قطعة ورق وقعت تحت يديه محراثاً مكسوراً، ومسلفة صدئة تحت الشمس، وحداداً مع باب بدون قفل، ومغطساً خرسانياً مع ماسورة مغطاة بطبقة سميكة من الوسخ، وشجرات دلب عالية مندفعة نحو السماء اللازوردية، وإوز وبط تنظر وتبطبط في البحيرة في قاع الوادي،

(3) أوتغاسي: صيغة احترام لمخاطبة رب العائلة، أو الزوج، عند ذكره في الحديث مع شخص آخر.

(4) كيريغي: شبكة خشبية تشكل الجدران المستديرة لليورت.

(5) بيرما: صيغة مشوهة من كلمة "فيرما/مزرعة".

ومهر تمرح، وجسراً مائلاً مشوهاً بالكاد يرتكز بنهايته نهايته على الشاطئ المقابل، وطرقاً وممرات متداخلة، وفارساً يظهر فجأة على قمة التل، وأسقف الحظائر المغطاة بالصفائح حتى الخطوط البيضاء –خيوط من فضلات الطيور عليها.

لا ينسى كاريكي فصول السنة أيضاً، فمثلاً في الشتاء الماضي سقط الثلج بطبقة رقيقة. ثلج متساقط حديثاً، جليد أسود. بدت المزرعة كئيبة. يشعر المرء بالنفس البارد للرياح القارسة التي تهب باستمرار من الوادي البارد. عابرون يتجمعون ويسيرون على طول الشارع. عجل يحمل علامة النجمة على جبهته بشعر خشن يرتجف ويلتصق ببطن أمه. غربان تندفع في الهواء، وتتحول إلى نقاط سوداء، كما لو أنها تجمدت في مكانها بلا حراك. رداء صقيع لاذع يلفّ التلال، ويتلوَّن بوهج الشمس المختبئة وراء الأفق، ويغطى بنفسه كل المدى. كواكب الثريا تومض بشكل يكاد يلاحظ في أعالي السماء. وفي الشتاء الحالي: ثلج أبيض يذوب تعجباً تحت غطاء الليل. درب التبانة الممتد بين الشمال والجنوب، يقطع مجموعة النجوم إلى نصفين. حصان مربوط بمزلقة ركوب لمسافر في معطف من جلد الخراف مع قبة تنزل حتى صدره، يغطيه صقيع سميك، يدخل القرية مطلقاً سحب البخار من أنفه. في الجزء السفلي من الصورة المسماة "أغنّي الشتاء"، كتب كاريكي الرباعية التالية:

مثل سرٍّ عميق تخفيه النجوم
انغمس العالم في أغنية، كما في الأحلام
تنام القرية بعذوبة تحت القمر،
متدثرةً بغطاءٍ أبيضٍ في الصقيع.

في الصور اللاحقة وجدت المناظر الربيعية والصيفية والخريفية انعكاسها. غمس كاريكي رأس فرشاته في ألوان الأرض الأم ليكتب أشياء مذهلة. إنه ماهرٌ حقيقي يولّد الألوان من الألوان. على سبيل المثال، ما أكثر الظلال المتنوعة للون الأزرق، التي استطاع تحقيقها في لوحة "الربيع في وقت فيضان البحيرة". أزرق، أزرق كثيف، أزرق داكن، أزرق قاتم، أزرق شاحب، أزرق كالحبر، رمادي، أزرق رمادي، أزرق ريشي، لازوردي، سماوي.... تلك هي كثرة ظلال اللون الأزرق الموجودة في صورة "الربيع في وقت فيضان البحيرة". "هنا استخدمت 47 طيفاً من اللون الأزرق[6]"، – يقول كاريكي، –وأسرعت قليلاً، ولو أني، بدون استعجال، فتشت بدقة في الجبال المحيطة، لكنت قد عثرت على أكثر من عشرة منها أيضاً".

أهالي توشيبالاك الذين لا يعيرون أي اهتمام خاص للتفاصيل المتوفرة في القرية وعجائب الطبيعية المحيطة، بعد أن شاهدوها في صور كاريكي لم يجدوا كلمات، واكتفوا بالصراخ من الارتباك: "نجاح باهر، انظروا إلى المحراث المكسور"، "وهذا الجسر المائل!"، "انظروا إلى الحدّاد!"، "إيه، هل هذا شتاء العام الماضي؟! وهذا

(6) من بين الـظلال الـ16 للون الأزرق المعروفة، هناك مثل الفاتح، النيلي، كوبالتي، لابرادوريتي وغيرها، يمكن للفنان أن يعطي لظلاله أسماءه، التي هناك الكثير منها، ولا حصر لها. كل هذا يتوقف على وضوح ودقة الاستيعاب البشري لتدرج الألوان.

هو الربيع الحالي، طبق الأصل!".

لدى كاريكي رسومات أخرى مميزة، لكنه يخجل أن عرضها على أهل القرية. دولغوفيازي كاريكي -شابٌ خجول بعض الشيء. يخجل ويرتعش بشدة بشكل خاص عندما يرمي أقرانه تلميحات عن الفتيات والشابات، فعلى الرغم من أنه قريب من الثلاثين، لكنه لا يستطيع أن يبني عائلة. "إيه، كاريكي، إلى متى سوف تجلس محتضناً ركبتيك العاريتين، تزوج امرأة"، -يقول له أقرانه. "نعم، سألتقي بامرأة ما"، -يحاول كاريكي أن يتهرب من الحديث. "كاريكي، سنقنع الفتاة، أنت وافق فقط على أن تتزوجها". "إذا كانت الفتاة ستوافق، فلماذا لا تتزوجها؟" - "لنتفق إذن، سنجد لك عروساً قبل نهاية هذا الأسبوع." وعدة مرات جهز الأقران كاريكي في حملة على القرى المجاورة. إلى كل مكان فيه فتيات بالغات، أو بنات كبار يجلسن في منازل آبائهن، قام كاريكي الذي يقوده أقرانه بتوجيه طريقه في كل مرة، والتقى معهن كلهن. ومع ذلك لم يجد لغة مشتركة مع أي منهن، لم يجدها للأسباب التالية. أولاً، بدا محرجاً وخجولاً أمام الفتيات. ثانياً، كاريكي شخص اعتاد على التحدث باللغة الفصحى. في حديثه معهن كان يدرج كلمات غير اعتيادية للسمع: "بلا ريب"، "نعم، ماذا تقول؟"، "على الأرجح"، "أرجو المعذرة"، "يا للغرابة"، "لماذا لا نصل إلى اتفاق؟"، "سيكون من الأفضل"، "بقدر الإمكان"، "هلاّ سمحت". لم يفعل ذلك رغبة منه لإظهار نفسه للجميع مهذباً ولبقاً، وإنما ببساطة تبعاً لعادته: كان كاريكي يتحدث بهذه الطريقة منذ أن أصبح بالغاً. عندما يبقى بمفرده مع بويجيتكان[7] ، يبدأ كاريكي على الفور بالانتقال إلى لغة الكتاب.

يا أخيتي، لا يحرجك أن أحداً، كما يقولون، يمتلك الوقاحة لأن يقابلك على انفراد في منتصف الليل، عندما يكون الجميع نائمين. أنا واحد من هؤلاء التعساء الذين يبحثون عن نصفهم الآخر.

مهما كانت الفتاة قريبة، أو ليست بعيدة بعقلها، أو مقيدة اللسان، أو شحيحة المشاعر، أو لم تكن قد سمعت مثل هذه الكلمات في حياتها، إلا أنها تقفز من المفاجأة:

ماذا قلت؟ من هو الذي تبحث عنه؟

يحاول كاريكي أن يعبر عن نفسه بشكل أكثر وضوحاً:

أقصد زوجة لي، شريكة لحياتي.

آه .... وماذا تعمل؟

أقوم بكل ما يمكنني القيام به. "من يستيقظ مبكراً، يرزقه الله"، فنحن ننهض في الفجر، وننزل إلى الحياة والمشاغل اليومية.

آغا، أنت تتكلم بطريقة غريبة بعض الشيء؟

أنا في البداية أتكلم هكذا، يا عزيزتي.

(7) بويجيتكان: هكذا يسمي الكازاخ الفتاة البالغة أو أي فتاة في سن الزواج.

هل قلت "عزيزتي"؟

الفتاة التي خاطبها بـ"أخيتي" أخذت تهتز من الضحك الصامت مغطية وجهها بكفيها، لدرجة أن كتفيها صارا يهتزان، وركضت بعيداً. ثم قالت للشاب الفضولي الذي أحضر كاريكي: "هذا رجل غريب، يتحدث مثل رجل عجوز. من هو، كما لو أنه ليس في عقله، أو أنه شاعر؟"

عندما شرب كاريكي في شلة من الأولاد والبنات قليلاً من "ماء النار"، سكر وأراد أن يغني أغنية. في هذه المرة، مع معرفته المسبقة، ورغبة منه في أن يري "أخيته" التي هربت لتوها من اللقاء على انفراد، أنه قرين لها من ناحية ثانية، بدأ شاب مراوغ بإزعاجه: "كاريكي، غنِّ شيئاً لنا، فأنت تحب أن تغني؟!. في مثل هذه الحالات، عندما تغمر حرارة "الماء الناري" الجسم كله، لا يرفض كاريكي عادة. وها هو الآن يأخذه ويرطب حلقه، ويمدها: "ليست فتا-ا-ا-اة".

ليست فتاة، وإنما مصيبة فوق رأسي،

كيف تمكنتِ من خداعي؟

في النهار وعدتٌ، وفي الليل هربتِ،

الآن أجلس معانقاً الفراغ.

أوه، غوك، إيغي-أي- إيغي-أي، إيغي-أي"

في الطريق إلى البيت انفجر القرين ضاحكاً من قلبه، وقال له: "حسناً، لقد أظهرت نفسك يا كاريكي! لنذهب للبحث عن الفتاة، وخذها وكن جليداً: "أنتِ لست فتاة على الإطلاق"! لا توجد لديك أغنية غير هذه؟ ها قد عدنا الآن بلا شيء!".

لا، لا يعود كاريكي من هناك صفر اليدين، سوف ينقل صورة أخيته التي تكلم معها بضع كلمات إلى ذاكرته، وسيبقيها إلى الأبد في قلبه. عند وصوله إلى المنزل، سيمشي إلى غرفته بحذر على رؤوس أصابعه حتى لا تستيقظ أمه النائمة، وبدون خشخشة ولا حفيفٍ يضع ورقة أمامه، ويبدأ في رسم الفتاة التي كانت معه للتو في اللقاء.

الصور التي بقيت سراً، حتى بالنسبة لأقرانه، كانت مرسومة بدقة بعد هذه الرحلات إلى القرى المجاورة لغرض التعارف. عذارى جميلات عاريات.... بالطبع لسن عاريات تماماً، لكنهن يرتدين بشكل مغرٍ فساتين حريرية ضيقة تثير شهوة أي شخص ينظر إليهن ولو لمرة واحد. في كل واحدة من هذه اللوحات، كان حاضراً لدى كاريكي دائماً خيال شاب يعانق بلطف حورية حسناء. إنه هو نفسه. هذا الخيال يقف في بعض الأحيان على مسافة من الحسناء، معبراً من خلال مظهره بصمت عن الانجذاب العاطفي تجاهها، في حين أن الحسناء

المتفاخرة، حتى وإن لاحظته، إلا أنها لا تولي أي اهتمام إليه، وتبدو أنها تحدّق بعيداً بغرورٍ. بعد أن يزيل كاريكي الظلال غير ضرورية من اللوحة، يملأها بالألوان اللازمة، ويتنهد بشدة، ويهمس: "غاليتي، شعاعي، كوني زوجتي الحبيبة!". أوه، كم مرَّة عانق صورة الفتاة داعياً الله الخالق .... "تعالي إلى هنا، -همس، -لا تبقين لوحة بلا حياة، أذبي جسدي بأنفاسك الساخنة، واملئي عالمي بالضوء، تعالي إلي فجأة، يا عزيزتي. تعالي إلي من هذه الورقة. أوه، أيتها الحسناء، أخرجي وأشعلي ضوء روحي!". لكن الحسناء القاسية، التي لا يمكن الوصول إليها، صامتة. ثم يبدأ قلب كاريكي بالضرب بشكل أسرع، يلمس بيديه المرتجفتين الصدر الفاخر للفتاة في الصورة، وعنقها الذي يشبه عنق بجعة، وشفتيها المليئتين والمتعطشتين لقبلة، وحلمتي ثدييها الجذابتين، وخصرها الرقيق مع انحنائه الحاد، وبأطراف أصابعه، يلمس فخذيها الناعمين، اللذين تجعل منهما الرعشة الخفيفة على وشك أن يتحركا، وبعد أن يغمض عينيه، يستمتع بمتعة الهناء هذه بلا حدود.

في إحدى الأمسيات، عندما سقط الشفق، وبدأ الظلام يزحف ببطء، شاهد على شاشة التلفزيون فتاة ترتدي فستاناً أسوداً. كانت في سوريا التي تعمها الحروب، حيث يجري تبادل لإطلاق النار، ويسود الذعر والفوضى. الفتاة كازاخية. تحدثت عن الدعابة الفظيعة التي لعبها القدر معها، ومن عينيها الحزينتين انهمرت الدموع. من كل هذا فهم شيئاً واحداً: هذه الفتاة، التي استسلمت لتأثير احدى صديقاتها، دخلت في طائفة دينية غريبة، متخلية بذلك عن والديها وأهلها وأقاربها. في اليوم الذي حصلت فيه أخيراً على شهادة إنهاء الدراسة الجامعية بتخصص تدريس اللغة الإنجليزية في المدارس الثانوية، عرّفتها صديقتها على شبَّانٍ من بيئة غير معروفة لها من قبل. وهذا التعارف قرّبها من أكثرهم نفوذاً، وتواصلت معه بشكل وثيق في البداية، فعهد إليها بأسراره، ثم تحولت العلاقة الحميمية إلى حب، وبعد فترة قصيرة وقعا في حبٍ عميقٍ، وتزوجا. قال لها حبيبها: "هناك تقاليد وعادات أخرى في مجتمعنا، ونحن لا نقيم حفلات زفاف صاخبة وثرية مع بيتيشار[8] ووليمة للعالم كله، ولا نعترف قطعياً بالخطوبة وإقامة علاقات قرابة بين الخاطبين. يقام زواجنا بموافقة الشيخ عمر من السعودية. أنت الآن زوجتي الشرعية". بعد ذلك أقنعها مرة واحدة أن تنام معه في فراش الزوجية، وبعد أن أطفأ شهوته، قال: "لدي عمل مهم في الخارج، ولا بد لي من قضاء بعض الوقت هناك"، ثم اختفي. في الوقت نفسه، تحدثت الفتاة، التي قُبلت بشكل نهائي كعضو في الجماعة، عن حياتها بشكل كامل، وأعلنت في النهاية تخليها عن كل ما كان لديها. في أحد الأيام تسلمت على هاتفها الخلوي رسالة فيديو رهيبة، فيها يقول زوجها والدموع في عينيه: أخي، سأعطيك الكثير من المال، خذهم واذهب بسرعة إلى تركيا. لقد صدمتني مصيبة! هي تسافر فوراً إلى تركيا، وتصل إلى العنوان المحدد. عندما وصلت إلى هناك، قال لها مستقبلوها: "زوجك موجود في سوريا، ستجدينه هناك"، ثم أخذوا كل المال منها، ورافقوها في الطريق. وفي سوريا كانت الكارثة الكبيرة مستعرة، ففي كل مكان حروب مذابح

(8) بيتيشار: طقس الزفاف لإزالة الطرحة من على وجه العروس، ما يعني أنها الآن امرأة متزوجة، بمرافقة أغنية الأمنيات الطيبة تحمل الاسم نفسه

دموية. لا تعرف أين لها أن تجد زوجها، فالآن الفتاة التعيسة تنام كل يوم مع رجل جديد.... بعد ذلك وجدت المسكينة نفسها في استعباد جنسي، لا تستطيع أن تتكلم، وترتجف من البكاء المرير.

في المساء، بعد أن قاد الماشية إلى الزريبة، جلس كاريكي أمام التلفزيون، وأصابه شلل بمجرد أن رأى الفتاة في الثوب الأسود، فهمس قائلاً: "ما أجمل هاتان العينان، يا إلهي، أي عينان هما؟" لم يكن المصير الرهيب الذي أصاب الفتاة هو من صدم الرسّام، بل دموعها الغزيرة، وعيناها السوداوان اللامعتان اللتان تدفقت منهما. فستان أسود، ووجه مغطى بالكامل تقريباً. وحدها العينان مكشوفتان، عينان جميلتان تغسلهما الدموع. انحنى كاريكي على صفحة ورق بيضاء، متأملاً بقلمه. وفقاً لعادته المتأصلة، حاول تعريتها من خلال نزع الأغطية السوداء عنها، لم توافق. قاومت صورة الفتاة ذلك، ولم ترغب في أن تظهر أمامه عارية. "سأسحبه، سأنزعه"، -قال الرسّام، -"يا عزيزتي، لا تكوني عنيدة، تعرّي. ستتعرين و"تنضمين إلى صفوف خليلاتي". في البداية رسم البؤبؤين السوداوين لعينيها الحزينتين تحت رموش كثيفة. الآن يجب أن تكون هاتان العينان موضحتين بخطوط وجهها. ربما يجب أن يكون رقيقاً، مع عظام وجنتين ضيقة ومتطاولة قليلاً. أجل، هكذا تحديداً.... ولكن يبدو أن الذقن جاءت ممدودة كثيراً. مثل هذا الشكل البيضاوي يعرض الحسناء باردة للغاية، بلا دفءٍ في روحها، وبلا إحساس. أم ينبغي أن أعطي استدارة إلى الشكل البيضاوي لوجهها؟ خطأ كلياً. لقد جعلت الملامح المستديرة وجهها طفحاً، غير متوائم مع العينين الجميلتين، وأفسدت المظهر الخارجي للوجه بأكمله. وماذا لو كان لو تضيق قليلاً الشكل البيضاوي لوجه المرأة التي قاست آلاماً شديدة، وعانت من الكثير من العذاب؟ تبرز عظام الوجه، ويتلاشى الخدان، وتظهر على الوجه الشاحب آثار حزن لا مفر منه. تستدعي مثل هذه المرأة لدى كل شخص شعور التعاطف والحزن، لكن في نفس الوقت، هاتان العينان الساحرتان بشكل مذهل، تتطلبان مشاعر مختلفة، ترجوانك: "لا تذلّني بالشفقة، لا تشاركني أحزاني، لا تدخل في أعماقها، حاول أن تفهمني، امنحني الأمل".

لكن محاولاته العثور على حل غير متوقع في لوحة ظلال اللون الأسود، عندما تندمج العينان السوداوان مع الكلفة السوداء على الفستان الأسود، فشلت أيضاً. الثوب الأسود مع الكلفة السوداء ابتلعته الدموع المنهمرة من العينين السوداوين -تجمد في صمت، كصنم. "أوه، يا لها من عينين! - تنهد كاريكي بحزن -"ماذا بوسعي أن أفعل معكما؟" من هذه الليلة أخذها عادة أن يغمغم باستمرار بكلمات، وعبارات غير مفهومة وغير مترابطة: "عينان تثيران الشفقة"، "عينان رائعتان"، "عينان قذرتان"، "عينان شيطانيتان".

رعاية أمه العجوز، والمزرعة، والشؤون والمشاغل اليومية التي لا تتسامح مع أي تأخير -كل هذا تُرك في مكان ما على الهامش. في بعض الأحيان، لم تؤخذ الماشية إلى المرعى، وبقيت محبوسة في الحظيرة تثغو وتصيح بشكل حزين. في الوقت المناسب لم يُعبأ الموقد، ولم يقطع الحطب، ولم يُجلب الماء. كانت المرأة العجوز تحضر الماء من خلف الأغصان المقطوعة منقّلة قدميها بصعوبة. عندها أخبرت جيرانها بمعاناتها: "أشعر أن عيناً أصابت بؤبؤ عيني. يهرع في كل مكان في هذيان، ويكرر بلا نهاية: "عينان، عينان. وفي النهار يجلس ويحدق

في نقطة واحدة مرنماً: "عينان، عينان". يبدو أن شخصاً نظر إلى مُهيري، وجلب له الضرر".

المصيبة التي وقعت على رأس كاريكي، أحزنت بشدة أهالي توشيبولاك الطيبين والحنونين والمتعاطفين، وقالوا: "هذا الشخص جدير بالاحترام، لكن اتضح أنه إذا أراد الله أن يجرح شخصاً ما، فسوف يفعل ذلك". "ما العمل الآن؟" بعد أن فكَّر أهل القرية في "ماذا يفعلون الآن"، وبعد التشاور، قرروا: "يجب معالجة كاريكي"، وإلا سيهزل، ويصبح هذا المسكين في النهاية مجنوناً". في وقت قصير انتشر خبر رهيب في كل مكان: "كاريكي فقد عقله".

امتلأ منزله بصور امرأة في ثوب أسود، وجميع أنواع الوحوش المبهمة. عفوك يا رب، لا تُرنا يا الله مثل ذلك، -موقف تقشعر له الأبدان". في الواقع، كان في هذه الكلمات قدر كبير من الحقيقة. لأنه منذ أن عرضوا على شاشة التلفزيون الغريبة الرشيقة ذات العينين السوداوين اللتين تغسلهما الدموع الغزيرة، والمرتدية لباساً أسوداً كلياً، بدأ كاريكي يغمس رأس فرشاته في اللون الأسود فقط، ويرسم صوره بشكل دائم لها وحدها. ليلة سوداء: من الظلام الدامس تنظر عينان رهيبتان؛ على قمة الجبل الأسود تُرى عينان متوجهتان بالدعاء إلى السماء؛ غابة مظلمة: فوق هذه الغابة المظلمة علقت عينان سوداوان بظل أسودٍ؛ سحابة سوداء: من تحتها تطل عينان سوداوان تذرفان الدموع؛ مرآة سوداء: تنظر منها عينان سوداوان؛ ليلة سوداء: وسطها تُظلم بحيرة، وتهدر موجات صغيرة متمايلة تتحول كلياً إلى عيون؛ حجر أسود: تطل منه عينان سوداوان بعد أن شقتاه إلى نصفين؛ عملاق أسود مع عيني امرأة؛ أوراق-عيون البتولا، تتشرب سحر عيني امرأة؛ على الجانب المتصدع من مرجل أسود هناك رواسب لبيابي سود .... بعضها معلقة على الجدار، والبعض الآخر أخذ مكانه على إطارات النوافذ وعلى حواف درف ال"أبو"اب، وكمٌ منها مبعثر بشكل عشوائي على الأرض، وأربع أو خمس عيون تراقب من السقف.

بعض العيون بعد أن تركت غرفة كاريكي وجدت نفسها في المدخل. عيون، عيون، عيون في كل مكان، كثيرة هي إلى درجة أنك لا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة. أولئك الأشخاص الذين أرادوا الذهاب إلى مكان الشرف -الصدر، الذي يقع قبالة باب مدخل الغرفة، اضطروا للقفز، كما لو كانوا قد داسوا على فحم مشتعل، ووضعوا أقدامهم على منطقة خالية حتى لا يخطوا عليها بالخطأ.

بعد ذلك، أتى أناس بعد أن أثاروا ضجة لا يمكن تخيلها، ظهر أكساكال حكيم - الجد العجوز آغيمسالي الذي تجاوز عمره تسع موشيلات[9] . مسَّد آغيمسالي لحيته البيضاء التي كانت تغطي ثوبه الأبيض كالثلج إلى صدره، وأغلق عينيه الواسعتين الثاقبتين، وقال: "في أيامنا هذه لم يعد هناك الباكسي[10] السابقون. لو أنهم عاشوا بيننا، لجاءوا بأنفسهم إلى كاريكي. ومع ذلك، يبدو أن الباكسي كاراكيني انتقل إليه شيءٌ ما من هؤلاء

(9) موشيل: حساب قديم لعمر الإنسان وفق دورة الاثنتي عشرة سنة؛ دورة الحيوان لمدة اثني عشر عاماً (على سبيل المثال، سنة القرد، وسنة الكلب وما إلى ذلك)؛ تنتهي الدورة الأولى في سن الثالثة عشرة. وهذا هو الترتيب: 13 و25 و27 و49 و61 و73 و85 و97 سنة وهكذا دواليك.

(10) باكسي: شامان، مداوي يعالج "بطرد الأرواح الشريرة والأشباح. كان لدى باكسي طاقة قوية، وقوة فوق الحواس، وسحر شعوذة.

الباكسي الهمجيين، ابحثوا عنه".

حالما سمع الشباب هذه الكلمات من الرجل المسن، هرعوا على الفور. وبسيارات عالية السرعة انطلقوا إلى كاراكيني الذي كان يعيش وحيداً في مكان ناءٍ على ضفة نهر شينجيل، ويسير دائماً برأس مكشوفة[11] . بعد يومين، في فترة ما بعد الظهر، وصل الباكسي إلى توشيبولاك، يهتز بكل جسمه. أحضره الشباب الذين ذهبوا إليه، والذين قاطعوا بعضهم البعض، وبدأوا في سرد جميع أنواع الحكايات عنه.

أوه، يا إلهي، مع أي صعوبة وجدنا باكسي. طوال النهار، وطوال الليل مشينا ذهاباً وإياباً على طول مجرى شينجيلي، لكننا لم نعثر عليه، وبعد أن أصابنا اليأس، ولم نعرف ما يجب أن فعله، أردنا العودة، عندما فجأة، صدق أو لا، من دوامة كانت تجر صخرة ضخمة بحجم الشانيراك[12] ، خرج باكسينا مع صرخة تمزق القلب. صالحٌ، على الرغم من هذا، لم يبلل أبداً ....

وهل بمقدور شخص عادي أن يفهم ما يتحدث الباكسي عنه؟ طوال الطريق كان يتحدث عن أشياءٍ غير مفهومة: "مشيت في قاع النهر، وكنت أمرح في احتفالات سيد نهر أومي". بدأنا نتحدث عن كاريكي، لكنه قاطعنا: "اصمتوا ولا تحملوا أي هراء، فأنا من دونكم أعرف ذلك".

أردنا أن نلمح له أن كاريكي من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من المساء يجلس ويرسم عيوناً، وأن نسأله عن الشيء الذي يرتبط به ذلك، فأخرج رأسه من نافذة السيارة، وصاح، كغراب، بأعلى صوته. وبعد أن نعق عدة مرات، ظهر غراب من العدم، وطار خلفنا مباشرة إلى هنا....

هس، يكفي، ماذا قال الباكسي؟"

يقول إنه من الضروري تقديم شاةٍ، نعجة سوداء بدون أي بقعة.

لن نجد شاة سوداء بدون بقعة.

بدأ الشباب في المزاح.

إذا لم نجد واحدة، سنطلب من كاريكي فيلوّن الشاة بالكامل باللون الأسود.

لم ترق هذه المزحة غير المناسبة لكبار السن، فأقطبوا حواجبهم.

لماذا الضحك؟ الرجل، كما تعلمون، يشعر بثقل على روحه، إنه يحارب الجن! ابحثوا في القرية المجاورة.

ولكن تم العثور على شاة سوداء بدون بقعة فاتحة واحدة، ليس في أي مكان، بل في حظيرة كاريكي. فهم الناس ذلك على أنه فأل خير، وكانوا سعداء.

أمر الباكسي بذبح الشاة السوداء. ثم سخن على النار مغرفة من القصدير. صبَّ فيها دهناً أخذه من الأمعاء، وذوبه فيها، وألقى فيها خرقة زرقاء. بعد أن فعل ذلك، دخل الغرفة التي كان كايريكي جالساً فيها.

---

(11) كان يعتبر غير لائق بالنسبة لكبار السن الكازاخ أن يسيروا برؤوس مكشوفة؛ بذلك يبين باكسي كاراكيني أنه هو سيد نفسه، وأنه هو من يضع قواعده ولا يهمه الرأي العام.

(12) شانيراك: هيكل قبة اليورت، وهو عبارة عن دائرة خشبية يبلغ قطرها أكثر من متر وذلك بحسب حجم اليورت.

خرج الناس المحتشدين في المنزل إلى الفناء. بعد مرور وقت، يعادل وقت غليان الحليب، خرج الباكسي مختنقاً من الدخان الذي دخل إلى حلقه. "أحضروا كبد الشاة السوداء. بها سوف أعالجه". أمسك الباكسي بالكبد، واندفع إلى غرفة كاريكي مطلقاً صراخاً وزعيقاً. أولئك الذين كانوا يسترقون النظر من خلال فتحات النافذة المغطاة بشريط فيلم أسودٍ، ومن فجوة بحجم العين بين دعامة الباب والجدار، أخبروا فيما بعد: "أوي، رعب حقيقي كان يحدث هناك! أوي، حتى الحديث عن ذلك هو مرعب! عندما دخل الباكسي الغرفة ممسكاً بكبد الشاة السوداء تحول فجأة إلى جمَّالٍ أسود ضخم، وأخذ يصرخ بشكل غاضب. في هذه اللحظة تحول كاريكي إلى تنين ضخم ومخيف. عندما تحول الباكسي إلى الرمح الأسود وألقى بنفسه عليه، تحول كاريكي إلى درعٍ وأخذ يصارع. عندها تحول الباكسي إلى قط أسود، وبدأ يقرأ الصلاوات، في حين بدأ كاريكي، الذي تحول إلى ثعبان أسودٍ، يفتنه. بدأ الباكسي، الذي تحوَّل إلى سوط ثخين، بجلد كاريكي بقوة، إلا أن كاريكي، الذي تحول إلى هراوة، أبعده بعيداً. لكن الباكسي اكتسب فجأة مظهر فتاة ترتدي فستاناً حالك السواد، بدأ بالتمايل والتلوي أمام كاريكا الذي سقط على يده الممدودة، في حين تحول باكسي إلى غراب أسود، وحلَّق بعيداً دون أن يعالج كاريكي".

بعد الباكسي الذي جاء إلى هنا ماشياً على الأرض وغادر محلقاً في السماء، أوقف مُلّا حصانه في القرية. "إنه قارئٌ حقيقي، يعرف القرآن كله عن ظهر قلب، إذا كان أي شخص يستطيع أن يخلص كاريكي من مرضه، فهذا الشخص هو وحده"، -قال فيما بينهم أهل قرية الرسّام الذين كانوا يشعرون بالقلق إزاء حالته. على الرغم من أن الملّا كان يبدو في مظهره رجلاً مسناً، ذا لحية كثيفة وطويلة حتى السرة، لكنه في الواقع كان رجلاً في منتصف العمر، عمره أكثر من أربعين عاماً بقليل، مشى بشكل قوي لدرجة أن حروف سرواله القصير كانت ترفرف أثناء المشي. تبين أنه رجل متكبر قليلاً، فعندما طلبوا منه بأدب قراءة الصلوات المكرسة لروح الأجداد، أسلاف كاريكي، غضب على الفور: "لم أحضر إلى هنا لمعالجة أرواح مريضة، وإنما لعلاج شخص مريض!". "أجل، بالطبع، سماحتكم، أنتم تعلمون أفضل، افعلوا ما ترونه مناسباً"، -بدون تذمر وافق الناس، الذين كانوا خائفين حتى الموت من المصيبة التي وقعت على رأس كاريكي.

أمسك الملّا بيده كاريكي الذي كان يجلس في غرفته ويحدق بهدوء في ورقة بيضاء في يده، وأخرجه. كان من الصعب التعرف على كاريكي المسكين.... كان وجهه هزيلاً شاحباً، وشعره متدلياً على أكتافه المنخفضة، وذقنه مغطاة بلحية، وعيناه غائرتين، وخدّاه عميقين، وأظافره طويلة، ولم تعد تميزه السمنة السابقة، إذ كان يعاني من الهزال التام هنا، وبدا أنحف وأطول من ذي قبل.

هل تؤلمك رأسك بشدة؟ سأله الملّا.

هز كاريكي برأسه.

يعني يؤلمك، -قال الملّا الذي كان يراقب كيف كان كاريكي يهز رأسه. بعد ذلك قرأ إحدى السور بشكل جميل.

نظر كاريكي ضاحكاً إلى الناس الذين أحاطوا به من جميع الجهات.

قام الملّا باستنتاجٍ قاطعٍ:

لقد رأيتم، إنه يضحك. لقد سكنه الجن. سوف أقرأ الصلوات، ثلاثة أيام وثلاث ليال سأقرأها.

لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ قرأ الملّا الصلوات دون توقف. لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال، بالكاد حبس أهل القرية دموعهم وهم يستمعون بتلهف لصوت الملّا العذب وهو يقرأ السور والآيات، ويقلّب صفحات المصحف.

في هذه الأثناء كان كاريكي يجلس بثبات على الحصان المجنَّح لإلهامه، السريع دون كلل. خلال هذه الأيام الثلاثة خلق صورة سماء، هبطت إلى سطح عينين واسعتي مذهلتين، تصبوان نحوها. رهيب! عينان سحرتا السماء نفسها....

أيها الناس، لا تلوموني -بعد ثلاثة أيام خاطب الملّا الجميع، -لقد فعلت كل ما كان في وسعي.

لم يتبق أي أثر لغرور الملّا، فقد أصبح لطيفاً ووديعاً. وفي الختام، محتفظاً بالتواضع والوداعة، قال:

لقد تبين أن الجني الذي سكنه كان قوياً، ولكن يبدو لي، أن المسافة إلى قمع هذه المحنة السوداء قد ذلّلت قليلاً. الأمل بالشفاء موجود. المريض المسكين يتملكه شغفٌ لمخلوقة أنثى، ترتدي نقاباً. إن شاء الله، إذا تزوج من مثل هذه المرأة الصالحة التي تخاف الله، فبمشيئة الله تعالى سيسير على الطريق الصحيح، وسيكون قادراً على التخلص تماماً من علّته ومرضه، ويصبح شخصاً عادياً. لذلك ساعدوا كاريكي، فمكان هذا الشاب في جماعتنا.

مولُديكي[13]، -ناشد الملا أهل توشيبولاك المتعاطفون والعاطفون، الذين يعاملون القريبين منهم كما لو كانوا أطفالهم، -نشكركم ألف مرة ومرة على حسن نواياكم وتعاطفكم الصادق!" لماذا تأخذ كيركي، دعه يبقى معنا.

ليكن كما تشاؤون، -وافق الملّا، فرحاً في قلبه أنه تمكن من أن يخلص رأسه بسهولة من عبء كاريكي.

بعد أن غادر الملّا، بدأ أقران كاريكي في الالتزام بالنصيحة.

الشاب الماكر الذي كان يقود الرسّام إلى القرى حيث كان هناك فتيات للزواج، توجه إلى الجميع قائلاً:

لقد أعطى ذلك الرجل نصيحة ذكية. يجب علينا أن نزوج هذا الأخرق، مهما كلف الأمر. تذكروا، مولُديكي قال: "مع كيسٍ على رأسها". إنه يحتاج إلى امرأة مهما كان الكيس الذي على رأسها.

ليس كيساً، وإنما "نقاب"-صحَّح أحدهم.

منذ ذلك اليوم أخذ الأصدقاء-الأقران لكاريكي يجوبون جميع القرى المجاورة بحثاً عن فتاة ترتدي نقاباً، ولسوء الحظ لم يعثروا على مثل هذه الفتاة في الريف، وبعد أن بذلوا الكثير من الجهد، عادوا صفر اليدين.

في المدينة لم يكن عدد النسوة اللواتي يرتدين غطاء رأس أسوداً قليلاً، إلا أن أقران كاريكي الذين عرفوا

(13) مولُديكي: صيغة الاحترام في مخاطبة الملّا.

كيفية العثور على لغة مشتركة مع أي من ممثلات الجنس اللطيف، لم يعجبوهن، ففشلوا في التقارب مع من نشأ في بيئة معزولة، وترعرع في ظل تقاليدٍ مختلفة تماماً.

كل واحدة من الفتيات اللواتي تمكن الشباب من البدء بالحديث معهن، أدخلتهم في حالة من التخبط والتشويش بطرحها السؤال ذاته: "هل صديقكم على الطريق الصحيح؟" عندها فقد الشباب كل أمل. وبعد أن وصلوا إلى اليأس الكامل من السؤال مراراً وتكراراً لكل من يصادفهم، صادفوا أخيرا فتاة مشردة.

نشأت بويجيتكان يتيمة ال"أبو"ين. والفتاة البائسة التي كانت في حالة يائسة، لا تعرف إلى أين تذهب وماذا تفعل، كانت في الواقع فتاة ذكية، وعندما استمعت بعناية عن كاريكي من الشباب القرويين الصريحين، شعرت بالمواساة والتعاطف معه، وصدّقت وعود الشبان عن أنهم سيعتنون بها بكل وسيلة، ووافقت على ارتداء النقاب. وبذلك، بعد أن اعتبر أقران كاريكي أن مهمتهم أنجزت، توجهوا إلى القرية يحملون أخباراً طيبة.

البشارة، يا أهل القرية، البشارة! إلى قريتنا ستأتي ذات الحسناء في الثوب الأسود التي شاهدها كاريكي على شاشة التلفزيون! ستأتي العروس! ستأتي الفتاة ذات العينين السوداوين التي طال انتظارها، والتي أوصلت كاريكي إلى حد الجنون!

اتضح أن الخبر السار الذي لم يلهب أهل القرية فحسب، بل الوديان والجبال المجاورة أيضاً، أعاد الحياة إلى كاريكي.

غمرت السعادة الأم المسنة، فبدأت تجري على الفور، فتحت غطاء صندوقها الأبيض، وفتشت في كل ما كان فيه، ووزعت على الشابات اللواتي كن يأتين إلى المنزل كل مجوهراتها الغالية، ولم تبخل بالهدايا التي يفترض، حسب العرف، أن تعطى في مثل هذه الحالات، ولم تخفِ النسوة الموقرات تعابيرهن الدامعة التي أثارها في فرحهن الصادق.

كان كاريكي سعيداً أيضاً. "آهٍ، كم هم رائعون رفاقي الطيبون، بمقدورهم أن يفعلوا ما تريد، يفتشون، ويعثرون كل شيء" -قال كيركي ضاحكاً من قلبه.

كذلك بحماس شديد تحدث كبار السن من الرجال فيما بينهم عن شبابهم.

مع ذلك، وعلى الرغم من كل ذلك، الفرحة التي غمرت القرويين البسطاء، سرعان ما خمدت، كما لو أنها أُطفأت في حوض من ماء بارد. ما أن دخلت الفتاة صاحبة العينين السوداوين من المدخل، ورأى كيريكي المخلوقة الجميلة التي ترتدي الفستان الأسود، صرخ: "ليست هي! يا شباب، الفتاة التي قمتم بإحضارها، لا تشبه الفتاة التي رأيها". "لا، إنها هي ذاتها. افتح عينيك أوسع، وانظر بعناية!"، -صرخ واحد من الأصدقاء- الأقران الذين استنفذوا آخر قواهم في السير في شوارع المدينة الضخمة من أجل كايرغيلدي، -انظر بعناية، هل غطت عينيك غشاوة حتى لا ترى عينيها السوداوين؟ -بعد أن قال ذلك بصوت عالٍ، نزع عن وجه الفتاة الغطاء الأسود. عندما سقط الغطاء، إلى كاريكي المتجهم، نظرت العينان الواسعتان للفتاة الجميلة كملاك.

مرت أشهر، مرت سنوات. أبحرت السحب الضخمة على القمم الشاهقة لجونغار آلاتاو. من جديد دخلت حياة القرية في إيقاعها الحيوي. لا شيء تغير. فقط كاريكي تغير. نعم، بالفعل، لم تعد تشغله أو تسحره العيون، كما في السابق. لكنه، بعد أن دخل في هيئة الشخص الحزين المنطوي على ذاته، يمشي وعيناه تحدقان في مكان ما بعيد. الآن لا يبحث عنه أقرانه، توقفوا عن إزعاجه بطلبات رسم صورهم. عندما يشاهدون كاريكي، لا يذكر أحد من أهل القرية، اللوحات ولو بكلمة واحدة، فهم يخشون "أن يتملك المسكين الهوس السابق من جديد".

في واحد من هذه الأيام انتشرت شائعة: "يقولون إنه خطر على بال كاريكي أن يقضي ليلة عند نبع تاميشبولاك الذي يقع عند منابع توشيولاك. نعم، وكاريكي نفسه وسط الناس قال أكثر من مرة: "في تاميشبولاك، في تاميشبولاك وجدت ما كنت أبحث عنه"، حتى اختفي في أحد الأيام في مكان ما. اختفي. إلى أين أذهب، لا أحد يعرف.

أمه العجوز بكت بمرارة من الحزن المتراكم في روحها: "أي مصيبة حلّت بي، أنا العجوز البائسة. لا أعرف ما إذا كان الجني قد دفعه إلى مكان ما، أو أن الشيطان سحبه خلفه، ولكن ها قد مرَّ أسبوع، وقريباً سيهل الهلال، وكاريكي ليس بقربي، لا أعرف أين هو. أوه، يا ناسي، يا أهلي، ساعدوني، ساعدوني، اعثروا على الأقل على عظام مُهيري كاريكي".

مرة أخرى زمجر وهدّر توشيبولاك. استولى الرعب على القرية بأكملها. بعد جوتوكاو-رثاء كاريكي التذكاري المخيف حتى الموت، هرع كل الناس للبحث عنه، كما لو كانت القرية قد أدركت سوء الحظ والحزن الشامل الذي ألم بها.

إلا أن البحث لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما عثروا على كاريكي. بالقرب من نبع تامشيبولاك. كان واحداً من إبداعات الخالق الرائعة. منحدر هائل، من سطحه، في فصلي الشتاء والصيف، في جدولين رقيقين، كدموع من عينين، تدفقت المياه واستقرت أمام غابة ساريتاو الكثيفة. والمكان الذي يتدفق منه الجدولان، سبحان الله، تحول إلى عين، إلى عينين واسعتين حقيقيتين، تدفقت وسالت حبات الرذاذ من بؤبؤيهما، كالدموع. عندما شاهد أهالي القرية هذه المعجزة، شربوا بعض الماء، وانحنوا لها.

مرت الأيام الحارة لساراش تاميز[14] ، واقترب الخريف. عندما ظهرت الشائعات حول "العينين" التي رسمهما كيريكي بشكل معبّر على الجرف الصخري الذي تفجر منه نبع تامشيبولاك، وانتقلت من قرية إلى قرية، ووصلت إلى المدن البعيدة، وصلت إلى مدرسة قرية تامشيبولاك غولتونيك[15] –معلمة اللغة الإنجليزية الشابة....

.... مساء أماتي. شبان من توشيبولاك اختبأوا من صخب المدينة، فجلسوا في مطعم دافئ يحيطون بابن قريتهم الكاتب الذي يكبرهم سناً، وتحدثوا بحيوية. بعد الاستفسار عن أهل القرية وأحوالهم، تطرق الحديث إلى "عين" تامشيبولاك.

كيف كاريكي هناك، هل هدأ؟ –سأل الكاتب.

نعم، أصبح كاريكي فارساً شجاعاً، –أجاب بمرح واحد من الشبان، وكان واحداً من أقرباء الكاتب إلا أنه أصغر منه سناً، وبالتالي سمح لنفسه بالتحدث إليه بجرأة، –يدير مزرعته بإحكام. رب عائلة مثالي.

هل لديه عائلة؟ هل يعيش مع صاحبة العينين السوداوين التي كان مولعاً بها بشدة؟

لا، يا آغا. اسم ذات العينين السوداوين هذه غولبارشين. أصبحت أختاً لكاريكي. أنت تعرف أن كاريكي شخص نقي القلب، أخذ تحت رعايته اليتيمة المشردة، وساعدها على تحقيق كل ما تريده. ألبسها الحرير والأقمشة المطرزة، وزوّجها بيديه. في حين التقى هو .... بمعشوقته.... التي رآها على شاشة التلفزيون.

لا تقل، لديها اسم ببساطة مذهل، –تدخل بخفة في حديثهم شاب آخر ذكي من توشيبولاك. – غولتونيك. على الرغم من أنها تعثرت، على الرغم من أنها ذاقت الكثير في حياتها، إلا أنها لم تنحنِ تحت ضربات القدر الثقيلة، صمدت بقوة، ووجدت سعادتها. ووجدتها في قريتنا –في المزرعة.

بمجرد أن رآها كاريكي، أخذها على الفور إلى نبع تامشيبولاك، وأراها "العينين"، "عيني" تامشيبولاك، وقال لها: "هاتان هما عيناك". يبدو أنهما التقيا، وأقسما أن يبقيان معاً. هي الآن زوجة أخيك الأصغر كايكيلدي، وأم طفليه. بعد أن حصلت على مباركة أمنا العجوز، أغدقت بحنانها عليها، وأحاطتها بالعناية والاهتمام، جذبت إلى بيت صديقنا الرسّام الثروة، وملأته بالنور.

بعد أن سمع هذه الكلمات الحماسية التي أثارت روحه، ابتسم الكاتب بلطف، وقال:

بجماليون. يبدو أن على "بجماليون" من مزرعتنا هبطت نعمة آلهة الحب نفسها – أفروديت.

(14) ساراش تاميز: نهاية يوليو، بداية أغسطس.

(15) غولتينيك: اسم، يعني "الزهرة النقية"، "زهرة الربيع".

يوري سيريبريانسكي

(ولُد عام 1975)



- ولُد بمدينة ألماتي وتخرج في جامعة الفارابي الوطنية الكازاخية تخصص علم الكيمياء البيئى. وحصل على دورات أدبية تابعة للصندوق الاجتماعي "موساجيت". كما درس بورشة الشعر "TobiasaHill"، "PascalaPetit" في بريطانيا.
- عمل رئيسا لتحرير مجلة "ألماتينسكي كورير"، ومنسقًا للترجمة الأدبية لبعثة الولايات المتحدة الأمريكية في كازاخستان، وعضوا بنادي "البين" الكازاخي. كما كان عضوا فخريا في "Internationa lWriting Residency" بجامعة ولاية آيوا الأمريكية عام 2017.
- قام بتأليف العديد من كتب النثر مثل "يا كارافاجيو"، "الوجهة. الطريق الرعوي"، "اللغة الروسية الركيكة"، "الحكايات الكازاخية".
- ألف ديوان شعر "المخطوطة التي وجدتها في رأسي".

- أختبر الشاعر مواهبه في مجال التلحين من خلال الأسلوب والأنواع، وقد حصل كتابه "الحكايات الكازاخية" على جائزة أفضل كتاب بمهرجان "طريق الحرير" عام 2017، وتم اعتماده ضمن المناهج الدراسية في الأدب الروسي بكلية "ReedCollege" بمدينة بورتلاند في الولايات المتحدة.
- يتكون كتابه الجديد بعنوان "ألتينشاش" من جزءين الأول خيالي والآخر واقعي، حيث يعتبر الكتاب بمثابة سرد فني ووثائقي لمصير الشعب البولندي والأسر البولندية التي تم ترحيلها إلى كازاخستان.
- تُنشر أعماله في المجلات الأدبية الكازاخية والأجنبية مثل "الفضاء"، "ألماتي الأدبية"، "نادي الكتاب"، "صداقة الشعوب"، "العالم الجديد"، "الراية"، "الليل والنهار"، "الشباب". كما تنشر أعماله في المختارات الشعرية مثل "كازاخستان، روسيا"، وعلى البوابات الأدبية على الإنترنت مثل "ميجاليت"، "الأدب".
- تُرجمت أعماله إلى اللغات الكازاخية والبولندية والإنجليزية.
- وفي الوقت الحالى يعمل على رسالة ماجستير بعنوان "العلاقات بين الثقافات في أوروبا" في تخصص الدراسات الثقافية بجامعة وارميا ومازوري بمدينة أولشتين في بولندا.
- قام بترجمة أشعار مالجوجاتا ليبد وقصيدتين من قصائد جونار إيكليف إلى اللغة الروسية.
- حصل عام 2010 على جائزة "روسيا" في تخصص "النثر القصير" على قصته " الوجهة. الطريق الرعوي"، وفي عام 2014 على قصة "براجاكي".

راكبُ السلحفاة

أودُّ، أو ربما أودُّ جدًا، لو أن هذه الحادثة انتقلت إلى أغسطس، فأغسطس أجمل، وفيه يوم ميلادي الذي كان يأتي دائمًا في الإجازة، ولم يكن أحد حاضرًا، فكلهم غادروا.

سأحدثكم عن نهاية شهر مارس، ففي نهاية مارس تحديدًا كنت أمشي على طول الرصيف إلى "البازار الأخضر"، من شجرة إلى شجرة، عبر الزقاق الذي لا يزال بدون سقف أخضر، مع براعم أزهرت لتوها، ولكن يبدو أن ظلال التيجان لا تغطي الرصيف، وقسمًا من أسفلت طريق السيارات فقط، بل المنزل الخشبي المنحوت ذو الدور الواحد أيضًا.

بالطبع لم تكن ظلالًا، بل هي بِرَكٌ بقيت بعد المطر الذي التهم آثار الثلج على العشب.

كنت ألتف حول البرك كسفينة تناور بين الصخور، ولكن بالعكس، ناورت بين البحار، وكان بالإمكان ألا يصل حذائي إلى الوجهة المطلوبة، قد يسقط في الماء، رغبت في التفكير هكذا، أنا رحالة، ومخزون الأحذية لدي يقتصر فقط على هذا الحذاء، المجرَّب، المستهلَك أيضا، جبتُ به الكثير من البلدان... نعم، كما لو أني جبتها .

كانت السيارات قليلة جدًا، والجزء المخصص لها تم بناؤه بشكل فضفاض، هكذا فكرت عندما توقفتُ لأشاهد، بل بالأحرى توقفت لأرى.

على طريق السيارات في الاتجاه المعاكس لي، كان هناك رجل يركب على ظهر سلحفاة ضخمة بقوقعتها نصف الدائرية، ما علينا، أيًا كان ذلك الرجل، كان انتباهي آنذاك منصبًا بأكمله على السلحفاة التي لو لم يكن الأمر كذلك، لما نظر إليها أحد.

كانت تخطو جاهدة، كما لو كانت في استعراض ما، علاوة على ذلك، كانت قبل أن تخطو، ترفع رجلها الأمامية عاليًا وكأنها تلقي التحية، وبعد أن تضع رجلها على الأسفلت تتجمد لثانية، قبل أن ترفع الرجل الأخرى.

على ظهرها جلس رجل جدّي بأنفه الطويل، يرتدي سترة بلا أكمام، ولم يكن سرواله واسعًا، إلا من الجزء السفلي، كان يشبه بوراتينو، الذي لسبب ما قررت السلحفاة تورتيلا أن تحمله.

يتحركان ببطء، المارة يتوقفون لدقيقة، ثم يتابعون طريقهم. فيمَ كانوا يفكرون؟ ربما ينزّهون سلحفاة من حديقة الحيوان، أمر عادي، فهي ليست أسدًا.

من الخلف اقتربت سيارة، لم يستخدم سائقها البوق، تجاوز السلحفاة بحذرٍ، وبعد ذلك ضغط على الوقود مسرعًا، لم تهتم السلحفاة، بدا وكأنها هي وحدها ذاهبة إلى مكان ما، في حين كان الرجل جالسًا باسترخاء.

لا أعرف لماذا، لكني لم أغادر، لم أكتفِ بعدم المغادرة، لكن طرحت سؤالًا في داخلي، هناك شيء ما يبدأ في اللحظات الغريبة من حياتي بالتحرك، وأيضًا يبدأ كتفي يحكّني، أحكّه، وبسبب ذلك يبدأ شيء آخر يحكّني، ولكن بعد ذلك أفعل ما أفعله.

طرحت سؤالًا:

- إلى أين أنتم ذاهبون؟

حتى إني لم أعرف صوتي، فالقصة تكمن في أنه يكبر بشكل أسرع مني أنا نفسي، وغالبًا لا أميزه من المرة الأولى.

- كيف لي أن أعرف، فأنا أمتطي سلحفاة حكيمة عجوزًا، وهي تعرف على وجه اليقين، إما أن الأمر سرّ، وإما أنها لا تستطيع الكلام.

ضحك الرجل ذو القبعة.

- مفهوم، لديكم سلحفاة جيدة.

قلت ذلك مثلما يقولون على سبيل المثال: "لديك حقيبة جيدة"، أو "لديك معطف جيد"، ربما لهذا السبب غضب الرجل ذو القبعة، وصاح فجأة:

- إنها ليست سلحفاتي، إنها مجرد سلحفاة! قد تكون هي مالكتي!

- كيف ذلك؟

- دعتني السلحفاة للتنزه، وأنا ضيفها! أشاهد معالم هذه المدينة.

سرت خلفهما بخطوات جانبية صغيرة، بدون أن أغوص في البرك، وعلى الرغم من أن السلحفاة كانت بطيئة؛ فإنها خلال وقت حديثنا اجتازت مترين بدون أن تولينني أي اهتمام.

- وكيف عرفتم أنكم ضيفها، وأنها دعتكم إلى مكان ما؟

استدار إليَّ الرجل ليشارك بالحديث بشكل أوضح، كان يتحدث معي كما لو كنت كبيرًا، وبصراحة كان ذلك غريبًا بالنسبة لي، فنادرًا ما تحدثوا معي هكذا.

- ربما تحسبونني من كوكب آخر؟ أنا أفهم ذلك، راكب على سلحفاة، أجل، ولكن أن أتنزه عليها هذا شيء، والشيء المختلف لو أنها سارت وحدها، فقط تخيل وفكر، هل ستكون قادرة على المشي هنا، هنا في قلب المدينة وفي مقتبل الربيع!

قلت:

- أعتقد أنهم كانوا سيأخذونها إلى حديقة الحيوان، وسوف يتطلَّب الأمر سيارة كبيرة.

عندها نزل الرجل ذو القبعة عن السلحفاة، ووقف إلى جانبي بعد أن تمكن بخفة من تحاشي التعثر بسرواله، بدا الأمر سيئًا، اتضح أني لا أصل إلى خصره، لكنه لم يعر لذلك انتباهًا على الإطلاق.

- انظر أيها الشاب، أنا لست من كوكب آخر.

- لم أقل بأنكم من كوكب آخر.

كانت تفوح منه رائحة الطلاء.

- ومن أنتم إذن؟

سرنا جنبًا إلى جنب، تاركين في مرمى نظرنا السلحفاة التي يبدو أنها لم تلحظ أن الراكب قد قفز عن ظهرها.

- من فضلكم استخدموا "أنت" في مخاطبتي، فأنا طفل. وعلى الرغم من أنها رفعٌ للكلفة، لكن يعجبني كيف تتحدثون معي بطريقة الكبار.

- مذهل! أنت تعرف معنى كلمة"رفع الكلفة"! لقد قابلت طفلًا من كوكب آخر، يا نااااااااااااااااااااس.

مط حروف الكلمة بصوت عالٍ لدرجة أنه لو لم يضحك بعد ذلك، لبدأ المارة بطرح الأسئلة.

- أنا تلميذ في مدرسة ألماتي، لست تلميذًا متميزًا، وإنما...

اعتقدت فجأة أنه ساحر ما، وسيكون قادرًا على مساعدتي في الرياضيات.

-وفي أي موادّ أنت لست متميزًا يا صديقي؟

لم أتمكن من الإجابة في أي موادٍ؛ فقد دوت في أذني صافرة الشرطي، إذ اقتربت السلحفاة من مفترق الطرق بدون إعطاء أي علامات مميزة، كذلك لم تكن لديها بالطبع أرقام حكومية، وها هو الشرطي منزعجٌ.

- كل شيء على ما يرام، أيها الرفيق الشرطي، هذه السلحفاة معنا"!

تطلع إلينا الشرطي، وبنظرة صارمة جال على القبعة والسروال، وشارة أكتوبر على صدري، وأومأ إلينا.

عبرنا الطريق وشاهدنا كيف استدارت السلحفاة إلى اليسار، ثم عبرنا مرة أخرى الطريق؛ الطريق نفسه الذي كنا نمشي فيه، وأخذنا ننتظرها تحت شجرة، لكن السلحفاة قررت عدم المضي أكثر في الجزء المخصص للسيارات، اتجهت مباشرة إلينا، استدرنا، كانت خلفنا حديقة كبيرة مع مقاعد وعشب أخضر من العام الماضي، اتجهت إليها السلحفاة أيضًا، عندما عبرت الرصيف ناظرة إلى الأمام مباشرة؛ قام جليسي بإيماءة إلى اثنين من المارة طالبًا منهما السماح لها بالمرور، وحتى بدون إيماءة سمحا لها بذلك، كانا رجلا وامرأة متشابكي الأيدي،كانا يتنزهان أيضًا، فاليوم الأحد، يوم عطلة.

عندما وجدتِ السلحفاةُ نفسها في منتصف المرّج؛ نظرت حولها وبدأت ترعى،عندها جلسنا على المقعد بحيث تكون وراءنا، لقد أصبحنا بالفعل كما لو كنا صديقين، ربما لم يستطع أن يتذكر أين توقفت محادثتنا، وقال:

-أنا رسام، أعمل في المسرح.

-هل تمزحون؟ وماذا يفعل الرسام في المسرح؟ هل ترسمون صور الفنانين؟

تخيلت طابورًا من الفنانين على الدَّرَج بمظهرهم البهي ينتظرون يومًا كاملًا دورهم للصورة.

-أنا أصمم المسرح؛ كل مسرحية تحتاج إلى مشهد خاص بها: ديكور، وخلفية.

-لديكم مسرحٌ خاصٌ، وقبعة، وسلحفاة ضخمة. هذا يذكرني بقصة.

لسبب ما اعتقدت أنه لن يغضب لو مزحت أنا قليلًا أيضًا.

استطردت:

- حكاية بوراتينو.

قال ضاحكًا:

- المسرح ليس لي، أنا أعمل فيه، أنا بالأحرى البابا كارلو، كثير من العمل.

-وهل الفنانون يعملون؟ مجرد رسم اللوحات متعة كبيرة! من يعمل هم البناءون.

-وبرأيك، لماذا يدفع المسرح لي المال؟

التفتُّ للنظر إلى السلحفاة، لأنه كان عليَّ أن أفكر، وفجأة دوت من تحت المقاعد رياح قوية، حاملة أوراق العام الماضي القديمة والغبار، أسقطت سروالينا، واخترق الغبار أعيننا وأنفينا، نفضنا الغبار، وفوجئنا بالسلحفاة تخرج من الحديقة من الجانب الآخر، بخطوات سريعة قطعنا الحديقة على الرصيف، كان كلبٌ متوسط الحجم ينبح على السلحفاة، وصاحبته تحاول أن تسحبه بمقوده إلى الزقاق.

سارت السلحفاة على طول الجزء المخصص للسيارات، ونحن نتبعها.

أخبرني كثيرًا عن اللوحات والديكورات التي يجهزها للمسرح، وقال إنه عندما تظهر لدى الفنان فكرة لوحة؛ فإنها تنخر في جمجمته، حتى إنه أتى بحركة تمثيلية مضحكة للغاية ليعبر عما يود قوله، فسقطت القبعة.

-ربما تكونون متعَبين، لم لا تركبون على السلحفاة ثانية، وأنا سأسير جانبًا؟ أنا لست متعبًا.

- لقد وصلنا، ها هي حديقة الحيوانات.

الترام الذي استدار على الطريق الدائرية دق جرسه بشكل ودي لينبه السلحفاة، في حين كانت هي، وبقدر كبير من الاعتزاز لم يفقدها انتباهها، تجتاز قضبان السكة الحديدية.

كما اتفقنا، انتظرت عند البوابة حتى قام هو بتسليمها لموظفي حديقة الحيوان.

يا لها من بوابة رائعة! ساحرة، بوابة قلعة، بيضاء، على شكل قوس، مع جدران سميكة وسور آمن، فقط خلف البوابة لم تكن هناك قلعة، وإنما بدأت الدرجات العالية للدرج المؤدي إلى حديقة الحيوان، هنا سيكون من الصعب جدًا على السلحفاة أن تتسلق، أما أنا، ففي كل مرة أتجاوز والديّ مسرعًا إلى الأعلى.

اعتقدت أنه سيقودني الى الداخل، لكنه خرج للتو ليودعني.

- هل تعرف أين محطة الترام؟

- بالطبع، أعرف، جئت هنا مائة مرة!

- حسنًا، أسرع إذن، فقد حلَّ المساء، قالها وهو يجتاز البوابة البيضاء.

- ومتى ستخرجون للتنزه مع السلحفاة في المرة المقبلة؟

أردت حقًا ديمومة التواصل مع هذا الرسام، لذلك سألت.

- يقول الأطباء إني بحاجة إلى دخول المستشفي حتى نهاية أبريل، وفي مايو سترغب السلحفاة مرة أخرى بالتنزه والنظر إلى الأوراق المتدلية، وليس فقط النظر.

ثم أردف ضاحكًا:

-في مايو! يوم الأحد!

ركبت الترام، وضغطت بوجهي على زجاج النافذة، كما كنت أحب، ولو نفخت على الزجاج، لصنع البخار سحابة غير شفافة، ويمكن عندها الرسم. أنتم تعرفون هذا بالطبع. أحب الرسم على النوافذ، حاولت تصوير زخرفة ما، ولكن لسبب ما جاءت بوابة القلعة؛ حديقة الحيوان. حاولت أن أرسم فيها الرجل ذا القبعة، لكني بشكل عام لا أجيد رسم الأشخاص.

أمام البوابة رسمت سلحفاة كبيرة وأنا أمتطيه

{ المصدر: نقلاً عن المجموعة القصصية "حكايات كازاخستان"، من إصدارات "أرونا" للنشر }

حقوق التأليف والنشر

إنّ توفير الحماية لكافة حقوق المُلكيّة الفكريّة يُعدّ من الحقوق التابعة لحقوق الإنسان العالميّة؛ حيث أشارت المادة 27 من إعلان حقوق الإنسان إلى حق توفير الحماية للمصالح الماديّة والمعنويّة الخاصة بالأفراد والمرتبطة بالمُؤلفات الفنيّة أو الأدبيّة أو العلميّة.

ويضاف إلى ذلك بنود أهم ثلاث اتفاقيات عالمية لحماية الملكية الفكرية، وهي: اتفاقية باريس للملكية الصناعية عام 1883، واتفاقية برن للملكية الأدبية عام 1886، واتفاقية إنشاء المنظمة العالمية للملكية الفكرية (وايبو) استكهولم 1967.

وتعتمد هذه الحماية على أهميتها المرتبطة مع الحاجات الإنسانيّة التي تسعى إلى الابتكار والإبداع في المجالات الحياتيّة المُختلفة؛ حيث يُساهم كلّ منهما في تعزيز التطور الثقافيّ، والاقتصاديّ، والعلميّ، والتقنيّ، وتُساعد جميعها على تحسين حياة الإنسان المعيشيّة.وهناك العديد من أنواع الانتهاكات التي أثّرت على حقوق المُلكيّة الفكريّة، وتختلف وفقاً لطبيعة الحقوق التي تُهاجمها، فالحقوق الخاصة بالمؤلفين مثل المُصنفات الفنيّة والأدبيّة من الممكن أن تتعرّض للهجوم والسرقة؛ عن طريق بيعها أو تأجيرها أو نشرها بطُرقٍ غير مُرخصةٍ من قبل صاحب المُصنفات، أمّا الحقوق الخاصة بالعلامات التجاريّة، والتصميمات الصناعيّة، والاختراعات، فتتعرّض للهجوم من خلال تقليدها بطُرقٍ غير مشروعةٍ أو قرصنتها.

وفي هذا الخصوص، يعلن المكتب الوطني للترجمة في جمهورية كازاخستان، بأن صحفات هذا الكتاب تعتبر محمية بموجب حقوق التأليف والنشر، حيث يحتفظ الناشر بجميع حقوق الطبع والنشر والملكية الفكرية وغيرها من المعلومات الواردة في هذا الكتاب.

لذلك، يمنع منعا باتا أي استخدام غير مصرح به، أو الاستنساخ أو طباعة المعلومات أوالمحتويات بطرق عادية أو إلكترونية، كما لا يمكن أستخدام أي نصوص أو مقتطفات من محتويات هذا الكتاب دون موافقة خطية من الناشر.

© Ұлттық аударма бюросы» қоғамдық қоры
(NATIONAL BUREAU OF TRANSLATIONS) 2019

تم إصدار هذا الكتاب بتكليف من وزارة الثقافة والرياضة في جمهورية كازاخستان

يتشرف "المكتب الوطني للترجمة في كازاخستان، وميديا هب إنترناشيونال، دبي"،
بتقديم أسمى آيات الشكر والتقدير والاحترام والعرفان إلى:

السيد / مارات تازين، رئيس اللجنة الوطنية لبرنامج "روحاني جانجيرو"،

والسيدة/ عايدة بالاييف، أمين اللجنة الوطنية، لبرنامج "روحاني جانجيرو".

وذلك على ثقتهما الغالية، ودعمهما اللامحدود، مما ساهم بشكل كبير في إصدار هذا العمل الأدبي
الكازاخي الرائع، وما حققه من نجاحات عالمية.

والشكر موصول أيضاً إلى الأشخاص التالية أسماؤهم:

الإشراف والمتابعة: **محمد القصبي**

المترجم الرئيسي: **عماد محمود طحينة**

الترجمة المساعدة: **د. محمد رياض غلوش - د. عامر محمد أحمد**

المراجعة الأدبية: **الدكتور ماجد الصعيدي**

المراجعة اللغوية: **ناهد عبد الحق - علي عادل**

التصميم: **منال عبد القادر - عبد الغني إسماعيل**

الطباعة: **دار روائع الكتب للطباعة والنشر والتوزيع - أسطنبول/تركيا**

ISBN 978-967-14301-5-6

تم طباعة ١٠ آلاف نسخة من هذا الكتاب

NATIONAL
BUREAU
OF TRANSLATIONS

ميديا هب
MediaHub
International LLC

RÝHANI
JAŃGYRÝ

مُختارات مِن القِصص الكازاخيّة المُعاصِرة

تم نشر كتاب مختارات من الأدب الكازاخي (كتاب الشعر وكتاب القصص - النثر)، باللغات الست المعتمدة لدى منظمة الأمم المتحدة، كما تم طباعة وتوزيع 120 ألف نسخة، وتسليمها إلى الجامعات والمكتبات الوطنية ومراكز الأبحاث المنتشرة في 93 دولة حول العالم.

وقد تم نشر وتوزيع هذه الكتب عبر المؤسسات التالية:

- اللغة الإنجليزية من قِبل مطبعة (جامعة كامبريدج).
- اللغة الصينية من قِبل دار نشر (الإثني لجمهورية الصين).
- اللغة الفرنسية من قِبل دار نشر (ميشيل دي مولي).
- اللغة الروسية من قِبل مطبعة (جامعة موسكو الحكومية).
- اللغة الإسبانية من قِبل (دار نشر فيسور ليبروس).

الثقافة الكازاخية
المعاصرة في عصر العولمة

NATIONAL BUREAU OF TRANSLATIONS

تم إنجاز هذا العمل بإشراف ومتابعة من
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألسكو)

ميديا هب
MediaHub International LLC